

الشرق الأوسط

والحروب الصليبية

الجزء الأول

١٠٥٠ - ١١٩٣م

تأليف

السيد الباز العريني

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بكلية الآداب بجامعة القاهرة


A S R


ASR


A S R





الجزء الأول

١٠٥٠ - ١١٩٣ م

تأليف

السيد الباز العريني

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بكلية الآداب بجامعة القاهرة



القاهرة

مطبعة لجنة التأليف

محتويات الكتاب

الملاحق :

الخـــرائط :

مقدمة

اتخذ المؤرخون المحدثون فى كتابتهم عن الحروب الصليبية اتجاهين : يتعلق الأول منهما بامتداد الحد الزمنى ، حتى شمل دراسة ما سبق القرن الحادى عشر من أحداث ، وما تلى سقوط عكا سنة ١٢٩١ ، التى تعتبر آخر ما تبقى للصليبيين من ممتلكات فى الشرق ، مما جرت تسميته بالحروب الصليبية المتأخرة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر . أما الاتجاه الثانى فنبع من ازدياد الاهتمام فى السنوات الأخيرة بالمظاهر الحضارية لما لها من تأثير فى توجيه الحملات الصليبية ، وما ترتب عليها من نمو الإمارات اللاتينية ، وما قام بها من النظم والتنظيمات .

وهذا الجزء الذى يصف ما يصح تسميته بالعصر الكلاسيكى للحروب الصليبية ويعالج فترة تبلغ نحو ١٥٠ سنة تنتهى سنة ١١٩٣ ، ويشرح هذين الاتجاهين فى الشرق والغرب سواء . إذ أن الشرق الأوسط شهد أواخر القرن الحادى عشر حركة استعمارية من قبل الغرب لم يشهد لها مثيلا فى العصور الوسطى ، واتخذت الدين ستاراً لإخفاء ما انطوت عليه من المطامع والأغراض . وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية تعتبر أخطر المغامرات التى أقدم عليها المحاربون المسيحيون وأكثرها إثارة ، فلا زالت تؤلف حقيقة ثابتة فى العصور الوسطى ، إذ أن مراكز الحضارة استقرت قبل نشوب الحروب الصليبية فى العالم الإسلامى وفى بيزنطة ، بينما غلب على غرب أوربا النظام الإقطاعى ، فلما ركدت ريح الحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر ، اختفت فى أوربا ما اشتهرت به فى مستهل الحروب الصليبية من الروح الدينية والتفكير فى الحياة الأخرى ، وسيطر عليها العلمانية والدنيوية وانصرفت إلى دراسة القانون والفلسفة .

ففى العالم المسيحى اجتمع فى الحرب الصليبية الأولى مظهران دينيان أساسيان ، الحج والحرب المقدسة ، والواضح أن الحج أقدم المظهرين إذ يرجع إلى بداية المسيحية ، وكلما نما الحج وتطور ، لقى التوجيه والاهتمام من الكنيسة ، ثم صار مظهراً من مظاهر التوبة والاستغفار ، وتضاعفت قيمة الحج لأنه هيأ للحاج ميزة الوقوف بالأرض المقدسة . وبتأثير الحركة الكلونية التى بدأت فى القرن العاشر ازداد مسير الحجاج . أما كيف تحول مسير الحجاج إلى الحرب المقدسة فإن ذلك يعتبر حقيقة يفسرها ما قامت به الكنيسة أثناء القرن الحادى عشر من محاولات لنبذ الحروب الخاصة الناشبة بين أمراء الإقطاع والعمل على توجيهها ، ضد غير المسيحيين . والواضح أن هذه الفكرة تطورت فى الغرب ، على الرغم من أن الأباطرة البيزنطيين دأبوا على قتال جيرانهم من غير المسيحيين . واستهوت فكرة الحرب الصليبية أباطرتهم العسكريين فى القرن العاشر الميلادى ، ومع ذلك فإن بيزنطة درجت على أن تلتمس من الوسائل الحربية والدبلوماسية مايكفل لها المحافظة على كيانها ، على الرغم من الاختلاف الدينى والمذهبى ، فكان موقفها من الحركة الصليبية يتوقف على ما يربطها بالمدن الإيطالية وسائر القوى بإيطاليا من علاقة ودية أو عدائية ، وعلى ما كان بينها من علاقات تقليدية مع شعوب وإمارات الشرق الأوسط ، وعلى ما تزعمه لنفسها من حقوق فى حماية المسيحيين فى الشرق . فازدياد سلطة البابوية التى نبتت من الحركة الكلونية وحرص البابا على أن يخضع لسلطانه جميع المسيحيين ويشترك فى ذلك الملوك والأمراء والفرسان ، شجعه على أن يسعى إلى نشر نفوذه خارج العالم المسيحى . وترتب على ذلك أن ما حدث فى القرن الحادى عشر من القتال بين المسلمين والمسيحيين ، فى أسبانيا ، وصقلية ، وجنوب إيطاليا ، اتخذ صفة صليبية ، أى أن هذه الحروب نشبت قبل الحروب الصليبية المعروفة . والواقع أن البابوية قامت بدور كبير فى توجيه الفرسان

وحشدهم لمهاجمة المسلمين ، فالحرب الصليبية ليست إلا الوسيلة للوصول إلى البيت المقدس .

ولم تكن الحرب المقدسة هى كل شيء ، فلابد أنه حدث فى الغرب من الأمور ما يفوق فكرة الحرب المقدسة ، ويستدعى النهوض للمبادرة والقتال ، إذ أن النظام الإقطاعى فى أوربا يدعو للتوسع والسيطرة والقتال ، فلم تجد نفعاً فكرة سلام الله وهدنة الله ، وما لجأت إليه الكنيسة من فرض قيود على المبارزات لم يؤد إلى نتيجة إيجابية ، ولذا حرصت الكنيسة على أن تشجع الفرسان على قتال المسلمين ، فيشبع الفارس بذلك نزعته الحربية ، وينال الخلاص التام ، والتطهير من الذنوب ، وهو ما كان يسعى إليه بشدة الجانب الروحى من طبيعته .

ولم يكن التجار الإيطاليون من دعاة السلام ، فما قامت به جنوة وبيزا من مهاجمة المسلمين فى البحر المتوسط فى سردينيا وشمال أفريقيا ، جعل الحرب مهنة مقبولة لتحقيق الأغراض التجارية . أما توسع النرمان فى صقلية فلقى من موافقة الكنيسة ما لقيته حركة الاسترداد فى أسبانيا . فلما تحدث البابا أواخر القرن الحادى عشر إلى المسيحيين بالغرب ، فإنه ما لمسه من استجابة إنما يصور خصائص حضارة أوربا الإقطاعية بما تنطوى عليه من نشاط وحماس دينى ونزوع للقتال .

وما كانت ترمى إليه البابوية من إقامة حكومة تيوقراطية فى الشرق ، تجمع بين السلطتين الزمنيه والروحية ، لم يكن إلا أملا بددته قوة الأحداث والمطامع الدنيوية والتجارية ، فحقق الأمراء أطماعهم بما أنشأوه من إمارات فى الشرق الأوسط ، وظفرت المدن الإيطالية بما كانت تبتغيه من حقوق وامتيازات فى الأملاك الصليبية بالشرق الأوسط .

ولما تحقق هدف الصليبيين ، اختار جانب منهم الإقامة فى الشرق ، وكان لزاما عليهم وعلى سلالتهم أن ينهضوا بأعباء الإدارة الاستعمارية التى استحدثوها فى الشرق ، فأقاموا حضارة تعتبر فى جوهرها غربية ، وأبقوا على صلاتهم الوثيقة بالغرب ، فلا زال يقدم إلى الشرق الحجاج والمحاربون ورجال الكنيسة . ومع ذلك فإن هؤلاء الأوربيين الذين أقاموا بالشرق لا بد أنهم تأثروا بأفكار وتقاليد الشرق ، وأخذوا يرتابون فى نوايا القادمين الجدد ، واشتد خوفهم على إقطاعاتهم وأملاكهم ، ولا سيما بعد أن أضحى كثير من المغامرين فى الغرب ، يسعون للحصول على الإقطاعات عن طريق الوراثة أو المصاهرة أو المغامرة ، وأظهر ما اتضح هذا الاختلاف فى أثناء الحرب الصليبية الثانية وبعدها .

وعلى الرغم من أن هؤلاء المستعمرين الغربيين ، تأقلموا واشتد تأثرهم بالشرق ، فإنهم لم يستطيعوا ، لمدة طويلة ، أن يكونوا على وفاق مع بيزنطة . فى الفترة التى يعالجها هذا الكتاب ، حدث فعلا بين البيزنطيين علاقات دبلوماسية مثمرة ، ومحالفات قائمة على المصاهرة . غير أن ما وقع من الاختلاف بين اللاتين واليونانيين ، أضاع فرصا عديدة يصح أن تسهم فى استقرار الإمارات اللاتينية وتوطيد الأمن والسلام بها ، بل وفى مد أطرافها ، وبانتهاء القرن الأول للحروب الصليبية ، لم يبق إلا أمل ضئيل فى رأب هذا الصدع . فما حدث من إخفاق التحالف العسكرى بين بيت المقدس وبيزنطة يعتبر من الأسباب الخفية فى زوال الإمارات اللاتينية ، إذ أن هذا الفشل أخذ يتغلغل ويزداد عمقا حتى أدى آخر الأمر إلى أن يتوجه الصليبيون لقتال بيزنطة والاستيلاء عليها سنة ١٢٠٤ .

على أن نجاح الصليبيين أول الأمر ، لم يرجع فحسب إلى كثرة عددهم ، وإلى ما تلقوه من مساعدات من الغرب ، ومن الدولة البيزنطية ، بل يرجع أساسا إلى تفرق كلمة المسلمين . فى الوقت الذى انطلقت فيه القوات

الصليبية نحو الشرق ، لم تصادفها دول إسلامية متحدة ، بسبب ما حدث بعد وفاة ملك شاه السلجوقى سنة ١٠٩٢ من التداعى والانهيار ونشوب الفتن الداخلية واضطراب الأمن . ويشير أحد المؤرخين إلى أن الحرب الصليبية الأولى ، لو أنها تقدمت أو تأخرت عشرة سنوات عن موعدها ، لما تحقق لها ما أصابته من نجاح ، لأنها لا بد أن تصطدم بإمبراطورية عربية تركية موحدة تحت زعامة ملك شاه ، على أن الانتصار الذى أحرزه الصليبيون جاء عفوا بسبب تفكك دولة ملك شاه الإقطاعية وما تلى ذلك من المنازعات على الملك .

اجتازت الحملة الصليبية الأولى بلادا خاضعة لسلاجقة آسيا الصغرى والشام وإيران ، وكلهم متفرقون متنازعون ، فإذا نفـــدت إلى الشام أدركت ما كان بين السلاجقة والفاطميين من العداء المذهبى المرير ، إذ بلغ من كراهية الفاطميين للسلاجقة أنهم ظنوا أن قيام إمارات صليبية فى الشام ، يجعل منها حاجزا يحول دون زحف السلاجقة على مصر وضمها إلى ممتلكاتهم .

وأدرك المسلمون آخر الأمر أن الصليبيين لم يستهدفوا إلا مصلحتهم الخاصة ، وأنهم لم يفرقوا فى معاملتهم بين السنى وغير السنى من المسلمين ، وتطلعوا إلى مد نفوذهم وسلطانهم إلى خارج حدود الإمارات التى أقاموها ، فاشتدت ثائرة من كان يليهم من المسلمين ، الذين تعرضوا لأخطارهم وغاراتهم . وإذ اشتد التناحر بين أخلاف ملك شاه ، وبين أمراء وزعماء القوى الإسلامية فى بلاد الشام ، وتعطلت الحياة الاقتصادية فى شمال الشام ، أعلن أهل حلب احتجاجهم ، وجأروا بالشكوى إلى الخليفة العباسى ببغداد ، فدعا إلى الجهاد وقتال الصليبيين . ومع ذلك فإن المحاولات الأولى لتوحيد الجبهة الإسلامية لم تظفر بنجاح .

وأفاد زنكى من جهود من سبقه من القادة أمثال مودود وايلغازى فى

قتال الصليبيين ، وفى محاولة توحيد القوى الإسلامية ، فوجه كل اهتمامه أول الأمر إلى توحيد جهود المسلمين ، ودعا إلى نبذ ما بينهم من منازعات ، فتم له إقامة اتحاد بين حلب والموصل . وسار ابنه نور الدين على هذه الخطة ، فاستطاع أن يوحد القوى الإسلامية ببلاد الشام ، حتى إذا فرغ من ذلك ، استولى على مصر وانتزعها من أيدى الفاطميين ، فدخلت مصر فى دائرة الخلافة العباسية من جديد ، بفضل صلاح الدين .

وتحققت الوحدة الإسلامية آخر الأمر على يد صلاح الدين ، واتخذ فى سبيل ذلك من الوسائل ما يكفل له تحقيق غرضه ، بأن وطد علاقته بالخلافة العباسية ، وبذل الإقطاعات للموالين له ، وبما جرى عليه من التزام أحكام الدين فى سياسته ، وبما اشتهر به من السخاء والمروءة ، فضلا عن الإفادة من جهود أفراد أسرته .

على أن صلاح الدين لم يقلل من خطورة خصومه الصليبيين بل إنه أدرك ، أنه للتغلب عليهم لا بد من جمع كلمة المسلمين ، وتنظيم الجيش والأسطول ، وتدبير الأموال ، والقيام بإصلاحات اقتصادية وإدارية شاملة .

وأفاد صلاح الدين من تجاربه فى قتال الصليبيين ، ومن التيارات السياسية المختلفة التى أثرت فى أوضاع الصليبيين ، وكشف عوامل ضعفهم ، فاستمر على تشجيع التجارة مع بعض الجمهوريات الإيطالية ، كما يحصل على حاجتــه من أدوات الحرب والقتال ، ويمنع الصليبيين من استخدام جانب من السفن الإيطالية فى نقل الجنود إلى الشرق .

وإذ وقف صــلاح الدين أيضاً على ماكان بين الدولة البيزنطية والإمارات الصليبية من العداوة والكراهية ، حرص على تحسين العلاقات مع البيزنطيين ، والإفادة منهم فى معرفة نوايا الصليبيين ، وما أعدوه من الخطط لمهاجمة ممتلكاته .

وما اتخذه صلاح الدين من وسائل لإقامة الوحدة الإسلامية ، أفاد منه أخلافه من الأيوبيين ، ومن جاء بعدهم من سلاطين المماليك فى محاولة المحافظة على الوحدة الإسلامية ، وفى قتال الصليبيين والمغول .

والواضح أن هذا الجزء ينقل القارئ من أحداث القرن الحادى عشر ، وقيام الإمارات أو المستعمرات الصليبية إلى حركة الجهاد الدينى التى قام بها زنكى ونور الدين وصلاح الدين ، وما يتعلق بالمراحل التالية من الحروب الصليبية والتاريخ الحضارى والنظم سوف ينفرد به الجزء الثانى .

ولما كانت أحداث الحروب الصليبية لم تقتصر على العالم العربى وحده ، بل امتدت إلى مواضع لم تدخل فى نطاق الوطن العربى ، اتخذت للكتاب عنوان الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، على أن العالم العربى فاز بأكبر نصيب من هذه الدراسة .

وأوردت فى آخر الكتاب ملحقين : الأول عبارة عن وثيقة تنطوى على الخطة التى وضعها صلاح الدين لتحقيق الوحدة الإسلامية وجهاد الصليبيين . أما الملحق الثانى فهو جدول للأسرات الحاكمة فى الشرق الأوسط أثناء الفترة التى يعالجها هذا الكتاب .

وسوف يرد فى الجزء الثانى المصادر والمراجع ، وملاحق بالوثائق والأسرات الحاكمة والمصطلحات وأسماء الأباطرة البيزنطيين والبابوات المعاصرين ، فضلا عن كشافات بأسماء المدن والأشخاص والمصطلحات .

والله ولى التوفيق ؟

القاهرة فى { ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٣ / أول نوفمبر سنة ١٩٦٣ }

السيد الباز العرينى


A S R

الفصل الأول

الشرق الأوسط قبيل الحروب الصليبية

يطلق مصطلح الشرق الأوسط على المنطقة ، الممتدة من وسط آسيا شرقاً إلى شمال أفريقية غربا ، ومن بلاد الأناضول والبحر الأسود شمالا إلى بلاد النوبة جنوبا . وتناول هذا الكتاب تاريخ هذه المنطقة ، منذ منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، حين ظهر فى العالم الإسلامى ، قوة جديدة ، دولة السلاجقة ، كان لها أهميتها فى تطور الأحوال التاريخية بهذه المنطقة ، أما نهاية هذا العصر فشهدت طرد الصليبيين من الشرق الأدنى ، وانكسار التتار وما ترتب على ذلك من التغييرات السياسية والإقليمية ، وتطور العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب .

الأحوال السياسية

خضع الشرق الأوسط ، فى الشطر الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، لثلاث قوى كبيرة : أولها الدولة العباسية السنية ، التى أصابها التفكك والتداعى ، وانقسمت إلى إمارات عديدة مستقلة . أما الدولة الثانية ، فهى الدولة الفاطمية الشيعية ، التى نشأت بشمال أفريقية ، ثم انتقل خلفاؤها إلى مصر ، ومدوا سلطانهم إلى أملاك العباسيين فى الشام ، وحرصوا على مناوءة الخلافة العباسية والسيطرة عليها . وتعتبر الدولة البيزنطية هى القوة الثالثة التى أسهمت فى أحداث الشرق الأوسط ، بما جرى من امتداد أطرافها إلى الشرق والجنوب على حساب القوى الإسلامية المتنازعة .

وتغير هذا الوضع فى الشطر الثانى من القرن الحادى عشر نتيجة قدوم الأتراك السلاجقة من وسط آسيا[١] ، فاستولوا على أملاك السامانيين والغزنويين ، وبذلوا المساعدة للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، كيما يتخلص من سيطرة البويهيين . ولما تمت لهم السيطرة على خراسان ، واعترف السكان بسلطانهم ، واشتد تمسكهم بالمذهب السنى ، فكر قادتهم ورجالهم من التركمان فى إقامة إمارة ، وفقا لأفكار تعتبر جديدة عليهم . إذ أدرك زعماء السلاجقة مدى تفوق المدنية العربية الإسلامية ، فحرصوا على أن يحافظوا عليها من شرور قومهم ، وأن يكونوا حماة لها . ومن الدليل على ذلك ما أشاروا إليه فى رسالتهم إلى الخليفة من « أنهم غاروا للمسلمين وللبلاد ، وأعلنوا أنهم عبيد أمير المؤمنين ، فى حفظ البلاد والعباد ، وقد سنوا سنة العدل ، وأبطلوا مراسم العسف ، فتواصلت مع مسعود (الغزنوى) حروبهم ، واشتدت منعتهم ، وقويت شوكتهم »[٢] .

---

(١) بسط العرب سيادتهم على إقليم ما وراء النهر ، فى منتصف القرن الثامن الميلادى . ثم قام فى الأجزاء الشرقية من الدولة العباسية ، إمارات من العناصر المحلية ، فنشأت الدولة السامانية فى إقليم ما وراء النهر بين ٨٧٥ ، ٩٩٩ ، وامتد سلطانها إلى خراسان وقزوين . وأكثر أمراؤها من شراء الرقيق ، وألفوا منهم جيوشاً فتية . ومن هؤلاء الترك قامت دولة الغزنويين ، التى انتزعت الأطراف الجنوبية من دولة السامانيين ، بينما قامت الدولة البويهية فى العراق ، واستبد أمراؤها بالسيادة والسلطان من دون الخليفة . والمعروف أن الأتراك السلاجقة ظهروا فى إقليم ما وراء النهر فى القرن العاشر الميلادى ، ودخلوا فى خدمة الأمراء المتنازعين ، وحصلوا على مراعى لدوابهم وماشيتهم ، وأصبحوا قوة يتسابق الأمراء على الإفادة منها . ولم يلبثوا ، بفضل قوتهم الحربية ، واتصالهم بالأمراء ، أن أخذوا بأسباب الحياة والإدارة الإسلامية ، وتوثقت علاقتهم بالزعماء المسلمين السنيين ، فاستولوا على أملاك السامانيين فى إقليم ما وراء النهر وخراسان ، وأنزلوا الهزيمة الساحقة بالغزنويين ، ولم يسع السكان إلا الاعتراف بسلطانهم ، لما لهم من قوة فتية ، ولتعصبهم للمذهب السنى ، ولأنهم لم يلجأوا إلى تخريب المدن وتحطيم اقتصادها . انظر **Cahen : Turkish Invasions, pp. 135 — 141.**

(٢) البندارى . تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٧ ، ٨ .

وترتب على اعتراف الخليفة العباسى بسلطانهم ، وبأنهم عبيد أمير المؤمنين أن صار لهم الحق فى مد سلطانهم ، وبسط نفوذهم . يضاف إلى ذلك أن أقوام التركمان الذين صحبوا زعماء السلاجقة ، رغبة منهم فى النهب والغنيمة ، أضحوا يتحملون معهم واجب الجهاد ، وإعلاء شأن الدين ، فازداد بذلك سلطان الزعماء عليهم . وصار طغرل وأخوه جغرى ، يحكمان إقليم خراسان ، وفقا للنظم الإسلامية ، وأدّى ذلك إلى حرصهما على المحافظة على أملاكهما من الغارات ، ولو كانت هذه الغارات من جانب قومهما[1] .

أدرك السلاجقة ، بعد استيلائهم على خراسان ، ماكان من استبداد البويهيين بسلطة الخليفة العباسى ، واتخاذ سيدهم لقب أمير الأمراء ، واستقراره ببغداد ، إلى جانب الخليفة العباسى ، الذى عمل على مداراتهم بالتظاهر بالخضوع لهم[2] .

على أن ما أصاب سلطان البويهيين من التداعى ، ووقوع النزاع بين أفراد الأسرة الحاكمة ، لم يخف على السلاجقة ، الذين أفادوا من الاختلاف المذهبى بين السكان والأسرة الحاكمة الشيعية ، فتلقوا مساعدة وتأييداً من السكان السنيين ، لاتفاقهم معهم فى المذهب ، ولما سوف يحصل عليه أعيانهم من الربح ، باشتراكهم فى إدارة البلاد ، التى استولى عليها السلاجقة ، لأنه لم يكن للتركمان خبرة سابقة بالإدارة[3] .

وعلى الرغم من أنه انحاز إلى جموع التركمان ، أثناء زحفهم ، جيش نظامى ، تزود بأسلحة لم تكن معروفة عند سكان البرارى ،

(١) Cahen : Turkish Invasions p. 141

(٢) Cahen : Turkish Invasions p. 142

(٣) Ibid. : p.144

وبفضلها جرى الاستيلاء على المدن الكبيرة ، فلا زال التركمان يعتبرون عدة السلاجقة وقوتهم الأساسية ، التى كفلت لهم السيادة والسيطرة على البلاد التى انسابوا فيها ، فضلا عن أنهم لم يتقاضوا مرتبات[1] .

مضى السلاجقة فى فتوحهم صوب الغرب ، وشجعهم فى ذلك المساحات الشاسعة من إقليم البرارى ، بشمال هضبة إيران وغربها ، وما أصاب البويهين من الضعف بسبب الحروب الداخلية الناشبة بين أمرائهم ، حتى إذا بلغوا أعالى الجزيرة ، وتعرضوا للمقاومة من قبل العرب والكرد ، تحولوا إلى أذربيجان . فاقتربوا بذلك من حدود جورجيا (الكرج) وأرمينيا وبيزنطة ، فتهيأت لهم الفرصة للمضى فى الغارة والنهب ، بعد أن ضيق عليهم طغرل الخناق ، ومنعهم من الغارة ، ولم يسمح لأسراتهم بالإقامة الدائمة ، خوفا من أن يقيموا إمارات مستقلة أو أن يتآمروا ضده[2] . فتوجه إبراهيم بن ينال ، أخ طغرل ، لمهاجمة أرمينية سنة ١٠٤٨ ، فنهب أرضروم ، وفى سنة ١٠٥٤ حاصر طغرل ما نزيكرت ، فلجأت الحكومة البيزنطية إلى المفاوضة وطلب الصلح[3] . وترتب على هذا التقارب بين البيزنطيين والخلافة العباسية ، أن فترت العلاقة بين بيزنطة والفاطميين ، فى وقت اشتدت فيه الحاجة إلى الفاطميين[4] .

وما أحرزه طغرل من انتصارات ، وما بذله من جهد لإحباط مؤامرة البساسيرى ، لإقامة الدعوة الفاطميه فى بغداد وطرد الخليفة العباسى ، القائم بأمر الله ، وإخضاع العرب لسلطان السلاجقة ، وامتداد حدود الدولة

---

(١) Ibid. : p. 142

(٢) Cahen : Turkish Invasions p. 189

(٣) العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٧٣٩ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤١ .
الواقع أن الأحوال كانت مواتية للمغيرين على آسيا . فى سنة ١٠٤٨ ، تم نقل جانب من القوات البيزنطية فى آسيا الصغرى لقمع ثورة تورنيكيوس فى أدرنه ، وفى سنة ١٠٥٤ ، توجهت القوات البيزنطية من آسيا الصغرى لوقف زحف البجناك فى البلقان .
Charanis : The Byzantine Empire. In Setton : History of the Crusades I. p.190

(٤) Cahen : op.cit. p. 190

إلى أطراف الشام وبيزنطة ، كل ذلك وطد سلطة طغرل ، وأصبح يمارس كل السلطات المادية فى خدمة الخليفة ، الزعيم الروحى للمسلمين ، وبذا أضحى حاميا للمذهب السنى[١] .

وأفاد من جهود طغرل ، السلطان الب أرسلان ؛ الذى خلفه على الحكم (١٠٦٣ – ١٠٧٢) ثم ملك شاه (١٠٧٢ – ١٠٩٢) . فالمعروف أن الخليفة العباسى قلد السلطان السلجوقى ، حكم كل ما يفتحه من البلاد خارج حدود دولته ، سواء كانت هذه البلاد فى يد البيزنطيين أو الفاطميين الذين يخالفونه فى المذهب الدينى . وحرص ألب أرسلان على تحقيق هذا الأمر ، وأتم التركمان هذه الرسالة من بعده[٢] .

والواقع أن التركمان دأبوا منذ أواخر عهد طغرل ، على شن الغارات على الأراضى البيزنطية ، فنفذوا إلى داخل أرمينية ، وساعدهم على ذلك ضعف الجيش البيزنطى ، وما وقع من الفتن بالقسطنطينية ، وما نشب من الحروب بين القادة البيزنطيين فى أطراف الدولة ، يضاف إلى ذلك عجز الحاميات البيزنطية المرابطة فى حصون منيعة ، بأطراف البلاد ، عن السيطرة على الطرق المؤدية إلى داخل آسيا الصغرى[٣] . والملحوظ أن من هؤلاء التركمان ، فئة لا زالت وثيقة الصلة بالسلاجقة ، شقت طريقها إلى الشام ، ومنهم فئة بالغة البسالة ، شديدة الميل للمقامرة ، خرجت على طاعة الدولة السلجوقية ؛ وحرصت على أن تتخذ من آسيا الصغرى مقرا لها فأمضت فى توغلها ، فهاجمت عمورية وقونيــة وقليقية ؛

---

(١) **Cahen : op. cit. p. 145**

(٢) **Ibid. p. 147**

انظر **Cahen : La prenirère penetration turque en Asie mineure. Byzantion X VIII (1948).**

P. Wittek : Deux Chapitres de L'histoire des Turcs de Roum. Byzantion XI (1936).

J. Laurent : Byzance et les Turcs Seldjoucides jusqu' au 1081-Paris 1914.

(٣) **Cahen : Turkish Invasions, p. 147.**

وقيصرية ؛ ومضت فى زحفها سنة ١٠٦٧ ، حتى بلغت غلطة وفريجيا ، ولم يستطيع الإمبراطور البيزنطى أن يقاومهم[١] . ومن هؤلاء التركمان جماعات ، دخلوا فى خدمة البيزنطيين ، أو الفاطميين ، فاستعانوا بهم فى الحروب وقمع الفتن[٢] .

وما قام به الإمبراطور البيزنطى ، رومانوس ديوجنيس ، فى ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ من حملات إلى شمال الشام وأعالى الفرات ، وتفقد الحاميات والاستحكامات الواقعة على الحدود ، لم يوقف غارات التركمان ؛ الذين أنزلوا بالبلاد الخراب والدمار[٣] .

وأدرك ألب أرسلان أن إمبراطوريته أضحت بنجوة من الخطر ، ففى سنة ١٠٧٠ ، اغتنم ما ساد البلاد من الهدوء ، فتجهز للمسير إلى مصر وانتزاعها من يد الفاطميين . وشجعه على ذلك ما حظى به القائد التركى أتسيز من الترحيب فى أملاك الفاطميين ، بعد أن استعانوا به فى إخماد الفتن التى أثارها البدو[٤] . فاستولى ألب أرسلان على حلب ، الخاضعة للنفوذ الفاطمى ، برغم استقلالها ، وأعادها إلى دائرة نفوذ الخلافة العباسية . وعزم على أن يتوجه صوب الجنوب ، غير أنه جاءه من الأنباء ما حمله على تغيير خطته . إذ أن الإمبراطور البيزنطى انتهز فرصة انصراف ألب أرسلان إلى التوسع فى أملاك الفاطميين فى الشام ومصر ، فهاجم مؤخرة جيشه ،

---

(١) Ibid. p. 147
Charanis: The Byzantine Empire p. 191.

(٢) Cahen ; Turkish Invasions p. 147-148.

(٣) Charanis : The Byzantine Empire p. 191
Cahen : Turkish Invasions. p. 148.

(٤) Ibid. p. 148
العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٧٤٢ – ٧٤٣ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ – ٩٩ .

فكان لزاما على ألب أرسلان أن يغير خطته ، وأن يرجع لمواجهة البيزنطيين[١] .

ودارت المعركة الفاصلة بين التركمان والبيزنطيين بالقرب من مانزيكرت فى ٢٦ أغسطس سنة ١٠٧١ ، والتقى فيها السلطان السلجوقى ألب أرسلان ، بالإمبراطور البيزنطى رومانوس . وعلى الرغم من كثرة عدد جيش رومانوس ، الذى تألف من أجناس وعناصر عديدة ، وبسالة رومانوس ، وحرص ألب أرسلان على أن يجنح إلى السلام ، فإن هزيمة ساحقة حلت بالقوات البيزنطية ، ووقع الإمبراطور أسيرا فى يد ألب أرسلان[٢] .

وتعتبر وقعة مانزيكرت بداية عصر جديد ، لا لأن ألب أرسلان أراد بعد انتصاره الحاسم ، أن يحطم الإمبراطورية البيزنطية ، إذ أنه عامل الإمبراطور معاملة طيبة ، واكتفى بما حصل عليه من فدية كبيرة ، وبتعهد الإمبراطور بدفع جزية سنوية ، وإعادة الحدود الإسلامية إلى ماكانت عليه ، مقابل إطلاق سراحه . واتفق الجانبان على المحافظة على الصلح وتبادل الأسرى . بل لعله أراد أن تبقى بيزنطة على الحياد ، أو تتحالف معه ، كيما يحقق مشروعه ، الذى يرمى من ورائه إلى توحيد العالم الإسلامى ، وأن يتعاهد الإمبراطور البيزنطى برد العصاة الذين خرجوا على طاعة السلطان ، ولجأوا إلى الأراضى البيزنطية[٣] .

ومن أهم نتائج معركة مانزيكرت ، أن استقر التركمان بالأراضى البيزنطية ، والتمس سكان أرمينية وقبادوقيا ، حماية التركمان ، بعد أن أدركوا عجز البيزنطيين عن الدفاع عنهم . يضاف إلى ذلك أن الجند الفلاحين المرابطين على الحدود أنسوا إلى هؤلاء المسلمين ، بعد أن طالت مدة

(١) Cahen : Turkish Invasions, p. 148.

(٢) Cahen : op. cit. p. 148

(٣) Caben : Tuskish Invasions p. 149.
Charanis : The Byzantine Empire, p. 193.

اختلاطهم واتصالهم بهم . وزاد من كراهية السكان لبيزنطة ، ما لجأت إليه الدولة البيزنطية ، من إنزال طائفة جديدة من الجند المرتزقة فى أرمينيا والرها[١] .

ولم يلبث التركمان أن تخلصوا ، بعد سنوات قليلة ، من الآثار الباقية للإدارة البيزنطية فى آسيا الصغرى . فمنذ وقعة مانزيكرت ، حتى سنة ١٠٨١ ، ما وقع من الأحداث فى بيزنطة ، من التنازع على العرش ، والنضال بين الطبقة الأرستقراطية الحربية والطبقة الأرستقراطية المدنية ، وما وقع من الفتن والحروب الداخلية ، والاستعانة بالجند المأجورة ، كل ذلك هيأ للتركمان الفرصة للتوغل فى داخل آسيا الصغرى ، فبلغوا فى زحفهم بحر مرمرة ، والبوسفور ، وبحر إيجه ، واتخذوا من نيقية قاعدة لهم ، واستقلوا عن الدولة السلجوقية ، وصاروا خطراً يهدد بيزنطة ذاتها ، لما دأبوا عليه من نهب البلاد ، وممارسة القرصنة ، وأضحوا أيضاً يهددون السلطان السلجوقى ، بعد أن خرجوا على طاعته[٢] . فالمعروف أن قطلمش ، ابن عم طغرل ، توجه مع طائفة من التركمان إلى الجبال الواقعة جنوب بحر قزوين ، لأنه اعتبر نفسه أحق بالملك منه ، ولأن أباه كان أرشد أفراد الأسرة السلجوقية وأعظمهم مكانة . وقام أبناء قطلمش بالثورة على ألب أرسلان ، ولحقوا بالتركمان فى الأناضول ، كيما يقيموا لهم إمارة مستقلة ، يناوئون بها البيزنطيين وبنى عمومتهم فى العراق . فاستقر سليمان بن قطلمش فى نيقيه ، وأضاف إليها قليقية وملطية ، بعد انتزاعهما من يد فيلاريت الأرمنى ، الذى سبق أن جعله رومانوس ديوجنيس والياً على الإقليم الممتد من أنطاكية إلى الرها ، وبذا سيطر سليمان على أطراف الجزيرة والشام واتصل بالفاطميين لمناهضة السلاجقة[٣] .

(١) Cahen : loc. cit.

(٢) Cahen : Turkish Invasions p. 150

(٣) Cahen : Turkish Invasions. p. 150

وامتد سلطان السلاجقة (التركمان) إلى الشام ، فسيطر تتش (ططش) شقيق ملك شاه ، على وسط سوريا وفلسطين ، بعد أن طرد أتسيز منها[١] .
وأفاد ملك شاه من الحروب التى نشبت بأعالى الجزيرة ، وأطراف الشام ، بين التركمان بزعامة أبناء قطلمش ، وعرب الجزيرة ، وفيلاريت الوالى البيزنطى بأنطاكية ، وتتش السلجوقى ، فاستولى على الموصل وحلب وأنطاكية ، وعلى ما تبقى من أملاك فيلاريت الأرمنى ، فأصبحت أملاكه تطل على البحر المتوسط . ودخل فى نطاق مملكته ، الجزيرة ، وسوريا بأكملها ، وأبقى تتش على حكم سوريا ، وجعل بازان على الرها ، وعين ياغى سيان على أنطاكية ، وولى حلب أقسنقر الحاجب ، وكلهم من القادة العسكريين ، وترك لهم أمر تسيير الحملات ضد بيزنطة ، وذلك سنة ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ التى لم يسعها إلا أن تؤدى له الجزية ، والواضح أنهم ولوا هذه البلاد على أنها إقطاعات[٢] .

وحاول ملك شاه أن ينتزع آسيا الصغرى من أيدى أبناء قطلمش ، فاغتنم فرصة مصرع سليمان فانتزع أنطاكية ، وساق جيوشه إلى آسيا الصغرى ، وحاول أن يتحالف مع الكسيوس كومنين الإمبراطور البيزنطى ؛ غير أن هذه المحاولة لم تتحقق ، نظرا لوفاة ملك شاه سنة ١٠٩٢[٣] .

وترتب على وفاة ملك شاه ، وقوع النزاع بين أبنائه ، ثم بينهم وبين أعمامهم ، فأدى ذلك إلى تجزئة الإمبراطورية ، وانتشار الفوضى ، وفساد الإدارة واغتصاب الحكم . وحاول كل أمير أن يكتسب له حلفاء بما يبذله من أجل ذلك من الأموال والإقطاعات ، فأسهم بذلك فى إضعاف قوته

---

(١) الواقع أن أتسيز قدم إلى الشام بدعوة من الفاطميين ، لإقرار الأمن والقضاء على الفتن ، غير أنه لم يلبث أن وقع فى عداء معهم ، وأقام بمساعدة دمشق وبيت المقدس إمارة مستقلة ، وحاول أن يوطد مركزه ، بأن أعلن اعترافه بملك شاه ، فأثار بذلك العرب ، وجعلهم يستنجدون بقطلمش ، غير أن أتسيز أنزل الهزيمة بخصومه ؛ ولم يحفل أيضاً بملك شاه . انظر
Cahen : Turkish Invasions. p. 151.

(٢) **Ibid. p. 152.**

(٣) **Cahen : Turkish Invasions. p. 152.**

وسلطانه . بينما تحكم الأتابكة (الأوصياء) فى الأمراء الصغار ، وحرصوا على أن يجردوهم من السلطان والنفوذ ، وكانوا يأملون فى أن يقوموا بتصفية الأسرة السلجوقية(١) .

أما آسيا الصغرى ، فلم تجد كل المحاولات لإدماجها فى الإمبراطورية السلجوقية . وما كان بها من إدارة بيزنطية ، لم يلبث أن اختفى ، ولم يكن التركمان بها إلا حكاما ، وسكن فريق منهم بعض جهات الريف(٢) . وظل المؤرخون المسلمون زمنا طويلا يغفلون أمر كل ما حدث فى هذه المنطقة ، ومع ذلك تعتبر آسيا الصغرى أكثر أهمية فى تاريخ الترك من الإمبراطورية السلجوقية ذاتها ، إذ تقاطر إليها الترك ، ونزلوا على سواحل المضايق ، وعلى ساحل بحر إيجة ، واختلطوا بالسكان الأصليين ، ومارسوا البحرية والقرصنة ، ثم دفعتهم الحروب الصليبية والحروب البيزنطية إلى الهضبة ، فاتخذوا قونية عاصمة لهم بدلا من نيقية(٣) .

وبعد وفاة ملك شاه ، كان سلطان السلاجقة بآسيا الصغرى ، قلج أرسلان بن سليمان ، وهو المعروف عند الصليبيين باسم سليمان . وعلى الرغم من أن سلطانه انبسط على الطريق الممتد من نيقية إلى قونية ، وعلى الممرات الواقعة بشمال سلسلة جبال طوروس ، فإنه لم يسيطر على كل آسيا الصغرى . ففى أرمينيا استقر جماعة من التركمان ، وفى أرزنجان استقرت طائفة أخرى ، وفى أقصى الغرب ، خضعت سيواس ، وأماسيه ، وقيصرية وأنقرة ، لرجل صار لسلالته فيما بعد أهمية خاصة ، على الرغم من أن علاقته بالسلاجقة كانت غامضة ، وكان من زعماء التركمان ، اتخذ لقب دانشمند الذى يدل على ما كان له من نفوذ روحى . وعلى هذا النحو قام بآسيا الصغرى قوة من التركمان ، دأبت على الإغارة فى آسيا الصغرى ، تقابل قوة الأمراء

---

(١) Cahen : Turkish Invasions p. 162.

(٢) Cahen : Turkish Invasions p. 163.

(٣) Cahen : loc. cit.

السلاجقة التى ترتكن إلى العناصر التركية فى داخل البلاد ، والتى حرصت على منع تدفق الترك إلى الأناضول ، وهذا هو تفسير ما حدث من التنافس على الاستيلاء على ملطية ، سنة ١١٠٣ ، وانتزاعها من يد أميرها الأرمنى ، وما جرى سنة ١١٠٧ من هزيمة قلج أرسلان ومصرعه ، أدى إلى انقطاع الصلة بين الترك فى آسيا الصغرى وبين أقاربهم فى الشرق ، وصار لزاما عليهم أن يحكموا أنفسهم مستقلين . وزاد من هذا الانفصال فيما بعد ، استقرار الصليبيين ، فى الجهات الواقعة بين قليقية والرها ، فانقطع الاتصال بين المسلمين فى آسيا الصغرى ، والمسلمين العرب ولا سيما فى سوريا[١] .

أما بلاد الشام ، فخضعت لست قوى متنازعة متصادعة :

١ — الخلافة الفاطمية :

المعروف أن الفاطميين أقاموا ملكهم بشمال أفريقية سنة ٩٠٩ ، ثم انتقلوا إلى مصر سنة ٩٧٢ ، وأخذوا ينازعون الخلافة العباسية فى بغداد ، زعامة العالم الإسلامى من الناحية الروحية . ولذا حرص الفاطميون على الاستيلاء على الشام ، وأعدوا لتحقيق رغبتهم جيشاً من البربر ، ثم من الأتراك الأرقاء ، غير أنهم صادفوا مقاومة عنيفة من الأمراء العرب ، الذين حرصوا على استقلالهم[٢] .

استطاع الفاطميون آخر الأمر أن يبسطوا سلطانهم ، بين ١٠٣٨ ، ١٠٥٨ ، على جميع أنحاء الشام ، ماعدا أنطاكية التى لازالت فى حوزة البيزنطيين . وامتد نفوذ الفاطميين إلى غرب الجزيرة ، بل إنهم استطاعوا سنة ١٠٥٨ ، أن يعلنوا دعوتهم فى بغداد ذاتها ، بفضل البساسيرى ، الذى ينتمى للأسرة البويهية الشيعية ، على أن حركته لم تستمر إلا فترة

---

(١) Cahen : Turkish Invasions p. 164.

(٢) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 20 - 21.

وجيزة ، لا تزيد كثيراً على سنة واحدة ، وذلك لأن الفاطميين لم ينهضوا لمساعدة البساسيرى ، على حين أن طغرل السلطان السلجوقى أحبط المؤامرة وأعاد الخليفة العباسى إلى بغداد[1] .

وأخذ سلطان الفاطميين فى الشام يتداعى ، ولا سيما بعد أن حل بمصر أزمة اقتصادية حربية استمرت مدة طويلة (١٠٦٢ – ١٠٧٢) ، فحرمتهم من كل الوسائل التى تساعدهم على الإبقاء على ممتلكاتهم ، فضاعت منهم حلب سنة ١٠٦٠ ، واستقل الأمراء المحليون بمدنهم وقلاعهم ، بفضل ما اشتهروا به من المهارة السياسية ، وما وقع من الشقاق بين جيرانهم الأقوياء ، فحين انهار الحكم الفاطمى بالشام ، بسبب تمرد الجند ، وظهور الجيوش التركية سنة ١٠٧٠ ، أعلن قاضى صور ، ابن أبى عقيل استقلاله ، وظلت المدينة فى قبضة يده حتى استردها الفاطميون سنة ١٠٨٩ . أما قاضى طرابلس ، الحسن بن عمار ، الذى أعلن ثورته ضد الفاطميين سنة ١٠٧٠ ، فكان أحسن حظا ، إذ بقيت طرابلس فى حوزة أسرته ، حتى استولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٨ ، واستطاع أحد هؤلاء الأمراء المحليين ، أن يمد سلطانه سنة ١٠٨٠ إلى جبلة على حساب البيزنطيين[2] .

وأدرك بدر الجمالى بعد أن فشلت محاولاته فى استرداد دمشق[3] ، ١٠٧٨ ، وتجنب الدخول فى نزاع مع السلاجقة ، أنه لابد من إعادة تنظيم الحكومة فى مصر ، من الناحيتين الحربية والإدارية ، والمحافظة على القواعد البحرية فى عكا وصور ، وبفضل قوتهم البحرية استعادوا

---

(١) Gibb : The Caliphate and the Arab States. History of the Crusades, p. 91.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٨٧ – ٨٨

(٢) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 21

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق . ص ١١٢ .

المدن الساحلية حتى جبيل، سنة ١٠٨٩، فظلت أيديهم حتى قدوم الصليبيين[1].
وحرص أيضاً على أن يبقى للفاطميين رأس جسر فى فلسطين، فجدد عمارة صور وصيدا، وجرى استرداد بيت المقدس سنة ١٠٨٩، من الأراتقة الذين أخذوها إقطاعا من السلاجقة[2]. أما قوات الفاطميين البرية، فكانت مصدر خطر على الخلفاء الفاطميين أنفسهم، بسبب ما نشب بينهما من منازعات وحروب داخلية[3].

وعلى الرغم من ضعف الفاطميين، اجتذبت دعوتهم أنصار كثيرين فى المدن الكبيرة، وما يجاورها من الجهات، ووجد الأمراء السلاجقة وخلفاؤهم، أنه من الخير العمل على مسالمتهم، بل أن الفاطميين أنفسهم حرصوا، بابتعادهم عن محاولات الحشيشية الإرهابية، على أن يتجنبوا الصدام مع السلاجقة[4].

الواقع أن النزاع بين المسلمين السنيين، والمسلمين الشيعيين لم يكن العامل الأساسى فى إضعاف وحدة العالم الإسلامى، عند قدوم الصليبيين، أو أن هذا الاختلاف والانقسام كان معروفا منذ زمن بعيد؛ وعلى الرغم من أن السلاجقة جعلوا هدفهم توحيد العالم الإسلامى تحت راية العباسيين، فإن الاختلاف المذهبى حتى بعد استقرار السلاجقة، لم يكن الأساس الذى أسندت إليه المنازعات الحربية والسياسية، التى أدت إلى تقسيم غرب آسيا إلى إمارات كثيرة مستقلة تعتبر سوريا فى ذلك أقل حظا ونصيبا[5].

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p 22.
Gibb : The Caliphate and the Arab States p. 95.

(٢) Ibid : p. 95

(٣) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 22.

(٤) Gibb : The Caliphate and the Arab States, p. 96.

(٥) Gibb : The Caliphate and the Arab States, p. 97

٢ — القبائل العربية :

وما واجهته الدولة الفاطمية فى توطيد سلطانها بالشام من متاعب ، إنما جاء أساسا من القبائل العربية ، التى جمعت بين الارتحال والاستقرار ، وإقامة إمارات مستقلة .

ذلك أن القبائل العربية فى بلاد الشام ، ظلت قوية متماسكة ، على الرغم من اشتداد الحكومة العباسية فى ضبطها بعد سقوط الدولة الأموية . ومن هذه القبائل ، طى ، التى تنزل بالإقليم الواقع شرق نهر الأردن والأطراف الغربية لصحراء الشام ، واستقرت قبيلة كلب فى وسط الشام ، بينما نزل بنو كلاب فى شمال الشام ، والنميريون والعقيليون بإقليم الجزيرة[1] . واشترك بنو طى وبنو كلاب ، فيما وقع بالشام ، فى القرن العاشر الميلادى ، من الثورات والفتن التى سببها القرامطة . فأقام سيف الدولة الحمدانى ، الذى ينتمى إلى قبيلة تغلب ، التى تنزل منذ زمن بعيد إقليم الجزيرة ، إمارة شملت حلب وما يجاورها وامتدت إلى أعالى الجزيرة[2] .

وارتكنت الحكومة الفاطمية إلى حد كبير ، فى بسط سلطانها ، إلى مساندة قبيلتى طى وكلب ، مثلما اعتمد الحمدانيون على مساعدة كلاب . غير أن انقسام البلاد وتفرقها ، وانعدام السيطرة على رجال القبائل ، هيأ الفرصة للاستقلال ، عند رجال القبائل وسائر الزعماء[3] . فتولى شيوخ طى من بيت الجراح ، حكم فلسطين على أنهم أمراء مستقلون ،

---

(١) Gibb : The Caliphate and the Arab States, p. 89

Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 72

(٢) Gibb : Loc. cit.

(٣) Gibb : The Caliphate and the Arab States, p. 89.

يدينون بالولاء للفاطميين ، ثم لم يلبثوا أن خرجوا على طاعتهم ، واعترفوا بسيادة شريف مكة ، ثم دخلوا فى مفاوضات مع البيزنطيين فى أنطاكية ، وشرع ابن الجراح سنة ١٠١١ فى عمارة كنيسة القيامة[١] .

أما قبيلة كلاب ، فكرهت احتلال الفاطميين لحلب ، سنة ١٠١٦ ، واعتبروها حقا مشروعا لهم . وفى سنة ١٠٢٤ ، ألف صالح بن مرداس ، شيخ الكلابيين حلفا من القبائل العربية . وتم الاتفاق على اقتسام الشام بينهم ، فيختص الكلابيون بشمال الشام ، ويكون للكلبيين وسط الشام ، وللطائيين فلسطين ، ويتولى ابن مرداس حكم حلب[٢] .

وما حدث سنة ١٠٣٨ من عقد الهدنة بين الفاطميين والبيزنطيين ، وتوطيد العلاقات والصلات بينهم ، لم يلبث أن أفسده العرب ، فاسترد المرداسيون حلب سنة ١٠٤٢ ، بمساعدة الإمبراطور البيزنطى ثم انتقلت حلب إلى حكم بنى عقيل سنة ١٠٧٩ وكانوا من أنصار السلاجقة . وترتب على امتداد ملك العقيليين ، من حلب إلى الموصل ، أن وقع فى صدام مع الأمير السلجوقى بالشام . وانتهى النزاع بطردهم من ممتلكاتهم فى حلب والجزيرة . على أن فرعين من هذه القبيلة ، استقرا فى قلعة جعبر وأواسط الفرات ، حتى زمن نور الدين . وقام الطائيون مرة أخرى بالثورة فى فلسطين ، ولم يخلدوا للسكون ، إلا بعد أن تم بعد سنوات نقل أشد طوائفهم فتنة واضطرابا ، إلى مصر ، فنزلوا بالدلتا[٣] .

الطيبين/ وسط الشام
الكلابيين/ شمال
الطائيين/ فلسطين
ابن مرداس/ حاكم حلب

(١) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٥٩٤ — ٥٩٥ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٠١ .
Schlumber : L'Epopée Byzantine II. 447.

(٢) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٦٠١ — ٦٠٢ .
يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٥ .
ابن الأثير . الكامل ج ٩ ، ص ١٦٢ .
ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ج ١ ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٣) Gibb : The Caliphate and the Arab States. p. 91.
Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 22.

وسبق الإشارة إلى ما جرى من استقلال كل من قاضي صور ، وقاضي طرابلس عن سلطان الفاطميين السياسي ، بينما احتفظ بالمذهب الشيعي . ومع ذلك التمس هذان الأميران المساعدة من التركمان ، لإحباط محاولات الفاطميين ، لاسترداد المدنيين ، وادعى ابن عمار ، قاضي طرابلس ، أنه تولى الحكم بتقليد من السلطان السلجوقي ببغداد[١] .

وقام بشيزر ، سنة ١٠٨١ ، إمارة عربية ، أنشأها على بن منقذ الذى اشترى المدينة وقلعتها ، فى تلك السنة ، من الأسقف المسيحى . وترتب على سياسة التسامح التى اتبعها مع رعاياه المسيحيين ، أن احتفظت أسرته بمكانتها وزعامتها . وطالما تردد ذكر أمراء شيزر ، فى تواريخ شمال الشام ، حتى انقرضت الأسرة ، بعد تدمير شيزر بسبب الزلزال الذى حدث سنة ١١٥٧ . ومن هذه الأسرة المعروفين ، أسامة بن منقذ ، مؤلف كتاب الاعتبار ، الذى وصف فيه المجتمع الإسلامى فى فترة من فترات الحروب الصليبية[٢] .

أما خلف بن ملاعب ، فهو من الشخصيات المشهور بمغامراتها وقتذاك ، واستطاع أن يقيم لنفسه إمارة . ففى أول الأمر تولى حمص ، سنة ١٠٨٢ ، بمساعدة أمير حلب ، من بنى عقيل ، كما يتخذ من إمارته حائلا ، يرد عنه هجوم أمير دمشق من السلاجقة . غير أنه لم يلبث أن تخلى عن حمص ، سنة ١٠٩٠ ، وعن أفامية سنة ١٠٩١ ، تحت ضغط السلاجقة ، ثم لجأ إلى مصر بعد أن أمضى سنوات فى سجن السلاجقة

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 22

ابن القلانسى : ذيل التاريخ دمشق ص ١١٢ .

(٢) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 22

العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية من ١٩٦ – ١٩٧ .

ياقوت : معجم الأدباء : ج ٢ ص ١٧٣ – ١٩٦ .

بأصفهان[١] . وأعاده الفاطميون ، سنة ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، واليا على أفامية ، بناء على طلب السكان الذين ثاروا ضد السلاجقة ، وبعثوا إلى الخليفة الفاطمى ، يطلبون إليه أن يرسل إليهم واليا من قبله[٢] .

٣ — الأمراء السلاجقة

بدأ ظهور الغز فى سوريا ، قبيل سنة ١٠٧١ ، (٤٦٣ هـ) بأن استولى قائدهم أتسيز على فلسطين باسم السلطان السلجوقى ، ألب أرسلان ، الذى أخضع فى تلك السنة أيضاً ، أمير حلب محمود بن نصر من بيت مرداس[٣] . وجعله تابعا له . ثم انتزع أتسيز دمشق سنة ١٠٧٥ من أيدى القوات الفاطمية ، غير أنه تعرض فى السنة التالية لهزيمة ساحقة ، عند محاولته مهاجمة مصر . وفرح أهل دمشق بما أصابه من اندحار ، لما عانوه من شدته واستبداده[٤] .

ولعل الفشل الذى لحق بأتسيز ، هو الذى دفع ملك شاه الذى ولى السلطنة بعد وفاة أبيه ألب أرسلان ، إلى أن ينفذ أخاه تتش سنة ١٠٧٧ ، على رأس جيش ضخم إلى الشام ، وقلده حكم كل ما يفتحه من البلاد فى الشام . فاستولى تتش على دمشق[٥] ، واسترد فلسطين من الفاطميين .

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٥ ، ١٢٠ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٣ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٦ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٢ .

(٣) أنظر Camb. Med. Hist IV. p. 261
العرينى : الدولة البيزنطية ص ٧٤٣ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ ، ٩٩ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٤) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٧٥٠ . ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٧٠ — ٧١ .
Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 22.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ٦٥ .

غير أن حلب صمدت لضرباته وهجماته . إذ احتل المدينة سنة ١٠٨٢ ، ثم أعادها لتابعه الأمير مسلم بن عقيل . ولما حدث سنة ١٠٨٤ ، أن قام سلطان السلاجقة بآسيا الصغرى ، سليمان بن قطلمش بغزو شمال الشام ، فاستولى على أنطاكية ، ولقى الأمير العقيلى مصرعه . ثم حاول الاستيلاء على حلب ، سنة ١٠٨٦ ، غير أن ما حدث من القتال بينه وبين تتش ، أسفر عن مصرعه ، واستيلاء تتش على حلب . ومع ذلك فإن ملك شاه احتل حلب ، وأنطاكية والرها ، وجعلها إقطاعات لقادته من الترك فكانت حلب من نصيب أقسنقر والدزنكى[1] .

وحدث فى السنوات القليلة التالية ، أن استطاع تتش ، بفضل مساعدة هؤلاء القادة ، أن يوسع الممتلكات السلجوقية بالشام ، وأن يقوض سلطة بنى عقيل فى الجزير وديار بكر . ولما مات ملك شاه سنة ١٠٩٢ ، اشتد النزاع بين بركيارق بن ملك شاه وخليفته على الحكم ، وبين تتش الذى أعلن نفسه سلطانا ، فى خراسان ، فترة وجيزة ، وقعت أثناءها المعارك والحروب الداخلية التى انتهت سنة ١٠٩٦ (٤٨٨ هـ) ، بهزيمة تتش بالقرب من الرى ، ولقى فيها مصرعه . ولهذه الوقعة أهمية كبيرة فيما يتعلق بالحملة الصليبية الأولى . فلو أن الصليبيين التقوا بكل ما عبأته من موارد المملكة التى حاول تتش إقامتها ، لتغير تاريخ الشام . فالذى حدث فعلا ، هو أن ممتلكات تتش بالشام تفككت ، بسبب ما وقع النزاع بين ولديه رضوان ودقاق ، فضلا عما اشتهر به القادة من الحسد وانتهاز الفرص ، للعمل لحسابهم الخاص[2] .

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 22

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١١٨ – ١١٩ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٨٧ – ٩١ ، ١٠٢ .

العرينى : الدولة البيزنطية ص ٧٥٢ .

(٢) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 22.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٩ – ١٣٠ .

٤ — القادة الترك ، أمراء الأقاليم :

حدث فى خلال القرن العاشر الميلادى ، أن أخذ فى التداعى النظام الإدارى للخلافة والإمارات التى قامت بأملاكها ، وحل مكانه حكومة قامت على أساس حربى . إذ تولى حكم المدن والأقاليم ، ولاة من القادة الحربيين (الأمراء) ، ومعظمهم كانوا أصلا أرقاء ، ثم جرى عتقهم[١] . وكلما زاد ضعف الحكومة المركزية ، تخلت لهم الحكومة عن كثير من حقوقها ، فعهدت إليهم بجبايه الخراج ، ثم جعلت لهم الأراضى ذاتها ، فتهيأت لهم الفرص لزيادة نفوذهم السياسى والاجتماعى والاقتصادى . ولم يلبثوا أن أنشأوا لهم جيوشا من مشترواتهم من الترك ، ونزعوا إلى الاستقلال[٢] .

لم يدخل السلاجقة تغيبرا ماديا على هذا النظام . فالمعروف أن الزعماء السلاجقة يعتبرون رؤساء على أقوامهم وعشائرهم ، ولم يكونوا حكاما على بلاد وجهات . وكانوا يرون أن حكمهم وسلطانهم يمتد حيث سار قومهم ، وليس قاصرا على مساحة معينة[٣] . ولم يطرأ على هذه الفكرة إلا ما تطلبته الأحوال من التعديل والتغيير ، إذ صارت المملكة تعتبر ضيعة شخصية للسلطان الأعظم (الخان) ، يمتلكها باسم قومه ، وله أن يتصرف فيها فى حدود معينة . فأصبح من المسلم به أن يقطع أجزاء مختلفة من المملكة لأفراد أسرته ، ولم يقصد أول الأمر أن يكون لهذه الإقطاعات صفة دائمة ، غير أنه ظهر عند بعض فروع الأسرة النزوع والميل إلى جعل الإقطاع خاصا بها[٤] . وبذا صارت الدولة السلجوقية عبارة عن ممالك ، ترتبط

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 22

(٢) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 22
Lambton : Landlord and Peasant in Persia. p. 54

(٣) Ibid. p. 59

(٤) Ibid. p. 60.

فيما بينها بتحالف مفكك ، يتولى حكمها أفراد من البيت السلجوقى ، يدينون بالولاء والإخلاص لزعيم الأسرة « سلجوق الأعظم » فى فارس وبغداد ، الذى اتخذ لنفسه لقب « سلطان » . أما الولاة الترك الخاضعون لهم ، فالتزموا بإعداد الجيوش بمقتضى ما نالوه من الإقطاعات . وكان لهذا أثر محمود فى عهد السلاطين الأوائل(١) . غير أنه منذ وفاة السلطان ملك شاه سنة ١٠٩٢ ، أصاب هذا النظام الضعف . وترتب على أطماع القادة المتنازعين على السلطان فى جهات عديدة بالإمبراطورية السلجوقية ، أن ساد الاضطراب ، ونشبت الحروب الداخلية ، وكانت سوريا من أكثر الجهات اضطرابا وقلقا . ومن الدليل على ذلك ما واجهه تتش من ثورة الولاة بشمال الشام . وعلى الرغم من أنه نجح فى إخضاع الفتنة ، فإن روح التمرد لم تلبث أن ظهرت من جديد عقب وفاته . وكان من أقوى الأمراء بالشام ، ياغى سيان ، الذى ولى حكم أنطاكية حوالى سنة ١٠٩٠ ، وامتدت أملاكه حتى منبج وتل باشر(٢) .

ولم تلبث العداوة أن نشبت بين ياغى سيان ، ورضوان بن تتش ، بعد أن استولى على حلب . وعلى هذا النحو ، قامت الفتن بين الأمراء الآخرين(٣) .

وساعد أيضاً على قيام إمارات تركية مستقلة ، نظام الأتابكة . وهو نظام اختص به السلاجقة . وسبق الإشارة إلى نظرية السلاجقة فى الحكم ، وهى أن أفراداً من الأسرة الحاكمة ، تولوا إدارة الأقاليم ، وارتبط بكل واحد من هؤلاء الأمراء ، قائد تركى يحمل لقب « أتابك » أى الأمير الوالد

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 22.
Ibid. p. 22.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ١٢٥ – ١٢٦ .

(٣) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades. p. 23.
Ibid. p. 23.

والمؤدب . يعتبر مسئولا عن تربيته حربياً ، وتلقينه أصول إدارة الأقاليم . وبفضل ما كان للأتابك من سلطة أبوية على الأمير السلجوقى ، غدا له من السلطان والنفوذ ما جعله أكثر من مجرد قائد . يضاف إلى ذلك ما درج عليه الأتابكة ، من أن يتزوج الواحد منهم والدة الأمير السلجوقى ، ويتزوج الأمير من ابنة الأتابك[١] .

ووفقاً لما جرى من التقاليد ، جعل تتش ، الأمير جناح الدولة الحسين ، أتابكاً لابنه رضوان ، واختار الأمير ظهير الدين طغتكين ، أتابكاً لابنه دقاق . فلما حلت الهزيمة بتتش ، سنة ١٠٩٦ ، عند الرى ، ولقى مصرعه ، احتل ابنه رضوان حلب ، وادعى امتلاكه لجميع سوريا ، فصارت السيطرة لأتابكه جناح الدولة . أما دقاق ، الابن الثانى لتتش ، فإنه لجأ أيضاً إلى حلب ، غير أنه هرب إلى دمشق بناء على دعوة جاءته سراً من حاكم دمشق ، فأعلن سلطانه بها . وفى هذه الأثناء ، قدم إلى دمشق أتابكه طغتكين ، بعد أن أطلق سراحه من معتقله بالرى[٢] .

ولما أخذت الدولة السلجوقية فى الانهيار ، أصبح من المقرر أن ينتهز الأتابكة الفرصة ، كيما يحلّوا مكان أمراء السلاجقة ، ويقيموا أسرات حاكمة ، فى الجهات التى كانوا بها أتابكة . على أن ذلك لا يدل على أنهم انشقوا على سادتهم الكبار ، السلاجقة العظام ، بل إنهم حرصوا على إظهار الولاء والتبعية للسلاطين ، الذين لم يسعهم إلا قبول الأمر الواقع . فحينما تقرر سنة ١١٢٧ تعيين زنكى أتابكاً على الموصل ، كان مؤدباً لصغيرين من أبناء السلطان غير أنهما لم يقوما ، ولم ينتظر منهما أن يقوما ، بإدارة شئون البلاد . وحدث مثل ذلك فى دمشق ، فحينما قام طغتكين

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠ .

بإدارة الحكومة ، لم يلبث أن تخلص من الحكومة السلجوقية ، وجعل الحكم فى أسرته[١] .

٥ — التركمان :

ومن عوامل الاضطراب والقلق السياسى ، ما حدث من تدفق التركمان على الجزيرة وديار بكر . والمعروف أن هؤلاء التركمان اشتهروا بتربية الخيل ، والمغامرة والمخاطرة ، فكانوا بذلك مصدراً دائماً للاضطراب والقلق . وزاد من خطورتهم ، ما اشتهر به زعماؤهم من الطيش والتهور ، وشدة القلق ، والمطامع السياسية . ومن هؤلاء الزعماء أتسز ، الذى سبق السلاجقة إلى الاستيلاء على الشام . غير أن شدة ملك شاه وتتش ، كانت كفيلة بالحد من مطامعهم ، فترة من الزمن . ودخل كثير منهم فى خدمة الجيوش السلجوقية . على أن ما أصاب المملكة من تفكك ، زمن تتش ، هيأ لهم الحرية الكاملة ، أعادهم إلى سابق حريتهم . فلم يمض سنتان أو ثلاثة ، حتى نجح كثير منهم فى إقامة إمارات مستقلة[٢] .

وأشهر هؤلاء الزعماء التركمان ، فيما يتعلق بأحوال الشام ، إيلغازى وسقمان ابنا أرتق ، الذى عينه تتش حاكماً على بيت المقدس[٣] . وخلف إيلغازى أباه أرتق فى وظيفته ، بينما تفرق إخوته فى سائر الجهات ، يلتمسون أرزاقهم وحظوظهم . فانحاز سقمان أول الأمر ، إلى رضوان أمير حلب ، فى نضاله ضد دقاق ، وكافأه رضوان على ذلك بأن منحه أيضاً حكم

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٢) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٩٦ ، سنة ٤٧٨ هـ .

Gibb : Damascus Chroincle p. 23

معرّة النعمان[1] . ولما استولت الجيوش الفاطمية على بيت المقدس، سنة ١٠٩٨، حاول سقمان أن يوطد سلطانه فى الرها ، ثم أنشأ إمارة أخرى فى حصن كيفا . واستقرت أسرة أرتقية أخرى فى ماردين . واستقل سليمان بن إيلغازى بسموساط ، قبل قدوم الصليبيين . وفى هذه الأثناء أقام أفراد آخرون من بيت أرتق إمارات لم تستمر زمناً طويلا[2] . وخرج على طاعة دقاق سنة ١٠٩٦ ، أمير تركمانى آخر ، اسمه إينال ، فاستولى على آمد ، فقامت بها أسرة حاكمة ، لم تلبث أن ارتبطت بصلة المصاهرة مع الأراتقة فى ماردين[3] .

٦ — السكان :

ما حدث من المنازعات والحروب بين الأمراء والزعماء والقادة ، لم تترك فرصة للسكان لأن يقوموا بدورهم ، ويمارسوا نشاطهم . ومن الملحوظ أنه على الرغم من أن السكان الوطنيين فى جهات كثيرة من العالم الإسلامى ، ولا سيما فى مصر والعراق ، لم يحفلوا كثيراً بما يجرى من الأمور السياسية ، فإنهم فى سوريا ، ظلوا محتفظين بقدر من الصفات الحربية التى اشتهروا بها ، ولا زال لهم نفوذ كبير ، وسلطان قوى ، فى سير الحوادث وتطورها . فإذا كانت قوة الفاطميين والسلاجقة ، والقادة من الترك ، استندت إلى جيوشهم المؤلفة من مشترواتهم من الرقيق ، فإنه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ١٦٨ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٢) Gibb : op. cit. p. 23.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ١٦٨ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٦ .

(٣) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23

لم يكن من اليسير أن تقوم إمارات وطنية ، مثل إمارة شيزر ، التى أنشأها بنومنقذ ، إلا بفضل ما ظفروا به من تأييد ومساعدة من السكان المحليين . وكان لسكان المدن الكبيرة ، ولا سيما حلب ودمشق من القوة الحربية ما يكفى للحد من نزعات حكامهما الاستبدادية . والواقع أن الولاة الترك ، خشوا هذه الروح الحربية ، وحرصوا على أن يتخذوا من الوسائل والإجراءات ما يناهضها ، ولم يسعوا إلى الإفادة منها ، واستغلالها فى النواحى الصحيحة[١] . والنتيجة الطبيعية لذلك ، هى أن الأحداث ، الذين هم عبارة عن جماعات مسلحة من سكان المدينة ، لم يعودوا يتقيدون بنظام من النظم . فاشتهروا ، فى دمشق أثناء الحكم الفاطمى ، بالتمرد على الولاة الذين يبعث بهم الفاطميون لحكم الشام[٢] . وما نشب من القتال بين الأحداث والجيوش الفاطمية من المغاربة ، فى دمشق ، فى السنوات ٤٦٣ — ٤٦٧ ، ٤٦٧ — ٤٦٨ (١٠٧٠ — ١٠٧٥) هيأ لأتسيز والتركمان الفرصة للاستيلاء على المدينةسنة ١٠٧٥ . ثم ازداد شأن الأحداث فى مستهل القرن الثانى عشر الميلادى ، وأضحت لهم السيطرة على الحياة فى دمشق بعد وفاة أتسيز ، ثم تتش ، وانقسام الشام إلى إمارات عديدة[٣] .

ثم صار للأحداث رئيس ، اتخذ لقب رئيس الأحداث أو رئيس البلد ، يقر والى المدينة اختياره . على أن الرياسة فى دمشق أضحت فى أسرة بنى الصوفى (١٠٩٥ — ١١٥٤)[٤] .

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23.

(٢) Cahen : Mouvements populaires et autonomisme urbaine dans l' Asie Musulmane du moyen âge. Leiden 1959. p. 11 - 12

(٣) Ibid. p. 13.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٦٨ .

(٤) Cahen : Mouvements populaires. p. 14-15

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ٢٥٧ .

ابن العديم : زبدة الحلب — نشر الدهان — ج ١ ، ص ٢٨٧ .

وما حدث فى حلب من ظهور الأحداث ، وتطور نظامهم ، ونشاطهم يماثل ما جرى فى دمشق ، إذ اشتركوا فيما وقع من التنازع على امتلاك حلب بين الفاطميين والمرداسيين ، وصار لهم رئيس يدير أمورهم . وما حدث من انتقال حلب إلى يد أمير الموصل ، مسلم بن عقيل ، إنما تم بفضل رئيس حلب ، الشريف حسن بن هبة الله[١] . ولما تعرضت حلب لهجوم تتش سنة ١٠٨٥ ، بعد مصرع مسلم بن عقيل ، استنجد بالسلطان ملك شاه ، الذى قدم إلى حلب سنة ١٠٨٦ ونصب عليها أقسنقر[٢] . ثم صارت رئاسة الأحداث ، فى أسرة بنى بديع ، وازداد نفوذهم وسلطانهم ، نتيجة لضعف رضوان ، واشتركوا فيما وقع من الأحداث عند قدوم الصليبيين ، بما قاموا به من هجمات على إمارة أنطاكية[٣] .

والواقع أن أهل المدن ، أثبتوا بأنهم يدخرون من الصفات الحربية ، ما قد يكون لها أثر قوى ، فى وقف تقدم الصليبيين ، لو أنهم لقوا نصيباً كبيراً من الاهتمام والتأييد[٤] . على أنه ينبغى ألا نغفل أن ما طرأ من التغيير والانقلاب فى الأحوال السياسية ، وما نجم عن الحروب من الدمار والخراب ، لم يسلم من أثره سكان المدن والفلاحون المشتغلون بالزراعة . إذ ترتب على انهيار الإدارة الفاطمية فى الشام ، وسوء حكومة أتسز ، أن الأحوال الاقتصادية بلغت من السوء ، ما جعل سكان دمشق ، يتناقص عددهم سنة ١٠٧٥ ، من نصف مليون إلى ثلاث آلاف نفس . على حين أن ما أصاب حلب من الرخاء ، إنما يرجع إلى ما اشتهرت به

---

(١) Cahen : Mouvements populaires. p. 16

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٦٨ — ٦٩ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٩٨ — ٩٩ .

(٣) Cahen : Mouvements populaires p. 16.

(٤) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23.

لم يكن من اليسير أن تقوم إمارات وطنية ، مثل إمارة شيزر ، التى أنشأها بنومنقذ ، إلا بفضل ما ظفروا به من تأييد ومساعدة من السكان المحليين . وكان لسكان المدن الكبيرة ، ولا سيما حلب ودمشق من القوة الحربية ما يكفى للحد من نزعات حكامهما الاستبدادية . والواقع أن الولاة الترك ، خشوا هذه الروح الحربية ، وحرصوا على أن يتخذوا من الوسائل والإجراءات ما يناهضها ، ولم يسعوا إلى الإفادة منها ، واستغلالها فى النواحى الصحيحة[1] . والنتيجة الطبيعية لذلك ، هى أن الأحداث ، الذين هم عبارة عن جماعات مسلحة من سكان المدينة ، لم يعودوا يتقيدون بنظام من النظم . فاشتهروا ، فى دمشق أثناء الحكم الفاطمى ، بالتمرد على الولاة الذين يبعث بهم الفاطميون لحكم الشام[2] . وما نشب من القتال بين الأحداث والجيوش الفاطمية من المغاربة ، فى دمشق ، فى السنوات ٤٦٣ — ٤٦٧ ، ٤٦٧ — ٤٦٨ (١٠٧٠ — ١٠٧٥) هيأ لأتسيز والتركمان الفرصة للاستيلاء على المدينةسنة ١٠٧٥ . ثم ازداد شأن الأحداث فى مستهل القرن الثانى عشر الميلادى ، وأضحت لهم السيطرة على الحياة فى دمشق بعد وفاة أتسيز ، ثم تتش ، وانقسام الشام إلى إمارات عديدة[3] .

ثم صار للأحداث رئيس ، اتخذ لقب رئيس الأحداث أو رئيس البلد ، يقر والى المدينة اختياره . على أن الرياسة فى دمشق أضحت فى أسرة بنى الصوفى (١٠٩٥ — ١١٥٤)[4] .

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23.

(٢) Cahen : Mouvements populaires et autonomisme urbaine dans l' Asie Musulmane du moyen âge. Leiden 1959. p. 11 - 12

(٣) Ibid. p. 13.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٦٨ .

(٤) Cahen : Mouvements populaires. p. 14-15

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ٢٥٧ .

ابن العديم : زبدة الحلب — نشر الدهان — ج ١ ، ص ٢٨٧ .

وما حدث فى حلب من ظهور الأحداث ، وتطور نظامهم ، ونشاطهم يماثل ما جرى فى دمشق ، إذ اشتركوا فيما وقع من التنازع على امتلاك حلب بين الفاطميين والمرداسيين ، وصار لهم رئيس يدير أمورهم . وما حدث من انتقال حلب إلى يد أمير الموصل ، مسلم بن عقيل ، إنما تم بفضل رئيس حلب ، الشريف حسن بن هبة الله[١] . ولما تعرضت حلب لهجوم تتش سنة ١٠٨٥ ، بعد مصرع مسلم بن عقيل ، استنجد بالسلطان ملك شاه ، الذى قدم إلى حلب سنة ١٠٨٦ ونصب عليها أقسنقر[٢] . ثم صارت رئاسة الأحداث ، فى أسرة بنى بديع ، وازداد نفوذهم وسلطانهم ، نتيجة لضعف رضوان ، واشتركوا فيما وقع من الأحداث عند قدوم الصليبيين ، بما قاموا به من هجمات على إمارة أنطاكية[٣] .

والواقع أن أهل المدن ، أثبتوا بأنهم يدخرون من الصفات الحربية ، ما قد يكون لها أثر قوى ، فى وقف تقدم الصليبيين ، لو أنهم لقوا نصيباً كبيراً من الاهتمام والتأييد[٢] . على أنه ينبغى ألا نغفل أن ما طرأ من التغيير والانقلاب فى الأحوال السياسية ، وما نجم عن الحروب من الدمار والخراب ، لم يسلم من أثره سكان المدن والفلاحون المشتغلون بالزراعة . إذ ترتب على انهيار الإدارة الفاطمية فى الشام ، وسوء حكومة أتسز ، أن الأحوال الاقتصادية بلغت من السوء ، ما جعل سكان دمشق ، يتناقص عددهم سنة ١٠٧٥ ، من نصف مليون إلى ثلاث آلاف نفس . على حين أن ما أصاب حلب من الرخاء ، إنما يرجع إلى ما اشتهرت به

---

(١) Cahen : Mouvements populaires. p. 16

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٦٨ – ٦٩ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٩٨ – ٩٩ .

(٣) Cahen : Mouvements populaires p. 16.

(٤) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23.

حكومة أقسنقر من الحزم ، وما اتبعه من سياسة تجارية سليمة(١) .

على أن قوة الحركات القومية ، تزداد وضوحا فى الجهات الجبلية بالشام على سائر الجهات الزراعية الخصيبة والمدن . إذ أن سلسلة جبال لبنان ، وامتدادها نحو الشمال ، المعروف عند العرب بجبل السمّاق ، لم تكن فحسب موطن المارونيين المسيحيين ، بل كانت أيضاً ملاذاً للثوار والمنشقين ، فأقاموا بها من النظم التى بلغت من القوة ما جعلها تتحدى كل ما عند الأمراء المسلمين من جيوش وقوات . ففى أثناء القرنين السابقين على الحروب الصليبية ، تيسر لنحلتين متطرفتين من المذهب الشيعى ، أن تتخذا مستقرا وموطنا فى تلك المعاقل(٢) . والنحلة الأولى تتمثل فى الدروز ، وهم فئة من الإسماعيلية ، تألفت عقب اختفاء الحاكم سنة ١٠٢١ ، وتدين بألوهيته ، وتنتمى إلى مؤسسها الدرزى ، واستقر أرباب هذا المذهب بين أخلاط السكان النازلين بالمرتفعات الواقعة بجنوب لبنان ، وانتشروا إلى الجهات الواقعة على الهضبة بين الأورنت وحلب (والمعروفة بجبل السمّاق)(٣) . أما النحلة الأخرى ، فهى المعروفة بالنصيرية ، التى لقى دعاتها تأييدا من الحمدانيين ، ووطدت أقدامها بين العشائر اليمنية فى جبل بهرة ، الذى أصبح يسمى جبل النصيرية ، جنوب أنطاكية(٤) . وما كان من التنازع بين هذه المذاهب المختلفة ، واتخاذ مواضعها فى الجبال ، التى تعوق الاتصال بين الساحل وداخل البلاد ، جعل أرباب هذه المذاهب ، عند قدوم الصليبيين يترددون بين سياسات مختلفة ، فلم يعرف عن النصيريين شىء

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 24

(٢) Ibid. p. .42

(٣) Gibb : The Caliphate and the Arab States. p. 92
Lewis : The Ismailites and the Assassins. History of the Crusades, I. p. 105.

(٤) Gibb : The Caliphate and the Arab States. p. 92.
Gibb : Damascus Chrouicle of Crusades p. 23.

يذكر ، سوى أن عددا كبيرا منهم لقى مصرعه على يد الفرنج ، أما الدروز فإنهم انحازوا إلى سائر المسلمين ، بينما انضم المارونيون إلى صفوف الصليبيين ، وحاربوا إلى جانبهم[1] .

وإلى جانب النصيريين والدروز ، نصادف حركة شيعية ثالثة ، اشتهرت بطابعها الثورى ، أخذت تتشكل وتنتظم فى مستهل الحرب الصليبية بشمال الشام . وهذه الحركة هى المعروفة بالحركة الباطنية . وهى نحلة انفصلت عن المذهب الفاطمى ، واشتهر أصحابها بالحشيشية . وعلى الرغم من أن نشاطهم لم يبدأ إلا بعد سنوات ، فإن الإشارة إليهم ، ترجع إلى ما كان لهم من أثر فى توليد روح الكراهية بين السكان ، ضد الحكام من الترك والأمراء المحليين[2] .

وفى شمال الشام والجزيرة قامت دويلات أرمنية . فالمعروف أن الإمبراطور باسيل الثانى أدرك الخطر الذى تعرضت له الحدود الشرقية ، من قبل الترك الذين سيطروا على الخلافة العباسية ، وأن حدوده المتاخمة للشام ، أضحت بمأمن من الخطر الفاطمى ، ولا سيما بعد وفاة الخليفة الحاكم الفاطمى ، ونزوع ابنه الظاهر إلى السلام . فأضاف باسيل إلى الإمبراطورية ما جاورها من أقاليم أرمنية ، وأعقب ذلك بالاستيلاء على الإقليم الواقع بأقصى الجنوب الشرقى ، وهو إقليم فاسبوركان . وفى سنة ١٠٤٣ تنازل أمير آنى الأرمنى للإمبراطور البيزنطى عن أملاكه ، ثم اندمج سنة ١٠٦٤ إمارة قارس الأرمنية فى الأملاك البيزنطية[3] . والأمراء الذين تجردوا من أملاكهم ، حصلوا على أراضى فى جهات أخرى

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23

(٢) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 26
Lewis : The Ismsilites and the Assassins p. 108.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 33
Charanis : The Byzantine Empire. p. 178.

بالإمبراطورية ، حيث تبعهم سائر الأرمن : مثال ذلك ، حصل أمير فاسبوركان على ضياع كبيرة فى قبادوقيا ، فلحق به نحو ١٤ ألف من الأرمن فضلا عن نسائهم وأطفالهم[١] . ولما اشتدت غارات السلاجقة ، غادر كثير من الأرمن مواطنهم ، ولحقوا بهذه المواطن الجديدة ، بينما تأهب ما يقرب من نصف سكان أرمينية للهجرة نحو الجنوب الغربى[٢] .

على أن الأرمن الذين لجأوا إلى قبادوقيا ، لم يلبثوا بعد أن توغل الترك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، أن نزحوا إلى جبال طوروس ، واللكام وانتشروا فى وادى الفرات الأوسط[٣] ؛ وأقام روبين الذى ينتمى إلى أسرة بقراط الأرمنية ، إمارة فى الشمال الغربى من قليقية ، سنة ١٠٧٩ ، بعد أن خرج على طاعة الإمبراطورية البيزنطية . وحوالى ذلك الوقت ، أنشأ أوشين ابن هيثوم من زعماء الأرمن ، إمارة تقع إلى الغرب من إمارة روبين . ثم حدث أن تغلب على روبين ، وأوشين ، زعيم أرمنى آخر ، وهو بهرام ، الذى سمّاه اليونانيون فيلاريت . فأقام إمارته فى أرمينية الصغرى[٤] ، وامتدت ممتلكاته بذلك من طرسوس إلى ما وراء نهر الفرات . وحرص فيلاريت ، من أجل المحافظة على إمارته ، أن يكون مواليا لكل من الإمبراطور البيزنطى ، وأمراء حلب من العرب[٥] .

---

(١) Ibid : 179

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 73.

(٣) Ibid : p. 73.

ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الأرمن ظل ينزل شمال جبال طوروس ، وفى ذلك يشير المؤرخ المجهول ، إلى أن الصليبين باقترابهم من قيصرية بقبادوقيا ، دخلوا بلاد الأرمن . انظر :

Sirarpie der Nersessian. The Kingdom of Cilician Armenia. History of Crusades II p. 63.

(٤) Runciman : op. cit. I. p. 73.

(٥) Ibid : p. 74.

وعند قدوم الصليبيين صارت السيطرة على الرها للزعيم الأرمني توروس ، الذى كان بخدمة أميرها التركى بوزان ، فلم يلبث أن طرد الحامية التركية ، وبسط سلطانه على حكام طوروس الشرقية ، واستقل جبريل بملطية ، بعد أن تخلص من الحامية التركية بها . وفى أقصى الغرب ، سيطر كوخ فاسيل Kogh - Vasil وأخوه ، على المنطقة الواقعة بين قلعة الروم ومرعش ، والتى كانت بيد فيلاريت . وفى فليقية ، فى غرب جبال طورس ، ، استقر سادة من الأرمن ، منهم قسطنطين الروبيني [١] .

الأحوال الاجتماعية :

لم يكن التفكك السياسى فحسب هو الذى ساد سوريا والجزيرة عند قدوم الحروب الصليبية ، بل إن هذه الجهات شهدت وقتذاك الانقسامات العنصرية والدينية واللغوية . فمن الناحية اللغوية كانت اللغة العربية هى لغة المسلمين ، من غير الأتراك ، والمسيحيين اليعقوبيين ، والمسيحيين اليونانيين ، وظلت مستعملة فى أنطاكية واللاذقية ، على الرغم من الصفة اليونانية التى تغلب عليهما . والواضح أن اللغة الأرمنية اختص بها الأرمن دون غيرهم ، بينما سادت التركية عند سكان سوريا وآسيا الصغرى من التركمان [٢] .

وتتمثل الناحية العنصرية ، فى القرن الحادى عشر ، فى هجرتين كبيرتين ، كان لهما تأثير فى التركيب العنصرى المعروف وقتذاك . وهاتان الهجرتان هما هجرة الترك ، وهجرة الأرمن . ولم يكن للأرمن أهمية فى تاريخ الشرق الأدنى ، كالتى صارت لهم فى القرن الحادى عشر . فسواء انتقل الأرمن ، على أنهم من جنود الدولة البيزنطية ، أو هاجروا

---

(١) Cahen : La Syrie du Nord a l'epoque des Croisades p. 189.

(٢) Cahen : La Syrie du Nord pp. 190 - 193.

من تلقاء أنفسهم من بلادهم ، فراراً من الترك ، فإنهم انتشروا فى جهات قبادوقيا وطوروس ، وفليقية ، وتصادفهم أيضاً فى الرها وفى أرباض تل باشر ، وفى شمال سوريا (أنطاكية ، اللاذقية ، ارتاح ، أفامية) . ومع أنه لم يكن منهم فى جنوب سوريا إلا عدد ضئيل ، فإنه هاجر إلى مصر أعداد كبيرة من الأرمن ، والتحقوا بالجيش الفاطمى ، وبفضلهم تغلب الوزير ، بدر الجمالى ، وهو أرمنى اعتنق الإسلام ، وابنه الأفضل ، على العناصر المتمردة فى الجيش من الترك والسودان[١] .

ولم يتبع الفتح التركى استقرار الترك واستيطانهم فى سوريا . ومن المحقق أن معظم الأمراء العرب ، حل مكانهم أمراء من الترك ، إذ أن الاستيطان والاستقرار يتطلب قدوم جماعات كثيرة من التركمان . وهذا ما حدث فى أرمينيا ، وقبادوقيا ، على أطراف الأناضول . غير أن ذلك الاستيطان لم يكن تاما ، ولم يجر استقرار التركمان فى الأناضول ، إلا بعد فرار أعداد كبيرة من التركمان ، من وسط آسيا ، من وجه التتار ، فى القرن الثالث عشر[٢] .

قدم التركمان إلى سوريا فى القرن الحادى عشر ، غير أنهم لم يستقروا بها ، إنما هبط جانب كبير منهم فى ديار بكر ، واستقدم إيلغازى طائفة منهم إلى سوريا . وحرص زنكى ، وابنه نور الدين ، على إنزالهم على الحدود بين أملاكهم وأملاك الصليبيين . ونقل التركمان معهم روح الغزو والمغامرة ، واتسعت الجهات التى نزلوا بها على الحدود بين المسلمين والصليبيين فى سوريا ، غير أنهم لم يكونوا أكثرية ساحقة فى الجهات التى حلوا بها[٣] .

---

(١) Cahen : La Syrie p. 190

(٢) Ibid : p. 190.

(٣) Cahen : La Syrie p. 190

ولم يكن استيطان التركمان المنظم ، سوى صورة أخرى من السياسة التى اتبعها المسلمون والمسيحيون ، منذ بدأت الحروب بينهما على الحدود ، واستمرت خلال الحروب الصليبية . وهذه السياسة أدت أيضاً إلى نزول الأرمن على الحدود السورية الأناضولية ، وفى أواسط وادى الفرات . ويرجع إليها نزول القبائل البدوية على الحدود . وحرص نور الدين ، فيما بعد ، على أن يشجع العرب على أن يستقروا ، إلى جانب التركمان ، بالجهات الواقعة على الحدود ، والتى هجرها سكانها بسبب الحروب المستمرة(١) .

وترتب على ما حدث باستمرار من الاتحاد بين شمال سوريا والجزيرة ، أن حلت جماعات من الأكراد ، واستقرت حاميات حربية منهم فى جهات من سوريا ، مثل حصن الأكراد ، والحدث (طوروس) ، وديار بكر وكردستان(٢)

ولم يكن الاختلاف الدينى ، بأقل شأنا من الاختلاف العنصرى . ففى شمال سوريا ، مارس اليهود الصناعات المختلفة فى أنطاكية واللاذقية وكثير من البلاد الإسلامية ، وكانت لهم بهذه المواضع أحياء خاصة بهم(٣) .

أما المسيحيون ، فنهم النساطرة والرهبان الجرجان ، واليونانيون والملكانيون ، والأرمن الجرجان ، واليعاقبة المونوفيزتيون . ولم يكن الروم الملكانيون من العنصر اليونانى ، بل كانوا من السوريين الهلينيين ولهم أسقف فى حلب ، فضلا عن البطريرك فى أنطاكية ، وانتشرت بينهم اللغة العربية . وتمثل الكنيسة المونوفيزتية غالبية السكان ، فلها أساقفتها ، فى أنطاكية وكفرطاب ، والرها ، وقيصوم ، وسروج ،

---

(١) Cahen : La Syrie p. 190

(٢) Ibid : p. 190

Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23.

(٣) Cahen : La Syrie p. 191

وحصن منصور وسموساط ، ومرعش[١] . وللمونوفيزتيين أيضاً أديرة فى طوروس . وشيد اليعاقبة كنيستين فى أنطاكية ، زمن ياغى سيان ، ولهم أتباع وأنصار عديدون فى سوريا وإيران . غير أن معظمهم ظل فى الجزيرة وأقاليم الفرات . أما المارونيون ، الذين لا زالوا ، فيما يبدو ، يستعملون اللغة السريانية ، فيعتبرون أكبر أقلية . والمعروف أن الأرمن أقاموا لهم كنائس فى جهات متفرقة[٢] .

ويقابل هذا الاختلاف الدينى اختلاف اجتماعى ، فيعتبر الإغريق الطبقة الأرستقراطية بين العناصر المسيحية الأخرى ، من الأرمن ، والمونوفيزتيين السوريين . وكانت لهم السيادة فى هذه الجهات ، قبل قدوم الترك . ومن الطبيعى أن تكون عواطفهم مع البيزنطيين ، فيشاركون بيزنطة مؤامراتها . وترجع أهمية الأرمن ، إلى ما كان يسود بينهم من تنافس ، وإلى علاقتهم باليونانيين ، وإلى ما كان لهم من إمارات . وترتب على تنافسهم ، أن صار لهم أهمية عند الفاتحين . إذ قبلوا الخضوع لحكم ملك شاه السلجوقى ، مقابل الإفادة من السلام والأمان وارتفاع شأن مكانتهم الاجتماعية . فإذا وقع الاضطراب ، وسادت الفوضى دفعتهم مسيحيتهم وقوميتهم ، إلى التحول إلى جانب بيزنطة[٣] .

وما جرى من اختلاف بين المسيحيين ، يقابله الاختلافات المذهبية بين المسلمين إذ كان معظم السكان المسلمين يدينون بمذهب الإمام الشافعى ،

---

(١) Cahen : La Syrie p. 191
Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23.

(٢) Cahen : La Syrie p. 192.
Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 23.

(٣) Cahen : La Syrie. p. p. 190.
Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 24.

بينما اعتنق الترك الإسلام ، على مذهب أبى حنيفة . وعلى الرغم من سيادة المذهب السنى فى دمشق وفلسطين ، فإن أنصاره كانوا أقلية فى شمال سوريا ؛ واعتنق المذهب الشيعى الحلبيون والكلابيون ، وجرى أحيانا ذكر اسم الخليفة الفاطمى ، فى خطبة الجمعة ، زمن رضوان[١] . والواضح أنه جرى فى المذهب الشيعى ، اختلافات ، نجم عنها ظهور نحل جديدة ، مثل الإسماعيلية والدروز والنصيرية . ثم شاع فى سوريا ، عند قدوم الصليبيين ، مذهب الحشيشية ، الذى جاء من إيران . وقام مذهبهم على إظهار الطاعة العمياء لرئيسهم ، فيما يتعلق بالاغتيال السياسى . وكان الغرض منه أول الأمر ، مقاومة الحكم السلجوقى ، وانتشر بسبب كراهية السكان للحكم السلجوقى ، وما اشتهر به الحشيشية (الباطنية) من الحماس لأعمالهم ، ولكثرة دعاتهم من العناصر الإيرانية والتركية بين حاشية السلطان السلجوقى ، نصادفهم فى العراق وديار بكر وفى سوريا ومصر[٢] .

على أن هذا الاختلاف لم يؤثر كثيراً فى الوضع الاجتماعى ؛ فإذا كان المذهب الشيعى ساد بين الطوائف وأرباب الحرف ، وبين البدو ، والمزارعين ، فإن المذهب السنى انتشر أيضاً بين هذه الفئات . على أن الفارق الكبير ، نلمسه بين البدو (العرب ، التركمان ، الكرد فى أعالى الجزيرة) ، وبين الحضر والمقيمين بالمدن والبلاد ، ولم تكن بين الفريقين حدود ثابتة[٣] .

التنظيمات العسكرية :

ما كان معروفاً من قبل ، من نظام حربى ، يقوم على أن كل رجل

(١) Cahen : La Syrie, p. 190.

(٢) Cahen : La Syrie, p. 191.

(٣) Ibid : p. 191.

Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 24.

مسجل فى ديوان القبيلة ، ويحصل على عطاء أو رزق من بيت المال ، ومكلف بأن يكون على أتم استعداد ، للاشتراك فى الحملات الحربية ، تعرض للتغيير والتبديل ، بما جرى من قيام جيوش دائمة . ولم يحل القرن العاشر الميلادى ، حتى تغير تماماً الأساس الحربى لمعظم الإمارات الإسلامية فى الشرق . فغدا أساس القوة بها ، فرقة من الحرس ، تتألف عادة من الأرقاء ، الذين يجلبون على أنهم جزية ، أو يرثهم أحد الأمراء ، فيما يرث ، عند ولاية الحكم[١] . وهذه الفرق ، هى التى تألف منها الجيش الدائم ، ونفقاتها تعتبر أول ما تحملته موارد الدولة من أعباء . وكان معظم هؤلاء المماليك من الترك المجلوبين من وسط آسيا ، وازداد عددهم بالصقالبة المجلوبين من شرق أوربا ، والروم والأسرى ، الذين جاءوا من الأناضول وأرمينيا وبلاد الكرج[٢] . وانتظم هؤلاء فى فصائل ، وكانوا من الفرسان ، المشهورين بالمهارة فى نزع القوس ، والرمى وهم على ظهور الخيل ، ولا يستخدمون الرماح والسيوف إلا عند اقتراب صفوف الأعداء منهم[٣] .

ويطلق على الجيش الدائم المؤلف من فرقة الحرس الراكبة ، اسم العسكر ، والجندى منهم « عسكرى » أو « غلام »[٤] . ويبدو أنه كان ثمة نظام للترقية فى سلك الجيش ، أساسه مدة الخدمة[٥] .

واتخذ قائد الفصيلة لقب أمير ، بينما صار يطلق على القائد الأعلى لقب الحاجب . وجرى عادة اختيار القادة من بين جند الحرس الخاص للسلطان .

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 24.

(٢) Ibid : p. 24.

(٣) Ibid : p. 24.

(٤) وهو المعروف فى كتاب أعمال الفرنج وحجاج بيت المقدس باسم Angulani

(٥) Gibb : Damascus Chronicle, p. 25.

وكانوا يتولون ، إلى جانب مناصبهم الحربية ، وظائف هامة فى القصر . وصار للقادة الذين ارتقوا إلى هذه المناصب العالية ، الحق فى شراء مماليك لهم ، وفى أن يتخذوا منهم جيشاً خاصاً بهم . فإذا مات سيدهم ، انضافوا إلى الجيش الدائم ، المعروف بالعسكر ، وتألف منهم عادة فصيلة مستقلة ، تحمل اسم سيدهم[١] .

والواضح أن الأمراء الكبار ، احتاجوا إلى مبالغ كبيرة من المال ، للإنفاق على جيوشهم الخاصة . ولتحقيق هذا الغرض ، جاز لكل واحد منهم ، أن يحصل من إقليم معين يتولى حكمه والدفاع عنه ، على كل ما يغله من الخراج ، وهذا هو الإقطاع بالمعنى الإسلامى[٢] . إذ ترتب على الضعف الذى أصاب النظام الإدارى ، الذى كان يسيطر أول الأمر على الإدارة المالية فى أقاليم الدولة ، وكان حجر عثرة فى سبيل أمراء الأقاليم من رجال الجيش ، أن أضحى للأمراء السلطة المطلقة فى إدارة إقطاعاتهم . أما النتائج الطبيعية التى نجمت عن هذا النظام ، فتتمثل فى الفساد المتأصل فى الأداة الحكومية ، وما وقع من نزاع خطير ، بين الأمراء ، للحصول على أوفر الجهات غلة ، فضلا عما ترتب عليه ، من تشجيع دائم للنزوع إلى الثورة والتمرد ، وقيام إمارات مستقلة[٣] .

يشير عماد الدين الأصفهانى ، من مؤرخى القرن الثانى عشر ، وعنه نقل سائر المؤرخين ، إلى أن السلاجقة هم الذين أدخلوا النظام الإقطاعى فى العالم الإسلامى ، إذ أن نظام الملك ، أدرك عند توليه الوزارة أن المُلْك « كان قد اختل نظامه ، والدين قد تبدلت أحكامه ، فى أواخر

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 25.

(٢) Ibid : p. 25.

Lambton : op. cit. p. 54.

(٣) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 26.

دولة الديلم (البويهيين) ، وأوائل دولة الترك (السلاجقة) ، وقد خربت الممالك بين إقبال هذه وإدبار تلك ، ولم يكن لأحد من قبل إقطاع . فرأى نظام الملك ، أن الأموال لا تحصل من البلاد لاختلالها ، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها ففرقها على الأجناد إقطاعاً ، وجعلها لهم حاصلا وارتفاعاً ، فتوافرت دواعيهم على عمارتها ، وعادت فى أقصر مدة إلى أحسن حالة من حليتها . وربما قرر لواحد من الجند ألف دينار فى السنة ، فوجه نصفه على بلد فى الروم ، ونصفه على وجه فى أقصى خراسان ، وصاحب القرار راض »[1] . الواقع أن هذه العبارة ، تدل على ما أصاب الإقطاع من تغيير بعد نظام الملك ، إذ استغرق التغيير نحو قرن من الزمان ، تغير فيه الإقطاع إلى الصورة الحربية ، فعماد الدين صنف كتابه فى العصر الذهبى للإقطاع الحربى[2] .

ولم يعترف نظام الملك بأن الإقطاع الحربى كان معروفاً من قبل ، ولم يزعم بأنه ابتكره ، إذ أن الإقطاع لم يشمل كل العسكريين ، فلم يكن للغلمان (الأرقاء) إقطاعات . والجديد الذى جاء به نظام الملك ، هو أنه أدرك أن الفرسان المدرجين بديوان الجيش ، لم يوزع عليهم إلا إقطاعات قليلة مبعثرة فى سائر الأقاليم . وإذ كان الجيش السلجوقى أكثر عدداً من الجيش البويهى ، إذ بلغ عدده نحو ٧٠ ألف فارس ، وعارض نظام الملك كل سياسة ، ترمى إلى إنقاص عدده ، فكان لزاماً عليه أن يعمل على زيادة ما يوزع من الإقطاعات . واستطاع أن يحقق غرضه ، بما أجراه فى

---

(١) عماد الدين الأصفهانى : تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة ١٩٠٠) ، ص ٥٥ - ٥٦ .

(٢) Cahen : Contribution a L' histoire de l'iqta. (Annales 1953). p. 39.

العرينى : الإقطاع فى الشرق الأوسط - حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ، سنة ١٩٥٧) ، ص ١٣٧ .

خراسان ، التى لم تكن من أملاك البويهيين ، بأن جعلها إقطاعات[1] .

ومن الأمور المستحدثة فى الإقطاع ، أنه نظراً لعدم القدرة على تحديد الإقطاع بمقدار معين من المال ، صار تقديره بما يؤديه صاحبه من خدمة حربية ، أو بعدد الجند الذين يستطيع الإنفاق عليهم . وهذا يشبه من بعض الوجوه ما حدث فى الغرب ، فى البلاد التى استقر بها الإقطاع ، من حيث تقديره بعدد ما يقدمه المقطع من الفرسان . وأضحت لفظة إقطاع تطلق على الأراضى التى اختص بها الجند[2] .

واختلفت القوة العددية للعسكر ، باختلاف قوة السلطان أو الأمير ، وموارده . فلم يرد فى المصادر العربية ما يشير إلى مقدار ما لدى الأمراء السوريين من قوة زمن الحملة الصليبية الأولى . ومع ذلك فمن المؤكد أن جيش كل من رضوان ودقاق ، وهما أكبر الأمراء بسوريا ، لم يزد على بضعة آلاف . ومن الطبيعى أن تقل قوة سائر الأمراء الذين هم أقل منهما شأناً[3] . ونستطيع أن ندرك التفاوت بين من انضاف من الجند إلى كبار الأمراء وصغارهم فى سوريا ، إذا تبين أنه كان عند ياغى سيان أمير أنطاكية ، ألفان من خيرة الجند ، على حين أن أمير شيزر ، لم يكن لديه سوى بضع مئات من الرجال . أما أتابكة الموصل (الجزيرة) فكان بحوزتهم جيوش تزيد قوة وعدداً ، وإلى هذه الحقيقة يرجع الدور الهام ، الذى قاموا به فيما يلى من تاريخ الحروب الصليبية[4] .

---

(١) Cahen : Contribution, p. 39.

Cahen : Turkish Invasions p. 138.

العرينى : الإقطاع الحربى ، ص ١٣٩ .

(٢) العرينى : الإقطاع الحربى ص ١٤١ .

(٣) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 24.

(٤) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 24.

ومع أن الجند المماليك ألفوا نواة العساكر ، فإن عددهم ازداد بمن انضاف إليهم من طوائف الجند المأجورة . فدخل فى خدمة معظم الأمراء ، فصائل من الديلم ، سكان الأقاليم الجبلية الواقعة ، إلى الجنوب الغربى من بحر قزوين ، وخدم الأرمن مع العساكر فى جهات أخرى ، مثل مصر ودمشق . وفى الشام ، نصادف رجالا أحرارا ، دخلوا فى العسكر ، وصار لهم ما للجند النظاميين من ديوان أو أرزاق[١] .

وفى كثير من الأحيان ، ازداد جيش الأمراء قوة ، بما انحاز إليه من رجال القبائل التركمانية ، الذين اشتهروا بمهارتهم بالرمى على ظهور الخيل ، وتردد ذكرهم على أنهم من فئة العساكر أيضاً . فإذا جرت الإشارة إلى أن الجيش الدائم (العسكر) للسلطان ملك شاه السلجوقى ، بلغت عدته ٤٠٠ ألف رجل ، فلا بد أن ندرك ، أن هذا العدد يدخل فيه التركمان الذين فى خدمته ، ودانوا بالولاء له ، فضلا عن حرسه الخاص ، الذى تألف من المشتروات من الترك ، والذين بلغ عددهم نحو ٤٠ ألف . وعلى الرغم من أن التركمان اشـــتهروا بالشجاعة الفردية ، والصفات الحربية النادرة ، فإنهم افتقروا إلى ما اشتهر به الجند النظاميون من الاستقرار والتزام النظام . ويعتبرون من أشد الحلفاء خطورة وعنفاً[٢] . ودخل عدد كبير من رجال القبائل الكردية فى قوات الفرسان المساعدة ، ومنهم من التحق بالعسكر النظامى[٣] .

على أن الجانب الأكبر من القتال الذى نشب بين السوريين ، أو الذى

---

(١) Ibid. p. 25

(٢) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades p. 28.

(٣) Ibid : p. 25.

دار بينهم وبين الصليبيين ، قام به العسكر وحدهم ، مع من يصحبهم من غلمان العسكر[١] .

وتطلبت الأحوال ، استدعاء صف ثان من الجند ، الذين اتخذوا اسم « الأجناد » ، وهو الاسم الذى اشتهر به الجيش العربى من قديم الزمن . وظل هذا النظام الحربى جارياً فى سوريا والجزيرة فترة من الزمن تطول على فترة استخدامه فى سائر الجهات بالشرق الإسلامى . ولعل السر فى ذلك يرجع إلى استمرار النظام القبيلى ، والنزاع الدائم مع الدولة البيزنطية . على أن أجناد القرن الحادى عشر الميلادى يختلفون عن الأجناد السابقين ، فى أنهم ليسوا سوى جيوش إقليمية ، فيشير أسامة بن منقذ إلى أن أجنادهم هم فى الغالب من العرب ، من سائر القبائل العربية ، وما انضاف إليهم من المغاربة ، وجماعة من الأكراد . ولم تختلف أجناد دمشق ، فيما يبدو ، فى تكوينها وتأليفها عن أجناد شيزر[٢] .

واقتضى نظام العسكر أيضاً ، تأليف قوة من الجند ، مستمدة من الأقاليم اتخذت أيضاً اسم أجناد ، ولم يكونوا جنداً نظاميين ، إنما كفل معاشهم ما يبذل لهم من الإقطاعات ؛ وهذه القوات نصادفها فى مصر فى القرن الثانى عشر ، ويجوز أنها كانت معروفة فى الشام أيضاً زمن الحرب الصليبية الأولى . وربما تألفت فرقة مستقلة من العرب ، شأنهم فى ذلك شأن أجناد التركمان ، وهؤلاء الأجناد إنما يماثلون العسكر فى أنهم فرسان ، ولم يكونوا رماة بل اشتهروا بالمهارة فى الطعن بالرمح والضرب بالسيف[٣] .

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 25.

(٢) Ibid : Loc. cit.

(٣) Gibb · Damascus Chronicle of Crusades, p. 25.

أما الرجالة فيتألفون من عناصر عديدة : فمنهم الجند المتخذون من أهل المدن ، وأهل القرى الذين التزموا بالخدمة الحربية ، والمتطوعون الذين التمسوا الجزاء الروحى ، واشتراكهم فى الجهاد الدينى ، وغلمان العسكر من جميع الأجناس والديانات . وكانت شجاعتهم مضرب الأمثال ، ومن أعمالهم ، أنهم أسهموا فى إقامة المنشئات الحربية ، وخطوط الدفاع ، والقيام بعمليات التخريب أثناء الحصار ، وحراسة المعسكرات ، والدفاع عن الحصون والقلاع[١] .

ويصحب العسكر عادة ، قطار ضخم من الإبل والبغال ، يحمل أمتعتهم ، فتضطر الحملة إلى أن تسير فى بطء وحذر . والواضح أنه قام نوع من التنظيم يتعلق بنقل المؤن والعلف . ولم يكن من الأمور المقبولة ، أن يجرى الرعى فى الجهات الموالية لهم . على أن صعوبة الحصول على المؤن الكافية من الجهات التى يحلون بها ، جعلت من النادر أن يقوموا بغارات أثناء فصل الشتاء . واكتفوا فى بعض الأحوال بالغارات السريعة التى لا تمكث أكثر من شهرين أو ثلاثة شهور[٢] .

أما تحليل الموقف فى سوريا ، عند قدوم الحملة الصليبية الأولى ، فيتمثل فى العداء بين رضوان ودقاق ، ابنى تتش . إذ كان رضوان نائباً عن أبيه فى حكم سوريا ، أثناء حروبه فى الجزيرة وخراسان ، بينما حصل دقاق على ديار بكر ، إقطاعا له . ولما وردت الأنباء بوقوع معركة الرى ، سنة ١٠٩٦ ، كان رضوان فى طريقه إلى أبيه ، على رأس مدد سار به من سوريا[٣] . فلجأ رضوان ، عندئذ إلى حلب ، للمحافظة

---

(١) Ibid : Loc. cit.

(٢) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 25.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠ .

على إرثه ، باعتباره سلطانا على سوريا(١) . غير أن دقاقا لم يلبث أن وصل إلى حلب ، قبل أن يفرغ رضوان من إجراءاته ، ثم توجه إلى دمشق بناء على دعوة تلقاها سراً من والى دمشق(٢) . وبذا صار بعيداً عن ملاحظة أخيه ، فدخلت دمشق فى حوزته ، بالإضافة إلى ما كان بيده من إقطاعات فى ديار بكر والجزيرة ، وتولى الأتابكية له طغتكين وتجهز رضوان لفرض سلطانه . وأخذ كل من الأميرين ، يلتمس له حلفاء ، فى النضال الذى نشب بينهما ، فلجأ كل منهما أول الأمر ، إلى القادة الترك ، ثم إلى زعماء التركمان . ويعتبر ياغى سيان أقوى هؤلاء جميعاً ، وكان يود أن يساند رضوان لولا الكراهية الشخصية التى يكنها لجناح الدولة أتابك رضوان ، فأضحى بذلك حليفا لدقاق ، الذى انحاز إليه أيضاً إيلغازى ، حاكم بيت المقدس(٣) . فالتمس رضوان المساعدة ، من سكمان الأرتق ، أخى إيلغازى ، وقد اتخذ مقره فى سروج بمن معه من التركمان ، ولجأ أيضاً إلى قبيلة كلاب(٤) .

بدأت الأعمال العدوانية ، بما أحرزه رضوان وحلفاؤه من الانتصار على قوات ياغى سيان ، فانتزعوا معرة النعمان ؛ فأقطعها سكمان بن أرتق(٥) . ونهض دقاق وإيلغازى لمساعدة ياغى سيان ، فانتهز رضوان

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٠ .
ابن العديم : زبدة الحلب – نشر الدهان ، ج ٢ ، ص ١١٩ – ١٢٠ .
Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 25.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢١ . ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٠ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٣ . ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣١ – ١٣٢ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٤ .

فرصة خروجهما من دمشق ، فتوجه مع سكمان إلى دمشق ، وحاصراها ، غير أن هذه المحاولة أحبطها أهل دمشق . وحدث فى تلك الأثناء أن وقع نزاع بين دقاق وإيلغازى ، فأمر بإلقاء القبض عليه ، فتهيأت الفرصة لسكمان للمسير إلى بيت المقدس ، فتسلمها من نواب أخيه وأقام بها[1] .

وفى السنة التالية ١٠٩٧ (٤٨٩ هـ) ، اتخذ دقاق وياغى سيان خطة الهجوم ، واستعادا بعض المدن بشمال الشام ، وعاد إيلغازى إلى بيت المقدس ، بينما لحق سكمان برضوان فى حلب ، كما استنجد رضوان بسليمان ابن إيلغازى صاحب سميساط ، فوصل بعسكر كثير إلى حلب ، ودارت المعركة على نهر قويق ، بين رضوان وحلفائه ، ودقاق وحلفائه سنة ٤٨٩ ، فانهزم ياغى سيان إلى أنطاكية ، وارتد طغتكين ودقاق إلى دمشق[2] .

ثم وقع النزاع بين رضوان وأتابكه جناح الدولة ، الذى غادر حلب ، بكل من معه من الجند ، وتوجه إلى حمص ، لأنها كانت بيده ، فحصنها[3] . أما ياغى سيان ، فإنه دخل فى خدمة رضوان بحلب ، وزوجه من ابنته ، وجعل نفسه أتابكاً له[4] .

وتجهز رضوان لقتال جناح الدولة فى حمص ، ودقاق بدمشق . وفى تلك الأثناء ، وصله رسول الأفضل من مصر ، يدعوه إلى طاعة الخليفة المستعلى الفاطمى ، وإقامة الدعوة له ، وكان يحمل معه هدية سنية ، ووعد الأفضل بأن يمد رضوان بالعساكر والأموال[5] . واغتنم رضوان

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٤ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٦ .

Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 25.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٧ — ١٢٨ .

الفرصة فاقترح أن يجرى القيام بهجوم مشترك على حمص ودمشق ، مقابل الاعتراف بالسيادة الروحية للخليفة الفاطمى . غير أن هذا الاقتراح لم يجد قبولا عند ياغى سيان وسكمان ، على الرغم من أن الدعوة للخليفة الفاطمى على منابر الشام استمرت نحو شهر(١) .

وتقدم رضوان وياغى سيان وسكمان لمحاصرة شيزر ، فتواصلت الأخبار بوصول الفرنج ، قاصدين أنطاكية ، فأثار ذلك الخبر الاضطراب والقلق بين الحلفاء ، وعدلوا عن المضى إلى شيزر . غير أنهم بدلا من الإبقاء على وحدة جيوشهم وتماسكها أمام العدو الجديد ، تفرقوا فسار رضوان نحو حلب ، بينما توجه ياغى سيان إلى أنطاكية للدفاع عنها ، بينما وجه سكمان كل أطماعه للاستيلاء على ديار بكر ، التى استقل بها حكامها ، فانفصلوا بذلك عن دقاق ، بل أكثر من ذلك حاول تحريض ياغى سيان ورضوان على أن يصحباه ، وألا يحفلا بأمر المغيرين من الفرنج(٢) .

وصار لزاماً على ياغى سيان أن يواجه أول ضربات الجيوش الصليبية بمن عنده من الجند ، وبمن يرسله له بعض الأمراء الذين استنجد بهم أمثال دقاق ، وطغتكين وجناح الدولة ، وكربوقا وأمراء الشرق وملوكه(٣) .

---

(١) Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 25.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٨

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٣٠ .

Gibb : Damascus Chronicle of Crusades, p. 25.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٤ .

الفصل الثانى

الإمبراطورية البيزنطية قبيل الحروب الصليبية

بوفاة الإمبراطور باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ ، انتهى أزهى عصور التاريخ البيزنطى . ففى الفترة الممتدة من سنة ٨٦٧ ، حين اعتلى باسيل الأول عرش الإمبراطورية ، حتى سنة ١٠٢٥ ، صار للإمبراطورية البيزنطية مكانة كبيرة فى العالمين الإسلامى والمسيحى . فى هذه المرحلة من التاريخ ، أحرزت الجيوش البيزنطية الانتصارات الباهرة ، على الأطراف الشرقية ، والشمالية ، وطهرت البحر المتوسط من القرصان ، واشتدت قبضة بيزنطة على ممتلكاتها بجنوب إيطاليا ، وقام مبشروها بنشر تعاليم الإنجيل بين صقالبة الجنوب ، بفضل ما حصلوا عليه من تأييد رجال السياسة ، ومساندة الجيش لهم فى بعض الأحوال[1] .

الواقع أن شرق البحر المتوسط ، عقب وفاة باسيل ، ساده فيما يبدو ، من الهدوء والسلام ، ما يؤذن باستمرار هذه الأحوال سنوات عديدة مقبلة ، فالدولتان القويتان التى تقومان عليه ، وهما مصر الفاطمية وبيزنطة ، توطدت بينهما العلاقات الودية ، فلم يحدث أن وقع الاعتداء من إحداهما على الأخرى . وحرصت كل منهما على مناهضة الإمارات والدول الإسلامية الواقعة فى الشرق ، حيث أثار الترك الاضطراب والقلق فى الشرق الأوسط . واشتهر الفاطميون بمعاملتهم الطيبة للمسيحيين ، ولم يحدث منذ زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، أن تعرضوا

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire in Setton : The Crusades I. p. 177.

Runciman : History of the Crusades, I. pp. 32-34.

للاضطهاد ، وصارت الموانى الفاطمية مفتوحة للتجار من بيزنطة وإيطاليا[1] .

ففى الأقاليم الواقعة جنوب القوقاز ، تمت تسوية حدود الإمبراطورية ، بما أجراه باسيل الثانى من الاستيلاء على ممتلكات جديدة أضافها للدولة البيزنطية ، واشتملت هذه الممتلكات على إقليم داود صاحب تايك ، التى امتدت من مانزيكرت شمال بحيرة ڤان إلى أرزروم قريباً من أعالى الفرات ، وامتدت شمالا إلى إقليم كولا وأرتان (أردهان) ، شمال غربى فارس[2] . وحاز باسيل أيضاً مملكة ڤاسبوركان التى تنازل عنها ملكها سنة ١٠٢١ ، بعد أن تبين له العجز عن حمايتها من غارات الترك ، فامتدت بذلك أطراف الإمبراطورية شرقاً إلى سلسلة الجبال ، التى تفصل اليوم تركيا عن إيران . وحوالى ذلك الوقت ، تنازل سمباد ملك أرمينيا الكبرى ، عن مملكته ، وحاضرتها آنى ، للإمبراطور البيزنطى ، بشرط أن يبقى ملكاً عليها حتى وفاته[3] . والمعروف أن هذه المناطق ، يغلب على سكانها الأرمن والكرج ، وأن الأمراء الأرمن الذين تخلوا عن أملاكهم ، حصلوا على أراضى فى جهات أخرى بالإمبراطورية ، حيث تبعهم سائر الأرمن[4] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades, I. p.

(٢) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٤٠ .
العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٦٠٩ — ٦١١ .
Grousset : Histoire de L'Armenie p. 554.

(٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢٥٠ .
العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٧٤٢ .

(٤) الواقع أن هجرات الأرمن ترجع إلى ما تعرضت له بلادهم من غارات من قبل البيزنطيين والأتراك السلاجقة . فحينما تنازل أمير ڤاسبوركان عن مملكته ، حصل على ضياع كثيرة فى قبادوقيا ، فتبعه إليها نحو ١٤ ألف من مواطنيه ؛ ونجحت الهجرة الثانية عن غارات السلاجقة بعد معركة مانزيكرت أما الهجرة الثالثة فإنها جرت فى الفترة السابقة على الحرب الصليبية الأولى .

انظر Setton : The Crusades, II. p. 630-631.
Grousset : Histoire de L'Armenie p. 554.

وما شنه الإمبراطور باسيل من الحملات ضد البلغار ، أدى فى آخر الأمر إلى القضاء على سلطانهم ، وإضافة أملاكهم إلى بيزنطة . وعلى الرغم من أن الصقالبة ، سكان هذه الجهات ، اغتنموا كل فرصة للخروج على طاعة الإمبراطورية ، فإن ما أثاروه من الفتن والاضطرابات ، لم تبلغ من العنف والشدة ، ما جرى أثناء استقلال بلغاريا . وترتب على تدمير المملكة البلغارية ، أن امتدت أطراف الإمبراطورية إلى نهرى الدانوب والدراف ، وانبسط سلطانها على ساحل بحر الأدرياتى ، حتى استريا ، فصار بحر الأدرياتى ، بحيرة بيزنطية ، والواضح أن البندقية لا زالت شبه تابعة لبيزنطة[1] .

وارتفع شأن الإمبراطورية البيزنطية فى جنوب إيطاليا ، إذ دان لسلطانها كالابريا وأبوليا ، ومعظم سكان هذين الإقليمين من اليونانيين . واعترف بالتبعية الإسمية للإمبراطور البيزنطى المدن التجارية المستقلة التى تقع على الساحل الغربى لإيطاليا ، وهى جائيتا ، ونابولى ، وأمالفى . فالأمالفيون الذين نشطت تجارتهم وقتذاك مع الشرق الإسلامى ، رأوا أن يفيدوا من الإمبراطور فى مفاوضاتهم مع الدولة الفاطمية ، وأقاموا لهم قنصلا بالقسطنطينية . أما سكان نابولى وجائيتا ، فلم يحرصوا على إرضاء الإمبراطور ، برغم استعدادهم للتجارة مع المسلمين[2] . وسيطر الأمراء اللومبارديون فى بنيفنتو وكابوا وسالرنو ، على داخل إيطاليا ، واعترفوا

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire, p. 179-180.
Schlumberger : L' Epopée III p. 38

العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٥٥٦ — ٥٧٧ .

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 56,

Diehl and Marcais : Le monde Oriental pp 532 - 533.

العرينى : الدولة البيزنطية : ص ٦١٥ — ٦٢٣ .

بالسيادة لكل من الإمبراطور البيزنطى وإمبراطور الغرب (الألمانى) . ولم يحفظوا لها شيئاً من الاحترام . ولا زالت صقلية وقتذاك فى أيدى المسلمين ، على الرغم من محاولات البيزنطيين لانتزاعها . وازدادت الفوضى بإيطاليا ، بسبب الحروب الداخلية من جهة ، ولتعرضها للغارات من صقلية وإفريقية[1] .

وخلف باسيل الثانى ، لمن جاء بعده من الأباطرة ، دولة بلغت من الاتساع ، والقوة ، والهيبة ، ما لم تبلغه منذ الإمبراطور هرقل . فامتدت من جبال لبنان إلى نهر الدانوب ، ومن نابولى إلى بحر قزوين . وعلى الرغم من أن الأباطرة الذين خلفوه على الحكم ، لم يكونوا من رجال السياسة أو قادة عسكريين ، فإن الإمبراطورية استطاعت أن تحافظ ، بعد وفاته ، على مكانتها وعزتها فترة من الزمن[2] .

وفى العشرين سنة التى تلت وفاة باسيل الثانى ، وقعت فتن واضطرابات ، على أطراف الدولة البيزنطية ، فى الشرق ، وفى البلقان ، وفى جنوب إيطاليا ، وفى البحر المتوسط . وكان لزاماً على القوات البيزنطية أن تنهض لقمع هذه الفتن ، وتعرضت للهزائم فى أحوال كثيرة ، غير أن الأوضاع الإقليمية للدولة لم تتغير . ففى الشرق ، احتفظت الدولة البيزنطية بما لها من سيادة على حلب ، على الرغم من أن الإمبراطور البيزنطى ، رومانوس الثالث أرجيروس ، تعرض لهزيمة ساحقة على يد

---

(١) Runciman : History of the Crusades, I. p. 56.
Ostrogorowsky : op. cit. p. 284.
Charanis : op. cit p. 180.

(٢) Charanis : The Byzantine Empire p. 180.
Runciman : History of the Crusades, I. p. 51.
Ostrogorowski : op. cit. p. 284.
العرينى : الدولة البيزنطية ص ٧٣٦ — ٧٣٨ .

أمير حلب ، سنة ١٠٣٠ ، وامتدت أطراف الدولة إلى ما وراء نهر الفرات ، بعد الاستيلاء على الرها ، وتم الاستيلاء على أرمينيا الكبرى زمن قنسطنطين التاسع ؛ واستطاعت البحرية البيزنطية أن تتصدى للأساطيل الإسلامية فى شرق البحر المتوسط ، التى طالما أغارت على سواحلها وما قام به الصقالبة فى البلقان من الثورات ، أخمدها البيزنطيون ، بعد أن أفادوا من المنازعات الداخلية التى سادت بينهم ، وارتد الروس عن القسطنطينية سنة ١٠٤٣[١] .

أما محاولات الدولة البيزنطية للاستيلاء على جزيرة صقلية ، فأحبطها المسلمون بصقلية وإفريقية . وما جرى الاستيلاء عليه من المدن فى صقلية ، فى حملة مانياكس سنة ١٠٣٨ ، لم يلبثوا أن تخلوا عنها[٢] .

فما أصاب القوات البيزنطية من هزائم فى جهات متفرقة ، وما تعرضت له الأملاك البيزنطية من غارات من قبل الأعداء ، إنما سبب اضطراب الأمن فى داخل البلاد ، غير أن حدود الإمبراطورية ظلت سليمة ، بل اتسعت وامتدت . ولم يلبث أن ظهر على امتداد الحدود أعداء جدد أقوياء ، من أشهرهم ، البجناك ، والنرمان ، والترك السلاجقة[٣] .

فالبجناك قوم بدو من أصل تركى ، ظهروا فى القرن التاسع ، ونزلوا بالأراضى الواقعة بين الدانوب الأسفل ونهر الدنيبر ، وهى المعروفة الآن باسم رومانيا ، وجنوب غربى روسيا ؛ ولجأ أباطرة القرن العاشر إلى انتهاج السياسة الودية معهم ، فسعوا لاستخدامهم ضد الروس والمجريين

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire p. 181.

Ostrogorowski : op. cit : p. 296 - 297.

(٢) Charanis : The Byzantine Empire. p. 181.

(٣) Ibid : p. 181.

والبلغار[1] ، ويذكر قنسطنطين بورفيروجنيتوس « أنه طالما سالم إمبراطور الرومان ، البجناك ، فلا يستطيع الروس أو المجريون ، أن ينقضوا بالسلاح على الأملاك الرومانية (البيزنطية) ، أو يبتزوا من الرومان من المبالغ الضخمة والأموال الوافرة ما دأبوا عليه ، مقابل الخلود إلى السلام ؛ لأنهم يخشون قوة هذه الأمة ، التى يستطيع إمبراطور الرومان أن يوجهها لهم ، إذا أقدموا على قتال الرومان . . . ويستطيع إمبراطور الرومان أيضاً أن يكون مصدر خوف ورعب للبلغار ، وأن يلزمهم الركون إلى السكينة إذا سالم البجناك »[2] .

غير أن وضع البجناك لم يلبث أن تغير ، بعد ضم بلغاريا إلى أملاك الدولة البيزنطية ، إذ أضحوا جيرانا مباشرين للإمبراطورية ، على امتداد نهر الدانوب ، فإذا تعرضوا للضغط من جهة القبائل التركية الأخرى ، مثل الكومان ، (المعروفين فى بعض الجهات باسم القبجاق) ، وجهوا أنظارهم نحو الإمبراطورية ، وأمعنوا فى شن الغارات عليها ، حتى استمرت تقريباً طوال القرن الحادى عشر[3] . إذ شهدت شبه جزيرة البلقان منذ وفاة باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ ، حتى نهاية القرن الحادى عشر غارات مستمرة ، فأنزلوا بها أضراراً بالغة ، وقتلوا عدداً كبيراً من الناس ، وحصلوا على غنائم وفيرة ، ووقع فى أيديهم أسرى كثيرون . وأفاد البجناك ، والأغوز (قبيلة تركية أخرى) ، من الفتن الداخلية التى نشبت بين القادة البيزنطيين من أجل العرش ، بعد عزل ميخائيل السابع ، فنهبوا البلاد ،

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire p. 182.
Ostrogorowski : op. cit. p. 294

(٢) Constantine Porphyrogenitus. De Administrando Imperio pp. 51—55

(٣) Charanis : The Byzantine Empire p. 182.

وظل خطرهم يعتبر من المشاكل الكبيرة التى واجهها الكسيوس كومنين الذى تولى عرش بيزنطة سنة ١٠٨١[١] .

أما النرمان ، فإن بدء ظهورهم فى إيطاليا يرجع ، على حد الروايات التاريخية ، إلى سنة ١٠١٧ ، حين اشترك جماعة منهم فى الفتنة التى أثارها ضد الحكم البيزنطى ، ميلو من أغنياء بارى ، فى أبوليا ، وذلك أثناء اجتيازهم البلاد لزيارة مشهد القديس ميخائيل على جبل جارجانو Gargano[٢] .

وأقام كثير من هؤلاء الجند المغامرين فى جنوب إيطاليا ، ودخلوا فى خدمة الأمراء اللومبارديين ، إذ لم يتوافر لهم سبل الحياة فى نورمانديا ، لأن ضياعها اكتظت بمن عليها من السكان ، ولم يعد بها مجال للأبناء الصغار القلقين الطموحين ، فضلا عن الفرسان الذين لم يجدوا لهم بها إقطاعات . فالدافع للتوسع هو الذى جعلهم يقدمون على فتح إنجلترا ، وهو الذى حملهم على الرحيل إلى الشرق ، يلتمسون ثروته ، فرأوا فى جنوب إيطاليا نواة لإقامة إمبراطورية نرمانية فى البحر المتوسط ، وواتتهم الفرصة بما ساد هذه الجهات من الفوضى والاضطراب[٣] .

---

(١) Ibid : pp. 182-187.
Camb. Med. Hist. IV, p. 199
Ostrogorowski : op. cit. p. 294
العرينى : الدولة البيزنطية ص ٧٦٥ — ٧٧٣ .

(٢) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٦٢٠ — ٦٢١ .
Charanis : The Byzantine Empire . 180.
Runciman : op. cit. I. p. 56.
Schlumberger : op. cit. II. p. 562—566

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 56.
Schlumberger : op. cit. p. 218—219
Ostrogorowski : op. cit. p. 294—295
Haskins : The Normans in European History. p. 00—202
العرينى : الدولة البيزنطية ص ٦٢٠ — ٦٢٢ .

ففى سنة ١٠٤٠ ، استطاع ستة إخوة ، أبناء فارس نورمانى بسيط ، وهو تانكرد هوتفيل ، أن يستولوا على ميلفى ، فى تلال أبوليا ، فأقاموا بها إمارة ، ولم تحفل بهم بيزنطة وقتذاك . ولم يلبث هؤلاء النرمان ، أن تلقوا المساعدة والتأييد من الإمبراطور الألمانى ، هنرى الثالث ، الذى حرص على أن يسيطر على إقليم جنوب إيطاليا ، الذى ظل يتنافس عليه زمنا طويلا ، إمبراطوريتان ، الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الغربية ، فضلا عن البابا ، الذى يدين بمركزه للإمبراطور الألمانى ، والذى ينكر على بطريرك القسطنطينية السيطرة على أية كنيسة بإيطاليا . ونهض النرمان لقتال البيزنطيين ، فطاردوهم حتى طرف كالابريا وإلى ساحل أبوليا ، وأخذوا يهددون المدن الواقعة على الساحل الغربى لإيطاليا ، وامتدت غاراتهم شمالا ، حتى بلغوا مشارف روما . فاستبد الفزع بالحكومة البيزنطية ، وأنفذت حملة بقيادة واليها على أبوليا ، وهو ماريانوس أرجيروس Marianus Argyrus ، فتعرضت لهزيمة ساحقة . على أن الوالى البيزنطى حقق انتصارا دبلوماسيا باهراً ، بما أجراه من اتفاق مع البابا[١] . ذلك أن البابا ليو التاسع ساءه ما أحرزه النرمان من انتصارات ، وأدرك خطورتهم على أملاكه ، ولم يتوقع الإمبراطور هنرى الثالث ، ما حدث من إمعان النرمان فى توسعهم ، وشن الحروب . ولذا أرسل إلى البابا جيشاً ليساند البابا فى قتال النرمان ، نظرا لانصرافه وقتذاك للتجهز لقتال المجريين . وفى صيف سنة ١٠٥٣ قاد البابا ليو جيشاً من الألمان والإيطاليين ، وأعلن الحرب المقدسة ضد النرمان ، فتوجه نحو الجنوب ، وبينما كان ينتظر قدوم القوة التى وعدت بيزنطة بإرسالها إليه ، هاجمه النرمان عند

---

(١) Schlumberger : op. cit. III. p. 218—219

Runciman : op. cit. I. p. 57.

العرينى : الدولة البيزنطية ص ٦٩٨ — ٦٩٩ .

Civitate ، وهى مدينة صغيرة فى أبوليا فحلت به الهزيمة ، ووقع أسيراً فى أيدى النرمان ، الذين لم يطلقوا سراحه إلا بعد أن أعلن تخليه عن سياسته[1] .

هذه كانت آخر محاولة لوقف توسع أبناء تانكرد . مات الإمبراطور هنرى الثالث سنة ١٠٥٦ ، وخلفه على العرش ابنه هنرى الرابع ، وكان طفلا صغيراً ، فانصرفت أمه اجنس بواتو ، الوصية على العرش ، إلى تدبير شئون ألمانيا ، ولم تحفل بما يجرى فى الجنوب . أما البابوية فاتخذت سياسة واقعية . ففى سنة ١٠٥٩ ، أعلن البابا نقولا الثانى فى مجمع ميلفى ، اعترافه بروبرت جويسكارد ، المعروف بروبرت اللص ، أكبر أبناء تانكرد دوقا « لأبوليا وكالابريا ، وصقلية أيضاً » على الرغم من أن صقلية لا زالت فى حوزة المسلمين . وهذا الاعتراف ، رأت فيه البابوية ، لاروبرت ، أنه ينطوى على تبعية الدوق للبابا[2] . وأفاد هذا الاعتراف النورمان فى إتمام فتوحهم ؛ فلم تلبث الجمهوريات البحرية أن أعلنت خضوعها للنرمان ، ولم يبق للبيزنطيين سنة ١٠٦٠ ، من الأملاك بإيطاليا ، سوى بارى ، عاصمة ممتلكاتهم ، والتى تقع على ساحل بحر الأدرياتى ، وتمتاز بمناعتها ومتانة استحكاماتها . وفى تلك الأثناء ، شرع روجر ، أصغر إخوة روبرت جويسكارد ، فى الاستيلاء على صقلية وانتزاعها من أيدى المسلمين[3] .

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 57
Vasiliev : The Byzantine Empire. p. 329

(٢) Ziada : Select Documents of medieval History p. 22—23
Camb. Med. Hist. V. p. 175
العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٧١٤ – ٧١٧ .

(٣) Runciman : The History of the Crusades I. p. 57.
Curtis : Roger of Sicily p. 62—84
Camb. med. Hist. V. p. 175—184.

على أن ما حدث من استيلاء النرمان ، بقيادة روبرت جويسكارد ، على باري ، سنة ١٠٧١ ، جعله سيد جنوب إيطاليا ، دون منازع . والواقع أن البيزنطيين لجأوا ، قبيل وقوع هذا الحادث ، إلى التسليم بضياع ممتلكاتهم فى إيطاليا ، واتخذوا سياسة ، ترمى إلى التماس صداقة الزعيم النرمندى . هذه السياسة بدأها الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجين ، الذى اقترح أن يتزوج أحد أبنائه ، من ابنة جويسكارد . غير أن هذا الاقتراح ، سواء جرى عرضه قبيل حصار بارى أو بعده ، رفضه جويسكارد[1] .

وواصل ميخائيل السابع سياسة ديوجين ، فما كان يأمله من استخدام النرمان ، فى وقف تقدم الترك السلاجقة بآسيا الصغرى ، وحماية الإمبراطورية من هجمات جديدة يشنها جويسكارد ، أعلن تخليه نهائياً عن دعاويه فى الأملاك البيزنطية بجنوب إيطاليا ، والتمس مساعدة الزعيم النرمندى[2] .

وجرت مراسلات بين الإمبراطور البيزنطى والزعيم النرمندى ، عن أمر زواج أخيه قنسطنطين بابنة جويسكارد ، يبتغى من وراء ذلك صداقة جويسكارد ومحالفته ، غير أن الزعيم النرمندى رفض المقترحات . وحدث سنة ١٠٧٤ أن حاول الإمبراطور من جديد أن يحصل على موافقة جويسكارد بأن يتزوج ابن الإمبراطور ، من ابنة الزعيم النرمندى ، وقبل جويسكارد هـذا العرض . ووافق جويسكارد على ألا يهاجم أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، وأن يدافع عنها ضد أعدائها . والواضح أن هذا الاتفاق يعتبر محالفة دفاعية هجومية ، غير أنه لم يرد بها إشارة إلى الترك ،

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire, p. 187

(٢) Charanis : The Byzantine Empire, p. 187.

على الرغم من أن الإمبراطور كان يرمى إلى الحصول على مساعدة النرمان ، لإجلاء الترك عن آسيا الصغرى[١] .

على أن جويسكارد لم يعقد المحالفة مع الإمبراطور البيزنطى ، إلا حينما ساءت علاقته بالبابوية . والراجح أنه اتخذ هذه الخطوة ، كيما يمنع الاتفاق بين البيزنطيين والبابوية . فبينما كان البيزنطيون يتصلون بجويسكارد ، دارت المفاوضات بين السلطات البيزنطية والبابوية ، ثم توقفت بعد أن تم الاتفاق مع الزعيم النرمندى[٢] . على أن بيزنطة لم تفد من تحالفها مع جويسكارد ، الذى لم يقف طموحه عند حد . فلم يمض على الاتفاق إلا زمن قصير ، حتى أخذ جويسكارد يتطلع إلى الحصول على التاج الإمبراطورى ذاته . وما حدث سنة ١٠٧٨ من خلع ميخائيل عن العرش ، جعله يظن بأن الفرصة حانت لتبرير كل ما يتخذه من إجراء . وفى تلك الأثناء فرغ جويسكارد من تسوية منازعاته مع البابوية . ولما فشلت المفاوضات بين البابا جريجورى السابع والدولة البيزنطية ، أقر ما أعده جويسكارد من خطط هجومية ضد الإمبراطورية البيزنطية . ففى يوليه سنة ١٠٨٠ كتب البابا جريجورى إلى أسقفى أبوليا وكالابريا ، يطلب إليهما أن يبذلا كل ما فى وسعهما من مساعدة إلى جويسكارد ، فى الحملة التى أوشك أن يوجهها إلى بيزنطة . فأضحى جويسكارد على وشك الإغارة على الإمبراطورية البيزنطية ، بتأييد البابا وبركاته ، حينما ارتقى عرشها الإمبراطور الكسيوس سنة ١٠٨١[٣] .

وبينما يجوس البجناك والأغوز أقاليم البلقان ، وينزلون بها الخراب ، ويهدد النرمان حياة الإمبراطورية ، بلغت الأحوال فى آسيا الصغرى من

---

(١) Ibid. p. 188.

(٢) Charanis : The Byzantine Empire, p. 188.

(٣) Charanis : The Byzantine Empire, p. 189.

الاضطراب والفوضى ، ما جعل من العسير التعرف إلى الأقاليم التى لا زالت تابعة للدولة البيزنطية . ونشأت هذه الأحوال نتيجة لزحف الأتراك السلاجقة ، الذين ينتمون إلى جدهم سلجوق ، وأخذوا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، يشقون طريقهم فى جوف العالم الإسلامى ، مثلما فعل النرمان حينما توغلوا فى أوربا المسيحية . وألف الأمراء السلاجقة جماعة من المغامرين لم يختلفوا كثيراً عن أبناء تانكرد هوتفيل ، غير أنهم كانوا أكثر منهم عدداً ، وأوفر حظاً ، إذ اعتمدوا على جموع التركمان ، الذين يميلون للارتحال والانتقال ، واشتهر قادتهم من السلاجقة بالمهارة السياسية ، وسرعة الأخذ بأساليب الحضارة والمدنية الإسلامية ، فضلا عن الحماس الدينى[١] .

وفى سنة ١٠٥٥ ، وبناء على دعوة الخليفة العباسى ، القائم بأمر الله ، الذى ضاق ذرعاً بمؤامرات وزيره التركى ، البساسيرى والفاطميين ، دخل بغداد ، طغرل بك زعيم السلاجقة على أنه المدافع عن المذهب السنى ، وأصبح ملك المشرق والمغرب ، وغدا له السلطة على كل البلاد التى تدين بالولاء للخليفة ببغداد[٢] .

وكان الأرمن فى ڤاسبوركان أول من أحسَّ بضغط حركة الأتراك السلاجقة نحو آسيا الصغرى : فتشير الروايات إلى أن ملك ڤاسبوركان ، حينما أدرك عجزه عن وقف الزحف السلجوقى ، تنازل عن مملكته للإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى ، سنة ١٠٢١ ، مقابل الحصول على ضياع كثيرة فى قبادوقيا ، فضلا عن بقائه ملكاً طوال حياته على ڤاسبوركان . على أن الإمبراطورية البيزنطية لم تتعرض لغارات سلجوقية

---

(١) Runciman : History of the Crusades, I. p. 59-60.

Charanis : The Byzantine Empire, p. 189.

(٢) انظر ما سبق ص ٤ – ٥ .

خطيرة ، حتى زمن قنسطنطين مونوماكوس ، إذ فقدت بيزنطة منذئذ شطراً كبيراً من أملاكها فى آسيا الصغرى[١] .

وقع زمن الإمبراطور قنسطنطين التاسع حادثان ، لها أهمية كبيرة فيما يتعلق بآسيا الصغرى ؛ إذ أغار إبراهيم بن اينال السلجوقى على إقليم ايبريا ، وما يلى طرابزون من الأراضى ، واستباح هذه الجهات . على أن أشد ما قام به من غارات ، ما وجهه إلى أرزروم ، التى اشتهرت بتجارتها وثروتها وكثرة عدد سكانها ، فحل بالمدينة الخراب ، وهلك عدد كبير من سكانها . وعلى الرغم من إجراء المفاوضات بين الإمبراطور البيزنطى ، الذى لم يستطع أن يبعث بمدد لولاته فى آسيا الصغرى ، وبين السلطان السلجوقى ، وإطلاق سراح أمير ايبريا الذى وقع أسيراً فى أيدى السلاجقة فإن الغارات التركية لم تتوقف . ففى سنة ١٠٥٤ أغار السلطان طغرل على الأراضى البيزنطية ، واستباح الأقاليم الواقعة بين بحيرة وان وأرزروم والبلاد المجاورة لطرابزون ، وحاصر مانزيكرت ، ثم انسحب بقواته . ومع ذلك فإن آلافاً من التركمان ، واصلوا الإغارة فى جوف آسيا الصغرى ونشطوا أثناء حكم ميخائيل السادس (١٠٥٦ — ١٠٥٧)[٢] .

ودأب التركمان على الإغارة على آسيا الصغرى ، حتى بلغوا سنة ١٠٦٧ غلطه وفريجيا ، وامتدت هذه الغارات حتى بلغت نقصار وعمورية سنة ١٠٦٨ ، وقونيه سنة ١٠٦٩ ، وخونا بالقرب من ساحل بحر إيجه سنة ١٠٧٠[٣] .

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire, p. 190.

(٢) Charanis : The Byzantine Empire p. 190.

(٣) Charanis : The Byzantine Empire p. 191.
Runciman : History of the Crusades. I. p. 61.

كان الإمبراطور وقتذاك ، رومانوس ديوجين ، الذى اشتهر بمهارته الحربية والحماسة الوطنية . فرأى أن سلامة الإمبراطورية تتطلب إعادة فتح أرمينية . غير أن الجيش البيزنطى لم يعد له من القوة والهيبة ، ما كان له منذ خمسين سنة . فالجيوش المرابطة بالأقاليم لم تكن كافية لحماية هذه الأقاليم من المغيرين ، ولم يكن بوسعها أن تستغنى عن جانب من قواتها ، وتجعله تحت تصرف الإمبراطور فى حملاته . أما الأسرات الأرستقراطية التى تستطيع أن تؤلف من رجالها جيشاً ، فقد ساورها الشك فى مقاومة الترك ، ولذا آثرت أن تقف على الحياد . وكان معظم جيش رومانوس من العناصر المأجورة ، وقدرت المصادر العربية عدد الجيش البيزنطى بنحو ٣٠٠ ألف ، وأن الجيش تجهز بأحسن الأسلحة وأدوات الحصار [١]. وعلى الرغم من المبالغة الواضحة فى هذا التقدير ، فلا شك أن هذا الجيش فاق فى العدد كل الجيوش ، التى سبق أن قادها رومانوس فى آسيا الصغرى . غير أنه لم يكن أحسن حالا منها فى الروح المعنوية ، والعدة الحربية ، وقوة التماسك ، نظراً لما كان من اختلاف العناصر ، من الروم ، والصقالبة ، واللان ، والأغوز ، والورنك ، والنرمان ، والبجناك ، والأرمن والكرج . ومن هذه العناصر ما اشتد التنافر بينها ، مثلما كان بين الروم والأرمن ، ومنها ما كان بينها من الاتفاق فى العنصر مثل التركمان والأغوز والبجناك [٢] . على أن خيرة الجند كانوا الفرسان

---

(١) Charanis : Loc. cit.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٤ – ٤٦ .

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٣ – ٢٤ .

(٢) Charanis : The Byzantine Empire, p. 192.

Runciman : History of the Crusades I. P. 62.

من النرمان والفرنج تحت قيادة روسل بايليل النرمانى[١] . وحدثت المعركة الفاصلة عند مانزيكرت فى أغسطس سنة ١٠٧١ ، وحارب رومانوس فى بسالة نادرة ، غير أن الهزيمة حلت بقواته ، فوقع أسيراً فى أيدى ألب أرسلان وترتب على هذه المعركة ، أن التركمان لم يقدموا بعدئذ للإغارة بل للإقامة فى آسيا الصغرى ، وأن تولى عرش الإمبراطورية ميخائيل السابع ، فنشبت الحرب الأهلية ، التى استمرت ، حتى تولى الحكم الكسيوس كومنين سنة ١٠٨١[٢] .

وفى أقل من عشرين سنة ، استطاع التركمان القادمون من الشرق ، والمغامرون النرمان الهابطون من الغرب ، بعد أن استهلوا أعمالهم فى نشاط وافر ، أن يضعفوا قوة الإمبراطورية البيزنطية ، وأن يهددوا كيانها ، ولعل الدراسة الدقيقة للأحوال الداخلية للإمبراطورية أثناء هذه الفترة ، يصح أن تفسر عوامل التداعى والانهيار .

ففى الفترة الواقعة بين سنة ١٠٢٥ ، وسنة ١٠٨١ أى حين تولى العرش الكسيوس كومنين ، توالى على العرش البيزنطى ثلاثة عشر امبراطوراً ، من بينهم امرأتان ، فكان متوسط الفترة التى حكمها الواحد منهم بلغت أربع سنوات . ومن هؤلاء الأباطرة ، خمسة جرى خلعهم عن العرش ، ومات أحدهم فى أحوال يحوطها الغموض والشك ، وتنازل واحد منهم عن العرش تحت ضغط وقع عليه . يضاف إلى ذلك أنه لم يخل عهد من العهود فى هذه الفترة من نشوب ثورة ، استهدفت عزل الإمبراطور عن العرش . ومن الأباطرة أربعة ، دانوا بعروشهم إلى

---

(١) Ibid : Loc. cit.

(٢) Charanis : op. cit. p. 193 Runciman : op. cit. I. p. 64-65.

العرينى : الدولة البيزنطية ص ٧٤٢ – ٧٤٤ .

زوى ابنة الإمبراطور قنسطنطين الثامن ، اشتهروا بالضعف ، والتجرد من الكفاءة ، على حين أن أحوال البلاد اقتضت طرازا آخر من الأباطرة ، يصح أن يدرأوا عنها الأخطار الخارجية ، ويقمعوا الفتن الداخلية(١) .

وترك هؤلاء الأباطرة أمور الدولة إلى الوزراء ، واشتهر فريق من هؤلاء الوزراء بالخلق السليم ، والإدراك الصادق ، فأحسنوا التصرف فى أمور الدولة وسياستها ، بينما سعى فريق آخر إلى ازدياد مجدهم ، ورفع شأن أسراتهم ، وحرص فريق ثالث على الاحتفاظ بالحكم بأية وسيلة من الوسائل . والوقع أن بيزنطة افتقرت فى أخطر مراحل حياتها ، إلى اليد الموجهة والجندى السياسى(٢) .

أما العامل الأساسى لما ساد بيزنطة فى القرن الحادى من الاضطراب والقلق السياسى ، فهو النزاع الذى نشب بين الأرستقراطية المالكة للأراضى ، باعتبارها طبقة عسكرية ، وبين البلاط الإمبراطورى(٣) . والواقع أن هذا

---

(١) Charanis . The Byzantine Empire p. 193-194.
Camb : Med. Hist. IV. p. 326—328
العرينى : الدولة البيزنطية . ص ٧٢٦ — ٧٢٧

(٢) Charanis : The Byzantine Empire, p. 195.

(٣) الواقع أن الأسس التى قامت عليها القوة البيزنطية ، لم تكن وطيدة الأركان . فلم يجر إعداد الإمبراطورية البيزنطية ، المترامية الأطراف ، إلا بقصد الدفاع . فتولى حكم أقاليمها رجال عسكريون ، قادة الثغور ، وسيطر على هؤلاء العسكريين إدارة مدنية فى القسطنطينية . وهذا النظام ، نظام الثغور ، هيأ من القوة المحلية الفعالة ، ما تستطيع بها الدولة حماية أقاليمها ، وقت الغارة ، وما يجعلها تسند الجيش الأساسى فى حملاته الضخمة . غير أنه إذا انتهت الغارة ، صار لوالى الإقليم قوة كبيرة وسلطان ضخم ، لا سيما إذا كان هذا الوالى وافر الثروة . يضاف إلى ذلك أن الرخاء أخذ يدمر النظام الزراعى السائد فى آسيا الصغرى . فالعمود الفقرى الذى تعتمد عليه بيزنطة ، يتمثل فى جماعات الفلاحين الأحرار ، الذين يحصلون على الأراضى رأساً من الدولة ، مقابل ما يؤدونه من الخدمة الحربية . والمعروف أن الأرض هى أسلم =

النضال يرجع إلى القرن العاشر الميلادى. إذ أن الإمبراطور باسيل الثانى، التقى بهذه الأرستقراطية فى معركة حامية ، فأنزل بهم هزيمة ساحقة . ثم تقدم لتقويض مصادر قوتهم بما اتخذه من إجراءات صارمة . وأشد ما اتخذه من هذه الإجراءات ، ما عمد إليه سنة ١٠٠٢ ، من إصدار قانون يتعلق بالضريبة المعروفة باسم allelengyon الضمان المتبادل ، التى تلزم الأرستقراطية بأن يؤدوا ما تأخر من أقساط الضرائب المقررة على الفلاحين ، الذى بلغ بهم الفقر والعوز ، إنهم لم يستطيعوا الوفاء بالتزاماتهم[١] . غير أن هذه الإجراءات توقف تنفيذها بعد وفاة باسيل الثانى ، وتقرر إغفال قانون ضريبة allelengyon ، غير أنه لا زال سوء الظن وعدم الثقة متوافراً عند القادة العسكريين . ويفسر هذه الحقيقة القرار الذى أصدره

= شيء يصح استثمار الأموال به ، وهى المكافأة التى ينالها القادة المظفرون أو الوزراء الموفقون فى الدولة . فطالما نجحت الدولة فى استرداد ما فقدته من الأراضى ، أو لجأت إلى تعمير الأراضى التى خربتها الإغارات والنهب ، سار كل شيء على ما يرام . غير أن هذا النجاح ولد النهم والحرص على الحصول على الأرض . فاستكثر الأعيان والأديرة ضياعهم ، بشراء الأراضى من الفلاحين ، أو بالاستيلاء عليها إما منحة من الحكومة أو مقابل التعهد بأن يؤدوا ما على هؤلاء الفلاحين الأحرار من الضرائب . وحرص الأباطرة العقلاء على وقف هذه الإجراءات ، لأن السيد الجديد يصح أن يحول الأرض إلى مراعى لأغنامه ، كما أنه يستطيع بفضل ما انتقل إليه من إقطاعات الجند الفلاحين ، أن يؤلف جيشاً خاصاً ، يكون عاملا فى ضعف الدولة . ولم تؤد تشريعات هؤلاء الأباطرة إلى نتيجة إيجابية . ففى أثناء القرن العاشر ، نهض فى بيزنطة طبقة أرستقراطية وراثية تعتمد على امتلاك الأراضى ، وبلغت من الثراء والقوة ما جعلها تتحدى الحكومة المركزية . انظر

Ostrogorowski : Agrarian Conditions in the Byzantine Empire in the Middle Ages. Cambridge Economic History. I. p. 196.

Diehl & Marcais : op. cit. p. 555

Runciman : op. cit. p. 53-54.

(١) Ostrogorowski : op. cit. p. 300

Vasiliev. op. cit. p. 351— 352

Charanis : The Byzantine Empire, p. 195-196.

العرينى : الدولة البيزنطية ص ٧٣٠ – ٧٣١ .

مجمع دينى ، زمن البطريرك الكسيوس ، الاستوديونى ، يقضى بإدانة كل المتمردين ، وقطع كل القسس الذين يقبلون منهم التوبة(١) .

ثم حدث زمن قنسطنطين التاسع ، أن اتخذت مناهضة القادة العسكريين صورة منظمة ، إذ ظهر أثناء حكم هذا الإمبراطور حزب سياسى ، تألف أساساً من أعضاء الإدارة المدنية . ومن أغراضه استبعاد العسكريين من الإدارة الإمبراطورية . غير أن تحقيق هذا الغرض أقحم الإمبراطورية فى سلسلة من الحروب الأهلية ، استنزفت أموالها ورجالها فى وقت اشتدت الحاجة فيه إليهما لمواجهة الأعداء الجدد(٢) .

لم يكن قنسطنطين التاسع إمبراطوراً عسكرياً ، إذ ركن إلى ما حفل به البلاط من دواعى الراحة والسرور ، ولم يحفل بما يقترن بالمعسكر من المتاعب والشدائد . فإذا جعل قنسطنطين السلام أساساً لسياسته الخارجية ، فلم يكن ذلك راجعاً إلى كراهيته للحياة العسكرية ، بل لما ساد من شعور ، بأنه لم يعد ثمة ما يدعو لسياسة التوسع . فما حدث فى القرنين العاشر والحادى عشر ، من امتداد أطراف الدولة ، بعد حروب طويلة الأمد ، إلى الفرات ودجلة شرقاً ، وإلى الدانوب فى البلقان ، حقق للدولة فيما يبدو الأمن والطمأنينة . وما حدث من إضافة ممتلكات جديدة للدولة لتسوية حدودها واستقامتها ، مثلما حدث فى أرمينيا الكبرى ، لم تتطلب حملات كبيرة . فحماية الأطراف والحدود ، يصح تحقيقها بتأليف جيش من المأجورين ، يخضعون مباشرة لسلطان العاصمة . فلم يكن للتوسع ما يبرره ، بل إنه يحتاج من النفقات والتكاليف ما تعجز

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire, p. 196.

(٢) Charanis : The Byzantine Empire, p. 196.
Camb . med. Hist. IV. pp. 326—328.
Diehl & Marcais : op. cit. pp. 555—556.

الإمبراطورية عن تحملها ، على حين أن إقرار السلام سوف يؤدى من جهة أخرى إلى تخفيف الأعباء المالية الملقاة على عاتق الدولة ، ويقلل من تدخل الجيش فى الإدارة ، ويحول دون وقوع الفتن والثورات[١] . استند قنسطنطين فى إدارة حكومته إلى طائفة من المفكرين أمثال اكسفيليوس ، وبسيللوس ، وحنا ماوروبوس ، فتقرر اعادة إفتتاح جامعة القسطنطينية ، كما يتخرج فيها الموظفون الإداريون الذين تحتاجهم الدولة . وظل قنسطنطين طوال حكمه يعتمد على هؤلاء الموظفين المدنيين ، بينما أغفل القادة العسكريين ، بل إنه أخرج عدداً كبيراً منهم من الخدمة . يضاف إلى ذلك أنه منع عن جند أقاليم الأطراف النفقات التى درجوا على الحصول عليها ، وأنفق هذه الأموال فى أغراض أخرى[٢] . هذه الإجراءات التى اتخذها الإمبراطور ولدت سخطاً كبيراً بين القادة العسكريين ، فنشبت فى زمنه ثورتان خطيرتان ، الأولى قام بها جورج مانياكس ، بعد أن بلغه ما كان يرمى إليه الإمبراطور من عزله والتشهير به ، على الرغم من الانتصارات التى أحرزها للإمبراطورية فى الشرق، وفى جنوب إيطاليا وصقلية . أما الثورة الأخرى فتزعمها ليوتورنيكيوس ، وترجع أسبابها إلى ما أقدم عليه الإمبراطور من عزل القادة العسكريين عن وظائفهم .على أن فشل الثورتين زاد فى قوة حزب الموظفين الإداريين ، فسيطر هذا الحزب على الحكومة حتى نهاية عصر قنسطنطين سنة ١٠٥٥[٣].

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire p. 196.

العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٧٢٢ .

(٢) Charanis : The Byzantine Empire p. 197.

Ostrogorowski : The Byzantine State p. 301

Diehl & Marcais : op. cit. p. 555

(٣) Psellus : Chronographia p. 245 — 252

Camb. med. Mist. IV. p. 324.

العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٧٢٣ .

أضحى هذا الحزب المدنى من القوة ، ما جعله يختار لحكم الإمبراطورية بعد وفاة تيودورا سنة ١٠٥٦ ، رجلا طاعناً فى السن ، ساذجاً ، يميل إلى الهدوء والسكينة ، فضلا عما اشتهر به من الإسراف وهو ميخائيل السادس . ولا شك أن هذا الطراز من الأباطرة لم يكن ملائما للأحوال الجديدة ، نظراً لما تعرضت له من الأخطار العنيفة فى سائر الجهات[1] .

وما وقع من النضال بين الحزبين المدنى والعسكرى ، بلغ الذروة ، فى زمن ميخائيل السادس . إذ أن كبار القادة العسكريين من أمثال ميخائيل البرجى ، وقنسطنطين وحنا دوكاس وإسحاق كومنين ، وكيكامينوس ، وكاتاكلون ، وكلهم من أعيان آسيا الصغرى ، أنكروا صراحة ما لجأ إليه هذا الإمبراطور من تقديم الموظفين المدنيين والاعتماد عليهم . فلما قامت الثورة ، ونهض العساكر لتأييد اسحاق كومنين ، وانسحبت الحاميات من الأقاليم الأرمنية ، انساب الترك إلى داخل آسيا الصغرى ، فقاموا بغارات مخربة فى أراضيها[2] .

وما لجأت إليه الحكومة البيزنطية من إضعاف الجيش البيزنطى ، بإنقاص عدده ، للتخلص من نفوذ كبار القادة العسكريين ، أوقع البلاد فى حروب داخلية ، وصرفها عن المحافظة على أطرافها . وأكثر من ذلك خطورة ، ما حدث من ازدياد انحطاط أحوال الجند المسجلين فى الديوان ، الذين حازوا من الدولة إقطاعات صغيرة مقابل ما يؤدونه من الخدمات

---

(١) Camb. Med. Hist. IV. p. 324

Diehl & Marcais : Le mande Oriental, p. 556

العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٧٢٨ — ٧٢٩ .

(٢) Charanis : op. cit. p. 198.

الحربية ، التى كان لها أكبر الأثر فيما أحرزته بيزنطة فى القرن العاشر من انتصارات[١] .

الواضح أن ما تذرعت به الدولة البيزنطية فى تخفيض عدد الجيش ، والاستغناء عن خدمات كبار القادة ، من أن الأحوال مستقرة فى داخل البلاد ، وأنه ليس ثمة من أخطار تهدد الدولة ، لم يكن قائماً على أساس سليم . إذ لم تلبث الحكومة البيزنطية أن استخدمت الجند المأجورة ، فيشير المؤرخ البيزنطى سكيليتزس Skylitzes إلى حالة الجيش الذى قاده الإمبراطور رومانوس الرابع ديوجنيس ، لقتال السلاجقة فى الشطر الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى « بأن هذا الجيش تألف من المقدونيين والبلغار والقبادوقيين ، والأغوز ، والفرنج ، والورنك ، والمتبربرين ، وانحاز إليه أيضاً عساكر ثغر الناطليق . وما نشهده فى أحوال هؤلاء الجند لا يمكن تصديقه ، فأبطال الرومان المعروفون ، الذين أخضعوا الشرق والغرب ، أضحوا الآن فئة قليلة ، أذلها الفقر والمعاملة السيئة ؛ افتقروا إلى السلاح والسيوف والحراب ، وإلى الفرسان والعدة الحربية ، لأن الإمبراطور لم يخرج للقتال منذ زمن طويل . ولهذا السبب أضحى لاغناء فيهم ، ولا ترجى منهم فائدة ، فانخفضت أجورهم وقلت أرزاقهم »[٢] . وما أصاب الجند المسجلين بالديوان من الإغفال ، جعلهم أقل العناصر

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire p. 199.

Diehl & Marçais : Le Monde Oriental p. 556.

Ostrogorowski : The Byzantine State p. 304.

العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٧٣٦ .

(٢) Charanis : The Byzantine Empire, p. 200

Ostrogorowski : The Byzantine State p. 304.

Vasiliev : The Byzantine Empire p. 354

شأناً فى الجيش البيزنطى فأضحى معظم هذا الجيش ، فى القرن الحادى عشر مؤلفاً من المأجورين الأجانب : الروس ، الترك ، اللان ، الإنجليز ، النرمان ، الألمان ، البجناك ، البلغار وغيرهم . على أن هؤلاء المأجورين ، سيرتهم مصالحهم الخاصة لا مصالح الإمبراطورية ، وما سببوه من الأذى والضرر ، يفوق ما أدوه من خدمات[١] .

ويعتبر النرمان أشد هؤلاء المأجورين إثارة للقلق والاضطراب ، إذ تولى زعماؤهم مناصب رئيسية فى الجيش ، وحازوا إقطاعات مثمرة . غير أنهم كانوا يثورون ويتمردون لأتفه الأسباب . ويشير المؤرخون البيزنطيون إلى ثلاثة من زعماء هؤلاء النرمان اشتهروا بشدة قلقهم واضطرابهم ، وميلهم للقتال ، وسفك الدماء ، وهم هيرڤيه Hervé ، وروبرت كريسبين ، وروسل بايليل . انسحب هيرڤيه سنة ١٠٥٦ ، من الجيش البيزنطى وانحاز إلى الترك ، بينما أعلن كريسبين سنة ١٠٦٨ ، ثورته وتمرده ، فتقرر عزلهما لخيانتهما[٢] . أما روسل فهو أكثرهم طموحاً ، وأشدهم عنفا فى غاراته . دخل خدمة بيزنطة سنة ١٠٧٠ ، مع جماعة كبيرة من النرمان ، على أنه لم يشترك فى القتال فى معركة ما نزيكرت سنة ١٠٧١ ، فبقيت قواته سليمة ، لم يلحق بها من الخسائر ما لحق العناصر الأخرى[٣] .

واشتدت غارات الترك على آسيا الصغرى سنة ١٠٧٣ ، وحاول الإمبراطور ميخائيل الذى ولى العرش البيزنطى ، عقب رومانوس ، أن يوقف زحف الترك ، فلم يسعه إلا أن يفيد من روسل ، على الرغم من أنه لا يصح الركون إليه ، والاعتماد عليه ، لما كان من موقفه فى

---

(١) Charanis : Loc. cit.

(٢) Runciman : History of the Crusades, I. p. 62.

(٣) Ibid : p. 62.

مانزيكرت . فأضاف إليه قوة من الجيش البيزنطى ، وجعل قيادتها لإسحاق كومنين وأخيه الكسيوس ، نظراً لأنهما ينتميان لأسرة كومنين المعروفة بكراهيتها لأسرة دوكاس ، التى ينتمى إليها الإمبراطور . وبقيا على ولائهما لميخائيل طوال حياته ، وكلاهما اشتهر بأنه قائد ممتاز[1] ، غير أن ولاء اسحاق أزاله ما ارتكبه روسل من خيانه . إذ حدث قبل التقاء الجيش البيزنطى بالترك ، أن خرج على طاعة الإمبراطور ، روسل وجيشه ، وتحللوا من ولائهم ، فحلت الهزيمة بالجيش البيزنطى[2] .

ووضحت وقتئذ نوايا روسل ، إذ أثار حماسه ما قام به مواطنوه ، النرمان ، من أعمال فى جنوب إيطاليا ، فوضع لنفسه خطة ، بمقتضاها يقيم لنفسه إمارة نورماندية فى الأناضول . ولم يكن تحت تصرفه ، وقتذاك ، إلا ثلاثة آلاف مقاتل ، غير أنهم اشتهروا بشدة تعلقهم به ، وإخلاصهم له ، فضلا عن جودة تدريبهم وسلاحهم . ورأى الإمبراطور فى روسل عدوا ، يفوق الترك فى خطورته ، فحشد ما استطاع أن يجمعه من الجند وأرسلهم بقيادة عمه القيصر حنا دوكاس ، فالتقى بهم روسل عند عمورية ، فأنزل بهم الهزيمة ، ووقع حنا أسيراً فى يده . وكيما يضفى على عمله صفة مشروعة ، نادى ، على كره منه ، بأسيره إمبراطورا ، ومضى فى طريقه إلى القسطنطينية ، حتى إذا بلغ الشاطىء الأسيوى للبوسفور ، دون أن يصادف مقاومة ، أشعل الحريق فى ضواحى كريسوبوليس (سكودرى) واتخذ من خرائبها معسكراً لجيشه . وعندئذ أرسل الإمبراطور ميخائيل إلى سليمان السلطان السلجوقى ، يطلب منه المساعدة ضد روسل ، فضيق سليمان وجنده الحصار على قوات روسل على جبل سوفون Sophon فى قبادوقيا ، غير أن روسل وفئة من رجاله ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 66.

(٢) Ibid : Loc. cit.

تمكنوا من الإفلات من هذا الحصار ، ولجأوا إلى أماسيه فى أقصى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى ، حيث حاول أن يقيم لنفسه إمارة ، مثلما فعل النرمان فى إيطاليا . ولم يقع روسل فى أيدى البيزنطيين إلا بما لجأ إليه الكسيوس كومنين من الغدر والخيانة[١] .

واختفى روسل من التاريخ ، غير أن سيرته ظلت عالقة بأذهان البيزنطيين ؛ إذ علمتهم أن النرمان قوم لا يصح الوثوق فيهم ، وأن أطماعهم لا تقف عند حد جنوب إيطاليا ، بل تمتد إلى إقامة إمارات فى الشرق . وبلغ من أهمية هذه السيرة ، أنها فسرت سياسة بيزنطة فى العشرين سنة التالية . يضاف إلى ذلك أن النرمان أنفسهم لم يجدوا ما يشجعهم على الدخول فى خدمة الإمبراطور البيزنطى ، وأضحى بنو عمومتهم الذين يخدمون الإمبراطور ، موضع شك . ومنذئذ اتخذ البيزنطيون حرسهم من من الإنجليز السكسون ، الذين تعرضوا لغزو النرمان[٢] .

وإلى جانب النرمان ، دخل فى خدمة الإمبراطور ، جماعة من الأغوز الذين ينتمون إلى العنصر التركى . غير أن أكثر العساكر الأجنبية بالجيش البيزنطى ، إفادة من الأحوال المضطربة ، التى أعقبت معركة مانزيكرت ، كانوا الأتراك السلاجقة ، الذين دخلوا فى خدمة كثير من القادة البيزنطيين . حاول رومانوس الرابع ديوجنيس أن يستعين بالقوات التركية ، لاستعادة عرشه ، بعد أن أطلق سراحه السلطان ألب أرسلان[٣] . وجرى على نهجه معظم الأباطرة الذين خلفوه على العرش البيزنطى . فحينما أعلن

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 67
Charanis : The Byzantine Empire p. 201.
Schlumberger : Deux Chefs Normands. Revue Historique vol. XVI

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 67.

(٣) Charanis : The Byzantine Empire, p. 201.

روسل ثورته وعصيانه ، استنجد الإمبراطور ميخائيل بالقوات التركية لقمع حركته[١] . وحاول نفس الإمبراطور ، بقوات الأخوين منصور وسليمان ، من أقارب ألب أرسلان فى سحق حركة التمرد ، التى أثارها نقفور بوتانياتس . والواقع أن استخدام هذه القوات التركية ، يعتبر من العوامل التى يسرت للسلاجقة الاستقرار فى غرب آسيا الصغرى . إذ أنزلهم بوتانياتس فى نيقية ، ونيقوميديا وخلقيدونية وكريسوبوليس ، فأضحت الجموع التركية لأول مرة فى داخل المدن الكبرى فى غرب آسيا الصغرى ، ولم يستطع بوتانياتس بعد أن تولى العرش ، أن يقصيهم عن هذه المواضع[٢] . ولما قام نقفور مليسينوس Melissenus بالثورة فى آسيا الصغرى ، تحالف مع السلطان سليمان السلجوقى ، فتوجه سليمان إلى بثينيا ، فلقى ترحيبا كبيراً من الحامية التركية التى أنزلها بها بوتانياتس . ولما فشل مليسينوس فى انتزاع القسطنطينية من بوتانياتس ، رفض سليمان أن يعيد إليه المدن التى احتلها ، واتخذ نيقية عاصمة لسلطنته ، وبذا صارت للترك السلاجقة السيطرة على آسيا الصغرى بين سنتى ١٠٧٨ ، ١٠٨١[٣] .

ومن الأمراء الترك ، دانشمند ، وجكا ، ومنجوشك ، الذين اشتهروا بالمغامرة ، فأقامو لهم إمارات مستقلة ، إذ أقام دانشمند (أحمد غازى) ملكه أول الأمر فى ملطية ، ولم يلبث أن انحاز إلى قلج أرسلان السلجوقى عند إغارته على آسيا الصغرى ، واستطاع أن يقيم له مملكة مستقلة بها ، عاصمتها سيواس ، وضم إليها مدن أماسية ، وكيانجرى (كركر) ، ونقصار

---

(١) انظر ما سبق ص ٦٦ .

(٢) Charanis : The Byzantine Empire p. 201.

Runciman : History of the Crusades I. p. 68.

(٣) Ibid : op. cit : I. p. 68-69.

فضلا عن البستان وملطية ، وقد مات دانشمند سنة ١١٠٤[١] .
أما منجوشك فإنه استولى ، بعد معركة مانزيكرت ، على مواضع كثيرة تقع إلى الشمال الشرقى من آسيا الصغرى ؛ ومن الأملاك التى انتقلت لسلالته ، ارزنجان وكولونيا وديوريج ، وارتبطوا بصلة المصاهرة مع الدانشمنديين[٢] . على أن شكا (چكا) يعتبر أشد هؤلاء الأمراء خطورة ، إذ استولى على أزمير والجزء الساحلى لبحر ايجه . وكان يهدف إلى أن يتولى الإمبراطورية البيزنطية ، فأدخل فى خدمته من اليونانيين ، كما يفيد منهم فى تسيير الأسطول البحرى . غير أنه حاول أيضاً أن يؤلف حلفا من الأمراء الترك ، فزوّج ابنته من قلج أرسلان ، واستطاع فى الفترة بين ١٠٨٠ ، ١٠٩٠ أن يجعل من نفسه سيدا على ساحل بحر إيجه وجزائر لسبوس وخيوس وساموس ورودس[٣] .

وما أصاب عسكر الديوان من تداعى ، لم يؤد فحسب إلى ما تعرض له الوضع الحربى للإمبراطورية من ضعف ، بل نجم عنه نتائج خطيرة ، أثرت فى كيان الإمبراطورية الاجتماعى . إذا توقفت ، بعد وفاة باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ ، المحاولات لمنع نمو الضياع الكبيرة ، وما صدر من القوانين ، لم يجر تنفيذها . وما شنته الحكومة المركزية فى القرن الحادى عشر من قتال ضد القادة العسكريين لم يكن من أجل حماية طبقة الفلاحين الأحرار . فالواقع أن الحكومة أسهمت فى ازدياد نمو الضياع الكبيرة بما بذلته لأنصارها من المنح والهبات[٤] . ومنذئذ أصبحت الضياع الكبيرة

---

(١) En. Is. Art. Danishmandiya

(٢) En. Is. Art. Mengucek.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 62, 72, 77.
En. Is Art. Izmir.

(٤) Charanis : The Byzantine Empire p. 202.

من أهم مظاهر الحياة الاقتصادية فى الدولة البيزنطية ، ويعمل بهذه الضياع ، المستأجرون من الفلاحين ، المعروفين باسم paroikoi ، وكانوا أصلا أحرارا ، غير أن ما ارتبطوا به من الالتزامات والسخرة قيدت حريتهم وانتقالهم[١] . ومن تبقى من الملاك لم يفترقوا كثيراً عن الفلاحين الأحرار paroikoi . فبالإضافة إلى ما يقوم به هؤلاء الفلاحون من الخدمة للسيد ، كان لهم أراضى خاصة ، يدفعون عنها إيجارا ، ويؤدون التزامات مختلفة ، فإذا استقروا بها سنوات معينة ، لا يجوز طردهم منها ، وهذه الأراضى تنتقل من الأب إلى الابن[٢] .

والمعروف أن طبقة الفلاحين الأحرار ، حسبما أعلن الإمبراطور رومانوس ليكابينوس ، كانت تؤلف العامل الأساسى فى قوة الإمبراطورية . إذ تتولى زراعة الأراضى ، كما تسد الحاجات الضرورية ، وتؤدى الضرائب ، وتمد الجيش بالجند : على أن هذا العامل ، لم يلبث أن دمَّره ما حدث من تناقص أراضى (حيازات) الفلاحين الأحرار ، وتكاثر الضياع الكبيرة . والواضح أن كل الأراضى فى الدولة البيزنطية تؤدى ، من الناحية النظرية ، ما هو مقرر عليها من الضرائب ، غير أنه لم يكن من اليسير ، عادة ، جباية الضرائب من كبار الأعيان ، لأنهم بفضل ما كان لهم من نفوذ فى الإدارة ، حصلوا على إعفاءات هامة . ففى القرن الحادى عشر ، اشتدت الحاجة إلى المال ، وذلك يرجع من جهة إلى ما اشتهر به بعض الأباطرة من الإسراف ، ومن جهة أخرى ، إلى ما ترتب على الإعفاءات العديدة من تضاؤل الخراج والموارد ، فضلا عن القصور فى جباية كل الضرائب[٣] . ومن الأمور التى تعرض

---

(١) Charanis : Loc. cit.

(٢) Charanis : The Byzantine Empire, p. 203.

(٣) Charanis : The Byzantine Empire, p. 203.
Ostrogorowski : The Byzantine State p. 242.
العرينى : الدولة البيزنطية ، ص ٣٤٧ – ٣٥٢ .

الإمبراطور إسحاق كومنين ، بسببها للتأنيب والتقريع ، وجعلته موضع كراهية ، ما أقدم عليه من إلغاء ما بذله الأباطرة السابقون عليه ، من الامتيازات والهبات ، وحرصه الشديد على جباية كل الضرائب . غير أنه إذا أفلت كبار الأعيان من تأدية الضرائب ، فلن يستطيع ذلك الفلاحون ، الذين صار معظمهم وقتئذ مستأجرين . فكان لزاما عليهم أن يتحملوا وطأة الضرائب ، التى ازدادت ثقلا ، فضلا عن أنواع السخرة العديدة . ولذا لم يحفلوا بسعادة الدولة أو نفعها ، فلم يبذل الفلاحون فى داخل آسيا الصغرى أية مقاومة ضد الترك . أما الطبقة العسكرية ، التى كان لا بد لها أن تقاوم الغزاة فدمرها ما حدث من اتساع الضياع الكبيرة ، وما نشب من نضال بين الحزبين المدنى والعسكرى فى القرن الحادى عشر . وما أصاب عساكر الديوان من الإهمال والفقر ، أفقدهم الرغبة فى القتال ، وحرمهم من العدة الحربية اللازمة للنضال . وأسهم فى إتمام تجزئة الدولة ، الجنود المأجورون الذين حلوا مكانهم[١] .

على أن نمو الضياع الكبيرة ، وما ترتب عليها من انهيار طبقة الفلاحين الأحرار ، نجم أيضاً من الإقطاع البيزنطى الذى استند فى القرن الحادى عشر ، إلى النظم المعروفة بأسماء exkousseia ، pronoia ، charistikion[٢] .

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire. p. 204.

(٢) Ibid : Loc. cit.

البرونويا ، عبارة عن كل ما يغل خراجا ، من قطعة أرض ، أو نهر ، أو موضع صيد سمك ، وتبذله الحكومة لأحد الأشخاص ، ويعرف باسم pronoiarus ، مقابل أن يؤدى خدمة ، ليس من الضرورى أن تكون حربية ، وذلك لفترة معينة يصح أن يكون ذلك مدى الحياة ، ولبيت المال أن يسترد هذه المنحة . ويخدم حائز هذا الإقطاع فى الجيش على أنه قائد ، يقدم ، عند دعوته عدداً من العساكر يتوقف على مساحة إقطاعه . ولم تمنح البرونويا أول الأمر مقابل الخدمة الحربية ، ثم صارت مرتبطة أساساً بالخدمة الحربية زمن الكسيوس كومنين وخلفائه . فأسهمت بذلك فى نمو الضياع الكبيرة ، وتطور النظام الإقطاعى ، وضعف الحكومة المركزية .

=

والخلاصة أن معركة مانزيكرت لم تكن أهم العوامل في تفكك الدولة البيزنطية بل أسهم في ذلك أيضاً ، ما أصاب طبقة الفلاحين الأحرار من التداعى ، فحرمها من دعامة متينة ، وما نشب من نضال بين الحزبين المدنى والعسكرى ، بدد طاقاتها ، وعجل بانهيار طبقة العساكر ، الذين يعتبرون من خيرة المدافعين عن الإمبراطورية وحماتها . على حين أن العساكر المأجورة لم تحفل إلا بمصالحها الخاصة ، وأساءت إلى الدولة بدلا من أن تعمل لصالحها . يضاف إلى ذلك أن نمو النظم الإقطاعية والإعفاءات غرس بذور التفكك والانهيار[1] .

وأهم ما حدث للكنيسة البيزنطية فى القرن الحادى عشر ، ما كان من نزاعها مع روما . وما ورد فى التاريخ عن أحداث الكنيسة سنة ١٠٥٤ ، تدل على وقوع انفصال تام بين كنيستى روما وبيزنطة ، والواقع أن هذه الأحداث جعلت الموقف يزداد سوءاً عما كان عليه من قبل ؛ إذ أن الانشقاق جرى ، قبل سنة ١٠٢٤ ، ففى تلك السنة اقترح بطريرك القسطنطينية استئناف العلاقات مع روما ، بشرط أن تعترف روما بزعامة

= أما النظام الآخر المعروف باسم Charistikion ، فيتعلق بأملاك الأديرة التى لم تقل شأناً عن أملاك الإمبراطور . وهو عبارة عن منحة مؤلفة من دير أو أديرة ، بما يتبعها من أملاكها ، لاتفقد وضعها ، إنما يتولى إدارتها الأشخاص الذين جرى بذلها لهم ، ويقومون بالإنفاق على الرهبان وعمارة المبانى ، ويحتفظون لأنفسهم ما تبقى من الخراج . وهذه الأديرة يمنحها عادة الهيئات الكنسية ، وفى بعض الأحوال الأباطرة ، الذين يبذلونها لأصدقائهم والمقربين لهم . وبذا يزداد نموا ضياع الطبقة الأرستقراطية ، وتكثر ثروتها ، فتهدد بتقويض الحكومة المركزية . ويعرف حائز هذه المنحة ، باسم Charistikanos ويحوزها عادة مدى الحياة .

وتطلق لفظة exkousseia على الإعفاءات العديدة التى تنالها أملاك الأديرة ، والضياع الكبيرة ، وأهم هذه الإعفاءات ، الإعفاء من الضرائب ، وذلك فى وقت اشتدت فيه الحاجة إلى المال .

انظر Charanis : The Byzantine Empire, pp. 205-207.

Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 329.

العرينى : الدولة البيزنطيه ، ص ٧١٤ — ٧١٧ .

(١) Charanis : The Byzantine Empire, p. 206-207.

القسطنطينية لسائر الكنائس فى الشرق . والواضح أن روما رفضت هذا العرض ، غير أن هذا الرفض لم يغير من الناحية العملية ، مكانة كنيسة القسطنطينية فى الشرق ، لما لها من الزعامة الفعلية على الكنائس فى الشرق[١] .

هذه الأحوال كان يصح أن تمضى فى سهولة ويسر ، لو لم يحدث فى جنوب إيطاليا ما أثار أزمة جديدة . إذ حدث منذ سنوات قليلة أن استولى النرمان على البلاد التى لا زالت وقتذاك فى حوزة البيزنطيين بجنوب إيطاليا . ولوقف زحف النرمان ، عزم الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين التاسع مونوماكوس ، أن يجرى تحالفا مع البابوية ، فعيَّن على ممتلكاته فى إيطاليا حاكما ، وعهد إليه بأن يحقق هذا التحالف . ولم يكن هذا الحاكم سوى أرجيروس ، بن ميلو الذى أعلن الثورة سنة ١٠١٧ على بيزنطة ، واستأجر جماعة من النرمان لمساندته[٢] .

نشأ أرجيروس بإيطاليا ، من أسرة لومباردية ، تعتنق الديانة والتقاليد اللاتينية . ولم يكن أرجيروس من الرعايا المخلصين لبيزنطة ، غير أن قسوة النرمان وشدتهم ، حملته على أن يتخذ جانب بيزنطة . فقدم إلى القسطنطينية واستخدم نفوذه ليحمل بيزنطة على التحالف مع البابوية ، لمنع تقدم النرمان . وعلى الرغم من أنه ظفر بثقة الإمبراطور ، فإن فى بيزنطة عناصر هامة ، ولا سيما بين رجال الدين ، تكن له الكراهية ، ويساورها الشك فى أعماله . ففى أحوال كثيرة تبادل البطريرك مع أرجيروس ، أثناء مكوثه بالقسطنطينية ، عبارات جارحة ، ورفض أكثر

---

(١) **Ibid : op. cit. p. 208.**

(٢) **Charanis : The Byzantine Empire, p. 208.**

من مرة أن يشاركه التناول بكنيسته . وصل أرجيروس إلى أبوليا سنة ١٠٥١ ، ولم يلبث أن دخل فى مفاوضات مع البابوية[١] .

كان ليو التاسع هو البابا الذى استأنف أرجيروس معه المفاوضات ، بشأن التحالف . والمعروف أن ليو ينتمى إلى حزب إصلاح الكنيسة . فما كاد يصير بابا ، حتى شرع فى توجيه حملة إلى جنوب إيطاليا ، لاستئصال السيمونية ، وفرض العزوبة على رجال الدين . والواقع أن نشاطه كان موجها إلى المخالفين من الإكليروس اللاتينى الذين يخضعون لسلطانه ، على أن حملة الإصلاح ، ولا سيما الدعوة لمنع زواج القسس ، لابد أن تمس أيضاً الإكليروس اليونانى ؛ فمن العسير أن يفرض العزوبة على رجال الدين من اللاتين ، طالما يمضى زملاؤهم رجال الدين اليونانيون فى الزواج . والواضح أن ذلك يلحق الضرر بمصالح البطريركية البيزنطية ، نظراً لأن رجال الدين اليونانيين فى جنوب إيطاليا ، يخضعون لسلطان كنيسة بيزنطة[٢] .

كان ميخائيل كريولاريوس يشغل وقتذاك منصب البطريركية فى القسطنطينية ، وهو من الأشخاص الأقوياء ، اشتهر بالمهارة والدهاء ، والطموح السياسى ، فكاد كريولاريوس يتولى عرش الإمبراطورية فى وقت من الأوقات ، ولما ولى البطريركية سنة ١٠٤٣ كان يطمع فى أن يجعل البطريركية مستقلة عن الدولة . وإذ انزعج لتعين أرجيروس حاكما على الأملاك البيزنطية فى إيطاليا ، ورأى فى التحالف مع البابوية ، ونشاط البابا فى جنوب إيطاليا ، خطراً يهدد مصالح البطريركية ، فقرر أن يقضى على هذا الخطر ، ورسم الخطة على أن يثير أزمة تحول دون

---

(١) **Charanis : The Byzantine Empire, p 208.**

(٢) **Ibid : op. cit. p. 209.**

Runciman : History of the Crusades I. p' 58.

إتمام التحالف مع البابوية[١] . أمر كريولاريوس بإغلاق الكنائس اللاتينية فى القسطنطينية سنة ١٠٥٢ أو ١٠٥٣ ، ثم أصدر تصريحا ، ينكر فيه بعض تقاليد الكنيسة اللاتينية ، ولا سيما عادة تناول الخبز غير المخمور فى القربان . ووجه هـذا التصريح إلى حنا أسقف ترانى ، الذى يرتبط بالصداقة مع البيزنطيين برغم أنه من اللاتين ، وإلى سائر أساقفة الغرب ، ومنهم البابا ذاته . وما وقع بعدئذ من الأحداث فى إيطاليا ، وما جرى من فشل البيزنطيين والبابا ليو التاسع فى وقف زحف النرمان ، ووقوع ليو أسيراً فى أيديهم ، كل ذلك ، حتم على البابا أن يتعاون مع الإمبراطور ، وكتب كريولاريوس إلى البابا رسالة تدعو إلى الوفاق ، ولم يورد بها شيئا عن العادات اللاتينية التى سبق أن وجه إليها النقد ، غير أنه ألمع إلى أنه من أسوياء البابا . فكتب البابا إليه ردا ، استبعد منه الألفاظ الحادة ، غير أنه أشار صراحة إلى أنه لايتنازل مطلقا عن المسألة الجوهرية ، وهى خضوع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما[٢] . وحمل رسالة البابا ، الكاردينال همبرت ، الذى اشتهر بضيق الأفق ، وضآلة العلم ، والعناد والغطرسة ، والتجرد من الكياسة ، واللجاجة فى الجدل والمناقشة . ولما لم يقبل كريولاريوس أن يدخل معه فى المفاوضة ، أصدر همبرت ، فى كنيسة القديسة صوفية ، قرارا بحرمان كريولاريوس من الكنيسة ، فى يوليه سنة ١٠٥٤ ، بحضور رجال الدين . على أن كريولاريوس لم يلبث ، بعد أن اشتد هياج سكان القسطنطينية ، وساءت الأمور ، وحصل على تأييد الإمبراطور ، أن صب غضبه على قرار الحرمان ، وعلى الذين وضعوه ، والذين اشتركوا فى صياغته ونشره ، وقرر إحراق النسخ المتداولة[٣] .

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire, p. 210.

(٢) JuJie : Le Schisme Byzantin, p 195.
Charanis : Loc. cit.

(٣) Ibid : p. 211.

الواقع أن كريولاريوس لايعتبر المسئول الأول عن الانفصال الذى حدث سنة ١٠٥٤ ، لأنه هو الذى أثار المناقشة فى هذا الموضوع ، إذ أن كريولاريوس أظهر فى رسالته للبابا الميل إلى المسالمة والتوفيق ، غير أنه لابد لكل اتفاق أن يدرك الوضع الحقيقى للبطريركية البيزنطية . فالمعروف أن كريولاريوس كان يرأس الكنيسة البيزنطية فى وقت بلغت فيه أملاك الكرسى الرسولى بالقسطنطينية أقصى اتساع لها فى التاريخ ، وبلغت الذروة فى المكانة والنفوذ . ويرجع فشل كل المفاوضات إلى أنه لم يدرك هـــذه الحقيقة مندوبو البابا ، فأثاروا بقرار الحرمان شعور الناس بالقسطنطينية(١) .

على أن هذا الانشقاق الذى حدث سنة ١٠٥٤ ، لم ينطو على انفصال الكنيسة اليونانية ذاتها . فما حدث من تبادل الشتائم بين كريولاريوس وهمبرت ، لا شك أنه أثار شيئاً من الكراهية ، غير أنه لم يؤثر كثيراً فى جوهر العلاقات بين الكنيستين . وحاول البابا اسكندر الثانى ، بعد عشرة سنوات ، التفاوض غير أن اليونانيين لم يبدوا استعدادا للتفاوض مع البابوية(٢) .

على أن الانهيار الذى حل بالوضع الخارجى للإمبراطورية البيزنطية ، حمل اليونانيين على أن يقيموا علاقات ودية مع البابوية . ففى سنة ١٠٧٣ وجه الإمبراطور ميخائيل السابع رسالة إلى البابا جريجورى السابع ، ويتبين من إجابة جريجورى السابع ، أن الرسائل الإمبراطورية انطوت على مسألة توحيد الكنيستين روما وبيزنطة ، وحاجة الإمبراطورية إلى مساعدة حربية ، لوقف تقدم الترك السلاجقة .(٣) وتأثر جريجورى لرسائل الإمبراطور ،

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire, p. 211-212.

(٢) Ibid : Loc. cit.

(٣) Charanis : Byzantium, the West and the Origin of the First Crusade. p. 20.

وبعث من قبله مندوبين ، إلى القسطنطينية ليحصلوا على معلومات أخرى ، غير أنه لم يترتب على المفاوضات شيء يذكر . ثم ساءت العلاقات ، بعد سنوات ، بين روما والقسطنطينية ، بسبب مساندة البابا جريجورى لروبرت جويسكارد فى غزو الإمبراطورية البيزنطية . ففى يوليه سنة ١٠٨٠ ، كتب البابا جريجورى إلى أسقفى كالابريا وأبوليا ، يطلب إليهما أن يبذلا كل ما فى وسعهما من مساعدة للحملة التى أعدها جويسكارد لمهاجمة بيزنطة . وهاجم جويسكارد الإمبراطورية ، على أن اليونانيين منشقون من الناحية الدينية ، فكأن الكسيوس كومنين ، واجه عند ارتقائه العرش ، عداوة البابوية فضلا عن سائر الأعداء[1] .

أما الحروب الداخلية التى تلت ما نزيكرت ، فإنها انتهت سنة ١٠٨١ ، بأن تولى الكسيوس كومنين عرش الإمبراطورية ؛ بعد أن لجأ الإمبراطور بوتانياتس إلى الدير بناء على نصيحة البطريرك .

الكسيوس كومنين :

حكم الكسيوس سبعا وثلاثين سنة ، ويعتبر أعظم ساسة عصره ، على الرغم من أنه تراءى سنة ١٠٨١ أنه ليس من المحقق أن يعمر طويلا هو وإمبراطوريته . كان وقتذاك شابا لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، توافرت له الخبرة بالحروب سنوات عديدة تولى فيها قيادة الجيوش ، واشترك فى قمع الفتن والثورات ، على أن نجاحه توقف على ما ادخره من المواهب والسياسة . اشتهر الكسيوس بطلعته الجذابة ، كان متين البناء رزينا ، لين الجانب ، سهل الطباع ، فضلا عما عرف به من ضبط النفس . واجتمع

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire, p. 218.

فى الكسيوس المحبة الزائدة ، والاستعداد التام لاستخدام ما تتطلبه مصالح البلاد من أساليب الحيلة والإرهاب[١] .

لاشك أنه ساعده على الوصول إلى الحكم ، ما اشتهرت به أسرته من الاتصالات العديدة بالأرستقراطية البيزنطية ، ووطد مركزه ، ما جرى من زواجه من سيدة تمت بصلة القرابة لأسرة دوكاس . على أنه زاد فى متاعبه ومشاكله ، ما اشتهر به أقاربه من تدبير المؤامرات ، والأحقاد ، ولا سيما ما تكنه أمه من الكراهية الشديدة لزوجته وعشيرتها . وحفل البلاط البيزنطى ، بكثير من أفراد الأسرات الملكية السابقة ، والأسرات التى ينتمى إليها المغتصبون . وحاول الكسيوس أن يتحالف معهم ، بأن يرتبط بهم بعلاقات المصاهرة : ومن هؤلاء الذين أقاموا بالبلاط ، الإمبراطورة ماريا التى اشتهرت بكراهيتها الشـديدة للإمبراطورة الجديدة أيرين ، وقنسطنطين دوكاس ابن ماريا ، الذى اتخذه الكسيوس صديقا له ، ولم يلبث أن أعلن خطبته لابنته أنّه Anna . وبالقصر أيضاً عاش أبناء رومانوس ديوجنيس ، وتزوج واحد منهم تيودورا ، أخت الكسيوس ، وكذا ابن نقفور بريينيوس Bryennius ، الذى تزوج فعلا من أنّه كومنين ، بعد وفاة قنسطنطين دوكاس . أما نقفور ميليسينوس ، صهر الإمبراطور ، فتنازل عن حقوقه فى العرش مقابل الحصول على لقب قيصر[٢] .

كان لزاما على الكسيوس أن يرقب هؤلاء جميعا ، وأن يخمد الفتن ، ويسكن القلاقل ، وأن يقضى على كل أسباب الخيانة : أنشأ طائفة من الألقاب ، كيما يرضى بها مطامعهم ويشبع أغراضهم . ولم يثق الكسيوس فى النبلاء وكبار الموظفين ، بعد أن اكتشف مؤامرة لتدمير حكومته ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 70.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 70.

وطالما تعرض لخطر الاغتيال . على أن ألكسيوس اشتهر بدقته ودماثته والميل إلى الرأفة عند إنزال العقوبة ، ولعل ذلك راجع إلى سبب سياسى ، أو إلى ما اتصف به من السلوك والخلق ، وهذه الرحمة ، وما اقترن بأعماله من الهدوء ، وما اشتهر به من بعد النظر ، يعتبر من صفاته الأساسية ، التى تأصلت عنده ، بسبب ما تعرض له فى حياته من الأخطار(١) .

على أن الإمبراطورية التى تولى عرشها الكسيوس كومنين ، سنة ١٠٨١ كانت على وشك الانهيار ، إذ كانت الخزانة خاوية ، لما اشتهر به الأباطرة المتأخرون من الإسراف ، ولنضوب موارد الدولة ، بعد أن ضاعت منها آسيا الصغرى ، ونشبت الفتن والثورات فى أملاكها الأوربية ، وتداعى النظام القديم لجباية الضرائب . وافتقرت جيوشه إلى النظام ، وأحاط الأعداء بالدولة من كل جانب ، ونشطوا لاقتطاع أراضيها . ففى شبه جزيرة البلقان ، أوشك روبرت جويسكارد ، برضى البابا جريجورى السابع وبركاته ، أن يغزو أملاك الإمبراطورية . وازداد قلق الصربيين واشتدت كراهيتهم وعداوتهم للإمبراطورية ، وتجهز الكومان والبجناك ، للقيام بهجمات جديدة على الإمبراطورية . ولم يكن للإمبراطورية سيطرة فعلية فى آسيا الصغرى ، إلا على بعض المواضع الواقعة على ساحل بحر مرمرة ، ومنها نيقوميديا ، ومع ذلك تعرضت لخطر الدولة التركية الناشئة فى نيقية . وفى نفس الوقت استقر أحد المغامرين من الترك ، وهو شكا فى أزمير ، وأنشأ أسطولا ، استولى بفضله على بعض جزائر بحر الأرخبيل وهدد القسطنطينية ذاتها(٢) .

ويرجع الفضل الأكبر للإمبراطور الكسيوس ، فى الإبقاء على

---

(١) Runciman : History of the Crusades, I. p. 71.

(٢) Charanis : The Byzantine Empire p. 214.

Runciman : History of the Crusades I. p. 71

الإمبراطورية . فعلى الرغم من أنه لم يكن خبيراً بالضرائب ، فإن ما اتخذه من طرق ، تبدو غريبة للاقتصادى فى العصر الحديث ، أنقذ الدولة من الخراب . فبفضل ما فرضه على رعاياه من ضرائب تجاوزت الحدود ، وباستخلاص القروض ، ومصادرة أملاك الأعيان والكنيسة ، وبجعل العقوبات قائمة على الغرامة والحبس ، وببيع الامتيازات ، وتشجيع ما قام فى القصر من الصناعات ، استطاع الكسيوس ، أن ينفق على الجهاز الإدارى الضخم ، وأن يعيد تأليف الجيش ، وبناء الأسطول ، وأن ينفق فى بذخ على البلاط ، وأن يسخو فى بذل المنح والهدايا لرعاياه المخلصين ، وإلى الذين يقصدونه من الرسل والأمراء . لأنه يعتقد أن المجد والمكانة فى الشرق ترتكز إلى البذخ والأبهة[1] . على أن الكسيوس ارتكب خطأين كبيرين ؛ الأول أنه منح امتيازات سخية للتجار الأجانب على حساب رعاياه ، مقابل ما حصل عليه من مساعدة عاجلة . أما الخطأ الثانى ، فإنه يتمثل فيما لجأ إليه من تخفيض العملة ، فى لحظة من اللحظات الحرجة ، بعد أن ظلت سبعة قرون تعتبر أثبت عملة فى العالم الحافل بالفوضى[2] .

وبفضل ما لجأ إليه الكسيوس من اتخاذ طريق المفاوضات ، وبذل الامتيازات ، استطاع أن يفرق بين أعدائه كما يتصرف مع كل منهم على حدة . وبرع الكسيوس فى الدراية بأساليب الدبلوماسية البيزنطية ، فأحسن استخدام المبدأ المعروف « فرق تسد »[3] .

فحينما أغار جويسكارد على الإمبراطورية فى ربيع سنة ١٠٨١ ، كان الكسيوس وقتذاك يشتبك فى القتال مع السلاجقة فى نيقية ، غير أنه لم

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 71.

(٢) Ibid : Loc. cit.

(٣) Charanis : The Byzantine Empire p. 214.

يلبث أن عقد الصلح معهم . وحوالى ذلك الوقت ، دخل فى مفاوضات مع هنرى الرابع إمبراطور ألمانيا ، وحاول أن يثير النزاع والفتنة بين النرمان فى جنوب إيطاليا . وعقد أيضاً معاهدة مع البنادقة ، بمقتضاها حصل الكسيوس على تأييدهم ومساعدتهم ، مقابل ما بذله لهم من امتيازات تجارية[1] ، ففى المرسوم الذهبى الذى أصدره سنة ١٠٨٢ ، أعفى البنادقة من كل ما يؤدى من المكوس والرسوم والالتزامات فى جميع موانى الإمبراطوريه البيزنطية فى بحر الأرخبيل والبحر المتوسط ، فيما عدا موانى قبرص وكريت[2] ، وبذا صارت تجارتهم حرة فى الأماكن الواردة بالمرسوم[3] . والواضح أن منح هذه الامتيازات لا بد أن يدمر الرخاء الاقتصادى للإمبراطورية ، غير أنه كفل لألكسيوس ، على الأقل فى الوقت الراهن مصدراً بالغ الأهمية ، يستند إليه فى النضال ضد زعيم النرمان . إذ أن أول لقاء بين الكسيوس وجويسكارد ، بالقرب من دورازو ، أفضى إلى كارثة حلت بالإمبراطور البيزنطى ، فسقطت دورازو فى أيدى النرمان فى فبراير سنة ١٠٨٢ ، وصار الطريق مفتوحا إلى سالونيك ، ومنها إلى القسطنطينية . على أن ما أجراه الكسيوس من مفاوضات مع الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع ، وما دبره من مؤامرات بين النرمان فى جنوب إيطاليا ، لم يلبث أن حقق نجاحا ملحوظا . فبينما زحف هنرى الرابع على روما ، لتسوية نزاعه مع البابا جريجورى السابع ، شبت ثورة فى جنوب إيطاليا ، ضد سلطان جويسكارد وحكومته . هذان الأمران ، حملا روبرت جويسكارد على أن يعود إلى إيطاليا ، وأن يخلف وراءه ابنه بوهمند

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire p. 214.

(٢) Lewis : Naval Power and Trade Routes in the Mediterranean ,p. 238.

(٣) Charanis : op. cit. p. 214.

للمضى فى القتال ضد الكسيوس . واستطاع الإمبراطور البيزنطى أن يحيط هذا الغزو النرمندى ، فعاد بوهمند إلى إيطاليا ، سنة ١٠٨٣ . وعلى الرغم من الانتصارات التى حققها جويسكارد فى غزوته التى قام بها سنة ١٠٨٤ ، فإن وفاته فجأة سنة ١٠٨٥ ، أوقفت المضى فى الغارة على بيزنطة ، وبذلك ، انقضى الخطر البيزنطى على الأقل فى الزمن الراهن[١].

ولم تنته بعد ما تعرض له الكسيوس من الشدائد . إذ تعرضت الإمبراطورية للخطر من قبل البجناك والكومان ، وانحاز إليهم فى هذه المرة البوجو مليون ، الذين يدينون بنحلة مخالفة للمذهب الأرثوذكسى وكانوا ينزلون بإقليم فليبوبوليس ، واشتهروا بعدائهم الصريح للبيزنطيين . وأغار البجناك والكومان على تراقيا ، فى سنتى ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، غير أن القوات البيزنطية ردتهم على أعقابهم . ومع ذلك فإنهم أنزلوا الهزيمة الساحقة ، سنة ١٠٨٨ ، بالإمبراطور البيزنطى ، بالقرب من دريسترا (سيلسترا) ، ولم يفلت الكسيوس بحياته إلا بصعوبة ولم ينقذ الموقف إلا ما حدث من النزاع بين البجناك والكومان ، عند اقتسام الغنائم . وعقد الكسيوس مع خصومه معاهدة ، لم تستمر طويلا ، لأنه حدث سنة ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، أن چكا أمير أزمير ، الذى كان يتطلع إلى أن يصبح أمبراطورا فى القسطنطينية ، أغوى البجناك بمهاجمة الأمبراطورية من جهة البر ، على أن يتولى حصار العاصمة بحرا ، بينما يهاجم أبو القاسم سلطان نيقية ، مدينة نيقوميديا فى آسيا الصغرى . فأقام چكا حول العاصمة البيزنطية حلقة شديدة الصلابة[٢] .

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire p. 214.

Runciman : History of the Crusades I. p. 74.

(٢) Charanis : The Byzantine Empire p. 215.

Runciman : History of the Crusades I. p. 77.

هاجم البجناك تراقيا مرة أخرى ، فأنزلوا الهزيمة بالأمبراطور ، وشقوا طريقهم إلى ضواحى العاصمة . غير أن ما اشتهر به الكسيوس من الدبلوماسية أنقذت الموقف ؛ إذ دخل فى مفاوضات مع الكومان ، وحرضهم على أن يهاجموا حلفاءهم السابقين[١] ، فحاقت بهم كارثة مروعة بددت شملهم ، وجعلتهم يختفون من التاريخ[٢] . ولا زال چكا شديد البأس ، وافر النشاط ، يعمل على تحقيق أغراضه ، ومع ذلك فإن دبلوماسية الكسيوس ، أجهزت عليه . فما أقامه الكسيوس من علاقات سلمية مع السلاجقة فى نيقية ، أثناء إغارة جويسكارد النرمندى ، على أملاك الإمبراطورية ، تعرضت للاضطراب ، بعد وفاة سليمان بن قتلمش سلطان نيقية ، الذى لقى مصرعه سنة ١٠٨٥ ، حينما حاول أن يبسط سلطانه على سوريا[٣] . وترتب على مقتله ، أن وقع الاضطراب بين الترك فى آسيا الصغرى ، وأسهم الكسيوس فى هذه الفوضى ، بما لجأ إليه من التآمر ، والإيقاع بين الأمراء ، والإفادة من الأحقاد السائدة بينهم ، فيعرض الرشوة على أحدهم ، ويغرى الآخر بالمصاهرة ، واستطاع أحد الثائرين ، وهو أبو القاسم أن يستقل فى نيقية فترة من الزمن[٤] . وتعاون أبو القاسم مع چكا فى الهجوم على نيقوميديا ؛ ولما تحطم البجناك ، دبر أبو القاسم أمر الهجوم على القسطنطينية ذاتها ، غير أن القوات البيزنطية أوقعت به ، فقرر قبول ما عرضه عليه الكسيوس من عقد معاهدة تحالف[٥] . ونظرا لأنه لم تكن العلاقات ودية بين أبى القاسم ، وملكشاه السلطان الأعظم للسلاجقة ، لم يلبث أبو القاسم أن

---

(١) Ibid : Loc. cit.

(٢) Charanis : The Byzantine Empire p. 215.

(٣) Ibid : Loc. cit.

Runciman : History of the Crusades I. p. 77.

(٤) Ibid : Loc. cit.

(٥) Charanis : The Byzantine Empire p. 216.

للمضى فى القتال ضد الكسيوس . واستطاع الإمبراطور البيزنطى أن يحيط هذا الغزو النرمندى ، فعاد بوهمند إلى إيطاليا ، سنة ١٠٨٣ : وعلى الرغم من الانتصارات التى حققها جويسكارد فى غزوته التى قام بها سنة ١٠٨٤ ، فإن وفاته فجأة سنة ١٠٨٥ ، أوقفت المضى فى الغارة على بيزنطة ، وبذلك ، انقضى الخطر البيزنطى على الأقل فى الزمن الراهن(١).

ولم تنته بعد ما تعرض له الكسيوس من الشدائد . إذ تعرضت الإمبراطورية للخطر من قبل البجناك والكومان ، وانحاز إليهم فى هذه المرة البوجو مليون ، الذين يدينون بنحلة مخالفة للمذهب الأرثوذكسى وكانوا ينزلون بإقليم فليبوبوليس ، واشتهروا بعدائهم الصريح للبيزنطيين . وأغار البجناك والكومان على تراقيا ، فى سنتى ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، غير أن القوات البيزنطية ردتهم على أعقابهم . ومع ذلك فإنهم أنزلوا الهزيمة الساحقة ، سنة ١٠٨٨ ، بالإمبراطور البيزنطى ، بالقرب من دريسترا (سيلسترا) ، ولم يفلت الكسيوس بحياته إلا بصعوبة ولم ينقذ الموقف إلا ما حدث من النزاع بين البجناك والكومان ، عند اقتسام الغنائم . وعقد الكسيوس مع خصومه معاهدة ، لم تستمر طويلا ، لأنه حدث سنة ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، أن چكا أمير أزمير ، الذى كان يتطلع إلى أن يصير أمبراطورا فى القسطنطينية ، أغوى البجناك بمهاجمة الأمبراطورية من جهة البر ، على أن يتولى حصار العاصمة بحرا ، بينما يهاجم أبو القاسم سلطان نيقية ، مدينة نيقوميديا فى آسيا الصغرى . فأقام چكا حول العاصمة البيزنطية حلقة شديدة الصلابة(٢) .

---

(١) Charanis : The Byzantine Empire p. 214.

Runciman : History of the Crusades I. p. 74.

(٢) Charanis : The Byzantine Empire p. 215.

Runciman : History of the Crusades I. p. 77.

هاجم البجناك تراقيا مرة أخرى ، فأنزلوا الهزيمة بالأمبراطور ، وشقوا طريقهم إلى ضواحى العاصمة . غير أن ما اشتهر به الكسيوس من الدبلوماسية أنقذت الموقف ؛ إذ دخل فى مفاوضات مع الكومان ، وحرضهم على أن يهاجموا حلفاءهم السابقين[١] ، فحاقت بهم كارثة مروعة بددت شملهم ، وجعلتهم يختفون من التاريخ[٢] . ولا زال چكا شديد البأس ، وافر النشاط ، يعمل على تحقيق أغراضه ، ومع ذلك فإن دبلوماسية الكسيوس ، أجهزت عليه . فما أقامه الكسيوس من علاقات سلمية مع السلاجقة فى نيقية ، أثناء إغارة جويسكارد النرمندى ، على أملاك الإمبراطورية ، تعرضت للاضطراب ، بعد وفاة سليمان بن قتلمش سلطان نيقية ، الذى لقى مصرعه سنة ١٠٨٥ ، حينما حاول أن يبسط سلطانه على سوريا[٣] . وترتب على مقتله ، أن وقع الاضطراب بين الترك فى آسيا الصغرى ، وأسهم الكسيوس فى هذه الفوضى ، بما لجأ إليه من التآمر ، والإيقاع بين الأمراء ، والإفادة من الأحقاد السائدة بينهم ، فيعرض الرشوة على أحدهم ، ويغرى الآخر بالمصاهرة ، واستطاع أحد الثائرين ، وهو أبو القاسم أن يستقل فى نيقية فترة من الزمن[٤] . وتعاون أبو القاسم مع چكا فى الهجوم على نيقوميديا ؛ ولما تحطم البجناك ، دبر أبو القاسم أمر الهجوم على القسطنطينية ذاتها ، غير أن القوات البيزنطية أوقعت به ، فقرر قبول ما عرضه عليه الكسيوس من عقد معاهدة تحالف[٥] . ونظرا لأنه لم تكن العلاقات ودية بين أبى القاسم ، وملكشاه السلطان الأعظم للسلاجقة ، لم يلبث أبو القاسم أن

---

(١) Ibid : Loc. cit.

(٢) Charanis : The Byzantine Empire p. 215.

(٣) Ibid : Loc. cit.

Runciman : History of the Crusades I. p. 77.

(٤) Ibid : Loc. cit.

(٥) Charanis : The Byzantine Empire p. 216.

لقى مصرعه سنة ١٠٩٢ ، فتولى نيقية قلج ارسلان بن السلطان سليمان[1] .
وأحرزت قوات الكسيوس البرية والبحرية نجاحا ملحوظا أثناء قتال چكا ، على أن الكسيوس بين للسلطان قلج أرسلان ، صهر چكا ، ما يترتب على نمو سلطان چكا من الخطورة على أراضيه وبلاده ، فأغراه بأن يقبل ما عرضه عليه من التحالف معه . وتوجه چكا إلى قلج أرسلان لزيارته غير أنه لقى مصرعه بعد المأدبة التى أقامها له ، وبذا تخلصت القسطنطينية من كل خطر مباشر[2] .

وأقام الكسيوس أيضاً علاقات طيبة مع البابوية . والواقع أن البابا ايربان الثانى هو الذى اتخذ الخطوة الأولى فى إجراء هذه العلاقات ، غير أن الكسيوس استجاب لذلك . ففى سنة ١٠٨٩ تلقى الكسيوس من ايربان الثانى رسالة ، حث فيها البابا على إقرار السلام والوفاق فى الكنيسة ، غير أنه نفى ما حدث من إغفال إزالة كتابة اسمه فى دبتيخن (سجل) كنيسة القسطنطينية دون مبرر فى القانون الكنسى ، وطلب ايربان إعادة كتابة اسمه . ولما عقد الكسيوس مجمعا فى سبتمر سنة ١٠٨٩ فى القسطنطينية ، وطلب الوثائق التى تثبت انفصال الكنيستين الشرقية عن الغربية ، ولم يجدها ، جرى الاتفاق على الاستجابة لطلب ايربان ، بشرط أن يبعث إلى القسطنطينية بعقيدته ، فإذا تبين سلامتها ، وإذا اعترف البابا بالمجامع المسكونية السبعة ، والمجامع المحلية التى أقرتها المجامع المسكونية ، وأنكر ما أنكرته الكنيسة من المتهرطقين والأخطاء ، وإذا احترم وقبل ما اتخذه آباء الكنيسة فى المجمع المسكونى السادس من قوانين كنسيه ، عندئذ يتقرر إعادة اسمه إلى الدبتيخن فى كنيسة القسطنطينية . على أن هذا التدبير لن يصير نهائيا إلا بعد أن ينعقد فى خلال

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 77.

(٢) Charanis : op. cit. p. 216.

Chalandon : Essai sur Le regne d' Alexis I. Comnène (1081 - 1118). p. 126 ff.

ثمانى عشرة شهرا ؛ مجمع فى القسطنطينية ، يسوى ما بين الكنيستين من منازعات[1] .

وأهم ما كان من منازعات بين الكنيستين يتمثل فى عقيدة « ومن الابن » Filioque ، واستخدام الفطير (الخبز غير المخمور) فى التناول ، وما كان للبابوية من الصدارة . وعلى الرغم من أن الكسيوس قبِل الوصول إلى اتفاق مع البابوية ، فإنه لم يتحقق الاتحاد ، والواقع أن الاختلاف الجوهرى بين الكنيستين ، يدور حول صدارة كنيسة روما ، التى لم يرض بها الاكليروس اليونانيين . ومع ذلك فإن الكسيوس نجح فى أن يزيل بعض دواعى الاختلاف ، التى تبعده وتفصله عن البابوية ، وفى أن يوطد علاقته الشخصية بالبابا[2] .

واستطاع الكسيوس ، سنة ١٠٩٥ أن يبعد عن القسطنطينية ما تهددها من الأخطار ، وأن يوطد مركزه فى الإمبراطورية ، وأن يوثق علاقاته الشخصية بالبابوية ، وأضحى مستعدا لأن يشن هجوما يأمل من ورائه أن يسترد آسيا الصغرى من الترك . وعلى الرغم من أنه أدرك صعوبة هذا العمل ، فإنه كان يأمل فى أن يحققه بما يبذله الغرب له من مساعدة . ولهذا السبب استنجد بالبابا ايربان الثانى ، وكيما يفوز بالحصول على مساعدة الغرب ، أشار إلى أنه لا بد من تحرير الأرض المقدسة من الأتراك ، ولن يتم ذلك إلا بارسال القوات من الغرب ، وكانت الحملة الصليبية الأولى هى النتيجة التى ترتبت على طلب النجدة[3] .

---

(١) **Charanis : The Byzantine Empire p. 217.**

(٢) **Charanis : The Byzantine Empire p. 218.**

(٣) **Charanis : The Byzantine Empire p. 219.**
"Byzantium, the West, and the Origin of the First Crusade" Byzantion XIX (1949) 24-36.

الفصل الثالث

أسباب الحروب الصليبية

الأسباب الدينية

الحج

الرغبة فى الحج من الأمور المتأصلة فى الطبيعة البشرية . فالطواف بالأراضى التى وقف عليها أولئك الذين نجلهم ونحترمهم ، ومشاهدة المواضع التى ولدوا بها ، وتعرضوا للعذاب فيها ، وقضوا نحبهم بها ، يجعلنا نشعر بما يربطنا بهم من صلة روحية ويعتبر رمزاً على ما نكنه لهم من ولاء .

والواقع أن فكرة الحج كان لها أهمية كبيرة عند معظم ديانات العالم . فالبوذيون مثلا ، كانوا قبل ظهور المسيحية بزمن طويل ، يرتحلون إلى المواضع التى عاش فيها بوذا وتلاميذه ، وبشروا بدعوتهم ، كيما يعربوا عن احترامهم وتقديرهم . والمعروف أن من قواعد الإسلام ، الحج إلى بيت الله الحرام (مكة) .

ومنذ الأيام الأولى للمسيحية ، أحسَّ المسيحيون بالرغبة الشديدة ، لرؤية المواضع التى شهدت تجسيد المسيح ، والتى ولد بها المسيح ، وبشر فيها بدعوته ، وعانى العذاب والآلام . وورثوا من اليهود مالمدينة بيت المقدس من تبجيل واحترام . وازدادت قداسة بيت المقدس عندهم ، لأنها شهدت آلام المسيح[1] . يضاف إلى ذلك أنه نما الشعور بأن الشهداء

---

(1) Runciman : The Pilgrimage to Palestin—in Setton's: History of the Crusades I. p. 168.

بفضل ما عانوه من العذاب ، قد اغتفرت ذنوبهم[١] . ثم ساد الاعتقاد أن البقعة التى جرى بها التعذيب ، صار لها نصيب من قوة الغفران وبذا صار الموضع الذى شهد كل هذا ، يعتبر أكثر الأماكن قداسة . ثم أضحى لها نفس القوة والأثر للمقدسات الدينية ، سواء كانت أجزاء من أجساد القديسين ، أو الأشياء التى كان لها أهمية خاصة فى حياة المسيح أو القديسين . ولم تلبث الكنيسة أن اعترفت بما أجمع الناس على الاعتقاد فيه[٢] .

وفى القرنين ، الأول والثانى ، للمسيحية ، كان الحج أمرا نادرا . فالتفكير المسيحى فى تلك الفترة ، نزع إلى تأليه المسيح ، وإلى عالميته ، ولم يحفل بالصفة البشرية له ، ولم تشجع السلطات الرومانية أمر الارتحال إلى فلسطين ، بل إن مدينة بيت المقدس ذاتها التى دمرها الإمبراطور تيتوس ، لا زالت خرابا ، حتى أعاد بناءها الإمبراطور هادريان[٣] .

على أنه لم يحل القرن الثالث الميلادى ، حتى صار الكهف معروفا عند المسيحيين ، فأخذوا يرتحلون إلى تلك الجهات ، إلى جبل الزيتون ، وإلى الموضع الذى صعد فيه المسيح إلى السماء ، فصار من الشعائر الدينية ، زيارة هذه الأماكن المقدسة ، من أجل العبادة واكتساب الصفة الروحية المرتبطة بها[٤] .

وما حدث من الاعتراف الرسمى بالمسيحية ، وقدوم الإمبراطورة هيلينا إلى فلسطين واكتشافها المقدسات الدينية المتعلقة بالمسيح ، وقيام

---

(١) **Battifol, P.H. : Etudes d' histoire et de theologie positive (Paris 1906) I. pp. 112-120.**

(٢) **Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 168.**

(٣) **Id : History of the Crusades I. p. 38.**

(٤) **Runciman : History of the Crusades I. p. 38.**

ابنها الإمبراطور قنسطنطين بتشييد كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، وكنيسة المهد فى بيت لحم ، كل ذلك جعل الحجاج ينطلقون إلى فلسطين(١) . وحوالى نهاية القرن الرابع الميلادى ، استقر بفلسطين أحد آباء الكنيسة فى العالم الغربى ، فأقام فى بيت لحم ، وفى إثره قدمت جماعة من عقائل روما . وتشير الروايات إلى أن عدد الأديرة والمنازل التى يقيم بها الحجاج فى فلسطين ، فى مستهل القرن الخامس ، أربى على ثلاثمائة(٢) .

على أن ظاهرة الحج ، لم يجمع آباء الكنيسة على قبولها . فعلى الرغم من أن القديس جيروم ، يعتبر من الإيمان ، زيارة فلسطين ، وأنه أفاد من إقامته فى استجلاء الأناجيل ، فإنه لن يخسر الإنسان شيئا إذا لم يؤد الزيارة والحج إلى بيت المقدس(٣) . أما القديس أغسطين أنكر الحج ، واعتبره بعيد الصلة بالدين ، ويميل آباء الكنيسة اليونانية إلى موافقة أغسطين(٤) .

وشهد منتصف القرن الخامس ازدياد الرغبة وشدة التعلق ، بزيارة بيت المقدس ، فالأمبراطورة ايدوكسيا ، زوجة تيودوسيوس الثانى ، وابنة فيلسوف وثنى بأثينا ، استقر بها المقام فى بيت المقدس ، بعد أن عانت الشقاء فى البلاط الإمبراطورى ، وصحبها عدد كبير من الارستقراطية البيزنطية . وفى الفترات التى تنصرف فيها عن كتابة الترانيم الدينية ، اهتمت بالتنقيب على المقدسات الدينية ، ووضعت أساس المجموعة الكبيرة المحفوظة بالقسطنطينية ، بأن أرسلت صورة العذراء التى رسمها القديس لوكا(٥) .

---

(١) Ibid : p. 38.
Runciman : The Pilgrimage to Palestine, p. 69.

(٢) Ibid : p. 69.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 40.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 40
The Pilgrimage to Palestine, p-70.

(٥) duncimau : The Pilgrimage to Pilestine p. 70.

ومنذئذ أخذت المخلفات الدينية طريقها إلى الغرب ، نقلها الحجاج المحظوظون أو التجار المغامرون أو جاءت فى هيئة هدايا لأحد الأعيان ، وقدمت بعثات للسعى وراء الحصول على المقدسات[١] .

وظل الحجاج ، يفدون إلى الشرق فى أعداد كبيرة فى القرن السادس ، واستمرت أيضاً العلاقات التجارية مع الشرق ، ولم يجد الحاج صعوبة فى أن يجد له مكانا على سفينة تجارية ، يصح أن تكون ملكا لأحد السوريين ، وتتردد بين بروڤانس أو اسبانيا وبين موانى الشام ومصر . على أن التجار أنفسهم نقلوا معهم من الروايات الدينية مثلما نقلوا من السلع والمسافرين . وبفضل هؤلاء المسافرين ، وقف المؤرخ جريجورى التورى ، على كثير من أمور الشرق[٢] .

وانتهت هذه المرحلة ، بما جرى من الفتوح الإسلامية فلم يعد التجار السوريون يفدون إلى سواحل فرنسا وإيطاليا ، يحملون الأوانى والأخبار . وانقطعت لقرون عديدة ، التجارة بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى ، وأضحى البحر المتوسط مسرحا لأعمال القرصنة ، وصار ولاة فلسطين من المسلمين ، يساورهم الشك فيمن يقدم إليهم من المسافرين الأجانب . وكيفما كان الأمر ، صارت الرحلة باهظة التكاليف ، بالغة الصعوبة ، فضلا عن تداعى الغرب فى ثروته . ومع ذلك لم تنقطع الصلة نهائيا ، فما زال المسيحيون فى الغرب ، يتطلعون فى شوق ولهفة إلى الأماكن المقدسة بالشرق . وعلى الرغم من أن معظم الحجاج قنعوا بزيارة الأماكن القريبة مثل روما ، فإنه لازال فئة من الشجعان ، واجهوا الأخطار للوصول إلى الشرق . ومن الدليل على ذلك ما صادفه سنة ٦٧٠ الأسقف اركولف الفرنجى ، من المتاعب ، أثناء رحلته إلى مصر وسوريا

(١) Ibid : Loc. cit.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 42.

وفلسطين والقسطنطينية ، التى استغرقت سنوات عديدة[١] .

ازداد عدد الحجاج فى القرن الثامن ، وشجع حركة الحجاج ظهور عدد من الكتيبات ، التى تتناول أنواع المغفرة الخاصة ، Poenitentialia التى استخدمتها لأول مرة الكنيسة الكلتية ، ثم ذاع استخدامها فى الغرب ، نتيجة التوسع الانجليزى السكسونى ، واقترانه بالنشاط التبشيرى من قبل الكلتيين أمثال القديس كولمبان[٢] . اعتبرت الحج من وسائل التوبة ، على الرغم من أنها لم تشر إلى المواضع التى يتوجه إليها الحجاج[٣] .

وحوالى نهاية القرن الثامن ، جرت محاولة لتنظيم الحج ، تحت رعاية شارلمان . إذ أنه أعاد إلى الغرب الأمن ، ووفر له شيئاً من الرخاء ، وأقام علاقات طيبة مع هارون الرشيد . وبلغ من ازدياد عدد الحجاج إلى الأرض المقدسة ، أن استأذن شارلمان فى أن يعمر لهم نزلا بالمدينة المقدسة ؛ وكان من الحجاج فريق من النساء ، وتولى الاهتمام بأمر كنيسة القيامة راهبات اسبانيات ، اقمن بجوارها[٤] . غير أن هذا النشاط لم يستمر طويلا ، لما حدث من تداعى الأمبراطورية الكارولنجية ونمو قوة المسلمين فى البحر المتوسط ، واستقرارهم فى كريت وصقلية وجنوب إيطاليا ، وإغارة القرصان الشماليين . فحينما أراد برنارد الحكيم ، الفيلسوف البريتونى ، أن يزور فلسطين سنة ٨٧٠ ، كان لزاما عليه أن يحصل على إذن من أمير بارى ، التى كانت وقتذاك فى حوزة المسلمين ، ولم يصرح له بالنزول فى الاسكندرية . ولما وصل إلى الأراضى المقدسة رأى أن ما شيده شارلمان من المؤسسات

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 42
The Pilgrimage to Palestine p. 71.
أنظر رحلته فى المجموعة المعروفة (حجاج الأراضى المقدسة) PPTS III

(٢) Runciman : The Pilgrimage to Palestine. p. 71

(٣) Ibid : Loc. cit.

(٤) Runciman : History of the Crusade I. p. 43.

لا زالت قائمة ، وتؤدى عملها ، غير أن روادها تناقصوا . واحتاج الحج إلى نفقات باهظة ، لا يتحملها سائر الناس[١] .

وتحسنت الأحوال فى البحر المتوسط منذ مستهل القرن العاشر الميلادى . إذ تخلى المسلمون عن سيطرتهم على جنوب إيطاليا ، وعن قواعدهم فى جنوب فرنسا . ثم ضاعت كريت من أيديهم ، وأضحى للأسطول البيزنطى من القوة ما يكفى لتأمين الطريق البحرى . فصار التجـار اليونانيون والإيطاليون يترددون فى حرية بين موانى إيطاليا والأمبراطورية البيزنطية ، وشرعت المدن البحرية الإيطالية فى المتاجرة مع الموانى الإسلامية فى الشام ومصر[٢] .

ترتب على تداعى الدولة العباسية فى الشرق ، أن لقى الحجاج الترحيب من ولاة الشام ، من قبل الإخشيديين والفاطميين ، لما يجلبونه معهم من ثروة وأموال ، يؤدون عنها الضرائب . ولم يجد الحاج صعوبة فى أن يتخذ السفينة من البندقية أو بارى ، أو أمالفى ، فتحمله إلى الأسكندرية أو إلى الموانى الشامية . على أن معظم الحجاج ، كانوا يؤثرون الابحار فى سفينة ايطالية إلى القسطنطينية كيما يشهدوا ما بها من مجموعة المقدسات الدينية ، ثم يتخذون طريق البر إلى فلسطين ، نظرا لقلة نفقات الطريق البرى ، ولما اشتهرت به الطرق البيزنطية فى آسيا الصغرى من الجودة والاطمئنان[٣] .

لم يكن لمعظم الحجاج من دافع سوى الرغبة الخالصة لزيارة المواضع المقدسة ، والمعروف أن أربعة من هذه المواضع وهبت الزائر صفة روحانية خاصة . فاختص بهذه الصفة المشاهد والأضرحة ، كالتى للقديس يعقوب فى

(١) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 72.

(٢) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 73.

(٣) Ibid : Loc. cit.

Compostela بأسبانيا ، والتى للقديس ميخائيل فى جبل جارجانو بإيطاليا ، وكل مشاهد روما ، ولا شك أن تلك المشاهد المتعلقة بحياة المسيح فى فلسطين فاقت كل هذه المشاهد[١] .

أضحى للحج فى القرن العاشر أهمية كبيرة فى التكفير عن الذنوب والخطايا . فالسفر والرحلة ، لا زال يتكلف من النفقات ، ويكتنفه من العقبات والشدائد ، ما يمنع الشخص العادى فى العصور الوسطى ، من الأقدام على الرحيل . على أن أول من قام بالرحيل إلى بيت المقدس ، من أجل التوبة ، كان أحد النبلاء ، وهو فرومون Fromond الذى ارتحل من فرنسا إلى بيت المقدس فى منتصف القرن التاسع ؛ واقتفى أثره فى القرن العاشر كثير من المجرمين . فالذى يقترف جريمة القتل ، لا شك أنه يحتاج إلى التوبة ، فإذا ابتعد عن المجتمع ، بضعة شهور ، فإنه إذا تغلب على متاعب السفر وعاد سالما ، تجددت روحه ونفسه ، وصار يشعر بالقوة والطهارة الروحية[٢] .

وما حدث من اضطراد نشاط الحجاج فى القرن العاشر الميلادى ، يرجع أساسا إلى الوازع الشخصى . غير أن دافعا جديدا لم يلبث أن ظهر فى السياسة الأوربية ، كان له أثر كبير فى تنظيم طريق الحجاج . ففى سنة ٩١٠ ، أنشأ وليم الأول كونت اكيتانيا ، ديركلونى ، ولم يلبث هذا الدير ، أن أضحى مركزا لمؤسسات كنسية ضخمة ، وثيقة الصلة بالدير الأصلى ، الذى لا يدين بالطاعة إلا للبابوية . واعتبر الكلونيون أنفسهم حفظة للضمير فى العالم المسيحى بالغرب ، وأبدوا اهتماما كبيرا بالحج ، ولم يلبثوا أن نظموا أمر السفر والرحيل إلى المشاهد الأسبانية .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 44.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 45

The Pilgrimage to Palestine p. 73.

ولم ينقض القرن العاشر ، حتى أضحت الرحلة إلى بيت المقدس سهلة يسيرة بما أقاموه من النزلات على امتداد الطريق إلى بيت المقدس ، كما يأوى إليها الحجاج الفقراء ، وأولوا اهتماما خاصا بتشجيع الحجاج الذين يقيمون بالجهات المجاورة لأديرتهم الكبيرة[١] . ومن الذين شجعوا الحركة الكلونية ، واختصوها برعايتهم دوقات نرمنديا ، وكونتات أنجو . وعلى الرغم من أن كثيراً من الدوقات والكونتات ورؤساء الأديرة ، لقوا المساعدة من الكلونيين ، عند توجههم إلى بيت المقدس ، فإن الكلونيين وجهوا اهتماما خاصا بالفقراء ، فيسروا لهم المسير إلى الشرق فى جماعات صغيرة منفردة[٢] .

وسار النرمان على نهج دوقاتهم ، فاشتهروا بتبجيل القديس ميخائيل ، فارتحل كثير منهم إلى مشهده على جبل جارجانو ، ومن ثم يستطيع المغامر النرمانى أن يرتحل إلى فلسطين . وفى منتصف القرن الحادى عشر ، بلغ من ازدياد عدد حجاجهم إلى فلسطين ، أن حكومة القسطنطينية التى تكن الكراهية للنرمان لما قاموا به من غارات على الأملاك البيزنطية بإيطاليا ، أخذت ترتاب فى حركة الحج[٣] .

وما اشتهر به الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى من تقلب الأهواء ، وما أجراه من الاضطهادات التى عاناها المسلمون والمسيحيون سواء ، وما ترتب على ذلك من تدمير الكنائس ، ومنها كنيسة القيامة ، كل ذلك أثر فى حركة الحج ، فلم يتيسر للحاج أن يقيم طويلا فى فلسطين ، ومع ذلك لم تنقطع

---

(١) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 74.
History of the Crusades I. p. 46.

(٢) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 74.
Pignot, J. H. : Histoire de Cluny (Paris 1868), II, p. 108.
Longnon, J : Les Francais d' outremer (Paris 1929) p. 2-5.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 46.

حركة الحجاج نهائيا . إذ أعقب وفاته ، أن تحسنت العلاقات بين بيزنطة والدولة الفاطمية ، فعقد الإمبراطور رومانوس الثالث ، معاهدة مع الخليفة الظاهر الفاطمى ، ومن نصوصها السماح بإعادة بناء كنيسة القيامة ، وصدق على المعاهدة الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماكوس ، الذى تولى عمارة الكنيسة[١] . والمعروف أن الحدود بين بيزنطة وأملاك الفاطميين ، تلتقى من جهة البحر المتوسط عند طرطوشة ، حيث يرابط رجال الحدود ، الذين ألف رؤيتهم وقتذاك الحجاج[٢] .

وسلك الحجاج عادة ثلاثة طرق للوصول إلى الأراضى المقدسة . ففى القرن العاشر الميلادى ، اجتازوا البحر المتوسط إلى القسطنطينية أو إلى الشام ، غير أن النفقات كانت بالغة الشدة ، ومع ذلك لازال يسلكه الحجاج القادمون من اسكنديناوه ، فالمعروف أنه منذ السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادى ، اتخذ الإمبراطور البيزنطى حرسه من الشماليين ، ولم ينته هذا القرن حتى أضحى عددهم كافيا لأن يتألف منهم كتيبة مستقلة ، اشتهرت باسم حرس الورنك[٣] . ودرج هؤلاء الورنك على أن يمضوا إجازتهم فى رحلة إلى بيت المقدس[٤] . وقدم كثير من الاسكنديناويين ، إما باتخاذ الطريق القديم ، باستخدام الأنهار الروسية ، واجتيازها إلى البحر الأسود ، ثم إلى القسطنطينية ، أو أن يسيروا بحرا مجتازين بريطانيا ، وبوغاز جبل طارق إلى القسطنطينية ، وهذا الطريق

---

(١) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 74.
Schlumberger : L' Epopée Byzantine III. p. p. 23, 31, 203-204.
العرينى : الدولة البيزنطية ص ٦٨٨

(٢) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 75.

(٣) Ibid : Loc. cit.
Runciman : History of the Crusades I. p. 47.

(٤) Ibid : Loc. cit.

شاع استخدامه فى القرن الحادى عشر ، وبعد أن يمضوا فى خدمة جيوش الإمبراطور البيزنطى سنوات ، ويجمعوا قدرا طيبا من المال ، يؤدون الزيارة إلى بيت المقدس قبل الرجوع إلى مواطنهم(١) ، يروون لأصدقائهم أخبار مغامراتهم ، فيستبد بهم الحنين إلى الرحيل جنوبا لتأدية الحج(٢) .

واشتهر الأمراء الشماليون بالعنف والقسوة ، فارتكبوا فى أحوال كثيرة جرائم القتل ، وبذا كانوا يقصدون بحجهم المغفرة والتوبة . مثال ذلك سوين جودونسن Svein Godwinsson ، الذى يجرى فى عروقه دم دانمرقى ، إذ خرج حافى القدمين سنة ١٠٥١ ، وبصحبته جماعة من الإنجليز ، يلتمس المغفرة والتوبة ، والتكفير عن جريمة قتل ارتكبها ، غير أنه مات أثناء اجتيازه جبال الأناضول . وأحب معظم الحجاج الاسكنديناويون أن أن يتخذوا البحر أثناء قدومهم ، فيجتازون بوغاز جبل طارق ، حتى إذا أتموا الحج ، سلكوا الطريق البرى عبر روسيا(٣) .

أما الطريق الآخر ، فهو الذى يخترق وسط أوربا . والمعروف أن المجريين تحولوا سنة ٩٧٥ ، إلى المسيحية ، وفى سنة ١٠١٩ صارت السيطرة لبيزنطة ، زمن باسيل الثانى ، على شبه جزيرة البلقان ، بعد أن أنزل بالبلغار هزيمة ساحقة ، وبذا يستطيع الحاج القادم من وسط أوربا أو الفلاندر ، أن يخترق أملاك إمبراطور الغرب ، حتى يبلغ حد المجر عند ڤيينا . وعندئذ يجتاز المجر إلى بلغراد الواقعة على الطرف البيزنطى ، ومنها يجتاز أملاك الإمبراطور البيزنطية ، حتى يبلغ الحد الفاصل بين

---

(١) Runciman : The Pilgrimage to Palestine, p. 75.

(٢) Id : History of the Crusades I. p. 47.

(٣) Id : op. cit. I. p. 48.

Id : The Pilgrimage to Palestine. p. 76.

الفاطميين والبيزنطيين ، الممتد بين اللاذقية ، وطرطوشة[١] . وهذه الرحلة تعتبر معتدلة التكاليف ، ويسهل على سائر الحجاج ، أن يؤدوها ، سيراً على الأقدام[٢] .

والطريق الثالث ، يؤثره الحجاج القادمون من فرنسا أو إيطاليا ، فيتخذون الطريق البرى إلى أبوليا ، ثم يجتازون بحر الأدرياتى ، فى أضيق أجزائه ، من بارى إلى دورازو ، ثم يسلكون الطريق الرومانى القديم المعروف باسم Via Egnatia ، إلى سالونيك ، ثم إلى البوسفور بعد أن تطهر من المغامرين البلغار . وقامت نزل عديدة فى إيطاليا ، يأوى إليه الحاج ، وكذا عمر نزل كبير فى ميلك Melk فى أوستريا . واستخدم حجاج الغرب الدار المعروفة بالقسطنطينية باسم دار سامسون Samson ، وأقام الكلونيون نزلا فى رودستو بضواحى القسطنطينية . ونزل الحجاج بمستشفى القديس يوحنا ، فى بيت المقدس ، الذى أنشأه تجار أمالفى سنة ١٠٧٠[٣] .

وفى منتصف القرن الحادى عشر ، لم ينقطع سيل الحجاج إلى الشرق ، يخرجون فى جماعات صغيرة أو كبيرة فى مستهل الربيع ، ولا يعلمون متى يعودون . فقافلة الحجاج الكبيرة ، التى قادها سنة ١٠٦٤ الأساقفة الألمان ، بلغت نحو ١٠ آلاف من الرجال والأطفال والنساء ، والراجح

---

(١) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 75.
History of the Crusades I. p. 48.

(٢) Ibid : Loc. cit.
Riant, P : Expeditions et pelerinages des Scandinaves en Terre Sainte (Paris 1865) p. 60.

(٣) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 75.
History of the Crusades I. p. 48.

أنها لم تتجاوز عشرة آلاف[١] . وجاز لكبار السادة أن يصحبوا معهم حاشية مسلحة ، طالما خضعت لسلطانهم[٢] . على أن معظم الحجاج ساروا غير مسلحين ، ولم تتعرض حياتهم للخطر ، نظراً لتوافر حراسة الطرق ، وسهولة الحصول على المؤن والماء . ولقى الحجاج عادة الترحيب من سكان بيت المقدس[٣] ؛ ومع ذلك لم تخل الرحلة أحيانا من المتاعب ، فحينما شرع النرمان فى مهاجمة الممتلكات البيزنطية بجنوب إيطاليا ، لقى الحجاج النرمان معاملة جافة من قبل الموظفين البيزنطيين . ووقع فى سوريا بعض الاضطرابات ، بسبب تمرد بعض الولاة ضد الحكم الفاطمى ، وتعرض بعض الحجاج ، بإيعاز الإمبراطور البيزنطى ، للحرمان من الدخول إلى القبر المقدس. وما فرضه الإمبراطور باسيل الثانى ، وابنة أخيه الإمبراطوره تيودورا ، من الضرائب على الحجاج عند اجتياز الحدود إلى الأراضى المقدسة ، أثار غضب البابا ڤكتور الثانى سنة ١٠٥٦ ، فكتب إلى الإمبراطورة يطلب إلغاء هذه الأوامر ، ورفع إليها شكوى عن الضرائب التى تجبى عند القبر المقدس بحجة الإفادة منها فى تجديد كنيسة القيامة[٤] . وفى السنة السابقة ، ١٠٥٥ ، رفض والى اللاذقية البيزنطى أن يسمح لأسقف كامبراى ، Lietbert أن يجتاز الحدود ، وبرر ذلك بأنه لايضمن له السلامة إذا اجتاز الحدود ، فاشتد غضب الأسقف ، ولم يسعه إلا التوجه إلى جزيرة قبرص[٥] . أما الحجيج الألمانى ، الذى نفذ إلى البلاد الإسلامية ، برغم نصيحة بيزنطة ، فلم تتهيأ له ما كان يبتغيه من

---

(١) Id : op. cit. p. 48.

(٢) Id : op. cit. p 48.

(٣) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 76.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 49.

Riant : Inventaire critique des Lettres historiques des croissades. paris 1881. pp. 50-53.

(٥) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 76.

أحوال . إذ لم يتيسر للسلطات الإسلامية أن توفر المؤن والغذاء لهذا العدد الكبير من الحجاج ، الذين يصح أن يتحولوا فجأة إلى غزاة ، وتوجس المسلمون منهم خيفة ، واتخذوا جانب الحذر[١] .

على أن هذه المضايقات كانت ضئيلة ، ولم تؤثر فى سير الحجاج صوب الشرق ، على الرغم من أن رحلتهم يصح أن تستغرق عاما أو أكثر ، نظراً لأنهم كانوا يتوقفون فى القسطنطينية ، ليشهدوا هذه المدينة التى بلغت من الضخامة ما لم يألفوه فى مدن الغرب ، وليلتمسوا البركة من المخلفات الدينية المحفوظة بها ؛ ومن ثم يسيرون إلى فلسطين ، لزيارة المشاهد المقدسة ، ثم يعودون إلى مواطنهم بعد أن تطهرت نفوسهم وأبدانهم ، فيلقون الترحيب والاحتفال من مواطنيهم ، على أنهم حجاج المسيح[٢] .

واشتد تعلق الناس بالحج ، وصار يطلق على الحاج أنه من فقراء المسيح ، pauper Christi ، ومن حجاج المسيح peregrinus Christi . وساد الاعتقاد أن اكتمال الغفران والتوبة ، لا يتم إلا بعد تكرار الحج إلى الأراضى المقدسة . وما شاع من قيام الأبطال السابقين ، أمثال آرثر ، وشارلمان ، بالحج ، أثار فى الغرب ، الشوق والتلهف إلى المسير إلى الأرض المقدسة واتخاذ الطريق إلى بيت المقدس ، وزاد فى غضب الناس إذا تعرض الطريق للخطر[٣]. إذ أن نجاح الحجيج يتوقف على شرطين : الأول ، أن يتوافر فى فلسطين من أسباب الحياة والأمن ، ما يبعث فى نفس الحجاج الاطمئنان للحركة والعبادة . أما الشرط الثانى ، أن يبقى الطريق مفتوحاً ، لا يتطلب تكاليف باهظة . والواضح أن الشرط الأول ، لا يتوافر إلا بإقرار السلام من قبل حكومة قوية فى العالم الإسلامى ، بينما

---

(١) Id : Loc. cit.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 49-50.

(٣) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 78.

اقتضى الشرط الثانى ، ميل بيزنطة إلى حب الخير وتوفير المؤن(١) .

وما حدث من قدوم الترك إلى فلسطين ، منذ سنة ١٠٧١ لم يعترض أول الأمر ، سبيل الحجاج ، لأن أتسيز وأرتوك ، اللذين وليا أمر بيت المقدس وقتذاك ، كانا من الاستنارة ، ما جعلهما لا يتعرضان للحاج ، فضلا عن أن الحج كان موردا يصح الاعتماد عليه . غير أنه ترتب على تداعى السلطان الفاطمى ، ظهور إمارات صغيرة عديدة ، على الطريق الممتد من الشمال ، فحرص كل أمير على أن ينال نصيبه من هذه الموارد والرسوم . ولما مات أرتوك سنة ١٠٩١ ، أخذ الشك يساور أبناءه ، من موقف المسيحين ، إذ خشوا أنهم يعملون لإعادة سلطان الفاطميين ، ولذا تقرر طرد عدد كبير من القسس من بيت المقدس(٢) .

وازدادت متاعب الحجاج فى آسيا الصغرى ، بعد غارات السلاجقة وتوغلهم فيها . فترتب على الحروب والغارات والهجرات ، أن الطرق لم تعد صالحة للاستعمال ، وتداعت القرى ، وتحطمت الجسور ، وجفت مياه الآبار(٣) . ومع ذلك اجتاز آسيا الصغرى سنة ١٠٨٩ ، حملة روبرت الأول كونت فلاندر ، وقد تجهزت أحسن تجهيز ، غير أن الحجاج الذين صحبوها تعرضوا للإهانات من قبل الترك ، ومن الملحوظ أن بطرس الناسك كان من حجاج هذه الحملة(٤) .

على أن هذه المتاعب ظهرت فى وقت اشتد فيه اهتمام المسيحيين بالغرب بالحج ، فكانت حافزاً كبيراً لكل حركة تدعو إلى اتخاذ إجراء

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 50.

(٢) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 78.

(٣) انظر ما جاء عن مادتى تتش ، والأراتقة فى دائرة المعارف الإسلامية (En. Is.).

(٤) Runciman : The Pilgrimage to Palestine p. 78, Hagenmeyer, H. : Le Vrai et le faux sur Pierre l'hermite. Paris 1883. p. b. 64-74.

لتيسير طريق الحج وما حازه ايربان من نجاح فى دعوته فى ربط فكرة الحج بفكرة الحرب المقدسة[1] .

الحرب المقدسة :

من المشاكل الجوهرية التى يواجهها المسيحى ، مسألة القتال من أجل بلاده . فالمسيحية ديانة السلام ، والحرب أداة القتل والتدمير ، ولم يشك فى ذلك الآباء المسيحيون الأوائل ، إنما هل ينبغى على المسيحيين أن يقاتلوا من أجل الإمبراطورية بعد أن انتصرت المسيحية ، وبعد أن أضحت الإمبراطورية تؤلف العالم المسيحى ؟

اختلف فى ذلك رجال الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية ، فالقديس باسيل ، من كبار رجال الكنيسة الشرقية ، يصر على أنه لابد لمن يرتكب جريمة القتل فى الحرب أن يكفر عن خطيئته ، بالامتناع عن التناول لمدة ثلاث سنوات . على أن هذا الحكم كان بالغ القسوة ، والواقع أن الجندى البيزنطى لم يعامل على أنه قاتل ، غير أنه لم ينل شيئاً من الشهرة والصيت ، ولم يكن الموت فى المعركة من الأعمال المجيدة ، ولم يكن الموت ، عند قتال غير المسيحيين ، من قبيل الاستشهاد ، فليس للشهيد من سلاح سوى الإيمان[2] . والملحوظ أن التاريخ البيزنطى خلا من الحروب العدوانية ، فما قام به جستنيان من حروب ، لم يقصد بها سوى تحرير الرومان من الحكام المتبربرين المتهرطقين ،وما وجهه باسيل الثانى من حملات إلى البلغار ، لم يهدف من ورائها إلا استرداد ما فقدته الإمبراطورية من ممتلكات ، ودرء الخطر عن القسطنطينية . ولذا طالما

---

(١) Runciman : The pilgrimage to Palestine p. 78.

Id : History of the Crusades I. p. 79.

(٢) Runciman : History of theCrusades I. p. 83.

لجأ الأباطرة البيزنطيون فى تحقيق أغراضهم إلى الوسائل الدبلوماسية وبذل الأموال ، فلا يصح الالتجاء إلى الحرب ، إلا إذا فشلت كل الوسائل السلمية[١] .

أما وجهة النظر الغربية ، فيمثلها القديس أغسطين ، الذى يقر بأن الحرب يصح أن تنشب بأمر الله وحكمه . فالمجتمع الحربى ، الذى نبع فى الغرب من ثنايا غارات المتبربرين ، حرص على تبرير ما درج عليه من الأعمال . فقانون الفروسية ، الذى نما وترعرع ، تسانده الملاحم الشعبية ، جعل للبطل العسكرى كرامة رهيبة ، على حين أن المسالم لم ينل إلا السمعة السيئة ، التى لزمته ، ولم تتخل عنه ؛ ولم تفده الكنيسة كثيرا[٢] .

على أن الكنيسة سعت إلى أن توجه القتال من أجل مصلحتها ؛ فاعتبر البابوات أن كل من يموت فى سبيل الدفاع عن الكنيسة ، يعتبر من الشهداء ، وقرر البابا نقولا الأول ، أن كل من ارتكب من الذنوب ، وخضع لحكم الكنيسة ، ينبغى ألا يحمل السلاح إلا من أجل قتال الكفرة[٣] .

سلام الله ، هدنة الله :

ومع أن كبار المسئولين عن الكنيسة فى الغرب لم ينكروا الحرب ، فإن من المفكرين فى الغرب ، من ارتاع للقتال ، فالمفكر الألمانى برونو كويرفورت Bruno of Querfurt الذى لقى مصرعه سنة ١٠٠٩ على أيدى البروسيين الوثنيين ، أنكر الحروب التى أشعلها فى زمنه الملوك والأباطرة ضد المسيحيين .

---

(١) Buckler : Anna Comnene pp. 97-99.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 84.

(٣) Runciman : op. cit. I. p. 84.

على أن الدعوة للسلام نبعت فى فرنسا ، فتقرر فى المجمعين اللذين انعقدا سنة ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، الدفاع عن امتيازات رجال الدين ، وتوفير الأمن والسلام للفقراء ، ولم يلبث وليم الكبير دوق جيين ، أن تبنى الدعوة للسلام ، ففى المجلس الذى اجتمع فى بواتييه سنة ١٠٠٠ ، تقرر الالتجاء إلى التحكيم والقضاء لا إلى السلاح فى حل المنازعات ، وكل من يخرج على هذه القاعدة ، ينبغى قطعه من الكنيسة(١) . وأقر هذه الدعوة دوق جيين ، والنبلاء ، والتزم بها فى أملاكه روبرت التقى ملك فرنسا . وتطورت الحركة إلى اشهار السلاح ضد من ينتهك حرمة السلام فتألفت عصبات ، أو اتحادات للسلام ، لم تلبث أن هاجمت قلاع النبلاء المخالفين(٢) .

وفى تلك الاثناء جرت محاولة عملية للحد من القتال والحرب . ففى سنة ١٠٢٧ ، انعقد مجمع فى تولوج ، فى روسيللون Roussillon ، تقرر فيه تحريم كل الأعمال الحربية أثناء صلوات السبت . على أن فكرة جعل الهدنة تشمل الأيام المقدسة لم تلبث أن امتدت ، ففى الكتاب الذى وجهه سنة ١٠٤١ أساقفة بروڤانس ، بتأثير رئيس ديركلونى ، إلى كنيسة إيطاليا ، طلبوا باسم كنيسة غاله كلها ، امتداد هدنة الله ، حتى تشمل الجمعة الكبيرة (جمعة الآلام) ، ويوم الأحد المقدس ، ويوم الصعود . غير أن دوقية برجنديا مضت إلى أبعد من ذلك ، فجعلت الهدنة ، تشمل من أيام الأسبوع ، ما يقع بين مساء الأربعاء وصباح الاثنين ، فضلا عن الفترة من صيام الميلاد ، إلى الأحد التالى لعيد الغطاس ، والصوم الكبير ، وجمعة الآلام إلى اليوم الثامن من عيد القيامة . وفى سنة ١٠٤٢ ، أضاف وليم الفاتح ، الفترة الواقعة بين أيام الابتهال والتضرع ، واليوم

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 85
Hefel-Leclerc : Histoire des Conciles IV. 2. p. 1429.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 86.

الثامن من عيد العنصرة . وتقرر فى مجمع تولوج ، سنة ١٠٥٠ ، أن يضاف إلى الهدنة الأيام الثلاثة من صيام العذراء ، وأعياد كبار القديسين . وبذا بدا فى منتصف القرن الحادى عشر ، كأن فكرة هدنة الله ، أضحت مستقرة . وحرص مجمع ناربون الذى انعقد سنة ١٠٥٤ على تنسيقها مع فكرة سلام الله ، بأن قرر حماية أملاك الكنيسة وأملاك الفقراء مما تتعرض له من آثار الحرب . فتقرر أن يقطع من الكنيسة من يتصدى لهـذه الأملاك ، ولا ينبغى أيضا لمسيحى أن يقتل مسيحيا ، لأن من يقتل مسيحيا ، فكأنه أراق دم المسيح[1] .

لم يكن للحركات من أجل السلام من التأثير من الناحية العملية ما كان لها من الناحية النظرية ، فالأمراء الذين دافعوا عنها فى القرن الحادى عشر لم يلتزموا بشروطها . ولم تكن أملاك الكنيسة بنجوة من هجمات العلمانيين . وما طغى على الغرب ، من نزعة للقتال ، والميل لإحراز المجد الحربى ، لم يسهل إخمادها . فكان من الخير الرجوع إلى السياسة القديمة ، التى ترمى إلى تحويل هذا النشاط لقتال غير المسيحيين[2] .

والواضح أن بيزنطة لم تشعر بالخطر الشديد من قبل المسلمين ، إلا عند اغارات الترك السلاجقة على أملاكها فى آسيا الصغرى . فعلى الرغم من استمرار العلاقات العدائية ، بين المسلمين والبيزنطيين ، فإن هذا العداء لم يحل دون التبادل التجارى والثقافى بين الجانبين[3] . ولم تختلف الحياة كثيراً فى البلاد الإسلامية عنها فى الأراضى البيزنطية ، واشتهر الفريقان بالتسامح الدينى ، وأجاز كل منهما لرعايا الآخر أن يمضوا فى عقائدهم

(١) **Runciman : History of the Crusades I. p. 86-87**

(٢) **Runciman : History of the Crusades I. p. 87.**

(٣) **Runciman : op. cit. I. p. 87.**

ويمارسوا شعائر دينهم ، على أنه يصح أن تعرض الأباطرة إلى شيء من الاستخفاف من قبل الخلفاء المسلمين ، بل أنهم أدوا فى بعض الأحوال الجزية للمسلمين وهم كارهون . واختلف الوضع فى القرن العاشر ، إذ دل البيزنطى على أنه عدو عنيف[1] .

على أن المسيحى فى الغرب لم يشارك البيزنطى فيما اشتهر به من التسامح والشعور بالطمأنينة ، وعلى الرغم من أنه يفخر بمسيحيته ، ويعتبر نفسه وريثا لحضارة روما ، فإنه أدرك أن الحضارة الإسلامية فاقت حضارته كثير من النواحى . إذ سيطر المسلمون على غرب البحر المتوسط ، واستباحوا روما ، واتخذوا لهم قلاعا وحصونا أغاروا منها على إيطاليا وبروڤانس . ولم يكن لدى الغرب المسيحى من القوة والنظام ما يدرأ به هجمات المسلمين . وظلت الأمبراطورية الكارولنجية فترة من الزمن ، حاجزا يحول دون هذه الأخطار[2] .

ثم حدث فى القرن العاشر ، أن جرى التعاون بين البابا حنا العاشر ، وبلاط القسطنطينية لتأليف عصبة من الأمراء المسيحيين ، كيما ينتزعوا من المسلمين قلعتهم على نهر جاريجليانو ، وانحاز البيزنطيون أيضاً إلى هيو أمير بروڤانس ، فى شن الهجوم على قلعة المسلمين فى فريوس Frejius . غير أن هذه العصبات لم تكن إلا عصبات محلية طارئة ، فاشتدت الحاجة إلى ازدياد بذل الجهد والتنسيق ، فتطلعت الأنظار إلى روما[3] .

---

(١) Ibid : Loc. cit.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 88.

(٣) Runciman : op. cit. I. p. 88.

فى القرن العاشر الميلادى اعتقد المسيحيون فى الغرب ، أن المسلمين فى أسبانيا أضحوا مصدر خطر شديد على العالم المسيحى . ففى منتصف هذا القرن ، صار ، عبد الرحمن الثالث ، يسيطر على شبه الجزيرة ؛ على أن ما اشتهر به خليفته ، الحكم الثانى إلى المسالمة ، وما حدث من انصرافه إلى قتال الفاطميين والأدارسة فى مراكش ، هيأ للمسيحيين فترة من الهدوء والراحة ، غير أن هذه الفترة لم يطل أمدها ، إذ أن الوزير محمد بن أبى عامر المعروف بالمنصور استأنف حركة الجهاد ، فتوالت هجماته على مملكة ليون المسيحية ، فى ٩٨١ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، وأشعل الحرائق فى شانت يعقوب فى كومبوستيلا ، التى تعتبر المركز الثالث ، بعد بيت المقدس وروما ، الذى يقصده الحجاج المسيحيون ؛ واستولى المنصور على برشاونه . وتكررت غارات المسلمين من إفريقية ، على بيزا ، وناربون (أربونه) فى مستهل القرن الحادى عشر ، ثم توقفت هجمات المسلمين ، واغتنم المسيحيون الفرصة كيما يقوموا بهجوم مضاد[1] .

وعلى الرغم من أن محاولة سانكو الثالث ، أو الكبير ملك نافار ، فى تأليف عصبة من الأمراء المسيحيين لقتال المسلمين ، لم تسفر عن نتيجة ملموسة ، فالواقع أنه جذب اهتمام حليف قوى ، وهو رئيس ديركلونى . إذ أن ديركلونى ، زمن أوديلو وهيو (٩٩٤ — ١١٠٩) ، أخذ يوجه اهتماما خاصا لأمور أسبانيا ، فحرص على أن يوفر أسباب الراحة والأمن للحجاج ، فأسهم فى الإشراف على طريق الحجاج إلى كومبوستيلا ، ونهض لمساعدة أسبانيا المسيحية . ولعل ما حدث سنة ١٠١٨ ، من قدوم النرمان لمساندة كونتيسة برشلونة لمواجهة خطر المسلمين ، يرجع إلى

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 89.

الأثر الكلونى فضلا عن جنوح النرمان للمغامرة والارتحال[١] . واشتدت سيطرة الكلونيين على الكنيسة الأسبانية زمن سانكو وخلفائه ، فكانت فى مقدمة الكنائس التى تأثرت بالحركة الكلونية . ولم يسع البابوية إلا أن تقر كل محاولة لمد أطراف العالم المسيحى فى أسبانيا . فلقى التشجيع من الكلونيين والبابوية ، سانكو وليم أمير غسقونيا وسانكو ملك نافار ، لاشتراكهما فى الهجوم على أمير سرقسطة ، وكذا ريموند برنجار الأول أمير برشلونه ، عند مضيه فى دفع المسلمين صوب الجنوب[٢] .

فما حدث من القتال فى أسبانيا ضد المسلمين ، اتخذ صفة الحرب المقدسة ، ولم يلبث البابوات أن اشتركوا فى توجيهها . وترتب على مصرع راميرو الأول Ramiro I ملك أراجون سنة ١٠٦٣ عند قيامه بشن هجوم على الجيوش الإسلامية ، أن بادر البابا الاسكندر الأول ، إلى أن يعد بالغفران كل من قاتل من أجل الصليب فى أسبانيا ، ونهض لحشد جيش لمواصلة جهد راميرو[٣] . وتألفت الجيوش فى فرنسا وإيطاليا ، وهرعت إلى أسبانيا ، وترتب على تشجيع البابا جريجورى السابع وتأييده للحملات التى تألفت سنة ١٠٧٣ ، ١٠٧٨ ، ١٠٨٠ ، أن سقطت طليطلة سنة ١٠٨٥ فى أيدى القشتاليين[٤] .

ثم تلى ذلك ما جرى من انبعاث حركة الإفاقة الإسلامية على أيدى المرابطين . ومنذ سنة ١٠٨٧ اشتد الإلحاح على دعـوة الفرسان

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 90.

(٢) Fliche : L' Europe Occidentale de 888à 1125 pp. 551-553.
Rousset : Les Origines et les Caracteres de la premiere Croisade p. 31-35.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 90.

(٤) Villey : La Croisade p. 71

المسيحيين للقدوم إلى أسبانيا لمقاومة المرابطين . وبذل البابا ايربان الثانى كل ما فى وسعه من مساعدة ، فطلب إلى الحجاج الذين يقصدون فلسطين ، أن يقدموا إلى أسبانيا ، وأن ينفقوا أموالهم فى عمارة ما تخرب من المدن الأسبانية[١] . وظلت الحملات الموجهة لأسبانيا حتى نهـاية القرن الحادى عشر ، تجتذب الفرسان المسيحيين المغامرين من الشمال ، ولم تتوقف هذه الحملات إلا بعد الاستيلاء على وشقة سنة ١٠٩٦ ، وبارباستر سنة ١١٠١[٢] .

ولم ينته القرن الحادى عشر حتى تحولت فكرة الحرب المقدسة إلى ناحية عملية . فلقى الفرسان والعساكر المسيحيون ، التشجيع من السلطات الكنسية ، بأن ينبذوا منازعاتهم التافهة ، وأن يتوجهوا إلى أطراف العالم المسيحى ، لقتال المسلمين . وما يصيبونه من الجزاء على خدماتهم ، أنهم يحوزون الأراضى التى يستولون عليها ، فضلا عن المزايا الروحية ، كالغفران ، والتحلل من الذنوب . فكأن الكنيسة هى التى تولت توجيه الحروب المقدسة ، وهى التى طالما أعلنتها ؛ واختارت قادتها ، ولا بد أن يخضع للسيادة البابوية كل ما يفتح من البلاد[٣] .

وعلى الرغم من أن كبار الأمراء ، نزعوا إلى أن يبقوا بعيداً عن الحروب المقدسة ، فإن الفرسان فى الغرب ، أبدوا استعداداً كبيراً للاستجابة للحرب المقدسة . فكانت الحوافز من بعض النواحى ، دينية خالصة ؛ لأنهم خجلوا لأن يحارب أحدهم الآخر ، وأرادوا أن يحاربوا من أجل الصليب . على أن الحرص على امتلاك الأراضى ، كان أيضا

---

(١) Riant : Inventaire critique, pp. 68-69.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 91.

(٣) Runciman : op. cit. I. p. 92.

من الدوافع التى جعلتهم يقبلون على الاشتراك فى الحرب المقدسة ، لا سيما فى شمال فرنسا ، حيث رسخ نظام انتقال الملكية للابن الأكبر[١] . فكلما ازداد السيد الاقطاعى عزوفا عن توزيع أملاكه وما يتبعها من الوظائف بين أبنائه ، كان لزاما على أبنائه الصغار ، أن يسعوا للحصول على أرزاقهم فى كل مكان . فاشتد القلق ، وازداد الميل للمغامرة ، بين طبقة الفرسان فى فرنسا . وأكثر ما ظهر ذلك ، كان عند النرمان ، الذين لم يتحولوا عن حياة الارتحال ، واللصوصية ، إلا منذ زمن قريب . فإذا تهيأت الفرصة لربط الواجب المسيحى ، بامتلاك الأراضى ، فى الجهات الجنوبية ، كان ذلك من الأمور التى تثير اهتمامهم ، وتغريهم بالرحلة والسفر . أما الكنيسة ، فإنه توافر من الدواعى ما يجعلها تطرب لما حدث من تقدم للحركة ، الحرب المقدسة ، فيجوز استخدام هذه الحرب المقدسة فى الطرف الشرقى للعالم المسيحى[٢] .

السيادة البابوية

كلما انحسر المد الإسلامى فى أسبانيا ، لم يجد البابا صعوبة فى توطيد سلطته على الكنائس القائمة بالبلاد ، التى استولى عليها المسيحيون . فمنحة قنسطنطين ، التى قبلتها المسيحية فى الغرب على أنها صحيحة ، جعلت للبابا السيادة الزمنية على بلاد عديدة ، ومنها شبه جزيرة ايبريا . ولم يكن فى أسبانيا من السلطات الكنسية ، ما تستطيع أن تتحداه[٣] .

غير أن المسيحية الشرقية اتخذت نهجا مختلفا ، فكانت لبطريركيات الاسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس ، أهميتها ، باعتبارها مراكز رسولية .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 92.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 92.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. 93.

وعلى الرغم من أن بطريركية القسطنطينية لم يكن بوسعها أن تزعم لنفسها الأصالة فى السلطة والنفوذ ، فإن القسطنطينية ليست إلا روما الجديدة ، حاضرة سلسلة متصلة غير مقطوعة من الأباطرة المسيحيين ، وتعتبر بلا منازع أعظم مدينة فى العالم المسيحى ، وتوافر لبطريركها من الدواعى ، ما يجعله يتخذ لقب المسكونى oecumenical ، كبير رجال الكنيسة فى العالم المتمدين . ولم يكن بالشرق من يعتقد أن أسقف روما ، التى كانت دائماً فى قبضة نبلائها المثيرين للقلق ، أو فى حوزة زعماء متبربرين من الشمال ، لا بد أن تمتد ولايته إلى الكنائس الشرقية ، بما لها من تقاليد راسخة . ومع ذلك جرى الاعتراف بصدارة روما على الكنائس الرسولية فى العالم المسيحى ، وأقر بذلك أيضاً البطريرك المسكونى . ولم يكن لأحد أيضاً أن ينكر الاعتقاد بأن العالم المسيحى يعتبر عالما واحدا وينبغى أن يظل واحدا[1] .

على أن نظام الكنيسة الرومانية أصابه فى القرن الحادى عشر ، تغيير شامل ، بفضل المؤثرات الديرية من كلونى واللورين ، وتشجيع السلطات الزمنية التى سيطرت وقتذاك على روما ، والتى تتمثل فى الأباطرة الألمان . فما وهبه الأمبراطور هنرى الثالث لهذه الإصلاحات من القوة والاندفاع ، جعل الكنيسة بعد وفاته تمضى فى تحقيقها ، بل تعمل على تنميتها مستقلة عن الأمبراطور ، فعارضت بذلك السلطة العلمانية . ومن ثنايا هــذه الحركة ، نبعت نظريات أصرت على ما لروما من سيادة روحية على العالم ، والسمو على الأمراء العلمانيين . وأثار الأمراء العلمانيون بدورهم مناقشات جديدة مع الشرق[2] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 94.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. loc. cit.

انحصرت النتيجة الأساسية فى إعادة توكيد دعوى روما فى الزعامة. غير أن المنازعات لم تلبث أن دارت حول تفاصيل العرف والعقيدة. إذ أن البابوية، حرصت على توحيد تقاليد الكنيسة، لأن فى ذلك توحيداً لسلطتها. فلم تكن الأسباب السياسية والروحية وحدها هى التى حملت الكنيسة فحسب على إلغاء زواج رجال الدين العلمانيين، بل جعلتها أيضاً تحاول تنظيم الشعائر والطقوس. فإذا جاز إجراء هذا الإصلاح فى الغرب، فإن تقاليد الكنيسة الشرقية تحول دونه. فالمعروف أن قام فى دائرة نفوذ كنيسة روما كنائس يونانية، وخضع لنفوذ كنيسة القسطنطينية كنائس لاتينية، ودار النزاع حول الحد الفاصل بين النفوذين فى جنوب إيطاليا. يضاف ذلك أن النفوذ الألمانى فى روما أدى إلى أن يدخل فى عقيدة روما عبارة «ومن الابن» filioque، عند الإشارة إلى انبثاق الروح القدس، التى لا تقرها كنيسة القسطنطينية.

وحينما وجه سرجيوس الرابع عند توليه البابوية، رسالة الإيمان إلى البطاركة، وتضمنت لفظة «ومن الابن»، رفض بطريرك القسطنطينية أن يخلد اسم البابا فى سجلات الكنائس البطريركية، فاعتبر البابا والكنائس الغربية هذا التصرف إهانة بالغة الأثر[1].

ولحرص البابا حنا التاسع عشر على تسوية النزاع مع بطريرك القسطنطينية، كاد يقبل ما عرضه البطريرك من صيغة، تنال روما بمقتضاها الصدارة على الكراسى الرسولية، مقابل الاعتراف باستقلال كنيسة القسطنطينية. «وأن يكون لها فى دائرتها من شمول السلطان ما لكنيسة روما فى العالم»، لولا أن تدخل رئيس الدير الكلونى فى ريجون، وأصر على أن البابا

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 95.

وحده ، بيده السلطة والعقد والحل فى السماء والأرض ، وله إدارة الكنيسة العالمية . وكان لزاما على بيزنطة أن تدرك ، أن البابوية لن ترضى عن هذا الاتفاق(١) .

وعلى الرغم من أن غارات النرمان على جنوب إيطاليا ، هددت الأملاك البيزنطية والبابوية ، وأضحى التحالف بين البابا والإمبراطور البيزنطى ، بالغ الأهمية ، فإن البابوية حرصت على أن تتولى تنظيم الكنيسة ، فأرادت أن تلغى التقاليد السائدة فى الكنائس اليونانية بجنوب إيطاليا ، والتى انتقلت إلى الكنائس الإيطالية ، حتى بلغت شمال إيطاليا(٢) .

وما حدث سنة ١٠٥٤ من النزاع بين كريولاريوس ، بطريرك القسطنطينية ، والمندوبين الذين بعث بهم البابا ليو التاسع ، الذى وقع فى أسر النرمان ، أدى إلى قرار بقطع البطريرك من الكنيسة ، وإلى أن البطريرك لم يعترف بهذا القرار ، لأنه من صنع مندوبين غير مسئولين ، لأنهم لم يحصلوا على تفويض من البابا الجديد ، فضلا عن انكاره ما ورد فى رسالة البابا من عقيدة « ومن الابن » ، وموقفه من رجال الدين المتزوجين . والواقع أن كل ما حدث من تغيير فى الموقف ، أن اشتدت الكراهية بين روما وبيزنطة(٣)

وترتب على انتصار النرمان فى جنوب إيطاليا ، أن أضحوا منذ سنة ١٠٥٩ حلفاء أوفياء للبابوية ، ومصدر خطر على الدولة البيزنطية ، ولاسيما بعد استيلائهم على بارى سنة ١٠٧١ . وإذ اشتدت غارات

---

(١) Runciman : History of the Crusades. I. p. 96.

(٢) Ibid : op. cit. I. p. 96.

(٣) Runciman : op. cit. I. p. 97.
Jugie : Le Schism Byzantin p. 187.
Leib : Rome, Kiev et Byzance p. 27.

التركمان وتوغلهم فى آسيا الصغرى ، بعد معركة مانزيكرت ، وازدادت حاجة الإمبراطور ميخائيل السابع للجند ، أدرك أهمية التحالف مع البابوية ، فى وقف زحف النرمان على البلاد البيزنطية ، وفى الاستنجاد بالغرب المسيحى للنهوض لمساعدة بيزنطة(١) .

ولما تولى سنة ١٠٧٣ ، البابوية ، جريجورى السابع ، وتلقى التهنئة من الإمبراطور البيزنطى ، مقرونة برغبته فى توطيد الصلات بينهما ، أرسل من قبله مندوبا ، ليتعرف إلى الأحوال فى بيزنطة وآسيا الصغرى ، لما لذلك من أهمية فى سير الحجاج ، وما يعترض طريقهم من عقبات ، بسبب سيطرة التركمان . ولعل إدراكه لأحوال بيزنطة ، جعله يفكر فى اتخاذ سياسة الحرب المقدسة ، بعد نجاحها فى أسبانيا . فيصح أن يبعث إلى أصدقائه البيزنطيين جيشاً من الفرسان المسيحيين ، يتولى قيادته ، حتى إذا تحقق استخلاص آسيا الصغرى ، أقبل المسيحيون فى الشرق على الاعتراف بزعامة روما . غير أن البابا لم يمض فى سياسته الشرقية ، لانصرافه إلى تسوية مشاكله فى الغرب(٢) .

على أن العلاقات بين العالم المسيحى فى الشرق والغرب ، لم تبلغ من البرود مثلما بلغته سنة ١٠٨٧ عند وفاة البابا جريجورى السابع ، فالإمبراطور البيزنطى الكسيوس ، حرمه البابا سنة ١٠٨١ من الكنيسة ؛ ولقى النرمان التشجيع من البابا على مهاجمة اخوانهم المسيحيين فى الشرق ، بينما تلقى ملك ألمانيا ، هنرى الرابع ، المساعدة علنا من بيزنطة ؛ فزاد ذلك من العداوة بين الجانبين(٣) . غير أنه لم يقع وقتذاك انشقاق فعلى بين الكنيستين ،

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 97.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 99.

(٣) Runciman : op. cit. I. p. 100.

فلا زالت المهارة السياسية تحرص على المحافظة على وحدة العالم المسيحى . والتمس الشرق فى الإمبراطور الكسيوس سياسيا توافرت فيه المروءة والحكمة ، بينما أخذ يبرع فى الغرب سياسى آخر من هذا الطراز ، وهو البابا ايربان الثانى(١) .

تولى إيربان البابوية سنة ١٠٨٨ ، بعد مضى زمن قصير على اختياره خليفة للبابا جريجورى السابع ، نظرا لأن مجمع الكرادلة لم ينعقد إلا فى مارس سنة ١٠٨٨(٢) .

كان ايربان خير رجل يلى هذا المنصب بعد جريجورى السابع ، اشتهر بدماثة الخلق ، وقوة الحجة . وإذا افتقر إلى حماس جريجورى ووحدة غرضه ، فإنه فاقه فى سعة الأفق ، والقدرة على معالجة الناس . لم يتصف بما اشتهر به جريجورى من الكبرياء والعناد ، ولم يكن فى الوقت ذاته ضعيفا . كان يؤثر الإيناس على العبوس والقسوة ، ويتحاشى من الجدل ما يثير المرارة والنضال(٣) .

وعلى الرغم من أن الإمبراطور الألمانى ، نصب بابا من قبله ، جيبرت ، استقر فى روما ، ولم يسع إيربان إلا أن يقيم فى أملاك النرمان ، الذين لا يصح الركون إليهم والوثوق فيهم ، فإن نفوذه لم يلبث أن امتد فى سائر إيطاليا ، وبفضل ما أنفقه من مال ، وما اشتهر به من الكياسة ، استطاع أن يستقر فى روما سنة ١٠٩٤ ، بعد أن ضعف مركز الإمبراطور هنرى ، بسبب ثورة ابنه ، كنراد عليه . ولم يلبث أن أخضع لسلطانه كنائس فرنسا وأسبانيا ، وبادرت الجهات النائية من أوربا تعترف بسيادته الروحية ، على

(١) Runciman : op. cit. I. p. 100.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 101.

(٣) Runciman : op. cit. I. p. 101

أنه اختلف عن جريجورى السابع فى أنه لم يصر على فرض سيادته السياسية على الأمراء . وبذا لم تحل سنة ١٠٩٥ حتى صار لايربان السيادة الروحية على العالم المسيحى فى الغرب[1] .

وفى سنة ١٠٩٠ ، قدمت سفارة من قبل الكسيوس ، تحمل رسالة إلى البابا ايربان ، تنطوى على الصداقة والود . وكتب رئيس أساقفة بلغاريا رسالة إلى البابا يعرب فيها عن أسفه لما حدث من سوء التفاهم ، ويشرح أنه لم يكن ثمة من الأسباب الجوهرية ما يدعو للانفصال[2] .

الواضح أن الكسيوس ارتاح لتوطيد العلاقات الودية مع البابا ، لما يأمله من أن يحصل بمساعدته ، على مساعدة حربية من الغرب ، بينما أراد البابا أن يفيد من هذه العلاقات فى التغلب على خصومه فى روما ، البابا المغتصب ، وسكان روما[3] . ومن المحقق أن الكسيوس التمس المساعدة من الغرب ، قبل انعقاد مجمع بياكنزا . غير أن المساعدة الحربية ، التى افتقر إليها ، لا تتجاوز بعض العساكر المأجورة ، لا الجيوش ، كيما تشترك فى الحرب المقدسة . إذ أن قوة السلاجقة أخذت وقتذاك فى التداعى ، فلا يحتاج تحطيمها إلا لحملات قليلة ، تقـدم فى الوقت المناسب[4] . والمعروف أن الدولة البيزنطية لجأت ، بعد أن فقدت آسيا الصغرى ، إلى استخدام الجند المأجورة ، فتألفت كتائب من البجناك ، ومن قبائل الاستبس لحماية الحدود ،

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 101-102.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 103.

(٣) Duncalf, F. : The Councils of Piacenza and Clermont. in History of the Crusades ed. Setton. vol. I. p. 227.

Runciman : History of the Crusades I. p. 102.

(٤) Ibid : op. cit. I. p. 104.

Duncalf : loc. cit.

وحفل حرس الورنك بكثير من الإنجليز السكسون الذين فروا من إنجلترا النرمانية ، يضاف إلى هؤلاء ما قدم من الغرب من المغامرين ، الذين دخلوا فى خدمة الجيش البيزنطى(١) . وتشير أنّه كومنين ، إلى أن أباها ، الكسيوس ، بذل كل ما فى وسعه ، للحصول على جيش من المأجورين ، بما أنفذه من الرسائل والكتب ، وتوقع أن يقدم إلى القسطنطينية ، حوالى سنة ١٠٩١ ، جيش من روما على الرغم من أن البابا ايربان لم يكن له وقتذاك من النفوذ فى روما ، ما يكفل له إرسال عساكر إلى بيزنطة(٢) . والراجح أن رواية أنّه تشير إلى القوة الحربية التى وعد روبرت كونت فلاندر ، أن ينفذها إلى الكسيوس(٣) .

ومع أن البابا تلقى أيضا رسائل للنهوض للدفاع عن الكنائس الشرقية ، ووقف على الأحوال فى الشرق ، لم يتوافر من الأدلة ما يشير إلى أنه حاول

---

(١) **Runciman : op. cit. I. p. 104.**

(٢) **Anna Comnene : Alexiade ed. Leib. II. p. 139.**

(٣) **Duucalf : op. cit. p. 228.**

المعروف أن روبرت ، كونت فلاندر ، توجه إلى بيت المقدس ، لتأدية فريضة الحج ، حوالى ١٠٨٧ – ١٠٩٠ أو ١٠٩١ . وفى أثناء عودته ، تلقاه الكسيوس فى القسطنطينية ، بمظاهر التشريف والتكريم . والواضح أن الكسيوس طلب إليه أن يبعث بجنود مأجورة . وإذ التزم روبرت ، بما بذله من يمين ، قرر أن يبعث ، عند عودته إلى الفلاندر ، بقوة مؤلفة من خمسمائة فارس . أوفى الكونت بوعده ، وقدم إلى الكسيوس ، قوة عسكرية ، يصحبها هدية إلى الإمبراطور ، عبارة عن ١٥٠ من خيرة الجياد . واشترى الأمبراطور ما استغنت عنه الحملة من الخيول . ولعل الإمبراطور كتب رسالته إلى كونت فلاندر ذلك الوقت ، وأضحت رسالته أساس الرسالة المنسوبة إلى الكسيوس ، والتى جرى استخدامها فيما بعد ، من قبيل الدعاية . انظر :

Duncalf : op. cit. p. 228.

Joranson, E : "The Spurious Letter of Emperor Alexius to the Count of Flanders.

American Historical Review. LV (1950) pp. 811-832.

Runciman : History of the Crusades I. p. 104.

أن يساعد الإمبراطور البيزنطى قبل انعقاد مجمع بياكنزا سنة ١٠٩٥[١] .
والواضح أن للحركة الصليبية سببين مباشرين ، الأول ما حدث من استنجاد الإمبراطور الكسيوس بالبابا إيربان ، يطلب منه المساعدة الحربية ، ضد الأتراك السلاجقة ، أما السبب الثانى ، فهو استيلاء الترك على بيت المقدس ، وما ترتب على ذلك من الروايات ، التى ذاعت عن المعاملة السيئة التى تعرض لها الحجاج من الغرب ، على أيدى هؤلاء التركمان . على أن الكسيوس أراد باستغاثته بالغرب ، الحصول على فرسان يؤيدون جيوشه البرية فى آسيا الصغرى ، ولا يزيدون فى المكانة على الورنك المأجورين الذين خدموا منذ قرن بالقسطنطينية . غير أن البابا ايربان الثانى لم يشأ أن يكفل الأمن والسلامة للقسطنطينية ، بل اختار ما هو أكثر إثارة للحماس الدينى ، وهو استخلاص الأراضى المقدسة . فأثارت دعوته ، فى بياكنزا وكليرمونت حماسا شديدا عند سائر طبقات المجتمع فى غرب أوربا[٢] .

الأسباب الاجتماعية والاقتصادية :

حدث فى القرن الحادى عشر ، أن رسخت النظم الاقتصادية والسياسية التى ظهرت فى أوربا فى القرن السادس ، فأضحت تؤلف دعائم المدنية الأوربية فى العصور الوسطى . فأعلام القرن الحادى عشر من العلمانيين ، أمثال وليم الفاتح ، والإمبراطورين هنرى الثالث وهنرى الرابع ، وروجر الأول ملك صقلية ، والفونسو السادس ملك قشتالة ، كانوا من رجال السياسة العسكريين ، ويقابلهم من رجال السياسة الكهان ، أمثال البابا جريجورى السابع ، ورؤساء ديركلونى الأوائل ، ولانفرانك رئيس الأساقفة ، كانوا يلتمسون أساسا السلطة والنظام والكفاية . بل إن أكبر

---

(١) Duncalf : Loc. cit.

(٢) Krey, A.C : "Urban's Crusade-Success or Failure" Amer. Hist. Rev. (1948). LIII.

نظام للديرية فى القرن الحادى عشر ، نظام دير كلونى إنما يمثل الإصلاح الإدارى لا الروحى[1] . أما الفلاحون الأشقياء الذين يجتثون الغابات ويجففون المستنقعات لزيادة مساحة الأراضى الصالحة لزراعة ، والتجار الجنويون والبيازنة الذين أغاروا على المسلمين من سواحل أوربا ، لا بد أنهم تأثروا مثلما تأثر سادتهم ، بروح الحركة الصليبية[2] .

الواقع أن القرية تعتبر الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية عند سائر السكان فى غرب أوربا . فالقروى يجد المتعة فى أعياد القرية ، ويؤدى القسيس القداسات ويباشر الشعائر والطقوس الدينية ، ويقدم لرعاياه ما لديه من الأفكار ، ولا شك أن هذا العلم كان ضئيلا لما غلب على رجال الدين من الأمية . فاشتهر أهل القرية بالتقوى والميل إلى الخرافات والأساطير ، وحفل الريف بالينابيع والأشجار التى تعتبر موطن الكرامات والمعجزات[3] .

أما الوضع القانونى للقرويين ، ونصيبهم من المحصول الذى ينتج من الأراضى فيختلف من إقليم إلى إقليم ، ومن قرية إلى قرية . والمعروف أن نظام الضياع الاقطاعية استقر فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر .

والنظام الإقطاعى ، عبارة عن مجموعة من النظم ، تستمد ، بمقتضاها ، الطبقة الإقطاعية ، من الجند ورجال الكنيسة ، سندها ودعامتها من أولئك الذين يفلحون الأرض . وفى معظم الأقاليم الشاسعة ، التى يسود بها القرى ، التى تستخدم نظام الحقلين أو الحقول الثلاثة ، استند النظام الإقطاعى ، إلى ما يعرف بنظام الضياع . فلسيد القرية ، جانب من الأرض ، يبلغ

---

(١) Painter : Western Europe on the Eve of the Crusades
History of the Crusades I. (ed. Setton) : p. 5

(٢) Ibid. : Loc. cit.

(٣) Ibid. : Loc. cit.

نحو الثلث من الأرض الصالحة للزراعة ، فضلا عن نصيبه فى الحقول التى يزرعها المستأجرون ، فيتولى أهل القرية زراعة أرض السيد ، ويؤدون له نصيبه من المحصول الناتج من أراضيهم ، يضاف إلى ذلك ما يؤديه القروى من الضرائب النوعية مقابل الإفادة من المرافق العامة ، كالخنازير ، والماشية ، والسمك ، والجبن[١] .

وصار للسيد حقوق كثيرة مثمرة ، تعتبر أساسا حقوقا سياسية . فكلما تطور النظام الإقطاعى ، اقتسم وظائف وسلطات الحكومة ، الهيئة الإقطاعية ، ولم تلبث أن اعتبرتها ملكا خاصا لها . وما يتعلق بالضيعة من هذه السلطات ، تختلف فى اتساعها وامتدادها وفقا لتقاليد البلاد ومكانة السيد . ففى معظم جهات فرنسا وغرب ألمانيا ، كان للسيد فى النظام الإقطاعى الولاية على سلطان القرى التابعة له ، بلغت أحيانا الحكم بالحياة أو الموت ، والسيطرة على المستأجرين ، وله مطلق الحرية فى تهذيبهم وتنظيمهم ، وأفاد السيد من هذه السلطات ، بأن صار فى وسعه أن يعقد السوق فى قريته ، وأن يتقاضى الضرائب على كل ما يجرى بيعه من السلع ، ويفرض الرسوم على من يجتاز الجسر ، أو يسير فى القناة إزاء القرية ، وأن يقرر الاحتكارات كأن يلزم المستأجرين باستخدام طاحونه أو مخبزه ، وأن يمنعهم من صيد الحمام . ويخضع لقضائه سائر الأحرار وغير الأحرار[٢] .

وحرص السادة منذ القرن الحادى عشر ، على إصلاح الأراضى وزيادة مساحة الأراضى المنزرعة ، بإزالة الغابات وتجفيف المستنقعات ؛ فصاروا يقرون الفلاحين بالتوسع فيما يزرعونه من الأراضى ، بأن يعدوهم بقدر

---

(١) Painter : Loc. cit.

(٢) Painter : op. cit. p. 8.

من الحرية ، وتخفيض الضرائب والإيجارات ، والإقلال من الخدمات ؛ فتزايدت موارد السيد المادية والبشرية[1] .

وعلى الرغم من أنه غلب على غرب أوربا فى القرن الحادى عشر ، الصفة القروية والزراعية ، فإن إحياء الصناعة والتجارة ، وحياة المدن ، أخذ يشق طريقه ، فظهر هذا النمو ، بصفة خاصة فى إيطاليا ، إذ لم تختف مطلقا حياة المدن فى إيطاليا ، فعلى الرغم من أنه لم يكن بإيطاليا إلا قدر ضئيل من الصناعة والتجارة ، فإن المدن الإيطالية كانت عامرة بالسكان ، ونشطت العلاقات التجارية بين بعض هذه المدن والقسطنطينية[2] . ففى الشطر الثانى من القرن الحادى عشر ، كان للبندقية أسطول ضخم قوى ، وحوالى ذلك الوقت شرعت جنوه وبيزا فى ممارسة النشاط التجارى على امتداد ساحل البحر المتوسط حتى مرسيليا ، وناربون ؛ وبرشلونة ، واشتبكت فى حروب ضد الأساطيل الإسلامية ، وأغارت الأساطيل المسيحية على قورسيقه وسردينية وتونس . وفى السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر ، نشطت حركة القومونات ، فحطمت نفوذ الأساقفة وحولت مدن شمال إيطاليا إلى جمهوريات مستقلة[3] .

من أهم معالم القرن الحادى عشر ، ما حدث من تبلور النظام الإقطاعى وانتشاره ، فالمعروف أن النظم الإقطاعية نمت وتطورت منذ القرن الثامن ، فبذل شارل مارتل الإقطاعات للرجال ، الذين يؤدون له يمين الإخلاص ، ويُظهرون استعدادهم لخدمته على أنهم جنوده . ثم صارت الإقطاعات وراثية ، زمن شارل الأصلع ؛ وامتد هذا الاتجاه إلى وظائف الكونتات والوظائف الملكية ، وما يحدث من تغيير بين المتولين للوظائف إنما يرجع

---

(١) Ibid : op. cit. p. 9

(٢) Painter : op. cit. p. 9.

(٣) Painter : op. cit. p. 12.

إلى التنـــازع بين المتنافسين ، لا إلى السلطة الملكية . وترتب على الفوضى التى سادت فرنسا فى القرنين التاسع والعاشر ، بسبب الحروب الداخلية وغارات القيكنج ، أنه لا بد لملاك الأراضى أن يتخذوا أحد طريقين : إما أن يتلقى الواحد منهم المساعدة الحربية والحماية ، بأن يجعل نفسه من أتباع أحد الجيران الأقوياء ، وإما أن يهبط إلى مكانة القروى غير الحر .

والواضح أن الطريق الأول لا يختاره ، إلا المالك الذى يستطيع أن يجهز نفسه بالعدة الحربية ، فلم يخرج عن دائرة النظام الإقطاعى إلا أقوى الأشخاص وأكثرهم عنادا . والخلاصة أن فرنسا غلب عليها ، فى القرن الحادى عشر ، النظام الإقطاعى(١) .

ولم يكن الغرض الأساسى من النظام الإقطاعى سوى التعاون فى الحرب . إذ أن كل سيد التزم بحماية تابعه من أعدائه ، خارج الإقطاع ، كما أن كل تابع لا بد أن يؤدى لسيده الخدمة العسكرية ، فتارة يؤدى الخدمة الشخصية ، وتارة يلتزم بأن يضيف إلى جيش سيده عددا معينا من الفرسان(٢) . وما حدث فى القرن الثالث عشر من تحديد ما يؤديه التابع من الخدمة الحربية للسيد ، لم يكن معروفا فى القرن الحادى عشر . والواقع أنه إذا تعرض الإقطاع للخطر ، التزم الأتباع بالبقاء فى الخدمة ، نظرا لاشتداد الحاجة إليهم(٣) .

وبالإضافة إلى ما يؤديه التابع للسيد من خدمات فى البلاط والجيش ، يؤدى واجبات تغلب عليها الصفة الاقتصادية ، كالرسم الذى يؤديه للسيد

---

(١) Painter : Western Europe on the Eve of Crusades, p. 11.

(٢) Painter : Western Europe on the Eve of Crusades. p. 12.

(٣) Ibid. loc. cit.

عند حلوله فى الإقطاع ؛ وكان عادة عبارة عن خيول وأدوات حربية لا أموال . وإذا احتاج السيد إلى موارد إضافية ، التمس المساعدة من الأتباع ، ولا شك أن الأتباع يبادرون إلى بذل المساعدة للسيد ، عند تجهيز قوة يشترك بها فى الحروب الصليبية . وجرى فيما بعد أن تحددت الحالات التى يحصل فيها السيد على العون من الأتباع : وهى تتمثل فى تنصيب الابن الأكبر فارسا ، وزواج الابنة الكبرى ، ودفع الفدية عند الوقوع فى الأسر(١) .

ومن نتائج النظام الإقطاعى ، أنه أعد قوة حربية من الفرسان ، وحرص السادة على ازدياد مواردهم ، بما أبدوه من الاهتمام بإصلاح الأراضى وإنشاء المدن ، ولا شك أن رغبة السادة الإقطاعيين فى تحقيق هذه الغاية ، كانت من الدوافع التى جعلتهم يشتركون فى الحروب الصليبية ، كيما يضيفوا أملاكا جديدة إلى إقطاعاتهم ، وكيما يحصل أولئك الذين لم يكن بيدهم إقطاعات ، على أراضى يتخذون منها إقطاعات تكفل لهم ولأتباعهم المعيشة والاستقرار . ولعل ما حدث من رحيل أسرة هوتفيل والنرمان إلى جنوب إيطاليا ، ثم صقلية يفسر هذه النزعة ، التى لم تتوقف عند هذا الحد ، بل امتدت إلى كراهية البيزنطيين ، ومحاولة إقامة إمارات فى الشرق(٢) .

وتعتبر فرنسا ، التى نبتت فيها الجروب الصليبيـــة ، والتى تعتبر نموذجا للنظام الإقطاعى ، ساد بها فى القرن الحادى عشر ، الحروب الداخلية . وحاولت الكنيسة أن تحد من عنف هذه الحروب ، بما أعلنته من هدنة الله ، وسلام الله . فأنكر سلام الله شن الهجوم على غير المقاتلين ، وعلى التجار والنساء والفلاحين ، بينما نهت هدنة الله عن القتال فى الأيام

(١) Painter : Feudal Society. p. 22-24.

(٢) Painter : Western Europe on the Eve of Crusades. p. 18.

الأخيرة من الأسبوع والأعياد الدينية . ومع ذلك لم يحفل السادة الإقطاعيون بهذين المبدأين(١) .

والواقع أن الفارس العادى ، اشتهر بالعنف والقسوة والميل إلى إشباع رغباته ولذاته ، على أنه يعتبر فى نفس الوقت ، وعلى طريقته الخاصة ، من الأتقياء إذ يتقبل دون نقاش تعاليم الكنيسة ، ويزداد اهتمامه بالسعادة الروحية ، فحرص على أن يكون له قسيس خاص ، يؤدى القداسات والشعائر فى كنيسته الصغيرة ، ويتلقى منه الاعتراف . ويراعى معظم الفرسان عادة الشعائر الدينية ومع ذلك لم يزعجهم كثيرا ، صرامة الأخلاق المسيحية . والوسـيلة الوحيدة التى يلجأون إليها هو بذل الهبات لأحد الأديرة ، أو إنشاء دير جديد ، وتعتبر الحروب الصليبية وسيلة صالحة لتحقيق هذه الأغراض(٢) .

فى مستهل القرن الحادى عشر ، كانت فرنسا هى الدولة الإقطاعية الوحيدة فى أوربا ، فكان الملك من أسرة كابيه ، يعيش على خراج ضياعه الملكية ، ويتخذ جيشه من أتباعه فى دوقية فرنسا ، فضلا عن الكتائب التى يبعث بها إليه كبار السادة ، ولم يحفلوا بأن يؤدوا له الخدمة الشخصية ، لأن الملك كان أضعف من معظم هؤلاء السادة ، ولم يكن له إلا سيادة ضعيفة عليهم ، فكانت فرنسا بذلك عبارة عن حلف من الإمارات الإقطاعية يربط بينها ما كان للملك من قدر ضئيل من السيادة . ويرجع السر فى بقاء الملكية إلى مساندة الكنيسة لها ، والإفادة من مواردها وإقطاعاتها(٣) .

---

(١) Painter : Western Europe on the Eve of the Crusades p. 16.

(٢) Ibid. loc. cit.

(٣) Painter : Western Europe on the Eve of Crusades p. 17

وفى أثناء القرن الحادى عشر ، انتشر النظام الإقطاعى ، فأقام وليم النرمندى دولة فى انجلترا . غير أنه احتفظ لنفسه بكل ما كان للملوك السكسون من سلطات ، سواء كانت إدارية أو قضائية ، فضلا عن سيطرته التامة على المقطعين ، إذ أصر على أن كل رجل حر ينبغى أن يؤدى أولا يمين الولاء للملك ، فإذا أعلن أحد نبلاء الإنجليز الثورة ، جاز لأتباعه أن يتخلوا عنه ، وبذا منع الحروب الداخلية . ولا يؤدى الأتباع الخدمة الحربية للبارون (النبيل) ، إلا إذا كان فى خدمة الملك . والخلاصة أن وليم أنشأ دولة إقطاعية ، وجمع فى يده مواردها وكل السلطات ، وعدّل فى العرف الإقطاعى بما يلائم السلطة الملكية(١) .

وحوالى الوقت الذى أقام فيه وليم النرمندى مملكته الإقطاعية فى إنجلترا ، استطاع جماعة من النرمان المغامرين ، أن ينشئوا دولة من هذا القبيل فى جنوب إيطاليا وصقلية ، فتدخلوا أول الأمر فيما وقع من التنازع بين الأحزاب المتناحرة فى جنوب ايطاليا ، فدخلوا فى خدمة القوى المتنافسة ، أول الأمر ، على أنهم قادة مأجورون ، ولم يلبثوا أن استقروا فى الأراضى والقلاع ، ثم أرسلوا يستدعون اخوتهم الصغار ، ومنهم روبرت جويسكارد وروجر . وفى سنة ١٠٥٧ أصبح أفراد أسرة هوتفيل يسيطرون على أبوليا ، فاتخذ روبرت لقب دوق أبوليا ، وشرع روجر فى انتزاع كالابريا من يد البيزنطيين أيضاً . وفى سنة ١٠٦١ اشترك الأخوان فى الهجوم على صقلية ، ومحاولة انتزاعها من أيدى المسلمين ، وتم الاستيلاء عليها بعد ثلاثين سنة . وصار روجر كونتا على صقلية ، ونائباً لأخيه فيها . أما روبرت ، دوق أبوليا وسيد صقلية ، فاعترف بالتبعية للبابا ، عن الأراضى التى بأيديه ، وصار حليفا قويا للبابوية ضد الأباطرة

---

(١) Painter : Western Europe. p. 18.

الألمان . غير أن امتلاك جنوب إيطاليا لم يشبع أطماعه ، فتطلع روبرت وابنه بوهمند إلى الاستيلاء على أملاك بيزنطة عبر بحر الأدرياتى ، والتطرق إلى امتلاك بلاد اليونان ، بل فكر أيضاً فى الاستحواذ على الإمبراطورية البيزنطية ، ولا شك أن ما بذلته البندقية من مساعدة لبيزنطة فى مقابل الحصول على امتيازات تجارية ضخمة ، منع النرمان من المضى فى فتوحهم[١]. وبذا أقام النرمان مملكة إقطاعية فى جنوب إيطاليا وصقلية ، على نفس الأسس والقواعد ، التى درج عليها وليم فى مملكته بنرمنديا ، فسيطرت الحكومة على المقطعين[٢] .

وما حدث من النضال بين البابا ، جريجورى السابع ، والإمبراطور الألمانى ، هنرى الرابع ، حول السيطرة على رجال الدين ، وإصرار الإمبراطور على أن يخضعوا له ، أدى إلى إثارة مشكلة التقليد العلمانى ، والعلاقة بين السلطة الدنيوية والسلطة الروحية . فأصر جريجورى على أن البابا يمثل الله على الأرض ، ولا بد للناس أن يعلنوا الخضوع له ، وليس الملوك إلا هيئة عليا تتولى حماية الكنيسة ، وتنزل العقاب بالمجرمين . فإذا عصى الملك أو الإمبراطور ، أوامر البابا ، فله أن يعزله[٣] .

المدن الإيطالية :

الواقع أن المدن الإيطالية واصلت القتال براً وبحراً ، ضد المسلمين قبل زمن طويل من انعقاد مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ . فى القرون الأربعة السابقة على هذا المجمع ، تعرضت هذه المدن لغارات من قبل

---

(١) Painter : Western Europe. p. 24.

(٢) Painter : Western Europe. op. 24.

(٣) Painter : Western Europe p. 27.

المسلمين . والتزمت هذه المدن ، فى علاقتها مع المسلمين ، ما تمليه عليه مصلحتها ، فتارة تتحالف مع المسلمين ، كما تقاتل مدنا أخرى ، وتارة يجرى الصدام بين القوات الإسلامية وقوات هذه المدن . ثم تحالفت ، سنة ٩٦٥ مدن جنوب إيطاليا مع قوات بيزنطة والبابا ، للاستيلاء على آخر معقل للمسلمين فى جنوب إيطاليا . وبعد قرن من الزمان ، هاجمت المدن الشمالية ، ما يقرب منها من القواعد البحرية الإسلامية . وفى القرن الحادى عشر ، أغار البيازنة والجنويون على الساحل الإفريقى ، وفرضوا شروط الصلح على الأمير المسلم ، ومن هذه الشروط الكف عن ممارسة القرصنة . وبفضل هذا الصلح الذى انعقد سنة ١٠٨٧ ، انتقلت السيطرة على البحر المتوسط من العرب إلى المدن الإيطالية[١] .

والمعروف أنه فى المرحلة الأولى من العلاقات بين العرب والإيطاليين ، بين ٦٥٢ ، ٨٢٧ ، أن تعرض جنوب إيطاليا والجزائر القريبة لهجمات العرب البحرية . ولم يستطع البيزنطيون والإيطاليون أن يحافظوا على حامياتهم فى كل مكان . على أن العرب لم يوجهوا هجومهم الكبير إلى هذه الجهات إلا بعد أن توقفت فتوحهم فى غرب أوربا بعد معركة تور – بواتييه سنة ٧٣٢ وانسحابهم من غاله سنة ٧٦٩[٢] .

وتكررت غارات السفن الإسلامية من الإسكندرية ، وقرطاجة ، وتونس ، على إيطاليا والجزائر المجاورة لها . فسقطت فى أيدى العرب ، جزائر بانتيلاريا وسردينية وقورسيقة ، وأدى أهل سيراكوز فى صقلية الجزية . وأدرك البيزنطيون فى جنوب إيطاليا ، أن المسلمين إنما يقصدون

---

(١) Kreuger, Hilmer, C : The Italian Cities and the Arabs before 1095, in Setton : History of the Crusades I. p. 40

(٢) Kreuger : The Italian Cities. p. 40

الاستيلاء على صقلية . ولما شرع الأغالبة فى فتح صقلية ٨٢٧ ، أدرك الإيطاليون أن مرحلة جديدة فى علاقاتهم مع العرب قد بدأت فعلا[١] .

وتعتبر المرحلة الثانية ، التى تشمل القرن التاسع الميلادى ، بالغة الخطورة على مدن جنوب إيطاليا . إذ دأب دوقات هذه المدن على أن يقاتل الواحد منهم الآخر ، ولما اشتهروا به من الطموح إلى السلطان ، والتطلع إلى الاستقلال ، أضعفوا من سلطة وقوات بيزنطة ، والدولة الكارولنجية الناشئة فى الغرب ، والبابوية فى روما ، وهى القوى التى تتنازع السيطرة فى إيطاليا ، فلم تستطع كل دولة من هذه الدول ، أن تنزل الهزيمة بالعرب ، بينما كان المسلمون من القوة ، ما يكفى لإقامة مراكز لهم نظرا لقلة القوات المسيحية . وترتب على ذلك أن كل جنوب إيطاليا ، مدنه ونواحيه ، تعرض للهجمات المستمرة من قبل العرب ، ونزول المسلمين بهذه الجهات[٢] .

وفى سنة ٨٢٧ نشط الأغالبة فى غزو صقلية ، إذ أحسَّ زيادة الله الأول أمير القيروان ، بأنه من القوة ما يجعله يوجه حملة لفتح صقلية . وعجل بهذه الحملة ما نشب بصقلية من حرب أهلية ، وعصيان القائد البيزنطى ايفيمينوس ، وإعلان نفسه إمبراطورا ، والتماسه مساعدة المسلمين بشمال إفريقية . وبعد أن أنزل المسلمون الهزيمة بالحاميات البيزنطية ، حاصروا سيراكوز برا وبحرا ، واستمروا على الحصار نحو سنة ، ولم يرفعوا الحصار إلا بسبب تفشى المجاعة والوباء بين رجال الحملة الإفريقية ، ومبادرة أسطول البندقية وأسطول بيزنطة إلى شن هجوم

---

(١) Kreuger : The Italian Cities p. 42.

(٢) Bury :"The Naval Policy of the Roman Empire in Relation to the Western Provinces, from the Seventh to the Ninth century. centenario di michele Amari-Palermo 1910 Vol. II. pp. 25-34

عنيف ، على من تبقى من القوات ، التى اعتصمت فى مازارا ، وتلقت المساعدة من المسلمين بالأندلس[١] .

على أن المحاولة الثانية لفتح الجزيرة قد نجحت ، وأدت إلى احتلال صقلية بأسرها . ففى سنة ٨٣٠ ، هاجم بالرمو ، على الساحل الغربى لصقلية ، أسطول من إفريقية مؤلف من ٣٠٠ سفينة يؤيده أسطول إسلامى آخر من أسبانيا . وبعد سنة ٨٣١ سقطت المدينة فى أيدى المحاصرين ، فاتخذوها قاعدة ، لما قاموا به من أعمال حربية فى سائر الجزيرة وجنوب إيطاليا ، وتوطيد مركزهم فى المواضع التى استولوا عليها ، على الرغم من الحملات البيزنطية الموجهة ضدهم[٢] .

على أن هذه القاعدة الأمامية ، بلرمو ، عززها سيطرة القوات الإسلامية الإفريقية على جزائر بانتيلاريا ، وبذا يتيسر نقل الأمداد من إفريقية ، وما حدث من التحالف مع مدن ساحل كامبانيا ، ولا سيما نابولى ؛ ويرجع هذا التحالف إلى نهوض المسلمين لمساعدة نابولى ضد أمير بنيفنتو اللومباردى ، وإلى ما يعود على نابولى من فائدة تجارية ، بعد أن أغلق شرق البحر المتوسط ، دونها ، المسلمون فى الشرق والبنادقة والبيزنطيون[٣] .

وباستيلاء المسلمين على مسينى سنة ٨٤٣ ، تحكموا بوغاز مسينى ، فنعوا السفن البيزنطية من المضى إلى غرب البحر المتوسط ، وتيسر لهم آخر

---

(١) Kreuger : The Italian Cities p. 44.
Lewis : Naval Power and Trade Routes in the Mediterranean. p. 132-133.

(٢) Kreuger : The Italian Cites p. 44

(٣) Lewis : Naval Power and Trade Routes in The Mediterranean. p. 183.

الأمر الاستيلاء على صقلية سنة ٩٠٢ ، بعد الاستيلاء على آخر المعاقل البيزنطية ، طبرمين Taormina[(١)] .

على أن العرب هاجموا المدن الإيطالية ، فى شبه جزيرة إيطاليا ، قبل أن تخضع لهم صقلية . فما اتخذته من تدابير ، الإمبراطوريتان البيزنطية والكارولنجية ، وما جرى من استعانة البابوية والتماسها النجدة ، لم يجد نفعا فى منع العرب من النزول والهبوط ، بالأراضى الإيطالية . وأسهم فى ازدياد نشاط العرب ما وقع من منازعات بين المدن الساحلية ، وما حدث من العداء بين هذه المدن ودوقات بنيفنتو[(٢)] .

هبط العرب لأول مرة ، على الأرض الإيطالية ، سنة ٨٣٧ ، حينما التمس منهم أهل نابولى المساعدة ضد سيكارد ، دوق بنيفنتو ، المشهور بأطماعه وطموحه ، ولم ينهض لمساعدتهم لويس التقى وسائر الأمراء المسيحيين . وبعد أن رد العرب الخطر عن نابولى ، عقدوا مع أميرها معاهدة صداقة وتحالف[(٣)] . وعلى الرغم من أن هذه المحالفة أضعفت ما كان لبيزنطة من قوة بحرية فى البحر التيرانى ، فإن ما حازه الأسطول الإسلامى بشمال إفريقية من الحراقات ، التى تبطل ما لدى البيزنطيين من النيران الإغريقية ، كفل للأساطيل الإسلامية الأمن والسلام ، أثناء ترددها بين شمال إفريقية وصقلية ، وأسهم فى استكمال فتح صقلية[(٤)] ، والاستيلاء على بعض

---

(١) Kreuger : The Italian Cities. p. 45.
Lewis : Naval Power and Trade Routes in the Mediterranean p. 139.

(٢) Kreuger : The Italian Cities. p. 45.

(٣) Ibid : Loc. cit.
Lewis : op. cit. p. 133-134.

(٤) Lewis : op. cit. p. 134.

المواضع الإيطالية ، فهددت السفن الإسلامية ، النشاط التجارى على الساحل الغربى لإيطاليا ، وتوغلت غاراتهم فى جوف البلاد . وعلى الرغم من التحالف الذى عقدته نابولى مع الإمارات المسيحية المجاورة ، جائيتا وأمالفى وسورنتو سنة ٨٤٥ ، وتعاون الأساطيل لحماية شاطئ كامبانيا ، فإن غارات العرب امتدت إلى روما وأوستيا وبورتو ، وجائيتا ، فحصلوا على غنائم وذخائر كثيرة ؛ وبلغت اغاراتهم بروڤانس[١] .

ونشط المسلمون أيضا فى البحر الأدرياتى ، وجنوب شرقى إيطاليا ، وأفادوا من المنازعات التى وقعت بين الإيطاليين . فاستولوا سنة ٨٣٨ على برنديزى ، ونهبوا الجهات المجاورة ، واشترك فى هذه الغزوة أسطول مشترك من القوات البحرية الإسلامية فى كريت وشمال افريقية[٢] . ودمر المسلمون فى خليج تارنت أسطولا للبنادقة مؤلفا من ستين سفينة حربية . وما حدث من التخاصم بين أميرين لومبارديين على بنيفنتو ، والتجاء كل منهما إلى التماس مساعدة المسلمين فى صقلية وشمال افريقية ، أو اسبانيا ، أدى آخر الأمر إلى استيلاء المسلمين على بارى ، وإنزال الهزيمة بأسطولين للبنادقة ٨٤٠ ، ٨٤٢ ، فزالت بذلك سيطرة البندقية على البحر الأدرياتى ، وتعرض للخطر تجارة البندقية مع صقلية[٣] . وتوغل المسلمون إلى وسط إيطاليـــا وجنوبها ، وهددوا دير مونتى كاسينو ، ولم يكن فى وسع القوات الامبراطورية أو قوات الدوقات ، أن تردهم[٤] .

---

(١) Kreuger : The Italian Cities p. 46.

(٢) Lewis : op. cit. p. 134.

(٣) Ibid : p. 135.
Kreuger : The Italian Cities. p. 47.

(٤) Ibid : p. 48.

ظل تهديد المسلمين مستمرا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع ، بينما تدهور دفاع المسيحيين ، وذلك لما تعرضت له هيبة الإمبراطور شارل الأصلع ، من الانتقاص ، وتهدد الخطر أملاكه فى غاله . يضاف إلى ذلك الحروب الداخلية التى نشبت بين المدن والدوقات ، وتسابقهم إلى عقد معاهدات تجارية وعسكرية مع المسلمين . وعلى الرغم من أن البندقية حافظت على سيادتها فى البحر الأدرياتى وساحل دالماشيا ، واستعاد البيزنطيون بارى وتارنتو من يد المسلمين سنة ٨٧١ ، ٨٨٠ ، فإنه أضعف من شأنها ما حدث على الساحل الغربى من هزائم . إذ أن الخوف من انتعاش البيزنطيين ، والأمل فى تجنب غارات المسلمين ، والتجارة مع صقلية ، كل ذلك حمل المدن الإيطالية مرة أخرى على أن تنحاز إلى المسلمين ، فاشتركت معهم نابولى وجائيتا وسالرنو وكابوا ، وأمالفى ، فى الإغارة على سواحل روما ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، واتخذ المسلمون نابولى قاعدة لأعمالهم . ولما فشلت محاولات البابا حنا الثامن فى أن يحظى بمساعدة بيزنطة أو المدن الإيطالية ، قبل أن يدفع سنة ٨٧٨ ، الجزية للعرب ، كيما يكفوا عن مهاجمته[١] ، رفضت مدن ودوقيات جنوب إيطاليا أن تؤلف جبهة تحت رعاية البابا لمناهضة المسلمين ، بل سيرتها المصالح الشخصية ، فتارة تتعاون مع البيزنطيين ، وتارة تنحاز إلى المسلمين ، وبذا تعرض لغارات العرب ونهبهم الأديرة الواقعة على جبل سان فينكنزو San Vincenzo ، ودير مونتى كاسينو سنة ٨٨٣ ، وتحصن العرب فى بعض المواضع الواقعة عل امتداد جبل جارجليانو ؛ ومنها أخذوا يشنون غاراتهم[٢] .

---

(١) Kreuger : The Italian Cities. p. 49.
Engreen : "Pope John VIII and the Arabs" in Speculum (1945) XX,

(٢) Kreuger : The Italian Cities. p. 50.
Lewis : op. cit. p. 139.

ترتب على انهيار بيت الأغالبة ، وقيام الفاطميين فى شمال إفريقية سنة ٩٠٩ ، أن تهيأ للإيطاليين الفرصة لإزالة ما كان للعرب من قاعدة أمامية . فانتقضت صقلية على الفاطميين ، ولم يستطع الفاطميون أن يعيدوا سلطانهم على صقلية إلا سنة ٩١٧ ، على أن البابا حنا العاشر ألف حلفا من نابولى وجائيتا وكابوا وسالرنو ، وأنزلوا الهزيمة سنة ٩١٥ ، بما تبقى للمسلمين من قوة على جارجليانو ، وبذا انتهت فترة احتلال العرب لجنوب إيطاليا[١] .

ومن أسباب ضعف بيزنطة بحرا فى إيطاليا وصقلية ، ما صادفه البيزنطيون من صعاب فى الشرق ، ولا سيما فى بحر إيجه تجاه كريت .

وفى المرحلة الأخيرة للعلاقات بين المسلمين والمدن الإيطالية ، كانت المدن الشمالية موطن النشاط ، نظرا لما تعرضت له من هجمات المسلمين . ولم تتحالف مع العرب ، بل اتخذت طريق الهجوم ضدهم . ويرجع إلى جنوه وبيزا الفضل فى رد خطر العرب فى غرب البحر المتوسط[٢] .

فمن صقلية وإفريقية ، صار المسلمون مصدر قلق للمدن الإيطالية ، بعد سنة ٩١٥ . فاستولوا على ريو سنة ٩١٨ ، ثم أغاروا على كالابريا ، ووقع فى أيديهم كثير من السبي ، فباعوه فى أسواق صقلية وإفريقية ، وتغلبوا على المقاومة البيزنطية فى كالابريا ، وحاصروا نابولى[٣] . وحصل العرب على إتاوات من المدن الساحلية ، كيما لا تتعرض سفنها التجارية لتهديدهم ، فإذا امتنعت هذه المدن عن تأدية الإتاوة المقررة ، تعرضت للهجوم ، مثلما حدث سنة ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، حين جرى حصار سالرنو

---

(١) Ibid : op. cit. p. 140-141.

(٢) Kreuger : The Italian Cities. p. 51.

(٣) Lewis : Naval Power and Trade Routes in the Mediterranean p. 194.

والاستيلاء عليها ؛ ولم ينقذها إلا الحجاج النرمان القادمون من بيت المقدس[١] ؛ وفى الجنوب الشرقى ، لم تسلم تارنتو وبارى من هجمات السفن الإسلامية ؛ ففى سنة ١٠٠٢ ، لم ينقذ بارى من السقوط فى أيدى المسلمين ، سوى ما جاء فى الوقت المناسب ، من مساعدة من قبل أسطول للبنادقة سنة ١٠٠٤ ، الذين نهضوا لنجدة القوات البيزنطية ، فذاع اسم الدوج أورسيليو الثانى . ومع ذلك لم تتوقف الغارات ، ولا شك أن التجارة تأثرت بهذا الخطر[٢] .

وفى القرن العاشر ، أحست السواحل الشمالية ، بوطأة الهجمات الإسلامية ؛ فالمعروف أن المسلمين استقروا حوالى سنة ٨٨٨ ، فى بروڤانس ، فى فراينيه (Fraxinetum) ، ثم سيطروا على الممرات الألبية ، فصاروا مصدر خطر على طريق الحجاج والتجار ، بين غرب أوربا وإيطاليا[٣] . على أن هذه القاعدة الإسلامية ، هاجمها سنة ٩٣١ ، أسطول بيزنطى ، غير أنه لم يتحقق الغرض المنشود ، لأنه لم يتيسر إنزال الجند بها . أما الهجوم الذى وقع سنة ٩٤٢ ، وكان مبشرا بالنجاح ، بسبب انحياز هيو ملك بروڤانس إلى القوات البيزنطية ، فإن هيو لم يلبث أن انسحب من تحالفه مع بيزنطة ، بعد أن وعده المسلمون ، بأن تكون له السيطرة على الممرات الالبية ، لمناوأة برنجار صاحب ايڤريا Ivrea . ثم اتحد كونت بروڤانس ، واردوين دوق تورين لطرد العرب من الممرات ، ومن فراينيه[٤] .

---

(١) Kreuger : The Italian Cities. p. 51.

(٢) Lewis : Naval Power and Trade Routes in the Mediterranean p. 193.

(٣) Kreuger : The Italian Cities p. 51.

(٤) Ibid : p. 51.

Lewis : Naval Power and Trade Routes in the Mediterranean p. 150.

وما حدث من ازدياد قوة البحرية البيزنطية فى غرب البحر المتوسط ، أثار فيما يبدو قلق الفاطميين . ففى سنة ٩٣٥ أرسلوا أسطولا ضخما ، ليوطد سلطانهم فى البحر التيرانى. فأغار على سردينيه وقورسيقه وجنوه ، فاحترقت سفن مسيحية عديدة ، ووقع كثير من السبي فى أيدى المسلمين ، وامتلأت أيديهم بالغنائم والنفائس[1] . أما بيزا ، فتعرضت للهجوم مرات عديدة ، سنوات ١٠٠٤ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ . واحتل المسلمون سردينيه سنة ١٠١٣ ، وبذا سيطر العرب من قواعدهم الكثيرة ، على المياه الغربية للبحر المتوسط ، فأصاب الركود ، الحياة الاقتصادية فى المدن التجارية بشمال إيطاليا[2] .

وما تعرضت له المدن الشمالية من الخطر ، وما ترتب على هذا التهديد من تداعى فى تجارتها ، وخسارة فى سفنها ، حتم على المدينتين المستقلتين جنوه وبيزا ، اتخاذ إجراءات دفاعية هامة . وفى القرن الحادى عشر ، اتخذتا خطة الهجوم ، تارة متحالفتين ، وتارة منفردتين ، كيما يؤمنا طرق التجار والسفن المسيحية ، فأغارت بيزا على ريو سنة ١٠٠٤ ، واشتركت مع جنوه فى حملة ضخمة لمهاجمة المسلمين فى سردينيه . وفى سنة ١٠١٥ ، ١٠١٦ استطاع أسطول مشترك من جنوة وبيزا ، بتشجيع وتحريض البابا بنيدكت الثامن ، أن يستولى على جزيرة سردينيا ، فاحتلها البيازنه ، وغادرها أمير المجاهد[3] . وما أحرزه الجنويون والبيازنه من الانتصار ، وما حصلوا عليه من الغنائم ، وما وقع فى أيديهم من الأسرى ، دفعهم للمضى فى غاراتهم البحرية ، من أجل القرصنة والنهب ، ففى سنة ١٠٣٤ ،

---

(١) Kreuger : The Italian Cities p. 51.

Lewis : Naval Power and Trade Routes. p. 150.

(٢) Kreugr : The Italian Cities. p. 51.

(٣) Kreuger : The Italian Cities. p. 52.

هاجم البيازنه والجنويون والبروفنساليون ، بونه القاعدة الإسلامية فى شمال افريقية ، وما حازوه من الغنائم ، بذلوه لدير كلونى[١] . وفى سنة ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، هاجم البيازنه بلرم ، ودمروا دار الصناعة وأحواض السفن الإسلامية . وفى سنة ١٠٨٧ توجهت إلى المهدية حملة بحرية ضخمة ، بتوجيه البابا ڤيكتور الثالث ، تألفت من نحو أربعمائة سفينة ، تنتمى إلى البيازنة والجنويين والأمالفيين ، والرومان (البابوية) ؛ وبلغ عدد القوة الحربية نحو ثلاثين ألف رجل ، وتولى رياسة القوة ، المندوب البابوى ، أسقف موريتا[٢] . أحرزت الحملة الانتصار ، وهبط العساكر الإيطاليون إلى البر ، فاستولوا على الميناء والمدينة وحازوا غنائم وفيرة . على أن القلعة امتنعت عليهم ، فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، ودارت المفاوضات بين المغيرين ، وتميم أمير الزيريين ، وتقرر أن ينسحبوا من البلاد ، مقابل أن يؤدى لهم مبلغا يتراوح بين ٣٠ ، ١٠٠ ألف دينار ، وأن يجيز لتجار بيزا وجنوه ، حرية القدوم إلى المهدية وما يخضع لسلطانه من البلاد ، وأن يطلق سراح الأسرى المسيحيين ، وأن يعد بوقف غارات القرصان على السفن التجارية . وترجع أهمية هذه الغارة ، إلى أن السفن الجنوية والبيزاوية ، لم تبلغ فحسب من القوة أنها تجاوزت غرب البحر المتوسط ، بل تشير إلى اهتمام هذه المدن بالتجارة ، والحرص على ألا يتعرض أمير الزيريين بالأذى للسفن التجارية . على أن هذا الاتفاق يشير من جهة أخرى إلى أن مصالح أمالفى التجارية تفوق مصالح بيزا وجنوه ، نظرا لأن أمالفى ، فاقت جميع المدن الإيطالية ، ما عدا البندقية ، فيما كان لها منذ

---

(١) **Lewis : Naval Power and Trade Routes in the Mediterranean p. 201.**

(٢) **Ibid : op. cit. p. 233.**

سنوات عديدة من مصالح تجارية فى شرق البحر المتوسط[١] .

وفى حوليات بيزا ، تلا هذا الخبر ، الإشارة إلى دعوة ايربان الثانى ، إلى الحرب الصليبية ، ومبادرة البيازنة إلى الاشتراك فيها . وليس ذلك غريباً ، لأن المدن الإيطالية اشتركت فى قتال المسلمين فى غرب البحر المتوسط ، بناء على طلب بابوات روما وتحت قيادة المندوبين البابويين فى كثير من الأحوال[٢] .

وبينما تجرى هذه الأحداث ، أخذت صقلية تفقد مالها من أهمية دفاعية ، بعد أن ظلت معقل المسلمين فى غرب البحر المتوسط ، فلا زال النزاع مستحكما بين البربر والعرب . وحينما نهض المعز أمير الزيريين بأفريقية ، لنجدة المسلمين بصقلية تحطم أسطوله تجاه جزائر بانتيلاريا . وتضاءل الأمل فى الحصول على مساعدة من قبل افريقية ، بعد غارة الهلالية ، نظراً لشدة الحاجة إلى الالتفات إلى الأمور الداخلية ، وبذا تحتم على صقلية أن تنفرد بمواجهة أعدائها . على أن أكثر ما تعرضت له من الخطر والتهديد ، إنما جاء من قبل النرمان الذين استقروا فى جنوب إيطاليا ، لا من قبل بيزا وجنوه[٣] .

ظهر النرمان لأول مرة فى جنوب إيطاليا سنة ١٠١٦ ، واستطاعوا سنة ١٠٤٠ أن يقيموا لهم إمارة فى شمال أبوليا . انتقلت زعامة النرمان

---

(١) Lewis : Naval Power and Trade Routes in the Mediterranean p. 233.
Kreuger : The Italian Cities p. 52
Heyd : Histoire du Commerce du Levant au moyen age Vol. I. p. 121, 122.

(٢) Kreuger : The Italian Cities p. 53.

(٣) Lewis : Naval Power and Trade Routes. p. 234

إلى روبرت جويسكارد من أسرة هوتڤيل ، بعد سنة ١٠٤٠ : ودأب روبرت على أن يوطد ملكه فى أبوليا وبنيفنتو ، على حساب الأمراء الإيطاليين ، والسلطات البيزنطية : وفى سنة ١٠٥٩ أقر وضعه واعترف بمكانته البابا نقولا الثانى ، فاعتبره من أتباعه ، كما يفيد منه فى مقاومة العساكر الألمانية ، المرابطة فى روما ، والتى تهدد استقلال البابا[١] . وأقام روجر أخ روبرت ، إمارة فى كالابريا ، على حساب الإدارة البيزنطية . والمعروف أن اعتراف البابا بسلطة بيت جويسكارد سنة ١٠٥٩ ، تضمن أيضا وعد البابا بأن يجعل لهم السيادة على ما يستوليان عليه من صقلية[٢] : وفى سنة ١٠٦١ ، استولى روجر على مسينا ، ومضى النرمان فى غزوهم ، وأنزلوا الهزيمة بجيش إسلامى عند قصريانه ؛ غير أن الأحوال فى جنوب إيطاليا ، تطلبت عودته من صقلية . وما حدث من قدوم نجدات من شمال إفريقية ، واستقرارها فى صقلية ، نحو أربع سنوات ، (١٠٦٤ – ١٠٦٨) ، وما حدث أثناء ذلك من الصدام بين العناصر الإسلامية فى الجزيرة ، أدى آخر الأمر إلى انسحاب القوات الإفريقية وعودتها[٣] .

ولما تم لروبرت جويسكارد الاستيلاء على بارى سنة ١٠٧١ ، آخر معقل للبيزنطيين فى إيطاليا ، وجه إلى غزو صقلية أسطولا مؤلفا من ٥٦ سفينة يحمل جيشا بريا كبيرا ، وهاجم به روجر ، العاصمة بلرم ، فسقطت فى أيدى النرمان ، وأضحت أكبر قواعدهم . ومن الدليل على أن تميما أمير القيروان لم يحفل بما جرى فى صقلية ، أنه عقد مع روجر

---

(١) Lewis : Naval Power and Trade Routes. p. 235

(٢) Ibid : Loc. cit.

(٣) Ibid. Loc. cit.

Haskins : The Norman in the European History p. 202, 206-207.

سنة ١٠٧٥ معاهدة تحالف وصداقة[1] . على أن سقوط صقلية النهائى فى يد النرمان لم يتم إلا سنة ١٠٩٠ ، وتلى ذلك الاستيلاء على مالطة فى نفس السنة[2] . وبسقوط مالطة ، سيطر المسيحيون فى الغرب على المضايق الواقعة بين إفريقية وصقلية ، فضلا عن جزيرة صقلية ذاتها . وعلى الرغم من أن النرمان لم يتلقوا أثناء غزو صقلية مساعدة من جنوه وبيزا وسائر مدن ساحل كامبانيا ، فإن التجار الإيطاليين أفادوا منهم . إذ حصل البنادقة والأمالفيون ثم الجنويون على امتيازات تجارية ضخمة فى صقلية ، سمحت لهم بأن يشاركوا فيما أقامه العرب منذ قرون عديدة فى هذه الجهات من تجارة وصناعة[3] .

وترتب أيضا على استيلاء روجر على كالابريا وصقلية ، أن جرى التوسع النورمانى صوب الشمال على امتداد بحر التيرانى ، إذ خضع لبيت جويسكارد نابولى ، وجائيتا وأمالفى وسالرنو فضلا عن الجهات الواقعة بين روما وريو[4] . ونشط روبرت جويسكارد على الساحل الشرقى لإيطاليا ، فلم يشبع طموحه الاستيلاء على بارى سنة ١٠٧١ ، بل تطلع إلى ما وراء بحر الأدرياتى ، بعد أن ازداد البيزنطيون ضعفا عقب معركة ما نزيكرت ، سنة ١٠٧١ . فأخذ أسطوله يذرع بحر الأدرياتى سنة ١٠٧٥ تجاه دالماشيا ، غير أن البندقية بادرت بإرسال قوة بحرية ردت السفن النرمانية ، وعندئذ اتجه روبرت إلى مناوأة البيزنطيين فى أقصى الجنوب . فحاصر أسطوله

---

(١) Lewis : Naval Power, and Trade Routes p. 236.
Mas Latrie : Traites. p. 28-29.

(٢) Lewis : Naval Power and Trade Routes p. 236.

(٣) Ibid : Loc. cit.

(٤) Haskins : op. cit. p. 204, 213.

دورازو سنة ١٠٨١ ، واشتركت راجوزا فى هذا الحصار بما بعثت من قوات برية . فأثار ذلك قلق البندقية من جديد ، إذ حرصت على ألا يتوطد سلطان النرمان على مدخل بحر الأدرياتى من الجانبين ، ومع ذلك سقطت دورازو سنة ١٠٨٢ فى أيدى النرمان ، فاتخذوها قاعدة لمهاجمة الأطراف القريبة للأملاك البيزنطية اليونانية . وعندئذ تحالفت البندقية مع بيزنطة ، ومع ذلك استمر روبرت جويسكارد فى هجماته ولم يبعد خطره عن بيزنطة والبندقية ، إلا وفاته سنة ١٠٨٥ . على أن مملكة النرمان فى صقلية وجنوب إيطاليا ، أضحت قوة بحرية لها وزنها وأهميتها فى الحوض الأوسط للبحر المتوسط(١) .

وعلى الرغم من أنه توافر للبندقية من الدواعى ما يجعلها تقاوم أطماع روبرت جويسكارد فى بحر الأدرياتى ، فإنها حرصت على أن تتقاضى من الإمبراطور الكسيوس كومنين ، ثمنا باهظا عن المساعدة التى بذلتها له ، أثناء هذه السنوات . فبمقتضى المرسوم المعروف Golden Bull الذى أصدره سنة ١٠٨٢ ، تقرر إعفاء البندقية من الرسوم والعوائد الجمركية فى كل موانئ الإمبراطورية البيزنطية ، فى بحر إيجه والبحر المتوسط ، فيما عدا موانئ كريت وقبرص . يضاف إلى ذلك خضوع الجالية الأمالفية فى القسطنطينية لسيطرة البندقية . والواضح أن هذا الإجراء دمر ما تبقى للإمبراطور من سيطرة على التجارة الخارجيـــة فى الإمبراطورية البيزنطية ، وجعل للبنادقة ما يبلغ حد احتكار التجارة . ولعل السر فى انحطاط مكانة الأمالفيين يرجع إلى خضوعهم سنة ١٠٧٦ للنرمان أعداء البيزنطيين(٢) .

---

(١) Lewis : Naval Power and Trade Routes in the Mediterranean p. 237.

(٢) Lewis : Noval Power and Trade Routes in the Mediterranean p. 238.

وما حدث من اعتداء النرمان على إيطاليا وصقلية وبحر الأدرياتى ، وما حدث من هجمات البيازنة والجنويين فى غرب البحر المتوسط ، وما كان من تقاطر المغامرين الإقطاعيين الفرنسيين إلى أسبانيا ، ومن انسياب البندقية فى المياه البيزنطية ، فضلا عن التشجيع من قبل البابا والكلونيين ، على المبادرة بالهجوم على المسلمين ، لأسباب دينية ، والتقوى التى دفعت آلاف المسيحيين من الغرب ، للمضى إلى تأدية الحج إلى الأرض المقدسة ، كل هذه النزعات اجتمعت واندمجت ، ليتألف منها ما يعرف بالحرب الصليبية الأولى . فكأن الحرب الصليبية نجمت عن اختلاط وامتزاج عوامل عديدة ، اشتد نشاطها فى الغرب ، وتتمثل فى العاطفة الدينية ، والسعى وراء الغنيمة ، مثلما فعل التجار الإيطاليون ، والمغامرون من المقطعين ، والرغبة فى الحصول على امتيازات تجارية[١] .

وما حدث من انفصال شمال افريقية ، زمن الزيريين ، عن مصر الفاطمية ، لا شك أنه أثر فى التجارة بين الإقليمين ، وأضعف مكانة التجار المغاربة ونشاطهم فى البحر المتوسط[٢]. ودمر الهلالية فى منتصف القرن الحادى عشر السهول الخصيبة الممتدة من قابس إلى بونه، وتوقف طريق القوافل الذى يربط سبتة بالإسكندرية ، وتداعت تجارة المغرب البحرية ، وما تبقى منها صار فى أيدى الإيطاليين . وتدل المعاهدة التى انعقدت بين روجر أمير صقلية وتميم أمير الزيريين ، سنة ١٠٧٥ ، على انتظام التجارة بين افريقية وصقلية[٣] .

الواقع أن ما اشتهرت به مصر من الرخاء والثروة ، زمن الطولونيين

---

(١) Munro : The Kingdom of the Crusaders. New york 1936. pp. 30-35

(٢) Lewis : Naval Power and Trade Routes in the Mediterranean p. 242.

(٣) Lewis : op. cit. p. 243.

والإخشيديين أسهم فى ازدياد النشاط الاقتصادى أوائل عهد الفاطميين ، إذ أشار المقدسى سنة ٩٨٧ ، إلى مكانة القاهرة ، التى لم يمض على إنشائها وقتذاك إلا سنوات قليلة ، بأنها أضخم حواضر الشرق الأوسط وأكثرها أهمية[١] . ومما وصف به ناصرى خسرو ، الرحالة الفارسى ، القاهرة حوالى منتصف القرن الحادى عشر أن بها عشرين ألف حانوت ، تملكها الحكومة ، والأوانى الفخارية والزجاجية الرائعة[٢] ، وبرغم ما ساد بالشام ، زمن الفاطميين ، من اضطراب ، وما تعرضت له من الغارات الخارجية ، فإنها بلغت من الرخاء والثروة ما بلغته مصر[٣] .

ونشطت أيضاً تجارة مصر مع الجنوب والشرق . إذ كانت عدن الميناء الذى تجتمع فيها تجارة المحيط الهندى ، إلى الهند والصين . وامتد نشاط التجار إلى اثيوبيا وزنزبار[٤] .

أما تجارة البحر المتوسط ، المستمدة من مصر والشام فإنها لازالت زاهرة . ارتبطت الإسكندرية بعلاقات تجارية مع صقلية والقسطنطينية ، وتردد إلى طرابلس التجار الأجانب من بيزنطة ، والأندلس ، وصقلية وغرب أوربا . فكان الأسطول التجارى الفاطمى يبحر من طرابلس ، إلى القسطنطينية وصقلية وشمال أفريقية[٥] . وكان البنادقة والأمالفيون من أنشط تجار غرب أوربا ، فى علاقاتهم التجارية مع الفاطميين ، فحمل البنادقة إلى مصر ما افتقرت إليه من الأخشاب والحديد والأسلحة ، وجلبوا معهم من مصر التوابل والمنسوجات وأدوات الترف[٦] .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم — نشر دى غويه ، ص ٤٧ .

(٢) Wiet : L' Eqypte Arabe p. 203-204.

(٣) Lewis : op. cit. p. 207.

(٤) Wiet : op. cit. p. 306.

(٥) Wiet : op. cit. p. 308.

(٦) Lewis : op. cit. p. 208.

وما حدث حوالى منتصف القرن الحادى عشر ، من تداعى البحرية الإسلامية ، وتراخى سيطرتها على البحر المتوسط ، وتجدد البحرية البيزنطية ، وظهور الجنويين والبيازنة وغيرهم من الغربيين ، إنما آذن بما حدث فيما بعد . ومع ذلك فإن الرخاء الاقتصادى فى منطقة البحر المتوسط والبحر الأسود ، لم يتأثر بما جرى من التغير فى أوضاع القوى البحرية ، بل ازدادت الثروة ، وتوافر الرخاء ، وأفاد من ذلك البيزنطيون ، والمسلمون ، والورنك بجنوب روسيا ، وشارك فى هذا الرخاء معظم جهات ايطاليا ، فنمت تجارة البندقية وأمالفى . أما غرب أوربا ، فإنه لم ينهض إلا آخر الأمر ، فدخل فى نطاق تجارة البحر المتوسط ، بما أسهمت به أساطيل جنوه وبيزا فى جعل طرق وادى الرون وممرات الألب مفتوحة ، فتيسر بذلك نقل المتاجر من وسط أوربا[1] .

---

(١) Lewis : Naval Power and Trade in the Mediterranean. p. 224.

الفصل الرابع

مؤتمر كليرمونت

الواقع أنه من العسير أن نفصل بين العوامل المادية والعوامل الأدبية التى دفعت المسيحيين إلى الحروب الصليبية ، فالفقر ، والرغبة فى الكسب ، وروح المغامرة ، إنما تهيئ الجو المناسب للحروب الصليبية ، غير أن هذه العوامل لم تظهر إلا بما نجم عن فكرة الحرب المقدسة وتخليص الأرض ، من الحماس الدينى : والواضح أن فكرة الحرب المقدسة ، نبتت من السياسة البابوية ، وسياسة الدولة البيزنطية ، والحروب الأسبانية ، والحج[1] .

نشط الحج فى القرن الحادى عشر ، وتزايد عدد الحجاج فى الشطر الثانى من القرن الحادى عشر : وترجع أسباب شكوى الحجاج من سوء المعاملة التى خصوا بها الترك ، إلى أن زعماء الترك لم يعقدوا مع بيزنطة معاهدة ، يصح أن تكفل الأمن والسلامة للحجاج ، وإلى ما ساد بلاد الشام من الفوضى والاضطراب ، أثناء حكومة ملك شاه ، التى لم يطل أمدها . وما التمسوه لذلك من الدليل ، يتمثل فيما أصاب السكان من الفقر ، وانتشار الفساد ، وتحول الكنائس إلى مساجد ، واتهام أرتق حاكم بيت المقدس بما أحدثه من ثقوب فى عقد كنيسة القيامة ، فنمت الفكرة ، بأن الأمن والسلام ، لن يستقر إلا بطرد الترك .

والمعروف أن شن الحرب على الترك كان من الأغراض التى تنطوى عليها الدعوة البيزنطية . فالأناضول يعتبر أكثر أهمية من بيت المقدس ،

---

(١) Cahen : La Syrie du Nord a l' epoque des Croisades p. 198.

عند الدولة البيزنطية . ولم يحصل الحجاج والتجار الفرنج على شيء من الشرق إلا عن طريق بيزنطة ، وكانت بيزنطة فى حاجة ماسة إلى الأمداد ، واعتبرت أن ضعفها يعتبر ضعفا للعالم المسيحى . ولذا وجه الإمبراطور ميخائيل السابع ، عقب معركة مانزيكرت ، رسالة إلى البابا جريجورى السابع ، يطلب إليه بذل المساعدة ، مقابل اتحاد الكنيستين ، الشرقية والغربية . وكرر الكسيوس الطلب ، حينما التقى بالقسطنطينية سنة ١٠٨٧ ، بروبرت كونت فلاندر ، والواضح أنه لم يقصد من هذا الطلب سوى أن يحصل على جند مأجورة ، أو ينهض لمساعدته حلفاء ينحازون بجيوشهم إلى الجيش البيزنطى ، ويخضعون لأوامره[١] .

وأرسل البابا جريجورى السابع إلى الإمبراطور ميخائيل السابع ، رداً مرضيا ، بدافع العاطفة المسيحية من جهة ، ولسبب سياسى من جهة أخرى . فما يحشده البابا من جيش ، سوف يقضى على الانشقاق بين الكنيستين ،ويزيد من نفوذ البابوية فى الشرق مثلما زاد فى الغرب . غير أن الحرب التى نشبت بين جريجورى السابع والإمبراطور هنرى الرابع ، منعته من المضى فى مشروعه[٢] .

على أن ايربان الثانى ، الذى ولى البابوية ، بعد جريجورى السابع ، استجاب أيضا لدعوة الإمبراطور الكسيوس . غير أن ما اتخذه من خطة ، اختلفت عن كل الحملات السابقة التى جرى توجيهها ضد المسلمين ، فأصدر تشريعا خاصا ، لمصلحة الصليبيين ، ومن جهة أخرى ، جعل حملة الغرب المسيحى تحت إشراف البابوية ، لخدمة أغراض خاصة ؛ فلم يشأ أن يجعل نفسه فى خدمة الدولة البيزنطية ، بل أراد أن تتولى البابوية تقديم المساعدة للمسيحيين فى الشرق . وهذا التغيير فى الفكرة ،

---

(١) **Cahen : La Syrie du Nord. p. 199.**

(٢) **Cahen : La Syaie du Nord p. 199.**

يؤدى إلى أن يحشد العالم المسيحى اللاتينى جيشا ضخما ، لا أن يبعث بجنود مرتزقة تخضع لأهواء الأمراء . والخلاصة أنه حدث انقلاب فى الاتجاه ؛ إذ أن الكسيوس أراد أن تكون الحرب بيزنطية ، يؤازرها الفرنج ، على حين أن البابا أرسل إليه حملة رومانية ، لم تكن مصلحة بيزنطة فيها ، برغم أهميتها ، سوى مرحلة انتقالية . وأثار هذا الاختلاف فى التفكير ، من المتاعب منذ البداية ، ما أساء إلى العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين[١] .

ويسر أمر الحرب الصليبية ، ما درج عليه النبلاء الفرنسيون من المضى فى قتال المسلمين باسبانيا ، ومن الطبيعى أن تؤثر هذه العـادة فى الحالة النفسية التى اقترنت بتوجيه الحرب الصليبية إلى الشرق . ففى أسبانيا اتخذ القتال صفة الحرب المقدسة سواء من جهة المسلمين ، حيث أثار المرابطون « الجهاد الدينى » ، أو من جهة المسيحيين حيث قام الكلونيون بالجانب الأكبر من إنفاذ الجيوش المسيحية إلى أسبانيا لقتال المسلمين ، والمعروف أن البابا ايربان الثانى ، من الكلونيين . ولم يكن الأثر العام للحرب بأسبانيا ، خضـوع المسلمين ، بل وقف تقدمهم أو ردهم ، كيما يحل مكانهم المسيحيون ، ورأى المسيحيون أن هذا الأمر أضحى قريب الوقوع[٢] . هذه كانت منذ البداية فكرة الصليبيين ولا سيما البروفنساليين ، الذين تزعمهم ريموند الصنجيل ، واشترك فى الحرب الاسبانية[٣] .

وما بذله من جهود ، بوهمند فى معرة النعمان ، وتانكرد فى بيت المقدس ، لتجنيب المسلمين الدمار والقتل ، يدل على أن النرمان بإيطاليا ، اختلفوا فى تقاليدهم عن سائر المسيحيين . فعلى الرغم من أنهم ظلوا زمنا طويلا يقاتلون المسلمين ، غير أنهم لم يعملوا على طردهم ، ولم يحل

---

(١) Cahen : La Syrie du Nord p. 200.

(٢) Ibid : p. 200.

(٣) Cahen : La Syrie du Nord p. 200.

المسيحيون إلا بالجهات اليونانية ، ومع ذلك فإن ما تعرض له جنوب إيطاليا من الخراب والدمار بسبب الحروب ، لم يؤد إلى كثرة عدد السكان فى هذه الجهات . ومن تبقى من المسلمين ، احتفظوا بأنظمتهم : واشتهر النرمان بالتسامح والميل إلى التعاون والمشاركة ؛ ولم يعتنقوا الفكرة المسيحية إلا فى وقت متأخر ، وذلك لأسباب سياسية خالصة : على أنه ينبغى ألا نسرف فى تقدير الفروق بين الصـــليبيين ، إذا قرب بينهم ما اشتركوا فيه من حياة يومية ، وما خضعوا له من أحوال ، فى الشام[1] .

المعروف أن البابا ايربان الثانى ، هو أول من بشر للحرب الصليبية فى مجمع كليرمونت الذى انعقد فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ ؛ على الرغم من أن البابا سبق ، على حد رأى فريق من المؤرخين ، أن دعا إلى هذه الحروب ، فى مجمع بياكنزا ، الذى انعقد فى نفس السنة ، فى تاريخ سابق لزمن انعقاد مجمع كليرمونت[2] .

وما لجأ إليه البابا جريجورى السابع ، من قبل ، من اتخاذ فكرة مد الحرب المقدسة إلى الشرق ، والنهوض لمساعدة الدولة البيزنطية ضد الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، إنما تؤدى إلى اتحاد الكنيستين تحت زعامة بابا روما[3] . وما اشتهر به جريجورى فى سياسته من الصلابة والشدة ، أوقعه فى مشاكل مع هنرى الرابع أمبراطور ألمـــانيا ، ومع النرمان فى جنوب إيطاليا ، واضطراره آخر الأمر إلى مصالحتهم ليدرأوا عنه الخطر الألمانى ، وإعلان رضاه عن حملة روبرت جويسكارد

---

(١) Cahen : La Syrie du Nord. p. 201.
Lopez : The Norman Conquest of Italy p. 66-67.

(٢) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont p. 220.

(٣) Runciman : History of the Crusades, I. p. 99.

التى عزم على توجيهها إلى غزو الأملاك البيزنطية فى البلقان ، كل ذلك أدى إلى وقوع القطيعة بين جريجورى والإمبراطور الكسيوس ، الذى ولى عرش بيزنطة سنة ١٠٨١ ، وأضحى جريجورى من ألد أعداء الكسيوس(١) .

وتحطمت آمال البابا جريجورى السابع فى اتحاد الكنيستين ، بعد أن دفعته الضرورة السياسية إلى أن يتحالف مع النرمان . ومع ذلك فإن ماحدث سنة ١٠٨٥ من وفاة البابا جريجورى السابع وروبرت جويسكارد ، لطّف حدة التوتر ، وجاز أن يحل التفاهم بين الشرق والغرب . وعلى الرغم من جهود البابا ڤيكتور الثالث فى إقامة علاقات ودية مع الإمبراطور الكسيوس ، فإن ارتكانه إلى مساعدة النرمان ، منعته من استعادة مكانة البابوية . ولما تولى البابوية ، سنة ١٠٨٨ ايربان الثانى ، أضحى من واجبه أن يرفع من شأن البابوية ، وأن يقيلها من عثرتها(٢) .

ينتمى أودو (البابا ايربان) ، إلى أسرة فرنسية نبيلة ، فى ريمس . ارتقى ، بعد أن تلقى التعليم الدينى ، فى سلك الوظائف الدينية ، فصار قسا ، ثم رئيسا للشمامسة ، ثم صار من رهبان دير كلونى ، وبناء على توصية مقدم دير كلونى ، دخل فى خدمة البابا جريجورى السابع ، الذى جعله أسقفا كاردينالا فى أوستيا ، وأنفذه مندوبا بابويا إلى ألمانيا ، فبقى بها حتى وفاة جريجورى . وساند ڤيكتور الثالث البابا الجديد ، على الرغم من أن هذا البابا لقى معارضة من سائر المصلحين الكلونيين ، لأنه لم يكن من المتحمسين لخطة جريجورى فى الإصلاح ؛ على أن ڤيكتور رشح ايربان كيما يخلفه على كرسى البابوية . والواقع أنه ما من أحد سوى

---

(١) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont p. 225.

(٢) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont. p. 225.

ايربان يستطيع أن يعيد للبابوية مكانتها وهيبتها . لم يشتهر ايربان بما عرف به جريجورى من الصلف والعناد ولم يشأ أن يثير من الجدل والنقاش مايؤدى إلى النضال والكراهية[١] .

تولى ايربان إرثا شاقا ، فلم يعترف به سوى خمسة أساقفة من الألمان ، وسيطر على شمال إيطاليا ووسطها أنصار البابا كلمنت الثالث ، الذى فرضه هنرى الرابع إمبراطور ألمانيا ، وأيد أهل روما حركة الانفصاليين ، نظرا لما تعرضت له مدينتهم من النهب على أيد النرمان ، ولذا لم يتيسر للبابا ايربان أن يحتل كرسى البابوية ، ولم يشأ أن يستخدم القوة للاستيلاء على المدينة ، فكان يتردد إليها من حين إلى آخر ، غير أنه ظل معظم السنوات الخمسة الأولى من بابويته ، يطوف بأنحاء أبوليا وكالابريا ، حيث اطمأن إلى حماية النرمان ؛ وأنس إلى روجر ، كونت صقلية ، وشقيق روبرت جويسكارد[٢] .

بادر البابا ، بعد أن اطمأن إلى نوايا روجر ، بأنه لن يهاجم أملاك الدولة البيزنطية ، وإلى التفاوض مع الإمبراطور البيزنطى ، فى تسوية المنازعات بين الكنيستين الشرقية والغربية ، بأن يكون للاتين فى الإمبراطورية من حرية العبادة مثلما كان لليونانيين الأملاك النرمانية ، يضاف إلى ذلك أن البابا ايربان رفع ١٠٨٩ قرار الحرمان عن الكسيوس ، بينما حرم عدوه نقفور الثالث[٣] .

---

(١) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont p. 225.
Runciman : History of the Crusades I. p. 100-101

(٢) Ibid : op. cit. p. 101.
Gay: Les Popes du XIe ssicle pp. 326-328.

(٣) Duncalf : op. cit. p. 226.
Runciman : op. cit. I. p. 102.

الواقع أن ايربان ارتاح لما أحرزه من نصر دبلوماسى ، لما ترتب عليه من تغير فى السياسة البيزنطية فى الغرب . فطالما كان النرمان مصدر خطر على بيزنطة ، حرصت الدولة البيزنطية على أن تثير أمامهم المتاعب فى إيطاليا ، بما تبذله من المساعدة للإمبراطور هنرى الرابع . يضاف إلى ذلك أنه متى ظل التحالف قائما بين بيزنطة والإمبراطور الألمانى ، ازداد أمل كلمنت الثالث فى أن يحصل من بيزنطة على الاعتراف ببابويته : فتغير كل هذا التدبير ، بما لجأ إليه ايربان ، من بث الاطمئنان فى نفوس البيزنطيين من جانب النرمان ، وبذا يستطيع ايربان أن يتغلب على خصومه إيطاليا بما يحصل عليه من تشجيع وعطف الإمبراطور البيزنطى[١] .

وعلى الرغم من أن الكسيوس بعث بالرسائل إلى البابا ، يطلب منه المساعدة الحربية ، مثلما أرسل إلى أمراء الغرب ، ولا سيما روبرت كونت فلاندر ، فالراجح أن البـــابا لم يحاول ، قبل مجمع بياكنزا المنعقد سنة ١٠٩٥ ، أن يبذل المساعدة للإمبراطور البيزنطى ، بعد أن يقضى على محاولات الانفصاليين ، ويعيد النفوذ البابوى فى الغرب[٢] . حاول ايربان أن يكسب ود ومساعدة كبار رجال الكنيسة ، بأن لطف من صرامة الخطة الإصلاحية فى بعض الأمور ، وأحرز سنة ١٠٩٣ نصرا دبلوماسيا ، بتشجيع كنراد على الثورة ضد أبيه هنرى الرابع[٣] . ولما تبين للبابا ايربان ، ما أصاب نفوذ الإمبراطور من التداعى فى إيطاليا ، وبفضل ما بذله من الأموال ، استطاع أن يمضى عيد الميلاد من تلك السنة فى روما ، وفى الخريف الثانى ١٠٩٤ ، اتخذ مقره فى اللاتران[٤] .

---

(١) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont. p. 227.

(٢) Ibid : Loc. cit.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 101.

(٤) Ibid : Loc. cit.

وبفضل ما اشتهر به ايربان من المهارة فى الإدارة والتنظيم ، أخضع لنفوذه كنيسة فرنسا ، وساد نفوذه وسلطانه فى اسبانيا ، وأخذت البلاد النائية فى أوربا تعترف بسلطته الروحية . وأظهر مع الأمراء العلمانيين فى كل مكان ، من الصبر وقوة الاحتمال ما تجاوز كل الحدود ، فأضحى ايربان ، سنة ١٠٩٥ السيد الروحى للعالم المسيحى فى الغرب[١] .

وفى أوائل سنة ١٠٩٥ ، توجه ايربان الثانى ، من روما ، نحو الشمال ، ودعا ممثلى كل الكنيسة الغربية لحضور أول مجمع ينعقد فى زمن بابويته ، فى مارس سنة ١٠٩٥ ، فى بياكنزا ، بإيطاليا ، للنظر فى أمور كنسية كالسيمونية وزواج القسس ، وفى خطة الإصلاح التى وضعها جريجورى السابع وإنكار أعمال الانفصاليين . ومن الدليل على زيادة نفوذ ايربان وارتفاع شأنه ، أن شهد المجمع عدد غير قليل من كبار العلمانيين ، أمثال الإمبراطورة باراكسيدس Paraxedis التى قدمت للتشهير بزوجها هنرى الرابع ، بعد أن أهملها وافترق عنها ، وقدم أيضا مندوبون من قبل كنراد ، لتدبير أمر اجتماع كنراد بالبابا ، واعتبر بطرس ملك أرجون نفسه من أتباع البابا ، وتعاهد بدفع جزية سنوية . وجاء ممثلون من قبل فيليب ملك فرنسا ، يحاولون تبرئته من تهمة الزنا ويطلبون رفع قرار الحرمان عنه[٢] .

ومن الذين شهدوا هذا المجمع ، رسل من قبل الإمبراطور الكسيوس . فعلى الرغم من أن قوة السلاجقة أخذت تتداعى ، وأن الإمبراطور البيزنطى حاز انتصارات عليهم ، فإنه احتاج إلى جيوش من الغرب ، يتولى توجيهها لقتال السلاجقة فى الوقت المناسب . وما اتخذه الكسيوس من سياسة إزاء

---

(١) Gay : op. cit. pp.358-365.

Runciman : op. cit. I. p. 101.

(٢) Duncalf : op. cit. p. 229

Runciman : op. cit. I. p. 104.

البابوية يصح أن تثمر ، لو استطاع البابا بنفوذه أن يجلب له العساكر والجند من الغرب . والواضح أن مظاهر سياسة البابا ، حث فرسان الغرب المتنازعين ، على أن ينهضوا للقتال فى جهات نائية من أجل مسائل بالغة القداسة(١) .

الواقع أنه لم يجر الوقوف على شىء من أحاديث هؤلاء الرسل ، الذين جاءوا من قبل الإمبراطور البيزنطى ، غير أنه لا بد أنهم أشاروا إلى ما يعانيه المسيحيون من متاعب ، أثناء سيرهم إلى الشرق لزيارة الأماكن المقدسة ، كما يحملوا المسيحيين على التطوع لقتال السلاجقة فى الشرق ، وللدفاع عن الكنائس الشرقية التى تقع فى البلاد الخاضعة لهم ، والتى تعرضت للدمار ، بل إن التخريب امتد حتى بلغ أسوار القسطنطينية(٢) . وإذ خاطب البابا الجمع الذى احتشد خارج المدينة ، لأن الكنيسة ضاقت به ، حث الحاضرين على أن يبذلوا كل ما فى وسعهم من مساعدة صادقة للإمبراطور(٣) . هذه الإشارة توحى بأن البابا ايربان الثانى إنما دعا إلى الحروب الصليبية فى مجمع بياكنزا ، والواقع أن ايربان لم يفعل أكثر مما اقترحه جريجورى السابع من قبل ، ومع ذلك فإن فكرة الحرب الصليبية ، بمعناها الشامل ، لا بد أنها خطرت وقتئذ على بال البابا ايربان ، ولم يفصح عنها إلا فى مجمع كليرمونت الذى انعقد فى نوفمبر سنة١٠٩٥(٤) .

---

(١) Ibid : Loc. cit.

(٢) Duncalf : op. cit. p. 229.
Runciman : op. cit. I. p. 104.

(٣) Munro : The Speeh of Pope Urbsn II.
American Historical Review. XXVII (1922) pp. 731-733.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 3.
Fliche, A. "Urbain II et la Croisade" Revue de L' Histoire de L' eglise de France XIII (1927) pp. 289-293.

قدم البابا ايربان الثانى إلى فرنسا فى أواخر الصيف ، سنة ١٠٩٥ ، فبلغ لى بوييه **Le Puy** فى أغسطس . ومنها بعث برسائل إلى أساقفة فرنسا والبلاد المجاورة ، يطلب إليهم الاجتماع به فى كليرمونت فى نوفمبر سنة ١٠٩٥ ؛ ومن أهم المواضع التى زارها دير كلونى فى برجنديا ، إذ كان من رهبانه ، فدشن المذبح الذى شرع رئيس الدير فى عمارته بالباسيليقا الكبيرة ، ثم توجه إلى كليرمونت ، استعداداً لعقد المجمع (١) .

واهتم ايربان أثناء مسيره بأمور كنيسة فرنسا ، فأجرى ما يلزم من التنظيم والإصلاح ، ووجه من اللوم والتقريع والمديح ، ما تقتضيه الأحوال ، ولعل أسفاره بفرنسا ، أفادت فى تبلور فكرة الحرب الصليبية فى ذهنه . غير أننا لا نعلم ما إذا كان ايربان ، التقى أثناء رحيله ، بريموند كونت تولوز ، وماركيز بروڤانس ، الذى اشتهر وقتذاك بقيادة الحرب المقدسة فى اسبانيا ، فلعله اتصل به ووقف على تجاربه . وفى كلونى تحدث إلى أناس اهتموا بطريق الحجاج إلى كومبوستيلا وبيت المقدس ، ووقف منهم على ما عاناه من الصعوبات والمشاق ، الحجاج إلى فلسطين ، وعلى ما أصاب سلطة الترك بها من وهن وانشقاق . ولم يعلم فحسب أن مسالك آسيا الصغرى موصودة فى وجه المسيحيين ، بل إن الأرض المقدسة ذاتها ، لم يعد الوصول إليها أمراً هيناً (٢) .

---

(١) **Runciman : op. cit. I. p. 106.**

(٢) **Runciman : op. cit. I. pp. 106-107.**

الواقع أن كلا من الإمبراطور البيزنطى والبابا ، التمس لتبرير وجهة نظره ، ما حدث منذ سنوات عديدة ، تزيد على عشرين سنة ، سابقة لتاريخ انعقاد مجمع كليرمونت ، من أعمال العنف التى ارتكبها فى بيت المقدس اتسيز (١٠٧٦ - ١٠٧٧) وارتق ، أثناء انتزاعها من أيدى الفاطميين ، وما تعرضت له الأملاك البيزنطية ، حوالى ذلك الوقت ، من الإغارات السلجوقية والتركمانية . انظر .

Chronique de Michel le Syrien Trad. Chabot. III. & Grousset : op. cit. I. p. 3.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٦ ، ٦١ ، ٦٨

الواضح أن ايربان كان يعلم شيئاً كثيراً عن الحرب المقدسة ، قبل أن يغادر فرنسا للدخول فى خدمة البابا جريجورى السابع ، ولا شك أنه اهتم بما كان يجرى فى اسبانيا من الحرب ضد المسلمين ، بل إنه ، فى سنة ١٠٨٩ ، بعد أن صار بابا كفل الخلاص لكل من يسهم فى عمارة معقل تراجونه Tarragona ، فينال بذلك ثواب الذين يؤدون الحج فى بيت المقدس أو غيره من المواضع المقدسة[١] . ومن الدليل على أن إيربان ابتكر فكرة الحرب الصليبية ، وإعداد حملة تخضع لسلطانه وأوامره ، حرصه على أن يثير ، قبل انعقاد مجمع كليرمونت ، اهتمام الناس بسلامة المسيحيين فى الشرق ، قبل أن يختار كبار القادة العلمانيين ليتولوا أمر الحملة التى فكر فى إعدادها وتنظيمها[٢] ؛ فكان فى حاشيته دايمبرت ، رئيس أساقفة بيزا ، الذى صار فيما بعد بطريركا لبيت المقدس وفئة من كبار رجال الكنيسة ، يبذلون له النصح فيما يختصون به ، ولما حل بكنيسة لى بوييه Le Puy ، اجتمع بأسقفها أدهيمر ، الذى اشتهر بمهارته فى الفروسية ، وبإجادة استخدام الأسلحة وحماية كنيسته من أطماع السادة المجاورين ، وبأنه ، على حد بعض الروايات ، قام بالحج إلى بيت المقدس . وما حدث بعد ثلاثة شهور من اختيار أدهيمر مندوبا للبابا فى الحملة الصليبية الأولى ، دلَّ على أن هذا الاختيار لم يقع إلا بعد التشاور فى لى بوييه[٣] . وما اشتهر به ريموند كونت تولوز من النفوذ واتساع ملكه ، واشتراكه فى الحرب الإسبانية ، وأنه من أشد الناس تعاونا مع البابوية ، كل ذلك يؤهله لأن يتولى قيادة الحملة ، غير أنه لم يرد من الأدلة ما يشير إلى ميل البابا إلى اتخاذ قائد من العلمانيين[٤] .

---

(١) Villey : La Croisade p. 69.

(٢) Fliche : "Urbain, II et la Croisade" Revue de L' histoire de L' eglise de France XIII (1927) pp. 296-299.

(٣) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont p. 234

(٤) Ibid : Loc. cit.

اختمرت فكرة الحرب الصليبية عند إيربان ، ولعله رأى أن يستشير ، عند قدومه إلى كلونى ، رئيس الدير ، غير أنه لم يتبين ما كان لرئيس الدير ، هيو ، من رأى فى وضع خطة الحرب الصليبية ، التى اقترحها إيربان . وكل ما هو معروف أن رئيس الدير صحب إيربان أثناء رحيله إلى كليرمونت ، كيما يسهر على راحة البابا ورفقائه[١] .

انعقد مجمع كليرمونت فى الفترة الواقعة بين ١٨ نوفمبر ، ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، شهده نحو ثلثمائة من رجال الدين . وعلى الرغم من أن هذا المجمع اقترن اسمه بإثارة الحرب الصليبية ، فإنه أفرد شطراً كبيراً من وقته وجهده ، للنظر فى أمور كنسيه ، كالقرارات التى صدرت ضد التقليد العلمانى ، والسيمونية ، وزواج القسس ، وقطع فيليب ملك فرنسا من الكنيسة لاتهامه بالزنا ، وحرمان أسقف كومبراى ، لما اشتهر به من السيمونية ، والاعتراف بصدارة كنيسة ليون ، على كنيستى سينز وريمس[٢] . ومن أهم القرارات التى صدرت ، والتى تتعلق بالحروب الصليبية ، القانون الذى يتعلق بهدنة الله ، والذى يعتبر إقراراً من البابا لحركة السلام ، التى لم تكن حتى وقتذاك سوى إجراء إقليمى . فعلى الرغم من اعتقاد البابا أن الحرب الصليبية سوف تنشر السلام فى أوربا الغربية ، فإن هذا السلام سوف يجعل الناس يقبلون على الاشتراك فى الحملة ، التى تنقلهم إلى جهات بعيدة فترة طويلة من الزمن . أما القانون الثانى ، الذى صدر بالمجمع ، وله أهميته فى الحرب الصليبية ، فإنه انطوى على الوعد بغفران الذنوب لكل من ينهض لاستخلاص كنيسة الله

---

(١) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont p. 236.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 106.

فى بيت المقدس . فإذا دفعهم الإيمان والإخلاص ، لا حب الشهرة وجمع المال ، فسوف تتخذ الرحلة مكانة التوبة والمغفرة[١] .

ولما أتم المجمع النظر فى الأمور الكنسية ، فى ٢٧ نوفمبر ، خرج إيربان إلى ظاهر المدينة ، وخاطب الجموع الذين لم تتسع الكنيسة لهم . واجتذب المجمع عدداً كبيراً من سكان الجهات المجاورة ، الذين قدموا كيما يستمعوا إلى البابا ، ويحظوا برؤية كبار رجال الكنيسة ، وبذا تهيأت الفرصة للبابا كيما يذيع خطته[٢] . عهد ايربان إلى رجال الدين لا إلى العلمانيين ، بالدعوة إلى الحرب الصليبية ، فحث الأساقفة ، عقب الفراغ من خطبته ، على أن يبشروا بالحرب الصليبية فى كنائسهم . وأضحى للحرب الصليبية من الجاذبية والاهتمام ، ما جعل الشهرة تلحق بكل موضع يتوجه إليه ايربان لنشر الدعوة الصليبية[٣] .

أورد أربعة مؤرخين ، شهدوا الاجتماع ، خطاب ايربان الثانى ، ومع ذلك لم تكن رواياتهم متطابقة ؛ فيشير أحدهم إلى أن ما أثاره البابا من الحماس بلغ الذروة ، عند هتاف الحاضرين بعبارة ، هكذا أراد الله Deus lo volt ، بينما أظهر الحاضرون موافقتهم ، عند مؤرخ آخر ، آخر ، بالدب بأقدامهم على الأرض ، على حين امتلأت عيون آخرين بالدموع ، وبذا اشتدت حرارة المناقشة . ثم أقبل ادهيمر ، فركع أمام البابا ، ونذر بالتوجه إلى بيت المقدس ، وتلقى بركات البابا ، وكل ذلك اتخذ من الصفة المسرحية ، ما يدل على أن هذا التدبير سبق

---

(١) Fliche : La Reforme grégorienne p. 283.

Chalandor : Premiere Croisade pp. 33-35.

(٢) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont p. 238.

انظر نص الخطبة فى :

Ziada : Select Docum ents of Medieval History pp. 179—182.

(٣) Duncalf : op. cit. p. 238·

إعداده . ثم أمر ايربان ، أولئك الدين يتوجهون إلى بيت المقدس ، بأن يطيعوا أدهيمر ، على أنه قائدهم . وطلب إلى الذين أقسموا على أن يشتركوا فى الحملة ، بأن يثبتوا على أكتافهم الصلبان ، للدلالة على أنهم أعلنوا عزمهم على أن يقتفوا أثر المسيح ، الذى قال لتلاميذه : « إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى » ،وبعد أن فرغ الناس من صلاة الشكر ، انصرفوا للتجهز للرحيل(١) .

وعلى الرغم من أنه لم يكن التطابق تاما بين المؤرخين الذين أوردوا خطبة ايربان ، فإن ما اتفقوا فيه ، من هذه الخطبة ، إنما يمثل الأفكار التى انطوت عليها خطبة البابا . يشير المؤرخ فولشر إلى أن البابا استهل خطبته ، بالإشارة إلى ما أصاب المجتمع من فساد ، فأنكر السيمونية ، وحث رجال الدين على أن يتحرروا من سيطرة العلمانيين ، وأصر على مراعاة هدنة الله . والخلاصة أن هذا لم يكن إلا استجابة لطلب المجمع بشأن إصلاح الكنيسة . وأشار فولشر أيضاً إلى دعوة البابا إلى توجيه الحملة إلى بيت المقدس ، عند توجيه الخطاب إلى أبناء الله ، الذين وعدوا بأن يزدادوا فى حرصهم على المحافظة على السلام بينهم أكثر من أى زمن مضى ، « وأن يخلصوا فى المحافظة على حقوق الكنيسة المقدسة ، بأنه لا زال ينتظركم عمل بالغ الأهمية ، تتجلى فيــه قوة إرادتكم الطيبة ، بما تؤدونه من واجب آخر ، يهم الله ويهمكم . فلا بد من أن تبادروا إلى بذل المساعدة لإخوانكم فى الشرق ، الذين احتاجوا لمساعدتكم ، التى طالما التمسوها »(٢) .

وكان يهدف من هذا الخطاب ، أن يحض المحاربين على أن يشتركوا

---

(١) انجيل متى : ١٦ : ٢٤ . Duncalf : op. cit. p. 239.
Runciman : op. cit. I. p. 108.

(٢) Krey : The First Crusade. pp. 24 - 45.

فى الحرب المقدسة وأن يجعل الأساقفة ورؤساء الأديرة بالمجمع ، يسهمون فى إثارتها . وطلب البابا إلى الفرنج أن ينهضوا لمساعدة المسيحيين الشرقيين فى الإمبراطورية البيزنطية ، لأن الترك بلغوا فى زحفهم ذلك الجزء من البحر المتوسط الذى أطلق عليه ذراع القديس جورج(١) .

على أن ايربان استهدف من الحرب أيضا مايعود من النفع على المسيحيين فى الغرب ، بالاستعاضة عن الحروب الداخلية ، بالاشتراك فى حروب خارجية « فليتحول أولئك الذين ظلوا زمنا طويلا لصوصا ، إلى أجناد للمسـيح ، وينبغى على أولئك الذين حاربوا اخوتهم وأقاربهم ، أن ينهضوا الآن لقتال المتبربرين »(٢) . دعا ايربان إلى حرب مقدسة لاستخلاص المدينة المقدسة ؛ التى غدت المرمى الذى يتوجه إليه الصليبيون ، وأصبح يعرف « برواد بيت المقدس » أولئك الذين سلكوا الطريق إلى القبر المقدس(٣) ؛

وأكثر ما يأمله الحجاج المسيحيون ، أن يتوجهوا إلى القبر المقدس ، ليؤدوا الشعائر والطقوس . ولم يكن الصليبيون إلا حجاجا محاربين ، ساروا ليفتحوا الطريق إلى بيت المقدس ، بعد أن أوصده فى وجوههم السلاجقة ، وليستردوا المدينة المقدسة(٤). لم يتخذ الحجاج من قبل ، السلاح أثناء سيرهم للحج ، أما عساكر المسيح milites Christi فأضحوا حجاجا قاموا بحرب هجومية ؛ ولعل ايربان وجد فى الحج خير وسيلة يتخذها لإرسال الجيوش إلى الشرق(٥) . وبذا هيأ البابا الفرصة لنوع جديد من الخدمة الدينية ،

---

(١) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont p. 242

(٢) Krey : "A Neglected Passage in the Gesta" Munro Essays pp. 57-78.

(٣) Duncalf : op. cit. p. 243

(٤) Duncalf : op. cit. p. 244.

(٥) Ibid : p. 245.

يحصل بمقتضاها الفرسان على مكاسب خلقيه وروحية ، دون أن يتخلوا عما ألفوه من القتال واللصوصية . ومن أهم الامتيازات الواردة فى قرارات مجمع كليرمونت ، بذل صكوك الغفران لكل من ينهض لتخليص بيت المقدس ، لا من أجل الشهرة والمال ، بل بدافع الإيمان[١] .

ولما كان الطريق إلى بيت المقـــدس طويلا ، ومحفوفا بالأخطار والمتاعب ، ولما أدركه البابا أن فورة الحماس لن تستمر طويلا ، فإن القسم بأن تؤدى الصلاة بكنيسة القيامة لم يكن الغرض منه ، سوى حمل « الصليبين » على المضى فى عملهم . ومن ناحية أخرى تحل « سيف النقمة » لكل من استبد به الجبن والضعف ، ونكص على عقبيه[٢] ، وتعرض بذلك للقطع من الكنيسة[٣] .

وكيما يقبل الناس على الاشتراك فى الحرب المقدسة ، وعدهم البابا بامتيازات دنيوية ودينية . فنظرا لأن الصليبين ليسوا إلا عساكر المسيح ، اشتبكوا فى حرب أقرتها الكنيسة ، لم يصبحوا فحسب تحت حماية الكنيسة ، بل إن الكنيسة تعاهدت بأن تبسط حمايتها على أسراتهم وأمتعتهم ، فلا يتعرض زوجاتهم وأطفالهم وأملاكهم لأخطار المجتمع الإقطاعى . وفى الجملة هذه هى هدنة الله التى أقرها مجمع كليرمونت ، غير أن البابا رأى تطبيقها على الصليبين لمدة ثلاث سنوات ، أثناء غيابهم[٤] . والواضح أن ايربان هو الذى ابتكر « امتيازات الصليب » . إذ طلب ايربان

---

(١) Ibid : p. 245.
Runciman : op. cit. I. p. 109.

(٢) Duncalf : Loc. cit.

(٣) Runciman : op. cit. I. p. 109.

(٤) Bridrey : La Condition Juridique des Croisés et le privilege de la Croix, pp. 8, 113, note 2.

بأنه ينبغى أن يجرى على أمتعة الصليبيين ، جند المسيح ، ما يجرى على أملاك الكنيسة ، من عدم الخضوع للسلطان الزمنى ، ويعتبر ذلك امتدادا للسلطة الكنسية . فجرى بذلك حرمان الحكام الزمنيين من كل ما يبذله لهم من الخدمات والأموال ، الأتباع الذين التحقوا بجيوش البابا ، أثناء خدمتهم فيما وراء البحار ، لفترة غير محدودة . والواقع أن الحرب المقدسة بلغت من الذيوع وإقبال الناس عليها ، أن الملوك والسادة الإقطاعيين لم يحتجوا على انتهاك حقوقهم الإقطاعية[1] .

فكأن البابا ايربان قدم إلى كلبرمونت ، وقد أعدّ خطة لحشد جيش ، يشن به الحرب المقدسة على أعداء المسيحية ، وهـذه الطريقة التى اتخذها لتجنيد الجيش ، أحرزت من النجاح ، ما حمل البابوات فيما بعد على أن يستخدموا هذه الطريقة عند إثارة الحروب الصليبية فى داخل البلاد وخارجها . ومن الملحوظ أننا لا نلمس فى هذه الطريقة ، أثرا لما سبق أن عرضه البابا جريجورى السابع ، فيعتبر ايربان مسئولا عن هذه الصورة الجديدة من الحرب المقدسة التى ابتكرها . ونظرا لأنه لم يستطع أن يصحب الحملة ، اختار الأسقف أدهيمر لينوب عنه فى قيادة الحملة ، وطلب إلى الذين يتوجهون معه ، أن يبذلوا لأوامره من الطاعة ما يبذلونه للبابا . ولم يرد من الأدلة ما يشير إلى أن البابا كان ينوى اختيار أحد العلمانيين كيما يتولى قيادة القوات الحربية ؛ التى عزم على تجنيدها . والمعروف أن المندوب البابوى ، كان أسقفا فارسا ، قاد رجاله إلى المعركة . على أن ما حدث من ارتباط أدهيمر بجيش بالغ الضخامة ، كالذى يقوده ريموند كونت تولوز ، أعظم سادة فرنسا ، وما شاع من أن ريموند نذر بأن يسير إلى بيت المقدس ، كل ذلك حمل ايربان على

---

(١) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont p. 249.

التأكد من أن حملة صليبية يجرى تجهيزها[١] . ولعل ايربان لم يدرك أن تبشيره وما أعلنه من دوافع دينية ، سوف ينجم عنها حركة عامة ، ولعله لم يتوقع ما صادف أدهيمر من عقبات فى سبيل السيطرة على القادة العلمانيين[٢] . وكيفما كان الأمر ، فإن ايربان طلب إلى الفلمنكيين الذين يرغبون فى الرحيل ، أن يلحقوا بقوات ادهيمر ، قبل أن يحل زمن الرحيل . ومن الدليل أيضاً على اعتبار أدهيمر القائد العام للحملة ، أنه لما مات فى أنطاكية ، كتب القادة إلى ايربان يطلبون إليه القدوم لينجز حربه ، فلا شك إذن فى أن هذه الحرب المقدسة ، هى حرب ايربان[٣] . وأشار ايربان فى خطابه إلى أنه لابد لكل إنسان أن يستعد لمغادرة موطنه ، فى عيد العذراء (١٥ أغسطس) فى السنة التالية ، بعد أن يتم جمع المحصول ، وحدد القسطنطينية موضعا للاجتماع[٤] .

بقى ايربان فى فرنسا ما يزيد ثمانى شهور بعد انفضاض مجمع كليرمونت ، فقام بزيارة أديرة كلونية عديدة ، وقضى عيد الميلاد فى ليموج حيث دعا فى الكاتدرائية إلى الحرب الصليبية وعقد فى تور مجمعا ، كالذى عقده فى بيا كنزا وكليرمونت ، وألقى خطابه على الجموع التى احتشدت فى الهواء الطلق ، فحثهم على أن يتوبوا ويستغفروا ، ويتوجهوا للحرب الصليبية[٥] . وما يتعلق بالحرب الصليبية من إشارات ، فى المجمع الذى

---

(١) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont p. 250

(٢) Fliche : Urbain II et la Croisade p. 203.

(٣) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont p. 250.

(٤) Runciman : op. cit. I. p. 109.
Chalandon : Premiere Croisade pp. 44-46.

(٥) Runciman : op. cit. I. p. 116.
Duncalf : op. cit. p. 250.

انعقد فى يوليه ، فى نيم Nimes ، أن ايربان ، التقى فيما يبدو ، بهذا الموضع ، بريموند كونت تولوز . ومع ذلك ، فالواضح أن ايربان اتخذ هذه المجامع ، كيما يثير فيها الحماس لمشروعه ويحض على الاشتراك فيه ، فأينما سار ، حاول حث الناس على المسير إلى بيت المقدس وتخليصها من أيدى الترك[1] . الواقع أن البابا أمضى هذه الفترة الطويلة فى الاجتماع برجال الكنيسة ، وكتابة الرسائل ، والسعى لاستكمال إصلاح الكنيسة بفرنسا ، وأكثر من ذلك واصل خططه عن الحرب الصليبية ، فبعث إلى أساقفة الغرب ، رسائل تتضمن قرارات مجمع كليرمونت . وانعقدت أحيانا مجالس اقليمية ، شهدها الأساقفة ، واتخذت قرارات . وأنفذ من قبل أساقفة ورؤساء أديرة ، مندوبين إلى الكونتات والدوقات ، لدعوتهم لاتخاذ الصليب ؛ ونزل أثناء طوافه بأديرة فى مواضع عديدة ، أخذ يناقش بها الحرب الصليبية ، وأرسل مندوبين إلى بعض الجهات للتبشير والدعوة إلى التوجـــه إلى بيت المقدس ، وكتب من ليموج إلى سائر المؤمنين فى الفلاندر يسألهم التأييد . وبينما كان فى نيم ، يوليه سنة ١٠٩٦ تلقى رسالة من الملك فيليب ، يعلن فيها إذعانه لما تقرر بشأن جريمة الزنا التى ارتكبها ، والراجح أنه أعلن أيضا اشتراك أخيه هيو فرماندوا فى الحرب الصليبية[2] . وفى هذا الشهر أيضا تنازل الكونت ريموند عن كثير من أملاكه إلى دير سان جيـــل ؛ وورد فى وثيقة عن منحة ترجع إلى هذا الزمن ، ما يشير إلى عزم ريموند على المسير إلى بيت المقدس[3] .

---

(١) «Ubicumque fuit praecepit cruces facere hominibus et pergere Jerusalem et liberare eam a Turcis et aliis gentibus." quoted by Crozet : op. cit. p. 272.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 111.

(٣) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont p. 252.

والراجح أنه بناء على نصيحة ريموند ، رأى البابا ايربان الثانى أنه لابد من الحصول على مساعدة من دولة بحرية ، كما يضمن تموين الحملة . فبعث من قبله أسقفين إلى جنوه ، فأحرزا فى تبشيرهما من النجاح ، أن عدداً كبيراً من الأعيان اتخذ الصليب ، وأعدت المدينة (جنوة) أسطولا ، مؤلفاً من ١٣ سفينة ، لنقل الصليبيين غير أنه لم يقلع إلا فى يوليه سنة ١٠٩٧ ، بعد أن تأكدت من جدية الحركة الصليبية(١) .

ولما عاد البابا ايربان إلى إيطاليا ، كان مطمئنا إلى ما صادف خطته من نجاح ، إذ استجاب لدعوته ، واتخذ الصليب ، سائر الناس ، من أقصى الشمال ، من اسكتلنده ودنمرقة إلى أقصى الجنوب ، فى اسبانيا . فلجأ بعضهم إلى رهن الأراضى والأملاك ، للحصول على المال اللازم للرحيل ، بينما نزل آخرون للكنيسة عن كل ما يملكون ، للاعتقاد بأنه لا أمل لهم فى العودة إلى أوطانهم . واشترك فى الحرب الصليبية عدد كبير من السادة والنبلاء ، كما يعطوها تأييداً عسكرياً قوياً . فإلى جانب ريموند كونت تولوز ، وهيو فرماندوا ، تأهب للمسير كل من روبرت الثانى كونت فلاندر وروبرت دوق نرمنديا ، وصهره ستيفن كونت بلوا . ومن الملحوظ أن ارتبط بالحملة ، فئة وثيقة الصلة بالإمبراطور هنرى الرابع الألمانى ، ومن أشهرهم جودفرى بويون دوق اللورين الأدنى ، الذى اتخذ الصليب مع أخويه يوستاس ، كونت بولونيا وبلدوين . والتف حول هؤلاء القادة كثرة من صغار النبلاء ، وقلة من كبار رجال الكنيسة مثل أسقف بايو(٢) .

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 111-112.

Grousset : op. cit. I. p. 4

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 112.

الفصل الخامس

الحرب الصليبية الأولى

حينما أعلن البابا ايربان خطته عن الحرب المقدسة ضد المسلمين فى الشرق ، لاستعادة كنيسة القيامة (القبر المقدس) ، وجه نداءه إلى فئة المحاربين ، ولم يختص بالغفران والرضى فيما يبدو ، سوى الذين يتخذون الطريق إلى بيت المقدس ، أو يهلكون أثناء محاولتهم[1] : على أن جموعا من غير المحاربين ، من الحجاج ، أثارهم الحماس إلى أن يرحلوا فى إثر القوات المسلحة إلى البلاد المقدسة . ولما أدرك ايربان أن هؤلاء القوم ، سوف يعوقون سير الحملة ، حاول أن يثنيهم عن الرحيل . ففى كتابه الذى وجهه فى سبتمبر ١٠٩٦ بعد عودته إلى إيطاليا ، إلى سكان بولونيا ، الذين حرصوا على أن يرتحلوا لتأدية فريضة الحج فى بيت المقدس ، حذرهم من أن يتوجهوا إلى الشرق إلا بعد موافقة قسسهم ، ومنع من المسير الطاعنين فى السن ، الذين لم يصلحوا للقتال ، والنساء الذين لم يكن لهن أزواج أو أولياء أمور ، والزم رجال الدين بالحصول على موافقة رؤسائهم ، قبل الرحيل ، وطلب إلى العلمانيين ألا يسيروا إلا بعد التماس البركات من رجال الدين[2] . على أن الحرص على المسير بلغ من القوة ، أن هذه القيود واللوائح لم تستطع أن توقفه أو تعترض سبيله . وما هو أكثر أهمية من ذلك ، التماس الوسائل اللازمة لسد نفقات الرحلة[3] .

---

(١) Duncalf : The First Crusade : Clermont to Constantinople. in K. Setton : History of the Crusades I. p. 253.

(٢) Ibid : p. 254.

(٣) Duncalf : The First Crusade. p. 254.

على أنه كيف ذاعت أخبار خطبة ايربان فى كليرمونت ؟ ؛ الواقع أن ايربان طلب إلى رجال الكنيسة أن يعودوا إلى بلادهم ، بعد انفضاض مجمع كليرمونت ، كيما يبشروا بالحرب الصليبية . فعهد إلى أحد رؤساء الأديرة بأن يدعو للحرب فى نورماندیا وإنجلترا ، ووجه أسقفين لإثارة حماس سـكان جنوه ، ومن الدعاة أيضا بطرس الناسك ، وروبرت أربريسيل Arbrissel . والواضح أن هذه الفكرة لم تلبث أن ذاعت بين الناس ، بعد أن حملها رجال الدين إليهم(١) .

حملة الشعوب — بطرس الناسك :

كان بطرس رجلا متقدما فى العمر ، ولد بموضع بالقرب من إميان ؛ والراجح أنه حاول منذ سنوات ، أن يؤدى الحج إلى بيت المقدس ، غير أنه لم يوفق إلى ذلك ، نظرا لاعتراض الترك طريقه ، وهو الذى يعتبر مسئولا عن حملة الشعوب المؤلفة من طوائف الصليبيين والحجاج ، الذين اتخذوا الطريق الشمالى الذى يؤدى إلى الأراضى البيزنطية(٢) .

عرفه معاصروه باسم بطرس الصغير ، على أن ما اتخذه فيما بعد من رداء الزاهد جعله معروف باسم بطرس الناسك الذى ظل معروفا به فى التاريخ ؛ كان بطرس قصير القامة ، أسمر اللون ، طويل الوجه نحيله . درج على أن يمشى حافى القدمين ، مرتديا الملابس الرثة ، لم يتناول الخبز أو اللحم ، بل جعل غذاءه السمك ، واتخذ النبيذ شرابا . وعلى الرغم من حقارة مظهره ، فإنه ادخر من القوة ، ما يحرك بها الرجال ، فأحاط به جو غريب من السلطة والنفوذ ، فيروى المؤرخ جيبرت

---

(١) Duncalf : Loc. cit.

Runciman : op. cit. I. p. 113.

(٢) Duncalf : "The Peasants Crusade" American Historical Review XXVI (1921) pp. 440-453.

نوجنت ، الذى يعرفه شخصيا « ما يردده بطرس أو يفعله ، يبدو كأنه من صنع الله »[١] .

وعلى الرغم من أن بطرس لم يشهد ، فيما يبدو ، مجمع كليرمونت ، فإنه لم تكد تنتهى سنة ١٠٩٥ ، حتى أخذ يبشر بالحرب الصليبية . بدأ رحلته من بيرى Berry ، وفى فبراير ومارس ، سنة ١٠٩٦ ، اجتاز شامبانيا إلى اللورين ، ثم إلى آخن وكلن ، حيث أمضى عيد القيامة . وحشد من مريديه من أنفذهم إلى الجهات التى لم يستطع أن يبلغها ، ومن هؤلاء المريدين والتر المفلس ، ورينالد برايس ، وجفرى بيريل ، ووالتر بريتيل ، واوريل ، وجوتشالك . واينما توجه بطرس أو مندوبوه ، غادر الرجال والنساء دورهم ولحقوا به . فما كاد يصل إلى كلونى ، حتى بلغ عدد من انحاز إليه ١٥ ألف شخص وازداد عدد من اجتمع إليه فى ألمانيا[٢] .

وما أحرزه بطرس من نجاح باهر فى دعوته ، يرجع إلى أسباب عديدة ، منها أن حياة الفلاح فى شمال أوربا كانت قاسية بالغة الخطورة ، إذ أن جانبا كبيرا من الأراضى ، خلى من الزراعة ، بسبب ما تعرضت له من غارات الشماليين ؛ وتحطمت الحواجز والجسور ، فطغت مياه البحر والأنهار على الحقول ؛ واعترض السادة الإقطاعيون على إزالة الغابات ، التى مارسوا فيها الصيد من أجل التسلية . وتعرضت القرية التى لا تحميها قلعة سيد من السادة ، للنهب والسلب والحريق ، على أيدى قطاع الطرق وما يقع من الحروب الأهلية ، وضاعت جهود الكنيسة

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 113
Hagenmeyer : Le Vrai et le Faux sur Pierre L' Hermite. Tr. Raynaud. 17 : 63.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 114.
Chalandon : op. cit. pp. 57-59.

سدى فى محاولاتها لحماية الفلاحين ، بما لجأت إليه من تشييد أرباض فى الأراضى الخالية من الزراعة . وإذ حرص بعض كبار السادة على أن يسهم فى نمو المدن ، فإن صغار البارونات قاوموا هذا الاتجاه ، وتداعى نظام الضياع ولم يحل مكانه نظام ثابت . وعلى الرغم من اختفاء القنية ، فإن الناس بلغ من شدة ارتباطهم بالأرض ، أنهم لم يستطيعوا الإفلات من ذلك . وفى تلك الأثناء ازداد عدد السكان ، وما بالقرية من الأملاك لا يتجاوز توزيعها حدا معينا ، ولذا ورد فى بعض روايات خطبة ايربان ما يشير إلى ما يأمله المحاربون من الغنيمة ، « فسوف تصير إليكم أملاك العدو ، التى تفيض بالمن والسلوى » ، على حد ما جاء فى الأناجيل . واعتقد ايربان أن الفرنسيين احتاجوا إلى التوسع لسد حاجاتهم ، إذ أن بلادهم ضاقت بالسكان ، ولم يكن ما يكفى من الثروة ، فضلا عن أنها لا تسد حاجة الفلاحين . وهذا هو السر ، فيما نشب بينهم من القتال ، ومحاولة أن يلتهم أحدهم الآخر . فإذا حدثت الهجرة ، ولا سيما من أولئك الذين لا يملكون شيئا ، وإنما اشتهروا بإثارة الفتن ، خفت الوطأة ، وساد السلام فى الغرب[١] .

يضاف إلى العامل الاقتصادى ، ما ذاع من تعاليم الكرامات والمعجزات ، فاعتقد الناس أن بطرس يعلم الغيب ، وساد الاعتقاد فى العصور الوسطى أن نزول المسيح ثانية للأرض ، أضحى وشيك الوقوع ، ولا بد من المضى فى الاستغفار وعمل الخير ، قبل هبوطه . ومن تعاليم الكنيسة ، التكفير عن الذنوب ، بتأدية فريضة الحج .

---

(١) Duncalf : The Councils of Piacenza and Clermont pp.244-245.

Runciman : History of the Crusades I. p. 114-115.

وتشير النبوءات إلى أنه ينبغى اســترداد الأرض المقدسة ، قبل عودة المسيح[١] .

وليس معروفا ما يظنه البابا ايربان عن بطرس ونجاح دعوته . فرسالته إلى أهل بولونيا تدل على أنه ضاق ذرعا بالحماس الذى تجاوز الحد ، ولم يكن بوسعه أن يمنع انتشاره فى إيطاليا . ففى أثناء صيف سنة ١٠٩٦ تدفق على الشرق سيل من الحجاج ، لم يخضعوا لقيادة أحد من الناس ، ولم يجمعهم نظام . ولا شك أن أيربان كان يأمل أن هؤلاء الحجاج وأتباع بطرس سوف يصلون سالمين إلى القسطنطينية ، حيث ينتظرون قدوم المندوب البابوى والقادة العسكريين ، فيندمجون فى صفوف الجيش المسيحى الكبير[٢] .

وصل بطرس الناسك مع أتباعه إلى كلن فى ابريل سنة ١٠٩٦ ، وعندئذ أدرك ما يلاقيه قائد حملة الشعوب من الصعاب . فالجموع الكبيرة من الأخلاط المتحمسين ، الذين احتشدوا سويا ، يمثلون نماذج مختلفة ، جاءت من مناطق عديدة ، إذ صحب بعضهم النساء والأطفال ، ومعظمهم كانوا من الفلاحين ، ومنهم عدد كبير من أهل المدن ، وفئات من صغار النبلاء ، بل إن منهم قطاع طرق ومجرمين ، وتخلى كلهم عن أملاكهم ، واتبعوا بطرس ؛ وحرصوا على المضى فى سيرهم . وعلى الرغم من قلة المؤن فى أوربا العصور الوسطى ، فإن كلن ، التى احتشدت بها هذه الجموع ، اشتهرت بأنها تقع فى إقليم خصيب ، يجتازه نهر الراين ، الذى يصح أن يتخذوه وسيلة للانتقال . فأراد بطرس أن يفيد

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 115.

(٢) Runciman : Loc. cit.

مما يتهيأ له من أدوات التيسير فى كلن ، كيما يبقى بها فترة يدعو أثناءها ، الألمان للاشتراك فى الحرب الصليبية[١] .

أظهر الألمان ، أول الأمر ، السخرية بهؤلاء الحجاج الذين باعوا ما يملكون ، للمضى فيما اعتبروه رحلة خرقاء ، وقالوا إنهم باعوا ما بأيديهم كيما يحصلوا على ما ليس أكيداً وحقيقيا ؛ وغادروا مسقط رءوسهم ، ليلتمسوا أرض الميعاد التى هى موضع شك[٢] . على أن بطرس الناسك نجح فى حمل جماعة من نبلاء ألمانيا على الاشتراك فى حملته يقودهم هيوكونت توبنجن[٣] .

على أن الفرنسيين الذين يبلغون نحو ألف ، بقيادة والتر المفلس ، ومعظمهم من الحجاج الذين التزموا ، بفضل كفاءة والتر ، النظام فى أثناء سيرهم ، إلى كلن ، غير أن القلق لم يلبث أن استبد بهم ، فغادروا المدينة عقب عيد القيامة (سنة ١٠٩٦) . ومن المحقق أن كولمان ملك المجر ، لم يتردد فى أن يستجيب لطلب والتر بالسماح له باجتياز بلاد المجر ، وشراء ما يلزمه من المؤن أثناء الرحلة . والمعروف أن المجريين درجوا على أن يشهدوا الحجاج ، أثناء اجتياز بلادهم[٤] .

وبعد أن اجتاز بلاد المجر ، والتر ورفاقه ، عبروا نهر سافا Sava إلى بلغاريا . على أن نكيتاس الحاكم البيزنطى فى بلغاريا ، الذى رابط فى نيش ، لم يستجب لطلب والتر فى بلغراد ، بأن يحصل من

---

(١) Runciman : op. cit. I. 121.

(٢) Duncalf : The First Crusade : Clermont to Constantinople. p. 259.

(٣) Runciman : op. cit. I. p. 122.

(٤) Dnncalf : The First Crusade. Clermont to Constantinople. P. 259.

الأسواق على ما يشاء من المؤن للجيش . وزاد الأمر تعقيداً مابثه جماعة من رفاق والتر ، تخلفوا عنه فى المجر ، من الشكوى بأنهم تعرضوا للسلب والنهب . فنشبت الفتنة فى بلغراد ، بسبب انسياب رفاق والتر فى القرى والحقول التماسا للأعشاب والعلف للماشية ، بعد أن عجزوا عن حصول ما يلزمهم من الأسواق . فجرت محاصرة ستة عشر حاجاً داخل الكنيسة وقتلهم حرقاً ، فدلف والتر برجاله ، إلى الغابات ومنها توجه إلى نيش ، حيث أجاز له حاكمها نكيتاس أن يشترى ما يشاء من الأسواق ، وسمح له أن يبتاع أثناء اجتيازه البلاد إلى القسطنطينية ما يريد من المؤن[١] . وتقرر أن يصحب والتر ورفاقه ، قوة تولت حراسته إلى القسطنطينية التى بلغوها فى منتصف يوليه . فعسكر والتر بجيشه فى ظاهر المدينة ، فى انتظار قدوم بطرس ، وكان سلوكهم طيبا ، وكل ما طلبوه أن يكون لهم الحق فى شراء ما يحتاجونه من المؤن ، فاستجابت بيزنطة لطلبهم[٢] .

وعلى الرغم مما اشتهر به بطرس من القدرة على إثارة العاطفة والحماس ، لم يضارع الفارس والتر فى القيادة الحربية . ومع ذلك فالراجح أنه أراد أن يغلب على رحلته الهدوء والسكينة ، نظراً لاستعداد أتباعه لأن يدفعوا تكاليف الرحلة ، ولأنهم لم يشتركوا فى الاضطهاد الذى حل باليهود ، والذى امتد حتى شمل وادى الراين بعد رحيلهم[٣] . والمعروف أن جيش بطرس تألف معظمه من الألمان ، الذين جندهم من بلاد الراين ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 118, 122-123.

(٢) Duncalf : The First Crusade : Clermont to Constantinople. p. 260.

(٣) Duncalf : The First Crusade : Clermont to Constantinople. p. 260.


بلاد البلقان
زمن الحملة الصليبية
الأولى
بلغراد
الدانوب
نيش
صوفيا
ادرنة
باري
ملفي
فالونا
كورفو
البحر الأسود


A S R

وصحبه أيضاً من الألمان ، كونتان وأسقف ، فضلاً عن كثير من النساء .
وعند أودنبرج (سوپرون الحالية) ، الواقعة على حدود المجر ، توقف بطرس وأتباعه ، كيما يحصلوا على إذن باجتياز المجر ، فسمح لهم كولمان ، ملك المجر ، بذلك ، على ألا يلجأوا للنهب ، أو يناقشوا فى أمر الأسواق ؛ على أن الشكوك ساورت جيش بطرس ، حينما ترامى لهم ما ذاع من الشائعات عن العذاب والعقاب ، الذى أنزله المجريون بأتباع والتر . فهاجموا سملن واستولوا على قلعتها ، ولقى عدد كبير من المجريين مصرعهم ، وعجل بطرس بالخروج برجاله من المجر حتى لا يتعرضوا للانتقام[1] ؛ فعبروا نهر ساقا . وبعد أن وقعت اشتباكات بينهم وبين البجناك ، عساكر بيزنطة المأجورين ، توجهوا إلى بلغراد ، التى وجدوها خالية من السكان ، فمضوا إلى نيش التى بلغوها فى ٢ يوليه ، والتى كانت مقر الحاكم البيزنطى ، فحشد من البلغار والكومان والبجناك والمجريين من يدافع بهم عن المدينة ، غير أنه قبل آخر الأمر ، أن يجيز لهم شراء ما يلزمهم من الأسواق ، مقابل أن يتخذ رهائن ، من والتر برتييل ، وجفرى بيريل ، ضماناً لما ينبغى أن يسير عليه الجموع من سلوك طيب ، غير أن الحاكم البيزنطى لم يلبث أن أطلق سراحهما[2] .

ولما استأنف الصليبيون السير إلى صوفية ، وتعرضوا أثناءه للاعتداء من قبل العساكر البيزنطية ، استطاع بطرس آخر الأمر أن يجمع شمل أتباعه بعد أن فقد منهم نحو الربع ، وأمضوا ثلاثة أيام يحصدون المحصولات ويلتمسون الحبوب لمؤنتهم ، ثم وصلوا صوفية . فالتقوا بها

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 124.

(٢) Duncalf : The First Crusade : Clermont to Constantinople p. 261.

Runciman : History of the Crusades I. p. 125.

بموظفين موفدين من قبل الإمبراطور البيزنطى ، وعدوهم أن يبذلوا لهم المؤن ، وارتياد الأسواق ، على امتداد الطريق إلى القسطنطينية ، بشرط ألا يتجاوز بقاؤهم فى موضع السوق ثلاثة أيام[١] . وفى فيلبوبوليس ، روى بطرس ما تعرضوا له من كوارث ، وبلغ من فصاحته وحماسه أن بذل لهم سكان المدينة الأموال من الذهب والفضة ، والدواب ، والخيول[٢] . وعند أدرنة ، أقبلت رسل الإمبراطور على بطرس ، وحثته على الإسراع بالمسير إلى القسطنطينية ، نظراً لما بلغ الإمبراطور من أنبائه ، وحرصه على لقائه . فبلغ بطرس وصحبه القسطنطينية ، فى أول أغسطس ، بعد أن مضى على رحيلهم من كلن ، نحو ثلاثة شهور[٣].

لم يتوقف الحماس الدينى بألمانيا برحيل بطرس الناسك ، إذ خلف وراءه تلميذه جوتشالك ، ليحشد جيشاً آخر . وكان جوتشالك قسيسا من بلاد الراين ، التف حوله الحجاج من شرق فرنسا ، واللورين وجنوب ألمانيا ، واتبع نفس طريق بطرس إلى المجر[٤] . وعلى الرغم من أن ملك المجر ، كولمان ، أبدى استعداداً طيباً لأن يبذل لهذه الفئة حق الحصول على المؤن من الأسواق بشرط أن يلتزموا الهدوء والسكينة ، فإن جماعة من هؤلاء الأتباع ، أمعنوا فى الشراب ، وأقبلوا على نهب الحبوب والماشية والأغنام وانتزاعها من المجريين ، الذين نهضوا للانتقام منهم . فلم يسع رجال جوتشالك إلا الالتجاء إلى دير القديس مارتن ، وتعرض كثير منهم للقتل والأسر[٥] .

---

(١) Ibid : op. cit. I. p. 126-127.

(٢) Ibid : Loc. cit.
Duncalf : The First Crusade. p. 262.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 127.

(٤) Duncalf : The First Crusade p. 262.

(٥) Ibid : p. 263.

واشترك أتباع جوتشالك ، قبل هذا الحادث ، فى موجة اضطهاد اليهود التى اجتاحت بلاد الراين . فالمعروف أن المستعمرات اليهودية نشأت منذ قرون عديدة على امتداد الطرق التجارية فى غرب أوربا . وينتمى سكانها إلى اليهود السيفرديين ، الذين تألف منهم فى العصور الوسطى الجاليات اليهودية فى البحر المتوسط . وظلت هذه المستعمرات على اتصال مستمر بإخوانهم فى بيزنطة والبلاد العربية ، فقاموا بدور كبير فى التجارة الدولية ، ولا سيما التجارة بين البلاد الإسلامية والبلاد المسيحية . وترتب على تحريم الربا فى البلاد المسيحية فى الغرب ، وعلى ما درجت عليه بيزنطة من فرض الرقابة الشديدة على الربا ، أن تهيأت الفرصة لقيام بيوت لقرض الأموال فى العالم المسيحى[1] . ولقى اليهود ببلاد الراين الحماية والرعاية من السلطتين المدنية والدينية ، ولا سيما من كبار الأساقفة . وإذ اطمأن اليهود إلى عطف الحكام ورعايتهم ، فرضوا أسعاراً باهظة للربح ، فحققوا بذلك ثروة كبيرة ، بينما أصاب الفلاحين وسكان المدن ، الخسائر وتراكمت عليهم الديون ، بعد أن اشتدت حاجتهم إلى المال ، ليستعيضوا به عن الخدمات التى يؤدونها للسادة ، فاشتدت كراهيتهم لليهود[2] .

ازدادت الكراهية لليهود أثناء القرن الحادى عشر ، نظرا لكثرة الفئات التى أخذت تقترض منهم الأموال . والواضح أن الفارس يتكلف نفقات باهظة لتجهيز نفسه للاشتراك فى الحرب الصليبية ، فإذا لم يتوافر له من الأرض والأملاك ما يرهنه ، فلا بد أن يلجأ إلى الاقتراض من اليهود . فهل يكون من الصواب ، أنه ينبغى من أجل المضى للقتال فى سبيل العالم المسيحى ، أن تقع فى قبضة فئة من الناس (اليهود) ينتمون

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 135.

(٢) Ibid : op. cit. I. p. 135.

بموظفين موفدين من قبل الإمبراطور البيزنطى ، وعدوهم أن يبذلوا لهم المؤن ، وارتياد الأسواق ، على امتداد الطريق إلى القسطنطينية ، بشرط ألا يتجاوز بقاؤهم فى موضع السوق ثلاثة أيام(١) . وفى فيلبوبوليس ، روى بطرس ما تعرضوا له من كوارث ، وبلغ من فصاحته وحماسه أن بذل لهم سكان المدينة الأموال من الذهب والفضة ، والدواب ، والخيول(٢) . وعند أدرنة ، أقبلت رسل الإمبراطور على بطرس ، وحثته على الإسراع بالمسير إلى القسطنطينية ، نظراً لما بلغ الإمبراطور من أنبائه ، وحرصه على لقائه . فبلغ بطرس وصحبه القسطنطينية ، فى أول أغسطس ، بعد أن مضى على رحيلهم من كلن ، نحو ثلاثة شهور(٣).

لم يتوقف الحماس الدينى بألمانيا برحيل بطرس الناسك ، إذ خلف وراءه تلميذه جوتشالك ، ليحشد جيشاً آخر . وكان جوتشالك قسيسا من بلاد الراين ، التف حوله الحجاج من شرق فرنسا ، واللورين وجنوب ألمانيا ، واتبع نفس طريق بطرس إلى المجر(٤) . وعلى الرغم من أن ملك المجر ، كولمان ، أبدى استعداداً طيباً لأن يبذل لهذه الفئة حق الحصول على المؤن من الأسواق بشرط أن يلتزموا الهدوء والسكينة ، فإن جماعة من هؤلاء الأتباع ، أمعنوا فى الشراب ، وأقبلوا على نهب الحبوب والماشية والأغنام وانتزاعها من المجريين ، الذين نهضوا للانتقام منهم . فلم يسع رجال جوتشالك إلا الالتجاء إلى دير القديس مارتن ، وتعرض كثير منهم للقتل والأسر(٥) .

---

(١) Ibid : op. cit. I. p. 126-127.

(٢) Ibid : Loc. cit.
Duncalf : The First Crusade. p. 262.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 127.

(٤) Duncalf : The First Crusade p. 262.

(٥) Ibid : p. 263.

واشترك أتباع جوتشالك ، قبل هذا الحادث ، فى موجة اضطهاد اليهود التى اجتاحت بلاد الراين . فالمعروف أن المستعمرات اليهودية نشأت منذ قرون عديدة على امتداد الطرق التجارية فى غرب أوربا . وينتمى سكانها إلى اليهود السيفرديين ، الذين تألف منهم فى العصور الوسطى الجاليات اليهودية فى البحر المتوسط . وظلت هذه المستعمرات على اتصال مستمر بإخوانهم فى بيزنطة والبلاد العربية ، فقاموا بدور كبير فى التجارة الدولية ، ولا سيما التجارة بين البلاد الإسلامية والبلاد المسيحية . وترتب على تحريم الربا فى البلاد المسيحية فى الغرب ، وعلى ما درجت عليه بيزنطة من فرض الرقابة الشديدة على الربا ، أن تهيأت الفرصة لقيام بيوت لقرض الأموال فى العالم المسيحى[1] . ولقى اليهود ببلاد الراين الحماية والرعاية من السلطتين المدنية والدينية ، ولا سيما من كبار الأساقفة . وإذ اطمأن اليهود إلى عطف الحكام ورعايتهم ، فرضوا أسعاراً باهظة للربح ، فحققوا بذلك ثروة كبيرة ، بينما أصاب الفلاحين وسكان المدن ، الخسائر وتراكمت عليهم الديون ، بعد أن اشتدت حاجتهم إلى المال ، ليستعيضوا به عن الخدمات التى يؤدونها للسادة ، فاشتدت كراهيتهم لليهود[2] .

ازدادت الكراهية لليهود أثناء القرن الحادى عشر ، نظرا لكثرة الفئات التى أخذت تقترض منهم الأموال . والواضح أن الفارس يتكلف نفقات باهظة لتجهيز نفسه للاشتراك فى الحرب الصليبية ، فإذا لم يتوافر له من الأرض والأملاك ما يرهنه ، فلا بد أن يلجأ إلى الاقتراض من اليهود . فهل يكون من الصواب ، أنه ينبغى من أجل المضى للقتال فى سبيل العالم المسيحى ، أن تقع فى قبضة فئة من الناس (اليهود) ينتمون

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 135.

(٢) Ibid : op. cit. I. p. 135.


A S R

وصحبه أيضاً من الألمان ، كونتان وأسقف ، فضلا عن كثير من النساء .
وعند أودنبرج (سوپرون الحالية) ، الواقعة على حدود المجر ، توقف
بطرس وأتباعه ، كيما يحصلوا على إذن باجتياز المجر ، فسمح لهم كولمان ،
ملك المجر ، بذلك ، على ألا يلجأوا للنهب ، أو يناقشوا فى أمر الأسواق ؛
على أن الشكوك ساورت جيش بطرس ، حينما ترامى لهم ما ذاع من
الشائعات عن العذاب والعقاب ، الذى أنزله المجريون بأتباع والتر .
فهاجموا سملن واستولوا على قلعتها ، ولقى عدد كبير من المجريين مصرعهم ،
وعجل بطرس بالخروج برجاله من المجر حتى لا يتعرضوا للانتقام[1] ؛
فعبروا نهر سافا . وبعد أن وقعت اشتباكات بينهم وبين البجناك ، عساكر
بيزنطة المأجورين ، توجهوا إلى بلغراد ، التى وجدوها خالية من السكان ،
فمضوا إلى نيش التى بلغوها فى ٢ يوليه ، والتى كانت مقر الحاكم البيزنطى ،
فحشد من البلغار والكومان والبجناك والمجريين من يدافع بهم عن المدينة ،
غير أنه قبل آخر الأمر ، أن يجيز لهم شراء ما يلزمهم من الأسواق ،
مقابل أن يتخذ رهائن ، من والتر برتييل ، وجفرى بيريل ، ضمانا
لما ينبغى أن يسير عليه الجموع من سلوك طيب ، غير أن الحاكم البيزنطى
لم يلبث أن أطلق سراحهما[2] .

ولما استأنف الصليبيون السير إلى صوفية ، وتعرضوا أثناءه للاعتداء
من قبل العساكر البيزنطية ، استطاع بطرس آخر الأمر أن يجمع شمل
أتباعه بعد أن فقـد منهم نحو الربع ، وأمضوا ثلاثة أيام يحصدون
المحصولات ويلتمسون الحبوب لمؤنتهم ، ثم وصلوا صوفية . فالتقوا بها

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 124.

(٢) Duncalf : The First Crusade : Clermont to Constantinople p. 261.

Runciman : History of the Crusades I. p. 125.

بموظفين موفدين من قبل الإمبراطور البيزنطى ، وعدوهم أن يبذلوا لهم المؤن ، وارتياد الأسواق ، على امتداد الطريق إلى القسطنطينية ، بشرط ألا يتجاوز بقاؤهم فى موضع السوق ثلاثة أيام(١) . وفى فيلبوبوليس ، روى بطرس ما تعرضوا له من كوارث ، وبلغ من فصاحته وحماسه أن بذل لهم سكان المدينة الأموال من الذهب والفضة ، والدواب ، والخيول(٢) . وعند أدرنة ، أقبلت رسل الإمبراطور على بطرس ، وحثته على الإسراع بالمسير إلى القسطنطينية ، نظراً لما بلغ الإمبراطور من أنبائه ، وحرصه على لقائه . فبلغ بطرس وصحبه القسطنطينية ، فى أول أغسطس ، بعد أن مضى على رحيلهم من كلن ، نحو ثلاثة شهور(٣).

لم يتوقف الحماس الدينى بألمانيا برحيل بطرس الناسك ، إذ خلف وراءه تلميذه جوتشالك ، ليحشد جيشاً آخر . وكان جوتشالك قسيسا من بلاد الراين ، التف حوله الحجاج من شرق فرنسا ، واللورين وجنوب ألمانيا ، واتبع نفس طريق بطرس إلى المجر(٤) . وعلى الرغم من أن ملك المجر ، كولمان ، أبدى استعداداً طيباً لأن يبذل لهذه الفئة حق الحصول على المؤن من الأسواق بشرط أن يلتزموا الهدوء والسكينة ، فإن جماعة من هؤلاء الأتباع ، أمعنوا فى الشراب ، وأقبلوا على نهب الحبوب والماشية والأغنام وانتزاعها من المجريين ، الذين نهضوا للانتقام منهم . فلم يسع رجال جوتشالك إلا الالتجاء إلى دير القديس مارتن ، وتعرض كثير منهم للقتل والأسر(٥) .

---

(١) Ibid : op. cit. I. p. 126-127.

(٢) Ibid : Loc. cit.
Duncalf : The First Crusade. p. 262.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 127.

(٤) Duncalf : The First Crusade p. 262.

(٥) Ibid : p. 263.

واشترك أتباع جوتشالك ، قبل هذا الحادث ، فى موجة اضطهاد اليهود التى اجتاحت بلاد الراين . فالمعروف أن المستعمرات اليهودية نشأت منذ قرون عديدة على امتداد الطرق التجارية فى غرب أوربا . وينتمى سكانها إلى اليهود السيفرديين ، الذين تألف منهم فى العصور الوسطى الجاليات اليهودية فى البحر المتوسط . وظلت هذه المستعمرات على اتصال مستمر بإخوانهم فى بيزنطة والبلاد العربية ، فقاموا بدور كبير فى التجارة الدولية ، ولا سيما التجارة بين البلاد الإسلامية والبلاد المسيحية . وترتب على تحريم الربا فى البلاد المسيحية فى الغرب ، وعلى ما درجت عليه بيزنطة من فرض الرقابة الشديدة على الربا ، أن تهيأت الفرصة لقيام بيوت لقرض الأموال فى العالم المسيحى[1] . ولقى اليهود ببلاد الراين الحماية والرعاية من السلطتين المدنية والدينية ، ولا سيما من كبار الأساقفة . وإذ اطمأن اليهود إلى عطف الحكام ورعايتهم ، فرضوا أسعاراً باهظة للربح ، فحققوا بذلك ثروة كبيرة ، بينما أصاب الفلاحين وسكان المدن ، الخسائر وتراكمت عليهم الديون ، بعد أن اشتدت حاجتهم إلى المال ، ليستعيضوا به عن الخدمات التى يؤدونها للسادة ، فاشتدت كراهيتهم لليهود[2] .

ازدادت الكراهية لليهود أثناء القرن الحادى عشر ، نظرا لكثرة الفئات التى أخذت تقترض منهم الأموال . والواضح أن الفارس يتكلف نفقات باهظة لتجهيز نفسه للاشتراك فى الحرب الصليبية ، فإذا لم يتوافر له من الأرض والأملاك ما يرهنه ، فلا بد أن يلجأ إلى الاقتراض من اليهود . فهل يكون من الصواب ، أنه ينبغى من أجل المضى للقتال فى سبيل العالم المسيحى ، أن تقع فى قبضة فئة من الناس (اليهود) ينتمون

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 135.

(٢) Ibid : op. cit. I. p. 135.

للعنصر الذى عذّب المسيح ؛ فإذا كان المحارب الصليبى الفقير استدان من اليهود ، فهل من الصواب أن يمنعه من تأدية واجبه الدينى ، ما التزم به من دين لأحد أفراد هذا العنصر الشرير ؟ . وتكرر ذكر بيت المقدس ، فى كل دعوة للحرب الصليبية ، ولا شك أن هذه الدعوة جذبت اهتمام الناس إلى القوم الذى لقى على أيديهم المسيح العذاب[1] .

وفى ديسمبر سنة ١٠٩٥ ، كتبت الجاليات اليهودية بشمال فرنسا إلى اليهود بألمانيا ، ينذرونهم ، بما سوف يلحقهم من الأذى بسبب الحركة الصليبية . واشتد خوف اليهود لما تتعرض له مهنتهم من ضربة خطيرة على يد بطرس الناسك . واستطاع بفضل إشارته إلى أنه ليس فى وسعه أن يكبح جماح أتباعه ، أن يحصل من اليهود الفرنسيين ، على رسائل ، تدعو الجاليات اليهودية فى أنحاء أوربا إلى الترحيب به ، وامداده هو وجيشه ، بكل ما يحتاج إليه من المؤن والزاد[2] .

وحوالى ذلك الوقت ، أخذ جودفرى بويون ، دوق اللورين الأدنى ، فى التجهز للمسير إلى الحرب الصليبية . وشاع أن جودفرى أقسم أنه سوف ينتقم لموت المسيح ، بإهدار دم اليهود . فاشتد خوف اليهود فى بلاد الراين ، وكتب كبير ربانيتهم فى ماينز إلى الإمبراطور هنرى الرابع ، السيد الأعلى لجودفرى ، والذى اشتهر بصداقته لليهود ، يتوسل إليه أن يمنع جودفرى من اضطهادهم . وبهذه الوسيلة حصل من يهود ماينز وكلن على ألف قطعة من الفضة ، لسد نفقات الحملة ، ومع ذلك فإن أشد ما لحق باليهود من اضطهاد وقع قبل رحيل جودفرى إلى الشرق[3] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 135.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 135.

(٣) Ibid : op. cit. I. p. 135.

Duncalf ; The First Crusade. p. 263.

على أن أشد ما تعرض له اليهود من اضطهاد ، إنما جاء من قبل العصابات التى انضوت تحت قيادة ايميشو Emicho كونت ليننجين Leiningen ، الذى حاز اقطاعات عديدة بين ماينز وڤورمز ، ويعتبر أقوى أمير فى ذلك الإقليم ، اشتهر بالجندية واللصوصية ، وبما زعمه من تلقى الوحى ، فانحاز إليه من المتطوعين والمغامرين ما يزيد عدداً وقوة على سائر ما يخضع لقيادة فولكمار وجوتشالك ، وعدد كبير من الحجاج السذج ، فضلا عن طائفة من سادة ونبلاء فرنسا وألمانيا[1] ؛ ولقى كثير من اليهود مصرعهم فى شبير ، وڤورمز ، وماينز ، على الرغم من حماية الأساقفة ورجال الدين المسيحيين لهم[2] .

وفى كلن قرر ايميشو أن عمله ببلاد الراين قد تم ، وفى أوائل يونيه ١٠٩٦ استأنف المسير مع معظم جيشه ، واتخذ طريق الماين ، إلى الدانوب والمجر . غير أن جانبا من جيشه وأتباعه ، افترقوا عن جيشـه فى ماينز ، وهبطوا إلى وادى الموزيل فانزلوا الاضطهاد باليهود[3] . ولما رفض كولمان ملك المجر ، أن يأذن لهم بدخول مملكته ، لما ترامى له من الأنباء بأن الألمان أرادوا أن يقتلوا المجريين على أنهم وثنيون . وإذ أوشك النصر أن يتحقق للصليبيين ، أخذهم الفزع والرعب من كل جانب ، لسبب لم يذكره المؤرخون ، وغرق منهم عدد كبير بالنهر ، فتعقبهم المجريون ودمروا قوة هؤلاء المغامرين . ولم يفلت ايميشو ورفاقه إلا لجودة خيولهم ، وانسحبوا إلى مواطنهم ،

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 137.
Duncalf : The First Crusade, p. 264.

(٢) Runciman : op. cit. I. pp. 137-139.
Duncalf : The First Crusade. p. 264.

(٣) Ibid : Loc. cit.

بينما انحاز الفرنسيون من رفاقه ، إلى هيو فرماندوا بإيطاليا ، ومنها خرجوا إلى فلسطين[١] .

وعلل المؤرّخ ايكارد هذه الهزيمة بما ردده من أن مشيئة الله هى التى قضت بذلك « إذ أن قوما من جنسنا ، اشتد حماسهم لله ، وإن لم يتوافر لهم العلم به ، وقد جندهم المسيح لإنقاذ المسيحيين ، شرعوا فى مهاجمة المسيحيين » . وبذلك وصموا الحرب الصليبية بسمعة سيئة[٢] .

الواقع أن الجماعات الأولى من المسيحيين ، الذين تشبعوا بالحماس الدينى ، شملت عدداً كبيراً من الحجاج ، وفئة قليلة من المحاربين ، وتشير أنه كومنين إلى أن بطرس الناسك أثار الحماس الدينى للحركة الصليبية ، غير أن فئة من القادة المغامرين الماكرين ، أمثال بوهمند ، أفادوا من هؤلاء السذج ، لتحقيق أغراضهم ، وتضيف إلى ذلك أن أباها ، الإمبراطور الكسيوس كومنين ، أدرك ذلك ، نظراً لدرايته بسذاجة المسيحيين فى الغرب[٣] :

الواقع أن البابا ايربان ، حينما جعل القسطنطينية الموضع الذى يلتقى فيه العساكر المسيحيون ، كان يعتقد أن الإمبراطور الكسيوس سوف يرحب بهم ، إذ أنهم لم يقدموا إلا بناء على استنجاده بالغرب المسيحى. على أن البلاط البيزنطى انزعج لما علم ، على حد قول أنَّه كومنين ، أن الغرب وسائر القبائل المتبربرة النازلة فى الجهات الممتدة من وراء بحر

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 141.
Duncalf : The First Crusade : Clermont to Constantinople p. 265.

(٢) Duncalf : Loc. cit,
Runicman : op. cit. I. p. 141.

(٣) Duncalf : The First Crusade : Clermont to Constantinople. p. 266.

الأدرياتى ، حتى عمودى هرقل (جبل طارق) يتحركون جماعات مجتازين أوربا إلى آسيا ، تصحبهم أسراتهم وأطفالهم[1] .

شرع الكسيوس يعد سياسته نحو زعماء الصليبيين عند وصولهم إلى القسطنطينية ، فلا بد لجيوش الفرنج ، من أن يتوافر لها أثناء اجتيازها الإمبراطورية ، ما تحتاجه من المؤن ، ولا بد من اتخاذ التدابير لمنعهم من تخريب القرى ونهبها . فأمر بتوفير المؤن فى المواضع الهامة التى يجتازها الجيش ، وتقرر أن تتولى قوة من الشرطة استقبال القوات عند دخولها أراضى الدولة البيزنطية ، واصطحابها إلى القسطنطينية . والمعروف أن طريقين رئيسين يجتازان شبه جزيرة البلقان ، الطريق الشمالى الذى يعبر الحدود عند بلغراد ، ويتجه صوب الجنوب الشرقى ، إلى نيش وصوفية وفيليبوبوليس وأدرنه . أما الطريق الآخر فهو المعروف باسم Via Egnatia ، الذى يبدأ من دورازو على بحر الأدرياتى ، إلى سالونيك ، إلى العاصمة (القسطنطينية)[2] .

وعلى الرغم من أن الكسيوس لن يفد إلا قليلا من الحملات القادمة على الطريق الشمالى ، فإنه رأى أنه إذا أحسن توجيههم ، فيصح الإفادة منهم ، غير أنه لابد من التزام الكياسة والحذر فى معاملتهم . فعلى الرغم من أن الإمبراطورية أحرزت سنة ١٠٩٦ ، بعض الانتصارات فى الحروب ضد الترك فى آسيا الصغرى ، فإن الكسيوس لم يسترد إلا الأراضى الممتدة على شاطئ بحر مرمرة وبحر ايجه : على أن چكا أمير أزمير ، الذى يعتبر أشد أعداء الإمبراطورية البيزنطية خطورة ، لقى مصرعه سنة ١٠٩٢ على يدى صهره قلج ارسلان ، بفضل تحريض

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 116.
Anna Comnene : Alexiade II. pp. 206-208.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 117.

الكسيوس . وإذ استقر قلج ارسلان فى نيقية واتخذ لقب سلطان ، ارتاع لنمو سلطة أسرة دانشمند التى تسيطر على الجهات الواقعة شرقى قبادوقيا . وحرص الكسيوس على أن يتبع تقاليد الدبلوماسية البيزنطية فى الإيقاع بين الأمراء الترك ، ريثما يحشد المسيحيون جيشاً يبلغ من القوة ما يكفى لتحطيم هؤلاء الترك . وحرص الكسيوس أيضاً على ألا يتعجل مهاجمتهم قبل اكتمال القوة المسيحية ، حتى لا يبادروا إلى الاتحاد[١] .

وأول من وصل إلى القسطنطينية من الصليبيين ، فى يوليه ١٠٩٦ ، جيش والتر المفلس ، الذى تألف من نحو ثلاثة آلاف من جموع الفرنسيين . والواقع أن هذا الجيش كان مقدمة الجموع الضخمة من الرعاع الذين هرعوا إلى الشرق بتحريض بطرس الناسك وأتباعه : نزل أتباع والتر فى معسكر خارج العاصمة ، وانحاز إليهم جموع كثيرة من الحجاج ، قدمت من أبوليا ، بعد أن عبرت بحر الأدرياتى ، واتخذ الطريق الإمبراطورى Via Egnatia إلى القسطنطينية[٢] .

وصل بطرس الناسك بجموعه ، المؤلفة من بضعة آلاف من الألمان ، إلى القسطنطينية فى أول أغسطس : ولقى استقبالا حافلا من من قبل الإمبراطور ، الذى أدرك ما عاناه هؤلاء الحجاج المتحمسون من المصاعب ، فى سبيل القتال من أجل العالم المسيحى : ونصحه الكسيوس بأن ينتظر بجيوشه حتى قدوم الجيوش النظامية التى يقودها الأمراء[٣] . تأثر بطرس بنصيحة الإمبراطور غير أن العناصر

---

(١) Runciman : The First Crusade : Constantinople to Antioch in Setton' : History of the Crusades I. p. 280.

(٢) Ibid : op. cit. 281.

(٣) Runciman : The First Crusade. p. 281.
Runciman : History of the Crusades I. p. 127-128.

المختلفة بالجيش ، من الإيطاليين والألمان والفرنسيين ، أخذت تتسابق على الإغارة على الأراضى الزراعية(١). فقررت السلطات البيزنطية ، التعجيل ، بجعلهم يجتازون البوسفور ، والنزول فى معسكر ، أعد لهم بعيداً عن العاصمة . فنزلت جموع بطرس ووالتر فى معسكر عند كيبوتس Kibots على خليج نيقوميديا ، سبق أن أعده الكسيوس للعساكر المأجورة من الإنجليز ، واشتهر هذا الموقع بخصوبة المنطقة وسهولة الاتصال بحراً بالقسطنطينية ، فيسهل بذلك جلب المؤن(٢) .

على أن هذا المعسكر يتاخم الأطراف التركية ، فكان ذلك حافزاً للصليبيين على الإغارة على القرى المجاورة ، التى يقطنها اليونانيون المسيحيون ، ثم هاجموا الأراضى التركية ، ولم يستطع بطرس أن يكبح جماحهم ، وفقد سيطرته على الألمان والإيطاليين . واحتشدت طائفة كبيرة من الفرنسيين ، وأمعنت فى السير ، حتى بلغت أبواب نيقية عاصمة السلطان السلجوقى قلج ارسلان بن سليمان ، فنهبوا القرى واستباحوا الماشية والأغنام ، وقتلوا السكان المسيحيين فى وحشية وهمجية . وخرج من نيقية سرية من الجيش التركى ، لقتالهم ، غير أنها ارتدت بعد قتال عنيف ، فعادوا إلى كيبوتس ، فباعوا ما غنموه إلى زملائهم ، وإلى البحارة اليونانيين الذين ترددوا إلى المعسكر(٣) .

وما أحرزه الفرنسيون من غنيمة مثمرة ، أثارت أطماع الألمان ، فنهض ريجنالد فى حملة قوامها ستة آلاف ، بينهم عدد من القسس والأساقفة ، وتجنبوا فى سيرهم مدينة نيقية ، وأخذوا ينهبون ما يصادفون

---

(١) Ibid : Loc. cit.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 128.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 129.
Id : The First Crusade : Constantinople to Antioch, p. 282.

من البلاد ، حتى بلغوا قلعة اكسريجوردون Xerigordon ، فحرصوا على الاستيلاء عليها واتخاذها قاعدة يغيرون منها على الجهات المجاورة ، لما توافرت بها من المؤن ، ولأنها تحتل موضعا حصينا ، إذ تقع بأعلى أحد التلال . غير أن السلطان السلجوقى فى نيقية ، أنفذ حملة ضيقت الحصار على الألمان بداخل القلعة ، وإذ اشتد بهم الجوع والظمأ ، فتحوا الأبواب فأمعن الترك فى قتلهم ، ولم يبق إلا من أعلن إسلامه ، ومنهم ريجنالد ، فتقرر إرسالهم إلى انطاكية وحلب وخراسان[١]. واشتد خوف القوات المسيحية ، وتبين لهم أن الترك يحشدون جيوشهم ، فأبحر بطرس الناسك إلى القسطنطينية يلتمس المساعدة من الإمبراطور؛ على أن سائر المسيحيين فى معسكرهم لم ينتظروا عودة بطرس ، فبادروا بشن هجوم عام ، فأوقع بهم الترك فى كمين عند دراكون وأعملوا السيف فيهم ، أثناء ارتدادهم ، فلم يبق منهم ، من المدنيين أو العسكريين ، سوى عدد قليل من الأولاد والبنات ، فضلا عن بعض العساكر ، فعادوا بحرا إلى القسطنطينية يروون نبأ الكارثة . وكان ذلك هو مصير حملة الشعوب التى اشترك فى قيادتها بطرس الناسك[٢] ، التى راح ضحيتها ألوف من الأرواح ، والتى تعتبر اختبارا لصبر الإمبراطور ورعاياه ، ودلت على أن الإيمان وحده ، دون أن يقترن بالحكمة والنظام ، لا يكفى لفتح الطريق إلى بيت المقدس[٣] .

حملة الأمراء :

والأمراء المسيحيون الذين اتخذوا الصليب ، كانوا أقل قلقا ، وأكثر صبراً من بطرس الناسك ورفاقه . أبدوا استعدادهم لأن يلتزموا

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 131.

(٢) Id : The First Crusade. p. 284.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 133.

بالموعد الذى حدده البابا . وكان لابد أن تحتشد عساكرهم ، وأن تتجهز بأدوات الحرب ، وأن يجمعوا من المال ما يلزم للإنفاق على الحملة . فتحتم عليهم أيضاً أن يتدبروا أمر الحكومة ، التى تتولى شئون بلادهم ، أثناء غيابهم الذى قد يمتد سنوات ، فلم يكن أحد منهم مستعدا لأن يرتحل قبل نهاية أغسطس ١٠٩٦[١] .

وأول من ارتحل من بلاده من الأمراء ، كان هيو كونت فرماندوا ، المعروف بالأصفر Le Maisné ، فأعلن نبأ رحيله من فرنسا فى الرسالة التى وجهها إلى الكسيوس ، والتى زخرت بالعبارات الخلابة ، والتى زعم فيها « أنه إمبراطور الأباطرة ، وأعظمهم على سطح الأرض » . ونظراً لأنه ينحدر من أسرة ملكية ، طلب فى الرسالة أن يلقى من التشريف والتكريم عند وصوله إلى القسطنطينية ما يليق بأصالته[٢] . كان ثانى أبناء الملك هنرى الأول من زوجته انه ، أميرة كييف ، ولم يحصل هيو على أملاكه الإقطاعية إلا بزواجه من كونت فرماندوا . ولعل الدوافع التى جعلته يشترك فى الحروب الصليبية ، ترجع إلى ما ورثه عن أجداده ، من جهة أمه ، من الاسكنديناويين من القلق وعدم الاستقرار ، وإلى أنه أحس أنه يستطيع أن يحوز فى الشرق من السلطة والأموال ما يوافق شرف نسبه . والراجح أن أخاه الملك فيليب شجعه على المضى فى محاولته كيما يلتمس رضى البابوية عن أسرته[٣] .

ارتحل إلى إيطاليا ، حوالى منتصف أغسطس سنة ١٠٩٦ ، على جيش صغير ، مؤلف من أتباعه ، وجماعة من الفرسان من ضياع

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 142.

(٢) Duncalf : The First Crusade, Clermont to Constantinople p. 266.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 144.

أخيه . ولما وصل إلى روما ، منحه البابا ، لواء القديس بطرس ، فاعتبر ذلك تشريفاً له ، نوه به فى رسالته الثانية التى بعث بها إلى الإمبراطور الكسيوس ؛ يشير فيها إلى قدومه[١] .

أرسل الكسيوس إلى حنا كومنينوس ، ابن أخيه ، حاكم دورازو ، يطلب إليه الترحيب بالكونت هيو ، عند وصوله . وقبل أن يبحر من بارى ، هيو ورفاقه ، أرسل حاكم دورازو يخطره بقدومه . على أن عاصفة حطمت الأسطول الذى استأجره هيو ليجتاز عليه بحر الأدرياتى، فغرقت بعض السفن بكل حمولتها من الرجال ، على حين أن الأمواج دفعت سفينة هيو إلى الشاطئ عند Cape Pali ، فهبط إلى البر على مسافة بضعة أميال ، شمالى دورازو ، ثم بعث إلى القسطنطينية فى حراسة أحد كبار الموظفين[٢] . وفى القسطنطينية ، استقبله الكسيوس بحفاوة واحترام ، وأغدق عليه الهدايا الكثيرة ، غير أنه ظل يضيق على حريته[٣] .

على أن وصول هيو إلى القسطنطينية ، حمل الإمبراطور الكسيوس ، على أن يقرر السياسة التى ينبغى أن يتبعها مع الأمراء الغربيين . وما حصل عليه من أخبار ، وما مثل فى خاطره من مغامرة روسل بايليل ، أقنعه أنه مهما تكن الأسباب الواضحة للحروب الصليبية ، فإن الغرض الحقيقى للفرنج من اشتراكهم فى الحروب الصليبية ، يرجع إلى الحرص على أن يجعلوا لهم إمارات فى الشرق[٤] . لم يكن لألكسيوس أن

---

(١) Duncalf : The First Crusade p. 266.

(٢) Duncalf : The First Crusade. p. 266.

Runciman : History of the Crusades I. p. 144.

(٣) Anna Comnene : Alexiad II. pp. 213-215.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 145.

يعترض على هذا الهدف ، فإذا استردت الدولة البيزنطية ما كان لها من أملاك قبل غارات الترك ، جاز أن يقوم فى داخل محيطها إمارات مسيحية ، تعتبر فى نفس الوقت ، إمارات حاجزة . غير أن الكسيوس أراد أن يطمئن إلى أنه سوف يكون السيد الأعلى ، على كل ما ينشأ من إمارات . ولما يعلمه من أن الولاء والتبعية فى الغرب ، لا تتحقق إلا باتخاذ يمين ، عزم على أن يحصل على هذا اليمين من جميع القادة الغربيين ، يسرى على فتوحهم المقبلة . وكيما يفوز بإذعانهم ورضاهم ، غمرهم بالهدايا ، وبذل لهم الأموال والمساعدات ، حتى لا يشعروا بأن مكانتهم انحطت بعد أن أصبحوا أتباعاً له ، وفى الوقت ذاته ، يزيد بهذه الوسيلة فى مجده وهيبته . وإذ بهر هيو عظمة الإمبراطور وسخاءه ، لم يلبث أن وقع ، عن طيب خاطر ، فى شرك سياسة الكسيوس ، فأقسم يمين الولاء له[1] .

على أن الأمير الصليبى الذى تلى هيو فى الوصول إلى القسطنطينية ، جودفرى بويون **Godfrey of Bouillon** ، لم يكن من السهل إقناعه مثلما حدث مع هيو .

ارتحل جودفرى من الغرب ، حوالى الوقت الذى ارتحل فيه هيو ، غير أن تأخره عنه فى الوصول إلى القسطنطينية ، يرجع إلى أنه اتخذ الطريق الشمالى ؛ ومن دواعى اعتزازه بنفسه ، أنه ينحدر من جهة أمه لشارلمان ، فهو الابن الثانى ليوستاس الثانى كونت بولونيا ، وأيدا ابنة جودفرى الثانى ، دوق اللورين الأدنى . ولم يرث عن والده كونتيه بولونيا والإقطاعات الإنجليزية الشاسعة . وكاد الحظ يبتسم له ، وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، حين مات خاله دوق اللورين الأدنى ،

---

(١) **Runciman : History of the Crusades I. p. 145.**

وقبيل وفاته جعل جودفرى وريثا له : غير أن الإمبراطور هنرى الرابع صادر الدوقية ، وجعلها لابنه الطفل كنراد ، ومنح جودفرى ، من قبيل الترضية كونتية أنتورب . وما حازه جودفرى من ممتلكات ، شملت أنتورب وبويون فى الأردن ، وسائر أملاك الأسرة فى الجهات المجاورة ، جعلته من كبار السادة الإقطاعيين . وما بذله جودفرى من الولاء والمساعدة للإمبراطور هنرى الرابع ، فى حروبه بألمانيا ، والاشتراك فى حصار روما ، أدى آخر الأمر ، سنة ١٠٨٩ ، إلى أن يجعله الإمبراطور دوقا على اللورين الأدنى[١] . على أن جودفرى لم يفد من هذه الدوقية جاهاً أو سلطاناً ، إما لتداعى سلطة الدوق أو لسوء إدارته . يضاف إلى ذلك ما كان للنفوذ الكلونى من أثر فى اللورين ، فصار يشغل باله وقلقه التعاليم الكلونية وما تقترن به من عطف البابا ، كل ذلك جعله لا يطمئن إلى البقاء طويلا فى الدوقية ، ولن يبقى طويلا موضع ثقة الإمبراطور ، فقرر الاشتراك فى الحرب الصليبية[٢] . وتحتم على جودفرى أن يؤلف جيشاً وينفق عليه من كل ما يحصل عليه من الموارد . فالمعروف أنه حصل من اليهود على أموال كثيرة ، وباع ضيعتيه فى روزاى ، وستيناى على نهر الميز ، ورهن قلعة بويون عند أسقف لييج مقابل ١٥٠٠ قطعة من الفضة ، وبذا استطاع أن يعد جيشاً كبيراً[٣] .

---

(١) Duncalf : The First Crusade. p. 266.

Runciman : History of the Crusades I. p. 145.

Grousset : op. cit. I. pp. 11-12.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 146.

Duncalf : The First Crusade. p. 267.

(٣) Ibid : Loc. cit.

Runciman : op. cit. I. p. 146.

وما اقترن اسمه بالتقوى والتدين ، فى مصادر الحروب الصليبية ، وما ترتب على ذلك من أنه نتيجة لذلك اتخذ الصليب ، لم يقم على أساس سليم . فالواقع أن جودفرى اشتهر بابتزاز أموال الأديرة التى تقع بجوار بويون . وما اشتهرت به أمه ايدا من التقوى والورع ، دفعها إلى أن تحثه على أن يبذل قبل رحيله المنح والعطايا لبعض الكنائس ، حتى يبقى على سمعته . فلما انتشرت الحركة الصليبية فى أنحاء إقليم الواللون ، وأبدى الأمراء الإقطاعيون استعدادهم للحج ، قرر جودفرى أن يمضى معهم ، وتقرر اختياره قائداً للجيش باعتباره دوقاً(١) .

وجاء معظم أتباع جودفرى المشهورين من الاقليم المجاور لاقطاعاته ومن هؤلاء بلدوين ، الأخ الأصغر لجودفرى ، الذى لم يتخذ الصليب إلا بعد تفكير طويل استغرق بعض الزمن ، وصحبته زوجته وأطفاله ، أملا فى أن يقيم له إمارة فى الشرق . أما بلدوين لى بور Le Bourg فهو أيضا من أقارب جودفرى ، يصح أن يكون ابن عمه . واتخذ الصليب أيضا يوستاس الثالث كونت بولونيا الأخ الأكبر لجودفرى ، والذى ورث أملاك أبيه الشاسعة التى تقع على جانبى القنال الإنجليزى ، غير أنه ليس من المحقق ما إذا كان يوستاس سار فى صحبة جودفرى أو روبرت النرمندى(٢) .

صحب جودفرى أيضا عدد كبير من الفرسان المشهورين من بلاد الواللون ولوثرنجيا ، منهم بلدوين كونت هينولت Hainault ، وريجنالد كونت

---

(١) Duncalf : The First Crusade. p. 267-268.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 146.

أدرك بلدوين أن موطنه لم يهبه المستقبل ، فرحب بالحرب الصليبية ، لما يصح أن يترتب على اشتراكه فيها ، من إقامة مملكة له .

Runciman : op. cit. I. p. 147.

تول ، وڤارنرجراى Warner of Gray . والراجح أن هؤلاء السادة جهزوا جيوشا كاملة الأسلحة والعدة(١) .

عزم جودفرى على ألا يسلك الطريق الذى اتفق الأمراء الصليبيون على اتخاذه ، وهو الذى يجتاز إيطاليا ، ولعل ذلك راجع إلى ما أحس به من أنه من أنصار الأمبراطور أثناء نزاعه مع البابا ، ولذا أراد أن يتخذ الطريق الذى يجتاز بلاد المجر ، وهو الطريق الذى سلكه شارلمان ، على حد ما جاء فى الأسطورة عنه ، أثناء الحج إلى بيت المقدس(٢) .

غادر جودفرى اللورين فى آخر أغسطس سنة ١٠٩٦ ، واتخذ طريق الراين والدانوب ، حتى بلغ فى أواخر سبتمبر ، حدود المجر ، عند ليثا Leitha ، فبعث إلى كولمان سفارة بطلب الإذن باجتياز بلاده . غير أن ما تعرض له كولمان من المتاعب والاضطراب على أيدى رفاق جوتشالك ، وفولكمار وايميشو ، كل ذلك أثار عنده الريبة والشك ، ثم أذن آخر الأمر لجيش جودفرى باجتياز بلاده ، بشرط أن يبقى عنده رهينه ، بلدوين وزوجته وأولاده ، لاعتقاده أن بلدوين يعتبر أخطر رجل فى جيش جودفرى ؛ وحتى لا تتعرض بلاده للنهب والسلب . وقبل بلدوين هذا القرار بعد أن رفضه أول الأمر . فنفذ إلى مملكة المجر ، عند أودنبرج ، جودفرى وجنوده ، ووعد كولمان بأن يمد الجيش بالزاد والمؤن ، بأسعار معتدلة ، بينما بعث جودفرى من قبله رجالا يطوفون بالجيش ويعلنون أن كل من ارتكب العنف أو الجرائم ، فجزاؤه الموت ؛ فاجتاز الصليبيون بلاد المجر فى هدوء ، فبلغوا الحدود البيزنطية عند

---

(١) Duncalf : The First Crusade. p. 268.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 147.

سملن فى نوفمبر ، وعبر العساكر نهر سافا إلى بلغراد ، وعندئذ جرى إطلاق سراح الرهائن[1] .

تأهبت السلطات البيزنطية لاستقبال جودفرى ، بعد أن بلغتها أنباء اجتيازه المجر . وإذ كانت بلغراد مدينة مهجورة ، بعد أن تعرضت للنهب على أيدى جموع بطرس الناسك ، واصل الصليبيون السير إلى نيش ، التى اتخذها مقرا له حاكم بلغاريا ، نكيتاس . فالتقى جودفرى ، على الطريق بين نيش وبلغراد ، برجال الحكومة البيزنطية ، الذين كفلوا لهم حرية الشراء من الأسواق على امتداد الطريق ، ووعد جودفرى ألا يحصل إلا على ما تحتاجه الخيول من العلف . وتلقى جودفرى فى نيش هدية عبارة عن كمية كبيرة من المؤن ، وتوافر لرجاله من المؤن ما التمسوا شراءه . وتوقف الجيش أيضا فى صوفيه وفليبوبوليس ، كيما يحصل على حاجته من المؤن[2] . وعند فليبوبوليس ، وردت الأنباء بوصول هيو فرماندوا إلى القسطنطينية ، وما تلقاه هو ورفاقه من الهدايا الرائعة ، وبلغ من أثر هذا الخبر أن بلدوين هينو ، وهنرى ايش قدرا أن يسبقا الجيش إلى العاصمة ، كيما ينالا قبل غيرهم ، الهدايا والمنح . غير أن الخبر تردد أيضا ، أن هيو وبعض رفاقه فى أسر الكسيوس ؛ فبادر إلى أن يبعث إلى الأمبراطور يطلب منه إطلاق سراح الأسرى[3] .

ولما وصل جودفرى بجيشه إلى سليمبريا (سيلڤرى) Selymbria على بحر مرمرة ، فى ديسمبر سنة ١٠٩٦ ، أجاز لجيشه أن ينهب البلاد المجاورة

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 148.
Duncalf : The First Crusade. p. 268-269.

(٢) Duncalf : The First Crusade. p. 269.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 148-149.

لمدة ثمانى أيام ، بسبب موقف الأمبراطور ، من هيو وأصحابه[١] . فأرسل الكسيوس اثنين من الفرنج ، ليؤكدا أن هيو فرماندوا ، أطلق سراحه ، وليحثاه على المضى فى سيره ، وعندئذ استدعى جودفرى المغيرين ، وتحرك بجيشه إلى ضواحى القسطنطينية فى ٢٣ ديسمبر ، وقد تهيأ القوم للاحتفال بعيد الميلاد . وهدأت الأحوال حينما ظهر هيو فى المعسكر ، وجرت دعوة جودفرى للاجتماع بالأمــبراطور . على أن جودفرى رفض الدعوة أول الأمر ، لما يساوره من الشكوك فى نوايا الإمبراطور ، ولما تردد من أن جودفرى تلقى النصيحة بألا يثق اليونانيين[٢] .

على أن قدوم جودفرى بجيش ضخم ، تجهز بأحسن عدة ، خلق مشكلة للحكومة البيزنطية . فوفقا لسياسة الكسيوس ، أراد أن يستوثق من ولاء جودفرى وإخلاصه . فأرسل إليه هيو فرماندوا ، ليدعوه إلى زيارة البلاط الإمبراطورى ، وليقسم يمين الولاء . غير أن جودفرى تردد فى قبول الدعوة ، وساورته الشكوك فى موقف هيو ، ولعله اجتمع ببعض الناجين من حملة الشعوب ، فشرحوا له مسئولية الأمبراطور عن هذه الكارثة . ولعل جودفرى ، أحس بأنه ليس فى وسعه أن يقبل التبعية للإمبراطور البيزنطى ، بعـــد أن أقسم يمين الولاء للإمبراطور الألمانى هنرى الرابع . وكيفما كان الأمر ، أراد جودفرى أن ينتظر قدوم بقية الأمراء ، ليقف على ما يقصدونه ، ولم يستجب لاقتراحات هيو ، وعاد هيو إلى البلاط دون أن يحظى بإجابة يبذلها للإمبراطور الكسيوس[٣] .

---

(١) Duncalf : The First Crusade. p. 269.

(٢) Duncalf : The First Crusade. p. 269.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 149-150.
Duncalf : The First Crusade. p. 285.

حنق الكسيوس لموقف جودفرى ، وأمر بمنع المؤن التى سبق أن وعد بيذلها لعساكر جودفرى ؛ فلم يسع بلدوين إلا الإغارة على أرباض القسطنطينية ، حتى يتم رفع الحصار . وفى الوقت ذاته وافق جودفرى على انتقال معسكره من القرن الذهبى إلى بيرا Pera ؛ عبر القرن الذهبى ، حتى يكون بمأمن من الرياح الشتوية ، وليتيسر لشرطة الإمبراطور ملاحظته . وبقى جيش جودفرى فى هذا الموضع ، الشهور الثلاثة التالية ، لم يضطرب أثناءها النظام ، وأمدهم الإمبراطور بالمؤن الكافية . وفى أواخر يناير سنة ١٠٩٧ ، وجه الكسيوس مرة أخرى الدعوة إلى جودفرى للقدوم إلى البلاط ، غير أنه أصر على موقفه ، وقرر ألا يلتزم بشىء بعد أن ينضم إليه سائر القادة الصليبيين[١] .

حرص الكسيوس ألا يتمادى فى إثارة جودفرى ، حتى لا يعود لتخريب الأرباض والضواحى ؛ ولما اطمأن إلى أنه لم يعد ثمة اتصال بين عساكر اللورين والعالم الخارجى انتظر حتى يستبد القلق بجودفرى فيقبل التفاوض معه[٢] . على أن الكسيوس أراد أن يحسم الأمور ، حينما ترامى له نبأ قدوم الجيوش الصليبية عاجلا . ففى مارس ١٠٩٧ ، منع العلف عن الخيول ، ولما اقترب يوم عيد القيامة ، منع عنهم السمك والخبز . ورد الصليبيون على ذلك ، بما دأبوا عليه من الغارة على القرى المجاورة ، ثم نقلوا معسكرهم إلى خارج أسوار القسطنطينية ، واستعدوا لمهاجمتها ؛ وذلك فى جمعة الآلام ، يوم الخميس ٢ أبريل سنة ١٠٩٧ ؛ فساد الفزع فى المدينة[٣] . ولما لم ينجح الإمبراطور فى حمل جودفرى على أن يؤدى يمين الولاء ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 150

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 150.

(٣) Ibid : op. cit. I. p. 151

أو الانتقال إلى آسيا الصغرى ، أو الكف عن الغارة والنهب ، قرر التعرض للصليبيين بجيوشه النظامية ، فحلت الهزيمة بجودفرى ، ورضى آخر الأمر بأن يقسم يمين الولاء ، وأن يجتاز بجيوشـــه البوسفور إلى آسيا الصغرى(١) .

والراجح أن الاحتفال بتأدية اليمين ، حدث يوم أحد القيامة . فأقسم جودفرى وبلدوين وكبار القادة على الاعتراف بالإمبراطور سيداً أعلى ، على كل ما يفتحونه من بلاد ، وأن يسلموا لموظفى الإمبراطور كل ما يستردونه من بلاد ، كانت أصلا من أملاك الإمبراطور ، وعندئذ تلقوا الهدايا الكثيرة من الأموال(٢). ولم يلبث جودفرى ورجاله أن اجتازوا البوسفور إلى خلقيدونية ، ثم أقاموا معسكرهم عند بليكانوم Pelecanum ، على الطريق إلى نيقوميديا(٣) .

الواقع أن ما جرى من هذه الأحداث ، يصور تماما نوع العلاقات بين الإمبراطور والفرنج ، فلا شك أن الفرسان القادمين من الغرب اشتد تأثرهم بما للبلاط البيزنطى من أبهة وعظمة ، وبما يجرى به من احتفالات ومراسيم رزينة رائعة ، وبما اتصف به رجال البلاط من دماثة الخلق . غير أنهم أنكروا كل ذلك ، فما أصاب كبرياءهم من الجراح ، جعلهم غلاظ الطبع ، يميلون للمشاكسة والمناوءة(٤) .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 151.

(٢) Ibid : Loc. cit.

(٣) Anna Comnene : Alexiad II. pp. 220-226.

Chalandon : La Premiere Croisade pp. 119-129.

Ramsay : Historcal Geography of Asia Minor p. 185.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 153.

أما الجيوش النرمانية فإنها اجتازت بحر الأدرياتى بعد مضى ١٥ يوما على عبور هيو فرماندوا بأتباعه . والمعروف أن النرمان لم يحفلوا أول الأمر بدعوة ايربان للحرب الصليبية ، لما نشب بينهم من الحروب الداخلية عقب وفاة جويسكارد . إذ أن روبرت جويسكارد طلّق زوجته الأولى التى أنجب منها بوهمند ، وجعل كل ممتلكاته بإيطاليا إلى ابنه روجر بورصا من زوجته الأخرى سيجلجاتيا Sigelgaita . فأعلن بوهمند التمرد على أخيه روجر ، وحرص على أن يستخلص لنفسه اترانتو فى أقصى الطرف الجنوب الشرقى لشبه جزيرة إيطاليا . وعلى الرغم من أن روجر ملك صقلية قام بتسوية النزاع بين الأخوين ، فإن بوهمند لم يكف عن مناهضة روجر بورصا . غير أنه حدث سنه ١٠٩٦ أن اتفقت كلمة الأسرة على أن تنزل العقاب بمدينة أمالفى التى تمردت ضدهم . والواضح أن المرسومات البابوية المتعلقة بالحرب الصليبية ، قد صدرت فعلا وقتذاك ، واجتاز البحر إلى الشرق ، جماعات صغيرة من الإيطاليين من جنوب شبه الجزيرة . غير أن بوهمند لم يدرك أهمية الحركة الصليبية ، إلا حين قدم إلى إيطاليا الجيوش الصليبية من فرنسا فى الطريق إلى القبر المقدس ، وعندئذ رأى أنه يصح أن يفيد منها[1] . إذ أن عمه روجر ، ملك صقلية ، لن يسمح له مطلقا بأن يضيف إلى أملاكه دوقية أبوليا . فرأى أنه من الخير أن يقيم له مملكة على الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط ، فأثار حماس العساكر النرمانية المرابطة أمام أمالفى ، ثم أعلن أنه سوف يتخذ الصليب ، ودعا كل المسيحيين إلى اللحاق به . وفى نوبة الحماس الدينى ، وعلى مرأى من الجيش المحتشد ، خلع رداءه الأحمر الثمين ، ومزقه قطعا صغيرة ،

---

(١) Duncalf : The First Crusade : Clermont to Constantinople p. 270

ليجعل منها صلبانا وزعها على قادته . وبادر أتباعه بالانضواء تحت لوائه ، وحذا حذوهم كثير من أتباع أخيه ، وعمه روجر ، الذى جأر بالشكوى بأن الحرب سلبته جيشه[١] .

كان بوهمند وقتذاك يبلغ الأربعين من عمره ، ونظرا لتجربته الحربية فى ألبانيا ، أثناء اشتراكه مع أبيه فى القتال بهذه الجهات ، من ١٠٨١ ، إلى ١٠٨٥ ، فاق سائر القادة فى تأليف الجيش . فإلى جانب أتباعه ، وجماعة من أقاربه ، انحاز إليه كثير من نرمان إيطاليا وصقلية وفرنسا[٢] . ومع أن جيش بوهمند لم يضارع جودفرى فى العدد ، فإنه فاقه فى جودة الأسلحة ، وحسن التدريب[٣] . ومن أقاربه الذين اشتركوا فى الحروب الصليبية ، تانكرد ، ابن أخته ايمَّا ، الذى لم يتجاوز العشرين من عمره ، والذى أغراه بوهمند ، على حد الرواية التاريخية ، بما بذله له من الهدايا ، ووعده بأن يليه فى القيادة ، فضلا عن الكلام المعسول الذى كان دائما يبثه له ، ومنهم أيضا ريتشرد كونت برنكيبات Principate ، وراينولف أمير سالرنو وابنـــه رتشرد ، ومن نرمان فرنسا روبرت صورديفال وبويل شارتر[٤] : وأبحر الجيش من بارى فى أكتوبر سنة ١٠٩٦ ، وهبط فى ابيروس ، فى مواضع متناثرة على امتداد شاطىء بحر

---

(١) Chalandon : Histoire de la Domination Normande en Italie II. p. 302.

Runciman : History of the Crusades I. p. 154.

(٢) Duncalf : The First Crusade : Clermont to Constantinople p. 155

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 155.

(٤) Ibid : op. cit. I. p. 155

الأدرياتى ، بين دورازو وأڤلونا . تجمعت هذه القوات عند قرية دروبولى Dropoli[1] ، التى توافر بها مايحتاجهم من المؤن . وصاروا يرتحلون من قرية إلى قرية حتى بلغوا كاستوريا ، حيث كان المسيحيون يحتفلون بعيد الميلاد ، ولم تكن هذه البلاد مجهولة عند بوهمند ، لما سبق له من خبرة بها . غير أن السكان الأصليين ، لم ينسوا عداوتهم لهم ، فلم يقدموا لهم ما يحتاجونه من المؤن ، فلم يسع النرمان إلا الاستيلاء على الدواب والماشية والخيل . وعلى الطريق الممتد من كاستوريا إلى نهر الفاردار ، دمروا مدينة صادفوها ، كان ينزل بها البيالصة الملحدون . ولحق بهم عند الفاردار ، القوات البيزنطية ، التى جرى اعدادها لمصاحبتهم ، وتلقت هذه القوات من الأوامر ما يقضى بمنع النهب والسلب ، والحرص على ألا يزيد نزول الصليبيين فى موضع من المواضع ، على ثلاثة أيام[2] . فاجتاز الفاردار الجانب الأكبر من الجيش ، ولم يبق إلا مؤخرته فهاجمهم البجناك الموكلون بحراستهم ، فعبر إليهم تانكرد وردهم على أعقابهم[3] .

والتقى بوهمند ، بعد اجتياز سالونيك ، بالوفد الذى بعث به إلى القسطنطينية عند نزوله بالأراضى البيزنطية ، وبصحبته موظف بيزنطى كبير . وعلى الرغم من أن هذا الموظف أكد لبوهمند والنرمان ما سوف يجدونه أثناء الطريق من المؤن الوفيرة ، فإنه لم يكن من اليسير كبح جماح النرمان ومنعهم من مباشرة النهب[4] . ولما وصل الجيش النرمانى إلى روسة

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 155.

(٢) Ibid : op. cit. I. p. 156.

(٣) Duncalf : The First Crusade : Clermont to Constantinople. p. 271.

(٤) Duncalf : The First Crusade. p. 271.
Runciman : History of the Crusades I. p. 157.

(كيشان الحالية) ، فى تراقية ، قرر بوهمند أن يقبل دعوة الكسيوس ، بالتخلى عن الجيش والإسراع إلى القسطنطينية ، حتى يقف على ما يدور من المفاوضات بين الأمبراطور البيزنطى ، وقادة الغرب الذين وصلوا إلى العاصمة فعلا[١] . فتولى قيادة النرمان ، تانكرد ، فهيأ لهم الفرصة التى طالما تطلعوا إليها ، بأن يعيشوا بعيدا عن الوطن ، فيشير المؤرخ المجهول إلى أن تانكرد حينما رأى الحجاج يبتاعون الميرة ، بادر إلى الخروج بهم ، عن الطريق الرئيسى ، إلى واد وفير الخير ، حيث نعموا بالحياة الرغدة [٢] . وفى تلك الأثناء ، وصل بوهمند إلى القسطنطينية ، فى ١٠ أبريل ، فنزل خارج أسوار المدينة ، فى ديرى القديسين كوزماس ودامیان ، وفى اليوم التالى اجتمع بالإمبراطور البيزنطى[٣] .

كان بوهمند فى نظر الكسيوس ، أشد الصليبيين خطورة : فما تعرض له البيزنطيون من تجارب سابقة ، بما وقع من الحروب بين روبرت جويسكارد والإمبراطور البيزنطى ، جعلهم يدركون خطورة النرمان ، وشدة طموحهم وعنادهم ، وخيانتهم . ودلّ بوهمند على أنه خير قائد يتولى أمرهم ، وحاز بوهمند كذلك ثقة جميع العساكر ، وعلى الرغم من مبالغته فى الاعتداد بنفسه فى الإلمام بالفنون الحربية ، فالواقع أنه جانب الحكمة فى كثير من تصرفاته . على أن بوهمند كان دبلوماسيا حصيفا ، قوى الحجة ، بالغ القدرة على الإقناع ، وكان سياسيا بعيد النظر[٤] .

---

(١) Ibid : op. cit. I. p. 157.

(٢) Gesta Francorum II. 5. pp. 24-28

Duncalf : The First Crusade. p. 272.

(٣) Hagenmeyer : Chronologie de la premiere Croisade p. 64.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 157

ولم يسع أنه كومنين ، وقد عرفته واشتد كراهيتها له ، إلا أن تعترف بجاذبيته ، ووصفته بأن مظهره ينم عن صلابة وصرامة ، ولم تكن ابتسامته عذبة نقية ، بل تدل على المكر والخبث ، ومع ذلك لم تستطع أن تخفى إعجابها به(١) .

ونظراً لما هو معروف من أن بوهمند كان من أعداء الإمبراطورية البيزنطية ، فإن الكسيوس حرص على أن يجتمع به على انفراد ، كيما يكشف عن سريرته ونواياه . غير أنه لما تبين له استقامته ، وميله إلى المساعدة ، ولم يلمس منه ما يريبه فى نواياه ، دعا جودفرى وبلدوين ، ليشتركا فيما يجرى من المناقشات . والراجح أن بوهمند فاق سائر الصليبيين ، فى الإدراك ، بأن بيزنطة لازالت دولة قوية ، وأنه لن يتحقق غرض الصليبيين ، إلا بالارتكان إلى مساعدتها ، ولن يؤدى النزاع معها إلا إلى كارثة ، على حين أن التحالف معها سوف يفيد الصليبيين(٢) . فلم يتردد فى أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور ، ثم عرض على الكسيوس أن يعينه فى وظيفة دمستق الشرق ، أى القائد العام للقوات الإمبراطورية فى الشرق . والواقع أن هذا الطلب يدل على عبقرية بوهمند ، إذ أن هذه الوظيفة تجعله يسيطر على كل الجيوش المتحالفة وعلاقتها بالإمبراطور ، ويكون له السيطرة على سائر أمراء الإمبراطورية الأقوياء ، ويتسلّم كل ما يتم استرداده من البلاد ، ثم فى وسعه بعدئذ أن يقرر ما يفيده من هذه السلطة(٣) .

على أن هذا الطلب أثار أيضاً الحيرة والارتباك عند الكسيوس ،

---

(١) Anna Comnene : Alexiad III. pp. 122-124.

(٢) Funciman : History of the Crusades I. p. 158.

(٣) Rincman : The First Crusade : Constantinople to Antioch p. 286.

إذ أنه كان يخشى بوهمند ولا يثق فيه ، ومع ذلك حرص على أن يبقى على سلامة نيته ، فخصه بالتكريم والتشريف ، وغمره بالأموال ، غير أنه لم يرد عليه رداً قاطعاً ، ولوّح بأن ما اشتهر به بوهمند من النشاط والإخلاص ، يكفل ، له تولية هذه الوظيفة فى الوقت المناسب . وكان لزاما على بوهمند أن يقنع بهذا الوعد الغامض ، فمضى فى سياسة التعاون ، ودارت المنافسة بينه وبين الإمبراطور عن المساعدة التى يصح أن تبذلها الإمبراطورية للحملة الصليبية حتى تحقق أغراضها ، كأن يبذل لهم من الأموال والمؤن ما يعينهم ، وأن يوفر لهم وسائل المواصلات[١] . وعندئذ اجتازت قوات بوهمند البوسفور ، ولحقت بجيش جودفرى فى بليكانوم . أما تانكرد الذى كره سياسة خاله ولم يدرك أهميتها ، فإنه اجتاز المدينة ليلا وبصحبته ابن عمه رتشرد أمير سالرنو ، كيما يتجنب بذل يمين الولاء[٢] .

وقدم إلى القسطنطينية وقتئذ ريموند كونت تولوز فاستقبله الأمبراطور الكسيوس ، وجاء على رأس أضخم الجيوش الصليبية وأكثرها عددا ، وكان بصحبته أدهيمر أسقف لى بويه ، المندوب البابوى[٣] .

ويعتبر ريموند أكبر الأمراء بجنوب فرنسا ، وأكثر القادة الصليبيين مالا ، وتعتبر كونتيته ، تولوز ، أغنى دوقية فى فرنسا ، وورث أيضاً ماركيزية بروڤانس ، التى لا تقل فى ثروتها عن دوقيته . وارتبط بالبيت

---

(١) Anna Comnene : Alexiad II. pp. 280-284.
Gesta Francorum II. 28-32
Krey : A Neglected Passage in the Gesta pp. 57-78.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 159.
Anna Comnene : Alexiad II. 230-234.

(٣) Duncalf : The First Crusade. p. 272

الملكى بأسبانيا ، فى أراجون ، بصلة المصاهرة ، وشارك فى كثير من الحروب التى شنها المسيحيون على المسلمين بأسبانيا . وهو أول نبيل ناقشه إيربان فى مشروع الحرب الصليبية ، وأول من قبل الاشتراك فيها ، وكان يتطلع لأن يتولى قيادتها ، غير أن البابا حرص على أن تخضع الحركة للسيطرة الروحية . والراجح أن ريموند كان يأمل فى أن الحاجة إلى قائد علمانى سوف تشتد ، وعندئذ يصح أن يتحقق هدفه ، فدبر أمر الرحيل إلى الشرق فى صحبة أدهيمر[١] .

اتخذ ريموند الصليب ، أثناء انعقاد مجمع كليرمونت فى نوفمبر سنة ١٠٩٥ ، غير أنه لم يستعد لمغادرة البلاد إلا فى أكتوبر من السنة التالية . وبذل ريموند لفقراء الجند من المال ما يعينهم على تجهيز أنفسهم أثناء الرحيل إلى بيت المقدس ، وفى الرسالة التى وجهها البابا ايربان إلى سكان الفلاندر ، أشار إلى أن ريموند سوف يقدم المساعدة للمحتاجين . على أن جيش ريموند يضم أيضا أكبر عدد من غير المحاربين ، ولعل ريموند أحس أن من واجبه أن يساعد كل الحجاج . ويشير المؤرخ ريموند أجيل إلى أن جيش ريموند تألف من أولئك الذين قدموا من برجنديا ، وأوفرن ، وغسقونية ، الذين اشتهروا باسم البروفنسال ، على حين أنه أطلق على بقية العناصر ، اسم الفرنسيين ، غير أن الاسم المعروف عند خصوم المسيحيين ، أنهم اشتهروا باسم الفرنج . ولوقوع هذه الأقاليم على البحر المتوسط ، اشتهرت بما ساد بها من حضارة ، وكان لهذه الجهات أهمية كبيرة عند ايربان ، فى مساعدة الصليبيين ، نظرا لخبرتها واهتمامها بقتال المسلمين فى أسبانيا[٢] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 159.

(٢) Duncalf : The First Crusade. p. 272.

Porges,W : "The Clergy, the Poor and the non Combatants on the First Crusade" Speculum XXI (1946) 10-11

كان ريموند وقتذاك فى الخامسة والخمسين من عمره ، نذر أن يقضى ما تبقى من حياته بالأراضى المقدسة ، وباع جانبا من ممتلكاته ، حتى يتوافر له الأموال اللازمة للإنفاق على حملته . وصحب معه زوجته وابنه الأصغر ، بينما ترك برترام ابنه من زوجته الأولى ليتعهد أملاكه فى لانجدوك[١] . والواضح أن عدداً كبيراً من أتباع ريموند ، اشتركوا فى حملته ، ولوجود أدهيمر بالحملة ، وضح تمثيل رجال الدين ، الذين كان لهم أثر كبير فى تسيير الحملة ؛ إذ أن برنارد قسيس أدهيمر صار فيما بعد بطريركا على كنيسة أنطاكية[٢] .

اجتازت الحملة جبال الألب ، ونفذت إلى شمال إيطاليا ، إلى رأس بحر الأدرياتى . والتزم ريموند فى مسيره ساحل بحر الأدرياتى ، مجتازا استريا ودالماشيا . غير أن الجيش ظل نحو أربعين يوماً ، فى الشتاء القارس البرودة ، يشق طريقه فى دروب دالماشيا الصخرية الوعرة ؛ وتعرضت مؤخرة الجيش لاعتداء القبائل الصقلبية . وحرص الكونت على حماية عساكره ، فلم يخلد إلى الراحة إلا بعد الاطمئنان إلى سلامتهم . وأنزل ريموند التعذيب والتنكيل بمن وقع فى يديه من الأسرى من الصقالبة ، انتقاما لما تعرض له عساكره من الاعتداء[٣] .

وحينما خرج ريموند بجيشه ، وفر لهم من المؤن ما يكفى طوال الرحلة ، غير أنهم لما وصلوا إلى سكودرا (فى البانيا الحالية) أخذت المؤن فى النفاد ، فطاب ريموند إلى الأمير الصربى على أن يسمح للصليبيين

---

(١) Duncalf : The First Crusade. p 272-273.
Runcim n : History of the Crusades I. p. 160.

(٢) Porges : "The Clergy The Poor and the Non Combatants on the First Crusade" Speculum XXI (1946). pp. 21-23.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 161.

بأن يشتروا ما شاءوا من الأسواق ، على أنه وقع من الشجار ، ما ذهب ضحيته بعض رجال ريموند . وكان لزاماً على الجيش أن يسرع حتى يصل إلى الحدود البيزنطية ، عند دورازو ، فيلتقى بإخوانه المسيحيين وحلفائه ، فبلغ الصليبيون دورازو فى فبراير[١] .

رحب حنا كومنين ، بالصليبيين فى دورازو ، حيث كان ينتظرهم ، رسل من قبل الإمبراطور البيزنطى ، وحرس من البجناك ، لمرافقتهم إلى القسطنطينية ، على الطريق الإمبراطورى Via Egnatia ، وبعث ريموند إلى الإمبراطور يخطره بقدومه[٢] .

استأنف الجيش المسير ، غير أن رجال ريموند لم يخضعوا للنظام ، واشتدت كراهيتهم للحراس من البجناك ، ووقعت مصادمات عديدة بينهم أثناء الطريق ، وتعرض ريموند وأدهيمر للاعتداء ، وأصابتهم الجراح ، ووصل الجيش إلى روسه فى تراقية ، وتعرض أهل المدينة لاعتداء العساكر ، لأنهم لم يبيعوا لهم ما احتاجوه من المؤن : ثم قبل ريموند الدعوة التى وجهها إليه الكسيوس للقدوم إلى القسطنطينية ، وأشار فيها إلى حرص جودفرى وبوهمند على حضوره . والراجح أن الخوف من اتخاذ قرارات هامة أثناء تغيب ريموند ، هو الذى دفعه إلى قبول الدعوة فأسرع بالتوجه إلى بيزنطة فبلغها فى ٢١ أبريل ، فلقى الترحيب والاستقبال الحافل[٣] .

على أن المحادثات الودية بين الإمبراطور وريموند ، عكر صفوها

---

(١) Duncalf : The First Crusade. p. 273.
Runciman : History of the Crusades I. p. 161.

(٢) Ibid : op. cit. I. p. 161.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 24-25.
Runciman : History of the Crusades I. p. 162.

ما ورد من أنباء عن هزيمة الجيش البروفنسالى على أيدى القوات البيزنطية . ذلك أنه حينما ارتحل ريموند ، لم يكن بالجيش من القادة من يستطيع أن يحفظ النظام ، فشرع العساكر فى الإغارة على الجهات المجاورة . وحدث أنه كان يرابط فى الجهات القريبة ، فصائل من الجيش البيزنطى ، فتحركت لقتال المغيرين ، فأنزلت بهم هزيمة ساحقة ، فلاذوا بالفرار بعد أن تركوا أسلحتهم وأمتعتهم فى أيدى البيزنطيين(١) . فأثار غضب ريموند ماعاناه فى الطريق من المتاعب ، وما سمعه من أنباء سيئة عن هزيمة قوات البروفنسال . على أن الموقف الذى صادفه فى البلاط البيزنطى ، زاد من حيرته ، إذ ساورته الشكوك حينما لمس ما بين الكسيوس وبوهمند من علاقات ودّية . فكان هدفه أن يجرى الاعتراف به قائداً علمانيا لكل الحملة الصليبية ، نظراً لعلاقته بالبابا والمندوب البابوى ، غير أنه أحس بأن بوهمند أكبر منافس له ، وترددت الشائعات بأنه سوف يتولى القيادة من قبل الإمبراطور . فإذا صح ذلك ، فإن ريموند إذا أقسم يمين الولاء والتبعية للإمبراطور ، تحتم عليه أن يتلقى الأوامر من بوهمند ، باعتباره ممثلا للإمبراطور . عندئذ أعلن ريموند أنه لم يقدم إلى الشرق إلا ليعمل فى سبيل الله ، فالله وحده هو وليه ومولاه ، فكأنه قصد بذلك أنه الممثل العلمانى للبابا . غير أنه أشار إلى أنه إذا تولى الإمبراطور قيادة القوات الإمبراطورية ، فلا يسعه إلا أن يخدمه(٢) . فهذه الموافقة دلت على أن ريموند يكن الكراهية لبوهمند لا الإمبراطور . ولم يسع الإمبراطور إلا أن يجيب ، بأن ما يسود الشرق من الاضطراب ، وما يتهدد أملاكه الأوربية من أخطار من قبل المجريين والألمان والكومان والبجناك ، كل ذلك يمنعه من مغادرة العاصمة ، ومصاحبة الصليبيين

(١) Ibid : op. cit. I. p. 162.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. pp. 162-163

Grousset : Histoire des Croisades I. p. 25

إلى أعماق سوريا[١] . ولم تجد نفعا محاولات قادة الغرب لحمل ريموند على تغيير رأيه ، إذ أدركوا أن نجاح الحملة ليس محققا . ولما كان يأمله بوهمند فى أن يتولى القيادة العليا للحملة ، ولحرصه على إرضاء الإمبراطور ، صرح أنه سوف ينهض لنصرة الإمبراطور ، إذا لجأ ريموند إلى استخدام السلاح . ولم يشأ الكسيوس أن يضغط على ريموند ، غير أنه لم يبذل له من المنح والهدايا ما خص به سائر الأمراء . وحدث آخر الأمر ، فى ٢٦ أبريل ، أن وافق ريموند على أن يردد صيغة معدلة ليمين الولاء ، بأن وعد بأن يحترم حياة الإمبراطور ، وشرفه ، وأن يحرص على ألا يصيب الإمبراطور ضرر وأذى ، من جانبه أو من رجاله . وهذا النوع من الإيمان ، التى ينطوى على عدم إنزال الأذى والضرر ، كان مألوفاً عند الأتباع فى جنوب فرنسا ، يبذلونه لسادتهم الكبار ، ورضى الكسيوس بهذا القسم واكتفى به[٢] . والراجح أن وصول الجيش البروفنسالى ، وقدوم أدهيمر إلى القسطنطينية ، حدث فى تلك الأثناء ، وأن أدهيمر هو الذى أصلح الأمر بين الإمبراطور وريموند ، فلم تلبث العلاقات أن تحسنت بينهما ، ولعل ارتحال بوهمند كان أكثر أهمية فى الوفاق بينهما ، إذ اجتمع الإمبراطور بريموند على انفراد ، وشرح له أنه فى الواقع لا يضمر الحب للنرمان ، وأنه لم يجعل بوهمند قائداً عاماً . واجتازت جيوش ريموند البوسفور إلى آسيا الصغرى ، وتوطد العلاقات بينه وبين الكسيوس ، الذى أدرك أنه صار حليفاً لرجل قوى يستطيع أن يتخذه لمناوءة بوهمند ، وصار ريموند من أصدقاء الكسيوس المخلصين ، فصار يجله ويحترمه[٣] .

---

(١) Grousset: op. cit. I. p. 25.
Runciman : History of the Crusades I. p. 163.

(٢) Ibid : Loc. cit.
Grousset : op. cit. I. p. 26.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 163.
Anna Comnene : Alexiad. II. pp. 234-235

أما الجيش الصليبى الرابع فوصل إلى القسطنطينية فى مايو ١٠٩٧ ، وكان يقوده روبرت دوق نرمنديا ، وصهره ستيفن كونت بلوا . أما روبرت الثانى كونت فلاندر ، ابن عمهما الذى سبقهما فى المسير ، فإنه وصل عقب قدوم بوهمند .

قرر روبرت النرمندى الاشتراك فى الحرب الصليبية ، عقب أن بلغته الدعوة من البابا إيربان الثانى ، بعد انفضاض مجمع كلير مونت ، وطواف البابا فى أنحاء فرنسا . على أنه لم ينهض للمسير إلا بعد أن رهن دوقيته ، عند أخيه ملك إنجلترا ، مقابل عشرة آلاف قطعة فضية ، للإنفاق منها على الجيش ، وذلك فى سبتمبر سنة ١٠٩٦ ، ثم سار إلى Pontarlier حيث انحاز إليه ستيفن كونت بلوا ، وروبرت كونت فلاندر . لم يكن ستيفن يميل إلى الاشتراك فى الحملة ، غير أن زوجته أديلا Adela ، ابنة وليم الفاتح حملته على الاشتراك فيها . ولما اشتهر به ستيفن من الثروة ، لم يجد صعوبة فى جمع الأموال اللازمة لحملته ، وعهد إلى زوجته بإدارة أملاكه وأراضيه . وصحبه فى الحملة كبار أتباعه ، ومن رجال الدين الذين صحبوه ، القسيس فولشر شارتر ، من مؤرخى الحروب الصليبية(١) .

أما كونت فلاندر ، فالمعروف أنه ابن روبرت الأول الذى خرج سنة ١٠٨٦ حاجا إلى بيت المقدس ، ودخل فترة من الزمن فى خدمة الكسيوس ، وظلت العلاقات بينهما مستمرة حتى وفاة روبرت سنة ١٠٩٣ ، فكان من الطبيعى أن يشترك ابنه روبرت الثانى فى الحرب الصليبية(٢) .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 165.

(٢) Ibid : op. cit. I. p. 166.

وروبرت الأول كونت فلاندر هو الذى سبق الإشارة إليه ، حين جرى ذكر الخطاب =

اجتاز الجيش المتحد جبال الألب إلى إيطاليا ، والتقى فى نوفمبر ١٠٩٦ ، بالبابا إيربان الثانى فى لوكا ، التى أقام بها أياما ، أثناء قدومه من كريمونا إلى روما . وبعد أن بارك البابا زعماء الحملة ، توجهوا إلى روما لزيارة قبر القديس بطرس ، ثم مضوا إلى جنوب إيطاليا . واجتاز روبرت فلاندر بحر الأدرياتى ، على حين أن روبرت النرمندى وستيفن بلوا ، ومعهما فولشر ، قرروا أن يقضوا فصل الشتاء فى كالابريا . ووصل روبرت فلاندر إلى القسطنطينية حوالى الوقت الذى جاء فيه بوهمند[1] . والواضح أن روبرت كونت فلاندر ، لم يعارض فى أن يقسم يمين الولاء للإمبراطور الكسيوس ، وكان من الأمراء الذين ألحوا على ريموند فى أن يذعن للإمبراطور البيزنطى[2] .

وعند حلول الربيع ، حشد روبرت النرمندى وستيفن بلوا قواتهما ، فتحرك الجيش إلى برنديزى ، حيث نقلتهم السفن إلى ابيروس ، على أنه هلك غرقاً نحو أربعمائة من العساكر ، إذ تحطمت سفينتهم أثناء اجتيازها بحر الأدرياتى . ولم ترد إشارات إلى أن الصليبيين وجدوا صعوبة فى الحصول على المؤن ، بعد نزولهم فى ابيروس ، واتخاذهم « الطريق الرومانى القديم » فوصلوا إلى القسطنطينية فى ١٤ مايو سنة ١٠٩٧ ، فنزلوا بمعسكر خارج أسوار المدينة ، وتقرر السماح لهم بزيارة المدينة ، على أن يدخلوا جماعات صغيرة ، لا تزيد الواحدة على خمسة رجال ،

= المنسوب إلى الأمبراطور الكسيوس ، والذى وجهه إلى روبرت ، يستنجد به ، فأمده بخمسمائة فارس – انظر Duncalf : The First Crusade. p. 275

Knappen : "Robert II of Flanders in the First Crusade". Munro Essays. pp. 79-100.

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 166.

Duncalf : The First Crusade, Clermont to Constantinople, pp. 276-277.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 167.

ومن هؤلاء الزائرين ، فولشر المؤرخ الذى اشتد تأثره بما شهده من المناظر فى المدينة الرائعة الجمال[١] .

وبوصول روبرت النرمندى وستيفن بلوا إلى القسطنطينية ، تنتهى المرحلة الأولى من مراحل الحملة الصليبية الأولى . ومن الدليل على أن الموظفين البيزنطيين نجحوا فى معالجة هذه الأعداد الكبيرة من الصليبيين والحجاج ، أن المؤرخين الذين صحبوا الجيوش ، لم يوردوا فى كتاباتهم إلا شكاوى نادرة . على أنه ينبغى أن نلاحظ أيضاً أن قادة الجيوش الصليبية ، استطاعوا أن يكبحوا جماح هذه الجموع التى لم تألف النظام ، والتى نزعت إلى الغارة والنهب . فعلى الرغم من أن معظم الصليبيين ، بل الحجاج غير المحاربين ، ظنوا أن فى وسعهم أن يشتروا ما يحتاجونه من المؤن ؛ فإنه بدا لديهم من الاستعداد ما يجعلهم يغيرون على الجهات المجاورة ، متى سنحت الفرصة . والواقع أن ذلك ينطبق على جموع اللورين ونرمان جنوب إيطاليا ، والبروفنسال . ومن الدليل أيضاً على أن الكسيوس أدرك صعوبة معالجة هؤلاء الجموع ، أنه حرص على أن يتفاوض مع زعمائهم الواحد بعد الآخر ، عند الوصول مباشرة إلى القسطنطينية[٢] .

وأشد ما تأثر به الصليبيون الذين قدموا أخيراً إلى القسطنطينية ، ما بذله الإمبراطور البيزنطى من السخاء والكرم لجميع رجال الجيش ، وما أعده من نظام متين ، لتموين العساكر . فكتب ستيفن إلى زوجته : « أن والدك ، (مشيرا إلى وليم الفاتح) مهما بذل من المنح الوفيره ،

---

(١) Duncalf : The First Crusade, Ciermont to Constantinople p. 278-279.

(٢) Duncalf : The First Crusade, Clermont to Constantinople p. 279.

لا يضارع هذا الرجل (الإمبراطور البيزنطى) فيما ينفقه ويبذله »[١] .

مكث الجيش بالقسطنطينية نحو أسبوعين ، ثم اجتاز البوسفور إلى آسيا ، حيث انحاز إلى الجيش الرئيسى الذى أخذ وقتذاك يحاصر نيقية[٢] .

سياسة بيزنطة :

وبرحيل الصليبيين من القسطنطينية ، تهيأ لألكسيوس أن يستريح ويطمئن ، فما كان يأمل الحصول عليه من العساكر المأجورة من الغرب ، جاء بدلا منها جيوش ضخمة يتولاها قادة من أمراء أوربا وسادتها . وما ورد من تقدير عدد القوات الصليبية فى مصادر العصور الوسطى ، اتسمت دائما بالمبالغة ، على أن جموع بطرس الناسك ، التى ضمت عدداً كبيراً من غير المحاربين ، بلغت فيما يبدو عشرين ألفاً ، أما الجيوش الصليبية التى قادها الأمراء ، والتى بلغت القسطنطينية سنة ١٠٩٧ فيتراوح عددها بين ٦٠ ألف ، ١٠٠ ألف[٣] . على أن الإمبراطور الكسيوس أحرز توفيقاً كبيراً فيما اتخذه من تدابير لمعالجة هـذا العدد الكبير . فلم يعان أحد من الصليبيين شـيئاً من الحاجة إلى المؤن أثناء اجتياز البلقان ، ولم تقع إلا حالات استثنائية جرت فيها الغارة من أجل الحصول على المؤن . ولم يكن لدى الكسيوس من القوات ما يكفى لمنع هذه الغارات القليلة ، ولتجنب الاعتداء على المدن . ودلت قوات الكسيوس من البجناك على أنها قوة أمن وحراسة بالغة الأهمية والنفع ، ودأب سفراؤه على أن يلتزموا الكياسة فى معاملة أمراء

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 168.
Grousset : Histoire des Croisades I. p. 26-27.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 168-169.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 169 Appendix II pp. 336-341.

الغرب . ومن الدليل على ازدياد نجاح وسائل الإمبراطور وطرائقه ، ما نلمسه من السهولة فى اجتياز الجيوش الصليبية المتأخرة ، المؤلفة من عساكر شمال فرنسا ، الذين لم يتلقوا تدريباً عسكريا حسنا ، وتولى أمرهم قادة ضعفاء[1] . ولم تتعرض عاصمته الشهيرة بضخامتها وثروتها لحادث هام ، باستثناء ما وقع من الاشتباك مع رجال جودفرى[2] .

وعلى الرغم من أننا نلمس بوادر النفور بين البيزنطين والصليبيين ، الذين اعتبروا يمين الولاء ضربا من الإذلال ، ودليلا على انعدام الثقة ، وأدركوا الفرق الكبير بين حضارة بيزنطة ، وبين تأخرهم وانحطاط مستواهم الحضارى ، فاعتبرهم البيزنطيون لصـــوصاً ، مصدر نكد وتعب ، بينما اشتد حقد الصليبيين عليهم ، فإن الكسيوس لم يكن ساخطا ، ولا سيما بعد أن زال الخطر من القسطنطينية ، وتوجه الصليبيون لقتال الترك . وعزم مخلصاً على أن يتعاون مع الصليبيين ، بشرط ألا يضحى بمصالح الإمبراطورية فى سبيل مصالح فرسان الغرب ، لاعتقاده أن سعادة العالم المسيحى ، تتوقف على سعادة إمبراطوريته[3] .

أضحى الصليبيون فى آسيا الصغرى ، على استعداد لقتال المسلمين لاسترداد الأملاك الإمبراطورية ، وما اختاروه فيما بعد من إنشاء إمارات حاجزة ، وراء أطراف الإمبراطورية البيزنطية ، يصح أن يزيد فى تأمين الحدود ، طالما استمرت المحافظة على الاعتراف بسيادة الأمبراطور . غير أن نجاح الخطة بأكملها توقف على مدى احتفاظ الصليبيين باليمين

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 169-170

(٢) Runciman : The First Crusade, Constantinople to Antioch p. 288.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 170-171

التى أقسموها للإمبراطور[1] ، وعلى اتخاذ قرار واضح ، يحدد ما يقصد به الأملاك السابقة للإمبراطورية ، وتطلبت أيضاً ، أن يشترك فعلا فى الحملة جيوش بيزنطية ، وأن ينصاع الصليبيون لأوامر القادة البيزنطيين المتمرسين فى الفنون الحربية[2] .

سير الحملة :

وفقا لشروط المعاهدة المبرمة بين الإمبراطور والصليبيين ، تعاهد الصليبيون بانتزاع نيقية (أزنيق الحالية) من الترك . لم تكن نيقية فحسب مدينة مقدسة فى التاريخ المسيحى ، بل كانت أيضاً حاضرة السلطنة السلجوقية بآسيا الصغرى ، التى يحكمها وقتذاك قلج أرسلان ابن سليمان . وهى تقع على شاطئ بحيرة اسكانيوس غير بعيد من بحر مرمرة ، على الطريق الحربى البيزنطى القديم الذى يجتاز آسيا الصغرى ، وكان لا بد من الاستيلاء عليها ، قبل المضى فى الزحف فى أملاك الترك . والمعروف أن البيزنطيين اهتموا بتحصين نيقية ، ولا زالت استحكاماتها قوية ، وكان معظم سكانها من المسيحيين ، غير أنه رابط بها حامية

---

(١) الواضح أن كل القادة الصليبيين أقسموا يمين الولاء للأمبراطور الكسيوس كومنين ، ما عدا تانكرد ، وأمير تولوز ، والراجح أن الكسيوس تفاهم معه سراً . تعاهد القادة على أن يستردوا للأمبراطور من الأملاك البيزنطية ما استولى عليه الترك من نيقية إلى أنطاكية ، فاعترفوا بنواب (أتباع) الأمبراطور فى آسيا . وتعاهد الأمبراطور بأن يمد الصليبيين بكل عساكره ، وأن يتخذ الصليب ، وأنه إذا لم يستطع أن يصحبهم ، فينبغى أن يضم إليهم ، قوة عسكرية ، (وهى التى قادها تاتيكيوس) . ويقرر المؤرخ Chalandon ، أنه انعقدت فى منتصف مايو سنة ١٠٩٧ ، معاهدة بين الكسيوس وبوهمند فى هذا الأمر . انظر

Grousset : op. cit. I. pp. 27-28

Chalandon : Alexis Comnene p. 188.

(٢) Runciman : History of the Crusade I. p. 170.

: The First Crusade p. 288.

من العساكر التركية ، واستقر بها رجال البلاط السلجوقى ، بالإضافة إلى زوجة السلطان وأبنائه وأمواله ، ويتحكم هذا الحصن فى سائر الطرق التى تجتاز الإقليم[١] . ولذا حرص الكسيوس على أن يعجل الصليبيون بمهاجمته ، نظرا لقرب حلول فصل الصيف . ففى أواخر أبريل سنة ١٠٩٧ ، وقبل أن يصل إلى القسطنطينية الجيوش القادمة من شمال فرنسا ، صدرت الأوامر بإقامة المعسكر فى بايكا نوم ، والزحف على نيقية[٢] .

الواقع أن الزمن كان مواتيا لفرض الحصار على نيقية وقتذاك ؛ إذ أن السلطان السلجوقى ، كان بعيدا عن عاصمته ، توجه إلى الحدود الشرقية كيما ينازع أمراء دانشمند ، السيادة على ملطية ، بينما كان أمير ملطية ، جبرائيل الأرمنى ، يثير النزاع بين الأمراء المجاورين ويوقع بينهم الفتنة والبغضاء . لم يدرك قلج أرسلان ما يتهدده من خطر من جهة الغرب ، فما أحرزه فى يسر من انتصار على جموع بطرس الناسك ، جعله يحتقر الصليبيين ويزدريهم . فلم يرسل إلا جانبا من جيشه صوب الغرب ، حينما علم باحتشاد عساكر العدو فى بليكا نوم ، غير أن عساكره لم تصل إلا بعد أن زحف الصليبيون على نيقية[٣] .

فى مايو سنة ١٠٩٧ ، وصل الصليبيون إلى نيقية ، فعسكر جودفرى برجاله ، خارج السور الشمالى ، بينما اتخذ تانكرد وعساكره ، وانضم إليه

---

(١) Runciman : History of the Crusade I. p. 172.
Grousset : op. cit. I. p. 28.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 176.

(٣) Ibid : op. cit. I. p. 177.
Grousset : op. cit. I. p. 28.
Matthieu d. Edesse. Documents arméniens I. p. 23.
Chronique de Michel le Syrien p. 187.

بطرس الناسك ، مواقعهم خارج السور الشرقى ، بينما اختص جيش ريموند بالسور الجنوبى . أما بوهمند فبقى بالقسطنطينية فترة من الزمن ، كما يدبر مع الإمبراطور أمر إمداد الجيش بالمؤن . وصحب العساكر طائفة من المهندسين البيزنطيين بقيادة مانويل بوتوميتس Butumites[1] . ولم يلبث بوهمند أن قدم من القسطنطينية ، وتدفقت منذ قدومه المؤن برأوبحراً . واحتشد كل الجيش الصليبى ، بعد وصول روبرت النرمندى وستيفن بلوا بجيوشهما فى ٣ يونية . فصار الجيش كتلة واحدة ؛ على الرغم من أنه لم يكن ثمة قائد عام ، فكانت القرارات يصدرها الأمراء ، بعد اجتماعهم فى هيئة مجلس ، ولم يقع بينهم حتى وقتذاك اختلاف كبير . وفى تلك الأثناء قدم الكسيوس إلى بليكانوم ، وتم الاتصال بينه وبين القوات البيزنطية[2] .

لم تصل أول قوة تركية لنجدة حامية نيقية إلا بعد قدوم ريموند وتطويق المدينة فلم تلبث هذه القوة أن انسحبت ، وأخذت تترقب قدوم الجيش الرئيسى بقيادة السلطان ، الذى كان فى طريقه لإنقاذ المدينة[3] . وحوالى ٢١ مايو قدم السلطان بجيشه من جهة الجنوب ، بعد أن عقد هدنة مع دانشمند وبادر بالهجوم على الصليبيين ، كيما يشق له طريقاً إلى داخل المدينة . ولم تلبث المعركة أن نشبت بين السلطان وقوات الصليبيين بقيادة ريموند وأدهيمر ، وروبرت فلاندر ، غير أن السلطان لم يستطع التغلب على مقاومة الصليبيين ، ولم يتيسر له شق طريق

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 177-178.
Grousset : op. cit. I. p. 28-29.

(٢) Runciman : The First Crusade. Constantinople to Antioch p. 289.
Grousset : op. cit. I. p. 29.

(٣) Runciman : History of the crusades I. p. 179.

إلى داخل المدينة ، فانسحب السلطان إلى الجبال ، وطلب إلى الحامية أن تتخذ خير ما تراه من الوسائل لصالحها[١] .

على الرغم من الخسائر التى لحقت الصليبيين ، فإنهم ، بعد انسحاب السلطان ، ركزوا الهجوم على المدينة ، غير أن الاستحكامات كانت بالغة المناعة ، ولم ينجح ريموند وأدهيمر فى نقب برج من الأبراج بجنوب المدينة ، وما أحدثوه من ثغرة صغيرة ، أصلحها ليلا المحاصرون . يضاف إلى ذلك أن المؤن لا زالت تصل إلى المدينة عن طريق البحيرة . فطلب الصليبيون إلى الإمبراطور أن ينهض لمساعدتهم فأمدهم بأسطول صغير تحت قيادة بوتوميتس Butumites[٢] .

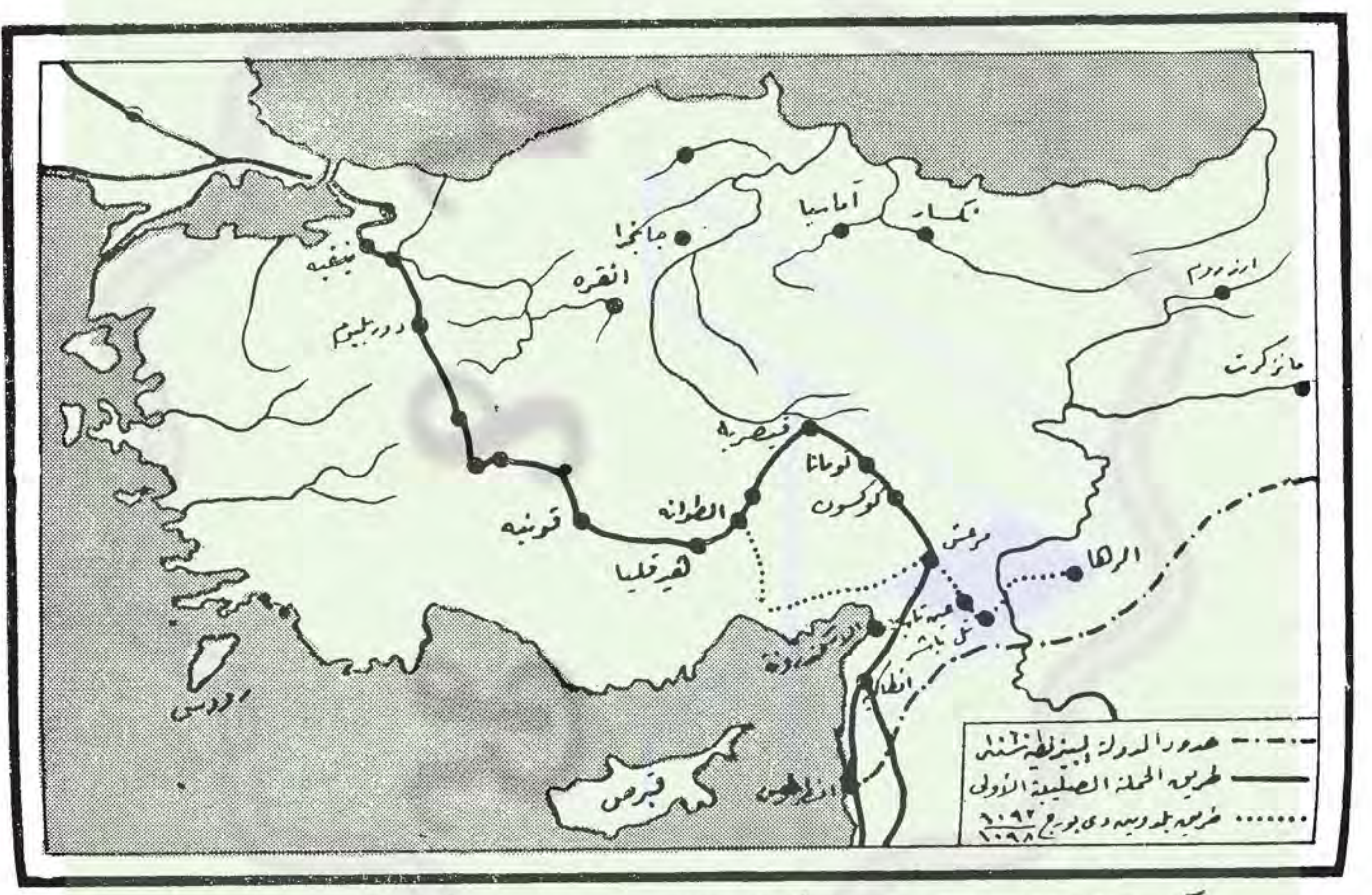
ولما تبين للحامية ما يبذله الإمبراطور من المساعدة ، قررت التسليم ، وهذا ما كان يأمله الكسيوس . إذ حرص على ألا يضيف إلى أملاكه مدينة تخرب معظمها ، أو تعرضت للنهب ، ولا سيما لأن معظم سكانها من المسيحيين ، فلم يكن بها إلا فئة قليلة من النبلاء بالبلاط السلجوقى إلى جانب الحامية التركية . ولما أحس العساكر بأن الصليبيين يدبرون هجوماً شاملا ، بادروا بالموافقة على شروط التسليم للإمبراطور ، التى تقضى بالابقاء على حياتهم وتركهم أحراراً . وفى ١٩ يونية ١٠٩٧ ، نفذت إلى المدينة القوات الإمبراطورية ، ومعظمها من البجناك ، الذين قدموا من جهة البحيرة[٣] . والراجح أن القادة الصليبيين كانوا يعلمون بأمر المفاوضات ، التى تدور بين الحامية التركية فى نيقية ، وبين السلطات البيزنطية ، وأنهم وافقوا عليها ، لأنهم أدركوا أنه لن يسمح لهم بامتلاك

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 179-180.

(٢) Ibid : op cit. I. p. 180.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 29-30.



آسيا الصغرى زمن الحملة الصليبية الأولى


A S R

نيقية ، بينما حزن العساكر لأنه لم تتهيأ لهم الفرصة لنهب المدينة ، فلم يسمح بدخول المدينة إلا لجماعات منهم قليلة العدد ، خضعت لمراقبة الشرطة البيزنطية ، وكان الصليبيون يأملون أيضاً فى أن يحصلوا على الفدية من النبلاء الترك ، غير أن الإمبراطور لم يمكنهم من ذلك أيضاً ، فازدادت كراهية الصليبيين للإمبراطور الكسيوس[١] .

على أن هذه الكراهية خفف من حدتها ، إلى حد ما ، ما اشتهر به الإمبراطور من السخاء ، فأمر بأن يصرف لكل محارب صليبى نصيبه من الجراية ، وعرض أن يدخل فى خدمته ، فى حامية نيقية ، من يشاء منهم[٢] ، بينما استدعى قادتهم للقدوم عليه فى بليكانوم ، وبذل لهم مقادير كبيرة من الذهب والتحف ، من الغنائم التى حصلوا عليها . وطلب إلى الفرسان الذين لم يحلفوا بعد يمين الولاء له ، أن يؤدوا ذلك ، فأذعن لطلبه عدد كبير من صغار السادة ، الذين لم يشأ أن يستحلفهم عند اجتياز القسطنطينية . أما ريموند وتانكرد ، فظلا على عنادهما ، واكتفى الإمبراطور بما رتبه من علاقة مع ريموند ، ولم يلبث تانكرد ، بعد تدخل بوهمند أن أقسم يمين الولاء[٣] .

أدرك الصليبيون أهمية تحالفهم مع البيزنطيين ، فيما جرى احرازه من نجاح . ولما لم يكن فى وسع الكسيوس أن يصحب الصليبيين فى الطريق

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 181.
Anna Comnene : Alexiade III. pp. 12-13.
Grousset : op. cit. I. p. 30.

(٢) Anna Comnene : Alexiade III. 33-34.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 182.
Grousset : op. cit. I. p, 34.

المؤدى إلى قونية، أمدهم بفصيلة من القوات البيزنطية بقيادة تاتيكيوس اليونانى Tatikios المشهور بخبرته وكفايته الحربية ، ومن الطبيعى أن يشترك الصليبيون والبيزنطيون فى القتال فى آسيا الصغرى[١] . وأشغل الكسيوس هذا الانتصار فاسترد من الترك ميزيا ، وايونيه ، وليديا .

ومن نيقية اتخذ الصليبيون ، فى يونيه ١٠٩٧ ، الطريق البيزنطى القديم الذى يخترق آسيا الصغرى ، من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، وهذا الطريق يتجه شرقاً والراجح أنه يمر بأنقرة ، فى طرفها الجنوبى ، ثم يتفرع بعد اجتياز نهر هاليس ، إلى طريقين يستمر أحدهما فى المضى إلى أرمينيا ، أما الطريق الآخر فيجتاز جبال طوروس ، إلى وادى الفرات ، وإلى قليقية[٢] .

والمرحلة الثانية التى لا بد أن يجتازها الصليبيون سوف تؤدى بهم إلى جسر على النهر الأزرق ، حيث عسكروا يومين ، عند قرية Leuce (ليفكه الحالية Lefke) . وتقرر تقسيم الجيش إلى قسمين، وذلك لتيسير أمر مؤونة الجيش ، فيتقدم أحدهما الآخر ، بأن يسبقه فى المسير يوماً . وتألف الجيش الأول بقيادة بوهمند من نرمان جنوب إيطاليا وشمال فرنسا ، وعساكر كونت فلاندر وستيفن بلوا ، فضلاً عن البيزنطيين الذين أمدوهم بالأدلاء . واشتمل الجيش الآخر على عساكر جنوب فرنسا واللورين وعساكر كونت فرماندوا ، وكانوا بقيادة ريموند . وبادر بوهمند بالمسير إلى دوريليوم[٣] .

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 34.

(٢) Ramsay : op. cit. pp. 74-82.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 184.

Grousset : op. cit. I. p. 32.

تراجع السلطان السلجوقى ، بعد سقوط نيقية ، وتوجه نحو الغرب بكل ما لديه من قواته ، وبصحبته حسن أمير قبادوقيا ، وجيش بقيادة غازى بن دانشمند ، وفى ٣٠ يونيه اتخذ موضعه فى وادى بالقرب من دوريليوم ، مستعدا لمهاجمة الصليبيين ، عند محاولتهم اجتياز الدروب(١) . والمعروف أن دانشمند يسيطر على الجانب الأكبر من قبادوقيا وبونطس ، ويخضع له جيش ضخم(٢) .

وحوالى ذلك الوقت عسكر الجيش الصليبى الأول ، بقيادة بوهمند ، فى سهل قريب من دوريليوم (اسكى شهر) ، فاحتشدت قوات المسلمين ، وشنت هجوماً كبيراً على القوات الصليبية ، وطوقت معسكر الصليبيين ، وتراءى للمسلمين « أن سائر المرتفعات والتلال والوديان وكل السهول فى الداخل والخارج ، امتلأت بالجموع المؤلفة من الترك والعرب . . »(٣) ؛ على أن الترك زحفوا من التلال وانقضوا على الجيش الصليبى ، ودفعوا برماتهم إلى الصفوف الأمامية ، فيفرغون سهامهم فى الرمى ، ثم يبادرون إلى الانسحاب ، ويحل مكانهم طائفة أخرى من الرماة . ولما ارتفع النهار (يوليه) واشتدت الحرارة ، ساور بالصليبيين الشك فيما إذا كان بوسعهم أن يصمدوا لقذائف الترك المنهمرة عليهم ، على أن ما حدث من تطويقهم جعل هروبهم أمرا مستحيلا ، فأخذ بوهمند يتفقد الصفوف ، ويشجعهم على المضى فى القتال ، ويشرح لهم أن الاستسلام والإذعان لن يؤدى إلا إلى الاسترقاق ، فعزموا على الاستشهاد(٤) إذا تطلبت

---

(١) Runciman : History of the Crusades. I. p. 184.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 32.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 32.
Histoire Anonyme trad. Brehier p. 47.

(٤) Histoire Anonyme trad. Bréhier p. 45-47.
Grousset : op. cit. I. p. 33.

الأمور ذلك . ثم حدث آخر الأمر أن قدمت طلائع الجيش الصليبى الثانى بقيادة جودفرى ، وتلاها ريموند بعساكره ، وقد بعث بوهمند يستحثهما فى القدوم(١) . وعندئذ لم يستطع الترك أن يحولوا دون اجتماع الجيش ، وقويت الروح المعنوية عند الصليبيين ، وشرع الأمراء الصليبيون فى القيام بهجوم شامل ، يحدوهم الأمل فى الحصول على الأموال والغنائم . لم يكن الترك مستعدين لمواجهة هذا الهجوم الشامل ، والراجح أن مؤنهم أخذت تنفد ، يضاف إلى ذلك أن أدهيمر افترق عن الجيش الصليبى ، واستطاع أن يهاجمهم من التلال الواقعة خلفهم ، كل هذه العوامل رجحت كفة الصليبيين ، وتحطمت خطوط الترك ، وانسحبوا جهة الشرق ، وتركوا وراءهم معسكرهم قائما ، فوقع فى أيدى المسيحيين ، بما حفل به من خيام السلطان والأمراء ، والثروة والغنيمة ، فضلا عما تركوه من الخيول والدواب والإبل والماشية(٢) .

وعلى الرغم من نجاح الصليبيين ، فإن عدداً غير قليل من سادتهم لقى مصرعهم ، منهم أخو بوهمند ، وليم ، وروبرت كونت باريس . وتلقى الفرنج درساً لن ينسوه ، بأن يولوا عساكر الترك ما يليق بهم من التقدير والاحترام ، فأولوا الترك عامة عن طيب خاطر ، من الإعجاب ، ما لم يفز به البيزنطيون ، فاعتبروا أن ما لدى البيزنطيين من طرق سليمة فى فنون الحرب ، ليست إلا طرقا متداعية ، بالقياس إلى خطط الترك(٣) . ولم يعترفوا بما كان للبيزنطيين من نصيب فى القتال ،

---

(١) Ibid : op. cit. I. p. 34.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 186.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 187.

فالمؤرخ النرمانى المجهول مؤلف كتاب الجستا ، يشير إلى أنه لو كان الترك مسيحيين لاعتبرهم من أنقى العناصر وأكثرها شجاعة ، وردد الأسطورة التى تشير إلى أواصر القرابة والنسب بين الفرنج والترك ، باعتبارهما منحدرين من الطرواديين[١] ، وهى أسطورة لم تستند إلى أساس اثنولوجى ، إنما قامت على ما يكنه الجانبان ، الفرنج والترك ، من الكراهية للبيزنطيين[٢]، على أنه مهما يكن من براعة الجندى التركى ، فإن هزيمتهم هيأت للصليبيين الطريق لاجتياز آسيا الصغرى . إذ أدرك السلطان أن ما لدى الفرنج من العساكر والقوة فاق كل ما توقعه ، ولذا ليس فى وسعه أن يقاومهم ، ولم يسعه إلا أن يعمل على عرقلة تقدم الصليبيين ، بما قام به من تخريب البلاد والأقاليم ، التى يجتازونها[٣] .

والواقع أن ما حدث من نزول الصليبيين بآسيا الصغرى ، وما أحرزوه من انتصار حسم أمر القوة ، لمدة قرن من الزمان ، فى الشرق الأدنى : فمنذ معركة مانزيكرت سنة ١٠٧١ ، كانت القوة التركية هى التى تسيطر على الشرق . غير أنه نجم عن معركة دوريليوم ، أن صار عامل حربى جديد ، يتمثل فى قوة الفرنج ، التى أزالت فى نظر المؤرخين الأوربيين ، آثار معركة مانزيكرت[٤] .

لم يصعب على الصليبيين أمر اختيار الطريق الذى يسلكونه ، بعد معركة دوريليوم . فالطريق الحربى المؤدى إلى الشرق لابد أن يجتاز الإقليم الخاضع للدانشمنديين والأمراء الذين لم تتحطم قوتهم ، غير أن ضخامة الجيش البيزنطى وكثرة عدد الحجاج المرافقين له ، والبطء

---

(١) Gesta Francorum trad. Bréhier p. 50-52.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 188.

(٣) Ibid : op. cit. I. p. 188.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 35.

فى المسير ، حتمت ، وفقا لمشورة تاتيكيوس والأدلاء البيزنطيين ، أن يتخذوا الطريق الذى يحازى حافة الجبال ، التى تقع جنوب الصحراء ، ومع ذلك فإن هذا الطريق لم يكن صالحا ، نظراً لما تعرض له ، نحو عشرين سنة ، من غارات التركمان وما ترتب عليها من تخريب القرى والزراعة ، وطم الآبار ، وتحطيم الجسور ، وتفرق السكان وتشتيتهم ، ولم يخف ما كان من سوء النية المتبادلة بين الصليبيين والبيزنطيين[١] . اجتاز الصليبيون دروب جبل السلطان ، ثم لم يلبثوا أن عادوا إلى اتخاذ الطريق الرئيسى ، غير أن افتقارهم إلى المياه والمؤن ، فضلا عن ثقل الأدوات الحربية ، وشدة الحرارة ، أدى إلى هلاك عدد كبير من الخيول ، ومعاناة الفرسان المتاعب والصعاب ، ومع ذلك ظلت الروح المعنوية عند الجيش قوية[٢] .

ثم بلغ الصليبيون قونية فى أغسطس سنة ١٠٩٧ ، وكانت بأيدى الترك السلاجقة منذ ثلاث عشرة سنة ، ولم يلبث قلج أرسلان أن اتخذها عاصمة له بعد سقوط نيقية فى أيدى الصليبيين . على أن السلطان السلجوقى ومن معه من الترك ، انسحبوا إلى الجبال ، وحرص على ألا يترك للصليبيين شيئاً من الزاد والمؤن ، فحمل معه كل ما استطاع أن ينقله ، على أنهم لقوا المساعدة من الأرمن بهذا الإقليم ، فأمدوهم بالمؤن والماء ، التى تكفيهم حتى هرقلة ، وواديها الخصيب[٣] . ووجد الصليبيون

---

(١) Runciman : op. cit· I. p. 188.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 189.
Grousset : op. cit. I. p. 36.
Histoire Anonyme trad. Bréhier pp. 55-57.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 37.
Runciman : History of the Crusades I. p. 189.

فى هرقلة أيضاً ، جيشاً من الترك بقيادة الأمير حسن والأمير الدانشمندى ، على أنه لم تجر معركة بين الفريقين فى هذا الموضع ، إذ انسحب الترك صوب الشمال ، وتخلوا عن المدن للصليبيين(١) .

وبعد أن استراح الجيش الصليبى فى هرقلة أربعة أيام ، افترق عن الجيش الرئيسى ، تانكرد ، وبلدوين شقيق جودفرى ، وذلك فى ١٤ سبتمبر ١٠٩٧ ، وتوجها صوب الجنوب إلى قليقية(٢) . فاجتازا بجيوشهما من النرمان والفلمنكيين ، واللورين ، عند البدندون (بوزنتى الحالية) دروب قليقية ، التى تفصل جبال طوروس القليقية ، من جبل اللكام ، ثم هبطا إلى سهل طرسوس . وسوف نشير فيما بعد إلى ما قام به هذان القائدان فى هذه الجهات(٣) .

أما الجيش الرئيسى فتحرك من هرقلة صوب الشمال الشرقى ، إلى قيصرية ، (قبادوقيا) ، فبلغها فى آخر سبتمبر سنة ١٠٩٧ ، ولم يلق الصليبيون مقاومة من قبل الترك ، الذين درجوا على خطة الانسحاب ومحاولة عرقلة طريق الصليبيين ، بما لجأوا إليه من تجريد المدن من الزاد والمؤن وتخريب البلاد أمامهم . ومضى الصليبيون فى طريقهم إلى كومانا (بلاكنتيا الحالية Placentia) ، وهى مدينة وافرة الغنى والرخاء ، سكانها من الأرمن ، فاستولوا عليها دون أن يصادفوا مقاومة . والواضح أن ما أصابه الصليبيون فى هذه المرحلة من نجاح يرجع إلى أسباب

---

(١) Ibid : op. cit. I. p. 190.
Anna Comnene : Alexiade HI. p. 18-19.
Grousset : op. cit. I. p. 37.

(٢) Grousset : Histoire des Croisades I. p. 37.
Runciman : History of the Crusades I. p. 191.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 37.

عديدة ، منها أن البلاد الواقعة على الطريق الذى اتخذوه يسكنها مسيحيون، يونانيون وأرمن ، فمن الطبيعى أن يبذلوا لهم ما فى وسعهم من المساعدات ، ومنها ما كان من ضخامة الجيوش الصليبية ، بالقياس إلى القوات الإسلامية التى صادفتها . يضاف إلى ذلك أن القوات التركية المرابطة فى مواضع كثيرة بآسيا الصغرى لم تحتشد كلها تحت قيادة واحدة لمواجهة الصليبيين ، فترتب على ذلك أنه لم تشترك الجيوش الإسلامية التى صادفها البيزنطيون فى آسيا الصغرى فى معركة حاسمة ضد البيزنطيين ، ولم تنهض القوى الإسلامية فى الجهات الأخرى لمساعدتهم ، لما غلب وقتذاك من افتراق كلمة المسلمين ، ونشوب الحروب الداخلية فى الشام والعراق[١] . وما هو جدير بالذكر أن كل بلد وقع فى أيدى الصليبيين ، تولى حكمه رجل ، ترشحه الحكومة البيزنطية ، وفى ذلك دليل على استمرار التعاون بين الصليبيين والبيزنطيين ، والحرص على تنفيذ المعاهدة التى انعقدت بين الإمبراطور البيزنطى والأمراء الصليبيين . والواقع أنه لو لم يقم البيزنطيون بإرشاد الصليبيين ، لما استطاعوا أن يلتمسوا طريقهم فى آسيا الصغرى[٢] .

تقدم الجيش الصليبى من كومانا صوب الجنوب الشرقى ، إلى كوكسون (جوكسون الحالية) ، التى تقع فى وادى خصيب ، فى سفح جبل اللكام ، وهى مدينة وافرة الثروة والرخاء ، يسكنها الأرمن ، فلقى الصليبيون منهم الحفاوة والود ، فحصلوا على كميات كبيرة من المؤن ، أفادوا منها فى المرحلة الثانية ، أثناء اجتياز الجبال[٣] .

---

(١) باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة العرينى ص ٣٥ – ٣٨ .

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 191-193.
Grousset : Histoire des Croisades I. p. 38.
Anne Comnene : Alexiade III, p. 19.
Histoire Anonyme trad. Bréhier p. 61.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 191.
Grousset : op. cit. I. p. 39.

وكان لزاما على الصليبيين ، فى مسيرهم من كوكسون إلى مرعش ، أن يجتازوا أشق أجزاء جبال اللكام وأشده خشونة وصلابة . إذ أنهم كانوا وقتذاك فى أوائل شهر أكتوبر ، وأخذت الأمطار تنهمر ، والطريق الذى يجتاز جبل اللكام بالغ الوعورة ، ولا بد من المسير أميالا حتى يصلوا إلى درب امتلأ بالطين ، يؤدى إلى منعطفات شديدة الانحدار ، فهوت الخيول على حافة المنحدر ، وهبط إلى الهاوية الشديدة الانحدار صفوف بأكملها من دواب الحمل . ولم يجرؤ أحد من الصليبيين على أن يمتطى دابة ، وتخلص كثير من الفرسان من قدر كبير من أسلحتهم وأدواتهم الحربية ، ولم يحتفظوا إلا بالقليل منها ، وازداد فرح العساكر وسرورهم ، حين نفذوا آخر الأمر إلى الوادى المحيط بمرعش[١] ، وهلك فى الطريق من الصليبيين ما يزيد على الذين لقوا مصرعهم على أيدى الترك[٢] .

مكث الصليبيون فى مرعش بضعة أيام ، بين سكان من الأرمن ، أمنوا إليهم ولقوا منهم الترحيب والود . وكان يحكم هذه المدينة ، من قبل ، موظف أرمنى من قبل الدولة البيزنطية ، واسمه تاتول **Thatoul** ، فأقرّه تاتيكيوس على حكم المدينة ، فبذل للصليبيين كل ما فى وسعه من المساعدة[٣] . وقدم إلى مرعش من قليقية بلدوين ، ليدرك زوجته ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 192.

(٢) Runciman : The First Crusade, Constantinople to Antioch p. 298.

Histoire Anonyme, trad. Bréhier. p. 63.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 192.

المعروف أن مرعش كانت من أملاك فيلاريت الأرمنى ، وظلت فى يده حتى وفاته =

وهى تعانى سكرات الموت . ولم يلبث بعد وفاتها أن ارتحل من جديد ، متجهاً هذه المرة ، نحو الشرق ، كيما يقيم لنفسه إمارة ، كما يتضح فيما بعد . أما الجيش الرئيسى فغادر مرعش ، حوالى منتصف أكتوبر ، فسلك الطريق السهل المؤدى إلى أنطاكية ، فبلغ فى ٢٠ أكتوبر ، الجسر الحديد ، على نهر الأورنت ، على مسافة قصيرة من المدينة(١) .

ولا بد ، قبل أن ننتقل من هذه المرحلة ، أن نشير إلى ما حدث فى تلك الأثناء من نشاط من قبل الكسيوس ، وتانكرد وبلدوين فى آسيا الصغرى . ذلك أن الإمبراطور الكسيوس الذى يعتبر مسئولا عن المحافظة على مواصلات الصليبيين فى آسيا الصغرى ، أخذ يوطد مركز المسيحيين فى مؤخرة الحملة الصليبية . وما حدث من الوفاق بين الدانشمنديين والسلاجقة ، وما ترتب على ذلك من تأليف قوة حربية كبيرة منهم وسط آسيا الصغرى وشرقها ، هيأ للإمبراطور البيزنطى الفرصة ، لأن يحجب الجانب الغربى من آسيا الصغرى ، حيث يستطيع بفضل قوته الهجومية النامية ، أن يؤمن الطريق إلى الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، وبذلك يخضع هذا الطريق لسيطرته وسلطانه . فلما فرغ من عمارة استحكامات نيقية ، واسترد الحصون التى تسيطر على الطريق المؤدى

= سنة ١٠٩٠ . وخضعت الجبال المجاورة لأمير أرمنى آخر ، يعتبر من قطاع الطرق ، اسمه كوغ ڤاسيل Kogh Vasil ، أى باسيل اللص ، الذى استقل بقلعتى قيصون ورعبان ، وتقع الأولى شرق مرعش ، بينما تقع الثانية بين قيصون ودولك . وعلى الرغم من أن ڤاسيل كان على اتصال بالصليبيين ، فليس من الراجح أنه أمد سلطانه إلى مرعش . انظر :

Grousset : op. cit. I. p. 39-40.

Michel le Syrien : Chronique ed. Chapot 173-174.

Honigmann : Mar'ash. En. Islam.

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 193.

إلى دوريليوم ، أنفذ صهره حنا دوكاس على رأس جيش ، يسانده أسطول بقيادة كاسباكس Caspax ، للاستيلاء على ساحل أيونيا وفريجيا ، تمهيداً للاستيلاء على أزمير ، التى لا زالت فى حوزة ابن جكا ، الذى سيطر أيضاً على جزائر لسبوس وخيوس وساموس بينما عيّن نواباً عنه فى حكم أفيسوس وسائر المدن الغربيه من الساحل[1] . على أن أمير أزمير لم يلبث أن أذعن ، بعد أن تعرضت المدينة للهجوم الشديد من جهة البر والبحر ، وانسحب صوب الشرق ، بعد أن صحب أخته إلى بلاط السلطان السلجوقى قلج أرسلان . ثم سقطت أفيسوس ، وجزائر لسبوس وساموس وخيوس فى أيدى كاسباكس . أما حنا دوكاس ، فاستولى على المدن الداخلية أمثال سرديس وفيلادلفيا ، ولادوقية . ولم ينته خريف سنة ١٠٩٧ ، حتى صار فى قبضة يده كل الإقليم[2] ، والراجح أنه كان يهدف إلى بسط سيطرة الصليبيين على الطريق الممتد من Polybolus إلى الجنوب ، إلى أضاليا ، ومن ثم يواصل السير على امتداد الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى صوب الشرق ، بمساعدة القوات البحرية ، ثم يجرى الاتصال بأمراء الأرمن الذين استقروا وقتذاك فى جبال طوروس ، وبذا يتم تأمين الطريق الذى يصح أن تتخذه المؤن والأمداد إلى الصليبيين الذين يقاتلون فى الشام ، ويستمر التعاون المسيحى[3] . ولما تم استرداد الجانب الغربى من آسيا الصغرى ، أراد الكسيوس أن

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 193-194.

Grousset : Histoire des Croisades I. p. 41.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 194.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 194.

هذه المغامرة أعادت للإمبراطورية كل ثغر التراقيسيان ، وثغر كيبرايوت ، انظر :

Grousset : Histoire des Croisades I. p. 42.

يتوجه إلى قليقية ومنها إلى الشام ، ليلحق بالفرنج الذين أخذوا يحاصرون أنطاكية . وبينما كان يقيم بمعسكره فى يونيه سنة ١٠٩٨ فى فيلومليون Philomélion ، فى جوف ثغر الناطليق القديم ، الذى صار الشطر الغربى منه إلى الدولة البيزنطية ، جاءه من الأنباء من أنطاكية ما جعله يعدل عن قصده(١) .

تانكرد وبلدوين فى قليقية :

سبق الإشارة إلى أن بلدوين شقيق جودفرى وتانكرد ابن أخت بوهمند ، افترقا عن الحملة الصليبية فى سبتمبر سنة ١٠٩٧ ، وتوجها لانتزاع قليقية من الأتراك السلاجقة . والواقع أن هذين السيدين هما أشد من اتخذ الصليب من البارونات ، ميلا إلى المغامرة . ودلّ تاريخ الحرب الصليبية ، على أن الحملة الصليبية لم تكن عندهما سوى مغامرة سياسية ؛ القصد منها الاستيلاء على الشرق الأدنى . اعتبرا أن الصليبيين أخطأوا فى اتخاذ الطريق الذى يجتاز قبادوقيا ، عن طريق قيصرية ومرعش ، ولم يكن القصد من اتخاذ هذا الطريق ، إلا تنفيذ المعاهدة التى عقدها الكسيوس مع الصليبيين ، لتحطيم قوة الترك فى آسيا الصغرى ، والقضاء على سيطرتهم ، ولتمكين الإمبراطورية البيزنطية من امتلاك أقاليم أرمينية الصغرى ، التى يسكنها مسيحيون . على أن تانكرد لم يوافق منذ البداية على المعاهدة بين البيزنطيين والصليبيين ، فأضحى له مطلق التصرف فيما يتبعه من سياسة . أما بلدوين ، الذى لم تبلغ الروح الدينية عنده ما بلغته عند جودفرى ، فلم يحفل كثيراً بما للإمبراطورية من حقوق(٢) . وكيما يتجنبا

---

(١) Grousset : op. cit : I. p. 42.

Chalandon : Alexis Comnene pp. 196-198.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 43.

Runciman : op. cit. I. p. 197.

اتخاذ طريق قبادوقيا ، هبط تانكرد وبلدوين ، من هرقلة مباشرة ، إلى سهل قليقية الخصيب ، الذى تنازعه زعماء الأرمن بجبال طوروس ، والأمراء السلاجقة الذين يحكمون الجهات التى تطل على ساحل البحر المتوسط ، فضلا عما كان للإمبراطورية البيزنطية من حقوق[1] .

والمعروف أن هجرة الأرمن نحو الجنوب الغربى بدأت منذ غارات السلاجقة على وادى نهر الرس ، واستمرت هذه الهجرة طوال السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر . ولما وصل الصليبيون إلى شرق آسيا الصغرى ، كانت الإمارات الأرمنية تمتد من وراء نهر الفرات ، إلى جوف جبال طوروس . فعلى الرغم من أن إمارة فيلاريت تفتت قبيل وفاته سنة ١٠٩٠ ، فلا زال توروس يحكم الرها ، وحاول أن يطرد من قلعتها الحامية التركية ، بينما كان صهره جبريل يحكم فى ملطية ؛ وكان تاتول على مرعش ، وأقام كوغ باسيل إمارة فى رعبان وقيصون ، بين مرعش والفرات . على أن توروس وجبريل وتاتول لم يكونوا إلا نواباً عن فيلاريت ، جروا على نهجه ، بأن استهلوا حياتهم الإدارية ، بالخدمة فى الدولة البيزنطية وانتموا إلى الكنيسة الأرثوذكسية ، لا كنيسة أرمينية الانفصالية ، ووطدوا علاقاتهم ، كلما تهيأت لهم الأحوال ، ببلاط بيزنطة ، كل ذلك جعل لسلطتهم قدراً من الصفة الشرعية . وزاد من صلابة وضعهم ، استعدادهم لقبول سيادة الأمراء الترك المجاورين . وأفاد توروس من كل من القوتين المتنازعتين ، الترك والبيزنطيين ، بينما وطد جبريل صلاته بالخليفة العباسى فى بغداد . ومع ذلك فإن هؤلاء الأمراء الأرمن ، باستثناء كوغ باسيل ، تحرج مركزهم ، بسبب

---

(١) Ibid : op. cit. I. p. 44.

الاختلاف المذهبي ، بينهم وبين سائر مواطنيهم ، فتعرضوا لكراهية السوريين المسيحيين الذين لا زالوا كثرة فى أملاكهم ، وتعرض كل هؤلاء لسوء الظن من قبل الترك السلاجقة ، الذين لم يبقوا فى هذه الجهات إلا بسبب الفرقة بينهم[١] .

أما الأرمن فى جبال طوروس فكانوا أقل من غيرهم تعرضاً للخطر ، لما اشتهر به إقليمهم من المناعة ، وسهولة الدفاع عنه . وسيطر وقتذاك ، أوشين بن هيثوم على الجبال الواقعة فى غرب دروب قليقية ، واتخذ مقره بقلعة لامبرون المنيعة ، التى تطل على جبال طوروس وسهل قليقية ؛ واستمر ، أوشين ، على الاتصال بالقسطنطينية فحصل من الإمبراطور على لقب نائب قليقية Stratopedarch ، ودأب أوشين على التردد على سهل قليقية . وفى سنة ١٠٩٧ ، اغتنم فرصة انشغال الترك بزحف الصليبيين ، فاستولى على جانب من مدينة أدنه ، وما يقع شرق دروب ، من جبال كانت فى حوزة قنسطنطين بن روبين ، الذى اتخـذ حاضرته فى قلعة برتزربرت Pertzerpert، بشمال غربى سيس ؛ وامتد سلطان قنسطنطين إلى جبل اللكام ، وباعتباره وريثاً لأسرة البقراط ، كان من أشد الناس كراهية لبيزنطة . على أنه كان أيضاً يأمل فى أن يفيد من ارتباك الترك ، فى الاستقرار بقليقية ، حيث تألفت غالبية السكان من الأرمن[٢] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 197.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 197.

Grousset : Histoire des Croisades I. p. 44-45.

Michel le Syrien : Chronique ed. Chabot. III. p. 173.

ذلك كان وضع قليقية ، حينما قدمها تانكرد وبلدوين ، وسبق تانكرد بلدوين ، فى القدوم إلى قليقية[١] .

اتخذ تانكرد ، فيما يبدو ، الطريق الذى يؤدى مباشرة إلى درب قليقية ، على حين أن بلدوين وجيشه الضخم ، رأى أن يسلك الطريق الحربى القديم ، الذى يؤدى من طوانه إلى البدندون ، التى تقع على رأس ممر قليقية ، ولذا تأخر ثلاثة أيام عن تانكرد ، استغرق جانباً كبيراً منها فى عبور الدرب[٢]. توجه تانكرد إلى طرسوس ، التى رابطت بها وقتذاك حامية تركية . صمدت لقتال الصليبيين ، الذين لقوا من الأرمن واليونانيين الترحيب ، وتلقوا الدعوة بامتلاك المدينة . ولما قدمت قوات بلدوين ، انسحبت الحامية التركية من المدينة (طرسوس) ؛ وارتفع لواء تانكرد على المدينة[٣] . لم يكن بصحبة تانكرد ، عند دخول طرسوس ، أحد من الموظفين البيزنطيين ، ومن المحقق أنه حرص على ألا يتنازل للإمبراطور البيزنطى عما يفتحه من البلاد . غير أنه اكتشف

---

(١) الواقع أن اهتمام بلدوين بالأرمن يرجع إلى زمن حصار الصليبيين نقية ، إذ توطدت الصداقة بينه وبين أرمنى كان يخدم الإمبراطور البيزنطى ، الكسيوس ، وهو بقراط ، شقيق كوغ باسيل . حرص بقراط على أن يبذل بلدوين المساعدة للإمارات الأرمنية الواقعة بالقرب من نهر الفرات ، لما يربطه بها من صلات أسرية . غير أنه حينما أعلن تانكرد عزمه على الافتراق عن الجيش الرئيسى ، كيما يقيم له إمارة فى قليقية ، قرر بلدوين المبادرة إلى المسير إلى هذه الجهات ، حتى لا تقع فى أيدى تانكرد . ونظرا لأنهما ينتميان إلى فرعين صغيرين فى أسرة حاكمة ، لم يكن لديهما أمل فى أن يكون لهما إرث أو ملك فى بلادهما ، فحرص كل منهما على أن يقيم له إمارة فى الشرق . وإذ حرص بلدوين على أن تكون إمارته فى بلاد الأرمن ، أراد تانكرد أن يجعل لنفسه إمارة فى أى مكان . انظر :

Runciman : History of the Crusades I. p. 197.

(٢) **Ibid : op. cit. I. p. 197.**

(٣) **Ibid : Loc. cit.**

فى بلدوين منافسا بلغ من الخطورة أنه لم يحفل بالمعاهدة التى انعقدت بالقسطنطينية . ووقع بين تانكرد وبلدوين من الشجار على طرسوس ، ما حمل تانكرد آخر الأمر ، على الانسحاب من المدينة ، نظراً لتفوق بلدوين عليه فى القوة العسكرية ، وتوجه بعساكره شرقاً إلى أدنه[١] .

على أن مركز بلدوين ازداد حرجا فى طرسوس ، بسبب المذبحة التى جرت فى عدد كبير من النرمان الذين قدموا لنصرة تانكرد ، ومنعهم بلدوين من الدخول إلى المدينة ، فأثار بذلك استياء الصليبيين ؛ ولم يتحسن وضعه إلا عند ظهور أسطول مسيحى فى خليج مرسين ، عند مصب نهر Cydnus ، ويقوده جينمار Gaynemer ، الذى اشتهر بالقرصنة . ولما أدرك حاجة الصليبيين إلى مساعدة ، حشد طائفة من رفاقه من القرصان الدانيين والفريزيان والفلمنكيين ، فأبحر بهم من الأراضى المنخفضة أواخر الربيع ، سنة ١٠٩٧ ، ثم سعى للاتصال بالصليبيين. ولما تبين له أن بلدوين يمت بصلة القرابة للكونت الذى ينتمى إليه ، سار مصعدا فى النهر ، حتى بلغ طرسوس ، فبذل الولاء لبلدوين[٢] ، وأمده بثلثمائة من العساكر ليؤلف منهم حامية للمدينة ، والراجح أنه اتخذ جينمار نائبا له فى حكم المدينة ، بينما تجهز للمسير إلى الشرق[٣] .

وفى تلك الأثناء اضطربت الأحوال فى أدنة ، إذ أن أوشين أمير لامبرون ، استولى على جانب منها ، بينما لازال الترك يحتلون الجانب الآخر ، على حين أن أحد الفرسان البرجنديين ، واسمه ولف ، افترق

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 198.
Grousset : Histoire des Croisades I. p. 45-46.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 199.
Grousset : op. cit. I. p. 47.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 199.
Grousset : op. cit. I. p. 47.

عن جيش بلدوين ، وشق طريقه إلى قلعة المدينة ؛ ولعله كان يسعى أيضاً للكسب وإنشاء إمارة . فلما قدم تانكرد ، انسحب الترك ، ورحب بتانكرد ، ولف وأوشين ، فأقر ولف على امتلاك القلعة ، وتوجه تانكرد صوب الشرق إلى مامسترا (المصيصة) ، بناء على نصيحة أوشين ، وحيث حرص السكان الأرمن على التخلص من حكم الترك ؛ فبلغ مامسترا فى أوائل أكتوبر ، فلاذ الترك بالفرار ، فدخل المدينة بمساعدة الأرمن[١] . وكان أوشين حريصاً على أن يرى الفرنج ينفذون إلى دائرة نفوذ خصمه النهم ، قنسطنطين الروبينى[٢] . والواقع أن نجاح الصليبيين ، يرجع إلى حد كبير إلى ما قام به الأرمن من دور كبير فى هذه الحرب ، فهم الذين هيأوا للصليبيين الطرق المؤدية إلى الشام ، وهذه الحقيقة ثابتة لا غلو فيها[٣] .

لم يلبث الوفاق أن تم بين تانكرد وبلدوين ، بعد أن جرى بينهما من النزاع ما أدى إلى الحرب بينهما ، وانتصار بلدوين ، ولم يكن لهذا النزاع من نتيجة سوى ما تجلى من أن الأمراء الصليبيين ليسوا مستعدين للتعاون من أجل صالح العالم المسيحى ، متى تهيأت لهم الفرصة لحيازة ممتلكات خاصة . وأدرك المسيحيون الوطنيون ، أن الفرنج القادمين لنصرتهم ، تحركهم أغراض أخرى ، وإن كانوا فى الظاهر ، يزعمون أنهم يعطفون عليهم ، وأيقنوا أيضاً أن مصلحتهم العليا ، هى أن يعملوا على الإيقاع بينهم[٤] . يضاف إلى ذلك أن الزعماء الصليبيين نقضوا الاتفاق الذى انعقد فى القسطنطينية إذ قرروا أن يقيموا لأنفسهم إمارات صليبية أرمنية فى قليقية مستقلة عن بيزنطة ، بدلا من أن يسلموا لها

---

(١) Runciman : Constantinople to Antioch p. 300-301.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 199.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 47.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 200.

ما استولوا عليه من المواضع بهذه الجهات[1] . انطوى الاتفاق بين تانكرد وبوهمند ، على أن يتخليا عن قليقية ، فبادر بلدوين بالمسير ليلحق بالجيش الرئيسى عند مرعش ، لما بلغه من أن زوجته تحتضر ، وأن أطفاله لن يعيشوا طويلا ، وأن أخاه جودفرى ، أصابته جراح شديدة ، بعد رحلة صيد تعرض فيها لهجوم دب برى[2] . وأبقى تانكرد حامية صغيرة فى مامسترا ، وتوجه صوب الجنوب ، إلى الإسكندرونة ، فاستولى عليها ، بفضل ما بذله جينمار من مساعدة ، فشحن الإسكندرونة بالعسكر ، ثم اجتاز جبال الأماتوس ، كيما يلحق بالجيش الصليبى ، الذى أوشك على الوصول إلى أنطاكية[3] .

ولم تكن مغامرة قليقية مجردة من النفع ، إذ أن الحاميات الصليبية التى رابطت فى المدن الرئيسية فى قليقية الشرقية ، منعت المسلمين من أن يستخدموا هذا الإقليم قاعدة ، لينهضوا منها إلى إنقاذ أنطاكية ، وأسهمت فى إقامة حائل بين الترك فى الشام والترك فى آسيا الصغرى . غير أنها كشفت عن حقيقة الصداقة بين الأمراء الصليبيين ، الذين اشتد طموحهم ، وازدادت أطماعهم[4] . وما حدث من تداعى سلطة الترك فى سهل قليقية ، هيأ للأرمن الفرصة ، لأن يتوغلوا فى المدن والقرى التركية ، ولأن يقيموا أساس مملكة أرمينية الصغرى فى قليقية[5] .

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 47.

(٢) Grousset : Histoire des Croisades I. p. 48.
Runciman : History of the Crusades I. p. 200.

(٣) Runciman : The First Crusade : Constantinople to Antioch p. 302.
William of Tyre : I. p. 149.

(٤) Runciman : The First Crusade. p. 302.

(٥) Runciman : History of the Crusades I. p. 202.

لم يتحقق لبلدوين إنشاء إمارة للفرنج فى قليقية الأرمنية ، غير أنه لم يتخل عن هذا المشروع . ولذا لم يمكث فى مرعش مع أقاربه والجيش الرئيسى ، إلا أياما قليلة ، بل افترق مع أصحابه ، وتوجه صوب الشرق ، كما يقيم له إمارة فى بلاد أرمنية[1] . على أن القوة الحربية التى صحبته إلى تلك الجهات ، وادى الفرات ، تقل كثيراً عن القوات التى صحبته إلى قليقية . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن شهرته كقائد ، تأثرت بما وقع من أحداث فى طرسوس ، أو إلى حاجة إخوته إلى قوة كبيرة ، للاستيلاء على أنطاكية ، فلم يكن لديه سوى مائة فارس . ولازمه فى مغامرته ، مستشاره الأرمنى ، بقراط ، وانضم إليه قسيس ، وهو المؤرخ فولشر شارتر[2] .

وبينما يتجه الجيش الرئيسى صوب الجنوب الغربى ، إلى أنطاكية ، تقدم بلدوين صوب الشمال الشرقى إلى عينتاب . وفى أثناء الطريق ، حرص ، بمساعدة بقراط ، على أن يتصل بالأرمن وأمرائهم ، ولقى الترحيب فى كل مكان ، فاعتبره الأرمن محررا لهم . وعلى الرغم من أن السوريين اليعاقبة ، ساورهم الشك فى أمره ، إلا أنهم لم يحاولوا مقاومته . وانحاز إلى قوات بلدوين ، أميران أرمنيان بجيوشهما ، وبفضلهما استولى بلدوين على الحصنين الرئيسيين ، الواقعين بين عينتاب ونهر الفرات ، وهما راوندان وتل باشر ، فجعل بلدوين عليهما هذين الأميرين الأرمنيين ، على أن يعترفا بسيادته[3] .

على أن بلدوين لم يهدف من وراء هذه المغامرة ، إلا أن يقيم له

---

(١) Grousset : Histoire des Croisades I. p. 49.

(٢) Ibid : op. cit. I. p. 49.
Runciman : History of the Crusades I. p. 201.

(٣) Runciman : The First Crusade, p. 302.

على الفرات إمارة ، تعود بالنفع عليه وعلى الحركة الصليبية . وكانت الأحوال فى صالح بلدوين ، فالإقليم الذى أراد أن يتخذ منه إمارة له ، كان فعلا فى أيدى الأرمن الموالين له ، يضاف إلى ذلك أنه كان على اتصال مستمر بأمراء الأرمن ، فاتصل بشقيق بقراط ، كوغ باسيل ، الذى تقع إمارته إلى الشرق من مرعش ، والراجح أن جبريل الأرمنى أمير ملطية ، التمس المساعدة من الفرنج ، نظراً لما تعرض له دائماً من الترك الدانشمنديين ، أصحاب سيواس وسلاجقة آسيا الصغرى[١] ، أما توروس الأرمنى أيضاً ، أمير الرها ، فلا شك أنه كان على اتصال مستمر بالصليبيين . والراجح أن ما اتخذه بلدوين من قرار ، يرجع فيما يقال إلى رسالة تلقاها ، هو أو بقراط ، من توروس ، تلح فى دعوته إلى القدوم إلى الرها . وكان الأرمن يأملون منذ زمن طويل فى أن يحصلوا على مساعدة من الغرب . فالمعروف أن البابا جريجورى السابع ، فكر منذ ٢٠ سنة ، فى توجيه حملة ، لمساندة المسيحيين فى الشرق ، بعد أن قدم إلى روما أسقف أرمنى ، يلتمس المساعدة من البابا . والواضح أن الأرمن وأمراءهم ، حرصوا على توطيد علاقتهم بالحلفاء من الغرب ، الفرنج ، بعد أن ضعفت وتضاءلت علاقتهم بالدولة البيزنطية ، فلما أضحت الجيوش الصليبية على أطراف بلادهم ، تهيأت لهم الفرصة ، للاستقلال نهائيا عن السيادة البيزنطية والتركية ، ولذا رحبوا ببلدوين ورجاله ، الذين عقدوا عليهم الأمل فى تحقيق غرضهم[٢] .

وفى أثناء وجود بلدوين فى تل باشر ، تلقى حوالى مستهل السنة الجديدة ، ١٠٩٨ ، سفارة من الرها ، ألحت على بلدوين بالمبادرة إلى

---

(١) Grousset : Histoire des Croisades I. p. 50-51
Michel le Syrien ed. Chabot III. p. 179.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 203.

مساعدة توروس ، بعد أن تحرج مركزه فى الرها[١] . وارتاع توروس لما بلغه من الأنباء ، بأن كربوجا ، أتابك الموصل ، المعروف بشدته وشجاعته ، أخذ يحشد جيشاً ضخما ، لإنقاذ أنطاكية ، غير أن بوسعه أيضاً أن يمحو الرها والإمارات الأرمنية الواقعة فى طريقه[٢] . ولما لم يقبل بلدوين ما عرضه توروس ، بأن يدخل فى خدمته ، لم يسع توروس ، إلا أن يتخذ من بلدوين ، ابنا ووريثاً له فى العرش ، وأن يحمل رعيته على اختياره شريكاً له فى الحكم ، لأنه لم يكن له وريث ، ولأنه تقدم فى السن ، ولأنه لم يكن مقبولا عند سكان البلاد ، ولما يحيق ببلاده من الأخطار[٣] .

الرها سنة ١٠٩٨ :

وفى مستهل فبراير سنة ١٠٩٨ ، غادر بلدوين تل باشر ، قاصداً الرها ، ولم يكن بصحبته سوى ثمانين فارساً . اجتاز الفرات من مخاضة تقع شمال البيرة ، فبلغ الرها بعد أيام قليلة ، وجرى استقباله بأشد ما يكون من الحماس من قبل توروس وجميع السكان المسيحيين ، وتلى ذلك أن اتخذه توروس رسمياً ابنا له[٤] .

---

(١) استهل توروس حياته الإدارية ، بأن كان من موظفى الحكومة البيزنطية ، ثم صار من أشهر نواب فيلاريت الأرمنى (فيلاردوس) ، الذى حكم الجهات الممتدة من قليقية إلى الرها فى الفترة الواقعة بين سنة ١٠٧٨ ، وسنة ١٠٨٥ . ولما مات فيلاريت سنة ١٠٩٠ استولى الترك على الرها ، غير أن توروس استردها سنة ١٠٩٤ ، وحكمها على أنها إقطاع من قبل السلطان السلجوق ، وحاول توروس أن يطرد الحامية التركية المرابطة بها . غير أن مركزه لم يكن وطيداً فى الرها . ونظراً لأنه مدين بالمذهب الأرثوذكسى (مذهب بيزنطة) كرهه رعاياه من الأرمن الذين ينتمون إلى الكنيسة الانفصالية ، ومن السوريين البعاقبة وبغضه أيضاً الترك . (انظر Runciman : The First Crusade. p. 303.)

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 204.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 204.

(٤) Grousset : Histoire des Croisades I. pp. 53-56.

ما كاد بلدوين يستقر فى الرها ، على أنه وريث ملكها وقسيمه فى الحكم ، حتى أدرك أن من أول واجباته ، أن يحطم الإمارة التّركية فى سموساط ، التى يحكمها من قبل الدانشمنديين ، بلك Balduk ، والتى تعترض مواصلاته مع الغرب[1] . وحشد بلدوين حملة اشترك فيها جيش الرها الإقليمى ، وقنسطنطين الأرمنى أمير جرجر (كركر) ومن أتباع توروس . تعرضت الحملة لهزيمة ساحقة على أيدى التّرك ، غير أن بلدوين استولى على قرية صغيرة ، قام بتحصينها ، وهذه القرية St. John ، تقع بالقرب من سموساط ، وأنزل بلدوين بها عدداً كبيراً من الفرسان ، للإشراف على تحركات التّرك ، وترتب على هذا الإجراء أن تضاءل عدد هجمات التّرك ، واعترف الأرمن بفضل بلدوين[2] .

ولم يكد بلدوين يعود إلى الرها ، حتى دبر قنسطنطين أمير جرجر مؤامرة ضد توروس ترمى إلى عزله عن العرش . وعلى الرغم من أن بلدوين لم يكن بوسعه أن يحبط المؤامرة من الناحية الرسمية ، فإنه علم بها ، وارتكن المتآمرون إلى تأييده . والواقع أن بلدوين لم ينهض لإنقاذ توروس ، حينما هاجمه المتآمرون وفتكوا به فى مارس ١٠٩٨ ، وبعدئذ تلقى بلدوين الدعوة من سكان المدينة ، ليتقلد حكومتها[3] .

تحقق لبلدوين بذلك ما كان يهدف إليه ، من إنشاء إمارة . وعلى الرغم من أن الرها لا تقع فى الأراضى المقدسة ، فإن قيام إمارة صليبية ،

---

(١) Ibid : op. cit. I. p. 55.
Documents Armenienes I. p. 36, Note 2.
Rnnciman : History of the Crusades I. p. 203,205.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 205.

(٣) Ibid : op. cit. I. pp. 205-207.
Matthiew d' Edesse : Document Armenieus I. pp. 37-38.
Grousset : op. cit. I. pp. 57-59.

فى الحوض الأوسط للفرات ، يعتبر أمراً بالغ الأهمية ، للدفاع عن كل إمارة يصح أن يقيمها الفرنج بفلسطين[١] . وفى وسع بلدوين أن يبرر عمله ، بالزعم بأنه يطابق الخطوط العريضة للسياسة الصليبية . غير أنه ليس فى وسعه ، من الناحية القانونية ، أن يبرر عمله أمام العالم المسيحى . فالرها ، باعتبارها مدينة ، كانت تابعة للإمبراطور البيزنطى ، قبل غزوات الترك ، تشملها اليمين التى اتخذها بلدوين أمام الإمبراطور بالقسطنطينية . يضاف إلى ذلك أنه لم يحز هذه المدينة إلا بما جرى من عزل أميرها ، والتغاضى عن قتله ؛ كما يعتبر ، من الناحية الرسمية على الأقل ، من أتباع الإمبراطور البيزنطى . غير أن بلدوين أثبت فى قليقية أن يمين الولاء لا أهمية له عنده ، كما أن توروس فى الرها أبدى استعداداً لأن يتساهل فى حقوقه دون أن يرجع إلى سيده الذى يقيم بالقسطنطينية ، ولم يتسلم بلدوين زمام الحكم فى الرها إلا بإرادة السكان المسيحيين . ولذا لم يبادر الكسيوس بالاحتجاج على ما حدث ، غير أن حقوق بيزنطة فى الرها لم يغفلها الإمبراطور ، الذى حرص على استردادها ، متى سنحت له الفرصة . على أن مشكلة الرها تضاءلت وقتذاك بالقياس إلى مشكلة أنطاكية ، البالغة الخطورة[٢] .

أنطاكية (١٠٩٧ — ١٠٩٨) :

تقع أنطاكية على نهر الأورنت (العاصى) ، على مسافة ١٢ ميلا من البحر المتوسط أنشأها سنة ٣٠٠ ق . م ، سيلوقوس الأول ملك سوريا ، وأطلق عليها اسم أبيه ، ولم تلبث أن أضحت أهم مدن آسيا ، وتعتبر

---

(١) **Runciman : History of the Crusades I. p. 206.**

(٢) **Runciman : History of the Crusades I. p. 207.**

Grousset : Histoire des Croisades I. p. 60-61.

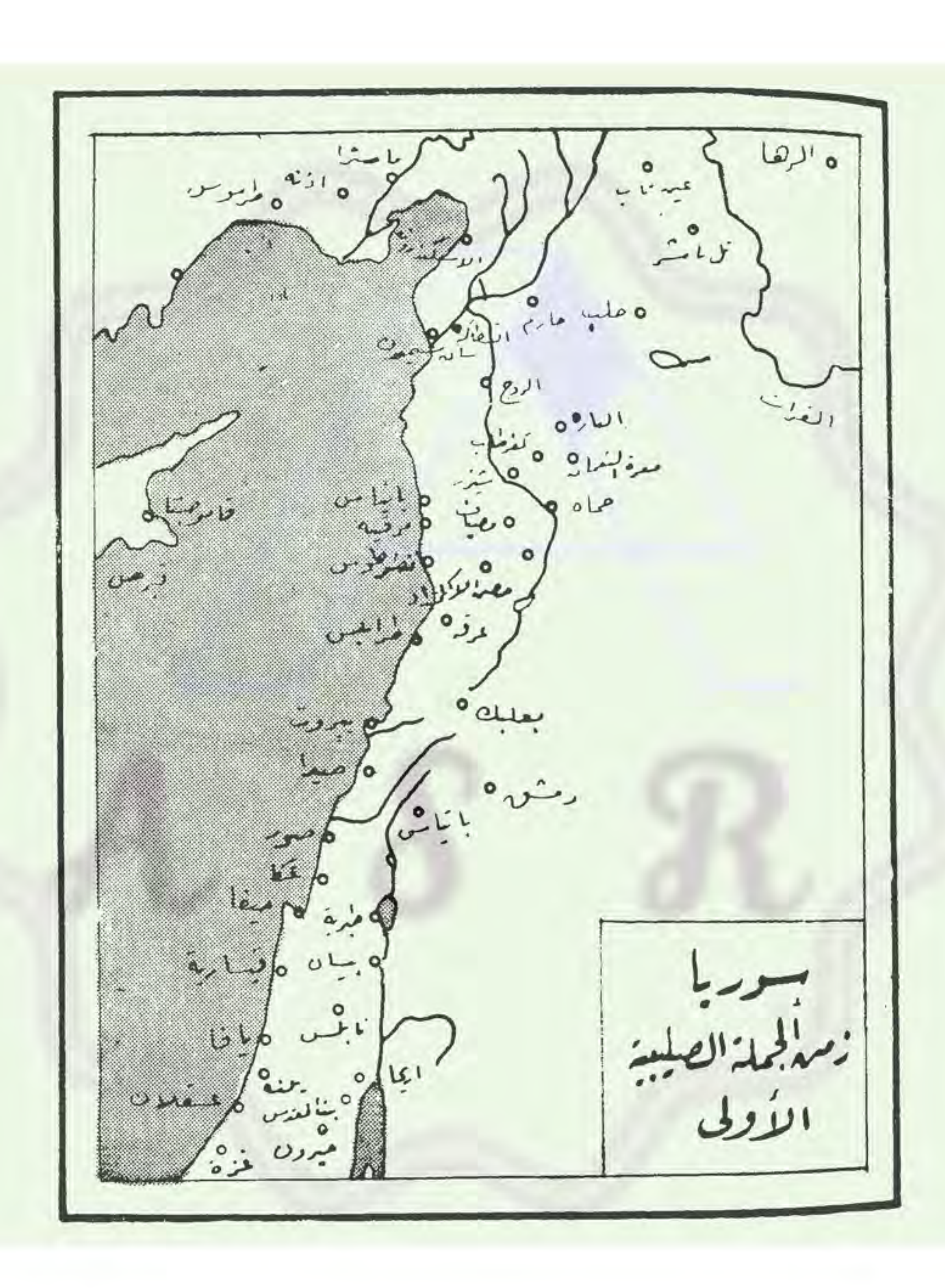
زمن الرومان ، ثالثة مدن العالم المعروف وقتذاك . وترجع شهرتها عند المسيحيين ، إلى أنهم ، فيما يقال ، اتخذوا بها لأول مرة اسم المسيحيين ، وإلى أن القديس بطرس أنشأ بها أول كنيسة أسقفية . على أنها تعرضت فى القرن السادس الميلادى للتخريب بسبب الزلازل وإغارات الفرس . وترتب على نهوض حلب وازدهارها بعد الفتح العربى للشام ، أن جرى إهمال أنطاكية . واستولى عليها البيزنطيون فى القرن العاشر الميلادى ، من أيدى الفاطميين ، فصارت ملتقى تجارة المسلمين والبيزنطيين ، وتعتبر أمنع حصن على الأطراف السورية . ثم حدث سنة ١٠٨٥ أن انتزعها من البيزنطيين سليمان بن قطلمش سلطان السلاجقة بآسيا الصغرى ، ولما مات ، انتقلت إلى حوزة السلطان ملك شاه فعين عليها ياغى سيان التركمانى ، فظل يحكمها نحو عشر سنوات حتى سقطت فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٨[١]. ومنذ أن مات ملك شاه سنة ١٠٩٢ ، وتتش سنة ١٠٩٥ ، صار ياغى سيان ينتمى إلى رضوان أمير حلب ، غير أنه حرص على أن يستقل بأنطاكية ، بما لجأ إليه من اتخاذ سياسة الإيقاع بين رضوان ومنافسيه ، دقاق أمير دمشق ، وكربوقا أمير الموصل[٢] . على أن هذه السياسة كانت من العوامل التى جعلت سكان حلب لا يسهمون بجهد كبير فى الدفاع عن أنطاكية ، وأدى ذلك مع أسباب أخرى آخر الأمر إلى سقوط المدينة[٣] . فحينما تدفق الفرنج على أنطاكية ، وشرعوا فى إلقاء الحصار عليها ، أنفذ ياغى سيان أولاده ، يلتمسون المساعدة والنجدة ، من دقاق أمير دمشق ، وشقيق رضوان ، ومن كربوقا أمير الموصل ، ومن السلطان السلجوقى بركياروق فى فارس ، ومن الخليفة

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 213.
Grousset op. cit. I. p. 71.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 213.

(٣) Grousset : Histoire des Croisades I p. 71


سوريا
زمن الحملة الصليبية
الأولى
الرها
عين تاب
تل باشر
حلب
حارم
انطاكية
الفرات
الروج
البارة
كفرطاب
معرة النعمان
شيزر
حماه
بانياس
مرقية
طرطوس
حصن الأكراد
عرقة
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
حيفا
طبرية
قيسارية
بيسان
نابلس
يافا
عسقلان
بيت المقدس
حبرون
غزة
أذنه
طرسوس
فاموستا


A S R

العباسى فى بغداد ، والواضح أنه لم يطلب المساعدة من رضوان ، نظراً لأنه انحاز إلى أخيه دقاق أثناء الحروب التى وقعت بينهما سنة ١٠٩٦ — ١٠٩٧[١] . على أن كربوقا كان يتطلع للاستيلاء على حلب ، فإذا تيسر له الاستيلاء على أنطاكية ، أصبحت حلب فى متناول يده[٢] .

ارتاع ياغى سيان ، حين ترامى إلى سمعه ، أنباء زحف الفرنج ، إذ كانت أنطاكية الهدف الأساسى للصليبيين ، فلم يكن باستطاعتهم المسير جنوباً نحو فلسطين ، مالم يقع بأيديهم حصن أنطاكية . وكان معظم رعايا ياغى سيان ، من المسيحيين واليونانيين والأرمن ،والسوريين المسيحيين ،ولما يكنه السوريون المسيحيون من الكراهية لليونانيين والأرمن ، جاز أن يطمئن ياغى سيان إليهم . وفى تلك الأثناء حشد ياغى سيان قواته فى داخل قلعة أنطاكية ، وشرع فى توفير المؤن اللازمة ، أثناء ما تتعرض له من حصار طويل[٣] .

على أن الصليبيين بلغوا معرة النعمان ، من أملاك ياغى سيان ، ثم تقدموا حتى وصلوا إلى نهر الأورنت عند الجسر الحديدى ، حيث التقى الطريقان القادمان من مرعش وحلب ، ليجتازا النهر فى هذا الموضع . وعلى الرغم من مناعة هذا الجسر ، الذى ارتفع على مدخله برجان متينان ، استطاع الصليبيون ، بعد قتال مرير ، أن يجتازوا النهر ، فأضحى الطريق مفتوحاً أمامهم إلى أنطاكية ، التى تراءت لهم قلعتها ثم وصل فى ٢١ أكتوبر إلى أسوار المدينة ، بوهمند على رأس مقدمة الجيش ، وجاء فى إثره سائر القوات الصليبية[٤] .

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 71

Runciman : History of the Crusades I. p. 213.

(٢) Ibid : op. cit. I. p. 215

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 214.

(٤) Ibid : op cit. I. pp. 215 - 216.

تعتبر أنطاكية وقتذاك من أمنع المدن ، لا تضارعها فى ذلك القسطنطينية .
فالبيزنطيون الذين احتفظوا بها من سنة ٩٦٩ إلى سنة ١٠٨٤ ، دبروا لها كل أسباب الدفاع . اشتد خوف الصليبيين حين رأوا المدينة الكبيرة التى شغلت دورها وأسواقها سهلا يبلغ طوله ثلاثة أميال ، وامتد نحو ميل ، إلى الداخل ، بين نهر الأورنت الذى يحدها غرباً وجبل سيلبيوس الذى يقع إلى الجنوب والشرق من المدينة ، على حين تكثر الغياض والمستنقعات بشمالها . ويحيط بكل المدينة استحكامات ضخمة شيدها جستنيان ، واهتم بعمارتها منذ قرن واحد البيزنطيون ، وفقاً لما اشتهروا به من المهارة الفنية فى الخطط والتصميمات . فارتفعت الأســوار بشمال المدينة على امتداد المستنقعات المحاذية لنهر الأورنت وشملت الأسوار منحدرات جبل سيلبيوس فى الجنوب والشرق من المدينة ، وتسير فوق الباب الخلفى للمدينة ، المعروف بالباب الحديدى ، حتى تبلغ آخر الأمر القلعة المنيعة التى ترتفع عن المدينة نحو ألف قدم . ويقع بأعلى الأسوار أربعمائة برج ، وفى الشمال الشرقى من المدينة ، يقع باب القديس بولص ، الذى يؤدى إليه الطريق القادم من الجسر الحديدى وحلب ، وفى الطرف الشمالى الغربى يقع باب القديس جورج ، الذى ينتهى إليه الطريق من اللاذقية وشاطئ لبنان . أما الطرق المؤدية إلى الإسكندرونة وميناء سان سيمون ، السويداء الحالية ، فتبدأ من عند الباب الكبير المطل على نهر الأورنت ، وتجتاز الجسر المنيع . وللمدينة أبواب أخرى تقل أهمية عن الأبواب السابقة ، منها باب الدوق ، وباب الكلب يفضيان إلى النهر وما يليه شرقاً . وتوافر الماء فى داخل نطاق المدينة ، وبداخلها أيضاً الأسواق ، والمتنزهات والمراعى . ويصح أن تضم المدينة بداخلها جيشاً بأكمله ، متى توافر له المؤن ، فيعمد للحصار زمناً طويلا . يضاف إلى ذلك أن تطويق المدينة لم يكن أمراً يسيراً ، وليس فى وسع العساكر البقاء فى الأراضى الواقعة

إلى جنوب المدينة ، لشدة انحدار الجبل فى هذه الجهات[١] .

ولم يستول الترك سنة ١٠٨٥ على أنطاكية إلا بما لجأوا إليه من الحيلة والمكيدة ، إذ أن سليمان بن قطلمش قدم من نيقية فى عسكره ، وادعى أن ابن فيلاريت (الفلاردوس) ، آخر حاكم بيزنطى عليها ، استدعاه ، فوصل أنطاكية ليلا ، فتسلق جماعة من جيشه شرفات السور ، ثم نزلوا إلى باب فارس وفتحوه[٢] . فالخيانة هى الخطر الوحيد الذى يواجه ياغى سيان ؛ غير أنه اشتهر بسرعة الإثارة ، ولم يتوافر لديه من العساكر ما يكفى لحماية الأسوار ، ولم يحاول أن يهاجم الصليبيين حينما تحركوا لاتخاذ مواضعهم[٣] .

لما وصل الصليبيون إلى أنطاكية ، اتخذوا مواضعهم خارج الأسوار ، عند الطرف الشمالى الغربى منها ، فاحتل بوهمند الجانب المواجه لباب القديس بولص ، واتخذ ريموند موضعه تجاه باب الكلب ، وعسكر جودفرى إلى يمين ريموند ، تجاه باب الدوق . وما تبقى من الجيوش ، احتشدت وراء بوهمند ، واستعدت للتحرك إلى حيث الحاجة ماسة إليها . على أن باب الجسر ، وباب القديس جورج ظلا فى الوقت الراهن مكشوفين ، لا تواجههما قوات . غير أن الصليبيين شرعوا فى إقامة جسر من السفن ، لاجتياز النهر ، من معسكر جودفرى إلى حيث تقع مقبرة

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 216.
William of Tyre : op. cit. I. pp. 165-169.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 72.
ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ج ٢ ص ٨٦ – ٨٧

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 217

المسلمين ، وهذا الجسر هيأ للجيش السبيل للوصول إلى الطرق المؤدية إلى الإسكندرونة وسان سيمون ، وتقرر إقامة معسكر شمال النهر(١) .

وإذ توقع ياغى سيان من الصليبيين أن يبادروا بالهجوم ، اشتد قلقه من جانب المسيحيين فى داخل أنطاكية ، «فأخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم ، وأمرهم بحفر الخندق ، ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضاً ، ليس معهم مسلم ، فعملوا فيه إلى العصر ، ولما أرادوا دخول البلد منعهم » . وأشار إلى أنه متى انتهى من أمر النزاع مع الفرنج ، فسوف يسمح لهم بالدخول ، وتعاهد لهم بالمحافظة على أسراتهم ، فلم يسعهم إلا النزول فى معسكر الفرنج(٢) . لم ينصح بالهجوم على أنطاكية من زعماء الصليبيين إلا ريموند ، لما شهدوه من تحصينات المدينة واستحكاماتها ، ولما حل بالعساكر من التعب ، ولتوقعهم قدوم تانكرد بأمداد ، وترددت الشائعات باحتمال قدوم مساعدة من جهة البحر(٣) . وتوافر لدى بوهمند ، الذى يعتد الصليبيون برأيه دائماً ، من الدواعى ما يعارض خطة ريموند الهجومية . والواقع أن بوهمند كان حريصاً على أن ينفرد بحيازة المدينة ، وألا تتعرض لنهب العساكر الصليبية ، فإذا استطاع أن يدبر خطة لاستسلامها ، اطمأن إلى أن أحدا لن ينازعه فيها . ولم تجد شيئاً جهود ريموند لحمل الصليبيين على المبادرة بالهجوم ، فأفلتت الفرصة الوحيدة للاستيلاء فوراً على المدينة ، فتهيأ لياغى سيان الفرصة للمقاومة والاستنجاد بالقوى الإسلامية(٤) .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 217.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ١٩١.

Grousset : op. cit. I. p. 73-74.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 218

(٤) Ibid : op. cit. I. p. 218.

لم يجد بوهمند صعوبة في التماس الأصدقاء في داخل المدينة ، ففي المعسكر الصليبي عدد كبير من المسيحيين من سكان أنطاكية ، الذين دأبوا على الاتصال بأقاربهم في داخل المدينة ، من خلال باب القديس جورج ، في الغرب ، فتيسر للصليبيين أن يقفوا على ما يحدث داخل أنطاكية . غير أن ياغي سيان كان له أيضاً أنصاره في المعسكر الصليبي ، ينقلون إليه ما يجري في المعسكر ، لتخوفهم من الحكم الصليبي أو البيزنطي ، بعد الاستيلاء على أنطاكية . ومنهم علم ياغي سيان كراهية الصليبيين من مهاجمة المدينة ، فشرع في حشد عساكره لمهاجمة أعدائه[١] . فشن المسلمون الغارات على طوائف عسكر الفرنج المرابطة بأرباض أنطاكية ، فلا يكاد يخرج عسكر أنطاكيـــة ويعود إلا ظافرا ، وكان ياغي سيان حسن التدبير في سياسة العسكر ، وظهر من شجاعته وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره[٢]. فاتصل بحامية حارم عبر الجسر الحديدي ، على الطريق المؤدي إلى حلب ، وشجعها ، على أن تثير الاضطراب في الفرنج في مؤخرة الجيش[٣] . وفي تلك الأثناء سمع ياغي سيان بأن سفارة ابنه إلى دمشق تكللت بالنجاح ، وأن جيشاً منها قدم لنجدته[٤] .

على أن أمدادا بقيادة تانكرد جاءت إلى الصليبيين ، بعد أن استبد بهم الخوف ، فاستطاعوا أن يسيطروا على الطريق المؤدي إلى الجسر

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 218.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ١٨٧

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٢-١٣٣

Grousset : op. cit. I. p. 72.

(٣) Ibid. Loc. cit.

Runciman : History of the Crusades I. p. 218

(٤) Ibid : Loc. cit.

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣١ .

ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤

المنيع على نهر الأورنت . وفى منتصف نوفمبر سنة ١٠٩٧ قدم إلى ميناء سان سيمون أسطول جنوى ، مؤلف من ١٣ سفينة ، يحمل معدات حربية ، استجابة للدعوة التى وجهها منذ سنتين البابا ايربان الثانى إلى جنوة ، فأدرك الصليبيون أن بوسعهم أن يتصلوا ببلادهم عن طريق البحر (١) .

ولما حل الشتاء ، واجهت الصليبيين مشكلة توفير المؤن للجيش ، لأنهم أهملوا فى ادخار ما يلزم لشهور الشتاء من المؤن . فتحتم على العساكر أن تخرج لالتماس العلف والمؤن ، وحدث فى بعض الأحوال أن أوغلت فى السير ، وابتعدت عن معسكرها أمام أنطاكية ، فتعرضت لهجمات قوات ياغى سيان ، التى تترقبهم على التل الذى يرابطون فى سفحه . فقرر القادة الصليبيون أن يشيدوا برجا بأعلى التل ، شحنوه بالعساكر ، لحماية من يضل منهم الطريق أثناء عودته (٢) .

ولما أوشكت مؤن الجيش على النفاد ، تقرر فى أواخر ديسمبر ، إرسال شطر من الجيش بقيادة بوهمند وروبرت فلاندر ، للإغارة على القرى المجاورة لمدينة حماة ، ولم يعلم بوهمند أن قوة إسلامية ، كانت تسير من دمشق فى مواجهته ، فى طريقها إلى أنطاكية لمساعدة ياغى سيان ، وكان يقود هذه القوة أمير دمشق ، دقاق ، ويصحبه الأتابك طغتكين وشمس الدولة بن ياغى سيان ، وانحاز إليهم أمير حماة بقواته ، ووصلوا إلى شيزر فى ٣٠ ديسمبر ، فبلغهم خبر سرية بوهمند ، فلقوهم

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 88.
Runciman : History of the Crusades I. p. 219

(٢) Ibid : Loc. cit.
Grousset : op. cit. I. p. 89.

فى أرض البارة ، فطوقوا جيش روبرت ، وقتلوا منه جماعة[١] .
وإذ أخذت الأقوات فى النفاد ، وحلت بالصليبين خسائر فى الأرواح عند محاولاتهم الإغارة والهجوم ، وزاد الأمر سوءاً ، وقوع زلزال عنيف فى ٣٠ ديسمبر ، وانهمار الأمطار ، واشتداد البرودة ، كل ذلك جعلهم يدركون أن الله ليس راضيا عنهم ، لما اتصفوا به من الكبرياء والمباذل واللصوصية . ولم يكن لصيامهم ثلاثة أيام بناء على أمر أدهيمر أثر فى تخفيف المجاعة ، التى أودت بعدد كبير منهم ، ونفق بسببها كثير من الخيول ، فلم يبق منها سوى سبعمائة حصان[٢] .

على أن جزيرة قبرص وفرت للصليبيين ما احتاجوا إليه من المؤن . ذلك أن أدهيمر ، حرص ، بناء على نصيحة البابا ايربان الثانى ، على أن يوطد العلاقة الودية مع رجال الكنيسة الأرثوذكسية فى الشرق . والمعروف أن سيميون (سمعان) بطريرك بيت المقدس ، لجأ إلى قبرص بعد أن اضطربت مدينة بيت المقدس بعد وفاة ارتق . وعلى الرغم من أن هذا البطريرك لم يقر تقاليد كنيسة روما ، فإنه قبل أن يتعاون معها ، فاتصل بأدهيمر ، فى اكتوبر سنة ١٠٩٧ ، ووضعا سويا تقريراً عن الحملة الصليبية ، بعثا به إلى المسيحين فى الغزب . ولما علم بما تعرض له الجيش من المجاعة ، بعث من قبرص بكل ما يزيد على حاجتها من المؤن والنبيذ[٣] ، غير أن ذلك لم يخفف وطأة المجاعة ، فأخذ الرجال يغادرون المعسكر ، ويلتمسون لهم ملاذا يتوافر فيه الطعام ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p.221

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٣١

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 221-222.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 222

وحاول آخرون أن يعودوا إلى بلادهم ؛ ومن أشهر هؤلاء المتسللين بطرس الناسك ووليم النجار[١] .

وفى أوائل فبراير سنة ١٠٩٨ ، تخلى فجأة عن الجيش الصليبى تاتيكيوس ممثل الإمبراطور البيزنطى . وسبق الإشارة إلى أن تاتيكيوس صحب الحملة الصليبية من نيقية ، بمن معه من الأدلاء والمهندسين ، وحرص على أن يكون على علاقات ودية مع زعماء الحملة الصليبية ، وتسلم منهم المدن التى استولوا عليها فى آسيا الصغرى[٢] .

ترددت تفسيرات كثيرة عن رحيل تاتيكيوس ، على أن التفسير الراجح يشير إلى أن بوهمند استدعاه ذات يوم ، حينما ذاع أن الترك ينوون أن يرسلوا من جديد قوة لنجدة أنطاكية ، فأخبره بأن البارونات يعتقدون أن الإمبراطور يشجع الترك ، وأنهم يدبرون مؤامرة لاغتياله . فتظاهر تاتيكيوس بالاقتناع ، وانسحب من المعسكر ، وانطلق إلى ميناء سان سيمون ، حيث استقل السفينة إلى جزيرة قبرص[٣] ، بعد أن أعلن أن رحيله لم يقصد به سوى تدبير المدد والمؤن للقوات الصليبية ، ومن الدليل على ذلك أنه ترك وراءه معظم مساعديه[٤] . غير أنه لم يكد يغادر البلاد ، حتى انطلق دعاة بوهمند يذيعون أنه فر جبنا ، أو خوفا من مواجهة الجيش التركى المقبل ، أو لخيانة قد دبرها[٥] .

---

(١) Runciman : The First Crusade p. 313

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 81.
Anne Comnene : Alexiade I. p. 87.
Chalandon : Alexis Comnene p. 202.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 81.
Anne Comnene : Alexiade II. p. 20.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 224

(٥) Grousset : op. cit. I. p. 81.
Histoire Anonyme trad. Bréhier p. 73,81.

والواقع أن بوهمند رتب هذه الخطة لإقصاء تاتيكيوس ، لتحقيق سياسته ، التى ترمى إلى الاستئثار بأنطاكية . إذ تراءى له أن اشتراك قوة بيزنطية بقيادة تاتيكيوس فى حصار أنطاكية ، سوف يحول دون تحقيق غرضه . فإذا سقطت أنطاكية ، فسوف يطالب ممثل الإمبراطور البيزنطى بتنفيذ التزامات القادة الصليبيين التى وعدوا بها الإمبراطور ، بأن يردوا له البلاد التى استولوا عليها[١] . يضاف إلى ذلك أن بوهمند لوّح أنه يفكر فى الافتراق عن الجيش الصليبى ، فليس فى وسعه أن يظل بعيداً عن وطنه ، بجنوب إيطاليا ولا بد أن يؤدى التزاماته له . والواقع أن بوهمند أدرك شدة حاجة الجيش الصليبى له نظراً لما قام به من أعمال حربية حتى وقتذاك ، فإذا صارت له إمارة أنطاكية ، فسوف تعوضه عن كل ما يلحق به من خسائر فى وطنه أثناء تغيبه عن إيطاليا . وعلى الرغم من أن رفقاءه وزملاءه ، لم يتأثروا بهذه المناورات ، فإنه حاز رضى العساكر وكسب شعورهم[٢] .

ومع ذلك لازال بوهمند يسدى النصائح للقوات الصليبية ، وبفضل مشورته استطاع الصليبيون أن يردوا الهجوم الذى قام به رضوان أمير حلب ، وسقمان بن ارتق أمير ديار بكر ، وأمير حماه ، وأن يحبطوا جهود ياغى سيان ، من داخل أنطاكية ، لمهاجمة معسكرهم[٣] .

لم يتحسن موقف الصليبيين من ناحية توفير المؤن ، فلازال الطعام شحيحا على الرغم من جهود البطريرك سيمون (سمعان) وتاتيكيوس ، فى إرسال كميات كبيرة من المؤن من جزيرة قبرص ، إلى ميناء سان

---

(١) Chalandon : La Premiere Croisade p. 193
Grousset : Histoire des Croisades I. p. 80.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 225

(٣) Histoire Anonyme trad. Bréhier pp. 80-86
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٣٢

سيمون (السويداء) ، فضلا عن نشاط الإمبراطور البيزنطى فى إرسال المؤن فى أسطول إنجليزى وصل إلى سان سيمون ، فى مارس ١٠٩٨[١] . وأفاد الصليبيون من المقادير الوافرة من أدوات الحصار والبناء والصناع ، فى عمارة البرج على ضفة نهر الكلب ، القريبة منهم ، للتحكم فى الجسر المنيع المقام على هذا النهر من جهة ، ولتأمين الطريق المؤدى إلى ميناء سان سيمون ، وصار هذا البرج ، الذى أطلق عليه مؤرخو الحروب الصليبية اسم قلعة Mahomerie (المنبر) ، لوقوعه قرب جامع بقرافة المسلمين ، يعرف باسم قلعة ريموند ، لأنه هو الذى اقترح إنشاءه[٢] . ثم تقرر أيضاً إقامة قلعة فى موضع دير قديم يقع بأعلى التل المواجه لجسر القديس جورج ، وخضع لإشراف تانكرد[٣] . فلم يعد بوسع القوافل أن تصل بما تحمله من المؤن ، إلى المدينة ، ولم يستطع سكان المدينة أن يرسلوا قطعانهم إلى المروج الواقعة خارج الأسوار . وتعذر عليهم محاولة القيام بهجوم منظم ، على حين تيسر للصليبيين ، عند حلول الربيع ، أن يخرجوا للحصول على العلف ، وأن يشتروا من التجار المسيحيين ما احتاجوه من المؤن ، برغم ارتفاع أسعارها ؛ وازداد أمل الصليبيين فى الاستيلاء على المدينة بدون قتال ، نظرا لانقطاع المؤن عنها[٤] .

ولما عاناه الكسيوس من عداوة الترك ، وما ترتب عليها من أضرار ، نصح ، فيما يبدو ، الصليبيين ، أثناء مقامهم بالقسطنطينية ، أن يسعو

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 227

(٢) Runciman : History of the Crusades I. pp. 226-228.

(٣) Ibid : Loc. cit.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٣٦

Grousset : op. cit. I. p. 91

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 229

للاتصال بالفاطميين ، وإجراء اتفاق معهم ، لما بين الفاطميين والسلاجقة من خصومة وعداوة ، ولما اشتهر به الفاطميون من الاستعداد للتفاهم مع المسيحيين . والمعروف أن تولى الخلافة الفاطمية وقتذاك المستعلى ، (١٠٩٤ – ١١٠١) ، وهو صبى ، استبد بالأمر دونه ، الأفضل بن بدر الجمالى ، (١٠٩٤ – ١١٢١) ، الذى ينتمى إلى أسرة أرمنية[١] ؛ ولعل الحكومة الفاطمية أدركت ما يعود عليها بالنفع إذا تحالفت مع الصليبيين ضد العدو المشترك ، السلاجقة[٢] . ويشير ابن الأثير إلى أن الفاطميين ، هم الذين جلبوا الصليبيين إلى الشام ، بعد أن كانوا يقصدون شمال إفريقية ، فيقول « إن أصحاب مصر من العلويين ، لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها ، واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى ، تمنعهم ودخول الأقسيس (أتسيز) إلى مصر ، وحصرها ، فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين[٣] » على أنه حدث فى أوائل الربيع ، سـنة ١٠٩٨ ، أن جاء إلى معسكر الصليبيين أمام أنطاكية ، سفارة مصرية ، من قبل الأفضل وزير المستعلى الفاطمى ، تعرض اقتراح اقتسام أملاك السلاجقة فى الشام ، فيكون للفرنج أنطاكية وشمال الشام ، ويكون للفاطميين بيت المقدس وفلسطين . ولا شك أن الأفضل اعتبر أن الصليبيين ليسوا إلا مأجورين عند الإمبراطور البيزنطى ، والمعروف أن الأطراف البيزنطية امتدت زمن نقفور فوقاس وحنا زمسكيس إلى أنطاكية ، واستردها سنة ١٠٨٥ ، سليمان بن قتلمش . وأفاد الفاطميون

---

(١) Ibid : op. cit. I. p. 230.

(٢) Grousset : Histoire des Croisades I. p. 83

Ibid : Loc.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ١٨٥-١٨٦.

من الاضطراب الذى نجم عن الحروب الصليبية فأرسلوا فى يولية سنة ١٠٩٨ جيشاً انتزع بيت المقدس من يد الأراتقة[١] .

واستقبل الأمراء الغربيون سفراء الأفضل بالحفاوة والمودة ، على أنه لم يرتبطوا معهم بتدبير خاص ، ولما عادوا صحبتهم سفارة صغيرة من الفرنج . والواضح أن الصليبيين أفادوا من المفاوضات ، فى توجيه سياستهم المقبلة ، إذ خفت حدة التعصب الدينى ضد المسلمين ، فلما سمعوا بنهوض كربوقا ، لمهاجمة أنطاكية ، أرسلوا إلى دقاق أمير دمشق ، يطلبون منه أن يلتزم الحياد ، « لأننا لا نقصد غير البلاد التى كانت بيد الروم ، لا نطلب سواها ، مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعد صاحب أنطاكية » . على أن دقاقا لم يستجب لدعوتهم[٢] .

وإذ خاب أمل ياغى سيان ، صاحب أنطاكية فيما يبذله أميرا دمشق وحلب ، دقاق ورضوان ، من المساعدة ، استنجد بالسلطان السلجوقى ، فى العراق ، بركياروق ، وبأتابكه فى الموصل ، كربوقا[٣] . وجمع كربوقا عسكراً عظيما ، فانحاز إلى جانب قواته ، رجال بعث بهم سلطانا بغداد وفارس ، ومن قِبَل أمراء الأراتقة بشمال الجزيرة ، وتوقع أيضاً قدوم نجدات من قبل دقاق وجناح الدولة صاحب حمص[٤] . ولا زال ياغى سيان صامداً فى أنطاكية ، برغم ما تعرض له من ضغط شديد[٥] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٥

Grousset : Histoire des Croisades I. p. 83-85

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٩٣

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ١٨٨ .

Runciman : History of the Crusades I. p. 230.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 88.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٨٨ .

(٥) Runciman : op. cit. I. p. 230.

ازدادت حدة التوتر عند الصليبيين ، وأدركوا أنهم ما لم يستولوا فوراً على المدينة ، فسوف يتعرضون للدمار والهلاك ، بعد أن تطبق عليهم جيوش كربوقا من جهة ، وقوات ياغى سيان من داخل أنطاكية من جهة أخرى . فأرسلوا إلى الإمبراطور الكسيوس ، فى معسكره بآسيا الصغرى ، يتوسلون إليه أن ينهض لمساعدتهم وإنقاذهم . على حين أن بوهمند اشتد قلقه ، لحرصه على أن يستخلص لنفسه أنطاكية ، فإذا وصل الإمبراطور قبل أن تسقط أنطاكية ، أو إذا لم يتيسر رد قوات كربوقا ، إلا بمساعدة الإمبراطور ، أفلتت الفرصة من بوهمند ، وتحتم أن تعود أنطاكية إلى الإمبراطورية البيزنطية[١] .

على أن كربوقا أدرك خطورة قوات بلدوين فى الرها ، وتهديدها لجناحه الأيمن ، وأمضى ثلاثة أسابيع أمام الرها يحاول اقتحام أسوارها ، غير أنه فشل فى تحقيق رغبته ، فتوجه بجيوشه إلى الشام ، فنزل بمرج دابق فانحازت إليه قوات دمشق وحمص وسنجار وحلب وغيرها[٢] .

وفى تلك الأثناء ، حرص بوهمند على أن تكون أنطاكية له ، فاستطاع أن يوثق صلته بأحد قادة ياغى سيان ، فى داخل أنطاكية ، وهو فيروز الأرمنى الذى كان موضع ثقة ياغى سيان ، فصار من كبار رجاله ، حتى عهد إليه ، بحفظ برج ضخم يقع قرب باب القديس جورج[٣] . وعلى الرغم من تظاهره بالولاء لسيده كان شديد الحقد والبغضاء له ، لأن سيده ، ياغى سيان ، صادر هذا الرجل ، فأخذ ماله وغلته ، لأنه اختزن القمح واحتكره . فحمله الحنق على أن يتصل

---

(١) Runciman : op. cit. I. 230.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 231.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ١٨٨ .

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 92-93.

ببوهمند ، عن طريق الأرمن ، واتفقوا جميعاً على أن ييسروا له الاستيلاء على المدينة[١] ، وحصل فيروز على وعد ، بأن يجعل له بوهمند مالا وإقطاعاً[٢] .

ولما انعقد الاتفاق بين بوهمند وفيروز ، حرص بوهمند على أن يكتم الأمر عن باقي الفرنج . إذ أن بوهمند كان يتطلع منذ زمن طويل ، منذ كان بالقسطنطينية ، إلى أن يختص بأنطاكية وأوشكت خطته على النجاح ، بعد أن استمال إليه فيروز الأرمني . فلما ذاع خبر اقتراب الجيوش بقيادة كربوقا ، أتابك الموصل ، أحسّ الصليبيون بالقلق ، واشتد اضطرابهم ، لما هم عليه من « الوهن وقلة الأقوات[٣] » ، يضاف إلى ذلك أن بوهمند صار يؤكد علناً ، ما سوف يواجه الصليبيين من أخطار ، كما يزيد من قيمة انتصاره المقبل ، فضلا عن كثرة المتسللين من معسكرهم[٤] .

عندئذ عرض بوهمند على القادة الصليبيين ، بعد أن لمس شدة حاجتهم له ، وتعلقهم به ، مقترحاته عن أمر أنطاكية ، وبعد شيء من النقاش والجدل ، تم الاتفاق على أنه إذا كان عساكر بوهمند هم أول من يدخل إلى المدينة ، ولم يقدم الإمبراطور لنجدتهم ، تقرر أن ينفرد بحيازتها بوهمند[٥] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 231.

ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ١٣٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل . جـ ١٠ ، ص ١٨٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل . جـ ١٠ ، ص ١٨٨ .

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 231-232.

Anne Comnene : Alexiade II. p. 19.

(٥) Grousset : Histoire des Croisades I. p. 93-94.

Runciman : op. cit. I. p. 231.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 220-221.

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٣٤ .

وفى ٢ يونيه سنة ١٠٩٨ أرسل فيروز ابنه إلى بوهمند ، يخطره باستعداده للقيام بالخيانة ، وكان البرج والقطاع ، الذى يتولى هو وصحبه المحافظة عليه ، يواجه قلعة تانكرد ، ولذا أشار على بوهمند أن يحشد الجيش الصليبى ، فى مساء ذلك اليوم ، ويتظاهر بالمسير صوب الشرق للقاء كربوقا ، حتى إذا حل الظلام ، عاد العساكر إلى السور الغربى ، يحملون السلالم ليرتقوا بها إلى البرج ، فأخذ بوهمند بنصيحته[١].

اجتمعت العساكر ، من الفرسان والرجالة ، وفقا للخطة الموضوعة ، قبيل الفجر ، أمام البرج الذى يحرسه فيروز ، وتسلقوا السور ، وتبعهم بوهمند ، فتلقاهم فيروز ، فاستولوا على البرج وما يجاوره من الأبراج ، وهبطت فئة منهم إلى داخل المدينة فأثارت السكان المسيحيين ، وبفضل مساعدتهم ، فتحوا باب القديس جورج ، وباب الجسر الكبير ، الذى ينتظر قبالته معظم الجيش الصليبى فتدفق العساكر إلى داخل المدينة ، وانحاز إليهم السكان من اليونانيين والأرمن ، وأخذوا جميعاً يقتلون كل من صادفهم من الترك ، من النساء والرجال والأطفال ، وتعرض جماعة كبيرة من المسيحيين للقتل ، ولقى ابن فيروز أيضا مصرعه[٢] . ومن نجا من الترك من القتل ، لجأ إلى القلعة ، التى تقع فى الجنوب الشرقى من المدينة ، على إحدى قمم جبل سيلبيوس (حبيب النجار) . وهرع بوهمند فرفع لواءه على تل قريب ، حتى إذا طلع النهار ، ٣ يونية ، كانت أنطاكية فى قبضة المسيحيين[٣] .

ولما استيقظ ياغى سيان على هذا الضجيج ، توهم أن القلعة قد أخذت ،

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 233.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 234.

(٣) Grousset : op. cit. I. pp. 96-97.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 222-223.

فخرج من البلد فى جماعة المنهزمين[١] ، وندم ياغى سيان على ما أقدم عليه من الهروب ، وعلى أنه لم يقاتل الفرنج ، حتى يزيلهم عن البلد أو يقتل دون ذلك . « وجعل يتلهف على ترك أهله وأولاده والمسلمين » . واستبد به الحزن ، فسقط عن فرسه مغشياً عليه ، ولم يستطع أصحابه أن يعيدوه إلى صوابه ، فتخلوا عنه ، فاجتاز به فلاح أرمنى ، كان يقطع الحطب فقتله ، وأخذ رأسه وحمله إلى الفرنج بأنطاكية[٢] .

وسادت الفوضى أنطاكية ، فتعرض للنهب بيوت السكان من المسلمين والمسيحيين ، وحطم الفرنج ما صادفوه من النفائس والذخائر ، وهلك من السكان ما يفوق الإحصاء ، ونهبت الأموال ، وسبى من كان بأنطاكية ، ووصل خبر هذه الفوضى إلى البلاد المجاورة فهرب منها المسلمون وتسلمها الأرمن[٣] .

ولما علم بهـذا الأمر كربوقا وأصحابه ، رحلوا قاصدين أنطاكية ، فظهر بعضهم على الجسر الحديد ، وقتلوا من كان فيه من الفرنج ، ثم مضوا إلى أنطاكية ، فعرفوا أن قلعتها لا زالت بأيدى المسلمين ، فتعرضت حامية الفرنج للقتل فى ٤ يونية ١٠٩٨ ، وظهرت القوات السلجوقية أمام أسوار أنطاكية[٤] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٣٥ .

Runciman : op. cit. I. p. 234.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ١٨٨ .

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٣٥ .

Runciman : op. cit. I. p. 234.

Grousset : op. cit. I. p. 96.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٣٥ .

Grousset : op. cit. I. p. 96.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 97-98.

توطد مركز الصليبيين فى أنطاكية ، وأحسوا أنهم أضحوا فى أمن ، فسوف تحميهم استحكامات المدينة من خطر جيوش كربوقا ، على أن الدفاع عن هذه الأسوار احتاج من العساكر ، ما ليس فى وسع الفرنج أن يبذلوه ، ولا زالت القلعة ممتنعة عليهم ، ولا بد لهم من الاستيلاء عليها ، ومن المستحيل منع الاتصال بين القلعة وقوات كربوقا . يضاف إلى ذلك أن الصليبيين دمروا كل ثروة المدينة ، ولم يعثروا بعد على المستودعات التى اعتقدوا أنها زاخرة بالمؤن ، وارتاب الصليبيون من موقف المسيحيين الوطنيين ، كما أن الاستيلاء على أنطاكية ، نجم عنه مشكلة مستقبل المدينة ، فظهرت بذلك بوادر الخصومة بين الصليبيين(١) .

وعلى الرغم من أن كربوقا استولى على قلعة المدينة ، فإن الأمراء الصليبيين منعوا قواته من أن تنفذ إلى داخل المدينة ، وردوا كل هجوم قام به نائبه فى القلعة ، وعندئذ تقرر أن يشتد كربوقا فى حصار الفرنج ، ويضيق عليهم الخناق ، حتى إذا أضعفهم الجوع ، وجه إليهم هجوماً عنيفاً(٢) .

استبد بالصليبيين اليأس بعد أن فشلت محاولتهم فى مقاومة كربوقا ، وانحطت روحهم المعنوية ، وزاد الأمر سوءاً ، أن الطعام أخذ فى النفاذ ، وارتفعت أسعار المؤن ، واقتات كثير من الناس بأوراق الأشجار ، وهرب من الجيش عدد كبير من الأجناد ، وبعض القادة أمثال ستيفن بلوا ، وصهر بوهمند وليم ميسنل ، وشقوا طريقهم ، وسط صفوف كربوقا ، إلى ميناء سان سيمون ، فنقلتهم سفن جنوه إلى طرسوس(٣) .

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 236.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 237-238.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٣٦ .

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 238.

تراءى للفرنج بداخل أنطاكية ، أن الفرصة الوحيدة لإنقاذهم لن تتهيأ إلا بقدوم الإمبراطور البيزنطى وقواته . والواقع أن الإمبراطور البيزنطى ، خرج من القسطنطينية ومضى فى طريقه بآسيا الصغرى ، حتى بلغ مدينة فيلو ميلوم (أقشهر) فى يونية ، غير أنه قرر العودة إلى العاصمة البيزنطية ، بعد أن سمع من الهاربين من الجيش أن أنطاكية وقعت فى أيدى الترك ، وخشى أن يسترد السلاجقة الأراضى التى استولى عليها الصليبيون والبيزنطيون فى آسيا الصغرى[1] . ولما علم الصليبيون بخبر انسحاب الإمبراطور البيزنطى ، اشتدت كراهيتهم له ، واعتبروا أنفسهم جنود المسيح الأوفياء ، وأنكروا حقوقه فى أنطاكية ، واستغل بوهمند ما حدث لتحقيق أطماعه[2] .

وفى تلك الأثناء واصل كربوقا الضغط على أنطاكية ، فقام بهجوم مفاجئ ، كاد يفوز فيه بالاستيلاء على أحد الأبراج ، فى الجنوب الغربى بالمدينة . فأمر بوهمند بإشعال النار فى الدور الواقعة بالقرب من السور ، حتى يتيسر للعساكر الانتقال والتحرك فى سرعة وسهولة[3] . على أن الروح المعنوية عند الصليبيين لم تلبث أن ارتفعت ، بما سيطر عليهم من الاعتقاد والإيمان ، بأن قوة خارقة بذلت لهم المساعدة . إذ جاء إلى الكونت ريموند فلاح من الجيش البروفنسالى ، واسمه بطرس بارثولوميو ، وأخبره بأن القديس أندرياس ظهر له خمس مرات ، وأمره بأن يكشف للكونت عن الموضع ، الذى اختفت فيه الحربة التى اخترقت جنب المسيح ، ويقع فى موضع بجنوب كاتدرائية القديس بطرس فى أنطاكية ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 239.
Grousset : op. cit. I. p. 102.

(٢) Runciman : The First Crusade p. 320.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 241.

ونهض ريموند للبحث عن موضع الحربة . على أن الرؤيات أخذت تنتشر ، تراءى لأحد القسيسين ، واسمه ستيفن ، أنه شهد المسيح والعذراء ، وسمع منه أن رجال الجيش إذا ندموا على ما ارتكبوه من الآثام ، وعادوا إلى الحياة المسيحية الصالحة ، فسوف يسبغ عليهم رعايته وحمايته فى خلال خمسة أيام ، وقص ستيفن هذه الرؤية على أدهيمر ، فقبلها[1] . ولما رأى أدهيمر ما تركته هذه القصة من أثر شديد عند الأمراء ، طلب إليهم أن يحلفوا بألا يتخلى أحدهم عن الجيش إلا بموافقة الآخرين ، فارتفعت الروح المعنوية فى الجيش[2] . ولما لم يعثر رجال ريموند على ما ادعاه بطرس من وجود الحربة المقدسة ، وثب بطرس إلى الحفرة وأخرج قطعة من الحديد ، والراجح أنه سبق له مواراة هذه القطعة تحت أرض الكنيسة[3] . ثم ظهر القديس أندرياس مرة أخرى ليعلن قرب حدوث معركة مع الترك ، بعد أن تعرض الصليبيون للهلاك جوعاً ، فأوصى بالصيام خمسة أيام ، للتكفير عن الذنوب ، على أن يقوم الجيش بعدها بالهجوم ، فإذا حاز النصر ، ينبغى بألا يبادر بنهب خيام العدو[4] .

قرر بوهمند الذى تولى القيادة العليا ، نظراً لمرض الكونت ريموند ، القيام بهجوم شامل على معسكر كربوقا . وبينما انتعشت آمال الصليبيين ،

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 102-104.

Runciman : History of the Crusades I- pp. 243-244

The First Crusade. p. 320-321.

Anne Comnene : Alexiade III. p. 30.

(٢) Runciman : History of the Crusades Ip. 244.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 245.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ١٨٩ .

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 245.

وارتفعت روحهم المعنوية ، اشتد عناء كربوقا ، فى محاولة الإبقاء على حلفه . وأحسّ كربوقا بالحاجة إلى مساعدة رضوان ، أمير حلب ، فترددت الرسل بينه وبين رضوان ، فساور دقاق أمير دمشق ، الشكوك من المفاوضات ، لما يكنه من العداء لأخيه رضوان ، وتسرب الخوف إلى دقاق ، لما علم من قيام الفاطميين بهجوم على فلسطين ، وحرص على أن يتوجه إلى الجنوب ، لرد هذا الاعتداء . والمعروف أيضاً أن أمير حمص ، جناح الدولة يكره الأسرة الأرتقية التى تحكم فى منبج ، التى اشترك منها جماعة فى حملة كربوقا ، وبذا ليس فى وسعه أن يتعاون معه[1] . يضاف إلى ذلك أنه وقع الاحتكاك بين الترك والعرب فى معسكر كربوقا ، وحاول كربوقا أن يعيد الأمن إلى نصابه ، باستخدام سلطته واستعمال العنف ، فكره الأمراء منه ذلك ، وتفرق كثير من التركمان ، وتزايد عدد الذين تركوا معسكره من العرب والترك ، فرجعوا إلى بلادهم[2] .

ولا شك أن متاعب كربوقا لم تكن مجهولة عند قادة الصليبيين ، الذين حاولوا أن يحملوه على أن يتخلى عن الحصار ، فأرسلوا إليه يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد ، فلم يعطهم ما طلبوا . ولعل سفارة الفرنج وقفت على أحوال المعسكر الإسلامى[3] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب . جـ ٢ ، ص ١٣٦ .
Grousset : op. cit. I. p. 104.

(٢) Grousset : op. cit. I. pp. 105-106.
Runciman : History of the Crusades I. p. 246.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ١٨٨ – ١٨٩ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٣٦ .

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 247
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ١٨٩ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٣٧ .

ولما فشلت المفاوضات ، كان لا بد من وقوع القتال ، فخرج الصليبيون من باب المدينة لملاقاة قوات كربوقا فى ٢٨ يونية ، وأشار أحد قادته ، وهو وثاب بن محمود ، بالمبادرة إلى مهاجمتهم ، قبل أن يكتمل خروجهم ، غير أن كربوقا لم يستجب إليه ، اعتقاداً منه ، بأن فى وسعه الإجهاز عليهم . اشتد القتال على الجبهة الرئيسية ، ولم يستطع الترك وقف زحف الصليبيين . يضاف إلى ذلك أن بعض الأمراء ، بزعامة دقاق ، تخلوا عن مواقعهم ، وترتب على ذلك أن ساد الذعر بين الجند ، فأشعل كربوقا النيران فى الحشائش الجافة أمام صفوف عساكره ، كيما يمنع تقدم الفرنج . ولم يبق موالياً له إلا سقمان بن ارتق ، وأمير حمص ، فلما فرَّا ، أدرك أن المعركة خاسرة ، فأحرق سرادقه وخيامه وانهزم نحو حلب[١] . ولا شك أن كربوقا كان مسئولا عن هذه الهزيمة ، لأنه أساء معاملة الجند والأمراء ، وأعرض عن الاستماع لما بذلوه من النصيحة بالمبادرة إلى قتال الفرنج ، فضلا عن عجزه على المحافظة على الوفاق بين الأمراء ، فتمت الهزيمة عليهم ، على حد قول ابن الأثير ، ولم يضرب أحد منهم بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم[٢] .

واقتفى الصليبيون أثر الهاربين ، حتى الجسر الحديد ، فقتلوا عدداً كبيراً منهم ، ومن انقطع من العسكر نهبه الأرمن ، ونهب الفرنج

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 248.

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٣٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ١٨٩ – ١٩٠ .

Grousset : op. cit. I. pp. 106-107.

مقادير كبيرة من الآلات والخيام والغلات والأموال والدواب والأثاث[١] .

أما أحمد بن مروان قائد قلعة أنطاكية ، فإنه لم يفتح أبواب القلعة إلا حينما ظهر بوهمند ، فسمح للحامية بالخروج ، دون أن تتعرض للأذى ، أما كربوقا فعاد إلى الموصل ، بعد أن تفرق عنه معظم الجيش ، وتداعت هيبته[٢] .

وعلى الرغم من أن أنطاكية انتقلت إلى حوزة الصليبيين ، فلم يتقرر بعد مصيرها لأحد منهم . فاليمين التى التزم بها كل الأمراء ، باستثناء ريموند ، تحتم تسليم المدينة إلى الإمبراطور . ونظراً لأن الإمبراطور لم يشهد الاستيلاء على المدينة ، ولم ينهض لمساعدة الصليبيين ، بل إن نائبه ، تاتيكيوس تخلى عنهم ، فإن بوهمند أعلن صراحة حرصه على أن يحوز المدينة لنفسه ، لأنه هو الذى دبر أمر الاستيلاء عليها ، وأدار المعركة الأخيرة ، وأذعنت القلعة له . ولقى بوهمند التأييد من كل الأمراء ، ما عدا ريموند الذى رأى المحافظة على حقوق الإمبراطور ، نظراً لما ارتبط به أثناء وجوده بالقسطنطينية من صداقة مع الإمبراطور البيزنطى ، ولما يكنه من الكراهية والحقد لبوهمند[٣] .

تقرر أن يبقى الصليبيون فى أنطاكية حتى نوفمبر ، كيما يسترد الجيش نشاطه ، ويتجنب السير أثناء الصيف وقيظه الشديد ، فضلا عن جهل

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 248.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٣٧ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ١٩٠ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٣٨ .

Runciman : The First Crusade, p. 323.

Grousset : op. cit. I. p. 108-109.

(٣) Runciman : The First Crusade p. 324.

: History of the Crusades I. p. 249.

الصليبيين بطرق الشام والآبار التى يستقون منها . يضاف إلى ذلك أنه لا بد من تسوية مشكلة أنطاكية ، إذ أنفذوا سفارة إلى الكسيوس بالقسطنطينية ، تسأله القدوم إلى أنطاكيه ، غير أن الزمن لم يكن وقتذاك ملائماً لقدومه ، وبذلك أضاع الكسيوس الفرصة لاسترداد إقليمه(١) .

على أن الانتظار زاد من قلق الصليبيين فى أنطاكية ؛ فبينما توجه بعض صغار الأمراء لزيارة بلدوين فى الرها ، أغار بعضهم على القرى فنهبوها ، واستولى جماعة منهم على بعض المعاقل والحصون . ثبت بوهمند أقدامه فى أنطاكية ، فسيطر على الحصون المنيعة ومعظم المدينة ، وصار يتصرف على أنه سيد المدينة ، ومن الدليل على ذلك ، أنه لما ذاع خبر هزيمة كربوقا ، أسرع كثير من الجنويين بالقدوم إلى أنطاكية ، وحرصوا على أن يكونوا أول من يفيد من تجارتها ، فحصلوا فى ١٤ يولية سنة ١٠٩٨ على عهد من بوهمند ، يجيز لهم بأن يتخذوا لأنفسهم سوقاً وكنيسة ، وأن يقيموا لهم ثلاثين داراً . ومنذئذ صار الجنويون يدافعون عن حقوق بوهمند ، الذى أخذ يرتكن إليهم ضد خصومه . غير أنهم التزموا جانب الحياد فى النزاع الذى نشب بين بوهمند وكونت تولوز ، الذى احتل الجسر الحديد(٢) .

واندلع فى أنطاكية وباء خطير فى هذا الشهر ، يوليه ، والراجح أنه كان مرض التيفوس ، وظهر نتيجة ما حدث فى الشهر السابق من توالى الحصارات والمعارك ، وبجهل الصليبيين بالتدابير الصحية اللازمة ؛ ومن أول ضحاياه ، أدهيمر ، الذى مات فى أغسطس ، وما اشتهر

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 250

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 251.

به أدهيمر من التقوى والإحسان والشجاعة والكياسة جعله موضع احترام جميع الصليبيين ، حتى النرمنديين ، الذين قاوم أطماعهم[١] . وتعتبر وفاته كارثة لحقت بالصليبيين ، إذ أسهم فى كثير من الخطط الحربية التى كفلت لهم الانتصار ، وعزم على التعاون مع المسيحيين الشرقيين ، فى بيزنطة والشام ، وحرص على ألا يقع الخلاف بين الصليبيين ، وكبح جماح أهواء الصليبيين وأطماعهم حتى لا تنزل الضرر بالحملة الصليبية . ولم يكن بين الصليبيين من يضارعه فى بعد النظر والعمل على وحدة العالم المسيحى[٢].

ولما انتشر الوباء فى أنطاكية ، تفرق الأمراء الصليبيون فى الريف ، فاجتاز بوهمند جبال أماتوس إلى قليقية ، حيث عزز الحامية التى خلفها تانكرد ، لحرصه على أن تدخل فى نطاق إمارة أنطاكية . أما جودفرى ، فتوجه صوب الشمال إلى مدينتى تل باشر وراوندان ، التى جعلهما له أخوه بلدوين . بينما توجه روبرت النرمندى إلى اللاذقية ، غير أنه أساء السيرة بها ، فطرده أهلها ، واستقر بها آخر الأمر ، حامية بيزنطية قدمت من قبرص[٣] .

ولما ارتفعت حدة الوباء ، وعاد الأمراء إلى أنطاكية ، اجتمعوا وقرروا أن يكتبوا إلى البابا ايربان ، يطلبون إليه القدوم ، بعد وفاة أدهيمر ، كيما يقرر أمور الحملة فيقضى بذلك على المنازعات بين الأحزاب المختلفة ، وأشاروا إلى أنهم سوف ينتظرون بأنطاكية حتى يقدم ؛ والراجح أنهم كانوا يقصدون إرجاء البت فى مصير أنطاكية حتى يتولى

---

(١) Runciman : The First Crusade. p. 324.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 252-253.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 255.

Chalandon : Essai sur le règne d'Alexis Comnene. pp. 205-212.

البابا أو مندوبه القيام بذلك ، ولاسيما أن الإمبراطور انسحب إلى القسطنطينية ، وأهمل رغبة الصليبيين[١] .

وانصرف الأمراء أثناء فترة انتظار وصول الرد من قبل البابا ، إلى الغارة على الجهات المجاورة كيما يحصلوا على المؤن ، بعد أن كادت تنفد عندهم بسبب الحروب والوباء . فاشترك ريموند مع جودفرى فى مهاجمة مدينة عزاز ، على الطريق المؤدى من الرها وتل باشر إلى أنطاكية . إذ أن عمر والى عزاز شق عصا الطاعة ، وتمرد على سيده رضوان ، صاحب حلب ، فخرج عسكر حلب وحصره ، فاستنجد بالفرنج ، فوصل صنجيل (ريموند) بعسكر كبير[٢] ، فعاد عسكر حلب ، ونهب ريموند ما قدر عليه وعاد إلى أنطاكية[٣] . وأقر جودفرى عمر على عزاز بعد أن حصل منه على يمين الولاء . وهذا الحادث يدل ، على الرغم من أن التبعية لم تستمر طويلا ، على ما جرى من تعديل وتغيير فيما يتعلق بيمين التبعية والولاء ، بأن قبل الصليبيون أن يكون لهم أتباع من المسلمين[٤] .

استولى ريموند على الروج ، على نهر الأورنت ، على مسافة ٣٠ ميلا من أنطاكية ، ومن هذا الموضع هاجم البارة ، فأخذها بالأمان بعد

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 256

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٤١ .

تشير المصادر الأوروبية إلى أن إحدى عقائل الصليبيين ، وكانت أرملة لفارس من اللورين ، وقعت فى أسر عمر والى عزاز ، فهام بها ، فلما تعرض عمر لمهاجمة جيوش حلب ، أشارت عليه بالاستنجاد بجودفرى ، فلبى الدعوه فرحا ، وانحاز إليه ريموند وعساكر من الرها ، وعندئذ انسحب رضوان بجيوشه . انظر :

Runciman : History of the Crusades I. p. 257.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٤١ .

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 257.

أن حصرها وقل بها الماء ، غير أنه غدر بأهلها واستصفى أموالهم ، وسبى بعضا وقتل بعضا ، وغصت البلد بالمسيحيين من الأرمن والفرنج من أنطاكية ، وأنشأ ريموند أول كنيسة لاتينية بهذه الجهات بأن حوّل المسجد إلى كنيسة[1] .

اجتمع الأمراء فى أنطاكية فى نوفمبر حسبما اتفقوا ، للتشاور فى أمر مواصلة المسير إلى بيت المقدس . وأثار أصدقاء بوهمند ، موضوع أنطاكية وحق بوهمند فى الاستئثار بها ، ومن الطبيعى أن يعارض ريموند الاقتراح ، ويشير إلى اليمين التى أقسمها الأمراء للإمبراطور البيزنطى ، وطال النزاع والنقاش ، فاشتد قلق الحجاج ، وحرصهم على الوصول إلى بيت المقدس ، فقرروا مواصلة السير ، وأنذروا قادتهم بتدمير أسوار أنطاكية قبل رحيلهم ، إذا ظلوا يتشاحنون على امتلاك المدينة[2] . ثم انتهى كبار الأمراء إلى قرار حول أنطاكية ، وافق عليه ريموند ، بشرط أن يقسم بوهمند بأن يصحب الحملة الصليبية إلى بيت المقدس ، فأقسم بوهمند بأنه لن يرجئ مسير الحملة أو ينزل بها ضرراً . على أن مسألة أنطاكية لم تتم تسويتها ، على الرغم من أن بوهمند يسيطر على القلعة وثلاثة أرباع المدينة ، بينما لازال ريموند يحتفظ بالجسر الحديد وقصر ياغى سيان ، ولم يتحدد بعد ، اليوم الذى يمضى فيه العساكر إلى بيت المقدس[3] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٤١ .

Runciman : History of the Crusades I. p. 257.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 258.

: The First Crusade. p. 326.

Grousset : op. cit. I. p. 116.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 259.

Grousset : op. cit. I. pp. 119-121.

على أنه تقرر مهاجمة حصن معرة النعمان ، لتأمين الجناح الأيسر للجيش الصليبي ، قبل مسيره إلى فلسطين . اشترك ريموند وكونت فلاندر وبوهمند فى حصارها ولما امتنعت عليهم المدينة ، بعد حصار استمر أسبوعين ، أخذوا يلتمسون من القرى ، الأخشاب اللازمة لصناعة أدوات الحصار . على أن المؤن والأقوات أخذت فى النفاد ، وتحتم على بعض قوات الجيش أن تتخلى عن مواضعها فى الحصار ، للبحث عن المؤن والطعام ، ثم حدث آخر الأمر ، فى ديسمبر ١٠٩٨ ، أن دفع الصليبيون برجاً ضخماً مقاما على عجلات من الخشب ، إلى سور المدينة ، إزاء أحد الأبراج ، ومع ذلك خاب الجند فى التسلق إلى سور المدينة ، فلجأوا إلى إحداث ثغرة فى السور ، عند جانب البرج ، تدفق منها الجند ، ولم يف بوهمند بوعده بتأمين سلامة الذين يذعنون له ، فتعرض السكان لمذبحة سريعة ، واقتحم الجند الدور فنهبوها وأحرقوها ، ومن وقع فى السبى من الأطفال والنساء ، تقرر بيعه رقيقاً(١) .

ونشب العداء بين الفرنسيين والنرمان ، بعد أن استولى بوهمند ، بطريق الخيانة والغدر ، على الجانب الأكبر من الغنيمة ، على الرغم من أن جيش ريموند هو الذى استولى على المدينة . واشتد السخط بين العساكر ، وطالبوا بالمضى إلى بيت المقدس ، ولوحوا لريموند ، بأنه إذا دبر أمر الرحيل ، اعترفوا به قائدا لكل الحملة ، ولقيت هذه الإشارة الترحيب عند ريموند ، لما تبادر إلى ذهنه ، بأنه بذلك يستطيع ،

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 122-123.

Runciman : History of the Crusades I. p. 260.

: The First Crusade. p. 3?6.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ١٩٠ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٤٢ .

أن يكبح جماح بوهمند ، فتخلى بوهمند عن معرة النعمان ، التى تولى أمرها أسقف البارة . وحاول ريموند أن يجتذب الأمراء إلى جانبه بما بذله من الأموال لهم عند الاجتماع بريموند فى الروج . غير أن الجيش بمعرة النعمان اتخذ إجراء خطيراً ، بأن دمروا استحكامات المدينة ، ليرغموا ريموند على المسير إلى بيت المقدس ، فلم يسعه إلا الإذعان ، فخرج من معرة النعمان ، حافى القدمين على هيئة قائد الحجاج . وصحبه من الأمراء روبرت النرمندى ، وتانكرد ، الذى عهد إليه بوهمند بالسهر على مصالح النرمان فى الحملة ، وجودفرى ، وبلدوين كونت فلاندر ، أما بوهمند وبلدوين أمير الرها ، فبقيا فى البلاد التى فتحاها . واستطاع بوهمند أن يجلى عن أنطاكية ما تركه بها ريموند من حامية[١] .

وما حدث بين بوهمند وتانكرد من نزاع وجد آخر الأمر حلا يرضى عنه الطرفان ، فصار ريموند قائداً للحملة ، دون منازع ، على حين أن بوهمند حاز أنطاكية[٢] .

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 123-124

Runciman : History of the Crusades I. p. 260-261.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 261.

Grousset : op. cit. I. p. 125.

الفصل السادس

بيت المقدس

لما أفصح ستيفن بلوا فى كتابه إلى زوجته ، من نيقية ، عن خوفه من توقف الحملة الصليبية عند أنطاكية ، لم يدر بخلده ما حدث من توقف الحملة فى أنطاكية نحو ١٥ شهراً ، وقع أثناءها تغييرات هامة فى العالم الإسلامى .

ترتب على هزيمة كربوقا أن اضطرب أمر الترك ، ووقعت بينهم الفرقة . فما حدث من التحاسد والكراهية ، بين الأخوين دقاق ورضوان ، منعهما من التصدى للفرنج ، يضاف إلى ذلك أن الأفضل وزير الخليفة المستعلى الفاطمى ، عزم على أن يفيد من الحرب الناشبة فى شمال الشام ، لاسترداد فلسطين من أيدى ولدى أرتق وسقمان وإيلغازى ، اللذين أقرا سيادة دقاق على دمشق . ولما تقدم الأفضل بعساكره ، وحاصروا المدينة ونصبوا عليه المجانيق ، تهدمت مواضع من الأسوار ، واستمر القتال أكثر من أربعين يوماً ، ولم يسع سقمان وإيلغازى إلا الاتفاق مع الأفضل ، والانسحاب إلى خارج بيت المقدس ١٠٩٨ ، بعد أن يئسا من قدوم نجدة من قبل دقاق . وسمح لهما الفاطميون ، بالمسير برجالهما إلى دمشق ، ثم عبرا الفرات ، فأقام سقمان بالرها ، وسار إيلغازى إلى العراق ، وتولى بيت المقدس وال من قبل الدولة الفاطمية ، بقى حتى قدوم الحملة الصليبية[1] . وعمر الفاطميون استحكامات بيت

---

(1) Runciman : History of the Crusades I. p. 266-267.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ١٩٣ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ .

المقدس وأمدوا سلطانهم إلى نهر الكلب شمال بيروت[١] .

سار ريموند بقواته فى يناير ١٠٩٩ ، إلى كفر طاب على مسافة ١٢ ميل إلى الجنوب منها ، وقدمت إليه قوات الأمراء الآخرين ، ورسل من قبل أمير دمشق وشيزر ، يعرضون تقديم الادلاء والمؤن بأسعار رخيصة ، إذا لم يتعرضوا بالأذى لبلادهم التى يجتازونها . وأجازت لهم السلطات العربية أن يشتروا حاجاتهم من مدنهم[٢] .

ودارت المناقشة بين ريموند وقادته عن الطريق الذى يسلكونه . وكان ريموند يرى المسير غربا ، واجتياز جبال القصيرية ، إلى ساحل البحر المتوسط ، فيظل بذلك على اتصال بأنطاكية وقبرص . غير أن تانكرد أشار أنه لن يتوافر الاطمئنان إلى السير على امتداد ساحل البحر جنوبا ، إلا بالاستيلاء على المدن الواقعة عليه ، ولم يكن فى وسع قوة الجيش أن تقوم بذلك ، لأنها لم تتجاوز وقتذاك ألف فارس ، وألف وخمسمائة من الرجالة . واقترح تانكرد أن يلتزم الجيش المسير على امتداد نهر الأورنت ، إلى وادى البقاع ، إلى رأس نهر الأردن[٣] . على أن الاعتراض على هذا الرأى مبنى على أن الإقليم الواقع بين لبنان والصحراء ، والذى يجتازه هـذا الطريق ، يحكمه دقاق أمير دمشق الذى لابد أن يقاوم زحف الصليبيين ، فضلا عن صعوبة الحصول على المؤن اللازمة للجيش . وللتوفيق بين الرأيين تقرر أن يسير الجيش إلى سهل البقيعة ، الواقع بين جبال القصيرية وجبال لبنان ، ثم يتجه إلى البحر المتوسط فيبلغه بالقرب من طرابلس[٤] .

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 267.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 268.

Grousset : op. cit. I. p. 125.

(٣) Runciman : The First Crusade. p. 321.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 268.

: The First Crusade. p. 327-328.

وفى يناير ١٠٩٩ وصل الصليبيون إلى مدينة مصياف ، فبادر أميرها بعقد معاهدة معهم ، ثم توجهوا إلى رفانية ، وهبطوا بعدئذ إلى سهل البقيعة ، التى تحكم فيه حصن الأكراد ، الذى لجأ إليه السكان بقطعانهم ، فهاجمه الصليبيون واستولوا على ما به من الماشية والدواب ، بعد أن هجره السكان[١] . وأقام الجيش بالحصن ثلاثة أسابيع ، للتشاور فى الخطط الحربية ؛ وقدم على ريموند الرسل من قبل أمير حماه ، الذى ينتمى إلى أسرة بنى عمار ، والذى استطاع أن يحافظ على استقلاله ، بما لجأ إليه من الإيقاع بين الفاطميين والسلاجقة ، ومن قبل أمير طرابلس ، وتعاهد الأميران بمد الجيش الصليبى بالمؤن ودفع مبالغ من المال ، مقابل التعهد بعدم مهاجمة بلادهما . وقبل ريموند هذا العرض ، وأمر بمهاجمة عرقة الواقعة على مسافة ١٥ ميل من طرابلس ، فى ١٤ فبراير سنة ١٠٩٩[٢] . ثم وجه حملة لارتياد الساحل السورى ، فهاجمت انطرطوس ، التى لم تلبث أن اعترفت بسيادة ريموند[٣] .

على أن حصار الصليبيين لعرقة ، لم يصادف نجاحاً كبيراً ، لما اشتهرت به المدينة من المناعة ، وقوة حاميتها ، ولم يتوافر آلات الحصار عند الفرنج ، ومع ذلك ظل الحصار مضروبا عليها . وفى أثناء الحصار اشتد الخصام بين الأمراء الصليبيين ، فمنهم من رفض الاعتراف بقيادة ريموند ، أمثال جودفرى وروبرت النرمندى ، ومنهم من اعتبر ما يبذله ريموند من العطاء لا يتفق مع مكانته وجهوده ، ويمثل هذا الفريق تانكرد . وزاد الأمر سوءا ، ورود رسالة من الكسيوس ، تشير إلى عزمه على

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 128-130.

(٢) Runciman : History of the Crusades I .p. 269-270.

(٣) Runciman : The First Crusade. p. 328.

القدوم إلى الشام ، ليقودهم إلى بيت المقدس ، غير أن الصليبيين رفضوا الاقتراح . والراجح أن الكسيوس لم يدهش لهذا التصرف من قبل الصليبيين ، لأنه كتب إلى الفاطميين ، قبل أن يصل إليه رد الصليبيين ، يخطرهم بانقطاع صلته بزحف الفرنج على أملاك الفاطميين ، وأن التزاماته فى فلسطين اقتصرت على من كان بها من الجماعة الأرثوذكسية ، ولعله اعتقد أن أحوال الأرثوذكس سوف يصيبها ، فى ظل الحكم الفاطمى الذى اشتهر بالتسامح ، من الخير والتحسن ما لم تنله عند الفرنج ، الذى أدى سلوكهم فى أنطاكية إلى ازدياد الكراهية . على أن الفرنج لم يدركوا ما اشتهرت به الدبلوماسية البيزنطية من الدهاء والمكر ، ولما وقع فى أيديهم فيما بعد نسخ من الرسائل المتبادله مع مصر ، ارتاعوا لخيانة الإمبراطور البيزنطى[١]

وقدم رسل الفرنج الذين توجهوا إلى مصر صحبة السفارة الفاطمية ، يحملون شروط الفاطميين للتحالف معهم ، وتتلخص فى قبول التحالف بشرط ألا يمضى الصليبيون فى تقدمهم فى فلسطين ، وفى أن يبذلوا للحجاج المسيحيين لبيت المقدس كل المساعدات لتحقيق غرضهم ، غير أن هذا العرض لقى الرفض عند الصليبيين[٢] .

قاومت عرقة الحصار الشديد ، ولقى كثير من رجال ريموند مصرعهم فيما دار من القتال ، وتقرر آخر الأمر اتخاذ طريق الساحل ، حتى يتيسر الاتصال بالأسطولين الجنوى والإنجليزى ، على أنه من ناحية أخرى تعرض لهجمات البحرية الفاطمية ، التى منعت الصليبيين من الاستيلاء على المدن الساحلية ، فضلا عن افتقار الفرنج أيضاً إلى آلات الحصار[٣] .

---

(١) Runciman : The First Crusade. p. 329.

(٢) Runciman : The First Crusade p. 329.

(٣) Runciman : The First Crusade p. 350.

ولما اقترب الجيش الصليبي من طرابلس ، بادر أميرها إلى اطلاق سراح الأسرى المسيحيين ، وبذل للمعسكر الصليبي ١٥ ألف دينار ، وخمس عشرة من خيرة الأفراس ؛ وأمد الجيش بما احتاجه من الدواب ؛ فجنب بذلك طرابلس من النهب ، وغادر الصليبيون طرابلس فى مايو سنة ١٠٩٩ ، يرشدهم أدلاء من قبل أمير طرابلس ، فاجتازوا البطرون وجبيل من بلاده ، ثم عبروا نهر الكلب ، فى شمال بيروت ، فنفذوا إلى الأملاك الفاطمية[١] .

لم يكن للفاطميين فى الأقاليم الشمالية من الحاميات ، سوى ما كان منها فى المدن الساحلية . غير أن الأسطول المصرى كان دائماً يرتاد الجهات الساحلية ، وإذ خشى الصليبيون نفاذ المؤن ، حرصوا على ألا يتعرضوا للمدن التى يجتازونها بالأذى والضرر مقابل الحصول على ما يحتاجونه من الزاد . سار الجيش الصليبى إلى صيدا ، ولم تكن حاميتها تنزل فى موضع صالح ، فهاجم جنودها الصليبيين ، الذين عسكروا على شاطئ نهر العوالى ؛ فأسرع الفرنج بالسير إلى صور ، فلم يتعرضوا بها لهجوم عساكر الحامية ، لنزولهم وراء الأسوار فى مكان مأمون ، فأقاموا بها يومين ، ولحق بهم بلدوين أمير الرها مع جماعة من الفرسان . ثم واصل الجيش الصليبى المسير ، إلى عكا ، .ولم تتعرض المدينة للنهب ، بسبب ما أقدم عليه أميرها من مد الجند بالمؤن والهدايا . ثم مضوا فى طريقهم ، مجتازين حيفا ، حتى أرباض قيسارية فى ٢٦ مايو سنة ١٠٩٩ ، ومنها توجهوا إلى أرسوف ، حتى إذ بلغوا موضعا من شمال يافا ، اتخذوا طريقهم إلى الداخل ،

---

(١) Runciman : The First Crusade p. 351.

مجتازين الرملة ، إلى بيت المقدس ، التى وصلوا إليها فى ٣ يونية ، دون أن يصادفوا مقاومة[1] .

كانت الرملة من المدن الهامة ، ظلت حاضرة لإقليم فلسطين حتى قبيل الغزو التركى . فترتب على غارات التركمان ، أن أخذت فى التداعى، وتهدمت استحكاماتها . ولبعد المدينة عن الساحل ، لم تصلها حماية الأسطول الفاطمى . ولم تكد تشتعل النيران فى كنيسة القديس جورج فى اللد على مسافة ميل واحد منها ، حتى غادر السكان المدينة ؛ فلما توجه روبرت كونت فلاندر على رأس جيش صليبى للاستيلاء عليها ، وجدها خالية من السكان . وفرح الصليبيون لاحتلالهم مدينة إسلامية فى جوف فلسطين ، فنذروا بأن يعيدوا بناء الكنيسة ، وأن يعمروا اللد والرملة ، وأن يجعلوا منهما إمارة ، باسم القديس جورج[2] .

وما حدث من تعيين الأساقفة على البلاد التى استولى عليها الصليبيون ، مثلما جرى فى البارة والرملة ، دلّ على أنه لابد من بذل الأراضى للكنيسة ، ومع ذلك ، فإن روبرت فلاندر صار مسئولا عن الرملة ، ورابطت بها حامية صغيرة[3] . ومما يدعو للالتفات أن الصليبيين أشاروا فى مناقشاتهم عن الموقف الحربى بعد الاستيلاء على الرملة ، إلى المبادرة إلى فتح مصر، غير أن هذه الفكرة لم تؤيدها وقتذاك غالبية الفرنج ، بل قرروا المضى إلى بيت المقدس[4] .

ومن الرملة ، سلك الجيش الصليبى الطريق القديم ، الذى يلتوى حول تلال يهودا ؛ وفى أثناء الطريق ، قدم إلى الأمراء الصليبيين ، رسل من المسيحيين بمدينة بيت لحم يدعونهم للاستيلاء على المدينة ، فتوجه تانكرد

---

(١) Runciman : The First Crusade. p. 331.

(٢) Runciman : The First Crusade. p. 332.

(٣) William of Tyre : op. cit. I. p. 313.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 277.

وبلدوين لى بور ، فى طائفة من الفرسان ، إلى المدينة ، فتسلموها من السكان وارتفع علم تانكرد على كنيسة المهد ، دون أن يلقوا مقاومة . والمعروف أن هذه المدينة من توابع بيت المقدس ، وتخضع لسلطان الفاطميين . وفى ٧ يونية ١٠٩٩ ، عسكر الصليبيون أمام بيت المقدس(١) .

وتعتبر بيت المقدس من أمنع الحصون فى عالم العصور الوسطى ، فلا زالت أسوارها متينة ، إذ اهتم بعمارتها وإصـــلاحها البيزنطيون والأمويون والفاطميون ، فكان يحميها من الشرق والجنوب والغرب الخنادق ، التى لم يقطعها إلا جبل صهيون فى الطرف الجنوبى الغربى ، فلا يتيسر الهجوم على المدينة إلا فى هذا الطرف (الجنوبى الغربى) ، وعلى امتداد السور الشمالى . أما القلعة ، وهى برج داود ، فتقع فى منتصف السور الغربى ، وتشرف على الطريق ، الذى يحاذى الجبل وينتهى عند باب يافا ، من أبواب المدينة . وما توافر بالمدينة من الصهاريج التى شيدها الرومان ، كفل للمدينة الماء الغزير ، وما أدخله الرومان بالمدينة من نظام المجارى ، حفظها من الأمراض(٢) .

وتولى أمر الدفاع عن بيت المقدس ، الوالى الفاطمى ، افتخار الدولة ، الذى يخضع لسلطانه حامية مؤلفة من عساكر عربية وسودانية . ولما ترامى إليه نبأ اقتراب الصليبيين ، حرص على أن يوفر لسكان المدينة والحامية من المؤن ما يكفيهم ، إذا طال أمد حصارها ، وأن يتخذ من التدابير ، ما يمنع وقوع الخيانة وممالأة العدو ، فأخرج من المدينة المسيحيين ، وأنزلهم بظاهرها ، وأرسل إلى مصر يطلب النجدة العاجلة(٣) . على أن الفرنج

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 277.
: The First Crusade. p. 332-333.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 279.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 280.
: The Frist Crusade. p. 333.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٦ – ١٣٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ١٩٣ .

يحاربون فى بلاد لم يسبق لهم معرفة بها ، وكان يعوزهم السلاح ، ولم يتوافر عندهم من القوات ما يكفى لحصار المدينة ولمنع هجمات الحامية الفاطمية . يضاف إلى ذلك اشتداد الحرارة ، وتعذر الحصول على أماكن ظليلة ، وثقل الأسلحة التى يحملها الفرسان والاجناد ، وتعرض العساكر للهجمات المفاجئة ، إذا توجهوا لالتماس المـاء من جهات تبعد عن مواضعهم ، فضلا عن أن المؤن أخذت فى النفاذ . وأدرك الصليبيون أنه ليس بوسعهم أن يتحملوا الحصار الطويل ، وينبغى أن يبادروا بمهاجمة المدينة والاستيلاء عليها[١] .

ركزوا قواتهم على القطاعات التى تجعلهم يقتربون من الأسوار ؛ فاتخذ روبرت النرمندى موضعه ، عند الطرف الشرقى من السور الشمالى ، وعسكر روبرت فلاندر تجاه باب دمشق (الحالى) ، بينما نزل جودفرى وعساكره فى الطرف الشمالى الغربى (للمدينة) حتى باب يافا ، وانحاز إليه تانكرد ، وأقام ريموند على جبل صهيون . غير أن الصليبيين لم يحاولوا الهجوم ، لافتقارهم إلى أدوات الحصار[٢] .

على أنه حينما توجه الأمراء الصليبيون فى ١٢ يونية حاجين إلى جبل صهيون التقوا بأحد الزهاد ، فأمرهم بالمبادرة إلى مهاجمة المدينة ، ولم تلق محاولتهم شيئا من النجاح . وإذ اشتدت حيرتهم فى الحصول على أدوات الحصار ، وصلت إليهم فى الوقت المناسب من جهة البحر ، المساعدة . إذ رسا بمرفأ يافا ست سفن جنوية وإنجليزية ، تحمل كميات من المؤن والأسلحة ، والأدوات اللازمة للحصار ، فأنزلت حمولتها إلى البر ، ولما تعرضوا لحصار أسطول مصرى فى يافا ، تركوا السفن ، واشتركوا

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 281.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 280.

فى نقل الأدوات إلى المعسكر الصليبى فى بيت المقدس[١] . واستطاع الصليبيون أيضا أن يحصلوا على كميات من الأخشاب من الغابات فى السامرة ، ثم شرعوا فى بناء برجين يسيران على عجل[٢] .

وساءت أحوال الصليبيين مرة أخرى ، لقلة الماء ، وندرة الأقوات وشدة الحرارة ، وتعرضهم باستمرار لهجمات المسلمين ، ولما نشب من النزاع بين الأمراء ، حول امتلاك بيت لحم ، ومعارضة رجال الدين ، كل ذلك حمل كثيرا من الصليبيين على أن يتسللوا من الحملة الصليبية ؛ وأن يتوجهوا إلى يافا ، لعلهم يجدون سفنا تحملهم إلى بلادهم[٣] .

غير أن ما التمسه الصليبيون فى أنطاكية من إثارة الحماس الدينى ، بما ظهر من الكرامات والمعجزات ، والصيام ، والصعود على جبل الزيتون ، وإلقاء المواعظ كان له أثره فى تأجج الحماس الدينى . فتناسوا ما كان بينهم من منازعات ، وعكفوا على إنجاز البرجين الضخمين فنصبوا الأول إزاء السور الشمالى ، والآخر على جبل صهيون ، وأنشأوا برجا ثالثا يقل ضخامة عن البرجين السابقين ، وجعلوه عند الطرف الشمالى الغربى[٤] .

تقرر أن يبدأ الهجوم ليلة ١٣ — ١٤ يولية ، من جبل صهيون ومن الطرف الشمالى الغربى . وتألفت القوة الصليبية المهاجمة ، على حد رواية المؤرخ ريموند أجيل الذى شهد المعركة ، من ١٢ ألف من الرجالة ، و ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ من الفرسان . وارتقى الصليبيون الأسوار بعد أن هبط

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 282.
: The First Crusade. p. 334.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 283.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 283.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 284-285.

إليها جودفرى وجماعة من اللورين ، ففتحوا باب المدينة من الداخل ، فتدفق إليها الصليبيون[١] ، فلجأ المسلمون إلى الحرم الشريف ووطدوا العزم على أن يتخذوا من المسجد الأقصى معقلا لهم ، على أن تانكرد انقض عليهم ، فبادروا بالتسليم والإذعان له . وفى تلك الأثناء ساد الاضطراب بين السكان عند هروبهم إلى الأحياء الجنوبية للمدينة ، حيث لا زال افتخار الدولة يقاوم فى عنف ، ثم انسحب إلى برج داود ، وبذل ريموند الأمان له ولرجاله ، فخرجوا من المدينة وانحازوا إلى حامية عسقلان[٢] .

لم ينج من المسلمين بحياته إلا هذه الفئة القليلة ، إذ أن الصليبيين انطلقوا فى شوارع المدينة وإلى الدور والمساجد ، يقتلون كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال . وظلت المذبحة مستمرة ، طوال الليل ، وفى صباح اليوم التالى ، اقتحم باب المسجد جماعة من الصليبيين أجهزت على جميع الذين لجأوا إلى المسجد الأقصى ، ومنهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، « ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف ، وغنموا منه ما لا يقع عليه الحصر »[٣] . وقدم إلى بغداد من الشام جماعة من المسلمين ، فأوردوا من الكلام « ما أبكى العيون ، وأوجــع القلوب ، وقاموا بالجامع ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا ، وذكروا مادهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم ، من قتل الرجال ، وسبى الحريم والأولاد ، ونهب الأموال ، فلشدة ما أصابهم أفطروا[٤] » .

---

(١) Runciman : The First Crusade. pp. 334-336.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 286.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 286.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ١٩٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ١٩٢ .

وفر يهود بيت المقدس إلى معبدهم الكبير ، غير أنه تقرر إلقاء القبض عليهم ، وأشعلوا النار بالمعبد ، فلقى اليهود مصرعهم محترقين[١] .

وخلفت مذبحة بيت المقدس أثرا عميقا فى جميع أنحاء العالم . فعلى الرغم من أنه لم يعرف على وجه التحقيق عدد ضحايا المذبحة ، فالمعروف أنها أدت إلى خلو المدينة من اليهود والمسلمين ، بل إن كثيرا من المسيحيين اشتد جزعهم لما وقع . ووطد المسلمون العزم على طرد الفرنج ، لأن هذه المذبحة ظلت ماثلة فى السنوات التالية ، كلما جرت المحاولات للتفاهم بين المسلمين والصليبيين[٢] .

وتوجه أمراء الحملة ، بعد أن أجهزوا على المسلمين ، وفى موكب ، إلى الحى المسيحى المهجور ، ليؤدوا صلاة الشكر فى كنيسة القيامة . ثم اجتمعوا فى ١٧ يولية ليختاروا حاكما على بيت المقدس . على أن الحاكم الذى يصح أن يلقى القبول من الجميع قد مات ، إذ أن أدهيمر لم يعش حتى يشهد خاتمة الحملة التى اشترك فيها ودافع عنها . ومات أيضا سيمون (سمعان) بطريرك بيت المقدس ، منذ أيام قليلة قبل الفتح ، بقبرص . وفى روما مات فى ٢٩ يوليـــة سنة ١٠٩٩ ايربان الثانى الذى وضع أساس الحرب الصليبية ، قبل أن يصل إليه نبأ دخول الصليبيين إلى بيت المقدس[٣] .

تقرر البدء فى اختيار حاكم بيت المقدس ، وتأجيل انتخاب

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 287

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٧ .

(٢) Runcimau : History of the Crusades I. p. 287.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 288.

البطريرك ، نظرا لأهمية الحكومة وقتذاك . على أن سير الأحداث دل على أن الرأى العام لا زال يساند الكنيسة ضد السلطة الدنيوية[1] .

على أن الحاكم الذى يجرى انتخابه لبيت المقدس ، لن يتعدى واحدا من الأمراء الأربعة ، روبرت فلاندر ، وريموند كونت تولوز ، وجودفرى بويون ، وروبرت دوق نورمنديا ، بينما لم يكن لتانكرد ويوستاس بولون ، من المكانة ما يجعلهما يضارعان الأمراء الذين سبق الإشارة إليهم . كان روبرت فلاندر أكفأ الأمراء الصليبيين ، غير أنه ذاع خبر عزمه على العودة إلى بلاده . وحاز روبرت النرمندى محبة قومه وعساكره الذين قادهم ، غير أنه لم يكن قوى الشخصية ، فضلا عن حرصه على العودة إلى بلاده . وتبقى بعدئذ ريموند وجودفرى ، فاشتهر ريموند بالنضوج والخبرة والثروة ؛ وكان وثيق الصلة بالأسقف أدهيمر ، وهو الأمير الوحيد الذى التمس البابا ايربان منه النصح والمشورة أثناء الدعوة إلى الحروب الصليبية[2] . غير أن رفاقه كانوا ينكرون عليه كثرة إدعاءاته ؛ فنعوا عليه سياسته مع بيزنطة ، وحرصه على التعاون معها ، بل إن هذا الإجراء ذاته أثار سخط قومه . وانتقص من شهرته ما سلكه فى حصار عرقه ، باعتباره قائدا عاما ، وما كان من أمر الحربة المقدسة . وعلى الرغم من التسليم بما اشتهر به من التقوى والشجاعة ، لم يثق الناس فى سياسته وقيادته . أما جودفرى فلقى الاحترام والمحبة من الناس ، انحدر من بيت شرلمان ، وولى وظيفة كبيرة لدوق اللورين الأدنى ، واشتهر أيضا بالتقوى والشجاعة ، وكان أول من دخل بيت المقدس من الأمراء . ومع أنه لم يكن أميرا كفئاً فى إقليم اللورين ، ولم يكن حازما فى موقفه مع الإمبراطور

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 291.

(٢) Runciman : The First Crusade. p. 338.

البيزنطى ، لم يدرك سائر الصليبيين هذه العيوب ، واحترموه على أنه فارس صالح[١] .

والراجح أن هيئة الناخبين تألفت من كبار رجال الدين وكبار الفرسان الذين كانوا من كبار المقطعين فى موطن الأمير المرشح . وجرى عرض التاج أولا على ريموند فرفضه ولعل السر فى ذلك يرجع إلى أن هذا العرض لن ينال تأييدا عاما . أعلن أنه لا يحب أن يكون ملكا فى مملكة المسيح الدنيوية ، ولا شك أنه كان يأمل من وراء ذلك أن يمنع أحدا سواه من قبول الملكية . ثم توجه الناخبون إلى جودفرى ، الذى يسنده روبرت فلاندر وروبرت دوق نورمنديا ، فقبل أن يكون أميرا على بيت المقدس ، كما يقاتل العدو ، وإذ أنكر اللقب الملكى ، قرر اتخاذ لقب حامى بيت المقدس Advocatus Sancti Sepulchri ؛ أى المدافع عن القبر المقدس . وهذا اللقب أتاح له السلطة الدنيوية ، غير أنه لم يجحد حقوق الكنيسة[٢] . كان جودفرى شديد الزهد ، بالغ التقوى ، ولعله كان يشارك آحاد المسيحيين ، فى أن تكون الأرض المقدسة تدخل فى ولاية سلطة الكنيسة ، والواضح أنه لم يتطلب الرأى العام تنصيب ملك ؛ إلا بعد أن عاد الشطر الأكبر من الحملة الصليبية ، إلى بلادهم ، ولم يخلفوا وراءهم إلا فئة قليلة من المغامرين تقدم على استغلال البلاد وحكمها[٣] .

اعتقد ريموند أنه وقع ضحية المكر والتآمر ، ولذا لم يكن راضيا عن انتخاب جودفرى . فلم يتنازل له عن برج داود الذى تسلمه من افتخار الدولة

---

(١) Runciman : The First Crusade p. 339.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 293

William of Tyre : op. cit. I. p. 366-367.

(٣) Runciman : The First Crusade. p. 339.

: History of the Crusades I. p. 293.

الوالى الفاطمى ، ولم يلبث هذا البرج أن تسلمه جودفرى بعد مناورة بارعة اشترك فيها روبرت فلاندر وروبرت النرمندى . ولم يسع ريموند إلا أن يعسكر بجنده بعيدا ، لما تعرض له من الإذلال فى بيت المقدس[١] .

على أن فشل ريموند فى الاستحواذ على التاج ، أضعف أتباعه . فلما اجتمع رجال الدين فى أول أغسطس سنة ١٠٩٩ ليختاروا بطريركا تضاءلت مقاومة البروفنسال ، لأرنولف المرشح للبطريركية ، ونشط النرمان فى السيطرة على المجلس ، حتى تم اختيار أرنولف[٢] . وأصابت الخيبة رجال الدين ، حينما تبين لهم أن أرنولف لا يستطيع أن يفرض سلطانه على جودفرى ، بل التفت إلى الأمور الكنسية . وما أصدره من قرارات لتنظيم كنيسة القيامة ، واستبعاد ما كان يجرى بها من الطقوس ، غير اللاتينية ، كان بموافقة جودفرى[٣] . غير أن التغيير أثار امتعاض المسيحيين الوطنيين ، فتفرق كبار رجال دينهم فى الآفاق ، ولم يتهيأ لهم مطلقا أن يتخذوا لأنفسهم أساقفة أو بطريركا . وما صادفته الكنائس المسيحية بفلسطين من التسامح على أيدى المسلمين ، افتقدته بعد استيلاء اللاتين على بيت المقدس[٤] .

ولم تلبث العلاقات بين جودفرى ، ورفاقه ، أمثال روبرت فلاندر ، وروبرت النرمندى ، أن ساءت بعد أن تولى الحكم . وانصرف تانكرد

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 293.
William of Tyre : op. cit. I. p. 367-368.

(٢) Runciman : The First Crusade p. 340.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 294.

(٤) William of Tyre : op. cit. I. pp. 367-368.
Runciman : History of the Crusades I. p. 295.

إلى نابلس ، أملا أن يتخذ منها إمارة ، غير أنه نازعه فى ذلك شقيق جودفرى يوستاس[1] .

وفى تلك الأثناء كان لزاما على جودفرى أن يواجه هجوما من قبل المصريين ، ذلك أنه لما وصل إلى مصر الأنباء بسقوط بيت المقدس فى أيدى الفرنج حشد الأفضل العساكر وسار إلى عسقلان ، وأرسل سفارة إلى الفرنج ، ينكر عليهم ما فعلوا ، وتطلب إليهم الرحيل من فلسطين[٢] ، وعندئذ بادر جودفرى باتخاذ الإجراءات اللازمة ، فتجهز لقيادة الجيش الصليبى ، إلى السهل الساحل ، لمواجهة المصريين ، وأرسل إلى تانكرد ويوستاس ، يطلب إليهما أن يتوجها إلى ناحية عسقلان للوقوف على قوة الجيش الفاطمى وحركاته . ثم حشد جودفرى عساكره ، فانحاز إليه روبرت فلاندر ، وقرر مفاجأه المصريين بالهجوم ، بعد أن زوده تانكرد بتحركات الأفضل وعساكره ، وأنه ينتظر قدوم الأسطول المصرى ليمده بالمؤن ، وأنه لم يتوقع مهاجمة الفرنج له[٣] .

خرج جودفرى من بيت المقدس ، بالجيش الصليبى ، وصحبهم البطريرك أرنولف ، ثم زحفوا مباشرة إلى سهل أسدود ، ثم نفذوا إلى سهل المجدل ، شمال حصن عسقلان فى صبيحة ١٣ أغسطس سنة ١٠٩٩ . وعسكر الأفضل بجيشه فى السهل ، ولم يدرك أن الجيش الصليبى على مقربة منه[٤] .

وماكاد يتم تنظيم صفوف الجيش الصليبى ، حتى جرت مفاجأة الأفضل بالهجوم ،ولم يكن عند المصريين خبر عن وصولهم ولا عن حركتهم ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 295.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 295.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ١٩٣ .

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 295-296.

(٤) Runciman : The First Crusade p. 341.

ولم يكونوا على أهبة القتال ، فأعجلهم الفرنج وهزموهم ، وقتلوا منهم من قتل ، وغنموا ما فى المعسكر من مال وسلاح وانهزم الأفضل فدخل عسقلان ، وعاد فى خواصه إلى مصر[1] . وبذل أهل عسقلان للفرنج مبلغا كبيرا من المـال ، فلما حصلوا عليه ، عادوا إلى بيت المقدس[2] .

الواقع أن وقعة عسقلان أكدت امتلاك الصليبيين لبيت المقدس . على أن البحرية المصرية لا زالت تسيطر على السواحل ، وتبذل حمايتها للموانى البحرية[3] .

---

(١) Runciman : The First Crusade. p. 341.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ١٩٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ١٩٤ .

(٣) **Runciman : History of the Crusades I. p. 297.**

الفصل السابع

تأسيس الإمارات الصليبية

باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، فى ١٥ يولية ١٠٩٩ تحقق لهم الهدف الأساسى من الحروب الصليبية ، وبما أصابوه من نجاح فى عسقلان ، فى أغسطس ١٠٩٩ ، ردوا فى الوقت الراهن ، ما تعرضت له أملاكهم من خطر مباشر(١) .

أدرك زعماء الصليبيين ، حينما شرعوا فى تنظيم دولتهم الجديدة ، أن وضع المسيحيين ليس مستقرا ؛ فلم يقع فى أيديهم معظم الموانئ البحرية الهامة ، التى يتوقف عليها سيطرتهم على سوريا وفلسطين ، ولا زالوا فى أشد الحاجة إلى امتلاك أراضى جديدة ، كيما يوطدوا مركزهم ، ولم يتوافر لهم من القوة الحربية ، ما يكفى للقيام بهذه الأعمال . فإذا اختار بعض المسيحيين الغربيين البقاء فى الشرق الأدنى ، فالواقع أن معظم هؤلاء ، كانوا حجاجا ، لا مستعمرين ، فلما أتموا نذورهم ، وتوافر لهم وسائل الارتحال ، بادروا بالعودة إلى بلادهم . فلم تمض إلا شهور قليلة ، حتى تضاءل جيش جودفرى ، فصار لا يزيد على ثلاثمائة من الفرسان ونحو ألفين من الرجالة(٢) .

لم يستقر بالشرق الأدنى ، إلا ثلاث جماعات متفرقة ، مؤلفة من المسيحيين القادمين من غرب أوربا ، نزل منهم فى بيت المقدس نحو ثلاثة

---

(١) Fink, H. S : "The Foundation of the Latin States 1099-1118", in Setton : History of the Crusades I. p. 368.

(٢) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 369.
William of Tyre : op. cit. I. p. 394.
Runciman : History of the Crusades I. p. 305.

آلاف مقاتل ، فضلا عن رجال الدين وغيرهم ممن لم يشترك فى الحرب ، وأقام بجهات أنطاكية جماعة تزيد قليلا فى عددها عن النازلين فى بيت المقدس ، ولم يهبط بالرها إلا فئة قليلة العدد . وتقع أنطاكية على مسافة ٣١٠ ميلا إلى الشمال من بيت المقدس ، وتبعد الرها نحو ١٦٠ ميلا إلى الشمال الشرقى من أنطاكية ، ونحو ٤٥ ميلا ، شرقى الفرات . ونزل الفرنج بجهات يتفوق سكانها عليهم فى الحضارة والمدنية والأخلاق(١) .

واحتل هؤلاء الفرنج رقعة ضيقة من الأراضى ، تقع بين البحر المتوسط وصحراء الشام ، اشتملت أولا على سهل ساحلى رملى ، تناثر فيه بعض الأراضى الصالحة للزراعة ، ووقع به من الموانى ، أمثال اللاذقية ، وطرابلس ، وبيروت ، وصيدا ، وصور ، وعكا ، ما اشتهرت منذ قدم الزمن ، بأن تصدر إلى الغرب السلع والمتاجر التى تجلبها القوافل ، فضلا عن المصنوعات المحلية . ويلى السهل الساحلى ، سلسلتان من الجبال تمتدان من الشمال إلى الجنوب ، يقع بينهما واد يسير أيضا فى هذا الاتجاه . ويجرى نهر الأورنت نحو الشمال ، فيجتاز الجبال عند أنطاكية ، ويصب فى البحر المتوسط . أما نهر الأردن فيسير صوب الجنوب ، حتى يبلغ منخفض بحر الميت ، الذى يقع على مسافة عشرين ميلا شرقى بيت المقدس(٢) .

والواضح أن الأراضى التى استولى عليها الصليبيون ، باستثناء الرها ، تلاصق ساحل البحر المتوسط ، وتركن فى اتصالها بأوربا على المواصلات البحرية ، بينما لا يتجاوز متوسط عرضها ، بين البحر والمرتفعات ، خمسين ميلا ، فأضحت فى متناول القوى الإسلامية ،

---

(١) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 369.

(٢) Fink : The Foundation of the Latin States p. 369.

فكان لزاما على الفرنج أن يقيموا بالإمارات الصليبية حاميات عسكرية ، فغلب على تاريخها الصفة الحربية .

أنطاكية :

تعتبر أنطاكية أقوى الإمارات الصليبية ؛ امتدت رقعتها ، صوب الشمال إلى قليقية ، وشرقاً إلى أطراف الرها وحلب ، وجنوبا إلى وسط الشام . ومعظم سكان هذه الإمارة من المسيحيين ، من اليعاقبة والنساطرة والأرمن واليونانيين . والمعروف أن هذه المنطقة ظلت من الناحية الرسمية من أملاك الدولة البيزنطية حتى سنة ١٠٨٥ . ولا زالت أنطاكية تحتفظ بما كان لها من أهمية تجارية ، وبما اشتهرت به من المناعة وقوة الاستحكامات . على أن بوهمند ، مؤسس هذه الإمارة ، والذى يعتبر أقوى الأمراء الصليبيين وأكثرهم كفاية ، كان أكبر مصدر لقوة هذه الإمارة الناشئة[١] .

أقام مع بوهمند فى أنطاكية عدد كبير من الفرنج ، فانصرف إلى توطيد مركزه ، ولم يكن ثمة ما يجعله فى الوقت الراهن ، يخشى الترك ، غير أنه أثار قلقه موقف بيزنطة والإمبراطور البيزنطى[٢] . فالمعروف أن بوهمند اشترك مع أبيه روبرت جويسكارد فى مهاجمة الإمبراطورية البيزنطية فى الفترة الواقعة بين ١٠٨١ ، ١٠٨٥ ، وورث عن أبيه الطموح والمكر ، فحرص على ألا تفلت أنطاكية من قبضة يده ، على الرغم من اليمين التى بذلها للإمبراطور الكسيوس فى القسطنطينية سنة ١٠٩٧ ، والتى تقضى بأن يرد الصليبيون أنطاكية إليه ، متى استولوا عليها ، لأنها

---

(١) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 372.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 300.
Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 372.

كانت من الأملاك البيزنطية حتى سنة ١٠٨٥ ، حين استولى عليها الترك[١] . والواضح أن بوهمند لم يشترك فى الحرب الصليبية إلا لكى يقيم له إمارة ، لا أن يسترد القبر المقدس . ومن الطبيعى أن يؤدى اغتصاب بوهمند لأنطاكية ، إلى كراهية الكسيوس للفرنج بأنطاكية ، وإلى أن يمتنع عن تقديم المساعدة اللازمة للاستيلاء على بيت المقدس ، وإلى أن يقضى على كل فرصة تتهيأ للتقارب بين الكنيستين اللاتينية واليونانية ، الذى كان شطراً من سياسة ايربان الثانى فى إثارة الحرب الصليبية الأولى . يضاف إلى ذلك أن بوهمند بطموحه ودهائه أثار عداء ريموند كونت تولوز ، منذ حصار أنطاكية[٢] .

أدرك بوهمند أنه لن يشعر بالاطمئنان مطلقا ، طالما كان بحوزة الإمبراطور البيزنطى أسطول بحرى قوى فى شرق البحر المتوسط ، ويملك أيضاً ما يعتبره بوهمند منافذ بحرية طبيعية لأنطاكية وهى اللاذقية ، وقالانيا ، ومرقلية ، التى حازها ريموند ثم سلمها لرجال الكسيوس ، حينما واصل (ريموند) السير مع الحملة الصليبية إلى بيت المقدس سنة ١٠٩٩[٣] . وأضحت بيزنطة بذلك تسيطر على مياه أنطاكية الإقليمية ، وعلى جزيرة قبرص . ولما علم الكسيوس باستيلاء بوهمند على أنطاكية ، ولم يردها إليه بمقتضى اليمين التى بذلها له بالقسطنطينية ، بادر بالاحتجاج على هذا الإجراء ، غير أن ذلك لم يجد نفعا ، فلم يسعه إلا أن يرسل جيشاً لانتزاع قليقية ، ومهاجمة أنطاكية ، غير أنه لم يستول إلا على مرعش ، نظرا لأن الأرمن بقليقية كانوا يؤثرون

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 108.

Runciman : History of the Crusades I. p. 300.

(٢) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 373.

(٣) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 373.

Grousset : op. cit. I. pp. 371-372.

الفرنج على البيزنطيين ، فصار لبيزنطة قواعد بحرية فى قبرص ، وفى هذه الموانى[1] .

وفى أواخر أغسطس سنة ١٠٩٩ ، شرع بوهمند فى حصار اللاذقية ، غير أنه لن يستطيع الاستيلاء عليها ، ما لم يتوافر لديه قوة بحرية ، نظرا لمتانة استحكامات المدينة ، ولسهولة الحصول على الأمداد والمؤن اللازمة لها من قبرص . على أنه وصل وقتذاك إلى اللاذقية أسطول للبيازنة مؤلف من ١٢٠ سفينة ، وعلى الرغم من أن هذا الأسطول قدم ليشترك فى القتال إلى جانب الصليبيين ضد المسلمين ، وعقد اتفاقات تجارية مع الأجزاء المحتلة من سوريا وفلسطين ، فإنه انغمس فى العداء ضد البيزنطيين[2] . غير أن تدخل ريموند كونت تولوز ، وروبرت فلاندر ، وروبرت النرمندى ، حمل دايمبرت ، المندوب البابوى ، والأسطول البيزاوى على الانسحاب ، وأجبر بوهمند على التخلى عن حصار اللاذقية بعد أن انقطعت مساعدة البيازنة[3] . والواضح أن تدخل هؤلاء الأمراء الثلاثة ، دلّ على أنه لا زال يبهرهم الخطط التى وضعها ايربان للوفاق مع الكنيسة اليونانية ، فضلا عن تمسكهم باليمين التى أقسموها لألكسيوس . على أن دافعاً آخر حمل ريموند على التدخل ، فلا بد أنه أراد أن يحرج خصمه القديم ، بوهمند ، فدخل إلى اللاذقية ورفع لواءه عليها ، إلى جانب لواء

---

(١) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 374.
Runciman : History of the Crusades I. p. 300.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 373.
Chalandon : Alexis Comnene p. 215.
Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 374.

(٣) Runciman : History of the Crusades the I. p. 301.
Grousset : op. cit. I. p. 373.

الإمبراطور البيزنطى ، ثم ارتحل فى السنة التالية إلى القسطنطينية كيما يزور الإمبراطور[١] .

أضحى بوهمند فى مركز حرج ؛ لم ينهض اللاتين الآخرون لمساعدته فى قتال البيزنطيين ، ولم يف باليمين التى أقسمها لألكسيوس ، ولم يحقق رغبة اربان فى الحرب الصليبية ، بل إنه لم يف بنذره بالتوجه إلى بيت المقدس . ولما اشتهر به بوهمند من الذكاء والمكر والدهاء ، دعا بلدوين أمير الرها ، الذى لم يف أيضاً بنذره ، كما دعا رئيس الأساقفة دايمبرت ، كيما يصحباه فى المسير إلى بيت المقدس ، للاحتفال بعيد الميلاد فى كنيسة القيامة ، فقدم الزعماء الثلاثة فى ٢١ ديسمبر سنة ١٠٩٩ إلى بيت المقدس فى قوات كبيرة ، معظمها من النرمان[٢] .

بيت المقدس :

فرح جودفرى بقدوم هؤلاء القادة وأتباعهم ، إذ كان فى حاجة ماسة إلى عدد كبير من الفرنج ، وكان يأمل فى أن يقنع عدداً كبيراً منهم بالبقاء فى فلسطين ، بأن يهبهم الضياع الشاسعة كيما يستقروا بها ، ويستثمروها[٣] . فما حدث بعد معركة عسقلان من النزاع والشقاق بين

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 374.
Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 374.
Runciman : History of the Crusades I. p. 301.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 374-376.
Fink : "The Foundation of the Latin States", p. 375
Runciman : History of the Crusades I. p. 302-303.

(٣) Prawer J. : The Settlement of the Latins in Jerusalem" Speculum XXVII (1952) pp. 491-495.
العرينى : نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس – مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة المجلد ٢٠ – العدد الثانى – ديسمبر ١٩٥٨ .

جودفرى وسائر القادة والزعماء ، وما كان من حرص جودفرى على أن يحرم ريموند من كل ثمرة يصح أن يجنيها من اشتراكه فى القتال ، منع كل تعاون جديد . وترتب على ذلك نتيجتان : النتيجة الأولى ، أن عسقلان لم تستسلم ، ولم تسقط فى أيدى الصليبيين إلا بعد نصف قرن ، أما النتيجة الثانية ، فتتمثل فى مغادرة الصليبيين البلاد ، بزعامة ريموند وروبرت فلاندر ، وروبرت النرمندى[١] . وفى الربيع الثانى ، ١١٠٠ ، لم يكن لدى جودفرى إلا ثلثمائة فارس وألفا راجل ، ويشير وليم الصورى إلى أن من عزم من الرجال على البقاء ، لم يلبثوا أن هجروا إقطاعاتهم ، وعادوا إلى أوربا[٢] .

لم تكن إمارة بيت المقدس إلا جزيرة صغيرة فى وسط محيط إسلامى . تألفت الإمارة من أملاك جودفرى فى جنوب فلسطين ، ومن بارونية شبه مستقلة حول طبرية ، أسسها تانكرد . وشملت أملاك جودفرى أساسا ، ميناء يافا ، والمدن الداخلية : اللد ، والرملة ، وبيت لحم ، وبيت المقدس[٣] . ولما كان معظم الفلاحين فى القرى من العرب ، فإنهم لم يخفوا عداوتهم للفرنج ، فنصبوا لهم الكمائن على الطرق الرئيسية ، فتضاءل عدد سكان المدن ، وشحت المؤن بها ، وتعرضت لغارات العرب وما يرتبط بذلك من النهب . وكان تانكرد أقرب الأمراء الذين يصح الاستعانة بهم ، إذ تقع أملاكه شمال أملاك جودفرى ، فلا تبعد عنها إلا بنحو ٧٥ ميلا ، غير أن موارده لم تكن كافية ، ولا يصح الاعتماد

---

(١) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 375.

(٢) William of Tyre : op. cit. I. p. 408.

(٣) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 375.
Grousset : Histoire des Croisades I. p. 172.

عليها(١) . وعلى الرغم أن أملاك جودفرى امتدت إلى سهل جرزل شمالا ، وإلى ما وراء جبل حبرون والنقب جنوبا ، فإنه لم يتوافر له قوة بحرية لحمايتها . إذ ارتادت سواحله وهددت تجارته مع يافا ، السفن الإسلامية القادمة من صيدا وصور ، وعكا ، وقيسارية ، وعسقلان ، ومصر . والواقع أن إمارة بيت المقدس الصغيرة لم يبق عليها إلا فشل الوزير الفاطمى ، الأفضل ، فى القيام بهجوم جديد قوى عليها(٢) .

وأول ما اتخذه جودفرى ، للدفاع عن إمارة بيت المقدس ، أنه حاول السيطرة على الموانى الفلسطينية ، وبذا يتوافر الأمن والطمأنينة لما يرد من أوربا من المؤن والحجاج ، ويفقد العرب القواعد التى يشنون منها الغارة برا وبحرا ، ويسيطر أيضا على التجارة الداخلية(٣) .

احتاج جودفرى مساعدة بوهمند ودايمبرت ، ولا سيما الأسطول البيزاوى الذى يخضع لسلطة دايمبرت ؛ وكل من يستغنى عنه بوهمند من الفرسان . قدم دايمبرت على أنه مندوب بابوى ، استمد سلطته من البابا إيربان الثانى ، أما قوته الحقيقية فاستمدها من إسطول البيـــازنة وتأييد بوهمند(٤) .

تقرر عزل أرنولف من بطريركية بيت المقدس ، على أساس أن انتخابه لم يتفق مع القانون الكنسى ، وبناء على الحاح بوهمند ، تم انتخاب دايمبرت

---

(١) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 375
Grousset : op. cit. I. p. 173.

(٢) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 376.
Grousset : op. cit. I. pp. 181-186.

(٣) Fink : The Foundation of the Latin States". p. 376.

(٤) Grousset : op. cit. I. pp. 189-194.

بطريركا ، فركع أمامه جودفرى وبوهمند ، وتلقيا منه تقليدا بامتلاك بيت المقدس وأنطاكية(١) .

وبفضل مساعدة أسطول دايمبرت ، استطاع جودفرى أن يلزم أرسوف ، فى يناير ١١٠٠ بأن تؤدى له الجزية ، بعد أن فشل فى الاستيلاء عليها(٢) . وفى تلك الأثناء عمر أسوار يافا ، بمساعدة رجال دايمبرت . وما أثاره أسطول بيزا من القلق للولاة المسلمين على عسقلان ، وقيسارية وعكا ، حملهم على أن يؤدوا الجزية لجودفرى . ولم تلبث السفن من جميع موانى إيطاليا وبروفانس ، أن قصدت الدولة الناشئة لإقامة علاقات تجارية معها ، وللحاق بالبيازنة واقتسام الفرص والأرباح معهم(٣) .

ولم يلبث شيوخ الأردن أن عقدوا معاهدات مع جودفرى ، بمقتضاها جاز لتجارهم أن يقدموا إلى بيت المقدس ويافا ، وصار فى وسع تجار عسقلان أيضا أن يقدموا إلى بيت المقدس ، وأن يتردد تجار بيت المقدس على عسقلان . والواقع أن النشاط التجارى ظل مستمرا بين المسلمين والمسيحيين ، على الرغم من العداء والقتال الذى لم ينقطع . على أن جودفرى كان يرمى إلى أن يعتمد تجار فلسطين والأردن عليه ، لا على مصر ؛ ومن الدليل على ذلك أنه فرض عقوبة الإعدام على كل من يرد من التجار المسلمين من جهة البحر(٤) .

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 194-199.
Runciman : History of the Crusades I. p. 305.

(٢) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 376.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 308.

(٤) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 376.
Andrssohn, : The Ancestry and Life of Godfrey of Bouillon pp. 109-111.

ومن أجل الدفاع عن إمارته ، أقام جودفرى نظاما إقطاعيا ، على نحو ماكان سائدا فى غرب أوربا ، فلكل فارس أهميته ، ويعتبر مسئولا عن سلاحه وخراج إقطاعاته ، ومنها الإقطاع الذى يقوم على ما يرد من المدن والموانى من الأموال ، واتخذ على المقطعين يمين الولاء . على أن الاقطاعات الأساسية كانت أراضى ، ويعتبر تانكرد أهم الأتباع وأكثرهم إقطاعات[١] .

وحدث عقب سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين ، أن اصطحب تانكرد ثمانين فارسا ، وشرع فى أن يقيم لنفسه إمارة فى شمال فلسطين ، وهى التى اشتهرت باسم إمارة طبرية (الجليل) . والمعروف أن هذا الإقليم تنازعه وتتذاك كل من الفاطميين ، ودقاق السلجوقى أمير دمشق . غير أن دقاقا لم يغتنم فرصة انكسار الفاطميين فى عسقلان ، فيبادر إلى احتلال الإقليم ، ولذا لم يصادف تانكرد مقاومة شديدة من المسلمين بهذا الإقليم ، بل إنهم جلوا إلى جهات دمشق ، على حين أن اليهود أظهروا سخطهم بسبب ما لحق إخوانهم فى بيت المقدس من الأذى على أيدى الفرنج ، ولقى تانكرد الترحيب من المسيحيين فى طبرية ، على الرغم من أنهم أقلية . وبعد أن حصن تانكرد طبرية ، توجه إلى مدينة الناصرة المسيحية ، ثم إلى تل طابور ، واكتملت فتوحه بالاستيلاء على بيسان ؛ التى تتحكم فى الدرب الذى يصل بين سهل جرزل ونهر الأردن . ففى أثناء عام واحد ، صار تانكرد يسيطر على نابلس ، وطبرية ، وبيسان ، وحيفا ، وأصبحت إمارته تتاخم إمارة دمشق[٢] .

وبذل جودفرى أرسوف إقطاعا لروبرت ، دوق أبوليا ، بينما جعل حبرون ،

---

(١) Fink : The Foundation of the Latin States p. 376.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 304.

Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 377.

Grousset : op. cit. I. pp. 179-181.

التى اشتهرت باسم القديس إبراهيم ، إقطاعا لجيرار آڤيسنس Avesnes[١] .
وبذا اتسعت إمارة بيت المقدس ، فامتدت شمالا إلى نابلس ، وجنوبا
إلى حبرون ، وشرقا إلى نهر الأردن ، ودخل فى نطاقها مدينة بيت المقدس ،
وميناء يافا ، وفصلت بين المدن الساحلية الخاضعة للفاطميين ، وبين الأراضى
الداخلية فيما وراء نهر الأردن وحوران[٢] . فعمر الريف بالاقطاعات ،
وعاش السكان الجدد من الفرنج فى القرى ، وحاولوا أن يفرضوا طاعتهم
على السكان[٣] .

ولم يتعرض جودفرى وقتذاك لخطر مباشر ، فلم يثأر الفاطميون لمعركة
عسقلان وانغمس دقاق فى منازعات أسرية ، منعته من مهاجمة الصليبيين فى بيت
المقدس ومن الطبيعى أن يفيد جودفرى من ذلك ، فلم يكن فى وسعه أن يرد
هجوما عنيفا يوجهه إليه أمير مسلم . والواقع أن ما حدث من الشقاق بين
المسلمين ، هيأ لهذه الإمارة الصغيرة الدخيلة ، أن تستقر فى جوف بلادهم[٤] .

وعلى الرغم من أن جودفرى اشتهر بإجلاله للكنيسة واحترامها ،
فإنه كان يأمل ، بعد اعترافه بسيادتها ، فى مساعدتها فى توطيد مركزه ،
وتثبيت حكمه ، بما تسهم به فى إدارة البلاد . لم يكن لجودفرى معرفة
سابقة بالبطريرك دايمبرت ، أما بوهمند فإنه أدرك أنه باعترافه بسلطة
البطريرك دايمبرت ، يستطيع أن يغفل حقوق بطريرك أنطاكية اليونانى ،
الذى يعتبر من أنصار الأمبراطور البيزنطى ، وأن يتحلل من اليمين التى
بذلها للأمبراطور الكسيوس برد أنطاكية له . والواضح أن اتخاذ بوهمند

---

(١) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 377.

(٢) Ibid : loc. cit.

(٣) Preston, H. G. : Rural Conditions in the Kingdom of Jerusalem pp. 5-17.

Fink : The Foundation of the Latin State, p. 377.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 305.

لقب أمير ، واعترافه بسيادة البطريرك اللاتينى ، يتفق مع ما ذهب إليه النرمان بجنوب إيطاليا ، بعد الاستيلاء على الممتلكات اللومباردية ، من الاعتراف بسيادة البابا ، كما أن ما اتخذه تانكرد من لقب أمير الجليل ، دل على أن سيده الأعلى لم يكن جودفرى بل البطريرك [١]

ومن المحقق أن دايمبرت كان سعيدا بما بذله بوهمند وجودفرى له من يمين الولاء . كان دايمبرت من أقرب رجال الدين إلى البابا ايربان ، صحبه إلى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ ، وطاف معه أنحاء فرنسا ، أثناء دعوته للحرب الصليبية . وكان أيربان ودايمبرت من أشد المناصرين لحركة الإصلاح الكلونى ، التى ترمى إلى تحرير الكنيسة من سيطرة الأمراء الإقطاعيين[٢] . لذا لم يكن غريبـــا أن يطلب دايمبرت ، بعد انتخابه بطريركا ، أن يكون له من حقوق السيادة الدينية والدنيوية ، مثلما كان البابا جريجوى السابع يطلبه فى الغرب[٣] . أراد دايمبرت أن يحوز فورا مدينة بيت المقدس وقلعتها ،وبرج داود،وميناء يافا،التى تربط البلاد بأوربا . ولما اشتهر به جودفرى دائما من الضعف أمام الكنيسة ، ولخوفه من ضياع مساعدة بيزا ، ولإدراكه لحاجة الكنيسة ، فيما يبدو ، إلى المساعدة من الغرب ، لم يشأ أن يرفض طلبات دايمبرت ، فأعلن رسميا ، فى فبراير سنة ١١٠٠ التنازل للبطريرك عن ربع ميناء يافا ، ثم تخلى له فى أبريل سنة ١١٠٠ عن مدينة بيت المقدس وقلعتها ، فاستقر فى كنيسة القيامة لقب حاكم بيت المقدس ، وتحتم على حامى القبر المقدس ، أن يبذل الولاء

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 305.
Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 378.

(٢) Fink : loc. cit.
Grousset : op. cit. pp. 18?-191.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 306.
Grousset : op. cit. I. p. 195-196.

لحائز هذا اللقب ، البطريرك[1] . على أن جودفرى اشترط بأن يحتفظ بامتلاك بيت المقدس ويافا حتى وفاته ، أو حتى يتم له الاستيلاء على مدينة أو مدينتين كبيرتين ، أشار المؤرخ وليم الصورى إلى أن هذه المدينة هى بابيلون (القاهرة) أو على وجه التحقيق ضاحيتها (الفسطاط)[2] .

ونستخلص من أن دايمبرت ، الذى اعتقد أنه يمثل آراء الكنيسة الرسمية ، برغم افتقاره إلى تأييد البابا ، قرر من جانبه أن الحرب الصليبية ليست إلا حملة وجهتها الكنيسة ، فما ترتب عليها من فتوح ، تعتبر من أملاك الكنيسة ، ويعتبر بطريرك بيت المقدس القيم على كنيسة القيامة ، التى اقترن بها اللقب المتعلق بحكم بيت المقدس . وبذا صار بوهمند وجودفرى من الأتباع العلمانيين ومن المدافعين عن الكنيسة ، فإذا كان بوهمند ابتعد عن طريق البطريرك بأن توجه إلى أنطاكية ، يصح أيضا أن يرحل جودفرى إلى جهة أخرى كالقاهرة[3] .

لو أن دايمبرت كان رجلا إداريا بارعاً ، أو سياسياً ماهراً من طراز أدهيمر ، جاز أن يبقى ما تراءى له من قيام حكومة منظمة ، غير أن محاولاته لطرد المدافعين عن المدينة المقدسة ، يعتبر أمراً بالغ

---

(١) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 378.
Runciman : History of the Crusades I. p. 311.
Grousset : op. cit. I. pp. 197-198.

(٢) William of Tyre : op. cit. I. pp. 403-404,419.
Runciman : History of the Crusades I. pp. 311-312.
لعل السر فى إذعان جودفرى يرجع إلى الضغط الشديد عليه ، والتلويح بوجود الأسطول البيزاوى . أنظر : William of Tyre : op. cit. I. p. 404. note 40.

(٣) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 379.

الخطورة[١] ، وما تهيأ له أول الأمر من أحوال مواتية للمضى فى دعاويه ، لم تلبث أن تغيرت برحيل الأسطول البيزاوى عقب عيد القيامة ، ووفاة جودفرى ، يوليه ١١٠٠ ، وقدوم أخيه بلدوين فى خريف سنة ١١٠٠[٢] ، ذلك أن جودفرى حينما علم بأن أسطولا ضخما للبنادقة رسا إلى يافا ، فى أواخر يونيه ، أدرك أهمية هذا الأسطول للسيطرة على المدن الساحلية ، مضى إلى الساحل لاستقباله ، غير أنه أحس بألم مفاجئ ، ولم يمنعه ذلك من مواصلة السير إلى يافا ، فاستقبل قائد الأسطول والأسقف الذى كان بصحبته . ودارت المناقشة حول الشروط التى طلبها البنادقة مقابل بذل المساعدة للصليبيين ، ومنها أن تطلق لهم حرية التجارة فى سائر مملكة الفرنج ، وأن يكون لهم بكل مدينة كنيسة وسوق ، وأن يكون لهم الثلث من كل مدينة يسهمون فى الاستيلاء عليها ، وتكون لهم مدينة طرابلس ، بعد الاستيلاء عليها ، مقابل جزية يؤدونها لجودفرى. وتقرر أن يوجه الهجوم إلى عكا ، برغم المعاهدة التى أبرمها أميرها مع جودفرى ، وينبغى أيضاً الاستيلاء على حيفا التى حرص على أن يجعلها إقطاعا لصديقه جيلدمار كارنبيل[٣] .

ولما مات جودفرى ، سنحت الفرصة للبطريرك دايمبرت ، لأن يجعل من بيت المقدس دولة كنسية ، غير أنه لم يتوجه فورا إلى بيت المقدس ، بل بقى مع تانكرد على حصار حيفا حتى ٢٥ يوليه . وفى تلك الأثناء ، استولت جماعة من فرسان اللورين على برج داود ، وقلعة بيت المقدس ، وأرسلوا إلى بلدوين كونت الرها ، وشقيق جودفرى ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 312.

(٢) Fink : op. cit. p. 379.

William of Tyre : op. cit. pp. 413-414.

Grousset : Histoire des Croisades I. p. 199.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. pp. 312-313.

يدعونه إلى القدوم ، وشجعهم أرنولف خصم دايمبرت اللدود[١] ؛ ولما أدرك دايمبرت ما يحيق به من الخطر ، أرسل إلى بوهمند ، يطلب منه منع قدوم بلدوين ، ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة[٢] . والواقع أن هذه الرسالة لم تبلغ بوهمند ، لأنه وقع أسيراً فى يد الملك غازى بن دانشمند أمير سيواس ، بعد أن نصب له كميناً أثناء مسيره إلى ملطية ، لمساعدة الأرمن بها فى النضال ضد غازى الدانشمندى[٣] .

ولما اتصف به كل من تانكرد ودايمبرت من الطموح ، وما يأمله كل منهما فى أن تكون له السيطرة على بيت المقدس ، ولما سوف يؤدى الانتصار إلى التنافس بينهما ، كل ذلك حتم عليهما أن يتعاونا فى الوقت الراهن ، وأن ينصرف تانكرد إلى حصار حيفا ، فلما سقطت فى يده ، سار إلى بيت المقدس ، غير أن فرسان اللورين منعوه من الدخول ، لأنه لم يحلف يمين الولاء لبلدوين . والمعروف أن بلدوين من ألد أعداء تانكرد ، منذ أن وقع بينهما النزاع على امتلاك طرسوس ، فى قليقية سنة ١٠٩٧[٤] . فبادر تانكرد بالتوجه إلى يافا ، لانتزاعها من عساكر اللورين ، غير أن سكان المدينة ردوه عنها ، بينما استقبلوا بلدوين استقبالا حافلا[٥] .

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 202.

(٢) William of Tyre : op. cit. I. pp. 418-421.

(٣) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 380.
William of Tyre : op. cit. I. pp. 411-412, 421.
Runciman : History of the Crusades I. p. 302.
ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٤) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 381.
Grousset : op. cit. I. p. 216.

(٥) Runciman : History of the Crusades I. p. 324.
Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 381.
Grousset : op. cit. I. p. 217.

الواقع أن بلدوين كونت الرها ، لما علم فى أغسطس سنة ١١٠٠ ، بوفاة أخيه جودفرى لم يحزن عليه إلا قليلا ، بل ازداد فرحاً وسروراً لما ينتظره من الملك والإرث ، على حد قول مؤرخه فولشر أسقف شارتر[١] . فاستدعى ابن عمه ، بلدوين لى بور من أنطاكية ، حيث كان فيما يبدو ، ينوب عن بوهمند ، أو يعمل كرسول بين بلدوين وبوهمند ؛ فعهد إليه بإدارة الرها ، على أن يكون تابعا له[٢] .

ارتحل بلدوين من الرها فى أكتوبر سنة ١١٠٠ وبصحبته أهل بيته وأتباعه وحرسه المؤلف من ٢٠٠ فارس ، ٧٠٠ راجل ، واتخذ طريقه إلى أنطاكية ، ولم يقبل الوصاية عليها ، لأن بيت المقدس تهبه من المكانة والمساعدة المادية من أوربا ، ما لم تهبه أنطاكية والرها . ثم سار صوب الجنوب ، وبعد أن تغلب على الكمين المنصوب له على نهر الكلب ، بالقرب من بيروت ، مضى فى طريقه حتى بلغ حيفا ، ثم يافا ، ومنها توجه إلى بيت المقدس فوصلها فى ٩ نوفمبر سنة ١١٠٠[٣] .

ولما اقترب بلدوين من مدينة بيت المقدس ، خرج السكان للترحيب به ، فلم يحتشد للقائه الفرنج فحسب ، بل اجتمع معهم اليونانيون والسريان والأرمن ، فالتقوا به خارج أسوار المدينة ، وصحبوه إلى كنيسة القيامة ، بينما تفرق خصومه ، فانسحب دايمبرت من دار البطريركية ، ولجأ إلى دير بأعلى جبل صهيون[٤] . أما تانكرد فسار صوب

---

(١) Grousset : op citl. p. 207.

(٢) Runciman : History of the crusades I. p. 323.

(٣) Runciman : op. cit. I. pp. 324-325.
Grousset : op. cit. I. pp. 208-216.

(٤) Runciman : History of the Crusades I. p. 325.
William of Tyre : op. cit. I. p. 425.

الشمال إلى طبرية مقر إمارته بالجليل ، وبذا زالت آثار الفوضى التى سادت فلسطين عقب وفاة جودفرى[١] . ولم يلبث بلدوين أن استدعى أتباع جودفرى ، فحلفوا له يمين الولاء ، واتخذ لقب ملك بيت المقدس ؛ بموافقتهم وعن طيب خاطرهم[٢] .

وإذا حرص بلدوين على أن يسود مملكته الهدوء والسلام ، لم يلجأ إلى الانتقام من دايمبرت ، أو التشهير به ، بل تركه يتمتع بكل ما حازه من حقوق ، ولعل ذلك يرجع إلى أن بلدوين يصح أن يفيد من دايمبرت ، نظرا لمكانته الروحية ، ولأنه ينتمى إلى بيزا ، التى كان لأسطولها فضل كبير على الصليبيين ، ولا سيما لأن الأسطول الفاطمى كانت له السيادة على بيروت وصور وعكا وعسقلان[٣] . ولما تبددت آمال دايمبرت فى إقامة حكومة تيوقراطية ، اكتفى بأن يحتفظ بسيادته الاسمية ، وقنع بما تبقى له من نفوذ بالمملكة ، وأبدى الاستعداد لمصالحة بلدوين ، فتوّجه فى بيت لحم لا فى حاضرة ملكه ، بيت المقدس[٤] ؛ ودلّ هذا الإجراء ، على أن دايمبرت لا زال متعلقا بوضعه ، باعتباره السيد الأعلى فى بيت المقدس ، واعتبر بلدوين من نزلاء البلاد ، وتوقع أن يخرج منها إذا فتح بلداً جديداً[٥].

---

(١) Ibid : op. cit. I. p. 428.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 325.
Fink : The Foundation of the Latin States p. 383.
William of Tyre : op. cit. I. pp. 427-428.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 216.

(٤) Fink : The Foundation of the Latin States p. 382.
Runciman : History of the Crusades I. p. 325.

(٥) Munro : Kingdom of the Crusaders. pp. 74-75.

أما تانكرد فكان أكثر ضراوة وأشد صلابة ، اعتصم بإقطاعه فى طبرية ، وعزم على ألا يعترف ببلدوين ملكا على بيت المقدس . ولذا أخذ يؤجل الاجتماع به ، حتى تهيأت الفرصة للإفلات منه ، حين قدم فى مارس ١١٠١ من أنطاكية وفد يدعوه للتوجه إليها ليتولى الوصاية عليها ، أثناء اعتقال بوهمند فى أسر ملك غازى الدانشمندى[١] ، ولا سيما أن بلدوين لى بور ، ارتحل إلى الرها ، ليتقلد حكومتها ، بعد أن صار بلدوين ملكا على بيت المقدس . وقرر تانكرد أن يقبل هذا العرض ، وتم الوفاق بينه وبين بلدوين ، فتنازل له عن إقطاعاته فى شمال فلسطين ، طبرية وحيفا ، غير أنه اشترط أنه إذا عاد إلى هذه الإقطاعات ، فى أثناء خمسة عشر شهراً ، فإن الملك يردها عليه ، ومن الواضح أنه بنى هذا التقدير على أن بوهمند سوف يجرى افتداؤه فى أثناء هذه الفترة ، ويعود إلى أنطاكية[٢] .

وفى مارس سنة ١١٠١ ، ارتحل تانكرد إلى أنطاكية ، وبصحبته فرسانه وخمسمائة راجل على أنه لم يعد مطلقا إلى هذه الإقطاعات[٣] .

دلّ بلدوين على أنه أكفأ القادة الصليبيين جميعاً ، وأبعدهم نظراً وأقدرهم على تحمل الصبر ، فنال جزاءه ، وأثبت المستقبل على أنه يستحق هذه المكافأة ، وكان تتويجه خاتمة مثيرة للحملة الصليبية الأولى .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 326.
Grousset : op. cit. I. p. 217.

(٢) Fink : "The Foundation of the Latin States". p. 382.
Grousset : op. cit. I. p. 218.

أقطع بلدوين طبرية إلى هيو سانت أومر (فالكنبرج) ، وجعل حيفا لجيلدمار كارنبيل بما تقرر من شروط تانكرد ، وأصبح الإقطاع ثابتاً ، لأن تانكرد لم يعد .

انظر : William of Tyre : op. cit. I. p. 428 note 22.
Grousset : op. cit. I. p. 218.

(٣) Fink : "The Foundation of the Latin States" p 382.

كان أول عمل قام به بلدوين (١١٠٠ – ١١١٨) ، أن استولى فى ربيع سنة ١١٠١ ، على أرسوف وقيسارية ، كيما يكفل الدفاع عن مملكته : وجعل من سياسته الاستيلاء على عسقلان ، ورد الحدود المصرية نحو الجنوب ، حتى يكون الطريق من بيت المقدس إلى الساحل مأمونا ، وإقامة مواقع أمامية فيما وراء الأردن ، وإلى الجنوب من البحر الميت ، ومحاولة ربط مملكته بالإمارات المسيحية التى تقع إلى الشمال ، حتى يتيسر فتح الطريق للحجاج والمهاجرين . فكان لزاما عليه ، أن يبذل جهده لبسط سلطانه على الساحل ، وأن يشجع إنشاء إمارات مسيحية جديدة فى الشام ، وأن يتخذ لدولته ميناء آخر يفوق يافا وحيفا . وتعتبر عكا المرفأ الوحيد الذى يتوافر فيه الأمن والصلاحية فى كل الأوقات والأحوال ، ولذا صار من المحتم لأغراض عسكرية وتجارية ، الاستيلاء على عكا[١] . على أنه لن يتوافر له القوة اللازمة ، إلا بتشجيع الهجرة ، والتعاون مع المسلمين والمسيحيين . أما المال فمصدره التجارة مع البلاد المجاورة ، وما يبذله المسيحيون فى الغرب من التبرعات ، وما يحبسونه من الأراضى على الكنائس والمؤسسات الدينية ، فى الأراضى المقدسة ، وللإفادة من هذه الموارد ، لا بد له من السيطرة على الكنيسة[٢] .

الرها :

تعتبر الرها إمارة حاجزة ، تقوم بحماية أنطاكية من هجمات المسلمين : وتزيد مساحتها على مساحة أنطاكية ، فتقع على جانبى نهر الفرات ، وتمتد من روندان وعينتاب إلى موضع غير معروف فى إقليم الجزيرة ، إلى الشرق من مدينة الرها . ويعوز هذه الإمارة الحدود الطبيعية ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 7.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 7.

والتجانس بين سكانها : فعلى الرغم من أن معظم سكانها من المسيحيين ، من السريان واليعاقبة والأرمن ، فإنه يدخل فى نطاقها مدن إسلامية ، مثل سروج[١] . لم يكن فى وسع الفرنج أن يقيموا حكومة مركزية تبسط سلطانها على أملاكها المترامية الأطراف ، فأقاموا حصونا شحنوها بالعساكر مواضع عديدة ، واتخذوا منها مراكز لشن الغارات على الجهات المتاخمة للحدود . وتولى الجند جباية الضرائب والإتاوات من القرى المجاورة ، فصارت الإمارة كلها عبارة عن منطقة حدود ، لم تنقطع بها الحروب . ومع ذلك كان بالرها مدن زاهرة ، واشتهرت تربتها بالخصوبة ، وما حصل عليه كونت الرها ، بلدوين لى بور ، من الإتاوات والغنائم ، كفل لها موردا مالياً كبيراً . وتوافر لبلدوين الأول من الثروة باعتباره كونت الرها ، ما لم يتوافر له ، وهو ملك بيت المقدس[٢] .

على أن القوة الحربية كانت أكثر ما احتاجت إليه الإمارات الصليبية ، ولا سيما فى الرها وبيت المقدس ، فإذا تعاون الأرمن مع الأمير الصليبى ، توافر لديه جيش جاهز . فحاول كل من بوهمند وتانكرد فى أنطاكية ، وبلدوين الأول وبلدوين الثانى فى الرها ، أن يتقربوا إلى الأرمن ، غير أنه تبين لهم أنه لايمكن الاطمئنان إليهم ، لما اشتهروا به من الخيانة ، فلم يعهدوا إليهم بوظائف أساسية[٣] . فاحتاج أمراء أنطاكية والرها ، إلى فرسان ، نشأوا بالغرب ، ليتولوا قيادة جندهم ، وليحفظوا قلاعهم وحصونهم . وافتقروا أيضاً إلى كُتاب (موظفين) من الغرب ، لإدارة حكومتهم . غير أنه بينما كفلت أنطاكية للمهاجرين حياة رغدة

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 10.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 10.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 10.

واستقرارا ، فإن الرها لم تجتذب إلا المغامرين الذين دأبوا على النهب والغارة[١] .

موقف بيزنطة :

الواضح أن الكسيوس رحب أول الأمر بالحملة الصليبية الأولى ، لما تجلبه له من النفع ، باستعادة الأراضى التى استولى عليها الترك ، ولذا أعلن استعداده للتعاون مع قادتها . غير أن ما اشتهر به بوهمند فى أنطاكية من الطموح والعناد ، أثار سخط الإمبراطور وغضبه ، فاشتد حرصه على استعادة أنطاكية ، والسيطرة على الطرق المؤدية إليها عبر آسيا الصغرى[٢] . ولما تحرك الصليبيون صوب الجنوب إلى فلسطين توقفت مساعدته الفعلية ، لإدراكه أن حكم الفرنج فى هذه الجهات لن يكون مقبولا عنـــده . غير أنه باعتباره نصير الأرثوذكسية ، لايستطيع أن يتخذ موقفا سلبيا فى تقرير مصير بيت المقدس . فإذا تبين له ، أن حكم اللاتين سوف يبقى ، فلا بد أن يتخذ من الإجراءات ، ما يكفل المحافظة على حقوقه . على أن مساعدته الإيجابية للفرنج ، سوف لا تتعدى التعاون فى فتح الطرق التى تجتاز آسيا الصغرى[٣] .

المدن الإيطالية :

دخل فى السياسة الشرقية عامل جديد ، يتمثل فى موقف المدن الإيطالية ، التى لم تحفل أول الأمر بالاشتراك فى الحروب الصليبية ؛ ولما لاح نجاح الصليبيين ، بادرت بيزا والبندقية وجنوه ، بإرسال أساطيلها

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 11.

(٢) William of Tyre : op. cit. I. p. 320.
Krey : The First Crusade p. 195.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 14-15.

إلى الشرق ، فرحب الصليبيون بما تقدمه هذه الأساطيل من المساعدة ، لأنها أمدتهم بالوسائل التى يستطيعون بها الاستيلاء على المدن الساحلية ، والاتصال بغرب أوربا بحراً ، وفى ذلك من الطمأنينة ما لم يجدوها فى الطريق البرى . غير أن ما طالبت به المدن الإيطالية ، من امتيازات وحقوق ، يدل على أن حكومات الفرنج فى الشرق ، فقدت جانباً كبيراً من نشاطها[١] . فالمعروف أن السفن الإيطالية توجهت منذ زمن مبكر فى إثر الصليبيين ، إذ أن سفناً لجنوه ، كانت بميناء سان سيمون فى ربيع سنة ١٠٩٨ ، وطلب قائد الأسطول من قادة الحروب الصليبية ، الذين كانوا فى أشد الحاجة إلى المساعدة ، لإتمام الاستيلاء على أنطاكية ، أن يوثقوا علاقتهم به . وبناء على اقتراح بوهمند ، توجه كل من بوهمند وريموند إلى ميناء سان سيمون ، ليلتمسا من بين البحارة الصربيين ، العمال المهرة الذين يلزمونهم[٢] . ووصل سنة ١٠٩٩ إلى يافا أسطول من جنوه ، لبذل المساعدة للصليبيين الذين يحاصرون بيت المقدس ، غير أن الأسطول المصرى ، الذى كان يجوب البحر قرب عسقلان ، يترقب الفرصة لإنزال الضرر والهزيمة بالصليبيين ، لم يلبث أن ظهر أمام يافا ، ولما فطنت السفن الجنوية للخطر الذى يحدق بها ، ولت الأدبار[٣] . وقاد دايمبرت ، رئيس أساقفة بيزا ، سنة ١٠٩٩ ، أسطولا إلى الأراضى المقدسة . والمعروف أن جمهورية بيزا أدركت ما يترتب على الحروب الصليبية من مزايا تجارية واستعمارية ، وسبق أن خاضت غمار الحروب ضد المسلمين ، فى سردينية ١٠١٥ – ١٠١٦ ، وفى شمال إفريقية ، بونه ،

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 16.

(٢) William of Tyre : op. cit. I. p. 228-229.
Groussset : op. cit. I. p. 88-89.

(٣) William of Tyre : op. cit. I. pp. 355-357.
باركر : الحروب الصليبية ص ٥١ – ٥٢ .

سنة ١٠٣٤ ، واشتركت مع جنوه وأمالفى فى مهاجمة المهدية سنة ١٠٨٧[١] .

والواقع أن بيزا قبيل الحروب الصليبية كانت ترجع فى أمورها إلى رئيس أساقفتها ، دايمبرت ، الذى يعتبر من أشهر رجال عصره ، لما عرف به من النشاط الوافر ، فضلا عن مكانته الروحية . كان من أكبر دعاة الحرب المقدسة ، ومن أقرب الناس إلى البابا إيربان الثانى . وتوجه بأسطول بزاوى ، مؤلف من ١٢٠ سفينة إلى الشام ، فى صيف ١٠٩٩ . ولا شك أن دايمبرت والقادة البيازنة ، لم يرد بخاطرهم الإفادة من الاستيلاء على بيت المقدس ، والراجح أن البابا أجاز له أن يسعى بأن يكون بطريركاً على بيت المقدس . ولما وصل الأسطول إلى اللاذقية فى سبتمبر ١٠٩٩ كانت الحرب الصليبية الأولى توشك على الانتهاء . فاستقبل بوهمند البيازنة ، فأدرك أهميتهم فى توطيد مركزه بأنطاكية ، وكانت فى أشد الحاجة إلى قوة بحرية تسانده ضد البيزنطيين ، وريموند كونت تولوز ، الذى استولى على اللاذقية . وحرص بوهمند على أن يفيد من البيازنة فى انتزاع هذا الموضع البحرى الهام ، مقابل منح البيازنة امتيازات تجارية ، غير أن ما أبداه سكان اللاذقية من المقاومة ، حمل بوهمند ودايمبرت على التورط فى حرب ، تثير سخط المسيحيين[٢] .

وعلى الرغم من أن البندقية حصلت على امتيازات تجارية فى أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، فإنها حافظت على ما حازته من امتيازات فى الإمارات الصليبية التى امتد إليها التنافس بين الجمهوريات الإيطالية .

---

(١) Grousset : op. cit. I. p, 190.

Heyd : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. I. p. 121-122.

(٢) Grousset : Histoire des Croisades I. p. 190-191.

الفصل الثامن

أحوال الإمارات اللاتينية

١٠٩٩ – ١١٤٣

صار معروفاً فى الغرب المسيحى ، بعد قيام الإمارات اللاتينية ، الرها ، وأنطاكية وبيت المقدس ، أن أضحت الحاجة ماسة إلى محاربين ومستعمرين ، ليواصلوا ما قام به الصليبيون من جهود ، وأن بالشرق من الثروة والأراضى الخصبة ، ما ينتظر قدوم المغامرين . والواقع أنه ما حدث سنة ١١٠٠ ، من الوقائع والأمور الهامة ، ما تطلب قدوم حملة صليبية من الغرب ، وهى الحملة التى بدأ تأليفها منذ سقوط أنطاكية سنة ١٠٩٨ ، غير أنها لم تتحرك إلا بعد سقوط بيت المقدس سنة ١٠٩٩ . وانضم إلى هـذه الحملة الألوف من الرجال اللومبارديين والفرنسيين والألمان والبيزنطيين ، فضلا عن أتراك مأجورين . وانحاز إليها وليم التاسع كونت بواتييه ، الذى يعتبر أول شعراء التروبادور ، وانضم إليها جماعة من الذين اشتركوا فى الحملة الأولى ، ومنهم ستيفن بلوا وهيو ڤرماندوا[1] .

تولى قيادة الحملة بعد عبور البوسفور ، ريموند كونت تولوز ، ولقيت التأييد من الإمبراطور الكسيوس . على أن اللومبارديين أصروا أثناء مقامهم بالقسطنطينية على استخدام الحملة لإطلاق سراح بوهمند الذى أسره غازى كمشتكين الدانشمندى أمير سيواس ، وحمله إلى قلعة نقصار .

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 18.

Grousset : op. cit. I. p. 322-323.

باركر : الحروب الصليبية ص ٥٠ – ٥١ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ٢٠٣ – ٢٠٤ .

ولم يسع الفرنسيون والفئات الأخرى إلا الاستجابة لرأى الإيطاليين لكثرة عددهم[١] ، ولم يلبث القتال أن نشب بين الدانشمنديين وحلفائهم من السلاجقة بآسيا الصغرى وأمير حران من جهة ، وبين الصليبيين من جهة أخرى فى سبتمبر ١١٠١ ، فى منتصف الطريق بين نهر هاليس وآماسيا ، ووقعت مذبحة هلك فيها معظم الصليبيين ، ومن فر من فرسانهم لجأ إلى القسطنطينية[٢] . والواقع أن الإمبراطور الكسيوس البيزنطى حرص على أن يفيد من هؤلاء الصليبيين ، فى السيطرة على الطريق المؤدى إلى سوريا ، لتأمين البلاد التى استولى عليها فى جنوب شرقى آسيا الصغرى ، حتى يتيسر له التدخل فى أمور الشام ، وأراد فى الوقت نفسه أن يتجنب عداء الدانشمنديين ، بأن تفاوض معهم فى إطلاق سراح بوهمند[٣] .

وترتب على هزيمة الصليبيين نتائج خطيرة ، منها أن الترك لا زالوا من القوة ، ما جعل السلطان السلجوقى يسترد سلطانه فى وسط آسيا الصغرى ، فاتخذ قونية عاصمة له ، وهى تقع على الطريق الرئيسى الممتد من القسطنطينية إلى الشام ، وأمد غازى الدانشمندى سلطانه إلى نهر الفرات ، فأصبح يهدد الرها ، كما أن الطريق الذى يجتاز آسيا الصغرى أضحى موصداً مرة أخرى أمام الصليبيين والبيزنطيين . وساءت العلاقات بين الصليبيين والبيزنطيين ، إذ اعتبروا الكسيوس مسئولا عن كل هذه الهزائم ، بينما أنكر البيزنطيون ، جحود الصليبيين ، لما بذلوه لهم من المساعدات ، وما حاق

---

(١) Cate : The Crusade of 1101, in Setton History of the Crusades I. p. 352.

Chalandon : Earlier Comneni, Camb.Med. Hist. IV p. 340.

Runciman : History of the Crusades II. p. 21.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 331.

Cate : The Crusade of 1101. p. 355.

(٣) Runciman : History of the Crusades II p. 29.

بهم من الهزائم يرجع إلى أنهم لم ينفذوا خطط الإمبراطور البيزنطي[١].
وتحتم على البيزنطيين والصليبيين أيضاً ، بعد هذه الهزائم ، عند التدخل في أمور الشام ، أن يتخذوا الطرق الطويلة الملتوية المعرضة للاعتداء من قبل الترك ، أو أن يسلكوا طريق البحر[٢] . ومن الطبيعي أن تفيد المدن الإيطالية من هذه الأحوال ، فأصرت على أن تحصل على امتيازات تجارية ضخمة ، مقابل نقل العساكر على سفنها[٣] ؛

أما الأرمن في جبال طوروس ، ولا سيما أمراء أسرة روبين ، فإنهم فرحوا لذلك ، لأن ما جرى من الأحوال والوقائع ، منع الدولة البيزنطية من السيطرة على بلادهم ، على الرغم من أن الأرمن الذين ينزلون إلى الشرق منهم ، استشعروا الخطر الدانشمندي ، إذ أدركوا أن الأمير الدانشمندي يصح أن يهاجمهم بعد أن حاز انتصارات باهرة[٤] .

وارتاح النرمان في أنطاكية لما حدث ، لما يكنونه من كراهية لبيزنطة . فاغتنم الفرصة تانكرد ، الوصي على أنطاكية ، كيما يدعم ممتلكاتها على حساب الإمبراطور البيزنطي ، فألقى القبض على ريموند عند اجتيازه اللاذقية في طريقه إلى بيت المقدس[٥] .

بيت المقدس :

تألفت مملكة بيت المقدس ، عند تتويج بلدوين ملكاً ، سنة ١١٠٠ ، من الحافة الجبلية لفلسطين وسهل ازدرائيل (مرج ابن عامر) ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 29.
Chalandon : Earlier Comneni. Camb. Med. Hist. IV. p. 341.
Cahen : La Syrie du Nord. pp. 231-232.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 30.

(٣) Runciman : op. cit. II. 30.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 31.

(٥) Runciman: History of the Crusades II. p. 31.

وبعض الحصون المتناثرة المتاخمة للدول الإسلامية ، وجيش صغير ، من فرسان متغطرسين متمردين ومن المرتزقة الذين لا يصح الاطمئنان إليهم . وتعتبر الكنيسة الهيئة الوحيدة المنظمة فى المملكة ، وتحكم فيها حزبان ، أحدهما ينصر البطريرك ، والآخر يساند الملك . وأدار شئون الحكومة المركزية فى بيت المقدس ، أتباع جودفرى ، الذين لم يصلحوا مطلقاً للإدارة ، بينما تولى أمر القلاع الواقعة على الأطراف ، بارونات أخذوا يتصرفون كيفما شاءوا[١] .

على أن الملوك الأوائل لمملكة بيت المقدس واجهوا مشاكل عديدة ، لا بد لهم من الاضطلاع بها ، كان لزاماً عليهم أن يستولوا على ما يقع فى الممتلكات التى سيطروا عليها من المواضع التى تخضع للمسلمين ، وأن يدمروا ما للفاطميين من قواعد بحرية على امتداد الساحل ، وأن يهتموا بمراقبة الأطراف الجنوبية ، والمحافظة عليها من غارات البدو ، وأن يردوا ما تتعرض له البلاد التى استولوا عليها ، من الهجمات الموجهة من قبل مصر ودمشق ، بأن يبادروا بمهاجمتهما ، نظراً لأهمية هذه الهجمات للتوسع الصليبى . على أن هؤلاء الملوك أرجأوا فى الوقت الراهن الانسياق وراء أطماعهم ، واكتفوا باتخاذ الوسائل اللازمة للدفاع عن مملكتهم[٢] .

واستهل بلدوين الأول حكمه بما شنه من الغارات على البلاد الإسلامية المجاورة من أجل النهب والسلب والحصول على الغنائم والأموال . غير أن هذه الغارات لم تفده فى توسيع ملكه ، والاستيلاء على المدن الساحلية . فلم تسقط أرسوف سـنة ١١٠١ فى يده إلا بمساعدة الجنويين ، بعد أن

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 71.

Grousset : Histoire des Croisades I. pp. 215-216.

(٢) Richard, Jean : Le Royaume Latin de Jerusalem Paris 1953. p. 33.

وعدهم بأن يجعل لهم شارعاً فى كل مدينة يشتركون فى فتحها ؛ ولم يلبث أن استولى على قيسارية ، واتبع ذلك بالنهب والسلب ، وقتل كل من يصادفه من المسلمين ، فلم يُبق إلا على من يؤدى فدية كبيرة ، وأقام بالمدينة حامية عسكرية[١] .

وفى ديسمبر سنة ١١٠١ ، مات الخليفة المستعلى الفاطمى ، وخلفه على الحكم ، ابنه الآمر ، الذى لم يتجاوز الخامسة من عمره ، فظلت السلطة فى يد الأفضل ، فأعد فى سنة ١١٠٢ حملة ضخمة من العرب والسودان ، بقيادة ابنه شرف المعالى ، الذى اتخذ عسقلان قاعدة له ، ومنها تحرك إلى الرملة فى مايو سنة ١١٠٢ ، فحصر الفرنج فى حصن الرملة ، وفقد بلدوين الأمل فى النجاة ، غير أنه استطاع آخر الأمر أن يلجأ إلى يافا ، ويستنجد بتانكرد ، وكونت الرها[٢] . والواقع أن بلدوين ومملكته ، لم ينقذهما إلا المصادفات الطيبة ، ففى وسع كتيبة مصرية واحدة أن تستولى على بيت المقدس ، لو أنها توجهت إليها مباشرة عقب معركة الرملة ، غير أنه منعهم من ذلك قدوم أمداد جديدة ، من بين الحجاج الإنجليز والفرنسيين والألمان ، الذين حملهم أسطول إنجليزى مؤلف من ٢٠٠ سفينة ، فهبطوا إلى الساحل فى يافا ، وفكوا الحصار البحرى المفروض عليها[٣] ، فانسحبت

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 73-74.

Grousset : op. cit. I. p. 221-22?.

(٢) Gorusset : op. cit. I. pp. 229-233.

Runciman : History of the Crusades I. pp. 79.

Wiet : L' Egypte Arabe p. 263.

Richard : op. cit. p. 33-34.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٥٠ – ٢٥١ .

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 235-236.

القوات المصرية إلى عسقلان ، وأضاعت فرصة نادرة لاسترداد فلسطين ؛ غير أن جهود الأفضل لم تتوقف برغم ما حل بقواته من هزيمة سنة ١١٠٢ ، فيشير ابن الأثير إلى أنه أنفذ إلى فلسطين حملتين أخرتين ، إحداهما اتخذت طريق البر ، وتولى قيادتها تاج العجم ، والأخرى بحرية بقيادة القاضى ابن قادوس ، فنزل الأسطول على يافا ، ونزل تاج العجم على عسقلان ، ولم يستجب لدعوة ابن قادوس . بالمضى إليه ، فلما علم الأفضل بذلك ، أمر بإلقاء القبض على تاج العجم ، وأرسل مكانه من يتولى أمر عسقلان وقيادة العساكر الشامية ، فاحتفظ الفرنج ما فى أيديهم بالبيت المقدس وفلسطين ما عدا عسقلان[١] . وأدركت مملكة بيت المقدس ما تتعرض له من خطر من قبل الفاطميين[٢] .

وإذ استجاب تانكرد وبلدوين لى بور ، لطلب بلدوين ملك بيت المقدس ، أثناء حصر القوات المصرية يافا ، اجتمعت جيوشهما المؤلفة من نحو خمسمائة فارس ، ومائة راجل ، وشقت الجيوش طريقها إلى الساحل ، فلحقته عند يافا فى سبتمبر سنة ١١٠٢[٣] ، وهاجموا عسقلان غير أنها لم تلبث أن رفعت الحصار ، نظراً لأنه لم تساندها قوة بحرية[٤] . على أن اجتماع ملك بيت المقدس مع القيم على أنطاكية (تانكرد) ، وكونت الرها ، أثار بعض المسائل الهامة . فيصح أن نتساءل عن العلاقات القانونية بين إمارتى أنطاكية والرها وبين بيت المقدس[٥] ؛ ولا شك أن ما قام بين هذه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 237.

(٣) Ibid : loc. cit.

Richard : op. cit. p. 34.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 237.

(٥) Grousset : op. cit. I. p. 238.

الإمارات ، وقتذاك من العلاقات ، لم تتجاوز أنها أدبية[١] ، بل أنهما وقفا من ملك بيت المقدس موقف المعارضة ، ولم يشتركا فى القتال ، إلا بعد أن هددا بأنه إذا لم يُعِد دايمبرت إلى البطريركية فلن يسانداه فى قتال الفاطميين[٢] . غير أنه تظاهر بالإذعان لتانكرد وبلدوين لى بور وقتذاك ، ولم يلبث أن تقرر عزل البطريرك فى مجلس شهده تانكرد وبلدوين ، فأدركا ما كان لبلدوين من سيادة وسيطرة باعتباره ملك بيت المقدس[٣] .

وافتقرت مملكة بيت المقدس إلى شطر كبير من الساحل الذى تقع به أكبر موانئ فلسطين ،وهى عكا نظرا لأنه لم يكن لها متنفس إلا فى البحر . وعلى الرغم من أن الفاطميين لم يستطيعوا استرداد أملاكهم بفلسطين ، فإنهم لا زالوا محتفظين بأملاكهم الواقعة على الساحل ، فلا زال بأيديهم عسقلان وعكا ، وصيدا وبيروت ، ولم يستول الفرنج إلا على يافا وأرسوف وقيصرية وحيفا[٤] . على أن التجار المسلمين لا زالوا يرتادون الطرق التى تربط بين يافا وحيفا وبيت المقدس . واعترضت الأساطيل المصرية طريق الحجاج القادمين من الغرب ، فحينما تحطمت سفن الحجاج على الساحل بسبب العواصف ، ١١٠٢ ، لقى عدد كبير منهم مصرعه ، ووقع فى أسر السلطات الفاطمية فى صيدا وعكا وعسقلان عدد كبير منهم ، باعوه فى أسواق الرقيق بمصر[٥] .

---

(١) Grousset : loc. cit.

(٢) Grousset : loc. cit.

(٣) Grousset : loc. cit.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 239.

(٥) Runciman : History of the Crusades II. p. 87.
Grousset : op. cit. I. p. 239.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧١ — ١٧٢ .

ولتوطيد سلطانه على ساحل فلسطين ، قام بلدوين بإلقاء الحصار على عكا ، عقب عيد القيامة سنة ١١٠٣ . وعكا من المدن الساحلية الهامة ، التى تخضع لسلطان صور ، وما اشتهرت به من ميناء مزدوج ، يقع داخل أسوارها وخارجها ، يهيئ للسفن الأمان عند رسوها . واشتهرت بموقعها الرائع ، بين الجبال والبحر ، وبما حازته من ضياع شاسعة وافرة الخصوبة والثمار[١] . وكادت المدينة أن تذعن ، لولا أن وصل إلى الميناء اثنتا عشرة سفينة مصرية وحمالة قادمة من صور وصيدا ، تحمل نحو خمسمائة من العساكر المصرية والأدوات اللازمة لقذف النيران ، فلم يسع بلدوين إلا أن يرفع الحصار بعد أن أشعل النيران فى أدواته ، ولا شك أن من العوامل التى دفعته إلى ذلك أنه لم يكن لديه أسطول يسانده فى إحكام الحصار المضروب على المدينة[٢] .

وشهدت السنة التالية ، سنة ١١٠٤ سقوط عكا ، بعد أن تم حصارها براً وبحراً . فالأسطول الجنوى المؤلف من ٧٠ سفينة ، الذى ظهر فى فبراير — مارس سنة ١١٠٤ ، فى اللاذقية أفاد الفرنج من الناحية البحرية ، فبعد أن بذل المساعدة لريموند كونت تولوز للاستيلاء على جبيل ، فى أبريل سنة ١١٠٤ ، هبط إلى ساحل فلسطين ، إلى يافا . فاغتنم بلدوين ملك بيت المقدس الفرصة ، كيما يفيد من هذا الأسطول فى الاستيلاء على عكا . فدارت المفاوضات بين بلدوين وقادة الأسطول ، على أن يبذلوا المساعدة ، حتى إذا تم الاستيلاء على عكا ، جعل لهم ثلث ما يتحصل من الرسوم التى تؤدى على ما يرد إليها من المتاجر من جهة البحر ، وأجاز لهم أن

---

(١) William of Tyre : op. cit. I. p. 435.

Grousset : op. cit. I. p. 239.

(٢) Grousset : loc. cit.

William of Tyre : op. cit. I. p. 453.

يقيموا لهم بالمدينة كنيسة ، وأن يكون لهم شارع بالمدينة خاضع لسلطانهم ، وقبل الجنويون أن يسهموا فى الاستيلاء على عكا[١] . وشرع الحلفاء فى حصر المدينة براً وبحراً وكان الوالى بها اسمه بنا ، ويعرف بزهر الدولة الجيوشى ، فقاتلهم أشد قتال مدة عشرين يوماً . ولما لم تصله الأمداد من مصر ، لم يسعه إلا التسليم فى مايو ١١٠٤ ، فملك الفرنج البلد بالسيف قهراً ، ولقى مصرعه عدد كبير من السكان ، واستباح الصليبيون المدينة ؛ ولما قدم واليها إلى القاهرة ، واستوضحه الأفضل عن أسباب التسليم ، أشار إلى أنه لم يتلق المساعدة ، فقبل عذره[٢] .

وترتب على استيلاء بلدوين على عكا ، أن صار له ميناء صالح لرسو السفن فى كل فصول السنة . فعلى الرغم من أن عكا تبعد عن بيت المقدس بأكثر من مائة ميل ، فإنها تعتبر الميناء الرئيسى للمملكة ، فحلت بذلك مكان يافا . فما يرد من دمشق من السلع والمتاجر لتصدر إلى الغرب ، كان يشحن من عكا . ولم تفقد عكا نشاطها التجارى بعد سقوطها فى أيدى الفرنج ، إذ ظل المسلمون المقيمون يمارسون تجارتهم[٣] . وخص الملك الجنويين بالممتلكات التى جرى الاتفاق عليها . ولأول مرة تهيأت

---

(١) الراجح أن وليم الصورى رأى هذه الوثيقة فى محفوظات عكا ، ودلت إشارته إليها على اهتمامه بالدبلوماسية والقانون والتجارة . انظر :

William of Tyre : op. cit. I. p. 455 not. 55.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٥ – ٢٥٦ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٣ – ١٤٤ .

Runciman : History of the Crusades II. p. 88.

Grousset : op. cit. I. p. 238-242.

Wiet : L' Egypte Arabe. p. 264.

William of Tyre : op. cit. I. p. 455.

(٣) Runciman: History of the Crusades II. p. 88.

أسباب الأمن للقادمين من البحر ، وتيسر للسفن أن ترسو بالميناء فى أمن وسلام ، وتوقفت إلى حد ما الهجمات من قبل المسلمين(١) .

على أن الأفضل بذل فى صيف ١١٠٥ محاولة أخيرة لاسترداد فلسطين ، فأعد حملة بقيادة ابنه سناء الملك ، مؤلفة من خمسة آلاف من فرسان العرب ، ومن السودان . وإذ أفاد المصريون من التجارب السابقة ، طلبوا المساعدة من أمراء دمشق . وعلى الرغم من المنازعات التى وقعت بعد وفاة دقاق سنة ١١٠٤ ، بين أبنائه والأتابك طغتكين ، وحرص رضوان على أن ينال حقه فى دمشق ، أظهر طغتكين استعداده لمساعدة المصريين(٢) . وتحرك الأسطول المصرى لمساندة الحملة البرية ، فتوجه بلدوين بجيشه إلى الرملة(٣) ، وانحاز إليه كل أتباعه ، واجتمع عنده جيش مؤلف من ٥٠٠ فارس و ٢٠٠٠ من الرجالة ؛ فضلا عن البدو وأمير دمشقى كان يطالب بالحكم . واتخذ الجيش المصرى موقعه عند عسقلان ، وانحاز إليه جيش دمشق . ودارت المعركة الفاصلة عند الرملة ، فى أغسطس سنة ١١٠٥ ، وحلت الهزيمة بالقوات الإسلامية ، ولقى والى عسقلان مصرعه ، بينما وقع فى أسر الفرنج أميرا عكا وأرسوف السابقان ، وحصل بلدوين على فدية كبيرة منهما(٤) . وهرب القائد سناء الملك إلى القاهرة ، بينما عاد ابن طغتكين

---

(١) William of Tyre : op. cit. I. p. 456.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٥ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 243-244.

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٧٢ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

Runciman : History of the Crusades II. p. 90.

Grousset : op. cit. I. pp. 247-248.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 464-466.

إلى دمشق . أما الأسطول المصرى فلم يسعه إلا الانسحاب إلى صور وصيدا وطرابلس ، غير أنه تعرض لعاصفة عنيفة ، أثناء سيره إلى مصر ، فشتت سفنه ، وألقت بعشرين سفينة منها فى الموانى الصليبية ، حيث جرى الاستيلاء عليها ، على أن خسائر الفرنج كانت أيضاً فادحة[١] .

ومضى بلدوين فى سياسته التى ترمى إلى توسيع مملكته ، وركز اهتمامه على المدن الساحلية ، عسقلان فى الجنوب ، وصور وصيدا وبيروت فى الشمال . واشتهرت عسقلان وصور بمناعة أسوارها وضخامة الحامية بهما ، فتطلب الاستيلاء عليهما جهداً كبيراً . وتعرضت صيدا للهجوم مرتين ، فى المرة الأولى ، استعان بلدوين فى مهاجمتها بالحجاج الذين قدموا سنة ١١٠٦ ، غير أن حاكم صيدا بذل له مقداراً كبيراً من المال ، فارتد عنها[٢] ، وفى المرة الثانية ، لقى المساعدة من المغامرين القرصان من البيازنة والجنويين والبنادقة والأمالفيين . فاستنجد حاكم صيدا بأتابك دمشق بعد أن بذل له مالا ، وقدم من مصر أسطول أنزل الهزيمة بأسطول الجنويين ، فى معركة بحرية نشبت خارج الميناء ، فارتد بلدوين وقواته ، وانسحبوا إلى عكا[٣] .

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 244.
Nicholson : "The growth of the Latin States" p. 412.
Runciman : History of the Crusades I. p. 90-91.
ابن الأثير : الكامل . ج ١٠ ، ص ٢٧٣ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .
William of Tyre : op cit. I. p. 466.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 245.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 91-92.
Grousset : op. cit. I. 253-254.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٥ .

وعلى الرغم من الهزيمة التى صادفها بلدوين ، فإنه كان حريصاً على إتمام الاستيلاء على المدن الساحلية ، ففى سنة ١١٠٩ ، نهض لمساعدة برتران بن ريموند فى الاستيلاء على طرابلس ، وتحقق لهما ذلك فى يوليه ١١٠٩ كما سنرى فيما بعد[١] . ولذا هرع برتران لمساعدة بلدوين فى سنة ١١١٠ ، فى حصار بيروت . واشتركت السفن الجنوية والبيزاوية فى فرض الحصار عليها من جهة البحر ، وكانت طرابلس قاعدة للأساطيل الموجهة إليها ، وقدم أيضاً لمساعدة بلدوين ، جوسلين صاحب تل باشر . ودارت معركة بحرية عنيفة ، قتل فيها مقدم الأسطول المصرى ، وكثير من المسلمين ، وسقطت المدينة فى مايو ، بعد حصار استمر ثلاثة شهور ، وأجرى الإيطاليون مذبحة ، هلك فيها معظم سكان المدينة ، وتم نهب المدينة ، واستباحة أموال وذخائر كل من لقى مصرعه أو وقع فى الأسر[٢] . ثم تحرك الصليبيون لمهاجمة صيدا والاستيلاء عليها ، فى ديسمبر سنة ١١١٠ ، بفضل مساعدة الأسطولين النرويجى والبندقى ، ووفقا لشروط التسليم التى تقررت فى عكا ، جرى تأمين من أراد الخروج على الأنفس والأموال ، وحصل البنادقة مقابل ما بذلوه من المساعدة ، على امتيازات منها أن يكون لهم كنيسة وبعض الأملاك فى صيدا[٣] ، وصارت صيدا بارونية لجارنييه ، الذى حكم فى قيسارية وارتفع شأنه

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 254.

William of Tyre : op. cit. I. p. 477-478.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 92.

Wiet : L' Egypte Arabe. op. 266.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 484-486.

بن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(٣) Heyd : Histoire du Commerce du Levant I. p. 148.

بزواجه من أخت أرنولف ، البطريرك السابق لبيت المقدس[١] . فخرج الوالى من صيدا ، بمن معه من الأجناد العسكرية ، وعدد كبير من سكان المدينة . بينما قرر بلدوين على من بقى فيها من السكان جزية تربو على عشرين ألف دينار ، وصادر أملاكهم ، فحلت بهم الفاقة والفقر[٢] . وتعرض المصريون لخسارة فادحة فى تجارتهم البحرية ، وذلك لأن جماعة من التجار المسافرين ، خرجت من تنيس ودمياط ومصر ، ببضائع ومنسوجات ثمينة ، فأقلعوا فى البحر ، فصادفتهم مراكب الفرنج فأخذتهم وحصل فى أيديهم من الأمتعة ما يزيد على مائة ألف دينار ، وأسروهم[٣] .

أصبح للصليبيين السيطرة على ساحل الشام ، فيما عدا عسقلان وصور ، وفشل بلدوين فى محاولاته للاستيلاء على هذين الموضعين . وحاول والى عسقلان ، واسمه شمس الخلافة ، أن يفيد من الحرب ومركزه ، كما يصيب قدراً كبيراً من الثراء ، إذ كان شمس الخلافة أرغب فى التجارة من المحاربة ، فلما قصد بلدوين عسقلان بعد سقوط صيدا ، استقرت الحالة بينهما على مال يحمله إليه ويرحل عنه ، ويكف عن عسقلان . على أن الأفضل أنكر عليه مراسلته لبلدوين ، وسعيه إلى مصالحته ومصافاته ، ومده بالمؤن والرجال ، ووعده بأن يسلم إليه عسقلان إذا دهمه الأمر ، فى مقابل أن يعوضه عنها . وخاف شمس الخلافة

---

(١) Grousset : op. cit. I. 255-258.
William of Tyre : I. pp. 486-488.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 93.
Wiet : L' Egypte Arabe p. 266.

(٣) Wiet : op. cit. p. 266.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٢ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٣٦ – ٣٣٧ .

من أهل البلد فاستدعى جماعة من الأرمن ، فأنزلهم بعسقلان ، فثار عليه أهل عسقلان وقتلوه فلقى ذلك قبولا عند الأفضل[١] .

وبعد أن فرغ بلدوين من الاستيلاء على صيدا ، عزم على مهاجمة صور ، فاستشعر بالخطر ، حاكم صور ، عز الملك ، فأرسل فى خريف سنة ١١١١ إلى طغتكين أتابك دمشق عشرين ألف دينار ، فى مقابل المبادرة بمساعدته ، بخمسمائة من الرماة ؛ وفى الوقت ذاته استأذنه فى أن يبعث إلى دمشق ما فى حوزته ، هو وجماعة الأعيان ، من التحف للمحافظة عليها ، فاستجاب طغتكين له ؛ وخرجت من صور قافلة تحمل التحف والذخائر ، واجتازت أرض الفرنج ، بعد بذل الرشوة لأحد الفرسان[٢] . فعلم بلدوين بالأمر ، فانقض على هذه القافلة واستولى على جميع ما تحمله من الثروة ، وقرر مهاجمة أسوار المدينة ، صور ، فى نوفمبر سنة ١١١١[٣] . ولم يكن عند بلدوين من القوة البحرية التى يصح أن تساعده ، سوى أسطول بيزنطى صغير مؤلف من ١٢ سفينة بقيادة السفير البيزنطى ، بوتوميتس ؛ ولم يكن البيزنطيون مستعدين لاستثارة عداء الفاطميين ،

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 258-260.

Wiet : L' Egypte Arabe p. 266.

Runciman : op. cit. II. p. 94-95.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٢ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٢) Runciman : History of the Crusades II, p. 93.

الواقع أن من عوامل التجاء عز الملك إلى الاستنجاد بأتابك دمشق ، ما حدث من عزلها من مصر ، بعد أن امتدت فتوح الفرنج إلى الجهات المحيطة بها ، فكان لزاماً على سكان المدينة أن يلتمسوا حماية أمير دمشق ، طغتكين ، ويسألوه المبادرة إلى مساعدتهم ، وإن تأخرت المعونة عنهم ، قادتهم الضرورة إلى تسليم البلد إلى الفرنج ، ليأسهم من نصرة الأفضل صاحب مصر . انظر : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٨ .

Wiet : op. cit. p. 266.

(٣) استمر حصار صور من نوفمبر ١١١١ إلى أبريل ١١١٢ .

ما لم يبذل لهم بلدوين تعويضاً سخيا مقابل خدمتهم ، بأن يساعدهم فى استرداد المدن التى انتزعها منهم أمير أنطاكية[١] . وإذ تردد بلدوين فى اتخاذ قرار بذلك اكتفى البيزنطيون بتقديم المؤن للجيش الصليبى[٢] . استبسل سكان صور فى الدفاع عن مدينتهم ، فأشعلوا الحريق فى الأبراج التى نصبها بلدوين ، وأخذ طغتكين يغير على أعمال الفرنج من جميع جهاتها[٣] . وقصد حصن الحبيس فى السواد من أعمال دمشق وهو للفرنج ، فحصره وملكه بالسيف وقتل كل من فيه[٤] . ولم يكتف بذلك ، بل زحف على صور ، وهاجم جماعة من الفرنج كانت تلتمس المؤن والعلف ، وحصر الفرنج فى معسكرهم ، أثناء غاراته ، فلم يخرجوا إليه . وصار يبث فى أهل صور الحماسة ، ويوعدهم إلى الصبر ، فقاتلوا واستمر القتال إلى أوان إدراك الغلات ، فخاف الفرنج أن يستولى طغتكين على غلات بلادهم ، فتحتم على بلدوين أن يرفع الحصار ، وأن يشق طريقــه إلى عكا[٥] ، بعد أن أفسد المحاصرون كل ما وضعه من خطط ، واشتدت مقاومتهم مدة أربعة شهور ، وأحرقوا آلات الحصار التى أقامها[٦] . وترتب على ذلك

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 94.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 94.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٣٤٣ – ٣٤٤ .

(٤) وهذا الحصن هو المعروف باسم قصر بردويل ، بين خسفين وساحل طبرية من جهة الشمال الشرق . انظر (ابن الأثير ، الكامل ج ١٠ ص ٣٤٤) .

Grousset : op. cit. I. p. 263.

(٥) Runciman : History of the Crusades II. p. 94.

Grousset : op. cit. I. p. 263-264.

(٦) William of Tyre : op. cit. p. 491-492.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٤٢ – ٣٤٤ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٨ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ١٨١ – ١٨٢ .

أن تم عقد اتفاق مع أمير دمشق ، تم بمقتضاه التنازل عن صور ، لإقدامه على مساندتها ، وفى ذلك من الدلالة على إهمال الحكومة الفاطمية ، برغم وفرة مواردها[١] .

وإذ وجه بلدوين اهتمامه الرئيسى إلى أن يكون لمملكته جبهة ساحلية كبيرة ، لم يغفل أمر مد أطراف بلاده فى الجهات الأخرى ، والإفادة من وقوع مملكته بالقرب من الطرق التجارية الرئيسية القادمة من العراق وبلاد العرب ، والتى تنتهى إلى مصر والبحر المتوسط . فحينما غادر تانكرد فلسطين ، وتوجه إلى أنطاكية ، بعد أن وقع بوهمند فى الأسر ، عهد بلدوين بإمارة الجليل (طبرية) ، التى كانت بيد تانكرد ، إلى هيه ، فدأب على مهاجمة المسلمين ، فشيد على الطريق الممتد من صور إلى بانياس ودمشق والذى يجتاز الجبال ، قلعةتورون المعروفة حاليا باسم تبنين[٢] . ثم رأى أنه من الخير ، عند القيام بالإغارة على الأراضى الخصيبة الواقعة شرق بحيرة طبرية ، أن يبنى قلعة أخرى ، على التلال الواقعة فى الجنوب الغربى من البحيرة وهى المعروفة باسم علعال ، وتم تشييد هذين الحصنين سنة ١١٠٥ ، غير أن الحصن الأخير لم يستمر فى أيدى الفرنج إلا فترة قصيرة ، إذ أدرك طغتكين ما تتعرض له بلاده من تهديد من هذه الناحية ،

---

(١) Wiet : L' Egypt Arabe pp. 266-267.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٢ .

(٢) يشير المؤرخ وليم الصورى إلى أن هيو درج على أن يقوم بهجمات مستمرة على صور ، وعلى أن يتوغل فى غاراته على ما يقع بين طبرية وصور من جهات . وتعرض أجناده دائماً للخطر ، ولم يكن بين الموضعين ، طبرية وصور ، حصن يصح الاعتصام به ، إذا طاردهم المسلمون .

(انظر : William of Tyre : op. cit. I. p. 469.) .

فاقتحم الحصن وملكه بما فيه من آلات ومتاع[١] . أما إقطاع الجليل (طبرية) فكان من نصيب چيرڤاس ، وهو من الفرسان الفرنسيين ، المشهورين بالفروسية والشجاعة ، وشدة المراس ، فشن طغتكين هجوماً سنة ١١٠٨ على طبرية ، وأوقع بجيرڤاس ، فأسره مع جماعة من قادته ونقلهم إلى دمشق . ثم أرسل إلى بلدوين يبدى استعداده لإطلاق سراح چيرڤاس ، إذا سلم إليه طبرية وحيفا وعكا . غير أن بلدوين لم يستجب له ، فقتل چيرڤاس ومن معه من الأسرى ، فصارت طبرية إقطاعا لجوسلين كورتينيه ، بعد طرده من الرها سنة ١١١٣[٢] .

وفى نهاية سنة ١١٠٨ ، تم الاتفاق بين بلدوين وطغتكين على عقد هدنة لمدة أربع سنوات[٣] ، يقتسمان فى أثنائها خراج شمال الأردن ، فيختص طغتكين بالثلث ، ويحصل بلدوين على الثلث ، وما تبقى كان من نصيب الفلاحين[٤] . والراجح أن الأحوال التى أحاطت بكلا الأميرين ، هى التى فرضت هذه الهدنة ؛ إذ تعرض طغتكين للهزيمة فى عرقة على يد وليم جوردان كونت طرابلس ، واعتدى الفرنج على القوافل التجارية القادمة من بلاد العرب إلى دمشق أو المتوجهة من دمشق إلى مصر . على حين أن ما حل بجيرڤاس من هزيمة انتهت بمصرعه ، لازالت ماثلة

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 95.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٧٥ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١ – ١٦٢ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٢٧ .

Runciman : History of the Crusades II. p. 96.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٣٢٧ – ٣٢٨ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٤ .

Runciman : History of the Crusades II. p. 97.

فى ذهن بلدوين ، على أن المعاهدة نقضها بلدوين سنة ١١١٣ ، حين أغار على دمشق[١] .

والواضح أن بلدوين كشف عن نواياه التوسعية ، فى طرابلس سنة ١١٠٩ ، إذ كان يهدف إلى أن تكون له السيادة على اللاتين فى الشرق ؛ وعزز دعواه ما وقع من الأحداث فى أنطاكية والرها ، وما يرمى إليه من بسط سلطانه الشخصى . فهو يعلم أن فلسطين تتعرض دائما للغزو والتسلل ، من جهة الجنوب الشرقى ، عن طريق النقب . ولذا حرص على السيطرة على الإقليم الواقع بين البحر الميت وخليج العقبة ، لمنع الاتصال بين مصر وسائر العالم الإسلامى . ففى سنة ١١١٥ سار من حبرون ، وطاف بجنوب بحر الميت ، ثم اجتاز وادى العرابة الممتد بين البحر الميت وخليج العقبة ، فشيد فى الشوبك حصنا ، على مسافة مائة ميل من أقرب موضع صليبى ، واشتهر هذا الحصن باسم Le Krak de Montreal كيما يتخذ منه قاعدة لمهاجمة بلاد العرب ، ويمنع التجار من اجتياز الطريق إلا بعد الحصول على إذن الملك ، وكيما يفيد منه فى رد غارات البدو[٢] . وفى السنة التالية ١١١٦ ، واصل المسير حتى بلغ العقبة فاحتلها ، واشتهرت عند الفرنج باسم أيله ، وأقام بها قلعة ؛ ثم احتل الفرنج جزيرة فيران ، وشيدوا بها حصنا آخر ، وحشدوا بهذين الموضعين العساكر ، فسيطروا بذلك

---

(١) Runciman : Loc. cit.
Grousset : op. cit. I. pp. 280., 678-680.
Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 386.

(٢) Richard : op. cit. p. 39.
Grousset : op. cit. I. p. 215,219,243.

على الطرق المؤدية من دمشق إلى مصر وبلاد العرب ، وأضحى فى وسعهم أن يغيروا على القوافل ، وتحكموا فى الطريق المؤدى إلى مصر ، فتعذر أن ينهض لمساعدتها جيش من الشرق(١) .

على أن الفاطميين لم يكفوا عن الإغارة على فلسطين ، فبلغوا سنة ١١١٣ أسوار بيت المقدس ، وكادوا يستولون عليها سنة ١١١٥ ، فقرر بلدوين مهاجمة مصر(٢) . غير أنه أقدم ، قبل الهجوم على مصر ، على القيام بعمل بالغ الأهمية ، فى زيادة عدد سكان بيت المقدس . فما حدث سنة ١١١٣ من تجربة أثارت ذكريات الملك بلدوين ، إذ أن غارات الترك من دمشق على قرى طبرية والجليل ، كانت كافية لأن يعلن الفلاحون العرب الثورة على الفرنج ، ونظرا لمرابطة قوات الفرنج بالقرب من طبرية ، كادت بيت المقدس أن تكون خالية ، وأضحى من اليسير أن ينالها المصريون(٣) .

ومع أن العرب لا زالوا يقيمون بقرى مملكة الفرنج ، فإنه جرى التخلص ممن كان ينزل منهم فى بيت المقدس أثناء الحروب التى نشبت منذ قدوم الصليبيين(٤) ، وجلا من قبل سكانها ، من المسيحيين السريان أو اليونانيين(٥) ، والنتيجة الطبيعية لهذين العاملين ، أن أضحت بيت المقدس

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 98.

Grousset : op. cit. I. pp. 280-282.

Rey : Les Seigneurs de Montreal. Rev. Orient Lat. 1896, I. 19.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 505-507.

(٢) Runciman : op. cit. II. 99.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 284.

(٤) William of Tyre : op. cit. I. p. 507.

(٥) Ibid : op. cit. I. p. 507. Grousset. op. cit. I. p. 285.

مدينة مهجورة ، ولم يكن بوسعها أن تدافع عن نفسها ، حينما تقتضى الأحوال، أن يخرج الجيش الصليبى للقتال فى جهات بعيدة عنها ، فأقلق ذلك تفكير الملك[١] .

أحس الملك أنه مسئول عن علاج ما أصاب المدينة من الركود ، وتضاؤل سكانها ، وأدرك أنه لا سبيل إلا أن يقدم إليها من الغرب من المهاجرين ما يكفى لجعلها آهلة بالسكان . وعندئذ خطر بباله السكان المسيحيون المقيمون بالقرى الواقعة وراء نهر الأردن وحوران . فأرسل إليهم يدعوهم إلى القدوم عليه ، فلم يلبثوا أن هرعوا إلى بيت المقدس بزوجاتهم وأطفالهم ، وقطعانهم وماشيتهم . ولم يجذبهم إلى بيت المقدس ، ما كان لهذا الموضع من قداسة فحسب ، بل لما بذله من وعود مغرية لتحسين أحوالهم[٢] . وتوالت هجرة المسيحيين من سائر الجهات إلى بيت المقدس ، فوزعهم الملك على قطاعات المدينة ، التى كانت فى حاجة شديدة إليهم ، وهيأ لهم المساكن التى ينزلون بها[٣] .

وما حدث من هجرة المسيحيين السريان واليونانيين ، ومن استيطانهم بيت المقدس وغيرها من المدن العديدة ، جعل من بلدوين الأول المؤسس الحقيقى للمملكة اللاتينية ، فحرص على أن يكون محبوبا عند هؤلاء المسيحيين الوطنيين ، بأن أجاز لهم أن يستخدموا لغاتهم الوطنية فى المحاكم ، وأن يحتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم ، ومنع الكنيسة اللاتينية من التدخل

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 285.

(٢) William of Tyre : op. cit. I. p. 507-508.

Grousset : op. cit. I. pp. 285-286.

Runciman : History of the Crusades p. 100.

(٣) William of Tyre : op. cit. I. p. 508.

فى شئونهم الدينية[١] . يضاف إلى ذلك أنه شجع الزواج بين الفرنج والسكان الوطنيين ، وبين عساكر الفرنج وسائر النزلاء منهم بفلسطين ، فأنجبوا من الأطفال ما صاروا فيما بعد يؤلفون خيرة جندها . ولم يلبث الفرنج أن امتزجوا بالسكان ، وتطبعوا بالطباع المحلية ، وخفت حدة تعصبهم ، على حين أن الصليبيين القادمين حديثا من الغرب ظلوا متمسكين بأفكارهم المبنيــة على التعصب ، التى جلبت الكوارث إلى ممتلكاتهم[٢] .

على أن بلدوين فرض قيودا شديدة على المسلمين ، فلم يسمح لهم إلا بعدد ضئيل من المساجد ، وفرض عليهم الإتاوات والضرائب الاستثنائية ، وحرمهم من كل ما كان لهم من الحقوق والامتيازات[٣] .

وبفضل ما قام به بلدوين من حملات حربية ، والإفادة من كل الفرص التى تهيأت لتوطيد مملكة بيت المقدس واتساع أطرافها ، صار يسيطر على الإقليم الممتد من بيروت شمالا إلى بير سبع جنوبا ، ولم يخرج عن سلطانه إلا صور وعسقلان ، وأصبح الأردن الحد الشرقى للملكة ، وسيطرت المعاقل والحصون التى شيدها فى الجنوب الشرقى ، على الطرق القادمة من بلاد العرب . واعترف بسيادته المسيحيون فى الشرق الأدنى ، وما قام به من أعمال ، دل على أن مملكة بيت المقدس ، اكتملت معالمها ، وتعينت حدودها[٤] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 100.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 314.
Runciman : History of the Crusades II. p. 100

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 101.
Grousset : op. cit. I. p. 287.

(٤) Runciman : History of the Crusades II. p. 99.
Grousset : op. cit. I. pp. 287-288, 315.

والواضح أن بيت المقدس كانت مملكة إقطاعية ، على أن بلدوين جعل فى يده كل السلطة فعين الفيكونتات نوابا عنه ؛ ولم تكن الإقطاعات وقتذاك وراثية . ووضع بلدوين دستورا للمملكة ، واستعان فى إدارته بأتباعه وحواشيه ، واتخذ كل التدابير اللازمة لحماية الإيطاليين والدفاع عن ممتلكاتهم[1] .

وحرص بلدوين على السيطرة على الكنيسة ، ولما اطمأن إلى ما تبذله من المساعدة له ، بسط يده فى العطاء لها . فما استولى عليه من أراضى المسلمين ، وهبها للكنيسة ، ولم تكن الكنيسة تقدم فعلا العساكر لخدمته ، غير أنه كان يتوقع منها أن تمده بالمال[2] . ودخل فى حوزة ملك بيت المقدس من المدن ، ولا سيما صيدا وبيروت ، ما تنتمى كنائسها من الناحية التاريخية إلى بطريركية أنطاكية ؛ فنقل بلدوين ولايتها إلى بطريرك بيت المقدس[3] .

وتزوج بلدوين للمرة الثالثة ، بعد أن طرد زوجته الأرمنية ، من أدلايد الوصية على ابنها روجر الثانى ، ملك صقلية ، لما اشتهرت به من الثراء ، ولما كان لها من نفوذ على نرمان صقلية ، الذين يتوقع منهم أن يمدوه بالقوة البحرية ، فضلا عن كراهيتهم لنرمان أنطاكية . ولما تحققت أغراض بلدوين ، بأن أنفق أموالها فى دفع المرتبات المتأخرة للجند ، وتشييد الاستحكامات ، وتشجيع التجارة الداخلية ، لم يلبث أن طلقها فى سنة ١١١٧ ، فعادت إلى صقلية ، بعد أن تجردت من أموالها ، فلم يغتفر البلاط الصقلى لملك بيت المقدس ، هذه الإهانة ،

---

(١) La Monte : Feudal Monarchy pp. 228-230.

(٢) Ruuciman : History of the Crusades II. p. 100.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 101.

وترتب على ذلك أن مملكة بيت المقدس لم تحصل من صقلية على عون أو مساعدة إلا بعد زمن طويل[١] .

وفى ربيع سنة ١١١٨ ، قاد بلدوين حملة لمهاجمة مصر لأول مرة ، فنهب بيلوزيوم (الفرما) جنوب شرقى بور سعيد الحالية ، ثم مضى فى زحفه إلى تنيس ، فأصابه مرض عضال ، وحاول أن يعود إلى بيت المقدس ، غير أنه قضى نحبه فى العريش ، على مسافة ستين ميلا إلى الجنوب الغربى من عسقلان ، وذلك فى أبريل سنة ١١١٨ ، وتم نقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث دفن بكنيسة القيامة[٢] . وتصادف أنه مات فى نفس السنة أعلام ، ارتبطت أسماؤهم بتاريخ الإمارات اللاتينية ، أمثال البابا باسكال الثانى ، وأدلايد الصقلية ، والبطريرك أرنولف ، والإمبراطور الكسيوس كومنين[٣] .

تعتبر سنة ١١١٨ خاتمة مرحلة فى تاريخ الحروب الصليبية وأهميتها ، إذ كان بلدوين الأول آخر من بقى على الحياة من زعماء الحملة الصليبية الأولى ، باستثناء روبرت النرمندى ، مات قبله ريموند وبوهمند وتانكرد الذين اختاروا الإقامة فى الإمارات التى أنشأوها بالشرق . على أن بلدوين يعتبر أكفأ هؤلاء جميعا وأكثرهم توفيقاً ، فهو أول من أسس إمارة لاتينية

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. pp. 103-105.
Grousset : op. cit. I. pp. 299-304.
William of Tyre : op. cit. I. pp. 513-514.
Chalandon : Histoire de la Domination Normande en Italie III. pp. 391. n. 5.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 105.
Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 407.
William of Tyre : op. cit. I. pp. 515-516.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 105.

فى الشرق ، إمارة الرها ، ويعتبر المؤسس الحقيقى لمملكة بيت المقدس ، التى ظل يحكمها ١٨ سنة ، فحولها من إمارة كنسية إلى دولة اتخذت طابعا خاصاً ؛ فعلى الرغم من كراهية الصليبيين للمسلمين ، لم يسعهم ، حتى يتجنبوا سلاح المسلمين المسلط عليهم دائماً من قبل الموصل وبغداد واصفهان ، وما تحويه بلاد الترك من قوة لاتنفد ، إلا أن يلتزموا مواضعهم وراء الممالك الإسلامية الواقعة فى جوف سوريا(١) . أدرك الصليبيون أن العالم الإسلامى أكبر مما كانوا يتصورونه ، وأنه لا بد من وضع نهاية لشن الحرب على المسلمين جميعاً فى سبيل الإبقاء على ما فتحوه من البلاد(٢) .

وإذا كان بلدوين يهدف إلى أن يقيم فى وسط العالم الإسلامى مملكة تستطيع أن تسالم القوى الإسلامية فى الشام ، ويشترك معها فى رد كل ما يجىء من خطر من قبل سلاجقة إيران(٣) ، فإن ذلك يعتبر من قبيل الدهاء السياسى ، إذ كيف تبقى دولة لاتينية فى محيط معاد لها ، وتتعرض للخطر من قبـــل الصليبيين ، ومن قبل حركة الجهاد الدينى . وكان لزاما على الملوك الذين خلفوا بلدوين فى الحكم ، أن يجروا على نهجه ، بأن يضفوا على الحرب المقدسة صفة سياسية ، على الرغم من سخط الحجاج القادمين حديثاً ، والذين لم يدركوا ما جرى من الوفاق والوئام بين الجيل الجديد من الفرنج وبين أهل دمشق وحلب(٤) .

وحقق بلدوين بوسائل قليلة أموراً كثيرة ، فأقام إمارة الرها بفئة قليلة من الفرسان ، وأسهم فى إنشاء إمارة طرابلس ، ولما مات

---

(١) Grousset : op· cit. I. p. 313.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 313.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 313.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 314.

جودفرى ، خلفه على مملكة تنازع السيطرة فيها أحزاب عديدة ، فجعل منها مملكة قوية متحدة ، وشجع التجارة مع المسلمين[١] . وعلى الرغم من أنه لم يملك أسطولا بحرياً ، فإنه أفاد من مساعدة الإيطاليين البحرية فيما استولى عليه من المدن الساحلية ، وفى تأمين الطرق البحرية المؤدية إلى الغرب . وأحسن استخدام جيشه الصغير ، فى حماية دولته الناشئة ، فهيأ لمملكته الهدوء والسلام ، بل إنه بذل المساعدة للإمارات اللاتينية فى الشمال ، وأمد أطراف مملكته . أما موارده المالية ، فلم تتجاوز ما كان يحصل عليه من المكوس ، وما يؤديه الحجاج من الرسوم ، والغنائم والإتاوات ، وما بذله من نشاط لتوفير الرخاء فى البلاد[٢] .

أضحى بلدوين زعيما للفرنج بالشرق الأدنى ، على الرغم من أنه لم يتوافر له من الدواعى ما يخضع بها الإمارات الثلاثة الأخرى . ومع أنه يعتبر السيد الأعلى لطرابلس ، وأنه جعل على الرها أميراً ، فإن فى وسع أميريهما ، إذا أرادا ، أن يتحدياه . على أنه بلغ من المهارة السياسية ما جعله يدرك أنه لابد للفرنج من توحيد صفوفهم والانقياد له فى قتال الترك بالشمال حتى يبقوا على كيانهم . فلما مات بلدوين ، كان لمملكته الصدارة على سائر الإمارات اللاتينية فى الشرق ، فى المكانة والقوة والزعامة . وتعتبر وفاة بلدوين خاتمة المرحلة ، التى اكتمل فيها تكوين الإمارات اللاتينية[٣] .

وبوفاة بلدوين انتهى حكم السلالة المباشرة فى بيت بويون ، ومع ذلك فإن مملكة بيت المقدس أفادت من السياسة التى وضع أساسا . وعقب وفاته ، انعقد مجلس المملكة لاختيار خلف له ، وشهد هذا

---

(١) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 408.

(٢) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 409.

(٣) Fink : loc. cit.

الاجتماع سادة المملكة ، وبطريرك بيت المقدس ، أرنولف ، ورؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، وكبار رجال الكنيسة ، فضلا عن القادة العلمانيين ، مثل جوسلين أمير طبرية(١) . ووقع الاختيار على بلدوين لى بور Baldwin Le Bourg كونت الرها ، ليكون ملكا على بيت المقدس ، بناء عل اقتراح جوسلين كورتنيه والبطريرك أرنولف ، لما اشتهر به بلدوين من الكفاية والشجاعة ؛ ولعل جوسلين تطلع إلى أن يخلفه على إمارة الرها . وتم تتويج بلدوين فى أبريل سنة ١١١٨(٢) .

بلدوين الثانى ١١١٨ — ١١٣١ :

وعلى الرغم من أن بلدوين عند اعتلائه العرش كان متقدما فى العمر ، فإن ما اشتهر به من الخبرة والتجربة فى القتال وممارسة الحكم ، وتقدير الواجب ، يجعله جديراً بأن يتولى هذا المنصب الخطير ، ولم تلبث الأحداث أن دلت على أن الدولة كانت فى أشد الحاجة إلى هذه الصفات السياسية والحربية(٣) .

استقر بلدوين الثانى على عرش بيت المقدس ، قبل أن تصل إليه أنباء التحالف الذى تم بين مصر ودمشق ؛ إذ حرص الأفضل الوزير الفاطمى ، على أن ينزل العقاب بالملك بلدوين الأول ، لإقدامه على مهاجمة مصر ، واشتد خوف طغتكين أتابك دمشق من ازدياد نفوذ الفرنج . فلما أرسل إليه بلدوين الثانى سنة ١١١٩ سفارة يطلب تجديد الهدنة ، طلب أن يرد إلى دمشق ما يتحصل من الخراج من الصلت ومن الغور ،

---

(١) Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 410-411.
Runciman : History of the Crusades I. p. 143.

(٢) William of Tyre : op. cit. I, p. 521.
La Monte : Feudal Monarchy p. 8.

(٣) Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 411.

وراء نهر الأردن ، ومن خراج السواد ، بين علعال وبحيرة طبرية[١] . والواقع أن طغتكين التمس وقتذاك محالفة مصر الفاطمية ، كما يضعف من جهة الفرنج ، وأنه أدرك أن مصر من جهة أخرى لم تكن من القوة ما يجعلها مصدر خطر على دمشق[٢] . ولما رفض بلدوين الاستجابة لهذا الطلب ، أعلن طغتكين الحرب ، وأغار على طبرية فنهب بلادها ، ومن ثمّ توجه ليساند الفاطميين فى عسقلان[٣] .

أرسل الأفضل الوزير الفاطمى أسطولا مؤلفا من سفن عديدة إلى صور ، لما اشتهرت به من استحكامات منيعة ، ومرفأ بالغ الصلاحية . واحتشد جيش مصرى فى عسقلان ، وتلقى هذا الجيش من التعليمات ما يقضى بإطاعة أوامر أتابك دمشق ، والاستجابة لكل ما يطلبه ، وبذا تكونت جبهة متحدة ، لم تتحقق إلا وقتذاك ، بين العرب الشيعيين فى مصر والترك السنيين فى دمشق ، وقدم طغتكين إلى عسقلان ليتولى قيادة القوات المصرية[٤] .

ولما وقف بلدوين على أمر هذه التحركات ، التمس المساعدة من إمارتى أنطاكية وطرابلس ، فلما جاءت الأمداد ، نزل بالعساكر فى أسدود شمال عسقلان ، بالقرب من القوات المصرية . وظل الجيشان الفرنجى والإسلامى

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 545-546.

Richard : op. cit. p. 41.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٨١ .

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 546.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 564.

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٨١ .

Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 412.

William of Tyre : op. cit. I. p. 523-524.

Grousset : op. cit. I. p. 546.

ثلاثة شهور ، يواجه أحدهما الآخر ، دون أن يقع الالتحام بينهما لأن كلا منهما يؤثر العاقبة ، على حد تعبير المؤرخ فولشر . ولم يلبث طغتكين أن عاد بقواته إلى دمشق ، ورجعت القوات الفاطمية إلى مصر ، وتفرق عساكر الفرنج عائدين إلى بلادهم[1] .

على أن بلدوين الثانى انتقم من طغتكين ، فاشترك مع جوسلين أمير طبرية فى الغارة على أذرعات (درعا الحالية) بإقليم حوران ، فنهض بورى ابن طغتكين لقتالها ، غير أنه حلت به الهزيمة ، وعادت فلول جيشه إلى دمشق فى حالة سيئة[2] .

وعلى الرغم من أن الفرنج قاموا بهجوم مضاد ، دأب طغتكين على تحقيق خططه ، فالتمس مساعدة ايلغازى ، سلطان حلب ، لمهاجمة الفرنج فى الجنوب ، الذين لم يكفوا عن الإغارة على حوران[3] . غير أن هذه الخطة لم تلبث أن تغيرت ، بسبب ما تم الاتفاق عليه ، من أن يجلب ايلغازى عساكره من ماردين ، وينحاز إلى طغتكين لمهاجمة أنطاكية فى صيف سنة ١١١٩ . ويرجع السبب فى تغيير الخطة ، إلى ما تعرضت له حلب من تهديد ، بعد أن سقطت عزاز أواخر ١١١٨ ، من أهم معاقل ايلغازى ، فى أيدى القوات المتحالفة التى حشدها روجر أمير أنطاكية ،

---

(١) Nicholson : The Growth of the Latin States. p. 412.

Runciman : History of the Crusades II. p. 146.

Grousset : op. cit. I. p. 546.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٨٢ .

Runciman : History of the Crusades II. p. 147.

Grousset : Histoire des Croisades I. pp. 546-547.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب . ج ٢ ، ص ١٨١ .

وليو الأرمنى ، فضلا عن سقوط بزاعة فى أيدى الفرنج أيضا سنة ١١١٩[١] ، وهى تقع فى الشمال الشرقى من حلب ، فى منتصف الطريق المؤدى من حلب إلى منبج ، فحلّق عليها الفرنج من كل جانب وأخذوا يهاجمونها ، « فأخربوا بلد حلب ، ولم يكن بها من الذخائر ما يكفيها شهرا واحدا ، وخافهم أهلها خوفا شديدا ، ولو مكنوا من القتال لم يبق بها أحد ، لكنهم منعوا من ذلك »[٢] ، ولم يسع أهل حلب إلا أن يصانعوا الفرنج ، بأن قاسموهم أملاكهم التى بباب حلب[٣] . فأرسل أهل حلب إلى بغداد يستغيثون ويطلبون النجدة ، فلم يستجب لهم أحد ، نظرا لانصراف السلطان محمود السلجوقى إلى تسوية ما وقع من منازعات بين أفراد أسرته ، ولا سيما عمه سنجر سلطان خراسان وما وراء النهر[٤] . على أنه ينبغى أن نلاحظ أنه حينما انتقل توجيه حركة الجهاد

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب . ج ٢ ، ص ١٨٦ – ١٨٧ .

الواقع أن روجر أمير أنطاكية لم يكتف بما بذله الأمير الأرتقى ، إيلغازى ، له من الأراضى التى تقع شمال حلب وشرقها ، بل أراد أن يفرض سلطانه على قوافل الحجاج المسلمين من حلب المتوجهة إلى مكة ، وأن يتقاضى من الحجاج رسوماً . فلما انقضى أجل الهدنة بينه وبين أمير حلب سنة ١١١٩ ، هاجم أملاك حلب ، واستولى على بزاعة ، الواقعة فى منتصف المسافة بين حلب ومنبج .

انظر Grousset : op cit. I. p. 548.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٨٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٨٩ .

Grousset : op. cit. I. p. 549.

الواقع أن روجر ارتكب خطأ كبيراً بما قام به من التضييق على حلب ، إذا كانت حلب منذ مصرع آخر أمرائها من السلاجقة ، عبارة عن شبه جمهورية عربية ، وتولى إدارتها فى بعض الأحوال ، جماعة من الطواشية ، ولم تقبل حلب حماية التركمان من ديار بكر إلا بعد أن تعرضت لتهديد الفرنج . انظر (Grousset : op. cit. I. 549.)

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٨٩ Grousset : op. cit. I. p. 549.

ضد الصليبيين من يد السلطان السلجوقى فى إيران إلى أيدى أتابكة الشام وأمرائها ، ترتب على ذلك نتائج بالغة الأهميـة للفرنج ، إذ صاروا يواجهون أسرات محلية ، أمثال الأراتقة والزنكيين والأيوبيين فيما بعد ، ركزت كل اهتمامها على أمور الشام ، وفاقت فى خطورتها وشدتها سلاطين السلاجقة ذاتهم(١) .

ووفقاً لهذه الاتفاقات ، حشد ايلغازى جيشا ضخما من التركمان والعرب ، ونهض لمساعدة حلب ، فاجتاز نهر الفرات فى مستهل يونيه ١١١٩ ، وأغار على أملاك تل باشر(٢) . ولما علم روجر بما يتهدده من الخطر ، استنجد بجوسلين ، كونت الرها ، وبونز كونت طرابلس ، وبلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، الذى انحاز بعساكره إلى بونز . وفى تلك الأثناء ، غادر روجر أنطاكية وأقام معسكره عند ارتاح على الطريق الرئيسى المؤدى لأنطاكية ، لحفظ المدينة من جهة ، ولمراقبة كل القاصدين إلى حلب ، حتى يقدم عليه الملك بلدوين ، وكونت طرابلس . واشتد قلق روجر ، لتأخر قدوم ملك بيت المقدس وكونت طرابلس ، فمضى فى زحفه ، واتخذ موضعا ، فى منتصف الطريق إلى حلب ، اشتهر عند مؤرخى الفرنج باسم ساحة الدم ager sanguinis ، ويشرف على هذا السهل حصن عقرين الذى أقامه الفرنج بالقرب من الموضع المعروف باسم بلات ، الذى يقع بين جبلين ، بالقرب من درب سرمده شمال الأثارب(٣) . واعتقد أن استراتيجية هذا الموضع ، سوف

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 550.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٨٩ .

Grousset : op. cit. I. p. 550.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٨٦ — ١٨٧ .

Grousset : op. cit. I. 552-553.

تعرقل سير القوات الإسلامية ، وسوف يستغنى بها عن قلة عدد جيشه[١] ، وليس فى وسع أحد أن يسلك إليهم لضيق الطريق[٢] . ووقف ايلغازى من عيونه وجواسيسه الذين اتخذوا هيئة التجار ، على موضع المعسكر الصليبى ، وأراد ايلغازى ألا يتحرك لمواجهة العدو ، إلا بعد قدوم طغتكين بجيش دمشق ، غير أن أمراءه ألحوا عليه بالمسير للقاء روجر ، فخلف أمتعته فى قنسرين ، وهبط إلى الأثارب التى اعتبرها هدفه الرئيسى ، واتخذ مع عساكره موقعا بالقرب من المعسكر الصليبى فى يونيه ١١١٩ ؛ فدارت بين الفريقين معركة حاسمة ، لقى فيها روجر مصرعه ، وهلك معظم فرسانه[٣]. ويشير المؤرخ وليم الصورى « إلى أنه لم يفلت من الألوف الكثيرة التى تبعت سيدها ، من يروى سيرة القتال ، وذلك بسبب ما ارتكبناه من الذنوب ، على حين أنه لم يلق مصرعه من العدو ، إلا عدد قليل »[٤] .

ومن حسن حظ الفرنج ، أن إيلغازى لم يواصل القتال ، على الرغم من أن الطريق إلى أنطاكية أضحى مفتوحا أمامه ، بل اكتفى بتوجيه حملات للغارة والنهب فى إمارة أنطاكية ، وقنع بالاستيلاء على الأثارب وزردانة[٥] ، أما بلدوين الثانى فإنه عجل بالمسير إلى أنطاكية ، وفرض سلطانه عليها ،

---

(١) Derenbourg : Vie d'Ousama I. p. 112.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٨٩ .

(٣) William of Tyre : op. cit. I. pp. 528-530.

(٤) William of Tyre : op. cit. I. p. 531.

Grousset : op. cit. I. pp. 556-559.

(٥) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 413.

Runciman : History of the Crusades II. p. 153.

Grousset : op. cit. I. p. 560.

William of Tyre : op. cit. p. 531-532.

وعمّر ، بمساعدة أرملة روجر ، ما تخرب من أسوارها . وتقرر أن يتولى بلدوين ، باعتباره زعيم الفرنج فى الشرق ، أمر حكومة أنطاكية ، حتى يبلغ أميرها الشرعى ، بوهمند الثانى ، سن الرشد فيزوجه من إحدى بناته ، فخضعت لسلطانه نحو أربع سنوات ، رتب أثناءها إدارة البلاد ، فأقر الإقطاعات بيد أربابها ، ووزع الإقطاعات التى انحلت بوفاة أصحابها ، وزوج أرامل الفرسان الذين هلكوا ، من فرسان بلدوين أو من الفرسان الذين قدموا حديثا إلى الشرق كيما يتوافر للإقطاعات الحماة والمدافعون ، ويكفل لإمارة أنطاكية قوة جديدة من الفرسان المقطعين[١] . وأعاد بلدوين أيضا توزيع إقطاعات الرها ، وأقر على حكمها جوسلين ، الذى صحب الملك فى سفره نحو الشمال[٢] .

ولما اطمأن بلدوين إلى إدارة أنطاكية ، التى عهد بها إلى البطريرك برنارد ، قاد جيشا مؤلفا من ٧٠٠ فارس وبضعة آلاف من الرجالة ، وتوجه بصحبة كونت طرابلس وجوسلين لقتال التركمان[٣] . وعلى الرغم من أن انتصار بلدوين على إيلغازى وطغتكين ، عند تل دانث ، فى ١٤ أغسطس سنة ١١١٩ ، لم يكن حاسما ، فإنه كشف عن ارتباك القوات التركية واضطرابها ، فتيسر للفرنج أن يستردوا بعض المواضع . ومع ذلك فإن مصرع روجر وهلاك فرسانه ، كفل الأمان والسلام لحلب[٤] . وما حدث من إسراع بلدوين لمساندة الفرنج فى الشمال ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 152.

Grousset : op. cit. pp. 564.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩١ .

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 414.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 565.

(٤) Nicholson : Ths Growth of the Latin States. p. 414.

Grousset : op. cit. I. pp. 565-570.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 532-535.

أنقذ أنطاكية من مصير محتوم ، واقتضت الأحوال أن يعترف الفرنج بزعامته ، وبذا توطد سلطان الفرنج فى الشرق(١) .

ولم يمكث بلدوين طويلا فى بيت المقدس ، بل بادر بالتوجه سنة ١١٢٠ إلى أنطاكية مرة أخرى ، بعد أن تعرضت للهجوم من قبل بلق والى الأثارب التركمانى ، وتوغل إيلغازى بغاراته حتى بلغ أرباض أنطاكية . غير أنه لم يلبث أن انسحب بجيشه ، لأن عددا كبيرا من التركمان تسلل من الجيش ، لأنهم لم ينالوا فى غزوهم من الغنيمة ما نالوه فى السنة السابقة ، فضلا عن قدوم بلدوين لمساعدة أنطاكية(٢) . فاجتمعت قواته بجيش جوسلين فى أنطاكية ، وزحفت على معرة مصرين ، غير أن طغتكين وإيلغازى امتنعا عن لقاء القوات الصليبية ، وعادا إلى حلب(٣) . ويشير ابن الأثير إلى أن أكثر خوف طغتكين يرجع إلى ضمور خيل التركمان وجودة خيل الفرنج ، وإلى أنه متى استبد بهم الخوف ، استبسلوا فى القتال ، فربما ظفروا بالمسلمين(٤) . فلم يجر القتال بين الفريقين ، بل تقررت الهدنة بينهما فى مارس سنة ١١٢١ ، وبمقتضاها اعترف إيلغازى بامتلاك إمارة أنطاكية الشطر الأكبر من البلاد الواقعة وراء نهر الأورنت ، والتى جرى التنازع عليها ، وهى كفرطاب ، ومعرة النعمان والبارة(٥) ، وضياع من جبل السماق ، ومن ليلون ، ومن عزاز(٦) . وأقام بلدوين

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 155.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 158.

Grousset : op. cit. I. pp. 575.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 576.

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٠٠ .

(٥) Nicholson : "The Growth of the Latin States" pp. 415-416.

(٦) Grousset : op. cit. I. p. 577.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٦ .

فى أنطاكية فترة وجيزة ، رتب أثناءها أمورها ، باعتباره وصيا عليها ، فأولاها اهتماما بالغا[1] .

على أن الفرنج لم يحفلوا بشروط الهدنة ، فأساءوا معاملة الفلاحين العرب ، الذين يقومون على زراعة الأراضى التى انتقلت إليهم بمقتضى الهدنة ، « فعاقبوهم وصادروهم ، وأخذوا منهم من الأموال والغلات ما تقووا به ، وكانت الضـياع التى بأيدى المسلمين قد عمرت ، وأطمأنوا بالصلح »[2] ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أغاروا على بلاد أخرى ، وبلغ من توالى غارات جوسلين على البلاد القريبة من حلب أن أنفذ والى حلب إلى بلدوين فى ذلك ، فى يناير سنة ١١٢١ ، يحمله مسئولية ما يترتب على أعمال كونت الرها من النتائج ، على أنه أشار إلى أن جوسلين لم يدخل فى عقد الهدنة[3] . ومع ذلك فإن الفرنج فى أنطاكية اغتنموا فرصة انقضاء أجل الهدنة المعقودة مع شيزر ، فأغاروا عليها ، وأخذوا غنائم وفيرة ، وأسروا عددا كبيرا من السكان ، وطلبوا الإتاوة التى درجوا على أدائها لهم ، فقبل ابن منقذ أمير شيزر أن يفعل ذلك ، على أن يردوا ما أخذوه فرفضوا ، ولم يسع ابن منقذ إلا أن يجعل لهم مالا ، حمله إليهم ، مقابل الإبقاء على الصلح إلى آخر السنة (مارس ١١٢٢)[4] .

وأفاد الفرنج من مكوث إيلغازى فترة طويلة فى موطنه ماردين ، بديار بكر ، وإغفاله أمر حلب ، فاستولوا على معظم البلاد التابعة لها ،

---

(١) William of Tyre : op. cit. I. p. 537.

Grousset : op. cit. I. p. 577.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٩٦ .

Grousset : op. cit. I. p. 577.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٩٧ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٩٨ .

Grousset : op. cit. I. p. 578.

فأغار جوسلين على صفين وهاجم بزاعه ؛ ثم هجم الفرنج على الأثارب وأنزلوا النكال بكل من لم يعتصم بالقلعة ، وأحرقوا الدور والغلة . وأغار بلدوين على حلب ، ونهب ما يقع تحت أيديه من المال والماشية[1] .

ولم يسع ايلغازى إلا أن يأمر ابنه سليمان الذى جعله واليا على حلب بأن يعقد الصلح مع الفرنج ، بالشروط التى يرتضونها[2] . فأقرهم على الممتلكات الواقعة وراء الأورنت ، والجزر ، وهى الجهات الواقعة شمال معرة النعمان ، والجزء الشمالى من الأراضى الواقعة وراء الأورنت والممتدة إلى حدود حلب (جبل ليلون ، وجبل بركات[3]) . وما حول حلب ، اقتسمه المسلمون والفرنج ، حتى أنهم ناصفوهم فى رحى العربية (الطاحونة)[4] . وتقرر أيضاً هدم تل هراق فلا يكون لأحد من الفريقين ، ورفضت الحامية أن تسلم الأثارب للفرنج على الرغم من موافقة ايلغازى ، فبقيت فى أيدى المسلمين ، وأقر بلدوين ذلك[5] .

وفى تلك الأثناء ، اغتنم طغتكين فرصة انصراف بلدوين إلى تسوية المشاكل فى الشمال ، واعتقد أنه ليس بوسعه أن يلتفت إلى أمور بيت المقدس ، فأغار على مملكة بيت المقدس ونهب البلاد المجاورة لطبرية . فتوجه بلدوين لقتاله ، واستولى على حصن جرش الذى شيده طغتكين

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٩٨ .

Grousset : op. cit. I. p. 578.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 579.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٩ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٩ ، حاشية ٢ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٩ .

Grousset : op. cit. I. p. 579.

فى السنة السابقة ، غير أن الفرنج دمروه سنة ١١٢١ ، بعد الاستيلاء عليه ، لما تبين لهم أنه ليس فى وسعهم المحافظة عليه[١] .

وما حدث من ثورة أمير حلب ، سليمان بن ايلغازى على أبيه واستبداده بالسكان ، وتقرب الفرنج إليـــه ، جعلهم يطمعون فى الاستيلاء على حلب ، فأخذ بلدوين سنة ١١٢١ يغير على الجهات الواقعة شمال حلب وجنوبها الشرقى ، وينزل بها الخسائر ، وحاول سليمان أن يعقد الصلح مع بلدوين ، غير أنه لم يقبل إلا إذا تنازل سليمان له عن الأثارب «لأن صاحب حلب لا يقدر على حفظها»[٢]. ولما رفض سليمان توجه بلدوين لحصارها ، غير أنه حدث من الأمور ما أوجب رحيله إلى أنطاكية[٣] .

ولم يلبث ايلغازى أن عقد الهدنة مع الفرنج بأنطاكية سنة ١١٢١ ، بعد أن أصلح الأمور بينه وبين ابنه ، فأعاد لهم من الضياع ما كان فى أيديهم أيام حكمهم الأثارب وزردنا ، وجعل الصلح لمدة سنة[٤] .

والواقع أن ايلغازى كان فى أشد الحاجة إلى هذه الهدنة ، كيما يعيد حشد قواته ؛ فرجع إلى ديار بكر ، وجهز فى يونيه ١١٢٢ جيشاً جديداً من التركمان ، ثم عبر الفرات إلى الشام لمواصلة القتال ، وكان بصحبته بلك غازى ابن أخيه ، وبهرام بن أرتق ؛ فحاصر زردنا ، فالتمس

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 159.

Nicholson : The Growth of the Latin States. p. 416.

Grousset : op. cit. I. p. 579.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 538-539.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٠١ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ٢٠١ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

Grousset : op. cit. I. p. 580-581.

صاحبها ، المساعدة من بلدوين الثانى ، الذى كان منصرفا إلى القضاء على فتنة أمير طرابلس[1] . فأخبره بما يتهدده من خطر من قبل ايلغازى ، فأشار إلى أنه لازال حافظاً لما وقعه من هدنة مع ايلغازى ، ولا يعتقد أنه يغدر ، أما إذا قصد طرابلس ، أو قصده فى القدس ، فله الحق فى ذلك ، « لأنى ما صالحته إلا على أنطاكية وأعمالها »[2] . وما حدث بين ايلغازى وبلدوين من مناوشات حول الأثارب ، انتهت بانسحاب ايلغازى بعد أن أصابه مرض شديد ، حمله على العودة إلى حلب[3] . وبعد أن أنقذ بلدوين زردنا ومنعها من الوقوع فى أيدى ايلغازى والتركمان ، عاد إلى أنطاكية سنة ١١٢٢ ، حيث عكف على القيام ببعض الأمور التى يؤديها باعتباره وصيا[4] .

ولم تلبث الأنباء أن وردت إلى بيت المقدس ، تشير إلى ما حدث فى سبتمبر ١١٢٢ من وقوع جوسلين كونت الرها وجاليران صاحب البيرة فى أسر بلق بالقرب من سروج ، فعرض بلق أن يطلق سراح الأسيرين وأتباعهما ، مقابل التنازل عن الرها غير أنهما رفضا هذا العرض ، فأمر بلق بحملهما مع سائر الأسرى إلى قلعته فى خاربوت (خرتبرت) وراء نهر الفرات[5] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

Grousset : op. cit. I, p. 581.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

Grousset : loc. cit.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

Grousset : op. cit. I. pp. 582-583.

William of Tyre : op. cit. I. p. 537.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 583.

Runciman : History of the Crusades II. p. 161.

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

الواقع أن وقوع جوسلين فى الأسر يعتبر أمراً خطيراً فى إمارة الرها ، إذ تزايدت الأعباء على بلدوين الثانى ، الذى تحتم عليه أن يتولى الوصاية على الرها وأنطاكية ، فضلا عن حكومة بيت المقدس[1] ، فجعل على الرها جفرى الراهب أمير مرعش حتى يتقرر مصير جوسلين[2].

وأفاد بلدوين من وفاة ايلغازى فى نوفمبر سنة ١١٢٢ وانقسام أملاكه بين أولاده وأقاربه[3] . فما كان للأراتقة من سيادة وسيطرة على حلب ، إنما يرجع سببها إلى ارتكان هذه السيادة على جموع التركمان فى ديار بكر. وإذ توقف هذا السند ، بعد أن أصبحت ديار بكر تابعة لأسرة أخرى من الأراتقة ، أضحى سليمان بن الجبار ، والى حلب الجديد ، فى مركز حرج ، وتعرض للهجوم من قبل بلدوين ، فلم يسعه إلا مصالحة بلدوين ، بأن تنازل لإمارة أنطاكية عن موقع الأثارب المنيع الذى يقع بجنوب غربى حلب[4] .

على أن الملكية تعرضت لأقسى تجربة منذ نشأتها ، بوقوع بلدوين أسيراً مدة سنتين ، وذلك عند محاولته تخليص جوسلين من أسر بلق

= ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤١٨ — ٤١٩ .

Grousset : op. cit. I. 594

Rey : Colonies Franques p. 306.

Runciman : History of the Crusades II. p. 161.

(١) Grousset : op. cit. I. p. 594.

Runciman : op. cit. II. p. 162.

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 418.

(٣) اختص ابنه سليمان بميافارقين ، أى الجزء الشمالى من ديار بكر ، واستقر ابنه تمرتاش فى ماردين وجنوب ديار بكر ؛ واحتفظ بلق ابن أخيه بخاربوت ، بينما صارت حلب فى حوزة ابن أخ له أيضا ، وهو سليمان بن الجبار بن أرتق .

Grousset : op. cit. I. p. 584-585.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 585.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢١٠ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٣٠ .

فى خربوت ؛ وذلك فى أبريل سنة ١١٢٣[١] . ثم هرب جوسلين من حبسه ، وحاول أن يحشد القوات لإطلاق سراح بلدوين فلم ينجح[٢] .

لم يكن لغياب بلدوين الثانى فى الأسر أثر سيئ على سير الأمور فى مملكة بيت المقدس ، ومع ذلك فإن المصريين اغتنموا الفرصة ، فواصلوا الإغارة على الأملاك الصليبية ، كما يستردوا موانيهم على الشاطئ الفلسطينى . فمنذ مايو ١١٢٣ حشدوا بعسقلان قاعدتهم بفلسطين، جيشاً ضخماً مؤلفا من عساكر من العرب والمغاربة ، فحاصر يافا من جهة البر ، بينما هاجمها بحراً أسطول مؤلف من ٧٠ سفينة ، على أن الهزيمة لحقت بالجيش المصرى عند يبنة ، فالتجأ إلى عسقلان ، ونهض أسطول بندقى لمساعدة الصليبيين فالتحم فى معركة حامية مع الأسطول المصرى بالقرب من يافا ، فانهزم الأسطول المصرى ، وواصل الأسطول البندقى سيره قاصداً العريش ، فالتقى بسفن تحمل سلعاً من التوابل والمنسوجات الحريرية فنهبها البنادقة ، وتوجهوا بسفنهم إلى عكا حيث هبطوا إلى الشاطئ[٣] .

سقوط صور :

انتعشت آمال الصليبيين فى أن ينتزعوا ، بفضل مساعدة البنادقة ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 165.

Grousset : op. cit. I. p. 587-588.

Richard : op. cit. p. I. 42.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 540-541.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٣٣ .

(٢) Grousset : op. cit. I. pp. 589-593.

Runciman : op. cit. I. pp. 163-165.

(٣) William of Tyre : op. cit. I. pp 545-550.

Grousset : op. cit. I. pp. 597-598.

بعض المدن الساحلية ، فدارت المفاوضات بين المسئولين فى بيت المقدس وقائد أسطول البندقية ، حول الإفادة من الأسطول فى الاستيلاء على مدينة صور أو عسقلان ، مقابل أن يحصل البنادقة على ثلث المدينة بعد الاستيلاء عليها ، وعلى حى من أحياء مدينة بيت المقدس ، وامتيازات قضائية فى صور ، وإعفاء تجارتهم من الرسوم فى سائر مملكة بيت المقدس ، وأن يكون لهم بكل مدينة من مدن المملكة شارع ، وكنيسة وحمامات ومخبز ، تقرر إعفاؤها من الالتزامات العادية . وللبنادقة الحق فى استعمال ما هو معروف عندهم من الأكيال والأوزان ، وأن يتقاضوا من الملك كل سنة ثلثمائة دينار إسلامى ، مما يتحصل له من خراج صور . ويلتزم البنادقة بأن يؤدوا للملك ما درجوا على تأديته من رسوم عن الحجاج الذين ينقلونهم ، ويُقدر نصيب الملك منها عادة بالثلث . وتقرر أيضاً ألا تتجاوز المملكة ، عند المتاجرة مع البلاد التى تتجر معها البندقية ، ما كانت تؤديه هذه البلاد عادة من الضرائب[١] .

ويرجع السر فى الاهتمام بالاستيلاء على صور ، إلى أن صور تعتبر أحسن الموانى على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، وترد إليها خيرات أراضى دمشق ، وتفوق عسقلان فى موقعها التجارى[٢] ، وتلى ذلك مهاجمة المدينة براً وبحراً فى فبراير سنة ١١٢٤[٣] .

والمعروف أن صور كانت من أملاك الفاطميين . وفى سنة ١١١٢ ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. pp. 166-167.
Wiet : L' Egypte Arabe p. 268.
William of Tyre : op, cit. I. pp. 552-556.

(٢) Runciman : History of the Crusades I. p. 167.
Richard : op. cit. p. 40.

(٣) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 421.

اشتد قلق سكانها لضآلة ما تلقوه من المساعدة من مصر أثناء الحصار الذى فرضه الفرنج عليها سنة ١١١١ ، فاستقر رأيهم على تسليم المدينة إلى الأتابك طغتكين ، لما سبق أن بذله من المساعدة لها ، فسير طغتكين إليها عسكرا ، وجعل عليها واليا من قبله اسمه مسعود ، بموافقة السلطات المصرية ، واستمرت الخطبة والدعوة والسكة على ما كانت عليه للخليفة الفاطمى[١] . وأرسل طغتكين إلى صور قوة عسكرية مؤلفة من ٧٠٠ من التركمان للدفاع عن المدينة ، فضلا عن المؤن . وطلب طغتكين إلى الأفضل الوزير الفاطمى ، ألا ينقطع الأسطول المصرى عنها بالرجال والقوة ، فأقره الأفضل على ذلك واستجاب لرأيه ، وسير أسطولا إلى صور ، فاطمأن السكان ، وظلت السيادة الثنائية على صور قائمة لمدة عشر سنوات ، لحرص الأفضل على طغتكين لمواجهة الفرنج[٢] . على أنه حدث فى ديسمبر سنة ١١٢١ ، أن لقى الأفضل مصرعه على يد أحد الباطنية ، وأراد الخليفة الآمر الفاطمى أن يستعيد سلطانه على صور ، فأرسل إليها الأسطول سنة ١١٢٢ ، ليسهم فى الدفاع عنها ، ثم تقرر تعيين حاكم على صور من قبل مصر ، بعد أن جرى اختطاف مسعود ورده إلى طغتكين[٣] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٣٧ .
Runciman : History of the Crusades II. p. 169.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ٤٣٧ .
Runciman : op. cit. II. p. 169.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٣٧ — ٤٣٨ .
Runciman : History of the Crusades II. p. 168-169.
Grousset : op. cit. I. p. 600-601.

استطاع الأسطول البندقى ، أن يعود من غاراته ، سالما إلى عكا ، وتلقى قائد الأسطول الدعوة من بيت المقدس ، للمسير إلى صور لحصارها من جهة البحر ، بينما تولى جيش الفرنج حصرها من جهة البر . وازداد التضييق ، وجاءت الأمداد للفرنج من قبل بونز كونت طرابلس ، واستمر الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف ، واشتد ضرب المدينة بالحجارة ، وقاوم السكان مقاومة عنيفة ، ولم تجد نفعا المساعدة التى بذلها طغتكين من جهة البر . وحاول الجيش المصرى بعسقلان أن يصرف الفرنج عن صور ، بما قام به من هجوم على بيت المقدس والبلاد المجاورة ، غير أن هذه المحاولة أحبطها سكان بيت المقدس . ولم يظهر أسطول مصرى يحمل أمداداً لصور ، ولم يكن بوسع الخليفة الفاطمى أن يرسل أسطولا ، واستبد اليأس بأهل المدينة بعد تراجع طغتكين إلى دمشق ، بل إن الأمل الوحيد فى إنقاذ المدينة الذى كان معقودا على بلق الذى سبق أن أسر بلدوين ، لم يلبث أن تبدد بعد أن لقى مصرعه فى منبج ، أثناء حصارها سنة ١١٢٤[١] . وازداد مركز المدينة سوءاً فى يونيه ١١٢٤ إذ أخذت المؤن والماء فى النفاد ، وهلك عدد كبير من رجال الحامية ، وأضحى استسلام المدينة أمرا لا مفر منه ، وعندئذ أرسل طغتكين إلى معسكر الفرنج يعرض التسليم بالشروط المألوفة[٢] . وتقرر تسليم المدينة (صور) للفرنج ، على أن يسمحوا لمن بها من الجند والرعية بالخروج ، بما يقدرون عليه من أموالهم ورجالهم ؛ وقبل قادة الفرنج والبنادقة هـذا العرض ، على الرغم من أن العساكر والبحارة أعلنوا سخطهم ، وهددوا بالتمرد والثورة ، لأن الفرصة للنهب والسلب كادت تفلت من أيديهم ؛ وفى ٧ يوليه ١١٢٤

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢١٩ .

(٢) Runciman : History of the Crusades II, p. 170.

Grousset : op. cit. pp. 603 - 616.

فتحت المدينة أبوابها ، وارتفع لواء الملك على المدخل الرئيسى ، وبذلك انتقل إلى حوزة الفرنج آخر مدينة إسلامية على الساحل شمال عسقلان[١]. وبمقتضى الاتفاق المعقود بين الفرنج والبنادقة ، صار ثلثا المدينة لملك بيت المقدس بينما اختص البنادقة بالثلث ، ثم عاد البنادقة إلى بلادهم بعد أن حازوا ما أرادوا من الامتيازات[٢] .

وحدث فى يونيه ١١٢٤ أن تقرر إطلاق سراح الملك بلدوين ، بعد أن وعد بدفع فدية كبيرة إلى تمرتاش الأرتقى[٣] ، وتوسط فى المفاوضات بين تمرتاش وبلدوين أمير شيزر . وتقرر أن يؤدى بلدوين إلى تمرتاش ٨٠ ألف دينار ، على أن يبادر بدفع مبلغ ٢٠ ألف دينار ، وأن يعيد باعتباره وصيا على أنطاكية ، إلى حلب مدن الأثارب وزردنة وعزاز وكفر طاب والجسر ، وأن ينهض لمساعدة تمرتاش لقتال دبيس بن صدقة الذى استقر بالجزيرة ، وأن يحتفظ بالرهائن فى شيزر حتى يتم تسديد ما تبقى من الفدية ، وأن تكون الأميرة ايفيت Yvete صغرى بنات الملك ، وابن جوزلين ، وعشرة من أبناء النبلاء من بين الرهائن[٤] . ولما تسلم

---

(١) Wiet : op. cit. p. 268.
Runciman : op. cit. II. p. 170-171.
Grousset : op. cit. I. p. 616-617.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٣٧ – ٤٣٨ .

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 171.
William of Tyre : op. cit. II, pp. 10-20.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. pp. 173-174.
Nicholson : "The Growth of the Latin States" pp. 424-425.
Grousset : op. cit. I. p. 423.
William of Tyre : op. cit. II. p. 21.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 172.
Grousset : op. cit. I. pp. 623-624.

تمرتاش مبلغ عشرين ألف دينار ، ووصلت إليه الرهائن ، أمر بإطلاق سراح الملك ، فارتحل من شيزر إلى أنطاكية . على أن الملك لم يف بما وعد به ، نظراً لأنه لم يكن إلا وصيا على أنطاكية ، فلا يجوز له التخلى عن شيء من أراضيها التى تعتبر ملكا لبوهمند الثانى[١] ، بل إنه تحالف مع دبيس ، والمطالب بإمارة حلب من السلاجقة ، سلطان شاه بن رضوان ، وهاجموا حلب سنة ١١٢٤ . والواقع أن الفوضى التى سادت العالم الإسلامى وقتذاك شجعت بلدوين الثانى على أن يغفل شروط المعاهدة التى أبرمها مع أمير حلب وماردين[٢] . إذ تعتبر وفاة بلق ضربة قاصمة للأسرة الأرتقية ، التى تولت ، لفترة من الزمن ، أمر توحيد الجبهة الإسلامية فى الشام ، وهى الرسالة التى تعاهدها فيما بعد الزنكيون والأيوبيون ، ولم يكن فى وسع تمرتاش أن يؤدى هذا العمل[٣] .

فما كان من علاقات ودية بين الفرنج وبنى منقذ أمراء شيزر ، رددها أسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار ، وما كان من ميلهم للاتفاق مع الباطنية ، حملهم على أن يساندوا فى سوريا ، كل حركة عربية تناهض الترك الذين يعتبرونهم ألد خصومهم ، وهذا هو السر فى أنهم استخدموا دبيس لتحقيق أغراضهم . ولم يجد هذا الزعيم ، الذى اشتهر بكراهيته لكل القوى المستقرة فى المجتمع السنى ، والذى دأب على مناوأة الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى ، ما يمنع من التحالف مع الفرنج[٤] . وترتب على ما حدث من اجتماع بلدوين وجوسلين بدبيس ، أن تم التحالف

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 172.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 625.

(٣) Ibid : loc. cit.

(٤) Ibid : loc. cit.

بينهم ، لتفتيت الإمارة الأرتقية بأن يبذل الفرنج المساعدة لدبيس على أن يتولى إمارة حلب ، تحت حمايتهم ، فيتنازل لهم عن بعض الامتيازات المالية ، وبعض المواضع(١) .

لم يحاول تمرتاش أن يدافع عن حلب ، إذ كان يتطلع وهو بماردين إلى أن يرث ميافارقين عند وفاة أخيه سليمان ، وظل أعيان حلب يقاومون الأعداء مدة ثلاثة شهور ، ولم يستجب تمرتاش لرسلهم ، فلم يسعهم إلا التماس المساعدة من أقسنقر البرسقى أتابك الموصل(٢) . ولما اشتهر به البرسقى من كراهيته للأراتقة ، واشتراكه فى الجهاد ضد الصليبيين ، وما يتطلبه من ضم حلب إلى الموصل ، كل ذلك حمله على أن يستجيب لرغبة سكان حلب ، برغم مرضه ، فحشد عساكره ، وارتحل إلى الشام(٣) . وأرسل من قبله من يتسلم قلعة حلب ؛ وانحاز إليه أثناء سيره إلى حلب الأتابك طغتكين أمير دمشق ، وكذلك أمير حمص ، بقواتهما ، وفى يناير ١١٢٥ ، بلغ البرسقى أبواب حلب(٤) . انهار تحالف الفرنج مع دبيس بعد أن شهدوا الحشود التى قدمت لمساعدة حلب ، فتوجه دبيس بقبيلته صوب الشرق ، بينما تراجع بلدوين إلى حصن الأثارب ، ثم عاد إلى أنطاكية ، ومنها إلى بيت المقدس فى أبريل ١١٢٥ ، بعد أن غاب عنها سنتين(٥) .

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 626.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 628.
Runciman : History of the Crusades II. p. 173.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 173.
Grousset : op. cit. I. p. 629.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 629.

(٥) Runciman : History of the Crusades II. p. 173.

لم يمكث بلدوين طويلا فى بيت المقدس ، لأنه أدرك أن البرسقى أشد خطورة من الأراتقة ، بعد أن وحد المسلمين فى حلب والموصل تحت حكمه ، وخضع لسلطانه طغتكين وأمير حمص . وتحتم على بلدوين باعتباره قيما على أنطاكية أن يرتحل من جديد إلى الشمال الشرقى(١) .

وما حدث من اتحاد حلب مع الموصل ، تحت سلطة البرسقى ، يعتبر مصدر خطر كبير على توسع الصليبيين . فهذه الإمارة التركية الممتدة من نهر القويق إلى نهر دجلة ، أضحت نواة لما قام بعدئذ فى الشام من إمبراطورية إسلامية متحدة زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك(٢) .

فلم يواجه الفرنج ، الذين وحد بينهم نظام الملكية فى بيت المقدس ، سوى بلاد تنازعتها فى الشام قوى عديدة ، وإقطاعات متفرقة ، زادت فى ضعفها . ولم تحافظ حلب على ما كان لها من أهمية فى الأحداث التى وقعت زمن الأراتقة ، برغم جهود ايلغازى وبلق . وما حدث من إضافة حلب إلى الموصل يعتبر بدء توحيد الجبهة الإسلامية ، التى لابد أن تقضى فى يوم من الأيام على قوة الفرنج فى الشام(٣) . على أن تبعية حلب للموصل ، لم يكن المقصود منها اندماجها فى الدولة السلجوقية ، فهما يكن من أمر الوضع الرسمى ، من أن البرسقى أو زنكى من بعده ليس إلا واليا من قبل السلاجقة ، فلم ير البرسقى فى ذلك إلا أداة ، يستطيع بها أن يقيم لنفسه إمارة مستقلة يرثها سلالته من بعده(٤) .

أمر البرسقى بإطلاق سراح الرهائن التى بيد سلطان ، أمير شيزر ، متى

---

(١) Runciman : loc. cit.
Grousset : op. cit. I. p. 631.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 631.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 631.

(٤) Gibb : "Zengi and the Fall of Edessa" p. 453.
Grousset : op. cit. I. p. 631.

تم دفع ٨٠ ألف دينار ، وانتزع بجيوشه المتحالفة حصن كفر طاب ، فعجّل بلدوين بالمسير صوب الشمال ، وتولى قيادة جيوش أنطاكية وطرابلس والرها . وفى مايو ١١٢٥ ، دارت معركة عند عزاز من أشد المعارك عنفا ، تعرضت فيها قوات البرسقى لهزيمة ساحقة ، فانسحب إلى حلب ، ومنها إلى الموصل[١] .

ودفع الملك الفدية عن الرهائن التى فى حوزة البرسقى ، وذلك بفضل ما حصل عليه من الغنائم فضلا عن المبالغ التى أسهم بها أصدقاؤه والبارونات من نصيبهم فى الغنيمة[٢] . وتقرر فى يونيه سنة ١١٢٥ ، عقد هدنة بين الجانبين ، تقضى باقتسام الخراج المستمد من جبل السماق ، وبعض المواضع التى تنازعها المسلمون والفرنج[٣] .

على أن بلدوين وجه فى خريف سنة ١١٢٥ ضربات عنيفة إلى ما كان للمسلمين من موارد اقتصادية ومعاقل حربية ، بأن شيد فى أكتوبر سنة ١١٢٥ حصنا على جبل يقع على مسافة ستة أميال شمال بيروت، وهو المعروف الآن باسم دير القلعة ، اتخذ منه الفرنج قاعدة لاستخلاص إتاوات من المسلمين[٤] . وفى مستهل سنة ١١٢٦ ، أغار بلدوين على

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 632-634.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 23-25.

(٢) William of Tyre : op. cit II. p. 25,
Grousset : op. cit. I. p. 634.
Runciman : History of the Crusades II. p. 173.
Derenbourg : Vie d' Ousama I. p. 38.

(٣) Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 426.
Grousset : op. cit. I. p. 636.
Cahen : op. cit. p. 302.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 636.
Rey : Colonies Franques p. 524.

أطراف دمشق ، ثم ساند بونز فى الاستيلاء على رفنيه فكفل لطرابلس الأمن والسلام ، فضلا عن تأمين الطريق بين بيت المقدس وأنطاكية[١] . وما حصل عليه بلدوين من انتصار طارئ على قوات دمشق حمله على أن يبعث من قبله سنة ١١٢٨ هيو باينز ، مؤسس الداوية ، إلى الغرب لإثارة حرب صليبية ، للاستيلاء على دمشق[٢] .

وفى تلك الأثناء نهض البرسقى من الموصل مرة أخرى لمساعدة شمس الخواص صاحب رفنيه التى استولى عليها بونز أمير طرابلس ، فبادر البرسقى بالإغارة على بلاد أنطاكية ، وحاصر الأثارب ، ونهب العساكر المحصولات وبعثوا بها إلى حلب ، غير أن بلدوين قدم لإنقاذ الأثارب . غير أنه أقلق بال بلدوين ما بلغه من قيام أسطول مصرى بمهاجمة الموانى الساحلية الخاضعة للفرنج ، فى خريف سنة ١١٢٦ . على أن بلدوين ، الذى انحاز إليه جوسلين كونت الرها ، أرغم البرسقى على رفع الحصار عن الأثارب والعودة إلى حلب[٣] .

ولم يستطع الأسطول المصرى أن يستولى على مدينة ساحلية أو تهبط عساكره إلى البر ، نظراً لشدة حذر سكان هذه الموانى ، واستعدادهم للمقاومة ، ومن الدليل على ذلك ما حدث عند نزول البحارة إلى بيروت من تعرضهم لهجوم السكان وارتدادهم إلى سفنهم والعودة إلى السواحل المصرية[٤] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. pp. 174-175.
Grousset : op. cit. I. pp. 637-642.
Richard : op. cit. p- 43.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٢ - ٣١٣ .

(٢) Richard : op. cit. p. 43.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 642-643.
Cahen : op. cit. pp. 302-303.

(٤) William of Tyre : op. cit. II. p. 32.
Grousset : op, cit. I. p. 644.

على أن تهديد الأسطول المصرى لموانى مملكة بيت المقدس ، واقترانه بما قام به أمير الموصل وحلب من الإغارة على أملاك أنطاكية ، دلّ على ما يصادفه بلدوين الثانى من عقبات ، فى سبيل المحافظة على الإمارتين والدفاع عنهما . فمنذ سنة ١١١٩ ، عقب مصرع روجر أمير أنطاكية ، استمر بلدوين يقاتل فى سبيل الدفاع عن هذه الإمارة ، يضاف إلى ذلك ما تحتم عليه من الحرب ضد الفاطميين فى الجنوب الغربى وضد أتابك دمشق فى الشمال الشرقى . ولذا أحس بلدوين بالراحة حينما قدم بوهمند الثانى حوالى ذلك الوقت ، ١١٢٦ ، ليتولى حكومة أنطاكية[١] .

وصل بوهمند فى نوفمبر سنة ١١٢٦ إلى ميناء سان سيمون ليتولى مقاليد الحكم بأنطاكية ، بموافقة سكانها ، وبرضى بلدوين ، فاعترف بسيادته بونز كونت طرابلس ، وجوسلين كونت الرها ، وتزوج من أليس ابنة بلدوين[٢] . وما وقع من نزاع بين بوهمند الثانى وجوسلين بسبب أطماع جوسلين فى أنطاكية وحرصه على أن تعترف له بالسيادة ، استطاع بلدوين أن يعمل على تسويته وأجبره بلدوين سنة ١١٢٨ على أن يعيد إلى بوهمند ما استولى عليه من الغنائم من أملاك أنطاكية التى هاجمها[٣] :

دمشق :

عاد بلدوين بعدئذ إلى بيت المقدس ليتفقد أحوال مملكته بعد وفاة

---

(١) Grousset : op. cit. I. 645.
Runciman : History of the Crusades II. p. 175.
William of Tyre : op. cit. II. p. 32.

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 428.
Runciman : History of the Crusades II. p. 176.

(٣) Runciman : op. cit. II. pp. 180-181.
Grousset : op. cit. I. p. 652.
Nicholson : The Growth of the Latin States. p. 429.

البرسقى ، وبعد أن تولى بوهمند حكم أنطاكية . ولم يلبث أن وجه اهتمامه من جديد للاستيلاء على دمشق ؛ وعلى الرغم من أن مبعوثه إلى الغرب ، هيوبايز لإثارة حملة صليبية للاستيلاء على دمشق لم تصادف نجاحا ، فإن بلدوين وصهره فولك أنجو ، أخذا يفاوضان الباطنية الذين صارت لهم السيطرة والنفوذ بدمشق ، بفضل مساعدة الوزير أبى على طاهر المزدقانى ، واحتلوا حصن بانياس الواقع على الحدود المتاخمة لمملكة بيت المقدس[1] . على أن وفاة طغتكين أتابك دمشق ، الذى يعتبر أقوى زعيم فى غرب آسيا ، هيأ الفرصة لتوغل الباطنية ، الذين لم يلبثوا أن تحالفوا مع الفرنج ، بأن عرضوا عليهم تسليم دمشق ، مقابل التنازل لهم عن صور ، وقبل بلدوين العرض ، واستعد الجانبان لتحقيق ذلك ، لولا أن اكتشف المؤامرة بورى بن طغتكين[2]. فأمر بالبحث عن الباطنية وقتلهم ، فلم يسع زعيمهم إسماعيل إلا تسليم حصن بانياس إلى بلدوين سنة ١١٢٩[3] . ومع ذلك احتشدت القوات الصليبية ، القادمة من طرابلس وأنطاكية والرها وبيت المقدس ، وقصدت دمشق فبلغت أرباضها فى نوفمبر سنة ١١٢٩ . على أن فصائل من الجيش ، تألف معظمها من القادمين من الغرب خرجوا تحت قيادة وليم بور لجمع ما يحتاج إليه العساكر والدواب من المؤن والعلف ، من حوران : فلما عرف بورى بن طغتكين هذه الأحوال ، بادر بتجريد فرسانه من التركمان والترك ، فانقضوا على وليم ، فلم ينج معه من العساكر إلا ٤٥ من رفاقه قصوا ما حدث للملك بلدوين . ولما لم يستطع بلدوين المضى فى حصر المدينة بسبب انهمار

---

(١) Richard : op. cit. p. 43.

Grousset : op. cit. I. p. 657-658.

(٢) Richard : op. cit. pp. 43-44.

(٣) Grousset : op. cit. I. pp. 658-661.

Runciman : History of the Crusades I. pp. 179-180.

المطر ووعورة الطريق ، قرر العدول عن مهاجمة دمشق ، وتراجع بجيشه إلى بانياس ثم إلى فلسطين حيث تفرق الجند[١] .

وما أحرزه المسلمون من انتصارات حربية على الفرنج فى أواخر سنة ١١٢٩ ، زاد فى أهميتها ما حازوه من انتصارات سياسية فى الشمال ، بعد أن تعرضت مصائر إمارة أنطاكية للخطر ، بمصرع أميرها بوهمند الثانى ، فى فبراير سنة ١١٣٠ على أيدى القوات الدانشمندية فى قليقية ، التى نهضت لمساعدة الأمير ليو الأرمنى[٢] . لم ينجب بوهمند إلا طفلة ، اسمها كونستانس ، لم تتجاوز الثانية من عمرها ، فحرصت أمها أليس على أن تنفرد بالحكم ، بعد أن جعلت من نفسها وصية على ابنتها ، فأرسل سكان أنطاكية إلى الملك بلدوين يطلبون منه المساعدة ضد أليس ، فاستجاب لدعوتهم كيما ينقذ أنطاكية من هذه الأزمة[٣] .

ولما أدركت أليس أن السلطة أوشكت الإفلات من يدها ، بعد أن علمت بمسير بلدوين إلى أنطاكية أقدمت على اتخاذ خطوة بالغة الجرأة ، أنفذت إلى زنكى رسولا بهدية رائعة ، وأذاعت أنها على استعداد

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 180.
Grousset : op. cit. I. pp. 662-664.
Richard : op. cit. p. 44.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 40-42.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٥ – ٢٢٧ .

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 182-183.
Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 431.
Grousset : op. cit. I. pp. 673-.674
William of Tyre : op. cit. II. p. 43.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 183.
Grousset : op. cit. I. pp. 673-674.

لأن تنتمي إلى زنكى ، إذا تعاهد بالمحافظة على أنطاكية وإبقائها فى يديها ، غير أن هذا التدبير أفسده الفرنج بأن ألقوا القبض على رسول أليس ، ولم يسع أليس إلا أن تمنع بلدوين من الدخول إلى أنطاكية(١) .

أقام بلدوين معسكره أمام المدينة ، واستدعى جوسلين كونت الرها لمساعدته ، ولقيت أليس معارضة ومقاومة شديدة من نبلاء الفرنج بأنطاكية ، فضلا عن الزعماء العلمانيين وكبار رجال الدين . وبفضل مساعدة هذه الفئات ، استطاع أن ينفذ إلى المدينة جوسلين وفولك ثم بلدوين . فاعتصمت أليس بأحد الأبراج ، ولم تخرج إلا بعد أن تعاهدوا لها بالإبقاء على حياتها ، فأذعنت ، والتمست العفو من والدها (بلدوين) ، غير أنه قرر طردها من المدينة وعهد بحكومة أنطاكية إلى جوسلين والأعيان ، حتى تتزوج كونستانس ، فيصير زوجها أميرا ، وأخذ عليهم الأيمان ، بأن يتعاهدوا أثناء حياته وبعد موته ، بالمحافظة على أنطاكية وتوابعها فى يد كونستانس ، وذلك لأنه خشى أن تحاول ابنته ، أليس ، مرة أخرى أن تحرم ابنتها من إرثها(٢) . على أن بلدوين منح ابنته اللاذقية وجبلة ، لأن زوجها المتوفى بوهمند الثانى ، جعلهما صداقا لها عند زواجه ، ولم يلبث بلدوين أن عاد إلى بيت المقدس(٣) .

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 184.
Grousset : op. cit. I. p. 674-675.
William of Tyre : op. cit. II. p. 44.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 184.
Nicholson : The Growth of the Latin States p. 431.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 44-45.
Grousset : op. cit. I. pp. 674-675.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 184.
Nicholson : loc. cit.

سياسته الداخلية :

عكف بلدوين الثانى على تنظيم إدارة مملكة بيت المقدس ، فجعل إمارة الجليل (طبرية) من نصيت وليم بور William de Bures فظلت فى أيدى أسرته . وفى يناير سنة ١١٢٠ ، وجه الدعوة إلى كبار رجال الكنيسة وكبار المقطعين بالمملكة ، ليشهدوا المجلس الذى انعقد فى نابلس للنظر فى اتخاذ الوسائل اللازمة لإثارة حمية النزلاء اللاتين ، وحثهم على نبذ ما ركنوا إليه من التواكل والكسل ، ودعوتهم إلى إصلاح أحوالهم المادية[1] .

والمعروف أن بلدوين الأول شجع عددا كبيرا من اللاتين على الإقامة فى بيت المقدس فنشأت منهم طبقة برجوازية لاتينية ، إلى جانب طبقة المحاربين ورجال الدين بالمملكة[2] . وسار بلدوين الثانى على هذا النهج ، فأتم ما بدأه بلدوين الأول ، بما بذله من امتيازات تجارية ضخمة . فبمقتضى الوثيقة المؤرخة فى سنة ١١٢٠ ، منح جميع اللاتين ، أى المسيحيين القادمين من الغرب الذين استقروا فى بيت المقدس ، سواء كانوا من البرجوازية أو الحجاج والمسافرين ، حق الإعفاء من تأدية المكوس على المتاجر ، عند دخولها أو خروجها من بيت المقدس[3] . وأجاز أيضا للمسيحيين الوطنيين من السريان واليونانيين والأرمن ، وللعرب أيضا ، بأن يجلبوا للمدينة ما تحتاج إليه من المؤن والطعام . وتقرر إعفاء هذه المواد

---

(١) William of Tyre : op. cit. I. pp. 535-536.

Runciman : History of the Crusades II. p. 156.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 540.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 540.



مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر



من المكوس[١] . وتجاوز أيضا عن الرسوم المقررة على المكاييل والموازين ، فاكتسب بذلك رضى السكان ، لأنه أفادهم من ناحيتين ؛ أنه وفر لهم المؤن ، بأن شجع على جلبها إلى داخل المدينة ، وبذل كل جهد للإكثار من سكانها[٢] .

المدن الإيطالية وامتيازاتها التجارية :

سبق الإشارة إلى ما أسهمت به المدن الإيطالية ، جنوة وبيزا والبندقية من المساعدة للصليبيين فى تأسيس الإمارات ، أنطاكية وبيت المقدس وطرابلس ، والاستيلاء على المدن الساحلية ؛ وحصل الجنويون مقابل مساعدتهم فى الاستيلاء على أنطاكية ١٠٩٨ ، بمقتضى المعاهدة التى أبرموها مع بوهمند ، على ثلاثين منزلا بداخل المدينة وسوق وبئر وفندق وكنيسة ، وبذلوا أيضا المساعدة للصليبيين عند استيلائهم على بيت المقدس ١٠٩٩[٣] . واشترك الجنويون أيضا سنة ١١٠٠ ، فى تنصيب بلدوين ملكا على بيت المقدس ، وتعيين تانكرد وصيا على أنطاكية ، والاستيلاء على أرسوف وقيسارية سنة ١١٠١ ، وعكا سنة ١١٠٤[٤] ؛ وأسهم الجنويون أيضا فى إنشاء إمارة طرابلس ؛ فبفضل الأسطول الجنوى استولى ريموند على انطرطوس أواخر سنة ١١٠١ ، وعلى جبلة الواقعة بين بيروت وطرابلس سنة ١١٠٤ ، ثم طرابلس ذاتها سنة ١١٠٩ ؛ وحصل الجنويون على القلعة ، وثلث مدينة طرابلس المواجه لساحل البحر

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 156.
Grousset : op. cit. I. p. 540.

(٢) William of Tyre : op. cit. I· pp. 537-538.
Grousset : op. cit. I. p. 540-541.

(٣) Heyd : Histoire du Commerce du Levant I. pp. 133-134.

(٤) Ibid : op. cit. I. pp. 136-137.

فضلا عن الميناء والجزر الواقعة تجاهها[١] . وتهيأ لتانكرد الوصى على أنطاكية أن يستولى ، بفضل الجنويين ، على جبلة فى نفس السنة ١١٠٩ ، وبذا اتصل الساحل السورى الذى يملكه البروفنساليون (طرابلس) ، بأملاك النرمان فى أنطاكية ، ولذلك أهمية كبيرة فى المحافظة على الإمارات الصليبية . على أنه لازال يفصل بين مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس ، شريط ساحلى طويل تقع عليه صور ، وصيدا وبيروت ، ولم يدخل بعد فى حوزة الصليبيين . ولذا وجه ملوك بيت المقدس اهتمامهم لانتزاع هذه المدن من أيدى المسلمين وإضافتها إلى مملكتهم[٢] . واستعان بلدوين الأول بالجنويين فى الاستيلاء على بيروت سنة ١١١٠[٣] .

أما البيازنة فلم يظهروا بسواحل الشام منذ سنة ١٠٩٩ حينما جاءوا بصحبة دايمبرت رئيس أساقفة بيزا ، إلا سنة ١١٠٨ ، فبذلوا المساعدة لتانكرد الوصى على أنطاكية ، لانتزاع اللاذقية من البيزنطيين . على أن تانكرد وعد البيازنة ، عند انتصارهم ، بأن يجعل لهم حيًّا فى كل من مدينتى اللاذقية وأنطاكية ، يمارسون فيه تجارتهم ، وأطلق لهم حرية التجارة ، وأعفاهم من المكوس ، فى كل الموانى والبلاد التابعة له ، فلما سقطت المدينة (اللاذقية) ، أوفى بوعده[٤] .

ولم تصل أساطيل البندقية إلى موانى الشام ، منذ اشتراكها مع جودفرى سنة ١١٠٠ فى غزو حيفا ، إلا فى عام ١١١٠ ، حينما بذل أسطول البندقية المساعدة للملك بلدوين الأول للاستيلاء على صيدا ، فكافأ دوج

---

(١) Heyd : op. cit. I. pp. 139-140.

(٢) Heyd : op. cit. I. pp. 141-142.

(٣) Heyd : op. cit. I. p. 142.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٨ .

(٤) Heyd : op. cit. I. pp. 145-146.

البندقية ، بأن منحه أملاكا وحقوقا مختلفة فى عكا ، والراجح أن المعاهدة التى انعقدت بينهما تضمنت حصول البنادقة على بعض الأملاك [١] .

ولم تظهر الأساطيل الإيطالية فى المياه السورية مرة أخرى إلا بعد عشر سنوات . ففى تلك الأثناء وقعت الحروب بين البيازنة والمسلمين فى جزيرة ميورقة ١١١٤ ، ونشب النزاع بين جنوة وبيزا ، فلم تتهيأ لهما الفرصة للقدوم بأساطيلهما إلى الشرق [٢] .

على أنه حدث فى زمن بلدوين الثانى ، أن ساءت أحوال المسيحيين فى الشرق ، بسبب اختفاء السفن الإيطالية ، فاشتد ضغط الخصوم عليهم من جهتى الشمال والجنوب ، وتحتم على الملك أن ينهض للدفاع عن أنطاكية ، التى وقع أميرها فى أيدى المسلمين [٣] . وطلب الملك بلدوين الثانى المساعدة من البندقية ، وعرض شروطا مغرية ، وأيد البابا طلب ملك بيت المقدس ، فاستجاب البنادقة والدوج لرغبته . وأقلع فى سنة ١١٢٢ أسطول مؤلف من مائتى سفينة ، وتولى قيادته الدوج نفسه ، غير أنه عطل قدومه إلى الشام ، ما وقع من النزاع بين البنادقة والإمبراطور البيزنطى ، وإلغاء الحصار على كورفو . وفى تلك الأثناء ازدادت الأحوال سوءا بفلسطين ، إذ وقع بلدوين أسيرا فى أيدى المسلمين (إبريل سنة ١١٢٣) وتجهز المصريون لمهاجمة المملكة الصليبية برا وبحرا ؛ واستغاث الفرنج بالبندقية للمبادرة بالقدوم ، فلم يسع الدوج إلا أن يرفع الحصار عن كورفو ، ويبادر إلى مساعدة الصليبيين فى إنزال الهزيمة بالقوات الفاطمية . وترتب على هذه الهزيمة ، أن طلب نواب الملك من البنادقة أن يشتركوا

---

(١) Heyd : op. cit. I. p. 142.

(٢) Heyd : op. cit. I. p. 142.

(٣) Heyd : op. cit. I. p. 142.

فى حصار إحدى المدينتين الباقيتين فى أيدى المصريين ، عسقلان وصور . وتقرر فى سنة ١١٢٣ عقد معاهدة فى عكا ، بين الجانبين ، تضمنت تأكيد ما سبق الملك أن وعد به من الحقوق فضلا عن وعود جديدة . ومن الشروط التى وردت فى المعاهدة ، أنه إذا أسهم البنادقة فى الاستيلاء على المدينتين ، اللتين سبق ذكرهما ، صار للبنادقة ثلث كل مدينة ، واختص الملك بالثلثين ، واقتسم الفريقان أراضى المدينة ، وفقا لهذا المبدأ ، أى الثلث للبنادقة والثلثين للملك . وللبنادقة أن يحصلوا فى كل مدينة خاضعة للملك أو لأحد باروناته ، على شارع ، وساحة ، وكنيسة ، وحمام ، وفرن ، دون مقابل أو التزام . ويجعل لهم الملك فى بيت المقدس حيا يضارع فى المساحة الحى الذى يخصه . ويحتفظ البنادقة لأنفسهم فى عكا بفرن ، وطاحون ، وحمام ، دون الاهتمام بمصلحة السكان . وتقرر إعفاؤهم من رسوم البيع والشراء ، والرسوم المقررة عند الدخول إلى أملاك الملك وباروناته أو الخروج منها[١] .

وبفضل مساعدة البندقية ، سقطت صور فى أيدى الصليبيين فى يوليه ١١٢٤ . وبسقوط صور فى أيديهم ، صارت لهم السيطرة على الساحل ، وأضحى بحوزتهم ميناء بحرى بالغ الأهمية ، وبفضل موقع صور وطبيعته ، يسهل الدفاع عنها ، ولذا استقرت بها مقاومة الفرنج بعد سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين سنة ١١٨٧[٢] .

الواقع أن البنادقة حازوا امتيازات ضخمة مقابل ما أسدوه للفرنج من خدمة بالاستيلاء على مدينة صور . على أن من المحقق أنه لم يجر تنفيذ كل الشروط

---

(١) Heyd : op. cit. I. pp. 142-144.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 552-556.

Grousset : op. cit. I. pp. 616-618.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 618.

الواردة فى معاهدة سنة ١١٢٤ ، فلم تتحقق فى المدن الداخلية باستثناء بيت المقدس ، لأن البنادقة أنفسهم لم يحفلوا بذلك . كما أن الشرط الذى يتضمن هذه الامتيازات لم ينفذ فى كل المدن الساحلية ، إنما اقتصر تطبيقه على صور ، وصيدا ، وعكا ، وحيفا[١] . على أن تنفيذ هذه المعاهدة فى الموانى الكبيرة جعل للبنادقة امتيازات ضخمة تضارع الحقوق الملكية ، بأن صاروا يشاركونه السيادة[٢] . إذ كادوا أن يكونوا ملوكا فى الأحياء الخاصة بهم فى عكا وصور ، فالحى البندقى بعكا ، حاز ما ناله الحى الملكى ، من حق الإعفاء من الضرائب والرسوم والمكوس ، وكانوا سادة إقطاعيين فى صـــور ، شأنهم فى ذلك شأن كونتات طرابلس[٣] .

الفرسان الرهبان :

ومن أهم الأحداث التى اشتهر بها عهد بلدوين الثانى ، إنشاء الطوائف الدينية العسكرية . ففى سنة ١٠٧٠ أنشأ جماعة من الأمالفيين ، اشتهروا بالتقوى والصلاح ، داراً فى بيت المقدس ، لينزل بها الحجاج الفقراء ، وأجاز والى بيت المقدس من قبل الخليفة الفاطمى ، المستنصر ، لقنصل أمالفى بأن يختار موضعاً مناسبا ، يقيم عليها الدار التى اتخذت راعيا لها ، القديس حنا المتصدق ، بطريرك الإسكندرية فى القرن السابع الميلادى . وكان معظم القائمين على هذه الدار من الرهبان الأمالفيين ، وخضعوا

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 619.

Heyd : op. cit. I. p. 148,151.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 619.

(٣) Grousset : loc. cit.

لإدارة مقدم ، استمد سلطته من الهيئات البندكتيه بفلسطين . وكان جيرار مقدما على هذه الدار عند استيلاء الصليبيين على بيت المقدس[١] .

أفاد الصليبيون من خبرة جيرار بأحوال البلاد ، واستطاع جيرار أن يقنع حكومة الفرنج فى بيت المقدس ، بأن توقف على هذه الدار أحباسا . وانضم إلى طائفته عدد كبير من الحجاج ، الذين اشتهروا فى المصــادر التاريخية العربية باسم الاسبتارية . ولم يلبث هؤلاء الاسبتارية أن تحرروا من الولاء للبندكتيين ، وأضحوا مستقلين ، فصاروا ينتمون مباشرة إلى البابا ، وبذا حصلت طائفتهم على هبات كثيرة ، كما أن معظم كبار رجال الكنيسة جعلوا لهم عشر ما يرد لهم من الدخل[٢] .

وتطورت هذه الطائفة ، الاسبتارية ، بعد وفاة جيرار سنة ١١١٨ ؛ إذ أن ريموند لى بويه ، الذى خلفه على هذه الطائفة ، لم يقبل أن تقتصر وظيفة الاسبتارية على إرشاد الحجاج وإيوائهم ، بل حرص على أن تكون مهمتها الأساسية ، إعداد الفرسان الذين يلتزمون الزهد والتقشف والطهارة والطاعة ، وينذرون أنفسهم لقتال الأعداء ؛ واتخذوا حنا الإنجيلى راعيا لهم ، وجعلوا شارتهم قطعة من النسيج الأبيض برسم الصليب ، فوق سترتهم التى يختفى تحتها السلاح[٣] . واشترك الاسبتارية منذ سنة ١١٣٧ ، فى القتال ضد المسلمين[٤] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. pp. 242-245.

Heyd : op. cit. I. pp. 103-105.

Runciman : History of the Crusades II. p. 156.

Grousset : Historie des Croisades I. pp. 541-542.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 157.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 157.

Grousset : op. cit. I. p. 542.

(٤) فى هذه السنة ١١٣٧ ، عهد إليهم الملك فولك بحراسة حصن جبيل (بيت جبرين) .
انظر Grousset : op. cit. I. p. 542. note 2.

وساعد على هذا التغيير ما حدث فى الوقت ذاته سنة ١١١٨ من ظهور طائفة الداوية ، التى يرجع الفضل فى إنشائها إلى فارس من شامبانيا اسمه هيوباينز Hugh of Payens الذى أقنع بلدوين ، بالسماح له ولفئة قليلة العدد من رفاقه ، بالنزول فى جناح بالقصر الملكى ، بساحة المعبد ، (المسجد الأقصى) . وخضعت هذه الطائفة أول الأمر ، لما خضع له الاسبتارية ، بأن سارت على قاعدة البندكتيين ، ولم تلبث أن أضحت مستقلة(١) .

وتألفت هذه الطائفة من ثلاث فئات : الفرسان ، وينحدرون من أصل نبيل ثم الأجناد من البرجوازية ، ويعتبرون نواب الهيئة وممثليها ، ويؤلف الرهبان الفئة الثالثة ومنهم يجرى اختيار قسس الكنائس ، ويمارسون من الأمور ما ليس لها صفة عسكرية . وشعارهم صليب أحمر اتخذه الفرسان منهم على سترة بيضاء ، وجعله اجناد على سترة سوداء . وأقسم أفراد الطائفة على التعهد بتأمين الطريق الممتد من ساحل البحر المتوسط إلى بيت المقدس ، وتطهيره من قطاع الطرق ، ثم أسهموا فى كل حملة سيرتها مملكة بيت المقدس(٢) . ومن الدليل على تقدير بلدوين الثانى لأعمال هيو باينز ، أنفذه إلى فرنسا وانجلترا ، ليسعى عند الأمراء المسيحيين ، لإرسال النجدة إلى مملكة بيت المقدس(٣) .

وبذل بلدوين الثانى لهاتين الطائفتين كل مساعدة ، برغم استقلالهما عن سلطته ، وانتمائهما للبابا . وما وهبه البابا وأتباعه ، من ضياع كثيرة

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 157.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 157.
Grousset : op. cit. I. p. 542-543.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 157.
Grousset : op. cit. I. p. 542.
hronique de Michel le yrien III. pp. 201-203.
La Monte : Feudal Monarchy pp. 217-225.

هاتين الطائفتين ، لم يقيدهما بالتزام القتال فى جيش الملك . ولم يكد الجيل الأول ينتهى ، حتى بلغت ثروة هاتين الطائفتين من الضخامة ما جعلهما تتحديان سلطة الملك . على أنهما فى الوقت ذاته أمدتا مملكة بيت المقدس ، بجيش نظامى مؤلف من عساكر مدربين(١) .

بلدوين الثانى والكنيسة :

وعلى الرغم من شهرة بلدوين الثانى بالتقوى والصلاح ، فإنه حرص على أن يحافظ على حقوق الملكية ، إزاء البطريرك وكبار الأتباع . وبفضل كياسته وبراعته فى معالجة الأمور ، لم يلجأ إلى أن يتخذ من التدابير العنيفة كالتى اتخذها بلدوين الأول ، إزاء البطريرك(٢) .

مات البطريرك جورمون سنة ١١٢٨ ، وقد اشتهر بالقداسة والتزام سياسة الوفاق مع بلدوين الثانى . وتولى البطريركية من بعده ستيفن ، من أقارب بلدوين الثانى . والمفروض أن يستمر الوفاق بينهما بعد تولى البطريركية ، ولا سيما أن ستيفن كان من قبل ، كونتا لشارتر ، ومن الفرسان النابهين ، وبذا يصح أن يدرك حاجة السلطة الزمنية ، على أنه حدث عكس ما كان متوقعا(٣) .

أخذ ستيفن يثير المشاكل أمام الملك ، فزعم أن مدينة يافا من أملاك البطريركية وفقا للاتفاق المعقود بين جودفرى والبطريرك دايمبرت ، ولابد أن تتمتع بالاستقلال . ولم ينس أن يذكر الملك بما سبق الاتفاق عليه ، بأنه متى استولى الملك على عسقلان فلابد من أن يتنازل له عن

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 158.
Grousset : op. cit. I. p. 543.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 655.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 655.

بيت المقدس . غير أن وفاة ستيفن سنة ١١٣٠ ، منعت وقوع الشقاق بين البطريرك والملك . ولم يكن للبطريرك الجديد أطماع سياسية ، فأظهر من الاستجابة لرغبات الملك ، ما جعله موضع تقدير جميع الناس[١] .

اختيار فولك لولاية الحكم :

حرص بلدوين الثانى على تدبير ولاية الحكم من بعده ، لأنه لم ينجب إلا أربع بنات ، آليس ، هوديرنا ، ايفيتا ، ومليسند . كانت أليس أميرة على أنطاكية ، ولا زالت هوديرنا وايفيتا صغيرتين ، ومن الطبيعى أن يلى الحكم من بعده ابنته مليسند بالاشتراك مع زوج صالح لها . فلما أرسل بلدوين ، سنة ١١٢٨ ، مقدم الداوية ، هيوباينز ، إلى أوربا ، للاستنجاد بالغرب ، ليبعث بقوات وأمداد لمقاومة زنكى من جهة ، والاستيلاء على دمشق من جهة أخرى ، أنفذ بلدوين مع هذه السفارة رسولا من قبله إلى ملك فرنسا ، لويس السادس ، يطلب إليه ترشيح زوج مناسب لابنته مليسند . فوقع الاختيار على فولك كونت أنجو ، لأنه ينتمى إلى أسرة عريقة ، اشتهرت بالثراء والمكانة ، وبأنها وثيقة الصلة بالأسرات النبيلة فى فرنسا وانجلترا . يضاف إلى ذلك معرفة بلدوين له عند قيامه بالحج إلى بيت المقدس ، سنة ١١٢٠ ، وتزكية البابا هونوريوس الثانى له ، فقدم فولك إلى فلسطين سنة ١١٢٩ ، وتم عقد قرانه على مليسند فى بيت المقدس[٢] . غير أنه لم يتحقق للفرنج الهدف الثانى الذى كانوا يرمون إليه ، وهو الاستيلاء على دمشق ، إذ حلت بهم

---

(١) William of Tyre : op. cit. I. pp. 39-40.
Runciman : History of the Crusades II. pp. 176-177.
Grousset : op. cit. I. pp. 655-656.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. pp. 177-178.
Grousset : op. cit. I. p. 657.

سنة ١١٢٩ ، هزيمة ساحقة ، ارتدوا بعـــدها خاسرين إلى بيت المقدس[١] .

وما قام به بلدوين الثانى سنة ١١٣٠ من مساندة سكان أنطاكية ضد أميرتهم أليس ، تعتبر خاتمة أعماله وجهوده ، إذ تحطمت بعدها حياته الطويلة الحافلة بالنشاط ، فلم يعترضها إلا فترتان وقع أثناءهما الملك أسيرا . ففى سنة ١١٣١ ساءت صحته ولم تلبث أن تدهورت ، ولما أشرف على الموت ، وبناء على طلبه ، تقرر نقله من القصر الملكى فى بيت المقدس ، إلى مقر البطريرك ، المتصل بالقبر المقدس ، كيما يموت بأقرب بقعة لمثوى المسيح . ثم استدعى إلى حجرته نبلاء المملكة ، وابنته مليسند وزوجها فولك ، وابنهما الطفل الذى اتخذ اسم بلدوين ، فمنح مليسند وزوجها البركات ، وأمر الحاضرين أن يقبلوهما ملكين عليهم . وقضى بلدوين الثانى نحبه فى ٢١ أغسطس سنة ١١٣١ ، وتمت مواراته فى كنيسة القيامة[٢] .

ولم يعش طويلا بعده ، ابن عمه ورفيقه ، جوسلين كونت الرها ، إذ مات ١١٣١ متأثرا بما أصابه من جراح سنة ١١٣٠ ، أثناء حصار حصن كيسوم ، وخلفه على حكم الرها ، ابن عمه جوسلين الثانى ، فكان ذلك كارثة على الرها ، التى صارت هدفا لهجمات زنكى ؛ حتى سقطت فى يده سنة ١١٤٤[٣] .

---

(١) Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 431.
Runciman : History of the crusades II. pp. 179-180.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 185.
Nicholson : loc. cit.
Grousset : op. cit. II. p. 4-5.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 45-46.

(٣) Nicholson : The Growth of the Latin States. pp. 431-432.
Runciman : History of the Crusades II. p. 185.

وبوفاة جوسلين وبلدوين ، انقضى الجيل القديم الذى يمثل الصليبيين الأوائل . وفى السنوات التالية ، نصادف صورة جديدة للنضال الذى نشب بين الجيل الجديد من الصليبيين ، من الرجال والنساء ، أمثال جوسلين الثانى وأليس ، والأسرة الحاكمة فى طرابلس ، الذين تلاءموا مع الحياة الشرقية ، وحرصوا على المحافظة على ما بأيديهم من الممتلكات ، وبين القادمين الجدد من الغرب ، الذين اشتهروا بالميل إلى القتال والهجوم والتهور ، ولم يأخذوا بأسباب الحياة فى الشرق ، ولم يفهموها ، ومن هؤلاء ريموند بواتييه ، أمير طرابلس ، وفولك ملك بيت المقدس ، وريجنالد شاتيون أمير الكرك[١] .

فولك أنجو ١١٣١ – ١١٤٣ :

فى ١٤ سبتمبر سنة ١١٣١ ، شهدت كنيسة القيامة تتويج الملك فولك ، والملكة مليسند . ومع أن بارونات مملكة بيت المقدس لم يعترضوا على تولى فولك الحكم ، إلا أن أمراء الفرنج بالشمال ، لم يكونوا مستعدين لأن يقبلوه سيدا عليهم . فالمعروف أن الإمارات الشمالية ، أنطاكية وطرابلس والرها ، أقرت سيادة بلدوين الأول وبلدوين الثانى ، لأنه توافر لهما من السلطة وقوة الشخصية وبعد النظر ، فضلا عن الأحوال السياسية والحربية السائدة زمنهما ؛ ما حقق لها السيطرة والسلطان ، على الرغم من دعاوى بيزنطة والرها فى هذه الإمارات بمقتضى المعاهدة التى أبرمها الإمبراطور البيزنطى ، الكسيوس ، مع الأمراء الصليبيين فى الحرب الصليبية الأولى ، واليمين التى بذلها ريموند لألكسيوس[٢] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 186.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 187.
Grousset : Histoire des Croisades II. p. 5.

ولمـــا تولى فولك عرش المملكة ، قوبل بالمقاومة والمعارضة ، ولا سيما من قبل الأميرة أليس ابنة الملك بلدوين ، بأن طالبت بأن تكون قيّمة على ابنتها أميرة أنطاكية ، وأيدها فى ذلك جوسلين الثانى كونت الرها ، وبونز أمير طرابلس ، الذى تطلع أيضا للتخلص من سيطرة بيت المقدس(١) . غير أن نبلاء أنطاكية أنكروا أطماع أليس ، واستنجدوا بالملك فولك ، فتوجه على رأس جيشه إلى أنطاكية ، بعد أن أنزل الهزيمة بأمير طرابلس سنة ١١٣٢ ، ولم يلبث أن وطد سلطانه فى أنطاكية بمساعدة كبار النبلاء ثم عين ريجنالد مازوار نائبا عنه فى حكمها(٢) .

على أن أليس لم تلبث أن عادت إلى أنطاكية سنة ١١٣٥ ، وتجاهلت حق ابنتها كونستانس فى الحكم ، وتولت فعلا حكومة أنطاكية بموافقة أختها مليسند ، زوجة فولك ، على الرغم من أنه لا زال الوصى الرسمى على الإمارة ، وأناب عنه فى إدارتها البطريرك(٣) .

الواقع أن فولك أدرك ما تتعرض له أنطاكية من خطر إذا بقى عرشها شاغرا ، وأضحت مقاليد الأمور بها فى يد امرأة (أليس) طموحة ، وبطريرك حريص على مصلحته الخاصة ؛ فضلا عن تهديد زنكى لأملاكها . ولذا طلب إليه نبلاء أنطاكية ولا سيما أولئك الذين اشتهروا بولائهم وتعلقهم بالأمير بوهمند والدكونستانس ، أن يختار زوجا لأميرة

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 189.
Grousset : op. cit. I. p. 9.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. pp. 189-190.
Grousset : op. cit. II. p. 10,13.
Nicholson : Tha Growth of the Latin States p. 433.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 198.
Grousset : op. cit. II. pp. 33-35
William of Tyre : op. cit. II. p. 78.

أنطاكيـــة . فرشح للزواج منها ريموند بواتييه ، ابن وليم التاسع الذى سبق أن اشترك فى الحملة التى تعرضت للهزيمة فى آســـيا الصغرى سنة ١١٠١[1] .

لم تجد أليس مقاومة من السكان المسيحيين الوطنيين بأنطاكية ، ولم تحفل بروح الفرنج وعاطفتهم ، والتمست التأييد والمساعدة من الإمبراطور البيزنطى ، حنا كومنين ، وعرضت أن تتزوج ابنتها كونستانس ، من ابنه مانويل ، وقبل الإمبراطور هذا العرض[2] .

وزاد الأمر سوءا أن رالف بطريرك أنطاكية أراد أن يحظى بتأييد أليس فى مناوأة خصومه من رجال الدين ، فأقنعها بأن السفارة التى توجهت إلى الغرب ، لم يكن الغرض منها ، سوى أن يكون ريموند زوجاً لأليس . غير أنه حينما قدم ريموند إلى أنطاكية فى أواخر سنة ١١٣٦ ، تزوج ابنتها ، وأعلن ولاءه للبطريرك ، فلم يسعها إلا الانسحاب إلى اللاذقية ؛ وعزمت على مقاومة ريموند بكل ما لديها من وسائل[3] .

ولم يلبث النزاع أن وقع بين البطريرك رالف وريموند أمير أنطاكية ، الذى انحاز إلى خصوم البطريرك . وساد أنطاكية من الانقسامات السياسية والدينية ، ما عرضها لتهديد زنكى ، وما أدى إلى استيلاء الباطنية على بعض حصونها ، وإلى سقوط مامسترا وأدنه وطرسوس فى يد ليو الأرمنى ١١٣٦[4] .

---

(١) Grousset : op. cit II. p. 36.
William of Tyre : op. cit II. p. 59

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 436.
Runciman : History of the Crusades II. pp. 198 - 199.

(٣) Runciman : op. cit. II. pp. 199-200
Grousset : op. cit. II. pp. 39-40.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 78 - 79.

(٤) Runciman : History of the Crusades II. p. 200.
Grousset : op. cit. II. p. 52.

فما كاد زنكى يفرغ من ثورات العراق التى استمرت من سنة ١١٣١ ، إلى سنة ١١٣٥ ، حتى استأنف من جديد القتال ضد الفرنج فى الشام ، فاستولى فى سنة ١١٣٥ على الأثارب ، وزردانه ومعرة النعمان وكفر طاب ، وهى مدن بالغة الأهمية لأنطاكية ، ولم يجد مقاومة من قبل الفرنج . والواضح أن عرش أنطاكية كان شاغراً وقتذاك ، فلم يتزوج ريموند بواتييه من الأميرة كونستانس إلا سنة ١١٣٦[١] . وتعرضت أنطاكية فى تلك الأثناء لغارة عنيفة من قبل سوار نائب زنكى على حلب ، فامتدت الغارة فى أملاك أنطاكية حتى بلغت اللاذقية (أبريل سنة ١١٣٦) ، ووقع فى أيدى المغيرين غنائم ضخمة .

وإذ حرص زنكى على توحيد القوى الإسلامية ، والإفادة منها فى طرد الصليبيين ، حاول سنة ١١٣٧ ، انتزاع حمص من يد أميرها معين الدين أنر ، غير أنه لم يلبث أن رفع الحصار ، حينما قدمت أمداد من الفرنج لمساندته ، فتوجه زنكى لنزال حصن بعرين من أملاك طرابلس ويقع على أطرافها[٢] ، وعندئذ استنجد ريموند الثانى ، كونت طرابلس بالملك فولك ، غير أنه حدث فى الوقت ذاته ، أن استنجد بفولك أيضاً ، ريموند بواتييه أمير أنطاكية ، التى تعرضت لتهديد الإمبراطور البيزنطى (١١٣٧)[٣] . وبذا صارت أنطاكية معرضة للخطر البيزنطى ، بينما تعرضت طرابلس لتهديد زنكى ، وكان لزاما على فولك أن ينهض لمساعدة الإمارتين ، لما يربطه بهما من صلة القرابة ولما تفرضه عليه من الالتزامات سيادته على الإمارتين ، وتقرر أن يوجه اهتمامه أولا

---

(١) Grousset : op. cit. II. p, 63.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 70.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 71.
William of Tyre : op. cit. II. p. 85.

إلى إنقاذ طرابلس ، ثم يجرى بعدئذ المفاوضات مع البيزنطيين[١] . على أن زنكى وجه هجوما مفاجئا لقوات فولك وريموند أمير طرابلس ، القادمة لإنقاذ بعرين ، ودارت معركة حامية ، أسفرت عن هزيمة الفرنج ، واحتمى ملوكهم بحصن بعرين ، فحصرهم المسلمون ، ومنع زنكى عنهم كل شيء ، فانقطعت صلتهم ببلادهم ، لشدة ضبطه الطرق وسلطانه على جنوده[٢] . ومع ذلك توجهت الرسل إلى جوسلين الثانى كونت الرها ، وريموند بواتييه أمير أنطاكية ، وإلى بيت المقدس ، تطلب إليهم النهوض لإنقاذ الملك ورفاقه ؛ وأعلموهم أن زنكى « إن أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج ، ملك جميع بلادهم فى أسرع وقت لعدم المحامى عنها »[٣] . على أن زنكى لم يلبث أن أعطى الأمان لمن فى الحصن ، مقابل تسليم الحصن له ، ودفع خمسين ألف دينار[٤] .

والواقع أن من العوامل التى جعلت زنكى يقبل هذه الشروط ما ترامى إليه من أنباء قدوم حملة بيزنطية إذ ظهر الإمبراطور حنا كومنين أمام أسوار أنطاكية فى ٢٩ أغسطس سنة ١١٣٧ . والواضح أن السبب المباشرة لإثارة الدعاوى البيزنطية فى أنطاكية من جديد ، يرجع إلى ما بلغه من أنباء زواج كونستانس أميرة أنطاكية من ريموند بواتييه ، بدلا من ابنه مانويل[٥] . وانزعج ريموند بواتييه لما وقع من الاضطراب فى أنطاكية ، ولم يكن يأمل فى قدوم أمداد من خارج المدينة ، ولم يكن

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 71.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٣ .

William of Tyre : op. cit. II. pp. 87-88, 91-92.

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٤ .

William of Tyre : op. cit. II. p. 91.

Grousset : op. cit. II. p. 92.

(٥) Runciman : History of the Crusades II. p. 212.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ .

=

مطمئنا إلى سلوك السكان بداخل الأسوار . فلم يسعه إلا أن يلتمس الصلح ، وأرسل بكتاب إلى الإمبراطور البيزنطى ، يعرض عليه ، أن يعترف به سيدا على أنطاكية ، على أن يكون نائبا عنه فى حكمها . غير أن الإمبراطور أصر على أن يستسلم بدون قيد أو شرط ، فأرسل ريموند إلى فولك يستشيره باعتباره السيد الأعلى للفرنج ، ولم يكن رد فولك عليه يحمل شيئا من الأمل ، إذ أشار إلى « أننا جميعا نعلم ، وأن شيوخنا لقنونا منذ زمن طويل ، أن أنطاكية شطر من إمبراطورية القسطنطينية ، حتى استولى عليها الترك ، فظلت فى أيديهم أربع عشرة سنة . وما يزعمه الإمبراطور البيزنطى من الدعاوى فى امتلاك هذه المدينة ، تعتبر صحيحة وسليمة ، فهل يجوز أن ننكر الحق ، ونعارض ما هو صواب »[1] .

ولم يسع ريموند بواتييه إلا أن يسير إلى معسكر الإمبراطور ، وأن يحلف له يمين الولاء والتبعية فيصير بذلك تابعه ، وأن يسمح للإمبراطور بالدخول إلى المدينة والقلعة . يضاف إلى ذلك أنه متى استولى البيزنطيون ، بمساعدة الفرنج على حلب ، وما يجاورها من البلاد ، أعاد ريموند أنطاكية إلى بيزنطة ، وحصل مكانها على إمارة مؤلفة من حلب وشيزر وحماه وحمص . وعندئذ لم يصر الإمبراطور على دخول أنطاكية ، واكتفى برفع لواءه عليها[2] .

= اشتهر حنا كومنين فى المصادر العربيـة باسم كياليانى Kaloioannaies ، ومعناه المحب للخير . انظر Runciman : op. cit. II p. 208.

Michel Le Syrien III. p. 45.

(١) Runciman : History of the Crusades II, p. 213.

Cahen : op. cit. pp. 359-360.

Grousset : op. cit. II. pp. 95-96.

Chalandon : Les Comnenes II. p. 131.

(٢) Runciman : History of the Crusades II p. 213.

Grousset : op. cit. II. pp. 97-98.

علاقة بيت المقدس مع دمشق :

اقتصرت الحروب ضد دمشق ، على ما دارمن مناوشات على الحدود ، ترتب عليها استيلاء الأتابك إسماعيل الذى خلف بورى على الحكم ، على بانياس فى ديسمبر سنة ١١٣٢ . ولما أنفذ الفرنج حملة إلى بصرى ، أغار الأتابك إسماعيل على طبرية ، كيما يجبرهم على الانسحاب ، سبتمبر ١١٣٤ ، وانعقدت بين دمشق وبيت المقدس ، هدنة ، فى اكتوبر سنة ١١٣٤[١] . والمعروف أن فولك لم يحفل كثيرا بأنطاكية بعد أن تزوجت أميرتها من ريموند بواتييه[٢] .

على أنه وقع حدث خطير سنة ١١٣٥ ، ذلك أن إسماعيل أتابك دمشق أراد أن يتنازل عن حكومة دمشق إلى زنكى ، ولم يمنعه عن ذلك إلا معين الدين أنر ، الذى اشتهر بالبسالة والإقدام ، فحفظها لأخيه محمود[٣] . ولم يسع زنكى إلا الانسحاب ، غير أنه لم يتخل مطلقا عن مشروعاته وخططه عن دمشق . ففى سنة ١١٣٧ ، حاصر زنكى حمص ، وإذ تتبع فولك ، منذ أن تولى العرش ، تدابير زنكى ، عزم على أن يغير ما اتبعه الفرنج من سياسة ، التى ترمى إلى أنه لا يشرع فى الاستيلاء على دمشق إلا بعد تدمير الأمير التركى ، بل أن الأمير العاقل هو الذى يفكر فى أن يبذل لدمشق من المساعدة ما يجعلها تحافظ على استقلالها[٤] . وما قام به زنكى من غارات على أملاك دمشق ، هيأ الفرصة للملك فولك ، لأن يجرى تحالفا مع دمشق والإمارات الإسلامية الصغيرة ، لدرء خطر زنكى[٥] .

---

(١) Richard : op. cit. p. 44.

(٢) Richard : op. cit. p. 44.

(٣) Richard : op. cit. p. 44.

(٤) Richard : op. cit. p. 45.

(٥) Grousset : op. cit. II. p. 128.

وترتب على اغتيال شهاب الدين محمود ١١٣٩ ، أن تولى مقاليد أمورها أنر الذى صار مسئولا عن توجيه سياسة دمشق[١] .

ولما أدرك أنر إصرار زنكى على الاستيلاء على دمشق ، رأى أنه توافر لديه من الدواعى والأسباب ، ما يجعله يلتمس المساعدة من الصليبيين ضد زنكى[٢] . ولم يكن فولك بأقل حرصا على بذل المساعدة ، وقبول التحالف ، بعد أن ساء الموقف بشمال الشام منذ أيام سلفه بلدوين الثانى ، فلم يكن له من السلطة بشمال الشام مثلما كان لبلدوين ، ومع ذلك كان مركزه وطيدا فى دولته وأملاكه . وأدرك أن الفرنج لن يعيشوا آمنين متى ظلوا على عدائهم وكراهيتهم للمسلمين ، فينبغى التماس صداقة من كان منهم أقل خطرا . وحمل فولك نبلاءه على أن يتبعوا هذه السياسة ، ومن نتائجها التحالف الذى انعقد بين الفرنج فى بيت المقدس ودمشق سنة ١١٣٩[٣] .

والمعروف أنه حدث فى أوائل سنة ١١٣٨ ، أن ارتحل أسامة بن منقذ ، من قبل أنر إلى بيت المقدس للتشاور فى أمر الوصول إلى إقامة تحالف بين دمشق وبيت المقدس . على أن ما عرضه من اقتراحات لم تصادف وقتذاك القبول . ولما اشتد ضغط زنكى ، وأحس فولك بخطورته وتهديده لمملكته ، انعقد مجلس المملكة وساد الشعور بأنه لابد من قبول مقترحات دمشق[٤] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 226.
Grousset : op. cit. II. p. 128.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 227.

(٣) Ibid : op. cit. II. pp. 227-228

(٤) Runciman : History of the Crusades II. p. 227.
Grousset : op. cit. II. p. 131.
Derenbourg : Vie d' Ousama I. p. 173.

وتوجه أسامة مرة أخرى ، أوائل سنة ١١٤٠ ، قبيل وفاة الأتابك محمد ، إلى عكا لمواصلة المفاوضات مع الفرنج بشأن التحالف ، ويشير أسامة إلى أن أول ما اتخذه من إجراء للتقارب بين الجانبين ، التفاوض فى افتداء الأسرى المسلمين ، ولتحقيق هذا الغرض تردد أسامة مرات عديدة على عكا ، من قبل معين الدين أنر(١) .

وقرر أنر ، بعد أن اشتد تضييق زنكى على دمشق ، أن يتم التحالف مع فولك ملك بيت المقدس . وشرح فولك لنبلاء المملكة الاقتراحات التى انتهى إليها المندوبون عن الدولتين ، وتقرر الموافقة عليها ، وبذل المساعدة لدمشق « لأنه متى ازدادت قوة زنكى بسبب ركودنا وجمودنا ، فإنه سوف يستولى على تلك المملكة ، دمشق ، ويستخدم قوتها ضدنا »(٢) . والواضح أن زنكى كان وقتذاك يسيطر على الموصل ، وحلب ، وحماه ، وحمص ، وبعلبك ، فإذا أضاف إليها دمشق ، تتحد سوريا تحت سلطانه ، ولن تلبث أملاك الصليبيين أن تقع فى يده(٣) . وعرض أنر أن يؤدى للملك فولك مقابل مساعدته له ، عشرين ألف دينار كل شهر ، لسد نفقات الحرب ، وأن يعيد إليه بانياس التى فقدها الفرنج سنة ١١٣٢ ، وأضحت من أملاك دمشق ، ثم انتزعها زنكى سنة ١١٣٧ ، وجعلها إقطاعا لأحد أتباعه . وأدرك أهل دمشق أن بقاء هذه المدينة (الحصن) فى يد نائب زنكى ، يجعل تطويق دمشق تاما ومحكما ، ولضمان تنفيذ

---

(١) Derenbourg : op. cit. I. p. 182-183.
Ibid : Autobiographie d' Ousama p 410, 411.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. pp. 106-107.
Grousset : op. cit. II. p. 132.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 132.

هذه الاتفاقية ، وافق أنر على أن يقدم للملك فولك عددا من الرهائن من أبناء الأعيان يجرى الاتفاق عليه[1] .

وكان لهذا الاتفاق أثره فى أن زنكى رفع الحصار عن دمشق ، وانسحب إلى بعلبك ، فى أبريل سنة ١١٤٠ ، وبذلك زال الخطر عن دمشق ، وبادر أنر بعد استيلائه على بانياس ، إلى تسليمها إلى فولك وفقا لما تم عليه الاتفاق[2] .

وزاد من قوة التحالف وتدعيمه ، ما قام به أنر وبصحبته أسامة ، من زيارة فولك فى عكا ، فلقيا استقبالا حافلا ، ثم توجها إلى حيفا وبيت المقدس ، ثم عادا إلى دمشق ، عن طريق نابلس وطبرية . وأظهر فولك رغبته الخالصة فى التماس صداقة الدماشقة ، ودلّ على ذلك منعه صاحب بانياس من الإغارة على قطعان سكان دمشق ، والزامه بدفع تعويض عن الخسائر التى لحقت بهم[3] .

سياسة فولك الداخلية :

على الرغم من أن فولك حرص على التفاهم مع المسلمين ، ولا سيما فى دمشق ، وحمل نبلاءه على أن يتبعوا سياسته ، بأنه بذل جهدا كبيرا

---

(١) Grousset : op. cit. II. pp. 123-133.
William of Tyre : op. cit. II pp. 105-106.
Runciman : op. cit. II. p. 227.
Ibid : op cit. II. p. 228.

(٢) Grousset : History of the Crusades II. pp. 132-137.
William of Tyre : op cit. II. pp. 106-110.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 228.
Grousset : op. cit. II. pp. 139-142.
Dernbourg : Vie d' Ousama. I pp. 187-188.
Autobiographie d' Ousama p. 97, 160-165.

فى تشييد استحكامات للدفاع عن البلاد . فشيد سنة ١١٤٠ حصن صفد ، بأعلى طبرية ، ويعتبر من أهم مواقع الفرنج الواقعــة بين عكا والأردن ويواجه جسر بنات يعقوب ، على الطريق الممتد من عكا إلى دمشق[١] . فالحصنان القائمان فى بانياس وصفد ، توليا حماية الحافة الشرقية من الجليل ، ابتداء من بحيرة طبرية إلى هضبة هرمون[٢] .

وتقرر أيضاً تشييد ثلاثة حصون ضخمة فى الطرف الجنوبى لمملكة بيت المقدس ، لمواجهة ما يشنه المصريون من الغارات من عسقلان . فنى يبنه ، الواقعة على مسافة عشرة أميال ، إلى الجنوب الغربى من اللد ؛ وفى موضع تتوافر به المياه ، ويسيطر على ملتقى الطريقين من عسقلان إلى يافا ومن عسقلان إلى الرملة ، أقام فولك حصنا منيعا ، وبذله لباليان الكبير ، وانتقل إلى أبنائه من بعده ، ومنه اتخذوا لقبهم « ابلين Ibelin »[٣] . وكان باليان منتميا إلى أمراء يافا ، وحظى برضى فولك ، لمساندته له فى مقاومة خصمه هيولى بيزيه Hugh le Puiset ، وتعتبر أسرته من أشهر الأسرات الأرستقراطية فى الشرق زمن الصليبيين[٤] .

وإلى الجنوب من يبنه ، قام على حراسة الطريق الممتد من عسقلان إلى بيت المقدس ، حصن Blanchegard ، الواقع على التل المعروف باسم تل الصافية[٥] ، وازدان بأربعــة ابراج ، ومنه يجرى مراقبة

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 138.

(٢) Ibid : Loc. cit.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 229.
Grousset : op. cit. II. pp. 154-155.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 130-131.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 229.

(٥) Ibid: op. cit. II. p. 229.
Grousset : op. cit. II. p. 156.

ما يحدث فى عسقلان . وجعل الملك فولك هذا الحصن تحت حمايته ، فتوافرت به المؤن والأسلحة ، وعهــد به إلى رجال اشتهروا بالتجربة وممارسة الحروب ، فضلا عن ولائهم للملك . ومن أشهرهم أرنولف الذى يعتبر من أغنى وأقوى بارونات مملكة بيت المقدس[1] .

أما الحصن الثالث فتم تشييده فى بيت جبرين Gibelin ، القرية التى أطلق عليها الصليبيون خطأ ، اسم بير سبع ؛ ويسيطر هذا الحصن على الطريق الممتد من عسقلان إلى حبرون وتولى أمره الفرسان الاسبتارية[2].

والواضح أن هذه الاستحكامات قامت لمنع غارات المصريين المرابطين فى عسقلان ، والمعروف أن الحامية المصرية فى عسقلان يجرى تغييرها وتموين الحصن كل ثلاثة شهور ، واقترن هذا التغيير عادة بالإغارة على الأملاك الصليبية[3]. على أن هذه الاستحكامات لم تلبث أن أصبحت عاملا فى توطيد الأمن بهذه الجهات ، فنشأ حولها أرباض وضواح كثيرة ، أقام بها أسرات عديدة ، وفلاحون مهرة ، فتوافرت المؤن بهذه الجهات[4] ، وصارت مراكز للإدارة المحلية[5] . ومع ذلك لم تتوقف هجمات القوات المصرية على الفرنج ، ففى سنة ١١٤١ ، تعرضت قوة عسكرية صليبية للهجوم على ساحل شارون ، وحلت بهم هزيمة ساحقة[6] .

واتخذ فولك أيضا من الإجراءات ما يزيد فى سلطانه ونفوذه على الجهات الواقعة شرقى البحر الميت وجنوبه . فالواضح أن اقطاع الشوبك

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. 229.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. pp. 132.
Grousset : op. cit. II. p. 157-158.

(٣) Grousset : op. cit. II. pp. 154-155.
William of Tyre : II. pp. 80-81.

(٤) William of Tyre : II. p. 132.

(٥) Runciman : op. cit. II. 229.

(٦) Runciman : op. cit. II. p. 229.

Montreal ، الذى كانت نواته الأولى ، واحة ايدوم ، لم يلبث أن ازداد نموا واتساعا ، هيأ للفرنج سيطرة لا حد لها على طرق القوافل القادمة من مصر إلى بلاد العرب والشام ، ومع ذلك كانت القوافل الإسلامية تجتاز الطرق فى أمن وطمأنينة ، ولا زالت الطرق مفتوحة أمام القادمين من الصحراء إلى يهودا[١] .

والمعروف أن الجهات الواقعة شرقى الأردن جعل منها بلدوين الأول إقطاعا بعد إنشاء حصن الشوبك سنة ١١١٥ ، ثم أقطعه سنة ١١١٨ إلى رومان لى بوى Roman of Le Puy . وإذ جرى اتهام رومان وابنه راءول بالخيانة لمساندتهما هيو لى بيزيه الذى خرج على طاعة الملك فولك ، تقرر سنة ١١٣٢ ، نزع الشوبك وشرق الأردن منهما ، ومنح هذا الإقطاع إلى باجان Pagan ، الساقى ، وهو من كبار موظفى البلاط . ولما اشتهر به باجان من الكفاية والمهارة والإدارة ، حاول أن يزيد من سلطانه وسيطرته على إقطاعه الكبير ، واستطاع أن يضبط الإقليم الواقع جنوب بحر الميت[٢]. وفى سنة ١١٤٢ أقام باجان حصنا جديدا فى مواب (العرابة) ، هو المعروف بحصن الكرك ، لحماية إقطاعه من الهجمات التى يتعرض له من جهة الشرق ، والشمال الشرقى[٣] . والراجح أن باجان نقل مركز قيادته من الشوبك فى ايدوم إلى مواب ، كيما يسيطر على الطرف الشمالى ، والطرف الجنوبى للبحر الميت . وأصبح هذا الحصن يسيطر على طرق القوافل التى تسير من مصر وغربى بلاد العرب ، إلى الشام ، ولم يكن بعيدا عن مخاضات الحوض الأدنى لنهر الأردن[٤] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. pp 229-230.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 230.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 160.

(٤) Runciman : op. cit. I. p. 230.

Grousset : op. cit. II. p. 160.

وحرص باجان على أن يعزز الحامية المرابطة فى قلعة أيلة ، التى أنشأها بلدوين الأول ، ليشرف على خليج العقبة ، وأنزل أيضا حامية فى الحصن الواقع بوادى موسى ، قرب البتراء القديمة[1] .

وهذه القلاع بالإضافة إلى الشوبك والكرك ، جعلت لأمير شرق الأردن السيادة والسيطرة على ايدوم ومواب ، واشتهرت أراضيهما بالخصوبة وإنتاج القمح ، فضلا عن السيطرة على ملاحات البحر الميت. يضاف إلى ذلك أن القبائل البدوية ظلت تمارس حياتها فى الصحارى الخاضعة لسلطان أمير هذه المنطقة ، وتؤدى له الإتاوة من حين إلى آخر[2] .

واستتب الأمن بداخل المملكة زمن فولك ، فلم يكن الطريق الممتد بين يافا وبيت المقدس مأمونا ، فطالما تعرض لهجمات قطاع الطرق ، الحجاج والمؤن عند اجتيازها الطريق إلى بيت المقدس . فتقرر تشييد قلعة عند بيت النوبة ، عند الموضع الذى يأخذ فيه الطريق القادم من اللد ، فى الصعود إلى التلال ، فتيسر بذلك حراسة الطريق . ومنذ أن تم تشييد الاستحكامات على الأطراف المتاخمة لمصر ، لم يتعرض المسافرون للهجوم ، عند رحيلهم من الساحل[3] .

وسار فولك فى سياسته التجارية على نهج أسلافه ، فحافظ على حقوق المدن الإيطالية التى أخذت وقتذاك تسيطر على ما يصدر من الإقليم من

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 230.

Rey : Le Seigneurs de Montreal et de la Terre d' Outre. Jourdain, in Revue de L' Orient Latin vol. IV. p. 19 ff.

(٢) Runciman : op. cit II p. 230.

(٣) Runciman : op. cit. I. p. 231.

المتاجر ، غير أنه لم يجعل لمدينة من المدن الإيطالية ، احتكارا خاصا بها . ففى سنة ١١٣٦ ، عقد فولك معاهدة مع تجار مارسيليا ، وبمقتضاها تقرر اعفاؤهم من المكوس والرسوم ، وسمح لهم بأن يمتلكوا شارعا وكنيسة وفرنا ، فى بيت المقدس ، وعكا ، وسائر موانى المملكة ، ووعد بأن يخصص سنويا من خراج يافا أربعمائة دينار ، للانفاق منها على المؤسسات التى أنشأتها فيها مرسيليا[١] .

أما حكومة فولك فى بيت المقدس ، فيتبين من الإشارات القليلة عنها ، أن البارونات أخلصوا فى تأييد الملك ، ولا سيما بعد أن قمع الفتنة التى أثارها هيولى بيزيه ، وبعد أن كبح جماح الملكة مليسند ، التى انصرفت إلى القيام بالأعمال الصالحة ؛ واستمرت العلاقات الودية بين فولك والكنيسة[٢] .

وفى سنة ١١٤٣ مات فولك ، بعد أن هوى من فرسه أثناء ركضه بجهات عكا ، فبادرت مليسند إلى تولية الحكم ، إذ لم يبق من ذريتها من فولك إلا ولدان ، وهما بلدوين (الثالث) وعمره ١٣ سنة ، وأملريك الذى لم يتجاوز عمره سبع سنوات[٣] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 231.
Heyd : Historie du Commerce du Levant I. p. 147.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 231.
William of Tyre : op. cit. I. pp. 132-134.
Grousset : op. cit. II. pp. 160-162.

ابتاعت مليسند ، سنة ١١٤٣ ، من كنيسة القيامة ، قرية بيتانى ، مقابل التنازل عن بعض الضياع قرب حبرون ثم شيدت بهذه القرية ديرا ، كرسته باسم القديس لازار وأخيه مارتا وماريا ، وأوقفت عليه جرش بحدائقها ومزارعها ، وجعلت رئاسة هذا الدير لأختها يوفيتا . (Runciman : op. cit. II. p. 232).

(٣) Runciman : op. cit' II. p. 231.
Grousset : op cit II. pp. 160-164.
William of Tyre : II. pp. 134-135.

المعروف أن فولك ولى الحكم باعتباره زوجا للملكة ، فلا زالت حقوق مليسند فى الحكم قائمة . ولما حرص البارونات على ألا تنفرد مليسند بالحكم ، أشركت معها ابنها بلدوين ، غير أنها مارست فعلا إدارة الحكومة ، ولم يكن ذلك مخالفا للقواعد الدستورية . ومع ذلك أصاب الملكية ضرر كبير ، ذلك أن مركز ملك بيت المقدس ، باعتباره سيدا على الإمارات الصليبية ، لم يكن ثابتا زمن فولك ، من الناحية العملية ، على الرغم من إقراره من الناحية النظرية . فالواضح أن أمراء الشمال لم يحفلوا بعد وفاة فولك ، بسلطة امرأة وطفل ، فلم يكن بوسع الملكة أو الملك الطفل ، أن يبادر إلى تسوية المنازعات التى نشبت بين أمراء الشمال(١) .

أنطاكية :

لم تختلف سياسة تانكرد فى أنطاكية عن السياسة التى رسمها بوهمند . ففى الناحية الداخلية حرص تانكرد على تدعيم الإدارة ، وتوطيد السلطة ، وفرض الصفة اللاتينية على كنيسة أنطاكية ، بعد أن تقرر تنصيب بطريرك لاتينى ، وعزل البطريرك اليونانى . وفى الناحية الخارجية أراد أن ينمى ثروته وموارده ، على حساب بيزنطة والأمراء المسلمين المجاورين . على أن أطماعه كانت محلية ، وهذا هو وجه الاختلاف بين سياسته وسياسة بوهمند ، التى تجاوز فى أطماعه حدود إمارته(٢) . ففى نهاية سنة ١٠٩٩ ، ساد الاعتقاد عند المعاصرين المهتمين بما وقع من أحداث الحرب الصليبية الأولى ، بأن أنطاكية ينبغى أن تكون عاصمة المسيحية اللاتينية فى الشرق ، لأنها تقع فى إقليم خصيب ، ولأن بوهمند يعتبر أعظم رجال عصره ،

---

(١) Runciman : op. cit II. p. 231.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 31.

وأكثرهم عبقرية . ولمـا قدم بوهمند إلى بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ، قاد جيشا مؤلفا من ٢٥ ألف مقاتل ، معظمهم من النرمان[١] .

وأول ما فكر فيه تانكرد ، بعد أن تولى الوصاية على أنطاكية ، بسبب وقوع بوهمند فى الأسر ، أن يدرأ خطر البيزنطيين ، الذين لا زالوا يعتبرون أن أنطاكيـة من أملاكهم ولابد من استردادها ، وأفاد تانكرد من أحداث حملة سنة ١١٠١ ، وإفاقة الترك فى آسيا الصغرى[٢] .

والمعروف فى الغرب المسيحى ، بعد قيام الإمارات اللاتينية ، الرها ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، أن الحاجة ماسة إلى محاربين ومستعمرين ليواصلوا ما قام به الصليبيون من جهود ، وأن بالشرق من الثروة والضياع الشاسعة ، ما ينتظر قدوم المغامرين . وتألفت هذه الحملة من عناصر مختلفة ، فانضم إليها الألوف من اللومبارديين والفرنسيين والألمـان والبيزنطيين ، بل من أتراك مأجورين . وانحاز إليها وليم التاسع كونت بواتييه ، وأول شعراء التروبادور ، وفريق من الذين اشتركوا فى الحملة الأولى ولم يبلغوا بيت المقدس ، أمثال ستيفن كونت بلو ، وهيو فرماندوا[٣] .

تولى قيادة الحملة بعد عبور البوسفور ، ريموند كونت تولوز ، وكان الغرض منها تلبية رجاء الصليبيين فى الشرق ، وطلبهم المساعدة

---

(١) باركر : الحروب الصليبية ، ترجمة العرينى ، ص ٤٧ – ٤٨ .

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 33.

Grousset : op. cit. I. p. 384.

Cahen : La Syrie du Nord p. 233.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. pp. 18.

Grousset : op. cit. pp. 323.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤ .

والجند[١] . والواضح أن هذه الحملة لا بد أن تجتاز فى طريقها آسيا الصغرى ، فلقيت التأييد من الإمبراطور البيزنطى . على أن اللومبارديين أصروا على توجيه الحملة لإنقاذ بوهمند أمير أنطاكية ، وإطلاق سراحه من حبسه فى نقصار ، فى أقصى الشمال الشرقى لآسيا الصغرى ، بعد أن وقع فى أسر كمشتكين الدانشمندى سنة ١١٠١ ، واستجاب الفرنسيون لرغبة اللومبارديين لكثرة عددهم[٢] . على أن التحالف بين سلطان السلاجقة قلج أرسلان ، والملك غازى الدانشمندى ، ورضوان أمير حلب ، وقراجا أمير حران ، أدى إلى إلحاق الهزيمة بالصليبيين سنة ١١٠١ ، فى منتصف الطريق بين نهر هاليس وأماسيا ، فهلك معظم الصليبيين ، ولجأ من بقى من فرسانهم إلى القسطنطينية[٣] .

حرص الإمبراطور البيزنطى ، الكسيوس كومنين ، على أن يفيد من الصليبيين فى السيطرة على الطريق المؤدى إلى سوريا ، لتأمين البلاد التى فتحها فى جنوب شرقى آسيا الصغرى ، وكيما يتيسر له التدخل فى شئون الشام ، ويتجنب عداء الدانشمنديين ، فتوسط فى إطلاق سراح بوهمند[٤] .

على أن الهزيمة التى حلت بالصليبيين أدت إلى نتائج بالغة الأهمية ؛ منها أن السلطان السلجوقى استرد سلطانه فى وسط آسيا الصغرى ،

---

(١) Cate : « The Crusade of 1101" in Setton : History of The Crusades. I. p. 352.

(٢) Chalandon : Earlier Comneni. Camb. Med. Hist IV. p. 340.
Runciman : History of The Crusade II. p. 21.
Cate : The Crusade of 1101" p. 352.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 23.
Oate : "The Crusade of 1101" p. 355.

(٤) Runciman : History of the Crussdes II. p. 31.

واتخذ عاصمته فى قونية ، على الطريق الرئيسى الممتد من القسطنطينية إلى الشام ، وامتدت غارات غازى الدانشمندى إلى نهر الفرات ، وبلغت أطراف الرها . فأصبح الطريق الذى يجتاز آسيا الصغرى ، موصدا مرة أخرى فى وجه الصليبيين والبيزنطيين . يضاف إلى ذلك أن ساءت العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين الذين اعتبروه مسئولا عن الكارثة التى وقعت بهم ، بينما أنكر الكسيوس عليهم أنهم لم ينفذوا خططه . ومن هذه النتائج أيضاً أن اطمأن النرمان فى أنطاكية ، فاغتنم تانكرد الفرصة لتدعيم ممتلكات أنطاكية على حساب الإمبراطور البيزنطى ، فألقى القبض على ريموند عند اجتيازه اللاذقية فى طريقه إلى بيت المقدس[١] ؛ ولم يطلق سراحه إلا بعد أن أقسم أنه لن يتدخل فى أحوال شمال الشام[٢] .

وأدرك تانكرد أن الإمبراطور البيزنطى ليس مستعدا لأن يغامر بإرسال جيش عبر آسيا الصغرى ، فأخذ يناوئهم فى قليقية سنة ١١٠١ ، وانتزع منهم مامسترا وأدنة وطرسوس[٣] . ثم وجه تانكرد اهتمامه إلى اللاذقية ، التى تعتبر من أمنع المواقع وأكثرها أهمية ، لما تتلقاه حاميتها البيزنطية من أمداد من جيوش ريموند ، ولما يبذله الأسطول البيزنطى من الحماية لها . واستطاع تانكرد آخر الأمر ، سنة ١١٠٣ ، بفضل مساعدة السفن الجنوية ، وبعد أن ساء موقف الكسيوس وريموند فى حملة سنة ١١٠١ ، أن يستولى على اللاذقية ؛ وزاد من كراهية الفرنج للبيزنطيين ، ما لقوه من تأييد البابا باسكال الثانى لهم فى اعتبار

---

(١) Ibid : op. cit. II. p. 34.

(٢) Grousset : op. cit. I. pp. 384-385.

(٣) Runciman : History of The Crusades. II. 33.
Grousse : op. cit. I p. 384.
Cahen : La Syrie du Nord. p. 233.

البيزنطيين أعداء لهم ، على حين أن سياسة ايربان كانت ترمى إلى الوفاق مع الإمبراطور البيزنطى[١] .

وما حازه تانكرد من انتصـــار فى الشمال ، جعل له من الشهرة والأهمية ، ما هيأ له الفرصة للتدخل فى أمور فلسطين . فحينما طلب بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، من تانكرد أن يسانده ويساعده ، بعد أن أنزل به عساكر الفاطميين بمصر ، الهزيمة الساحقة فى الرملة فى خريف سنة ١١٠٢ ، اشترط تانكرد ، مقابل ذلك ، إعادة دايمبرت إلى بطريركية بيت المقدس ، ووافق بلدوين على ذلك . والمعروف أن دايمبرت لجأ إلى أنطاكية فى مارس سنة ١١٠٢ ، بعد عزله من منصبه ، غير أن دايمبرت لم يمكث فى منصبه سوى أسابيع قليلة ، تقرر بعدها عزله ، فلجأ إلى أنطاكية[٢] .

على أن أنطاكية لم تعان كثيراً من الكارثة التى أدت إلى أسر بوهمند ، غير أنه من المحقق أن حلب أفادت من ذلك ، إذ زال عنها الخطر الذى كان يهددها من قبل أنطاكية ، فانسحب النرمان من الجهات التى انتزعوها من حلب ، واستولى رضوان أمير حلب على ما ادخره النرمان من الحنطة والحبوب فى هذه المواضع ، وعسكر بالقرب من سرمين ، على حين أن جناح الدولة أمير حمص انتزع من الفرنج حصن أصفون ، الواقع إلى الغرب من سرمين[٣] . وما كان من الاختلاف بين العناصر التركية التى يمثلها رضوان ، والعناصر العربية التى يمثلها جناح الدولة ،

---

(١) Runciman : op. cit. II. pp. 34-35.

(٢) Fink : The Foundation of The Latin States p. 388.
Runciman : op. cit II. p. 36.
Grousset : Histoire des Croisades I. p. 386.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤١

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 386.

وما اقترن به من الاختلاف المذهبى ، بأن تشيع رضوان للباطنية ، على حين أن جناح الدولة كان من أهل السنة ، كل ذلك حرم على حلب من أن تكون مركزاً للجهاد ضد الصليبيين ، وعطلها عن مقاومة الفرنج[١] .

لم تكن العلاقات ودية بين تانكرد وبلدوين لى بور ، الذى تولى كونتية الرها ، بعد اختيار بلدوين ملكا على بيت المقدس . إذا أن الرها كانت دائماً فى أشد الحاجة إلى المساعدة ، نظراً لتعرضها للغزو ، بسبب افتقادها إلى حدود طبيعية ، ولما لم يتوافر بالرها عدد كبير من عساكر الفرنج ، تحتم على بلدوين أن يجتذب إليه المسيحيين الوطنيين ، ومعظمهم من الأرمن ، فتزوج منهم ، وحرص على أن يوفق بين الأرمن على اختلاف مذاهبهم الدينية ، كيما يفيد من خدماتهم الحربية ، وما يبتزه منهم من الأموال[٢] .

وازدادت مخاوف بلدوين كونت الرها من مطامع تانكرد ، فسعى إلى إطلاق سراح بوهمند ، ودارت المفاوضات مع الأمير الدانشمندى ، الذى وافق آخر الأمر ، على أن يطلق سراح بوهمند فى مايو سنة ١١٠٣ ، مقابل بذل ١٠٠ ألف دينار[٣] . وفى أثناء ذلك استولى الدانشمند على ملطية ، التى تم بها تسليم بوهمند إلى الفرنج . واشترك فى دفع الفدية ، بلدوين

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 386-387.

(٢) Runciman : History of The Crusades II. pp. 36-37.
Grousset : op. cit. I. pp. 388-391.
William of Tyre : op. cit. I. pp. 450-451.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 38.
William of Tyre : op. cit. I. pp. 451-452.
Grousset : op. cit. I. pp. 396-399.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٣٧ .

كونت الرها ، وبرنارد بطريرك أنطاكية ، وكواسيل الأرمنى ، وأقارب بوهمند فى إيطاليا ، ولم يسهم تانكرد فى ذلك ، فلما عاد بوهمند إلى أنطاكية ، لم يترك لتانكرد إلا مدينتين صغيرتين ، وبذا أذل كبرياء هذا الزعيم النورمانى ، وقضى على طموحه(١) .

والواقع أن الفرنج بأنطاكية قويت نفوسهم ، بعودة بوهمند ، فلم يكد يستقر ، حتى أرسل إلى أهل العواصم وقنسرين ، وما جاورها من البلاد ، يطالبهم بالإتاوة ، فورد على المسلمين من ذلك ، على حد قول ابن الأثير « ما طمس المعالم التى بناها الدانشمند »(٢) . بأن أغار بوهمند وجوسلين فى صيف سنة ١١٠٣ على بلاد حلب ، وقتلوا بعض أهلها ، وفرضوا إتاوة ، من الأموال والخيول ، لتسديد ما اقترضه بلدوين والبطريرك من المبالغ لدفع فدية بوهمند(٣) .

على أن الصليبين استولوا على بعض الجهات التى كانت أصلا من أملاك الإمبراطور البيزنطى ، فاستولى جوسلين على مرعش ، وانتزع بوهمند البستان(٤) . ولما اطمأن الفرنج على إماراتهم وأمنوها من الأخطار التى تتعرض لها من جهة آسيا الصغرى ، التفتوا إلى مهاجمة المسلمين فى الشرق ، ولا سيما بعد أن تهيأت لهم الأحوال لتحقيق غرضهم ، لما نشب من الحروب الداخلية

---

(١) Fink : The Foundation of the Latin States p.388.
Runciman : History of the Crusedes II. p. 39.
Grousset : op. cit. I. p. 399.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٣٧ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٤٥ – ١٤٦
Runciman : op. cit. II. p. 39.

(٤) Runciman. : op. cit. II. p. 40.
Grousset : op. cit. I. pp. 399-400.

بين الأمراء السلاجقة ، على السلطنة[١] . فأمعن فرسان أنطاكية والرها فى الإغارة على إمارة حلب ، سنة ١١٠٣[٢] .

ولما تمت تسوية المنازعات بين الأمراء السلاجقة سنة ١١٠٤ ، أضحى السلطان محمد السلجوقى يحكم أعالى العراق والجزيرة وله السيادة على ديار بكر والشام ، بينما احتفظ بركياروق ببغداد وغرب هضبة إيران ، واختص سنجر بخراسان وشرق إيران . وترتب على ذلك أن أغفل سكمان بن ارتق أمير ماردين ، وجكرمش أتابك الموصل ما بينهما من خصومة ، لمواجهة خطر الفرنج ، فبادرا بمهاجمة الرها فى مايو سنة ١١٠٤ . ولم يسع أمراء الفرنج إلا أن يتحدوا ، فنهض لمساعدة بلدوين ، بوهمند وتانكرد وجوسلين ، وهاجموا حران ، ليصرفوا أنظار الأمراء المسلمين عن الرها[٣] ، فدارت معركة حامية ، أسفرت عن مصرع عدد كبير من الفرنج ، وامتلأت أيدى التركمان بالأسرى والغنائم ، ووقع فى الأسر بلدوين وجوسلين ، وفرّ تانكرد وبوهمند إلى الرها[٤] .

وترتب على معركة حران نتائج بالغة الأهمية ، منها أنها أوقفت توسع الفرنج جهة الشرق ، فقضت على كل أمل عند الفرنج أن يتوغلوا بالعراق ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

Runciman : History of the Crusades II. p. 40.

(٢) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 389.

Grousset : op. cit. I. p. 401.

(٣) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 389..

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٥٦ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٤٨ .

Grousset : op. cit. I. pp. 404-405.

Fink : "The Foundatin of the Latin States" p. 389.

Runciman : op. cit. II. p. 40.

وحطمت نزوع بوهمند فى أن يجعل من أنطاكية دولة كبيرة ، وأنقذت حلب والمسلمين بشمال الشام ، بأن منعت أنطاكية والرها من قطع طريق الاتصال بين المسلمين فى الشام والعراق وإيران[١] . أما النتائج المباشرة فمنها أن تانكرد صار وصيا على الرها ، بعد أسر بلدوين ، وأضحى بوهمند أقوى أمراء الفرنج بالشمال ، فكأن هذه الكارثة حققت لهما كسباً شخصيا . والواضح أن هذا الوضع لابد أن يضطرب ويتأثر إذا عاد بلدوين لى بور إلى الرها ؛ ولذا أغفل بوهمند وتانكرد أمر افتداء بلدوين ، على الرغم من أن هذا الموضوع أثاره الترك ، وبلدوين ملك بيت المقدس ، فبقى بلدوين فى الأسر نحو أربع سنوات[٢] .

وإذ ابتعد الخطر على حلب من قبل الصليبيين ، أمعن رضوان فى الإغارة على أنطاكية ، ولم ينصرف عنها إلا لحصر دمشق ، ومحاولة الاستيلاء عليها ، بعد وفاة أميرها ، أخيـــه دقاق ، فى يونيه سنة ١١٠٤[٣] .

ومن أهم النتائج التى ترتبت على كارثة حران ، أن الإمبراطور البيزنطى اعتقد أنه حان الوقت للانتقام من بوهمند ؛ بعد أن تعرضت سمعته للتجريح لأنه لم يبادر إلى افتداء بلدوين كونت الرها ، يضاف إلى ذلك أنه لم يف بالمعاهدات التى عقدها مع الإمبراطور البيزنطى ، وأفاد الكسيوس

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٤٨ .

Runciman : op. cit. II. p. 40.

Fink : The Foundatin of the Latin States p. 389.

Grousset : op. cit. I. pp. 403-407.

(٢) Fink : The Foundation of the Latin States, p. 389.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

Runciman : History of the Crusades II. p. 46.

من الثورات التى نشبت فى مدن قليقية ضد النرمان . ولقيت هذه الثورات التأييد من البيزنطيين الذين لا زالوا يسيطرون على ساحل ايزوريا القريب منهم ، ومن الأرمن[1] . فاستولى الجيش البيزنطى على طرسوس وأدنه ومامسترا ، التى سبق أن انتزعها تانكرد ، بينما أخضع الأسطول البيزنطى اللاذقية والمواضع الواقعة على الساحل ، بين اللاذقية وانطرطوس[2] . يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين استطاعوا من قواعدهم البحرية فى جزيرة قبرص الخاضعة لهم ، أن يبذلوا المساعدة لخصم بوهمند اللدود ، ريموند ، الذى شرع فى إقامة إمارة حول طرابلس ، جنوب أنطاكية[3] .

تحرج مركز بوهمند فى أنطاكية ، لما تعرض له من الضغط من جميع الجهات ، من قبل المسلمين والبيزنطيين ، وخسر عددا كبيرا من عساكره فى معركة حران ، وانحطت الروح المعنوية فى جيشه ، وتداعت قوة الرها ، واشتدت الضائقة المالية بسبب الديون الفادحة التى اقترضها لافتداء نفسه سنة ١١٠٣ ، ولم يكن بوسعه أن يجهز قوات جديدة ، فكان لزاما عليه إما أن يبقى فى إمارته ، فيتعرض للهزيمة والانهيار ، وإما أن يعود إلى أوربا ليقوم بمغامرة جديدة ، يصح أن تعود عليه بالنفع . فاختار بوهمند الطريق الثانى ، وأناب عنه تانكرد فى حكم أنطاكية ، ثم أبحر إلى إيطاليا ، فبلغها فى يناير سنة ١١٠٥[4] .

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 413-414.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 46.

Chalandon : Later Comneni. Camb. Med. Hist. IV. p. 341

Grousset : op. cit. I. pp. 413-414.

(٣) Fink : "The Foundatin of the Latin States" p. 390

(٤) Runciman : History of the Crusades II. p. 47.

Grousset : op cit. I. pp. 415-416.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٤٩ .

نجح بوهمند فى إقناع البابا باسكال ، بأن الكسيوس ، الإمبراطور البيزنطى ، هو أكبر عدو للاتين فى الشرق ، فأمر بالدعوة إلى حرب صليبية ضد بيزنطة . وهذا القرار يعتبر نقطة تحول فى تاريخ الحروب الصليبية ، فما اتخذه النرمان ، من سياسة ترمى إلى تحطيم قوة الإمبراطورية البيزنطية ، أضحت السياسة التى سار عليها الصليبيون ؛ وبذا جرت التضحية بمصالح العالم المسيحى بأسره ، فى سبيل المصالح الخاصة للمغامرين من الفرنج . وما أظهره منذ أول الأمر ، فرسان الغرب من السخط على الإمبراطور البيزنطى ، وما أخفوه من الحقد والحسد لثروته ، وما ساورهم من الشكوك فى الشعائر الدينية عند البيزنطيين ، كل ذلك لقى القبول عند البابوية ، ومنذئذ صار كل ما يوجه ضد الإمبراطور من تدابير وحملات ، يستند إلى أعذار ومبررات . وأدرك البيزنطيون من جانبهم ، أن مخاوفهم تحققت ، فلم تعد الحرب الصليبية التى يوجهها البابا ، إلا أداة للاستعمار الغربى ، ولم يقصد بها مساعدة العالم المسيحى(١) .

حاول الكسيوس أن يثبت للاتين أن أعمال بوهمند ليست جديرة بالاهتمام ، ولا يصح الركون إليه ، فكتب إلى جمهوريات بيزا وجنوه والبندقية ، يحذرها من بوهمند . وفى الوقت ذاته دارت المفاوضات بين الكسيوس والخليفة الفاطمى ، حول افتداء الأسرى المسيحيين(٢) . بل إنه استنجد بقلج أرسلان ، السلطان السلجوقى فى قونيه ، فاشترك فى الحرب ضد بوهمند فى وقعة دورازو ، جماعة من الترك(٣) .

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 49.

Fink : The Foundation of the Latin States p. 391

Groussst : op. cit. I. p. 416.

(٢) Chalandon : Later Comneni. Camb. Med. Hist. IV. p. 341.

(٣) Grousset : op. cit. I p. 416.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٩٤ .

قام بوهمند بزيارة فرنسا وإنجلترا كما يحشد من العساكر مايلزم لتحقيق غرضه ، فلما عاد إلى أبوليا ، أواخر سنة ١١٠٦ ، أخذ يعد الحملة الصليبية ، التى عزم على أن يهاجم بها الدولة البيزنطية من جهة ألبانيا مثلما فعل أبوه روبرت جويسكارد فى ١٠٨١ – ١٠٨٥ ، وكان بوهمند وقتذاك من قادته . فارتكن بوهمند إلى ماكان له من الخبرة السابقة ، وإلى إثارة أحقاد الغرب ضد بيزنطة ، بما صادفه رجال الحملة الصليبية الأولى أثناء اجتياز أراضى الإمبراطورية البيزنطية ، من سوء المعاملة والجوع ، وبما لحق حملة سنة ١١٠١ من هزيمة ساحقة يعتبر الكسيوس المسئول عنها[١] .

وفى خريف سنة ١١٠٧ ، أبحر بوهمند من أبوليا ، بجيشه الضخم المؤلف من ٣٤ ألف جندى فحصر حصن دورازو (على ساحل البحر الأدرياتى) ، الذى يعتبر مفتاح شبه جزيرة البلقان ، التى تطلع النرمان للاستيلاء عليها منذ زمن طويل . غير أن الكسيوس حصره برا وبحرا ، وقطع طريق الاتصال بينه وبين إيطاليا ، فأرغم الأمير النرمانى المتغطرس على أن يلتمس الصلح ، بعد أن تفشت بين جنوده الأمراض من الدوسنطاريا والملاريا فضلا عن المجاعة ؛ فتحطمت الروح المعنوية بين العساكر[٢] . ولم يسع بوهمند إلا أن يوقع المعاهدة التى عرضها الكسيوس عليه ، سبتمبر سنة ١١٠٨ ، وأن يقبل ما ورد بها من الشروط[٣] ، وهذه المعاهدة هى المعروفة بمعاهدة ديابوليس Deabolis[٤] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 47.
Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 390.
Grousset : op. cit. pp. 415-417.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 50.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 418.
Chalandon : Alexis Comnene. p. 246-247.
Anna Comnene : Alexis III. pp. 64-65.

(٤) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 392.

وبمقتضى هذه المعاهدة ، التزم بوهمند أن يعلن ندمه وتوبته ، عن حنثه باليمين التى سبق أن حلفها للإمبراطور البيزنطى ، ثم أقسم أنه سوف يكون تابعا وواليا للإمبراطور وسلالته ، وتعاهد أيضا بأن يؤدى رجاله ذلك القسم . ووفقا لهذه اليمين يصبح بوهمند تابعا للإمبراطور ، فيبقى أميرا على أنطاكية من قبل الكسيوس ، وتشمل إمارته : أنطاكية ذاتها وميناءها سان سيمون ، وما يقع إلى الشمال الشرقى منها من الأراضى حتى مرعش ، وكل ما يفتحه من أملاك أمير حلب والإمارات الإسلامية بالشام . أما مدن قليقية واللاذقية فضلا عن جبلة وبانياس ومرقية (بعد الاستيلاء عليها) ، فينبغى أن ترد إلى الحكم المباشر للإمبراطور ، فكأن بوهمند فقد كل الجبهة الساحلية لأنطاكية ، ما عدا ميناء سان سيمون على مصب نهر الأورنت(١) . وينبغى على بوهمند ألا يمس بالأذى أملاك أسرة روبين ، ولبوهمند أن يمارس سلطته الزمنية داخل أنطاكية ، ويتحتم عزل البطريرك اللاتينى وإعادة البطريرك اليونانى إلى منصبه . وورد فى المعاهدة ما يشير إلى التزام بوهمند بأن يحمل تانكرد ورجاله على احترام ما جاء بالمعاهدة من الشروط(٢) .

والواقع أن هذه المعاهدة عبرت عن سياسة الكسيوس والدولة البيزنطية ، إذ تمسك بأن تكون له السيادة على الأمير اللاتينى ، وحرص على الاحتفاظ بما له من الإشراف على الكنيسة ، واعتبر نفسه مسئولا عن رخاء المسيحين فى الشرق ، بل إنه أراد أيضا أن يحافظ على حقوق أتباعه من الأرمن ، من بيت روبين . وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة كانت

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 418-419.

(٢) Anna Comnene : Alexiade III. pp. 64-65.
Runciman : History of the Crusades II. pp. 50-51
Chalandon : Alexis Comnene pp. 237-250.
Grousset : op. cit. I. pp. 418-420.

حبراً على ورق ، فإنها حطمت بوهمند ، ولم يجرؤ على أن يظهر مرة أخرى فى الشرق ، فبقى فى موطنه أبوليا ، حتى مات سنة ١١١١ ؛ وكان طموحه الشديد من عوامل انهياره برغم ما اشتهر به من المواهب النادرة والبسالة والإقدام[١] .

حكومة تانكرد الثانية (١١٠٤ — ١١١٢) :

الواضح أن أحوال أنطاكية كانت بالغة السوء ، حينما عهد بوهمند بها إلى تانكرد ، عند ارتحاله إلى أوربا . فمن الناحية الإقليمية انتزع البيزنطيون اللاذقية ، واستولى السلاجقة بحلب على أرتاح . ولم تكن الأحوال الاقتصادية بأقل خطورة ، إذ أن بوهمند استنفد كل ما فى الخزانة من أموال لينفق منها على الحملة التى أعدها لقتال الكسيوس ، فلم يعد فى وسع تانكرد أن يجهز جيشاً للدفاع عن أنطاكية ، بعد أن حصرها سلاجقة حلب والبيزنطيون فى اللاذقية[٢] .

لم يقبل تانكرد أن يكون تابعا للإمبراطور البيزنطى ، بل أراد أن يجعل لنفسه إمارة مستقلة ، وأن يستعيد سلطانه ، فعين أحد أقاربه ، رتشارد ، نائباً عنه فى حكم الرها ، التى صارت فترة من الزمن ، من توابع أنطاكية ، على الرغم من أن بلدوين ملك بيت المقدس منحها إلى بلدوين لى بور ؛ بعد أن تولى العرش[٣] .

تجهز تانكرد لمد سلطانه فابتز الأموال من تجار أنطاكية ، وأنفقها فى استئجار الجند ، ثم استدعى من الرها وتل باشر وأنطاكية ، ما يصح

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 51
Rey : Histoire des Princes d' Antioche p. 334
Cahen : La Syrie du Nord p. 241.

(٢) Grousset : op. cit. I. pp. 420-421.

(٣) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 394

الاستغناء عنه من الجند ، وهاجم حلب فى ربيع سنة ١١٠٥ ، ثم استولى على حصن أرتاح ، وانزل بالجيش الذى أنفذه رضوان لمساعدته هزيمة ساحقة . وتعرضت حلب للتهديد من النرمان ، فاضطربت أحوالها ، واستبد الفزع بالسكان ، ولم يبق بيد رضوان من جهة الجنوب إلا حماه ، ومن الغرب ، إلا الأثارب ، بل إن ما احتفظ به من جهة الشرق والشمال لم يكن بنجوة من الخطر ، ولم تنته سنة ١١٠٥ حتى امتدت أملاك أنطاكية جنوباً إلى البارة ومعرة النعمان[١] . وفى سنة ١١٠٦ ، استولى تانكرد على حصن أفامية ، فأصبح بذلك يهدد إمارة حماه التى تقع إلى الجنوب من حلب ، واشتد الضغط على شيزر[٢] . وزاد فى مكانة تانكرد ، أنه تزوج من سسيليا ابنة فيليب الأول ملك فرنسا التى بعث بها بوهمند إليه ليتخذها زوجة[٣]

ولما اطمأن تانكرد إلى تأمين حدوده الشرقية والجنوبية ، التفت إلى خصمه اللدود ، بيزنطة . فاغتنم فرصة ما أقدم عليه الكسيوس من

---

(١) Cahen: La Syrie du Nord p. 141.
Grousset : op. cit. I. pp. 420-423.
Runciman : History of the Crusades II. p. 52
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٥٠ – ١٥١ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٧١ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ .

(٢) Fink : The Foundation of the Latin States p. 392.
Runciman : History of the Crusades II. p. 53.
Cahen : op. cit. p. 253.
Grousset op. cit. I. pp. 422-423.
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥١ – ١٥٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٨١ – ٢٨٢ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٩ – ١٥٠ .

(٣) Fink : Loc. cit.

سحب قواته من الحدود السورية لمواجهة هجوم بوهمند على أملاكه فى البلقان ، وأغار فى سنة ١١٠٧ على مامسترا ، بينما كان بوهمند يهاجم دورازو ، فاستولى عليها وعلى أدنه وطرسوس فى أوائل سنة ١١٠٨ ، ثم تحرك جنوبا لاستعادة اللاذقية ، أهم موانى إمارة أنطاكية ؛ وبفضل مساعدة أسطول البيازنة استولى عليها ، وفى مقابل ذلك ، منح البيازنة شارعا بأنطاكية ، وحيًّا فى اللاذقية ، وسمح لهم بكنيسة ومتجر (مستودع للتجارة) فيها[1] . فكأن تانكرد استعاد فى ربيع سنة ١١٠٨ كل ما فقده بوهمند ، بل إنه أمد فى سنة ١١٠٩ ، أطراف ممتلكاته جهة الجنوب ، بأن استولى على جبلة وبلنياس وقلعة حصن المرقب ، التى كانت من أملاك ابن عمار صاحب طرابلس[2] .

ارتفع شأن تانكرد ، الذى لم يحفل بالمعاهدة التى عقدها بوهمند مع الإمبراطور البيزنطى ، فخضع لسلطانه الجهات الممتدة من جبال طوروس إلى إقليم الجزيرة ، وأصبح يحكم الرها وأنطاكية . وعلى الرغم من أنه لم يكن إلا قيما على هاتين الإمارتين ، فإن ما حدث من انزواء بوهمند فى إيطاليا ، وبقاء بلدوين لى بور فى أسر المسلمين ، أطلق له حرية التصرف ، ولم يستطع أحد من جيرانه أن يهاجم أملاكه ، بل إن أمير حلب ظل مواليا له[3] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 54

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٣٤ .

Cahen : op. cit. p. 243.

Runciman : op. cit. II. p. 54, 65.

Heyd : Histoire du Commerce du Levant. I. pp. 145-146.

Grousset, op. cit. I. pp. 427-429, 448-449.

Rey : Colonies franques pp. 332-333.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 55

Grousset : op. cit. I. pp. 428-429.

وعلى الرغم من أن تانكرد اشتهر بالنباهة والبراعة والمهارة ، فإنه تعرض لكراهية رفاقه لما اتصف به من الكبرياء والغطرسة ، وأدى ذلك إلى انتقاص سلطته على أيديهم (١) .

ظل رتشارد يحكم الرها منذ سنة ١١٠٤ حتى سنة ١١٠٨ ، وهى الفترة التى بقى فيها بلدوين لى بور فى أسر المسلمين ، وإذ كانت تعوزه الكفاية والقدرة ، لم يستطع كبح جماح أتباعه الذين اشتهروا بالاستبداد والشراهة ، فلم يلبث سكان الرها من الأرمن أن خرجوا على طاعته ، وترتب على ذلك أن سلطة الفرنج ، لم تتجاوز ، حدود المدن التى ترابط بها الحاميات العسكرية ؛ وتعرضت أراضى الرها للغزو والنهب ، فى السنوات ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ على أيدى جكرمش أتابك الموصل ، وقلج أرسلان سلطان قونيه (٢) .

ولما أطلق جوالى سراح بلدوين سنة ١١٠٨ ، مقابل الاتفاق معا على مقاومة مودود ، ودفع فدية قدرها ٧٠ ألف دينار ، والتعهد بمساندة جوالى إذا احتاج إلى ذلك . ونلحظ فى هذا الاتفاق نوعا من التبعية الإقطاعية بين بارون الفرنج وبين الأتابك التركى ، ويعتبر أيضا معاهدة صداقة بين الطرفين (٣) .

توجه بلدوين لى بور إلى أنطاكية ، عقب إطلاق سراحه ، وطلب من تانكرد أن يرد إليه الرها . فنحه تانكرد ٣٠ ألف دينار ، من أجل الفدية ، وأعطاه خيلا وأسلحة ، غير أنه لم يستمع لرجائه فى استعادة الرها . واشتد سخط بلدوين لى بور ، بسبب موقف تانكرد ، وانحاز إليه جوسلين صاحب تل باشر ، وقررا مهاجمة تانكرد ويساندهما جوالى ،

(١) Runciman : op. cit. II. p. 55

(٢) Fink : The Foundation of the Latin States p. 395

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 434.

والتمسا أيضا مساعدة كواسيل Kogh Vasil أمير كيسوم ورعبان الذى يكن أيضاً الكراهية لتانكرد بسبب أطماعه فى قليقية وكراهيته للأرمن . ودارت معركة بين الفريقين ، دون أن تؤدى إلى نتيجة هامة ، وعندئذ تدخل برنارد بطريرك أنطاكية ، فأصلح بينهم ، ورد تانكرد الرها إلى بلدوين ، فى سبتمبر ١١٠٨[١] . على أن تانكرد لم يفقد فحسب بهذا العناد ، سيادته على الرها ، بل جلب على نفسه كراهية وعداوة أميرها بلدوين لى بور[٢] .

على أن الحرب الأهلية لم تلبث أن نشبت بين تانكرد ورضوان من جهة ، وبين بلدوين لى بور وجوالى من جهة أخرى . فالعداوة بين بلدوين وتانكرد لم يمحها ما حدث من توسط بطريرك أنطاكية فى التوفيق بينهما . ومن ناحية أخرى ، ترتب على عزل جوالى من أتابكية الموصل ، على يد السلطان محمد السلجوقى ، أن حاول أن يقيم له إمارة فى الجزيرة ، ونظرا لامتداد أملاك إمارة حلب حتى الفرات ، فإن ما حدث من مهاجمة قوات رضوان لأمداد بعث بها بلدوين لى بور إلى جوالى ، وفرض الجزية على سكان الرقة ، بإقليم الجزيرة ، اعتبره جوالى عملا عدائيا . فاستولى جوالى على بالس فى سبتمبر سنة ١١٠٨ ، وأضحى بذلك يهدد حلب ، فلم يسع رضوان إلا أن يلتمس المساعدة من تانكرد ، الذى تقررت معه الهدنة منذ سنة ١١٠٥[٣] ، إذ أشار إلى أنه متى سقطت حلب فى يد

---

(١) Fink : "The Foundation of the Latin States p. 393-394

Grousset : op. cit. I. pp. 435-438.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 528-529

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٢٢ – ٣٢٣ .

(٢) Fink : loc. cit.

(٣) Grousset : op. cit. I. pp. 439-440

Fink : The Foundation of the Latin States p. 394.

جاولى « لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام »[١] . ونهض تانكرد لمساعدة رضوان ، ودارت المعركة بالقرب من تل باشر سنة ١١٠٨ ضد بلدوين ، غير أن تانكرد لم يلبث أن ارتد إلى أنطاكية خوفا من عودة جوالى إلى مهاجمته[٢] .

على أن هذه الحرب الأهلية أضاعت الفرصة على الفرنج لتحطيم قوة الترك حول الرها ، فلم يلبث أن تولى الموصل ، مودود الذى يعتبر من أوائل الداعين لحركة الجهاد الدينية وتوحيد الجبهة الإسلامية ؛ ومن المحقق أيضا أن الترك لم يغتنموا هذه الفرصة لمهاجمة قوات الفرنج المنقسمة على نفسها[٣] .

وإذ فشل تانكرد فى أن يحتفظ فى يده بالرها ، حاول أن يعوض ذلك ، بأن يخضع طرابلس . والمعروف أن ريموند دوق تولوز وقع فى قبضة تانكرد سنة ١١٠٢ ، بعد فشل الحملة الصليبية فى آسيا الصغرى سنة ١١٠١ ، وأنه لم يطلق سراحه إلا بعد أن أقسم له أنه لن يستولى على البلاد الساحلية الواقعة بين أنطاكية وعكا ؛ فلا يتيسر له بذلك إقامة إمارة فى هذه الجهات[٤] . على أن ريموند لم يلتزم بهذه اليمين ، وأقام له سنة ١١٠٣ حصنا على تل تجاه طرابلس ، وأطلق عليه تل الحاج Mons Peregrinus، أصبح نواة لإمارة طرابلس[٥] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٢٦ .

(٢) Fink : The Foundation of the Latin States p. 394.

(٣) Fink : The Foundation of the Latin Statesp. 394.
Grousset : op. cit. I. p. 440-442.

(٤) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 396.

(٥) Ibid : Loc. cit.

ولما قدم من فرنسا ، سنة ١١٠٩ ، برترام ابن ريموند ليطالب بأملاك أبيه ، فى الشرق ، يسانده أسطول جنوى ضخم والإمبراطور البيزنطى ، أثار عداء تانكرد حينما رسا فى ميناء سان سيمون ، وطالب بنصيب أبيه فى أنطاكية سنة ١٠٩٨ ، فطرده تانكرد[١] . ولما وقع النزاع بين برترام ، ووليم جوردان ابن عم ريموند ، والذى خلفه على أملاكه فى الشرق ، التجأ برترام إلى بلدوين ملك بيت المقدس ، واستنجد جوردان بتانكرد . ورحب تانكرد بهذه الدعوة ، لأنها هيأت له الفرصة لأن يستولى على طرابلس ، وأن يفيد من الأسطول البيزنطى فى انتزاع مدن ساحلية أخرى . أما بلدوين الذى اشتهر بالمهارة السياسية ، فإنه رأى ذلك فرصة ، لتسوية المنازعات بين الفرنج ، وتوحيد جهودهم تحت زعامته ، والإفادة من ذلك فى قتال المسلمين[٢] .

ولهذه الأسباب طلب بلدوين إلى تانكرد وبلدوين لى بور وجوسلين وجوردان وبرترام ، أن يجتمعوا به فى طرابلس ، سنة ١١٠٩ . واستطاع بلدوين أن يوفق بين هؤلاء القادة والزعماء ، فتنازل تانكرد عن دعاويه فى الرها وتل باشر ، وحصل مقابل ذلك ، من الملك بلدوين ، على إقطاعات فى طبرية والناصرة وحيفا ، وساحة المعبد (قبة الصخرة الآن) فى بيت المقدس ؛ فأضحى بذلك من أتباع بلدوين ، ويصح أن يلجأ إلى هذه الإقطاعات متى عاد بوهمند إلى أنطاكية ، وله الحق فى أن يحصل على خراجها[٣] . وتقرر أيضا أن يحتفظ وليم جوردان بعرقة وانطرطوس ،

---

(١) Fink : The foundation of the Latin states pp. 396-397.
Runciman : History of the Crusades II. pp. 65-66.
Grousset : op. cit. I. pp. 443 - 444.

(٢) Fink : The Foundation of the Latin States p. 397.

(٣) Grousset : op. cit. I. pp. 445-448.
Fink : The Foundetion of the Latin States p. 398.

ولما كان جوردان منتميا إلى تانكرد ، فإن نفوذه (تانكرد) امتد إلى الجزء الشمالى من طرابلس بعد استيلائه على جبلة[1] ، أما برترام فحصل على ما تبقى من تراث والده ، أى الجهات الواقعة حول طرابلس ، فضلا عن طرابلس بعد سقوطها ، وصار من أتباع بلدوين ملك بيت المقدس[2] .

اشترك تانكرد مع سائر أمراء الفرنج فى مقاومة حملة مودود سنة ١١١٠[3] ، غير أنه لم يلبث أن انسحب للدفاع عن أنطاكية من هجمات رضوان صاحب حلب ، وتقرر عقد هدنة بينهما بمقتضاها تسلم تانكرد الأثارب وزردنه ، وتعهد رضوان بأن يؤدى له عشرين ألف دينار ، وحصل تانكرد أيضا على أموال وهدايا من صاحب حلب ، وأدى له أمير حمص ألف دينار ؛ وسقط بيده حصن بكسرائيل بجبال النصيرية ، على الطريق الممتد من شيزر إلى اللاذقية[4] .

وما أحرزه تانكرد من الانتصار وما أصابه من النجاح يرجع إلى عاملين : الأول أن البيزنطيين لم يكونوا مستعدين لمهاجمة أنطاكية ، نظرا لتعرض أملاك الكسيوس بآسيا الصغرى لتهديد السلاجقة ، فلم يستطع أن يغامر بحملة فى نيقية . أما العامل الثانى ، فهو مذهب الباطنية الذى يناهض الخلفاء العباسيين والأمراء السلاجقة ، والذى لجأ أربابه

---

(١) Fink : The Foundation of The Latin States p. 398.

Grousset : op. cit. I. p. 448.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 115.

(٣) لم نسمع عن مودود أتابكا للموصل إلا فى جمادى الأولى سنة ٥٠٣ (نوفمبر - ديسمبر ١١٠٩) فتولى قتال الصليبين . انظر

Fink : Mawdud of Mosul. Muslim. World. XLIII (1953) p. 20.

(٤) Grousset : op. cit. I. pp. 458-460.

Runciman: op cit. II.p. 118.

إلى الاغتيال ، واتخاذ معاقل فى الشام ، وكانوا أشد خطورة على كل حركة للجهاد ضد الصليبيين[1] .

وترتب على انصياع أمير حلب لتانكرد ؛ أن اشتد سخط الناس ، فأرسلوا من قبلهم إلى بغداد وفدا من الفقهاء والمتصوفة وأرباب الحرف ، لاستثارة المسلمين ، للنهوض لجهاد الفرنج ، فوعدهم السلطان إنفاذ العساكر للجهاد ؛ وفى نفس الوقت سنة ١١١١ (٥٠٤ هـ) ، استقبل الخليفة المستظهر بالله سفارة من الإمبراطور البيزنطى ، تدعو إلى القيام بعمل مشترك ضد تانكرد ، وتنوه بما بذله الإمبراطور من خدمة للإسلام ، بأن أوقف سنة ١١٠٨ محاولة بوهمند المسير إلى البلاد الإسلامية ، وإلحاق الضرر بها[2] . على أن حملة مودود الثانية سنة ١١١١ ، التى توجهت لإنقاذ حلب ، دلت على أن رضوان لم يطمئن إلى أمراء الجزيرة ، فأغلق دونهم أبواب حلب فهاجموا بلادها ونهبوها[3] . أما تانكرد فاستنجد بالأمراء الصليبيين ، فنهض لمساعدته بلدوين الأول ، وبلدوين كونت الرها ، وجوسلين صاحب تل باشر ، وبرتراند كونت طرابلس ، وجماعة من أمراء الأرمن . ووقعت مناوشات بين الجانبين قرب شيزر ، لم تؤد إلى نتيجة ، بل انسحب مودود إلى الموصل ، ورجع تانكرد إلى أنطاكية[4] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 120.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 121.

Grousset : op. cit. I. pp. 460-462.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٣٩ .

حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٤ .

(٣) Fink : The Foundation of the Latin States p. 400

Grousset : op. cit. I. pp. 464-466.

(٤) Grousset : op. cit. I. pp. 467-471.

Runciman : History of the Crusades II. pp 122-123.

وأسهم بلدوين ملك بيت المقدس ، وبرترام كونت طرابلس ، في توطيد الوحدة بين اللاتين ، وذلك حينما نهضا سنة ١١١١ ، ١١١٢ ، لمساندة تانكرد ضد الكسيوس الذى ألح على تانكرد بأن يسلمه أنطاكية بعد وفاة بوهمند ، وفقا للمعاهدة التى سبق أن عقداها معا سنة ١١٠٨[١]. وبذا توثقت العلاقة بين طرابلس وأنطاكية ، وفترت العلاقة بين طرابلس وبيزنطة[٢] .

مات تانكرد سنة ١١١٢ ، بعد أن عهد لابن أخته ، روجر ، بإدارة حكومة أنطاكية ، على أن يسلمها إلى بوهمند الثانى متى قدم إلى الشرق ؛ والواقع أن تانكرد نجح فى تدعيم إمارة أنطاكية ، وأفاد من جهوده الأمراء الذين خلفوه عليها[٣] .

روجر (١١١٢ – ١١١٩) :

اتخذ روجر لقب أمير ، على الرغم من اعترافه بحق بوهمند الثانى فى الحكم ، واعترف بسيادة ملك بيت المقدس ؛ مثلما فعل أمير طرابلس والرها . وما تجدد وقتذاك من المنازعات بين المسلمين ، أدى إلى أن تبلغ الإمارات الصليبية الشمالية ذروة مجدها[٤] . وما أحرزه روجر والفرنج من الانتصار على قوات برسق فى ١١١٥ ، فى معركة تل دانث ، أنهى المحاولة الأخيرة التى قام بها سلاطين السلاجقة لاستعادة الشام . أما الخطر الوحيد الذى تعرض له الفرنج من الشرق ، فمصدره الأمراء شبه المستقلين من

---

(١) Fink : The Foundation of the Latin states p. 401.

(٢) Fink : The Foundation of the Latin States p. 401.

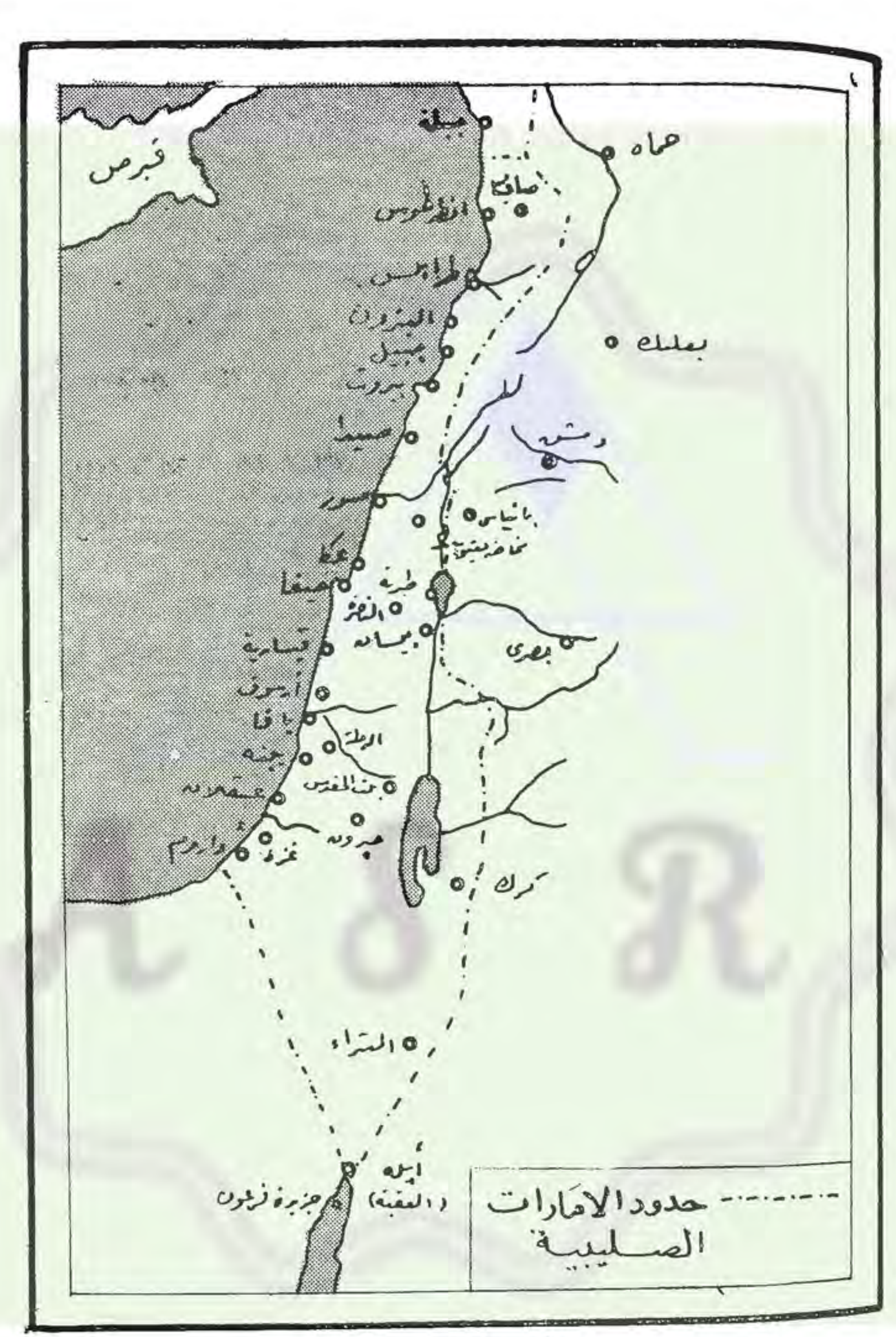
(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 125.
Grousset : op. cit. I. pp. 476-477, 482-483.

(٤) Runciman : op. cit. p. 126.



شمال سوريا فى القرن الثانى عشر


A S R



جنوب سوريا فى القرن الثانى عشر



التركمان ، والذين نشب بينهم الاختلاف والنزاع[١] . وأفاد روجر من الاضطرابات فى حلب، بأن استولى ١١١٨ ، ١١١٩ ، على عزاز والبزاعة ، فقطع بذلك طريق الاتصال بين حلب والفرات وما يليه من البلاد شرقا[٢] . وحوالى ذلك الوقت ، نجح روجر فى تسوية الطرف الجنوبى لإمارة أنطاكية بالاستيلاء على حصن المرقب الذى يطل على البحر المتوسط ، ويسيطر على الطريق الممتد من اللاذقية إلى انطرطوس وطرابلس[٣] .

على أن روجر وحلفاءه من أمراء الفرنج ، تعرضوا فى يونيه سنة ١١١٩ ، لهزيمة ساحقة ، شمال الأثارب ، على يد ايلغازى أمير حلب ، واشتهرت هذه الواقعة باسم ساحة الدم (Ager sanguinis) ، فلقى روجر (السرجال) مصرعه ، ولم يفلت من القتل إلا عدد قليل من رجاله[٤] .

---

(١) Fink : The Foundation of the Latin States p. 404.
Runciman : op. cit. II. p. 133.
Grousset : op. cit. I pp 506-511.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٥٨ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 134.
Cahen : op cit. pp. 278-280.
Grousset : op cit. I. pp. 512-514.

(٣) Cahen : loc. cit.
Grousset : op. cit. I. p. 513.

(٤) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 413.
Cahen : op. cit. p. 287.
Runciman : op. cit. II. p. 250.
Grousset : op. cit. I. pp. 552-560.
William of Tyre : op. cit. I. pp. 529-530.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٩٠ .
ابن العديم : زبدة حلب ج ٢ ص ١٩٠ .

وترتب على تدمير الفرسان النرمان فى هذه المعركة ، أن تضاءل نفوذ النرمان ، وارتفع شأن البروفنساليين والفرنسيين القادمين من وسط فرنسا وشرقيها . ولو أن ايلغازى توجه لمنازلة أنطاكية لما استعصت عليه ، لأنها خلت من حماتها ورجالها[١] .

وتولى تسيير أمور أنطاكية بعد مصرع روجر ، البطريرك برنارد ، الذى جرد المسيحيين السوريين من سكان المدينة من السلاح ، ومنعهم من مغادرة دورهم بعد الغروب ، ووزع الأسلحة على رجال الدين والتجار من الفرنج ، للسهر على أسوار المدينة ، وأرسل إلى بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، يستحثه على القدوم إلى أنطاكية[٢] .

أسرع بلدوين بالمسير إلى أنطاكية ، فاجتمع بأعيانها للتشاور فى مستقبل حكومتهم ، إذ أن الأمير الشرعى ، بوهمند الثانى ، لم يتجاوز العاشرة من عمره ، ويقيم مع أمه بإيطاليا . ولم يكن بالشرق من يمثل البيت النرمندى ، لأن معظم الفرسان النرمان لقوا مصرعهم فى وقعة « ساحة الدم » ، فتقرر أن يلى بلدوين حكومة أنطاكية ، باعتباره زعيم الفرنج فى الشرق ، حتى يبلغ بوهمند الثانى سن الرشد ، ويتزوج من إحدى بنات الملك[٣] . وتسلم بلدوين من أخته خزائن روجر وأمواله ، واستولى على أموال القتلى ودورهم ، وزوج نساءهم بمن بقى على قيـد الحياة[٤] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٠ – ٢٠١ .

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 151.

Grousset : op. cit. I. p. 561.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 152.

Grousset : op. cit. I. pp. 562-563

William of Tyre : op. cit. I. p. 531-532.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٩١ .

Grousset : op. cit. I. p. 564.

William of Tyre : op cit. p. 532.

وقام بلدوين بتوزيع إقطاعات القتلى ، التى انحلت بمصرع أربابها ، واتخذت كل من أرملة تانكرد وروجر ، فى أملاكها أتباعا جددا ، وأعاد بلدوين أيضا توزيع إقطاعات إمارة الرها ، ثم عاد إلى فلسطين(١) .

وتخلى بلدوين عن الوصاية على أنطاكية سنة ١١٢٦ ، حين بلغ بوهمند سن الرشد وقدم ليتسلم إرثه ، ولم يلبث أن تزوج من أليس ابنة بلدوين ، واستهل حكمه بالاستيلاء على كفر طاب من أمير حمص(٢) ؛

ووقع النزاع بين بوهمند الثانى وجوسلين كونت الرها على أملاك كانت تابعة لأنطاكية واستولى عليها جوسلين ، فتوجه بلدوين الثانى إلى الشمال ، حيث وفق بين الأميرين سنة ١١٢٨ . غير أن هذا النزاع أضاع فرصة لن تعود ، لأن دمشق أوشكت أن تكون غنيمة باردة للفرنج ، فأنقذها عماد الدين زنكى(٣) .

كان بوهمند الثانى حريصا على أن يسترد لأنطاكية ما فقدته من ممتلكات ، إذ انحسر سلطانها عن قليقية ، واستولى توروس الروبينى على عين زربه ، غير أنه حينما توجه للقتال لقى مصرعه على أيدى الدانشمنديين حلفاء الأرمن ، سنة ١١٣٠(٤) .

بادرت أليس بالاستيلاء على مقاليد الحكم فى أنطاكية ، ولم تحفل بحق طفلتها كونستانس فى الإرث ، وأغفلت حق أبيها فى تعيين وصى

---

(١) Runciman : op, cit. II. p. 152.

Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 413.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 176.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 181.

(٤) Runciman : History of the Crusades II. p. 183.

Grousset : op. cit. I. p. 672-673.

على أنطاكية باعتباره السيد الأعلى للفرنج فى الشرق[١] . ولم تتردد أليس فى أن تبعث برسالة إلى زنكى فى حلب ، تطلب إليه أن يؤيدها ويساندها وتعلن استعدادها لأن تنتمى إليه وتكون من أتباعه ، بينما أرسل سكان أنطاكية من الفرنج إلى بلدوين يلتمسون مساعدته . وبادر بلدوين بالتوجه إلى أنطاكية ، فقرر عزل أليس عن الوصاية ، وأمر بنفيها إلى اللاذقية وجبلة ، اللتين تعتبران من أملاكها ، وتولى بلدوين الوصاية ، فأناب عنه جوسلين كونت الرها فى إدارة الإمارة[٢] .

لما تولى فولك الحكم فى بيت المقدس سنة ١١٣١ ، بعد وفاة بلدوين الثانى ، تهيأت لأليس بأن تكون وصية على ابنتها كونستانس مرة أخرى ، ولم تجد معارضة من جوسلين (الرها) وبونز (طرابلس) ، وازداد عدد أنصارها ، غير أن نبلاء أنطاكية التمسوا من فولك أن يتدخل لمناهضة أليس[٣] .

ولما تعرضت ممتلكات أنطاكية لهجوم سوار نائب زنكى فى حلب ، كان لزاماً على فولك أن ينهض لمساعدة أنطاكية ، فتقررت الهدنة بين الجانبين فى يناير ١١٣٣[٤] . وترتب على مساعدة فولك لأنطاكية ، أنه بلغ من تقدير

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 673-674.

(٢) Grousset : op. cit. I. p 675.
Runciman : op. cit. II. p. 184.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 43-45.

(٣) Grousset : op. cit. II. pp. 9-13.
Runciman : op. cit. II. p. 189.
William of Tyre : op cit. II. pp. 53-54.

(٤) Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 434.
Runciman : History of the Crusades II. p. 198.
Grousset : op. cit. II. pp. 15-18.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 57-58.

سكانها على اختلاف طبقاتهم له ، أنه حينما عزم على الرحيل إلى بيت المقدس، تقدم إليه نبلاء الإمارة ، يلتمسون منه اختيار عريس للأميرة كونستانس التى لا زالت قاصراً ، وقصدوا بذلك استقرار الحكم فى أنطاكية ، فوقع اختياره على ريموند ابن كونت بواتييه ، وأنفذ سفارة لتحقيق هـــذا الغرض[١] .

عادت أليس إلى أنطاكية سنة ١١٣٥ ، وأغفلت حق ابنتها كونستانس ، وباشرت فعلا حكومة الإمارة ، ولقيت التأييد من أختها مليسند ، زوجة الملك فولك ، التى طلبت إليه ألا يتدخل[٢] .

وإذ حرصت أليس على توطيد سلطتها ، التمست المساعدة من الإمبراطور البيزنطى ، حنا كومنين فعرضت أن تتزوج ابنتها كونستانس ، من ابنه مانويل، فقبل الإمبراطور هذا العرض[٣] . والواقع أن أليس لجأت إلى هذا الإجراء لأسباب عديدة ، منها أن العنصر اليونانى شديد الأثر فى أنطاكية ، وأن ما تعرضت له أملاك أنطاكية من تهديد زنكى والمسلمين ، يجعل لبيزنطة أهمية فى درء الخطر الإسلامى ، يضاف إلى ذلك أن زواج أمير بيزنطى من أميرة فرنجية ، يصح أن يؤدى إلى امتزاج العنصرين اليونانى والفرنجى ، فى سبيل الدفاع عن العالم المسيحى[٤] .

وصل ريموند بواتييه إلى أنطاكية فى أبريل سنة ١١٣٦ ، ولم يخف خبر وصوله عن أليس ، على أن ريموند توجه لزيارة البطريرك رادولف ، الذى وعد بمساعدته ، بشرط أن يحلف له يمين الولاء ، وأن يرجع إليه فى كل الأمور . فلما تم الاتفاق ، قام رادولف بزيارة أليس ، وأخبرها بأن

---

(١) Nicholson : Ths Growth of the Latin States. p. 434.

(٢) Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 436.

(٣) Nicholson : The Growth of the Latin States, p. 436.

(٤) Runciman : op. cit. II. pp. 198-199.

ريموند جاء ليطلب يدها ، وتراءى كأن القصة مقبولة ، لأن ريموند كان فى السابعة والثلاثين من عمره ، ولم تبلغ أليس الثلاثين ، ولم تتجاوز كونستانس التاسعة[١] .

واشتدت ثائرة أليس حينما تزوج ريموند من كونستانس ، وفقاً للاتفاق الذى عقده مع البطريرك غداة قدومه إلى أنطاكية . فلم يسع أليس إلا أن تنسحب من أنطاكية ، وتقاوم ريموند بكل عنف. ولم يلبث ريموند أن انحاز إلى أعداء البطريرك ، بسبب ما انتهجه البطريرك رادولف نحوه من سلوك ينطوى على الغطرسة . غير أن ما ساد أنطاكية من الانقسامات الدينية والسياسية جعلها فريسة سهلة المنال لكل طامع[٢] .

تحرج مركز أنطاكية أيضاً من الناحية الخارجية ، إذ فقدت خطوط دفاعها فى الشرق ، نتيجة هجمات زنكى وسوار المتكررة ، واستولى الباطنية على بعض الحصون الواقعة إلى الجنوب منها والتابعة لها ، بينما سقطت قليقية فى يد ليو الروبينى ، بعد وفاة بوهمند الثانى[٣] . وحرص ريموند على استرداد قليقية ، فهاجم ليو الروبينى ، وظفر به ، فبعث به أسيراً إلى أنطاكية ؛ وما حدث من النزاع بين أبناء ليو ، وتعرض بلادهم للهجوم من قبل الدانشمنديين ، حمل ليو على أن يتنازل عن مدن قليقية إلى ريموند مقابل إطلاق سراحه . غير أنه لم يلبث أن نقض عهده فنشبت الحرب من جديد ، ولم تتوقف إلا بعد أن توسط جوسلين الثانى كونت الرها بين ليو وريموند ، بعد أن وردت الأنباء بقدوم حملة بيزنطية من جهة الشمال سنة ١١٣٧ ، فلم

---

(١) Runciman : op. cit. II. pp. 199-200.
Grousset : op. cit. II. pp. 36-40.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 77-78.

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 437.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 200.

بتسلم ريموند المدن التى تنازل عنها ليو ، أدنه ومامسترا[١] . وهذه الحملة البيزنطية هى التى جعلت زنكى ، الذى انتصر على بونز وفولك وجوسلين الثانى فى بعرين سنة ١١٣٧ ، يكتفى بما حصل عليه منهم من الأموال والغنائم والاستيلاء على الحصن ، وهى كذلك التى ألزمت ريموند بالبقاء فى أنطاكية[٢] .

دأب البيزنطيون على إغفال بيزنطة ، منذ امتنع الكسيوس عن مصاحبتهم إلى أنطاكية ، والواقع أنه لم يعرفه عن ذلك إلا ما حدث بالقرب من بلاده من القلاقل والمتاعب ، التى استمرت نحو ثلاثين سنة[٣] . ولم يسيطر الكسيوس فى آسيا الصغرى ، إلا على الشطر الغربى منها ، فضلا عن الساحلين الشمالى والجنوبى ، بينما انسابت جموع التركمان إلى الداخل ، تلتمس المرعى[٤] .

ولما تحسنت الأحوال بين حنا كومنين ، بعد وفاة الكسيوس ، وبين الدانشمنديين ، تيسر له التدخل فى شئون سوريا . ولم تلبث العلاقات أن صلحت بين بيزنطة ، وبين جنوة والبندقيـــة ، وتعرض المجريون لهزيمة

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 200.
Grousset : op. cit. II. pp. 52-53.

(٢) Runciman : History of the Crusades. II. pp. 205-206.
Grousset : op. cit. II. pp. 70-83.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 85-88.

(٣) تعرضت بيزنطة أثناء هذه الفترة للهجمات من سائر الجهات ، فأغار المجريون على البلقان ، وحرصت البندقية على أن تنتزع منها امتيازات تجارية ، بالمبادرة إلى مهاجمتها ، وأضاف روجر الثانى ، ملك صقلية ، إلى ممتلكاته إقليم أبوليا سنة ١١٢٧ ، وطالب بأنطاكية لأنه آخر سلالة بيت هوتفيل ، وزعم لنفسه الحق فى بيت المقدس ، وفقاً للمعاهدة التى عقدتها أمه مع ملك بيت المقدس ، بلدوين الأول . انظر :
Runciman : op. cit. II. p. 207.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 207.

ساحقة ، وتم الاتفاق مع لوتير إمبراطور ألمانيا ، على أن يهاجم ، روجر ملك صقلية[١] .

وفى أغسطس سنة ١١٣٧ ، ظهر الإمبراطور البيزنطى ، حنا كومنين، بجيوشه أمام أسوار أنطاكية ، وعسكر على الشاطئ الشمالى لنهر الأورنت ، وكان ريموند وقتذاك يحاول إنقاذ فولك من قبضة زنكى فى بعرين . فلما علم بخبر حملة حنا بادر بالعودة إلى أنطاكية لمواجهة البيزنطيين . والواضح أن حنا كان يطالب بأنطاكية والبلاد المجاورة ، فضلا عن حنقه لما تم من زواج كونستانس من ريموند . ولما لم ينهض أحد من الأمراء الصليبيين، لمساعدته ، لم يسعه إلا أن يلتمس الصلح ، فانعقدت معاهدة بينه وبين حنا فى سبتمبر ١١٣٧ ، بمقتضاها يصير ريموند تابعاً لحنا ، وأن يحوز أنطاكية باعتبار أنها إقطاع له من قبل الإمبراطور ، ويتنازل عنها نهائياً للإمبراطور، متى استولى على حلب وشيزر وحماه وحمص ، وألف منها إمارة يقطعها لريموند[٢] . وبعد أن وعد حنا بأنه سوف ينهض لقتال المسلمين سنة ١١٣٨ ، للاستيلاء على البلاد التى سبق الإشارة إليها ، سار إلى قليقية فانتزعها من الأمراء الأرمن[٣] .

---

(١) Runciman : op. cit II. p. 211.

Grousset : op. cit. II. pp. 82-86.

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin states p. 439.

Runciman : op. cit. II. p. 213.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 92-93.

الواقع أن ريموند تبادل الرسائل مع فولك بشأن أنطاكية فكتب إليه : « إننا نعلم جميعاً ، وإن شيوخنا لقنونا منذ زمن طويل ، أن أنطاكية جزء من إمبراطورية القسطنطينية، وما يزعمه الإمبراطور من الحق فى امتلاك هذه المدينة يعتبر صحيحاً ، فلا يجوز إنكار الحق، ومعارضة ما هو صواب » — انظر Runciman : op. cit. II. pp. 213.

(٣) Grousset : op. cit. II. pp. 91-100.

الواقع أن الحكومة البيزنطية أدركت أنه ليس بوسعها طرد الفرنج من أنطاكية ، وأرادت أن تقيم على امتداد الحدود إمارات تخضع سياستها لرغبة الإمبراطور ، وتتحمل فى الوقت ذاته صدمة هجمات العدو . ولذا لم يلتزم حنا بمعاهدة الكسيوس مع قادة الحرب الصليبية ، بل ارتكن على المعاهدة التى أبرمها بوهمند مع الكسيوس فى ديفول ، فطلب أن تسلم إليه أنطاكية دون قيد أو شرط ، على أنه أبدى استعداداً لأن تظل أنطاكية تابعة له ، ليسير منها الحملات لقتال المسلمين(١) .

وتبين أثر التحالف بين بيزنطة وفرنج أنطاكية ضد المسلمين ، فيما حدث فى فبراير ١١٣٨ ، من إلقاء القبض بناء على أمر الإمبراطور على كل التجار والمسافرين ، القادمين إلى أنطاكية من حلب والمدن الإسلامية المجاورة ، حتى لا تتسرب إلى الخارج أخبار الاستعدادات الحربية فى أنطاكية(٢) . وتوجه لحصار حلب الإمبراطور البيزنطى ، يسانده أمير أنطاكية وكونت الرها وكتيبة من الداوية . غير أن مناعة المدينة ، وقدوم الأمداد من قبل زنكى حمل الإمبراطور على الانسحاب والمسير لمنازلة شيزر فى أبريل سنة ١١٣٨ ؛ ولم يؤد الحصار إلى نتيجة نظراً لمتانة الاستحكامات ، وتراخى ريموند وجوسلين فى بذل المساعدة ، ونهوض زنكى لمساعدة شيزر ، وإثارة التفرقة بين عناصر الجيش المسيحى ، وتوقع قدوم أمداد من الجزيرة ،

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 214.

Grousset : op. cit. II. p. 97.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 215.

Nicholson : The Growth of the Latin States. p. 439.

Grousset : op. cit' II. p. 100.

Chalandon : Jean II. Comnene et Manuel I Comnene pp. 134-135.

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٦٤ .

وتعرض أملاك الإمبراطور البيزنطى فى آسيا الصغرى لهجمات المسلمين. وكل ذلك حمل الإمبراطور على الانسحاب إلى أنطاكية [1] . ثم غادرها إلى القسطنطينية سنة ١١٣٨ ، ولم يلبث أن عاد إليها سنة ١١٤٢ ، بعد أن وضع الخطط اللازمة لإقامة إمارة لابنه مانويل ، تتألف من أنطاكية وقبرص وأضاليا ، غير أنه فشل فى فرض سلطانه على أنطاكية وبيت المقدس ، سنة ١١٤٣ [2] .

وعلى الرغم من وفاة حنا المفاجئة سنة ١١٤٣ ، فإن ابنه مانويل ، واصل سياسته فى مناوأة الفرنج . فأغار على أنطاكية سنة ١١٤٤ وأنزل الهزيمة بريموند ، الذى توجه إلى القسطنطينية ، حيث اعترف بتبعيته وولائه للإمبراطور البيزنطى [3] .

يصح أن نتساءل عن السر فى اهتمام بيزنطة فى فرض سلطانها على أنطاكية ، والاستيلاء على بلاد تعرضت للتخريب ، ومدن منعزلة فى شمال وسط آسيا الصغرى وغربها ، والقيام بمغامرات حربية فى الشام . الواقع أن احتلال البيزنطيين لهذه الجهات ، لن يمنع تدفق التركمان وزحفهم على المناطق الزراعية ، وليس فى وسع الحملات الحربية أن تعيد ما كان للمدن من رخاء تجارى ، أو تجعل الأمن والسلام يستتب فى الطرق التى

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 217.
Grousset : op. cit. II. pp. 112-311.

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 443.
Runciman : op.cit. II pp. 222-223.
Grousset : op. cit. II. p. 147-150.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 223.
Grousset : op. cit. II. p. 152.
Nicholson : op. cit. p. 443.

تربط بين المدن . ومهما جرى من بذل أمير أنطاكية الولاء والتبعية للإمبراطور البيزنطى ، فلن يفيد ذلك فى التوفيق بين المصالح المختلفة للعناصر المتنازعة ، من النرمان ، والبيزنطيين والأرمن ، أو يزيل أسباب الكراهية المتبادلة بين المسيحيين على اختلاف عناصرهم ، اللاتين واليونانيين والسريان(١) . وما أحرزه حنا كومنين من كسب وربح ، من وراء حملاته ، لايقاس مطلقا بما دفعه من ثمن باهظ ، فلم يستطع الفرنج أن يصمدوا لضربات زنكى ، وازدادت الأمور السياسية تعقيداً(٢) .

الرها :

باستيلاء بلدوين على الرها سنة ١٠٩٧ ، أشبع رغبته وحقق طموحه . والواقع أن الرها لم تقع فى الأراضى المقدسة ، غير أن قيام إمارة للفرنج فى الحوض الأوسط لنهر الفرات ، كان بالغ الأهمية للدفاع عن كل إمارة تقوم بفلسطين . ويستطيع بلدوين أن يبرر عمله ، بأنه يتفق مع الخطوط الرئيسية للسياسة البيزنطية ، غير أن ذلك ليس كافيا لأن يبرره من الناحية القانونية أمام العالم المسيحى . إذ أن الرها تدخل فى نطاق اليمين التى أقسمها بلدوين للإمبراطور البيزنطى ، لأنها كانت تابعة له قبل غارات التركمان ، ولم يحز بلدوين هذه المدينة إلا باعتباره من أتباع الإمبراطور(٣) .

اتخذ بلدوين لقب كونت الرها ، وأراد أن ينفرد بالحكم ، ولما لم يتوافر له العساكر ، قرر استخدام الأرمن فى خدمته ، وأنفق الأموال

(١) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 446.

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 446.

(٣) Runciman : History of the Crusades I. p. 206-207.
Grousset : op. cit. I. p. 52-53.

التى عثر عليها فى قلعة الرها ، فى توطيد سلطانه ، وبسط نفوذه ، فدخل فى خدمته بالدوك أمير سموساط ، بعد أن حصل منه على عشرة آلاف بيزنطه[1] .

لحق ببلدوين عدد كبير من فرسان الغرب المسيحى ، بعد استيلائه على الرها واستقراره بها ، فكافأهم بلدوين بما بذله لهم من الأموال وشجعهم على الإقامة فى الرها ، وأن يتزوجوا من أميرات أرمنيات ، بل إنه تزوج أميرة منهن[2] .

وضع بلدوين بذلك أساس السياسة التى اتخذها فيما بعد فى بيت المقدس ، إذ حرص على أن يسيطر أتباعه على الحكومة ؛ وأن يستعين بالمسلمين والمسيحيين فى إدارة الحكومة ، فتندمج بذلك آخر الأمر ، العناصر سويا ، ويسود التعاون بينها . غير أن الفرسان القادمين حديثا من الغرب ، اعتبروا ذلك خيانة لوعود الصليبيين ، فلم يدع ايربان المسيحيين ، كما يجرى تنصيب بلدوين وأمثاله على ممالك فى الشرق[3] . ومع ذلك فإن فئة من صغار النبلاء لحقت ببلدوين فى الرها واستقرت بها[4] .

لم يطمئن بلدوين إلى المسلمين ، فاستولى على سروج وأنزل بها حامية عسكرية وانتزع البيرة ومخاضتها على نهر الفرات ، وأمَّن الطريق الممتد من الرها إلى تل باشر وراوندان ، وهما حصنان تابعان له ، فصار فى وسعه أن يتصل بالحملة الصليبية الرئيسية[5] .

---

(١) Runciman : op. cit. I. p. 208.
Grousset : op. cit. I. p. 61-62.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 208, 209.
Grousset : op. cit. I. pp. 64-68.

(٣) Runciman : op. cit. 209.

(٤) Ibid : op. cit. p 251.

(٥) Runciman : op. cit. I. p. 209.

أدرك المسلمون خطورة كونت الرها ، فحرصوا على مناهضته . ومن الدليل على ذلك ما حدث فى مايو سنة ١٠٩٨ من توقف كربوقا ، أمير الموصل ، عند الرها فى طريقه لنجدة أنطاكية ، ومحاولة انتزاعها من بلدوين ، غير أن ما أضاعه من الوقت سدى عطل المساعدة التى يبذلها لسكان أنطاكية ، وأفاد بوهمند فى اتخاذ التدابير اللازمة للاستيلاء عليها(١) .

ولما تكاثر الفرنج بالرها ، حظوا بعطف بلدوين ، فجعل منهم مجلسه ، بعد أن أبعد نبلاء الأرمن ، وبذل للفرنج ضياع الأرمن إقطاعات ، فاشتد ارتباط الفلاحين بهم ، بينما تعرض الأرمن للمهانة والاحتقار ، وأدوا ما تقرر عليهم من الضرائب صاغرين . وما دبروه من مؤامرة سنة ١٠٩٨ ، للتخلص من بلدوين ، أو لإرغامه على أن يشتركوا معه فى الحكم ، أدى انكشافها إلى إمعان بلدوين فى التنكيل بهم ، وابتزاز أموالهم ، واستبعادهم من وظائف الدولة ، فلم يبق إلا على فئة قليلة منهم ، مثل أبى الغريب حاكم البيره(٢) .

ذاع صيت بلدوين ، بعد أن أقام إمارة الرها ، قوية وافرة الثروة . وكان بلدوين فى مستهل الحرب الصليبية فقيرا ، يعيش على ما يجود به عليه إخوته ، ولم يكن له من الشهرة ، ما لكبار النبلاء أمثال ريموند وهيو فرماندوا ، أو كبار المغامرين ، مثل بوهمند ؛ فأضحى

---

(١) Runciman : History of the Crusades I. p. 211.

Grousset : op. cit. I. pp93-95.

(٢) Runciman : op. cit. pp. 211- 212.

Grousset : op. cit. I. pp. 65-67.

William of Tyre : op. cit I. pp. 305-306

أقوى من هؤلاء جميعا وأكثر أهمية ، وعرفته الحروب الصليبية على أنه من أكفأ رجال السياسة وأشدهم مراسا وقوة[١] .

لما علم بلدوين بوفاة جودفرى ، ملك بيت المقدس ، فى يوليه سنة ١١٠٠ ، لم يغادر الرها إلا بعد أن أعد التدابير اللازمة لسفره ورحلته ، وما تكون عليه الحكومة فى الرها من بعده . وكان ابن عمه ، بلدوين لى بور ، وقتذاك فى أنطاكية ، حيث كان فيما يبدو ينوب عنه عند بوهمند ، ولعله كان يقوم بالوساطة بين بلدوين وبوهمند ، فتقرر استدعاؤه إلى الرها ، حيث قلده بلدوين حكمها ، على أن يكون خاضعا لسيادته[٢] .

تعتبر الرها إمارة حاجزة ، تقوم بحماية أنطاكية من الأخطار التى تتعرض لها من جهة المسلمين ، وهى أكبر مساحة من إمارة أنطاكية ، وتقع على جانبى نهر الفرات ، وتمتد من راوندان وعينتاب إلى موضع فى داخل الجزيرة ، يقع إلى الشرق من الرها[٣] . ويعوز إمارة الرها ، الحدود الطبيعية والتجانس بين سكانها ؛ فعلى الرغم من أن معظم سكانها من المسيحيين ، من السريان واليعاقبة والأرمن ، فإنه خضع لسلطانها أيضا ، مدن إسلامية ، مثل سروج ، ولم يستطع الفرنج أن يقيموا بها حكومة مركزية[٤] . أظهر بلدوين لى بور من سياسة العطف على الأرمن واجتذابهم ما يزيد على ما جرى عليه ابن عمه بلدوين الأول ؛ فلم يرتكب من القسوة والشدة ما اشتهر به سلفه فى استخلاص الأموال ، على الرغم

---

(١) Runciman : History of the Crusades I, p. 212.

(٢) Runciman : op. cit. I. p. 322.

Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 381.

Grousset : op. cit. I. p. 388.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 10.

(٤) Runciman : History of the Crusades II. p. 10.

بن أنه انتزع من الأرمن مقادير كبيرة من المال اللازم لحمايتهم والدفاع عنهم[١] .

ولتوثيق اتحاد الفرنج بالمسيحيين فى الشرق ، تزوج بلدوين من أميرة أرمنية ، ابنة جبريل صاحب ملطية . والمعروف أن بلدوين الأول نهض فى سبتمبر ١١٠٠ لمساعدة جبريل ، فى رد هجمات الدانشمنديين عن ملطية ، وترتب على ذلك أن أضحى أمير ملطية من أتباع كونت الرها[٢] ؛ ومن الدليل على ما ينطوى عليه هذا الزواج من صفة سياسية ما أورده وليم الصورى « من أن بلدوين تولى إمارة الرها ، فأظهر فى إدارتها ما ادخره من القوة ، وأصاب النجاح والتوفيق ، على أن أكثر من يخشاهم ويساوره الشك فيهم ، الأعداء الذين أحاطوا به من كل جانب . ولما لم يتخذ له زوجة أو ولدا ، تزوج من مورفيا ابنة جبريل دوق ملطية ، فحصل من وراء هذا الزواج على بائنة ، عبارة عن مبلغ كبير من المال ، كان فى أشد الحاجة إليه ، وكان جبريل أرمنيا ، فى نشأته ولغته وعاداته ، غير أنه كان يونانى المذهب[٣] » . أما الشكوى الوحيدة ضد بلدوين لى بور ، فتتمثل فيما اشتهر به من الميل إلى ابتزاز الأموال بكل ما استطاع أن يستخدمه من الوسائل[٤] .

وساد الهدوء والسلام ممتلكات بلدوين ، وقوى ساعده بقدوم أحد أقاربه جوسلين كورتيناى من فرنسا لزيارته ، وكان من أشجع فرسان عصره ،

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 388.
Matthieu d' Edesse. Hist. Arm. I. p. 149.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 389.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 460.
Grousset : op. cit. pp. 389-391.
Runciman : op. cit. II. p. 38.

(٤) Ibid. op. cit.I. p. 38.
Grousset : Loc. cit.

اشتهر بالإقدام وجودة التدبير ، والتعقل والحكمة ، غير أنه لم يكن وافر الثروة ، فقدم إلى الشام للسعي وراء الرزق[١] . فرح بلدوين لى بور ، لقدومه ، فأقطعه من أملاك الرها ، ما يقع غرب الفرات ، وتشمل تل باشر التى اتخذها جوسلين مقرا له ، ودُلُوك ، التى تقع على مفترق الطرق المؤدية إلى مرعش ، وحلب ، والرها ، ثم عينتاب التى تقع إلى الجنوب الشرقى من دلوك ، وراوندان ، وقورس ، وتألفت من هذه الحصون إمارة تل باشر ، التى تواجه إمارة السلاجقة فى حلب[٢] . أما بلدوين فاحتفظ لنفسه بالأراضى الواقعة وراء نهر الفرات ، ولم يكن له فى الغرب منه إلا سموساط التى اتخذ منها رأس جسر ، يصل به إلى ملطية التى يحكمها صهره جبريل . والواضح أنه صار مسئولا عن مواجهة الترك فى الموصل وديار بكر[٣] .

وكان الأراتقة أول من اشتبك معهم بلدوين لى بور فى القتال . وسبق الإشارة إلى أن بلدوين الأول استولى سنة ١٠٩٧ على سروج الواقعة إلى الجنوب الغربى من الرها ، فانتزعها من أميرها بلك بن بهرام ، وبذلها لأحد الفرسان واسمه فولك شارتر[٤] . وحدث بعد أن تولى الرها ، بلدوين لى بور ، أن حشد سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا جيشه ، وهاجم

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 392.
William of Tyre : op. cit. II. p. 450.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 392.
Runciman : History of the Crusades II. p. 38.
William of Tyre : op. cit. I. p. 450.
Grousset : op. cit. I. p. 392.

(٣) William of Tyre : op. cit. I. p. 450-451.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٣٢ .

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 393.

سروج ، فنهض لقتال بلدوين وفولك بجيش مؤلف من الأرمن والفرنج ، فحلت بهما الهزيمة ، ولقى فولشر مصرعه (يناير سنة ١١٠١) ، وانسحب بلدوين إلى الرها ، ومنها توجه إلى أنطاكية يلتمس المساعدة من تانكرد . وفى تلك الأثناء ، حصر الأراتقة قلعة سروج ، التى لجأ إليها المسيحيون ، وتولى الدفاع عنها رئيس الأساقفة اللاتين فصمدت طويلا للحصار . واستطاع بلدوين لى بور ، بما حصل عليه من الأمداد من أنطاكية أن يلحق الهزيمة بالأراتقة وأن يخمد ثورة سكان المدينة من العرب ، فى فبراير ١١٠١[١] .

وحوالى سنة ١١٠٣ ، أغار بلدوين لى بور ، على أملاك الأراتقة فى ماردين ووقع فى أسره أحد أمرائهم ، وسبى كثيراً من الأطفال والنساء ، وساق عددا كبيرا من الأغنام والماشية والخيل والإبل[٢] .

وفى نفس السنة أغار الفرنج من الرها على مرج الرقة وقلعة جعبر ، على نهر الفرات ، واستاقوا المواشى ، وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين[٣] .

امتدت كونتية الرها من ديار بكر إلى الشمال الشرقى من حران ، فكان بحوزتها فى هذه الجهة حصن تل موزن ، وإقليم شاباختان ، ويقع فى أقصى الشرق من هذا الإقليم ، حصن تل حوران الذى يقع إلى الجنوب الغربى من ماردين[٤] .

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 393.

(٢) Ibid. loc. cit.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٥٣ .

Grousset : op. cit. II. pp. 393-394.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 394.

Rey : Colonies Franques pp. 321-322.

ويعتبر بلدوين لى بور هو المسئول عن الحملة التى هاجمت حران سنة ١١٠٤ وسانده فيها جوسلين صاحب تل باشر ، وبوهمند أمير أنطاكية وتانكرد ، غير أنهم تعرضوا لهزيمة ساحقة على أيدى سقمان وجكرمش ، ووقع بلدوين وجوسلين فى الأسر(١) . فبادر بوهمند وتانكرد بالمضى إلى الرها ، لترتيب أمر الدفاع عنها ، فتولى تانكرد الوصاية عليها ، حتى يعود بلدوين من الأسر . ولم يطلق سراح الأسيرين ، إلا سنة ١١٠٧ . وخضعت الرها ، نحو أربع سنوات ، لسيطرة تانكرد ، الذى أناب عنه فى إدارتها ابن عمه رتشارد . فلما تم إطلاق سراح بلدوين ، لم يشأ تانكرد أن يعيد إليه الإمارة ، مالم يحلف له يمين الولاء ، فلم يستجب بلدوين لرغبته ، لأنه من أتباع ملك بيت المقدس . وعندئذ حرص بلدوين على أن يتخذ من الأمراء المسلمين والأرمن حلفاء له ، لمناهضة تانكرد وأطاعه . واستطاع بلدوين آخر الأمر أن ينتزع من تانكرد الرها ، بفضل وساطة بطريرك أنطاكية(٢) . واشـــتد ثائرة تانكرد ، والتمس له حليفا لمناوأة بلدوين ، فكان هذا الحليف ، رضوان أمير حلب ، الذى استشعر الخطر من جاولى صاحب الموصل ، فكتب إلى تانكرد « إذا ملك جاولى حلب ، لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام ، وطلب منه النصرة ، والاتفاق على منعه »(٣) .

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 43.
Grousset : op. cit. I. pp. 403-409.
Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 389.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .
William of Tyre : op. cit. I. pp. 456-459.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 438.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٢٣ .

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 113.
Grousset : op. cit. I. pp. 440-441.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٢٥ .

على أن بلدوين ملك بيت المقدس ، استطاع أن يوفق فى سنة ١١١٠ ، بين بلدوين كونت الرها وتانكرد القيم على أنطاكية ، حينما تعرضت أملاكهما للخطر من قبل مودود[١] . « فاتفق الفرنج كلهم ، وأزالوا ماكان بينهم من الشحناء ، فتصافى تانكرد وبلدوين ، بعد النفار »[٢] .

وأنزلت قوات مودود من التخريب والدمار بأراضى الرها ، ولاسيما مايقع منها شرقى الفرات ، مالم تنهض من هذه الضربة . بل إن الفرنج أنفسهم استبد بهم الشك والارتياب فى سكان الرها ، وأضحوا يميلون إلى الانتقام وابتزاز الأموال ، فكرههم السكان ، بعد أن رحبوا بقدومهم للدفاع عنهم[٣] .

وحدث سنة ١١١٣ ، أن ارتاب بلدوين فى سلوك الأرمن بالرها ، وخشى عداوتهم له ، وانحيازهم إلى مودود ، وتسليم الرها له ، وذلك أثناء مسيره إلى تل باشر ، لانتزاعها من جوسلين ، فقرر بلدوين طرد جميع الأرمن من الرها ، فلجأوا إلى سمو ساط ، ثم أجاز لهم أن يعودوا سنة ١١١٤[٤] . على أن بلدوين استولى على أملاك أمراء الأرمن المجاورين ؛ فانتزع قيسوم ورعبان من باسيل Vasil Dgh'a سنة ١١١٦ ، فلم يلبث باسيل أن التجأ إلى القسطنطينية[٥] ، وفى السنة التالية ، استولى على

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. pp. 115-116.
Grousset : op. cit. I. p. 451-454.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٤ .
Grousset : op. cit. I. p. 453.

(٣) Fink : "The Foundation of the Latin States" pp. 399-400.
: Mawdud of Mosul. Precursor of Saladin. » The Muslim World. XL111 (1953). pp. 18-27.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 129.
Grousset : op. cit. II. pp. 487-491.

(٥) Grousset : op. cit. I. p. 493.
Chalandon : Comnenes II. pp. 101-102.

البيرة على نهر الفرات ، والتى كانت بيد أبى الغريب ، لما لها من أهمية استراتيجية ، لوقوعها على الطريق المؤدى من الرها إلى عينتاب[١] . وانتزع أيضا كركر ، ولم يبق من الأمراء الأرمن المستقلين ، سوى ليو الروبينى بجبال طوروس ، الذى أبدى الاستعداد للتعاون مع الفرنج[٢] .

ولما تولى بلدوين لى بور ، عرش مملكة بيت المقدس ، باسم بلدوين الثانى ، فى أبريل سنة ١١١٨ ، جعل جوسلين على الرها ، على أن يكون تابعاً له . وكان جوسلين وقتذاك يحكم طبرية (الجليل) ، غير أنه تأجل رحليه إلى الرها ، نظرا لتعرض طبرية لهجمات أمير دمشق ، فاشترك مع بلدوين الثانى فى شن غارة على أذرعات بإقليم حوران الذى اشتهر بوفرة خيراته ، ومنه تستمد دمشق مؤنها[٣] .

وارتحل جوسلين إلى الرها فى سبتمبر سنة ١١١٩ ، بعد أن بذل يمين الولاء لبلدوين ، وتعاهد بحماية البلاد من الغارات التى تتعرض لها . والواضح أن ما اشتهر به جوسلين من البسالة ، وما أظهره من الكفاية الحربية فى غاراته على حوران وعسقلان ، كان من الأسباب التى استند إليها بلدوين فى اختياره[٤] .

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 493.

(٢) Runciman : op. cit. II p. 132-135.
Grousset : op. cit. I. p. 5 7.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 146.
Grousset : op. cit. I. pp. 537-538.

(٤) Nicholson : The Growth of the Latin States. p. 415.
Runciman : History of the Crusades II. p. 152.
Grousset : op. cit. I. p. 574.

وجرت الأمور فى الرها على ما يشتهى الفرنج ، حتى عكر صفوها ، وقوع جوسلين ، أميرها ، ووالبران صاحب البيرة ، فى أسر بلك بن بهرام الأرتقى ، وذلك حين اعترضا طريق بلك سنة ١١٢٢ ، أثناء اجتيازه أملاك الرها ، فى طريق عودته من حلب إلى إقطاعه فى خرتبرت ، فاعتقلهما بقلعته فى خرتبرت ؛ ولما نهض ملك بيت المقدس لاستخلاصهما ، وقع أيضاً فى أسر بلك[1] .

كان جوسلين دائماً موضع عطف الأرمن ومحبتهم ، فما كاد يصل إلى الشرق ، حتى اتخذ له ، مثلما فعل بلدوين الأول وبلدوين الثانى ، زوجة أرمنية ، وهى أخت توروس الروبينى ، الذى ينتمى إلى الكنيسة الأرمنية المستقلة ، ومن الطبيعى أن تعطف على مواطنيها من الأرمن . وجرى جوسلين ، حتى بعد وفاتها ، على سياستها فى رعاية الأرمن والعطف عليهم ، فلم يلجأ إلى ما اتخذه بلدوين الثانى من أساليب الشدة والقمع ، مع الأرمن[2] .

وإذ تقع قلعة خرتبرت فى إقليم أرمنى ، استطاع جماعة من الأرمن أن يقتحموا القلعة وأن يسيطروا عليها ، فتسلل جوسلين مع ثلاثة من الأرمن ، إلى خارج الحصن ، واستمر فى مسيره ، حتى بلغ تل باشر ثم أنطاكية ، يحرض على حشد الجند لإطلاق سراح بلدوين . ثم مضى إلى بيت المقدس لاستثارة الفرنج للنهوض لمساعدة سيدهم وملكهم . ولما علم بلك بأنباء الثورة فى خرتبرت ، عجل بالمسير إليها بجنوده ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. pp. 161-162.

Grousset : op. cit. I. pp. 583-584, 587-588.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤١٨ – ٤١٩ .

(٢) Runciman : op. cit. II p. 163.

فاقتحم القلعة ، وانتقم من الأرمن النازلين بها ، غير أنه أبقى على الأسرى ، فنقل الملك والبران إلى قلعة حران[١] .

وما حدث ، من قبل ، من النزاع بين بلدوين لى بور ، كونت الرها ، وبين تانكرد القيم على إمارة أنطاكية ، من الخصومة والنزاع على السلطة والنفوذ وبعض المواضع ، تكرر وقوعه بين جوسلين (الرها) وبوهمند الثانى (أنطاكية) سنة ١١٢٧ . وما كان يأمله بلدوين الثانى ملك بيت المقدس من التعاون بينهما لمهاجمة حلب ، والاستيلاء عليها ، بعد مصرع البرسقى فى نوفمبر سنة ١١٢٦ ، وانتشار الفوضى بها ، لم يتحقق بسبب التشاحن بينهما ، وما يكنه كل منهما للآخر من الكراهية . ذلك أن جوسلين حصل بمقتضى الهدنة التى أبرمها مع البرسقى سنة ١١٢٦ ، على جهات وأملاك ، تعتبر تابعة لأنطاكية فى وقت من الأوقات ، يضاف إلى ذلك مطالبة جوسلين ، بصداق زوجته الثانية ، أخت روجر أمير أنطاكيه ، وكان عبارة عن مدينة عزاز ، فأنكر بوهمند الاتفاق ، ولم يسع جوسلين إلا أن يهاجم بعض القرى التابعة لأنطاكية والتى تتاخم الرها . ولم يثنه عن عزمه ، ما أصدره بطريرك أنطاكية من قرار الحرمان ضد إمارة الرها بأسرها . على أن ملك بيت المقدس ، أسرع بالمسير جهة الشمال سنة ١١٢٨ ، وأرغم الأميرين على أن يسود الوفاق بينهما ، فأعاد جوسلين إلى بوهمند ما استولى عليه من الغنائم ، وتخلى عن دعواه فى عزاز[٢] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. pp. 164-165.

Grousset : op. cit. II. pp. 589-594.

Nicholson : Tha Growth of the Latin States pp. 419-420.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 181.

Grousset : op. cit. I. pp. 650-652.

ولما اضطربت الأمور فى أنطاكية عقب مصرع بوهمند الثانى سنة ١١٢٩ ، هرع بلدوين الثانى وجوسلين إلى أنطاكية ، واستطاع بلدوين بما له من سلطان على كل أمراء الفرنج ، أن يسوى ما وقع من التنازع على حكم أنطاكية ، فتولى الوصاية عليها بنفسه ، وأمر نبلاء أنطاكية بأن يحلفوا يمين الولاء والتبعية له ، ولحفيدته كونستانس ، ثم عهد إلى جوسلين بالوصاية على أنطاكية وأميرتها ، وعاد إلى بيت المقدس سنة ١١٣٠[١] .

مات بلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، وجوسلين كونت الرها ، سنة ١١٣١ ، فتولى حكم بيت المقدس فولك دوق أنجو بعد أن تزوج من ابنة بلدوين الثانى ، وتولى حكم الرها ، والقوامة على أنطاكية ، جوسلين الثانى ابن جوسلين . على أن جوسلين الثانى افتقر إلى ما اشتهر به أبوه من النشاط والبسالة والدهاء السياسى . فعلى الرغم من شهرته بالسخاء والبذل ، فإنه كان يؤثر الراحة ، والإخلاء إلى الدعة والكسل ، فضلا عن ميله إلى الانغماس فى اللهو والمباذل ، فى وقت اشتدت فيه الحاجة إلى شخص يتولى حكم أهم المعاقل المسيحية فى الشرق ، على حين أنه ظهر وقتذاك فى العالم الإسلامى ، عماد الدين زنكى الذى جعل نصب عينيه تحقيق وحدة القوى الإسلامية والجهاد ضد الفرنج[٢] .

فما ترتب على مصرع بوهمند الثانى من استيلاء ليو الروبينى على المدن الثلاثة ، مامسترا وطرسوس وأدنه ، والسيطرة على قليقية ، يقابله سوء الأحوال ، واضطراب الأمور فى الرها ؛ إذ أن تمرتاش الأرتقى أضاف

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 184.
Grousset : Histoire des Croisades I. pp. 671-673.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 44-45.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 193.
Grousset : op. cit. I. pp. 676-678.
Nicholson : "The Growth of the Latin States" pp. 432-433.

إلى أملاكه بعض الرها فى الشرق . وعلى الرغم من أن ميخائيل الأرمنى تنازل عن إمارته ، فى كركر ، إلى جوسلين كونت الرها ، فأقام بها حامية عسكرية ، غير أنه لم يستطع حماية مزارعها وأراضيها مما تعرضت له من النهب من قبل الأرمن والترك ؛ ولم يكن بلدوين أمير قيسوم ومرعش أكبر أتباع كونت الرها ، من القوة ما يجعله يحمى بلاده[١] . وما ارتبط به جوسلين الثانى من أواصر القرابة مع ليو الروبينى ، حمله على التدخل لتسوية النزاع بين ريموند أمير أنطاكية وليو الأرمنى سنة ١١٣٧ . والواقع أن هذه الهدنة ، تقررت بين المتحاربين ، بسبب ما تردد من الأنباء بعزم الإمبراطور البيزنطى ، حنا كومنين على الزحف على قليقية وشمال الشام ، وانصراف فولك إلى ردما تعرضت له بيت المقدس من خطر خارجى[٢] .

وعلى الرغم من العداء بين ريموند ، الذى تولى حكم أنطاكية بعد زواجه من كونستانس ، وبين جوسلين الثانى كونت الرها فإنهما اشتركا بقواتهما فى الحملة التى قادها الإمبرطور البيزنطى حنا كومنين ، لمهاجمة حلب والبلاد الإسلامية سنة ١١٣٨[٣] .

أظهر الإمبراطور البيزنطى فى حصار شيزر ١١٣٨ ، ما اشتهر به من البسالة والنشاط ، فقاد الهجوم بنفسه ، وبذل الوعود بالمكافأة عند ما يلوح النصر ، فأثار بذلك حماس الشبان للبذل فى سبيل الحرب[٤] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 201.
Michel Le Syrien : Chronique, (ed. Chabot). III. p. 244.

(٢) Grousset : op. cit. pp, 51-53.
Runciman : op. cit. II. p. 201.

(٣) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 442.
Runciman : History of the Crusades II. p. 214-218.

(٤) William of Tyre : op. cit. I. p. 95.
Runciman : History of the Crusades II. p. 214-218.
Grousset : op. cit. II. p. 104-106.

غير أن أمراء الفرنج ، ولا سيما ريموند وجوسلين الثانى ، لم يحفلا بما يدور حولهما ، ويشير ابن الأثير إلى ما اتبعه زنكى من سياسة الإيقاع بين الإمبراطور البيزنطى وأمراء الفرنج ، «فكان يرسل إلى ملك الروم ، يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه ، فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ، ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ، ويقول لهم إن ملك بالشام حصنا واحدا ، ملك بلادكم جميعا ، فاستشعر كل من صاحبه»[١] . والواقع أن ريموند لم يحرص على نجاح الإمبراطور فى الاستيلاء على حلب أو شيزر لاعتقاده أن ذلك يؤدى إلى أن يتنازل للإمبراطور عن أنطاكية[٢] . وعلى الرغم من أن جوسلين يختلف فى تقديره وحدسه عن ريموند ، فإن النتيجة تكاد تكون واحدة ؛ فالمعروف أن جوسلين يكره ريموند بواتييه ، ويخشى كل ما من شأنه أن يزيد فى أملاك صاحبه[٣] .

وكشف سلوك أمير أنطاكية وكونت الرها ، عن كل ما تنطوى عليه نفوسهما . فما أخلدا إليه من الركود والخمول ولعب النرد ، وانصرافهما عن الاشتراك الفعلى فى حصار شيزر ، أدى إلى رفع الحصار عن المدينة[٤] .

اشتد سخط الإمبراطور البيزنطى على الأميرين ، ولم تجد نفعا توسلاتهما له وإظهار الندم ، فأصر على أن يدخل أنطاكية فى موكب رائع ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٧ – ٣٨ .

Grousset : op. cit. II. p. 108.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 108.

(٣) Grousset : loc. cit.

William of Tyre : op. cit. II. p. 97.

(٤) Grousset : op. cit. II. pp. 108-110.

William of Tyre : op. cit. II. p. 95.

لتأكيد سيادته على الإمارة ، وسار إلى جانبيه ريموند وجوسلين ، وبعد أن أقام فى القصر أياما ، يلتمس الراحة والاستجمام ، استقبل ريموند وجوسلين ونبلاء الإمارة ، ووجه الحديث إلى ريموند عن الاتفاق الذى سبق عقده بينهما . وأشار إلى ما بذله من وعد فى الإسهام بإنشاء إمارة لريموند على حساب أملاك المسلمين ، وإلى أن ذلك لا يتحقق إلا بأن يتنازل له عن القلعة ، كيما يجعـــل بها الأموال اللازمة لنفقات الحملة ، وأن يتوافر لعساكره الحرية فى دخول المدينة والخروج منها ، وأن يوفر بها من أدوات الحصار اللازمة لمهاجمة حلب ، وطلب إليه الوفاء بوعده[1] .

اشتد وقع هذه العبارات على الأمير ونبلائه ، إذ أدركوا ما تعرضت له المدينة من المصير ، بعد أن بذلوا التضحية عند الاستيلاء عليها . وإذ كانت أنطاكية حاضرة كبيرة فإن سقوطها يؤدى إلى انهيار البلاد وتداعيها . على أنه من ناحية أخرى ورد فى الاتفاق الذى أقره الأمير ، ما يشير إلى قبوله التنازل عنها . يضاف إلى ذلك أن الإمبراطور جلب معه عساكر بلغت من الوفرة والكثرة ما يصعب مقاومتها . ولما بلغ الأمر هذا الحد من الحرج أعلن جوسلين ، أنه ليس بوسع الأمير وحده أن يوافق على الطلب ، فلابد أن يستشير نبلاءه وأصدقاءه[2] . وتقرر تأجيل المناقشة فى الموضوع فترة من الزمن ، استطاع جوسلين أثناءها أن يثير أهل أنطاكية ، وأشاع فى المدينة بأنه جرى بيع أنطاكية للإمبراطور ، وأن القلعة انتقلت إليه ، وأنه تقرر طرد السكان من دورهم التى أقاموا

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 98.
Grousset : op. cit. II. p. 113-114.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. pp. 98-99.
Grousset : op. cit. II. p. 114-115.

فيها زمنا طويلا . فهاجم السكان رجال الإمبراطور واندفع جوسلين إلى القصر يخطر الإمبراطور بما حدث وما سوف يترتب على ذلك من تعذر إجابة طلبه . ولم يسع الإمبراطور إلا أن يعلن أنه عدل عن رأيه ، وأنه يبقى على المدينة والقلعة فى يد ريموند ، على أن يلتزم ريموند وجوسلين باليمين التى حلفاها للإمبراطور[١]. الواقع أن ما أثاره جوسلين من الفتنة فى أنطاكية لم ترجع فحسب إلى النفور والعداء بين اللاتين واليونانيين ، بل إلى أن سيادة الإمبراطور على أنطاكية سوف تؤدى إلى إعادة البطريرك اليونانى ، وهذا هو السر فى أن البطريرك أصدر أمرا بألا يشترك مسيحيون لاتين فى حملة الإمبراطور على قليقية[٢] .

ولم يسع الإمبراطور آخر الأمر ١١٣٨ إلا أن ينسحب من أنطاكية عائدا إلى القسطنطينية ، بعد أن وعد بأنه سوف يعود بجيش ضخم لتنفيذ الاتفاق الذى سبق إبرامه[٣] .

ولم ينس الفرنج بأن الإمبراطور سعى لانتزاع أنطاكية منهم ، ولن يغفر حنا كومنين للفرنج أنهم خذلوه فى شيزر ، وما ألحقوا به من إهانة فى أنطاكية . وأدت الحملة البيزنطية الصليبية الموجهة للاستيلاء على حلب ، إلى انفصال الصلة الأدبية بين الفرنج والبيزنطيين ، وترتب عليها نتائج خطيرة عند الصليبيين والبيزنطيين[٤] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. pp. 99-101.

(٢) William of Tyre : op. cit II. p. 101, note 5.
Chalandon : Comnénes II. pp. 154-156.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 102.

(٤) Grousset : op. cit. II. p. 121.

عاد حنا كومنين سنة ١١٤٢ مرة أخرى بجيوشه إلى سوريا ، عن طريق قليقية . وعزم فى هذه المرة على أن يضم إلى ممتلكاته أنطاكية ، والراجح أنه أرادها لابنه مانويل ، ومع ذلك فإن قدومه هذه المرة إنما جاء بناء على طلب ريموند وجوسلين ، ليساندهما ضد زنكى(١) .

على أن حنا كومنين استهل حملته فى الشام بما أبداه من التهديد والإنذار لجوسلين كونت الرها . فالمعروف أن جوسلين كان المسئول ، سنة ١١٣٨ ، عن فشل حملة حنا كومنين ضد شيزر ، وعن إفساد محاولة حنا للاستيلاء على أنطاكية . فقرر الإمبراطور أن يمنع جوسلين من التدخل ، فنصب معسكره أمام تل باشر ، ولم ينسحب إلا بعد أن حصل على ابنته إيزابيلا كورتيناى رهينة عنده(٢) . وإذ اطمأن إلى موقف جوسلين توجه بجيشه إلى أنطاكية ، فى سبتمبر ١١٤٢ . ووفقا للاتفاق الذى سبق إبرامه بين الإمبراطور وأمير أنطاكية ، طلب حنا كومنين إلى ريموند أن يتنازل له عن أنطاكية وقلعتها واستحكاماتها كيما يتخذ منها قاعدة لمهاجمة المدن الإسلامية المجاورة . ووعد بأن يوفى بكل ما تعاهد به من هذا الاتفاق ، بأن يقيم إمارة لريموند ، بعد أن يستولى على حلب وحماه وحمص وشيزر(٣) .

أدرك ريموند وأعيان أنطاكية أن تسليم المدينة إلى اليونانيين ، سوف يؤدى آخر الأمر إلى سقوطها فى أيدى المسلمين ، مثلما حدث من قبل ، بسبب تراخى البيزنطيين ، ولذا التمسوا من الأعذار ما يجعل تحقيق المعاهدة

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 146.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 146.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 123-124.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 124.
Grousset : op. cit. II. p. 147.

أمرا عسيرا ، فأرسلوا البطريرك ليتحدث باسمهم عند الإمبراطور ، فأشار بأنه ليس من حق ريموند أو زوجته التنازل عن أنطاكية إلا بموافقة السكان والنبلاء ، وليس لأحد منهما أن يتنازل عن شيء من الأراضي ، فإذا أصر على ذلك ، تقرر طرده من المدينة وممتلكاتها[١] . ولم يسع الإمبراطور إلا الارتحال ، ولم يلبث أن مات ١١٤٣[٢] .

منذ حوالى سنة ١١٤٠ ساءت العلاقات بين جوسلين وريموند ، بعد أن التزم جوسلين بقبول سيادة ريموند . وأثار جوسلين كراهية ريموند ، بسبب تدخله لصالح البطريرك رادولف ، فلما انعقدت الهدنة بين جوسلين وسوار أمير حلب ، أصبح الشقاق بين جوسلين وريموند حقيقة واقعة[٣] .

وزاد من هذا الشقاق ما تعرض له الأميران من هجوم من قبل الإمبراطور البيزنطى فصار كل منهما يكن الكراهية للآخر ، وطال أمد العداء بينهما ، حتى إذا تعرض أحدهما لخطر ، لم ينهض الآخر لمساعدته ، بل يجد فى ذلك متعة وسرورا[٤] . ولم يلزم الأميرين على الوفاق وطرح النزاع ، إلا الملوك الأقوياء فى بيت المقدس أمثال بلدوين الثانى وفولك . على أن نظم المملكة التى كفلت لفترة طويلة سلامة إمارات الفرنج فى الشام ، أصابها الركود زمن الملكة مليسند ، ووصايتها على ابنها بلدوين الثالث . ولم يعد فى وسع الملكية أن توفق بين كبار المقطعين ، بل إنه

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 125.
Grousset : op. cit. II. p. 147.

(٢) William of Tyre : op. cit. II, p. 127-128.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 235.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 174.
William of Tyre : II. p. 141.

إذا تعرضت الرها أو أنطاكية لغزو من قبل التركمان ، فلا يصح الركون إلى تدخل ملك بيت المقدس(١) .

الواقع أن زنكى اختار الوقت الملائم لمهاجمة الرها ؛ إذ كان عالماً بسياسة الفرنج ، ومن الدليل على ذلك ما لجأ إليه من إطلاق سراح الملك فولك بعد وقعة بعرين (مونتفراند) ، حتى لا يتم التحالف بين الفرنج والبيزنطيين ، وما اتخذه من خطة الدفاع . وإذ توقف نشاط مملكة بيت المقدس ، بعد وفاة فولك ، وتداعى التحالف بين البيزنطيين والفرنج ، استأنف الغزو والإغارة ، وشجعه ما وقع من التشاحن والتنازع بين جوسلين وريموند بواتييه ، فأدرك أنه لن ينهض أحد لمساعدة الرها ، ولذا قرر مهاجمتها والاستيلاء عليها(٢) .

المعروف أن جوسلين الثانى لم يجر على سياسة بلدوين لى بور ، وجوسلين الأول فى اتخاذ مقرهما بالرها ، وتوفير ما تحتاج إليه من المؤن والأسلحة التى تلزمها فترة طويلة من الزمن ؛ فكفلا لها بذلك الأمن والطمأنينة ، بل خشى جانبها المدن المجاورة . اتخذ جوسلين مقره فى تل باشر ، لما اشتهرت به من الخصوبة ، ولما توافر بها من أسباب المتعة ، فضلا عن بعدها عن الاضطرابات التى يثيرها أعداؤه(٣) . وصحب جوسلين معه إلى تل باشر القادة المشهورين ، فتولى الدفاع عن المدينة (الرها) رئيس الأساقفة اللاتينى ، وسكانها من الأرمن واليعاقبة والنساطرة ؛ الذين اشتهروا بأنهم تجار ، ولم يكن لهم خبرة بالقتال ، فأصبحت حماية المدينة موكولة إلى العساكر المأجورة ، الذين لم يحصلوا

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 174.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 175.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 140-141.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. pp. 140-141.

Grousset : op. cit. II. pp. 177-178.

على رواتبهم وأجورهم ، وفقا لمدة خدمتهم أو نوع ما يؤدونه من عمل ، بل كانوا ينتظرون عادة نحو سنة أو أكثر حتى يكتمل جباية ما هو مطلوب لهم من الأجور[١] .

ومن الأسباب التى تذرع بها زنكى لمهاجمة الرها سنة ١١٤٤ ، ما حدث من تحالف جوسلين مع قرا أرسلان الأرتقى أمير ديار بكر ، ولم يدرك جوسلين ما يجلبه على نفسه من الأخطار ، بتدخله فيما يقع بين المسلمين من منازعات[٢] .

كان زنكى ، فى تلك الأثناء ، قد فرغ من منازعاته مع خصومه من الأمراء المسلمين ، وعقد معاهدة مع السلطان السلجوقى ، مسعود سنة ١١٤٣ ، وانتزع من الأراتقة بعض الحصون فى ديار بكر . ثم التفت إلى إمارة الرها ، فانتزع ما يقع على أطرافها المجاورة له من الحصون ، وشحنها بالعساكر ، وألقى القبض على تجار الفرنج سنة ١١٤٤[٣] .

وألقى زنكى الحصار على الرها منذ ٢٨ نوفمبر ١١٤٤ ، ولم ينهض ريموند لمساعدة جوسلين . وما أرسلته مليسند من بيت المقدس من مساعدة

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 141.
Grousset : op. cit. II. p. 178.
Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 446.
Runciman : History of the Crusades II. p. 235.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 178.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 178.
Runciman : op. cit. II. p. 235.
Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 447.
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٦٤ – ٦٥ .

لم تصل إلا بعد فوات الأوان ، وبذل سكان الرها كل ما لديهم من قوة وشجاعة فى الدفاع عن المدينة ، غير أن ذلك لم يجد نفعا ، فسقطت الرها فى يد زنكى فى ديسمبر ١١٤٤[١][٢] .

طرابلس :

سبق الإشارة إلى مكانة ريموند دوق تولوز ، منذ الدعوة إلى الحرب الصليبية ، وإلى ما اشتهر به من الجاه والثروة ، غير أنه لم يلبث أن فقد الجانب الأكبر من هذه المكانة ، على أن ريموند يعتبر مسئولا عن المتاعب التى صادفها . فما اتخذه من سياسة الولاء للإمبراطور الكسيوس ، قامت أساسا على عاطفة الشرف ، وبعد النظر السياسى . غير أن زملاءه من الفرنج اعتبروها خيانة ، فلم يفد منها إلا قليلا . وأحب فيه أتباعه ما اشتهر به من التقوى ، ومع ذلك لم يكن له سلطان عليهم ، فأجبروه فى الحملة الصليبية الأولى على المسير إلى بيت المقدس ، ودلت الهزيمة التى حاقت بالحملة الصليبية فى سنة ١١٠١ ، على أنه لا يصلح لقيادة حملة من الحملات . وأشد ما تعرض له من المهانة والذلة ، جاء حينما وقع فى أسر تانكرد ، فلم يطلق سراحه إلا بعد أن أقرّ بأنه لا يزعم لنفسه أى حق فى شمال الشام ، وبذا دمر الاتفاق الذى عقده مع الكسيوس. غير أن ريموند اشتهر أيضاً بالعزيمة الصادقة ، فالتزم بالوفاء بوعده بالبقاء فى الشرق ، ولذا حرص على أن يقيم لنفسه إمارة[٢] .

المعروف أن سلسلة من الإمارات الإسلامية ، كانت تفصل بين الفرنج فى أنطاكية والرها ، وبين سائر الصليبيين فى بيت المقدس . وأهم

---

(١) Runciman : op. cit. II. pp. 235-237.

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٦٥ — ٦٦ .

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 34,56.

Grousset : op. cit. I. pp. 318-332.

هذه الإمارات، طرابلس ، التى يحكمها بنو عمار . واشتهر القاضى فخر الملك ، صاحب طرابلس ، بالميل إلى الهدوء والسلام ، ولم يكن لديه إلا جيش صغير ، ومع ذلك كان يحكم إمارة وافرة الثروة . وبفضل ما اتخذه من سياسة المسالمة مع سائر جيرانه ، حفظ استقلاله[1] ، واستند فى ذلك على مناعة حصن طرابلس ، وعلى الميناء التى على شكل شبه جزيرة . ولما اقترب الفرنج ، فى الحملة الأولى ، من أملاكه ، أظهر لهم قدراً كبيراً من التودد لهم ، فأمدهم بالمؤن ، وبذل المساعدة لبلدوين ، حينما اجتاز بلاده فى طريقه إلى بيت المقدس . غير أنه ما كاد الصليبيون يبتعدون ، حتى استولى فخر الملك على انطرطوس ، فسيطر بذلك على الطريق الساحلى الممتد من اللاذقية وجبلة إلى بيروت التابعة للفاطميين[2] .

أما الطريق الآخر الممتد من شمال الشام إلى فلسطين ، فإنه يجتاز وادى الأورنت ، إلى شيزر التى يحكمها بنو منقذ ، ثم حماة التى تخضع لرضوان أمير حلب ، وإلى حمص حيث يحكم جناح الدولة ، الذى كان أتابكا لرضوان . ومن حمص ، يتفرع الطريق إلى فرعين : الأول ، وهو الذى سلكه ريموند أمير تولوز فى الحملة الصليبية الأولى ، يجتاز البقيعة إلى طرابلس وساحل البحر المتوسط ، بينما يسير الطريق الآخر إلى بعلبك التابعة لإمارة دمشق ثم إلى منابع نهر الأردن[3] .

فكر ريموند الذى اتصف بالطموح ، فى أن يقيم لنفسه إمارة تسيطر على كلا الطريقين الطريق الساحلى ، وطريق الأورنت ، وأن يتخذ حمص عاصمة لها . على أنه كان فى الواقع يرمى إلى الاستيلاء على المدن الساحلية ،

---

(١) Grousset : op. cit. I. pp. 336-337.

انظر Sobernheim : Ibn Ammar En Is.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٦٩ — ٢١٢ .

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 57.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 57.

بعد أن أدرك أهمية ما تبذله سفن جنوة من مساعدة له . فلما تم فى نهاية سنة ١١٠١ ، إطلاق سراحه من أسر تانكرد ، توجـه مع صحبه ممن عاش من أمراء حملة سنة ١١٠١ ، ليؤدوا فريضة الحج فى بيت المقدس . فلما وصل هذا الجمع إلى أنطرطوس ، كان الأسطول الجنوى يرسى تجاه المدينة ، فاستولى ريموند على المدينة سنة ١١٠٢ ، دون أن يلقى مقاومة من حاكمها ، لتفوقه عليه فى الجيش ، ولما تعرضت له المدينة من خطر أسطول جنوة[1] . عزم ريموند على أن يتخذ من أنطرطوس نواة لإمارته ، فلم يواصل السير إلى بيت المقدس ؛ ولم تعد خططه خافية[2] ، فأرسل فخر الملك ينذر أميرى حمص ودمشق ، بعد أن تعرض للخطر من قبل الفرنج[3] . لم يكن لدى ريموند ، بعد أن افترق عنه زملاؤه ، سوى ٣٠٠ فارس ، وتراءى للمسلمين ، أن الفرصة سنحت للقضاء عليه ، فأرسل كل من دقاق أمير دمشق ، وجناح الدولة أمير حمص ، جيشاً لمساندة فخر الملك ، ضد ريموند الذى امتدت غاراته إلى طرابلس ، وعسكر بجيوشه فى السهل الواقع خارج طرابلس[4] . على أن الهزيمة لحقت بالقوات الإسلامية برغم تفوقها فى العدد على قوات ريموند[5] . غير أنه لم يتوافر لدى ريموند من القوات ما يكفى للاستيلاء على طرابلس ذاتها ، لما اشتهرت به من الاستحكامات الضخمة ، فتحتم عليه أن يعود إلى أنطرطوس ، بعد أن هادن أهل طرابلس على مال وخيل[6] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 58.

Grousset : op. cit. I. p. 335-336.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 58.

(٣) Grousset : op. cit. I. pp. 337.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 337.

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٣٧ .

Runciman : History of the Crusades II. p. 59.

Grousset : op cit. I. p. 338.

وحاول ريموند الاستيلاء على حمص ، سنة ١١٠٣ ، عقب أن اغتال الباطنية جناح الدولة غير أن أنصار جناح الدولة ، التمسوا من دقاق وأتابكه طغتكين القدوم ، لمنع الفرنج ، فقدما وتولى طغتكين أمر حمص ، وانسحب ريموند إلى الساحل[١] .

ولما عاد ريموند إلى أنطرطوس ، علم أن أسطولا جنويا مؤلفا من خمسين سفينة يرسو باللاذقية ، فاستأجر القوة البحرية ليفيد منها فى مهاجمة طرابلس ، غير أنه لما فشل هذا الهجوم ، توجه الحلفاء صوب الجنوب واستولوا على جبيل ، وحصل الجنويون على ثلث المدينة مقابل المساعدة[٢] . وإذا حرص ريموند على الاستيلاء على طرابلس ، أقام معسكرا فى أرباض المدينة ، وأنشأ سنة ١١٠٤ قلعة اتخذها مقرا له ، واشتهرت باسم جبل الحجاج ، وأطلق العرب عليها قلعة الصنجيل[٣] .

وعلى الرغم من أن طرابلس تعرضت لحصار دائم ، وسيطر ريموند على المنافذ المؤدية لها ، فإنه لازال فى حاجة إلى قوة بحرية دائمة ، وما اشتهر به بنو عمار من الثروة الطائلة ، استطاعوا بفضلها أن يستخدموا أسطولا تجاريا ضخما ، وأن يجلبوا للمدينة ما يلزمها من المؤن ، من الموانى المصرية الواقعة إلى جنوب طرابلس[٤] . وفى أواخر الصيف سنة ١١٠٤ ، خرج فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس ، فأحرق الربض الذى شيده ريموند ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 60.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٤٧ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) Grousset : op. cit. pp 346-347.

Runciman : History of the Crusades II. p. 60.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٥٥ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٣ .

(٣) Grousset : op. cit. p. 347-348.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٨٤ .

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 60.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٥١ .

وتعرض للإصابة بحروق بأن انخسف به السقف المشتعل[١] . واستقر الأمر بين ريموند وفخر الملك على عقد هدنة ، على أن يكون ظاهر طرابلس لصنجيل « ريموند » بحيث لا يقطع الميرة عنها ، ولا يمنع المسافرين منها[٢] . على أن ريموند مات فى فبراير سنة ١١٠٥ ، وصار يعتبر عند الفرنج بأنه من كبار فرسان المسيحيين الذين خاضوا الحرب المقدسة[٣] . وخلف وراءه فى تولوز ابنه الأكبر ، برتراند ، وهو ابن غير شرعى ، وفى لبنان ابنه الطفل الفونسو جوردان ، الذى تولى الوصاية عليه عمه جوردان الذى قدم الشرق حديثاً[٤] .

سار وليم جوردان على سياسة ريموند ، بأن استمر على حصار طرابلس ، والتحالف مع بيزنطة ، فانتظم ورود المؤن إلى الفرنج الذين يحصرون طرابلس ، من قبرص واللاذقية[٥] . وتعرضت طرابلس لخطر الهلاك جوعا ، فارتفعت أثمان المؤن ، واشتد البؤس ، وتفشت الأمراض . وحاول فخر الملك تخفيف هذه الكارثة ، بما وزعه من الطعام والمؤن على العساكر والمرضى ، وبما جباه من ضرائب إضافية ؛ غير أن الفرنج كشفوا الدروب والطرق ، التى تتسرب منها السلع إلى المدينة ،

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 60.
Grousset : op. cit. p. I. 343.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٧ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ١٧٩ .
Grousset : op. cit. I. p. 343.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 61.

(٤) Ibid : op. cit. II. p· 61.
Grousset : op. cit. I. pp. 345-346.

(٥) Grousset : op. cit. I. p. 346.
Chalandon : Alexis Comnene p. 238.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٨٤ .

وذلك نتيجة خيانة بعض الأفراد ، الذين لقوا مصرعهم بأيدى المسلمين وسط المعسكر الصليبى[1] .

استبدت الحيرة بفخر الملك ، فإذا طلب المساعدة من الفاطميين ، أصروا على أن تنضم إليهم إمارته ، ولم تكن علاقته ودية مع طغتكين أتابك دمشق ، والذى ولى أمر حمص ، وأمعن فى قتال جوردان : ورأى فخر الملك أن يلتمس المساعدة سنة ١١٠٥ من سكمان بن أرتق صاحب ماردين ، غير أنه مات أثناء مسيره لنصرة فخر الملك ، وتفرق جنده[2] . على أن فخر الملك استطاع بفضل دبلوماسيته وثرائه ، أن يحافظ على مركزه فى طرابلس ، سنتى ١١٠٦ ، ١١٠٧ . ثم صلحت الأحوال بين فخر الملك وطغتكين ، فاسترد طغتكين رفانية ، غير أنه لم يكن بوسعه طرد الفرنج من الساحل بعد أن توافرت لهم المؤن من قبرص وأنطاكية والبندقية ، فالتمس فخر الملك ، آخر الأمر ، المساعدة من الخليفة ببغداد ، ومن السلطان السلجوقى ؛ وذلك سنة ١١٠٨[3] .

ارتحل فخر الملك صاحب طرابلس ، فى مارس ١١٠٨ ، إلى بغداد ، بعد أن عهد بأمر البلاد إلى ابن عمه ذى المناقب ، ورتب معه الأجناد برا وبحرا ، وأعطاهم رواتب ستة أشهر سلفا ، ورتبهم فى المواضع الهامة .

---

(١) **Runciman : History of the Crusades II. p. 61.**
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

(٢) **Runciman : History of the Crusades II. p. 62-63.**
Grousset : op. cit. I. p. 346.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٦٨ — ٢٧٠ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٣) **Runciman : History of the Crusades II. p. 63.**
Grousset : op. cit. I. pp. 346-348.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣١٥ — ٣١٦ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٠ — ١٦١ .

فاحتفل الخليفة والسلطان بقدومه ، وامتدحا ما أداه من خدمة للدين[١].
على أنه فى الواقع لم يحصل إلا على وعود بتسيير العساكر ، بعد أن يتم لها اخضاع جاولى أمير الموصل . فأدرك فخر الدين أن السلطان محمد سوف لا ينهض لمساعدته ، فعاد إلى دمشق ، ومنها توجه إلى جبلة[٢] . أما أهل طرابلس فإنهم راسلوا الأفضل أمير الجيوش بمصر ، يلتمسون منه ، بفضل سيطرة الدولة الفاطمية البحرية ، أن يبعث من قبله واليا عليهم ، ويحمل إليهم المؤن بحرا ، فسير إليهم شرف الدولة بن أبى الطيب واليا ، ومعه الغلة ، وما تحتاج إليه البلاد فى الحصار ، وتقرر إلقاء القبض على أنصار فخر الملك وتسييرهم إلى مصر[٣] .

لم يستمر فخر الملك طويلا فى حكم جبلة ، ففى مايو ١١٠٩ ، ظهر أمام المدينة تانكرد أمير أنطاكية بكل جيشه ، فلم يسع فخر الملك إلا الإذعان ، وقبوله أن تكون المدينة إقطاعا له من قبل تانكرد ، غير أن تانكرد أرغم فخر الملك على مغادرة المدينة ، فانسحب إلى دمشق ، حيث قضى بها بقية حياته فى كنف طغتكين ، الذى أقطعه الزبدانى من أعمال دمشق[٤] .

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 548.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣١٦ .

(٢) Ibid : op. cit. I. pp. 348-349.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣١٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ٣١٧ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦١ .
Runciman : History of the Crusades II. p 64.
Grousset : op. cit. I. p. 549-350.

(٤) Runciman : History of the Crusades II. p. 64.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٤ — ١٦٥ .

وعلى الرغم من أن فخر الملك خسر طرابلس ، فإن الفاطميين لم يحتفظوا بها ، ولم يظفر بها وليم جوردان . إذ أن بارونات ريموند فى تولوز اعترفوا ، بعد وفاة ريموند ، بابنه بيرتراند وريثا له ، لأنه ظل يحكمهم نحو عشر سنوات ، ولأنهم لم يعلموا بأن لريموند ابنا شرعيا . غير أنهم لما علموا بوجود ابنه الشرعى ، الطفل الفونسو جوردان ، طلبوا إليه أن يتسلم إرثه . وتقرر آخر الأمر أن يختص بيرتراند بأملاك ريموند فى الشرق ، على أن يكون لجوردان أملاكه فى الغرب . فقدم بيرتراند على رأس جيش ضخم مؤلفا من أربعة آلاف فارس وراجل ، بأسطول من أربعين سفينة ، وعقد محالفة مع الجنويين ، لتسانده فى الاستيلاء على طرابلس ، فيكون لها بذلك مكانه تجارية ممتازة بها ، فانحاز إليه أسطول جنوى[1] . ثم قام بيرتراند بزيارة الإمبراطور الكسيوس فى القسطنطينية ، فرحب به ، ووعده بالمساعدة فأقسم له بيرتراند يمين الولاء[2] ، ثم أبحر بيرتراند فوصل إلى أنطرطوس ، وكانت بيد نائب عن وليم جوردان ، فنزل بيرتراند إلى البلد ، وحصل على كل ما احتاجه من المؤن . غير أن النزاع على أملاك ريموند فى الشرق لم يلبث أن تجدد ، فالتمس بيرتراند من بلدوين ملك بيت المقدس التدخل لمصلحته ، بينما لجأ وليم جوردان إلى تانكرد ، فاعتبره مولاه وسيده[3] .

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 65.
Grousset : op. cit. I. pp. 352-353.
Heyd : Histoire du Commerce du Levant I. p. 140.
William of Tyre : op. cit. I. p. 475.

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 67.
Grousset : op. cit. I. p. 353.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٣٣ – ٣٣٤ .
Runciman : History of the Crusades II. p. 67.
Grousset : op. cit. I. 353-354.

وقبل بلدوين دعوة بيرتراند ، لحرصه على جمع كلمة الصليبين فى الشرق ، ولتحقيق طموحه فى زعامتهم . والمعروف أن بلدوين أنكر ما قام به تانكرد من الإساءة إلى بلدوين كونت الرها وجوزلين كورتينيه (تل باشر) . وفى يونيه سنة ١١٠٩ اجتمع سائر أمراء الفرنج بالشرق ، خارج أسوار طرابلس ، فى قلعة جبل الحجاج ، فتم الصلح بين تانكرد وبلدوين أمير الرها وجوزلين ، وتقرر تقسيم أملاك ريموند ، فاحتفظ وليم جوردان بأنطرطوس وعرقه ، بينما حصل بيرتراند على جبيل وطرابلس ، بعد الاستيلاء عليها . وأقسم وليم جوردان يمين الولاء لتانكرد ، وحلف بيرتراند اليمين لبلدوين ، وتم الاتفاق على أنه إذا مات أحد الاثنين ، يرثه الآخر فى أملاكه(١) .

وماكاد الصلح يتم بين الزعماء الصليبيين ، حتى نهضوا للاستيلاء على طرابلس ، فاستعد بيرتراند بجيشه ، وقدم من الجنوب جيش بيت المقدس المؤلف من ٥٠٠ فارس وعدد كبير من الرَّجالة ، بينما جاء تانكرد بسبعمائة من خيرة فرسانه ، وقدم بلدوين أمير الرها وجوزلين بقواتهما . أما والى طرابلس ، من قبل مصر ، واسمه شرف الدولة ، فإنه ألح فى طلب المساعدة من السلطات الفاطمية ، فأعدت أسطولا ضخما تألف من ناقلات لحمل الجند ، وسفن لنقل المؤن ، غير أن ما حدث من المؤامرات والمنازعات بين الزعماء فى مصر ، أجل إقلاع الأسطول من موانى الدلتا . وبعد أن أمضى الوزير شهورا فى تسوية المشاكل ، أصدر الأوامر برحيل الأسطول ؛ غير أن ما حدث من استمرار هبوب الرياح الشمالية ، منع الأسطول

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 68.

Grousset : op. cit. I. p. 356.

William of Tyre : op. cit. I. p. 475.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٣٤ .

من مغادرة الموانى ، فلما أقلع الأسطول ، أفلتت الفرصة لنجدة طرابلس . ومن هذا يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه ، من تقاعدهم عن المسير فى هذه المدة الطويلة ، ولضعف العساكر الذين أرسلوهم مع الأسطول المصرى ، ولأن الوزير الأفضل لم يصحب العساكر مثلما فعل أبوه من قبل[١] .

وتوقفت حامية طرابلس عن المقاومة ، بعد أن قطع المساعدة عنها من جهة البحر أسطولا جنوة وبروفانس ، فأرسل شرف الدولة إلى بلدوين ، يعرض شروط التسليم ، ومنها السماح بمغادرة المدينة لكل من أراد ذلك ، وله أن يحمل معه متاعه ، ومن أراد البقاء بالمدينة لهم أن يحتفظوا بأملاكهم مقابل دفع الجزية للفرنج . وطلب أيضه السماح له بالارتحال مع جيشه إلى دمشق . ووافق بلدوين على هذه الشروط ، وفى يوليه سنة ١١٠٩ (ذى الحجة ٥٠٣) دخل الفرنج طرابلس[٢] .

واقترن دخول الفرنج إلى المدينة ، بنهب ما فيها من الأموال ، وأسر الرجال ، وسبى النساء والأطفال وإحراق الدور ، وقتل من يصادفهم من المسلمين . وغنموا من أهلها من الأموال والأمتعة

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ١٧٩ .

Runciman : History of the Crusades II. p. 68-69.

Grousset : op. cit. I. p. 356-357.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٣٤ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣ .

(٢) William of Tyre : op. cit. I. p. 478.

Runciman : History of the Crusades II. p. 69.

Grousset : op. cit. I pp. 357-358.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٣٤ .

وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحصى ، إذ أن أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالا وتجارة ، واشتعلت النار بمكتبة بنى عمار التى تعتبر من أشهر المكتبات فى العالم الإسلامى ، فتعرض ما بها للدمار[١] .

ولما تم احتلال المدينة ، طرابلس ، وعاد الأمن إلى نصابه ، صار بيرتراند أميرا عليها ، فاتخذ لقب كونت ، ودان بالولاء والتبعية لملك بيت المقدس ، وتجاهل ما ارتبط به مع الكسيوس من الالتزامات[٢] .

تقررت مكافأة الجنويين ، بأن صار لهم حى خاص فى طرابلس ، وقلعة تقع على مسافة عشرة أميال من جنوب طرابلس ، وثلثا مدينة جبيل . وتنازل الجنويون عن نصيبهم فى جبيل إلى قائد الأسطول ، هيو امبرياكو ، فصار إقطاعا وراثيا فى أسرته[٣]. على أن بيرتراند لم يلبث أن حاز كل أملاك أبيه فى الشرق ، بعد وفاة وليم جوردان ، وبذا صار للملك بيت المقدس السيطرة على طرابلس[٤]. وقامت طرابلس بدور كبير فى الحروب الصليبية ، لما اشتهرت به من الرخاء والخصوبة ، وبفضل موقعها ، بين فرنج الشمال وفرنج فلسطين[٥] . وعلى الرغم من أن بونز الذى ولى حكم طرابلس ،

---

(١) Grousset : op. cit. p. 356.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٣٤ .

(٢) Runciman : History of the Crusades II. p. 69.
Grousset : op. cit. I. pp. 358-359.

(٣) Ibid : op. cit. II. p. 359.
Runciman : History of the Crusades II. p. 69.
Rey : "Les Seigneurs de Gibelet" Revue de. L' Orient Latin vol III. pp. 399-403.

(٤) Grousset : op. cit. I. pp 363-364.
Runciman : History of the Crusades II. p. 70, 115.

(٥) Ibid : op. cit. II. p. 70.

بعد وفاة أبيه بيرتراند سنة ١١١٢ ، لم يشارك أباه فى الميل إلى البيزنطيين أو كراهية تانكرد ، فإنه لم يلبث بعد وفاة تانكرد أن اعترف ، مع أميرى أنطاكية والرها ، بسيادة ملك بيت المقدس[(1)] ؛ واستمر هذا الاعتراف قائما زمن بلدوين الثانى الذى ولى حكم بيت المقدس سنة ١١١٨[(٢)] . على أنه حدث فى أوائل سنة ١١٢٢ ، أن أعلن بونز كونت طرابلس فجأة ، تخليه عن الولاء لملك بيت المقدس ، ولم يكن لهذا التمرد سبب معروف ، فأثار بذلك غضب الملك بلدوين ، الذى حشد جيشه وزحف على طرابلس ، فلم يسع بونز إلا الإذعان ؛ فعفا عنه الملك بلدوين[(٣)] . وبذل ملك بيت المقدس لكونت طرابلس المساعدة فى الاستيلاء سنة ١١٢٦ على حصن رفانية ، فكفل لطرابلس بذلك الأمن والسلام ، وتوافرت أسباب الاطمئنان فى الطرق المؤدية بين بيت المقــدس وأنطاكية[(٤)] . ونهض الملك فولك سنة ١١٣٣ لمساعدة بونز ، حينما وقع فى كمين نصبه له فى بعرين ، سوار نائب عماد الدين زنكى فى حلب ، فتوطدت العلاقات الودية بين فولك وبونز[(٥)] . على أن بونز لقى مصرعه سنة ١١٣٧ على أيدى الدماشقة[(٦)] .

حكم بونز فى طرابلس ٢٥ سنة ، وبرغم كفايته الإدارية ، لم يكن سياسيا نابها ، وكان حريصا على أن يتخلص من سيادة ملك بيت

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 124, 126.

(٢) Ibid : op. cit. II p. 144.

(٣) Ibid : op. cit. II p. 160.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 174-175.
Grousset : op. cit. I. p. 366.

(٥) Grousset : op. cit. I. p. 366.

(٦) Grousset : op. cit. II. pp. 367-368.

المقدس ، غير أنه لم يكن من القوة ما يكفى لتحقيق أغراضه واستقلاله . وخلفه على حكم طرابلس ابنه ريموند الذى اشتهر بشدة العاطفة ، وتزوج من أخت مليسند ملكة بيت المقدس ، وحرص على أن ينتقم من المسيحيين اللبنانيين ، بأن قتل عددا كبيرا منهم ، لاعتقاده بأنهم أسهموا فى قتل أبيه ، فازدادت كراهية السكان الأصليين له[١] .

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 203.

الفصل التاسع

الجهاد ضد الصليبيين

بوادر توحيد الجبهة الإسلامية

تكوّن فى الشرق الأدنى ، أوائل القرن الثانى عشر الميلادى ، أربع إمارات صليبية ، هى مملكة بيت المقدس ، وإمارات أنطاكية وطرابلس بالشام ، والرها بشمال العراق . وكان لمملكة بيت المقدس الزعامة على تلك الإمارات. فاستطاع ملوكها فى النصف الأول من القرن الثانى عشر أن يفرضوا سيادتهم بهذه الجهات ، بعد أن أدركوا أنه ما لم يتحد الأمراء ويخضعوا لمشورة هؤلاء الملوك ، وينبذوا ما بينهم من منازعات ، ويلتمسوا العون والمساعدة منهم ، لما استقروا بالبلاد ، بل تعرضوا للزوال . على أن معظم الفضل فى استتباب أمر هذه الإمارات واستقرارها ، يرجع إلى ما أصاب الإمارات والجماعات الإسلامية من العنف ، وإلى الاختلاف المذهبى الناشب بين خلافة بغداد السنية ، وخلافة القاهرة الشيعية ؛ مما سهل على الصليبيين زحفهم إلى قلب فلسطين فى كثير من الأحوال . ولو أن الأقطار الإسلامية اتحدت وقتذاك ، ونست ما بينها من العداوات ، لاستطاعت أن تبقى على فلسطين ، وأن تحفظها من تطلع الأجنبى الغريب إليها[1] .

أفاد المسيحيون من الهزيمة التى لحقت بالمسلمين ؛ ففى الشمال استطاع الإمبراطور البيزنطى ، الكسيوس كومنين ، أن يستغل الحرب الصليبية فى استعادة سلطانه على غرب آسيا الصغرى وأخضع الأسطول البيزنطى كل ساحل آسيا الصغرى ، بل إن اللاذقية التى كانت من موانى الشام

---

(١) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٩ ، ١٠

أضحت من جديد فى حوزة البيزنطيين . أما الإمارات الأرمنية بجبال طوروس وجبل اللكام التى أوشكت على الزوال على أيدى الترك ، فإنها أخذت ترتجى البقاء(١) .

ويفصل مملكة بيت المقدس عن الإمارتين الصليبيتين بالشمال ، الرها وأنطاكية ، رقعة طويلة من الأرض ، يحكمها أمراء مسلمون ، ساد بينهم النزاع والشقاق . فعلى ساحل البحر المتوسط ، بشمال المملكة ، تقع أربع موانى هامة ، عكا ، وصور ، وصيدا *، وبيروت ، تدين بالتبعية للدولة الفاطمية فى مصر ؛ وتوقف بقاؤها على ما تبذله مصر من مساعدة لها عن طريق الأسطول(٢) .

وإلى الشمال من بيروت تقع إمارة بنى عمار ، وعاصمتها طرابلس ، التى امتدت حتى بلغت انطرطوس ، أما جبلة التى تقع بين انطرطوس واللاذقية ، والتى كانت بيد زعيم محلى ، هو القاضى ابن صليحة ، فتنازل عنها فى صيف سنة ١١٠١ إلى طغتكين أتابك دمشق ، ثم انتقلت إلى ابن عمار(٣) . وبجبال النصيرية ، فيما يلى انطرطوس وجبلة ، تقع إمارات صغيرة ، تخضع لبنى محرز ، ومن أشهرها المرقب والقدموس ، ويحكم بنو عمرون فى الكهف . أما الجزء الأعلى من وادى الأورنت فاقتسمه خلف بن ملاعب أمير أفامية ، وهو شيعى المذهب ، يدين بالولاء للفاطميين ، وبنو منقذ فى شيزر ، وجناح الدولة فى حمص . ولا زالت حلب بيد رضوان الذى اتخذ لقب ملك ، وينتمى للأسرة السلجوقية . واستقر بإقليم الجزيرة وما يليها شرقا أمراء من أسرة أرتق ، الذين لجأوا إلى هذه الجهات ، بعد أن استرد الفاطميون بيت المقدس

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 8.

(٢) Ibid : op. cit. II. p. 11.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣١٩ – ٣٢٠ .

سنة ١٠٩٧ ، ويعتبرون من أتباع دقاق أمير دمشق ، والذى كان ينازع رضوان السلطة[١] .

وعلى الرغم من أن الفاطميين فقدوا معظم ممتلكاتهم فى فلسطين ، فإن الوزير الأفضل دأب على مهاجمة أملاك الصليبيين ، ولم يكف عن التوغل فى أراضى فلسطين ، ولا زال الأسطول المصرى على اتصال بالموانى الفاطمية على الساحل[٢] .

وحكم فى بغداد الخليفة العباسى المستظهر ، الذى ارتكن على مساعدة السلاجقة . غير أن السلطان السلجوقى بركياروق أعوزه ما اشتهر به أبوه ملك شاه من الكفاية والمقدرة ، فنازعه الملك أخواه سنجر ومحمد ، ونشبت الفتن ، التى استمرت زمنا طويلا ، ولم تنته إلا بعد وفاة بركياروق وانفراد محمد بالسلطنة ١١٠٤[٣] . ومن الواضح أن هذه الفتن وقعت أثناء قدوم الصليبيين ، ولم ينهض السلاجقة لردهم[٤] .

ولم يكن لسلطان السلاجقة بآسيا الصغرى ، قلج أرسلان ، من القوة ما يمنع زحف الصليبيين ، بعد أن استولوا على عاصمة بلاده نيقية ، وانتقل جانب كبير من أراضيه إلى أيدى البيزنطيين ، فضلا عن علاقته السيئة مع سلاجقة الشرق . على أن هجرة التركمان إلى آسيا الصغرى هيأت له الفرصة لإعادة تأليف جيشه ، وتوافر من التركمان فى هذه البلاد ما طغى على السكان الأصليين ، فتألفت إمارات ، أهمها إمارة دانشمند فى سيواس ، التى سيطرت على الشمال الشرقى من شبه

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 11.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 13.

(٣) Zettersteen : Barkyaruk. En. Is.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 13.

جزيرة آسيا الصغرى ؛ وأحرز أميرها كمشتكين شهرة كبيرة بأسره بوهمند[1] .

والواقع أن الترك السلاجقة فى العراق وفارس وأتابكتهم فى الموصل ، لم يحفلوا بما كان يجرى من أحداث الحروب الصليبية فى الشام ، فتهيأت الفرصة لتوطيد حكم الفرنج فى الشام مما نشب من الحروب الداخلية بين الأخوين السلطان بركياروق ومحمد ، استمرت منذ سنة ١١٠١ حتى أوائل سنة ١١٠٤ ؛ وفى تلك الأثناء اتخذ السلطان بركياروق الرى مقرا له ، وخضع لسلطانه بلاد الجبل ، وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة ، ومكة والمدينة . بينما استقر محمد فى أذربيجان ، واعترف بسلطانه بلاد ارانية وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ما عدا تكريت . وما نشب من الحرب بين الأخوين أثار الخراب فى البلاد ، إذ تأثرت بها كل أقاليم الإمبراطورية السلجوقية ، « فعم الفساد ، وصارت الأموال منهوبة ، والدماء مسفوكة ، والبلاد مخربة ، والقرى محرقة ، والسلطنة مطموعة فيها ، محكوما عليها ، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين ، وكان الأمراء الأكابر (أمراء الإقطاع) يؤثرون ذلك ، ليدوم تحكمهم وانبساطهم » فتداعت السلطة المركزية بينما ازداد سلطة أمراء الإقطاع نموا وقوة[2] .

أدرك بركياروق النتيجة التى تؤدى إليها هذه المنازعات ، بما حدث من تضاؤل الموارد ، وتزايد أطماع العساكر ، فقرر تسوية المشاكل مع أخيه ، على الرغم من أن هذا القرار جاء متأخرا . والواضح أن تقدم الصليبيين فى الشام ، كان موضع حديث الجانبين ، فانعقد الصلح

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 13.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٥٣ .

Grousset : op. cit. II. p. 402.

بين الأخوين فى يناير سنة ١١٠٤ ، وبمقتضاه احتفظ بركياروق بالسيادة على ممتلكاته بفارس وبغداد ، وتخلى لأخيه عن الأطراف الغربية ، وتشمل ديار بكر والجزيرة والموصل وسلطنة الشام[1] .

يدل هذا التقسيم على أن بركياروق لم يعد يحفل بأمور الشام ، وتهيأت الفرصة لأخيه محمد لأن يقيم لنفسه فى الغرب إمبراطورية على حساب إمارات الفرنج . غير أن ما اشتهر به محمد من العنف ، منعه من إخضاع كبار الأمراء لسلطانه . وما حدث من تفكك السلطنة السلجوقية بإيران زاد فى قوة البارونات الفرنج فى الشـــام ، ففى سنة ١١٠٤ تجاسروا على أن يسيروا صوب الموصل وبغداد عبر الجزيرة[2] .

كانت الرها أقرب معاقل الفرنج إلى السلطنة السلجوقية ، وتسيطر على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل . وعلى الرغم من أن الموصل كانت بالغة الأهمية ، فى مراقبة الصليبيين[3] ، وكان لأتابكها السيطرة والنفوذ على أمراء التركمان بأعالى الجزيرة ، فإنها أضحت موطن التنافس بين الأمراء الترك والتركمان ، حتى فاز بولايتها آخر الأمر سنة ١١٠٢ جكرمش ، الذى كان يحكم وقتذاك بجزيرة ابن عمر[4] .

واغتنم الفرنج فرصة اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم

---

(١) Ibid. : op. cit. I. p. 402.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٥٣ .

(٢) Grousset : op cit. I. pp. 403.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٥٣ .

(٣) ومن الدليل على هذه الأهمية ، نهوض كربوقا أتابك الموصل لنجدة أنطاكية ضد الصليبيين ، سنة ١٠٩٨ (انظر . Grousset : op. cit. I. p. 395.)

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

بعضا ، والتنازع بينهم ، على ولاية حران ، فتوجهوا إليها وحصروها فى ربيع سنة ١٢٠٤[(١)] .

اشتدت ثائرة سقمان فى ماردين ، وجكرمش فى الموصل ، لما تعرضت له حران من خطر داهم ، نظرا لوقوعها على الطريق المؤدى إلى بغداد ، ولإدراكهما ما يتهددهما من الخطر . فتغلبت عاطفة الأخوة والوحدة الإسلامية ، واستقر الوفاق بينهما ، فاجتمعا سويا على نهر الخابور ، بجيوش من التركمان والترك والعرب والأكراد ، وتوجها لملاقاة الفرنج . أما بلدوين لى بور كونت الرها فإنه حصل على المساعدة من جوسلين صاحب تل باشر ، وبوهمند أمير أنطاكية وتانكرد وبطريرك أنطاكية ، وتألف جيشه من الفرسان الصليبيين وعدد كبير من الأرمن[(٢)] .

كادت حران تقع فى أيدى الفرنج بعد التضييق عليها ، غير أن ما وقع من شجار بين بلدوين لى بور وبوهمند ، وحرص كل منهما على أن يرفع علمه على المدينة بعد سقوطها ، أدى إلى هزيمة ساحقة فى مايو سنة ١١٠٤ ، فوقع فى أسر المسلمين بلدوين وجوسلين[(٣)] .

الواقع أن معركة حران دلت على خطأ الأسطورة التى تجعل من الفرنج قوة لا تقهر ، بل إنها حددت مصير الرها المحتوم ، وسقوطها المتوقع

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .

Grousset : op cit I. p. 404.

Runciman : op. cit. II. p. 41.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 405.

Runciman : op. cit. II. p. 41.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 406.

Runciman : op. cit. II. p. 42-43.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٥٧ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٤٨ .

فى أيدى المسلمين ، وضياع أمل الصليبيين فى الاستيلاء على حلب ومنع الاتصال بين القوى الإسلامية فى الشام والجزيرة وآسيا الصغرى[١] .

ترتب على الانتصار فى حران ، أن أصبح لجكرمش أتابك الموصل الصدارة على زعماء الترك بشمال الشام والجزيرة ، وعزز مركزه ، ما حدث سنة ١١٠٥ ، من وفاة منافسه سقمان بن أرتق ، ووقوع النزاع بين أسرته على أملاكه ، وانصراف رضوان صاحب حلب ، إلى انتزاع ما استولى عليه تانكرد وبوهمند من الممتلكات وراء نهر الأورنت ، التى تتاخم حلب ، بعد أن أثار سكانها من المسلمين فوثبوا على الفرنج وقاتلوهم فى سرمين ومعرة مصرين . وجلت الحاميات الصليبية عن معرة النعمان والبارة وكفر طاب ، فانحسرت حدود إمارة أنطاكية ، بل إن الترك من حلب صاروا يهددون أرباضها[٢] .

وما هو جدير بالذكر أن الأرمن اشتركوا فى الثورة ضد الحكم الصليبى فى بعض الجهات ، ويرجع سبب ذلك فيما يبدو إلى موقف اللاتين العدائى من الكنيسة الجورجانية ، وإلى استبداد الفرنج وشدتهم ، ومن الدليل على ذلك أن الأرمن هم الذين سلموا حصن أرتاح إلى رضوان[٣] . وهم الذين هددوا حامية بوهمند فى ابلستين شمال مرعش[٤] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 44.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 411.
Runciman : op. cit. II. p. 45.
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٥٠ .
Grousset : op. cit. I. p. 411.
Runciman : op. cit. II. p. 46.

(٤) Runciman : op. cit. II. p 46.
Grousset : op. cit. I. p. 412.

وعلى الرغم من أن الفرنج توقفوا فى توسعهم ، فإن الانقسام لم يلبث أن دب من جديد بين صفوف المسلمين ، فوقع الشقاق بين سقمان وجكرمش ، فانسحب سقمان إلى ماردين ولم يشترك بعدئذ فى القتال[1]. ولم يطمئن السلطان محمد الذى انفرد بالحكم بعد وفاة بركياروق سنة ١١٠٥ ، إلى جكرمش ، وخشى أنه عقد اتفاقاً سرياً مع قلج أرسلان سلطان السلاجقة بآسيا الصغرى ، فقرر سنة ١١٠٦ عزله من أتابكية الموصل وعيّن مكانه جاولى ، الذى أنزل الهزيمة بقلج أرسلان سنة ١١٠٧ على نهر الخابور[2] . وحاول أيضاً أن يستقل بالموصل ، غير أن السلطان محمد أرسل إليه سنة ١١٠٨ جيشاً بقيادة مودود ، طرده من الموصل ، فلجأ إلى الرحبة وأخذ يفكر فى التحالف مع الفرنج ، فأطلق سراح بلدوين ، وكذا جرى إطلاق سراح جوسلين[3] .

لم يرض تانكرد بأن يسلم إلى بلدوين ، بعد إطلاق سراحه ، الرها ما لم يحلف له يمين الولاء ، غير أن بلدوين رفض هذا الاقتراح ، لأنه يعتبر نفسه من أتباع ملك بيت المقدس . وحرص على أن يؤلب على تانكرد كل المناوئين له ، فاجتذب إلى جانبه الأرمن على اختلاف مذاهبهم ومواطنهم ، ووطد علاقته بجاولى ، فأطلق سراح الأسرى المسلمين ، وعمّر المساجد فى سروج ، فتنازل جاولى عما تبقى من الفدية المطلوبة من بلدوين ، فأضحى بلدوين بذلك يهدد

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 44.

Grousset : op. cit. I. p. 422.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٩٨ .

Runciman : op. cit. p. II. p. 110.

Cahen : op. cit. p. 248.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٢١ – ٣٢٢ .

Runciman : op. cit I. p. 112.

Cahen : op. cit. p. 249.

ممتلكات تانكرد فى أنطاكية ، وهدد جاولى ممتلكات رضوان على نهر الفرات ، بعد أن استولى على بالس(١) . فاستنجد رضوان بتانكرد ، وكتب إليه « يعرفه ما هو جاولى عليه من الغدر والمكر والخداع ، ويحذره منه ، ويعلمه أنه على قصد حلب ، وأنه إن ملكها لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام ، وطلب منه النصرة والاتفاق على منعه »(٢) . فاستجاب تانكرد للدعوة ، ولاسيما أنه لم ينس انحياز جاولى إلى بلدوين لى بور ، ضد النرمان ومنعهم من الاستيلاء على الرها . وما حدث من قيام محالفات بين المسلمين والفرنج ، ولما يمض على قدوم الصليبيين إلى هذه الجهات ، إلا نحو عشر سنوات ، دلّ على فتور روح الحرب المقدسة والجهاد الدينى عند الفرنج والمسلمين(٣) .

دارت المعركة عند منبج بين جاولى وحلفائه من الفرنج (بلدوين) من جهة ، وبين رضوان وحلفائه من الفرنج (تانكرد) من جهة أخرى ، وحلت الهزيمة بجاولى وحلفائه ، وتكبدوا خسائر فادحة(٤) . ومن نتائج هذه المعركة ، أن الأرمن سكان الرها ، كرهوا حكم اللاتين ، مثلما كرهوا حكم النرمان الذى يمثله رتشارد نائب تانكرد على

---

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 114.
Grousset : op. cit. I. pp. 439-440.
Cahen : op cit. p. 249.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٢٥ .
Grousset : op. cit. I. p. 440.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 441.
Cahen : op. cit. p. 250.
Runciman : op. cit II. p. 113.

(٤) Runciman : op. cit II. p. 114.
Grousset : op. cit. I. p. 442.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٢٥ – ٣٢٦ .

إمارة الرها ، فأرادوا أن يستقلوا ، وأن يتخذوا واحداً منهم أميراً عليهم ، فحاولوا الاتصال بكواسيل كمايتولى أمرهم . غير أن هذه المحاولة أحبطها قدوم بلدوين لى بور وجوسلين إلى الرها ، فأنزلا بالأرمن أشد العقاب ، وبادرا بالضرب على أيديهم دون هوادة أو رحمة(١) .

ومنذ سنة ١١٠٨ ، زال التعاون الذى كان قائماً بين الأرمن والفرنج ، وأصبحت السلطة كلها بأيدى الفرنج ، وأضحى الأرمن موضع ريبة وشك ، ومن الدليل على ذلك ما حدث سنة ١١١٢ حينما حاولوا تسليم الرها لأتابك الموصل «مودود» ، عند قتاله للفرنج ، وترتب على ذلك طرد السكان الأرمن من الرها(٢) .

المرحلة الأولى من الجهاد

(مودود — حصار الرها ١١١٠) :

على الرغم من المنازعات التى نشبت بين البارونات فى الشمال ، الرها وأنطاكية ، فإن بلدوين الأول ملك بيت المقدس ، استطاع أن يوفق بين هؤلاء الأمراء ، وأن يسوى المنازعات الواقعة بينهم(٣) . واشتدت حاجة العالم الإسلامى أيضاً إلى توحيد جبهته . فالمعروف أن الدولة السلجوقية فى فارس خضعت للسلطان محمد بن ملك شاه ، بعد وفاة أخيه بركياروق ، فانفرد بحكمها ، وبذا تهيأت الفرصة لتوجيه قواته لقتال الفرنج . فتجهز مودود أتابك الموصل سنة ١١١٠ ، بناء على أمر السلطان محمد السلجوقى ، لقتال الفرنج فتقرر افتتاح الجهاد بقصد الرها ومضايقتها(٤) :

---

(١) Runciman ; op. cit. II. p. 114.
Grousset : op. cit. I. p. 442.

(٢) Grousset : op.cit. I. p. 442.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 449.
Runciman ; op. cit. II. p. 114-115.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٩ .

فانحاز إليه الأمير سكمان صاحب خلاط وميافارقين بأرمينية (ولذا اشتهر باسم شاه أرمن أو أرمينية) ، والأمير ايلغازى صاحب ماردين ، يصحبه عدد كبير من التركمان . وكان الهدف الأساسى لهذه الحملة ، الاستيلاء على كونتية الرها ، بالمبادرة إلى انتزاع المدينة أولا ، فحاصروها فى أبريل – مايو ١١١٠[١] .

ولم تكد الأنباء تتردد بحشد القوات الإسلامية حتى أرسل بلدوين لى بور يستنجد بملك بيت المقدس ، وارتاب فى أن تانكرد يساند المسلمين . على أن بلدوين لم يتوجه لمساعدة كونت الرها ، إلا بعد الاستيلاء على بيروت فى يونيه ١١١٠ ، وانحازت إليه قوات أرمنية ، من البيرة ورعبان . واستطاع ملك بيت المقدس أن يزيل أسباب الشقاق بين الأمراء الصليبيين ويجمع شملهم « فتعاهدوا وتعاقدوا على الثبات فى الحرب والمصاير » ورحلوا إلى الرها . غير أن حلف الفرنج لم يلبث أن تداعى ، إذ أن تانكرد سمع شائعات باستعداد رضوان لمهاجمة أنطاكية ، وقدمت الرسل إلى ملك بيت المقدس ، تنهى إليه بما تعرضت له فلسطين من خطر الغزو من قبل المصريين[٢] . فتقرر التخلى عن حملة الجزيرة ، وعاد تانكرد إلى شموساط ، واستمع بلدوين لى بور إلى نصيحة الملك بلدوين ، بأنه لا جدوى من حماية الجهات الواقعة شرق الفرات ، بعد أن تعرضت للنهب والتخريب

---

(١) = ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٤٠ .
Runciman : op. cit. II. p. 115.
Grousset : op. cit. I. pp. 449-450.
Grousset : op. cit I. p. 459.
Runciman : op. II. p. 115.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٠ .
Grousset : op. cit. I. p. 453.
Runciman : op. cit. II. p. 116.

من قبل مودود . فقرر كونت الرها أن ينزل حاميات فى حصنى الرها وسروج وبعض الحصون الصغيرة ، وتلقى السكان المسيحيون النصيحة بأن يغادروا البلاد إلى جهات أكثر أمانا ، وهى التى تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات . فتحرك السكان ، ومعظمهم من الأرمن ، صوب الغرب ، غير أن مودود لحق بهم ، وأنزل بهم ضربة قاصمة ، كانت بالغة الأثر فى انهيار الحكم البيزنطى بهذه الجهات[١] .

وإذ تفرق مودود وجيوشه بعد حصار الرها ، التفت تانكرد لقتال رضوان ، الذى هاجم ممتلكاته بأنطاكية ، أثناء انصرافه إلى مساندة الصليبيين فى رد مودود عن الرها . استولى تانكرد على الأثارب وزردنا فى ديسمبر سنة ١١١٠ ، وألزم رضوان بدفع الجزية ، والتمس منه الهدنة ، أمراء شيزر ، وحمص وحماه ، « فعظم خوف المسلمين ، وبلغت القلوب الحناجر ، وأيقنوا باستيلاء الفرنج على ساير الشام لعدم الحامى له ، والمانع عنه »[٢] .

والواقع أن ما أحرزه تانكرد من نجاح يرجع إلى عاملين : الأول أن البيزنطيين لم يكونوا مستعدين للقيام بهجوم مضاد ، لانصرافهم إلى تسوية ما استجد من المشاكل فى آسيا الصغرى بعد وفاة السلطان قلج أرسلان ؛ أما العامل الثانى الذى عطل حركة الجهاد ضد الصليبيين وأفاد منه تانكرد فى إخضاع رضوان ، الذى أصبح ينصاع إلى أوامره كأنه أحد أتباعه ،

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 117.
Grousset : op. cit. I. pp. 454-455.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٨ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٣٨ – ٣٣٩ .
Runciman : op. cit. II. p. 118.
Grousset : op cit. I. pp. 457-458.

فيتمثل فى حركة الباطنية التى تهدف إلى مناوأة الخلافة العباسية ومن يساندها من الأمراء السلاجقة[(١)] .

على أنه تولّد من شدة تداعى سلطان تانكرد وحكومته روح جديدة ورد فعل شديد . ولم تصدر هذه الروح عن رضوان الذى زاد فى إقطاعات الباطنية ، بل نبعت من المجتمع الإسلامى ذاته . فكانت حركة التحرر من خطر الفرنج نابعة من الشعب ، ومن العنصرى العربى ، وكان مصدرها سوق حلب ، فأعلن الثورة التجار وأرباب الحرف ، بسبب ما تعرضت له طرق القوافل من تهديد من قبل الفرنج ، واتخذت الحركة صفة دينية ، وصفة الدعوة إلى الوحدة الإسلامية ، على أن الطابع القومى ظل منذ البداية ملازما لها[(٢)] . ويشير ابن الأثير إلى تخوف المسلمين من الفرنج ، ومصالحتهم على قطائع يدفعونها لهم ، وإلى ما تعرضت له مواكب قادمة من مصر ، تحمل التجار والأمتعة الكثيرة من هجوم مراكب الفرنج ، فأخذوها وغنموا كل المتاجر وأسروا التجار ، « فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد مستنفرين على الفرنج ، فلما وردوا بغداد ، اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم ، فاستغاثوا ومنعوا الناس من الصلاة وكسروا المنبر » ، فوعدهم السلطان والخليفة بالاهتمام بهذا الأمر ، وصدرت الأوامر إلى الأمراء بالتجهز للجهاد ، وذلك أواخر سنة ٥٠٤ (١١١١)[(٣)] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. 119.
Grousset : op. cit. I. p. 458-460.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 460.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٣٩ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٥٨ .
Cahen : op. cit. p. 256-261.
Runciman : op. cit. II. p. 121.
Grousset : op. cit. I. p. 460.

والملحوظ أن هؤلاء الحلبيين لم يستنجدوا بالملك رضوان صاحب حلب ، لتحالفه مع الباطنية وتانكرد ، فالتمسوا النجدة من الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى ، اللذين أرسلا فى السنة الماضية ١١١٠ جيشا بقيادة مودود لاسترداد الضفة الشرقية للفرات . والواضح أيضا أن الخليفة بالاستجابة لهذه الدعوة ، أضحى مطمئنا على مركزه ، بسبب خروج الأمراء إلى الغزو بعيدا عنه ؛ يضاف إلى ذلك أن ما اشتهر به مودود من الكفاية والقدرة والطموح ، جعلته يلتمس فى الجهاد وسيلة لفرض سيطرته وسيادته[١] . وشجع على تلك الحركة أيضا ماكان من خصومة بين الإمبراطور الكسيوس وتانكرد . ففى نهاية سنة ١١١٠ ، وقبل قدوم وفد حلب ، إلى بغداد ، أنفذ الكسيوس إلى الخليفة العباسى سفارة تنوه بما بذله الإمبراطور من خدمة للإسلام بأن أوقف سنة ١١٠٨ محاولة بوهمند المسير إلى البلاد الإسلامية مجتازا أراضى الكسيوس . والراجح أن الإمبراطور كان يرمى من وراء ذلك إلى اشتراك الجانبين الإسلامى والبيزنطى فى مناوأة تانكرد ، وقلع الفرنج من هذه الديار[٢] . ولذا كان أهل حلب يقولون للسلطان محمد السلجوقى « أما تتقى الله تعالى ، أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام ، حتى قد أرسل إليك فى جهادهم[٣] » .

تقرر توجيه الجيوش ، بقيادة مودود أتابك الموصل للجهاد ، وذلك سنة ١١١١ (٥٠٥) ، فتوافد عليه أمراء النواحى بجنودهم وغلمانهم ،

---

(١) Cahen : op. cit. p. 261.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ – ١٧٤ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٣٩ .
Runciman : op. cit II. p. 121.
Grousset : op. cit. I. pp. 461-462.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٣٩ .

تدفعهم عوامل شتى ، منها ما هو دينى ، ومنها ما هو شخصى . فقصد الرها ، ولما امتنعت عليه ، تحول بمن معه لمهاجمة تل باشر (يوليه سنة ١١١١)[١] . على أن جوسلين صاحب تل باشر ، استطاع أن يرشى القائد الكردى أحمديل ، وكان أكثر الجيش معه ، فارتحل عن الحصن ، « على كراهية من باقى الأمراء »[٢] .

وكادت تل باشر أن تسقط فى يد المسلمين لو لم يلجأ جوسلين إلى رشوة أحمديل ، وفى تلك الأثناء ، كادت حلب تقع فى أيدى تانكرد ، فكتب رضوان إلى مودود وأحمديل وغيرهما « إننى قد تَلِفْتُ وأريد الخروج من حلب ، فبادروا إلى الرحيل » ، فحسّن أحمديل الرحيل عن تل باشر ، بعد أن أشرفوا على أخذها[٣] .

ولما بلغت قوات مودود بلاد حلب ، صدمتهم المفاجأة ، فالمعروف أن هذه الجيوش قدمت بناء على طلب الحلبيين الذين استنجدوا بالسلطان والخليفة ؛ غير أن رضـوان لم يخرج لاستقبال جيوش مودود ، لما توجّسه من الخوف من أنهم جاءوا لانتزاع حلب منه . والواقع أن الباطنية هم الذين أوعزوا إلى رضوان بذلك ، فأغلق أبواب حلب دونهم ، وأن رضوان لم يبلغ به الحماس للجهاد ما بلغه أهل حلب الذين استنفروا المسلمين ببغداد[٤] .

---

(١) Cahen : op. cit. p. 261.
Runciman : History of the Crusades II. p. 121.
Grousset : op. cit. I. p. 464.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ .
Grousset : op. cit. I. p. 465.
Runciman : op. cit. II. p. 122.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٩ .
Runciman : op. cit. II. p. 122.
Grousset : op. cit. I. p. 465.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 465. =

لعل ما حدث من الألفة بين المسلمين والفرنج فى الشام ، والخوف من انتزاع الإقطاعات وإعادة توزيعها إذا أيد المسلمون بالشام الترك على الغزو ، وحرمان الأسرات العريقة من إقطاعاتها ، كل ذلك حمل الملك رضوان وتانكرد ، على أن يسويا ما بينهما من مشاكل ، وأن يعملا على الاحتفاظ بالوضع الراهن فى الشام ، فلم يتعاون رضـوان مع الجيش التركى ، وأقدم على عقد هدنة مع تانكرد ، على أن يقف على الحياد[1] . وصار تانكرد يعتبر جيش مودود عدوا له ، واشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد[2] .

أما طغتكين أتابك دمشق فإنه على الرغم من شدة تعلقه بحركة الجهاد وصد الصليبيين ، فإنه كان حريصاً أيضا ، مثل رضوان ، على الإبقاء على الأوضاع فى الشام ، واشتد قلقه من الترك ، « فخاف أن تؤخذ منه دمشق ، فشرع فى مهادنة الفرنج سرا »[3] . ويشرح ابن العديم السر فى كل ما حدث أن الأمراء المسلمين وقتذاك « كانوا يريدون بقاء الفرنج ، ليثبت عليهم ما هم فيه » ، أى يبقون على ما لهم من سلطان ونفوذ[4] .

وكيفما كان الأمر ، يعتبر مقدم مودود إلى الشام ، وإن لم يؤد إلى نتيجة ما ، نقطة تحول هامة فى تاريخ حركة الإفاقة الإسلامية ، لما ترتب

= Runciman : op. cit. II. p. 122.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٤١ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(١) Grousset : op. cit. I. p. 465.

(٢) Ibid: op. cit. I. p. 465-466.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٤١ .

Grousset : op. cit. I. p. 467.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٧٢ – ١٧٣ .

عليه من تطلع مودود لمهاجمة الصليبيين بالشام ذاتها ، وإلى تفكيره فى القطع بينهم وبين الرها ، وبذا انتقل مسرح النضال إلى أرض الشام ، فانعقدت المودة بينه وبين طغتكين أتابك دمشق ، واتفق رأيهما على مهاجمة الصليبيين فى طرابلس ، وانحاز إليهما أمير شيزر . وهكذا ظهرت بادرة من الاتحاد بين الأمراء المسلمين بشمال العراق وبلاد الشام لأول مرة منذ قدوم الصليبيين إلى الشرق(١) .

على أن الأطماع الشخصية التى سيطرت على الأمراء أمثال إيلغازى ابن أرتق ، أمير ماردين ، وأحمديل صاحب مراغة الذى حرص على أن يقطعه أملاك سكمان القطبى أمير خلاط الذى مات فى بالس ، وتخوف مودود من هؤلاء الأمراء ، دلّ على ما أصاب الحلف التركى من انهيار وتداعى ، فبادروا بالعودة إلى بلادهم(٢) .

ومع ذلك فإن هذا الحلف التركى أدى إلى اتحاد الفرنج تحت زعامة ملك بيت المقدس ، بلدوين الأول ، ودارت الاشتباكات بين الجانبين ، فى الجهات الواقعة بين شيزر وفامية ، غير أنها لم تؤد إلى نتيجة ، ولما تبين لمودود أن قوة الفرنج لا زالت متحدة متماسكة ، وأنه لايستطيع

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٥ ، ١٨٤ – ١٨٥ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٦٠
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٧ .
Grousset : op. cit. I. p. 467.
حدث ذلك على الرغم من أن الأمراء الآخرين لم يقبلوا الانحياز إلى أتابك دمشق ، وقد وعدهم بحمل ما يحتاجون إليه من المير من دمشق وعملها ، وإن أدركهم الشتاء أنزلهم فى بلاده ، فتفرقوا أيدى سبأ . انظر ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ .

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 123.
Grousset : op. cit. I. p. 467.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٤٢ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٦١ .

أن يمضى الشتاء بعيداً عن قواعده ، قرر الانسحاب إلى الموصل[١] .

وشهدت سنة ١١١٢ تغييرات جديدة بشمال الشام وأعالى الجزيرة ، إذ مات رتشرد النورمانى ، وبرتراند أمير طرابلس ، فتوطدت العلاقة بين بونز ابن برتراند وتانكرد ، غير أن تانكرد لم يلبث أن مات فى ديسمبر سنة ١١١٢ ، فتولى الوصاية على أنطاكية روجر ابن رتشر حتى يقدم بوهمند الثانى . وانتزع بلدوين لى بور إقطاع تل باشر من جوسلين ، فارتحل إلى بيت المقدس أوائل سنة ١١١٣ ، وحاز الجليل (طبرية) إقطاعاً له[٢] . ومات رضوان صاحب حلب سنة ١١١٣[٣] .

لم يتخل مودود عن واجبه فى جهاد الفرنج ؛ والمعروف أن أتابك الموصل يمثل السلطان السلجوقى فى كل أمور الشام والجزيرة ، وبهذه الصفة كان لزاما عليه أن يمضى فى قتال الفرنج . ولذا حدث فى ربيع سنة ١١١٣ ، أن أعد مودود حملة اشترك فيها تمرك صاحب سنجار ، واياز ابن ايلغازى أمير ماردين ، وطغتكين أتابك دمشق . والواقع أن طغتكين هو الذى تسبب فى هذا الحلف ، بسبب ما تعرضت له أراضى دمشق من هجمات وغارات بلدوين ملك بيت المقدس ، ولذا اقترح توجيه الحملة لمهاجمة مملكة بيت المقدس[٤] .

---

(١) Cahen : op. cit. p. 263.
Runciman : op. cit. II. p. 123.
Grousset : op. cit. I. p. 471-472.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٤٢ .

(٢) Runciman : op. cit. II. p.125.
Groussst : op. cit. I. p. 487.

(٣) Grousset : op. cit. I. 478.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 126.
Grousset : op. cit. I. p. 484.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٤٦ – ٣٤٧ ؛

ولما وقف بلدوين لى بور كونت الرها ، على خبر تحركات مودود ، بادر بإخطار ملك بيت المقدس ، فاستدعى أمير أنطاكية وطرابلس ، بينما اجتمع مودود وطغتكين فى سلامية ثم اتخذا مواقعهما فى الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية . واستطاع مودود أن يحمل بلدوين على أن يبدأ الهجوم ، فوقع فى الكمين الذى نصبه له عند الأقحوانة فى يونيه سنة ١١١٣ ، فتعرض لهزيمة ساحقة ولقى عدد كبير من عساكره مصرعهم ، ولم يفلت الملك من الأسر إلا بعد أن قذف من يده لواءه الخاص ، (لكى لايُعرف) ، وحصل عساكر مودود على غنائم وفيرة[١] .

وأدرك المسلمون عجز مملكة بيت المقدس عن الدفاع عن نفسها ، فأخذت عساكرهم تغير على بلاد الفرنج بين عكا وبيت المقدس ، وأنزلوا الخراب والدمار بكل ما حلوا به من مواضع ، فأضحى الإقليم تحت رحمتهم . فهرب سكان المدن والقرى والفلاحون ولحقوا بالقوات الإسلامية ، وأصاب الفرنج من الذلة والأنكسار والخوف ، ما جعلهم لا يجرأون على مغادرة الاستحكامات والحصون[٢] .

على أن مودود أذن للعساكر فى العودة إلى بلادهم والاستراحة ، على أن يجتمعوا فى الربيع القادم لمواصلة الغزو ؛ وذلك بعد أن ألح عليه عساكر العراق وحلفاؤه . بينما توجه بصحبة طغتكين إلى دمشق ، فدخل الجامع ليؤدى صلاة الجمعة ، فلقى مصرعه على يد أحد الباطنية فى ٥ سبتمبر

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 126.
Grousset : op. cit. I. p. 484-485.
William of Tyre : op. cit. I. pp. 493-494.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٤٧ .

(٢) William of Tyre : op. cit. I. p. 494-495.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٤ — ١٨٥ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٤٧ .

سنة ١١١٣[١] . وذاع أن طغتكين حرض على قتله ، لحرصه على الاحتفاظ باستقلاله بدمشق ، ولما ساوره من القلق عن بقاء القائد العام لقوات السلطان فى دمشق ، وما يترتب على ذلك من تهديد استقلاله[٢] .

ولا شك أن الفرنج فرحوا لما حدث من مصرع مودود ، لاختفاء عدو اعتبروه من أشد الخصوم كفاية وقدرة وصلابة . يضاف إلى ذلك أنهم أفادوا من تخوف طغتكين من سلطان بغداد ، فأدى ذلك إلى عقد هدنة مع بلدوين سنة ١١١٤ ، بل مضى طغتكين إلى أبعد من ذلك ، فعقد محالفة مع أمراء الفرنج سنة ١١١٥ . فما أحاط بمصرع مودود من أحوال ، ولّدت الشكوك والمخاوف بين الترك ، ودمرت ، قدرا كبيرا من الوحدة التى كرّس حياته لتحقيقها[٣] .

وعلى الرغم من تأثير مصرع مودود فى حركة الجهاد ، فإن السلطان محمد السلجوقى لم يتوانى عن المضى فى قتال الصليبيين ، إذ جعل على الموصل أقسنقر البرسقى الذى نال من الحظوة عند السلطان ما ناله مودود ، فصار من واجبه النهوض لقتال الفرنج . وقاد أقسنقر البرسقى جيشا ، انحاز إليه سائر الأمراء بقواتهم ، لمهاجمة الرها سنة ١١١٤ ، غير أن ما حدث من مناوأة أمراء التركمان له فى ماردين ، وحصن كيفا ، حملته على

---

(١) Fink : "The Foundation of the Latin States p. 402.
Runciman : op. cit. II, p. 127.
Grousset : op. cit. I. p. 485.

(٢) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 402.
Grousset : op. cit. I. pp. 485-486.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٤٨ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨٧ .

(٣) Fink : The Foundation of the Latin States p. 403.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ٣٤٨ .

الانصراف عن الرها فى مايو سنة ١١١٤[١] . غير أن هذه الخسائر عوضها ما أظهره الأرمن ، من الميل إلى التحالف مع المسلمين[٢] .

ذلك أن أرملة كواسيل ، صاحب مرعش وكيسوم ورعْبان ، الذى توفى سنة ١١١٢ ساورها الشك من قبل الفرنج ، وخوفها من استيلائهم على بلادها ، فراسلت أقسنقر البرسقى ، وهو على الرها ، وطلبت إليه أن يرسل من قبله مندوبا لتفاوضه فى أمر تسليم هذه الممتلكات . ولما علم الفرنج بذلك حاولوا مهاجمة مندوب أقسنقر والأرمن ، غير أنهم تعرضوا للهزيمة ، بينما أذعنت أرملة كواسيل بالطاعة لأقسنقر[٣] . ودلت هذه السياسة على سخط الأرمن على السياسة التى اتبعها نحوهم الفرنج ، وترتب عليها أن دخلت هذه الجهات فى دائرة نفوذ الأتراك السلاجقة[٤] ؛ والتجأ إلى أنطاكية العساكر الفرنج الذين استأجرتهم صاحبة هذه المواقع[٥] .

غير أن ما أنزله إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين ، من هزيمة ساحقة بأقسنقر فى أواخر سنة ١١١٤ ، أدت إلى إعفائه من أتابكية الموصل ، فاكتفى بإقطاعه فى الرحبة ، وتولى الموصل مسعود بن السلطان

---

(١) Fink : The Foundation of the Latin States p 403.
Runciman : History of the Crusades II. p. 128.
Cahen : op. cit. p. 270 .
Grousset : op. cit. p. I. 491-492.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٥١ .

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 492.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٥١ — ٣٥٢ .

(٤) Fink : The Foundation of the Latin States p. 403.
Runciman : op cit. II. p. 129.
Cahen : op. cit. pp. 270-271.

(٥) Grousset : op. cit. I. p. 492.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ٣٥٢ .

السلجوقى محمد(١). وإذ خشى إيلغازى الانتقام ، بادر بالتحالف مع طغتكين ، الذى استوحش من السلطان ، لأنه نسب إليه قتل مودود ، بل إنهما التجآ إلى الفرنج ، فراسلا صاحب أنطاكية ، روجر ، وحالفاه ، واجتمعوا سويا ، وجددوا العهود(٢) ، فوقع بذلك ثغرة كبيرة فى صفوف الترك . فمن نتائج هزيمة أقسنقر البرسقى ، أن تولى جيوش السلطان السلجوقى ، برسق بن برسق ، أمير همدان ؛ الذى تلقى الأمر من السلطان بالمضى لقتال الفرنج ، وإنزال العقوبة بكل من إيلغازى وطغتكين(٣) .

والواقع أن السلطان محمدا ، بعد أن انفرد بالحكم بعد وفاة باركياروق ، وأعاد الأمن إلى نصابه فى العراق وإيران ، وقمع ثورات العرب وتمردهم ، وكبح جماح الباطنية ، واعترف بسلطانه الخليفة المستظهر بالله ، كان يأمل أن يتوج أعماله بطرد الصليبيين من الشام . غير أن ما تعرضت له حملاته التى وجهها إلى الشام ، من الفشل ، كشف له عن أهمية توحيد الجبهة الإسلامية ، قبل المضى إلى قتال الصليبيين ، ولابد من فرض سلطانه على سائر الأمراء المسلمين فى الشام ، فلم يفسد غرضه إلا ما ساد بينهم من أحقاد ، وما أقدموا عليه من التمرد(٤) . لم يبق على الولاء والإخلاص للسلطان السلجوقى سوى بنى منقذ فى شيزر ، وقيرخان أمير حمص ؛ وذلك لما تعرض له

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٥٢ .

Grousset : op. cit. I. p. 495.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٥٢ .

Fink : The Foundation of the Latin States p. 403.

Grousset : op. cit. I. p. 497.

(٣) Fink : The Foundation of the Latin States p. 404.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 130.

بنو منقذ من تهديد من قبل الفرنج بأنطاكية ، كما أن أمير حمص حرص على أن ينتزع من أتابك دمشق حماه ، التى بفضلها يطوق الأتابك إمارة حمص[١] .

وفى ربيع سنة ١١١٥ احتشد جيش برسق ، المؤلف من أهل العراق ، وبعد أن حاصر الرها فترة وجيزة ، تحرك قاصداً حلب ، ليتخذها قاعدة لحروبه فى الشام . غير أن الطواشى لؤلؤ الذى ينوب عن ابن رضوان فى حكم المدينة ، لم يرض أن يفتح أبواب المدينة لجيش السلطان ، كما حدث زمن رضوان سنة ١١١٣[٢] . استنجد لؤلؤ بإيلغازى وطغتكين والتمسوا جميعا مساعدة روجر ، فخرج لمواجهة جيش برسق ، جيوش أمراء الشام المتحالفة مع قوات روجر أمير أنطاكية ، وملك بيت المقدس ، وبونز كونت طرابلس ، وبلدوين كونت الرها ، التى اجتمت عند أفامية ، لمراقبة برسق[٣] . على أنه لم تنشب معركة بين الفريقين ، لاتخاذ الجيوش التركية اللاتينية جانب الحذر ، ولم يلبث برسق أن انسحب بقواته ، ورجع خصومه إلى ديارهم[٤] . ودلت هذه التجربة على أن الترك والفرنج بالشام ، برغم العداوة بينهم ونشوب القتال بينهم ، كان بوسعهم أن يتحالفوا لمواجهة الخصوم القادمين من وراء حدود الشام[٥] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 131.
Grousset : op. cit. I. p. 498.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٥٢ .

(٢) Fink : The foundation of the Latin states p. 404.

(٣) Fink : The Foundation of the Latin States p. 404.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٥٧ .

(٤) Fink : The Foundation of the Latin States p. 404.

(٥) Fink : The Foundation of the Latin States p. 404.

على أن انسحاب برسق لم يكن إلا خدعة ، فلم يلبث أن انقض على كفر طاب ، من حصون أنطاكية ، ثم هدد أنطاكية وحلب ، وعندئذ نشب القتال فى دانث فى سبتمبر ١١١٥ ، فحلت الهزيمة بقوات برسق ، ووقع كثير من الأسرى فى أيدى الفرنج ، وعاد برسق إلى إيران حزينا(١) .

وكانت هزيمة دانث شديدة الوقع على المسلمين ، إذ أضحى لروجر ، الذى أورد اسمه المؤرخون المسلمون ، على أنه سرجال (Sir Roger) من الشهرة ما لريتشارد قلب الأسد فيما بعد(٢) . وخمدت فكرة الجهاد سنوات عديدة ، وما أحرزه روجر من انتصار أنقذ الصليبيين ، وكشف عن موقف الحلبيين والدماشقة ، الذين طالعوا الفرنج بأخبار العساكر(٣) . وأدرك أمراء الشام أن انتصار الفرنج تجاوز الحدود ، وأضحوا يخشون نتيجة خطئهم ، فلم يلبث طغتكين أن انشق على حليفه ، روجر أمير أنطاكية ، وبادر إلى إصلاح ما فسد من الأمور بينه وبين السلطان محمد ؛ فتوجه إلى بغداد فى مارس سنة ١١١٦ وسأله الرضى والعفو فرضى عنه السلطان(٤) . والواقع أن طغتكين دأب على اتخاذ هذه الوسيلة ، بأن يلتمس من السلطان السلجوقى المساعدة ضد الفرنج ، وأن يستنفر الفرنج ضد السلطان(٥) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٥٨ .

Fink : The Foundation of the Latin States p. 404.

Grousset : op. cit. I. pp. 506-508.

(٢) Grousset : op. cit. I p. 510.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٧٦ – ١٧٧ .

Grousset : op. cit. I. p. 510.

(٤) Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 404-405.

Grousset : op. cit. I. p. 510-511.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٦٠ .

(٥) Grousset : op. cit. I. p. 511.

وكيفما كان الأمر ، فإن الإمارات الصليبية عرفت قدرا من الهدوء لم تعرفه من قبل ، وعلى الرغم من أنه لم يعد للسلطان سيطرة على أمراء الأقاليم ، فاستقل عنه إيلغازى وأمراء الأراتقة ومع ذلك لا زالوا مصدر خطر كبير على الفرنج ، فلا زال إيلغازى حليفا لطغتكين أتابك دمشق ، واشتركا معا فى جهاد الصليبيين ، ولعل إيلغازى أراد أن يستعيد ما فقده من مجد سنة ١١١٤[١] . أما حلب فبلغت الدرك الأسفل من التداعى والانهيار ، منذ أن تولى أمرها الطواشى لؤلؤ ، غلام رضوان ، الذى انفرد بحكمها ثلاث سنوات (١١١٤ – ١١١٧) . وعلى الرغم من أنه تحالف مع طغتكين ، فلا زال مركزه محفوفاً بالخطر وبالغ الحرج ، ولم يلبث أن لقى مصرعه على يد الجند سنة ١١١٧ أثناء خروجه للصيد[٢] . وإذا تجردت حلب من كل ما يحميها ويحفظها ، وأضحت سهلة المنال ، انحاز روجر صاحب أنطاكية للأحزاب التى سيطرت على أمور حلب ، كيما يمنع عنها ايلغازى الذى تطلع للاستيلاء عليها[٣] ، واستولى فى الوقت ذاته على الشطر الشرقى من أعمال حلب[٤] . ولما اغتصب يارقتاش الأرمنى الحكم ، هادن صاحب أنطاكية ، روجر ، وبذل له الأموال ، وتنازل له عن حصن القبة على الطريق الممتد بين حلب ودمشق ، والذى يسلكه الحجاج ، وجعل له الحق فى أن يتقاضى الرسوم المقررة

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 134.

Fink : "The Foundation of the Latin States" p. 405.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٧٧ .

Grousset : op. cit. I. p. 511.

(٣) Fink : The Foundation of the Latin States p. 405.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 511.

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٧٩

على القوافل[١] . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل صارت حلب تعتمد على روجر فى رد المتطلعين للاستيلاء عليها ، أمثال طغتكين وأقسنقر البرسقى فامتنع أهل حلب سنة ١١١٨ ، عن الاستجابة لهما ، وقالوا « ما نريد أحداً من الشرق » واستنجدوا بروجر فعاد أقسنقر إلى الرحبة ، وطغتكين إلى دمشق[٢] . على أن ايلغازى صاحب ماردين اغتنم الفرصة ، واستولى على حلب ، واستقل بها سنة ١١١٨ ، بعد أن ألقى بأميرها الشرعى ووزيره فى السجن[٣] .

واشتد ضعف حلب ، فقوى طمع الفرنج فيها ، فنقضوا الهدنة ، وأغاروا على بلاد حلب ، فانتزع روجر عزاز سنة ١١١٨ ، والبزاعة سنة ١١١٩ ، فقطع بذلك الطريق الذى يصل بين حلب والفرات والبلاد التى تقع شرقيه[٤] . وترتب على تضييق الفرنج على حلب ، بالاستيلاء على البزاعة ، بعد أن انتهى أجل الهدنة سنة ١١١٩ ، أن تعرضت حلب ذاتها لهجوم الفرنج ، وساءت أحوال حلب الاقتصادية فلم يتوافر بها من المؤن ما يكفى لمدة شهر واحد ، واستبد الخوف بأهل البلد . ولو تهيأت لهم الفرصة لمغادرة المدينة ، لم يبق بها أحد ، ولكنهم منعوا

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٧٩ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٩٩

Runciman : op. cit.II. p. 133.

Grousset : op. cit. I. p. 511-512,548.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٨١ .

Grousset : op. cit. I. p. 512.

Runciman : op. cit. II. p. 134.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٧٢ .

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 134.

Cahen : op. cit. p. 278-280.

Grousset : op. cit. I. pp. 512-513.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٨١ — ١٨٢ .

من ذلك ، وقبل الفرنج آخر الأمر ألا يتعرضوا لسكان المدينة بالأذى ، بشرط أن يقاسموهم على أملاكهم التى تقع بباب حلب[١] .

الواقع أن استيلاء ايلغازى على حلب سنة ١١١٨ ، يعتبر مرحلة هامة فى تاريخها . إذ أن حلب ، سواء كانت من ممتلكات السلاجقة أو جمهورية عربية ، تولى إدارتها بعض المماليك ، ولم تقبل حماية التركمان إلا تحت تهديد الفرنج ، كانت منعزلة حتى وقتذاك عن سائر الإمارات المجاورة ، فأضحت بعد استيلاء ايلغازى عليها ، إمارة من إمارات إقليم الجزيرة ، مثلما كانت زمن المروانيين والعقيليين . وتحتم على ايلغازى ، لمنع امتداد نفوذ السلطان السلجوقى ، أن يتخذ من الأساليب ، ما يحافظ بها على سلطته فى حلب[٢] . فأفاد من الموارد التى توافرت بشرق إقليم الجزيرة ، والتى لم تتعرض لخطر الصليبيين مثلما تعرضت موارد الشام ، يضاف إلى ذلك سيطرة ايلغازى على أعداد كبيرة من التركمان ، الذين يؤلف منهم جيشاً لا يتقاضى أجورا ، ويميل إلى الحركة والانتقال[٣] ، ولا شك أن ايلغازى أحسن اغتنام ما تهيأ له من الفرص فى توطيد سلطانه على حلب ، وفى المضى لقتال الفرنج[٤] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٨٩ .

(٢) Cahen : op. cit. p. 284.

(٣) Cahen : op. cit p. 284.

(٤) ترتب على وفاة السلطان محمد السلجوقى سنة ١١١٨ ، أن نشب النزاع بين أمراء الأسرة السلجوقية ، فوقع العداء بين السلطان محمود فى فارس ، وبين عمه سنجر سلطان خراسان وما وراء النهر ، فانصرفا بذلك عن الأمور بالشام ؛ وما حدث من الحروب بين الدانشمنديين والبيزنطيين فى آسيا الصغرى ، أتاح الفرصة لأن تظهر زعامة ايلغازى . انظر

Cahen : op. cit. 284.

Runciman : op. cit. II. p. 147-148.

Grousset : op. cit. I. p. 549.

قام أتابكة الشام بحركة الجهاد ضد الفرنج ، بعد أن نشبت الحروب الداخلية بين أفراد الأسرة السلجوقية فى فارس ، عقب وفاة السلطان محمد سنة ١١١٨ ، وتحتم على الصليبيين أن يواجهوا أسرات ، كالأراتقة والزنكيين ثم الأيوبيين ، أظهرت فى قتالهم من الصلابة والعنف ما يفوق سائر خصومهم[١] .

وإذ تعرضت دمشق مثلما تعرضت حلب لخطر الصليبيين ، بدأبهم على الإغارة على حوران ، جرى الاتفاق بين طغتكين وايلغازى ، على ، إعداد جيوشهما لقتال الصليبيين[٢] .

تقرر توجيه الهجوم ضد أنطاكية ، التى اشتد أميرها ، روجر ، فى مضايقة حلب وانتزاع كثير من البلاد التابعة لها . اجتاز ايلغازى نهر الفرات ، بعد أن أنزل بالفرنج فى الرها خسائر فادحة ، وأغار على تل باشر ، فى طريقه إلى قنسرين التى اتخذها قاعدة شن منها الغارات على حارم وجبل السماق[٣] . واستنجد روجر بجوسلين كونت الرها ، وبونز (طرابلس) وبلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، الذى تولى العرش بعد وفاة بلدوين الأول ١١١٨ . واستبد القلق بروجر ، فلم ينتظر قدوم الأمداد ، بل توجه لملاقاة المسلمين ، فاتخذ فى ٢٠ يونيه موقعا استراتيجيا عند بلات بين جبلين ، بالقرب من شرمدا ، شمال

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 549-550.

(٢) Cahen : op. cit p. 284.

Grousset : op. cit. I. p. 550.

Nicholson : The Growth of the Latin States p. 412.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٨٧ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٨٩ .

Cahen : op. cit. p. 284-285 .

Nicholson : The Growth of the Latin States p. 412.

Grousset : op. cit. I. p. 550.

الأثارب ، واعتقد الفرنج أن لهذا الموضع من المناعة ما يجعل من العسير على المسلمين أن ينالوهم ، حتى يقدم بلدوين[1] .

وعلم ايلغازى بكل حركات روجر واستعداداته الحربية ، وأخذ ينتظر قدوم طغتكين بامداده لتقرير خطة القتال ، غير أن الأمراء ضجروا ، على عادة التركمان ، من طول المقام ، فاجتمعوا وحثوا ايلغازى على مناجزة العدو . فجدد ايلغازى الأيمان على الأمراء والمقدمين ، أن « يناصحوا فى حربهم ، ويصابروا فى قتال العدو ، وأنهم لاينكلون ، ويبذلون مهجهم فى الجهاد ، فحلفوا على ذلك بنفوس طيبة »[2] . وأقبل القاضى ابن الخشاب ، يحرض الناس على القتال ، وخطبهم خطبة بليغة ، استنهض فيها عزائمهم ، واستزهف هممهم بين الصفين ، « فأبكى الناس ، وعظم فى أعينهم »[3] .

استطاع المسلمون أن يتخذوا مواقعهم بالقرب من معسكر الصليبيين ، فأحاطوا به من ثلاث جهات . وتلقى روجر وعساكره الموعظة من بطرس رئيس أساقفة أفامية ، وفى فجر ٢٨ يونيه سنة ١١١٩ ، أطبق المسلمون على الفرنج ، فأنزلوا بهم من القتل الشامل ، ما جعل المعركة تشتهر عند مؤرخى الصليبيين باسم معركة ساحة الدم « Ager sanguinis » ، ولقى روجر مصرعه ، ووقع فى أيدى المسلمين من السبى والغنائم والدواب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٨٩ – ٣٩٠ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٨٨ .

Runciman : op. cit. II. p. 149.

Cahen : op. cit, p. 285.

Nicholson : The Growth of the Latin states p. 413.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ص ١٨٨ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٨٩ .

Cahen : op. cit. p. 286.

Grousset : op. cit. I. p. 553-554.

ما لا يحصى[١] . وترتب على تدمير قوة الفرسان النرمان فى هذه المعركة ، أن تضاءل شأن النفوذ النرمانى فى الشام ، بينما ارتفع قدر البروفنساليين والفرنسيين القادمين من وسط فرنسا وشرقيها[٢] .

ومن حسن حظ الفرنج ، أن ايلغازى اكتفى بعد هذا النصر الساحق ، بشن الغارات على بلاد أنطاكية ، ولو أنه توجه لمنازلتها لما استعصت عليه ، « لأنها كانت خالية من حماتها ، فوقع التغافل عنها بإحراز الغنائم »[٣]. فكتب ايلغازى إلى سائر الأمراء المسلمين يبشرهم بانتصاراته ، وبعث إليه الخليفة المسترشد خلعة التشريف[٤] .

قنع ايلغازى بالاستيلاء على الأثارب وزردنا ، وشن الغارات على أنطاكية والسويدية من أجل الغنيمة والنهب . وبعد أن أعاد تنظيم إدارة حلب ، بأن ألغى ما فرضه رضوان من رسوم ، توجه إلى ماردين ، ليحشد العساكر ، ويعود مرة أخرى إلى حلب[٥] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٠ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٩٠ .

سجل الشعر هذه الوقعة فيما قاله العظيمى يمدح ايلغازى :

قل ما تشاء فقولك المقبول وعليك بعد الخالق التعويل

واستبشر القرآن حين نصرته وبكى لفقد رجاله الإنجيل

انظر أيضاً :

William of Tyre : op. cit. I. pp. 530-531.

Grousset : op. cit. II. pp. 558-559.

(٢) Runciman : op. cit II. p. 151.

Nicholson : The Growth of the Latin states p. 413.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠١ .

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 151.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٩٩ .

ما ورد فى بعض المصادر الأوربية من أن الخليفة منح ايلغازى لقب نجم الدين لم تؤيده المصادر العربية . والواقع أن هذا اللقب هو الذى اشتهر به ايلغازى ، وتكرر وروده فى المصادر العربية . انظر ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٢ .

حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٩ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .

Runcimam : op. cit. II. pp. 151-152.

وباستيلاء المسلمين على الأثارب وزردنا ، لم تعد حلب معرضة للخطر الصليبي فى الوقت الراهن ، كما أن مصرع روجر ، وتدمير القوة الحربية للفرنج فى الشمال ، يعتبر من الأمور البالغة الأهمية للمسلمين[١] .

وما حدث فى دانث ، فى أغسطس سنة ١١١٩ من قتال بين بلدوين الثانى وأمراء الفرنج من ناحية ، وبين ايلغازى وطغتكين من ناحية ، لم يكن انتصار الصليبيين فى هذه المعركة حاسما[٢] . وفى السنة التالية ، سنة ١١٢٠ نشب القتال بين ايلغازى وبين بلدوين الثانى ، وعسكر بالقرب من عزاز وأقام عليها ليلة واحدة ، ولم يلبث أن ارتد عنها ، لما أصاب عساكره من التعب والملل ، وشدة القلق ؛ إذ كان ايلغازى لايطيل المقام فى بلد الفرنج ، « لأنه كان يجمع التركمان للطمع ، فيحضر أحدهم ، ومعه جراب فيه دقيق ، وشاة ، ويعد الساعات لغنيمة يتعجلها ، ويعود ، فإذا طال مقامهم تفرقوا ، ولم يكن له من الأموال ما يفرقها فيهم »[٣] . فعقد ايلغازى هدنة مع بلدوين الثانى . ينتهى أمدها فى مارس سنة ١١٢١ ، حصل بمقتضاها الفرنج على معرة مصرين ، وكفر طاب والبارة ، وعلى ضياع بجبل السماق ، وضياع من بلد عزاز ، ومكس من عزاز .

---

(١) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 414.

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 414.

Grousset : op. cit. I. pp. 665-574.

William of Tyre : op. cit. II. pp. 534-535.

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ١٩٢ – ١٩٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٠٠ .

Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 415.

Grousset : op. cit. I. pp. 576-577.

ما لا يحصى(١) . وترتب على تدمير قوة الفرسان النرمان فى هذه المعركة ، أن تضاءل شأن النفوذ النرمانى فى الشام ، بينما ارتفع قدر البروفنساليين والفرنسيين القادمين من وسط فرنسا وشرقيها(٢) .

ومن حسن حظ الفرنج ، أن ايلغازى اكتفى بعد هذا النصر الساحق ، بشن الغارات على بلاد أنطاكية ، ولو أنه توجه لمنازلتها لما استعصت عليه ، « لأنها كانت خالية من حماتها ، فوقع التغافل عنها بإحراز الغنائم »(٣). فكتب ايلغازى إلى سائر الأمراء المسلمين يبشرهم بانتصاراته ، وبعث إليه الخليفة المسترشد خلعة التشريف(٤) .

قنع ايلغازى بالاستيلاء على الأثارب وزردنا ، وشن الغارات على أنطاكية والسويدية من أجل الغنيمة والنهب . وبعد أن أعاد تنظيم إدارة حلب ، بأن ألغى ما فرضه رضوان من رسوم ، توجه إلى ماردين ، ليحشد العساكر ، ويعود مرة أخرى إلى حلب(٥) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٩٠ .
سجّل الشعر هذه الوقعة فيما قاله العظيمى يمدح ايلغازى :

قل ما تشاء فقولك المقبول ... وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حين نصرته ... وبكى لفقد رجاله الإنجيل

انظر أيضاً :

William of Tyre : op. cit. I. pp. 530-531.
Grousset : op. cit. II. pp. 558-559.
Runciman : op. cit II. p. 151.

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin states p. 413.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠١ .

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 151.
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٩٩ .
ما ورد فى بعض المصادر الأوربية من أن الخليفة منح ايلغازى لقب نجم الدين لم تؤيده المصادر العربية . والواقع أن هذا اللقب هو الذى اشتهر به ايلغازى ، وتكرر وروده فى المصادر العربية . انظر ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٢ .
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٩ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .
Runcimam : op. cit. II. pp. 151-152.

وباستيلاء المسلمين على الأثارب وزردنا ، لم تعد حلب معرضة للخطر الصليبى فى الوقت الراهن ، كما أن مصرع روجر ، وتدمير القوة الحربية للفرنج فى الشمال ، يعتبر من الأمور البالغة الأهمية للمسلمين[١] .

وما حدث فى دانث ، فى أغسطس سنة ١١١٩ من قتال بين بلدوين الثانى وأمراء الفرنج من ناحية ، وبين ايلغازى وطغتكين من ناحية ، لم يكن انتصار الصليبيين فى هذه المعركة حاسما[٢] . وفى السنة التالية ، سنة ١١٢٠ نشب القتال بين ايلغازى وبين بلدوين الثانى ، وعسكر بالقرب من عزاز وأقام عليها ليلة واحدة ، ولم يلبث أن ارتد عنها ، لما أصاب عساكره من التعب والملل ، وشدة القلق ؛ إذ كان ايلغازى لايطيل المقام فى بلد الفرنج ، « لأنه كان يجمع التركمان للطمع ، فيحضر أحدهم ، ومعه جراب فيه دقيق ، وشاة ، ويعد الساعات لغنيمة يتعجلها ، ويعود ، فإذا طال مقامهم تفرقوا ، ولم يكن له من الأموال ما يفرقها فيهم »[٣] . فعقد ايلغازى هدنة مع بلدوين الثانى ، ينتهى أمدها فى مارس سنة ١١٢١ ، حصل بمقتضاها الفرنج على معرة مصرين ، وكفر طاب والبارة ، وعلى ضياع بجبل السماق ، وضياع من بلد عزاز ، ومكس من عزاز .

---

(١) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 414.

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 414.

Grousset : op. cit. I. pp. 665-574.

William of Tyre : op. cit. II. pp. 534-535.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٩٢ – ١٩٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٠٠ .

Nicholson : "The Growth of the Latin States" p. 415.

Grousset : op. cit. I. pp. 576-577.

غير أن ايلغازى أمر بتدمير زردنا ، فى يونيه سنة ١١٢٠ ، حتى لا تقع فى أيدى الفرنج[١] .

ويشير ابن العديم إلى أن الفرنج اشتدوا فى الإساءة إلى الفلاحين المسلمين الذين خضعوا لهم بعد احتلال تلك الجهات ، فأخذوا منهم من الأموال والغلاّت ما تقوّوا به[٢] . ولم يحفل جوسلين كونت الرها بالهدنة ، فأغار على بلاد منبج ، ونكل بسكانها ، ولما تقدم سليمان ابن ايلغازى الذى كان يحكم حلب باسم أبيه ، إلى الملك بلدوين الثانى بالشكوى من أعمال جوسلين ، أجاب بأن جوسلين لم يدخل فى عقد الهدنة[٣] . ولما انقضى أجل الهدنة المعقودة بين أنطاكية وشيزر ، أغار الفرنج على بلاد شيزر ، وحازوا غنائم وافرة ، ووقع فى أيديهم عدد كبير من الأسرى ، وطالبوا بأن يؤدى لهم من الجزية ما كان يؤديه لهم أمراء شيزر قبل مصرع روجر . فلم يسع ابن منقذ إلا أن يستجيب لهم ، وجعل لهم مالا يحمله لهم ، وامتد الصلح إلى مارس سنة ١١٢٢[٤] .

وإذ مكث ايلغازى طويلا بماردين ، ولم يحفل بأمر حلب التى صارت بحوزته ، نشط جوسلين فى غاراته ، فهاجم بزاعا ، ثم وجه فى مايو

---

(١) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 415-416.

Grousset : op. cit. I. p. 577.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٦ ، ١٩٩ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٦ .

Grousset : op. cit. I. p. 577.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٧ .

Grousset : op. cit. I. p· 577.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٧ .

Grousset : op. cit. II. p. 578.

سنة ١١٢١ هجوماً على الأثارب ، بجنوب شرقى حلب ولقى كثير مصرعهم ، ووقع عدد كبير منهم فى الأسر[١] .

وفى تلك الأثناء ، واجه إيلغازى هجوما عنيفا شنه الكرج ؛ ذلك أن ملوك الكرج من أسرة بقراط أخضعوا لسيطرتهم ، فى سفح جبال القوقاز ، الشعوب المسيحية التى استقلت عن الدولة الإسلامية ، فامتد سلطان ملكهم داود الثانى إلى جنوب نهر الرّس ، فاصطدم بالأمير السلجوقى طغرل ، صاحب الران ، فاستنجد بإيلغازى لرد المغيرين ، غير أنهما تعرضا للهزيمة ، وأفاد داود من هذا الانتصار ، بأن استولى على تفليس التى اتخذها عاصمة له[٢] ؛ وتعرضت بذلك الأطراف الشمالية للعالم الإسلامى ، لخطر الكرج ، وفى ذلك فائدة بالغة الأهمية للفرنج . فما حل بإيلغازى من هزيمة على أيدى الكرج ، هيأ لبلدوين الثانى فرصة ، حرص على ألا تفلت من يده ، بأن استغل عصيان سليمان على أبيه إيلغازى ، وإعلانه الاستقلال بحلب ، فشن هجوما عنيفا على جهات حلب ، فلم يسعه إلا أن يعقد الصلح مع بلدوين الثانى ، تنازل فيه عن زردنه والأثارب ، وأقر إيلغازى هـذه المعاهدة[٣] . تحددت مناطق النفوذ بين حلب وأنطاكية ، فصـار للفرنج سرمين والجزر وأعمال الشمال ، وما حول حلب للفرنج منه النصف ، وتقرر تدمير حصن هراق ،

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٩٨ .
Grousset : op. cit. I. p. 578.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 159.
Grousset : op. cit. I. pp. 579-580.
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 161.
Grousset : op. cit. I. p. 578-579.
ابن العديم : زبدة حلب جـ ٢ ص ٢٠٠ — ٢٠٢ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٣٠ — ٤٣١ .

حتى لا يبقى للفئتين فيه حكم[١] ، ولم يقبل سكان الأثارب أن يتحولوا إلى الفرنج فبقى الحصن فى أيدى المسلمين[٢] .

وحدث وقتذاك أن اغتنم طغتكين فرصة انصراف بلدوين الثانى إلى التدخل فى أمور الشمال ، فى حلب وأنطاكية ، وشن غارة عنيفة على إقليم الجليل ، وصار لزاما على بلدوين أن يبادر فى يوليه سنة ١١٢١ إلى القيام بحملة انتقامية على الإقليم الواقع شرق الأردن ، فنهب جولان ، وخرب الحصن الذى عمره طغتكين فى جرش[٣] .

على أن حرص بلدوين الثانى على انتزاع الأثارب من يد سليمان ابن إيلغازى ، أمير حلب ، كان بالغ الأثر فى توقف الصلح ، لأن الأثارب تعتبر ثغر حلب ، ولا يصح التنازل عنها[٤] .

قدم إيلغازى إلى حلب مرة أخرى ، فى نوفمبر سنة ١١٢١ ، بعد أن أساء ابنه سليمان الحكم بها ، وتعرضت لخطر الفرنج ، ولم يكن بها من القوة ما يقاوم إيلغازى ويمنعه من الدخول ، ولم يلبث أن عفا عن ابنه ، غير أنه اشتد فى إنزال العقاب بأتباعه الذين حسنوا له العصيان وأحسن إلى أهل المدينة ، فسامحهم بشىء من المكوس[٥] . ولتوطيد سلطانه على

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٩ .

Grousset : op. cit. I. p. 579.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٩٩ .

Grousset : op. cit. I. p. 579.

Runciman : op. cit. II. p. 159.

(٣) Runciman : op. cit II. .p. 159.

Grousset : op. cit. I. p. 579.

William of Tyre : op. cit. II. pp. 538-539.

Nicholson : The Growth of the Latin States p. 417.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٠١ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

Grousset : op. cit. I. p. 580.

حلب ، تزوج أميرة سلجوقية ، هى ابنة الملك رضوان صاحب حلب ؛ ثم نظم شئون الإدارة بحلب(١) ، وصالح الفرنج مدة سنة كاملة ، فأعطاهم ما كان بأيديهم من الضياع التابعة للأثارب ، أما الأثارب ذاتها فلم ترجع إليهم إلا بعد سنة(٢) .

وعلى الرغم من الهزائم التى أنزلها الفرنج بإيلغازى ، فإنه لم يتوقف عن المضى فى قتالهم ؛ فاغتنم فرصة خروج بونز كونت طرابلس على طاعة ملك بيت المقدس ، أوائل سنة ١١٢٢ ، ومسير بلدوين إلى طرابلس لانتزاع يمين الولاء والتبعية من بونز ، فقدم إلى الشام فى يونيه ١١٢٢ ، وبصحبته بلك ابن أخيه(٣). غير أن ما بذلاه من محاولات للاستيلاء على زردانه وانتزاعها من أيدى الصليبيين ، كان مصيرها الفشل ، فارتد إيلغازى عنها ، غير أنه لم يكد يصل إلى حلب حتى قضى نحبه فى نوفمبر سنة ١١٢٢ ، ورجع بلدوين إلى أنطاكية(٤) .

وما أحرزه الفرنج من نجاح فى سائر الجهات وما هيأه لهم موت إيلغازى من فرص ، لم يلبث أن أفسدها وقوع جوسلين كونت

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٣ ، ص ٢٠٣ .

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 580-581-note 1.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٣) ولعل بلدوين يرمى بمسيره إلى طرابلس وقمع الفتنة بها ؛ إلى تطلعه إلى بسط سلطانه على طرابلس ، فتصير له بذلك السيادة على الإمارات اللاتينية ، بعد أن صارت له الوصاية على أنطاكية . والمعروف أن بلدوين الأول حصل على يمين التبعية سنة ١١٠٩ من برترام كونت طرابلس . انظر

Nicholson : The Growth of the Latin states p. 417. note. 7.

William of Tyre : op. cit. I. p. 539.

(٤) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 417-418.

Runciman. : op. cit. II. p.161.

Grousset : op. cit. I. pp. 581-583.

الرها فى أسر المسلمين . ذلك أن بلك بن بهرام ، بادر بعد عودته من زردانه ، إلى حصار الرها ، ثم ارتد عنها بعد أن تبين له صعوبة الاستيلاء عليها ، لما صادفه من مقاومة عنيفة ؛ غير أن الفرنج بالرها استبد بهم الخوف ، وأحسوا بأن بلك لابد أن يعود لقتالهم ، فأرسلوا إلى جوسلين فى البيرة ، حيث كان يلهو مع أميرها جاليران لى بويزيه[1] ، يخطرونه بما حدث . وإذ ارتاع جاليران لوجود بلك فى أراضيه ، حث جوسلين على الاشتراك سويا فى حملة ، لمنازلة بلك . ووقف بلك على خطة الأميرين فرأى أن ينصب لهما كميناً عند سروج ، فى موضع رطب ، زاده سوءا انهمار الأمطار وقتذاك ، فأنزلقت أرجل الخيل ، وتعثرت فى سيرها ، ولم يجد فرسان التركمان صعوبة فى تطويق الفرنج ، فوقع فى أسرهم ، فى سبتمبر ١١٢٢ ، جوسلين وجاليران وستون من فرسانهم . وعرض عليهم بلك إطلاق سراحهم ، مقابل تسليم الرها ، فرفض جوسلين ، فجرى نقل الأسرى إلى خرتبرت قلعة بلك ، التى تقع إلى الشمال الشرقى من الرها[2] .

ترتب على وفاة إيلغازى أن تفككت أملاك الأراتقة ، فاقتسمها أبناؤه وأبناء إخوته ، فكانت ميافارقين من نصيب ابنه الأكبر سليمان ،

---

(١) المعروف أن جوسلين تزوج ، للمرة الثانية ، من ماريا شقيقة روجر أمير أنطاكية ، وحصل على عزاز ، بائنة لها ، أما جاليران فحصل على البيرة سنة ١١١٧ ، إقطاعاً من قبل بلدوين الأول . انظر .Nicholson : loc. cit

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤١٨ – ٤١٩ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

Runciman : op. cit. II. p. 191.

Nicholson : The Growth of the Latin states. p. 418.

Grousset : op cit. I. pp. 583-584.

ترتب على أسر جوسلين أن تولى بلدوين الثانى الوصاية على الرها ، فأصبح يحكم بيت المقدس وأنطاكية والرها .

بينما نال ابنه الأصغر تمرتاش ، ماردين ، وكانت حلب من حق ابن أخيه سليمان ، أما بلك بهرام فاحتفظ بخرتبرت ، وأضاف إليها حران فى الجنوب[١] .

الواضح أن الفرنج ارتاحوا من تفكك المملكة الأرتقية ، فالمعروف أن السيادة الأرتقية على حلب ، ارتكنت على عساكر التركمان من ديار بكر ؛ فأضحى سليمان الذى ولى حكم حلب ، فى مركز ضعيف بعد أن صارت ديار بكر فى حوزة أمراء آخرين من الأراتقة . فاستغل بلدوين الثـانى ملك بيت المقدس الفوضى الناشبة فى حلب ، فتوجه إلى الشمال بجيوشه من أنطاكية والرها فضلا عن الأرمن الذين انحازوا إليه ، فأغار على البزاعة ، ومنها توجه إلى بالس ، من ممتلكات حلب ، على نهر الفرات ، ثم حصر البيرة واستولى على قلعتها . وبذا جرى تطويق حلب من سائر الجهات ؛ وتحتم على سليمان أن يعقد صلحا مع بلدوين ، بمقتضاه يسلمه قلعة الأثارب[٢] .

ولما فرغ بلدوين الثانى من تقرير الصلح مع حلب ، سنة ١١٢٣ ، وأعاد إلى أنطاكية حدودها السابقة ، واطمأن إلى سلامة الرها ، قرر المبادرة إلى تخليص جوسلين من الأسر . والواقع أن هذه الحملة الموجهة لإطلاق سراح جوسلين ، كانت بالغة الأهمية نظرا لأن بلك كان وقتذاك يحاصر حصن كركر ، على نهر الفرات ، الذى يعتبر من توابع الرها ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٣٦ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٠٩ .
Runciman : History of the Crusades II. p. 162.
Grousset : op. cit. I. pp. 584-585.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 585.
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢١٠ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٣٠ – ٤٣١ .

فنصب معسكره على الضفة الشرقية لنهر سنجه من فروع الفرات ، تجاه بلك[1] . ودار القتال بين الفريقين ، سنة ١١٢٣ ، فانهزم بلدوين ووقع فى أسر بلك الذى حمله أيضا إلى خرتبرت[2] .

وللمرة الثانية اجتمع فى الأسر سويا ، بلدوين وجوسلين ، غير أن وضعهما هذه المرة كان بالغ الحرج ، لأن بلدوين (الثانى) صار ملكا ، ويعتبر دعامة المملكة الصليبية . على أن كيان الدولة الصليبية لا زال قائما ، فتولى إدارة الرها جفرى الراهب ، وسير الأمور فى أنطاكية البطريرك ، بينما قام بتصريف سياسة بيت المقدس الكندسطبل يوستاس جارنييه ثم وليم بُور ، صاحب طبرية وصيدا[3] .

وذاع صيت بلك ، وارتفع شأنه لما أحرزه من انتصار باهر ، غير أنه لم يفد من هذا النجاح فى توجيه ضربة قاضية إلى الفرنج بل التفت إلى توطيد ملكه فى حلب ، بعد أن انتزعها من ابن عمه سليمان ، كما استولى على حران ، وهاجم أملاك الصليبيين فى أقصى الشمال[4] .

تحتم على بلك أن يمضى إلى خرتبرت ، بعد أن علم بخبر هروب جوسلين ، واستيلاء بلدوين وأصحابه المعتقلين ، على قلعتها بفضل مساعدة

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 587.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢١١ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٣٣ .

Grousset : op. cit. I. p. 587-588.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 163.

Nicholson : The Growth of the Latin States p. 421.

William of Tyre : op. cit. I. p. 546-547.

Grousset : op. cit. I. p. 588.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢١٢ .

الأرمن . واستطاع جوسلين أن يحشد جيشاً من بيت المقدس ، وأسرع لمساعدة بلدوين ، غير أن بلك أفسد خطته ، بما قام به من حشد قوات ضخمة فى سرعة أدهشت المعاصرين ، فهاجم قلعة خرتبرت واستولى عليها ، ورتب فيها من يحفظها ، وسير بلدوين وجاليران وابن أخت بلدوين إلى حران حيث جرى حبسهم بها[1] .

لم يخاطر جوسلين بالتوجه إلى حران لإطلاق سراح بلدوين ورفاقه ، فعاد إلى تل باشر . ولم يفد بلك أيضاً من هذا الموقف ، بل انصرف إلى قمع ثورة فى منبج ، فأصابه سهم طائش ، فى مايو سنة ١١٢٤ ، أدى إلى مصرعه ، وصار يردد قبل وفاته « هذا السهم قتل المسلمين كلهم » ، لما أسهم به فى الجهاد ضد الصليبيين ، وشدة بأسه فى قتالهم[2] . والواقع أن بلك صدق فى كلمته ، نظرا لما بذله من جهد فى توحيد القوى الإسلامية ضد الفرنج ، ثم إنه كان على وشك المسير لإنقاذ صور التى كان يحاصرها الفرنج ، فأدت وفاة بلك إلى سقوط صور فى أيدى الفرنج وبذلك صارت لهم السيطرة على الساحل[3] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢١٣ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٣٣ .

Runciman : op. cit. II. pp. 163-165.

Grousset : op. cit. II. pp. 589-594.

William of Tyre : op. cit. I. pp. 544-545.

Nicholson : The Growth of the Latin States p. 419-420.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢١٧ – ٢١٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٣٦ .

Runciman : op. cit. II. p. 165.

Grousset : op. cit. I. p. 596.

Cahen : op cit. pp. 297-298.

(٣) Grousset : op cit. I. p. 597.

تعرضت إمارات الأراتقة بعد وفاة بلك للانهيار ، وحلت بحلب الكوارث ، إذ خضعت من جديد لتيمورتاش ابن ايلغازى ، وخليفته على ماردين ، غير أنه نازعه فى حكمها دبيس بن صدقة الذى تحالف مع أمير جعبر والفرنج والسكان الشيعة فى حلب[١] . ولم يسع تيمورتاش إلا أن يتفاوض فى إطلاق سراح بلدوين ، مع جوسلين وملكة بيت المقدس ، مقابل التنازل عن عزاز وفدية كبيرة ، فجرى إطلاق سراحه فى أغسطس سنة ١١٢٤[٢] .

لم يف بلدوين بوعده ، بعد إطلاق سراحه ، فلم يتنازل عن الحصون التى وعد بتسليمها ، بل إنه تحالف مع دبيس على أن تكون حلب لدبيس ، والأموال والأرواح وبعض المواضع للفرنج[٣] . أما تيمورتاش فإنه انسحب من حلب إلى الجزيرة بعد أن يئس من الدفاع عنها ، وتركها فى حراسة سكانها وحامية مؤلفة من ٥٠٠ فارس[٤] .

تعرضت حلب لحصار شديد ، فى اكتوبر سنة ١١٢٤ ، قام به بلدوين وجوسلين وحلفاؤهما من الأمراء المسلمين أمثال دبيس ، وأمير جعبر ، وسلطان شاه ابن رضوان ، وياغى سيان الأرتقى . واستمات أهل حلب فى الدفاع عن مدينتهم نحو ثلاثة شهور ، وأرسلوا إلى تيمورتاش

---

(١) Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 452.
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٣٩ — ٤٤٠ .
Grousset : op. cit. II. p. 626.

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 423.
Runciman : op. cit. II pp. 171-172.
Grousset : op. cit. I pp 623-625.

(٣) Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 452
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٢٠ — ٢٢٣ .

(٤) Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 452.

يستنجدون به ، فلم يحفل باستغاثتهم ، فتوجه رسلهم إلى أتابك الموصل ، أقسنقر البرسقى ، على كره منهم ، فلقوا منه الترحيب ، وتوجه لمساعدتهم ، وانحازت إليه قوات أتابك دمشق وأمير حمص ، فرد الصليبيين وحلفائهم عن حلب فى يناير سنة ١١٢٥[١] . وبذلك انهار حلف الصليبيين ، وتوجه بلدوين إلى بيت المقدس ، بعد أن غاب عنها ثلاثة سنوات ، وارتحل دبيس بقبيلته إلى الشرق[٢] .

وفى سنة ١١٢١ ، أقطع السلطان محمود السلجوقى مدينة الموصل وأعمالها ، وتوابعها كالجزيرة وسنجار ، الأمير أقسنقر البرسقى ، وتقدم إلى سائر الأمراء بطاعته وأمر بمجاهدة الفرنج ، وذلك لما اشتهر به البرسقى من الإخلاص للسلطان وملازمته له فى حروبه كلها ، ولما قام به من التوسط بين السلطان محمود وأخيه مسعود[٣] .

والواقع أن اتحاد حلب مع الموصل ، وخضوعهما لسيطرة البرسقى أتابك الموصل ، أضحى يهدد كيان الصليبيين . إذ رأى البرسقى وزنكى من بعده ، فى هذا الاتحاد وسيلة ، يستطيع بها أن يقيم إمارة مستقلة ، يتوارثها سلالته . ولما لم تكن الموصل وحدها كافية لتحقيق هذا الغرض ، نظراً لقربها من حواضر السلطنة السلجوقية . فإن الاستيلاء على حلب ، وبلادها ، يزيد فى توطيد مركزه ، وتثبيت دعائم ملكه ، بما تبذله من المساعدة المادية والمالية . وما يزيد فى قيمة

---

(١) Gibb : Zengi and tne Fall of Edessa p. 453.
Runciman : op. cit. II. p. 173.
Grousset : op. cit. I. pp. 627-631.

(٢) Nicholson : the growth of the Latin States p. 425.
Runciman : op. cit. II. p. 173.
Grousset : op. cit. I. pp. 629-631.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤١٥ .

الاستيلاء على حلب ، أنها بفضل موقعها على ثغر المسلمين ومعقلهم تجاه الفرنج ، أضفت على أمير الموصل صفة المدافع عن الإيمان ضد الكفار ، كما أن قوة الشعور الإسلامى ، تجعل من العسير على السلطان أن يتخذ ضد أميرها إجراء صارماً[١] . يضاف إلى ذلك أن البرسقى ، باعتباره ممثلا للسلطان السلجوقى صار له السلطة الشرعية الوحيدة ، بين الإمارات الكثيرة وقتئذ ، فصار فى وسعه أن يقضى على الفوضى الناشبة بها وأن يخضعها للسلطان السلجوقى[٢] .

وإذ حرص البرسقى على إعادة تنظيم حكومة حلب ، قام باعتباره سيداً على هذه الجهات ، بالطواف بالإمارات الإسلامية فى الشام ، فاستقبل فى تل السلطان خيرخان بن قراجا ، ثم توجه لزيارة شيزر ، فاستقبله أميرها سلطان ، وسلم له رهائن الفرنج ، الذين استبقاهم بحوزته حتى يتم تنفيذ المعاهدة المعقودة بين بلدوين الثانى وتيمورتاش[٣] . ومن شيزر ، سار البرسقى إلى حماه ، وهى من أملاك طغتكين أتابك دمشق ، فقدم إليه بجيشه . وبذا خضع لقيادة البرسقى كل القوات الإسلامية بالشام فضلا عن العساكر السلجوقية من الموصل . وشرع البرسقى فى الإغارة على أملاك أنطاكية ، بأن حاصر كفر طاب ، فأذعنت له ، فسلمها إلى أمير حمص[٤] . وزحف البرسقى على عزاز ، حيث دار فى آخر مايو سنة ١١٢٥ معركة عنيفة ، التقى فيها مع ملك بيت المقدس

---

(١) Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 453.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 631.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 631.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 632.

Runciman : op. cit. II. p. 173.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

الذى قاد جيوش أنطاكية وطرابلس والرها فضلا عن جيشه ، فحلت الهزيمة بالبرسقى[١] . وتقرر عقد هدنة بين البرسقى والفرنج ، غير أن الاتفاق لم يتم نهائياً بين الجانبين نظرا لأن الفرنج لم يحترموا ما اتفقوا عليه ، من قبل ، من الشروط[٢] .

وفى مارس سنة ١١٢٦ هاجم بونز حصن الرفانية الواقع على التلال فى غرب حمص ، ونهض بلدوين ملك بيت المقدس لمساندته ؛ حتى تمكن من الاستيلاء عليه بعد حصار استمر ١٨ يوماً . وإذ أحسّ واليها بما تتعرض له من خطر ، التمس المساعدة من البرسقى أتابك حلب والموصل[٣] .

وحشد البرسقى جيشاً ضخما ، وتوجه لنجدة صاحب رفانية ، واتخذ طريق منبج المؤدى إلى الشام ؛ والمعروف أن بلاد منبج وأراضيها تعرضت دائماً لغارات جوسلين كونت الرها ؛ فدارت المفاوضات بين البرسقى وجوسلين لعقد هدنة ، على أن تكون الضياع ما بين عزاز وحلب مناصفة ، وأن يكون الحرب بينهما على غير ذلك ، واستقر هذا الأمر[٤] .

والواقع أن البرسقى أراد أن يصالح الفرنج فى هذه الناحية ، كيما ينصرف إلى مناوأة الصليبيين على نهر الأورنت ؛ فحاصر الأثارب فى

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٣١ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٤٣ .
Runciman : op. cit. II. 174.
Grousset : op. cit. I. pp. 632-636.

(٢) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 427.
Grousset : op. cit. I. p. 641-642

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٥١ .
Runciman : op. cit. II. p. 174-175

(٤) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 426.
Grousset : op. cit. I. p. 642.
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٣٢ .

يوليه ، سنة ١١٢٦ ، وأرسل جماعة من العسكر والنقابين إلى حصن الدير الذى يقع فى أعلى شرمذا ، فأذعن لهم . ونهب العساكر الغلال والفلاحين فى سائر البلاد التى أغاروا عليها ، وبعثوا بالغلة والمحصول إلى حلب ، ثم زحفوا إلى الأثارب(١) . وعلى الرغم من أن قوات البرسقى استولت على السورين الخارجيين ، لم يتيسر لها الاستيلاء على المدينة ، لمبادرة ملك بيت المقدس إلى الدفاع عنها(٢) . على أن البرسقى لم يمض فى الحرب حتى لا يتعرض المسلمون لما تعرضوا له من قبل فى عزاز ، وقرر عقد الصلح مع الفرنج ، غير أن بلدوين لم يلبث بعد أن جلا البرسقى بقواته عن الأثارب ، أن أنكر ما سبق أن عرضه على البرسقى من شروط الصلح ، وأهمها إعادة رفانية إلى المسلمين(٣) ؛ بل إنه طالب ببلاد جديدة وقال « ما نصالح إلا على أن تكون الأماكن التى ناصفنا فيها فى العام الماضى (الواقعة بين حلب وعزاز) ، لنا دون المسلمين » . فلم يقبل البرسقى ذلك ، وأقام فترة بحلب ترددت أثناءها الرسل بينه وبين الفرنج ، دون أن تؤدى إلى نتيجة مقبولة من الجانبين(٤) . وما حدث بعدئذ من غارات من الجانبين لم تؤد إلى نتيجة من النتائج ، فرجع

---

(١) Stevenson : The Crusades in the East p. 118

Nicholson : The Growth of the Latin States p. 426.

Grousset : op. cit. I. p. 642.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 643.

Runciman : op. cit. II. p. 175.

Nicholson : The Growth of the Latin States p. 426.

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٣٣ .

Grousset : op. cit. I. p. 643.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

Grousset : op. cit. I. p. 644.

بلدوين إلى بيت المقدس ، وارتحل البرسقى إلى الموصل ، بعد أن أناب عنه فى حكم حلب عز الدين مسعود ، غير أنه ما كاد يصل إلى الموصل حتى لقى مصرعه على يد أحد الباطنية فى نوفمبر سنة ١١٢٦[١] ؛ وبذا تخلص الباطنية من عدو عنيد[٢] . وما هو جدير بالذكر أن عز الدين مسعود تلقى أول نبأ عن مصرع والده من أمير أنطاكية ، ويعلل ابن الأثير ذلك ، بشدة عناية أمير أنطاكية بمعرفة الأحوال الإسلامية[٣] .

خلف عزالدين مسعود ، أباه البرسقى ، على حلب ، غير أنه لم يلبث أن توجه إلى السلطان محمود السلجوقى ببغداد ، يسأله أن ينعم عليه ببلاد أبيه ، فكتب له منشوراً بذلك . والملحوظ أن الحكم الوراثى فى أقاليم الدولة السلجوقية أضحى من النظم السلجوقية . ملك مسعود الموصل ، وحلب[٤] ، على أن مسعودا صادف مقاومة فى حلب مصدرها حزب من سكان المدينة يضم عدداً كبيراً من الباطنية . وإذ ساءت العلاقات بينه وبين الأتابك طغتكين ، قبل أن يقلده السلطان الموصل وحلب ، وخامره الشك بأن قاتل أبيه من سكان حماة ، الخاضعة

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 644.
Runciman : op. cit. II. p. 175.
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٣٤ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٢) Lewis : The Ismailites and the Assassins p. 115.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٤٧ .

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 650.
Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 453.
Grousset : op. cit. I. p. 650-651

لسلطان أتابك دمشق ، انصرف عن مجاهدة الفرنج ، وحاصر الرحبة من أملاك طغتكين ، فتسلم القلعة ، غير أنه مات فجأة فى مايو سنة ١١٢٧[١] .

سادت الفوضى بحلب ، وتنازع حكمها كثيرون ، منهم ختلغ الذى أرسله السلطان محمود ، ومعه توقيع مسعود بن البرسقى بحلب ، غير أنه أساء السيرة ، وامتدت يده إلى أموال الناس فكرهوه وحصروه بالقلعة ، ونصبوا عليهم أميرا أرتقيا ، اسمه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار ، فأطاعوه . ودخل إلى المدينة أيضا الأمير السلجوقى ابراهيم بن رضوان ، وحسان صاحب منبج ، وحسن صاحب بزاعة[٢] . واغتنم الفرصة أيضا ، جوسلين كونت الرها ، وبوهمند الثانى أمير أنطاكية ، للاستيلاء على حلب ، غير أن ماكان من العداء بين جوسلين وبوهمند ، وما بذله لهما سكان المدينة من الأموال ، أنقذ المدينة من شرهما[٣] .

واشتد تضييق الحصار على ختلغ ، حتى وصل إلى حلب عساكر عماد الدين زنكى ، فتسلموا القلعة واعتلقوا ختلغ ، ثم تقرر سمل عينيه[٤] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٥٣ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٧ .
Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 453.
Grousset : op. cit. I. p. 651.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٥٧ .
Giibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 453.
Grousset : op. cit. I. p. 651.

(٣) Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 453.
Grousset : op. cit. I. p. 651.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٨
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٧ — ٤٥٨ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

زنكى :

الواضح أن اقتران الحماس الدينى بروح المغامرة والإقدام ، كان من أهم دوافع الجهاد الدينى ، غير أنه مهما كان الحافز ، فلابد من قيام الوحدة ، وظهور زعيم يجمع شمل القوى المتناحرة ، ويؤلف منها جيشا مستعدا للتضحية فى سبيل العقيدة والإيمان . فإذا ظهر قائد يجمع الناس على احترامه ، لما اشتهر به من الشجاعة والعبقرية الحربية ، جعل من التركمان وأمراء الترك قوات محاربة يعمل الصليبيون لها حسابا كبيرا(١) . كان هذا الزعيم هو عماد الدين زنكى .

كان أقسنقر والد زنكى من أعظم مماليك السلطان ملك شاه قدرا ، وأرفعهم شأنا ، ولاه حكم حلب سنة ١٠٩٢ ، فاشتهر فى إدارته بالتسامح والاهتمام بالرعية ، فصار مضرب الأمثال فى الإخلاص والاستقامة . على أنه لقى مصرعه سنة ١٠٩٤ على يد تتش ، شقيق ملك شاه ، ومؤسس الدولة السلجوقية بالشام(٢) .

لم يتجاوز عماد الدين زنكى وقتذاك العاشرة من عمره ، فالتف حول مماليك أبيه ، فشمله كربوقا والى الموصل منذ ١٠٩٦ بالعطف والرعاية ، وشهد القتال وهو لا زال صبيا . إذ حضر مع كربوقا ومعه جماعة كثيرة من أصحاب أبيه ، المصاف بين سقمان وكربوقا ، عند آمد ، فلما اشتد القتال ، ألقى أصحاب أقسنقر ، زنكى ولد صاحبهم بين أرجل الخيل ، لاستثارة حماسهم ، فقاتلوا حينئذ قتالا شديدا(٣) ، ودخل فى خدمة كل من جاولى

(١) Lane-Poole : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem. p. 34.

العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٤ .

(٢) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٤ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ١٥٧ .

Grousset : op. cit. I. p. 666.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٢٦٩ .

والبرسقى[١] . وذاع صيت زنكى لما أبداه من البسالة أثناء قتاله للصليبين ، حين اشترك فى حملة مودود فى هجوم على طبرية سنة ١١١٢ (٥٠٦)، فأبدى من الشدة فى القتال والفروسية ما اكسبه لقب الشامى إذ أنه تقدم وحده نحو طبرية يطارد الفرنج ، فقاتلهم على باب المدينة وهو ينتظر قدوم أصحابه فيملكون البلد[٢] .

وكافأه السلطان محمود السلجوقى بأن جعل له شحنكية البصرة وواسط ، وعظم شأنه[٣] . وأظهر زنكى من البطولة فى أثناء القتال الذى وقع بين الخليفة المسترشد بالله ، وبين دبيس بن صدقة صاحب الحلة ، ما جعله يدرك قوته ويتطلع إلى أن يصبح واحدا من الأمراء الأتراك ؛ لا مجرد تابع يقاتل لحساب أمراء عديدين فى مختلف الجهات . واستقر على ألا يخدم سوى السلطان السلجوقى فحباه بعطفه وكرمه . ولما وقع النزاع بين السلطان والخليفة ، انحاز زنكى إلى جانب السلطان ، فرجحت كفته ، وقبل الخليفة الانزواء فى داره ، وصار زنكى يصرف الأمور ، لا فى بغداد وحدها ، سنة ١١٢٦ ، بل فى سائر جهات العراق[٤] . وما اشتهر به زنكى من المهارة واللباقة استرعى اهتمام الخليفة وسكان بغداد[٥] . ولما عزم السلطان على المسير من بغداد ، ولى زنكى شحنكية بغداد ، فضلا عن إقطاع البصرة ، وبذا اطمأن قلبه من جهة العراق[٦] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٣٢٦ – ٣٥١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٠٣ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٤٧ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٨ .
Lane - Poole : Saladin. p. 35

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٣٠ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٣٠ – ٣١ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٥٠ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٥٤ .
Grousset : op. cit. I. p. 660.

ولما مات مسعود بن البرسقى أتابك الموصل ، توجه إلى السلطان وفد من الأعيان ، يلتمسون منه تعيين زنكى أتابكا على الموصل ، وذلك لأن « ديار الجزيرة والشام ، قد تمكن الفرنج منها ، وقويت شوكتهم بها ، فاستولوا على أكثرها وقد أصبحت ولا يتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر ، ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين . وقد كان البرسقى مع شجاعته وتجربته وانقياد العساكر إليه ، يكف بعض عاديتهم وشرهم . فمنذ قتل ، ازداد طمعهم ، ولابد للبلاد من رجل شهم شجاع ذى رأى وتجربة ، يذب عنها ويحفظها ، ويحمى حوزتها » . فاستجاب السلطان لهم لما يعلمه من كفايته لما يليه من المناصب ، فأحضره وولاه البلاد كلها[١] ، وجعله السلطان أتابكا لابنه ألب أرسلان ، وطلب إليه أن يمضى فى مجاهدة الفرنج بالشام[٢] .

أضحى لزاما على زنكى أن يقاتل الفرنج ، بعد أن أخمد فتنة دبيس ، وانتصر على الخليفة ، ولا شك أن حركة الجهاد الدينى ضد الصليبيين سوف تمضى قدما بفضل زنكى وما اشتهر به من النشاط والإقدام والحماس . استقر زنكى فى حكومة الموصل فى سبتمبر سنة ١١٢٧ . فشرع فى إخضاع توابعها ويقرر قواعد الحكم بها[٣] . ولما اشتهر به زنكى من الخبرة فى اصطناع الرجال ، اختار رجالا أكفاء يثق فيهم ، فولاهم ، دزدارية القلعة بالموصل ، والحجابة والقضاء ، وبذل لهم الإقطاعات والأملاك[٤] . ثم استولى على جزيرة ابن عمر ، وكان بها

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٤٥٣ — ٤٥٤ .

(٢) Grousset : op. cit. I. pp. 666-667.
Cahen : op. cit. p. 306.
Runciman : op. cit. II. p. 182.
Hibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 454

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٥٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٥٤ .

مماليك البرسقى ، وانتزع من حسام الدين تمرتاش الأرتقى ، نصيبين وحران ، وهادن جوسلين أمير الرها كيما يتفرغ لإصلاح البلاد وحشد الجنود . وكان أهم الأمور عنده ، أن يعبر الفرات إلى الشام ، ويملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية[١] ، قبل الشروع فى مجاهدة الفرنج[٢] .

وبفضل ما حصل عليه زنكى من السلطان ، من التوقيع بالموصل والجزيرة والشام ، صار فى وسعه أن يبسط سلطانه على جهات كثيرة ، فسيَّر إلى حلب اثنين من أكابر أمراء البرسقى ، لحفظ الأمن وتوطيد سلطته بها . ثم أنفذ إليها عسكرا بقيادة حاجبه صلاح الدين الياغسيانى فاستولى على قلعة حلب[٣] . وكيفما كان الأمر ، فان زنكى دخل حلب فى ١٨ يونيه ١١٢٩ ، ٥٢٢ هـ ؛ فالتقاه أهلها وأظهروا الفرح والسرور لقدومه[٤] . وملك عماد الدين زنكى فى طريقه إلى حلب ، مدينة منبج وبزاعة[٥] .

على أن الأتابك زنكى اعتبر ولايته على حلب ، تجديدا لما كان لأسرته من سيطرة عليها ، بعد أن مضى على مصرع أبيه ٣٤ سنة (١٠٩٤ – ١١٢٨) ، فما كان للأسرة الزنكية من سلطات ، إنما حصلت عليه بتقاليد من السلاطين ملك شاه ، وبركيارق والسلطان محمود . فإذا

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٥٦ .

Lane - Poole : Saladin. p. 49.

(٢) Grousset : op. cit. I. p, 667-668.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٥٨ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٤٢ – ٢٤٤ .

Grousset : op. cit. I. p. 668.

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٢٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٥٨ .

أقام الزنكيون دولة إسلامية متحدة بالشام ، فإنهم يفعلون ذلك ، باعتبارهم منتدبين ووارثين للسلطنة التركية المتداعية[١] .

وتهيأت الأحوال لزنكى للتدخل فى أمور الشام ، فيشير ابن الأثير إلى أنه « لولا أن الله تعالى ، منّ على المسلمين بملك أتابك ببلاد الشام ، لملكها الفرنج ، لأنهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية ، فإذا علم بذلك طغتكين ، قصد بلادهم وأغار عليها ، فيضطر الفرنج إلى الرحيل ، لدفعه عن بلادهم ، فقدر الله تعالى أنه توفى هذه السنة (فبراير ١١٢٨) فخلا لهم الشام ، من جميع جهاته من رجل يقوم بنصرة أهله ، فلطف الله بالمسلمين بولاية عماد الدين »[٢] . فأضحى يتزعم حركة الجهاد قائد ، فإذا مات ، خلفه قائد آخر ، فجاء بعد زنكى ابنه نور الدين ، ثم صلاح الدين ، وصار يواجه مملكة الصليبيين على الساحل ، دولة إسلامية بداخل سوريا[٣] .

أضعف دمشق ما حدث من وفاة طغتكين ، فانصرف ابنه بورى إلى الدفاع عن مدينته ، وردّ بلدوين الثانى عنها ، ولم تتسع أطماعه إلى أبعد من ذلك[٤] . وحرص زنكى على أن يفيد من ضعف دمشق ، بأن يستولى على بعض توابعها ، ولم يكن لقاؤه مع خيرخان ابن قراجا ، صاحب حمص ، فى أرض حماه من أملاك دمشق إلا تمهيدا لما حدث من الأمور فى

---

(١) Grousset : op. cit. I. p. 668.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٥٨ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٣٨ .

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 669.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 669.
Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 455.

السنة التالية ، إذ تأكدت بينهما مودة ، لم تحمد عاقبتها ، على حد قول ابن العديم[١] .

وكيما يجعل ملكه فى حلب مشروعا ، ويقيمه على قواعد شرعية ثابتة ، قام زنكى بأمرين على جانب كبير من الأهمية . الأول ، أنه تزوج ابنة الملك رضوان ، والتى تعتبر وريثة لحقوق الأسرة السلجوقية بحلب ، فانتقلت هذه الحقوق ، بزواجها ، إلى الأسرة الزنكية[٢] . أما الأمر الثانى الذى أقدم عليه ، فيتمثل فى أن زنكى ، بعد أن استقرت أمور حلب ، توجه إلى دار السلطان السلجوقى ، ببغداد . وقد أدرك أن السلطان لم يشأ أن يهب هذا القائد الطموح أملاكا شاسعة وكان يؤثر أن تكون البلاد لدبيس بن صدقه ، فأنكر الخليفة المسترشد ذلك ، لما كان من مساندة دبيس للفرنج . وقبل السلطان آخر الأمر أن يمنح زنكى تقليدا بالموصل ، والجزيرة والرحبة ، وحلب وسائر البلاد الشامية وغيرها بما فى ذلك البلاد التى بيد الفرنج ، وأدرك السلطان وزنكى أهمية التقليد الذى حازه[٣] .

كانت دمشق أول الإمارات الإسلامية ، التى تأثرت بما حدث فى الشمال من تغيير فى توازن القوى . فالمعروف أن بلدوين الأول ، ملك بيت المقدس ، ركز هجماته على مصر وممتلكاتها فى آسيا ، وحاول أن يجعل من دمشق بلدا محايدا ، على حين أن بلدوين الثانى ، حرص على

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 125
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٤٣ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٤٤ .
Grousset : op. cit. I. p. 669.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٣٥٨ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٧ .
Grousset : op. cit. I. p. 669
Stevenson : op. cit. p. 125.

أن يوجه هجومه على دمشق(١) . وترتب على هزيمة الصليبيين فى الشمال فى معركة ساحة الدم سنة ١١١٩ ، واشتراك بلدوين الثانى فيها ، أن تهيأت الفرصة لأتابك دمشق طغتكين ، ليسهم فى الحملات فى الشمال ، وأن يدخل فى مفاوضات مع الفاطميين فى مصر(٢) . اشترك أقسنقر البرسقى مع طغتكين فيما دار من المفاوضات مع مصر ، والراجح أن بوادر توطيد العلاقات بين مصر ودمشق وحلب ، يفسر ما أقدم عليه بلدوين الثانى من مهاجمة عسقلان فى نوفبر سنة ١١٢٥ ، والإغارة على أملاك دمشق فى يناير سنة ١١٢٦ . وحقق ما كان يهدف إليه الصليبيون من إحباط جهود المسلمين فى القيام بعمل مشترك ، ومهد الطريق لما حدث بعد ثلاث سنوات من غارة عنيفة على دمشق(٣) .

(١) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 411,426.
Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 454.

(٢) فى ديسمبر سنة ١١٢١ لقى الوزير الأفضل مصرعه ، فتولى مكانه المأمون ، الذى وجه اهتمامه إلى ما يقع من أحداث فى الشام وفلسطين ، فأنشأ أسطولا قوياً . واغتنم فرصة وقوع بلدوين الثانى فى أسر بلك ، فأرسل إلى يافا عساكر يحملهم الأسطول سنة ١١٢٣ ، غير أن اتابك دمشق لم ينهض لمساعدته ، فتعرض المصريون(الفاطميون) للهزيمة براً عند يبنه ، وبحراً من قبل الأسطول البندقى ، وسقطت مدينة صور فى أيدى الصليبيين سنة ١١٢٤ ، وتضمنت شروط الهدنة من الشروط ما يكفل لدمشق استمرار علاقاتها التجارية . انظر :
Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 455.
Grousset : op. cit. I. p. 616-621.

(٣) Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 455.
Nicholson : The Growth of the Latin States p. 426.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٢ – ٢١٣ .
الواضح أن الباطنية لم يلجأوا إلى التعاون مع دمشق ، والتماس رعاية طغتكين إلا بعد الاتحاد بين حلب والموصل . وما اشتهر به بلدوين الثانى من الكراهية والعداوة ، جعل التحالف بين دمشق والفرنج بعيد الوقوع ، ولم يتيسر أيضاً قيام تحالف بين مصر ودمشق . ومن الدليل على التحالف بين دمشق والباطنية ما بذله لهم من قلعة بانياس فى نوفبر سنة ١١٢٦ .
Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 455.
Nicholson : The Growth of the Latin States p. 426.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٥ .

مات طغتكين فى فبراير سنة ١١٢٨ ، بعد أن مضى شهر على استيلاء زنكى على حلب ، وخلفه فى الأتابكية ابنه بورى ، الذى لم يلبث أن أثبت كفايته ، فى مناوأة الباطنية ، بأن طردهم من دمشق فى سبتمبر سنة ١١٢٩ ، فلم يسعهم إلا أن يسلموا قلعة بانياس إلى الفرنج ، الذين اغتنموا هذه الفرصة ، فاحتشدت جيوشهم من الجنوب والشمال لمهاجمة دمشق . غير أن قوات بورى المؤلفة من التركمان والعرب طوقت الجيوش الصليبية ، وأنزلت فى نوفمبر سنة ١١٢٩ الهزيمة الساحقة بسرية كان يقودها وليم دى بور (كليام دبور) للإغارة على حوران من أجل المؤن والعلف ، فانسحب الصليبيون ، وعدل بلدوين نهائيا ، بعد هذه الهزيمة ، وبسبب ما تجدد من النزاع بين أمراء الفرنج فى الشمال ، عن المضى فى سياسة مهاجمة دمشق . ولم يلبث أن عقد مع أتابك دمشق معاهدة لتنظيم ما بينهما من علاقات تجارية وسياسية[١] .

الواضح أن القوى الإسلامية فى بلاد الشام ، بعد أن خضعت حلب لزنكى تتمثل فيما يأتى :

١ — إمارة دمشق وتشمل دمشق ، وحماه[٢] فى الشمال ، وحوران فى الجنوب ، وتخضع للأتابك بورى بن طغتكين . ٢ — إمارة حمص ، ويحكمها خيرخان بن قراجه التركى ٣ — إمارة شيزر ، ويحكمها أمير عربى ، وهو سلطان من أسرة بنى منقذ . ولما لم تكن شيزر إلا إمارة

---

(١) Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 426.

Nicholson : The Growth of the Latin States p. 430-431.

Runciman : op. cit II. p. 180.

Grousset : op. cit. I. pp. 658-665.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٦٣ .

(٢) كانت حماه إقطاعاً لسونج ابن بورى .

صغيرة ، لم تلبث أن وثقت علاقتها بالدولة الزنكية ودانت له بنوع من السيادة يدل على ذلك ، إقامة اسامة بن منقذ فترة طويلة فى الموصل[١] .

أما خيرخان أمير حمص ، فإنه اغتنم فرصة قدوم زنكى إلى حلب ، وتوجه إلى اللقاء به فى أرض حماه ، وتأكدت بينهما المودة[٢] . والراجح أنه كان يرمى بإظهار الولاء لزنكى إلى أن تزداد رقعة إقطاعه . وبذا لم يكن بالشام من الأمراء ، من ينازع السيطرة سوى بورى أتابك دمشق ، والمعروف أن دمشق كانت دائما تنازع حلب السيطرة والسيادة[٣] .

وعلى الرغم من الانتصار الذى أحرزه بورى على الفرنج فى نوفمبر سنة ١١٢٩ ، فإنه تعرض لتهديد جديد من قبل بلدوين الثانى . فلما عزم زنكى على مواصلة الجهاد كتب إلى بورى ، يلتمس منه المساعدة ، فأجابه إلى ذلك وتحالفا على الصفاء والمودة والإخلاص[٤] . وأرسل لمساعدته ابنه سونج وبعض الأمراء فى خمسمائة فارس فرحب بهم زنكى ، وأشار عليهم بالإغارة على عزاز من أملاك الفرنج ، غير أنه لم يلبث أن أمر بإلقاء القبض على سونج وأصحابه ، وتم اعتقالهم بحلب[٥] . وتلى ذلك الاستيلاء على حماه فى سبتمبر ١١٣٠ ، فبذلها لأمير حمص ، خيرخان ، مقابل مبلغ كبير من المال . غير أن زنكى أمر بإلقاء القبض على خيرخان ، وتوجه لحصار حمص ، غير أنه لم يستطع أن يستولى عليها ، واكتفى بانتزاع ربض

---

(١) Derenbourg : Vie d'Ousama p. 142-143,146.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٤٣ .

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 670.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٤٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٤٦ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٦٤ .
Grousset : op. cit I. p. 670.

المدينة بعد أن أنزل العذاب بالأمير خيرخان . فعاد إلى حلب فى نوفمبر ـ ديسمبر سنة ١١٣٠[١] . ولا شك أن هذا التوقف عطل الوحدة السياسية بالشام سنوات[٢] .

أدرك الأمراء المستقلون ما تتعرض له أملاكهم من خطر ، نتيجة السياسة التى لجأ إليها زنكى ، والتى ترمى إلى توحيد القوى الإسلامية ، وأول من أحس بذلك الأراتقة الذين كانوا يحكمون حلب ، قبل أن يتولاها زنكى . فاتحد تمرتاش بن إيلغازى أمير حصن كيفا مع أمراء الأراتقة بديار بكر ، وأعدوا جيشا ضخما من التركمان لقتال زنكى ، غير أن ما حل بهم من هزيمة ساحقة بين ماردين ونصيبين ، أدت إلى طرد الأراتقة من الجهات التى يحكمون بها ، وإلى أن أصبحت السيادة للزنكيين فى شمال الشام[٣] . إذ أن زنكى فرض سيادته على شمال سوريا حتى حمص جنوبا ، وأضحى قادرا على أن يوحد القوى الإسلامية ، وأخذ يتحين الفرص لتوحيد الجبهة الإسلامية ، غير أن ما وقع من الأحداث فى إمارات الصليبيين والعراق ، منعه لفترة من الزمن (١١٣٠ — ١١٣٤) ، من مواصلة سياسته[٤] .

ففى سنة ١١٣٠ وقعت فى أنطاكية أحداث لم تكن متوقعة ، وكادت الحرب الأهلية تنشب فى ربوعها ، وجرى من الأحوال بأنطاكية ما جعلها تخضع سنوات لحاكم ضعيف . إذ أن بوهمند الثانى أمير أنطاكية لقى مصرعه

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 456.

(٢) Grousset : op. cit. I. p. 670.

(٣) Grousset : op.cit. I. p. 671.

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٤٦٧ .

(٤) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 432.

أوائل سنة ١١٣٠ على يد الترك السلاجقة بآسيا الصغرى ؛ ومن الطبيعى أن يرثه فى الحكم ابنته الطفلة كونستانس ، غير أن زوجته اليس ابنة بلدوين كانت حريصة على أن تخلف زوجها فى الحكم . فلما استنجد أهل البلد ببلدوين ، وقدم لتسوية المنازعات ، أغلقت باب المدينة فى وجهه ، وطلبت إلى زنكى أن يكون حليفا لها ، غير أن أليس أذعنت آخر الأمر لرغبات بلدوين(١) .

ومن الطبيعى أن تستهوى هذه الأحداث زنكى ، على أن ما يعتبر بالغ الغرابة ، أن زنكى لم يغتنم الفرصة التى تهيأت له ، ولم يفد إلا قليلا(٢) . ولا شك أن مبادرة بلدوين الثانى ونهوضه لتسوية الأمور فى أنطاكية ، ومنع زنكى من الاستجابة لرغبة أليس لقلب نظام الحكم فى أنطاكية ، حال دون وقوع كارثة بأنطاكية(٣) .

على أن زنكى وجه اهتمامه للاستيلاء على حصن الأثارب سنة ١١٣٠ ، الذى يعتبر أول هدف أراد أن يحققه زنكى ، ويعتبر نقطة البداية للأسرة الزنكية فى استعادة شمال الشام من الفرنج . فالمعروف أن هذا الحصن كان يقع على مسافة ١٥ كيلومتر من حلب ، على الطريق الممتد إلى أنطاكية . وبلغ من شدة مضايقته لأهل حلب ، أن الفرنج المرابطين به قاسموا حلب على جميع أعمالها الغربية ، حتى على رحا « بظاهر باب الجنان » ، بينها وبين البلد عرض الطريق ، فاستبد بأهل البلد الضيق والكرب الشديد(٤) .

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 129.

Grousset : op. cit. I. pp. 671-675.

(٢) Stevenson : op. cit. p. 129.

(٣) Grousset : op. cit I. p. 675.

(٤) Grousset : op. cit. I. pp. 675-676.

ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٦٦ .

أراد زنكى فى قتال الفرنج بالأثارب أن يظهر طابع حركة الجهاد ، ويشير ابن الأثير ، إلى أن زنكى « استشار أصحابه فيما يفعل ، وكل أشار بالعود عن الحصن ، فإن لقاء الفرنج فى بلادهم خطر ، لا يدرى على أى شيء تكون العاقبة ، فقال لهم ، إن الفرنج متى رأوا قد عدنا من أيديهم طمعوا فينا ، وساروا فى أثرنا ، وخربوا بلادنا ، ولابد من لقائهم على كل حال » ، وتقدم إلى عسكره وقال « هذا أول مصاف عملناه معهم فلنذقهم من بأسنا ، ما يبقى رعبه فى قلوبهم[1] » . وبعد أن لقى كثير من الصليبيين مصرعه ووقع عدد كبير من الأسرى فى أيدى عماد الدين زنكى ، أمر بتدمير الحصن . ثم سار إلى قلعة حارم ، بالقرب من أنطاكية ، فبذل له أهلها نصف دخل البلد ، وهادنوه ، وأدرك الصليبيون « أن البلاد جاءها ما لم يكن لهم فى حساب ، وصار قصاراهم ، حفظ ما بأيديهم ، بعد أن كانوا قد طمعوا فى ملك الجميع »[2] .

الواقع أن هذا التغيير يرجع أساسا إلى ما أثاره زنكى من الحماس فى نفوس المسلمين ، على أن ظهور مبدأ الوحدة بين المسلمين فى سوريا حتم على الفرنج على الاكتفاء بوضعهم الراهن ، فلا يتطاعون إلى بسط سلطانهم على ما يجاورهم من الجهات[3] .

على أن انصراف زنكى إلى ما وقع فى العراق من أحداث ، بين ١١٣١ ، ١١٣٣ ، وإلى قتال الأكراد سنة ١١٣٤ ، منعه من الإفادة

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٦٦ – ٤٦٧ .

Grousset : op. cit. I. p. 676.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٦٧ .

Setevnson : op. cit. p. 129.

Grousset : op. cit. I. p. 677-678.

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 678.

من المنازعات التى نشبت بين الفرنج ، بعد وفاة بلدوين الثانى سنة ١١٣١ ، وجوسلين كونت الرها فترة قصيرة[١] .

وفى تلك الأثناء أناب زنكى عنه فى حكم حلب قائده سوار الذى كان فى خدمة بورى أتابك دمشق ، فأكرمه زنكى «وشرفه ، وخلع عليه ، وأجرى له الإقطاعات الكثيرة ، وأعطاه ولاية حلب وأعمالها ، واعتمد عليه فى قتال الفرنج ، وكان له بصيرة بالحرب وتدبير الأمور ، وله وقعات كثيرة مع الفرنج ، أبان فيها عن شجاعة وإقدام ، وصار له بسببها الهيبة ، فى قلوب الكفار»[٢] .

ترتب على وفاة السلطان محمود السلجوقى سنة ١١٣١ ، أن نشب النزاع بين إخوته على السلطنة فى العراق ، ومن الطبيعى أن يشترك زنكى فى هذا النزاع ، فى جانب السلطان مسعود . اشتد النزاع على السلطنة بين الأخوين سلجوق شاه الذى لقى التأييد من الخليفة ، وبين مسعود الذى سانده زنكى . ولما اشتدت الأزمة ، حاول زنكى أن يستولى على بغداد وينتزعها من قوات الخليفة ، غير أنه تعرض لهزيمة ساحقة ، فسار زنكى منهزما إلى تكريت ، حيث عبر دجلة بفضل مساعدة دزدار القلعة وقتذاك ، سنة ١٠٣٢ ، نجم الدين أيوب ، فكان ذلك سببا لاتصاله به ، ودخوله مع أسرته فى خدمته[٣] .

وتشجع الخليفة المسترشد بالله ، بعد هزيمة زنكى ، على أن يستعيد

---

(١) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 431-432.

Runciman : History of the Crusades II. p. 194.

Stevenson : op. cit. p. 129-130.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٤٥ .

Stevenson : op. cit. p. 130.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ، ص ٤٧٤ — ٤٧٥ .

Runciman : op. cit. II. p. 194.

Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 456.

Grousset : op. cit. II. p. 54-55.

سلطان الخلافة العباسية ومجدها ، فخشى السلاجقة بأسه ، وتحالف زنكى مع دبيس بن صدقة ، وزحفا من جديد على بغداد لإخضاع العراق لسلطنة سنجر ، غير أن الخليفة خرج بنفسه لقتالهما ، فحلت بزنكى وحليفه الهزيمة فى سنة ١١٣٢ ، وتراجع زنكى إلى الموصل ، وارتحل دبيس إلى سنجر[١].

لم يلبث الخليفة أن توجه إلى الموصل لينزل العقاب بزنكى فحصرها شهوراً سنة ١١٣٣ ، غير أنه لم يظفر منها بشىء فعاد إلى بغداد[٢]. والواقع أن الخليفة المسترشد (١١١٨ - ١١٣٥) ، حاول أن يعيد للخلافة العباسية ما كان لها من مجد سياسى وحربى ، أو على الأقل أراد الإفادة من الفتن الداخلية التى نشبت بين سلاجقة إيران ، كيما يستقل بالعراق العربى ، غير أن كل هذه الأمور لم تلبث أن تغيرت بعد أن تغلب السلطان مسعود (١١٣٤ - ١١٥٢) على سائر المطالبين بالسلطنة السلجوقية[٣]. ولما قام الخليفة بمهاجمة مسعود فى العراق العجمى ، تعرض لهزيمة ساحقة فى يونيه سنة ١١٣٥ ، ووقع أسيراً فى يد مسعود ، فأمر بحمله إلى أذربيجان ، واشترط لإطلاق سراحه أن يحلف الخليفة على ألا يتدخل فى الأمور السياسية ، وألا يحشد جيشاً لقتاله ، وأن يكتفى بالسلطة الروحية. وبعد أن وافق الخليفة على هذه الشروط ، وتهيأ للرحيل ، لقى مصرعه على أيدى الباطنية ؛ فى أغسطس سنة ١١٣٥[٤]. ولم ينجح الخليفة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٤٧٨ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٥١
Grousset : op. cit. II. p. 55.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢ - ٣ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٥١ .
Grousset : op. cit. II. p. 56.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 61-62.

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٦ .
Grousset : op. cit. II. p. 61-62.

الراشد (١١٣٥ — ١١٣٦) فى البقاء فى الخلافة ، فعزله السلطان مسعود ، وتلاه فى الخلافة ، المقتفي لأمر الله (١١٣٦ — ١١٦٠) ، واستطاع أن يستميل زنكى إلى جانبه « فأمر أن يعطى أتابك زنكى جانباً من إقطاع الخليفة ، ويزيد فى ألقابه » ، ويشير ابن الأثير إلى « أن هذه القاعدة لم يسمح بها لأحد من زعماء الأطراف ، بأن يكون لهم نصيب من خاص الخليفة »[1] ، وبفضل ما حصل عليه زنكى من التشاريف من السلطان والخليفة ، أصبح فى وسعه أن يوجه اهتمامه نحو الغرب[2] .

واغتنم زنكى ما حدث بالعراق من الفتن ، فالتفت إلى مهاجمة إمارات الأراتقة بالجزيرة ، فأفاد من النزاع بين تيمورتاش بن ايلغازى ، صاحب ماردين ، وبين داود بن سقمان صاحب حصن كيفا ، فتحالف مع تيمورتاش ، واستولى على حصون عديدة بشمال أملاك داود بن سقمان تنازل عنها لتيمورتاش ، ودخل فى حوزته أيضاً قلاع الأكراد الحميدية والهكارية سنة ١١٣٤[3] .

وفى تلك الأثناء حدث فى مصر والشام من الفتن والاضطراب ، ما جعل زنكى يحرص على اغتنام الفرصة للمضى فى تحقيق أغراضه . ففى سنة ١١٣٥ ساءت الأحوال فى مصر ، بما وقع من الفتن فى داخل القصر الفاطمى ، وإقدام الخليفة الحافظ على التخلص من ابنه[4] ، وتعيين

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٧—٢٩ .

Runciman : op. cit. II. p. 195.

Grousset : op. cit. II. p. 62.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 195.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٦ — ٧ .

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 457.

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٣ — ١٤ .

بهرام الأرمنى وزيراً ، « فتمكن فى البلاد ، واستعمل الأرمن ، وعزل المسلمين ، وأساء السيرة فيهم ، وأهانهم »[١] ، وشجع الأرمن على أن يهاجروا إلى مصر ، فاستوطنها نحو ثلاثين ألف منهم ، فاشتد حنق المسلمين والمسيحيين الوطنيين[٢] .

وما حدث من الفتن والثورات بمصر ، شغل الفاطميين عن الاهتمام بأمور الشام ، وكل ما وجهوا له الاهتمام من هذا الجانب ، هو اتخاذ خطة الدفاع عن بلادهم ، ومنع الفرنج من الإغارة على الدلتا ، ولا يتم ذلك إلا بالمحافظة على حصن عسقلان بأيديهم[٣] .

ولم تكن الأمور بدمشق بأحسن حالا مما كان يجرى بمصر من أحداث ، إذ تولى أتابكية دمشق بعد وفاة بورى سنة ١١٣٢ ، ابنه إسماعيل (١١٣٢ — ١١٣٥) ، الذى استهل حكمه بما قام به من أعمال مجيدة . فاستعاد بانياس من الصليبيين ، واسترد بعلبك وحماة سنة ١١٣٣ ، من أيدى منافسيه اللذين يمالئان زنكى ، وتقرب إليه أمير شيزر بالهدايا[٤] . ثم قام بغارة عنيفة على طبرية ، انتقاماً من الفرنج الذين أغاروا على حوران سنة ١١٣٤[٥] . على أن عساكره ورعاياه انصرفوا عنه ، بسبب ما استخدمه من أساليب القهر والعنت ، فى استخلاص الضرائب ، ومصادرة الأموال ، والتخلص من الكتاب والعمال الأكفاء[٦] . وأمعن

---

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣١ .

Runciman : op. cit. II p. 196.

(٢) Wiet : L. Egypte Arabe p. 274-275.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 61.

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣١ .

Grousset : op. cit. II. p. 166.

(٥) Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 457.

حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٢٦ — ٢٧ .

(٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٥ .

فى الانتقام من الذين دبروا مؤامرة لاغتياله ، ومنهم أخوه سونج ، ويوسف بن فيروز مستشار أبيه[١] . ولما أدرك إسماعيل أن يد الغدر تمتد إليه ، بين لحظة وأخرى ، كتب إلى زنكى ، سنة ١١٣٤ ، يحثه على قصد دمشق ، يسلمها إليه طائعاً ويشير فى كتابه « وإن اتفق إهمال لهذا الأمر ، أو إمهال ، أحوجت إلى استدعاء الفرنج من بلادهم ، وسلمت إليهم دمشق »[٢] .

ومهما يكن من كراهية العساكر والسكان لإسماعيل أتابك دمشق ، فإن ما يكنونه لزنكى من البغضاء كان أشد وأقوى . ومن الدليل على ذلك ما رواه ابن القلانسى ، من أن « العسكرية والرعية أشفقوا من الهلاك والبوار ، إن تم هذا التدبير ، لما يعلمون من أفعال عماد الدين ، إذا ملك البلد ، دمشق »[٣] . على أن إسماعيل لقى مصرعه سنة ١١٣٥ بتدبير مؤامرة اشترك فيها العساكر وأمه ، فتولى الأتابكية أخوه محمود[٤] .

كان زنكى وقتذاك يناهض الخليفة المسترشد بالله ، فلم يستطع مغادرة الموصل ، غير أنه كان حريصاً أيضاً على الاستجابة لطلب

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

Runciman : op. cit. II. p. 196.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 457.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٦ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١١ - ١٢ .

حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٢٧ .

Runciman : op. cit. II. p 197.

Grousset : op. cit. II. pp. 57-58

Stevenson : op. cit. 132-133.

إسماعيل ، كيما يتحقق أمله بضم دمشق إلى أملاكه . فمضى إلى دمشق ، واستولى أثناء سيره على حماة ، غير أنه ما كاد يبلغ ظاهر دمشق تمهيداً لحصارها ، حتى علم بمصرع الأتابك إسماعيل ، وتبين له حرص أهل دمشق على الدفاع عن مدينتهم ، واتفاق كلمتهم فى حفظ الدولة[1] . وفى تلك الأثناء قدم إلى زنكى رسول من قبل الخليفة المسترشد بالله ، الذى خشى نفوذ زنكى واتساع ممتلكاته ، يطلب إليه احترام استقلال دمشق ورفع الحصار عنها ، فلم يسعه إلا إطاعة أمر الخليفة[2] .

تحتم على زنكى أن يغادر دمشق بجيوشه ، متوجها إلى حلب ، وبذا تأخر توحيد الشام نحو نصف قرن ، بعد أن كاد يتم سنة ١١٣٥ ، وما حدث من عناد سكان دمشق ، ومن تدخل الخليفة ، أبعد عن بيت المقدس ما تعرضت له من تضييق المسلمين عليها وتطويقها . وما وضعه زنكى من خطة لتوحيد الجبهة الإسلامية ، لم تتم إلا فى عهد صلاح الدين بعد أن اتحدت حلب ودمشق ومصر ، تحت زعامة سلطان واحد[3] .

انصرف زنكى ، بعد أن رجع عن دمشق ، إلى قتال الصليبيين ؛

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٧ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٥٧ .

Runciman : op. cit. II. p. 197.
Grousset : op. cit. II. pp. 58.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٤٨ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٥٨ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٢ – ١٣ .

Grousset : op. cit. II. p. 59.

الواقع أن أمور دمشق كان يسيرها وقتذاك معين الدين أنر ، مملوك طغتكين ، وهو الذى قاوم هجوم زنكى على دمشق ، ولما صارت حمص من أملاك دمشق ، بعد انتزاعها من سلالة خيرخان ، صارت إقطاعاً لأنر (Stevenson : op. cit. p. 133.)

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 60.

فما شنه نائبه بحلب ، سوار من هجمات على اللاتين بأنطاكية والرها ، فى الفترة بين ١١٣٠ ، ١١٣٤ ، منعت الاتصال بين جيوش أنطاكية والرها ، ومع ذلك لازال الخطر يتهدد حلب من قلاع الفرنج الواقعة بشمال حلب وغربيها . وفى أسابيع قليلة استطاع زنكى أن يؤمن الطرق المؤدية إلى حلب من الغرب والجنوب الغربى ، بأن استولى على الأثارب ، وزردنة ، ومعرة النعمان وكفر طاب ، فحطم بذلك أيضاً استحكامات الفرنج على أطراف إمارة أنطاكية(١) . وإذ تعرضت حمص لغارات عساكر زنكى ، وتضييقهم على من بها من العساكر والرعية ، تنازل أولاد خيرخان عنها إلى أتابك دمشق مقابل الحصول على تدمر ، فتقرر جعلها إقطاعاً لمعين الدين أنر . فلما رأى عسكر زنكى بحلب خروج حمص عن أيديهم ، تابعوا الغارات إلى بلدها والاستيلاء على كثير من جهاتها ، حتى استقر الصلح بين الجانبين(٢) .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٥٩

Runciman : History of the Crusades. II. p. 197.

Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 458

Stevenson : op. cit. p. 134.

Grousset : op. cit. I. pp. 62-63.

والملحوظ أن زنكى حرص ، فى البلاد التى استردها من الفرنج ، على أن يرد الأراضى إلى أصحابها السابقين ، ومن الدليل على ذلك ما فعله مع أهل المعرة فحينما ملكها الفرنج ، أخذوا أملاك سكانها ، فلما فتحها زنكى ، « حضر من بقى من أهلها ، ومعهم أعقاب من هلك ، وطلبوا أملاكهم ، فطلب منهم كتبها ، فقالوا إن الفرنج أخذوا كل مالنا والكتب التى للأملاك فيها . فقال اطلبوا دفاتر حلب ، وكل من عليه خراج على ملك يسلم إليه ، ففعلوا ذلك ، وأعاد على الناس أملاكهم ، وهذا من أحسن الأفعال وأعدلها » .

انظر ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٤ .

Grousset : op. cit. II. p. 63.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٤٥ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٤ .

Stevenson : op. cit. p. 134.

على أن الأحوال فى الموصل وبغداد حملت زنكى على أن يغادر الشام إلى الموصل[١] . إذ تحتم على زنكى أن يتدخل فيما نشب من الحروب بين السلطان السلجوقى والخليفة مدة تزيد على سنة[٢] .

وما وقع من الأحداث فى الصيف كشف عن ضعف أنطاكية ، وحرص سوار على أن يفيد من هذا الضعف . فتعرضت أنطاكية لغارة من قبل المسلمين لم تشهدها من قبل ، فقصد سوار بلاد اللاذقية ، ولم يتمكن أهلها من الانتقال عنها ، فنهبوا منها ما يزيد عن الوصف ، وقتلوا وأسروا من الفرنج ما لم يحدث من قبل[٣] ؛ فامتلأت حلب من الأسارى والدواب ، واستغنى المسلمون بما حصل لهم من الغنائم[٤] . والواقع أن ما حدث فى أنطاكية ١١٣٥ ، ١١٣٦ من الفتن الداخلية ، بسبب التنازع على الحكم ، أسهم إلى حد كبير فى عجز أنطاكية عن الدفاع عن نفسها[٥] .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

Runciman : op. cit. II. p. 197.

Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 458.

(٢) انظر ما سبق ص ٥٠٨ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

Stevenson : op. cit. p. 134.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٥ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٢ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

Grousset : op. cit. II. p. 65.

Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 458.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٦١ .

(٥) Stevenson : op. cit. p. 135.

Grousset : op. cit. II. p. 65-66.

وفى ربيع سنة ١١٣٧ ، عاد زنكى إلى حلب ، وجدد الهجوم على حمص ، التى كان يحكمها معين الدين أنر ، من قبل صاحب دمشق[١] . غير أنه لم يستطع أن ينتزعها منه لما أبداه أنر من البسالة فى الدفاع عنها ، ولنهوض الفرنج لنجدتها ، أملا فى مباغتة زنكى واغتياله[٢] . وكان لزاما على زنكى أن ينصرف لقتال الفرنج ، فسار فى يوليه ١١٣٧ لمهاجمة بعرين ، من أمنع حصون الفرنج ، ويقع على المنحدرات الشمالية لجبال النصيرية ، وهو المعروف عند الفرنج باسم مونتفران Montferand ، فاستنجد ريموند كونت طرابلس ، بفولك ملك بيت المقدس ، فاحتشدت قواتهما ، فلقيهم زنكى ، وقاتلهم أشد ما يكون من القتال ، فاحتمى فولك ومن معه من مقدمى الفرنج بالحصن بينما وقع ريموند فى الأسر ، فضيق زنكى عليهم الحصار ، حتى نفد ما عندهم من المؤن[٣] . ونظراً لمناعة هذا الحصن ، وتحكمه فى مدينتى حماه وحمص ، فضلا عن التجاء الملك وكبار النبلاء إليه ، فإذا استولى زنكى عليه ، وعلى من فيه من الفرنج ، «ملك جميع بلادهم فى أسرع وقت لعدم المحامى عنها وقصد المسلمون بيت المقدس» ، فاستولوا على كل ما بها من القوات[٤] .

بعرين

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦١ .
Stevenson : op. cit. p. 137

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٦١ .
Grousset : op. cit. II. p. 69-70.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٩ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٦١ – ٢٦٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٣ .
Runciman : op. cit. II. p. 204.
Grousset : op. cit. II. p. 72-74.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 86-87.

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٣ .
Grousset : op. cit. II. p. 74.

وفى أواخر يوليه سنة ١١٣٧ ، احتشدت جيوش الفرنج لمساعدة فولك ، وتأهبت للمسير ، غير أن ما تعرض له الحصن من قذائف المجانيق لمدة عشرة أيام بلياليها ، ونفاد الأقوات ، ويأس الملك من قدوم أمداد ، كل ذلك حمله على أن يرسل إلى زنكى مبعوثا يطلب إليه أن يعرض ما يشاء من الشروط . وفرح فولك لأن زنكى لم يطلب سوى تسليم الحصن ، مقابل إطلاق سراح الملك ورجاله ، والإفراج عن الأسرى ، ومنهم كونت طرابلس ، وتم تنفيذ هذا الاتفاق ، وأظهر زنكى المروءة مع الفرسان الصليبيين(١) .

الواقع أن زنكى كان يدرك أهمية قراره ، لما كان لهذا الحصن من موقع ممتاز ، فاتخذه الفرنج قاعدة ، يشنون منها الغارات على البلاد الواقعة بين حلب وحماه ، وإذا استولى زنكى على هذا الموقع ، استطاع أن يبسط سلطانه على حماه وحمص ، (من توابع دمشق) ، يضاف إلى ذلك أنه علم بقدوم جيش بيزنطى بقيادة الإمبراطور حنا كومنين ، سنة ١١٣٧ ، لنجدة الصليبيين(٢) .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. P. 91-92.

Grousset : op. cit. II. pp. 72-73.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٩ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٣ — ٣٤ .

ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٥٩ — ٦٢ .

(٢) الواقع أن فولك لم يعلم بأن الأمداد اقترب وصولها ، ولذا تعرض هو وأصحابه للوم والتعنيف بعد اتفاقهم . انظر :

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٤ — ٣٥ .

التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٦١ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٥٨ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٦٢ .

=

توجه زنكي إلى حلب ، وحث أهلها على تحصين المدينة وحفر خنادقها ، لمقاومة ما تتعرض له من هجوم من قبل البيزنطيين ، وفقا للاتفاق المعقود بين الإمبراطور حنا كومنين وريموند أمير أنطاكية ، والذى يقضى بأنه متى استولى البيزنطيون بمساعدة الصليبيين على حلب والبلاد المجاورة ، يتنازل ريموند عن أنطاكية إلى الإمبراطور البيزنطى ، بعد أن يتخذ لنفسه إمارة مؤلفة من حلب وشيزر وحماه وحمص[1] .

أرسل الإمبراطور البيزنطى سنة ١١٣٧ إلى زنكى مبعوثا من قبله ، يخطره بأن لن يقصده أو يقاتله . وإذ اطمأن زنكى إلى وعد الإمبراطور ، شرع فى نهاية سنة ١١٣٧ فى مهاجمة أراضى دمشق ، ومنها توجه لمنازلة حمص ، وهاجمها غير أنها امتنعت عليه ، بفضل مقاومة معين الدين أنر[2] . وبينما كان زنكى يمضى فى حصار حمص ، جاءته الأنباء

=

Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 458.

Cahen : La Syrie du Nord p. 358.

Runciman : op. cit. II. p. 213.

Grousset : op. cit. II. p. 80.

William of Tyre : op. cit. II p. 91.

ومن الملحوظ أنه على الرغم من أن فلسطين كانت وقتذاك خالية من كل قوة حربية ، ومع ذلك لم يغتنم المسلمون هذه الفرصة لمهاجمتها ومنازلة بيت المقدس ، وذلك لما حدث بمصر وقتذاك من الثورات والفتن ، التى أدت إلى عزل الوزير الأرمنى بهرام ، ١١٣٧ ، وإحلال رضوان بن الولخشى فى الوزارة ، وكثرة حدوث الثورات والفتن التى أدت إلى الاشتباكات بالشوارع ١١٣٩ — ١١٤٠ . (Wiet : L' Egypt Arabe p. 275-276.)
أما بزواج ، قائد القوات الإسلامية بدمشق فإن إغاراته امتدت حتى بلغت نابلس ، وكان بوسعه أن يهاجم طبرية أو يحاصر بيت المقدس ، غير أنه خاف أن تتعرض دمشق لهجوم من قبل زنكى ، فبادر بالرجوع إلى دمشق . انظر :

Grousset : op. cit. II. p. 77.

William of Tyre : op cit II. p. 88-89.

(١) Runciman : op. cit. II. p. 213.

Grousset : op. cit. II. pp. 94-97.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

بما حدث من اتحاد البيزنطيين والفرنج ، ومبادرتهم بغزو أملاكه بالشام[١].
وحرص ريموند أمير أنطاكية ألا يتسرب خبر الحملة إلى زنكى ، فأمر
فى فبراير سنة ١١٣٨ ، بإلقاء القبض على جماعة من التجار المسلمين ،
وعلى المسافرين من أهل حلب[٢] .

هبط الجيش البيزنطى إلى الشام ، تسانده جيوش أنطاكية والرها ، غير
أنهم بدلا من أن يباغتوا حلب ، ويغتنموا فرصة ابتعاد زنكى عنها ، حيث
كان يحاصر حمص ، تجنبوا المدينة ، واتجهوا صوب الشمال الشرقى منها ،
إلى الطريق الممتد بين حلب ومنبج ، فحاصروا حصن بزاعة ، فلم تلبث
أن استسلمت بعد سبعة أيام ، فى إبريل سنة ١١٣٨ ، فعهد بها الإمبراطور
إلى كونت الرها[٣] . أرسل زنكى الأمداد إلى حلب ، قبل خمسة أيام من
وصول البيزنطيين والفرنج إليها ، ولما تبين للقوات البيزنطية الصليبية
ما عليه حلب من المناعة وقوة الاستحكامات ، هبطوا إلى الجنوب ،
فاستولوا على الأثارب ومعرة النعمان وكفر طاب ، وواصلوا الزحف
على شيزر[٤] .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٤ .
Grousset : op. cit. II. p. 99.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٦١ .
Grousset : op. cit. II. p. 100.
Runciman : op. cit. II. p. 215
Chalandon : Jean II Comnene et Manuel I Comnene pp. 134-135.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٦٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦ – ٣٧ .
Grousset : op. cit. II. p. 101

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٣ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٧ .
Runciman : op. cit. II. p. 215.
Nicholson : The Growth of the Latin states p. 439.

والمعروف أن شيزر إمارة عربية مستقلة يحكمها بنو منقذ ، وأنها من أهم مدن الشام ، وكانت من البلاد التى وعد الإمبراطور البيزنطى أن يسهم فى فتحها وإضافتها إلى الإمارة التى اقترح إقامتها لريموند فى الشام ، مقابل تنازل ريموند عن أنطاكية ، يضاف إلى ذلك أن استيلاء الفرنج عليها ، يكفل لهم السيطرة على أواسط وادى نهر العاصى ، ومنع زنكى من التوغل فى الشام[1] .

على أن الحصار الذى فرضه الإمبراطور حنا كومنين على شيزر ، والذى استمر ٢٤ يوما لم يصب شيئا من النجاح ، لمناعة موقع شيزر ، ومتانة استحكاماتها ، ولانصراف أميرى أنطاكية والرها إلى مباذلهما ، وإغفالهما أمر مساعدة الإمبراطور البيزنطى ، فضلا عن نهوض زنكى إلى مساعدة شيزر ، وإنفاذه الرسل إلى بغداد لاستنهاض الهمم واستثارة الحماس الدينى والدعوى إلى قتال الفرنج[2] . وشرح رسول زنكى إلى السلطان السلجوقى ما يتهدد بلاده من خطر الصليبيين ، « فليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد ، فإذا ملكوا حلب انحدروا مع الفرات إلى بغداد »[3] . وورد من الأنباء ما يشير إلى مسير داودبنأرتق من الجزيرة فى جيش ضخم من التركمان لنضال البيزنطيين ، ونهوض عساكر من دمشق لمساعدة زنكى ، وإلى أن زنكى أرسل إلى الأمير الدانشمندى يطلب

(١) Runciman : op. cit. II. p. 215.
Grousset : op. cit. II. p. 104.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٨ .
التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٦٣ .
Grousset : op. cit. II. pp. 105-110.
William of Tyre : op cit II. pp. 94-96.
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٦٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٨ .
التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٦٣ .

منه الإغارة على آسيا الصغرى ، حتى يتحول اهتمام البيزنطيين إلى هذه الجهات ، ووقف زنكى على النزاع بين الصليبيين والبيزنطيين ، فأمعن فى إثارة التفرقة بينهم[١].

أدرك حنا كومنين أن حملته ، لن تنجح ، بعد أن أضحى التعاون مستحيلا مع أميرى أنطاكية والرها ؛ فحرص على أن يسعى للانسحاب مع المحافظة على كرامته وكرامة جيشه ، فما كاد ربض المدينة يسقط فى أيدى البيزنطيين ، حتى التمس السكان الهدنة فأجابهم الإمبراطور إلى طلبهم . ثم قبل ما عرضه أمير شيزر من الأموال والهدايا ، وقرر الانسحاب إلى أنطاكية ؛ فى مايو سنة ١١٣٨[٢] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٧ — ٣٨ .

Runciman : op. cit. II. p. 216

كان زنكى يرسل إلى الإمبراطور البيزنطى ، يوهمه بأن « فرنج الشام خائفون منه ، فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ، ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ، ويقول لهم إن ملك بالشام حصنا واحدا ، ملك بلادكم ، فاستشعر كل من صاحبه » .
(ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٧ — ٣٨) .

Grousset : op. cit. II. pp. 121-123

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٦٨ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٨ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ .

Runciman : op. cit II. p. 216-217

Grousset : op. cit. II. p. 110.

ومن الهدايا التى بذلها سلطان أمير شيزر ، جياد عربية ، وأثواب موشاة بالحرير ؛ وصليب من الياقوت الأحمر ، ومائدة ، وكلاهما من ذخائر وتحف رومانوس ديوجين ، الذى أسره المسلمون فى معركة مانزيكرت سنة ١٠٧١ . وتشير بعض الروايات إلى أن أمير شيزر انتمى للإمبراطور البيزنطى ، لأنه تعاهد بأن يؤدى له كل سنة الجزية المقررة ، لأن شيزر كانت من أملاك بيزنطة حتى سنة ١٠٨١ . انظر :

Grousset : op. cit. II. pp. 110-111.

ذاع صيت زنكى وشهرته ، بعد الفشل الذريع الذى حاق بحملة حنا كومنين ، فلم يكد البيزنطيون ينسحبون ، حتى تم الاتفاق بين زنكى وبين أتابك دمشق شهاب الدين محمود ، سنة ١١٣٨ ، فتسلم زنكى حمص ، مقابل التنازل عن بعرين وحصنين آخرين ، وتزوج زنكى من زمرد خاتون والدة الأتابك محمود ، الذى تزوج من ابنة زنكى(١). واسترد زنكى كفر طاب والأثارب وبزاعة ، وتعرضت بلاد الرها لغارات التركمان المستمرة ، بقيادة تمرتاش وداود(٢). ولم يلبث زنكى أن عاد إلى الموصل ، بعد أن عهد إلى نائبه سوار فى حلب ، بالمحافظة على أملاكه فى الشام . وفى السنة التالية ، ١١٣٩ ، حصل من تمرتاش على دارا ورأس العين بعد أن تزوج ابنته(٣).

على أن زنكى عاد مرة أخرى إلى دمشق ، وذلك بناء على طلب زوجته التى أزعجها مصرع ابنها الأتابك محمود ، فى يونيه ١١٣٩ ، وتعيين أخ غير شقيق له ، وهو محمد والى بعلبك ، أتابكا على دمشق ، بفضل مهارة معين الدين أنر السياسية ، كما يمنع زنكى من السيطرة على حكومة المدينة . ولم يلبث أنر أن تزوج من أم الأتابك ، فصارت إليه ولاية بعلبك ، غير أنه ظل مقيما بدمشق يسير حكومتها(٤) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٦٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦ .

Stevenson : op cit p. 142.

Grousset : op cit II pp. 127-128.

(٢) Stevenson : op cit. p. 142.

Gibb : Zengi and The Fall of Edessa. p. 459.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

Gibb : Zengi and The Fall of Edessa p. 459.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٧٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٤٥ .

تعتبر سنة ١١٣٩ نقطة تحول فى تاريخ دمشق ؛ فمنذ أن ظهر زنكى بالشام تعرضت دمشق للهجوم من جهتين ، من الشمال من قبل المسلمين ، ومن الجنوب من قبل الصليبيين . والمعروف أن دمشق لم تتعرض لهجوم عنيف من قبل الصليبيين بعد حملة ١١٢٩ ، وانعقاد الهدنة التى استمرت حتى سنة ١١٣٤ . ومع أنها لم تتجدد ، فإنه لم تحدث هجمات عنيفة على دمشق من قبل الصليبيين حتى سنة ١١٣٩[١] . أما زنكى فإنه كان حريصا على الاستيلاء على دمشق وتوابعها لتحقيق غرضه الأساسى وهو توحيد الجبهة الإسلامية ؛ وطرد الصليبيين . ولما أحس أنر بما تتعرض له دمشق من تهديد زنكى ، عزم على أن يستنجد بملك بيت المقدس فولك ، سنة ١١٣٩ ، وبذا بدأت مرحلة جديدة فى تطور العلاقات بين دمشق وجيرانها[٢] .

استولى زنكى على بعلبك سنة ١١٣٩ ، بعد أن تعرض أهلها للبلاء والمضايقة ، وحل بالمدينة أضرار كبيرة لتوالى ضربها بالمجانيق[٣]. على أن أهل دمشق كانوا أشد صلابة فى مقاومة زنكى حينما حاصرها من ديسمبر ١١٣٩ إلى مايو ١١٤٠ ، ولم يؤد الحصار إلى نتيجة ، على الرغم من وفاة أتابكها ، فتولى مكانه ابنه مجير الدين أبق ، واستمر أنر يسير أمور دمشق . ولما أدرك

= ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

Gibb : Zengi and the Fall of Edessa. p. 469.

Runciman : op. cit. II. p. 226.

Grousset : op cit II. p. 128-129.

(١) Stevenson : op. cit p. 142.

(٢) Stevenson : op. cit p. 143.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٤٥ — ٤٦ .

أن المدينة لا تستطيع الصمود طويلا لضربات زنكى ؛ لم يسعه إلا الاستنجاد بالفرنج « فراسلهم واستدعاهم إلى نصرته ، وإلى أن يتفقوا على دفع زنكى عن دمشق . وبذل لهم بذولا ، ووعدهم بأن يسلم لهم بانياس ، وخوفهم من زنكى ، إن ملك دمشق ، فعلموا صحة قوله ، وعلموا أنه إن ملكها لا يبقى لهم معه بالشام مقام »[1] .

توجهت إلى بيت المقدس سفارة برئاسة أسامة بن منقذ ، فتم توقيع المعاهدة بالأيمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه[2] . ومن الشروط الواردة فى المعاهدة ، أن يبذل أمير دمشق للفرنج ٢٠ ألف قطعة من الذهب ، كل شهر ، لتجهيز جيوشهم ، وأن يجعل عندهم رهائن ، ضمانا لتنفيذ هذه الشروط[3] .

لما احتشد الصليبيون عند طبرية ، انسحب زنكى إلى حوران فى مايو سنة ١١٤٠ ، وعلى الرغم من أن زنكى جلد غاراته على دمشق ، وامتلأت يده بالغنائم[4] ، فإن اتحاد القوات البيزنطية الدمشقية ، حمله

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٤٨ – ٤٩ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .
Runciman : op. cit. II. pp. 226-227
Grousset : op. cit. I. pp. 138-139.
Gibb : Zengi and the Fall of Edessa. p. 459.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٢ .
أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٨١ .

(٣) Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 459-460.
Runciman. : op. cit. II. p, 227.
Grousset : op. cit. II. p. 131-133
Nicholson : The Growth of the Latin states. p. 442.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 105-106

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٣ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

على الرحيل إلى حلب ، ثم إلى الموصل ، خوفا من قدوم حملة بيزنطية لمساندة الفرنج والدماشقة ولم يرجع إلى الشام إلا بعد خمس سنوات[1] .

زاد من قوة التحالف بين دمشق وبيت المقدس ، ما حدث من قيام أنر بصحبة أسامة بن منقذ ، بزيارة فولك فى عكا ، ومسيرهما إلى حيفا وبيت المقدس ، ثم عودتهما إلى دمشق[2] . والواقع أن هذا التحالف عطل حركة توحيد الجبهة الإسلامية بزعامة زنكى ، إذ حافظت دمشق على استقلالها فى ظل الأسرة البورية ؛ ولم يتغير الوضع الإقليمى فى الشام ، فطالما استمر التحالف قائما بين البوريين فى دمشق ومملكة بيت المقدس ، لم يكن بوسع مملكة زنكى فى الموصل وحلب مناهضتهما[3] . وسارت القوات المشتركة لمهاجمة حصن بانياس ، الذى كان من أملاك زنكى ، والذى حرص الفرنج على أن ينتزعوه لأنفسهم ١١٤٠ ، نظرا لما تعرضوا له من تهديد من جانب هذا الحصن[4] . وفى الفترة الواقعة بين سنة ١١٤٠ ، ١١٤٣ لم يقع بين المسلمين فى الشمال والفرنج بأنطاكية إلا بعض الغارات على الحدود[5] ، بينما انصرف زنكى إلى قتال داود بن أرتق ، والإمارات الكردية الواقعة إلى الشمال من الموصل[6] . واستولى سنة ١١٤٣ ، على الحديثة وعانة على

---

(١) Nicholson : The Growth of the Latin States p. 443.

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٩٦ .

Runciman : op. cit. II. p. 228.

Grousset : op. cit. II. pp. 139-141.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 134.

(٤) William of Tyre : op. cit II. p. 107.

Grousset : op. cit. II. p. 137.

(٥) Grousset : op. cit. I. p. 143-144.

(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٠ .

Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 460.

نهر الفرات[1] . وحرص زنكي على التماس رضى السلطان مسعود السلجوقى قبل أن يلتفت من جديد لقتال الصليبيين ، فأظهر الطاعة والولاء له[2] .

الاستيلاء على الرها سنة ١١٤٤ :

ما اشتهرت به مليسند الوصية على مملكة بيت المقدس من الحكمة والاتزان، والحرص على الإبقاء على التحالف مع دمشق ، كفل للمملكة الاطمئنان والبقاء ؛ على حين أن ما عرف به ريموند أمير أنطاكية من الطيش والنزق ، وما كان من جبن جوسلين الثانى كونت الرها ومباذله ، كل ذلك أفاد منه المسلمون بالشمال ، فوجد الصليبيون بأنطاكية والرها فى زنكى أتابك الموصل وحلب ، خصما عنيدا ، حريصا على استئصال شأفتهم . فحركة الجهاد التى استهلها زنكى سنة ١١٣٥ بالاستيلاء على الأثارب وزردنة ، ومعرة النعمان وكفر طاب ، لم تهدأ إلا حين تدخل الإمبراطور البيزنطى لمنع زنكى من الإفادة من ثمار استيلائه على حصن بعرين[3] . على أن ما جرى من تحالف بين الفرنج والبيزنطيين لم يلبث منذ سنة ١١٤٣ ، أن تحول إلى عداوة صريحة[4] .

لم يتحد الفرنج لمقاومة الغزو البيزنطى ، فما كان من التنافس والنزاع بين ريموند أمير أنطاكية ، وجوسلين كونت الرها ، أدى آخر الأمر إلى القطيعة بينهما . ولذا لم يحفل كل منهما بما يتعرض له الآخر من متاعب.

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٦١ – ٦٢ .
التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، ص ٦٥ .

(٢) Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 460.

(٣) Grousset : op cit. I. pp. 172-173.

(٤) Gibb : op. cit. II. p. 173.

وأضرار ، بل يجد أحدهما السرور فيما يحيق بالآخر من الأذى والكارثة(١).
ولم يفرض عليهما الوفاق إلا ملك ، جليل القدر ، من أمثال بلدوين الثانى وفولك . على أن بوفاة فولك ، وبسبب حداثة بلدوين الثالث ، الذى خلفه على الحكم ، ضعف شأن النظم والقواعد التى اتخذها ملوك بيت المقدس للمحافظة على كيان الفرنج فى الشام ، فما كان يربط البارونات بمملكة بيت المقدس من صلة الولاء ، قد تراخت وانحلت ، ولم تستطع مليسند أن تبقى على تقاليد المملكة ، لما اشتهرت به من تدبير المؤامرات وتقلب الأهواء والمزاج(٢) . ولم تكن الملكية من القوة ما يجعلها توفق بين أتباعها ، بل إنه إذا تعرضت أنطاكية والرها للغزو من قبل الجيش الإسلامى، فلا تعول الإمارتان على مساعدة ملك بيت المقدس ، التى كانت فيما مضى بالغة الأهمية . فكل ما وقع من كوارث حتى بلوغ بلدوين الثالث سن الرشد ، إنما يرجع إلى سبب وحيد ، وهو تداعى الملكية(٣) .

الواقع أن زنكى اختار الوقت الملائم لمهاجمة الرها ، إذ كان على دراية تامة بسياسة الصليبيين ، فلم يطلق سراح فولك غداة معركة بعرين إلا بعد اكتشاف التحالف البيزنطى والفرنجى ، والمبادرة إلى مساعدة فولك . فلما انهار هذا التحالف ، واصل فتوحه ، وشجعه على ذلك ما كان من النزاع بين ريموند وجوسلين الثانى ، وأن مملكة بيت المقدس لن تقوى على القيام بمغامرة حربية ، ولذا قرر مهاجمة الرها لاعتقاده بأنه لن ينهض أحد للدفاع عنها(٤) .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II p. 141.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 174.

(٣) Ibid : op cit II· p. 175.

(٤) Grousset : op. cit. I. p. 175.

William of Tyre : op cit. II. pp. 141-142.

وما اتخذه زنكى من قرار ، لمهاجمة الرها ، كان سليما ، فهى من أشرف المدن عند النصارى ، وأعظمها محلا ، وضررها على المسلمين كبير ، نظرا لقربها منهم ، بل إنها «كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الإسلامية حصنها »[1] . وهذه الإمارة التى يفصلها نهر الفرات عن سائر الإمارات اللاتينية أحاط بها المسلمون من ثلاث جهات . ومع ذلك فإن قيامها فى جوف العالم الإسلامى أقلق بال المسلمين ، فملك الفرنج من نواحى ماردين إلى الفرات عدة حصون ، كسروج والبيرة ، والموزر وغير ذلك . وصاروا يسيطرون على طرق القوافل الممتدة من الموصل إلى حلب ، ومن بغداد إلى بلاد سلاجقة آسيا الصغرى[2] . وامتدت غارات الفرنج إلى سائر جهات الجزيرة ، فبلغت مدينة آمد (دياربكر) ، وماردين ونصيبين والرقة[3] . على أنهم تبرموا وضاقوا بزنكى الذى خضعت له حلب والموصل[4] ، وتوجه للاستيلاء على أملاك الأراتقة فى ديار بكر ، وأخذ من بلاد ماردين ، ما كان منها بيد جوسلين ، وجعل بها من الأجناد من يحفظها[5] .

الواضح أن الرها كانت وقتذاك خاضعة لجوسلين الثانى ، الذى اشتهر بالتآمر ، فهو الذى أغوى ريموند أمير أنطاكية بالتخاذل عن

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٦٧ .
Grousset : op. cit. II. p. 175.

(٢) Grousset : op. cit. p. I. 175.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٦٤ ،
التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٦٧ .
Grousset : op. cit. II. p. 175.

(٤) Grousset : op. cit. II. p. 175.

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٦٢ .
Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 460.
Nicholson : The Growth of the Latin States p. 446.
Runciman : op cit. II. p. 235.

مساندة حنا كومنين ، أثناء مهاجمة شيزر ، فأسهم بذلك فى فض التحالف بين الفرنج والبيزنطيين[1] . ولم يحز من المجد ما حازه أبوه جوسلين الأول ، وعلى الرغم من بسالته وإقدامه ، فإنه أمعن فى المباذل ، وساءت سمعته لانغماسه فى الفجور والاستهتار[2] .

ولما تجهز زنكى لمهاجمة الرها ، لم يكن جوسلين يقيم بالرها ، بل اتخذ مقراً له قلعة تل باشر ، التى تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات . وما اشتهرت به الأراضى بالقرب من هذا الموضع من الخصوبة ، وما هيأته من أسباب المتعة ، كان من أسباب تحول جوسلين عن الرها[3] . يضاف إلى ذلك أنه لم يتعرض فى تل باشر لما يتعرض له من مضايقات العدو إذا أقام فى الرها ، فأشبع بذلك نزواته ، ونفض عن كاهله كل مسئولية[4] .

قلعة تل باشر

وكان جديراً بجوسلين الثانى ، وقد أقام بعيداً عن الرها ، أن يجعل بها حامية كبيرة ، وأن يوفر بها من المؤن والذخائر ما يكفى للصمود للحصار مدة طويلة ، مثلما فعل بلدوين الأول ، وبلدوين لى بور ، وجوسلين الأول . بل حدث عكس ذلك ، إذ أن جوسلين الثانى ، بعد أن هجر الرها ، وأقام بتل باشر ، ترك أمر حراسة المدينة والدفاع عنها ، إلى السكان الأصليين من المسيحيين ، من الأرمن والسريان واليعاقبة والنساطرة ، الذين مارسوا التجارة ، ولم يكن لهم دراية بشؤون الحرب والقتال[5] ، وتولى الدفاع عن المدينة الجند المرتزقة . على أن هؤلاء

---

(١) Grousset : op. cit. I p. 176.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. p. 53.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 140.

Ibid : op. cif. II. p. 141.

(٤) Ibid : op. cit. II. p. 141.

(٥) Grousset : op. cit. II. p. 177.

الجند لم ينالوا أجوراً عن الخدمات التى بذلوها أو الفترة التى استغرقتها الخدمة العسكرية ، بل درجوا على أن ينتظروا نحو سنة أو أكثر من سنة ، ريثما يتم جباية ما هو مطلوب لهم من الأجور(١) .

وكيفما كان الأمر ، أدرك زنكى أن الفرصة تهيأت لمهاجمة الرها ، « التى لم يزل لها طالبا ، وفى تملكها راغبا ، ولانتهاز الفرصة فيها مترقبا ، لا يبرح ذكرها جائلا فى خلده ، وأمرها ماثلا فى خاطره وقلبه »(٢) . وكان زنكى يعلم أنه متى قصد حصرها « اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها ، فيتعذر عليه ملكها ، لما هى عليه من الحصانة ؛ فاشتغل بديار بكر ، ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصد بلادهم »(٣). ففى خريف سنة ١١٤٤ هاجم زنكى ، قرا أرسلان صاحب ديار بكر ، الذى تحالف مع جوسلين كونت الرها . وحرص جوسلين على أن يقطع سبيل الاتصال بين زنكى وحلب ، فوجه حملة إلى الفرات ، غير أن سكان حران أوقفوا زنكى على تحركات الحملة ، فعقد الصلح مع الأراتقة ، وسار بجيش ضخم لمنازلة الرها(٤) .

ظن جوسلين أن زنكى باشتغاله بقتال الأراتقة ، سوف لا يلتفت إليه ، ففارق الرها ، وانتقل « إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله ، ويتعهد ذخائره ، وأمواله » ووقف زنكى على خطواته ، وأدرك خلو

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 141.
Grousset : op. cit. II. p. 178.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٦٥ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٩ .
Runciman : op. cit. II. p. 235.
Nicholson : The Growth of the Latin States p. 446.
Gibb : Zengi and the Fall of Edessa. p. 466
Grousset : op. cit. II. p. 178.

الرها عن حافظيها وحماتها ، فاشتد فى التضييق عليها ، منذ ٢٨ نوفبر سنة ١١٤٤[1] .

ولما رأى زنكي ما عليه الرها من الحصانة والروعة ، راسل أهلها ، يبذل لهم الأمان ، ليسلموها ، فلا تتعرض للخراب والنهب . غير أن هيو رئيس الأساقفة اللاتين ، الذى تولى الدفاع عن البلد ، وساندته الطوائف المسيحية على اختلاف مذاهبها ، رفض أن يذعن ، مرتكنا إلى النجدات التى طلب استدعاءها من جوسلين ، بتل باشر ، ومن أنطاكية وبيت المقدس ، التى سوف تبادر لمساعدته[2] .

استمر الحصار مضروبا على المدينة أربعة أسابيع ، ولم تنجح حامية الرها فى رد زنكى ، وفى ٢٤ ديسمبر اقتحم زنكى الرها ، بعد أن هوى سور المدينة ، ولم تلبث القلعة أن استسلمت بعد يومين ، وامتلأت أيدى المسلمين بالغنائم والأسرى ، وقام أحد القسس اليعاقبة ، برسوما ، بتسليم المدينة إلى زنكى فأوصى بأهلها خيراً ، وشرع فى عمارة ما تهدم منها ، فعاد البلد إلى ما كان عليه ، وجعل زنكى فيه عساكر لحفظه[3] .

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٦٧ — ٦٨ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الأتابكية ص ٦٨ — ٦٩ .

Grousset : op. cit. II. p. 179-180.

William of Tyre : op. cit. II. p. 143.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٧٩ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٦٥ .

ابن الأثير : التاريخ فى الدولة الأتابكية ص ٦٩ — ٧٠ .

Runciman : op. cit. II. p. 237.

Cahen : op. cit p. 369-370.

Grousset : op. cit. II. pp. 179-188.

وجعل زنكى الرها إقطاعا لقائد حرسه ، زين الدين على كجك ، ثم مضى إلى استكمال السيطرة على ما يقع من أملاك الرها عبر الفرات[١] .

حرص زنكى بعد الاستيلاء على الرها ، على أن يصلح أمر المدينة ، فامر بإعادة ما أخذ من المال والأثاث ، ورد ما وقع فى أيدى المسلمين ، من « سبى ورجال ، وجوار وأطفال ، فلم يفقد منهم إلا الشاذ النادر ، فعاد البلد عامراً ، بعد أن كان داثرا ، وآهلا وآمنا »[٢] . وما اتصف به زنكى من القسوة والشدة فى معاملة أهل بعلبك بعد الاستيلاء عليها ، إنما أراد بها إثارة خوف المخالفين له من المسلمين فى دمشق وغيرها ، وما لجأ إليه من الإحسان إلى المسيحيين فى الرها ، وبذل حمايته عليهم ، كان يرمى من ورائه إلى جعلهم كتلة واحدة يفيد منها ضد الفرنج الذين يخالفونهم فى المذهب ، وهذه السياسة هى التى انتهجها الأيوبيون فيما بعد . ولعل زنكى أراد أن يستعين بالمسيحيين الوطنيين ، بالإضافة إلى الحامية التركية ، فى المحافظة على الرها ، بعد طرد القوات الصليبية منها ، يضاف إلى ذلك حرص زنكى على استمرار الاتصال بين الموصل وحلب[٣] .

كان لانتصار زنكى أصداء ترددت فى الشرق والغرب ، إذ جعل هذا الانتصار منه « الزائد عن الدين ، بطل الإسلام » فغمره الخليفة بالهدايا والتشاريف ومن الألقاب التى اشتهر بها ، الملك المظفر المنصور ، قاهر الكفرة والمتمردين[٤] .

---

(١) Gibb : Zengi and the Fall of Edesea p. 461
Cahen : op. cit. p. 371.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٦٩ .

(٣) Grousset : op. cit. I. p. 188-191

(٤) القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٤ .

انقض المسلمون بعد سقوط الرها ، على البلاد التابعة لها ، فاستولى زنكى ، فى سهولة ويسر ، على سروج وسائر المواضع التابعة للرها فى شرق الفرات فى يناير سنة ١١٤٥ . ولم يمر بعمل من أعمال الرها ، أو معقل من معاقلها فينزل عليه ، إلا سلّم إليه فى الحال[١] . لم يبق فى يد جوسلين الثانى من أملاكه على شاطئ الفرات سوى البيرة ، التى تتحكم فى المخاضة الرئيسية على الفرات ، ومن أمنع الحصون ، وتوافر بها المؤن والذخائر ، واستقرت بها حامية ضخمة[٢] . اشتد زنكى فى تضييق الحصار عليها ، وكادت تسقط فى يده ، غير أن ما بلغه من أنباء وقوع الاضطرابات فى الموصل ، حمله على رفع الحصار عن البيرة والمسير إلى الموصل[٣] ، فأخمد الفتنة التى أثارها ألب أرسلان بن محمود السلجوقى ، والتى أدت إلى مصرع نائب زنكى ، ولم يلبث زنكى أن ولى الموصل نائبه زين الدين كجك[٤] .

على أن الحامية الصليبية فى البيرة استسلمت سنة ١١٤٥ ، إلى تمرتاش

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٦٩ .
Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 461
Grousset : op. cit. II. p. 191.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 191.
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ٦٦ .
التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٧٠ — ٧١ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٨٠ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 192.
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٧٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ٦٦ — ٦٧ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٨١ .
Runciman : op. cit. II. p. 237.

صاحب ماردين ، تعهد بإدارتها إلى ابنه . وعلى الرغم من أن زنكى استولى بعد الرها على سروج وسائر الحصون الواقعة شرقى الفرات ، فلا زال فى يد جوسلين تل باشر ، ومواضع كثيرة أمثال سموساط ، ومرعش ، ودلوك وعينتاب ، وعزاز[1] .

لم يواصل زنكى القتال ضد الفرنج ، نظرا لما حدث من الوفاق بين ريموند أمير أنطاكية ومانويل الإمبراطور البيزنطى[2] . فركز جهوده للقيام بهجوم حاسم على دمشق ، وتحرك فعلا إلى حلب فى مايو سنة ١١٤٦ ، غير أنه لم يلبث أن غير خطته ، بعد أن اكتشف أثناء اجتياز الرها ، مؤامرة دبرها الأرمن لإعادة الرها إلى جوسلين[3] . فبادر نائبه بالرها بالقضاء على المؤامرة ، ولقى مدبروها مصرعهم ، وتقرر نفى جانب من الأرمن من سكان الرها[4] .

وساور زنكى الشك فى قيام اتفاق بين جوسلين وحليفه السابق تمرتاش ، فهاجم تمرتاش ، وانتزع منه بعض المواقع ، ثم توجه صوب الجنوب لمهاجمة حليف آخر للفرنج ، سالم بن مالك العقيلى ، صاحب قلعة دوسر

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 192.
Rey : Colonies Franques p. 306.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 238.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٨١ .
Runciman : op. cit. II. p. 239.
Gibb : Zengi and the Fall of Edessa p. 461.
Grousset : op. cit. II. p. 195.

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٨١ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢ .
Runciman : op. cit. II. p. 239.
Grousset : op. cit. II. p. 195.

(جعبر) على نهر الفرات[١] . غير أن زنكى لقى مصرعه بيد أحد غلمانه يرنقش ، وهو أصلا من الفرنج ، ليلة ١٤ سبتمبر سنة ١١٤٦[٢] .

وما حدث عقب مصرع زنكى من تفرق عساكره ، دل على أن مخاوفه من تمرد السلاجقة وعصيانهم بالموصل استندت إلى أساس سليم ، إذ كان مع الشهيد عند اغتياله « الملك ألب أرسلان بن السلطان محمود ، فركب ذلك اليوم ، واجتمعت العساكر عليه »[٣] . غير أنه فوت الفرصة عليه ، على كجك ، الذى استدعى سيف الدين غازى أكبر ولدى زنكى ، وكان بإقطاعه فى شهرزور ، فقدم إلى الموصل ، قبل أن يصل إليها ألب أرسلان[٤] ، فتقرر تنصيبه أميراً على الموصل ، بينما استقر أخوه نور الدين محمود فى حلب ، وتلى ذلك إلقاء القبض على ألب أرسلان وحبسه فاختفى بذلك أمره[٥] .

مات زنكى بعد أن أتم من الأعمال ، ما لم يستطع جميع أمراء العالم المسيحى هدمه ، وترك لابنه نور الدين ، ثم لصلاح الدين أمر إتمام ما بدأه من

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٧١ – ٧٢ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٨١ .
Grousset : op. cit. II. p. 196.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ص ٢٨٢ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٢ .
Grousset : op. cit. II. p. 196.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٧٤ .
التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٨٤ – ٨٦ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٤٧ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٧٤ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .
Gibb : op. cit. p. 462.

أعمال . ولم تمض على وفاة زنكى أربعون سنة حتى سقطت مملكة بيت المقدس فى يد المسلمين ، سنة ١١٨٧[١] .

ولا شك أن ما أحرزه زنكى من نجاح يرجع إلى القواعد التى أقام عليها دولته فى الموصل وحلب ، والتى بفضلها وحّد الجبهة الداخلية ، حتى إذا استقرت له الأمور ، وجه ضربة قاصمة إلى إمارة الرها الصليبية فأزال سلطان الفرنج بها . فمن الوسائل التى ارتكن إليها فى إدارة الحكومة ، الحرص على الوقوف على أخبار أطراف الدولة ، وما يجرى لأصحابها ، حتى فى أحوالهم الشخصية ، ولاسيما فى قصور سلاطين السلاجقة ، وكان ينفق فى ذلك أموالا كثيرة ، فكان يصل إليه فى كل يوم من جواسيسه المنبثين فى سائر الجهات ، عدد غير قليل[٢] . وأفاد من ذلك أيضاً فى الوقوف على أحوال الحملات التى لم يشترك فيها ، إذ كان يقف على أحوال الجند ، وما يصل إليهم من المرتبات والسلاح ، وجميع أحوالهم[٣] . يضاف إلى ذلك ما كان له من خبرة فى اختيار الرجال واصطناعهم ، فلا يرفع أحداً فوق قدره الذى يستحقه ولا يضعه دونه ، ويثق إلى أحدهم على قدر ما يعلم منه[٤] .

وحرص زنكى ، ومن بعده نور الدين ، على أن يجعل الإقطاع وراثيا ، ويعتبر مساويا للملك ، تشجيعا لأرباب الإقطاعات على البقاء فى الجندية[٥] .

---

(١) Lane-Poole : op. cit. p. 61.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٧٨ .

Lane-Poole : op. cit. p. 42.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٧٨ .

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٧٩ .

(٥) العرينى : الإقطاع فى الشرق الأوسط – حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس – العدد ٤ ، يناير ١٩٥٧ ، ص ١٤٢ .

ولذا أمر بنقل طائفة من التركمان إلى الشام وأسكنهم بولاية حلب ، وعهد إليهم بجهاد الفرنج ، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد التى للفرنج ، فكانوا يغادون الفرنج بالقتال ويراوحونهم ، وأخذوا كثيراً من البلاد ، وسدوا ذلك الثغر العظيم ، وظلوا يحتفظون بما حازوه من الأراضى زمنا طويلا[1] .

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٨٠ .

الفصل العاشر

نور الدين وتوحيد القوى الإسلامية بالشام

ظلت إمارة الرها نحو خمسين سنة سياجا للإمارات الصليبية ، يواجه الموصل أقرب المواضع إلى بغداد ، حاضرة الخلافة العباسية . وسيطرت الرها على الطرق المؤدّية من الموصل إلى حلب ، وأوغلت فى جوف إقليم الجزيرة حتى أضحت إسفيناً يفصل بين المسلمين فى الشام وإمارات الجزيرة ، وما أثارته من التهديد شرقا وجنوبا ، أدى إلى جعل حلب معزولة ، وإلى حماية اللاتين بالشام(1) .

على أن ما حل بحلب من الضعف يزيد على ما أصاب الفرنج من القوة ، فحلب وأملاكها كاد يطوقها الرها وأنطاكية ، فارتكنت فى سلامتها وبقائها على الاتصال المستمر بالشرق ، فالتمست أقوى الحلفاء بالجزيرة . ولم يكن الطريق بين الموصل وحلب بنجوة من الخطر ، طالما بقيت إمارة الرها فى أيدى الفرنج . ففى الأراضى والممتلكات الممتدة من حران إلى الرقة ، يكمن دائما خطر الهجوم ، فإذا اجتاز جماعة الطريق فى أمن وسلام ، خلفوا فى مؤخرتهم عدوا لدودا . والواقع أنه متى زالت إمارة الرها ، أحرزت حلب مكاسب عديدة ، منها أن الطريق بينها وبين الشرق أصبح مأمونا ، وأضحى عدوها الآن فى مواجهتها لا فى مؤخرتها ، وأخذت بدورها تطوق ما تبقى من الإمارة اللاتينية(2) .

على الرغم من وفاة زنكى وانقسام مملكته بين ولديه ، فإن وضع الإمارات الصليبية ازداد سوءا ، نظرا لما اشتهر به نور الدين من الحزم

---

(1) Stevenson : The Crusades in the East p. 153.

(2) Stevenson : op. cit. p. 153.

وقوة العزيمة . فالمعروف أن مملكة زنكى اقتسمها ولداه ، أكبرهما سيف الدين الغازى ، الذى حكم الأجزاء الشرقية من أملاك أبيه ، واتخذ الموصل مقرا له ، أما نور الدين ، وهو أصغر الولدين ، فولى أمر الغرب ، وجعل حلب حاضرة له ، وكان نهر الخابور ، فرع من الفرات ، هو الحد الفاصل بين أملاك الأخوين[1] .

دل هذا التقسيم على استقلال حلب ، وحرصها على أن تقف صامدة بمفردها ، وصار لزاما على أميرها أن يتفرغ للمشكلتين الكبيرتين اللتين أنفق زنكى فى معالجتهما ، معظم وقته ، وهما دمشق والقوات الصليبية بالإمارات اللاتينية[2] .

والواقع أن نور الدين فى مملكته بحلب كان أحسن مكانا من أخيه ، ففى وسعه أن يزيد فى رقعة مملكته على حساب الإمارات الصليبية المجاورة له ، يضاف إلى ذلك ابتعاده عن كل المشاحنات والمنازعات مع الأراتقة والسلطان السلجوقى والخليفة العباسى والأكراد ، التى استنفدت قدراً كبيرا من طاقة ونشاط زنكى[3] . فكأن الغازى ورث عن زنكى الحروب فى الجزيرة ، بينما كان نصيب نور الدين النزاع مع الصليبيين ، فتعرضت الإمارات الصليبية لخصم فاق فى ضراوته وعنفه كل القادة السابقين ، لأنه ركز كل نشاطه وجهده لقتالهم . وما اشتهر به نور الدين من الحماس الدينى ، وما وقع فى مستهل حكمه من أحداث ، كان له أكبر الأثر فى أن يمضى فى العمل الذى فرضه عليه الوضع السياسى[4] .

وينبغى أن ندرك أن انفصال حلب عن الموصل ، يعتبر من عوامل

---

(١) Ibid : op. cit. p. 154.

(٢) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٤١ – ٤٢ .

(٣) Stevenson : op. cit. p. 154.

(٤) Ibid : op. cit. p. 154.

ضعف حلب . فالقوة الأساسية التى ارتكن إليهما زنكى فى حروبه ، استقرت بالجزيرة ، فإذا لم تسهم فى القتال ، اختل التوازن بين القوات المتنازعة ، ولذا وجه نور الدين قدرا كبيرا من الاهتمام ، إلى تدعيم الممتلكات التى ورثها ، والعمل على تقويتها . ومع ذلك فإن نور الدين لم يكتف بتدعيم أملاكه ، بل استطاع أن يقيم بالشام ، دولة تحدت الفرنج دون أن يستعين بقوات من الجزيرة[١] .

الواقع أن نور الدين ، لما تولى أمر حلب سنة ١١٤٦ ، لم يكن إلا شابا ، أعوزته التجارب ، فى وقت اشتدت فيه الحاجة إلى توطيد سلطته ، وأحاط به كثير من الأعداء والمنافسين الأقوياء ، فضلا عن الأحقاد التى امتلأت بها قلوب أمرائه[٢] . فما أحرزه عماد الدين زنكى من أرباح ، تبددت ، باستثناء الرها ، عقب مصرعه وانقسام مملكته . فاغتنم أنر أتابك دمشق الفرصة ، وبادر إلى إرغام نجم الدين أيوب حاكم بعلبك من قبل زنكى ، على أن يتنازل عنها[٣] ، وعوضه عن ذلك بأن جعل له إقطاعا ومالا وعشر قرى من بلاد دمشق[٤] . وانتزع أيضا من حلب ، حمص ، وتغلب على الباغسيانى فى حماه . وأنفذ ريموند أمير أنطاكية جيوشا هاجمت حلب وحماه ، واستردت جانبا من الأراضى التى فقدها[٥] . وظهر خطر آخر ، مصدره جوسلين ، الذى حاول استرداد الرها ، إذ تلقى ، وهو بتل باشر رسالة من سكان المدينة من المسيحيين ، تشير إلى أن الحامية التركية بالرها قليلة

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 154.

(٢) Gibb : "The Career of Nur-ad-Din," in Setton : History of the Crusades. I. p. 513

(٣) Gibb : The Career of Nur-ad- Din p. 213

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٧ – ٢٨٨ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٧٨ حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٤٢ .

(٥) Stevenson : op. cit. p. 156.

العدد ، وتطلب المبادرة إلى القدوم للاستيلاء على المدينة ، ويعلن السكان استعدادهم لبذل كل ما فى وسعهم من مساعدة ، فاحتشدت قوات من تل باشر ومرعش ، وتسللت إلى داخل المدينة ليلا ، بفضل خيانة الأرمن ، ولقى كثير من الفرسان الترك مصرعهم ، غير أن من تبقى منهم اعتصم بالقلعة واستطاعوا أن يردوا جوسلين على أعقابه[١] .

وعندئذ سار نور الدين فى عساكره إلى الرها ، وضيق الخناق على المدينة ، وأضحى جوسلين ، ومن معه من الفرنج وسكان المدينة من الأرمن ، معرضين للضغط من قبل الحامية المرابطة بالقلعة فى الرها ، وبين عساكر نور الدين . ودارت معركة عنيفة ، أسفرت عن مصرع عدد كبير من سكان المدينة ، ووقوع كثير من الأسرى والسبى فى أيدى المسلمين ، فضلا عن الغنائم الوافرة . ومن الأمراء الذين لقوا مصرعهم بلدوين صاحب مرعش ، وحل بجيش جوسلين من الخسائر ما أعجزه عن مقاومة الترك ؛ فاجتاز نهر الفرات ، ولجأ إلى سموساط ؛ وتفرق سائر الجند إلى مختلف الجهات ، بعد أن تركوا متاعهم وعتادهم ، فلم يفكروا إلا فى التماس النجاة[٢]

على أن ما صحب استعادة الرها من النهب ، والاستباحة ، وهلاك عدد كبير من سكانها ، أثار حنق المسيحيين فى الغرب ، فالإمارات الصليبية

---

(١) Grousset : op. cit. II. pp. 198-203.

William of Tyre : op. cit. II. pp. 157-158

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٧٥ .

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٢) William of Tyre : op. cit. II. pp. 159-161

Grousset : op. cit. II. pp. 203-208.

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٧٥ .

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ : ص ٢٩٠ .

أضحت مكشوفة ، بعد أن زال ثغرها فى إقليم الجزيرة ، وتعرضت للخطر المباشر ، نظرا لأن الفرات لم يمنع زحف القوى الإسلامية . ويعتبر زوال إمارة الرها نقطة البداية فى استرداد ما استولى عليه الفرنج من الممتلكات ؛ ولذا أدى سقوطها إلى الدعوة إلى حرب صليبية جديدة(١) .

وفى هذه الأزمة ، أظهر نور الدين لأول مرة ما اختص به من المقدرة والكفاية ، فما قام به من المحافظة على الرها ، لم يقصد من وراء ذلك مواجهة الصليبيين فحسب ، بل أراد أن يمنع أخاه سيف الدين الغازى من انتزاعها ، وأن يدرأ عنها كل حركة تمرد تقع مستقبلا(٢) .

وما أحرزه نور الدين على الفرنج من انتصار كان له أثر كبير فى توطيد مركزه . إذ كان لزاما عليه أن يسوى النزاع بينه وبين أخيه فى الموصل الذى عاق حركاته وقيد نشاطه وقتذاك ثورات الأميرين الأرتقيين ، تمرتاش وألب أرسلان .واسترداد أملاكهما السابقة فى الشمال(٣) . ومن الدليل على التوتر ، بين حلب والموصل ، ما لجأ إليه نور الدين من عمارة قلعة النجم التى تحرس الجسر المقام على نهر الفرات ، على الطريق المؤدى من حران إلى حلب . ومن أهم العوامل التى وطدت مركز نور الدين الصداقة التى تربط بين وزير الموصل ، جمال الدين محمود وبين الأمير الكردى أسد الدين شيركوه الذى يخدم نور الدين ، إذ حرصا على الإبقاء على التحالف بين الإمارتين . فسواء اجتمع الأخوان فى شىء من الحذر والحيطة خارج

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 208.

(٢) Stevenson : op. cit. p. 157

Gibb: The Career of Nur-ad- Din p. 513

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٧٥ .

(٣) Gibb : The Career of Nur-ad-Din p. 513.

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٨١ .

حلب ، وانتهيا إلى اتفاق ودى ، أو لم يجتمعا ، فمن الواضح أن سيف الدين قبل الأمر الواقع[١] .

ولم يحظ نور الدين فحسب بتأييد عساكر حلب ، بل استند أيضا إلى مساعدة قبيلة ياروق التركمانيـــة التى قدمت حديثا إلى شمال الشام ، وحشدت قبيل الهجوم على الرها ، نحو عشرة آلاف فارس . فمن الطبيعى أن هذه القوة كفلت استقلاله إزاء أطماع أخيه ، وألزمت أتابك دمشق ، أنر ، بأن يقدر أهمية الوفاق مع نور الدين[٢] . ولم يلبث الاتحاد أن تأكد بزواج نور الدين من ابنة أنر ، وعاد الياغسيانى صاحب حماه إلى سابق ولائه لنور الدين[٣] .

وفى تلك الأثناء ، مضى نورالدين قدما فى الجهاد ، وتعرضت إمارة أنطاكية ، لضربات نور الدين . ومن الدليل على أن المد تحول إلى جانب نور الدين ، كثرة المدن التى سقطت بيديه ، ففتح أرتاح وحصن مابولا ، وبسرقوت ، وكفر لاثه وهاب . وكان الفرنج بعد قتل والد (زنكى) قد طمعوا وظنوا أنهم يستردون ما أخذه ، فلما رأوا من نورالدين الجد فى أول أمره ، علموا بُعد ما أمّلوه[٤] . ودل ريموند أمير أنطاكية على افتقاره إلى المهارة السياسية ، فمنذ أن ولى حكم أنطاكية ، فقدت كل ما لها من أملاك غرب الأورنت[٥] . فلا عجب أن يصر ريموند على قدوم حملة

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 196.
Gibb : The Career of Nur-ad-Din. p. 513.

(٢) Gibb : The Career of Nur-ad-Din p. 513

(٣) Gibb : The Career of Nur-ad-Din p. 513
Stevenson : op. cit. p. 137.

(٤) Grousset : op. cit. II. p. 209.

(٥) Grousset : op. cit. II. p. 209.

صليبية ، ورسم صورة قاتمة للموقف الذى نجم عن سقوط الرها . وما حدث سنة ١١٤٧ من توقيع المعاهدة بين أنر وحلب ، وزواج نور الدين من ابنة أنر ، مهد الطريق لنزع دمشق من التحالف مع بيت المقدس(١) . وشجع نور الدين على المضى نحو هذا الاتجاه ما ارتكبه الفرنج من أخطاء ، فما كاد يتم الاحتفال بزواج نور الدين من ابنة أنر ، حتى جاء من دمشق طلب عاجل ، يلتمس مساعدة نور الدين ، فلبى الدعوة فرحا مسرورا(٢) .

على أن زواج نور الدين من ابنة أنر ، لم يؤد إلى إلغاء الحلف القائم بين دمشق ومملكة بيت المقدس وسائر الصليبيين بالشام ، بل ظل أنر حافظا للموادعة التى بينه وبينهم ، لإدراكه أن ما اتخذه من قاعدة المحالفات الودية مع كل الأمراء المجاورين ، يوطد السلام فى وسط الشام ، ويفيد منه أيضا الفرنج(٣) .

وما وقع فى حوران من أحداث ، لم تلبث أن عملت على تحطيم الحلف فى سرعة لم يتوقعها أتابك دمشق . ذلك أن « التونتاش » أمير حوران ، الذى يحكم صلخد وبصرى وقع فى نزاع مع معين الدين أنر ، وأصر على أن يستقل بالإقليم الذى يحكمه من قبل البوريين أصحاب دمشق ، فتوجه إلى بيت المقدس حيث التمس مساعدة الصليبيين . ووعدهم بأن يتنازل لهم عن بصرى وصلخد ، إذا نهضوا لمساعدته ، واستهوى العرض الفرنج ، نظرا لكثرة عدد المسيحيين بهذه الجهات ، والإفادة منهم فى امتداد السيادة الصليبية ، والسيطرة على

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 137

(٢) Stevenson : op. cit. p. 138.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 211.

دمشق[١] ، غير أن هذا الإجراء لابد أن يؤدى إلى فصم عرى التحالف بين دمشق والفرنج[٢] .

ولما قدم التونتاش فى ربيع سنة ١١٤٧ ، إلى بيت المقدس ، لم يكن بوسع الملك بلدوين الثالث ، الذى لم يتجاوز الثالثة عشرة ، أو أمه الوصية ، مليسند أن يتخذ قرارا فى ذلك ، نظرا لأهمية هذا الموضـوع وارتباطه بالعلاقات بين دمشق وبيت المقدس ، التى استقرت منذ زمن فولك على المسالمة ، ولذا اتخذ القرار مجلس البارونات ، بقبول ما بذله التونتاش من عروض ، ولم يستطيعوا مقاومة إغراء الاستيلاء على حوران[٣] . إذ اتفق البارونات على أنه «إذا خضع لسلطاننا بصرى ، ولحقت بالأراضى الصليبية ، كان ذلك ربحا كبيرا للمسيحية[٤] » . وتلى اتخاذ هذا القرار ، تحرك الملك والنبلاء إلى طبرية ، وإقامة معسكر بالقرب من الجسر ، الذى يفصل بين نهر الأردن والبحيرة[٥] .

اشتد ضيق أنر لما أقدم عليه بارونات بيت المقدس ، باسم الملك والملكة ، من فض التحالف الذى انعقد منذ زمن فولك ، بين دمشق وبيت المقدس ؛ واتخذ من التدابير ما يكفل المحافظة على إمارته ، فأرسل يستنجد بالأمراء المجاورين ، ثم وجه للملك وباروناته رسالة ينكر فيها مخالفة شروط المعاهدة

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 211.
William of Tyre : op. cit. II. p. 146-147
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٨٩ .

(٢) Grousset : op. cit. II. pp. 211-212

(٣) Grousset : op. cit. p. 212.

(٤) William of Tyre : op. cit. II. P.147
Grousset : op. cit. II. p. 212.

(٥) Ibid : op. cit. II. p. 212. William of Tyre II. p. 147

المبرمة بينهما بالتجهز لغزو أراضى دمشق ، ومبادرتهم إلى حماية تابع شق عصا الطاعة ، ويطلب إلى الملك الرجوع عن قصده ، والإبقاء على ما بينهما من اتفاقات[١] . غير أن بلدوين أصر على الاستجابة لألتونتاش ، وبذل المساعدة له ، وتوجه الجيش الصليبى إلى حوران ، على أن جميع من كان بدمشق من الترك ، بادروا بالانحياز إلى العرب فى حوران ، واحتشدوا ، لوقف زحف الصليبيين ، واعترضوا الطريق المؤدى إلى بصرى ، وإلى صلخد . ولم يسع أنر ، إزاء زحف الصليبيين ، إلا أن يستنجد بنور الدين ، الذى أقبل من حلب على رأس قواته فى مايو سنة ١١٤٧[٢] .

وفى أثناء قيام الصليبيين بشق طريقهم فى عنف ، إلى بصرى كان معين الدين أنر قد بلغ صلخد ، حيث انحاز إليه نور الدين بجيوشه ، قادمين من حلب[٣] . لم يستطع نواب التونتاش أن يقاوموا القوات المتحالفة ، والتى سبقت الفرنج فى الوصول إلى صلخد وتسلمت بصرى من زوجة التونتاش[٤] .

وخاب أمل الفرنج فى الاستيلاء على بصرى ، بعد أن احتلها العساكر الترك وأضحت قلعتها بأيديهم ، ولم يكن الفرنج على مسافة بعيدة منها ، وقد أرهقهم التعب ، ونفد ما لديهم من الماء ، ولم يستطيعوا المضى فى قتال المسلمين ، فلم يسعهم إلا أن يرتدوا . على أنهم كابدوا أثناء العودة من التعب والمشاق ، ما يزيد على ما عانوه أثناء قدومهم ، فأخذت المؤن النفاد ، وطمت أبار المياه . فقرر البارونات آخر الأمر عقد الصلح مع أنر ، بعد أن فقدوا الأمل فى تحقيق رغبتهم ، وأدركوا أن جهودا ضاعت

---

(١) William of Tyre : op cit. II. pp. 147-148.
Grousset : op. cit. II. p. 213.

(٢) Grousset : op. cit. II. pp. 214-215

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 218

(٤) Grousset : op. cit. II. p. 219. William of Tyre : II. p. 150-152

هباء[1] . وصف وليم الصورى ارتداد الصليبيين بقيادة بلدوين الثالث ، فى أكمل نظام وأعجبه ، وبلغ من اشتداد دهشة المسلمين ، أنه « على الرغم من تعرض (الفرنج) لرمى السهام ، والإلحاح فى القتال ، ومعاناة الظمأ ، وإثارة الرمال ، والحرارة الشديدة ، لم يعثروا بجثة أحد المسيحيين ، أو يلتقوا بأحد العجزة منهم » . وأيقن عقلاء المسلمين « أنهم شعب حديدى فإن لم يكونوا بهذه الصفة ، ما كان بوسعهم أن يتحملوا هذا الضغط العنيف المستمر »[2] . ولعل هذا الإعجاب هو الذى حمل أنر على أن يمنع المسلمين عنهم ، مخافة أن ينقلبوا إلى الهجوم فجأة ، فيفسدون عليه نصرته[3] . وعرض أنر على الملك الصليبى أن يمد رجاله بالمؤن اللازمة حتى يعودوا إلى بلادهم ، وأن يبعث إليهم من يبصرهم بمسالك الطريق ؛ ولعل حرصه على الإبقاء على هذا الجيش الصليبى ، هو الخوف من جيش نور الدين ، ومبادرة نور الدين إلى عزل أمير دمشق ، وانتزاع الإمارة منه[4] .

وكيفما كان الأمر ، رفض بلدوين كل ما بذله أنر من عروض ، وعاد بجيوشه إلى بيت المقدس ، دون أن يحصل على مساعدة من المسلمين ، وبذلك تكلفت الحملة نفقات طائلة ، دون أن تتحقق أهدافها ، بل ارتكب الصليبيون الحماقة فى سياستهم وخططهم الحربية ، وخسروا تحالفهم مع دمشق ،

---

(١) Grousset : op. cit. II. 219
William of Tyre : op. cit. II. p. 153
Runciman : History of the Crusades II. p 242.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. p. 153.
Grousset : op. cit. II. p. 219-220.
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٤٧ .

(٣) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٤٧ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٠ .

(٤) William of Tyre : op. cit. II. pp. 148-149.

ولم يستطيعوا رد صاحبهم التونتاش إلى إمارته ؛ ولما قدم إلى دمشق يطلب من أنر الصفح والمغفرة ، جرى سمل عينيه والإلقاء به فى السجن[١] . يضاف إلى ذلك ما حدث من التحالف بين أنر ونور الدين ، فأضحى على مقربة منهم ، وصار خطراً يهدد كيانهم ، بعد أن تهيأت الأحوال للتدخل فى شئون دمشق[٢] .

على أن أنر كان شديد الإدراك لقوة نور الدين ، وارتاع لما سوف يحدث مستقبلاً ، وتطلع إلى أن يعيد التحالف مع الفرنج ، غير أن نور الدين التزم بالمعاهدة التى عقدها مع أنر[٣] . وبهذا تهيأ لنور الدين من الوسائل ، ما حقق به توحيد الجبهة الإسلامية ثم مواجهة الصليبيين ، الذين أدركوا ما تعرضت له مملكة بيت المقدس من الخطر بعد هذا التحالف ، فتوجهوا بحملتهم ، المعروفة بالحملة الثانية إلى حصار دمشق[٤] .

الحرب الصليبية الثانية :

أثار سقوط الرها فى يد عماد الدين زنكى ، فى ديسمبر ١١٤٤ الروح الصليبية فى الغرب ؛ ففى زمن مبكر يرجع إلى صيف ١١٤٥ ، أذاع الحجاج والمسافرون ، الذين قدموا إلى أوربا من بيت المقدس ، أنباء سقوط الرها[٥] . ولابد أن الأساقفة الأرمن ، الذين جاءوا من قليقية بعد فترة

---

(١) Runciman : op. cit II. p. 243.

(٢) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٤٨ .

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 243.

(٤) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٥٠ .
وما حدث من المجاملة والدماثة التى أظهرها أتابك دمشق وملك بيت المقدس ، أثناء أزمة حوران دل على حرص الجانبين على ألا تتسع فجوة الخلاف بينهما ، غير أن الحرب الصليبية الثانية غيرت الأوضاع السياسية فى الشام . . انظر . Grousset : op. cit. II. p. 225.

(٥) Berry : "The Second Crusade" in Setton : History of the Crusade I. p. 466.

وجيزة من قدوم أولئك الحجاج ، لاستشارة البابا يوجين الثالث فى أمر توحيد كنيستى روما وأرمينيا ، وأوقفوا البابا على الأحوال بالشرق ، والتمسوا منه المساعدة ضد بيزنطة ، ومن الطبيعى ألا يهمل البابا واجباته فى الشرق[1] .

والواضح أن ما لدى جوسلين كونت الرها ، وريموند أمير أنطاكية ، من القوات لم يكن كافيا لاسترداد الرها ، فالتمس ريموند باعتباره السيد الأعلى للرها ولإدراكه ما تتعرض له بلاده من الخطر ، المساعدة من الفرنج بالشام أو من جهات أخرى بأوربا . ومن الدليل على ذلك ما تردد فى بعض التواريخ من الإشارة إلى الرسل من أنطاكية وبيت المقدس « تتوسل وتتضرع ، بأن قوة الفرنج القاهرة ، ينبغى أن تزيل الخطر الذى وقع ، وأن تدرأ كل ما يحدث مستقبلا من خطر »[2] . وإلى أن هيو أسقف جبلة (مدينة بإمارة أنطاكية) أخذ فى نوفمبر ١١٤٥ ، ينذر فى المجلس البابوى ، بالخطر الذى تعرضت له الكنيسة ، وراء البحار ، بعد سقوط الرها ، ولهذا السبب أعرب عن رغبته فى اجتياز الألب ، والتماس المساعدة من ملكى الرومان والفرنج[3] .

قرر البابا يوجين الثالث الدعوة إلى حرب صليبية جديدة ، على الرغم من المشاكل التى واجهها فى إيطاليا وروما ، ولذا حرص على أن يفيد من تأييد أميرين قويين بغرب أوربا ، لما يرتبط به معهما من أواصر المودّة ؛ وهذان الأميران هما كنراد هوهنشتاوفن ملك ألمـــانيا ، ولويس السابع

---

(١) Berry : The Second Crusade p. 466.
Runciman : op. cit. II. p. 247.

(٢) Berry : The Second Crusade. p. 466

(٣) Berry : The Second Crusade p. 466.
Runciman : op. cit. II. p. 247.

ملك فرنسا (١) . وأصدر يوجين فى ديسمبر سنة ١١٤٥ ، المرسوم البابوى المعروف باسم Quantium praedecessores ، الذى يعتبر أول وثيقة صادقة عن الحرب الصليبية . ووجه هذا المرسوم « إلى ابنه العزيز لويس ملك الفرنج الذائع الصيت ، وإلى سائر أبنائه الأمراء وكل المؤمنين فى جميع غاله » . أورد فى هذا المرسوم دعوات إيربان للحملة الصليبية الأولى ، وما ترتب عليها من النتائج ، وألمـــع إلى سقوط الرها بسبب الذنوب التى ارتكبها المسيحيون ؛ واستثار حماس الفرنج والإيطاليين ، للنهوض للدفاع عن الكنيسة . ووعد الذين نذروا باتخاذ الصليب ، غفران الذنوب ، وحماية زوجاتهم وأطفالهم وأملاكهم ، والإعفاء من كل إجراء قانونى ، وإلغاء الالتزام بأداء ما هو مقرر على الديون من الربح ، والسماح برهن الأراضى من أجل الحصول على الأموال اللازمة لسد نفقات الحملة (٢) .

على أن الخطوة التالية لإنقاذ الرها جاءت من قبل لويس السابع ملك فرنسا ، فى ديسمبر سنة ١١٤٥ ، من مقره فى بورج ، حين أعلن رغبته ، بحضرة الأساقفة وزعماء المملكة ، فى النهوض لمساعدة الفرنج فى الشرق ؛ غير أن النبلاء العلمانيين لم يتحمسوا لهذا القرار ، ومنهم الوزير سوجر Suger ؛ الذى لم يقر مبدأ تغيب الملك عن بلاده (٣) . والواقع أن القديس برنارد رئيس دير كليرڤو ، الذى اشتهر بالفصاحة وقوة البيان وبالسيطرة على الحياة الدينية والسياسية فى غرب أوربا ، أثار فى ڤيزيلاى ، حيث اجتمع فى مارس سنة ١١٤٦ كل أتباع الملك لويس ، من الحماس بين الحاضرين ما يذكرنا بخطبة ايربان فى كليرمونت سنة ١٠٩٥ (٣) .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 248

(٢) Berry : The Second Crusade p. 467.
Runciman : History of the Crusades II. p. 252

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 253.
Grousset : op. cit. II. p. 225-226.
Berry : The Second Crusade. p. 467.

كان لويس أول من اتخذ الصليب ، وتلاه أتباعه ، وامتد أثر برنارد إلى سائر السكان . فكتب القديس برنارد بعد أيام إلى البابا يقول « لقد أمرتُ ، فصدعت بالأمر ، وما كدت أدعو حتى تزايد الصليبيون فلا تعرف لهم عددا »[١] .

ومع أن كنرادهوهنشتاوفن لم يكن أول الأمر شديد الحرص على الاستماع لدعوة القديس برنارد لماله من مصالح فى البحر المتوسط تحول دون اشتراكه فى الحرب الصليبية ، ومنها أنه وعد البابا يوجين بأن يساعده ضد أهل روما وروجر الثانى ملك صقلية ، فإنه لم يلبث أن استجاب لدعوة القديس برنارد بالاشتراك فى الحرب الصليبية ، بعد أن استمع لمواعظه بكنيسة شبير فى عيد الميلاد سنة ١١٤٦[٢] .

وعلى الرغم من أن الحملة الصليبية الثانية ، توافر لها كل أسباب النجاح ، فإنها تعتبر من الحملات الفاشلة فى تواريخ الحروب الصليبية . ومع أنها اتخذت الحملة الأولى نموذجا لها فى كل ما يتعلق بتأليفها والدعوة إليها ، وخط سيرها ، فإنها افتقرت إلى ماكان للحملة الأولى من قوة روحية ، وأعوزها ما اتسمت به الحملتان الثالثة والرابعة من صفة علمانية قوية ، ولهذه الحملة طابع خاص ، وتعتبر نقطة تحول فى تطور حركة الحروب الصليبية[٣] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 253.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 256.

الواقع أن الألمان لم يكن لهم حتى وقت ذاك دور هام فى الحروب الصليبية ، لاهتمامهم منذ بداية القرن الثانى عشر بتنصير الوثنيين من الصقالبة ، اللذين يجاورونهم على الحدود الشرقية فى بوسيرانيا وبراندنبرج ، واعتبر المقطعون الألمان أن امتداد العالم المسيحى صوب الشرق لأكثر أهمية من قتال المسلمين ، لابتعاد خطرهم عنهم . ولذا لم تلق دعوة برنارد فى ألمانيا ما لقيته من الحماس والقبول فى فرنسا .

(Runciman : op. cit. II. p. 256.)

(٣) Berry : The Second Crusade. p. 464.

حاول قادتها أن يتخذوا نهج ايربان وجودفرى فى الحملة الأولى ، دون أن يتغير طابع هذه الحملة الثانية ؛ فالمرسوم الذى أصدره البابا يوجين ، وما تضمنه من شرح وضع الصليبين وامتيازاتهم ، والحرص على اختيار الدعاة ، والارتكان إلى القادة العسكريين المجربين ، كل ذلك تم قبل استشارة أمراء الحملة الثانية(١) . والواقع أن الاهتمام بالتنظيم والترتيب ، يعتبر من خصائص العصر ، الذى ظهرت فيه طائفتا الاسبتارية والداويه ، فى الفترة الواقعة بين الحملتين الأولى والثانية(٢) .

أما توجيه الحملة ، فالواضح أن البابا يوجين هو الذى سيرها ، على الرغم من أن تسييرها لم يجر على النحو الذى قام به ايربان . فالقديس برنارد ، بما اشتهر به من مكانة ونفوذ شخصى فضلا عن فصاحته ، كان نائبا عن البابا ، ونفذ خطته لويس السابع وسائر الأمراء ؛ بينما كان لمندوبى البابا وزن وأهمية فى الجيوش الصليبية . وامتازت الحملة الثانية على الحملة الأولى ، بأن الأمراء العلمانيين ، أمثال لويس وكنراد ، اسهموا فى تمهيد المراحل الأولى للحملة الصليبية الثانية ، بما حدث من التعاون فى إعداد الحملة ، وفيما دار من المفاوضات والحرص على بذل المساعدة للشرق(٣) .

ومن ناحية مجال الحملة ومداها ، لم يكن للحملة الثانية مثيل فى تاريخ العصور الوسطى ، فإلى جانب جيوش الحلفاء الضخمة التى سارت شرقا للقتال فى فلسطين ، توجهت حملات أخرى لقتال المسلمين فى أسبانيا والبرتغال ، وقتال الونديين (من الصقالبة) فى بوميرانيا ، وفى هذه الناحية فاقت أغراض الحملة الأولى ، وأشارت إلى ما حدث فيما بعد من تطور فكرة الحرب الصليبية(٤) .

---

(١) Berry : The Second Crusade p. 464-465.

(٢) Ibid : op cit. p. 465.

(٣) Berry : The Second Crusade. p. 465.

(٤) Ibid : op. cit. p. 465.

Runciman : op. cit II. p. 256.

على أن ما حدث فى الحملة الصليبية الثانية ، مثلما وقع فى الحملة الأولى ، من اجتماع المحاربين والحجاج بها ، كان عبئا ثقيلا أثار الاضطراب . فعلى الرغم من أن هذه الحملة لم تكن هجرة عناصر مختلفة الأجناس ، ولم تكن مجردة من النظام ، بل كانت عبارة عن جيشين نظاميين ، قادهما أقوى ملكين فى الغرب ، فالواقع أن ما ارتبط بالحرب الصليبية من مبدأ دينى ، حمل الفرسان على أن يجيزوا لجموع الحجاج وطلاب التوبة والمغفرة ، أن يسيروا فى إثرهم ، دون أن يكون لهم ضرورة حربية ، بل عرقلوا سير القوات الحربية[١] . يضاف إلى ذلك ، أن الحملات الموجهة إلى فلسطين سارت برا ، وبينما اشترك فى الحملات الموجهة إلى أسبانيا والونديين ، أساطيل اسكنديناوه ، وجنوه وبيزا وجنوب فرنسا ، وشبه جزيرة ايبريا ، اشتبكت أساطيل صقلية والبندقية وجانب من الأسطول البيزنطى ، فى حرب بعيدة عن أن تكون حربا صليبية ، بل ألحقت بها ضررا بالغا[٢] . وفى الحملات الموجهة ضد الونديين وفلسطين لم يكن للصليبيين دراية تامة بالأحوال التى سوف يصادفونها ، فاتسم بالعجلة والسرعة ، تجهيز الحملة الصليبية ضد الونديين . أما الصليبيون المتوجهون نحو بيت المقدس ، فلم يدركوا برغم كفايتهم فى الإعداد والتدريب ، حقيقة الأحوال فى الشرق ،

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 226.
Berry ; The Second Crusade p. 465.

(٢) Ibid : op. cit. p. 465.
الواضح أن حملة صغيرة تألفت من محاربين من الانجليز والفلمنكيين والفريزيين ، ارتحلت بحرا من انجلترا فى ربيع سنة ١١٤٧ ، للاشتراك فى القتال بفلسطين ، غير أن الأحوال الجوية دفعت بهم إلى ساحل البرتغال فالتقوا بمندوبين عن قوات البرتغال وانحازوا إلى القوات البرتغالية فى حصار لشبونه ، التى استمات المسلمون فى الدفاع عنها لمدة ثلاثة شهور ، ولم يستسلموا إلا بعد الحصول على ضمانات بسلامة الأنفس والأملاك . غير أن الصليبيين نكثوا فى عهدهم وقتلوا كثيرا من المسلمين . انظر .
Runciman : op. cit. II. p. 258-259

التى ازدادت تعقيدا على ما كانت عليه فى سنة ١٠٩٦ – ١٠٩٧ . إذ أن المسلمين فى الشرق ، ازدادوا قوة واتحادا فى الخمسين سنة التالية للحملة الأولى ، كما أن البيزنطيين أدركوا أنهم لم ينالوا من الغرب إلا الأذى والضرر . وتحولت فلسطين من إقليم يعتبر مصدر ثروة ورخاء ، إلى مملكة إقطاعية مفككة الروابط ، لم تختلف عن مثيلاتها فى أوربا من حيث تنازع المصالح واختلاف الأغراض ، ومع ذلك لم تكن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق ، بالغة الحدة والعنف مثلما جرى فى الغرب . ولذا فإن الصليبيين أصابهم دائما خيبة الأمل ؛ وزادهم مرارة ما صادفوه من الاضطراب ، وفشلوا فى أن يتحدوا تحت زعامة قوية ، ولم يحققوا أغراضهم فى الشرق وبوميرانيا . وما استولى عليه الصليبيون من البلاد ، فى شبه جزيرة ايبريا ، كانت بالغة البعد عن مسرح الأحداث الواقعة بفلسطين ، وعن الخطط الأساسية التى وضعت للحملة الثانية[1] .

أدرك المسلمون ، بعد خبرتهم بلقاء الفرنج ، وإنزال الهزائم بهم ، وأسر قادتهم ، وقهرهم فى معارك حاسمة ، أنه لم يعد للصليبيين من الصفات ، ما يكفل لهم الفوز ، بل إن ماوقع من الاحتكاك بين الفرنسيين والألمان ، وبين الفرنسيين والبيزنطيين ، وبين الألمان والسوريين ، وبين الصليبيين القادمين حديثا والذين جاءوا إلى الشرق من قبلهم ، جعل التعاون مستقبلا ، أمرا مستحيلا[2] .

حرص لويس على الاتصال بأمراء وملوك البلاد التى سوف يجتازها الصليبيون ، فى طريقهم إلى آسيا الصغرى . فكتب إلى روجر الثانى ملك صقلية ، ومانويل الإمبراطور البيزنطى ، وكنراد ملك ألمانيا ، وجيزا ملك المجر ، يصف لهم ضخامة الجيش الصليبى الذى تقرر إعداده ، ويسألهم

(١) Berry : "The Second Crusade p. 466.

(٢) Berry : The Second Crusade. p. 466.

بذل الامتيازات اللازمة لتوفير المؤن ، وتأمين الطريق ، أثناء اجتياز بلادهم . استجاب كنراد وملك المجر لرأى لويس ؛ وأرسل روجر الثانى سفارة إلى لويس « تعلن استعداد مملكته ، لأن توفر للحملة المؤن اللازمة ، والنقل بحرا ، وكل ما تحتاجه ، ووعد بأن يشترك فى الحملة أو ينيب عنه ابنه »[١] . والواضح أن هذه الوعود كانت مغرية ، لأنها تجنب الحملة متاعب الطريق البرى ، فضلا عن الإفادة من خبرة روجر الثانى فى قتال المسلمين بشمال إفريقية[٢] . على أن التحالف مع روجر الثانى كان أمرا بالغ الحرج والدقة ، لما له من أطماع سياسية واسعة . فمن الواضح أن لويس لن يقبل هذا العرض لأن روجر يطالب بحكم أنطاكية ، باعتبارها من ممتلكات ابن عمه بوهمند النرمندى[٣] ، ويتولى حكمها وقتذاك ريموند بواتييه ، الذى يمت بصلة المصاهرة للويس السابع ، الذى نهض لمساندته[٤] . ولم تكن البحرية الصقلية من الضخامة ما يكفى لنقل العساكر المشتركين

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 226.

Chalandon : Comnenes. II. p. 265-266

Chalandon : Domination Normande en Italie. II pp. 133-134, 159-165.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 259.

ماحدث من المنازعات والمنافسات بين الأسرات الإسلامية فى شمال أفريقية ، والتى اشتدت بما جرى من تداعى دولة المرابطين فى مراكش ، وانهيار السيادة الفاطمية فى تونس ، واعتماد المدن الإفريقية على ما يرد لها من القمح من صقلية ، كل ذلك هيأ الفرصة لتدخل روجر فى أمور أفريقية منذ سنة ١١٢٣ ، حتى اعترف بسيادته أمير المهدية ١١٣٤ ، ثم استولى سنة ١١٣٥ ، على جزيرة جربة بخليج قابس ، وفى سنة ١١٤٦ استولى الأسطول الصقلى على طرابلس ، فأضحت نواة لمستعمرة نورمندية فى أفريقية — أنظر

Runciman : op. cit. II. p. 250.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 252.

(٤) Runciman : op. cii. II. p. 259.

Grousset : op. cit. II. p. 226.

فى الحملة ، فكل هذه الاعتبارات أدت إلى رفض العروض التى بذلها ملك صقلية[1] .

أما كنراد الثالث ، فإن ما وقع منذ زمن طويل من نزاع بينه وبين النرمان بصقلية حمله على أن يتخذ طريق البر . ولذا صار لزاما على الفرنسيين والألمان أن يتخذوا الطريق الذى سلكه من قبل جودفرى بويون ، بأن يجتازوا نهر الدانوب ، والبوسفور ، وآسيا الصغرى[٢] . وتقرر أيضا أن تسير الحملتان الفرنسية والألمانية فى تاريخين مختلفين ، حتى لا يحدث تداخل بين الجيشين ، فتتضاعف بذلك الضرائب على المؤن ووسائل الراحة[٣] .

فقرر الملك لويس أن يرتحل بجيشه فى ١٥ يونيه ١١٤٧ ، بينما اتخذ كنراد منتصف مايو تاريخا لرحيل الحملة الألمانية ، على أن تجتمع الجيوش بالقسطنطينية[٤] .

بيزنطة والحملة الصليبية الثانية :

أثار اجتياز الملكين كنراد الثالث ولويس السابع بجيوشهما ، أراضى الإمبراطورية البيزنطية ، المشكلة التى ترتبط عادة بالعلاقات بين بيزنطة والفرنج ؛ فحينما تلقى الإمبراطور مانويل رسالة من الملك لويس السابع ، تشير إلى عزمه القيام بحملة صليبية لم يسع الإمبراطور

---

(١) Berry : The Second Crusade p. 470
Runciman : op. cit. II. p. 259.
Grousset : op. cit. II. p. 226.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 227. Berry : The Second Crusade p. 477

(٣) Berry : The Second Crusade p. 477.

(٤) Ibid : op. cit. p. 478. Grousset : op. cit. II. p. 227.

إلا أن يعلن استعداده ، بأن يبذل المساعدة للصليبيين ، فى اجتياز أراضيه ، والعبور إلى آسيا الصغرى وتوفير المؤن اللازمة لهم ، ومنحهم امتيازات فى أسعار الحاجات التى يشتريها الجند ، غير أنه أراد أن ينال من الشرف ما ناله جده العظيم من الفرنج ، سنة ١٠٩٧ ، بأن يحلفوا له يمين الولاء ، فلا ينزلون الأذى والضرر بالإمبراطورية أثناء اجتياز أراضيها ، ويبذلون الوعود بأن يعيدوا لبيزنطة ما يستولون عليه ، من الترك ، من المدن التى كانت أصلا تابعة للأمبراطورية البيزنطية[١] .

الواقع أن البيزنطيين أرادوا أن يفيدوا من تجاربهم فى الحملة الصليبية الأولى ، وفى حملة سنة ١١٠١ ، بأن يسيطروا على تحركات الصليبيين أثناء اجتيازهم الدولة البيزنطية . على أن ما حدث من تغيير فى وضع بيزنطة أساء إلى الصليبيين ، فالمعروف أن الكسيوس هو الذى طلب من الغرب المساعدة لمهاجمة الترك ، وردهم عن القسطنطينية ، أما مانويل فلم يطلب النجدة ، ولم يكن بحاجة إلى استعادة الأملاك الضائعة ، بعد أن أعادت الحملة الأولى لبيزنطة جانبا من أراضى آسيا الصغرى ، وأقامت الإمارات اللاتينية ، التى تعتبر إمارات حاجزة بين البيزنطيين والمسلمين[٢] . فالحملة الجديدة أثارت الخوف عند البيزنطيين ، الذين خشوا تحول الصليبيين إلى مهاجمة القسطنطينية مثلما فعل بوهمند سنة ١١٠٧[٣] . يضاف إلى ذلك أن الدعوة للحرب الصليبية الثانية ، صدرت عن ريموند أمير أنطاكية ، لأنه لم يشأ أن

---

(١) Berry : The Second Crusade p. 470,480

Grousset : op. cit. II. p. 228. Runciman : op. cit. II. p. 260.

(٢) Berry : The Second Crusade p. 470.

(٣) Ibid : op. cit. p. 470.

يحصل على المساعدة من بيزنطة حتى لا تفرض حمايتها على شمال الشام مرة أخرى[(١)] .

وما نشب وقتذاك من الحروب بين بيزنطة والسلاجقة فى آسيا الصغرى ، أثر فى العلاقات بين بيزنطة وأمراء الحملة الصليبية الثانية . إذ أن الإمبراطور مانويل خرج سنة ١١٤٦ ، لقتال السلطان مسعود السلجوقى ، واستطاع أن يحاصر العاصمة قونية شهورا عديدة ، غير أنه تبين أنه ليس فى وسعه الاستيلاء على المدينة ، بعد أن بلغته أنباء الحملة ، وتردد خبر قدوم أمداد للسلطان مسعود السلجوقى من الشرق ، فقرر الانسحاب . ومن هنا أثار البيزنطيون فى المفاوضات مع رسل الملك لويس السابع ، أمر يمين الولاء التى تقضى بأن يعود للإمبراطور ما يفتحه الصليبيون من البلاد فى آسيا الصغرى ، ومنها قونية[(٢)] .

ارتاع الإمبراطور البيزنطى مانويل لما ذاع من أنباء اشتراك الإمبراطور كنراد فى الحرب الصليبية الثانية ، واعتقد أن كنراد أراد بذلك أن يخرج من نطاق المحالفة التى انعقدت بينهما ضد روجر ملك صقلية ، وأن

---

(١) أدرك ريموند أمير انطاكية ، بعد أن أنزل به البيزنطيون الهزيمة فى سنة ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، وبعد انتصارات زنكى واستيلائه على الرها ، أن إمارة انطاكيه لن ينقذها من الوقوع فى أيدى المسلمين ، إلا إذ تم الوفاق مع الأمبراطور البيزنطى . فتوجه إلى زيارة القسطنطينية ، واستطاع أن ينال رضى مانويل ، بأن أقسم له يمين الولاء ، وبمقتضاها وعد الإمبراطور بأن يبذل المساعدة بالمال والعساكر ، لقتال المسلمين بحلب ، سنة ١١٤٥ . ومن المحقق أن الأمبراطور البيزنطى أفاد من الكارثة التى لحقت بالفرنج فى الجزيرة ، بمحاولة إعادة السيطرة البيزنطية على انطاكية ، فالدعوة إلى حملة صليبية تثير قلق الأمبراطور ، نظرا لما يرتبط به لويس السابع من صلة المصاهرة مع ريموند انظر :

Grousset : op. cit. II. pp. 228-229

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 229-230

Runciman : op. cit. II. pp. 265-266.

يشترك مع سائر القوات التى احتشدت فى غرب أوربا ، لمهاجمة القسطنطينية[١]. فالمعروف أن العلاقات بين كنراد ومانويل اتسمت بالود والصداقة لما ارتبطا به من المصاهرة ، ولاشتراكهما معا فى كراهية النرمان بصقلية[٢]. ونظرا لأن كنراد يضارع مانويل فى المكانة الإمبراطورية ، فليس فى وسع مانويل أن يخضع الصليبيين الألمان أثناء اجتياز أراضى الإمبراطورية البيزنطية ، أو يفرض سلطانه على ما يستولى عليه كنراد من الأراضى التى بحوزة المسلمين[٣].

ولما وصلت القوات الألمانية إلى أطراف الدولة البيزنطية فى يونيه ١١٤٧ ، استقبل كنراد رسولين يونانيين ، يحملان تحية الإمبراطور البيزنطى ، ويسعيان للوقوف على نوايا الإمبراطور الألمانى . وأشارا بأنه لن يسمح للألمان باجتياز الأراضى البيزنطية ، ما لم يتعاهدوا بأن لا يلحقوا الأذى والضرر بمصالح الإمبراطور البيزنطى[٤] . ولما تلقيا من كبار النبلاء بالجيش من التأكيدات بأنهم لم يقصدوا إلحاق الضرر بالمصالح البيزنطية ، وعدا بتوفير المؤن اللازمة لهم ، غير أن الصليبيين لم يلبثوا أن اشتبكوا فى مناوشات ضد السكان فى شبه جزيرة البلقان ، وبلغوا القسطنطينية فى سبتمبر ١١٤٧[٥]. على أن الإمبراطور البيزنطى أمد الألمان بالمؤن ، وألح على كنراد بالعبور إلى آسيا الصغرى ، وعرض عليه أن يمده بقوات بيزنطية فى آسيا الصغرى ،

---

(١) Berry : The Second Crusade p. 484.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 230.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 230.

(٤) Berry : The Second Crusade. p. 484
Grousset : op. cit. II. p. 230.
Runciman : op. cit. II. p. 260.

(٥) Berry : op. cit. pp. 484-486.
Runciman : op. cit. II. pp. 260-261

مقابل أن يترك جانبا من جيشه بالقسطنطينية تحت تصرف مانويل[١] ؛

وفى ذلك الحين كان روجر الثانى ملك صقلية يهاجم الإمبراطورية البيزنطية ، وذلك أنه قرر بعد انسحابه من الحروب الصليبية ، أن الوقت حان لمهاجمة الإمبراطورية البيزنطية ، ولتوطيد سلطانه فى جنوب إيطاليا ، نظرا لانصراف كل من كنراد ومانويل إلى التشاحن . ادعى روجر أن مانويل أهانه ، لأنه لم يقبل أن يزوج ابنته من ابن روجر . فاستولى على كورفو ، وكيفالونيا ، ونهب كورنثه ، وطيبه ، ويوبيا ، وأثينا . وكان لزاما على مانويل أن يستعين بكنراد والبنادقة لتأديب روجر ، غير أن كنراد لم يستجب ، وأصر على اجتياز آسيا الصغرى دون أن ينتظر وصول لويس بجيوشه[٢] .

أما الجيش الفرنسى فاحتشد فى متز ، وأصدر لويس القوانين اللازمة للمحافظة على الأمن والنظام بالجيش[٣] ، وأقسم قادة القطاعات المختلفة من الجيش الأيمان على طاعة هذه القوانين ، وتنفيذها . واجتاز الجيش نهر الدانوب ، وتولى أسطول نهرى نقل أمتعة الجيش وكثير من الناس حتى بلغاريا . واستقبل لويس سفراء من قبل مانويل الإمبراطور البيزنطى ، حملوا إليه الرسائل التى انطوت على الشروط التى سبق للإمبراطور أن طلبها ، ومنها ألا يستولى لويس على بلد أو حصن بمملكة مانويل ،

---

(١) Berry : op. cit. p. 486.

(٢) Berry : op. cit. p. 486.

(٣) وهذه القوانين تماثل ما التزم به الصليبيون الذين توجهوا فى نفس الوقت إلى أسبانيا والبرتغال ، من آداب السلوك . فخضعوا لقوانين بالغة الصرامة ، التزموا بمراعاة الآداب والأخلاق الكريمة ، فلا يرتدون الملابس الباهظة الأثمان ، ولا تظهر نساؤهم للملأ ، والمحافظة على السلام ما لم يتعرضوا للأذى ، ومباشرة القسس الواجبات الروحيه ، ومراعاة أداء الطقوس الدينية فى أوقاتها ، وفض المنازعات . أنظر Berry : op. cit. p. 481,487.

وأن يرد إليه ما ينتزعه من البلاد من أيدى المسلمين ، وأن يحلف على تنفيذ هذه الشروط[١] . تأجلت المناقشة فى هذه المرحلة حتى يصل الجيش إلى القسطنطينية ؛ واتخذ لويس الطريق الذى سلكه كنراد بجيشه ، فاجتاز بلاد المجر ، إلى أطراف بلغاريا ، حيث تزود الجيش بكميات كبيرة من المؤن . وبفضل مساعدة دوق صوفيه ، الذى وفر له المؤن ، وكفل العلاقات السلمية بين السكان والعساكر ، وحرص لويس على كبح جماح الجند . وبرغم ما وقع من مشاحنات ومنازعات بين مقدمة جيش لويس ومؤخرة جيش كنراد ، مضى يشق طريقه فى البلقان ، حتى إذ اقترب من القسطنطينية ، قدم إليه رسل يحملون أنباء مثيرة ، تخالف الخطة الأصلية . إذ أن كنراد عبر البوسفور دون أن ينتظر بالقسطنطينية قدوم الجيش الفرنسى ، وتعرضت جماعات من الجيش الفرنسى ، سبقت لويس فى الوصول للقسطنطينية ، لمهاجمة المأجورين البيزنطيين[٢] . فما حدث من تسرع الألمان بالمسير وعدم تعاونهم ، وما جرى من الاعتداء من قبل البيزنطيين ، زاده سوءا ما ترامى من الأنباء بأن مانويل عقد معاهدة مع سلطان سلاجقة الروم فى قونية[٣] . هذا الإجراء من قبل مانويل لم يكن مقبولا عند الفرنسيين ، إذ أنهم اعتبروا أن الاستيلاء على الرها ، قضى على كل ما وقع من أسباب السلام بين المسلمين والبيزنطيين ، وأثار ذلك مانويل وحمله على أن يحشد جيشا لقتال المسلمين بآسيا الصغرى . على أن سلوك الإمبراطور قد تغير ، أزعجه ضخامة القوات الصليبية ، واشتراك الإمبراطور الألمانى فى الحرب الصليبية ، وزاد فى اهتمامه ما قام به سلطان قونية من تجهيز قوات حربية ؛

---

(١) Berry : op. cit. p. 488.

(٢) Berry : op. cit. p. 490.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 268.

Berry : op. cit. p. 490

وأحس بعداوة الغرب فيما قام به روجر من هجمات[1] . وعلى الرغم من الاقتراحات التى أشارت إلى الاستيلاء على المواضع التى يجتازها العساكر الفرنسيون ، والتحالف مع روجر لمهاجمة البيزنطيين ، فإن الملك لم يتخل عن الخطة الأساسية ، ومضى فى طريقه حتى بلغ القسطنطينية فى أكتوبر ١١٤٧[2] .

وتم الاتفاق آخر الأمر بين مانويل والملك لويس السابع ، على ألا يحصل الملك على بلد أو موضع ، كان يخضع لسلطان الإمبراطور ، وأن يختار الإمبراطور من قبله اثنين أو ثلاثة من كبار البارونات ، يصحبون الحملة فى سيرها ، لهدايتها فى الطريق ، ولتقديم ما يلزم من وسائل تموينها ، وأن للصليبيين الحق فى أن يلجأوا إلى النهب إذا لم تتوافر لهم المؤن[3] .

وعندئذ أقسم النبلاء يمين الولاء لمانويل ، وتلقوا الهدايا من الإمبراطور . على أن مانويل لم ينجح فى أن يحمل لويس على محالفته ضد روجر ، ولعل ذلك من أسباب كراهيته للمحاربين الفرنسيين فيما بعد . ومن الطبيعى أن يعارض فى إنشاء إمارات لاتينية مستقلة فى آسيا الصغرى ، والتزم بالمعاهدة التى عقدها مع المسلمين . والخلاصة أن الصليبيين بالحملة الثانية لم يلقوا من البيزنطيين من المساعدات ما حصل عليه الصليبيون فى الحملة الأولى من الإمبراطور الكسيوس ، وكان ذلك من أسباب ما صادفوه من المشاق ، والفشل عند توغلهم بآسيا الصغرى[4] .

---

(١) Berry : op. cit. p. 490.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 269.

(٣) Berry : op. cit. p. 490

Grousset : op. cit. II. p. 239

Chalandon : Comnenes II. pp. 301-304

(٤) Berry : The Second Crusade p. 492.

Runciman : op. cit. II. p. 269.

اتخذت حملة كنراد الطريق الرئيسى الذى سلكته بآسيا الصغرى ، الحملة الأولى ، وأمده مانويل بالأدلاء والمؤن ، ونصحه باتخاذ طريق الساحل الغربى إلى أضاليا ، الذى يخضع لسلطان بيزنطة ؛ غير أنه لم يستمع للنصيحة ، ودارت بالقرب من دوريليوم ، فى اكتوبر ١١٤٧ ، معركة بين الترك والصليبيين ، هلك فيها معظم الجيش الصليبى ، ووقع معسكر الصليبيين غنيمة فى أيدى السلاجقة[١] . وسمع لويس بأنباء كارثة الألمان ، أثناء مقامه بنيقية فتوجه للالتقاء بكنراد ، وتقرر اتخاذ طريق الساحل . وتحرك الجيشان على الطريق الساحلى ، وظلا على اتصال بالأسطول البيزنطى ، حتى بلغا افيسوس ، وعندئذ اشتد المرض بكنراد ، فارتحل مع حاشيته إلى القسطنطينية حتى يكتمل علاجه ، ثم نقلهم الأسطول البيزنطى فى مارس ١١٤٨ إلى فلسطين[٢] .

وفى أثناء مقام لويس فى إفيسوس ، تلقى رسالة من الإمبراطور البيزنطى يحذره بأن يتجنب قتال الترك الذين احتشدوا للوثوب على الفرنسيين بعد أن أنزلوا هزيمة ساحقة بالألمان ، ويطلب إليه الالتجاء إلى الحصون البيزنطية . غير أن لويس لم يستجب لرأى الإمبراطور فتعرض مع جيوشه لهزيمة ساحقة من قبل الترك السلاجقة فى يناير ١١٤٨ ، وصادف عناء شديداً فى شق طريقه ، حتى بلغ أضاليا ، بعد أن أوشكت المؤن على النفاذ[٣] .

تقرر أن تتم الرحلة إلى أنطاكية بحرا ، غير أنه لم يتوافر من السفن إلا عدد قليل استقله الملك وجانب من الجيش ، فبلغوا سان سيمون

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 269. Berry : op. cit. p. 495-496

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 270. Berry : op. cit. p. 497

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 271-272. Berry : op. cit. p. 499-500
Grousset : op. cit. II. pp. 240-242. Chalandon : Comnenes II. p. 307.

فى مارس ١١٤٨ ، أما البقية فشقت طريقها إلى طرسوس ، ومنها إلى أنطاكية ، وهلك جانب كبير من العساكر فى الطريق(١) .

وماحل بالحملة الصليبية الثانية من كوارث أثناء اجتياز آسيا الصغرى ، أساء إلى العلاقات بين المسيحيين فى الشرق والغرب ، الذين صاروا يتبادلون التهم ، وكل فريق يحاول أن يلقى المسئولية على الفريق الآخر ، إذ اتُّهِم البيزنطيون بأنهم لم يبذلوا إلا مقادير قليلة من المؤن مقابل مبالغ ضخمة ، ولم يوفروا السفن اللازمة لنقل الجند ، ولم يقدموا الأدلاء الذين يرشدون المحاربين فى الطريق ، وأنهم تحالفوا مع الترك ضد الصليبيين(٢) . وما جرى توجيه من التهم للصليبيين انصب على تخوف الإمبراطور من مهاجمة الصليبيين لعاصمته ، وتكرر فعلا الاشارة إلى ذلك فى معسكرات الصليبيين . وما لجأ إليه الجند الصليبيون من نهب البلاد وتخريبها زاد فى كراهية البيزنطيين والسكان لهم ، يضاف إلى ذلك أنهم لم يلتزموا الطرق التى نصح الإمبراطور باستخدامها . يضاف إلى ذلك أن مهادنة الإمبراطور للمسلمين فى آسيا الصغرى ، ترجع إلى اعتداء النرمان بصقلية على أملاكه بأوربا ، وما تهدد البلقان من أخطار من قبل الروس(٣) .

على أن المسئولية الأساسية عن الكوارث التى حلت بالصليبيين فى آسيا الصغرى ، ترجع إلى ما ارتكبوه من حماقات ، فما بذله الإمبراطور البيزنطى من مساعدة للصليبيين تكون دائما على حساب الإمبراطورية ، وتعرضها

---

(١) Runciman : op. cit. II. pp. 273-274.
Berry : op. cit. pp. 501-503.
Grousset : op. cit. II. p.243.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 274
Berry : The Second Crusade p. 502.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 275-276.
Berry : op. cit. p. 502.

للخطر[١] . فمهما يكن من اختلاف اللاتين واليونانيين فى وجهة نظرهم إلى المسلمين ، فالواقع أن موقف بيزنطة من الصليبيين أثناء اجتياز آسيا الصغرى فى الحملة الثانية ، لا يبرره إلا كراهية وعداوة كل من ريموند أمير طرابلس وريجنالد شاتيون للأباطرة البيزنطيين[٢] .

فشل الحملة الصليبية الثانية :

قدم لويس السابع إلى أنطاكية فى نحو نصف جيشه ، ووصل كنراد إلى بيت المقدس ، فى فئة قليلة من عساكره . كان على الصليبيين أن يختاروا بين ما وضعه اللاتين فى الشرق أمامهم من سياستين : السياسة الأولى وهى التى يؤيدها أمير أنطاكية والإمارات الشمالية ، والسياسة الأخرى نبعت من اللاتين فى بيت المقدس ، وأصر كل من الجانبين على سياسته[٣] .

كان ريموند يبنى أملا كبيرا على الحملة الصليبية الثانية ، لما تعرض له مركزه من الخطر إذ أن نور الدين وطد مركزه ، ودعم أملاكه على امتداد الأطراف الصليبية من الرها إلى حماه ، وأمضى خريف سنة ١١٤٧ فى انتزاع مايقع شرق نهر الأورنت من حصون الفرنج الواحد بعدالآخر[٤] . والواضح أن هذه الحملة لم تنهض إلا لاستعادة الرها التى استولى عليها زنكى سنة ١١٤٤ ، ولا زال جوسلين كونت الرها ، والذى يقيم بتل باشر ، ويمارس حكمه فيما تبقى من كونتية الرها ، يأمل فى مساعدة الصليبيين[٥] . على أن ريموند أمير أنطاكية كان حريصا على أن يفيد من الملك لويس

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 277.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 245.

(٣) Setevnson : op. cit. p. 159.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 278.

(٥) Stevenson : op. cit. p. 159. Cahen : op. cit. p. 381

السابع فى مهاجمة حلب ، حاضرة ملك نور الدين ، والاستيلاء على شيزر ، وسائر المدن الواقعة شرقى نهر الأورنت (العاصى) ، كيما يخف ضغط المسلمين على الإمارات اللاتينية فى الشمال ، ولا سيما أن قدوم الحملة الثانية أثار الاضطراب والقلق فى حلب والمدن الإسلامية الأخرى ، وأن الفرصة مواتية للصليبيين للقيام بهجومهم[١] . أما ريموند صاحب طرابلس فإنه التمس مساعدة لويس لاسترداد حصن بعرين لما يربطه بالملكة إليانور من أواصر القرابة[٢] . والواقع أن اللاتين بالشمال كانوا فى أشد الحاجة إلى مساعدة لويس ، بعد أن انتزع نور الدين جانبا كبيرا من أملاكهم[٣] ؛

على أن لويس لم يستجب لطلب ريموند . فالواضح أن التبشير للحرب الصليبية أدخل تغييرا كبيرا فى الخطة البسيطة التى وضعت أول الأمر ، لإرسال حملة حربية لبذل المساعدة للفرنج فى الشرق ، وتأثر الذين اشتركوا فيها بفكرة الحرب المقدسة والحج ، وكان لويس حريصا على أن يستجيب لهاتين الفكرتين ، الحرب والحج . ولذا قرر أن يتوجه إلى بيت المقدس ، للوفاء بالنذر الذى التزم به ، بالاشتراك فى الحرب الصليبية[٤] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 180
Grousset : op. cit. II. p. 146. Cahen : op. cit. p. 381.
Runciman : op. cit. II. p. 278. Berry : op. cit. p. 503.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 278

(٣) Stevenson : op. cit. p. 159.

(٤) Berry : op. cit. p. 503.

لم يتردد فى الحمـلات التبشيرية أسماء الرها ، وأنطاكية وشمال الشام ، على أنها من الأهداف الأساسية للحملة . على حين أن بيت المقدس وما بها من مواضع مقدسة ، تعتبر الهدف الأساسى لكل حملة صليبية ، دون أن يجرى أعداد حملة معينة لقتال خصوم المسيحيين . وهذا الاتجاه يظهر فى الحملة التى توجهت إلى البرتغال ، فالمعروف أن الجهة التى كانت تقصدها هى بيت المقدس . أما كنراد فكان يرى التوجه إلى الرها ، على الرغم من أنه كان يأمل فى أن يبعث إلى الأراضى المقدسة الحجاج الذين صحبوا جيشه . انظر :
Berry : op. cit. p. 503 note 34

الواقع أن مملكة بيت المقدس لم تتعرض وقتذاك لخطر أو تهديد ، فالقوى الإسلامية التى تجاورها ، تتمثل فى الفاطميين بمصر ، الذين ازدادوا ضعفا ، والتزموا خطة الدفاع عن أملاكهم ، أما الدولة الإسلامية الأخرى فهى إمارة دمشق الخاضعة لسلطان البوريين ، الذين سبق أن تحالف معهم فولك ، ملك بيت المقدس ، وحرص وزيرهم أنر ، على أن يبقى مسالما للصليبيين على الرغم من الحملة الطائشة التى وجهوها إلى حوران[١] . ومع ذلك توجه إلى أنطاكية بطريرك بيت المقدس ، مندوبا من قبل المحكمة العليا ، وتوسل إلى لويس أن يبادر بالمسير إلى بيت المقدس ، وأنهى إليه أن كنراد ، وصل فعلا إلى الأراضى المقدسة . على أن حافزا شخصيا حمل أيضا الملك على أن يغادر أنطاكية إلى الأراضى المقدسة ، وهو ما ترتب على العلاقات بين ريموند أمير أنطاكية والملكة اليانور التى اشتهرت بالسمعة السيئة ، والتى أعلنت أنها تسعى للطلاق من الملك لويس السابع[٢] .

أما كنراد فإنه هبط إلى عكا مع كبار أمرائه فى منتصف أبريل ١١٤٨ ، وتوجه إلى بيت المقدس حيث رحب به البطريرك ، ثم استقر فى بيت الداوية ، وكان يهدف إلى أن يوفى بما التزمه من النـذور ، بالاشتراك فى الحرب الصليبية ، وأن يعد جيشا ينهض به لاسترداد الرها[٣] . غير أنه لم يلبث أن اقتنع بفكرة الاشتراك فى حملة لمهاجمة دمشق ، لتعويض ما أصاب الحملة السابقة من الفشل[٤] .

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 159.
Grousset : op. cit. II. p. 247.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. pp. 180-181
Cahen : op. cit. p. 381. Grousset : op. cit. II. p. 246.
Runciman : op. cit. p. 279. Berry : op. cit. p. 504-505

(٣) Berry : op. cit. p. 505.

(٤) Berry : op. cit. p. 505.

الواقع أن اتخاذ دمشق هدفاً للجيوش الصليبية ، إنما جاء فجأة . فالمعروف أن الرها وشمال الشام استرعيا اهتمام الغرب منذ أن جرى الاستنجاد بالمسيحيين فى الغرب سنة ١١٤٥ . وورد ذكر بيت المقدس على أنها فى حاجة إلى الحماية من الغارات التى يشنها عليها المسلمون ، وعلى أنها الهدف الذى يتحقق عنده أغراض الصليبيين الدينية (١) . وعلى الرغم من أن كنراد أدرك فى بلاط ملك بيت المقدس من الأطماع الإقطاعية والمحلية ، ما أدركه لويسُ فى أنطاكية ، فإن ما كان للمدينة المقدسة من ذيوع الصيت والشهرة ، وما كان لبلدوين عند المسيحيين الغربيين من مكانة باعتباره ملك الدولة اللاتينية ، وما كان للداوية من شهرة فى الحنكة الحربية ؛ جعل لمسألة توجيه حملة لمهاجمة دمشق أهمية خاصة . فما من أحد يستطيع أن يعترض الملك وباروناته بأن ما تتعرض له الإمارات الشمالية من الخطر والتهديد يحتاج من الاهتمام ما يزيد على السعى لتحقيق أطماع مملكة بيت المقدس التوسعية ، برغم ما تتمتع به من هدوء وسلام . والمعروف أن كلا من دمشق وحلب ، من المدن التى تطلع الصليبيون للاستيلاء عليها منذ زمن طويل.والراجح أيضا أن كنراد علم أن ما تعرضت له الرها من الخراب الشامل ، جعل استعادتها ضئيلة القيمة . وبذا طرح الصليبيون جانبا أمر مساعدة المدينة (الرها) التى أثارت الغرب لحشد حملة صليبية ضخمة(٢) .

حاز الملك لويس عند وصوله إلى بيت المقدس من التكريم والحفاوة والتشريف ما حظى به كنراد . ولم تشهد بيت المقدس ما شهدته من اجتماع عدد كبير من الفرسان والعقائل ، غير أنه تغيب عن هذا الحفل أمراء بارزون ، فلم يشهده ريموند أمير أنطاكية الذى ساءه موقف لويس ، ولأنه لا يستطيع أن يغادر إمارته ، التى تعرضت للضغط من

---

(١) Berry : op. cit. p. 505

(٢) Berry : The Second Crusade p. 505.

كل النواحى ، ليسهم فى مغامرة بالجنوب ، ولم يحضر أيضاً جوسلين كونت الرها . أما كونت طرابلس ، فيرجع تغيبه إلى وقوع كارثة ألمت بالأسرة ، ذلك أن ألفونسو جوردان كونت تولوز اشترك فى الحملة الصليبية الثانية ، ووصل إلى عكا على رأس قوة عسكرية ، وفى الطريق إلى بيت المقدس مات فجأة ، واتهم ريموند الثانى كونت طرابلس بأنه المسئول عن وفاته ، بأن دس له السم فمات ، فامتنع ريموند عن الاشتراك فى الحرب الصليبية[١] .

ولما وصل إلى فلسطين كل الصليبيين ، تقرر دعوتهم إلى حضور المجلس الكبير الذى ينعقد فى عكا فى ٢٤ يونيه ١١٤٨ « للتشاور فى النتائج التى تسفر عن هذا الحجيج الضخم ، بإنجاز هذه الأعمال الضخمة ، ومد أطراف المملكة » فتقرر آخر الأمر توجيـــه الهجوم إلى دمشق[٢] . دارت فى هذا المجلس مناقشة خطط عديدة ، إذ أن من الأمراء الصليبيين ، مثل كونت الفلاندر ، من أرادوا مغادرة الأراضى المقدسة والعودة إلى بلادهم دون أن يشتركوا فى الحملة ، ونزع كنراد إلى هذا الرأى . أما لويس وأنصاره من دعاة الحرب فأرادوا البقاء ، والقيام بأعمال حربية تشرف بلادهم وأجدادهم . ومن المحقق أن من الصليبيين من أرادوا توجيه الحملة إلى الشمال على نحو ما اقترح ريموند أمير أنطاكية ، أو لاستخلاص الرها . غير أن الحزب الذى فاز ، هو حزب البارونات الذين يميلون للتوسع ، بينما اعترض على هذا القرار حزب محلى ، وأنكر مهاجمة دمشق ، لما بين الجانبين من الروابط الودية ، واعتبروا هذه المغامرة حماقة[٣] .

وبناء على هذا القرار احتشد جيش ضخم يبلغ عدده على الأقل ٥٠

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 280.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 281.

(٣) Berry : The Second Crusade p. 507

ألف مقاتل ، وتولى قيادته الملوك ، بلدوين ولويس وكنراد ، واجتمع هذا الجيش فى طبرية فى منتصف يوليه ١١٤٨[١] . تحرك هذا الجيش من الجليل إلى بانياس ثم عسكر على حافة الحدائق التى تحيط بدمشق . لم يحفل أنر أول الأمر بما جاءه من أنباء الحملة الصليبية ، بعد أن سمع بما حاق بها من خسائر فى آسيا الصغرى ، ولم يتوقع أن تتخذ الحملة دمشق هدفا لها . فلما ظهرت له الحقيقة ، أرسل إلى حكام الأقاليم ، يطلب إليهم أن يمدوه بما عندهم من الرجال ، وأنفذ رسولا إلى نور الدين بحلب ، يطلب منه المساعدة[٢] .

وفى ٢٤ يوليه سنة ١١٤٨ شرع اللاتين فى حصار دمشق ، ولم يشترك فى هذا الحصار أنطاكية وطرابلس . واستمر الحصار خمسة أيام ، واتخذوا خطة الدفاع فى اليوم الأول والثانى ، فقطعوا الأشجار وتحصنوا بها[٣] ، وانتشروا فى البساتين وخيموا فيها ، وقربوا من البلد ، على أن أنر أبلى فى حربهم بلاء حسنا ، « وظهر من شجاعته ما لم يشاهد فى غيره ، بحيث لاينى فى جهادهم ، ولا ينثنى عن دمارهم »[٤] . وبفضل ما اشتهر به كنراد من البسالة ، شق الفرنج طريقهم إلى الربوة ، على نهر بردى ، تحت أسوار المدينة ، وظن أهل المدينة أنهم خسروا كل

---

(١) Ibid : op. cit. p. 507.

الواقع أن ما اشتهر به جنوب الشام (فلسطين) من الأمن والرخاء ، وهو ما لمسه كنراد ذاته ، يجعل اللاتين فى غنى عن كل مساعدة من قبل الصليبيين ، ولا سيما أنه إذا تعرضت دمشق للهجوم ، فلا بد أن يلتمس وزيرها أنر المساعدة من قبل نور الدين فيتجدد التحالف بين دمشق وحلب مثلما حدث زمن طغتكين . وإذا وقعت دمشق فى أيدى الصليبيين ، فسوف يؤدى ذلك إلى الاشتباك مع نور الدين ، انظر :

Stevenson : op. cit. p. 160.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 282.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ص ٥٢ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٥٢ .

شيء ، وشرعوا فى إقامة المتاريس بالشوارع ، استعدادا للقيام بالنضال الأخير ، غير أن هذا الزحف لم يلبث أن ارتد فى اليوم التالى ، فما طلبه أنر من الأمداد أخذت تتدفق على المدينة من أبوابها الشمالية من البقاع ، وبمساعدة هذه القوات شن أنر هجوما مضادا ، رد به المسيحيين عن الأسوار ، واشتد هجومه فى اليومين التاليين ، بينما نفذ إلى الحدائق والبساتين المحيطة بدمشق ، التى رابط بها الفرنج ، « نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع ، وجعلوا يقصدونهم فى المسالك ، وقد أمنوا ، فيقتلون من ظفروا به ، ويحضرون رءوسهم لطلب الجوائز عليها »[1] . وبلغ من شدة خطورة أعمالهم أن كنراد ولويس وبلدوين ، اجتمعوا سويا ، وقرروا الجلاء عن البساتين الواقعة جنوب المدينة ، وإقامة معسكر جهة الشرق ، حتى يتيسر لهم كشف حركات العدو[2] . والواقع أن هذا القرار كان بالغ الخطورة ، لأن الموقع الجديد لم تتوافر به المياه ، فضلا عن مواجهته أشد أجزاء سور دمشق مناعة ، وفى وسع أهل دمشق أن يتحركوا ويجوسوا الحدائق . واعتقد عدد كبير من جند الفرنج أن بارونات مملكة بيت المقدس لابد أنهم تلقوا رشوة من أنر ، كيما ينصحوا الملوك بالتحول إلى هذا الموضع ، فضاعت بذلك آخر فرصة سنحت لهم ، للاستيلاء على دمشق[3]. وفى تلك الأثناء ، علم الصليبيون بمبادرة العساكر الإسلامية « إلى جهادهم واستئصال شأفتهم »[4] . والمعروف أن معين الدين أنر قد أرسل إلى سيف الدين

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٥٢ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩ .

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 282.

(٣) Runciman : op. cit II. p. 283.
Grousset : op cit. II. p. 262-263.
Berry : The Second Crusade p. 509.

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٥٢
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

غازى ، صاحب الموصل يستغيث به ، فجمع عساكره وتوجه إلى حمص ، ومنها أرسل إلى أنر ، يخطره باستعداده لقتال الصليبيين ، على أن يتولى دمشق أثناء القتال ، رجل يثق به ، ووعد بأن يرد إليه المدينة ، بعد إحراز النصر[١] . غير أن أنر استبدت به الحيرة ، فما كان من علاقات ودية بينه وبين الصليبيين فى بيت المقدس ، أثارت عداوة المسلمين ، وأحس أن سيف الدين لن يعيد إليه دمشق ، ولن تبقى الأسرة البورية ، وبذا تفقد دمشق استقلالها[٢] .

الواضح أن أنر لم يغره نصيحة سيف الدين ونور الدين ، غير أنه أفاد من تهديد الزنكيين فى إثارة الخوف عند الصليبيين : فأرسل سيف الدين ونور الدين ، من حمص ، حيث أقاما معسكرهما ، إلى الفرنج الغرباء ، يتهددانهم ، أنهما على قصدهم إن لم يرتحلوا . وبعث أنر من جانبه إلى أمراء الصليبيين أيضا ، ينذرهم بأن ملك المشرق (سيف الدين) قد حضر بعساكره ، « فإن أنتم رحلتم عنا ، وإلا سلمت البلد إليه ، وحينئذ لا تطمعون فى السلامة منه » . وأرسل إلى فرنج الشام « يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ، ويقول لهم : أنتم بين أمرين مذمومين ، إن ملك هؤلاء دمشق ، لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد ، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين ، فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدس »[٣] . وزاد من أثر هذه الرسالة ، ما بعث به سيف الدين

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٥٣ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٨٩

(٢) Berry : The Second Crusade p. 509.

Grousset : op. cit. p. II. 265.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٨٩ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١١٣

إلى الصليبيين ، بأنه ما لم يرحلوا عن دمشق ، « لن يبقى لهم معه مقام بالساحل »[١] .

وساء مركز الجيش الصليبي ، بعد انتقاله إلى شرق دمشق ، إذ أحسّ الصليبيون بما يتعرضون له من تهديد هجمات نور الدين ، وشعروا بنفاد الأقوات ، فلم يسعهم إلا أن يقرروا الارتداد عن المدينة ؛ وحرص لويس السابع وكنراد الثالث ، على أن يكشفا عن سخط الصليبيين على بارونات الفرنج بالشام[٢] ، فيشير وليم الصورى ، إلى ما حدث من اجتماع الأميرين (لويس السابع وكنراد الثالث) ، وتشاورهما فى الأمر ، فأدركا ما وقع من خيانة أولئك الذين بذلا فى الولاء لهم ، حياتهما ومصالحهما ، وأنكرا ما تعرضا له من الغدر والخيانة ؛ وإذ اعتقدا بأن الحملة لن تصادف نجاحا ، قررا التخلى عن هذه المغامرة ، والعودة إلى الوطن[٣] ؛ ومن الأسباب التى التمسها القادة لاتخاذ هذا القرار ، ما حدث من التشاحن حول مستقبل دمشق ، بعد استيلاء الفرنج عليها ، إذا أن بارونات مملكة بيت المقدس حرصوا على أن تدخل دمشق فى نطاق المملكة ، واتفقوا فيما بينهم ، على أن يليها جاى بريسبار Guy Brissebarre ، صاحب بيروت ، وأقر ترشيحه الملكة مليسند ، ومناسيس

= أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٥٣

Berry : The Second Crusade p. 509.

Grousset : op. cit. I. p. 266.

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٨٩ .

Berry : op. cit. p. 509.

(٢) Grousset : op. cit. II. pp. 266-267.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 192.

Grousset : op. cit. II. p. 267.

كندسطبل المملكة ، فضلا عن كنراد ولويس وبلدوين الثالث[1] ؛ ولما تبين لهم أن كونت فلاندر[2] ، نجح فى أن يحظى بموافقة كل من الملكين على حدة ، على أن ينال دمشق بعد سقوطها ، فترت همتهم ، وتضاءل نشاطهم ، وازداد عـــدد أنصار المعترضين من البارونات المحليين ، على مهاجمة دمشق[3] . وأنكر البارونات المحليون موقف كونت فلاندر ، الذى يسعى إلى أن ينال شطرا كبيرا من المملكة ، على حين أنهم رأوا أنه مهما ترتب على جهود الأمراء الصليبيين من اتساع فى مملكة بيت المقدس ، فإنه ينبغى أن يفيدوا من هذه الزيادة ، فى توسيع ممتلكاتهم[4] . وإذ اشتد امتعاضهم لتصرف كونت فلاندر ، آثروا أن تبقى دمشق فى أيدى أصحابها[5] ؛ ودار الهمس وترددت الشائعات ، بأن أموالا ضخمة بذلها أنر ، إلى بلاط بيت المقدس ، وإلى إليناند Elinand أمير الجليل ، ولعل أنر أشار إلى أنه متى جرى الارتداد عن دمشق ، فسوف ينقض التحالف مع نور الدين ، ولا شك أن هذا الزعم عزز موقف نبلاء المملكة سواء أفاد منه أنر أو لم يفد[6] . إذ أن نورالدين كان وقتذاك بحمص يفاوض فى شروط المساعدة

---

(١) Runciman : op. cit. II, p. 283.

(٢) المعروف أن تيرى Thierry أو تيودور ، كونت فلاندر ، قام بزيارة الأراضى المقدسة سنوات ١١٣٧ ، ١١٤٨ ، ١١٥٧ ، وصحبه فى كل مرة عدد كبير من العساكر ، اشتركوا فى القتال لحساب الإمارات الصليبية . ولعل اشتراكه بهؤلاء العساكر فى القتال ، أدى إلى أن يطالب بنصيب من الأراضى التى تقع فى أيديهم . والواقع أن هذا يصور ما ساور أمراء اللاتين فى الشرق ، من الشكوك حول نبلاء الغرب . انظر :

William of Tyre : op. cit. II. p. 193 note II

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 283.

(٤) William of Tyre : op. cit. II. p. 194.

(٥) Ibid : op. cit. II. p. 194.

(٦) Runciman : op. cit. II. p. 283. Stevenson : op. cit. p. 162.

William of Tyre : op. cit. II, p. 194 note 12.

التى يبذلها لأنر ، وحرص نور الدين على أن تحتل عساكره دمشق[١] ، على حين أن الصليبيين لم يتوقعوا قدوم أمداد ؛ ولم يشأ اللاتين المحليون أن تقع دمشق فى أيدى نور الدين[٢] .

ومن الأسباب التى دعت الفرنج أيضا إلى رفع الحصار عن دمشق ، ما تردد من الرواية من أن أمير أنطاكية بذل كل ما فى وسعه من جهد ، كيما يحل بحملة لويس السابع الهزيمة ، نظرا لأن لويس فارقه فى أنطاكية ساخطا ، ولم يبذل له شيئا من المساعدة ولذا حرض بعض النبلاء فى الجيش ، على أن يجروا من الأمور ما يلزم الملك على التخلى عن الحملة ، ويعود ذميما مدحورا[٣] . أشار بعض الكتاب الغربيين أيضا إلى مسئولية الاسبتارية والداوية وبلدوين الثالث عن فشل الحملة الصليبية الثانية ، ومع ذلك ينبغى أن يضاف إلى هــذه الأسباب ، وفرة عدد القادة فى الحملة الصليبية مع قلة عدد عساكرها[٤] ، وتقاطر الأمداد على معين الدين أنر ، للنهوض إلى « جهادهم ، والمسارعة إلى استئصالهم فأيقنوا بالهلاك والبوار »[٥] .

وفى ٢٨ يوليه ١١٤٨ ، أى فى اليوم الخامس من قدومهم إلى دمشق ارتحل الصليبيون نحو طبرية (الجليل) ، وتفرقت الجيوش المحلية إلى بلادها . وكل ما حققته الحملة من أهداف ، أنها فقدت عددا كبيرا من

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٨٩ .

حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٥٩ .

Runciman : op. cit. II. p. 283.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 268.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 194.

(٤) William of Tyre : op. cit. II. p. 194 note 13.

Berry : op cit. p. 511.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩ .

رجالها ، وقدرا كبيرا من عتادها ، وتعرضت لمهانة شديدة . فما حدث من أن جيشا ضخما لم يستطع أن يحقق هدفه ، ولم يمض فى الحرب سوى أربعة أيام ، يعتبر ضربة قاصمة للكرامة المسيحية ، وتبددت الأسطورة التى نشأت زمن الحرب الصليبية الأولى ، والتى تجعل من فرسان الغرب قوة لا تقهر ؛ وأخذت روح العالم الإسلامى تنتعش وتفيق[١] .

ارتحل كنراد من عكا فى سبتمبر ١١٤٨ ، متوجها إلى أوربا ، غير أنه حينما هبط إلى سالونيك ، تلقى دعوة عاجلة من مانويل كومنين ، كيما يقضى عيد الميلاد بالقسطنطينية ، فتم الوفاق بين الإمبراطورين ؛ وأدرك كنراد أهمية التحالف مع مانويل ، بسبب كراهيتهما المشتركة وعداوتهما لروجر ملك صقلية ؛ وحرصهما على قتاله واقتسام أراضيه[٢] .

أما لويس السابع ، فإنه أقام بفلسطين ما يزيد على ستة شهور ، حتى يشهد عيد القيامة بالأراضى المقدسة ، ولم يرتحل إلى فرنسا إلا بعد أن ألح سوجر فى رسائله إليه بضرورة العودة ، لاعتقاده أن عودته سوف تقترن بطلاق زوجته اليانور ، فأراد أن يؤجل ذلك اليوم المنحوس[٣]. وإذ اشتدت كراهيته للبيزنطيين ، سعى أثناء نزوله فى كالابريا فى يوليه ١١٤٩ ، إلى لقاء روجر الثانى ، وعقد محالفة لمهاجمة بيزنطة[٤] . وما وقع بينه وبين ريموند أمير أنطاكية من نزاع ، أزال العقبة الأساسية التى تحول

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 284. Cahen : op cit. p. 382.
Grousset : op. cit. II. pp. 270-271.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 285.
Grousset : op. cit. II. p. 269.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 285.
Grousset : op. cit. II. p. 269.

(٤) Grousset : op. cit. II. p. 269. Runciman : op. cit. p. 286.

دون هذا التحالف ، وتزيد من كراهيته لبيزنطة[١] ؛ لما سببته للحملة الصليبية الثانية من الكوارث والخسائر ؛ وظفر لويس بتأييد القديس برنارد ، الذى أقر بخيانة بيزنطة ، غير أن كنراد لم يشاركهم فى هذا الرأى بعد أن تم الوفاق بينه وبين بيزنطة ولم يدرك المسيحيون هذه الخيانة إلا بعد نصف قرن[٢] .

لم يبق بالشرق من أمراء الحملة الصليبية الثانية إلا برتراند أمير تولوز ، ابن الكونت الفونسو جوردان ، والذى اعتقد أن ريموند الثانى كونت طرابلس دبر مصرع أبيه ، فانطلق إلى حصن العريمة ، وانتزعه من كونت طرابلس ، ويقع الحصن فى موضع منيع ، لأنه يسيطر على الطريق الممتد من طرابلس إلى انطرطوس ، والطريق الممتد من طرابلس إلى البقيعة فى الداخل[٣] . ولما لم يجد ريموند من رفاقه ، ميلا لمساعدته ، أرسل إلى أنر ، بدمشق يطلب منه المساعدة ، فبادر بالاستجابة إليه ، والتمس من نور الدين أن ينضم إليه ، وبذلك استطاع أنر أن يكشف عن رغبته فى التعاون مع نور الدين لقتال الصليبيين ، دون أن يضر ذلك محاولته لاستعادة العلاقات الطيبة مع بيت المقدس[٤] . والواقع أن أنر أراد أن يرضى الملكة مليسند ، ببذل المساعدة لصهرها ريموند . هبط الأميران ، نور الدين ومعين الدين أنر فى سبتمبر ١١٤٨ ، على حصن العريمة ، الذى لم يتوافر به من الرجال والقوة ، ما [يكفى للصمود طويلا

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 286.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 286-287.
Grousset : op. cit. II. pp. 269-270.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 287.
Grousset : op. cit. II p. 270.
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٩٠ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٠

(٤) Runciman : op. cit. p. II. p. 287.

أمام قوة جيش ضخم ، وتقدم النقابون فنقبوا السور ، فلم يسع الفرنج إلا الإذعان والتسليم ، فاستولى نور الدين وأنر على الحصن ، ومن بين الأسرى الذين وقعوا فى يد نور الدين ، برتراند وأخوه ، فنقلهما إلى حلب ، حيث أمضيا فى الأسر ١٢ سنة(١) .

والواقع أنه لم تستهل حملة من حملات العصور الوسطى ، بمثل ما استهلت به هذه الحملة من الآمال ، إذ أن البابا وضع خطتها ، ودعا إليها ، وتأثرت بنفوذ القديس برنارد ، وتهيأت لها كل أسباب النجاح ، غير أنه لم تبلغ حملة ما بلغته هذه الحملة من خاتمة مشينة ، بارتدادها عن دمشق ؛ وكل ما حققته من النتائج أن بلغت العلاقات بين المسيحيين الغربيين والبيزنطيين من السوء ، ما جعلها وشيكة الانقطاع ، وأن بذرت بذور الشك بين الصليبيين القادمين حديثا إلى الشرق وبين اللاتين المقيمين به ، وأن أثارت الشقاق والفرقة بين الأمراء الصليبيين فى الغرب ، وأن صار القادة يتبادلون الاتهامات ، وكل منهم يحاول أن يلقى على الآخر مسئولية فشل الحملة ، والواقع أن قادة هذه الحملة هم المسئولون عن فشلها بسبب ما اشتهروا به من الشراسة والحماقة ، والجهل بأحوال البلاد التى أغاروا عليها وتنازع المصالح والأغراض ، وما جرى من الانقسام فى القيادة ، واختلاط الفئات المحاربة ، بغير المحاربة(٢) .

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٩٠ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٩٢ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٠ — ٣٠١
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٥٩
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٨٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٥٥

Runciman : op. cit. II. p. 287-288.
Grousset : op. cit. II p. 270.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 288.
= Berry : The Second Crusade p. 512.

لم يعد الصليبيون ، بعد فشل الحملة الثانية ، مصدر خوف للمسلمين في الشرق ، فمنذئذ ساءت أحوال اللاتين في الشرق وأدرك المسلمون « أن ما قام به ملوك الفرنج وقادتهم من جهود وأعمال ضاعت سدى ، فسخروا من قوتهم المتداعية ، واستخفوا بما كان من مجد مشؤوم ، لأولئك الذين يمثلون دعائم المسيحية المتينة . واحتقروا أولئك الذين كانوا فيما مضى مصدر فزع لهم . وبلغ من جراءتهم وجسارتهم أنهم لم يخشوا القوات المسيحية ، ولم يترددوا في مهاجمتهم في قوة وعنف »[1] .

وتجاهل ريموند أمير أنطاكية ، ما كان عليه المسلمون من القوة ، فحشد عساكر أنطاكية وقرر مهاجمة حلب ، غير أنه لم يكد يتحرك بقواته ، حتى التقى به نور الدين على رأس جيشه ، فدارت معركة حاسمة عند يغرى ، على بحيرة العمق ٥٤٣ هـ — ١١٤٩ ، فأنزل بهم هزيمة ساحقة ، ووقع أسيرا في يده جماعة من مقدميهم ، وأرسل من الغنيمة والأسارى إلى أخيه الغازى بالموصل وإلى الخليفة ببغداد ، وإلى السلطان مسعود السلجوقى[2] .

= حدث قبل مغادرة الصليبيين الشام راجعين ، أن جرى الاقتراح بمهاجمة عسقلان ، حتى يعلق بالأذهان فيما بعد ، أن هذه الحملة حققت أمراً واحداً هاما . واجتمع فعلا لويس وكنراد ، بالموضع الذى تقرر بدء الزحف منه ، غير أنه لم يشهد اجتماع اللاتين بالشام ، فلم يسع كنراد إلا الرحيل ، بينما بقى لويس فى الأراضى المقدسة حتى يحين الوقت . انظر

Stevenson : op. cit. p. 163.

(١) William of Tyre : op. cit. II, pp. 196-197.

Grousset : op. cit. II. p. 271-272.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٨٩ .

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٢٩٢ .

Grousset : op. cit. II. p. 272.

Gibb : The Career of Nur-ad-Din" p. 515.

Runciman : op. cit. II. p. 326.

بحت أنطاكية هدفا للهجوم الإسلامى ، بعد وقوع الرها فى أيدى
، وانصراف الفرنج فى الحملة الثانية عن استردادها . لم ينهض
الثانى لمساعدة أنطاكية ، بل إنه حرص على أن يلتمس الأمان
الدين ، ولم يتجاوز الهدنة التى انعقدت بينهما فترة قصيرة[١] ؛
وامل التى دفعت نور الدين إلى مهاجمة أنطاكية ، منع ريموند من
لمساعدة مرعش التى هاجمها مسعود سلطان قونية[٢] . فتوجه نور الدين
حصن حارم ، الواقع شرقى نهر الأورنت ، وبعث إليه أنر مددا ،
يش نور الدين بعد المدد ٦ آلاف فارس فضلا عن الرجالة[٣] ،
نور الدين اكتفى بتخريب الربض ونهب البلاد ، ثم قصد بمن معه
ات إلى إنب ، فى شرقى الأورنت ، فحاصرها ، فبادر ريموند
اكية وجماعة من حلفائه من الفرنج والحشيشية بقيادة على بن وفاء ،
لنع نور الدين من الاستيلاء على إنب ، فاشتد القتال بين الفريقين ،
لفرنج ، وممن قتل منهم فى يونية ١١٤٩ ، ريموند أمير أنطاكية ،
ن عظماء الفرنج وأقويائهم[٤] ، وهو من المشهورين بالفروسية ،
لبأس ، وقوة الحيـــل ، مع « اشتهار الهيبة وكثرة السطوة
فى الشر » ورينالد أمير مرعش[٥] . وظهر من نور الدين

(Runciman : op. cit. II. p. 325.
Grousset : op. cit. II. p. 273.
(Runciman : op. cit II. p. 236.
) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٥٧ .
) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٩٥ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .
Grousset : op. cit. II. pp. 274-278.
Runciman : op. cit. II. p. 326.
Stevenson : op. cit p. 165.
) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٥٨ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٩٩

من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب الناس منه[1].

وتوغل نور الدين فى أملاك أنطاكية ، فأتم سيطرته على الجزء المتوسط من وادى الأورنت ، ثم تغلب على حاميتى ارتاح وحارم فى أقصى الشمال ، ثم توجه إلى الغرب ، حيث ظهر أمام أسوار أنطاكية ذاتها ، وامتدت غاراته حتى ميناء سان سيمون ولم ينهض جوسلين لمساعدة رفاقه الفرنج ، واستولى نور الدين على فامية ١١٤٩م[2] . وتقرر عقد معاهدة مع المدافعين عن أنطاكيـــة بزعامة البطريرك ايمرى ، غير أن القوات الإسلامية التزمت جانب الحذر ، فعاد نور الدين وأكمل الاستيلاء على حارم ، وشحنها بالرجال والسلاح والمؤن[3] .

والواقع أن هذه الانتصارات الباهرة ، التى أحرزها نور الدين على الفرنج فى مستهل حياته ، تعتبر نقطة تحول فى إدراكه لمكانته ورسالته . أضحى نور الدين فى نظر المسلمين المدافع عن الإيمان ، فأعد نفسه للقيام بهذا الواجب ، الذى تطلب منه ، مهاجمة الملاحدة الذين يقيمون بالقرب منه . فالمعروف أنه حينما استولى نور الدين على حلب ، « أظهر بها السنة ، وغيَّر البدعة التى كانت لهم فى الأذان ، وقمع بها الرافضة »[4] .

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٩٩ .

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 327.

William of Tyre : op. cit. II. p. 199.

(٣) Grousset : op cit.I. p. 280.

Baldwin : The Latin States under Baldwin III and Amairc I, in Setton's History of the Crusades I. p. 533.

William of Tyre : op. cit.II. p. 199.

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٣٠٥ – ٣٠٦

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٥

Gibb : The Career of Nur-ad. Din p. 515.

وحدث فى الشهور الأخيرة من سنة ١١٤٨ ، أن شرع نور الدين ، فيما يبدو ، فى اتخاذ إجراءات ضدهم ، وتحطيم قيادتهم ، فأخذ زعيم الباطنية فى مصياف ، يتحالف مع الفرنج ، فانحاز إليهم على بن وفاء ، فى قتال نور الدين فى وقعة إنب[١] .

غير أن الإجراءات السلبية لم تكن كافية ، فلا بد لحركة الجهاد الدينى أن توضع منذئذ تحت لواء المذهب السنى[٢] . وشجع نور الدين كل العوامل التى تستطيع أن تسهم فى إحياء المذهب السنى ، بأن شرع فى تجديد المدارس والرباطات المعروفة بحلب ، وجلب إليها أهل العلم والفقهاء ، وتقرر تغيير الأذان المعروف عند الفاطميين[٣] . وحرص نور الدين على تعبئة الشعور ، وبث الحماس الدينى ، بفضل من كان بخدمته من الدعاة والشعراء والمنشدين . يضاف إلى ذلك أن حركة الجهاد ، لم تتعارض مع أطماعه السياسية ، فالحملات التى بدأت تهاجم دمشق ، كان يسبقها عادة ويصاحبها ، ما يردده الشعراء من سوء الأحوال ، وما حاق من الأذى والضرر بالإسلام ، بسبب تحالف زعماء المسلمين مع الفرنج . ثم ربطته حركة الجهاد بعدئذ بمناوأة الفاطميين فى مصر ، ومهما يكن فى سياسة نور الدين من أطماعه الشخصية ، فلا شك أن فى السنوات التالية التى تربو على خمس وعشرين سنة ، كان لزاما عليه أن يمضى إلى إقامة الوحدة العامة وإثارة الحماس بين المسلمين فى الشام ، وجنى صلاح الدين ثمار هذا الغرس فيما بعد[٤] .

---

(١) Gibb : Career of Nur-ad Din p 515.

(٢) Gibb : The Career of Nur-ad-Din p. 516.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٢٨٢ .

(٤) Gibb : The Career of Nur-ad-Din p. 516.

وما أحرزه نور الدين من انتصارات ، فضلا عن مصرع ريموند أمير أنطاكية ، خلق موقفا ، تطلب التدخل من ملك بيت المقدس . ذلك أن حكومة أنطاكية انتقلت بعد مصرع ريموند ، إلى أرملته كونستانس وأطفالها الأربعة ؛ وعلى الرغم من أن البطريرك ايمرى حشد القوات للدفاع عن أنطاكية ، وأرسل يستنجد بالمسيحيين فى أوربا ، فإن الحاجة كانت ماسة إلى أمداد غير أنه لما نهض الملك بلدوين الثالث لمساندة أنطاكية ، كانت كل ممتلكات الإمارة ، فى شرق الأورنت ، قد سقطت فى أيدى المسلمين(١) . ومن أهم هذه المواضع حارم وأفامية ، والمعروف أن نور الدين توجه غداة انتصاره فى إنب لحصار فامية ، التى تعتبر آخر الحصون وأهمها ، فى شرق الأورنت ، ومنها سيطر الفرنج فى أنطاكية على الضفة الشرقية لنهر الأورنت ، واشتدت مراقبتهم لما يجرى فى شيزر وحماه لمجاورتهما لهذا الحصن ، واستولى نور الدين على هذا الموضع فى يوليه ١١٤٩(٢) .

وتقررت الهدنة بين نور الدين والفرنج فى أنطاكية فى أغسطس ١١٤٩ بأن يكون « ما قرب من الأعمال الحلبية له ، وما قرب من أنطاكية لهم » ، وذلك بعد أن ملك ما حول أنطاكية من الحصون والقلاع والمعاقل ، وحصل على غنائم وافرة(٣) . والخلاصة أن أنطاكية تجردت

---

(١) Baldwin : "The Latin States under Baldwin III. and Amalric I." p. 533.
Stevenson : op. cit. p. 165. Cahen : op. cit. p. 384.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٠١ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٩٨ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٥ .
Grousset : op. cit. II. p. 281-282.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٦ .
Grousset : op. cit II. p. 282.

من قوتها الحربية ، ومن أملاكها بشرق الأورنت ، وامتدت أملاك المسلمين إلى جوف الإمارة . ولم تكن هجمات المسلمين مجرد غارات للنهب ، بل كان الغرض منها استعادة هذه الجهات واستردادها نهائياً من أيدى الفرنج[1].

لم يكن نور الدين وحده هو الذى أفاد من كوارث الفرنج ، ولم تكن أنطاكية وحدها هى التى عانت الأخطار ، فالواقع أن جوسلين الثانى لم يحفل بما أصاب عدوه القديم ، ريموند من كارثة ، بل حرص على أن يفيد من الأوضاع الجديدة . ذلك أن جوسلين الثانى ، بعد أن سقطت الرها فى أيدى المسلمين ، اكتفى بالمواضع الواقعة غرب الفرات ، فاتخذ تل باشر حاضرة لها ، وخضع له من البلاد ، سميساط ، وقلعة الروم ، ودلوك ، وراوندان ، وخورس ، فأصبح بذلك يجاور إمارة أنطاكية ، فى الشمال عند مرعش ، وفى الجنوب عند عزاز[2]. وتعرض هذان الموضعان مرعش وعزاز للتهديد ، بعد مصرع رينالد صاحب مرعش وصهر جوسلين ، فبادر إلى الاستيلاء عليها وضمها إلى أملاكه ، وأقام بها حامية عسكرية[3] . غير أن ما حدث من انصراف أمراء الفرنج إلى المنازعات الداخلية ، أفاد منها الأمراء المسلمون ، فى اقتسام أملاكهم : فالسلطان مسعود ، بقونية ، الذى زوج ابنته من نور الدين ، أراد أن يفيد من انتصارات صهره فى الاستيلاء على بقايا إمارة الرها : ففى سبتمبر ١١٤٩ ، هاجم مرعش ، فلم تلبث أن أذعنت لابنه قلج أرسلان ، بعد حصار قصير الأمد[4] . ثم توجه السلطان مسعود لحصار تل باشر .

---

(١) Grousset : op cit. II. p. 282. Cahen : op. cit. p. 284.

(٢) Grousset : op. cit. II p. 284.

(٣) Grousset : op. cit. II p. 287-288. Cahen : op. cit. p. 384.

(٤) Grousset : op. cit. II. p. 288.

فنهض بلدوين الثالث لمساعدة جوسلين وأفراد أسرته ، الذين لزموا القلعة ، إذ أنفذ إليه همفرى صاحب يبنة ، فى ستين فارساً ، ولم يرض نور الدين بانتقال أملاك جوسلين إلى السلاجقة ، كل ذلك حمل السلطان مسعود على قبول ما عرضه جوسلين من شروط ، فأطلق سراح الأسرى من رعايا السلطان ، وبذل له الهدايا من الزرديات والدروع ، وانعقد بذلك الصلح بين الفريقين ، وارتحل السلطان عن تل باشر ، بينما توجه جوسلين إلى عزاز ، ومنها إلى أنطاكية ، كما يشكر الملك بلدوين الثالث على مساعدته له[1] .

ولما رحل ملك بيت المقدس إلى بلاده ، تعرض من جديد لهجوم من قبل نور الدين ، وقره أرسلان الأرتقى أمير خربوت وحصن كيفا ، الذى أراد أن يمتد سلطانه على أرمن بلدة كركر ، الذين ينتمون إلى رينالد صاحب مرعش ، ولم تجد نفعا المساعدة التى بذلها جوسلين ، فاستولى قره أرسلان على كل منطقة كركر وخربوت[2] . وفى الشتاء سنة ١١٤٩ ، وقع الشقاق بين نور الدين وجوسلين ، وحاول نور الدين أن ينتزع منه بعض القلاع بشمال حلب ، ومنها تل باشر وعين تاب ، وعزاز ، غير أنه تعرض للهزيمة على يد نور الدين[3] . على أن جوسلين وقع فى قبضة بعض

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 200.

Grousset : op. cit. II. p. 290. Cahen : op. cit. p. 385.

(٢) Grousset : op. cit. I. pp. 291-292.

Runciman : op. cit. II. p. 327.

Cahen : op. cit. p. 385.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠١ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٠١ .

المغامرين من التركمان ، سنة ١١٥٠ ، فتسلمه منهم نور الدين ، وأمر بحبسه بحلب ، بعد سمل عينيه ، حيث قضى نحبه ١١٥٩[1] .

وترتب على أسر جوسلين الثانى ، أن بادر نور الدين بالهجوم على تل باشر ، غير أنها لم تسقط فى يده ، بسبب ما قامت به الكونتيسة بياتريس من التدابير للمحافظة عليها ، باسم ابنها جوسلين الثالث ، غير أنه لم يكن بوسعها أن تعوض زوجها « الذى كان يتقدم على الفرنج فى حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه ، وشدة عداوته للمسلمين وقسوة قلبه عليهم »[2] .

ولما علم مسعود ، سلطان قونيه ، بأسر جوسلين ، زحف على بلاده ، فاستولى فى مايو سنة ١١٥٠ على كيسوم ، وبهسنا ، ورعبان ، وسائر أملاك الرها الواقعة بالأطراف ، فارتحل إلى تل باشر عدد كبير من المهاجرين من تلك الجهات ، وفى تلك الأثناء استولى نور الدين على عزاز ، فأصبح يسيطر على أملاك أنطاكية الداخلية[3] .

وبلغ الموقف من الخطورة أن سقوط عزاز بيد نور الدين ، لم يحرم الفرنج بأنطاكية من موقع هام فحسب ، بل منع الاتصال بينهم وبين الكونتيسة بياتريس وابنها جوسلين الثالث بتل باشر . ولم يسع بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، لشدة تعلقه بحقوق السيادة ، إلا أن يتوجه

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٢ — ١٠٣ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٠١ .

Grousset : op. cit. II. pp, 293-295.

Runciman : op. cit. II. p. 327-328. Cahen : op. cit, p.386.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٢ .

(٣) Baldwin : The Latin States under Baldwin III. p. 533.

Grousset : op. cit. II. pp. 296 - 298.

لإنقاذ أنطاكية وتل باشر ؛ وصحبه جاى سيد بيروت ، وريموند الثانى كونت طرابلس ، وهمفرى سيد يبنة [١] . ولم تخف أحوال تل باشر على الإمبراطور البيزنطى ، فعرض على الكونتيسة أن يحوز ما تبقى من الحصون التابعة لإمارة الرها ، وأن يشحنها بالعساكر اليونانية ، وأن يقرر لها ولأولادها كل سنة من الأموال ما يكفل لهم الحياة الطيبة الرغدة . ولما اشتهر به الإمبراطور البيزنطى من الثراء ، أدرك أن بوسعه أن يحمى هذه الجهات من غارات المسلمين ، وأن يعيد إلى الإمبراطورية البيزنطية ما افتقدته من البلاد [٢] . وتقرر الأخذ بهذا الاقتراح بعد أن أدرك أن هذه الجهات لن تستمر طويلا بأيدى البيزنطيين ، وأن مسئولية الحكم فى بيت المقدس ، تمنعه من البقاء بعيداً عن بلاده فترة طويلة ، وأنه ليس لديه من القوات ما يهيئ له الحكم السليم فى إمارتين متباعدتين (الرها وبيت المقدس) فضلا عن الاضطراب والقلق السائد بأنطاكية سنوات عديدة ، كل ذلك جعله يقر انتقال ما تبقى من الحصون إلى بيزنطة وفقاً لما جرى عرضه من الشروط [٣] . فتنازلت الكونتيسة لإمبراطور بيزنطة عن ستة حصون : تل باشر ، والراوندان ، وسموساط ، وعين تاب ، ودلوك والبيرة . ولم يتقبل الحكم البيزنطى إلا فئة قليلة من السكان ، على حين أن عـــدداً كبيراً من الفرنج والأرمن والسريان رحلوا بأمتعتهم ، ولجأوا إلى أنطاكية . غير أن الكونتيسة استبقت حصناً واحداً

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 206.
Grousset : op. cit. II. p. 298.

(٢) William of Tyre : op cit. II. p. 208.
Grousset : op. cit. II. p. 299.
Stevenson : op cit p. 168.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 208-209.
Grousset : op. cit. II. pp. 300-301.
Runciman : op. cit. II. p. 328.

وهو قلعة الروم ، على نهر الفرات ، قرب سموساط ، فمنحته إلى الجاثليق الأرمنى ، الذى ظل يحكمه فى ظل السيادة التركية نحو ١٥٠ سنة[١] .
وحاول نور الدين أن يباغت جيش الملك بلدوين ، الذى كان يحرس المهاجرين إلى أنطاكية ، ودارت معركة بين الفريقين بين عينتاب ودلوك ، غير أن الملك وقواته ومن فى حراسته من الفرنج وغيرهم ، وصلوا سالمين إلى أنطاكية فى أغسطس سنة ١١٥٠[٢] .

لم يستطع البيزنطيون أن يحتفظوا بما حازوه من القلاع ؛ فلم تمض سنة على استيلائهم على هذه الحصون ، حتى عادت إلى السيادة الإسلامية ، وفاز مسعود سلطان قونية بالنصيب الأكبر منها ، بينما لم ينل نور الدين إلا حظاً ضئيلا ، ومعظم ما حصل عليه من أملاك الرها حدث سنة ١١٥٥ ، ناله على حساب ابن مسعود ، إذ أن نور الدين انصرف فى الفترة الواقعة بين سنتى ١١٥١ ، ١١٥٥ ، إلى التدخل فى أمور دمشق[٣] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 329, Grousset : op. cit. II. p. 301-328.

(٢) Stevenson : op cit. p. 168.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 210-212.
Grousset : op. cit. II. pp. 302-205.
Runciman : op. cit. I. p. 329.

(٣) Stevenson : op. cit. p. 168
استولى مسعود على قيسوم وبهسنا ، واشترك سنة ١١٥١ مع نور الدين فى مهاجمة الحاميات البيزنطية ، وأسهم فى هذا الهجوم الأمراء الأراتقة ، فكانت عين تاب ودلوك من نصيب مسعود ، واستولى تمرتاش أمير ماردين على سموساط والبيرة ، وحصل نور الدين على الراوندان . انظر : Runciman : op. cit. II. p. 330.

وما حدث من انصراف مانويل كومنين إلى قتال النرمان بصقلية ،
جعل من العسير الدفاع عن تل باشر وسائر المواضع ، فاستولى على تل باشر فى يوليه سنة ١١٥١ ، حسن عامل نور الدين على منبج ، وانتزع مسعود ، مرعش ورعبان وقيسوم وبهسنا ، بينما صار إلى يد أمير خرتبرت ، قره أرسلان الأرتقى ، كركر وحصن منصور ، وحاز تمرتاش الأرتقى صاحب ماردين ، البيرة وسموساط ، بينما فاز نور الدين بتل باشر ، وعزاز ، وكل ما يقع من البلاد بين هاتين المدينتين ، ولم يبق شىء من الرها فى أيدى المسيحيين[1] ؛ وبذلك اقتسم أملاك الرها ، سلاجقة قونية ، والأراتقة ونور الدين[2] .

نور الدين ودمشق :

وقع من الأحداث منذ سنة ١١٤٩ ، ما زاد فى نفوذ وسلطان نورالدين ، على حساب القوى الإسلامية واللاتينية على السواء . فما حل بأسرات الفرنج الحاكمة من منازعات أسرية ، كان لا شك فى صالح نور الدين . غير أنه لم يحفل بتوجيه هجمات عنيفة ضد الفرنج وقتذاك ، لأنه حرص على أن يحقق هدفا بالغ الأهمية ، وهو الاستيلاء على دمشق[3] .

لما فشلت الحملة الصليبية الثانية ، دأب معين الدين أنر ، أتابك

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 306-307 Cahen : op. cit. p. 389
William of Tyre : op. cit. II. p. 212 .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٥ .

(٢) Baldwin : The Latin States under Baldwin III. p. 534
Gibb : The Career of Nur-ad-Din p. 516-517
Grousset : op. cit. II. p. 507.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 335

دمشق ، على مهاجمة الفرنج ، لمدة بضعة شهور(١) . غير أن خوفه من نور الدين جعله يرحب بالدخول في مفاوضات مع مملكة بيت المقدس ؛ وتقرر فى مايو ١١٤٩ (المحرم ٥٤٤) « تجديد عقد المهادنة والمسامحة ، ببعض المقاطعة ، وترددت المراسلات ، فى تقرير هذا الأمر ، وأحكام شروطه ، وأخذ الأيمان على ذلك وتقررت حالة الموادعة مدة سنتين ؛ وزال الخلف واطمأنت النفوس من أهل العملين بذلك ، وسكنت إلى تمامه ، وسرّت بأحكامه »(٢) . ولم يلبث أنر أن مات فى أغسطس ١١٤٩ ، وولى أمر الحكومة مؤيد الدين الرئيس من قبل ، مجير الدين أبق ، من الأسرة البورية ، وهو الذى كان أنر يحكم باسمه(٣) . وعلى الرغم من أن الأحوال بدمشق هيأت الفرصة لتدخل نور الدين ، فإنه لم يبادر بالقيام بعمل من الأعمال ، إذ أن أخاه سيف الدين الغازى صاحب الموصل قضى نحبه فى ١١٤٩ . ولما سمع نور الدين بهذا النبأ توجه إلى الموصل فى جماعة قليلة العدد من أصحابه ، واستولى ، فى أثناء مسيره إلى الموصل ، على سنجار ، وانحاز إلى نور الدين فريق من جيش الموصل ، وخشى وزير الموصل عند نشوب القتال بين جيش الموصل وجيش حلب ، أن يخامر عليه باقى عساكر الموصل(٤) . وكان على كجلك والوزير جمال الدين ، قد نصبا الأخ الأصغر ، قطب الدين مودود ، أميراً على الموصل . وانحاز إلى نور الدين أيضاً قره أرسلان الأرتقى صاحب حصن كيفا . وتدارك الوزير وعلى كجلك خطورة الموقف ، بعد أن أوشك القتال أن يندلع ، ويتعرض الفريقان للضرر والخسارة ، لما يتهدد أتابك الموصل من خطر من

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٤ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٤ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٩٥ — ٩٦ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٩٢ — ٩٣ .

قبل الخليفة والسلطان السلجوقى ببغداد ، ولما يتعرض له نور الدين محمود من تهديد من جانب الفرنج بالشام ، فيجرى التوفيق بين نور الدين وقطب الدين ، فتخلى عن سنجار لأخيه قطب الدين ، مقابل حصوله على مدينة حمص والرحبة بأرض الشام ، فبقى الشام لنور الدين ، وديار الجزيرة لأخيه قطب الدين[١] .

ولما عاد نور الدين إلى الشام ، بعد أن أنفذ قائده شيركوه لمساندة مسعود سلطان قونية فى حصار تل باشر ، تفاوض مع جوسلين الثانى فى أمر رفع الحصار عن تل باشر مقابل دفع الجزية ، بينما توجه قره أرسلان الأرتقى لقتال الأرمن ، من أتباع جوسلين ، على نهر الفرات ، فاستولى على بعض حصونهم ، ومنها كركر[٢] .

على أن نور الدين ركز كل اهتمامه فى أمور دمشق ، ولا سيما بعد أن تم الاتفاق بين دمشق وبيت المقدس ، ولا شك أن وفاة معين الدين أنر فى ١١٤٩ ، هيأت الفرصة لنور الدين للتدخل فى أحوال دمشق ، والتمس للتدخل سببا فيما قام به الفرنج من مهاجمة حوران[٣] . فعزم على التأهب لملاقاتهم ، وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ٩٦ – ٩٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٩٣ .
Runciman : op. cit. II. p. 336.
Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 516.

(٢) Gibb : The Career of Nur ad-Din. p. 517
Cahen : op. cit. p. 385, 387

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٦٩ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ .
Stevenson : op. cit. p. 167
Grousset : op. cit. II. p. 341.

من الجهاد ، ويطلب المعونة على ذلك ، بأن يمدوه بألف فارس[١] . والمعروف أن المسئولين عن حكومة دمشق « عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين[٢] » . ولذا حرص مؤيد الدين بن الصوفى ، الذى استقر وقتذاك فى حكومة دمشق ، على التمسك بالمعاهدة المعقودة مع بيت المقدس[٣] . والواضح أن نور الدين اعتبر نفسه مسئولا عن دمشق وغيرها من البلاد ، ما دام زعماؤها يفرطون فى مصالحها ، ولذا اتخذ طريقه إلى دمشق مجتازا البقاع ، وعسكر بمرج يبوس ، شمال غربى المدينة ، ولما اقترب من دمشق ، ذاع الخبر ، فأرسل الدماشقة إلى الفرنج يخطرونهم بما حدث ويطلبون إلى بلدوين الثالث القدوم لنجدة دمشق مما عساه يجد من الأخطار[٤] . والواقع أن سياسة دمشق كانت بالغة الأهمية للصليبيين ، نظرا لانصرافهم وقتذاك (مارس ١١٥٠) لعمارة حصن غزة المواجه للحامية المصرية بعسقلان[٥] ، التى دأبت على الإغارة على الأملاك الصليبية[٦] .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٩ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ .

Stevenson : op. cit. p. 167. Grousset : op. cit. II. p. 341.

Gibb : The Career of Nur. ad-Din p. 517

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٦٩ .
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٦١ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ .

Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 517

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ .

Grousset : op. cit. II. p. 341.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ .

Grousset : op. cit. II. p. 341.

(٦) Runciman : op cit. II. p. 337.

ومع أن وزير دمشق مؤيد الدين بن الصوفى لم يستجب لطلب نور الدين ، فلا شك أن عواطف الناس وشعورهم وهواهم ، كانت إلى جانب نور الدين[1] . وأثر هذا الاتجاه فى حركات نور الدين وسياسته ، إذ انتقل من معسكره ، وتوجه بعساكره إلى منازل العساكر ، بالقرب من جسر الخشب ، على مسافة ١٤ كيلو متر من دمشق . وعندئذ فى أبريل ١١٥٠ ، وجه إلى مجير الدين أبق وإلى الرئيس مؤيد الدين ، إنذاره « إننى ما قصدت بنزول هذا المنزل طلبا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وإنما دعانى إلى هذا الأمر ، كثرة شكاية المسلمين ، من أهل حوران والعربان ، بأن الفلاحين أخذت أموالهم ، وسبيت نساؤهم وأطفالهم بين الفرنج ، وعدم الناصر لهم ؛ ولا يسعنى مع ما أعطانى الله ، وله الحمد ، من الاقتدار ، على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال ، أن أقعد عنهم ، ولا أنتصر لهم ، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ أعمالكم والتقصير الذى دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتى ، وبذل أموال الضعفاء والمساكين لهم ، وهذا لايرضى الله ، ولا أحدا من المسلمين »[2] . وختم رسالته بأن أصر على أن تبذل حكومة دمشق

---

(١) وحرص نور الدين على مقاتلة الصليبيين ، برغم ما بين دمشق وبيت المقدس من مهادنة ، وقال « لا أنحرف عن جهادهم » . على أنه أمر أصحابه بأن يسيروا فى زحفهم فى الأعمال الدمشقية سيرة حسنة ، حتى تواصل الدعاء له « من أهل دمشق وأعمالها وسائر البلاد » ، مما لا يدعو إلى الشك فى أنه عمل وقتذاك على التفرقة بين أهل دمشق ، وزعمائها . ومن الدليل على ذلك أنه حينما هطلت الأمطار فى حوران ، وأينع الزرع والنبات ، ضج الناس بالدعاء له ، وقالوا هذا ببركته وحسن عدله وسيرته .

انظر : حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٦٣ – ٦٤ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ – ٣٠٩ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٧٠ .

Grousset : op. cit. II. p. 341-341.

مددا ، مقداره ألف فارس لمساندة حامية عسقلان ، وتخليصها من الحصار الذى فرضه عليها الداوية فى غزة[١] . على أن رد مجير الدين بلغ من العنف والشدة ، ما حمل نور الدين على أن يبادر إلى قتال دمشق[٢] .

لم يلبث نور الدين أن انسحب ، إشفاقا من سفك دماء المسلمين ، إن أقام على قتال دمشق ومضايقتها ، فضلا عن الأنباء التى ترامت إليه عن محاولة جوسلين الثانى استرداد الرها ، يضاف إلى ذلك أن مجير الدين اعترف له بشبه سيادة على دمشق « بأن بذل له الطاعة وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان والسكة »[٣] ، وغمر نور الدين بسخائه وكرمه رجال الدولة والأجناد والفقراء والضعفاء ، ثم ارتحل عائدا إلى حلب[٤] .

على أن نور الدين هاجم من جديد ، فى ربيع سنة ١١٥١ الأراضى الدمشقية . ولعل ما حدث من ظهور بلدوين الثالث للمرة الثانية فى الشمال كان له بعض الأثر فى ذلك ، غير أن ما هو أهم من ذلك ، أن أمد الهدنة التى عقدها أنر مع ملك بيت المقدس ، سنة ١١٤٩ ، أوشك

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٧٠ .

(٢) كان الجواب عن هذه الرسالة « ليس بيننا وبينك إلا السيف ، وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك ، إن قصدتنا ونزلت إلينا » .

انظر : أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٧٠ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠ . حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٦٥ .

Runciman : op. cit. II. p. 336.

على النهاية ، فتهيأت الفرصة لنور الدين ، للقيام بمحاولة لحمل أمير دمشق على تغيير سياسته[١] . وصل نور الدين إلى الجهات القريبة من دمشق قبل أن ينتهى أجل الهدنة ، وبقى بهذه الجهات حتى مستهل يونيه ١١٥١[٢] . واغتنم هـذه الفرصة جماعة من الرعاع ، فأخذوا يعيثون فسادا فى زروع الناس ، فألحقوا بها ضررا بالغا . واضطربت الأمور ، وجرى الاستعداد لحفظ البلد والسور ، فأرسل نور الدين إلى ولاة الأمر بها « أنا ما أوثر إلا صلاح المسلمين ، وجهاد المشركين ، وخلاص من فى أيديهم ، من الأسارى ، فإن ظهرتم معى فى عسكر دمشق ، وتعاضدنا على الجهاد ، وجرى الأمر على الوفاق والسداد ، فذلك غاية الإيثار والمراد » ، على أن نور الدين لم يتلق من مجير الدين ردا يوافق مبتغاه[٣] .

ارتحل نور الدين ، حتى أصبح أدنى ما يكون إلى دمشق ، ومع ذلك لم يقدم على مهاجمة المدينة ، لما كان دائما يأمله من أن يبادر دعاة الوحدة الإسلامية بتسليم المدينة له ، دون قتال . غير أنه لما علم بقدوم الفرنج ، بلدوين الثالث والبارونات ، لمساندة دمشق ، وعسكروا أمام أسوار دمشق ، فى يونيه ١١٥١ ، وأجاز لهم الأتابك مجير الدين ، بالدخول إلى البلد لقضاء حوائجهم ، بل إنه صحب مؤيد الدين وعدداً كبيرا من أهل دمشق ، وخرجوا للقاء ملك الفرنج ، بلدوين الثالث ، وخواصه[٤] ، وعلى الرغم من أن جيش نور الدين يفوق فى العدد جيش أتابك دمشق

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 169.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 343. Stevenson : op. cit. p. 169

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٣ .

حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٦٦ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٤

Grousset : op. cit. II. p. 344

وحليفه ملك بيت المقدس ، بما تواصل إليه من الأمداد ، وبما اجتمع إليه من طوائف التركمان فإنه لم يشأ أن يسفك دماء المسلمين ، ولذا حاول أن يستدرج الفرنج ، بعد انسحابه إلى الزبدانى ، فأعد أربعة آلاف فارس ليكونوا فى أعمال حوران مع العرب لينزلوا الهزيمة بالفرنج والدماشقة(١) .

ولما لم يكن لدى مجير الدين وبلدوين الثالث من القوات ما يكفى لمهاجمة نور الدين ، تقرر النزول بالعسكرين على حصن بصرى ، والاستيلاء عليه ، وصاحب هذا الحصن المعروف فى المصادر العربية باسم سرخال ، وسرجال ، اشترك مع جماعة من الأتراك والتركمان ، بإثارة الفساد فى حوران بتحريض نور الدين(٢) . ولم يتيسر للفرنج والدماشقة الاستيلاء على هذا الحصن ، لمبادرة العسكر النورى إلى مساعدة صاحب بصرى(٣) ؛ ولأن مجير الدين لم ينهض لمساعدة الفرنج ، فأرسلوا إليه يلتمسون باقى المقاطعة المبذولة لهم ثمنا للمساعدة على ترحيل نور الدين عن دمشق ، فغضب مجير الدين من كتابهم ، وبذا فشلت جهود الفريقين(٤) .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٤ .

Grousset : op. cit. II. p. 344.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١١ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٨٠ .

على أن هذا الأمير لم يلبث أن خرج على طاعة نور الدين فيما بعد (يوليه ١١٥١) ، واستنجد بالفرنج ، فأنكر نور الدين ذلك عليه ، وأنهض فريقاً وافراً من عسكره إليه . (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٦) .

(٤) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٦٧ — ٦٨ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٨٠

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٤ .

يشير ابن الأثير إلى ما كان للفرنج على أهل دمشق « من قطيعة يأخذونها منهم =

ولم يكد الفرنج يرتحلون إلى بيت المقدس[١] ، حتى وجه نور الدين هجوما جديدا على دمشق ، فى يوليه ١١٥١ ؛ وحرص نور الدين هذه المرة على امتلاكها ، « لعلمه بضعفها ، وميل الأجناد والرعية له ، وإشارتهم لولايته وعدله »[٢] ، فلم يخرج من دمشق من الأجناد والأحداث للقاء نور الدين ممن كان يخرج أولا[٣]. واقترب نور الدين بقواته من البلد ، دون أن يلقى مقاومة ، ولم تحدث إلا مناوشات بين الفريقين ، وأشار نور الدين إلى أنه « لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدى بعضهم بعضا ، وإلى أنه يدخرهم كيما يبذلوا نفوسهم فى مجاهدة المشركين »[٤] . والواضح أن نور الدين ، لاعتقاده بأن دمشق سوف تسقط قريبا فى يده ، أراد أن يحصل عليها ، دون أن يدفع فى ذلك ثمنا باهظا وذلك باستثارة حماس السكان وعاطفتهم[٥] . وترتب على ظهور هذه النية السليمة ، أن دارت المفاوضات مع حكومة دمشق لعقد معاهدة للصلح والصداقة ، وذلك فى يوليه ١١٥١ . وقام بالمفاوضات شيركوه ، بالنيابة عن نور الدين ، ونجم الدين أيوب ، بالنيابة عن

= كل سنة ، فكان رسلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم ، فلما رأى نور الدين ذلك خاف أن يملكها الفرنج فلا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام » .

انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٣٠ .

(١) لعل السبب فى عودتهم يرجع إلى ما أنزله الأسطول المصرى من التخريب والتدمير وقتذاك بالمدن الساحلية التابعة لمملكة بيت المقدس .

انظر : Stevenson : op. cit. p. 169

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٥ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٥ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٥ .

Grousset : op. cit. II. p. 346

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٥ – ٣١٦

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٨١ .

(٥) Grousset : op. cit. II. p. 345.

مجير الدين(١) . وأقر مجير الدين أبق هذه المعاهدة ، وقام فى اكتوبر سنة ١١٥١ ، بزيارة حلب ، فبالغ نور الدين فى إكرامه ، وقرر معه «تقريرات اقترحها عليه ، بعد أن بذل له الطاعة ، وحسن النيابة عنه فى دمشق »(٢) ، ومع ذلك لم يقنع نور الدين بذلك ، ولا زال الدمشقة يعتبرون أنفسهم ملتزمين بالمعاهدة التى أبرموها مع بيت المقدس(٣) . على أن التركمان من الياروق ، غير النظاميين ، دأبوا على مهاجمة أملاك دمشق ، سواء علم بذلك نور الدين أو لم يعلم ، ففى ديسمبر سنة ١١٥١ ، هاجموا بانياس ، وألحقوا الخسائر الفادحة بحامية الفرنج بها ، ولما علم بذلك صاحب دمشق ، غضب لما فعله التركمان ، «لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج » ، فأنفذ عسكرا إلى التركمان ، استعاد منهم ما أخذوه(٤) . وقام

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٦ .

Grousset : op. cit II. p. 346

Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 518.

وهذا الهجوم على دمشق ، وثيق الصلة بما لجأ إليه الوزير المصرى ، ابن السلار ، من أنه أنفذ فى مايو ١١٥٠ ، أسامة بن منقذ ، رسولا إلى نور الدين ، لتدبير هجوم مشترك على الفرنج ، غير أن نور الدين لم ينهض لمهاجمة الفرنج ، عندما أغار الأسطول المصرى على المدن الساحلية من يافا إلى طرابلس ، لحرص نور الدين على الاستيلاء على دمشق .

انظر : Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 510

Wiet : L'Egypte Arabe p. 34

أسامة بن منقذ : الاعتبار (نشر حتى) ص ١٠

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٧ .

(٣) Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 518

Stevenson : op. cit p. 170

Runciman : op. cit. II. p. 336

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٨٤ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٧

Grousset : op. cit. II. p. 346. Runciman : op. cit. II. p. 336.

الفرنج بهجوم مضاد ، فأغاروا على ضياع البقاع ، ونهبوها ، واستاقوا دوابها ومواشيها ، غير أن نجم الدين أيوب ، والى بعلبك ، لحق بهم ، واستخلص من الأسرى والمواشى ، ما سلم من الهلاك ، بسبب تراكم الثلوج ، بدروب جبال لبنان[١] .

وبينما كان نور الدين منصرفا إلى القتال بالشمال ، فى الربيع التالى ، ١١٥٢ ، فاستولى على انطرطوس من الفرنج ، وملك حصونا أخرى ، وطد الأتابك مجير الدين أبق مركزه ، بأن استعاد سيطرته على حوران ، التى عاث التركمان فيها فسادا[٢] . ولم يلبث مجير الدين أن وقع فى مأزق آخر ، سبب له الحرج مع حليفه ملك بيت المقدس ، إذ أن تمرتاش الأرتقى صاحب ماردين ، قدم على رأس جيش لمهاجمة مملكة بيت المقدس ؛ وبينما كان نبلاء الفرنج يعقدون مجلسا فى نابلس ، سنة ١١٥٢ ، لتدبير أمر إمارة الملكة مليسند ، أقام معسكره على جبل الزيتون ، غير أنه ارتد إلى الأردن ، تحت ضغط الجيوش الصليبية فى مملكة بيت المقدس[٣] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٨٤ .
Grousset : op. cit. I. p. 346.
والمعروف أن صلاح الدين فارق والده ، ببعلبك ، فى هذه السنة ١١٥١ ، ولحق بعمه شيركوه فى حلب .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٨٦ ، ٨٩ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٨ – ٣١٩ .
Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 518

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 337.
Grousset : op. cit. II. p. 346-347.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 216-217.
Stevenson : op. cit. p. 171.

لم يفد المسلمون من الأزمة التى وقعت سنة ١١٥٢ بين بلدوين الثالث وأمه مليسند على الحكم ، على حين أن بلدوين بعد أن استقر له الحكم ، اغتنم فرصة ما وقع من اضطرابات خطيرة فى مصر ، وانصراف والى عسقلان إلى مصالحه الخاصة ، واطمئنانه إلى ولاء مجير الدين صاحب دمشق ، فاستولى على عسقلان سنة ١١٥٣[١] . فلو أن نورالدين ومجير الدين أظهرا اهتماما بالغا بمهاجمة أطراف مملكة بيت المقدس ، لتعذر على بلدوين الاستيلاء على عسقلان ، فعلى الرغم من استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور الدين ، أثناء حصر الفرنج لهم ، وقد كان وقتذاك يشترك بعساكره مع مجير الدين ، فى حصار بانياس ، فإن النزاع لم يلبث أن وقع بينهما ، دون مبرر ، فأحجما عن مهاجمة بانياس ، وعاد مجير الدين إلى دمشق ، بينما رجع نور الدين إلى حمص[٢] .

سقوط دمشق فى يد نور الدين ١١٥٤ :

أدرك نور الدين أنه ليس بوسعه أن يحطم الفرنج ، طالما بقيت دمشق إمارة مستقلة . والواقع أن الأسرة البورية التى استقلت بدمشق ، أصابها التداعى والانهيار . إذ توالى على حكمها منذ وفاة تاج الملوك ، سنة ١١٣٢[٣] ، أتابكة ضعاف ، غير أن ما اتخذه وزيرهم معين الدين أنر

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 171.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٠ – ٣٢١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٩٠ .
Grousset : op. cit. II. p. 361.

(٣) المعروف أن مؤسس هذه الأسرة هو طغتكين (١١٠٤ – ١١٢٨) ، الذى أوقف توسع الفرنج ومد أطراف بلادهم بعد الحملة الصليبية الأولى ، وجرى ابنه تاج الملوك على هذه السياسة (١١٢٨ – ١١٣٢) – انظر : Grousset : op. cit. II. p. 362.

من سياسة ، ترمى إلى المحافظة على استقلال دمشق بالإفادة من كل القوى السياسية المتنازعة من المسلمين والفرنج ، أبقت على ملكهم . فلما مات الوزير أنر سنة ١١٤٩ ، انفرد الأتابك مجير الدين ، الذى ولى الحكم سنة ١١٤٠ ، بتوجيه سياسة دمشق منذ ١١٥٠ حتى ١١٥٤ . اشتهر مجير الدين أبق بالقسوة والعنف ، والميل إلى المباذل ، فضلا عن قصر النظر فى سياسته ، ولم يظهر على حقيقته إلا بعد وفاة أنر ، فأسهم بذلك فى انهيار الدولة البورية . واغتنم الفرنج ، ما تراءى لهم من ضعف حكومة دمشق ، فنزعوا إلى أن يجعلوا دمشق تحت حمايتهم ، ويشير ابن الأثير : « إلى أن الفرنج قوى أمرهم بالاستيلاء على عسقلان ، حتى طمعوا فى دمشق ، واستضعفوا مجير الدين ، وتابعوا الغارة على أعماله ، وأكثروا القتل بها ، والنهب والسبى ، وزاد الأمر بالمسلمين بها ، إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة ، فكان رسولهم يجىء إلى دمشق ، ويجبيها من أهل البلد . ثم اشتد البلاء على أهلها ، حتى أرسل الفرنج ، واستعرضوا عبيدهم وإماءهم ، ممن أخذ من سائر البلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند مواليهم أو العودة إلى أوطانهم ، فمن أحب المقام تركوه ، ومن أحب وطنه سار إليه »[١] . وبلغ من تدخل الفرنج فى شئون دمشق ، واستسلام مجير الدين لهم ، أن خاف أهل دمشق ، وأشفقوا من العدو[٢] . ولما رأى نور الدين ذلك ، خاف أن يملكها الفرنج ، فلا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام ، فأعمل الحيلة فى أخذها ، لأن مجير الدين متى أدرك ما يتعرض له بلاده

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٣٠ .

ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٦ .

Grousset : op. cit. II. pp. 362-363.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٦ .

من الخطر ، راسل الفرنج واستعان بهم لمناوأة خصومه[١] . والواضح أن من أبغض الأشياء إلى الفرنج ، أن يملك نورالدين دمشق ، لما يترتب على ذلك من ازدياد قوته ، وتقرير مصيرهم[٢] . واعتقد السكان أن الأسرة البورية ارتكبت الخيانة الكبرى ضـــد المسلمين ، فزالت عنهم طاعة مجير الدين الذى اعتصم بالقلعة[٣] ، واستغل أيوب هذه العاطفة ، وأخذ رجاله يبثون روح الكراهية بالمدينة ، ويؤلبون أهلها على مجير الدين[٤] . وحدث وقتذاك ، أن شحت الأقوات بدمشق ، لأن نور الدين منع القوافل التى تحمل القمح من بلاد الشمال ، من المضى إلى دمشق ، فأضر ذلك بأهلها الفقراء والمساكين ضررا بالغا[٥] . ثم أنهى نور الدين إلى مجير الدين ، بأن جماعة من أعيان دمشق يتآمرون ضده ، فأوغر صدره عليهم ، فتارة يأخذ إقطاع أحدهم ، وتارة يقبض عليه ، وبذلك أغضب مجير الدين الفقراء والأغنياء[٦] . ولما اطمأن نور الدين إلى أنه لن يجد مقاومة فى الداخل ، راسل أحداث البلد واستمالهم ، فوعدوا بمساعدته فى تســلم البلد[٧] . فأنفذ إلى دمشق شيركوه ، فى عسكر يناهز الألف ، فأنكر مجير الدين ذلك ، ولم يخرج للقائه ، فاعتبر نور الدين ذلك إهانة ، فزحف بقواته على دمشق فى ابريل

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٣٠ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٦ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٧ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٧ .

(٤) **Runciman : op. cit. II. p. 340.**

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٥ .
Runciman : op. cit. II. p. 341.

(٦) **Runciman : op. cit. II. p. 341**
ابن الأثير ، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٧ .

(٧) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٣١ .

١١٥٤ فحصرها عدة أيام ، وضيق على من بها ، وثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد ، فدخله بالأمان ، وحصر مجير الدين فى القلعة(١) .

والواقع أن مجير الدين لما استشعر الخطر من قبل نور الدين ، أرسل إلى الفرنج يبذل لهم الأموال ، وتسليم قلعة بعلبك إليهم ، إذا بادروا بنجدته وترحيل نور الدين عنه ، فشرعوا فى حشد قواتهم ، غير أن نور الدين سبقهم إلى الاستيلاء على دمشق ، فعادوا خاسرين(٢) . ولم يلبث مجير الدين أن أعلن التسليم ، بعد أن وعده نور الدين بإقطاع كبير من جملته حمص ، فكتب له نور الدين منشورا بذلك ، فتوجه مع جنده إلى حمص(٣) . غير أن نور الدين انتزع منه حمص بعد أسابيع ، لما ساوره من الشكوك من أن مجير الدين يتآمر ضده مع أصدقائه القدامى بدمشق ، ولم يقبل مجير الدين إقطاع بالس ، فلجأ إلى بغداد(٤) .

وظل أهل دمشق على ولائهم للأسرة البورية ، ولم يخرجوا عن طاعة أمرائها ، إلا بعد أن تخلى مجير الدين ذاته عن تقاليد أسرته ،

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٣١ .

Grousset : op. cit. II. p. 364-365

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٨ .

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 341.

Grousset : op. cit. II. p. 365.

ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٨ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٣١ .

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٠٥ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٩٦ .

فزالت طاعته عن أهل البلد ، الذين حصروه بالقلعة[١] . فلما استقر نور الدين فى دمشق ، تعلق السكان به ، ورحبوا بحكمه ، لما أظهره من العدل والديانة والإحسان . فمنع رجاله من النهب ، ووفر المؤن بالأسواق ، وألغى ما كان يؤخذ من المكوس على الفاكهة والخضروات[٢] .

ويعتبر سقوط دمشق بيد نور الدين من أهم الأحداث فى تواريخ الحروب الصليبية ، إذ أدى إلى توحيد بلاد الشام بين يدى ابن زنكى ، فيشير ابن الأثير إلى أن « الإسلام ألقى بدمشق جرانه . وثبت أوتاده ، وأيقن الكفار بالبوار ، ووهنوا واستكانوا ، فصار جميع ما بالشام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين »[٣] . والواقع أن استيلاء نور الدين على دمشق ، فاق فى الأهمية ما حدث من استيلاء بلدوين الثالث على عسقلان . فامتدت دولة نور الدين ، من الموصل والرها ونهر عفرين ، إلى حوران وشرق الأردن ، على امتداد الحد الشرقى للإمارات الصليبية ، ولم يبق فى الشام إلا بعض الإمارات الإسلامية الصغيرة ، مثل شيزر ، التى احتفظت باستقلالها . وخضعت هذه الحكومة لسلطة مركزية قادرة على أن تمضى فى الجهاد دون هوادة أو تراخ ، لم تتعرض كثيرا لما تعرض له ملوك بيت المقدس من مقاومة ومناوأة النبلاء المتغطرسين[٤] . يضاف إلى ذلك

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٦ .

Grousset : op. cit. II, p. 365.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٨ – ٣٢٩ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٩٧ .

Runciman. : op. cit. II. p. 341.

Grousset : op. cit. II. p. 365.

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٠٧ – ١٠٨ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٩٧ .

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 342.

Grousset : op. cit. I. pp. 365-366.

أنه صار بوسع نور الدين ، عند نشوب القتال ، أن يوجه ضرباته ، متى أراد ، إلى الشمال وإلى الجنوب ، وتحطم الحاجز الذى كان يفصل بين بيت المقدس وسلطان حلب ، فأضحت بيت المقدس ، شأن أنطاكية والرها فى متناول يده ، وتحت رحمته . ومتى قرر السلطان أن الوقت قد حان ، صار الطريق مفتوحاً لمهاجمة بيت المقدس[١] .

وفى السنوات العشرة التالية ، حرص نور الدين على مهادنة الإمارات الصليبية المجاورة ، إذ كان فى حاجة ماسة ، إلى توطيد سلطته فى البلاد التى خضعت له ، ولذا لم يحرص على المبادرة بالحصول على انتصارات جديدة ، وكان بلدوين الثالث أيضاً يميل إلى تجنب العداء ، نظراً لأنه وجه اهتمامه ، سنوات عديدة ، لما قام به الأسطول المصرى من غارات على السواحل[٢] .

المعروف أن مجير الدين كان يؤدى قطيعة (جزية) سنوية لملك بيت المقدس ، وما ردده المؤرخون من التزام نور الدين ، بالاستمرار فى تأدية هذه القطيعة يعتبر من قبيل الاستدلال والاستنتاج ، إذ أنه فيما يبدو أقر ما كان قائماً من تحالف بين دمشق وبيت المقدس ، وأنه جدد الهدنة لمدة سنة أخرى ، ابتداء من سنة ١١٥٦ (شعبان ٥٥١ هـ) ، وكانت « المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية ألف دينار صورية »[٣] .

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 173-174.

(٢) Baldwin : The Latin States under Baldwin III p. 538-539
Runciman : op. cit. II. p. 342. Stevenson : op. cit. p. 173

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٠٣ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٦ .
الواضح أن الهدنة الأولى تقررت سنة ١١٥٥ (ربيع الأول ٥٥٠ هـ) ولم ترد الإشارة إلى مقدار ما يؤدى من القطيعة للفرنج . انظر : =

على أن قبول نور الدين مواصلة أداء الجزية للفرنج ، يلقى ضوءاً على سياسته وقتذاك نحو اللاتين بالجنوب . فلا شك أنه كان حريصاً على ألا يبادر الفرنج بالهجوم كيما يتفرغ لمواصـــلة فتوحه فى الشمال[١] . والمعروف أن مجير الدين أمر قبيل سقوط دمشق فى يد نور الدين ، بعزل نجم الدين أيوب عن قلعة بعلبك وتعيينه والياً على المدينة ، وولى القلعة رجلا يقال له ضحاك[٢] . غير أنه حدث فى يونية سنة ١١٥٥ ، عقب عقد الهدنة مع الفرنج ، أن خرج نور الدين إلى بعلبك ، وأمر بالقبض على ضحاك ، فأذعنت المدينة . وتوسط شيركوه فى أمر أخيه نجم الدين ، فأقطعه نور الدين إقطاعا ، وسيره إلى دمشق ، وجعله واليا عليها ، بينما تولى شيركوه قيادة حاميتها[٣] .

وتلى استيلاء نور الدين على دمشق ، أن أخذ يطبق بها برنامجه القائم على إحياء المذهب السنى ، فضلا عن عمارة استحكامات المدينة . فشيد المدارس والخوانق ، على أنه وجه اهتمامه أيضا إلى إنشاء المارستان الذى ظل طوال العصور الوسطى يعتبر من أهم المنشئآت ، وإلى إقامة دار العدل ، على غرار التى قامت بحلب ، فكان يرأسها أثناء وجوده بدمشق ، وكان

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١ .
Baldwin : op. cit. p. 539
Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 519.
Stevenson : op. cit. p. 174.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٩٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٥٠ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٠ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١ .
Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 519.
Runciman : op. cit. II. p. 341.

أنه صار بوسع نور الدين ، عند نشوب القتال ، أن يوجه ضرباته ، متى أراد ، إلى الشمال وإلى الجنوب ، وتحطم الحاجز الذى كان يفصل بين بيت المقدس وسلطان حلب ، فأضحت بيت المقدس ، شأن أنطاكية والرها فى متناول يده ، وتحت رحمته . ومتى قرر السلطان أن الوقت قد حان ، صار الطريق مفتوحاً لمهاجمة بيت المقدس[١] .

وفى السنوات العشرة التالية ، حرص نور الدين على مهادنة الإمارات الصليبية المجاورة ، إذ كان فى حاجة ماسة ، إلى توطيد سلطته فى البلاد التى خضعت له ، ولذا لم يحرص على المبادرة بالحصول على انتصارات جديدة ، وكان بلدوين الثالث أيضاً يميل إلى تجنب العداء ، نظراً لأنه وجه اهتمامه ، سنوات عديدة ، لما قام به الأسطول المصرى من غارات على السواحل[٢] .

المعروف أن مجير الدين كان يؤدى قطيعة (جزية) سنوية لملك بيت المقدس ، وما ردده المؤرخون من التزام نور الدين ، بالاستمرار فى تأدية هذه القطيعة يعتبر من قبيل الاستدلال والاستنتاج ، إذ أنه فيما يبدو أقر ما كان قائماً من تحالف بين دمشق وبيت المقدس ، وأنه جدد الهدنة لمدة سنة أخرى ، ابتداء من سنة ١١٥٦ (شعبان ٥٥١ هـ) ، وكانت « المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية ألف دينار صورية »[٣] .

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 173-174.

(٢) Baldwin : The Latin States under Baldwin III p. 538-539
Runciman : op. cit. II. p. 342. Stevenson : op. cit. p. 173

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٠٣ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٦ .
الواضح أن الهدنة الأولى تقررت سنة ١١٥٥ (ربيع الأول ٥٥٠ هـ) ولم ترد الإشارة إلى مقدار ما يؤدى من القطيعة للفرنج . انظر : =

على أن قبول نور الدين مواصلة أداء الجزية للفرنج ، يلقى ضوءاً على سياسته وقتذاك نحو اللاتين بالجنوب . فلا شك أنه كان حريصاً على ألا يبادر الفرنج بالهجوم كيما يتفرغ لمواصـــلة فتوحه فى الشمال[1] . والمعروف أن مجير الدين أمر قبيل سقوط دمشق فى يد نور الدين ، بعزل نجم الدين أيوب عن قلعة بعلبك وتعيينه والياً على المدينة ، وولى القلعة رجلا يقال له ضحاك[2] . غير أنه حدث فى يونية سنة ١١٥٥ ، عقب عقد الهدنة مع الفرنج ، أن خرج نور الدين إلى بعلبك ، وأمر بالقبض على ضحاك ، فأذعنت المدينة . وتوسط شيركوه فى أمر أخيه نجم الدين ، فأقطعه نور الدين إقطاعا ، وسيره إلى دمشق ، وجعله واليا عليها ، بينما تولى شيركوه قيادة حاميتها[3] .

وتلى استيلاء نور الدين على دمشق ، أن أخذ يطبق بها برنامجه القائم على إحياء المذهب السنى ، فضلا عن عمارة استحكامات المدينة . فشيد المدارس والخوانق ، على أنه وجه اهتمامه أيضا إلى إنشاء المارستان الذى ظل طوال العصور الوسطى يعتبر من أهم المنشآت ، وإلى إقامة دار العدل، على غرار التى قامت بحلب ، فكان يرأسها أثناء وجوده بدمشق ، وكان

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١ .
Baldwin : op. cit. p. 539
Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 519.
Stevenson : op. cit. p. 174.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٩٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٥٠ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٠ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١ .
Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 519.
Runciman : op. cit. II. p. 341.

يجلس بها يومين كل أسبوع ، ليستمع إلى الشكاوى ، ولا سيما تلك الموجهة ضد قادة الجيش وموظفى الإدارة ، وترتب على اهتمامه بأمور العدالة ، أن لقبه الخليفة ، سنة ١١٥٤ ، بالملك العادل[١] .

وبتوحيد كل سوريا الإسلامية ، وإضافة أملاك الرها إلى دولته ، توطدت سلطة نور الدين الحربية . والمعروف أن نور الدين ، سار على نهج النظام السلجوقى ، فى النظام الحربى الذى يقضى بأن يحصل القادة والعساكر النظامية على إقطاعات ، بدلا من الرواتب بشرط أن يتقدموا ، عند استدعائهم للخدمة ، بكل معداتهم ومؤنهم[٢] . وحاز القادة ضياعا تتفاوت فى مساحتها ، بحسب مكانتهم ورتبتهم ، وبشرط أن يتولوا الإنفاق من الخراج على عدد من الأجناد ،يبلغ بضع مئات إذا تولى أحد القادة أو الأمراء أمر إقليم من الأقاليم[٣] . وبذلك تألف الجيش الإقطاعى ، من كتائب الحرس الخاص للأمير ، التى بلغت زمن نور الدين نحو ألفين ، فضلا عن كتائب أمراء الأقاليم والأتباع . فالقوات المشتركة ، المستمدة من حلب ودمشق ، والتى خاضت معركة انب ، بلغت ، كما رأينا ، نحو ٦ آلاف فارس[٤] . والواضح أن الجيوش النظامية الخاضعة لقيادة نور الدين مباشرة لم تتجاوز هذا العدد ، فإذا أمده الأمراء الأراتقة ، أو أتابك الموصل ، بقوات إضافية من التركمان والعرب ، فإن جيوشه يصح أن تبلغ ١٠ آلاف أو ١٥ ألف من الرجالة والمتطوعة[٥] .

---

(١) Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 519

(٢) Gibb : . The Career of Nur ad-Din p. 519

(٣) لما تولى شيركوه حكومة حمص ، كان ينفق على ٥٠٠ جندى . انظر :
Gibb : op. cit. p. 519.

(٤) Gibb : op. cit. p. 520.

(٥) Ibid : loc. cit.

على أن قوات نور الدين النظامية تختلف عن جميع الجيوش السلجوقية ، فى أمر واحد ، وهو انحياز عدد كبير من الأكراد إلى المماليك الترك . فلم يكن الأخوان أيوب وشيركوه ، القائدين الكرديين الوحيدين اللذين بلغا مرتبة عالية فى الجيش زمن نور الدين ، وإن كانا أشهر القادة الكرد وقتذاك . فمن الطبيعى أن يلحق بهما أعداد كبيرة من الأكراد ، ليؤلفوا قوات نظامية أو مساعدة(١) .

أما العرب المحليون المستقرون ، والقوات المحلية المساعدة فى حفظ الأمن ، الذين لعبوا دورا هاما فى القرن السابق ، فتعرضوا فيما يبدو للاضطهاد والقمع ، لاعتبارهم من مثيرى الفتن والتمرد ، ولم يتردد ذكرهم فى المصادر العربية إلا على أنهم رجالة ، يجرى استخدامهم فى حصار المدن(٢) .

ولما أتم نور الدين الاستيلاء على بعلبك ، توجه إلى الشمال ، فتدخل فى النضال الذى نشب ، عقب وفاة السلطان مسعود السلجوقى سنة ١١٥٥ ، بين الأمير السلجوقى قلج أرسلان الثانى ، والأمير الدانشمندى صاحب سيواس ، ياغى سيان ، الذى استنجد بنور الدين ، فاستجاب له ، وهاجم البلاد التى انتزعها السلاجقة من إمارة الرها ، وهى عينتاب ودلوك وسموساط . ولم يسع قلج أرسلان إلا أن يحاول التحالف مع توروس صاحب قليقية ، وريجنالد أمير أنطاكية ، غير أنه لم يلبث آخر الأمر أن قبل الأمر الواقع ، وتم الوفاق بينه وبين نور الدين(٣) .

---

(١) Ibid : loc. cit.

(٢) Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 520

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 342.

Cahen : op. cit. p. 394-395

Gibb : op. cit. p. 520

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٢ – ٣٣٣ .

وحفلت السنوات الخمس التاليـــة ، بالمتاعب والمشاكل الداخلية والخارجية ، التى واجهت الدولة المتحدة التى أقامها نور الدين بالشام . ففى سبتمبر سنة ١١٥٦ بدأت سلسلة من هزات الزلازل العنيفة التى دمرت المدن والاستحكامات ، فى الشطر الشمالى من مملكة نور الدين ، فجمع نور الدين العساكر ، وشرع فى عمارتها ، حتى أمن عليها من شر الفرنج[١] .

وعلى الرغم من تجديد الهدنة مع بيت المقدس ، سنة ١١٥٦ ، فإن اللاتين دأبوا على نقضها ، باغتنام فرصة ما يقع بالبلاد من اضطرابات داخلية ، وانصراف نور الدين إلى اتخاذ التدابير اللازمة لعمارة المدن التى تعرضت للتخريب[٢] ، ففى فبراير ١١٥٧ (ذى الحجـــة ٥٥١) غدر الفرنج ، ونقضوا ما استقر من المهادنة والموادعة . ذلك أن أعدادا كبيرة من التركمان والعرب اغتنمت فرصة الهدنة ، فجاءت بقطعانها من الأغنام والخيل والماشية ، وأخذت تنتجع المراعى الغزيرة القريبة من بانياس ، واطمأن التركمان إلى ما بذله لهم الفرنج من الأمان ، فغفلوا عن ملاحظة هذه القطعان ، فاغتنم الفرصة زعماء الفرنج فى بانياس ، واستاقوا جميع ما وجدوه ، وأفقروا أهله منه ، فضلا عمن أسروه من تركمان وغيرهم ، وعادوا غانمين آمنين[٣] . وعلى الرغم من علاقة المؤرخ وليم

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٤ - ٣٣٥ ، ٣٣٧ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٣٠٦ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٤٤ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١١٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٤ .
Runciman : op. cit. II. p. 343-344.
Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 520.

(٢) Gibb : op. cit. p. 520.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٣ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٧ .
William of Tyre : op cit II. p. 255-256.
Runciman : op. cit. II. p. 342.
Grousset : op. cit. II. pp. 367-369

الصورى بالملك بلدوين الثالث ، وما يكنه له من المحبة والاحترام ، فإنه أورد الحقيقة مجردة ، بأن أنكر على بلدوين نقض الهدنة ، فى سبيل أن يحصل على غنائم بلغت من الوفرة مالم تشهده فلسطين منذ عشرات السنوات ، للخروج من الضائقة المالية التى تحكمت فيه ، وليوفى بما ارتبط به من الالتزامات ، ولتسديد ما عليه من الديون ، فإن ما أقدم عليه من نقض صريح شائن لتعهداته ، أثار سخط نور الدين ، وحمله على الانتقام[١] . توجه إلى بعلبك لتفقد أحوالها ، وأقام بها فصائل من الجيش لمواجهة اعتداءات بيت المقدس ، وفى الوقت ذاته أنفذ رسولا إلى مصر ، لتنظيم التعاون مع القوات المصرية ضد الفرنج[٢] .

وتشجع نور الدين بما حدث فى ابريل سنة ١١٥٧ من اشتباكين مع الفرنج ، إذ التقى فى أحدهما أخوه نصرة الدين بقوات من الاسبتارية والداوية ، أثناء مسيرهم بالمؤن إلى بانياس ، فأنزل بهم الهزيمة ، ولقى عدد كبير منهم مصرعهم ، ووقع فى أيدى المسلمين مقادير كبيرة من سلاحهم وكراعهم وأموالهم وأسراتهم[٣] . أما شيركوه فإنه استطاع بفضل قوة من التركمان أن يظفر بسرية وافرة من الفرنج ظهرت فى معاقلهم

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 255.

Runciman : op. cit. II. p. 342.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٨ .

Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 521

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٠٧ .

Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 521

Runciman : op. cit. II. p. 343.

Grousset : op. cit. II. p. 370-371

من ناحيـــة الشمال فانهزمت[1] . وانحاز شيركوه بهؤلاء التركمان إلى نور الدين ، الذى قرر المضى لمهاجمة بانياس ؛ والجهاد فى افتتاحها[2] . فتوجه نور الدين ، فى مايو ١١٥٧ ، إلى بانياس ، وتبعه عدد كبير من الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين ، فنزل على بانياس فى عسكره ، وأخذ يضايقها بالمنجنيقات والحرب ، حتى سقطت المدينة ، وانهزم من سلم من المدافعين عنها إلى القلعة فامتنعوا بها[3] . وتقع القلعة على جبل شديد الانحدار ، وقد اعتصم بها صاحب المدينة همفرى سيد ينه وكندسطبل مملكة بيت المقدس ، ومن معه من أصحابه من الإفرنج ، وقد أشرفوا على الهلاك ، وألحوا طلب الأمان من نور الدين ، على أن يسلموا له ما فى أيديهم من القلعة ، وما حوته ، فلم

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٧ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٩ .

Gibb : op. cit. p. 521 Runciman : op. cit. II. p. 343.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٠ .

تقع بانياس على تخوم إقليم دمشق ، وبلغ من شدة اقترابها منه ، أنه لم يجرؤ أحد من سكانها على أن ينفذ إلى المدينة أو يخرج منها ، إلا فى رفقة جماعة قوية ، أو اتخذ دروبا سرية . وأدرك همفرى صاحب تبنين ، الذى حاز بانياس إقطاعاً ، ما تتعرض له المدينة من الخطر ، فتنازل ، بموافقة بلدوين الثالث ، عن نصف الإمارة إلى فرسان الإسبتارية ، مقابل أن تسهم بنصف النفقات الضرورية . وإذ تولى الإسبتارية مسئولية إدارة نصيبهم بالمدينة ، حرصوا على أن يكفلوا لهأسباب الدفاع ، فشحنوا هذا الشطر من المدينة بالمؤن والأسلحة والعساكر.

انظر : William of Tyre : op. cit. II, p. 256-257.

Grousset : op. cit. II p. 369-370.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ٣٤٠ – ٣٤١ .

Grousset : op cit. II. p. 370-371.

يجيبهم إلى ما سألوه ورغبوا فيه[١] . ولم يلبث نور الدين أن انسحب ، عند قدوم بلدوين الثالث لمساعدة همفرى ، غير أنه شنّ هجوما عنيفا على معسكر الملك بلدوين عند الملاحة ، بين طبرية وبانياس ، وذلك فى ١٩ يونيه ١١٥٧ ، وأنزل بالصليبيين هزيمة ساحقة ، إذ لقى مصرعه عدد كبير من الفرسان والرجالة ووقع فى أيدى المسلمين عدد كبير من الأسرى ، ولم يفلت بلدوين من الموت إلا بالهروب ، ولم تقطع الرواية العربية بمصير الملك ، من أنه لقى مصرعه أو لجأ إلى الهرب ، إذ أشارت « أنه لم يعرف له خبر »[٢] . وترتب على هذا الانتصار أن عاد نور الدين من جديد فنزل على بانياس والقلعة[٣] ، غير أنه ما حدث من احتشاد قوات أنطاكية وطرابلس وبيت المقدس ، وزحفها لاستخلاص بانياس ، حمل نور الدين على الانسحاب[٤] . والواقع أن من العوامل الأخرى التى أدت إلى انسحاب نور الدين ، ما تردد من الأنباء من أن قلج أرسلان سلطان قونية يعد هجوما على أملاكه بالشمال ، وتطلب ذلك تقرير الهدنة بين نور الدين وبلدوين الثالث[٥] . والراجح أن السر

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٨ .

Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 521

Grousset : op. cit. II. pp. 374-375.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٨ .

(٤) **William of Tyre : op. cit. II. pp. 293-264**

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٩ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٣ .

Runciman : op. cit. II. p. 343.

فى انسحاب نور الدين من بانياس يرجع إلى تجدد حدوث الزلازل ، التى بدأت فى ٤ يوليه ١١٥٧ واستمرت إلى نوفمبر ، فألحقت أضرارا بالغة فى حمص وحماة وفامية وشيزر ، حيث هلك بها كل بيت أمراء بنى منقذ[١]. وانصرف كل من المسلمين والصليبيين إلى عمارة ما تخرب من القلاع ، فكفوا موقتا عن القيام بحملات حربية[٢] . ولما لم تتجدد الهدنة بين بلدوين ونور الدين، توجه نور الدين إلى الشمال فى أغسطس ١١٤٧ ، بعد أن ترك قوة الدفاع عن بلاد دمشق[٣] .

وحدث قبيل هذا التاريخ أن قدم إلى الشرق تييرى Thierry كونت فلاندر ، مع جماعة من النبلاء والعساكر ، فاحتشدت عساكر الملك بلدوين الثالث وريموند الثالث ، كونت طرابلس ، وريجنالد أمير أنطاكية ، بالقرب من قلعة الحصن (حصن الأكراد) ، ثم توجهوا إلى أنطاكية ، ليتجهزوا لقتال نور الدين[٤] . وفى تلك الأثناء ، زحف نور الدين إلى انب ، والراجح أنه أراد أن يجتاز نهر الأورنت لمهاجمة أنطاكية ، غير أن مرضا شديدا ألم به فى انب ، اكتوبر ١١٥٧ ، وإذ يئس نور الدين من الشفاء ، دبر أمر أملاكه ، إذا أدركه الموت بأن يخلفه على الحكم أخوه نصرة الدين ، وينوب عنه ، شيركوه ، فى حكومة دمشق وتقرر

---

(١) Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 521

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٣ – ٣٤٤ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٩ .

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 344.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٣ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٩ .

Grousset : op. cit II. p. 379.

(٤) Cahen : op. cit. p. 396.

نقل نور الدين فى محفة إلى حلب ، بينما سار شيركوه للدفاع عن دمشق[١] . ولما حاول نصرة الدين أن يدخل حلب ليتولى أمرها ، لقى معارضة شديدة من حاكم القلعة ابن الداية ، ووقعت اضطرابات عنيفة فى الشوارع ، يعتبر الشيعة (الأحداث) مسئولين عنها . ولم تخمد هذه الفتن إلا بعد أن أدرك أعيان حلب ؛ الذين قاموا بزيارة نور الدين ، أنه لا زال عائشا . وتماثل نور الدين للشفاء ، فأنكر ما جرى ، وصفح عن الأحداث لما قاموا من الاضطرابات[٢] .

واغتنم بلدوين الثالث فرصة هذه الاضطرابات ؛ وحشد كل القوات المسيحية ، فبالإضافة إلى جيوش بيت المقدس ، وطرابلس ، وأنطاكية ، وكونت فلاندر ، قرر أن يفيد من توروس الثانى الأرمنى أمير قليقية ، الذى استجاب لرغبة بلدوين ، فانحاز بجيش قوى إلى القوات الصليبية المحتشدة فى أنطاكية[٣] .

تقرر أن يوجه الصليبيون هجومهم إلى شيزر ، الواقعة بين فامية

---

(١) Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 521

Baldwin : The Latin States under Baldwin III. p. 541

Runciman : op. cit. II. p. 349. Grousset : op. cit. II. p. 380.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٩ .

ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩

Runciman : op. cit. II. p. 344. Grousset : op. cit. II. p. 380-381

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 381.

Runciman : op. cit. II. p. 349.

William of Tyre : op. cit. II. p. 265-266

وحماه ، فإذا سقطت بأيديهم ، انقطع الاتصال ، لا فحسب بين المدينتين (فامية وحماه) ، بل أيضا بين دمشق وحلب . يضاف إلى ذلك أن شيزر تؤلف جيْبا فى داخل إمارات نور الدين ، نظرا لأنها أفلتت من أيدى الزنكيين وظلت فترة طويلة خاضعة لأسرة بنى منقذ العربية(١) . على أن الزلزال الذى وقع سنة ١١٥٧ ، والذى دمر معظم المدينة ، وقضى على معظم السكان ، أثار الفوضى والاضطراب بها والبلاد الخاضعة لها ، فتغلب عليها جماعة من الباطنية ، من مصياف ، أثناء مرض نور الدين . فاغتنم الصليبيون الفرصة ، وعزموا على مهاجمة شيزر ، فسقطت فى أيديهم المدينة ، وكادت القلعة تذعن لهم ، لولا أن نشب النزاع بين القادة الصليبيين ؛ إذ أن بلدوين وعد أن يبذل شيزر وما يتبعها من الأراضى لكونت فلاندر ، ليجعل منها إمارة ، يستطيع أن يوطد سلطانه بها ، بفضل ما كان لأسرته من ثروة وسلطان بأوربا الغربية . غير أن ريجنالد أمير أنطاكية حرص على أن يبذل كونت فلاندر له الولاء ، على نحو ما درج عليه أمراء بنى منقذ . غير أن الكونت رفض هذا العرض ، نظرا لأن ريجنالد يقل عنه أصالة وشرفا ؛ ولذا تقرر التخلى عن هذه البلاد التى أثارت النزاع(٢) .

---

(١) الواضح أن هذه الإمارة ، التى ينتمى إليها أسامة بن منقذ ، خضعت لحكم أسرة بنى منقذ منذ سنة ١٠٢٥ ، ولم يتردد أمراؤها فى أن يلتمسوا مساعدة الصليبيين للمحافظة على استقلالهم ؛ ومن هؤلاء الأمراء ، عز الدين أبو العساكر سلطان ، بينما لجأ ولدا أخيه على وأسامة ، بعد طردهما ، إلى الفاطميين ونور الدين . فمنذ ١١٥٤ حتى ١١٦٤ ، استقر أسامة بدمشق عند نور الدين . على أن سائر أفراد الأسرة لقوا مصرعهم فى الزلزال الذى وقع سنة ١١٥٧ ؛ بعد أن تدمر الجانب الأكبر من المدينة . انظر

Grousset : op. cit. II. p. 382-383.

ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١١٠ — ١١٢ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 349.

Grousset : op. cit. II. pp. 383-349.

William of Tyre : op cit. II. p. 267-268.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٤٩ .

ولما أبلَّ نور الدين من مرضه ، عهد إلى أحد أمرائه بالمضى إلى شيزر ، فلم يجد عناء فى الاستيلاء عليها ، فقدم إليها نور الدين وأمر بعمارة أسوارها ، فعادت كأن لم تخرب[١] وجعل عليها مجد الدين بن الداية ؛ وبذلك انضاف إلى الإمبراطورية الزنكية آخر إمارة إسلامية فى الشام ؛ وتوحدت بلاد الشام تحت زعامة نور الدين ، بعد أن دان له ، دمشق وحمص وحماه وشيزر[٢] .

وحرص أمراء الصليبيين فى الشرق ، على أن يفيدوا من كونت فلاندر وعساكره ، قبل عودتهم إلى أوربا ، فتقرر مهاجمة حصن حارم ، الذى يقع على الضفة الشرقية لنهر الأورنت ، على الطريق الممتد من أنطاكية إلى حلب ، وكان يعتبر من أملاك أنطاكية . فاستسلم فى فبراير سنة ١١٥٨ ، وجرت إعادته إلى ريجنالد ، فأصلح استحكاماته وشحنه بحامية قوية[٣] ؛

ترتب على سقوط حارم فى أيدى الفرنج ، أن تزايد طمعهم فى شن الغارات فى بلاد الشام ، ونهب الحصون والقرى ، وساعدهم على ذلك ، ما حدث من تفرق العساكر الإسلامية ، وما وقع بين المسلمين من الاختلاف والنزاع ، وتوقف نور الدين عن مباشرة الأعمال بسبب المرض[٤] . ثم عاد

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١١٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٤٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١١٢

Derenbourg : Vie d'Ousama II. p. 281-282.

Grousset : op. cit. II. p. 385.

(٢) Grousset : op. cit. p. II. 385.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

Grousset : op. cit. II. p. 388.

Runciman : op. cit. II. p. 349.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

Grousset : op. cit. II. p. 388.

الأمراء الصليبيون إلى بلادهم ، فتوجه بلدوين وكونت فلاندر إلى بيت المقدس[1] .

وتعرضت دمشق وداريا لهجمات بلدوين وكونت فلاندر ، غير أنهما انسحبا عند قدوم نور الدين إلى دمشق فى أبريل ١١٥٨[2] ، ولم يلبث نور الدين أن هاجم قلعة للصليبيين بإقليم السواد ، بأعلى تل شديد الانحدار[3]. وكادت الحامية تستسلم ما لم تصل إليها النجدة فى مدة عشرة أيام ، فنهض الملك وكونت الفلاندر لمساعدة رجال الحامية ، فدارت معركة حامية الوطيس ، أظهر فيها نور الدين من البسالة والشجاعة ما حفلت به المصادر العربية والأوربية ، على الرغم من أنه كان فى فئة يسيرة من شجعان غلمانه . وانتهى القتال فى صالح الفرنج ، وجرت المراسلات بين نور الدين وبلدوين لعقد الهدنة ، ولم تقع فى السنوات القليلة التالية حروب خطيرة على الحد الفاصل بين فلسطين والشام ، ووجه كل من بلدوين ونور الدين الاهتمام نحو الشمال[4] .

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 388.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥١

Runciman : op. cit. II. p. 350. Grousset : op. cit. II. p. 390.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 272

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 351.

Grousset : op. cit. II. p. 391-394.

William of Tyre : op. cit. II. p. 272-273.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٢٠ – ١٢١ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥١ .

حدث فى تلك الأثناء ، سنة ١١٥٨ ، أن تولى إدارة مصر ، وزير حازم هو الصالح طلائع بن رزيك الذى ساءه ما حدث من سقوط عسقلان فى أيدى الصليبيين ، فجهز جيشا بقيادة ضرغام ، أغار به على غزة وعسقلان ، فأحرز انتصاراً باهراً على الفرنج ؛ واستطاع الأسطول المصرى أن يظفر بعدة مراكب مشحونة بالفرنج ، فقتل وأسر عدد كبير منهم ، =

وما حدث أثناء مرض نور الدين من مؤامرات ، تكشفت عما تتعرض له قوته وسلطته من التداعى ، ولذا التزم أن يتخذ من الأساليب ما يدعم قوته ، فمن ذلك أنه استمال الحلبيين ، والتمس ولاء قادة الجيش ، وصالح الشيعة[1] . وما كان لشيركوه ونجم الدين أيوب من سلطان ونفوذ عند نور الدين ، جَدَّد مستقبل أسرتهم ، فقيام البيت الأيوبى والإمبراطورية الأيوبية فيما بعد ، يدين إلى حد كبير بظهورهما ، إلى ما بذله نجم الدين أيوب من نصائح إلى أخيه أسد الدين شيركوه ، لأن نور الدين لم ينس لهذين الأخوين ولاءهما له ، وإخلاصهما فى المحافظة على ملكه أثناء مرضه ، إذ يشير ابن العديم إلى أن أيوبا طلب إلى أخيه شيركوه أن يتوجه إلى حلب ، ويقوم على خدمته ، بينما تعاهد نجم الدين بالمحافظة على دمشق[2] .

= وذلك فى مارس ١١٥٨ ؛ وبعد شهور ، توجهت جماعة من الجيش المصرى ، إلى إقليم بحر الميت ، فأنزلت الرعب والقلق فى نفوس الفرنج . غير أن ابن رزيك أدرك أن مصر وحدها لا تستطيع مناوأة المملكة اللاتينية ، فدرج على أن ينتهج سياسة ابن السلار التى ترمى إلى توحيد القوى الإسلامية فى الشام ومصر ، والاشتراك فى مهاجمة الصليبيين فى وقت واحد من الشمال الشرقى والجنوب الغربى . فوجه مع أسامة بن منقذ إلى نور الدين ، رسالة تحوى أشعاراً منها :

تجهز إلى أرض العــدو ولا تهن　　وتظهر فتوراً إن مضت منك حازم

فعنــدك من ألطاف ربك ما به　　علمنا يقينا أنــه بك راحم

أعادك حيا بعد أن زعم الورى　　بأنك قد لاقيت ما الله حاتم

غير أن نور الدين لم يأبه لذلك ، ولعله أراد أن ينفرد بهذا المجد .

انظر Wiet : L' Egypte Arabe p. 288

Derenbourg : Vie d'Ousama II. p. 295.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١١٥

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ .

Grousset : op. cit. II. p. 394.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٦٦ – ١٦٧ .

Grousset : op. cit. II. p. 394.

وجعل نور الدين قادته يحلفون يمين الولاء لأخيه قطب الدين أتابك الموصل ، بعد أن تبين له من سوء أفعال أخيه نصرة الدين ما يمنعه من أن يوليه أمر المسلمين[١] . غير أن قطب الدين لم يصل إلا بعد أن أبل نور الدين من المرض ، وعاد إلى حلب فى مارس سنة ١١٥٩ ، فاحتشدت قواتهما لمقاومة مانويل كومنين ، حتى إذا زال الخطر ، توجه الأخوان لانتزاع حران من يد نصرة الدين ، ومنحها إلى على كجك صاحب أربل[٢] .

وما قام به الفرنج فى السنوات ١١٥٧ – ١١٥٩ من غارات لم تحقق نتائج هامة ، فلم يتغير وضع الحدود ، بعد انحسارها فى سنة ١١٤٩ ، ولم يفد الفرنج كثيراً من المرض الذى انتاب نور الدين ، ولا من الزلازل التى جعلت تحت رحمتهم حماة وحمص . ومع أنهم استولوا على حارم والسواد ، غير أن استيلاء نور الدين على شيزر ، أتم توحيد الشام[٣] .

السياسة البيزنطية :

وتراءى للفرنج أنهم فى أشد الحاجة إلى محالفة جديدة ؛ إذ أن سقوط شيزر ودمشق فى يد نور الدين ، حتم إجراء اتفاق جديد يحل مكان التحالف المعقود بين دمشق والصليبيين . غير أن زوال الأسرة البورية (دمشق) وبيت بنى منقذ ، أضاع على الفرنج فرصة الإفادة منهما فى مناوأة المسلمين.

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٢٢ .
Cahen : op. cit. p. 398.

(٢) Cahen : op. cit. p. 399
ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٢٣ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٨ .

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 395.

فافتقدوا بذلك السياسة المحلية الأصلية ، التى برع فى اتخاذها الملوك الصليبيون الأوائل حتى بلدوين الثالث أيضاً[١] .

ولم يبق لدى الفرنج إلا احتمال واحد ، وهو السعى لإقامة تحالف متين دبلوماسى وعسكرى ، مع الإمبراطورية البيزنطية . فإذا تألفت فى سوريا الإسلامية وحدة قوية ، أضحت الحاجة بالغة الشدة ، إلى توحيد سياسة اللاتين واليونانيين (البيزنطيين)[٢] . ولذا حرص بلدوين على أن يفيد من التحالف مع بيزنطة فى عزل نور الدين من جهة ، وفى إطلاق يده فى التدخل فى شئون مصر[٣] . فالتمس بلدوين فى سنة ١١٥٨ أن يتزوج أميرة بيزنطية ، فاستجاب الإمبراطور له ، وقَبِل أن يزوجه تيودورا ابنة أخيه ، التى قدمت إلى الأراضى المقدسة فى موكب حافل . غير أن الإمبراطور لم يلبث فى آخر سنة ١١٥٨ أن احتل قليقية الأرمنية ، وهبط إلى أنطاكية لإذلال أميرها ريجنالد شاتيون ، بسبب إغارته على جزيرة قبرص ، ولإعادة السيادة البيزنطية على أنطاكية[٤] . وبادر بلدوين بالمضى إلى أنطاكية للتوسط بين الإمبراطور مانويل وريجنالد ، على أنه لم يجعل نفسه من أتباع الإمبراطور ، مع اعترافه بسيادة بيزنطة ، وعقد معه محالفة لمناوأة الزنكيين ، وذلك فى مستهل ١١٥٩[٥] .

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 395.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 345.

(٣) Richard : op. cit. p. 51

(٤) La Monte : To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Latin Crusaders States. Byzantion VII. 1932. p. 253.
Grousset : op. cit. II. pp. 399-402.

(٥) Richard : op. cit. II. p. 51
Runciman : op. cit. II. p. 350.
تشير المصادر البيزنطية إلى أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، مثل أمام الإمبراطور ، والتمس حمايته ، واعترف بسيادته . انظر :
Cinnamus 187 f. in Ostrogorowski : The Byzantine state p. 343

ما حدث من قبول الفرنج للسيادة البيزنطية على أنطاكية ، إنما يقصد به قيام جبهة مسيحية متحدة ضد المسلمين . وعلى الرغم من أنه يعتبر من الأمور المهينة للفرنج أن يعترفوا من جديد ، بعد مقاومة استمرت نحو خمسين سنة ، بالسيادة الاسمية لبيزنطة على شمال الشام ، فإن هذه التضحية لم يكن المقصود منها سوى تعويض ما أصاب حملة حنا كومنين وحلفائه من الفرنج من هزيمة أمام شيزر ، سنة ١١٣٨ ، بسبب تراخى الفرنج واستخفافهم بها[١] .

وأحس مانويل بحاجة الفرنج إلى مساعدته ؛ فلم تكد تنتهى حفلات أنطاكية بقدومه ، حتى نهض مع بلدوين الثالث وريجنالد شاتيون ، على رأس حملة لقتال نور الدين[٢] . وفى تلك الأثناء أخذ نور الدين يستعد لمقاومة الهجوم المنتظر ، فأصدر الأوامر إلى جميع أمرائه بالشام والجزيرة ، بأن يتعاهدوا استحكامات المدن ، وأن ينفذوا إليه الكتائب والعساكر ، وشرع فى بناء سور خارجى آخر حول حلب ، واتخذ معسكره فى شرق المدينة ، وعزم على الدفاع عنها ، وحرص على أن يتجنب وقوع معركة[٣] . وإذ توقع نور الدين أن يهاجم مانويل وحلفاؤه حمص وحماة وشيزر ، توجه إلى هذه الجهات ، لحماية أهلها ، وكف شر البيزنطيين والفرنج عنها[٤] .

---

(١) Grousset : op. cit. II p. 415.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 415
Runciman : op. cit. II. p. 354.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٢٢ .
Cahen : op. cit. p. 403. Gibb : op. cit. p. 522
Baldwin : The Latin States under Baldwin III. p. 545

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٢٣ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

والواقع أن مانويل وقادة الفرنج كانوا ينوون مهاجمة حلب ذاتها ، قلب إمبراطورية نورالدين ؛ ولذا اجتمعت قواتهم بين مخاضة بلانة وعِمّ ، على مسافة أربعين ميلا ، إلى الشمال الغربى من حلب[1] .

ثم حدث فجأة ما يدل على أن الحملة سوف لا تمضى فى سيرها لمهاجمة حلب ، وأن الصلح انعقد بين مانويل ونور الدين (فى نهاية مايو سنة ١١٥٩)[2] . ولعل من أسباب استجابة الإمبراطور للصلح ، ما وقع بالقسطنطينية من مؤامرات ، وحدوث اضطراب فى الطرف الأوربى . فمنذ سنة ١١٥٨ تكررت المراسلات ، وترددت السفارات بين مانويل ونورالدين . والواقع أن مانويل لم يشأ أن يدمر سلطة نورالدين ، بل إنه أراد أن يفيد منه فى كبح جماح الفرنج بالشام ، وأن يتخذ منه حليفا لمواجهة قلج أرسلان فى آسيا الصغرى ، الذى يهدد دائما أطراف الإمبراطورية البيزنطية[3] . وعلى الرغم من أن الصليبيين يصح أن يعتبروا إقدام مانويل على مهادنة نورالدين خيانة ، فإنه لم يكن بوسعه أن يفعل غير ذلك ؛ إذ أن الصليبيين يعتبرون الشام إقليما بالغ الأهمية لهم ، على حين أنه لم يكن الشام عند مانويل سوى إقليم من أقاليم الأطراف العديدة

---

(١) Baldwin : op. cit. 545. Gibb : op. cit. p. 522

Cahen : op. cit. p. 403

(٢) Cahen : op. cit. p. 403

يشير ابن القلانسى إلى أن نور الدين بما اشتهر به من صائب الرأى وحسن السياسة وخلوص النية ، أقر المهادنة المؤكدة ، والموادعة المستحكمة مع ملك الروم ، وهو أمر لم يكن فى الحساب ولا يخطر ببال ، بحيث انتظمت الحال فى ذلك فى عقد السداد ، بحسن رأى ملك الروم ، ومعرفته بما يؤول إليه عواقب الحروب .

انظر ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧ .

(٣) Cahen : op. cit. p. 403. Gibb : op. cit. p. 523

Baldwin : op. cit. p. 545

للإمبراطورية البيزنطية ، بل لم تكن الشام اكثرها أهمية . فليس بوسعه أن يبقى شهورا عديدة فى ذلك الطرف البعيد ، وقد طال خط مواصلاته ، ومن اليسير أن يجرى الاعتداء على هذه المواصلات. وليس من مصلحته مهما بلغ جيشه من الضخامة وحسن النظام ، أن تلحق بقواته خسائر لامبرر لها ، فلم يسعه إلا الرحيل[١] .

وشهد الرسل البيزنطيون فى دمشق ، فى مارس ١١٥٩ ، ما جرى من تدابير الصلح . إذ أمر نور الدين بإطلاق سراح عدد كبير من الأسرى ، من أشهرهم مقدم الداوية برتراند بلانكفورت الذى وقع أسيرا فى المعركة التى نشبت سنة ١١٥٧ ، بالقرب من بحيرة الحولة شمال طبرية ، وبرترام ابن الفونسو جوردان ، حفيد كونت تولوز ، الذى وقع فى الأسر سنة ١١٤٨[٢] .

ومن النتائج المباشرة التى ترتبت على هذه الهدنة ، أن استولى نورالدين على رعبان ، وكيسوم ، وبهسنا ، ومرعش ، فى يناير سنة ١١٦٠[٣] . وما وقع من القتال بين السلطان قلج أرسلان والإمبراطور مانويل أثناء سنة ١١٦٠ ، رجحت فيه كفة البيزنطيين ، ولم يسع قلج أرسلان إلا أن يطلب المهادنة والموادعة ، مقابل رد المدن اليونانية التى استولى عليها أخيرا ، وأن يحترم الحدود الفاصلة بينهما ، وأن يتعهد بمنع الغارات وأن يمد الإمبراطور بفصيلة من الجند كلما طلب منه الإمبراطور ذلك . وتوقف العدوان سنة

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 355.

(٢) Stevenson : op. cit. p. 181.
Baldwin : op. cit. p. 544. Gibb : op. cit. p. 523

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧ — ٣٥٨ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٢٣ .

(٣) Stevenson: op. cit. p. 182. Cibb : op. cit. p. 523
Cahen : op. cit. p. 404. Runciman : op. cit. II. p. 356

١١٦١ ، وتأكدت المهادنة بما قام به قلج أرسلان من زيارة رسمية إلى القسطنطينية ١١٦٢[١] . وترتب على مهادنة السلاجقة بآسيا الصغرى ، إعادة فتح الطريق للحجاج القادمين من الغرب ، ومن لم يصل منهم إلى الأراضى المقدسة ، إنما يرجع السبب فى ذلك إلى الأحداث السياسية فى الغرب ، والحروب بين الهوهنشتاوفين وأنصار البابوية فى ألمانيا وإيطاليا ، والنزاع بين الكابتيين والبلانتجنتيين فى فرنسا ، يضاف إلى ذلك أن بيزنطة ظلت عشرين سنة أخرى تتدخل فى شئون شمال الشام[٢] . فقامت الدبلوماسية البيزنطية على أساس المحافظة على توازن القوى فى الشرق ، بالإيقاع بين القوى الإسلامية المختلفة ، أو الإيقاع بينها وبين الفرنج[٣] .

بلدوين الثالث ونور الدين :

وبينما كان نور الدين يسهم فى مناوأة السلطان السلجوقى بآسيا الصغرى ، اغتنم بلدوين الثالث فرصة ابتعاده عن دمشق ، وخلوها من القوات المحاربة ، فأغار على حوران ، ونهب وخرب البلاد والأراضى الواقعة بين بصرى وأرباض دمشق . وعلى الرغم من أن نجم الدين أيوب ، والى دمشق ، استطاع أن يرد الفرنج عنها ، بموادعتهم ومهادنتهم ، لمدة ثلاثة شهور ، مقابل أن يؤدى لهم أربعة آلاف دينار ، فإن بلدوين لم يلبث أن جدد غاراته ، ثم عاد إلى بيت المقدس[٤] .

على أن ريجنالد شاتيون ، أمير أنطاكية كان أول ضحية لما قام به من غارات فاقت ماقام به غيره من الأمراء والقادة . ففى نوفمبر ١١٦٠ ،

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 356. Grousset : op. cit. II. p. 420.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 357.

(٣) Baldwin ; op. cit. p. 546
Gibb : op. cit. p. 523

(٤) William of Tyre : op. cit. II p. 282.
Grousset : op. cit. II. p. 423.

(ذو الحجة ٥٥٦) اغتنم ريجنالد فرصة انسياب قطعان وفيرة من الأغنام والدواب والخيول فى المراعى الغزيرة ، على سفوح جبل اللكام ، بين مرعش ودلوك ، وجاءه من الأنباء ما يشير إلى أنه لم يكن ثمة من القوات المحاربة ما يدفع عنها الإغارة ، فاستاق هذه القطعان ، وعاد متمهلا إلى أنطاكية ، فخرج إليه مجد الدين بن الداية ، ولقى المغيرين ، بالجومة ، بالغرب من الراوندان ؛ فكسرهم ، وأسر ريجنالد وجماعة معه ، ودخل بهم حلب ، فألقى بهم فى السجن[1] . وبقى ريجنالد فى الأسر ١٦ سنة ، ولم يحرص الإمبراطور البيزنطى ، أو ملك بيت المقدس أو سكان أنطاكية على أن يبادروا إلى افتدائه . لأنه لم يتخذ من الحرب الصليبية إلا أداة لإشباع أهوائه ومغامراته[2] . والتقى ريجنالد فى السجن بجوسلين كورتناى ، أمير حارم الذى وقع أسيرا ، منذ فترة وجيزة ؛ أثناء إغارة قام بها[3] .

وعلى الرغم من الاضطراب والفوضى التى نشبت فى أنطاكية بعد أسر ريجنالد ، لم يستطع نور الدين ، فيما يبدو ، أن يفيد من هذا الاضطراب لصالحه ، وكل ما حـــدث من جانبه أنه قام بغارات على العمق

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٣١١ – ٣١٢ .

Runciman : op. cit. II. p. 357. Grousset : op. cit. II. pp. 423-425.

يشير وليم الصورى إلى أن الموقعة حدثت عند موضع اسمه Commi بين كيسوم ومرعش . انظر : William of Tyre : op. cit. II. p. 283 - 285.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 425.

Baldwin : op. cit. p. 546

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 358. Stevenson : op. cit. II. p. 183.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣١١ .

وأنزل التركمان على حدود أرتاح ، وهاجم حارم فحصرها (١١٦١) وجد فى قتالها ، غير أنها امتنعت عليه لحصانتها وكثرة المدافعين عنها من فرسان الفرنج ونهوض الفرنج من سائر الجهات لمساعدتها ، فارتحل عنها[1] . على أن نور الدين استرد أرزجان التى سبق أن استولى عليها ريجنالد[2] . والواقع أن الهدنة التى عقدها نور الدين مع بلدوين الثالث ١١٦٠ لمدة سنتين ، أراحت نور الدين فى دمشق والجنوب ، بعد أن تعرضت هذه الجهات ، أثناء حملته فى الشمال ، سنة ١١٦٠ ، للغارات[3] . والمفروض أن هذه الهدنة ينتهى أمدها فى آخر سنه ١١٦٢ ، ولم يتجدد القتال فى سنة ١١٦٣ ، والراجح أنها امتدت سنة أخرى . والواضح أن بلدوين الثالث مات فى فبراير ١١٦٢ ، وخلفه على عرش بيت المقدس أخوه أملريك ، الذى شرع فى خريف ١١٦٣ ، فى غزو مصر[4] .

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١١٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٢٧ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٨٧ – ١٨٨ .

Cahen : op. cit. p. 407.

(٢) Cahen : op. cit. p. 408. Gibb : op. cit. p. 523.

(٣) Gibb : op. cit. p. 523.

ولعل الهدنة التى عقدها نور الدين مع بلدوين الثالث فى شتاء سنة ١١٦٠ لمدة سنتين جرى تطبيقها فى شمال الشام وجنوبه على السواء . وأفاد نور الدين فى هذه الهدنة فى تأدية فريضة الحج سنة ١١٦١ . وفى أثناء هذه الفترة وجه أمور أنطاكية الملكة الوالدة والبطريرك وبلدوين ، حتى يبلغ بوهمند سن الرشد . وتوثقت العلاقات مع الإمبراطور البيزنطى ، بعد أن تزوج الإمبراطور فى ديسمبر ١١٦١ ، من مارية أخت بوهمند . انظر :

Sevenson : op. cit. p. 184.

(٤) Stevenson : op. cit. p. 185.

الفصل الحادى عشر

وحدة مصر والشام

أحوال الإمارات اللاتينية :

أنجب الملك فولك من زوجته مليسند ، ولدين ، وهما بلدوين ، الذى صار بلدوين الثالث ، والذى ناهز الثالثة عشرة سنة عند وفاة والده سنة ١١٤٣ ، وأملريك الذى لم يتجاوز السابعة من العمر . والمعروف أن فولك ولى حكم مملكة بيت المقدس ، باعتباره زوجا للملكة مليسند ، وأن حقوق الملكة كانت قائمة ومعترفا بها . على أن البارونات لم يقبلوا فكرة انفراد الملكة بالحكم ، ولذا جعلت ابنها قسيما لها ، غير أنها تولت الوصاية عليه ، وباشرت إدارة شئون الحكومة(١) .

ووصف المؤرخ وليم الصورى ، بلدوين الثالث ، بأنه شاب بالغ الكفاية والقدرة ، وأبدى فى تلك السن المبكرة من الخلق والصفات ، ما أصبح من طباعه ، فاشتهر بجمال الخلقة ، ورشاقة الجسم وطلاقة الوجه ، وقوة الاحتمال ، وفاق سائر نبلاء المملكة برجاحة العقل ، والذكاء النادر ، وطلاوة الحديث . والخلاصة أن مظهره دل على أن ما ينبعث عنه من هيبة وعظمة ، يعتبر من صفات الملك(٢) . ومن الدليل على جرأته وبسالته أنه فى هذه السن المبكرة ، ١٣ سنة ، خرج بجيشه إلى وادى موسى ؛ لقتال البدو فى هذه الجهات القريبة من بطرة القديمة(٣) .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 233.
Grousset : op. cit. II. p. 169-170.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. p. 137.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 170-171.

على أن ما اتخذته مليسند من إجراء ، وهو اقتسام الملك ، يعتبر سليما من الناحية الدستورية ، وصدق عليه مجلس المملكة ، عند تتويج بلدوين ومليسند يوم عيد الميلاد ، بيد البطريرك وليم . واشتهرت مليسند بالكفاية والقدرة على مباشرة شئون الدولة ، ويصح أن تصيب نجاحا وتوفيقا فى أعمالها ، لو أن الأحوال كانت مواتية وطيبة . اتخذت مستشارا لها ، ابن عمها منسيس Manasses ، الذى ارتقى ، بعد قدومه إلى الشرق ، فى سلك الوظائف بفضل كفاءته وصلته بالبيت الملكى ، وزاد من مكانته زواجه من وريثة إقطاع الرملة التى تنتمى إلى سادة يبنة[١] . ولم يلبث البارونات أن كرهوا سلطة منسيس ، وذلك لنزوعه ، هو والملكة ، نحو الاستبداد ، والميل إلى السيطرة والأوتوقراطية ، غير أن الملكة لم تصادف فى مستهل حكمها معارضة شديدة[٢] .

ويعتبر عهد بلدوين الثالث من أهم المراحل فى تاريخ الحروب الصليبية ، إذ تم فى عهده اكتمال نمو وتطور الإمارات الصليبية ، فأصاب تقاليدها السياسية والدينية والاقتصادية والحربية ، من التعديل والتغيير ما جعلها تلائم أحوال الشرق[٣] ، وشكل المغامرون الأوربيون حياتهم ، فى الجهات التى نزلوا بها ، حسبما تمليه البيئة وأحوال السكان الأصليين . ففى منتصف القرن الثانى عشر ، بلغت الإمارات اللاتينية فى تطورها مرحلة تهيأ عندها ، لكل إمارة من الإمارات من الأحوال ما يجعلها تستقل بأمورها . وترتب على ذلك ، أن جرى الاتجاه إلى إغفال الروابط الاقطاعية ، التى كانت تجمع بين الإمارات اللاتينية الثلاثة . ومن الدليل على ذلك أنه لم تصادفنا إلا حالات نادرة اعترف فيها كونتات طرابلس بسيادة ملوك بيت المقدس ، بل إن ملك بيت المقدس

---

(١) Runciman : op. cit. II. pp. 233-234.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 234.

(٣) Baldwin : The Latin States under Baldwin III. p. 528.

لم تعد له المكانة العايا ، إلا باعتباره مقدم الأسوياء primus inter pares[١] .
وماكان من تدخله فى أمور طرابلس أو أنطاكية ، وما جرى من تدخل أمراء الشمال فى شئون بيت المقدس ، لم ينبع إلا من رابطة الدم بينهم ، أو بناء على طلب من قبل مجلس الإمارة ، بالتماس المساعدة . على أن الخطر المشترك ، الذى تعرض له جميع الأمراء أو معظمهم ، يعتبر أهم العوامل التى تدعو إلى توحيد قوات الإمارات الثلاثة . ومع ذلك لم يكن من اليسير أن يتحقق التعاون فى وقت الأزمات ، فما لم يكن للإمارات اللاتينية سياسة عامة تلتزمها ، بسبب من الأسباب التى سبق الإشارة إليها ، لم تكن هذه الإمارات سوى حلف مفكك[٢] .

أدرك اللاتين بالشام من سنوات التجربة التى عاشوها ، ما لهم من مزايا وعيوب ، ولا سيما بعد أن انكشف لهم ، ما كان من تفرق كلمة المسلمين ، وبعد أن أجروا محالفات مع بعض الدول الإسلامية ، فأسهم كل ذلك فى قيام التوازن بين القوى فى الشرق الأدنى . على أن المسلمين أخذوا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر يمضون فى تحقيق الوحدة ، بفضل الزعامة القوية التى تمثلت أول الأمر فى عماد الدين زنكى ، ثم نور الدين محمود ، ثم صلاح الدين[٣] .

وازدادت أهمية بيزنطة فى استراتيجية الشرق الأدنى نتيجة لما أحرزه المسلمون من نجاح سياسى وحربى . فالمعروف أن حنا كومنين أعاد سلطان بيزنطة فى قليقية وشمال الشام . ولما مات سنة ١١٤٣ ، اشتد التوتر فى العلاقات بين بيزنطة والفرنج ، إذ أن مانويل كومنين (١١٤٣ — ١١٨٠) ،

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 528

(٢) Baldwin : "The Latin States under Baldwin III. p. 529.

(٣) Baldwin : The Latin States under Baldwin III. p. 530

أضاف إلى دعاوى سلفه فى أنطاكية ، ما اشتهر به من الطموح لمد النفوذ البيزنطى صوب الجنوب والغرب . فصار لزاما على اللاتين لمواجهة الدولة الإسلامية الفتية ، أن يلتمسوا مساعدة الإمبراطور البيزنطى ، فعرضوا عليه من الامتيازات والحقوق ، ما سبق أن رفضه الصليبيون الأوائل . فظل مانويل كومنين سنوات عديدة يتحكم فى سياســة اللاتين بالشرق الأدنى[١] .

على الرغم من أن حكومة بيت المقدس ، اشترك فيها بلدوين ومليسند ، فالواضح أن مليسند قد تولت تصريف الأمور فى زمن الأزمة التى تلت سقوط الرها سنة ١١٤٤ . وكان سقوط الرها ضربة خطيرة أصابت اللاتين فى الشرق ، وانزعج لها المسيحيون فى الغرب ، فلم تسقط فحسب عاصمة الإمارة اللاتينية ، الرها ، ولن يبقى طويلا بعد سقوط الرها سائر المدن التابعة لها ، الواقعة شرقى الفرات ، بل زال أيضا كل خطر يهدد الطريق بين حلب والموصل ، فكل خسارة عند الصليبيين تعتبر كسبا للمسلمين[٢] .

وترتب على سقوط الرها ، أن تزايد الخطر على أنطاكية ، فعلى الرغم من أن ريموند بواتييه أمير أنطاكية لم ينهض لمساعدة الفرنج فى الرها ، فإنه أدرك آخر الأمر ما يتهدده من الخطر ، ولذا حث قادة الحملة الصليبية الثانية على أن يزحفوا على حلب[٣] . وما أصابه

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 530.

(٢) Baldwin : The Latin States under Baldwin III p. 530-531

Runciman : op. cit. II. p. 238.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 325.

حاول ريموند ، سنة ١١٤٥ ، عقب رحيله إلى القسطنطينية أن يحث الإمبراطور مانويل على أن يبذل له المساعدة ، غير أن البيزنطيين كانوا وقتذاك يستعدون لقتال الترك ، فلم يعده الإمبراطور إلا بالمساعدة المالية ، ومع ذلك فإن الحديث جرى حول حملة مقبلة .

انظر : Runciman : op. cit. II. p. 239.

من الفشل فى تحريضهم ، كلفه التضحية بحياته[١] . ومع أن كلا من جوسلين صاحب الرها وريموند أمير أنطاكية ، لم يشترك مع سائر قادة الحملة الصليبية الثانية فى مهاجمة دمشق ، خوفا من هجوم نور الدين ، فإن نور الدين ، هاجم أنطاكية ، ليصرف أميرها عن قتال حليفه مسعود سلطان قونية ، ولتحالف ريموند مع زعيم الباطنية الذى يكن الكراهية لنور الدين ، فضلا عن مقاومته لما حدث من نهوض نور الدين لمساعدة كونت طرابلس ، فدارت معركة حاسمة ، فى إنب فى ٢٩ يونيه ١١٤٩ ، لقى فيها ريموند مصرعه ، ووقع كثير من الأسرى المسيحيين فى أيدى نور الدين وقواته . وترتب على هذه المعركة أن صار معظم البلاد التابعة لأنطاكية فى شرق الأورنت ، فى حوزة المسلمين[٢] . ولم يلبث جوسلين أن وقع فى أسر التركمان ، سنة ١١٥٠ ، فحملوه إلى نور الدين ، فألقى به فى سجن حلب ، حتى سنة ١١٥٩ ، حيث قضى نحبه[٣] .

والخلاصة أنه حدث فى صيف سنة ١١٥٠ ، أن فقدت كل من أنطاكية وبقايا الرها ، أميرها ، ومع ذلك لم يحاول نور الدين أن يمضى فى توسعه إلى أبعد مما وصل إليه ؛ فاكتفى بما فتحه من البلاد . فلم تكد الأنباء تصل إلى أنطاكية ، عن مصرع الأمير ريموند ، حتى نهض البطريرك ايمرى بتنظيم الدفاع عن المدينة ، وأرسل إلى بلدوين الثالث ، يطلب منه التدخل لإنقاذ أنطاكية[٤] . وأسرع بلدوين بالمسير صوب

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 325.

(٢) Baldwin : op. cit. p. 533
Runciman : op. cit. II. p. 327.

(٣) Runciman : op. cit. p. II. p. 328.

(٤) Baldwin : op. cit. p. 633.
Runciman : op. cit. II. p. 328.

الشمال فى جيش صغير ، تألف معظمه من الداوية ، لإنقاذ أنطاكية .
على أن الإمارة لم تتجاوز ، بعد استيلاء نور الدين على أملاكها فى شرق الأورنت ، سهل أنطاكية ، والساحل الممتد من الاسكندرونة حتى اللاذقية[١] . وإذ تعرض للهجوم ما تبقى من بلاد إمارة الرها ، وأمثال الراوندان ، وعينتاب ، ودلوك ، والبيرة وسموساط ، لم يسع بياتريس زوجة جوسلين ، إلا أن تتنازل عن هذه البلاد للإمبراطور مانويل ، مقابل ما بذله من أموال ، غير أنها لم تستمر طويلا فى أيدى البيزنطيين ، فاقتسم أملاك الرها سلاجقة قونية ، والأراتقة ونور الدين[٢] .

اشتد قلق الملك بلدوين الثالث على مصير أنطاكية والبلاد المجاورة لها ؛ إذ خشى أن تسقط فى أيدى المسلمين ، شأن الرها ، فيعتبر ذلك خسارة فادحة للعالم المسيحى . ولم يكن بوسعه أن يبقى طويلا فى أنطاكية ، لأن مسئوليات الحكم فى بيت المقدس تطلبت عودته . ولذا نصح أميرة أنطاكية أن تختار زوجا يكفل للإمارة البقاء[٣] . ولم تقبل كونستانس أن تتزوج من أحد الذين رشحهم بلدوين ، ومع ذلك فإنه كان يرحب بأن تتزوج ابنة عمه ممن تشاء نظرا لما كان ينتظره من أعباء ومسئوليات .

وعلى الرغم من انصراف بلدوين إلى الاهتمام بأمور الشمال ، لم يغفل شأن بيت المقدس ؛ ففى شتاء ١١٤٩ – ١١٥٠ أمر بلدوين بعمارة استحكامات غزه ، نظرا

---

(١) Runciman : op. cit II. p. 328. Stevenson : op. cit. p. 166
Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 516.
Grousset : op. cit. II. p. 265.

(٢) Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 516-517
Baldwin : op. cit. p. 523-524. Runciman : op. cit. II. p. 329.
Grousset : op. cit. II. pp. 295-300.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. pp. 212-213.

لما تعرض له الصليبيون من هجمات مستمرة من قبل القوات الفاطمية ، ولذا أرادوا أن يفيدوا من هذه العمارة فى منع غاراتهم ، والحد من نشاط حامية عسقلان . والمعروف أن غزة تقع على مسافة عشرة أميال ، إلى الجنوب من عسقلان ، ولم تكن وقتذاك إلا خرائب خالية من السكان . وإذ حرصوا على إعادة بناء استحكامات غزة ، فإنما قصدوا بذلك أن يهددوا عسقلان من الجنوب ، مثلما هددتها من الشرق والشمال ، ما سبق أن أقاموه بهذه الجهات من حصون ، وبذا تتعرض عسقلان باستمرار لهجوم الصليبيين ، وعهد بلدوين الثالث ، إلى الداوية بأمر غزة[١] . واستطاع الملك والبارونات أن يصلحوا من مكانة المملكة ، فعوضوا بذلك ما حل بالشمال من الكوارث[٢] .

المعروف أن بلدوين الثالث بلغ سن الرشد ، الذى يجيز له مباشرة سلطته الملكية ، فى السنوات التالية للحرب الصليبية الثانية . ومع أن مليسند أحسنت إدارة شئون المملكة ، وحافظت على حقوق التاج ، فالواقع أن بلدوين أظهر من الصفات وقتذاك ما يدل على كفايته للاضطلاع بمسئوليات الحكم والسيادة ، وجرى فى سياسته فى شمال الشام على خطة اتخذها لنفسه ، دون أن يلتزم بسياسة مستشاريه ، ودلت على نفاذ البصيرة والإدراك الشامل بحاجات اللاتين فى الشرق[٣] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 202.
Runciman : op. cit. II. p. 338.
Grousset : op. cit. II. pp. 339-340.
Baldwin : op. cit. p. 534

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٢٤ .

(٢) Baldwin : op. cit. p. 534

(٣) Stevenson : op. cit. p. 170. Baldwin : op. cit. p. 534.

استمر التعاون وثيقا بين بلدوين وأمه ، غير أن اقتسام السلطة ، تجاوز فى الزمن ، حدّ سن الرشد ، لأن الملك بلغ سنة ١١٥٠ العشرين من عمره ، غير أن النفور والشقاق ، لم يلبث أن دب بينهما ، بعد أن عينت الملكة ابن عمها مَنَسيّس كندسطبلا ، وجعلت له القيادة العليا للجيش . وإذ أحس منسيس بحظوته عند الملكة ، ازداد تعاظما وتجبرا على نبلاء المملكة ، فلم يُوْلهم ما يليق بهم من الاحترام[١] . فأثار بذلك كراهيتهم له ، بل إنه لم يكن مقبولا عند سائر الناس ، غير أن اتصاله ، عن طريق المصاهرة ببيت يبنه ، الذى يسيطر على سهل فلسطين ، زاد فى ثروته وممتلكاته ، ومساندة عدد كبير من نبلاء جنوب فلسطين ، وبذا لقيت الملكة التأييد من بعض الأسرات النبيلة[٢] . وكان بلدوين أشد الناس كراهية للكندسطبل منسيس ، فاعتبره مسئولا عن تغير خاطر أمه عليه ، وخضوعها لسيطرته . وهذا الشعور شارك الملك فيه ، عدد كبير من النبلاء ، ولذا ألحوا عليه بأن يبعد أمه عن الحكم ، وصاروا يرددون ، أنه لا ينبغى أن يخضع الملك لسلطان امرأة ، طالما بلغ سن الرشد ، وينبغى أن يضطلع بمسئولية الحكم . فعزم الملك ، بتأثير نصائح مستشاريه ، على أن يتم تتويجه فى بيت المقدس فى يوم عيد القيامة . غير أن البطريرك وفريقا من رجال الدولة ، الذين أرادوا أن يسود السلام فى المملكة ، توسلوا إليه بأن تشترك معه أمه فى التتويج . غير أنه لم يستمع إلى هذه النصيحة ، وتم تتويجه منفردا فى يوم عيد القيامة سنة ١١٥١ ، وأدى هذا الإجراء إلى نشوب حرب أهلية بين أنصار كل من الملك والملكة[٣] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 204
Baldwin : op. cit. p. 534.

(٢) Runciman : op. cit II. p. 334.
Baldwin : op. cit. p. 535.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. pp. 204-205
Runciman : op. cit, II. p. 334.

ثم تلى التتويج ، انعقاد المحكمة العليا ، فطلب الملك إلى أمه اقتسام الملك والتنازل له ، على الأقل ، عن جانب من إرثه الشرعى . وتمّ الاتفاق على أن يحصل الملك على المدن الساحلية ، صور وعكا وتوابعهما ، بينما اختصت الملكة ببيت المقدس ونابلس . وتقرر عزل منَسّيس ، وتعيين همفرى الثانى صاحب يبنة ، كندسطبلا مكانه . على أن تقسيم المملكة لم يرض أحدا ، فلم تلبث العداوات أن نشبت من جديد ، وجرت محاصرة منسيس فى قلعته ميرابيل Mirabel الواقعة على حافة السهل الساحلى ، وأرغم على أن يتخلى عن أراضيه . وتقرر انتزاع نابلس من مليسندا التى لجأت إلى بيت المقدس ؛ فحصرها الملك ، فلم يسعها إلا التخلى عن بيت المقدس ، وأقر الملك حقها فى إقطاع نابلس ، وبذلك ساد السلام بينهما ، وأضحى فى وسع الملك أن يضطلع بأمور الدولة[١] .

وفى السنوات التى تلت توليه السلطة ، حدث تطوران هامان ، الأول أن الملك رأى ضرورة التدخل فى أمور أنطاكية وطرابلس . إذ حدث سنة ١١٥٢ ، أن لقى ريموند الثانى كونت طرابلس ، مصرعه بأيد جماعة من الباطنية . فتحتم على الملك أن يتولى القوامة على إمارة طرابلس ؛ وفى أنطاكية لم يجد نفعا نصائح كل من بلدوين الثالث ومانويل كومنين لإقناع الأميرة كونستانس بالزواج[٢] .

أما الأمر الثانى فهو ما كان من اتخاذ خطة للتوسع على الحدود ، والتماس التدابير التى تمنع زحف نور الدين ، الذى يشكل خطرا كبيرا . وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين هذين الأمرين الهامين ، فإنه يحسن أن

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 535.
Runciman : op. cit. II. p. 334-335.

(٢) Baldwin : op. cit. p. 536 Runciman : op. cit. II. p. 287.

ندرس أولا ما اتخذه بلدوين من سياسة التوسع ، لما لها من أثر مباشر على مملكة بيت المقدس .

الاستيلاء على عسقلان ١١٥٣ :

الواقع أن الدولة الفاطمية بلغت قدراً كبيراً من الانحلال والتداعى فى منتصف القرن الثانى عشر ، فلم يكن للخلفاء الفاطميين من الأمر شىء ، فاستبد الوزراء بالحكم ، وفى ذلك يقول ابن الأثير : « وكان الوزراء بمصر لهم الحكم فى البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته »[١] ؛ فلم يل أحد منهم السلطة إلا عن طريق القتال أو الغدر وما أشبه ذلك من الوسائل[٢] . وحاول الخليفة الحافظ أن يتخلص من نفوذ الوزراء ، بأن عين ابنه وزيرا غير أنه لم يلبث أن استبد بالحكم ، فلم يسع الخليفة إلا أن يتخلص منه بدس السم له ، سنة ١١٣٥[٣] . ومات الخليفة الحافظ سنة ١١٤٩ ، فخلفه ابنه الظافر الذى ظل يحكم من سنة ١١٤٩ إلى ١١٥٤ ، وانتزع الوزارة حاكم الإسكندرية العادل ابن السلار بعد انتصاره على ابن مصال سنة ١١٥٠[٤] . على أن ما يكنه الخليفة الفاطمى من الكراهية للوزير ، وما يشعر

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٢٤ .

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 349

وإلى ذلك يشير ابن الأثير « وكانت الوزارة فى مصر لمن غلب ، والخلفاء وراء الحجاب ، والوزراء كالمتملكين ، وقلّ أن وليها أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك » .

انظر ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٢٢ .

(٣) Wiet : L'Egypte Arabe p. 273

Grousset : op. cit, II. p. 349. Runciman : op. cit. II. p. 327.

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

(٤) Wiet : L'Egypte Arabe p. 281.

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٢٩٥ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١١ .

به الوزير من الخوف والحذر من الخليفة طوال عهد وزارته ، التى استمرت أكثر من أربع سنين ، لم يمنع الوزير من المضى فى توفير أسباب الأمن فى البلاد ، وفى اتخاذ نهج جديد فى سياسة مصر الخارجية ، بأن حاول التنسيق بين ما يبذل ضد الصليبيين من الجهود من قبل المسلمين فى مصر والشام ، بعد أن اتخذت الدولة الفاطمية موقفا سلبيا منهم ولم تحفل بهم[1] . فحرص ابن السلار على أن يجرى التفاهم مع نور الدين ، فأنفذ إليه سنة ١١٥٠ أسامه بن منقذ ، وكان نور الدين وقتذاك فى بصرى ، ودفع إليه « ستة آلاف دينار ، وحمل جمل ثياب دبيق ، وسقلاطون ، وسنجب ، ودمياطى وعمائم ، ورتب معه قوما من العرب أدلاء[2] » . وطلب إلى نور الدين أن يهاجم طبرية فيشغل الفرنج ، وعندئذ يهاجم ابن السلار غزة ، التى شرع الفرنج فى عمارتها ليحاصروا عسقلان [3] . غير أن أسامة أدرك أن نور الدين لم يبادر إلى مهاجمة طبرية ، لانصرافه وقتذاك إلى الاستيلاء على دمشق ، واعتذر بما يكنه له من عداوة أهل دمشق والفرنج معا[4] . هذا الحديث دل على طبيعة الوضع السياسى سنة ١١٥٠ ؛ فما حدث من تجدد التحالف بين دمشق وبيت المقدس ، كان من الأهمية ما منع نور الدين عن بذل المساعدة للفاطميين ، الذين أوشكوا أن يفقدوا آخر موضع لهم فى الشام (عسقلان) . ففى أثناء عودة أسامة ، اجتاز بعسقلان ، حيث أنشب

---

(١) ومن الدليل على ذلك أنها عهدت بإدارة إقليم سينا المجاور لحصن الشوبك ، من أملاك بيت المقدس ، إلى رجل مستهتر ، أرادوا إبعاده من القصر الفاطمى . انظر :

Wiet : L'Egypte Arabe. p. 285.

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٠ – ١١ .

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٠ .

Wiet : L' Egypte Aarbe p. 282.

(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٤ : قال نور الدين « أهل دمشق أعداء والفرنج أعداء ، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما » .

القتال مع الفرنج المجاورين فى غزة ويبنه ، الذين لم يكفوا عن مهاجمة المدينة[1] .

وفى أثناء المفاوضات الجارية بين الحكومتين الفاطمية والنورية ، إندفع الصليبيون إلى داخل الأراضى المصرية ، فهاجموا الفرما ، وأشعلوا بها الحرائق ، ووقع فى أيديهم بعض الأسرى ، فرد الفاطميون على ذلك فى السنة التالية (٥٤٦) ، بأن توجهت حملة بحرية فهاجمت يافا وصيدا وبيروت وطرابلس ، وأنزلت خسائر جسيمة بهذه الموانى ، وأحرقت بعض مراكب للحجاج ، وأثارت الرعب فى سائر الجهات[2] .

ولم يكن لمحاولة ابن السلار نتيجة ، فما حدث من الاضطرابات الداخلية بمصر ، أطاح بهذا الوزير القوى النشيط ، سنة ٥٤٨ (١١٥٣) ، أى فى الوقت الذى حشد فيه الفرنج فرسانهم ومشاتهم لحصار عسقلان[3] ؛ إذ لقى مصرعه بتدبير الخليفة الظافر وعباس بن أبى الفتوح ، ابن امرأته[4] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٨ .
أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٧ – ١٨ .

(٢) Wiet : L'Egypte Arabe p. 283.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٨٠ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٩١ .
أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٨ .
Wiet : op. cit. p. 283. Grousset : op. cit. II. p. 351.

(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٨ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٢٢ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٩ – ٣٢٠ .

واغتنم بلدوين الثالث فرصة ما ترتب على الثورات فى البلاد من انتشار الفوضى فى مصر ، فضلا عن ضعف الوزير الجديد ، عباس بن أبى الفتوح الذى خلف ابن السلار فى الوزارة ، لتحقيق ما يهدف إليه ، وهو الاستيلاء على عسقلان . ويشير ابن الأثير إلى « أن الفرنج كانوا كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون إلى ملكها سبيلا ، إذ كان الوزراء يرسلون إليها كل سنة ، من الذخائر والأسلحة والأموال والرجال ، من يقوم بحفظها ، فلما كان فى هذه السنة (٥٤٨) قتل ابن السلار ، واختلفت الأهواء فى مصر وولى عباس الوزارة ولم يستقر له الأمر ، اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحصروها »[1] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٢٤ .

الواقع أن بلدوين الأول وبلدوين الثانى ، وجها الاهتمام إلى الاستيلاء على عسقلان ، لارتباطها بجهودهما التى بذلاها للاستيلاء على المدن الساحلية ، ولما اهتم الملوك الذين تلوهم على العرش بأمر فتح مصر ، كان من الطبيعى أن يزداد الاهتمام بعسقلان . وسبق الإشارة إلى ما جرى من محاولات للاستيلاء على هذه المدينة . وفى المعاهدة التى انعقدت بين الصليبيين والبنادقة سنة ١١٢٣ ، ورد ما يشير إلى الاستيلاء على صور وعسقلان . ومنذ بداية استقرار الصليبيين فى فلسطين ، اعتبر كونتات يافا أنهم أيضاً كونتات عسقلان ، وما كان يصدر عنهم من منح وهبات ، امتدت أراضيها إلى داخل ممتلكات عسقلان . ففى سنة ١١٢٦ وعد هيو دى بيزيه **Hugues du Puiset** الداوية بثلث قرى عسقلان المشهورة بخصوبتها ، وهو بذلك يتعجل الوقت الذى تصير فيه عسقلان فى أيدى الصليبيين ، بل إنه جعل فى ١١٣٠ ، لأحد الأديرة المسجد الجامع بالمدينة ، ومع كل ذلك صمدت عسقلان .

وتعتبر عسقلان من أشد المدن مناعة ، فهى تقع على ساحل البحر ، فى صورة نصف دائرة ، يمتد قطرها على الساحل ، بينما اتخذ القوس وضعه على الأرض تجاه الشرق . وأحاط بالمدينة من كل الجهات تلال صناعية ، ارتفع عليها أسوار ، شيدت عليها الأبراج تفصل بينها مسافات ؛ وكلها مشيدة من الحجارة شديدة الصلابة ، واشتهرت هذه الأسوار بالاتساع ، وبأنها بالغة الضخامة وشاهقة الارتفاع ، وأحاط بالمدينة أيضاً استحكامات إضافية بالغة المناعة . ولم تكن عسقلان ميناء صالحة لرسو السفن ، لأن الشاطئ رملى وتثير الرياح العواصف بالبحر ، فيتعذر الاقتراب من الشاطئ إلا إذا كان الطقس هادئا . وليست التربة المجاورة لعسقلان صالحة للزراعة ، ومع ذلك يجود بها الكروم والفاكهة ، والوديان التى تقع بشمال المدينة يصح =

والمعروف أن الخلفاء الفاطميين حرصوا على أن ترابط بعسقلان حامية قوية ، يضاف إلى ذلك أن الحكومة تجرد كل ستة أشهر قوة من الفرسان ، ويختلف عددها وفقا لما يرد من المعلومات عن نشاط الصليبيين . فإذا التزموا الهدوء ، تقرر إرسال قوة من الفرسان ، من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ، وإذا صحت نيتهم على الهجوم ، ازداد العدد إلى ٦٠٠ ، ويتولى قيادة كل مائة فارس ، أمير ، يتقاضى مائة دينار برسم النفقة ، ويحصل الجندى على ثلاثين دينارا[1] . على أنه يصح التساؤل عن القيمة الحقيقية لقيادة هذه الأمداد ، الواقع أن الحكومة الفاطمية لم ترسل إلى الأقاليم المتاخمة للبلاد التى احتلها الفرنج ، سوى القادة والأمراء ، الذين يرغبون فى إبعادهم عن البلاط الفاطمى ، يضاف إلى ذلك ما ساد القاهرة من الفوضى والاضطراب ، والقتل والاغتيال[2] .

احتشد الجيش الصليبى أمام عسقلان فى يناير سنة ١١٥٣ ، وتألف من زهرة الفرسان الصليبيين ، والداوية والاسبتارية ، وصحب العسكر خمسة أساقفة فضلا عن البطريرك . وحرص جيرار صاحب صيدا الذى

= أن تمد أهلها بالفاكهة والخضروات . وأدرك الخلفاء الفاطميون أهمية عسقلان ، فإذا سقطت فى أيدى الصليبيين فلن يجدوا صعوبة فى المضى إلى الاستيلاء على مصر ، فاعتبروها سياجاً لهم يحميهم من الخطر الصليبى . انظر : Richard : op. cit p. 49

William of Tyre : op. cit. II. p. 219-220.

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٢٤٤ .

Wiet : op. cit. p. 283

على أن المؤرخ وليم الصورى يشير إلى أن المصريين دأبو على أن يرسلوا أمداداً قوية إلى حامية عسقلان ثلاث مرات أو أربعة فى السنة . انظر :

William of Tyre : op. cit. p. 203-220

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٢٤٤ .

Wiet : op. cit. p. 283.

قاد خمس عشرة سفينة ، على منع الخروج من المدينة ، ومحاولة إمدادها من جهة البحر ، غير أن المدافعين احتاطوا لذلك بتوفير المؤن والماء والسلاح والعساكر داخل المدينة . ولم يحرز الصليبيون شيئا من النجاح بعد أن مضى شهران على الحصار . فأمر الملك بلدوين بمنع الحجاج المسيحيين من العودة إلى بلادهم ، وطلب إليهم البقاء ليشتركوا فى حصار عسقلان ، فازداد بذلك عدد الصليبيين . على أنه حدث فى الشهر الخامس من الحصار ، أن وصل إلى عسقلان أسطول مصرى مؤلف من سبعين سفينة كبيرة ، وكثير من السفن الصغيرة ، فأنزل هزيمة ساحقة بأسطول صاحب صيدا ، وأنزل إلى البر المؤن والرجال . وحلت بالصليبيين هزائم ساحقة ، وهلك عدد كبير من رجالهم ، فعقد بلدوين مجلسا ، للنظر فى الموقف الحربى ، ورأى الملك والبارونات رفع الحصار ، غير أن البطريرك ومقدم الاسبتارية وكبار رجال الدين ، اعترضوا على هذا الرأى ، وأصروا على مواصلة القتال[1] . واستطاع الصليبيون آخر الأمر ، بفضل أدوات الحصار ، أن يحدثوا ثغرة فى سور المدينة ، لم يلبث أن أصلحه المدافعون .

وفى ١٩ أغسطس سنة ٥٤٨ – ١١٥٣ ، وبعد أن تعرضت المدينة للهجوم الشديد ، قرر جند الحامية التسليم ، بشرط السماح للسكان أن يغادروا المدينة بأمتعتهم ، فأجابهم بلدوين إلى هذا الطلب ، فخرجوا قاصدين مصر برا وبحرا ، بينما دخل إلى المدينة الفرنج فتسلموا قلعتها بما حوته من الأموال والذخائر ،

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. pp. 220-223,225-230.

Bladwin : The Latin States under Baldwin III. p. 538-539

Wiet : op. cit. p. 284.

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢١ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٩٠ .

وتقرر جعل عسقلان إقطاعا لأملريك ، شقيق الملك ، وكونت يافا[١] .

ويعتبر الاستيلاء على عسقلان آخر ما أحرزه ملوك بيت المقدس من انتصارات كبيرة ، نظرا لما لعسقلان ، عروس الشام ، من أهمية حربية بأن اكتمل لهم السيادة على شرق البحر من الإسكندرونة إلى غزة ، فصارت قاعدة لهم عند غزو مصر على يد أملريك شقيق بلدوين . على أنه لم يمض شهور على هذا الانتصار ، حتى استولى نور الدين على دمشق سنة ١١٥٤ ، فرجحت بذلك كفته على كفة بلدوين[٢] .

وما حدث فى الفترة من ١١٥٤ حتى ١١٥٨ من علاقات بين نور الدين وبلدوين الثالث ، تمثلت فيما جرى من غارات من الجانبين ، يتخللها عقد الهدنة والموادعة ، إنما يقابلها ما قام به الأسطول المصرى وقتذاك من هجمات على الموانى الصليبية . والواقع أن التطورات الفعلية جرت فى الشمال ، حيث أدى التدخل البيزنطى إلى تغيير فى الأوضاع القائمة ، وهو ما نعالجه فيما يلى .

بينما كان نور الدين يركز اهتمامه على دمشق سنة ١١٥٣ ، ورابط فى نفس السنة ، بلدوين بقواته أمام أسوار عسقلان ، قررت كونستانس آخر الأمر أن تتزوج ، بعد أن رفضت أيدى الأمراء الذين ترشحوا

---

(١) Grousset : op. cit. II. pp. 353-358.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 231-234
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢١ – ٣٢٢ .
Runciman : op. cit. II. p. 340.
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٢٤ – ١٢٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٩٠ .

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 341.
Grousset : op. cit. II. pp. 359-360.
Baldwin : op. cit. p. 538.

للزواج منها ، فوقع اختيارها على ريجنالد شاتيون ، الابن الأصغر لجفرى جيان Gien . وكان ريجنالد من الفرسان الذين صحبوا لويس السابع فى الحملة الصليبية الثانية ، ولما لم يكن له مستقبل فى وطنه ، قرر البقاء فى فلسطين ، فدخل فى خدمة الملك بلدوين الثالث ؛ الذى صحبه إلى أنطاكية سنة ١١٥١ فاستقر بها[١] . ولعل إقامته بأنطاكية يعتبر من الأسباب التى حملت الأميرة على رفض من تقدم لخطبتها من الأمراء ؛ وقررت آخر الأمر الزواج منه بعد استئذان الملك ، نظرا لأنه كان قيما على الإمارة . فتوجه ريجنالد إلى عسقلان ، فاستجاب الملك لرغبة كونستانس[٢] . وأشار وليم الصورى إلى ما حدث من مبادرة امرأة ، بالغة الشهرة والقوة ، كانت زوجة لرجل ذائع الصيت ، إلى أن تتزوج من أحد الفرسان[٣] . فما افتقر إليه ريجنالد من المكانة وعراقة الأصل ، أثار حوله الهمس والحديث ، وأوقعه فى مشاكل مع سادته الذين يفوقونه فى النسب والشرف . وما اشتهر به ريجنالد من الميل إلى إثارة القلق والتمرد ، وحب المغامرة ، أفسد ما له من صفات طيبة ، وجلب على الصليبيين فى الشرق الكوارث والمتاعب . غير أنه إلى جانب ذلك كله ، كان رجلا وسيما ، وفارسا شجاعا ، ومحاربا مقداما ، ولعل هذه الصفات هى التى جعلت الأميرة كونستانس تختاره زوجا لها دون الآخرين[٤] . والواضح أن الملك وافق على الزواج ،

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 345

(٢) William of Tyre : op. cit. II. p. 224.

Runciman : op cit. II. p. 345.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 224.

(٤) Baldwin : The Latin States under Baldwin III. p. 540

لانصرافه وقتذاك إلى حصار عسقلان ، ولما يؤدى إليه هذا الزواج من التخلص من تحمل مسئولية الوصاية على أنطاكية[١] .

على أن إيمرى بطريرك أنطاكية أنكر هذا الزواج ، ولعله كان يأمل بهذا الإنكار ، أن يطول أمد وصية كونستانس فيزيد ذلك فى سلطانه ، ولم يبذل الأموال التى طلبها ريجنالد ، فلم يسعه إلا القبض على البطريرك والإلقاء به فى السجن ، ولم يطلق سراحه إلا بعد توسط بلدوين الثالث ، فلجأ إلى بيت المقدس[٢] .

وهذا السلوك العدائى اتخذه ريجنالد أيضا مع الإمبراطور البيزنطى ، مانويل كومنين ، الذى كان وقتذاك منصرفا أيضا إلى إعداد حملة لقتال السلاجقة بآسيا الصغرى ، فلم يعترض على زواج ريجنالد من كونستانس ، على أن ينهض لقتال توروس الأرمنى ملك قليقية ، ووعده بأن يبذل له الأموال والنفقات . وقام ريجنالد برد الأرمن الذين توغلوا فى إقليم الإسكندرونة ، إلى قليقية ١١٥٥ ، ومنح البلاد التى استولى عليها إلى الداوية الذين عمروا قلعة بغراس الواقعة بين أنطاكية والإسكندرونة ، التى تسيطر على المنافذ المؤدية إلى الشام ؛ وبذا نشأت الصداقة بين الداوية وريجنالد ، التى سوف يكون لها أثر فى مصير بيت المقدس[٣] .

ولم يلبث ريجنالد أن غير سياسته مع بيزنطة ، بعد أن رفضت دفع النفقات له ، فتحالف مع توروس الأرمنى وتلقى التشجيع من الداوية . وقرر مهاجمة جزيرة قبرص الشهيرة بثروتها ، سنة ١١٥٦ ، فهبط إليها جنود ريجنالد وتوروس ، فأخذوا ينهبون ويسلبون كل ما صادفهم من الكنائس

(١) Beidwin : op. cit. p. 539.

(٢) Baldwin : op. cit. p. 540 Runciman : op. cit. II. p. 347.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 333-335

Runciman : op. cit. II. p. 346.

والأديرة والدكاكين ، بعد أن أنزلوا الهزائم بالقوات البيزنطية ؛ وجمعوا ما استطاعوا أن يجمعوه من المـاشية والأغنام ، وساقوها مع سكان الجزيرة إلى الساحل ؛ وارتكبوا من القتل والشرور ما يفوق أعمال الهون والمغول . ثم نقلوا معهم إلى أنطاكية حاكم الجزيرة ، وقائد قواتها ، وكبار رجال الكنيسة وكبار الملاك والتجار[١] .

وفى سنة ١١٥٧ تعرضت شيزر للهجوم من قبل بلدوين الثالث وكونت فلاندر وريجنالد شاتيون ، وكادت تسقط فى أيدى الفرنج ، لولا أن وقع الشقاق بين ريجنالد وكونت فلاندر الذى أراد أن يقيم له إمارة لاتينية ، وراء الأورنت ، تعوض ضياع الرها ؛ فلم يلبث نور الدين أن استولى عليها[٢] . على أن الفرنج استولوا على حارم فى فبراير سنة ١١٥٨ فعادت إلى أنطاكية[٣] .

بيزنطة واللاتين :

وحدث قبيل توجه بلدوين للقتال فى الشام ، أن قدمت سفارة إلى القسطنطينية تلتمس زوجة للملك بلدوين الثالث ، إذ أحس الناس فى بيت المقدس بضرورة الإبقاء على الأسرة المالكة ، غير أن اتخاذ قرار باختيار زوجة من بيزنطة ، كان بالغ الأهمية . إذ أدرك الفرنج شدة حاجتهم إلى محالفات جديدة بعد سقوط دمشق وشيزر فى يد نور الدين ، وزال التحالف بين دمشق وبيت المقدس ؛ فلم يعد بوسع الفرنج الإفادة من بنى منقذ ؛

---

(١) Runciman : op. cit II. p. 348.
Grousset : op. cit. II. pp. 335-336.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 253-254.
Baldwin : op. cit. p. 541.

(٢) Baldwin : op. cit. p. 542. Runciman : op. cit. II. p. 349
Gibb : The Career of Nur ad-Din. p. 521-522.

(٣) Baldwin : op. cit. p. 541.

والبوريين ، فى مناهضة حركة الجهاد الدينى وتوحيد الجبهة الإسلامية ، مثلما حدث زمن الملوك الأوائل حتى زمن بلدوين الثالث نفسه . فكان لزاما على الفرنج أن يقيموا مع الدولة البيزنطية اتفاقا دبلوماسيا وعسكريا ، بعد أن أحسوا باشتداد الخطر الإسلامى عليهم ، وأهمية توحيد الجبهة الإسلامية ؛ وبذا تتوافر لهم القوة الحربية(١) . وحدث فى خريف سنة ١١٥٧ ، أن توجه الرسل إلى القسطنطينية ، تطلب خطبة إحدى الأميرات البيزنطيات للملك بلدوين الثالث ، وتم الاتفاق على أن يتزوج بلدوين تيودورا ، ابنة أخ الإمبراطور مانويل ، وكانت رائعة الجمال ، على الرغم من أنها لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها . وقدمت تيودورا إلى بيت المقدس فى سبتمبر ١١٥٨ ، فتم زواجها وتتويجها فى احتفال رائع . واشتد اعجاب الملك بزوجته فظل وفيا لها طوال حياته(٢) ، وتخلى عن النزق والطيش ، وأخذ يؤدى الأعمال الهامة ، ويباشر بنفسه كل الأمور الخطيرة(٣) .

وأعد مانويل حملته ، وأخفى نواياه ، فلم يعلم بها توروس الأرمنى وريجنالد ، فلم يستعدا لمواجهته ، وكان توروس وقتذاك فى أكتوبر سنة ١١٥٨ فى طرسوس ، فلما علم بنزول مانويل فى سهل قليقية ، لم يسعه إلا الفرار إلى الجبال والاحتماء بها ، ولم يمض أسبوعان حتى صار فى قبضة مانويل كل مدن قليقية(٤) .

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 395.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 349-350

Grousset : op. cit. I. p. 396-398

Cahen : op. cit. p. 399.

William of Tyre : op. cit. II. pp. 273-275

(٣) bid : op. cit. II. p. 275.

(٤) Runciman : op. cit. II. pp. 351-352.

Cahen : op. cit. p. 400.

وارتاع ريجنالد لقدوم الإمبراطور ، فلم يتوقع المساعدة من أحد ، إذ سبق أن كتب إلى الملك لويس السابع يطلب الزواج من ابنته ، غير أنه لم ينتظر منه مساعدة حربية عاجلة . وما وجهه من إساءة إلى البطريرك ، أدى إلى كراهية البطريرك والتآمر مع البيزنطيين ضده ، أما بلدوين الثالث فإنه لم يقر سياسة ريجنالد ، وليس بوسعه أن يؤيد أطماعه الشخصية . وكيفما كان الأمر ، فإن ما التزمه مانويل من السرعة فى مسيره ، لم يهيء الفرصة لبلدوين للتدخل[1] .

أدرك ريجنالد أنه ليس فى وسعه مقاومة هذا الجيش الضخم ، والواقع أن هذا الاعتراف بالضعف أدى إلى إنقاذه لأنه يستطيع أن ينال من الشروط بإذعانه واستسلامه ما لم ينله إذا لحقت به الهزيمة . وبيّن له جيرار أسقف اللاذقية أن كل ما يبتغيه الإمبراطور ، هو إظهار الهيبة لا الفتح[2] . ولم يطلب من ريجنالد سوى الخضوع والإذعان ، ولم يقصد من الحملة أن يقهره ويحطمه . ولم ينتظر ريجنالد قدوم بلدوين الثالث ، كيما يفيد من وساطته فى الحصول على شروط طيبة ، بل بادر بالتوجه إلى مامسترا ، فى قليقية ، حيث عسكر الإمبراطور بعساكره . وارتدى ريجنالد ثوب التائب ، وهو رداء من الصوف قصير الأكمام ، وسار حافى القدمين ، ولف حبلا حول عنقه ، وقد أمسك سيفه بيده . فلما مثل بحضرة الإمبراطور سلم سيفه إلى مانويل ، ثم انبطح على الأرض ، وأخذ يمرغ وجهه فى التراب أمام منصة الإمبراطور ، بينما رفع رجاله أيديهم متضرعين . وأثار هذا المنظر اشمئزاز الحاضرين ، من كبار رجال الكنيسة البيزنطية ، والرسل القادمين من قبل نور الدين والخليفة العباسى والأمير الدانشمندى وملك

---

(١) Cahen : op. cit. p. 400.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 352.

Cahen : op. cit. p. 400.

جورجيا ، لما اشتهر به ريجنالد من التطرف والحدة فى ارتكاب الذنوب ، وفى الاستغفار والتوبة[١] . وأدرك الإمبراطور أنه يستطيع أن ينال ما يريد من أمير ضعيف ذليل مثل ريجنالد ، وأنه من اليسير أن يجرى معه اتفاقا قبل أن يتدخل بلدوين الثالث . فلم يعف عنه إلا بشروط ثلاثة : أن يسلم القلعة (أنطاكية) لرجال الإمبراطور ، وأن يمد الجيش البيزنطى بكتيبة من عساكره ، متى طلب منه ذلك ، وأن يكون بطريرك أنطاكية يونانيا لا من اللاتين[٢]. وبذا انتقم مانويل لما حدث من استباحة قبرص ، وحصل على الاعتراف بسيادته على أنطاكية ، يضاف إلى ذلك أن تنصيب بطريرك يونانى يرمز إلى انتصار الكنيسة البيزنطية ، ثم أذن له الإمبراطور بالعودة إلى أنطاكية[٣].

ولم يمض إلا زمن قصير على عودة ريجنالد إلى أنطاكية ، حتى قدم إليها بلدوين وبصحبته أخوه أملريك والبطريرك ايمرى ، وجماعة من النبلاء المشهورين ، فأرسل يطلب مقابلة الإمبراطور ، فأذن له بذلك ، فخرج بلدوين من أنطاكية إلى معسكر الإمبراطور ، فاحتفل الإمبراطور بقدومه ، واستمرت المحادثات بينهما عشرة أيام ، أسفرت عن صفح

---

(١) William of Tyre : op. cit II. p. 276-277.
Runciman : op. cit. II. p. 352. Baldwin : op. cit. p. 543.

(٢) Cahen : : op. cit. p. 400.
Runciman : op. cit. II. p. 352.
Baldwin : op. cit. p. 543. Cahen : op. cit. p. 400.

(٣) Baldwin : op. cit. II. p. 543.
Runciman : op. cit. II, p. 352. Cahen : op, cit. p. 400.
الواقع أن مانويل لم يبعث إلى أنطاكية بطريركا يونانيا إلا سنة ١١٦٥ .
انظر : Cahen : op. cit. p. 400

الإمبراطور عن توروس الأرمنى ، فأجاز له الاحتفاظ بممتلكاته بالجبال ، وتوثقت العلاقات الطيبة بين الملك الشاب والإمبراطور البيزنطى ، فلم يصر مانويل على تنصيب بطريرك يونانى على أنطاكية . وتقرر عقد اتفاق بين مانويل وبلدوين ، انطوى على ما يدل على انتماء الملك إلى الإمبراطور بأن تعاهد أن يقدم لمانويل كتيبة من الجيش ، على أننا نلمس فى هذا الاتفاق نصا عن التحالف يتضمن أن بلدوين حصل مقابل ذلك على إقرار الإمبراطور بتخفيض حامية أنطاكية ، وكان ذلك فى صالح الفرنج بالإمارة ؛ فأضحى بلدوين بذلك حاميا لسكان أنطاكية من تهور البيزنطيين وشدتهم ، وكفل لبيزنطة فى الوقت ذاته ، ولاء هؤلاء السكان وإخلاصهم . وطلب بلدوين من الإمبراطور البيزنطى أن يعد من العساكر ما يلزم لقتال نور الدين . وبعد أن نجح بلدوين فى التوفيق بين سائر القادة المسيحيين ، وكسب رضى اليونانيين والأرمن ، عاد إلى أنطاكية ، وقد غمره الإمبراطور بالهدايا ، وأبقى أخاه أملريك لدى الإمبراطور البيزنطى[١] .

وفى اليوم التالى لعيد الفصح ، فى ١٢ أبريل ١١٥٩ ، دخل الإمبراطور البيزنطى إلى أنطاكية فى احتفال رائع ، فرحب به ، بلدوين وريجنالد وأتباعهما وأعيان المدينة . وظل عَلَم الإمبراطور يرفرف على القلعة ثمانى أيام ، وغمر السكان بالهدايا والمنح ، وجرت إقامة حفلات للمبارزة ، واشترك الجميع فى حملات للصيد ، أظهر فيها الإمبراطور براعته[٢] . ولما

---

(١) Cahen : op. cit. p. 400-401 Runciman : op. cit. II. p. 352
Baldwin : op. cit. p. 544

(٢) Runciman : op. cit. II. pp. 353-355.
Cahen : op. cit. p. 401-402
William of Tyre : op. cit. II. pp· 279-280.

تعرض ذراع بلدوين للكسر أثناء الصيد ، أصر مانويل على أن يتولى علاجه بنفسه[١] .

وعلى الرغم من أن هذه الاحتفالات دلت على ما للإمبراطور من هيبة ومكانة ، فالواقع أنه لم يكن يبتغى الغزو والفتح ، ومن الدليل على ذلك أنه لم يحرص على المضى فى قتال نور الدين ، بل آثر أن يتفق معه ، بعد أن أطلق نور الدين سراح الأسرى الصليبيين ، ومن بينهم اثنان من مقدمى الفرنج ، وهما برترام كونت تولوز ومقدم الداوية . ثم عاد مانويل إلى القسطنطينية ، ولم يسع بلدوين إلا الرجوع إلى بيت المقدس[٢] .

والخلاصة أن رحلة الإمبراطور إلى الشام لم يكن لها غرض سوى استرجاع قليقية وإعادة سلطانه على أنطاكية[٣] . على أن ما أحرزه من نجاح فى هذين الأمرين ، ولا سيما ما تعلق منه بأنطاكية ، يرجع جانب منه إلى ضغط نور الدين على الصليبيين . يضاف إلى ذلك أنه أفاد من

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 280.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧ — ٣٥٨ .

Grousset : op. cit. I. pp. 416-417.

Runciman : op. cit II. p. 354. Baldwin : op. cit. p. 545

(٣) وعلى الرغم من أن هذه الأحداث تردد صداها نحو عشرين سنة ، وهى الفترة التى سيطرت فيها بيزنطة على سياسة الشام ، فلم نلمس فى أنطاكية أثناء هذه السنوات الإدارة البيزنطية المباشرة ، على حين أن قليقية خضعت للحكم البيزنطى المباشر . يضاف إلى ذلك أن بلدوين لم يصر على تنصيب بطريرك يونانى ومع ذلك فإن بلدوين حظى بالتحالف مع بيزنطة ، بفضل ما أظهره من الدبلوماسية البارعة ، وما حدث من مصاهرته للامبراطور البيزنطى .

انظر : Baldwin : op. cit. p. 544.

Grousset : op. cit. II. p. 417.

الصلح مع نور الدين ، فى مهاجمة قلج أرسلان سنة ١١٦٠ ، الذى أعاد للإمبراطور بعض المدن ، وتعهد بمهاجمة أعداء الإمبراطور ، وأظهر نواياه الطيبة ، بأن زار القسطنطينية سنة ١١٦١[١] . والواقع أن الإمبراطور لم يفكر فى تقويض سلطة نور الدين فما تحرزه الإمبراطورية من نجاح فى الشرق ، يتوقف على النضال بين اللاتين ونور الدين . فإذا تدمرت سلطة نور الدين ، اتحد اللاتين لمناوأة الإمبراطور ، ولذا حرص الإمبراطور على أن يجعل الفرنج يحسون دائما بما يتهددهم من خطر من قبل المسلمين ، فيتيسر له بذلك مباشرة سلطانه ونفوذه عليهم[٢] .

على أنه ينبغى أن نضيف إلى ذلك أن الإمبراطور لم يشأ أن يقطع علاقته باللاتين . إذ حدث سنة ١١٦٠ (أو ١١٦١) ، أن توجهت سفارة بيزنطية إلى الملك بلدوين تطلب ترشيح أميرة للزواج من الإمبراطور البيزنطى ؛ فعرض بلدوين أن يتزوج الإمبراطور إما من مليسند أخت كونت طرابلس ، أو ابنة كونستانس أميرة أنطاكية (مارية) . وحرص بلدوين على أن يتزوج الإمبراطور من مليسند ، حتى لا يقوم تحالف أسرى بين الإمبراطور وأنطاكية ، غير أن الإمبراطور رفض خطبتها فى أغسطس سنة ١١٦١ ، ولم يسع شقيقها ريموند الثالث إلا أن يغير بأسطوله المؤلف من ١٢ سفينة على جزيرة قبرص[٣] . على

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 421-422.
Chalandon : Les Comnenes p. 462.
Baldwin : op. cit. p. 545. Runciman : op. cit II, p. 356.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 419.
Chalandon : Les Comnenes II. pp. 434-454

(٣) Runciman : op. cit. II. pp. 359-360.
Baldwin : op. cit. p. 546

أنه حدث وقتذاك بأنطاكية من الأمور الهامة ما تطلب المهارة الدبلوماسية ، إذ حدث فى نوفمبر سنة ١١٦٠ (١١٦١) أن وقع ريجنالد أمير أنطاكية فى كمين للمسلمين ، فأسروه ونقلوه إلى حلب حيث بقى فى الأسر ١٦ سنة ، ولم يكن هذا الأسر إلا نتيجة لما قام بها من غارات استاق فيها دواب ومواشى وأغنام المسلمين(١) . وترتب على أسر ريجنالد أن أضحت إمارة أنطاكية شاغرة . وإذ خشى البارونات ، ما اشتهرت به كونستانس من الميول نحو بيزنطة ؛ استنجدوا بالملك بلدوين ، فقدم إلى أنطاكية ، وتولى القوامة عليها ، وعهد إلى البطريرك ايمرى بإدارتها عند عودته إلى بيت المقدس(٢) .

واكتشف بلدوين أثناء إقامته فى أنطاكية الرسل البيزنطيين ، الذين سبق أن تفاوض معهم فى طرابلس فى أمر خطبة مليسند للإمبراطور مانويل . ودارت المفاوضات بينهم وبين كونستانس حول خطبة ابنتها مارية ، ولم يسع الملك بلدوين إلا أن يقر ما اتخذته كونستانس من قرار بالموافقة

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 547 Stevenson : op. cit. p. 183-184.
Grousset : op. cit. II. pp. 423-425.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. pp. 283-284.
Grousset : op. cit. II. pp. 425-427.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 287-288.

المعروف أن ريجنالد حكم أنطاكية على أنه زوج للأميرة كونستانس ، فلما جرى حبسه فى حلب ، كان لابد من قيام حكومة قوية بها . وكان لزاماً على الإمبراطور البيزنطى باعتباره سيد أنطاكية ، أن يتكفل بذلك ؛ غير أن كراهية أهل أنطاكية له ، وابتعاده عن مجال الأحداث ، ولما سبق لملوك بيت المقدس من التدخل لمصلحة الحكام الشرعيين ، تطلع سكان أنطاكية إلى بلدوين ، الذى قدم فأعلن أن بوهمند الثالث هو الأمير الشرعى ، وساء كونستانس هذا التدبير ، فاستنجدت بالإمبراطور البيزنطى . (انظر Runciman : op. cit. II. p. 358.)

على أن تصهر للإمبراطور ، لأنه لم يشأ أن يقطع صـــلته نهائيا بالإمبراطور البيزنطى ، الذى تزوج من ماريا فى القسطنطينية فى ديسمبر سنة ١١٦١[1] .

أدرك بلدوين قيمة التحالف مع بيزنطة ، إذ أخلد المسلمون إلى الهدوء والسكينة فى السنتين التاليتين . ثم تأهب بلدوين للعودة إلى مملكته بعد هذه الصدمة الدبلوماسية التى نجمت عن زواج الإمبراطور البيزنطى . فلا زال البارونات بأنطاكية يساورهم الشك فى تآمر كونستانس مع الحكومة البيزنطية . فقرروا آخر الأمر الالتجاء إلى توروس الأرمنى فنهض لمساعدتهم ، وطردوا الأميرة كونستانس سنة ١١٦٣ ، وجعلوا على الإمارة ابنها بوهمند الثالث الذى بلغ وقتذاك سن الرشد[2] .

خاتمة حياة بلدوين الثالث :

أما الملك بلدوين فاستبد به الحزن لوفاة أمه فى سبتمبر ١١٦١ ، أثناء وجوده بأنطاكية ؛ فدهمه المرض ، أثناء اجتيازه طرابلس ، فى طريقه إلى بيت المقدس ولم يجد العلاج الذى وصفه له طبيب ريموند الثالث ، ولما أدرك أن شفاءه بات مستحيلا ، طلب نقله إلى بيروت ، حيث استدعى إليه نبلاء المملكة ورجال الدين ، وبعد أن اعترف بذنوبه

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 546-547

Runciman : op. cit. II. p. 360. Grousset : op. cit. II. pp. 428-432.

William of Tyre : op. cit. II. pp. 287-290.

(٢) Baldwin : op. cit. p. 547

مات فى فبراير ١١٦٣ ، وتقرر نقل جثمانه إلى بيت المقدس ، حيث جرت موازاته بكنيسة القيامة[١] .

أشاد الصليبيون بجهود بلدوين الثالث ، فبينما واجه فى مستهل حكمه ما حدث من ضياع الرها ، وفشل الحرب الصليبية الثانية ، حرص على المحافظة على أنطاكية ، وأن يمد أطراف مملكة بيت المقدس نحو الجنوب . وقبيل وفاته أدرك أنه لا زال ثمة من الأسباب ما يدعو إلى ضرورة التحالف مع بيزنطة ، الذى سوف يؤتى ثماره . ولقى الاحترام من كل معاصريه من المسلمين والمسيحيين ، ومن اليونانيين والسريان واللاتين[٢] .

ويرى وليم الصورى الذى يعرفه تمام المعرفة ، أن بلدوين كان ملكا مثاليا ، لم يتجاوز الثالثة والثلاثين سنة عند وفاته ، اشتهر بسلامة التفكير ، وبطلاقة الحديث ، وبالميل الشديد إلى المرح ، وعلى الرغم من أن عطاياه غمرت الناس ، فإنه لم يتطلع إلى أموال الآخرين . فلم يتعرض بسوء لأملاك الكنائس ، ولم يترصد إلى أموال رعاياه . واشتهر بصفة ، لم يحفل بها الشبان ، إذ كان يخشى الله ، ويكن الاحترام والتبجيل للمؤسسات الكنسية وكبار موظفى الكنيسة . كان يميل إلى المرح ، وامتاز بذاكرة حادة ، وفاق فى التعليم والثقافة أخاه أملريك ، فأنفق وقت الفراغ فى المطالعة والقراءة . وكان يأنس بصفة خاصة إلى الاستماع إلى قراءة التاريخ ، وأولى الاهتمام الشديد بما ورد فيه عن أعمال وعادات

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 547. Runciman : op. cit. II. p. 361.

William of Tyre : op. cit. II. p. 292-294.

Grousset : op. cit. II. pp. 432 - 433.

(٢) : Baldwin : op. op. cit. p. 547.

الملوك والنبلاء فى العصور الخالية ، وشغف بالتحدث إلى رجال الأدب والفلسفة. وما اشتهر به من الميل إلى المرح والسرور جعله يتبسط مع سائر الناس ، فيثير بذلك دهشتهم ، وهيأ الفرصة لكل من أراد أن يتحدث إليه ، وإذا أراد أحد أن يحظى بمقابلته ، فلا يرد له طلبا[١] .

وبهذه الوسيلة نال رضى رجال الدين وسائر الناس ؛ فنال من محبة هاتين الطبقتين ما لم ينله أحد من أسلافه . وتحمَّل فى صبر ما تعرض له من الشدائد ، وأظهر ، شأن كبار الأمراء ، التعقل والحكمة وبعد النظر فى كثير من أمور الحرب التى لم تتبين مصائرها . وأظهر من البسالة والإقدام فى الموقف الحرج الذى تعرض له أثناء مد أطراف المملكة ، ما يليق بملك عظيم ، ولم يلبث أن افتقر إلى تمكين الرجل الشجاع .

كان على دراية تامة بقوانين المملكة ، وطالما لجأ إليه الشيوخ يلتمسون النصيحة[٢] ، ولما اشتهر به من الاستعداد من مسايرة كل شخص ، كثر اختلاطه بالناس على اختلاف أعمارهم وأحوالهم ، وتبسط معهم فى الحديث ، وأظهر لهم قدرا كبيراً من المجاملة والدماثة ، على أنه إذا كشف عند أصدقائه أخطاء فاحشة ، لم يتردد فى أن يبادر إلى إصلاحها سواء ساءهم هذا الإجراء أو لم يسئهم . ونظرا لأنه لم يقصد الإساءة إلى أصدقائه ، فإن محبتهم له لم تتأثر بذلك ، على أنه كان يستمع فى هدوء إلى ما يوجه إليه من نقد لاذع . وما اتصف به فى مستهل حياته وأثناء صباه من حياة اللهو والمجون والفجور ولعب القمار ، لم يلبث أن تخلى عنها بعد زواجه . فكان بلدوين من أشهر ملوك بيت المقدس ، ويعتبر عصره من أهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية[٣] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. pp. 137-138

(٢) William of Tyre : op. cit. II. p. 138

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 138-139.

Baldwin ; op. cit. p. 548

Grousset : op. cit. II. p. 432-435.

أملريك (١١٦٣ - ١١٧٤) :

لم ينجب بلدوين الثالث ذرية ، فكان من الطبيعى أن يخلفه على الحكم ، أخوه الأصغر أملريك ، كونت يافا وعسقلان . ويختلف أملريك اختلافا كبيراً عن أخيه بلدوين الثالث ، فى المزاج والطباع ، ومع ذلك فإنه ادخر من الصفات ما جعل منه ملكا مشهوراً[١] .

كان أملريك متوسط الطول ، جميل الخلقة ، أصهب الشعر ، كثيف اللحية ، وإذا ضحك ، كان يقهقه ، فيهتز جسمه ، يميل إلى الحديث مع الأذكياء الفطنين من الناس ، ومع الذين استهوتهم البلاد النائية والعادات الغريبة . وعلى الرغم من اعتداله فى تناول الطعام وامتناعه عن شرب الخمر ، فإنه كان بالغ السمنة[٢] .

اشتهر بالفطانة والاهتمام بالأمور الدنيوية ، ومع أنه لم يكن طلقا فى حديثه ، فإنه فاق جميع نبلاء المملكة فى حدة تفكيره ، وصدق إدراكه . وبرع فى قانون العرف الذى يحكم به البلاد ؛ وعالج فى قوة وحكمة الأزمات التى صادفته أثناء محاولاته لمد أطراف مملكته . ومع أنه يقل فى ثقافته وتعليمه عن أخيه بلدوين ، فإنه بفضل ذكائه الحاد ، وذاكرته الواعية ، وقف على كل الأمور التى تهم عادة الملوك ، فدأب فى وقت فراغه على أن يناقش ويطالع أمور الدولة ؛ وبرع فى توجيه الأسئلة عن هذه الأمور ، وأبدى الاهتمام الشديد بالتماس الحلول لها ، وشغف بدراسة التاريخ ، وآثره على سائر أنواع المعرفة .

والواضح أن وليم الصورى كان يطالع التاريخ لأملريك ، وما قصد

---

(١) **Baldwin : op. cit. p. 548**

(٢) **William of Tyre : op. cit. II p. 298.**

أصلا بكتابة تاريخه إلا ليطالعه له[١]. ولم ينس أملريك مطلقا ما سمعه ، وفى وسعه أن يردد بدقة ما استمعه . ولم يوجه اهتمامه إلا إلى الأمور الجادّة ، فلم يحفل باللهو واللعب ، فيما عدا ما كان يلحظه من انقضاض البزاة على غزاتها ، واشتهر بجلده وقدرته على تحمل المشاق[٢] .

ومن الدليل على تقواه أنه أمر بأن تؤدى العشور كاملة للكنيسة ، وعكف على أن يشهد القداس كل يوم مالم يمنعه مرض أو عذر قهرى . وبالغ أملريك فى منح الثقة لنوابه الذين عهد إليهم بالأمور ، ولم يستمع للتعريض بهم ، حتى اعتبر فريق من الناس ، هذه الصفة من عيوبه ونقائصه . على أن أملريك لم ينل من محبة الناس ما ناله أخوه بلدوين ، إذ افتقر إلى ما اتصف به أخوه من الإيناس والبشاشة والطلاقة ، فلم يقبل على التحدث إلى الناس إلا مضطرا ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، أو تحتم عليه أن يرد على حديث لأحد الناس . واشتهر أملريك بالفجور واغتصاب السيدات المتزوجات ، وجأر رجال الدين بالشكوى من أنه اغتصب حقوقهم وأملاكهم دون سند قانونى ، وأثقل كاهل أراضى الكنيسة بالضرائب ، فتجاوزت ديونها ما تتحصل عليه من الموارد[٣] .

وبرر أملريك شراهته للحصول على المال بما أشار إليه من أن أموال الرعية والأفراد لازالت سليمة ما لم يكن الملك فى حاجة إليها ، وما يحصل عليه من الأموال ينفقه فى صالح المملكة . ومع ذلك فإنه التمس من الأسباب التافهة ما جعله يعتدى على حقوق رعاياه ويغتصب أموالهم[٤] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 296.

(٢) Ibid. : op. cit. II. p. 297.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 298.

(٤) William of Tyre : op. cit. II. p. 298

لم تتم ولاية أملريك الحكم دون معارضة من قبل البارونات ، ولعل تلك المعارضة راجعة إلى زوجة الملك ، أجْنِس كورتيناى ، التى اعتبروها غير جديرة بالملك ، لما اشتهرت به من التآمر وإلحاق الضرر بالمملكة[1] . وعلى الرغم من أنها ابنة عم أملريك فإن ما بينهما من صلة القرابة ، تعتبر من الدرجات التى حرمت الكنيسة الزواج منها . ولذا رفض البطريرك إقرار الزواج ، وطالب بموافقة البارونات ، بإلغائه ، ولم يتردد أملريك فى الاستجابة لذلك ، بشرط المحافظة على حقوق طفليه منها ، بلدوين وسبيلا . ومن أسباب كراهية أجنس أيضاً أنها أكبر سنا من أملريك ، وسوء سيرتها[2] .

وأثار عداء البارونات أيضاً ما حدث من تعيين ميلز بلانسى Miles of Plancy صنجيلا للمملكة ، فكان لزاما على ميلز أن يتزوج من ستيفانى أرملة همفرى سيد تبنين ، وبذا حاز إقطاع الشوبك[3] .

وما أصدره أملريك فى السنة الأولى من حكمه ، من قانون عزز مركزه فاغتنم ما وقع من النزاع بين جيرار صاحب صيدا وأحد أتباعه ، ومبادرته جيرار إلى نزع إقطاعه دون مبرر ، والتجاء التابع إلى المحكمة ، ومساندة أملريك له . فأصدر القانون المعروف باسم قانون التبعية Assise sur la ligece ، الذى أجاز للتابع الالتجاء إلى المحكمة العليا ، لعرض شكواه ضد السيد ، وتضمن مطالبة أتباع الأتباع بأن يؤدوا يمين الولاء مباشرة للملك . فتضاءلت سلطة كبار المقطعين ، وزاد فى قوة الملك ، الذى أخضع لسلطانه المحكمة العليا . والمعروف أن

---

(١) Runciman : op. cit. II. 362· Baldwin : op. cit. p. 549.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 362.

William of Tyre : op. cit. II. pp. 300-302.

Grousset : op. cit. II. pp. 437-438.

(٣) Baldwin : op. cit. p. 549.

المحكمة العليا تألفت من هؤلاء المقطعين الذين صدر القانون لمناهضتهم ، فلو أن الملك كان ضعيفا لجرى تطبيقه أيضاً على مقطعى الضياع الملكية[١] .

السياسة الخارجية :

لما استقرت الأمور فى داخل مملكة بيت المقدس ، تهيأت الفرصة لأملريك لأن يلتفت للشئون الخارجية . ففى الشمال كان مستعدا لأن يضحى بأنطاكية للبيزنطيين ؛ فحينما حدث أواخر سنة ١١٦٢ ، أن وقعت الاضطرابات فى قليقية بعد مصرع شقيق توروس ، الذى اتهم الحاكم البيزنطى فى قليقية بتدبير المؤامرة ، هاجم مامسترا وعين زربه وفاخا Vakha ، وأوقع بالقوات البيزنطية ، فنهض أملريك إلى مساعدة الإمبراطور ، الذى عين حاكما على قليقية ، قائدا كفئا ، مجرى الأصل ، اسمه قنسطنطين كولومان Coloman . فلما قدم إلى قليقية على رأس قوات جديدة ، انسحب توروس إلى الجبال[٢] .

بلغ بوهمند الثالث ، أمير أنطاكية ، سن الرشد ، وصار من حقه أن يتولى الحكم ، ويباشر السلطة ، ولما كانت كونستانس حريصة على الإبقاء على سلطتها ونفوذها ، لجأت إلى كولومان ، تطلب منه مساعدة حربية ، فاشتدت ثائرة سكان أنطاكية ، وتقرر آخر الأمر نفى كونستانس ، فتولى بوهمند الحكم[٣] ؛ ولم يعترض الإمبراطور البيزنطى على هذا التغيير ، ولعل ذلك يرجع إلى أن أملريك تعاهد باحترام سيادة الإمبراطور على أنطاكية . على أن أملريك كتب إلى لويس السابع ملك فرنسا ، يسأله ما إذا كان يأمل منه أن يرسل جنودا إلى اللاتين فى الشرق[٤] .

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 549. Runciman : op. cit. II. p. 364.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 364.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 365.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 365.

والواقع أن أملريك علّق أهمية كبيرة على نوايا بيزنطة ، كيما يتحقق أكبر هدف سياسى له ، وهو السيطرة على مصر. فالمعروف أن بقاء الإمارات اللاتينية يتوقف أساساً على ما يقع بين الإمارات والبلاد الإسلامية المجاورة من اختلاف وفرقة . وما حدث من إقامة دولة كبيرة متحدة فى الشام خاضعة لنور الدين تضم حلب وحماه ودمشق ، أوصدت فى وجه الفرنج الطريق المؤدى إلى الشمال الشرقى ؛ فلم يسع الفرنج إلا أن يلتفتوا إلى اتجاه آخر ، وهو مصر ، التى بلغت أواخر زمن الفاطميين أقصى درجات الانهيار(١) .

الواضح أن أملريك وجه اهتمامه إلى فتح مصر ، منذ أن تولى حكومة عسقلان ، بعد سقوطها فى أيدى الصليبيين سنة ١١٥٣ ، وزاد من هذا الاهتمام ما أجراه نور الدين من توحيد القوى الأسلامية فى الشام تحت زعامته ، فإذا سقطت مصر فى أيدى المسلمين السنيين بالشام ، تم تطويق الإمارات اللاتينية . يضاف إلى هذه الاعتبارات الحربية ما كان لمصر من مركز تجارى هام ، وما لها من ميناء كبير مثل الإسكندرية . ولم يكن نور الدين غافلا عن الأحداث التى تجرى بمصر ، ولم يكن بوسعه فحسب أن يتدخل فى أمور مصر بطريقة مباشرة ، بل أيضا بعرقلة أعمال اللاتين ، بأن يحول اهتمامهم واتجاههم إلى أطراف المملكة والإمارات الشمالية ، بما يوجهه إليها من هجمات ؛ كلفت الفرنج ثمنا باهظا(٢) .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 365. Baldwin : op. cit. p. 549.
Grousset : op. cit. II. p. 443.

(٢) Baldwin : op. cit. p. 550.

أحوال مصر :

خضع الخلفاء الفاطميون منذ زمن طويل لنفوذ الوزراء ، الذين استحوزوا على السلطة ، بطريق العنف والالتجاء إلى ارتكاب الجرائم . وازداد الاضطراب والفوضى منذ سقوط عسقلان ١١٥٣ . ولم يبق الوزير عباس إلا سنة واحدة ، حدث أثناءها أن دبر عباس مع ابنه نصر وأسامة بن منقذ ، أمر اغتيال الخليفة الظافر ١١٥٤ ، وتنصيب ابنه الفائز فى الخلافة ، ولم يتجاوز الخامسة من عمره [١] . ولم يشأ عباس أن يكون على العرش وصاية ، وارتكب من الجرائم ما أثار السخط والعداوة ، « واستوحش الناس قتل هؤلاء الأئمة » [٢] . واشتد الأسى والحزن بأخوات الفائز فالتمسن مساعدة طلائع بن رزيك ، وهو أرمنى ، والى الأشمونين والبهنسا ، فحشد جنده وتوجه نحو العاصمة [٣] . ونجح عباس أول الأمر فى إلحاق الهزيمة بابن رزيك ، غير أنه أدرك ما يكنه له الجند والأمراء من العداوة ، وأنه لا مقام له بينهم ، وقرر الخروج من مصر ، والمسير إلى الشام ، والاستنجاد بنور الدين [٤] . وإذ خشى الوزير عباس أن يتآمر عليه ، أسامة مثلما فعل بالخليفة الظافر ، ألزمه بالمسير معه ، فى ٢٩ مايو

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .
أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢٠ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .

Wiet : op· cit. p. 285. Grousset : op. cit. II. pp. 440-441·
Runciman : op. cit. II. pp. 365-366.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٢٩٧ .
(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٢٩٧ .
(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢٣ .

سنة ١١٥٤ ، واتخذوا طريقهم عبر شبه جزيرة سينا ، متجهين نحو أيلة ، ومنها يسيرون إلى شرق الأردن وإلى دمشق[١] . على أنهم تعرضوا أثناء السير لهجمات البدو ، فلما اقتربوا من أطراف الممتلكات اللاتينية ، انقض عليهم فجأة الفرنج ، على المويلح[٢] . وهؤلاء الفرنج ، من حامية حصن الشوبك ، اتخذوا فيما يبدو لهم موقعا أماميا فى هذه الجهة ، المويلح . ولقى عباس مصرعه ، ووقع ابنه نصر فى الأسر ، وأخذ الفرنج خزائنه وحرمه . ومضى أسامة بمن نجا معه ، فى طريقه حتى بلغ دمشق فى يونيه سنة ١١٥٤[٣] . وكان نصر بن عباس من نصيب الداوية فى الغنائم ، فباعوه للفاطميين مقابل ٦٠ ألف دينار ، فتسلمه أرامل الخليفة ، فنكّلن به ، وأمرن بقطع أوصاله ثم صلب على باب زويله ، وبقى مصلوبا مدة سنتين ، (٥٥١ هـ - ١١٥٦)[٤] .

وإذ تخلص ابن رزيك من خصمه . ظل يسوس الأمور فى هدوء واطمئنان سبع سنوات (١١٥٤ - ١١٦١) اتخذ لنفسه لقب الملك الصالح ، وتكفل أمر الخليفة الفائز . وليس له من الخلافة إلا مجرد الاسم فقط ، وذلك

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 445.

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢٧ .
والمويلح محطة فى الصحراء على طريق مصر فلسطين .
Wiet : op. cit. p. 286

(٣) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢٨ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٢٩٧ .
Wiet : op. cit. p. 286. Grousset : op. cit II. p. 445.
Runciman : op. cit. II. p. 366

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣١٠ - ٣١١ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٣٨ . Wiet : op. cit. p. 286.
William of Tyre : op cit. II. pp. 251-253.
Grousset : op. cit. II. p. 445-446.

لصغر سنه[1] . ولم يلبث ابن رزيك أن أظهر كفايته السياسية مثلما أثبت مهارته العسكرية . كان يميل إلى مذهب الإمامية (القائلين بإمامة على بن أبى طالب) ، وألف رسالة فى هذا المذهب . وحرص الوزير على أن يفرض سلطانه المطلق ، ولم يحفل بمصلحة الأسرة الفاطمية ، ودأب على الاتصال بنور الدين[2] .

حزن ابن رزيك على ضياع عسقلان ، وما ترتب على ذلك من نزول الفرنج على الأطراف المصرية . ولم تكد الأمور تستتب فى مصر ، حتى دبر هجوما على الصليبيين ، فجهز فى مارس سنة ١١٥٨ — ٥٥٣ هـ ، جيشا كثيفا بقيادة ضرغام ، فتوجه لمهاجمة غزة وعسقلان فأحرز الانتصار الباهر على الصليبيين ، وكثر عدد من قتل وأسر منهم ، ونهب المصريون البلاد التى أغاروا عليها وعادوا سالمين . وصحب هذه الحملة أسطول ظفر بعدة مراكب للفرنج فقتل وأسر منهم العدد الكثير ، ووقع فى أيدى المصريين مقادير كبيرة من الأموال والأثاث[3] . وبعد ستة أشهر ، نهضت قوة من الجيش المصرى لاستطلاع تحركات الصليبيين فى إقليم بحر الميت فأنزلت الرعب والخوف فى قلوب الفرنج ، غير أن هذه الحركة لم يترتب عليها شىء من النتائج[4] . ولم يظفر أسامة بن منقذ ، الذى أنفذه طلائع ابن رزيك سنة ١١٥٨ إلى نور الدين يطلب إليه مهاجمة الصليبيين ، فى مهمته

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٣١١ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٣١١ .

Wiet : L'Egypte Arabe. p. 286.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥١ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١١٥ .

Wiet : op. cit. p. 287.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٣ .

Wiet : op. cit. p. 287.

لأن نور الدين لم يحفل بذلك فهل دار فى خلده وقتذاك أمر التدخل فى شئون مصر ؟ . الواقع أن نور الدين كان يود قتال الصليبيين ، غير أنه أراد فى الوقت الراهن أن ينفرد بهذا العمل(١) .

كانت هذه هى آخر محاولة للملك الصالح بن رزيك للاستنجاد بنور الدين ، وما وقع بالبلاد من الفتن والاضطرابات ، لم يترك له من الوقت ما يجعله يقدم على قتال الفرنج . ومع ذلك ، فإنه أقام حصنا فى بلبيس لحماية البلاد من الغارات المفاجئة ، وأدرك الوزراء الذين خلفوه أهمية هذا الحصن . إذ أن الصليبيين شرعوا فى الاهتمام بمصر ، وحرصوا على التدخل فى منازعاتها ، والتمس أحد ولاة الأقاليم منهم المساعدة كيما يتولى الوزارة ، ولم يكتف بذلك ، بل حشد لهذا الغرض جند الصعيد ، وانحاز إليهم فريق من الساخطين(٢) ، غير أنهم تعرضوا للهزيمة عند اطفيح بفضل العساكر الذين أنفذهم الصالح بقيادة ضرغام ، ورزيك . وفى نفس السنة ١١٥٩ ، قمع الصالح ثورة بالإسكندرية(٣) ، واشتدت كراهية الناس للوزير ، لأنه باع الوظائف للأمراء وجعل لها أسعاراً ، وحدد مدتها بستة أشهر ، فتضرر الناس من تردد الولاة عليهم فى كل ستة أشهر(٤) . ونظم احتكار المحصولات والسلع التجارية ، واشتد تحصيل الضرائب(٥) . ولما مات الخليفة الفائز يوليه سنة ١١٦٠ ،

---

(١) Wiet : op. cit. p. 288.
Baldwin : op. cit. p. 542. Gibb : op. cit. p. 522.
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٢ – ٣٥٣ .

(٢) Wiet : op. cit. p. 288

(٣) Wiet : op. cit. p. 288.

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣١٣ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣١١ ، ٣٢٩ .
Wiet : op. cit. p. 288.

اختار للخلافة العاضد الذى لم يتَجاوز التاسعة من عمره ، وزوجه ابنته[1] ، ومضى الصالح بن رزيك فى الاستبداد بالأمر وجباية الأموال ، وطرد الأعيان من العاصمة ، ومصادرة أموالهم ، فحنق عليه الناس ، ولاسيما نساء القصر ، فوثب عليه أحد الباطنية فضربه بسكين فى رأسه ، فمات فى سبتمبر سنة ١١٦١ (٥٥٦ هـ) ، فتولى الوزارة من بعده ابنه العادل رزيك ، وأقام فى الوزاره سنة وشهوراً ؛ فأحسن السيرة فى معاملة الناس ، فأسقط عنهم ما بقى عليهم من أموال للدواوين[2] . على أنه ارتكب حماقة شديدة ، بما لجأ إليه من عزل شاور عن إقليم قوص[3] . ولما أظهره شاور فى ولايته من كفاية عظيمة ، ارتفع شأنه والتف حوله الناس والمقدمون من العرب ، ولم يلبث أن تغلب بجموعه على رزيك وأمر بقتله ، وتولى مكانه الوزارة فى فبراير سنة ١١٦٣[4] .

على أن شاور لم يطمئن فى منصبه ، وتوقع اغتياله بأيدى حاشية رزيك ، فتودد إلى الأجناد ، وزاد فى أعطياتهم على ما كان لهم عشر مرات .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٦٩ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٣١٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(٣) الواضح أن عدداً من الوزراء الذين تولوا الحكم ، أواخر العصر الفاطمى ، كانوا يحكمون إقليم قوص ؛ وولاية قوص تلى فى الأهمية منصب الوزارة . وولى شاور إدارة قوص من قبل الوزير طلائع بن رزيك ، الذى أوصى ابنه بأن يبقيه فى قوص ، لما اشتهر به من الطموح . غير أن رزيك لم يحفل بنصيحة أبيه ، وقرر عزله ، وعين أميراً آخر على قوص . فحشد شاور جموعاً ضخمة من العرب من الصعيد والدلتا ، ثم سار إلى القاهرة ودارت المعركة بينه وبين رزيك ، فانهزم رزيك ، ولم يلبث أن جرى القبض عليه وقتله ، فى يناير ١١٦٣ (٥٥٨) - انظر

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٦٣ .

Wiet : L'Egypte Arabe p. 292.

Grousset : op. cit. II p. 447.

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٩١ .

والمعروف أن رزيك أنشأ جماعة من الأمراء ، يقال لهم البرقية ، نسبة إلى برقة ، وكان كبيرهم ضرغام ، وكان فارسا شجاعا ، وحاول شاور استمالته ، ولما فشل فى ذلك ، اتخذ طريقه إلى الشام مستنجدا بنورالدين ، بينما تولى ضرغام الوزارة فى أغسطس سنة ١١٦٣[١] . فلما صار فى الوزارة « قتل كثيراً من الأمراء المصريين (الفاطميين) لتخلو له البلاد من منازع ، فضعفت الدولة بهذا السبب ، حتى خرجت البلاد عن أيديهم »[٢] .

على أنه لم يتوافر لبلدوين الثالث ، حتى وفاته سنة ١١٦٣ ، من الوقت ما يجعله يتدخل فى شئون مصر . ومع ذلك لم يكف مطلقا عن التجهز والاستعداد لهذا التدخل . وإذ افتقرت مصر دائما إلى الخشب والحديد والأسلحة والقار (القطران) ، اهتم بلدوين بفرض الحصار عليها ، ففى سنة ١١٥٦ ، استطاع أن يحمل البيازنة ، حلفاء مصر حتى ذلك الحين ، على أن يمتنعوا عن نقل الأدوات الحربية إلى الإسكندرية ، مقابل أن يؤدى لهم تعويضات مجزية[٣] . واغتنم بلدوين فرصة التنازع على الوزارة

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزهرة جـ ٥ ، ص ٣٣٨ ، ٣٤٦ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٩١ .

يشير أبو شامة إلى أنه من عادة المصريين ، (الفاطميين) ، أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب ، وعجز صاحب المنصب عن دفعه ، وعرفوا عجزه ، وقعوا للقاهر منهم ، ورتبوه ومكنوه ، فإن قوتهم تكون بعساكر وزيرهم ، الملقب عندهم بالسلطان . (انظر أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ص ١٣٠) .

Wiet : op. cii. p. 292.

Graeffe : Dirgham. En. Is. Wiet : Shawar, En. Is.

Grousset : op. cit. II. p. 447-448

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٩١ .

Grousset : op cit. II. p. 448. Runciman : op. cit. II. p. 367.

(٣) Richard : op. cit. p. 51

Mas-Latire : Histoire de L'ile de Chypre II. p. 125.

Heyd : Histoire du Commerce du Levant I. p. 395.

فى القاهرة سنة ١١٦١ ، فأغار على العريش ، فلم يسع طلائع بن رزيك إلا أن يبادر إلى التفاوض والاتفاق ، على أن ترتد قوات الصليبيين ، مقابل دفع جزية سنوية قدرها ١٦٠ ألف دينار ، ولم يجر مطلقا دفع هذا المبلغ[١] . فاتخذ أملريك من ذلك ذريعة للهجوم على مصر ، فاحتشدت القوات اللاتينية فى غزة وعسقلان ، فى سبتمبر ١١٦٣ واجتازت العريش ، وبرزخ السويس ، دون أن تصادف مقاومة ، حتى التقى بجيش فاطمى بقيادة ضرغام ، عند أطراف محافظة الشرقية ، فحلت الهزيمة بضرغام وتراجع إلى بلبيس حيث أدركه الصليبيون بهذا الموضع ، فحاصروا بلبيس ، وكادت تسقط فى أيديهم ، لولا أن عمد المصريون إلى قطع الجسور والسدود ، فغادر الصليبيون البلاد[٢] .

ولما عاد أملريك من مصر ، أدرك ما كانت عليه من الضعف ، لتسلط الوزراء على الخلفاء واستبدادهم بالحكم ، والتنازع بين الوزراء وما اقترن به من الفوضى والحروب الداخلية ، وعجز الأسطول الفاطمى

---

(١) Wiet : op. cit. p. 291 Runciman : op. cit. II. p. 367. Richard : op. cit. p. 51. Grousset : op. cit II. p. 448.

(٢) Wite : op. cit. p. 292. William of Tyre : op cit. II. p. 302.

اضطربت الروايات التاريخية ، فى تحديد زمن هذه الحملة ، فجعلها بعض المؤرخين فى سنة ١١٦٢ ، فى وزارة رزيك التى انتهت بمصرعه فى ديسمبر ١١٦٢ ، على حين أن وليم الصورى جعلها سنة ١١٦٣ ولعل هذا التاريخ هو الأصوب ، لارتباط هذه الحملة بأملريك الذى لم يتول الحكم إلا سنة ١١٦٣ . انظر Wiet : op. cit. p. 291

William of Tyre : op. cit. p. 302-303.

ما أورده ابن القلانسى فى حوادث سنة ٥٥٠ هـ ، يشير إلى أن « المنتصب فى الوزارة فارس الإسلام بن رزيك ، لما استقام له الأمر ، عزم على مصالحة الفرنج وموادعتهم ، واستكشاف شرهم ، ومصادقتهم ، بمال يحمل إليهم من الخزانة ، وما يفرض على إقطاع المقدمين من الأجناد » . انظر : ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١ .

عن السيطرة على شرق البحر المتوسط ، وانعدام الروح الحربية عند الجند السودانيين والأرمن ، وعدم كفايتهم لمواجهة الغزو الخارجى من الترك أو اللاتين ، يضاف إلى ذلك ندرة الحصون والاستحكامات فى الأقاليم المصرية ، والأمل فى مساعدة القبط المصريين ، كل ذلك جعل أملريك يعد مشروعا للاستيلاء على مصر ، ومن الدليل على ذلك الرسالة التى وجهها إلى لويس السابع ملك فرنسا يطلب منه المساعدة ، كيما يتحقق له الاستيلاء على مصر(١) .

على أن نور الدين شن ١١٦٢ هجمات عنيفة على الفرنج فى الشام ، كيما يحول دون تدخلهم فى أحوال مصر ، فاغتنم فرصة وفاة بلدوين الثالث ، وولاية أملريك للحكم ، وهاجم إمارة أنطاكية ، وحاول استرداد حارم ، فلما رأى أنه ليس فى وسعه الاستيلاء على الحصن لمناعته ، وأن الفرنج لم يقبلوا أن يغامروا بقتاله ، عاد إلى بلاده(٢) . ولما تدخل الصليبيون بقيادة أملريك ، سنة ١١٦٣ فى أمور مصر ، هاجم نور الدين طرابلس التى تعتبر أضعف الإمارات اللاتينية ، فأغار على سهل البقيعة ، شمال شرقى حصن الأكراد ، غير أن الأمداد توالت على الصليبيين من قبل هيوكونت لوزجنان ، وجفرى مارتل أثناء اجتيازهما مع أتباعهما بطرابلس قاصدين أنطاكية بعد تأدية الحج ، ومن قبل بوهمند الثالث أمير أنطاكية ، وقنسطنطين كولومان ، دوق قليقية ، ولم يسع نور الدين إلا أن ينسحب

---

(١) Richard : op. cit. p. 52. Cahen : op. cit. p. 407.

Grousset : op. cit. II. p. 449. Wiet : op. cit. p. 291-292.

Baldwin : op. cit. p. 550.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١١٦ .

Grousset : op. cit. II. p. 449.

إلى حمص ، وأعاد تنظيم جيشه ، وجاءته أمداد جديدة فتوقف الصليبيون عن المضى فى سيرهم إلى الاستيلاء على حمص[(١)] .

حملات شيركوه على مصر :

الواضح أن أمراء مصر وخلفاءها هم المسئولون عن التسابق بين قوات نور الدين والصليبيين على التدخل فى أمور مصر ، وما وقع بها من حروب داخلية . إذ أن شاور ، بعد أن طرده خصمه ضرغام من الوزارة ، قدم إلى نور الدين بدمشق فى أغسطس سنة ١١٦٣[(٢)] ، فاحتفل به نور الدين ، الذى اهتم به اهتماما زائداً . والتمس شاور أن يبعث معه جيشا يعيده إلى منصب الوزارة ، على أن يتكفل بنفقات الحملة ، وأن يجعل له حصة من خراج البلاد (الثلث) ، ويكون شيركوه مقيما بعساكره فى مصر ، ويتصرف هو (شاور) فى أمور البلاد حسبما أراد نور الدين .[(٣)]

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى لجأ فيها إلى البيت الزنكى الأتابكى ، رجل مسئول من قبل الحكومة الفاطمية ، إذ سبق إلى ذلك رضوان بن

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣١٢ - ٣١٣ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١١٦ - ١١٧ .
الكامل ج ١١ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

Grousset : op. cit. II. pp. 450-452.
Runciman : op. cit. II. p. 367.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 306-308.
Richard : Le Comté de Tripoli p. 21.

(٢) انظر ما سبق ص ٦٦١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٩٦ .
التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٢٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٣٨ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٣٠ .

الولخشى سنة ١١٣٨[١] ، وعباس بن أبى الفتوح سنة ١١٥٤[٢] ، وقام أسامة بن منقذ بالسفارة إلى نور الدين سنة ١١٥٨ ، كما يسهم بقتال الصليبيين عند طبرية ، أثناء الهجوم الذى شنه الفاطميون عليهم فى غزة وعسقلان[٣] . فما كان يطلبه الفاطميون من نور الدين وقتذاك أن يتعاون معهم فى مهاجمة الصليبيين ، فى الوقت الذى وجه فيه اهتمامه إلى توحيد الشام تحت سلطانه . وفى هذه المرة ، التى توسل فيها شاور للتدخل فى شئون مصر ، « وأطمعه فى أموالها ، ورغبه فى ملكها »[٤] ، ولم يشأ نور الدين أن تفلت منه الفرصة التى تحقق غرضه ، وهو التعجيل بالقضاء على الدولة الفاطمية [٥] . غير أنه تنازعه أمران : الأول الرغبة فى مد السلطان ، وما يترتب على ذلك من تدعيم المركز ، وزيادة القوة بما يجعله يقوى على الصليبيين ، الذين جعل همه جهادهم ، أما الأمر الثانى ، فالخوف على العساكر من خطر الطريق ، بسبب توسط الفرنج بينه وبين الديار المصرية[٦] . وكان نور الدين وقتذاك يحاول بما لديه من قوات قليلة العدد ، أن يحافظ على أملاكه الشاسعة ، ولم يطمئن إلى أن يفى شاور بوعده ، متى استقر له الأمر بالوزارة ، ولم يأمن أخطار الطريق البرى الذى تسلكه

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢ .

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٢١ .

(٣) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١١٥ – ١٢٠ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٦ .

(٥) Wite : op. cit. p. 293.

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٣٨ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٩٦ – ١٩٧ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٢٠ – ١٢١ .

قواته ، لما تتعرض له من تهديد الفرنج بالكرك والشوبك[1] . ومع ذلك لم يسع نور الدين إلا الاستجابة لطلب شاور ، لما لمصر من أهمية فى جهاد الفرنج ، والتضييق عليهم من الشمال والشرق والجنوب ، ولوفرة مواردها ، والقضاء على الدولة الفاطمية وإدخال مصر فى نطاق المذهب السنى[2] .

أمر أسد الدين شيركوه بالتجهز للمسير مع شاور ، « قضاء لحق الوافد المستصرخ ، وحبسا للبلاد ، وتطلعا على أحوالها »[3]. والواضح أن شيركوه هو الذى بدد مخاوف نور الدين ، إذ كان عنده من « الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى معه بمخافة »[4] . وكان شيركوه مقدم عسكره ، وأكبر أمراء دولته وأشجعهم[5] ، ولم يرسله نور الدين فى أمر إلا نجح ، ولم « يوبله فى مضيق إلا انفتح »[6] .

والمعروف أن شيركوه دخل فى خدمة نور الدين عقب وفاة زنكى ، وكان يخدمه فى أيام والده ، فقربه نور الدين وأقطعه ، « ورأى منه فى حروبه ومشاهده ، آثاراً يعجز عنها غيره ، بشجاعته وجرأته ، فزاده إقطاعا وقربا ، حتى صارت له حمص والرحبة وغيرها ، وجعله مقدم

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٦٦ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٩٧ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٢١ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ، ص ١٣٨ .
Grousset : op. cit. II. p. 453. Wiet : op. cit. p. 293.
Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 523

(٢) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٦ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٣٠ .
لعله أراد من عبارة « حبساً للبلاد » حفظها ومنعها من الوقوع فى أيدى الصليبيين – انظر على بيومى : قيام الدولة الأيوبية ص ١٠٢ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٣٠ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٩٧ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٢١ .

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٩٦ .

(٦) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٦٦ .

عسكره[١] » . وأسهم شيركوه فى جميع ما قام به نور الدين من حملات حربية ، وهو صاحب الفضل فى إنقاذ دولته من الأخطار التى تعرضت لها من قبل الصليبيين منذ أواخر سنة ١١٤٦ ، وبفضله استولى نور الدين على دمشق ١١٥٤[٢] . ويورد وليم الصورى وصفا لأسد الدين شيركوه « بأنه مقدم فرسان نور الدين ، وأكثرهم شجاعة وكفاية ؛ وأحبه أتباعه لما اشتهر به من السخاء ، وأن ما يبذله من العطايا والأموال فاق كل موارد أملاكه ، على أنه كان طموحاً للمجد ، فضلا عما اشتهر به من التجربة فى الأمور العسكرية ، والقدرة على تحمل الشدائد ، والصبر على الجوع والعطش ، على الرغم من تقدمه فى العمر[٣] » .

ولما علم ضرغام بما يجرى فى دمشق من إعداد حملة لمساندة شاور ، ونظرا لأنه لم يكن واثقاً فى كفاية جيشه ، لم يسعه إلا أن يلتمس المساعدة من أملريك ، لمواجهة ما يتعرض له من تهديد من قبل شاور ، ووعد بأن يؤدى لا فحسب الجزية التى سبق الاتفاق عليها مع الملك بلدوين الثالث ، بل يؤدى ما يقرره الملك أملريك من الجزية ، وأعلن استعداده لأن يجعل عند الملك من الرهائن ما يضمن خضوعه الدائم ويكفل التحالف المستمر[٤] .

وخرج شيركوه بحملته فى أبريل سنة ١١٦٤ ، وأغذ السير ، يصحبه ابن أخيه صلاح الدين ، بينما هاجم نور الدين الأطراف الشمالية لبلادهم

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٥ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٣٠ .

Wiet : op. cit. p. 320.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 303-304.

(٤) William of Tyre : op. cit. II. p. 304

Grousset : op. cit. II. pp. 453-454.

(بانياس) ، حتى يتحول اهتمام الفرنج عن مصر ؛ وليشغلهم عن التعرض لأسد الدين شيركوه[1] ، الذى اتخذ طريقه ، إلى شرق الكرك والشوبك ، إلى أيلة إلى صدر وسويس ، ومنها إلى القاهرة[2] .

حدثت المعركة الفاصلة تحت أسوار القاهرة ، فحلت الهزيمة بضرغام ، ولم يلبث أن لقى مصرعه عند مشهد السيدة نفيسة ، فى أغسطس سنة ١١٦٤ . ولم ينهض الصليبيون لمساعدته حسب اتفاقه معهم ، لأن نور الدين أغار وقتذاك على ممتلكاتهم المجاورة لدمشق ، فساروا لحفظ البلاد من نور الدين[3] .

عاد شاور إلى الوزارة ، وأقام شيركوه بجنده بظاهر القاهرة ، منتظراً أن يفى شاور بما بذله من وعود لنور الدين ، غير أنه نكث فى عهده ، وأرسل إلى شيركوه يطلب إليه الرجوع إلى الشام ، فامتنع شيركوه ، وطلب منه أن يؤدى ما جرى الاتفاق عليه[4]. ولما لم يجبه شاور إلى طلبه ، أرسل

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٢١ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٩٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٣٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٣٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٦٦ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٩٧ ، التاريخ الباهر ص ١٢١ .
Runciman : op. cit. II. p. 368.
Wiet : op. cit: p. 244.
Gibb : The Career of Nur-ad-Din p. 323

(٤) أشار أسد الدين إلى أن نور الدين أوصاه عند خروجه إلى مصر ، بأنه متى استقر شاور فى الوزارة ، أقام عنده ويكون له ثلث خراج البلاد ، والثلث الثانى لشاور وللعسكر ، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه فى مصالحه . على أن شاور لما اشتهر به من الخبث والميل إلى سفك الدماء ، ظهر منه أمارات الغدر بأسد الدين شيركوه انظر :
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٣٤٧ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٤٧ .

شيركوه نوابه إلى بلبيس فتسلموها ، وصار يحكم الأقاليم الشرقية[١] ، واتخذ ، بناء على نصيحة صلاح الدين ، بلبيس مقرا لقيادته . وأخذ صلاح الدين يجمع الغلال والأحطاب ، وما يلزم الجيش من مئونة وذخيرة ، ودأب الجيش النورى على الإغارة على القاهرة من وقت إلى آخر[٢] .

على أن شاور لم يدرك أنه ارتكب خيانة ، ففى سبيل عودته إلى الوزارة التمس مساعدة نور الدين ، السنى المذهب ، لمناهضة الخليفة الفاطمى الشيعى . وللبقاء فى هذا المنصب حرص على مناوأة هذا الأمير السنى ، أرسل إلى الفرنج ، يستمدهم ويخوفهم من نور الدين ، ويبين لهم أنه إن ملك مصر ، فإنه سوف يخرجهم من البلاد التى يحتلونها[٣] . وكان الصليبيون ، حين علموا بمسير قوات نور الدين إلى مصر ، خافوا خوفا شديداً ، وأيقنوا بالهلاك . فلما وصلتهم رسل شاور يدعونهم إلى المساعدة ، سروا بذلك ، ونهضوا لمساعدته طمعا فى الاستيلاء على مصر ، وأعدوا عدتهم ، بعد الاتفاق بينهم وبين شاور ، على مال يحمله إليهم وللإسبتارية فضلا عن توفير العلف للدواب ، إن استطاعوا إجلاء قوات نور الدين عن مصر[٤] ، ووعد أيضا بأن يبذل لهم مساعدة عسكرية[٥] .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٤٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٩٧ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٣٩ .
Wiet : L'Egypte Arabe p. 294 Grousset : op. cit. II. p. 455.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٩٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٣٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٣٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٩٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٧ .
Grousset : op. cit. II. p. 455. William of Tyre : op. cit. II. p. 305.
Runciman : op. cit. II. p. 368.

(٥) Baldwin : The Latin States under Baldwin III. and Amalric I. p. 550.
Grousset : op. cit. II. pp. 456-457.

وعقد أملريك مؤتمراً فى بيت المقدس ، حضره بارونات المملكة ، وتقرر فيه إجابة دعوة شاور ، بعد أن شرح أملريك أن فى وسعه أن يجهز منهم حملة لتغزو مصر ، دون أن يضعف ذلك من قوة الدفاع عن المملكة ، نظرا لأنه قدم من أوربا وقتذاك عدد من الحجاج لزيارة بيت المقدس ، فيصح الإفادة منهم من الناحية الحربية ، وتقرر أيضاً أن ينوب فى حكم المملكة عند غياب الملك ، بوهمند الثالث أمير أنطاكية. وتوجه أملريك بحملته للمرة الثانية قاصدا مصر ، وتم الاتصال بشاور، وفرض الحصار على شيركوه فى بلبيس ، فاستمر ثلاثة شهور (أغسطس - اكتوبر ١١٦٤) ، واشترك فى الحصار قوات فاطمية وقوات صليبية . وظل شيركوه يدافع عن المدينة طوال هذه الشهور ، على الرغم من ضعف استحكاماتها ، فلم ينالوا منها غرضا[1] . على أن أملريك قرر رفع الحصار عن المدينة بعد أن علم بكسرة الصليبيين على حارم ، وتملك نور الدين لها ، فأرسل إلى شيركوه ما استولى عليه من أعلام الصليبيين ، فنشرها على أسوار المدينة ، فعرف الصليبيون ما حل بأملاكهم . وأخذ أملريك يفكر فى العودة إلى بلاده لإنقاذها ، فراسل شيركوه فى الصلح ، وتم الاتفاق بين الفريقين على مغادرة البلاد ، بعد أن تبين شيركوه أن الأقوات كادت تنفذ ، وأن مقاومة عدويه بالغة الشدة[2] . واتخذ الجيشان السورى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٤٠ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٤٧ .
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٠٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٤١ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ١٩٨ . التاريخ الباهر ص ١٢١ - ١٢٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٧ .

والفرنجي ، طريقهما عبر شبه جزيرة سينا ، بعد أن تركا شاور يسيطر على حكومة مصر (١) .

والواقع أن حرص أملريك على الجلاء عن مصر ، ارتبط من الناحية الزمنية ، بما أنزله نور الدين من الهزائم بالفرنج ، أثناء غياب أملريك فى مصر على رأس قوة كبيرة . فعلى الرغم من أن إغارة نور الدين على طرابلس ، أدت إلى ما تعرض له جيشه فى مايو ١١٦٤ من هزيمة عند حصن الأكراد ، فإنه لم يلبث أن طلب الأمداد من الموصل ، ومن أميرى حصن كيفا وماردين الأرتقيين . وبفضل هذه الأمداد ، استأنف الهجوم على حارم ، فاحتشد للدفاع عنها ، قوات من طرابلس وأنطاكية ، فضلا عن عساكر أرمنية ويونانية من قليقية غير أنها تعرضت لهزيمة ساحقة فى سهل أرتاح فى أول أغسطس سنة ١١٦٤ ، ووقع فى أسر نور الدين ، بوهمند الثالث ، أمير أنطاكية ، وريموند الثالث ، كونت طرابلس ، والدوق اليونانى ، كولومان ، وهيولوزجنان ، وجوسلين الثالث (٢) .

= ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٣٤٨ .

Runciman : op. cit. II. pp. 368-369.
William of Tyre : op. cit. II. p. 305. Grousset : op. cit. II. pp. 457.

(١) Runciman : History of the Crusades II. p. 369.

(٢) Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 524
Grousset : op. cit. II. pp. 461-464
Runciman : op. cit. II. pp. 369. William of Tyre : II. pp. 306-308.
Baldwin : op. cit. p. 551.
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ١٩٩ — ٢٠٠
التاريخ الباهر ص ١٢٢ — ١٢٦ .
ابن العديم : زبدة الحلب جـ ٢ ، ص ٣١٨ — ٣٢٠

كانت حارم حصنا منيعا يهدد حلب ، فسقوطه فى أيدى المسلمين ، جعل الطريق أمامهم مفتوحاً لغزو أنطاكية . ولا سيما بعد أن تداعى الدفاع عنها بعد أسر أميرها[1]. والراجح أنه لم يمنعه من مهاجمة أنطاكية سوى إدراكه أن سكانها سوف يستنجدون بالدولة البيزنطية للدفاع عنها[2] . واعتقد نور الدين أن بقاء إمارة صليبية صغيرة ، مثل أنطاكية بهذه الجهات ، خير من استيلاء بيزنطة عليها ، فتصبح جزءاً من إمبراطورية كبيرة ، ولذا حرص على ألاّ يثير ، فى الوقت الراهن ، بيزنطة ، فأطلق سراح كولومان ، مقابل مائة وخمسين ثوبا من الحرير[3] .

وكيفما كان الأمر ، فإن نور الدين اغتنم فرصة تغيب أملريك ومعظم القوات اللاتينية فى مصر وفيهم صاحب بانياس (همفرى) ، ووقوع معظم الأمراء الصليبيين فى الأسر ، وأضحت المملكة اللاتينية ظاهرة الضعف ، مكشوفة ، من اليسير مهاجمتها ؛ كل هذه الاعتبارات جعلت نور الدين يزحف فجأة على بانياس ، فاستولى على قلعتها فى أكتوبر ١١٦٤ ، وترتب على هذا الانتصار ، أن تم الاتفاق على اقتسام بلاد طبرية ، وتقرر أن يؤدى له الفرنج جزية سنوية عن الجهات التى لم يقتسموها . والواضح أن المقصود بذلك ، أن إمارة الجليل ، فقدت جانبا من أملاكها فى شرق الأردن ، السواد ، وما تبقى فى هذه الجهات التزم بأداء الجزية ، نظرا لتغيب الملك والكندسطبل[4] .

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 551

(٢) Gibb : op. cit. p. 524. Baldwin : op. cit. p. 551.

(٣) Runciman : History of the Crusades II. p. 370.

Grousset : op cit. II. pp. 464-466.

(٤) Gibb : op cit. p. 524 Baldwin : op. cit. p. 551.

ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٢١ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

=

وعلى الرغم من أن حملة شيركوه لم تحقق أهدافها فى مصر ، فإن النتيجة النهائية هى أن أملاك نور الدين فى الشام تدعمت ، وارتفعت مكانته وعلا شأنه فى العالم الإسلامى(١) ؛ بينما تراجعت أملاك اللاتين إلى الساحل ، واستبد اليأس بالمسيحيين (اللاتين)(٢) .

على أن قدوم كونت فلاندر ، للأراضى المقدسة للمرة الرابعة ، هيأ للفرنج أمداداً جديدة فلما عاد أملريك من مصر ، صَحب كونت فلاندر ، وتوجه صوب الشمال ، إلى أنطاكية التى تجردت من أميرها وحاميها ، الذى وقع فى أسر نور الدين ، بناء على طلب سكانها ، فبادر بمباشرة أعمال أمير أنطاكية ، وأبدى من الاهتمام بشئونها ما يزيد على اهتمامه بأمور دولته . فجعل على كل مدينة رجلا كفئا ، وعهد إليه بكل ما للأمير من سلطات بها . ونجح أملريك فى مساعيه لإطلاق سراح أمير أنطاكية بوهمند الثالث ، مقابل دفع فدية كبيرة ؛ وذلك فى صيف سنة ١١٦٥ ، بعد أن أمضى فى الأسر نحو عام(٣) . ولعل حرص نور الدين على منع بيزنطة من التدخل ، ولا سيما بعد أن تمت خطبة مانويل لأخت بوهمند ، وتجنب خضوع أنطاكية لحاكم قوى ، حمله على أن يطلق سراح بوهمند إذ أشار أن « مجاورة بيمند أحب إلىّ من مجاورة ملك الروم » ، ومن الدليل على ذلك أنه استبقى فى

= ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٠ – ١٣١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٤٦ – ١٤٧ .
Grousset : op. cit. II. pp. 466-468.

(١) Gibb : op. cit. p. 524.

(٢) William of Tyre : op. cit. pp. 308-310

(٣) Baldwin : op. cit. p. 551.
William of Tyre : op. cit. II. p. 310-311.
Grousset : Croisades II. pp. 467-469
Runciman ; op. cit. II. p. 370.
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٢١ .

أسره ، جماعة من أمراء اللاتين ، أمثال ريموند كونت طرابلس ، وريجنالد شاتيون وجوسلين[١] . والواضح أن توازن القوى فى شمال الشام ، أعاده ما اتخذه أملريك من إجراء فى أنطاكية ، ووصايته على طرابلس ، أثناء وجود صاحبها ، ريموند فى الأسر ، فضلا عن الخوف من تدخل بيزنطة[٢] .

وما توافر من الأدلة على اهتمام بيزنطة بأمر أنطاكية ، منع نور الدين من مهاجمتها ، وأدى إلى التقارب بينه وبين قلج أرسلان سلطان السلاجقة فى آسيا الصغرى ، الذى أعاد إليه بهسنا وكيسوم ومرعش سنة ١١٦٦ أو ١١٦٧[٣] . ولم يجر وقتذاك فى وسط الشام إلا غارات ضئيلة على المنحدرات الشرقية لجبال لبنان ، بينما هاجم شيركوه قلعة للداوية على مرتفع جنوب عمان ، واستولى على حصن يقع بالقرب من صيدا[٤] .

الواضح أن نور الدين كان يرقب بحذر وقلق ، ما يجرى من الأحداث عند اللاتين والبيزنطيين ، وفى الموصل[٥] ، فلم يستطع القائد الأعلى بالموصل ، على كجك أن يسيطر على أمور البلاد[٦] . فكان لزاما عليه

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. pp. 309-310
Grousset : op. cit. II. pp. 470-471.
Runciman : op. cit. II. p. 370.
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٣٤ .

(٢) Richard : Le Comté de Tripoli pp 33-34.

(٣) Gibb : The Career of Nur ad Din p. 524.

(٤) William of Tyre : op. cit II. p. 312.
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢١٢ .
Gibb : op. cit. p. 524

(٥) فى الموصل أمر الأتابك قطب الدين بعزل وزيره جمال الدين وحبسه ، سنة ١١٦٣م وترتب على ذلك أن اشتد الاضطراب فى الموصل ، ولم يستطع القائد الأعلى ، على كجك أن يسيطر على الأمور فى البلاد (انظر أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٣٩) .

(٦) Gibb : op. cit. p. 524

سنة ١١٦٧/١١٦٨ أن يتنازل ، بعد أن كاد يفقد السمع والبصر ، عن كل إقطاعاته ، وما يخضع لسلطانه من البلاد ما عدا أربل ، التى لجأ إليها ، والتى خلفها إلى ابنه كوكبورى بوصاية مملوكه مجاهد الدين قيمار ؛ وحل مكانه فى قلعة الموصل ، مملوك لزنكى ، اسمه فخر الدين عبد المسيح ، الذى فسدت الأمور فى عهده[1] .

حملة شيركوه الثانية على مصر ١١٦٧ :

. تعرف شيركوه أثناء حملته الأولى ، ١١٦٤ ، على سوء أحوال الحكومة الفاطمية ، ولا زال بعد عودته من مصر « يحدث نفسه بقصدها ، حريصا على الدخول إليها والتشوق إلى ملكها »[2] . وتطلع إلى أن يكون نائبا عن نور الدين ، بعد أن يتم له فتح مصر ، وذلك لما ثبت فى نفسه من غدر شاور به ، وعدم الوفاء بما سبق أن وعد به[3] . يضاف إلى ذلك تشجيع الخليفة العباسى لكل مشروع يرمى إلى إسقاط الخلافة الفاطمية ، ولذا كتب الخليفة إلى جميع الأمراء ، يطلب إليهم النهوض لمساعدة شيركوه[4] .

اغتنم شاور فرصة خروج الحملتين النورية واللاتينية من مصر ، سنة ١١٦٤ ، فاستبد بالملك ، وأقام على عادته يظلم ويقتل ويصادر الناس ،

---

(١) Gibb : op. cit. II. p. 525.

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢١٨ .

التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٣٥ – ١٣٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٤٢ ، ١٦٧ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢١٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ، ص ١٤٨ .

(٤) William of Tyre : op. cit. II. p. 313-314.

العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٨ .

فلم يبق للعاضد معه أمر ولا نهى[1] . وما درج عليه شاور من الاستبداد بالأمر والظلم وسفك الدماء ، سنتين ، حمل الخليفة العاضد على أن يكتب إلى نور الدين يستنجده على شاور[2] .

وخرجت حملة شيركوه إلى مصر مستهل سنة ١١٦٧ ، وصحب شيركوه جماعة من الأمراء ، وألفين من الفرسان ، وسار معه ابن أخيه صلاح الدين ، وقصد الجميع مصر . وعند رحيل شيركوه لجأ نور الدين ، مثلما فعل فى المرة السابقة ، إلى أن يلتمس من قطب الدين أتابك الموصل ، قوات لمساندته ، وأن يشن غارة واسعة النطاق ، وأن ينزل الخراب والدمار فى أراضى طرابلس ، فاستولى على المنيطرة ، وخرب جنين[3] .

لم يتخذ شيركوه الطريق الساحلى المؤدى إلى مصر ، خوفا من الفرنج ؛ بل سلك طريقا موازيا له ، ويقع إلى الجنوب منه ، شمال صحراء التيه[4] ، ومضى فى طريقه حتى بلغ الدلتا ، على أنه لم يبادر إلى مهاجمة القاهرة ؛ بعد أن تبين أن القوات الصليبية التى سارت فى إثره ، اجتمعت بالقوات المصرية ، فلم يسعه إلا أن يسير جنوبا إلى اطفيح ، على مسافة ٧٠ كيلومتر من القاهرة ؛ واقتفى أثره شاور فى عساكره والفرنج فى صحبته[5] .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٤٨ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٧ .

Wiet : op. cit. p. 395

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢١٢ .

Grousset : op. cit. II. p. 477.

(٤) William of Tyre : op. cit. II. p. 314.

Grousset : op. cit II. p. 479

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٨ .

Grousset : op. cit. II. p. 479.

والواضح أن شاور لما علم بخبر قدوم شيركوه ، راسل الصليبيين يستغيث بهم ويستصرخهم ، ولم يكن ذلك إلا خيانة لن يتسامح فيها نور الدين ونوابه[1] . ولما تلقى أملريك طلب شاور ، عقد بنابلس مجلسه المؤلف من بارونات المملكة وكبار رجال الكنيسة ، والأساقفة ، فأشار إلى ما يهدد المملكة من الخطر ، وطلب منهم النهوض لمساعدته فى رد هذا الخطر ، وتقرر فى هذا المجلس ، أن يخرج كل واحد دون استثناء ، عن عُشْر خراجه لإنقاذ المملكة ، وينبغى المبادرة إلى تنفيذ ذلك القرار[2] .

استجاب أملريك لطلب شاور ، وحشد جيشاً ضخماً ، وحمله على ذلك أمران : أحدهما الطمع فى الاستيلاء على مصر ، والثانى الخوف من تملك العساكر النورية لها ، فإذا ملك نور الدين مصر ، واستضافها البلاد الشامية ، لم يبق للفرنج بالبيت المقدس والشام مقام ، وسوف يستأصلهم ، وتصير بلادهم فى وسط بلاده[3] .

واحتشدت القوات الصليبية ، من المشاة والفرسان ، فى عسقلان . وفى ٣٠ يناير سنة ١١٦٧ ؛ ارتحلت قاصدة مصر ، بعد أن توافر لها من المؤن ما يكفى أثناء السفر . واجتاز الجيش الصحراء الشاسعة الممتدة بين غزة وبلاد مصر ، وبعد أن توقف الجيش فى العريش ، ينتظر قدوم من تبقى من العساكر ، مضى فى طريقه حتى بلغ بلبيس ، والتقى أملريك أثناء

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٤٣ .

Wiet : op. cit. p. 295.

(٢) William of Tyre : op. cit II. p. 315.

Runciman : op. cit. II. p. 372.

Grousset : op. cit. II. pp. 480-481.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٤٩ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢١٣ .

ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٣٢ .

السير برسل من قبل شاور ، أعلنت عن استعداده لبذل أموال الخليفة والدولة للفرنج ، والاستجابة إلى رغبات الملك[1] .

ولما وصل الفرنج مصر اجتمعوا بالعساكر المصرية ، وصحبهم شاور إلى موضع يقع على مسافة ميل جنوب القاهرة ، فأقاموا معسكرهم بهذا المكان على الضفة الشرقية للنيل[2] . على حين أن شيركوه عبر النيل ، عند شارونة ، وعسكر بجيوشه على الضفة الغربية ، فاتخذ الجيش الصليبي طريقه ، مقتفيا أثر شيركوه ، وعسكر على الشاطئ ، بالقرب من المدينة ، التي غادرها شيركوه ، وعبر النيل عندها[3] .

على أن الصليبيين لم يرتحلوا لقتال شيركوه[4] ، إلا بعد أن تم الاتفاق بين شاور وأملريك ؛ وبمقتضاه تعاهد شاور ، إذا بقي الفرنج في مصر حتى يتم طرد شيركوه ، بأن يؤدي لهم ٤٠٠ ألف دينار ، يدفع النصف

---

(١) William of Tyre : op. cit. II, p. 315.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٢) William of Tyre : op. cit II. p. 313

Runciman : op cit. II. p. 373. Grousset : op. cit. II. p. 481.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٨ .

William of Tyre : op. cit. II. p. 318.

(٤) تلقى شاور الدعوة من شيركوه ، بعد اجتيازه النيل ، ونزوله بالجيزة ، وقبل الالتحام في القتال مع الصليبيين وقوات شاور ؛ ورد فيها عهد شيركوه وميثاقه « بأنني لا أقيم ببلاد مصر ، ولا أعاود إليها أبدا ، ولا أمكن أحداً من التعرض إليها ، ومن عارضك فيها ، كنت معك إلباً عليه ، وما أؤمل منك إلا نصر الإسلام فقط ، وهو أن العدو قد حصل بهذه البلاد ، والنجدة عنه بعيدة ، وخلاصه عسر ، وأريد منك أن تجتمع أنا وأنت عليه ، وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت ، والغنيمة التي قد كتبت ، فنستأصل شأفته ، ونخمد ثائرته . وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً » . على أن شاور قتل رسول شيركوه وأبلغ الفرنج بما حدث وأبدى شيركوه أسفه فلو أطاعه شاور ، لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج .

انظر : أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٨ .

سلفا ، وما تبقى يؤدى فى موعد يجرى تحديده . ومن النصوص الواردة فى هذه المعاهدة : « أنه يتحتم على الملك ، بأن يتكفل بقوته ، وفى إيمان خالص ، ودون غش أو خداع ، أو نية سيئة ، بألا يرتحل من إقليم مصر ، إلا بعد تدمير جيش شيركوه ، أو طرده نهائيا من البلاد »[1] .

وتلى عقد الاتفاقية ، أن تجهزت القوات الصليبية والفاطمية للمسير لقتال شيركوه . والمعروف أن شيركوه استطاع أن يحصل على مراكب ، وعدّى بها إلى البر الغربى ، وسار بجيوشه إلى الجيزة ، وخيم بها مقدار خمسين يوماً[2] . وأقام شاور معسكره فى اللوق والمقس ، وأمر بعمل جسر بين الجيزة والجزيرة ، وتألف الجسر من مراكب ، متراصة ، ارتبط كل اثنين منها سويا ، ثم ألقى عليها الألواح من الخشب ، وتلى ذلك تغطيتها بالتراب ؛ وزاد فى مناعة هذا الجسر ما انتصب عليه من أبراج من الخشب ، وما تجهز به من أدوات وآلات ، ولم يمتد هذا

---

(١) William of Tyre : op. cit. II p. 318.

أورد المؤرخ وليم الصورى وصفاً تفصيليا لما حدث من إجراءات تصديق الخليفة الفاطمى على هذه الوثيقة ، وشرح أنه استمد وصف القصر الفاطمى ، وهيئة الخليفة ، وثروته وأبهة ملكه وعظمته من روايات الذين تسنى لهم مقابلة الخليفة . وكان رسول أملريك للخليفة ، هيو صاحب قيسارية ، وبصحبته فارس من الداوية اسمه فولشر ؛ وصف أبهاء القصر ، والحرس ؛ والنافورات ، والحدائق ، ووصف القاعات ، وما ازدانت به من الستائر المصنوعة من الحرير الموشاة بالذهب ، والمرصعة بالجواهر ، حتى انتهى الرسولان إلى ستارة كبيرة مزركشة بالذهب ، انفرجت عن الخليفة الطفل جالساً مقنعاً ، على عرشه . ثم أراد هيو أن ينهى التصديق على العقد على الطريقة المعروفة فى الغرب ، بمصافحة يد الخليفة ، غير أن رجال البلاط الفاطمى استاءوا من هذا التصرف ، فلم يسع الخليفة إلا مصافحته بعد أن نزع القفاز . وانسحب الرسولان وقد اشتد تأثرهما بما زخرت به الدولة الفاطمية من ثروة .

William of Tyre : op. cit. II. pp. 318-321.

(٢) ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٨ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزهرة ج ٥ ص ٣٤٨ .

الجسر إلى أكثر من منتصف النهر ، نظرا لما تعرض له العمال والصناع من قذف السهام التى يرسلها رماة شيركوه[١] . على أن شاور أمر بالمراكب فشحنت بالرجال ، وأمرهم أن يعبروا من خلف عسكر شيركوه[٢] ، واجتازت القوات المتحالفة من الفرنج والفاطميين ، النيل ، فى موضع يقع بين وراق الحضر ، ووردان ، غير أنهم لم يجدوا أثرا لشيركوه وقواته ، إذ انسحب نحو الجنوب ، بعد أن تبين له تفوق جيش الفرنج والفاطميين ، واقتفى أثره شاور وأملريك[٣] .

وما اشتهر به شيركوه من البسالة والشجاعة وروح المغامرة ، حمل شاور وأملريك على أن يتخذا من التدابير ، ما يمنع شيركوه من القيام بهجوم مفاجئ للاستيلاء على القاهرة . فرابطت بها حامية عسكرية قوية ، مؤلفة من قوات فاطمية وصليبية بقيادة هيو صاحب يبنه ، والكامل بن شاور[٤] ، للدفاع عن القاهرة والجسر الذى لم يفرغ من إنجازه العساكر . فتعاهد عساكر الفرنج حماية استحكامات المدينة ؛ وألفت العساكر الصليبية من معالم القاهرة ، ما لم يكن معروفا لها ، إذ تولى حماية الخليفة وأهل بيته ، قوات الفرنج[٥] . وكان شاور قد أعطى الفرنج الأموال ، وأقطعهم الإقطاعات ، وأنزلهم دور القاهرة ، وبنى لهم أسواقاً تخصهم[٦] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II, p. 327

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٨ .

Grousset : op. cit. II. p. 487

(٣) Grousset : op. cit. II. 488 Runciman : II. p. 373

William of Tyre : op. cit. II. pp. 327-328

(٤) William of Tyre : op. cit. II. p. 328

(٥) William of Tyre : op. cit II. p. 328. Grousset : II. p. 489

Grousset : op. cit. II. p. 489. Runciman : op. cit. II. p. 374

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٤٨ .

مضى شيركوه بقواته صوب الجنوب ، حتى بلغ دلجه (بجنوب الأشمونين) مركز ملوى ، فى مصر الوسطى ، فلحق به أملريك وشاور ، فنشبت المعركة بالقرب من البابين فى ١٨ – ١٩ مارس ١١٦٧[١] . وكان جيشهما يفوق فى العدد جيش شيركوه ، برغم ما خلفاه من حامية فى القاهرة[٢] .

أما شيركوه فالتمس المساعدة من أهل الإسكندرية ، نظرا لأن معظمهم من السنيين ، ولأنها ظلت موطن المعارضة للحكومة المركزية بالقاهرة فى العهد الأخير من الحكم الفاطمى ، فأرسل إلى أهلها يستحثهم ، ويستنجد بهم على شاور ، لأنه أدخل الفرنج إلى دار الإسلام ، وأنفق أموال المسلمين عليهم[٣] . ومع ذلك لم يتوافر عنده من القوات ما يكفى

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 489

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 374.

تألف معظم عسكر الفرنج من الفرسان ، الذين بلغ عددهم ٣٧٤ فارسا ، فضلا عن عدد كبير من التركبولية ، يساندهم جيش شاور ، الذى تألف معظمه من الرجالة ، واعتبرهم وليم الصورى عبئاً ثقيلا على الفرنج ، لا ترجى مساعدتهم . والواضح أن شيركوه قدم إلى مصر فى ألفين من الفرسان ، وإذ هلك منهم عدد كبير أثناء المناوشات التى جرت بين الفريقين ، نصحه أمراؤه بالرجوع إلى الشام ، وقالوا إن نحن انهزمنا ، وهو الذى لا شك فيه ، فإلى أين نلتجىء ، وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا ، ويودون لو شربوا دماءنا . وحق لعسكر عدتهم ألف فارس ، قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم ، أن ترتاع من لقاء عشرات ألوف ، مع أن كل أهل البلاد عدو لهم . غير أن أحد المماليك النورية ، وهو شرف الدين ابن برغش ، الذى اشتهر بالشجاعة ، نهض ينكر على الأمراء هذا التراخى ، والتخاذل ، وقال « لئن عدتم إلى نور الدين من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ، ليأخذن إقطاعاتكم ، وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه ، ويقول لكم أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم ، وتسلمون هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار » .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٤٣ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢١٤ .

William of Tyre : op cit. II. p. 331-332

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٦٨ .

Wiet : L'Egypte Arabe p. 296

لمواجهة خصومه ، واستبد اليأس بالعساكر ، ولم يلبث أن تحول هذا اليأس إلى أمل ، بفضل موقف أحد الأمراء النوريين ، وهو برغش صاحب شقيف ، الذى قال « من يخاف القتل والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون فى بيته مع امرأته . والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ، ليأخذن ما لنا من إقطاع وجامكية »[١] . ووافق على هذا الرأى شيركوه وصلاح الدين واجتمعت الكلمة على القتال . ولم يكن الفرنج أقل من المسلمين ميلا إلى الالتحام ، فبادر أملريك بمهاجمة القوات النورية ؛ وجرى شيركوه على ما ألفه الترك من الخطط الحربية ، فتظاهر صلاح الدين ومن معه من العساكر ، فى قلب الجيش ، بالاندفاع أمام الفرنج ، فحمل أملريك عليهم ، وعندئذ انقض عليهم شيركوه ، فهزمهم وألفى أملريك نفسه محصوراً من جميع الجهات ، وكاد يقع فى الأسر ، ولقى عدد كبير من خيرة الفرسان الفرنج مصرعهم ، ووقع فى الأسر كثير من الفرنج ، ومنهم هيو صاحب قيسارية . وتراجع أملريك وشاور ، ومن تبقى من العساكر إلى القاهرة ، لينحازوا إلى عساكر الحامية بالقاهرة[٢] .

لم يجر الإفادة من هذا الانتصار الباهر ، فلو أن شيركوه ساق خلف شاور وأملريك وعساكرهما ، لاستولى على القاهرة ، وإنما عدل إلى الفيوم ،

---

(١) انظر ما سبق ص ٦٨١ ، حاشية ٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢١٤ .

(٢) William of Tyre : op. cit. II. pp. 331-333.
Grousset : op. cit. II. pp. 489-493.
Runciman : op. cit. II. pp. 374-375.
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢١٤ — ٢١٥ .
ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٣٢ — ١٣٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٥٠ — ١٥١ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٤٩ .

ثم الإسكندرية فتلقاه أهلها طائعين ، فدخلها وولى عليها صلاح الدين[1] .

وبعد أن أصلح أملريك وشاور أحوال عساكرهم ، توجها إلى الإسكندرية ، فحصرا صلاح الدين ، ونازلاها وضيقا الخناق عليها ، وقدمت من فلسطين بعض الأمداد ، واشترك الأسطول فى إتمام الحصار على المدينة ، بأن رابط فى النهر لمنع ما يرد إلى المدينة من المؤن من الوجه القبلى ، فانقطع بذلك الاتصال بين أهل المدينة وسائر السكان خارجها . وأقام أملريك معسكره على مسافة ثمانى أميال من الإسكندرية ، وحرص على أن يمنع كل اتصال بين المدينة والخارج ، ويحول دون كل ما تلتمسه من مساعدة خارجية . واستمر الحصار شهراً ، عانت المدينة أثناءه الضيق والجوع ؛ واستطاع شيركوه أن يخرج من المدينة ، بعد أن ترك نحو ألف عسكرى بها للدفاع عنها . وتولى صلاح الدين لأول مرة القيادة للمحافظة على الإسكندرية ، وامتد الحصار ثلاثة أشهر وبذل أهل المدينة فى نصرة صلاح الدين أموالهم وأنفسهم ، وفى تلك الأثناء استولى شيركوه على الصعيد ، وحصل على أموال وفيرة[2] . ولما علم بحرج مركز الإسكندرية وما تعرضت له من سوء الأحوال الاقتصادية ، لانقطاع التجارة ، ونفاد الأقوات ، وقلة العساكر اللازمة للدفاع عنها ، لم يلبث أن قدم من قوص ، واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد[3] . فتشجع أهل الإسكندرية ، وقويت نفوسهم ، وصمدوا

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 375.
Grousset : op. cit. II. p. 493.
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ، ص ٣٤٩ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٦٩ .

للقتال نحو ٧٥ يوماً ، برغم ما أصابهم من الجوع ، وما تعرضوا له من الهجمات المستمرة[١] .

ولما بلغ شيركوه القاهرة ، ألفى الطريق موصدا فى وجهه ، إذ أن أملريك أرسل هيو صاحب يبنه ، للدفاع عن القاهرة وجسرها ، ولم تجر الأمور على ما يحب ويريد ، فلم يسعه إلا التفاوض مع أملريك ، وعقد الهدنة[٢] . ولم يكن أملريك بأقل رغبة فى الصلح ، لما حل به من من خسائر فادحة ، فضلا عن اهتمامه بتحركات نور الدين فى الشمال[٣] . وتولى الوساطة أرنولف من تل باشر ، ومن كبار الأسرى الذين وقعوا فى يد شيركوه ؛ وقبل أملريك ما عرضه أرنولف من مقترحات ، لأنها أشبعت طموحه ورغبته من جهة ، ولأنها تتفق مع المعاهدة التى عقدها مع الخليفة العاضد[٤] . وتقرر فى هذه المعاهدة أن يتبادل الجانبان الأسرى، وأن يرحل الجيشان الفرنجى والنورى عن مصر ، وأن يبقى شاور فى منصب الوزارة ؛ وبذا اطمأن الصليبيون إلى أن مصر لم تقع فى يد نور الدين ، وفرح شاور للتخلص من خصومه من الزنكيين وحلفائه الفرنج[٥] . وتعاهد شاور بأن يحمل إلى شيركوه جميع ما غرمه فى هذه السفرة إلى الإسكندرية ، فبذل له خمسين ألف دينار ، وجعل له إقطاعا بمصر ؛ على أن شيركوه شرط ألا يقيم الفرنج بالبلاد ، ولا يتملكوا بها قرية واحدة ، فأجابوا إلى ذلك[٦] .

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٩ – ٣٠ .

Wiet : L'Egypte Arabe p. 296. William of Tyre. : II. p. 338

(٢) Baldwin : op. cit. p. 553. Grousset II. p. : 496

(٣) Baldwin : op. cit. p. 553.

(٤) William of Tyre : op. cit. II. p. 340-341.

(٥) Grousset : op. cit II. p. 498.

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢١٥ .

وفى ٤ أغسطس سنة ١١٦٧ ، فتح صلاح الدين أبواب الإسكندرية ، فتسلمها المصريون ، وعاد شيركوه إلى دمشق فى سبتمبر ١١٦٧ ، « وفى قلبه الداء الدوى منها لأنه شاهدها ، وشاهد مغلاتها ، فوجدها أمرا عظيما ، فأخذ نور الدين فى تهوين أمر مصر عليه ، وأقطعه حمص وأعمالها »(١) . وما ورد فى بعض المصادر العربية و يتفق فى مجموعه مع المصادر الأوربية ، من أن شيركوه توقع قيام الفرنج بغزو مصر « فراسل الملك مرى ، وقال له ، قد سأل أهل مصر يمين الملك ، أن لا يدخل إليهم ولا يتعرض لهم ، فلم يجد الملك وأصحابه بدا من اليمين ، خوفا من أنه إذا قصد مصر ، اجتمع عليه شاور وشيركوه »(٢) .

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية ، بعد أن استحلف شاورا لأهلها ، بألا يتعرض لهم بسوء ، غير أن شاور لم يلبث أن ألقى القبض على جماعة ممن أعانوا صلاح الدين ، وضيق عليهم ، وتتبع أهل الإسكندرية ، غير أن أملريك « ألزمه يمينا أخرى فى ألا يتعرض لأحد ممن لجأ إلى شيركوه أو صلاح الدين »(٣) . وأمد أملريك صلاح الدين بمراكب ، حملت

= ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٦٩ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٩ .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٦٩ .
Grousset : op. cit. II. p. 501

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٦٩ .
يذكر أرنول Ernoul أنه لما استقرت حماية الملك على مصر ، طلب إليه الأساقفة والبارونات أن يلتمس المساعدة من ملوك فرنسا وانجلترا وألمانيا ، وسائر الأمراء المسيحيين ، كيما يستولى على مصر فأجابهم بأنه يؤثر الحماية على امتلاك مصر . انظر :
Ernoul : p. 24-26.
Grousset : op. cit. II. p. 502

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٦٩.
Grousset : op. cit. II p. 501
William of Tyre : op. cit. II p. 342-343

الجرحى إلى الشام ، وبعض المسافرين من المسلمين ، ومنهم الإدريسى ، فنزلوا إلى عكا ، فاعتقلهم الفرنج ، وألزموهم بالعمل فى معصرة القصب ، غير أن أملريك أمر بالإفراج عنهم فرحلوا إلى دمشق[1] .

ارتحل صلاح الدين وشيركوه من مصر ، فوصلا دمشق فى سبتمبر سنة ١١٦٧ . أما أملريك فتوجه بجيشــه إلى القاهرة ، فانحاز إليه هيو صاحب ينبه الذى عهد إليه بقيادة الحامية التى أنزلها بالقاهرة . على أن شاورا تعاهد بمقتضى اتفاق انعقد بينه وبين الفرنج ، « بأن يكون لهم بالقاهرة شحنة (حامية) ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة ، مائة ألف دينار »[2] ، ثم عاد الفرنج إلى بلادهم ، وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم[3] ، ووصل أملريك إلى عسقلان فى أغسطس سنة ١١٦٧[4] .

على أن بعض أمراء الفرنج ظنوا أن كان بوسع أملريك أن يحصل على شروط خير من التى حصل عليها ، والواقع أن أملريك لم يشأ أن يجازف بقواته فى مصر ، أكثر مما حدث نظرا لما تعرضت له الأملاك الصليبية من هجمات نور الدين . ففى أثناء ما كان يجرى بمصر من أحداث ، اشترك نور مع أخيه قطب الدين أتابك الموصل ، فى الإغارة على بلاد

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٩ .

ومن الروايات السائدة أن صلاح الدين جرى تنصيبه فارسا ، على الطريقة الغربية ، أثناء المفاوضات التى دارت وقتذاك بالإسكندرية ، وقام بذلك الكندسطبل همفرى صاحب تبنين . انظر

Runciman : op. cit. II. p. 375.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢١٥ . التاريخ الباهر ص ١٣٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٥٢ .

(٤) **William of Tyre : op. cit. II. p. 343.**

Grousset : op. cit. II. p. 503.

الفرنج ، وأخذت عساكرهم تخرب ما يصادفها من البلاد ، وفتحوا العريمة وصافيثا ، ثم قصدوا حصن هونين ، فانهزم الفرنج عنه ، فأمر نور الدين بهدم سوره ، وأراد نور الدين الدخول إلى بيروت ، فوقع الخلاف بين العساكر فتفرقوا ، وعاد قطب الدين إلى الموصل ، فنحه نور الدين الرقة[١] . غير أن حملة نور الدين توقفت بسبب عودة شيركوه وأملريك ، من مصر ، ووقوع النزاع بين قوات حلب والموصل . وفى السنة التالية ١١٦٨ ، قضى نور الدين على تمرد حسان صاحب منبج ، فانتزعها منه وجعلها لأخيه ، واستولى أيضا على جعبر ، من أميرها مالك العقيلى ، وعوضه عنها بسروج ؛ وبذل جعبر لمجد الدين بن الداية[٢] .

وبهذا الفتح ، أتم نور الدين القضاء على استقلال الإمارات بشمال الشام ، وأصبح سيدا على كل الأراضى الواقعة فى غرب إمارة الموصل[٣] .

التحالف اللاتينى البيزنطى :

إذا كانت الأحداث التى وقعت فى السنوات الأولى من عصر أملريك ، دلت على ضعف مصر ، فإنها كشفت أيضاً عن أسباب ضعف القوى الصليبية بشمال الشام ، يضاف إلى ذلك إدراك ما يبذله الإمبراطور البيزنطى من مساعدة . فما اشتهر به مانويل من أنه إمبراطور طموح ، انطوت خططه الواسعة النطاق ، على إعادة الوفاق مع روما ، ومد سلطان بيزنطة صوب الغرب والشرق والجنوب . وأظهر أثناء تلك الفترة

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٢٤ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢١٦ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٢٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢١٧ .
Gibb : op. cit. p. 525

(٣) Gibb : op. cit. p. 525

النية الصادقة للتعاون مع الغربيين . وحدث قبيل وقوع هذه التطورات ، أن تزوج مانويل من ماريا أخت بوهمند أمير أنطاكية ، ثم تزوج بوهمند من تيودورا ابنة أخت الإمبراطور . وترتب على التقارب بين بوهمند الثالث والإمبراطور البيزنطى ، أن تقرر تعيين بطريرك يونانى فى أنطاكية ، ظل يمارس واجباته حتى لقى مصرعه سنة ١١٧٠ إثر وقوع زلزال ، وأفاد بوهمند من بيزنطة ، فى القضاء على كل مقاومة يتعرض لها من رعاياه[1] .

وفى تلك الأثناء تكللت جهود أملريك ، فى توطيد العلاقة بين بيزنطة ومملكة بيت المقدس بالنجاح ؛ إذ سبق أن أرسل فى سنة ١١٦٥ . عقب انفصاله عن زوجته أجنس ، سفارة إلى القسطنطينية تلتمس إحدى الأميرات البيزنطيات . وحدث قبيل انتهاء الحملة الأخيرة على مصر . أن وصل إلى صور سفارة أملريك ، وبصحبتها ماريا ابنة حنا كومنين . وتم الزواج فى صور ، فى أغسطس سنة ١١٦٧[2] .

وفى الشهور التالية تقرر وضع خطة لإرسال حملة حربية مشتركة من البيزنطيين والفرنج ، للاستيلاء على مصر واقتسامها ، والراجح أن أملريك هو الذى عرض هذا الاقتراح ، على السفيرين اللذين صحبا ماريا البيزنطية إلى الشام فى أغسطس ١١٦٧ . وفى صيف سنة ١١٦٨ ، وصل إلى صور ؛ مبعوثان من قبل الإمبراطور البيزنطى ، هما إسكندر من جراڤينا Gravina ، وميخائيل من اوترانتو ، يحملان شروط الإمبراطور ، وكانا من كبار رجال البلاط البيزنطى[3] .

---

(١) Baldwin : The Latin States under Baldwin III. and Amalric I. p. 554.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. p. 344.
Baldwin : op. cit. p 554. Grousset : op. cit. II. pp. 503-504

(٣) Runciman : op cit. II. p. 379. Grousset op. cit. II. p. 508
Baldwin : op. cit. p 555. William of Tyre : II. p. 347.

الواضح أن الملك أملريك اكتفى بما حصلت عليه حملته على مصر ١١٦٧ من نتيجة اعتبرها باهرة ، إذ فرض شبه الحماية على الدولة الفاطمية ، أما إذا تدخلت الدولة البيزنطية فى الأمر ، فمن الطبيعى أن يتغير الموقف ؛ فإذا تم التحالف بين البيزنطيين والفرنج ، فإن ما تبذله بيزنطة من قوات بحرية وحربية ، للتظاهر أمام أنطاكية والإسكندرية ، كفيلة بالزام نور الدين أن يتخذ خطة الحياد ، وبأن تستولى القوات المتحالفة على الدلتا[١] . ومقابل هذه المساعدة يحصل الإمبراطور على شطر من مصر ، وعلى جانب من الغنائم[٢] .

ولما تقررت الشروط بين الجانبين ، انضم وليم الصورى ، كبير شمامسة صور ، والمؤرخ المشهور ، إلى الرسولين البيزنطيين ، وسار بصحبتهما إلى القسطنطينية للتصديق على المعاهدة . ولما لم يلق الإمبراطور فى العاصمة ، لحق به فى الصرب ، ثم عاد معه إلى القسطنطينية ، حيث تم التصديق على المعاهدة ، وبمقتضاها يقتسم الإمبراطور والملك فتوحهما فى مصر ، ثم عاد وليم إلى فلسطين فى أكتوبر سنة ١١٦٨[٣] .

حملة أملريك على مصر ١١٦٨ :

ومع أن رسول أملريك إلى بيزنطة أحرز نجاحا فى مهمته ، بأن تقرر فى السنة التالية توجيه حملة ضخمة من اللاتين واليونانيين ، لمهاجمة الفاطميين ، فإن اللاتين لم ينتظروا قدوم حلفائهم الجدد ، وبادروا بالمسير

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 509.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. p. 348

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 379 Grousset : II. p. 509

Baldwin : op. cit. p. 555

وحدهم لمهاجمة مصر[1] . فكيف نفسر ما اتخذه الصليبيون من قرار بعيد عن السياسة ؛ بأن ينفردوا بالاستيلاء على مصر وينقضوا الاتفاق مع شاور ، ألم يسع أملريك لعقد تحالف مع بيزنطة ، فما السر فى هذا التغير ؟ .

الواقع أن ما جرى بمصر من أحداث منذ مسير وليم الصورى إلى القسطنطينية يصح أن يكشف سر هذا التحول . إذ أن شعور شاور نحو الصليبيين أخذ يتغير بعد أن جعلوا من مصر محمية لهم ؛ ولا شك أن الجزية السنوية ، وقدرها ١٠٠ ألف دينار التى تعاهد شاور بأن يؤديها لهم ، أثقلت كاهل الخزانة المصرية ، ولم يعد لها مبرر بعد أن انجاب الخطر عن مصر[2] . وزاد فى إثارة المصريين ما أشار إليه ابن الأثير : « من تمكن الفرنج من البـــلاد المصرية ، وأنهم جعلوا لهم فى القاهرة شحنة وتسلموا أبوابها ، وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم . وحكموا على المسلمين حكماً جايرا وركبوهم بالأذى العظيم »[3] . والواضح أن هذا الاحتلال كان له صفة مزدوجة : التظاهر بتخويف نور الدين ، وجعله يتخلى عن كل فكرة لمهاجمة مصر من جديد ، ومراقبة دفع الجزية وحماية الجباة الذين تولوا بأنفسهم جمع الجزية المقررة ، فتعرض المصريون للأذى من قبل رجال الحامية الصليبية ، والجباة ؛ فاشتدت كراهيتهم للفرنج ، لأنهم أضحوا مصدر تهديد لسلامتهم[4] .

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 511.

(٢) ابوشامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٠ .
التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٣٧ .

(٤) يشير وليم الصورى إلى «أن ما ذاع من أن شاور التمس المساعدة من نور الدين، وأنه لم يعقد المعاهدة مع الفرنج ، عن رضى وقبول ، وأنه أراد أن ينقض الاتفاق مع الفرنج ، إذا وعد نور الدين ببذل المساعدة له ، ليس إلا تهما باطلة ألصقها الفرنج بشاور ، الذى التزم =

على أن الصليبيين عزموا على الاستيلاء على مصر ، بعد أن خبروا ، فى الحملتين السابقتين ، الديار المصرية ، « واطلعوا على عوراتها ، فطمعوا فيها »[١] ، إذ أن أملريك أقام بمصر من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها ، وتعرف له خبر خراجها وارتفاعها ، حتى إنه عند خروجه إلى مصر ، أمر بإقطاع بلاد مصر لخيالته ، وفرق قراها على أجناده[٢] . ولما أدرك رجال الحامية اللاتينية بالقاهرة ، ما أصاب البلاد من الضعف ، وأنه ليس فيها « من يرد الفرنج ، أرسلوا إلى ملكهم مرّى (أملريك) ، ولم يكن للفرنج ، مذ ظهر بالشام ، مثله شجاعة ومكرا ودهاء »[٣] ، يستدعونه ليملكها ، وأعلموه سهولة فتحها ، وهونوا أمرها عليه[٤] .

على أن ملك بيت المقدس ، أملريك ، وقف على ما حدث من الاتصالات بين كبار الموظفين المصريين ، ومنهم شجاع بن شاور ، وبين نور الدين ، « إذ أرسل إليه ينهى محبته وولاءه ، ويسأله الدخول فى طاعته ، وضمن على نفسه أن يفعل هذا ، وبذل مالا يحمله كل سنة »[٥] . وما ذاع من زواج ابن شاور من أخت صلاح الدين وامتناع المصريين عن تأدية الجزية المقررة ، واعتراف شاور بجهود نور الدين فى حركة

= بتنفيذ المعاهدة وشروطها ؛ وما شنه عليه الفرنج من حرب ، لم تكن عادلة ، وتعتبر مخالفة للناموس الإلهى ؛ وليست إلا ادعاء التمسوه لتبرير حملتهم الجائرة ، ولذا فإن الله الذى يعلم السرائر ، لم يستجب لهم ، وألحق بحملتهم الهزيمة » .

انظر : William of Tyre : op. cit. II. p. 350.

Grousset : op. cit. II, p. 512.

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٤ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٥٠ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢١ التاريخ الباهر ص ١٣٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٥٦ .

Grousset : op. cit. II. p. 515.

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢١٥ .

الجهاد الديني ، وتوحيد الجبهة الإسلامية[١] ، كل ذلك يعتبر من الأعذار التي توسل بها أملريك للمبادرة بالهجوم على مصر ، دون انتظار لقدوم المساعدة البيزنطية . ومن الأسباب الهامة التي حملت الصليبيين على المسير إلى مصر قدوم جماعة من الفرسان في صحبة وليم الرابع كونت نيڤر Nevers ، اتفقت أغراضهم مع آراء البارونات بالمملكة اللاتينية ، في مهاجمة مصر ، فلم يسع أملريك ، على حد قوله « إلا أن يخرج لتتوسط الأمر بينكم (المصريين) وبينهم »[٢] . والواضح أيضا أن الرغبة في الانفراد بالاستيلاء على مصر ، ومنع البيزنطيين من الاشتراك في ذلك ، حفزت أملريك للتوجه إلى مصر[٣] .

ومهما يكن لملك بيت المقدس من الحقوق ، وما كان له من بلاط وحاشية ، وما امتاز به على سائر النبلاء من مظاهر الأبهة والعظمة ، وشارات الملك ، ونبل الطباع والأخلاق ، فإنه لم يكن سوى سيد إقطاعي ، يمارس سلطته على أتباعه ، ويلتزم بما ينص عليه النظام الإقطاعي نحوهم من واجبات. فلم يعتبر الملك رأساً للنظام الملكي ، بل يعتبر أساساً ، زعيماً للطبقة الأرستقراطية الإقطاعية . وترتب على ذلك أن السيادة الحقيقية تتركز في طبقة النبلاء[٤] . ولذا تقرر في خريف سنة ١١٦٨ ، عقد مجلس لمناقشة أمر مصر ، بعد أن راسل أملريك ، قادة الحامية اللاتينية بمصر ، في إنفاذ حملة للاستيلاء على مصر . فألح عليه أعضاء المجلس في المسير إلى مصر

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٠ .

Grousset : op. cit. II. p. 520. Runciman : op. cit. II. p. 379

Baldwin : The Latin States' p. 555.

(٣) Baldwin : op. cit. p. 555. Grousset : op. cit. II. p. 517

(٤) Grousset : op. cit. II. pp. 516-517

Dodu : Institutions monarchiques du royaume de Jerusalem p. 172.

وتملكها ، غير أنه رد عليهم بأنه يرى « أننا لا نقصدها ، ولا طمعة لنا ، وأموالها تساق إلينا ، نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فإن صاحبها وعساكره ، وعامة بلاده وفلاحيها ، لا يسلمونها إلينا ، ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، ولئن صار له فيها ، مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج ، وإجلاؤهم من أرض الشام »[1] . على أنهم لم يقبلوا رأيه ، وأشاروا إلى « أن مصر لا مانع فيها ، ولا حامى ، وليس بها من يردنا ، كما أن نور الدين فى البلاد الشمالية والجهة الفراتية ، وعسكر الشام متفرق ، كل منهم (الأمراء) فى بلده ، حافظ لما فى يده ، ونحن ننهض إلى مصر ، ولا نطيل بها الحصر ، فإنه ليس لها معقل ، ولا لأهلها منا موئل ، وإلى أن تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام ، وقوينا بتلك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة ، فلا يقادر عليها »[2] . وفى هذا المجلس أصر مقدم الاسبتارية جيلبرت أسيلى ، على ضرورة المسير إلى مصر ، وأقر رأيه معظم البارونات ، وكونت نيڤر ورجاله ، الذين جاءوا للقتال من أجل الصليب . ولعل هذا الحماس من قبل مقدم الاسبتارية يرجع إلى ما حدث من التفاهم سنة ١١٦٨ بين جيلبرت وأملريك ، بعد أن أثقلت الديون كاهل الاسبتارية ، على أن ينال الاسبتارية ، عقب الاستيلاء على

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٢١ . التاريخ الباهر ص ١٣٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٥٤ .

(٢) كان نور الدين وقتذاك يقاتل صاحب جعبر مالك بن على العقيلى ، ويحمى أملاك نور الدين بن قرة أرسلان صاحب حصن كيفا من أطماع أخيه قطب الدين أتابك الموصل ، نظرا لما ارتبط به من صداقة مع قره أرسلان الذى نهض لمساندته فى قتال الفرنج ، والذى طلب إليه أن يرعى ابنه بعد وفاته .

انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٢١ . التاريخ الباهر ص ١٣٧ — ١٣٨ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٥٤ .

Grousset : op. cit. II. pp. 514.

مصر ، بلبيس وما يتبعها من الأراضى[١] ، التى تغل ١٠٠ ألف دينار ، فضلا عن خمسة آلاف دينار ، تحصل عليها من كل من المدن الهامة فى القطر المصرى : بابليون (القــاهرة) ، تنيس ، دمياط ، الإسكندرية ، جزيرة المحلة ، قوص ، فوة ، وجانب من الغنائم من نفائس القصور الفاطمية[٢] .

أما الداوية فإنهم رفضوا الاشتراك فى الحملة ، إما لإقبال خصومهم ، الاسبتارية ، على الاشتراك فيها ، أو أن ضميرهم تيقظ ، فأدركوا أنه لا يجوز لهم أن يشنوا الحرب على دولة ارتبطت معهم بالصداقة ، إذ أن مصر التزمت بالوفاء بما جاء بالمعاهدة من شروط ، ولا تستحق المعاملة السيئة[٣] . والمعروف أن الداوية ارتبطوا وقتذاك بعلاقات تجارية مع المسلمين والتجار الإيطاليين ، وبلغ نشاطهم التجارى فى مصر ما لم يبلغه فى الإمارات اللاتينية[٤] .

وإذ كان أملريك يتطلع إلى الاستيلاء على مصر ، ويطمع فى امتلاكها ، فإنه التمس من الأسباب ما تذرع به للمسير إلى مصر ، وتظاهر بأنه غلبه على أمره البارونات ، والفرنج الذين جاءوا من وراء البحر ، والاسبتارية[٥] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 350.
Runciman : op. cit. II. p. 386.
Grousset : op. cit. II. p. 518.

(٢) Richard : op. cit. p. 53.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 350.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 380.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٩ — ١٧٠ .
Grousset : op. cit. II. p. 518
Michel Le Syrien ed Chabot III. p. 333

شرع أملريك فى المسير بحملته من عسقلان فى أكتوبر سنة ١١٦٨ ، بعد أن تظاهر بأنه يريد مهاجمة حمص ، حتى يصرف نظر نور الدين عن حركاته[١] . وأمعن فى سيره ، حتى بلغ بلبيس فى أول نوفمبر سنة ١١٦٨ ، فبادر إلى محاصرتها ، ولم يلبث الفرنج أن اقتحموها بعد مضى ثلاثة أيام ، بعد قتال عنيف ، فلما دخلوها ، أجروا مذبحة مريعة ، فلقى عدد كبير من سكانها مصرعه ، ولم يفرقوا فيها بين الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والمرضى ، وخربوا أكثر المدينة ، وأغاروا على ريفها ، وأسروا وقتلوا من صادفهم ، وزعم أملريك أنه بامتلاك بلبيس ، خضعت له مصر[٢] . والمعروف أن الفرنج استمالوا إليهم جماعة قليلة العدد من الساخطين على شاور ، ولقوا أول الأمر المساعدة من المسيحيين المصريين ، غير أن ما تعرض له أهل بلبيس من المسلمين والمسيحيين ، من القتل والأسر والتعذيب ، حمل المصريين على أن يتحدوا فى كراهيتهم للفرنج[٣] . ولم تمض إلا أيام قليلة حتى وصل إلى بحيرة المنزلة ، أسطول صليبى صغير ، يقوده بحارة من الغرب ، معظمهم من البيازنة ، فاتخذ طريقه فى الفرع التنيسى ، وهاجم بغتة مدينة تنيس ، فحل بها من القتل والنهب ما حل ببلبيس ، فشاع الرعب واشتد الخوف[٤] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 380. Grousset : II. p. 518
William of Tyre : op. cit. II. p. 351.
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٥٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٤ ، ١٧٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢١ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٥٠ .
Wiet : op. cit. p. 297. William of Tyre : op. cit. II. p. 351.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 524 Runciman : op. cit. II. p. 381.

(٤) Runciman : op. cit. II. p. 381 William of Tyre: II. p. 353

مكث أملريك بضعة أيام فى بلبيس لضبط العساكر ، ويوزع عليهم ما وقع فى أيديهم من الأسرى ، ثم شحن المدينة بالرجال والعتاد ، واتخذ منها قاعدة يستند إليها ، فى حالة الهجوم والارتداد[1] . على أن ما حدث من تباطؤ الملك فى المسير نحو القاهرة ، حتى أنه أمضى عشرة أيام ، فى اجتياز المسافة بين بلبيس والقاهرة التى لا تتجاوز خمسين كيلومتر ، أضاعت عليه فرصة مباغتة القاهرة والاستيلاء عليها[2] . ولعل السر فى هذا التمهل يرجع إلى أن أملريك توقع المقاومة الشديدة من المصريين بعد أن لمسها فى بلبيس ، ولم يخف عليه احتمال مهاجمة نور الدين له[3] . فما حل ببلبيس من التنكيل والتعذيب ، وارتكاب الفظائع أثار الخوف فى نفوس المصريين ، ومع ذلك فإن خوفهم من أن يتعرضوا لهذا المصير ، حملهم على المضى فى المقاومة ، وبذل الجهد فى حفظ البلد (القاهرة) ، والتصميم على ألا يدخلها الفرنج ، إلا وأهلها جثث هامدة[4] .

وفى ١٣ نوفمبر سنة ١١٦٨ ، ظهر أملريك بقواته أمام أسوار الفسطاط ، فعسكر عند بركة الحبش ، وأعد من أدوات الحصار ، والآلات ، ما ينذر بأنه سوف يعجل بمهاجمة المدينة ، فأثار ذلك القلق فى نفوس الناس[5] . ولما تبين لشاور أنه ليس فى وسعه الدفاع عن العاصمتين ،

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٠ .

Runciman : op. cit. II. p. 381.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. pp. 352-353

Runciman : op. cit. II. p. 381.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 524.

(٤) حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٢٤ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٤ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢١ ، التاريخ الباهر ص ١٣٨ .

(٥) William of Tyre : op. cit. II. p. 352

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٥٠ .

القاهرة والفسطاط ، عزم على الإبقاء على المدينة الفاطمية (القاهرة) ، وتدمير الفسطاط ، بأن أشعل النيران بها ، بعد أن أمر أهلها أن ينتقلوا إلى القاهرة ، فظلت النيران تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً[١] . وهدد شاور بأنه سوف يحرق القاهرة ويدمرها بكل ما تحويه من كنوز قبل أن تسقط فى أيدى الفرنج[٢] .

وفى تلك الأثناء حاول الأسطول الصليبى أن يلحق بأملريك ، غير أن المصريين اعترضوا طريقه ، بما جعلوه من السفن فى فرع النيل ، لمنع الصليبيين من المسير . وأنفذ أملريك قوة من الفرسان بقيادة همفرى صاحب تبنين ، للاستيلاء على الجانب الآخر من فرع النيل ، لتأمين طريق الأسطول ، غير أن ما ترامى له من أنباء اقتراب شيركوه بحملته من القاهرة ، أثناه عن عزمه ، فأمر الأسطول بالعودة إلى البحر المتوسط وإلى بلاد اللاتين[٣] .

على أن شاور والمصريين لم يكفوا مطلقا عن بذل الجهود لطرد الملك من البلاد . فما افتقروا إليه من القوة ، استعاضوا عنه بما دبروه من الخطط الحربية ، والتمسوه من الحيل الماكرة ، ولا سيما بعد أن أدرك الملك أنه لن يستطيع امتلاك القاهرة ، بعد أن شهد الفسطاط تلتهمها النيران ، والمصريون راضون بذلك ، وقد قبلوا أن تنهب أموالهم وتدمر

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٥٠ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٠ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢١ .

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 381.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. pp. 353-354.

Runciman : op. cit II. p. 334.

Schlum berger : Les Campagnes du roi Amaury en Egypte p. 25?.

بيوتهم ، حتى لا تقع فى أيدى الفرنج[١] . ولوّح شاور إلى أملريك بما يتعرض له من خطر ، من قبل نور الدين والخليفة العاضد الفاطمى ، فعرض أن يؤدى له ألف ألف (مليون) دينار مصرى يعجل بالبعض ، ويمهل بالبعض ، ولما قبل أملريك هذا العرض ، عجّل له شاور مائة ألف دينار[٢]. وسألهم شاور الرحيل عنه ليجمع لهم المال ، فارتحلوا إلى المطرية بالقرب من القاهرة ، حتى لا يثيروا قلق الخليفة وسكان المدينة . وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر (الفسطاط) ، فلم يتحصل له إلا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار ، نظرا لما تعرضت له دور أهل الفسطاط من التخريب

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٤ ، ١٧٠.

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢١ .

حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٢ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٥٨ .

عرض شاور مليون دينار ، مقابل إطلاق سراح ابنه وابن أخيه ، وانسحاب القوات اللاتينية من البلاد . ولم يقصد من وراء ذلك إلا منع الملك من الانقضاض على القاهرة والاستيلاء عليها ، والتماس الوسائل والحيل لطرد الملك . فأشار إلى استحالة تدبير هذا المبلغ الضخم من مصدر واحد ، وإلى أنه لا بد من إمهاله فترة من الزمن غير محدودة ، حتى يتيسر جباية الأموال . وأدى شاور مبلغ ١٠٠ ألف دينار معجلا ، وتقرر الإفراج عن ابنه (طى) ، وابن أخيه ، وأن يحل مكانهما ، كرهائن ، صبيان آخران من أبناء إخوة شاور . ومن الذين أسهموا فى إجراء المفاوضات بين شاور وأملريك ، ميلون دى بلانسى **Milon de Plancy** الذى أدرك ما اشتهر به الملك من الجشع وحب المال ؛ والحرص على أن ينفرد ، دون فرسانه بالغنائم . والمعروف أنه إذا اشترك العساكر فى اقتحام المدينة ، فما يحصل عليه الملك من الغنيمة يقل كثيراً عما إذا تم عقد معاهدة بين الملك والخليفة . فوقع الخلاف بين العساكر والفرسان من جهة وبين الملك ؛ إذ طالب الفرسان بالقتال ، بينما رأى الملك غير ذلك ، وتغلب رأى الملك ، فتحرك بجيشه صوب الشمال وعسكر فى المطرية قرب شجرة الجميز ، التى تظللت بها العذراء عند قدومها إلى مصر ، ثم انتقل إلى سرياقوس . انظر :

William of Tyre : op. cit. II. pp. 353-356

Runciman : op. cit. II. pp. 381-382.

والتدمير والنهب ، بينما تعذر على أهل القاهرة الأموال ، لأنه غلب على أهلها الجند والغلمان[١] .

وحدث وقتذاك أن أرسل شاور مندوبيه فى أنحاء البلاد يطلب المساعدة ، فجمع كل ما تيسر له من الأسلحة ، وأمر بتوفير المؤن والأقوات فى القاهرة ، وطاف بأنحاء القاهرة ، يأمر بعمارة ما تداعى من استحكاماتها وأسوارها ، ويتدبر كل وسيلة للمقاومة . وحث الناس على أن ينهضوا للقتال من أجل أنفسهم وحريتهم والذود عن حريمهم وأطفالهم ، وصور لهم ما سوف يحل بهم من الاسترقاق ، إذا تقاعسوا عن الدفاع عن المدينة[٢] .

لم يشأ شاور أن يطلب المساعدة من نور الدين ، لأنه وطّن نفسه على « المصابرة ، وآخر أمره يسلم البلاد إلى الفرنج ، ولا يكاتب نور الدين ، وهذا عين الفساد »[٣] . على أن الكامل بن شاور ، قصد الخليفة العاضد ، وأوقفه على كل ما يجرى من الأمور ، والتمس منه أن يكتب إلى نور الدين[٤] ، فأرسل إلى نور الدين ، يخطره بسوء أحوال مصر ، ويستنجد به ، وبذل له ثلث خراج البلاد ، وقبل أن يقيم عنده شيركوه فى عسكره ، وأن تكون إقطاعات العسكر ، خارجة عن الخراج الذى جعله نور الدين ، وأرسل المصريون أيضاً إلى شيركوه ، يحثونه على سرعة الوصول إليهم . فأرسل نور الدين إلى شيركوه يستدعيه من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٢ .

(٢) William of Tyre . op. cit. II. p. 354

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٤) وفى رواية أخرى أن العاضد هو الذى أرسل إلى نور الدين ، عقيب حريق مصر ، يستغيث به ، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، وأرسل فى الكتب شعور النساء ، وقال هذه شعور نسائى من قصرى ، يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج .

انظر (أبو شامة كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٤) .

إقطاعه بحمص[١] . وطلب إليه نور الدين أن يتجهز للمسير إلى مصر ، واختار شيركوه من العسكر ألفى فارس ، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس ، وأعطاه نور الدين مائتى ألف دينار ، سوى الثياب والدواب والأسلحة . ولما تهيأ شيركوه للمسير أعطى نور الدين كل فارس فى جيش شيركوه عشرين دينارا معونة غير محسوبة من جامكيته ، وأضاف إلى شيركوه جماعة من الأمراء ، وحرص على أن يصحب صلاح الدين عمه فى هذه الحملة ، ولما أراد أن يعتذر بما لقيه فى الحملتين السابقتين من العناء والشدائد ، أصر على ذلك ، وفى ذلك يقول ابن الأثير « أحب نور الدين مسير صلاح الدين ، وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير ، وفيه سعادته وملكه »[٢] .

على أن موقف نور الدين اختلف فى هذه المرة عما حدث فى الحملتين السابقتين ، إذ أنه فى هذه المرة ألح على شيركوه فى ضرورة الإسراع بإعداد الحملة ، وبذل له الأموال الوفيرة ، ولعله رأى أن تخليص مصر ، سوف يؤدى إلى إعادة المذهب السنى لها ، وبذلك يكسب عطف الخليفة العباسى وتأييده . وأدرك نور الدين أيضاً أن البلاد سوف تكون من نصيبه هذه المرة ، فضلا عما شعر به من القلق من جانب الصليبيين ، فحذر شيركوه بأنه إذا تأخر عن المسير إلى مصر ، فالمصلحة تقضى أن يسير إليها بنفسه ، « لأننا إذا أهملنا أمرها ملكها الفرنج ، ولا يبقى معهم مقام بالشام ولا غيره »[٣] . أما صلاح الدين فإنه أصر على عدم المسير مع عمه ، لما قاساه من المشاق أثناء حصار الإسكندرية ، ولم يذعن لنور الدين

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٢٢ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ، ص ١٥٩

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٢٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ، ص ١٥٩ — ١٦٠ .

إلا بعد أن أعطاه من المال ما تجهز به ، « وكأنه مساق إلى الموت »[١] .

ولما لم يدرك شاور أين تقع مصالحه ، حذر أملريك بما يتعرض له من خطر داهم ، بعد أن ذاع خبر قدوم شيركوه فى جيش ضخم من الترك ، فلم يسع أملريك إلا أن يخرج بجيشه إلى بلبيس ، وبعد أن ترك جماعة من الفرسان والمشاة لحراسة المدينة ، فقدم فى ديسمبر ١١٦٨ ، بقواته ، لمواجهة شيركوه الذى اجتاز برزخ السويس ، غير أنه لما علم أن شيركوه قد بلغ القاهرة ، وأن شاور لن يلتزم بالمعاهدة ، عاد أملريك إلى بلبيس ، وجمع ما تبقى من القوات التى أعدها لحراسة المدينة ، وقرر فى يناير ١١٦٩ مغادرة مصر ، والتوجه إلى الشام[٢] . بعد أن صار مركزه حرجا ، وخاف أن يهاجمه شيركوه ، وأن يثب عليه المصريون[٣] .

لقى شيركوه ترحيبا كبيراً فى القاهرة ، لأنه خلص المصريين مما لحق بهم من المظالم ، فاستقبله الخليفة العاضد ، وخلع عليه ، وتقرر له ولعساكره « الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة »[٤] . وأقام شيركوه معسكره باللوق ، بالقرب من المقسم فسيطر بذلك جيشه على المدينة[٥] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٥.
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٣ .

(٢) William of Tyre : op. cit. II. p. 356
Runciman : op. cit. II. p. 382
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٢٣ .

(٣) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٣٢ .

(٤) ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٦١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٦ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٣ .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧١ .

أما شاور فإنه أدرك حرج الموقف ، ولم يستطع أن يمنع ما أغدقه العاضد على شيركوه من العطايا والمنح ، نظرا لأنه رأى « العساكر كثيرة بظاهر البلد ، وأن هوى العاضد معهم »[١] . على أن الوزير الماكر أخذ ، وفقا لما درج عليه ، يعمل على كسب الوقت ، فصار يماطل شيركوه على أن يؤدى له ما سبق أن بذل له من المال ، والإقطاع للعساكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين[٢] .

قرر شيركوه البقاء بمصر ، إذ أنه جاء إليها بناء على دعوة شاور والخليفة ، ولا بد أن يفيد من الأحداث الجارية ، إذ اشتدت كراهية الخليفة العاضد لوزيره شاور ، فلم يكن فى وسعه أن يحاربه فى سياسته الملتوية ، التى قامت على الإفادة من الصليبيين وقوات نور الدين ، حسب الظروف والأحوال[٣] . وعلى الرغم من أن شاور أخذ يتودد إلى شيركوه ، ويتقرب إليه بكل الوسائل ، فأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة ، والنفقات الغزيرة[٤] ، غير أنه لم يصل إليهم من ذلك شىء[٥] . وما وقف عليه شيركوه من مضى شاور فى التآمر ، بأن حاول إقامة وليمة ، يغتال أثناءها شيركوه ، ولم يمنعه من ذلك إلا ابنه لما تتعرض له مصر من غزو جديد من قبل الفرنج[٦] ، فضلا عن محاولته الإيقاع بينه وبين

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٦ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٣ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٦ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٣ .

(٣) Wite : op. cit. p. 298

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧١ .

(٥) ابن شداد : كتاب سيرة صلاح الدين ص ٣١ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٦١ – ١٦٢ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٣ – ٢٢٤ .

عساكر الشام ومكاتبته للفرنج[١] . يضاف إلى ذلك أن ما اشتهرت به مصر من الخصوبة ووفرة الأموال ، جعلت عسكر الشام ، تتوق أنفسهم إلى الإقامة بها ؛ واشتد طمع شيركوه فى الاستيلاء عليها ، والاستبداد بملكها . غير أنه أدرك أنه لا يتم له ذلك وشاور باقٍ فيها ، فاتفقت الرغبة عند شيركوه والعاضد ، فى التخلص من شاور[٢] . وأفصح شيركوه عن نواياه فى الحديث الذى توجه به إلى أصحابه ، « قد علمتم رغبتى فى هذه البلاد ، ومحبتى لها ، وحرصى عليها لا سيما وقد تحققت عند الفرنج منها ما عندى . وعلمت أنهم كشفوا عورتها ، وعلموا مسالك رقعتها ، وتيقنت أنى متى خرجت منها ، عادوا إليها ، واحتووا عليها ، وهى معظم دار الإسلام ، وحلوبة بيت مالهم . وقد قوى عندى أن أثب عليها قبل وثوبهم ، وأملكها قبل مملكتهم ، وأتخلص من شاور الذى يلعب بنا وبهم ، ويغرنا ويغرهم ، ويضرب بيننا وبينهم ، وقد ضيع أموال هذه البلاد فى غير وجهها ، وقوى بها الفرنج علينا ، وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم إلى هذه البلاد التى قلّ رجالها وهلكت أبطالها ، وملاكها كانوا على البدعة المشهورة عنهم »[٣] .

وبذا تقرر مصير شاور ، فاستدرجه صلاح الدين وجماعة من العساكر ، إلى ضريح الإمام الشافعى ، حيث كان يزوره شيركوه ؛ فتم اغتياله فى ١٨ يناير سنة ١١٦٩ ، ولم ينكر هذا العمل شيركوه والخليفة العاضد[٤] .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧١ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٥١ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧١ .
ابن شداد : كتاب سيرة صلاح الدين ص ٣١ .
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧١ — ١٧٢ ، ١٥٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٦٢ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٣١ .
(٤) = Wite : op. cit. p. 298

فانتهت بذلك حياة آخر رجال الحكومة الفاطمية ، شاور ، الذى استغل ما بين الأمراء والسلاطين والخلفاء من النزاع للإبقاء على سلطانه . والواقع أن مقتل شاور كان خاتمة المتاعب التى تعرضت لها مصر أواخر العصر الفاطمى ، ولم يعد للصليبيين من ينصرهم بالبلاد ، إذ كان خروجهم من مصر فتحا جديدا للبلاد ، وحفظا لسائر بلاد الشام[1] . ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة فى موكب كبير بعد مصرع شاور ، على أنه أثار قلقه وخوفه ما شهده من كثرة الناس واجتماعهم ، واشتداد ثائرتهم ، بما عانوه من حصار المدينة وحريق الفسطاط ، ووقوع الفتن والثورات ، فلم يسع شيركوه إلا أن يقول لهم إن الخليفة العاضد ، يأمرهم بنهب دار شاور ، فقصدوها ، وأمعنوا فى نهبها ، وتفرقوا عنه[2] .

ومن الطبيعى أن يخلف شاور فى الوزارة ، شيركوه ؛ فى يناير سنة ١١٦٩ ، فأنعم عليه العاضد بخلعة الوزارة ، وتلقب بالملك المنصور أمير الجيوش ، فجعل له التقدم على الجيوش . ولما استقر له الأمر لم يغير على أحد شيئا ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم[3] . غير أنه استعمل على الأعمال (الأقاليم) من يثق إليه من أصحابه ، وأقطع البلاد لعساكره ، وجعل صلاح الدين يباشر أمور الدولة[4] . لما له من الكفاية والدراية ، ولما اشتهر به من حسن السياسة[5] . واستعان بالقاضى

= ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٣٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٤ .

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٣٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٦٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٢ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٦٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٣٤ .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٩ .

الفاضل ، الذى لم يلبث أن ازداد تقدما بصدقه ودينه وحسن رأيه[١] .

على أن شيركوه لم يمكث فى الوزارة إلا شهرين وخمسة أيام ، إذ مات فى ٢٣ مارس ١١٦٩ . وعلى الرغم من قصر مدة وزارته ، فإنه كان صاحب الكلمة النافذة فى مصر ، وما قام به من حملات لمقاومة التدخل الأجنبى فى مصر ، وحمايتها من الغزو الصليبى ، أكسبته محبة الناس وتقديرهم لبطولته ، كما أن جيشه الذى يبلغ عدده ٨ آلاف مقاتل ، كان كفيلا بأن يزيد فى هيبته واحترامه . ومع أن شهرته فى التاريخ طغى عليها ماكان لنورالدين وصلاح الدين من الصيت ، فإنه كان أول من أدرك أن الاستيلاء على مصر ، يعتبر من أهم الخطوات لاسترداد فلسطين ، فلم يكف شيركوه عن العمل لتحقيق هذا الغرض ، برغم ما حدث من تردد نور الدين ، ولا شك أن صلاح الدين أفاد من جهود عمه[٢] .

على أن وزارة شيركوه ، بلغت من قصر العمر ، ما يجعلنا لا ندرك ما إذا كان شيركوه فكر فى أن يجعل الحكم وراثيا ، على الرغم من الإشارة إلى أنه عند وفاته ، أوصى بالوزارة لابن أخيه[٣] ، ويعتبر مشيد قواعد الدولة الأيوبية[٤] . فلم يلبث صلاح الدين أن تولى الوزارة على الرغم من أن بعض أمراء الجيش النورى من الترك كرهوا تعيينه وزيرا ، لأنه كردى ليس منهم ، فعادوا ساخطين إلى الشام[٥] .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٩ .

(٢) Wiet : op. cit. p. 298-299.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٥٤ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٣ .

(٥) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٣٣ .

فانتهت بذلك حياة آخر رجال الحكومة الفاطمية ، شاور ، الذى استغل ما بين الأمراء والسلاطين والخلفاء من النزاع للإبقاء على سلطانه . والواقع أن مقتل شاور كان خاتمة المتاعب التى تعرضت لها مصر أواخر العصر الفاطمى ، ولم يعد للصليبيين من ينصرهم بالبلاد ، إذ كان خروجهم من مصر فتحا جديدا للبلاد ، وحفظا لسائر بلاد الشام[1] . ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة فى موكب كبير بعد مصرع شاور ، على أنه أثار قلقه وخوفه ما شهده من كثرة الناس واجتماعهم ، واشتداد ثائرتهم ، بما عانوه من حصار المدينة وحريق الفسطاط ، ووقوع الفتن والثورات ، فلم يسع شيركوه إلا أن يقول لهم إن الخليفة العاضد ، يأمرهم بنهب دار شاور ، فقصدوها ؛ وأمعنوا فى نهبها ، وتفرقوا عنه[2] .

ومن الطبيعى أن يخلف شاور فى الوزارة ، شيركوه ؛ فى يناير سنة ١١٦٩ ، فأنعم عليه العاضد بخلعة الوزارة ، وتلقب بالملك المنصور أمير الجيوش ، فجعل له التقدم على الجيوش . ولما استقر له الأمر لم يغير على أحد شيئا ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم[3] . غير أنه استعمل على الأعمال (الأقاليم) من يثق إليه من أصحابه ، وأقطع البلاد لعساكره ، وجعل صلاح الدين يباشر أمور الدولة[4] . لما له من الكفاية والدراية ، ولما اشتهر به من حسن السياسة[5] . واستعان بالقاضى

= ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٣٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٤ .

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٣٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٦٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٢ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٦٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٣٤ .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٩ .

الفاضل ، الذى لم يلبث أن ازداد تقدما بصدقه ودينه وحسن رأيه[1] .

على أن شيركوه لم يمكث فى الوزارة إلا شهرين وخمسة أيام ، إذ مات فى ٢٣ مارس ١١٦٩ . وعلى الرغم من قصر مدة وزارته ، فإنه كان صاحب الكلمة النافذة فى مصر ، وما قام به من حملات لمقاومة التدخل الأجنبى فى مصر ، وحمايتها من الغزو الصليبى ، أكسبته محبة الناس وتقديرهم لبطولته ، كما أن جيشه الذى يبلغ عدده ٨ آلاف مقاتل ، كان كفيلا بأن يزيد فى هيبته واحترامه . ومع أن شهرته فى التاريخ طغى عليها ماكان لنورالدين وصلاح الدين من الصيت ، فإنه كان أول من أدرك أن الاستيلاء على مصر ، يعتبر من أهم الخطوات لاسترداد فلسطين ، فلم يكف شيركوه عن العمل لتحقيق هذا الغرض ، برغم ما حدث من تردد نور الدين ، ولا شك أن صلاح الدين أفاد من جهود عمه[2] .

على أن وزارة شيركوه ، بلغت من قصر العمر ، ما يجعلنا لا ندرك ما إذا كان شيركوه فكر فى أن يجعل الحكم وراثيا ، على الرغم من الإشارة إلى أنه عند وفاته ، أوصى بالوزارة لابن أخيه[3] ، ويعتبر مشيد قواعد الدولة الأيوبية[4] . فلم يلبث صلاح الدين أن تولى الوزارة على الرغم من أن بعض أمراء الجيش النورى من الترك كرهوا تعيينه وزيرا ، لأنه كردى ليس منهم ، فعادوا ساخطين إلى الشام[5] .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٥٩ .

(٢) Wiet : op. cit. p. 298-299.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٥٤ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٣ .

(٥) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٣٣ .

كان فتح مصر حلقة جديدة أضيفت إلى السلسلة المحكمة الحلقات من التمهيد لتكوين الجبهة الإسلامية ، وأدى ذلك إلى سقوط الخلافة الفاطمية ، التى تعتبر أكبر خطر على نور الدين . وما حدث من فتح مصر ، وما ترتب عليه من وحدة مصر والشام ، أثار دويا فى بغداد ، فأقبل الشعراء يهنئون الخليفة[1] . ومن الطبيعى أن يطرب نور الدين لما حازته قواته من انتصار فى مصر ، فاعتبر فتح مصر من أجل الفتوح وأعظمها لأنه لو استولى الفرنج عليها ، لتم لهم السيادة على سائر « الخطة الإسلامية »[2] . على الرغم من قلقه ؛ لولاية شيركوه الوزارة للعاضد الفاطمى ، وما يصح أن يترتب على ذلك من الميل إلى الفاطميين ومذهبهم ، وإثارة الجند النورى عليه[3] .

أما اللاتين فإن أبلغ ما يوضح تأثرهم بهذا التغيير ما أورده المؤرخ وليم الصورى من أنه صار لزاما على « الفرنج أن يواجهوا أحوالا شديدة الاضطراب ، وبالغة القلق ، بعد أن ساد الهدوء والسلام . وما توافر بمصر من الموارد ، والثروة الضخمة ، كان كفيلا بسد حاجاتنا ، وكانت حدودنا من تلك الناحية من المملكة مأمونة الجانب ، فلم يكن بالجنوب من الأعداء من يخيفنا ، وهيأ البحر من الأمن والسلام والهدوء ، لمن يشاء القدوم إلينا . وكان بوسع أقوامنا أن ينفذوا إلى الأراضى المصرية ، دون خوف أو وجل ، فهيأت لهم الأحوال لممارسة التجارة والصناعة بها . وجلب المصريون إلى المملكة من المتاجر الأجنبية ، والسلع الغريبة ، ما لم يكن معروفا لنا حتى وقتذاك ؛ وكلما قدموا إلينا ، كان ذلك تشريفا

---

(١) تطلع الخلفاء العباسيون لفتح مصر ، وكتب الخليفة المقتفى بأمر الله ، عهداً إلى نور الدين بولاية مصر وأعمالها والساحل ، ٥٤٩ هـ ، وبعث إليه المراكب والتحف وأمره بالمسير إليها (انظر حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٣١ – ١٣٢) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ، ص ١٦٠ .

أبو شامة : كتاب الووضتين جـ ١ ، ص ١٧٢ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ص ١٧٢ .

لنا ، ربحا عظيما . يضاف إلى ذلك أن ما أنفقه المصريون من الأموال الوافرة بيننا كل سنة ، زاد فى مال البلاد وخزانتها فضــلا عن ازدياد ثروة الأفراد . غير أن كل شىء لم يلبث أن تغير إلى أسوأ ، فكيف جرى هذا التغيير ، فلم يعد يصدر عن الناس إلا أنغام حزينة . فأينما وجهت نظرى ، لم أجد إلا دواعى الخوف والقلق ، فلم يعد البحر من الهدوء والاطمئنان ، ما يكفل السلامة والأمن ، لمن يقصدنا ، وكل ما يحيط بنا من البلاد ، صار خاضعا لعدونا ، وأخذت الممالك المجاورة تتجهز لتدميرنا والقضاء علينا ، ولم يجلب هذه الكوارث لنا إلا رجل نهم شره ، فما اشتهر به من النهم ، الذى يعتبر أصل كل الشرور ، أفسد ما تمتعنا به من الهدوء والصفاء »[١] .

أدرك الفرنج أهمية انتصار شيركوه ، فاعتبر فريق منهم أن المسئول عن الكارثة التى لحقت بهم ، هو ميلز بلانسى Miles of Plancy ، الذى حث أملريك على قبول ما بذله شاور من الأموال ، مقابل الجلاء عن البلاد ، بينما اعتبر الفريق الآخر ، مقدم الاسبتارية ، مسئولا عن ذلك ، لأنه تخلى عن موضعه ، وارتحل إلى الغرب[٢] . وأخذ عقلاء المملكة يشعرون أن خضوع مصر للترك كان ضربة خطيرة أصابتهم فى الصميم ، وازداد وضع المملكة المادى سوءا . ففى وسع نور الدين ، بفضل أسطوله الضخم الذى يقلع من مصر ، أن يضيق الخناق على المملكة ؛ وأن

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 357-358

المقصود بذلك الرجل ميلز بلانسى Miles of Plancy الذى جعل أملريك يقبل ما بذله شاور من المال (انظر .Runciman : op. cit. II. p. 384)

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 384.

يفرض الحصار على المدن الساحلية برا وبحرا ، بجيوشه فى الشمال والجنوب . وما يزيد فى الخوف من نور الدين ، أن فى استطاعته أن يعترض طريق الحجاج القادمين إلى الأراضى المقدسة ، أو يمنعهم من المرور نهائيا . ولذا تحتم إنفاذ سفارة ، تتألف من خيرة رجال الكنيسة ، إلى أمراء الغرب ، لتشرح لهم ما تعانيه المملكة اللاتينية من العناء والضيق ، وما يحل بالمسيحيين من العذاب ، وما يتهدد إخوانهم من الكوارث »[1] .

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 360

الفصل الثانى عشر

اكتمال الوحدة الإسلامية

صلاح الدين :

يعتبر عصر صلاح الدين من أهم مراحل الحرب الصليبية ، بل يعتبر من أهم عصور البشرية عامة ، وأزخرها بالعاطفة . ومن الواضح أن المطامع الشخصية لمعظم الأمراء المسلمين ، الذين تزعموا حوادث الشرق الأوسط قبل صلاح الدين ، عطلت حركة المقاومة الإسلامية المتحدة ضد الصليبيين . ثم أخذت هذه المطامع الشخصية تتضاءل رويدا رويداً أمام وحدة الغرض الإسلامى العام ، وهى الوحدة التى عمل الزعيمان التركيان زنكى وابنه نور الدين ، وأخيراً الزعيم الكردى صلاح الدين على تحقيقها ، بفضل ما اتصف به كل منهم ، من متانة الخلق وقوة العزيمة وشدة الإيمان . وهذه الصفات هى التى ساعدت الجيوش الإسلامية على أن تحرز النصر ، وأن تقهر القوات الصليبية وأن تسترد ما استولى عليه الصليبيون من ممتلكات . وإذا أدركنا ضخامة هذا العمل فى إطاره التاريخى ، تبين لنا أن صلاح الدين هو الذى نهض بالجزء الأكبر منه ؛ وأنه هو الذى وضع الخطة العامة لإخراج الصليبيين من الشرق ، وهى التى استغرق تنفيذها إلى زمن السلطان المملوكى خليل بن قلاون ، أى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى[1] .

ولد صلاح الدين بقلعة تكريت سنة ١١٣٨ (٥٣٢ ﻫ) ، فى ليلة

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٣ .

ارتحلت فيها الأسرة الأيوبية إلى الموصل ، ثم أصبح والده أيوب ، حاكما على بعلبك التى أقطعها إياه زنكى سنة ١١٣٩ .

وأمضى صلاح الدين أيام طفولته فى بعلبك ، ولانعرف شيئا عن أخبار أسرة أيوب فى أثناء مقامها فى بعلبك ، ولا شك أن صلاح الدين تلقى بها ما يتلقاه الطفل المسلم من العلوم الإسلامية ، وأنه لقى من الرعاية والاهتمام ، باعتباره ابن والى المدينة ، ما لايلقاه أبناء سائر الناس ، فدرس القرآن والحديث والفقه والنحو والتاريخ واللغة والأدب ، فضلا عن فنون لعب الكرة والفروسية والصيد ، وغيرها من الفنون التى يمارسها أبناء الطبقة الحاكمة[١] . ثم لحق الشاب صلاح الدين بعمه شيركوه فى حلب ، حيث كان شيركوه فى خدمة نور الدين ، وحصل على إقطاع بها . ثم خلف صلاح الدين أخاه الأكبر توران شاه فى شحنكية دمشق ، أى قيادة الجيش الدمشقى ، سنة ١١٥٦ ، بعد أن أصبحت دمشق من ممتلكات نور الدين . غير أنه لم يلبث أن تخلى عن منصبه ، لما وقع بينه وبين صاحب الديوان من خلاف[٢] . فرجع إلى حلب مرة أخرى ، فلقى من نور الدين من العناية والاهتمام ، لمهارته فى لعب الكرة ما جعله يختص به ، فكان لايفارقه فى سفر ولاحضر[٣] ، ثم ولى صلاح الدين سنة ١١٦٠ شحنكية دمشق مرة أخرى . وفيما عدا هذا وذاك ، لانعرف عن صلاح الدين فى مستهل حياته ، سوى أنه توافر له من الصفات الطيبة ، ما جعله يتلقى عن نور الدين أن يسلك الطريق المستقيم ، وألا يفعل إلا الخير ، وأن يجاهد فى سبيل الله .

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٤ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٠٠ .

(٣) أبو شامة : كتاب الرضتين ج ١ ، ص ١٠٠ .
العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٤ .

على أنه وقع بمصر والشام من الأحداث ، ما حدد مستقبل صلاح الدين ، فالواقع أن صلاح الدين ظل حتى الخامسة والعشرين من عمره ، لا يشارك فيما جرى من الأعمال التى تؤهله إلى أن يصبح له ما أصبح من السلطان والنفوذ ، على حين أن عمه شيركوه ، الذى دفعه إلى الحياة العامة دفعا ، كان وقتذاك الساعد الأيمن لنور الدين . ولم يشترك صلاح الدين فيما قام به عمه شيركوه من حروب فى الشام حتى سنة ١١٦٤ ، غير أنه أصر على أن يصحبه فيما توجه به من حملات على مصر[١] .

وارتفع شأن الكرد فى العالم الإسلامى بعد أن ولى صلاح الدين الوزارة فى مارس سنة ١١٦٩ . فعلى الرغم من أن الإسلام ينكر التفرقة العنصرية والطبقية ، فإن ما اشتهرت به الأسرة الأيوبية الكردية من خصوبة الفكر ومتانة الخلق ، جعل لها التفوق والسلطان فى المحيط التى عاشت فيه . فما كان للأكراد ، من نشاط وفتوة ، لم تلبث أن أدخلت فى الشرق الأوسط من القوة والبأس والشدة ، ما كان له أكبر الأثر فى تغيير الأحوال فى مصر والشام[٢] .

وما اشتهر به صلاح الدين من المروءة ، والسخاء ، وطلاقة الوجه ، وإكرام الوافد عليه وإن كان كافراً ، والحلم والصبر والعفو ، كل ذلك

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٥ .

(٢) Grousset : op. cit. II p. 536.

ومن الدليل على تغلب الصفة والعاطفة الكردية عند صلاح الدين ورفاقه ، ما حدث حينما تولى الوزارة عقب وفاة عمه شيركوه ، نازعه السلطان ، من الأمراء الذين ينتمون إلى شيركوه ، شهاب الدين الحارمى ، وعين الدولة الياروقى ، وقطب الدين ينال ، وكل واحد من هؤلاء يخطب الوزارة ، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها ، ولم يلبث الحارمى أن أقر صلاح الدين على الوزارة ؛ ولما توجه الفقيه عيسى الهكارى إلى قطب الدين يطلب منه الموافقة على وزارة صلاح الدين ، أشار إلى أن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، «ولم يبق غيرك وغير الياروقى ، وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين ، أن أصله من الأكراد ، =

جعله موضع احترام المسلمين والصليبيين سواء[1] . وبلغ من حبه للجهاد أنه لم يكن له حديث إلا فيه ، ولا اهتمام إلا برجاله ، وفى سبيل الله هجر صلاح الدين أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده[2] . ولم يكن صلاح الدين متعصبا ، بل كان يقدر من المسيحيين واللاتين ، من اتصف بالشجاعة والبسالة[3] .

وزارة صلاح الدين :

حفظت المصادر العربية التقليد الفاطمى ، الذى تولى بمقتضاه صلاح الدين الوزارة وتلقب فيه بالملك الناصر ، حسبما درج عليه الفاطميون من منح وزرائهم لقب ملك ، وهذا المنشور من إنشاء القاضى الفاضل[4] ، ومن أهم ما ورد فيه : « والجهاد أنت رضيع دره ، وناشئة حجره ، وظهور الخيل مواطنك ، وظلال الخيام مساكنك ، وفى ظلام قساطله تجلى محاسنك ، وفى أعقاب نوازله تتلى مناقبك ، فشمر عن ساق من القنا ، وخض فيه بحرا من الظبا ، واحلل فى عقد كلمة الله وثيقات الحبا ، واسل الوهاد يوم العدا ، وادفع برءوسهم الربا ، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين ، أن يكون مذخورا لأيامك ، ومشهوداً لك يوم مقامك » .

= فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك » . انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٧ ، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٤٢ - ١٤٣ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦١ En. Is. Kurds.

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤ - ٢٧ .

William of Tyre : op. cit. II. pp. 358-359.

(٢) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٠٠ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ١٧ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣ .

(٤) انظر : أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٦٤ ، وهذا المنشور مؤرخ بتاريخ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ (٢٦ مارس ١١٦٩) .

لم يكن بدعا أن يتولى أحد السنيين الوزارة للخليفة الفاطمى الشيعى ، لأنه حدث أن تقلد الوزارة زمن الفاطميين ، وزراء سنيون من حين إلى آخر[1] . لم يتجاوز صلاح الدين الثانية والثلاثين من عمره ، حين ولى الوزارة الفاطمية ، وهو فى نفس الوقت قائد الجيش النورى ونائب عن نور الدين ، فهو على حد قول ابن شداد : « وزير متابع القوم (الفاطميين) ولكنه مقو لمذهب السنة ، غارس فى أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين » ، فصار يدعى للعاضد ، ثم من بعده لنور الدين محمود ، ثم من بعدهما لصلاح الدين[2]

ورأى نور الدين ضرورة الإفادة من هذا الموقف ، بالإسراع فى إعادة المذهب السنى ، وعزل الخليفة العاضد الفاطمى ، فالمعروف أن حركة الجهاد فى سوريا ضد الصليبيين ، إنما نبعت من إحياء المذهب السنى ، فخضعت بذلك لسلطة الخليفة العباسى . ولا بد أن يقوم الاتحاد بين مصر والشام على هذه الأصول ، فكان لزاما على صلاح الدين أن يعيد مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية ، غير أنه لا بد من تمهيد السبيل لإجراء هذا التغيير[3] .

على أن صلاح الدين تردد فى ذلك ، فلا ينبغى أن نغفل طموحه الشخصى ، وحرصه على ألا يكون نائباً عاديا لنور الدين . وقد أشار صلاح الدين ، بعد أن ولى الوزارة إلى أن الله تعالى « ملكنى ما لا كنت أطمع فى بعضه »[4] ، فانفرد بتدبير شئون البلاد ، « فقام فى الرعية من

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٣٤ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح للدين ص ٣٣ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ، ص ٦ .

(٣) Gibb : "The Rise of Saladin" p. 565

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٣١ . التاريخ الباهر ص ١٤٢ .

قام بالشريعة والسياسة ، وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان »(١) ، وأدرك نور الدين ما صار لصلاح الدين من مكانة ، وما انعقد له من المحبة فى قلوب الناس ، فأنكر ذلك ، ولم يرض لصلاح الدين أن يفعل شيئا بغير أمره(٢) . ولذا حرص نور الدين على ألا يفرده بالمكاتبة ، بل يكتب إليه : « الأمير الأسفهسلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية »(٣).

ولعل السر فى أن صلاح الدين سار فى روية وحذر وقتذاك ، أنه خاف كذلك أن يصطدم بمقاومة داخلية فى القاهرة من قبل الجيش الفاطمى ، ورجال الإدارة الفاطميين(٤) ، ومن الدليل على ذلك إسراعه إلى تكوين جيش خاص به(٥) ، فشرع صلاح الدين فى نقض إقطاع العساكر المصريين ، فقطع منهم « الدوائر من أجل من معه من العساكر »(٦) .

مؤامرة مؤتمن الخلافة :

ولم تلبث الحوادث أن جاءت مصدقة لمخافات صلاح الدين ، إذ قامت مؤامرة عسكرية ، ترمى إلى مناهضته ومناوأته ، وتولى توجيه هذه المؤامرة أحد طواشية القصر الفاطمى ، وهو مؤتمن الخلافة ، واسمه جوهر . وكان هذا الطواشى موضع ثقة الخليفة العاضد ، متحكما فى القصر ، فلما ثقلت وطأة الملك الناصر صلاح الدين على أهل القصر ، بأن عزل جميع الخدم ، وجعل تدبير أمور القصر لخصى أبيض ، اسمه بهاء الدين قراقوش ،

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٣ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٧٣ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٧ .

(٤) Wiet : op. cit. p. 299.

(٥) Gibb : The Rise of Saladin p. 565

(٦) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٧٨ .

فاشتد فى ضبطها ، وظهر ما عند الوزير الجديد من النية فى إزالة دولتهم[١] .
واشترك فى مسئولية ما وقع من الحوادث ، فهو صاحب الخنجر الذى قتل به شاور ، وهو الذى دبر المؤامرة العسكرية ، وأدخل فيها قوات من عند الصليبيين والبيزنطيين والصقليين ، وقدر أنه إذا خرج صلاح الدين إلى لقاء هذه القوات ، فبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة فتصير بذلك البلاد بينهم وبين الصليبيين يقتسمونها[٢] .

فتنة السودانيين :

غير أن صلاح الدين علم بأخبار هذه المؤامرة قبل أن تستفحل ، فأمر بالقبض على جوهر وقتله فى أغسطس سنة ١١٦٩ . وتأهب لمنازلة العسكر الفاطمى ، ومعظمه وقتذاك من السودانيين ، فعبأ جنده ، وتولى قيادتهم أخوه توران شاه ، ووقعت بينه وبين السودان معارك دامية فى شوارع القاهرة ، لاسيما بين القصرين ، وشهد الخليفة من منظرته ما يجرى من القتال العنيف ، على حين عمد رجال حرسه إلى قذف جند صلاح الدين بالحجارة ورميهم بالسهام . وكان السودانيون يزيدون على خمسين ألفا ، وكانت لهم محلة عظيمة قرب باب زويلة ، فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها ، فدمر أموالهم ، وشرد أولادهم وحريمهم ، فلما أتاهم الخبر بذلك ، ولوا منهزمين ، غير أن توران شاه تعقبهم فى طائفة من العسكر ، فأعمل فيهم السيف ، فلم يبق منهم إلا الشريد ، وضعف أمر العاضد ، فأصبح لا حول له ولا قوة[٣] ، على أن الخطبة ظلت باقية له ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٧٤ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٢٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٧٤ – ١٧٥ .
Wiet : op. cit. p. 300

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٧٦ .

وبعده لنور الدين[1] . وعلى الرغم من ازدياد سلطة صلاح الدين ، فإنه لم يشأ أن يخرج على طاعته ، خوفا من أن ينزعه من منصبه ، ولحاجته الماسة لمساعدته ، فمن الواضح أن الفرنج لازالوا يأملون فى العودة إلى مهاجمة مصر ، وانتزاعها لأنفسهم[2] .

رد الهجوم الصليبى عن دمياط ١١٦٩ :

اشتد اضطراب اللاتين فى الشرق ، بعد أن استولت قوات نور الدين على مصر . والواضح أن أملاك الصليبيين فى الشام ، قد تم تطويقها ، لوقوعها بين أملاك نور الدين فى حلب ودمشق ، وبين مصر التى صارت فى حوزة صلاح الدين . وما كان للفرنج حتى وقتذاك من سيطرة على البحر ، لم يلبث أن انتزعها نور الدين وصلاح الدين بفضل الأسطول المصرى ، الذى اتخذ قواعده فى الإسكندرية ودمياط وموانى الدلتا[3] .

وبلغ من شدة الإحساس بالخطر أن ملك بيت المقدس ، أراد فى مستهل سنة ١١٦٩ أن يثير حرباً صليبية جديدة ، فبعث بسفارة من كبار رجال الكنيسة ، بزعامة رئيس أساقفة قيسارية ، وأسقف صور ، إلى ملوك وأمراء الغرب ، أمثال فردريك بربروسه إمبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا ، ووليم الثانى ملك صقلية ، فضلا عن كبار أتباع ملك فرنسا ، ومنهم فيليب الألزاسى كونت الفلاندر ،

= ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٧٨ .
Wite : op. cit. p. 300

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ، ص ١٧٩ .

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 539.

(٣) Grousset : op. cit. II. pp. 539-540.

انظر ما سبق ص ٧١٤ .

وهنرى السخى ، كونت شامبانيا ، ثم كونت تيبو بلوا وغيرهم[١] .
وعرف المسلمون بسعى الفرنج ، فيشير ابن الأثير إلى أن « فرنج الساحل ، قد أيقنوا بالهلاك ، لما ملك أسد الدين مصر ، فكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيرهما ، يستمدونهم ، ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة »[٢] . غير أن أمراء الغرب انصرفوا إلى أحوالهم الخاصة ، فكان لويس السابع ملك فرنسا ، يدفع عن مملكته ما تعرضت له من جشع ملك إنجلترا ، بينما اشتد النضال بين فردريك بربروسه والمدن الإيطالية والبابوية[٣] ، فعاد السفراء دون أن يحققوا شيئا . على أن مانويل كومنين الإمبراطور البيزنطى ، لا زال حريصا على تنفيذ المعاهدة التى عقدها معه فى القسطنطينية وليم الصورى فى سبتمبر ١١٦٨ . وبمقتضاها يتعاهد بتوجيه حملة لمهاجمة مصر ، مقابل الحصول على نصيبه من أراضيها . وعلى الرغم من أن اللاتين انفردوا بمهاجمة مصر ، ولم ينتظروا قدوم القوات البيزنطية ، فإن الإمبراطور البيزنطى لم يغفل أمر المعاهدة . والواقع أن السفن والعتاد الحربى ، الذى وصل إلى عكا فى شتاء ١١٦٩ ، زاد فى الأهمية على ما ورد فى شروط المعاهدة ، فكفل للصليبيين التفوق فى البحر[٤] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 360

Grousset : op. cit. II. p. 540.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٣١ . التاريخ الباهر ص ١٤٣ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٨٠ .

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 541 .

Williamof Tyre : II. p.360-361.

(٤) Bladwin : The Latin States under Baldwin III. and Amalric I. p. 556-557.

على أن اللاتين أبطأوا فى تجهيز حملتهم ، نظرا لما حل بجيشهم ، نتيجة حملة ١١٦٨ على مصر من اضطراب ، بسبب ما لحق الاسبتارية من خسائر ، وعدم اشتراك الداوية فى القتال ، ولحرص أملريك على ألا يغامر بحملة خامسة على مصر ، إلا بعد أن يؤمن فلسطين من غارات نور الدين ، فأبقى قوة من الفرسان لحماية المملكة أثناء غيابه[١] ، لاسيما بعد أن تبين له ما يقوم به نور الدين من الاستعداد للإغارة على الأطراف المتاخمة لدمشق[٢] .

= Runciman : op. cit. II. p. 385. Grousset : op. cit. II. p. 541-542.

تألف هذا الأسطول من ١٥٠ سفينة (شينى) برسم القتال ، ومن ستين سفينة كبيرة (طريدة) لنقل الخيول ، ومن عشرين سفينة ضخمة (حمالات) ، تحمل المؤن والذخائر ، وأدوات الحرب والحصار .

وأقلع هذا الأسطول من مياه البوسفور فى يوليه ١١٦٩ ، بقيادة كونتوستيفانوس ، وسار الجانب الأكبر إلى قبرص ، فوقع فى أسره سفينتان مصريتان ، بينما سار الجانب الآخر إلى عكا يحمل أموالا لعساكر أملريك . وطلب الإمبراطور إلى أملريك أن يبعث بأسطوله إلى قبرص للإقلاع منها ، غير أن أملريك لم يكن مستعداً ، نظراً لاضطراب أحوال الجيش نتيجة حملة ١١٦٨ على مصر ، بما حل بالاسبتارية من خسائر ، وعدم اشتراك الداوية فى القتال ، وفتور البارونات .

انظر : Runciman : op. cit. II. p. 385

William of Tyre : II. p. 361-362

ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٢ حاشية ٣ ، وص ١٣ ، حاشية ١ ، ٢ .

(١) Runciman : op. cit. II. p. 385.

Grousset : op. cit. II. p. 543.

Chanlandon : Comnenes II. p. 540.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. p. 362.

Grousset : op. cit. II. p. 543.

على أن هذه التدابير استغرقت زمنا طويلا ، فلم يتم أملريك استعداداته إلا فى منتصف أكتوبر ١١٦٩ ، وبذلك افتقدت الحملة عامل المباغتة والمفاجأة ، ووقف صلاح الدين على نوايا اللاتين فاتخذ حذره . يضاف إلى ذلك أن ما غلب على مانويل من التفاؤل ، بأن الحملة لن يطول أمدها ، اكتفى بأن يجعل المؤونة لمدة ثلاثة شهور ، لإدراكه أن الحملة سوف تسير فى أغسطس ، ولتوفير المؤن ، ومراعاة الانتصار فيها ، تقرر أن ينزل بعكا شطر من الجيش البيزنطى ، ليصحب الجيش الصليبى فى المسير براً إلى مصر[١] .

توجه الجيش الصليبى البيزنطى من عسقلان فى ١٦ أغسطس ، بينما أقلع الأسطول قبل أيام قاصدا مصر . ووصلت القوات المتحالفة إلى الفرما فى ٢٥ أكتوبر ١١٦٩ ، وتحتم عليها أن تتخذ طريقا ملتويا ، يبعد نحو عشرة أميال عن طريق الساحل الذى غمرته مياه البحر ، ووصل الأسطول إلى الفرما ، قبل قدوم القوات الصليبية ، واجتاز الجيش الفرع البلوزى على سفن بيزنطية ، حتى بلغوا تانيس (صان الحجر) ، ومنها ساروا إزاء شاطئ بحيرة المنزلة ، نحو الشمال الغربى ، فوصلوا دمياط فى ٢٧ أكتوبر ١١٦٩[٢] .

والواضح أن اختيار دمياط لتكون نقطة الهجوم تم بعد تفكير ، فالمعروف أن صلاح الدين توقع مهاجمة اللاتين لبلبيس ، فشحنها بالعساكر ، وعزز حاميات القاهرة والإسكندرية . وحرص اللاتين وحلفاؤهم اليونانيون ، على أن يمنعوا اتحاد مصر مع الشام ، فقدموا هذه المرة بقوات ضخمة ،

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 543.
Chalandon : Comnenes II. p. 540

(٢) William of Tyre : op. cit. II. p. 562-563.
Runciman : op. cit- II. p. 386. Grousset : op. cit. II. p. 544.

وأعدوا لاحتلال البلاد خطة مدروسة بأن عزموا على أن يجعلوا من دمياط قاعدة بحرية[1] .

وبينما كانت هذه القوات الصليبية فى طريقها براً نحو ميناء دمياط كان أسطول مؤلف من سفن صقلية وبيزنطية يقترب منها بحراً . وكان سبق إلى دمياط ، تقى الدين عمر ، ابن أخى صلاح الدين ، وكذا الشهاب خاله ، فدخلاها قبل أن يأتى الصليبيون عليها حصارهم ، وأخذ صلاح الدين من ناحيته يمدهما بالسلاح والذخائر ، على حين أرسل إلى نور الدين يشكو إليه ما هو فيه من المخاوف ، كأن تسقط دمياط فى أيدى الصليبيين ، وتنبعث الفتنة من جديد بالقاهرة . فجهز إليه نور الدين طائفة من العسكر ، كما سار نور الدين بنفسه للإغارة على بعض البلاد الصليبية ، أملا فى تخفيف الحصار عن دمياط . على أن اشتداد المدافعين فى مقاومة الحصار لمدة خمسين يوماً ، وانزالهم الخسائر بأدوات الحصار ، والأسطول ، فضلا عن سقوط الأمطار ، ونفاد أقوات الصليبيين ، ووقوع الاختلاف بين أملريك وقائد القوات البيزنطية ، كل ذلك أدى إلى يأس الصليبيين من الاستيلاء على المدينة ، وجلاء هذه الحملة المشتركة عن دمياط فى أواخر ديسمبر سنة ١١٦٩[2] .

---

(١) Wiet : op. cit. p. 301

(٢) Wite : op. cit. p. 301.

Badwin : The Latin States ... p. 557

Runciman : op. cit. II. pp. 387-388.

Grousset : op. cit. II. pp. 545-550.

William of Tyre : II. pp. 366-370.

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٣١ – ٢٣٢ .

التاريخ الباهر ص ١٤٣ – ١٤٤ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٨٠ .

ويعتبر فشل الحملة المشتركة على دمياط نقطة تحول فى تاريخ الشرق الأدنى ، إذ توطد سلطان صلاح الدين فى مصر ، وفقد الخليفة الفاطمى كل أمل فى التخلص من سيادة صلاح الدين ، فلم تنجح محاولته فى إقناع نور الدين بسحب القوات التركية التى تثير اضطراب أهل القاهرة ، لاعتقاد نور الدين بأهميتهم فى حماية مصر من الغزو الصليبى[1] . بل إن نور الدين أرسل فى أبريل سنة ١١٧٠ ، إلى صلاح الدين ، قوة من الجيش السورى ، بصحبة نجم الدين أيوب ، للتدليل على رضاه عنه من جهة ، ولاطمئنانه إلى ولاء أيوب ، لأنه كان من أشد الأمراء إخلاصاً لنور الدين ، وأكثرهم تعلقا به[2] . ونظراً لأن عدداً كبيراً من التجار السوريين ، ارتحلوا مع القوة السورية ، لفتح سبيل التجارة مع مصر ، حرص نور الدين على تأمين الطريق من الشام إلى مصر ، ورد ما تتعرض له القوافل من خطر الصليبيين من حصن الكرك وحصن الشوبك ؛ فهاجم الكرك ، حتى تتهيأ الفرصة للقافلة لاجتياز الطريق الممتد من البحر الميت إلى البحر الأحمر ، الذى يخضع لسلطان الصليبيين[3] . ولم يلبث صلاح الدين أن اتخذ خطة الهجوم ضد الصليبيين ، فأغار على الرملة وعسقلان وهاجم داروم

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٣٣ - ٣٤ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٧٩ - ١٨٣ .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ١٨٣ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٨١ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٣٤ - ٣٥ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٣٢ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٤٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٣٢ . التاريخ الباهر ص ١٤٤ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

Grousset : op. cit. II. pp. 553-555

وغزة فى ديسمبر ١١٧٠ ، وأحدث بأسوار داروم الخارجية أضراراً وثغرات ، ولقى عدد كبير من السكان مصرعهم . ولما عاد إلى القاهرة ، عمر مراكب ، وحملها إلى ساحل أيلة على الجمال ، وركبها الصناع هناك ، شحنها بالمقاتلة ، وزحف إلى أيلة ، وكان قد حصنها الصليبيون فاستولى عليها[١] .

والواضح أن نور الدين صار ، منذ سنوات عديدة ، يترقب الفرصة الملائمة لفرض سلطانه على الموصل ، وما حدث سنة ١١٦٦ أو ١١٦٧ من تدخله للمحافظة على أملاك نور الدين الأرتقى صاحب حصن كيفا من أطماع أخيه قطب الدين مودود بالموصل ، أفاد منه نور الدين حينما مات أخوه قطب الدين أتابك الموصل سنة ١١٧٠ ، وتنازع الإرث ولداه ، عماد الدين ، وهو الأكبر ، وسيف الدين غازى . فنهض نور الدين بجيشه ، لتسوية النزاع ، فاستولى على سنجار ، وبذلها لابن أخيه ، عماد الدين ، الذى صار من أتباعه[٢] . وانحاز إليه نور الدين صاحب حصن كيفا وديار بكر بعساكره ، وتوجه بقواته إلى الموصل التى استقر بها سيف الدين غازى ، الذى تحكم فى الأمر من دونه فخر الدين عبد المسيح[٣] . واستطاع نور الدين بفضل ما يكنه له أهل الموصل ، من

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ، ص ١٩٩ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٤٠ .
Wiet : op. cit: d. 302. Grousset : op. cit. II. p. 563.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٥٢ – ١٥٣ .
الكامل جـ ١١ ، ص ٢٣٣ – ٢٣٤ .

(٣) استنجد فخر الدين عبد المسيح بالأتابك إيلدكز ، صاحب بلاد الجبل وأذربيجان وأران والذى يحكم باسم سلاجقة إيران الذين اتخذوا همدان حاضرة لهم ، وزعم أنه له السيادة على كل إمبراطورية ملك شاه ، فلما أرسل إلى نور الدين ينهاه عن مهاجمة الموصل على أساس وحدة الإمبراطورية السلجوقية ، والتزام الأتابكة بالمحافظة على حقوقها ، باعتبارهم أتباعاً =

جندى وعامى ، من المحبة لحسن سيرته وعدله ، أن يدخل الموصل بدون قتال فى يناير ١١٧١ ، فأقر سيف الدين غازى عليها ، وولى بقلعتها خادما له ، اسمه سعد الدين كمشتكين ، وبعد أن أعاد تنظيم إدارة الموصل ، وألغى المكوس ، وأمر ببناء الجامع النورى ، عاد إلى الشام ، وبصحبته ابن عبد المسيح الذى أقطعه إقطاعا كبيرا[1] .

لم يسع الخليفة المستضىء بنور الله إلا أن يقر الأمر الواقع ، فبعث إلى نور الدين بخلعه ، فلما دخل الموصل خلعها على سيف الدين غازى . وبذلك امتدت سلطة نور الدين ، فى سنة ١١٧١ ، من جبال زاجروس إلى نيل مصر والنوبة ، وكتب له الخليفة المستضىء تقليدا بالسيادة على كل هذه الممتلكات ، فتحققت الوحدة الإسلامية من الناحية السياسية ، وأمست أيام الإمارات اللاتينية معدودة[2] .

ومن الطبيعى أن يقترن وحدة مصر والشام وأعالى الجزيرة من الناحية السياسية ، باتحادها من الناحية المذهبية . والواقع أن الخليفة العباسى المستنجد بالله ، سبق أن ألح على نور الدين فى إقامة الدعوة له ، وأن من أسباب تسيير نجم الدين أيوب إلى مصر ١١٧٠ هو السعى عند صلاح الدين للمبادرة إلى إعادة مصر إلى المذهب السنى[3] . ولم يقبل نور الدين

= للسلطان ، « إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها » ، لم يحفل به وأشار فى رده إلى إغفال سلاطين السلاجقة أمر الجهاد ضد الفرنج ، « إنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها ، وقد بليت أنا وحدى بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم ، وأسرت ملوكهم ، فلا يجوز لى أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين » .

انظر ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٥٣ .

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٥٤ .

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 558.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ١٨٣ — ١٨٤ .

بما أبداه صلاح الدين من المبررات ، لتأجيل إعلان زوال الخلافة الفاطمية ، كالخوف من ثورة المصريين لتمسكهم بالمذهب الشيعى فضلا عن خدمته للعاضد ، وألزمه بذلك إلزاماً فى يناير سنة ١١٧١ ، وفى الوقت نفسه ، أخطر نور الدين الخليفة العباسى المستضىء بنور الله ، بما قام به[١].

واتفق مرض الخليفة العاضد وقتذاك ، فاستشار صلاح الدين الأمراء ، فى قطع الخطبة له ، فاختلفوا فى ذلك ، وكان بمصر وقتذاك رجل أعجمى اسمه الخبوشانى وهو فقيه صوفى ، فأبدى استعداده لاتخاذ الخطوة الأولى لإعلان سقوط الخلافة الفاطمية ، فألقى بالفسطاط أول خطبة باسم الخليفة العباسى ، المستضىء بنور الله ، (أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ — ١٠ سبتمبر سنة ١١٧١) ، فلم يحتج أحد ، ولم يدر العاضد بما حدث ، نظرا لاشتداد المرض عليه ، ولم يلبث أن مات فى ١٣ سبتمبر ١١٧١ . واتفقت المصادر على الإشارة إلى أن الناس استقبلوا هذا التغيير فى هدوء واطمئنان[٢].

ويعتبر زوال الخلافة الفاطمية ، التى استمرت مائتين واثنتين وسبعين سنة ، من أهم الأحداث التاريخية . إذ انتهى بزوالها ما كان حادثا من الشقاق المذهبى ، فعادت مصر وإفريقية إلى حظيرة المذهب السنى ، وفى الكتاب الذى وجهه صلاح الدين ، إلى دار الخلافة ببغداد ، ما يشير إلى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٢٠٠ .

كان صلاح الدين يكره قطع الخطبة للفاطميين ؛ ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين ، إذ خشى أن يدخل إلى مصر وينتزعها منه ؛ ورأى أنه يستطيع البقاء فى حكم مصر بفضل تأييد العاضد وسكان مصر . انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٢٠١ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٤٢ .

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٥٥ — ٣٥٦ ، ٣٤٣ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٩٦ .

Wite : op. cit. p. 302. Runciman : op. cit. II. p. 394.

Grousset : op. cit. II. pp. 586-589.

أن « الدين أضحى واحدا ، بعدما كان أديانا ، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف ، لم يخروا عليها إلا صما وعميانا »[1] . وتضمن كتاب نور الدين إلى الخليفة ما كان من غزو الصليبيين لمصر ، « فاجتمع بها داءان ، الكفر والبدعة ، وكلاهما شديد الروعة ، فملكنا الله تلك البلاد ، ومكن لنا فى الأرض ، أو قدرنا على ما كنا نؤمله فى إزالة الإلحاد والرفض ، من إقامة الفرض ، وتقدمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة ، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ، ويورد الأدعيا ودعاة الإلحاد بها المهالك »[2] .

ولما وصلت البشارة بزوال الخلافة الفاطمية ، إلى بغداد ، ظهر من الفرح والسرور ما لا حد له ، وسير الخليفة المستضىء الخلع إلى نور الدين وصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية ، وبعث أيضاً إليهم بالأعلام السود ، شعار الخلفاء العباسيين . وتقلد نور الدين بالسيفين ، إشارة إلى تقليده الإقليمين الشام ومصر[3] .

على أن صلاح الدين أفاد من هذا التغيير ما لم يفده نور الدين ، إذ أنه صار فى نظر الخليفة العباسى على قدم المساواة مع الأتابك نور الدين ، فظهر صلاح الدين على حقيقته ، بعد أن زالت الخلافة الفاطمية ، بأنه سلطان مصر ، ومن الدليل على ذلك أنه بعث مباشرة إلى بغداد رسولا يحمل البشارة ، بإقامة الخطبة العباسية بمصر ، فلم يترك مدينة ولا قرية إلا وقرأ فيها المنشور حتى وصل بغداد . ومن هنا بدأت الجفوة بين

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٩٥ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ٣٤٤ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٤٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٩٩ .

نور الدين وصلاح الدين[١] . إذ ورد فى كتاب صلاح الدين إلى وزير بغداد ، « إنه مفتقر إلى أن يشكر ما نصح ، ويقلد ما فتح ، ويبلغ ما اقترح ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزح ، وتأتيه التشريفات الشريفة ، وتتواصل إليـــه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة . . فكل ذلك تبدو فوائده ، بالدولة التى كشف وجهه لنصرها ، وجرد سيفه لرفع منارها »[٢] . وزاد فى مكانة صلاح الدين ما وقع فى يديه من قصر الخلافة من التحف والنفائس والذخائر والأسلاب ، التى بعث بجانب منها إلى الخليفة العباسى[٣] . ووزع جزءاً كبيراً من هذه النفائس على الأمراء والأصحاب ، بينما أنزل أفراد الأسرة الفاطمية فى مكان منفرد ، وجعل عندهم من يحفظهم ، ومنع اختلاط الذكور بالإناث ، لئلا يتناسلوا[٤]. وبعث صلاح الدين إلى نور الدين من بقايا كنوز الفاطميين والأموال ، ما دلّ على استمرار ولائه له[٥] .

وما حدث من توحيد مصر والشام من الناحيتين السياسية والدينية ، كاد يعجل بنهاية الصليبيين ، بأن تنقض عليهم القوات الإسلامية ، من قبل نور الدين وصلاح الدين ، غير أن حدث بينهما من الوحشة ، ما جعلهما ينصرفان مؤقتا عن قتالهم ، فعلى الرغم من أن صلاح الدين ،

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٤٤ .

Wiet : op. cit. II. p. 302

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٩٥ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٢١ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٤٢ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٩٩ .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٤٥ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ١٩٤ .

(٥) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٤٧ .

استجاب لطلب نور الدين ، بالنهوض لمنازلة حصن الشوبك ، وكاد الحصن يستسلم له ، غير أنه لم يلبث أن رفع عنه الحصار لما علم بمسير نور الدين ، فاعتذر له ، باختلال الأحوال فى مصر ، وأنه يخاف عليها إذا بعد عنها[1] . وكان السبب فى عودة صلاح الدين ، حسبما جاء فى رواية أخرى ، ما قيل لصلاح الدين ، « إن دخل نور الدين بلاد الفرنج ، وهم على هذه الحال ، أنت من جانب ، ونور الدين من جانب ، ملكها . ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم ، لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين ، وإن جاء نور الدين إليك ، وأنت ها هنا ، فلابد لك من الاجتماع به ، وحينئذ يكون هو المتحكم فيك بما شاء ، إن شاء تركك فقد لا تقدر على الامتناع عليه »[2] . على أن ما أشار إليه المؤرخ جروسيه ، من أن صلاح الدين استأنف سياسة الفاطميين التى ترمى إلى الإبقاء على الممتلكات الصليبية ، كيما تحول دون إغارة أتابكة الشام على مصر[3] ، لم تكن فى الواقع تخدم غرضا شخصيا ضيقا ، بل إن سياسته استمدها من التجارب التى تعرض لها ، ومنها ما حدث من التسابق بين اللاتين والترك من أجل الاستيلاء على مصر ، وما كان من محاولة اللاتين والبزنطيين للاستيلاء على دمياط سنة ١١٦٩ ، وما وقف عليه من أمر

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٢٢١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٠٣ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٢٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٤٤ .
Runciman : op. cit. II. p. 394.
Grousset : op. cit. II. p. 590-591.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٤٤ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 590.

المفاوضات بين أملريك وبين مانويل الإمبراطور البيزنطى سنة ١١٧١ ، لإعداد حل لمهاجمة مصر ، كل ذلك أقنعه أن مصر تعتبر على الأقل وقتذاك أكثر البلاد تعرضا للخطر ، يضاف إلى ذلك أنه كان أكثر من نور الدين إدراكا للأخطار الناجمة عن عداوة العساكر الفاطمية ، واستعدادهم للانضمام إلى الصليبيين ، ولذا نزع صلاح الدين إلى تأسيس دولة أيوبية سنية بمصر ، تكون مركز العمليات الحربية الموجهة ضد الصليبيين ، بعد أن تتخلص من مشاكلها الداخلية ، على حين أن نور الدين اعتبر سوريا الموضع الأساسى الذى ينبغى أن تجرى على أرضها منازلة الصليبيين ، ولم تكن مصر عنده إلا مصدر الدخل الذى يسد نفقات الجهاد[١] . ولما رأى صلاح الدين أنه لابد من إنشاء جيش جديد يبلغ من القوة ، ما يكفى لضبط أحوال مصر ، وتأمين أطرافها ، وأن ينفق كل ما لديه من الموارد أولا لإتمام ذلك[٢] . وبلغ من ازدياد نفوذ صلاح الدين وقوته الحربية ، التى صارت منذ سنة ١١٧١ ، تضارع ، بل وتفوق قوات نور الدين ، أن اشتد قلق نور الدين[٣] .

ولم يحفل نور الدين بما أبداه صلاح الدين من أعذار ، وبما أظهره له من الاحترام والولاء ، الذى زخرت به الرسائل المتبادلة بينهما ، فلم يعتبره نور الدين إلا تابعاً له ، ولا بد من المسير لتأديبه وإخراجه من مصر . فجمع صلاح الدين أهله ، وفيهم والده وخاله ، وسائر الأمراء ، واستشارهم فيما ينبغى أن يفعل ، فلم يجبه أحد منهم بشىء ، وأشار عليه أبوه بضرورة الامتثال إلى نور الدين ، ونصحه بأن يعتذر إليه[٤] . والواضح

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٣٩ .
Gibb : "The Rise of Saladin" pp. 565-566.

(٢) Gibb : "The Rise of Saladin" p. 566.

(٣) Gibb : "The Rise of Saladin" p. 566.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ، ص ٢٢٣ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

أن ما أبداه أيوب من نصيحة لابنه ، لم يكن يقصد بها إلا أن يصرف نور الدين عن انتزاع مصر من صلاح الدين ، وتبين منها حرص الأيوبيين على توطيد سلطانهم بمصر[١] .

ومع أن نور الدين أرجأ تنفيذ ما فكر فيه من أمر المسير إلى مصر وانتزاعها من يد صلاح الدين ، فإن ما حدث بالقاهرة ، من التدابير والخطط التى أعدها صلاح الدين وأفراد أسرته ، لم تكن خافية عليه . ويشير المقريزى إلى أن نور الدين « عظم همه بأمر مصر ، سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) ، وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد ، وأكثر من مراسلته بحمل الأموال » ، كيما يستعين بها على نفقات الجهاد ، غير أن صلاح الدين لم يحفل بذلك ، واكتفى بأن أرسل هدية ، لم تعجب نور الدين ، فأرسل إلى مصر متولى ديوان الاستيفاء ، خالد القيسرانى ، لعمل حساب البلاد ، وكشف أحوالها ، وتقدير القطيعة على صلاح الدين فى كل سنة واختبار طاعته[٢].

غير أن صلاح الدين الذى أدرك ما يعده ويدبره ، اتخذ حذره وحيطته ، ففى أواخر سنة ١١٧٢ أرسل أخاه توران شاه فى حملة إلى النوبة ، كيما يتخذ منها أو من اليمن ، ملاذا (مملكة) ، إذا عزم نور الدين على الدخول إلى مصر[٣] ، فضلا عن تأمين الأطراف الجنوبية من الإغارات . وذلك أن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٤٥ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٢٢ - ٢٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٥١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٠٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٢٣٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٥٤ .

الجند السودانيين الذين هربوا من مصر ، تجمعوا فى النوبة ، ثم لم يلبثوا أن ساروا شمالا سنة ١١٧٤ لمهاجمة أسوان ، والتمهيد لإعادة الحكم الفاطمى ، فأنفذ صلاح الدين أخاه توران شاه لدفع هذا الخطر ، وشحن مراكب كثيرة فى النيل بالرجال والمؤن ، فاستولى توران شاه على قلعة إبريم ووجه جماعة من الأكراد أو غلت فى إغاراتها حتى دنقلة ، وأنزل حامية كردية بأبريم ، وبفضل هذه الجهود ، حصل على إقطاع اشتمل على الجهات الواقعة بين قوص وعيذاب وأسوان[1] .

ولم يمنع صلاح الدين من الاستجابة وقتذاك لطلب نور الدين ، بمهاجمة اللاتين فى الشام ، سوى الخوف منه ، إذ كان يعتقد أن نور الدين « متى زال الفرنج من طريقه أخذ البلاد منه ، فكان يحتمى بهم عليهم ، ولا يؤثر استئصالهم ، وكان نور الدين لايرى إلا الجد فى غزوهم بجهده وطاقته »[2]. على أنه ينبغى الاحتراس فى إقرار ابن الأثير ، على هذا الرأى ، نظراً لما هو معروف من اتصاله بالزنكيين وحرصه على الإشادة بأعمالهم ، ولما أورده فى مواضع عديدة من التهوين بانتصارات صلاح الدين ، والحط من أهميتها[3] .

على أنه جرت محاولة ، سنة ١١٧٣ ، للتوفيق بين نور الدين وصلاح الدين إذ اتفقا « على قصد بلاد الفرنج من جهتين ، كل واحد منهما فى

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ٢٠٨ - ٢٠٩ .

Grousset : op. cit. II. p. 593. Wiet : op. cit. p. 314

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٦١ .

الكامل ج ١١ ، ص ٢٦٥ .

Grousset : op. cit. II. p. 593.

Runciman : op. cit. II. p. 396.

(٣) حسان : خمسة من معاصرى صلاح الدين ص ١١ .

العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ٢٠٧ .

جهة بعسكره »[1] . فتوجه صلاح الدين بجيشه من مصر ، وحاصر الكرك ، وفى الوقت ذاته تحرك نور الدين بقواته صوب الجنوب ، غير أنه لم يكد يقترب من الكرك ، حتى عجل صلاح الدين برفع الحصار ، والعودة إلى مصر ، واعتذر إلى نور الدين ، بأن أباه يعانى مرضا شديداً . والواقع أنه كان يخشى أن يترتب على وفاته ، خروج البلاد من أيديهم ، وأرسل إلى نور الدين من التحف والهدايا مقادير كبيرة[2] . وجعل صلاح الدين لمبعوث نور الدين ، وهو ابن القيسرانى ، من الهدايا ما لم يتوقعه[3] .

واشتد سخط نور الدين ، فلم يكد يعلم بوفاه أيوب ، أصدق أتباعه فى مصر إخلاصاً ، حتى قرر أن يغزو مصر فى الربيع التالى ، ١١٧٤ ، وتجهز نور الدين للمسير إليه ، غير أنه لم يلبث أن مات فى نفس السنة (مايو ١١٧٤) قبل أن يتحقق غرضه[4] .

ولما اشتهر به نور الدين من الحرص على استمرار روح الجهاد ضد الفرنج ، وامتدادها إلى الإمارات الإسلامية المجاورة ، اغتنم فرصة النزاع بين قلج أرسلان ؛ سلطان قونية ، وبين الدانشمنديين الذين استنجدوا به ، لمساندتهم واسترداد ما استولى عليه السلطان السلجوقى من المدن ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٥٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٥٨ – ٢٥٩ .

والكرك حاضرة إقطاع شرق الأردن ، الذى ورثته ستيفانى ميللى **Stephanie of Milly** ، التى مات عنها زوجها الأول همفرى صاحب تبنين ، فتزوجها ميلز بلانسى ، الذى كان وقتذاك فى صحبة الملك أملريك ، فنهض لمساعدتها حموها الأول ، همفرى الثانى ، الكندسطبل السابق غير أن صلاح الدين رفع الحصار . انظر : **Runciman : op. cit. II. p. 396.**

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٢٥٧ .

Wiet : op. cit. p. 312

(٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦١ . الكامل ج ١١ ، ص ٢٦٥ .

Grousset : op. cit. II.p. 594

أنقره وسيواس ؛ فنهض نور الدين بقواته من دمشق سنة ١١٧٣ ، ويشير ابن الأثير إلى أن نور الدين درج على ألا « يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة ؛ إما ليستعين بها على قتال الفرنج ، أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما . وإذ التمس السلطان السلجوقى الصلح ، لم يقبل نور الدين المفاوضة إلا بشروط ، منها أن يعد قلج أرسلان بالتخلى عن مذهب الفلاسفة ، الذى اعتبره نور الدين كفرا وإلحاداً ، وإمداد نور الدين بما يحتاج إليه من القوات عند النهوض لقتال الصليبيين، نظراً لأن السلطان السلجوقى ، ملك طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام ، وترك الروم وجهادهم ، وهادنهم ، « فإما أن تنجدنى بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج ، وإما أن تجاهد من يجاورك من الفرنج »[1] . وأراد أن يزيد فى الروابط بين البيت الزنكى ، والبيت السلجوقى ، فى آسيا الصغرى ، بعقد مصاهرة بينهما ، فأجابه إلى ما طلب ، غير أن الأحوال لم تلبث أن تغيرت بعد وفاة نور الدين ١١٧٤[2] .

أضحت أملاك نور الدين تشمل عند وفاته ، الموصل ، الجزيرة ، والشام ومصر ، وأطاعه أصحاب ديار بكر ، ودانت له بلاد اليمن ، وخطب له بالحرمين مكة والمدينة[3] . وبفضل ما اشتهر به نور الدين من أخلاق كريمة ، أقام الدعائم لتوحيد القوى الإسلامية ، على أساس خلقى متين ، ارتكز عليه بناء الوحدة السياسية والحربية السليمة ، ومن الملحوظ أن

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٦٠ – ١٦١ .

(٢) اقترح نور الدين أن يتزوج غازى ، ابن أخيه ، بابنة قلج أرسلان – انظر
ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦١ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٣٧ – ٣٣٨ .
Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 527

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦٢ .
ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ٣٤٠ – ٣٤١ .

ما خلفه نور الدين من صيت وشهرة ، كان من العقبات التى اعترضت جهود خليفته ، صلاح الدين ، للمضى فى عمله وجهاده[1] .

وأكثر ما اهتم به نور الدين ، توطيد سلطانه فى البلاد والأقاليم التى خضعت له ، بإقامة حكومة رشيدة بها ، فكبح جماح أمرائه من الترك والكرد ، الذين اشتهروا بالقلق والاضطراب ، بأن حتم عليهم الإقامة فى إقطاعاتهم ، وتقديم ما يلزمه من العساكر . وأنشأ دار العدل لكسر شوكتهم ، فأورد ابن الأثير تعليل إنشائها بأنه « لما طال مقام نور الدين بدمشق ، وأقام بها أمراؤه ، وفيهم أسد الدين شيركوه ، الذى عظم شأنه حتى صار كأنه شريك فى الملك ؛ فاقتنوا الأملاك ، وتعدى كل واحد منهم على من يجاوره فى قرية أو غيرها » ، ولم يستطع القاضى أن يقدم على الإنصاف من شيركوه ، فأمر نور الدين ببناء دار العدل ، وكان يجلس فيها للفصل فى الخصومات[2] .

ومن ملاحظة أوردها ابن الأثير ، يبدو أن الإقطاعات ، زمن نور الدين ، كانت وراثية ، فيشير إلى ما كان يفعله نور الدين مع أجناده ، « بأنه إذا توفى أحدهم وخلف ولداً ، أقر إقطاعه عليه ، فإن كان الولد كبيراً استبد بنفسه ، وإن كان صغيراً ، رتب معه رجلا عاقلا ، يثق إليه ، فيتولى أمره إلى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون : هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عنها ، وكان ذلك من الأسباب الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب »[3] . ودأب أيضاً على أن يثبت فى ديوانه ، أسماء أجناد كل أمير ، وسلاحهم ، ودوابهم ، حتى يكفل

---

(١) Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 527

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٦٨ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٦٩ .

كفاية الجند وعدتهم ، نظرا لحالة الحرب الدائمة مع الصليبيين والحرص على أن يكون أجناد الأمراء كاملى العدد والعُدَد[١] .

وفى تلك الأثناء حرص صلاح الدين على توطيد سلطانه بمصر ، والإبقاء على علاقاته الطيبة مع نور الدين ، والتزام الحذر من هجوم مفاجئ يصح أن يشنه عليه ، بأن عمل على التقرب إلى المصريين ، فوفر أسباب الأمن والطمأنينة[٢] ، وألغى المكوس المقررة على أهل القاهرة ومصر ، وعلى جميع التجار المترددين إليهما ، « وإلى ساحل المقسم والمنية » ؛ وجعل للتاجر الحرية فى القدوم إلى مصر والرحيل عنها ، والتجارة براً وبحراً ، « لا يسأل عما أورده وأصدره ، ولا يستوقف فى طريقه»[٣]. واختمرت فى رأس صلاح الدين فكرة فتح اليمن ، ليتخذ منها مملكة أخرى ، تكون عدة له ، فإذا غلبه نور الدين ، سار هو وأهله إليها فأقاموا بها . ووجد صلاح الدين من الأسباب ما يبرر به هذا العمل عند نور الدين ، بأنه قصد من فتح اليمن القضاء على النفوذ الفاطمى وإعادة المذهب السنى ، وتولى القيام بهذا المشروع أخوه توران شاه[٤] .

وللتدليل على إخلاصه وولائه لنور الدين ، خرج صلاح الدين قاصدا بلاد الشوبك والكرك لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت فى الطريق ، تمنع من يقصد الديار المصرية ، فلا يمكن لقافلة أن تجتازها ، إلا إذا خرج هو بنفسه ، يعبرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله ،

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٦٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٠٥ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢١٧ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٦١ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

لتتصل البلاد ، بعضها ببعض ؛ وتسهل على المسافرين العبور[١] .

وعلى الرغم من إعادة المذهب السنى إلى مصر ، لم يتخل عن حقوقهم ، أنصار المذهب الشيعى ، ورجال الدولة الفاطمية التى زالت . فتآمر بالقاهرة ، فى مارس ١١٧٤ ، جماعة من الشيعة ، واشترك فى المؤامرة الشاعر عمارة اليمنى . واستقر الرأى على تنفيذ هذه المؤامرة وصلاح الدين بعيد عن مصر ، يقوم بالإغارة على الشوبك والكرك ، وتوران شاه باليمن . واتفق المتآمرون على استعداء الصليبيين من صقلية والشام ، وكاتبوا أيضا سنانا شيخ الباطنية بالشام ، يذكرون له أن الدعوة واحدة ، والكلمة جامعة ؛ وطلبوا منه أن يبعث من قبله من يقوم باغتيال صلاح الدين[٢] . غير أن المتآمرين لم يصلوا إلى اتفاق ، وتم القبض على زعمائهم فى دورهم ، وتقرر شنقهم ؛ وتعليق جثثهم على أبواب القاهرة ، ومن بينهم عمارة ، ووقع الاحتياط على ولد العاضد وغيره من أهله ، وتجمع من أموال المقبوض عليهم ما أمر صلاح الدين بحمله إلى الشام ، ليستعين به نور الدين على الجهاد[٣] .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح ص ٣٦ . أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٢٤٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢١٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ، ص ٢٤٥ — ٢٥١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢١٩ — ٢٢١
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٦٣ — ٢٦٤ .

Wiet : op. cit. p. 311.

Lewis : The Ismailites and The Assassins pp. 123-124.

Grousset : op. cit. II. pp. 595 - 597.

صلاح الدين والوحدة الإسلامية :

سبقت الإشارة إلى تطلع الأيوبيين ، منذ حملات شيركوه ، إلى إقامة ملك لهم فى مصر . ودل على ذلك ما حدث من امتعاض الترك لتعيين صلاح الدين وزيرا بعد وفاة عمه شيركوه ، وما وقع من الجفوة بين صلاح الدين ونور الدين ، وما لجأ إليه صلاح الدين من التدابير اللازمة للتمكين لأسرته فى البلاد ، من حيث الاستعانة بهم فى الإدارة والجيش ، وإنشاء جيش جديد ؛ وتوزيع الإقطاعات على أجناده وأفراد أسرته ، والقضاء على بقايا المقاومة الفاطمية ؛ والتقرب إلى المصريين ، برفع ما تقرر من المكوس . واستشعر نور الدين نوايا صلاح الدين ، ولولا المشاكل التى واجهها ، ثم وفاته سنة ١١٧٤ ، لتوجه إلى مصر ، وانتزعها من صلاح الدين[١] .

وأدرك صلاح الدين أنه ينبغى مواصلة السياسة التى بدأها زنكى ، وسار عليها نور الدين ، والتى تقضى بتوحيد كلمة المسلمين ، والقضاء على القوات الصليبية ، وأنه حان الوقت الذى يتولى فيه صلاح الدين القيام بدوره فى هذا الجهاد . ويشير ابن الأثير إلى أنه « لو علم نور الدين ما ادخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده ، لقرّت عينه ، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها »[٢] . فإذا كان التاريخ عبارة عن تحد ، واستجابة للتحدى ، فإن ما حدث من نمو الوحدة الإسلامية زمن زنكى ، ونور الدين وصلاح الدين ، يعتبر رد الفعل الحتمى ، الذى نجم عن الحرب الصليبية الأولى . على أن القدر كان له أيضاً نصيب فى ذلك ، ففى مستهل سنة ١١٧٤ كاد يأفل طالع صلاح الدين ، غير أنه لم يلبث أن تبرع

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبين ص ٤٢ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٢٨ .

من جديد ، وتهيأ الطريق لما أحرزه صلاح الدين من انتصارات ، وذلك بوفاة نور الدين وأملريك فى سنة واحدة (١١٧٤)[١] .

خلف نور الدين على الحكم ابنه الملك الصالح إسماعيل ، الذى لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، والذى كان وقتذاك بدمشق ، فتنافس أمراء نور الدين فى السيطرة عليه ، وحرصوا منذ البداية ألا يتدخل صلاح الدين فى هذا الأمر ، على الرغم من أنه يملك أغنى أقاليم مملكة نور الدين ، فإذا لم تجر مشاورته فى الوصاية ، شق عصا الطاعة ، واتخذ من ذلك ذريعة لتبرير موقفه[٢]. فتعرضت مملكة نور الدين ، إثر وفاته ، للاضطراب ، فجعل ابن المقدم من نفسه وصيا على إسماعيل بدمشق ، واستند فى ذلك إلى تأييد بعض الأمراء وزوجة نور الدين ، بينما اعتبر ابن الداية أمير حلب ، عاصمة نور الدين ، نفسه وصيا . واغتنم الفرصة أمير الموصل ، سيف الدين غازى بن قطب الدين ليضيف إلى أملاكه ، نصيبين وكل إقليم الجزيرة حتى الرها[٣] .

أما صلاح الدين ، فإنه لم يكتف بأن اعتبر نفسه رسول العناية الإلهية ، الذى سوف يخلص بيت المقدس من أيدى الصليبيين ، بل اعتبر كل أملاك اللاتين ونور الدين إرثاً له ، فإنه احتاج عند تنفيذ خططه ومشروعاته إلى الإفادة من الأمراء الذين ينتمون ويدينون له بالولاء المطلق[٤] . على أن صلاح الدين ادخر قدراً كبيرا من القدرة على التوفيق واللباقة والكياسة ، فأدرك ما تلقاه مشروعاته وخططه من معارضة ، غير أنه لم يتردد فى أن يبذل

---

(١) Runciman : History of The Crusades II. p. 399

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٦٧ . التاريخ الباهر ص ١٦٢ .

(٣) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ص ١٧٥ .

(٤) Stevenson : op. cit. p. 205

من التضحيات ما يكفل له الفوز . وما اشتهر به من النشاط الفائق ، والدأب الشديد ، والصبر على تحمل المشاق ، كل ذلك حمله على أن يمضى فى تنفيذ مشروعاته ، ولم يثنه عن ذلك أشد الأحوال عنفا وضراوة . واشتهر بأحكامه السديده ، وإذ عزم على أن يؤدى عملا من الأعمال ، لم يتوان فى ذلك ، ولا شك أنه باعتباره من رجال السياسة والحرب ، أفاد كثيرا من هذه الصفات . ففى أثناء حديث له مع أحد أبنائه ، قبل شهور من وفاته ، أراد أن يطبعه بالمثل والمبادىء التى اتصف بها ، فنصحه بأن يخشى الله ، لما فى ذلك من السعادة ، وأن يفعل ما أمر به الله ، حتى يفوز وينجح فى كل ما يقدم عليه من أعمال ، ونهاه عن سفك الدماء ، لأن الدم لا يهدأ ، وأمره بالحرص على أن يحوز محبة الناس ، بأن يرعى مصالحهم ، بعد أن تولّى أمرهم من قبله ومن قبل الله ، وألا يكن لأحد الكراهية ، لأن الموت حق ، وأن يبقى على ما بينه وبين سائر الناس من العلاقات ، لأن الله لا يغفر إلا لمن تاب وأناب . فهذه العبارات تدل على خلق صلاح الدين وسياسته ؛ فلم يكن الاستبداد من طبيعته ؛ ولم يكن متعاليا أو متغطرسا ، بل كان شديد الحفاوة بالناس ، كثير البذل والسخاء ، على الرغم من البساطة التى التزمها فى حياته وملابسه . وكان من اليسير على كل شخص أن يلقاه ، سواء فى سفره أو حضره ، ومستعداً لأن يتلقى جميع ما يعرض عليه من الشكاوى فى كل يوم ؛ ولم يردّ قاصدا « للحوادث والحكومات »[1] . وغلب عليه من صفات الفروسية ما جعله رحيما بالضعفاء ، وشديد المبادرة إلى البذل والعطاء ، فكان يعطى فى وقت الضيق كما يعطى فى حالة السعة[2] . ولم يكن صلاح الدين فى الحرب ، مجردا من الرحمة والشفقة ، إذ حرص على أن يفى بما بذله من

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١١ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٣ ، ٢٤ .

وعود[١] . على أن رقته ودماثته تخفف دائماً ما اقترن بعدالته من الشدة والحزم . ونال صلاح الدين حظًّا كبيراً من العلم ، ودأب أن يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل[٢] . وتصدى صلاح الدين لنصرة العقيدة ورعاية الاتقياء[٣] ، وآمن بالعناية الإلهية ، وسعى إلى أن يسير فى حياته وفقا لمشيئة الله[٤] . كان مواظبا على تأدية الفروض الدينية ، وما كان يؤديه من الصلاة أثناء القتال ، قام به عن عقيدة وإخلاص . أما حرصه على قتال الفرنج ، فالواضح أن حبه للجهاد ، والشغف به ، قد استولى على قلبه وسائر جوانحه ، « بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا ، بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح[٥] . ولم تقتصر رغبة صلاح الدين على إجلاء الصليبيين من الشرق ، بل كان يأمل فى أن يركب البحر إلى جزائره ، ويتبعهم فيها ، حتى لا يبقى على وجه الأرض من كفر بالله[٦] .

لم يكن بوسع صلاح الدين وقتذاك إلا أن يعترف بسلطنة الملك الطفل إسماعيل ، وأن يأمر بذكر اسمه فى خطبة الجمعة ، وضرب السكة باسمه[٧] .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٧ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٥ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥ - ٦ .

جمع له الشيخ قطب الدين النيسابورى عقيدة ، حرص على أن يعلمها الصغار من أولاده ، حتى ترسخ فى أذهانهم فى الصغر (ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥-٦) .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ٨ - ٩ .

(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦ .

(٦) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧ .

(٧) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٢٣١ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٦٧ ،

على أن ما حدث من تنازع أمراء نور الدين على الوصاية على إسماعيل ، ومصالحة أمراء دمشق لملك بيت المقدس ، أملريك ، على أن يدفعوا له شيئاً من المال ، ويطلقوا سراح الأسرى اللاتين ، أثار صلاح الدين[١] . فكتب إلى ابن المقدم عقب سماعه بوصايته ، يقول « ولو علم نور الدين أن فيكم من يقوم مقامى أويثق إليه ، مثل ثقته بى ، لسلَّم إليه مصر ، التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت ، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده ، والقيام بخدمته ، غيرى »[٢] . وفى رسالة يقول « أنا أحق بتربية الملك الصالح رعاية لعهد والده ، ولو استمرت ولاية هؤلاء القوم ، تفرقت الكلمة ، وطمعت الكفار فى البلاد ، وإنا لا نؤثر للإسلام وأهله ، إلا ما جمع شملهم ، وألف كلمتهم ، وللبيت الأتابكى إلا ما حفظ أصله وفرعه ، أو دفع ضره ، وجلب نفعه »[٣] .

وأحس صلاح الدين برسالته ، بأنه الوارث لنور الدين ، وأن من واجبه المبادرة إلى حسم الأمور ، بعد أن استحوذ كمشتكين على إسماعيل ، فى حلب ، وتهدد أملاك نور الدين ، أطماع أتابك الموصل ، وتنازع الأمراء . ولم يسع ابن المقدم ، بعد أن تم الصلح بين سيف الدين صاحب الموصل ، وبين الصالح إسماعيل فى حلب ، وما استشعره من مبادرة أمراء حلب إلى مهاجمته بدمشق ، إلا أن يكتب إلى صلاح الدين ، يستدعيه إلى دمشق ، باسم أمرائها « يملكوه عليهم »[٤] .

---

(١) اغتنم أملريك فرصة الشقاق الذى وقع بين الأمراء على الوصاية على الصالح إسماعيل ، فحاول استرداد بانياس ، فحصرها ، ولم يسع ابن المقدم إلا مصالحته على الشروط التى سبق الإشارة إليها – انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٦٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٦٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ؛ ص ٢٣٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٧٥ .

سنحت الفرصة لصلاح الدين لتحقيق غرضه ، ومهد الطريق لذلك بما بعث به من رسائل وكتب(١) ، ولم يمنعه من التدخل فى تلك السنة فى أمور الشام ، إلا أمران : الأول وصول أسطول من جهة وليم الثانى ملك صقلية ، والثانى حركة الكنز . يضاف إلى ذلك أنه كان يؤثر الانتظار والترقب ، حتى يطمئن إلى موالاة بعض المدن السورية له ، وإلى الترحيب به(٢) .

أما السبب فى قدوم الأسطول فيرجع إلى ما سبق ذكره من مكاتبة أنصار الفاطميين لملك صقلية والصليبيين ليقصدوا مصر . فما حدث من وفاة أملريك ، أزال ما يهدد مصر من خطر الغزو برا . ولم يعلم وليم الثانى ملك صقلية بما حدث من القضاء على مؤامرة أنصار الفاطميين فى مصر ، وبوفاة أملريك (١١ يوليه ١١٧٤) وما ترتب عليها من فض التحالف اللاتينى البيزنطى ، فمضى الأسطول فى طريقه إلى الإسكندرية التى بلغها فى ٢٥ يوليه ، بقيادة تانكرد كونت ليكا Lecca(٣) . وتألف هذا الأسطول من ٢٤٨ تحمل جيشاً ضخماً من الصقليين بدوابهم ومؤونتهم وأسلحتهم ، وأدوات الحصار(٤) .

---

(١) ومن هذه الرسائل ما كتبه صلاح الدين إلى الصالح إسماعيل ، بعد انعقاد الهدنة بين دمشق وبيت المقدس ، أنه (صلاح الدين) بذل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم ، وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح . وكان قصده أن يصير إليه طريق إلى بلاد الشام ، ليملك البلاد ، والأمراء الشاميون ، إنما صالحوا الفرنج خوفا منه ، ومن سيف الدين غازى صاحب الموصل .

انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٦٩ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٨٠ .

(٢) Stevenson : op. cit. p. 209.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 403, Grousset II. p. 617-618

(٤) أشار ابن الأثير إلى أن الأسطول تألف من مائتى شينى تحمل الرجالة ، ٣٦ طريدة تحمل الخيل ، ٦ مراكب كبيرة تحمل آلة الحرب ، ٤٠ مركبا تحمل الأزواد . =

الواضح أن الصقليين لم يجدوا فى مصر المساعدة التى علقوا عليها أهمية كبيرة ، ولم ينتظروا المساعدة من الإمبراطور البيزنطى ، مانويل ، لما كان من نزاع بين الإمبراطور وملك صقلية[1] . ورأى المغيرون فى شجاعة أهل الإسكندرية وقوة سلاحهم ما راعهم ، وتدفقت عليهم الأمداد ، وقدم صلاح الدين بجيشه لمواجهة العدو ، بعد أن سير طائفة من العساكر إلى دمياط خوفا عليها . واشتد الحماس بالإسكندرية ، لما ذاع خبر وصول صلاح الدين ، فعاد الناس إلى القتال « وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح ، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه ، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله »[2] . وبلغ من شجاعتهم ، أن غاص جماعة منهم فى الماء ، وخرقوا بعض سفن الصليبيين (الصقليين) ، فأغرقوها ، وولت بقية المراكب هاربة ، ووقع فى أيدى المســلمين كميات كبيرة من الآلات والأسلحة[3] .

وما هو جدير بالملاحظة أن التجار الإيطاليين بالإسكندرية أظهروا للغزاة الود ، وأبدوا من الاستعداد لمساعدتهم ، لما يأملون فى أن تصير لهم السيطرة على ميناء الإسكندرية ، فلما حبطت الغزوة ، توسلوا إلى صلاح الدين بأن يغفرلهم جريمتهم ، للإبقاء على ما حصلوا عليه من امتيازات تجارية[4] .

أما الحادث الثانى الذى عاق صلاح الدين عن المسير إلى الشام ، فهو

= أما الجيش ، ففيه من الرجالة خمسون ألفا ، ومن الفرسان ١٥٠٠ ، منهم خمسمائة تركبلى . انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٧٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(١) Runciman : op. cit. II. p. 403.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٧٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٧٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٥ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٤ - ١٦ .

(٤) Grousset : op. cit. II. p. 619.

ما يتعلق بمحاولة الكنز لإعادة الخلافة الفاطمية . وكان الكنز من قادة الفاطميين ، نزح إلى أسوان ، وأقام بها ، فالتف حوله السودانيون ، فأوهمهم بأن فى وسعه أن يعيد الدولة الفاطمية ، فاجتمع إليه عدد كبير من السودانيين ، وجماعة على المذهب الإسماعيلى ، ثم توجه بهم إلى قوص وأعمالها . فجرد إليه صلاح الدين جمعاً كبيراً من العسكر ، فحلت الهزيمة بهذا الثائر وشيعته ، وقضى بذلك على آخر محاولات الفاطميين ، فلم تقم لهم بعدها قائمة[1] .

ولما فرغ صلاح الدين من هذه المشاكل ، واطمأن إلى استقرار الأمور بمصر ، وبلغ التخاصم بين الأمراء النوريين والزنكيين من الشدة ، ما حمل ابن المقدم على دعوة صلاح الدين للقدوم إلى دمشق ، من الطبيعى أن توافق هذه الدعوة القبول عند صلاح الدين ، غير أنه حرص على ألا يترك من الأثر ما يدل على استعجاله للسير إلى الشام ، فتوجه إلى أيلة فى سبتمبر ١١٧٤ للوقوف على أحوال المواضع التى أمر بعمارتها وتحصينها[2] ، ثم سار نحو بصرى ، ووقف من صاحبها ، وهو من جملة الذين كاتبوه ودعوه للقدوم إلى الشام ، على أحوال دمشق وسكانها وموقفهم منه[3] . ولم يلبث أن دخل دمشق فى ٢٧ نوفمبر سنة ١١٧٤ ، وتسلّم القلعة ، وعين عليها أخاه طغتكين ، بعد أن استمال متوليها ، وبذل له كل ما يطلبه[4] . ونزل صلاح الدين بدار والده بدمشق ، وأظهر أنه جاء « لتربية الملك الصالح ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٢) Wiet : op. cit. p. 313
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٧٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٧٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٣٦ .

وحفظ ما له من المصالح ، وتدبير ملكه ، فهو أحق بصيانة حقه »[1] .
واعتبر نفسه مملوك الملك الصالح إسماعيل ، ولم يكن له من غرض سوى خدمته ، واسترداد ما انتزع من بلاده ، وجرت الخطبة للصالح فى بلاده كلها . وبذلك ثبتت أقدام صلاح الدين واستقر له الأمر ، وأفاد من الأموال التى كانت بالقلعة[2] . وألغى صلاح الدين بعض المكوس وأبطل ما استحدث بعد نور الدين من الضرائب ، ومن الطبيعى أن يكون لذلك أثره فى نفوس الأهلين[3] ، الذين لم ينسوا ما أسداه لهم من خدمات والد صلاح الدين ، وعمه (شيركوه) . والواضح أن الدماشقة لا زالوا على سابق كراهيتهم وحقدهم على أهل حلب ، وزاد فى غيظهم وحنقهم ، ما حدث من انتقال إسماعيل إلى حلب ، يضاف إلى ذلك ما كان للشام ، وهو أصل بلاد الإسلام ، من أهمية فى جهاد الصليبيين ، وقصور إسماعيل عن تحمل مسئولية قتالهم ، والخوف من اغتنام اللاتين فرصة اختلاف أمراء الشام ، ومبادرتهم إلى مهاجمة المسلمين ، كل ذلك حمل صلاح الدين على أن يعلن أنه ما جاء إلى هنا شرها ، ولا طمعا فى الدنيا ، وفى مصر كفاية ، وما جاء إلا ليستنقذ هذا الصبى « من الأمراء الذين استحوذوا عليه »[4] ، وأن يحفظ

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٢٣٦ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٧٥ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٠ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٥٨ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٠ .
العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٤٤ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ص ٥٨ .
(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٣٨ — ٣٩ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢١ .
ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٢٣٦ ٢٣٧ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٧٥ .
Grousset : op. cit. II. p. 621.

بلاده من خطر الفرنج والزنكيين بالموصل[١] .

ولم يكن بوسع الصليبيين (اللاتين) ، بعد قدوم صلاح الدين إلى دمشق ، أن يفصموا الاتحاد بين القاهرة ودمشق . ذلك أن أملريك مات بعد فترة شهور قليلة مضت على وفاة نور الدين ، وخلفه على العرش ابنه بلدوين الرابع ، المعروف بالمجذوم ، الذى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره[٢] . وما حدث من التنازع بين الأمراء النوريين على الاستئثار بالسلطة دون الصالح إسماعيل ، جرى مثله فى مملكة بيت المقدس ، بأن وقع التنافس بين البارونات على الوصاية على بلدوين الرابع ، وفاز بها آخر الأمر ، ريموند الثالث ، كونت طرابلس ، ومع ذلك احتدمت المنازعات بين البارونات[٣] .

ولم تكد الأمداد تصل من مصر ، حتى نهض صلاح الدين من دمشق متوجها نحو الشمال ، فاستولى على حمص وحماه فى ديسمبر سنة ١١٧٤ ، من أيدى ممثلى نور الدين[٤] . ثم تقدم صلاح الدين لمحاصرة حلب ، غير أنه لقى معارضة شديدة من قبل الأمراء ، الذين أنكروا على صلاح الدين خروجه على طاعة نور الدين ، ومحاولته اغتصاب حق ابنه ووريثه . واشتد حنق إسماعيل ، فخاطب أهل البلد قائلا : « قد عرفتم إحسان أبى إليكم ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٧٦ .

(٢) المعروف أن أملريك تزوج أول الأمر ، اجنيس كورتناى ، وأنجب منها طفلين ، بلدوين وسبيلا ، ثم انفصل عن اجنيس بقرار من الكنيسة ، لما يربطهما من صلة قرابة وثيقة تمنع هذا الزواج ، فتزوج مرة أخرى من مارية كومنين ، غير أن بلدوين كان يعتبر الوارث الشرعى للحكم . انظر

Grousset : op. cit. II. p. 609.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 611-612.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٢ – ٢٣ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٧٦ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

ومحبته لكم ، وسيرته فيكم ، وأنا يتيمكم ، وقد خان هـذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه ، يأخذ بلادى ، ولا يراقب الله والخلق »[١] ، واستجاب لندائه الحلبيون من السنيين والشيعيين ، الذين سمح لهم بإحياء شعائرهم الشيعية ، والتمس كمشتكين القيم على إسماعيل ، المساعدة من الباطنية ، فبذل إلى زعيمهم سنان . فى مصياف ، أموالا كثيرة ، وعين له ضياعا ، فجاء منهم عدد من فتاكم ، وتقدم أحدهم لمهاجمة صلاح الدين ، غير أن صلاح الدين نجا من اعتدائهم[٢] . والواضح أن الإسماعيلية أدركوا ما يتعرضون له من تهديد ، بعد ظهور صلاح الدين ، وقيامه على توحيد كلمة المسلمين ونشر المذهب السنى ، وجهاد الصليبيين ، فاعتبروه من أكبر أعدائهم ، ونزعوا إلى مساندة خصومه ، الزنكيين فى حلب والموصل[٣] . ولما فشلت محاولة الحشيشية فى اغتيال صلاح الدين ، التجأ الحلبيون إلى ريموند كونت طرابلس والقيم على الملك بلدوين الرابع ، فتوجه لمهاجمة حمص فى فبراير سنة ١١٧٥ ، فلم يسع صلاح الدين إلا الارتداد عن حلب ، واستخلص حمص من يد ريموند فى مارس سنة ١١٧٥ ، ولم يلبث أن استولى على بعلبك[٤] . فامتد بذلك سلطان صلاح الدين حتى حماه شمالا ، غير أن حلب لا زالت مستقلة ، تلتمس المساعدة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٣ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٧٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٢٣٨ .
Wiet : op. cit. p. 311. Gibb : The Rise of Saladin p. 575.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٤ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٧٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٢٣٩ .

(٣) Bernard Lewis : "The Ismailites and the Assassins". p. 122.

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٧٧ – ٢٧٨ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٤ . والمعروف أن ريموند بقى فى أسر=

من خصوم صلاح الدين ، بل إن كمشتكين أطلق سراح ريجنالد شاتيون وجوزلين كورتناى ، وسائر الأسرى اللاتين الذين أصابهم المـــرض والضعف فى سجون حلب[1] .

وأدرك صلاح الدين ما أصاب الوحدة الإسلامية من التصدع ، وطمع الصليبيين فى الأملاك الإسلامية ، وأنه ليس فى استطاعته ، وهو بمصر ، أن يناوئ الصليبيين ، فبعث إلى الخليفة العباسى المستضىء بنور الله سنة ١١٧٥ (٥٧٠ هـ) رسالة تعتبر بالغة الأهمية ، تلخص جهود صلاح الدين منذ ولى الوزارة إلى هذه السنة[2] . إذ تضمنت الإشارة إلى ما بذله من جهود لخدمة الخلافة العباسية ، بما قام به من جهاد العدو زمن نور الدين ، وفتح مصر واليمن وبلاد من أطراف المغرب ، وتأمين الطريق إلى الحجاز واليمن ، والقضاء على الفتن الداخلية فى مصر ، وأنه لا يستطيع فتح بيت المقدس ، ومنازلة الصليبيين وهو بمصر « لبعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التى بها على الجهاد قوة ، وإذا جاوزناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة والعساكر كثيرة . وأنه قدم إلى الشام لإصلاح الأمور ، وحفظ الثغور ، وخدمة ابن نور الدين وكفالته ، وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويبالغون فى ظلمه ... » ثم طلب فى ختام الرسالة تقليدا جامعاً بمصر والشام والمغرب واليمن ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية ، ولمن يقيمه من أخ

= نور الدين ما يزيد على عشرة سنوات ، ولم يطلق سراحه إلا قبيل وفاة نور الدين ، بعد أن بذل فدية كبيرة ، وأطلق سراح عدد كبير من أسرى المسلمين .
(ابن واصل جـ ٢ ، ص ٢٤) .

(١) Runciman : op. cit. II. p. 408.

(٢) ولأهمية هذه الرسالة التى تشرح سياسة صلاح الدين الداخلية والخارجية ، أوردنا نصها فى ملحق خاص بآخر الكتاب .

أو ولد من بعده ، تقليدا يتضمن للنعمة تخليدا ، وللدعوة تجديدا[1] .

على أن عساكر الموصل وحلب ، احتشدت لقتال صلاح الدين بعد أن دانت له دمشق وحمص وحماه وبعلبك ، فتقدمت لمنازلة حماه ، ثم راسلوا صلاح الدين الذى أقام بحمص فى أمر الصلح ، فقبل أن يرد عليهم ما أخذه من الحصون ، وأن يقنع بدمشق ، على أن يكون نائباً عن الصالح إسماعيل « منتميا إليه ، والخطبة والسكة له » . فلما رأوه مجيبا لكل ما طلبوه ، وتبين لهم قلة عسكره ، اشتطوا عليه ، وتغالوا فى مطالبهم . فرفض صلاح الدين إجابتهم إلى شىء مما طلبوه ، فأظهروا عزمهم على القتال ، فعبر صلاح الدين إلى سفح قرون حماه ، وقد جاءته الأمداد من مصر ، فدارت معركة فى إبريل سنة ١١٧٥ ، فلم يثبت عسكر الموصل ، وعادوا مهزومين إلى حلب[2] .

وتلى هذا الانتصار ، أن مضى صلاح الدين فى سيره حتى نزل على حلب ، ولما تبين له انصياع إسماعيل إلى مستشاريه ، وإغفاله ما عرض عليه من النصيحة والاستعداد لمواصلة خدمته والمحافظة على ملكه ، لم يسعه إلا أن تخلى عن تبعيته وولائه لإسماعيل فقطع خطبة الملك الصالح إسماعيل ، وأزال اسمه من السكة فى بلاده ، ودام محاصرا لحلب[3] . واتخذ

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٤١ – ٢٤٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٥ – ٢٩ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٥٩ – ٦٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٠ – ٣٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٤٧ – ٢٥٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٧٨ – ٢٧٩ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢٢ ص ٣٢
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٧٩ .

صلاح الدين لنفسه لقب ملك مصر والشام وصك النقود باسمه[١] . غير أن الحلبيين سعوا إلى الصلح على أساس الاعتراف بالأمر الواقع ، أى أن يحتفظ صلاح الدين بما استولى عليه من البلاد ، واسترداد منهم المعرة وكفر طاب ، وأن تجتمع الجيوش الإسلامية لقتال الصليبيين ، ووقعت الأيمان على ذلك[٢] .

ولم تمض إلا أيام قليلة على عقد الصلح ، حتى قدمت الرسل من جهة الخليفة ، فى مايو ١١٧٥ بالتشريفات السلطانية : والتقليد بما أراده صلاح الدين من الولايات ، فأفاضوا الخلع عليه وعلى أقاربه . وعلى الرغم من أن معظم الأمراء رأوا وقتذاك أن هذا ليس إلا إجراء شكليا ، فإن صلاح الدين اعتبره أمراً بالغ الأهمية . فإذا كانت الحرب التى شنها على الصليبيين ، جهاداً حقا ، تحتم عليه أن يتولى قيادتها بنفسه ، وأن يراعى فى كل أعماله أحكام الشريعة الإسلامية . فالحكومة التى نصبت نفسها للجهاد فى سبيل الله ، لا ينبغى فحسب أن تكون حكومة شرعية ، حظيت بالتفويض من قبل الخليفة ، بل ينبغى أيضاً أن يمتد حماسها الدينى

---

(١) أول نقد يحمل اسم صلاح الدين ، متخذا لقب ملك ، يرجع تاريخه إلى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٥) ، ولم يتخذ لنفسه لقب سلطان ، ومع ذلك فإن المؤرخين المسلمين لاسيما معاصروه ، لقبوه به دائما . انظر Wiet : op. cit. p. 335-336.

Runciman : op. cit. II. p. 408. Grousset : II. p. 626 note I.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٣ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٥٠ .

وأورد أبو شامة أن اليمين تضمنت أنه « متى قصد الملك الصالح عدو ، حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه ، وأن لا يغير الدعاء له من جميع منابر البلاد التى تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه ، وأن تكون السكة باسمه » .

انظر أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٥٠ .

إلى تسيير الإدارة ومعاملة السكان[١] . والواقع أن صـــلاح الدين قام فعلا أثناء السنوات الأولى له فى مصر ، بما سار عليه نور الدين من سياسة ، فألغى كل ما يخالف الشريعة من الضرائب والمكوس ، وأول عمل قام به فى دمشق ، بعد الاستيلاء عليها ، أنه ألغى هذا النوع من الضرائب غير المشروعة[٢] . هذا هو النهج الذى درج عليه فى كل ما أضافه إلى دولته من ممتلكات ، وأشار به فى كل رسائله إلى نوابه وعماله ، وإذا خالف أحد منهم أوامره ، تعرض للعقاب الشديد والعزل عن الولاية . وتشير المصادر صراحة إلى دهشة الأمراء والناس من زهده فى المال ، وأنه لم يعتبر المال إلا وسيلة لمواصلة الجهاد ، أو بذله لغيره من الناس . وهذه الحقيقة كانت معروفة أيضاً عند الصليبيين أنفسهم ، ففى أوائل سنة ١١٧٥ ، حين تم الاتفاق بين ريموند والحلبيين على مناهضة صـــلاح الدين ، لاحظ وليم الصورى « أن كلما ازداد صلاح الدين قوة ، اشتدت عداوته وخصومته لنا ، فأثار ذلك فينا الخوف والرعب . وكان (صلاح الدين) حكيما إذا أشار ، مقداما فى الحرب إذا نهض لها ، بالغ السخاء إذا أعطى . ومن الخير أن تبذل المساعدة للملك الطفل (إسماعيل) ، لا مراعاة لصالحه ، بل لمساندته فى عداوته لخصمنا العنيد ، صلاح الدين »[٣] .

وليس ثمة ما هو أقوى من هذا العذر ، الذى التمسه المؤرخ وليم الصورى ، لتبرير السياسة التى انتهجها صلاح الدين ، إذ لم يعد فى يد إسماعيل إلا إمارة صغيرة ، حلب ، لاتزيد فى مساحتها على ما كانت عليه زمن الحمدانيين . أما حاشية إسماعيل ، فإنه اشتد حماسهم إلى أن يتولى قتال صلاح الدين ، الأمير الزنكى ، سيف الدين غازى ، الذى يحكم فى الموصل . وحتى

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٤٧ .

(٢) انظر ما سبق ص ٧٤٤ .

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 407-408.

Gibb : The Rise of Saladin p. 568.

هذا الأمير الزنكى على الاتفاق الذى تم بين حلب وصلاح الدين ، وزاد سخطه لما حصل عليه صلاح الدين من تقليد من الخليفة . وهذه الكراهية لا ترجع فحسب إلى ما حل من الهوان والذلة بأمير من البيت الزنكى ، إسماعيل بن نور الدين ، حين أصبح تابعاً لأحد رجال أبيه ، بل أكثر من هذا ، وهو أن صلاح الدين كان كرديا استطاع أن يتحدى ما اتخذه الترك لأنفسهم منذ قرن من الزمان ، من السيادة والسلطان ، وصار يبذل ويوزع ما يفتحه من البلاد على أقاربه . والواقع أن صلاح الدين ، على الرغم من تجرده من الأغراض الشخصية ، رأى أن الوسيلة الوحيدة التى يتحقق بها هدفه ، هى أن يجعل السلطة كلها فى يديه ، يعهد بها إلى من يثق به من الأفراد ، ودفعه إلى هذا الاتجاه ، موقف الزنكيين منه ، وما أدركه من أطماع الأمراء النوريين ، وحرصهم على مقاومته ، فضلا عما لمسه من خصومه ، عدم اكتراثهم بما يعقده معهم من محالفات[١] . ولذا حرص صلاح الدين على أن يجعل حكومة البلاد التى دانت له بالشام ، فى أيدى أقاربه ، فتولى أمر دمشق أخوه طغتكين[٢] ، وأقطع بعرين خاله محمود الحارمى بعد انتزاعها من أحد أمراء نور الدين[٣] ، وسلم حمص لابن عمه ، محمد بن شيركوه ، والمعروف أن حمص كانت زمن نور الدين إقطاعاً لأسد الدين شيركوه[٤] .

وعاد صلاح الدين إلى دمشق ، واستشعر من اللاتين ببيت المقدس الحركة والنشاط ، فاستعدوا لمنازلته ، غير أنهم بادروا بإنفاذ رسل إلى صلاح الدين فى طلب الهدنة . وكان رسولهم إليه ، همفرى صاحب تبنين ،

---

(١) Gibb : The Rise of Saladin p. 569.

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٥٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٧٩ – ٢٨٠ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٠ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٤ – ٣٥ .

الذى آثر أن يقتسم الشام ، أتابك حلب ، إسماعيل بن نور الدين ، وسلطان دمشق صلاح الدين . ونظرا لما أصاب البلاد الشامية وقتذاك من الجدب وما بذله العساكر من الجهد ، لم يسع صلاح الدين إلا قبول الهدنة ، فأذن للعساكر المصرية فى الرحيل إلى بلادهم ، « وإذا استغلوها خرجوا إليه »[١].

على أن ما وقع من الأحداث سنة ١١٧٥ ، جعل الأمور بالشمال بعيدة عن الاستقرار ، إذ خشى سيف الدين غازى صاحب الموصل ما يهدده من الخطر من قبل صلاح الدين[٢] . لم يكف غازى عن إنكار الصلح الذى عقده الحلبيون مع صلاح الدين ، وحملهم على نقضه ، فأنفذ إليهم من أخذ عليهم المواثيق ، ثم توجه من قبله رسول إلى دمشق ، ليأخذ له من صلاح الدين العهد والميثاق ، ويكشف ما عنده من نوايا . فلما خلا صلاح الدين بالرسول ، طالب بنسخة اليمين ، فغلط الرسول ، وأخرج من كمه يمين الحلبيين للغازى ، وناولها له ، فتأملها وأخفى سره ، واطلع على ما اتفقوا عليه ، وردها إليه ، وقال : « لعلها قد تبدلت » ، فعرف الرسول أنه أخطأ وقال للسلطان « إن من شروط أيمان الحلبيين لغازى ، أنهم لا يعتمدون أمراً إلا بعد مراجعتهم لنا ، واستئذانهم إيانا » ، وتحقق صلاح الدين أنهم نقضوا العهد ، فكتب إلى أخيه العادل نائبه بمصر ، يطلب إليه إعداد العساكر والخروج فى فبراير سنة ١١٧٦[٣] .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٥٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ٢٨٨ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥ — ٣٢ .
Grousset : op. cit. II. p. 627. Stevenson : op. cit. p. 211.

(٢) Stevenson : op. cit. p. 211.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ٢ ص ٣٦ — ٣٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .
Wiet : op. cit. p. 313-314.

أما غازى أمير الموصل فحشد عساكره ، واستنجد بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما من أمراء التركمان ، وتوجه بهذه الجيوش إلى حلب ، فاجتمع إليهم الحلبيون ، ووعدهم الصليبيون بالمساعدة ، بعد أن أطلقوا سراح بعض أمرائهم ، أمثال ريجنالد شاتيون وجوسلين كورتناى . وتحركت عساكر الموصل وحلب ، وهى تربو على عشرين ألف مقاتل إلى تل السلطان ، على مسافة عشرين ميلا إلى الجنوب من حلب ، فى أبريل سنة ١١٧٦ . وعلى الرغم من أن قوات صلاح الدين كانت قليلة العدد لا تزيد على ستة آلاف ، نظراً لما حدث من تسيير العساكر المصريين إلى بلادهم ، بعد عقد الهدنة مع الصليبيين ، فإنه استطاع بفضل قيادته الحكيمة وشجاعته الفائقة ، أن يهزم خصومه ، ويثير القلق والاضطراب فى صفوفهم ، وأن يأسر جماعة من أمرائهم الأكابر ، فمنّ عليهم وأطلقهم ، واستولى صلاح الدين على جميع المعسكر ، وعلى سرادق غازى . فأرسل إلى غازى ما عثر عليه فى أمتعته من الحمام والبلابل والببغاوات مع رسالة تفيض بالسخرية ، أشار فيها إلى أنه يحسن به أن يركن إلى مباذله ، ولا يشغل نفسه بالمغامرات الحربية[1] . إذ أن السلطان وجد معسكر الموصل لا يختلف عن حانة من الحانات ، بما اشتمل عليه من الخمور وأدوات اللهو ، فضلا عن المغنين والمغنيات ، وحين عرض هذه الغنائم على جنده دعا الله أن يحفظه من هذا المنكر[2] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٨ — ٤٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٦٠ — ٦١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٥٥ .
Gibb : The Rise of Saladin p. 570.
Runciman : op. cit. II. p. 409. Wiet : op. cit. p. 314.

لا زالت حلب حريصة على المحافظة على استقلالها ، وعلى منع صلاح الدين من أن ينفذ إليها ، فلم يسعه إلا أن يستولى على ما يقع بينها وبين الفرات من حصون ، فوقع فى يديه البزاعة ومنبج ، وحاصر أعزاز ، الحصن المنيع الذى يتحكم فى الطريق المؤدى إلى الشمال ، وفى أثناء هذا الحصار الذى استمر ٣٨ يوماً ، وثب على صلاح الدين أحد الملاحدة (الباطنية) فضرب رأسه بسكينة ، ولولا المغفر الزرد الذى تحت القلنسوة ، لقتله ، ومنذئذ صار صلاح الدين يحترز على نفسه(١) .

وبعد أن استولى صلاح الدين على أعزاز ، توجه إلى حلب ، فحاصرها فى يونيه ١١٧٦ ، فراسله الحلبيون ، وتذللوا له طالبين الصلح ، فأجابهم إلى ذلك ، فأبقى للصالح إسماعيل حلب وأعمالها ، وأعطاه أعزازا إكراما لابنة صغيرة لنور الدين ، واتفق مع الملك الصالح إسماعيل ، أن يكون له من حماه وما فتحه من البلاد إلى مصر . وأن يطلق إسماعيل سراح أولاد الداية الذين كانوا موالين له بحلب ، ومن كبار الأمراء النورية . وتقررت القاعدة فى الصلح للجميع ، للملك الصالح (إسماعيل) ، ولسيف الدين غازى صاحب الموصل ، ولصاحب حصن كيفا ، وصاحب ماردين . وكتب فى نسخة اليمن فى يوليه ١١٧٦ ، « أنه إذا غدر منهم واحد وخالف ، ولم يف بما عليه حالف ، كان الباقون عليه يدا واحدة »(٢) .

أدرك صلاح الدين أنه من الخطأ أن يرفع عن حلب القوة الضخمة التى استعان بها فى الحصار ، على أنه كان لزاما عليه من جهة أخرى أن يثأر

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٨٥ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٤٢ – ٤٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٢٥٦ – ٢٥٨ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ١ ، ص ٢٦١ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٨٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٤٦ .
Stevenson : op. cit. II. p. 212.

لنفسه من الباطنية (الحشيشية) الذين استقروا قبل ربع قرن ، بالإقليم الجبلى الذى يمتد بين اللاذقية وطرابلس ؛ ومن معاقلهم الأساسية ، مصياف ، وقدموس ،والخوابى ، والعليقـــة ، وتقع كلها على مرتفعات منيعة ، فنازل صلاح الدين فى يوليه ١١٧٦ ، حصنهم مصياف ، وأوسعهم قتلا وأسرا ، وخرب ديارهم ، غير أنه لم يلبث أن عقد معهم صلحا ، تعاهدوا فيه بألا يحاولوا الاعتداء عليه ، مقابل ألا يتعرض لهم بالأذى والضرر [١] . وحدث وقتذاك أن تعرض توران شاه أخ صلاح الدين للهزيمة فى البقاع فى أوائل أغسطس سنة ١١٧٦ ، على أيدى اللاتين ، غير أنهم انسحبوا حينما اقترب صلاح الدين من دمشق ، قادماً من الشمال ، وإذ جعل توارن شاه على رأس جيش قوى فى الشام ، اجتاز شرق الأردن فوصل إلى القاهرة فى سبتمبر ١١٧٦ . والواقع أن كل بلاد الشام النورية ، باستثناء حلب ، أخضعها صلاح الدين بحملتين فقط [٢] .

والتفت صلاح الدين إلى توطيد مركزه فى مصر ، وإعداد ما يحقق سياسته فى داخل البلاد حتى يتفرغ بعدئذ إلى جمع وحدة المسلمين ، والقضاء على قوة الصليبيين . فشرع فى بناء القلعة ، على جبل المقطم ، وأمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة ، حتى يبلغ ساحل القاهرة ، والمعروف أنه شرع فى هذا العمل منذ سنة ١١٧١ . على أن اختيار الموقع

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٨٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٦١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٧ – ٤٨ .
Grousset : op. cit. II. p. 630.
Runciman : op. cit. II, p. 410. Wiet : op. cit. p. 314 - 315.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٤٨ – ٥١ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٨٩ – ٢٩٠ .
Stevenson : op. cit, p. 213.

دل على ما اختمر فى ذهن صلاح الدين من فكرة ، وهى أن جعل الفسطاط والقاهرة يجمعهما سور واحد ، واختار للقلعة موضعا ، يكون من القرب ما يسهل الإشراف عليها ، وتكون من البعد ما يجعلها ملاذا يعتصم به من ضربة مفاجئة . وتولى بهاء الدين قراقوش بناء القلعة ، وأمد صلاح الدين الأسوار الشمالية إلى نهر النيل ؛ بينما بلغ الطرف الآخر من الأسوار موضع القلعة . وأقام فى موضع يقع إلى الشمال الشرقى ، ما هو معروف باسم برج الظفر (وموضعه الدّراسة الحالية) . وفى جنوب الفسطاط شيد سورا جديدا ، يبدأ من النيل ويتجه نحو القلعة . واستغرق تشييد القلعة زمنا طويلا ، فالنقش المؤرخ بتاريخ سنة ١١٨٠ ، والكتابة الواردة بنقش سنة ١١٨٣ ، تشير إلى أن بناء القلعة واختيار موقعها جمع بين الإسهام فى جمال القاهرة ومناعتها وحمايتها[١] .

واهتم صلاح الدين أيضاً بإعادة تنظيم الأسطول ، وعنى بالحركة الإصلاحية السنية فى مصر ، مثلما فعل نور الدين فى الشام . فبدأ هو وأخوه العادل ، فى إنشاء المدارس الجديدة ، وفى الوقت ذاته شرع ابن أخيه تقى الدين عمر ، فى إقامة مملكة له فى الغرب[٢] .

موقف الصليبيين والبيزنطيين :

ينبغى ألا يتبادر إلى الذهن ، أن صلاح الدين أغفل أمر الصليبيين ، فى المرحلة الأولى من بناء دولته . فالواقع أن ما قام به صلاح الدين من

---

(١) بدأ صلاح الدين فى إنشاء قلعة الجبل سنة ١١٧٦ ، وتم بناؤها سنة ١٢٠٧ .
انظر (ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٥٤ حاشية ٢) .
Wiet : op. cit. p. 355.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٥٢ — ٥٦ .
ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٦٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٥٦ .
Gibb : The Rise of Saladin p. 570-571

حملات ضد الصليبيين ، يصح تقسيمها إلى مرحلتين متميزتين ، ففى المرحلة الأولى ، وهى الممتدة من سنة ١١٧١ إلى سنة ١١٧٨ ، انصرف صلاح الدين إلى إقامة ملكه ومنازلة الزنكيين ، واستخلاص أملاك نور الدين . وما حدث فى هذه المرحلة من تحركات للصليبيين ، ارتبطت من جهة بعلاقة أملريك ملك بيت المقدس ، ومانويل الإمبراطور البيزنطى ، ومن جهة أخرى بما كان من العداوة والنفور بين صلاح الدين ونور الدين .

فما حدث من فوز قوات نور الدين بقيادة شيركوه وصلاح الدين بمصر سنة ١١٦٩ ، وارتداد الجيوش اللاتينية البيزنطية عن دمياط ، زاد فى اعتقاد أملريك بأهمية التحالف مع الإمبراطور البيزنطى ، والمضى فى الإستنجاد بالغرب ، ولذا قرر سنة ١١٧١ القيام بزيارة شخصية إلى القسطنطينية(١) . ونجح أملريك فى حث الإمبراطور البيزنطى على ضرورة إخضاع مصر ، فتجدد بذلك التحالف بين اللاتين والبيزنطيين . ومع ذلك لم يكن لهذا التحالف نتائج مثمرة(٢) ، إذ ثبت أن مانويل كومنين ، لم يقل كفاءة عن أبيه حنا وجده الكسيوس ، ولم يختلف عنهما فى الحرص على رعاية مصالح بيزنطة الخاصة ، وفى التماس الوسائل التى تحقق غرضه ، على الرغم من أنها لا تلائم اللاتين(٣) .

---

(١) Runciman : op. cit II. p. 390.

المعروف أنه تلى انفصال أملريك عن أجنس ، أن تزوج من مارية كومنين ، ابنة حنا كومنين ، فى سنة ١١٦٧ . وفى الشهور التالية ، تقرر وضع خطة لإرسال حملة مشتركة من البيزنطيين واللاتين لمهاجمة مصر ، وتم عقد المعاهدة بين الجانبين سنة ١١٦٨ .

انظر : Baldwin : The Latin States under Baldwin III and Amalric I p. 554 555, 557 - 558

(٢) Baldwin : The Latin States p. 559.

تضمنت المعاهدة فيما يبدو ، اعتراف الملك املريك ، فى صورة غامضة ؛ بسيادة الإمبراطور على المسيحيين الوطنيين ، بينما وعد مانويل أن يبذل مساعدة برية وبحرية حتى تقرر توجيه حملة إلى مصر . وفى المعاهدة ما يشير إلى اتخاذ إجراء مشترك ضد قلج الأرمنى ، وإلى الكنيسة اليونانية فى أنطاكية . انظر

Runciman : op. cit. II. p. 391

(٣) Baldwin : op cit. p. 560.

على أن الوضع فى العالم الإسلامى ، أضحى وقتذاك بالغ الخطورة ، بعد اتحاد مصر بالشام ، غير أنه طالما استمر الشقاق والنزاع بين صلاح الدين ونور الدين ، لم يبلغ وضع اللاتين حد اليأس ، فالتحالف مع بيزنطة يصح أن يكفل وجود قوة كافية لتقويض سيطرة صلاح الدين على مصر . غير أن هذا المشروع لم يتحقق إذ أن الأحداث التى وقعت وراء حدود بيزنطة وبيت المقدس ، أدت إلى إرجاء سير الحملة ، ولم يلبث التحالف أن انفض بوفاة أملريك سنة ١١٧٤[١] . أما الاستنجاد بالغرب فلم يلق نجاحاً يذكر ، ومن جاء من أمراء الغرب إلى فلسطين سنتى ١١٧١ ، ١١٧٢ لم يقصدوا من وراء ذلك سوى زيارة الأماكن المقدسة ، ثم العودة إلى الغرب[٢] .

ولا شك أن الصليبيين أفادوا من النزاع والنفور بين صلاح الدين ونور الدين ، مثلما أفاد نور الدين وصلاح الدين من المنازعات بين اللاتين ، ومن خصومتهم مع الأمراء المسيحيين المجاورين . فالهدنة التى وقعها نور الدين مع اللاتين ، وأفاد منها فى توجيه اهتمامه إلى الموصل ، التى سقطت بيده فى يناير سنة ١١٧١ ، لم يلبث اللاتين أن نقضوها ، بأن تعرضوا لسفينتين قادمتين من مصر إلى الشام ، وأرستا بمدينة اللاذقية فاستولى عليهما اللاتين (الصليبيون) ، وحازوا ما بهما من أمتعة للتجار . ولما حاول نور الدين أن يسترد منهم أموال التجار ، أنكروا عليه ذلك ، واحتجوا بأمور ، منها أن المركبين قد انكسرا ودخلهما الماء ، والمعروف أن من حقهم أن يستولوا على كل مركب ينطبق عليه هذا الوصف . غير أن نور الدين لم يقبل هذا التبرير ، فأغار على أراضى أنطاكية وطرابلس ونهبها ، ودمر قلعتى صافيتا وعريمة ، ولم يكف عن الغارة عليهم إلا بعد أن حصل على تعويض كبير[٣] . وتجددت الهدنة بين الجانبين سنة ١١٧٢ ،

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 560.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 393.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٤٧ .

ولعل ذلك راجع إلى ارتياب نور الدين فى سلوك صلاح الدين من جهة ، والحرص من جهة أخرى ، على الحصول على مساعدة من قبل سلاجقة آسيا الصغرى لمهاجمة أنطاكية . غير أن السلطان السلجوقى ، قلج أرسلان ، لم ينهض لمساعدة نور الدين عند هجومه على أنطاكية ، خوفا من بيزنطة ، ولانصرافه إلى قتال الدانشمنديين ، الذى استمر نحو سنتين[١] . وما حدث من التحالف بين بيزنطة وبيت المقدس ، منع أنطاكية من الوقوع فى أيدى المسلمين ، لعجز السلاجقة بآسيا الصغرى عن الانحياز لنور الدين[٢] . وحوالى ذلك الوقت أيضاً ١١٧٣ ، قبل نور الدين أن يطلق سراح ريموند الثالث كونت طرابلس الذى تعاهد بأن يؤدى فدية قدرها ٤٠ ألف دينار ، وقام أملريك والاسبتارية بدفع معظم المال المطلوب ، وسلمه الكونتية التى تولى الوصاية عليها أثناء حبسه[٣] .

ووفقاً للمعاهدة المعقودة بين أملريك ومانويل ، التزم أملريك بقتال مليح الأرمنى ، الذى لجأ إلى نور الدين فى حلب . وبعد وفاة أخيه توروس الثانى صاحب قليقية ، سنة ١١٦٨ ، حرص مليح على أن ينتزع قليقية من يد ابن أخيه . ولقى مليح من نور الدين التشجيع ، نظرا لأنه كان يعتبر من

= أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٠٣ .

Runciman : op. cit. II. p. 395.

Grousset : op. cit. II. p. 563-564.

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

Runciman : op. cit. II. p. 395.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 395.

Grousset : op. cit. II. p. 579-580.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 395.

Baldwin : The Latin States. p. 561.

وقع ريموند أسيراً فى وقعة حارم سنة ١١٦٤ : انظر

William of Tyre : op. cit. II. p. 390.

أتباعه ، إذ جعل له نور الدين خورس إقطاعا . وبفضل ما أمده به نور الدين من العساكر استطاع أن يغزو قليقية ، وأن يطرد من الحصون الفرسان الداوية والبيزنطيين ، وينتزع من البيزنطيين المدن الرئيسية فى قليقية ، أدنة ومامسترا وطرسوس ؛ فى أوائل سنة ١١٧٢[١] .

وما حدث من تغيير فى المحالفات الأرمنية ، لصالح نور الدين ، كان بالغ الأهمية ، فيشير ابن الأثير « إلى أن مليح لازم الخدمة لنور الدين ، وشاهد حروبه مع الفرنج ، وكان مباشرا لها . وكان هذا من جيد الرأى وصائبه ؛ فإن نور الدين لما قيل له فى معنى استخدامه ، وإعطائه الإقطاع فى بلاد الشام ، قال : أستعين به على قتال أهل ملته ، وأريح طائفة من عسكرى تكون بازائه لتمنعه من الإغارة على البلاد المجاورة له . وكان مليح أيضاً يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم »[٢] .

وأعد أملريك حملة لتأديب مليح ، وفى أثناء اجتياز العساكر سهل قليقية ، أحرقوا المحصولات الزراعية وحاولوا أن يقتحموا القلاع الواقعة على امتداد طريقهم ، غير أن أملريك تلقى من الأنباء ما أزعجه ، ومنعه من المضى فى قتال مليح ، إذ أن نور الدين اغتنم الفرصة ، فأغار على شرق الأردن ، لتخفيف الضغط على مليح . وتوجه لحصار الكرك ، بعد أن طلب إلى صلاح الدين النهوض من مصر لمنازلة الكرك . على أن نور الدين لم يلبث أن عاد إلى دمشق ، دون أن يحدث صدام مع قوات بيت المقدس ، بسبب انسحاب صلاح الدين ، واعتذاره بما يعانيه أبوه من مرض خطير[٣] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٥٥ .

Grousset : op. cit. II. pp. 566-568

Gibb : The Career of Nur ad-Din p. 527

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٢٥٥ .

(٣) Grousset : op. cit. II p. 582, 585-586.

William of Tyre : op. cit. II. pp. 386-388.

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ .

ولم يكد أملريك يصل إلى بيت المقدس ، حتى علم أن نور الدين يعسكر بجيش كثيف ، بالقرب من بانياس ، استعداداً للإغارة على طبرية ، فبادر إلى حشد قواته بطبرية ، وعسكر بالقرب من عيون صفورية شمال الناصرة ، فلم يسع نور الدين إلا العدول عن الهجوم[1] .

وأفاد الصليبيون أيضاً من الشقاق الذى وقع بين المسلمين ، بأنهم ظفروا بحليف جديد ، هو الباطنية ، الذين وطدوا مراكزهم فى جبال النصيرية ، واشتدت كراهيتهم لنور الدين ، لأنه أوقف توسعهم نحو الشرق ، وأزال الخلافة الفاطمية . وما وقع من الأحداث الهامة فى الفترة بين ١١٧١ ، ١١٧٤ ، وترتب عليها اتحاد مصر والشام ، وسيادة المذهب السنى ، حمل الباطنية على أن يلتمسوا صداقة الفرنج لمواجهة خصومهم ، فرحب أملريك بذلك ، فما اشتهر به الباطنية من النظام الصارم ، ومن جواسيس مهرة ، يصح أن يفيد منه الصليبيون[2] . فعلى الرغم مما اشتهر به أملريك من الشح والبخل فإنه لم يتردد فى أن يعوض ، من خزانته ، الداوية (فى أنطرطوس) مقابل التخلى عن الجزية التى يتقاضونها من قرى الباطنية ، نظراً لما يؤدى تحالفهم الوثيق معه إلى فوائد جليلة[3] . ولما لقى رسل الباطنية مصرعهم ، أثناء اجتيازهم طرابلس ، على يد أحد الداوية واسمه والتر ميسنيل Walter of Mesnil ، لم يسعه إلا أن يلقى القبض على ميسنيل ، ويطلب من البابا حلّ هذه الطائفة[4] .

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 583.

(٢) Grousset : op. cit. II. pp. 598-599.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 600.
Runciman : op. cit. II. pp. 397.

(٤) Grousset : op cit. II. pp. 600-602.
Runciman : op. cit. II. p. 397.
William of Tyre : op. cit. II. pp. 392-394.

وفى أثناء السنوات ، ١١٧٤ — ١١٧٦ ، وبينما كان صلاح الدين يوطد سلطانه فى الشام ، تهيأت للاتين فرصة لم يفيدوا منها إلا قليلا ، إذ أن أملريك اغتنم فرصة وفاة نور الدين سنة ١١٧٤ ، فحشد عساكره ، وحاصر بانياس ، غير أنه لم يلبث أن رفع الحصار ، مقابل ما عرضه أمير دمشق ، ابن المقدم ، من شروط ، أهمها بذل مبلغ من المال وإطلاق سراح بعض الأسرى ، وذلك فى يونيه ١١٧٤ . ولعل ما حل بأملريك من مرض مفاجئ هو الذى حمله على قبول هذا العرض ، فإنه مات فى يوليه سنة ١١٧٤ ، وخلفه على الحكم ابنه بلدوين الرابع وكان مجذوما ، ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره[١] . وما حدث عبر الحدود من النضال من أجل الاستحواذ على أملاك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، يماثله ما كان بين الزعماء اللاتين من الأحقاد والمنافسات ، غير أنه لم يكن بينهم رجل كفء يستطيع أن يفرض سلطانه على سائر الأمراء . وبعد أن تم اغتيال أول وصى ، ميلزبلانسى ، صار ريموند الثالث كونت طرابلس قيما على الملك الصغير بلدوين الرابع[٢] ، ويعتبر ريموند مسئولا عن الدور الذى قام به اللاتين أثناء حملة صلاح الدين سنة ١١٧٥ . ولم يشتهر ريموند بالفروسية والحماس ، وفى أثناء الفترة الطويلة التى أمضاها فى الأسر ، والتى بلغت تسع سنوات ، دأب على القراءة والاطلاع ، فتعلم اللغة العربية ، ووقف على أساليب المسلمين ، وصار ينظر إلى مشاكل الإمارات اللاتينية على أنها مشاكل محلية ، وكان حريصاً على بقاء هذه الإمارات ، غير أنه تكاثر أعداؤه وخصومه[٣] .

استهلت وصايته بوقوع شقاق وتصدع فى المملكة اللاتينية ، فالمعروف أنه كان بالمملكة أحزاب ، لا سيما زمن مليسند ، غير أنها لم تعش طويلا ،

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 213.

(٢) Stevenson : op. cit. p. 213.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 405.

وخضعت لسلطة الملك . فتغير الوضع زمن بلدوين الرابع ، بأن ظهر حزبان مهمان ، تألف أحدهما من البارونات المحليين والاسبتارية ، ويدينون بالولاء لريموند ، ويسعون للتفاهم مع جيرانهم ، ولم يحرصوا على القيام بمغامرات . أما الحزب الآخر فتألف من القادمين حديثاً من الغرب ، ومن الداوية ، واشتهروا بنزعتهم العدوانية والروح المسيحية المحاربة . وتزعم هذا الحزب ريجنالد شاتيون بعد إطلاق سراحه من الأسر فى سنة ١١٧٦ ، واشتهر بالمغامرة والمخاطرة ، وقد تزوج من ستيفانى ، وريثة إقطاع شرق الأردن وأرملة ميلزبلانسى[١] .

ظل ريموند وصياً على العرش مدة ثلاث سنوات ، غير أن الملك وقع تحت تأثير خاله جوزلين ، وأمه أجنس ، التى تعتبر مسئولة عما أصاب المملكة من كوارث[٢] . ولم يلبث صلاح الدين أن منع التحالف بين ريموند وخصومه فى حلب ، بما بذله من الأموال لريموند وإطلاق سراح بعض الأسرى ، فارتد عن حمص سنة ١١٧٥[٣] ، ولما حاول ريموند فى السنة التالية ١١٧٦ الإغارة على البقاع ، يسانده جيش من بيت المقدس ، أنزل به حاكم بعلبك ، ابن المقدم ، هزيمة ساحقة[٤] . على أن توران شاه الذى ولى حكومة دمشق ، أثناء غياب صلاح الدين بمصر ، تعرض للهزيمة عند عين الجار ، على يد بلدوين الرابع ، فاجترأ اللاتين بعد هذه الوقعة ، وانبسطوا فى الولاية ، « وجبروا الكسر الذى ناله منهم ابن المقدم[٥] » .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 405-406.

(٢) Runciman : op. cit. p. 406.

(٣) Stevenson : op. cit. p. 214.

(٤) Runciman : op cit. II p. 410.

Stevenson : op. cit. p. 214 - 215.

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٩٠ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٩٠ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٦١ .

Runciman : op. cit. II. p. 410.

لم تقع الحرب بين الجانبين لمدة سنة ، وبينما كان صلاح الدين يعيد تنظيم الإدارة بمصر ، ويجدد عمارة القاهرة واستحكاماتها ، واجهت الحكومة فى بيت المقدس ، مشكلة داخلية بالغة الأهمية . ففى سنة ١١٧٧ ، بلغ بلدوين الرابع سن الرشد ، ١٦ سنة ، وتخلى ريموند عن الوصاية . غير أن ما يعانيه الملك من داء الجذام ، واشتداد وطأة المرض عليه ، حتم السعى لإعداد خليفة له ، فتقرر سنة ١١٧٥ ، دعوة وليم مونتفرات للقدوم إلى فلسطين ، فوصل إليها فى أكتوبر سنة ١١٧٦ ، وتزوج من سيبل أخت الملك ، غير أنه مات سنة ١١٧٧ ، بعد أن أنجب طفلا ، صار فيما بعد بلدوين الخامس ، ونظراً لخطورة الوضع فى بيت المقدس ، تقرر اختيار ريجنالد شاتيون نائباً للملك[1] .

وفى نفس السنة ، وصل إلى عكا فيليب الألزاسى ، كونت فلاندر ، فى عدد كبير من أتباعه ، وكان اللاتين يأملون من وراء قدومه تحقيق أشياء كثيرة ، لقرابته من الملك ، إذ يعتبر ابن عمه ، ولأن أباه سبق أن اشترك فى أربع حملات صليبية ، ولأن والدته ، سيبل أنجو ، كانت شديدة التعلق بالأراضى المقدسة[2] ، ولأن المرض اشتد بالملك ، فكان فى أشد الحاجة إلى من يضطلع بأعباء الحكم ، ولذا احتفل بقدومه كبار رجال المملكة اللاتينية من البارونات ورجال الدين والفرسان والرهبان . وبادر الملك بناء على نصيحتهم إلى أن يعرض عليه بأن يتقلد دون تردد ، حكومة المملكة وإدارتها ، ويكون له مطلق التصرف ، فى أموال الدولة

---

(١) Stevenson : op. cit. 215-216.
Runciman : op. cit. II. p. 411. Grousset : op. cit. II. p. 633 - 634
William of Tyre : op. cit. II. pp. 415 - 417

(٢) Runciman : op. cit. p. 414.

وموارها ، فى حالتى الحرب والسلام ، فى داخل البلاد وخارجها[١] .
وفى تلك الأثناء وصل إلى عكا أسطول بيزنطى مؤلف من سبعين سفينة حربية ، تحمل جنوداً ومؤناً وأسلحة ، ليشترك مع اللاتين فى مهاجمة مصر[٢]. وانعقد الأمل على أن يشترك فيليب فى هذه الحملة ، غير أنه رفض ، وقال إنه لم يقدم ليتولى مقاليد الحكم ، بل جاء ليقوم بزيارة الأماكن المقدسة ، ولا يلزم نفسه بالاضطلاع بأية مسئولية ، وأنه سوف يعود إلى بلاده متى اقتضت الأحوال بها عودته[٣] . ورفض أيضاً ما عرضه الملك من أن يشترك معه ريجنالد شاتيون فى قيادة الحملة . على أن فيليب كشف آخر الأمر عن نواياه ، بما لاحظه من أنه لم تجر استشارته فى موضوع زواج سيبل ، على الرغم من قرابته الوثيقة بها ، فأدرك البارونات ما يضمره الكونت من نية ترمى إلى نزع الملك من الحكم ، على الرغم من الاحتفاء به عند قدومه ، وإغفاله قواعد الضيافة ، وحقوق أقاربه[٤] . فوجه إليه أحد البارونات عبارات جارحة ، تحتوى على التأنيب والتقريع ، إذ قال « ظننا أنك جئت لتحارب من أجل الصليب ، فألفيناك لاتتحدث إلا عن الزواج[٥] » .

---

(١) William ef Tyre : op. cit. II. p. 417.

(٢) المعروف أن هذه الحملة تقرر إرسالها وفقاً للمعاهدة التى عقدها أملريك مع مانويل سنة ١١٧١ ، وتأجل مسير الحملة بسبب وفاة أملريك سنة ١١٧٤ ، غير أن مانويل لم يغفل ما انعقد من معاهدة بينه وبين أملريك ، فأنفذ إلى بلدوين الرابع ، يعلن التزامه بما بذله من وعود . وأشار مبعوثو الإمبراطور إلى أن الأحوال مواتية لمهاجمة مصر ، سنة ١١٧٧ ، لما يصادفه صلاح الدين من العداء فى حلب من قبل الزنكيين ، ولما يلقاه من الكراهية فى مصر من قبل الفاطميين ، فإذا أسهم فيليب كونت فلاندر ، ازداد الأمل فى نزع صلاح الدين . انظر
Grousset : op. cit II. pp. 636 - 637.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. p. 417.
Runciman : op. cit. II. p. 415. Grousset op. cit. II. p. 635-636
Stevenson : op. cit. p. 216.

(٤) William of Tyre : op. cit. II. p. 418.

(٥) Runciman : op. cit. II. pp. 415.

ولحرص اللاتين على المحافظة على المعاهدة المعقودة مع بيزنطة ، والإفادة من المساعدة التى عرضتها لغزو مصر ، ولإصرار فيليب فلاندر على الامتناع عن الاشتراك فى الحملة إذا توجهت إلى مصر ، تقرر إرجاء اتخاذ قرار حتى أبريل التالى ، ولم يكن لهذا القرار من معنى سوى التخلى نهائياً عن هذه الحملة[1] .

وما حدث من النضال والنزاع بين المسلمين فى آسيا الصغرى ، فى الفترة الواقعة بين ١١٦٢ ، ١١٧٤ ، كفل للبيزنطيين الراحة والهدوء[2] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 422.
Stevnson : op cit. p. 216.
Camb. Med. Hist. IV. p. 377.

(٢) الواقع أن الإمبراطور البيزنطى ، مانويل ، انصرف فى تلك الفترة إلى الاهتمام بأمور إيطاليا ، وتسوية النزاع مع فردريك بربروسه والمجريين والصربيين . ومن الطبيعى أن يلتمس الإمبراطور البيزنطى رضى البابا اسكندر الثالث ، ودارت المفاوضات بين الإمبراطور ولويس السابع ملك فرنسا والبابا ، لإقامة حلف لمواجهة الإمبراطور الألمانى ، وكان البابا فى أشد الحاجة إلى مساعدة مانويل ، ولذا حرص الإمبراطور أن يوقفه على رغبته فى توحيد الإمبراطورية تحت زعامته وسلطانه ، وظل البابا على موالاته للإمبراطور حتى سنة ١١٧٧ ، ومع ذلك لم يفد الإمبراطور من هذا التحالف ، نظراً لمعارضة ملك صقلية للسياسة البيزنطية ، التى ترمى إلى أن تظفر بيزنطة بمكانة فى إيطاليا . والتمس مانويل كل الوسائل لتحقيق هذا الغرض ، فحاول أن يزوج ابنته مارية من وليم الثانى ، غير أن فردريك بربروسه أحبط هذا المشروع وما نشب من النزاع بين مانويل والبندقية ، وما ترتب على ذلك من انقطاع العلاقات الدبلوماسية والقبض على البنادقة فى الأملاك البيزنطية ، ومصادرة متاجرهم ، كل ذلك حمل البندقية على أن تتحالف سنة ١١٧٥ مع وليم الثانى ملك صقلية . وما وقع من نزاع بين بربروسه والبيزنطيين ، بعد استيلاء مانويل على أنكونا ، جعل بربروسه يلتمس محالفة وليم الثانى ملك صقلية ، وأن يثير الصعاب فى وجه مانويل ، وأن يتصل بسلطان السلاجقة فى قونية ؛ واستطاع مانويل أن يفرض سلطانه على بلاد المجر ، التى تولى حكومتها ملك موال له ، ودانت لبيزنطة دالماشيا ، واتخذ هذه السياسة أيضاً فى الصرب ، بأن حكمها ملك موال له . (انظر
Camb. Med. Hist. IV. pp. 370-374.

وترتب على انتصار قلج أرسلان على خصومه ، والاستيلاء على أملاكهم ، أن لجأ إلى القسطنطينية أخوه شاهنشاه ، وذو النون الدانشمندى[١] .

وإذ فرغ مانويل من حروبه بأوربا ، وصادف ذلك وفاة نور الدين ، الذى اعتبره من أكبر خصومه ، وحليفا للسلطان قلج أرسلان ، شرع منذ أواخر سنة ١١٧٤ ، فى أن يوجه نشاطه السياسى إلى آسيا الصغرى . ولم يكن قلج أرسلان بأقل ميلا إلى قتال بيزنطة ، بعد أن انتصر على خصومه ، ولا سيما بعد أن لقى التشجيع من الإمبراطور فردريك بربروسه ، فاشتدت غارات القبائل التركية على الحدود البيزنطية . وأصلح مانويل الاستحكامات ، وزاد فى مناعته خطى الدفاع اللذين يؤلفهما نهرا ماياندر ، وهرموس . وكتب الإمبراطور إلى البابا ، ينهى إليه أن الوقت قد حان لإرسال حملة صليبية جديدة ، ولتأمين طريق آسيا الصغرى المؤدى إلى الأراضى المقدسة . وقاد مانويل فى سبتمبر ١١٧٦ ، جيشاً ضخماً ، لمهاجمة قونية ، بينما سار ابن عمه اندرونيكوس فاتاتسيس Vatatses ، لمنازلة نقصار ، غير أن الكارثة حلت بالجيشين ، فلقى فاتاتسيس مصرعه ، بينما بغتت الجيوش السلجوقية ، جيش مانويل ، فى درب ميريوكيفالون MyrioKephalon ، فأجهزت عليه ، ولم ينج منه إلا عدد قليل[٢] . وبلغ من شدة وقع هذه الكارثة عند الإمبراطور ، أن عقد المقارنة بينها وبين معركة مانزيكرت سنة ١٠٧١ التى لقى فيها الإمبراطور رومانوس ديوجين

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 412.
Camb. Med. Hist. IV. p. 377.
Cahen : op. cit. p. 417.

(٢) Runciman : op. cit. II. pp. 411-412.
Camb. Med. Hist. IV. p. 378. Cahen : op. cit. p. 417.

الهزيمة الساحقة على يد السلطان السلجوقى ألب أرسلان[1] . وعلى الرغم من الانتصار الباهر الذى أحرزه قلج أرسلان ، فإنه عرض على الإمبراطور البيزنطى ، أن يتنازل له عن الحصنين اللذين وقعا فى يده . وهما الحومة (سابليوم Sablaeum) ودورليوم ، بشرط تجريدهما من استحكاماتهما ، وقبل مانويل هذا الشرط ، فانسحب إلى عاصمته بمن بقى معه من العساكر . ولعل السلطان السلجوقى لم يدرك أهمية ما حازه من الانتصار ، أو أن اهتمامه بالشرق ، لا الغرب ، هو الذى حفزه إلى التساهل مع الإمبراطور البيزنطى ؛ إذ لم يكن يبتغى فى الغرب ، سوى السلامة وتأمين بلاده[2] . ومن الواضح أن ما حاق بالجيش البيزنطى من خسارة فادحة ، أضعف قوته ، وعلى الرغم من أنه تبقى من العساكر ما يكفى لحماية الحدود ، وإحراز انتصارات ضئيلة الأهمية ، فى السنوات الثلاثة التالية ، فإنه لم يعد فى وسع الإمبراطور أن يسير إلى الشام ، وأن يفرض إرادته على أنطاكية ، وأدرك اللاتين آخر الأمر ، ما لبقاء الدولة البيزنطية من أهمية فى المحافظة على أملاكهم من أخطار المسلمين[3] .

على أن فيليب فلاندر قبل آخر الأمر أن يهاجم المسلمين ، على أطراف طرابلس وأنطاكية . والمعروف أن الهدنة كانت قائمة بين اللاتين والمسلمين ، وتضمن أحد شروط الهدنة ، أنه متى جاء أحد الأمراء الصليبيين من الغرب ، فلهم الحق فى أن ينهوا أجل الهدنة[4] . وفشل فيليب وريموند

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 414.
Camb. Med. Hist. IV. p. 378.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 414.
Chalandon : Les Comnenes II. pp. 566-613.

(٣) Runciman : op. cit. II. 414.

(٤) Stevenson : op cit. p. 216.
ويشير ابن العماد إلى أن « من جملة شروط هدنة الفرنج ، أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير ، =

كونت تولوز فى الاستيلاء على حماه ، ولم يلبث فيليب أن بذل المساعدة لبوهمند أمير أنطاكية ، للاستيلاء على حارم وانتزاعها من الصالح إسماعيل ، بعد استيلائه عليها من كمشتكين ، فاستمر حصار اللاتين لها أربعة شهور دون أن ينالوا منها شيئاً ، بينما تلقت حامية حارم أمداداً فى مارس ١١٧٨ ، وكان اللاتين يأملون بأن تسقط حارم فى أيديهم ، نظراً لصغر سن إسماعيل وقلة عساكره ، وتغيب صلاح الدين فى مصر يدبر أمر الدفاع عنها . ولما تبين لهم امتناع المدينة عليهم ، وهددهم الصالح إسماعيل بأن صلاح الدين فى طريقه إلى الشام ، لتسلم المدينة ، لم يسع اللاتين إلا الرحيل ، « بقطيعة من المال أخذوها ، وعدة من الأسارى خلفوها » ، فعاد فيليب إلى بيت المقدس ، ولم يلبث أن ارتحل إلى القسطنطينية[١] .

أدرك صلاح الدين بفضل عيونه وجواسيسه ، ما حدث من تداعى التحالف اللاتينى البيزنطى ، ومسير فيليب فلاندر إلى الشمال ، يسانده جانب من جيش بيت المقدس ، فعزم على أن يقوم بمهاجمة الســاحل الفلسطينى ، كيما يرغم كونت فلاندر على التخلى عن حماه وحارم ، ويثير القلق والاضطراب فى مملكة بيت المقدس[٢] . اجتاز الحدود المصرية فى

= ما لهم فى دفعه تدبير ، أنهم يعاونونه ولا يباينونه ، ويحالفونه ولا يخالفونه ، وإذا عاد ، عادت المدنة كما كانت ، وهانت الشدة ولانت » .

انظر أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٧٥ .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٧٥ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٣٥ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٦٤ .

Stevenson : op. cit. pp. 216-217.

Runciman : op. cit. II. pp. 415-416.

Grousset : op. cit. II. pp. 645-649.

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 650.

نوفمبر سنة ١١٧٧ ، وأول ما صادفه من مواقع الصليبيين ، حصنا الداروم (دير البلح) ، وغزة ، فبادر الداوية إلى تعزيز حاميتهم فى غزة ، غير أن جيش صلاح الدين انطلق إلى عسقلان . وساء الموقف فى بيت المقدس ، نظرا لقلة عدد الفرسان الذين يرتكن إليهم الملك فى الدفاع عن بلاده ، لأن جانبا من جيشه ، توجه لمساندة فيليب فلاندر فى الشمال ، ولما أصاب همفرى صاحب تبنين من مرض أقعده عن الدفاع عن عسقلان ، ولاعتصام فرسان الداوية بحصن غزة . ووصل بلدوين الرابع إلى عسقلان قبيل قدوم صلاح الدين ، وأرسل يدعو كل القادرين على حمل السلاح بالمملكة ، للانحياز إليه فى عسقلان ؛ على أن صلاح الدين أنزل الهزيمة بجانب من الأمداد التى قدمت لمساعدة بلدوين ، فطمع صلاح الدين وعساكره ، وانبسطوا وساحوا فى الأرض ، حتى بلغوا الرملة ، وشرعت مقدمة الجيش الأيوبى فى حصار اللد ، ووصلت كشافة صلاح الدين إلى قلقيلية ، بين أرسوف ونابلس[١] . غير أن اللاتين لم يلبثوا أن بغتوا جيش السلطان فى نوفمبر سنة ١١٧٧ ، وحلت الكسرة بالقوات الإسلامية عند تل الرملة المعروف عند الكتاب الأوربيين باسم Mont gisard ؛ والتقى صلاح الدين لأول مرة ، بالرجل الذى أصبح فيما بعد عدوه اللدود ، وهور يجنالد شاتيون (البرنس أرناط صاحب الكرك) ، الذى أطلق الحلبيون سراحه ، بعد أن ظل معتقلا فى حلب ست عشرة سنة[٢] . على

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 417.
Grousset : op. cit. II. p. 652-653.
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٢) Gibb : The Rise of Saladin p. 571.
Runciman : op. cit. II. p. 417. Wiet : op. cit. p. 317.
Grousset : op. cit. II. pp. 654-664.
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٥٨ — ٦٠
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

أن ما أحرزه اللاتين من انتصار طارئ لم يمنع صلاح الدين من المضى فى جهاده ، فلم تمض على كسرة الرملة أربعة شهور ، حتى خرج صلاح الدين من مصر ، مرة أخرى ، بجيش كثيف ، وخلف وراءه من القوات ما يكفى لحماية البلاد ، واستهدفت هذه الحملة مهاجمة الصليبيين بقيادة فيليب فلاندر ، الذين حاصروا حارم . ووصل صلاح الدين إلى دمشق ١١٧٨ ، وقد انسحب فيليب بعد اتفاق عقده مع صاحب حلب ، إسماعيل . ولم تلبث الهدنة أن عادت بين المسلمين واللاتين ، بعد انسحاب فيليب فلاندر . ولما نقض اللاتين الهدنة بأن هاجموا حماه ، وأنشأوا حصنا على مخاضة بيت الأحزان ، وهو بيت يعقوب ، بناء على اقتراح الداوية فى أكتوبر ١١٧٨ ، ويقع هذا الحصن بين صفد وطبرية ، وتحكم الداوية فى طريق القوافل ، بل انهم منعوا مرور قوافل المسلمين ، فلا بد أن يؤدى ذلك إلى الصدام بين الجانبين[١] . ويقيم بالبلاد الواقعة على جانبى المخاضة سكان مسلمون ، يحترفون الفلاحة والرعى ، ويخضع فريق منهم لسلطان حكومة دمشق ، بينما يخضع بعضهم لسلطان اللاتين ، وكان لهم مطلق الحرية فى اجتياز الحدود ، وتعاهدوا بألا يقوموا بتحصين موضع العبور ، غير أن الداوية أرغموا بلدوين على أن يقيم القلعة بهذا الموضع[٢] . وفى ابريل ١١٧٩ ، أغار اللاتين على قطعان أهل دمشق ، التى كانت تنتجع

---

(١) Gibb : The Rise of Saladin p. 572.

Wiet : op. cit. p. 317.

عزم بلدوين الرابع على أن يقيم استحكامات منيعة على امتداد الحدود الفاصلة بين مملكة بيت المقدس ودمشق ، حيث ترتب على سقوط بانياس ، تغيير فى خطة الدفاع عن المملكة ، فبينما قام همفرى صاحب تبنين بتحصين تل هونين ، على الطريق الممتد بين بانياس وتبنين ، أخذ الملك فى تشييد حصن فى أعالى نهر الأردن ، بين بحيرة الحولة وبحر طبرية (الجليل) ، للسيطرة على مخاضة بيت يعقوب .

Runciman : op. cit. II. p. 418.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 418.

Grousset : op. cit. II. pp. 664-665.

المراعى ، فأنفذ صلاح الدين إليهم ابن أخيه ، فرخشاه ، فأنزل الهزيمة باللاتين بقيادة همفرى صاحب تبنين الذى لقى مصرعه[1] .

وبدأ صلاح الدين فى إعادة تنظيم قياداته الحربية فى الشمال ، فجعل تقى الدين عمر ، على حماه ، فكان فى مقابلة صاحب أنطاكية ، وعين ناصر الدين بن شيركوه على حمص لوقف حركات ريموند كونت طرابلس ؛ وطلب إلى أخيه العادل نائبه بمصر ، أن يبعث إليه بنحو ألف وخمسمائة فارس وبالمؤن ، نظرا لما حدث بالشام وقتذاك من المجاعة ، بسبب الجفاف وانقطاع المطر[2] .

ثم تحرك صلاح الدين إلى بانياس ، فاتخذ هذا الموضع قاعدة ، لما شنه من الغارات على طبرية ، والأراضى الواقعة بين صيدا وبيروت ، ثم أنزل هزيمة ساحقة بجيش بلدوين الرابع فى مرج عيون ، يونيه سنة ١١٧٩ ، ووقع فى أسره عدد كبير من الفرسان والبارونات[3] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٧٣ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٦ .

Grousset : op. cit. II. pp. 668-670.

Runciman : op. cit. II. p. 419.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٣ — ٧٤ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٨ .

Gibb : The Rise of Saladin p. 574.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٥ — ٧٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٠١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨ — ٩ .

Runciman : op. cit. II. p. 420.

Grousset : op. cit. II. pp. 670-678.

Gibb : The Rise of Saladin p. 575.

غير أن صلاح الدين لم يغب عن باله الحصن الذى أقامه الصليبيون عند بيت يعقوب ، فهاجمه وبعد حصار استمر أربعة أيام ، تم فى أثنائها نصب المنجنيقات عليه ، وألح المسلمون فى القتال ، حتى سقط الحصن بأيديهم فى سبتمبر ١١٧٩ ، وأسروا كل من به ، وأطلقوا سراح الأسرى المسلمين ، وحصلوا على غنائم وفيرة ؛ ولم يبرح صلاح الدين مكانه حتى تم هدم الحصن إلى الأساس ، وردم آبار المياه به[١] . وما هو جدير بالذكر أن صلاح الدين ، حسبما ورد فى نقش ، قام حوالى ذلك الوقت بترميم استحكامات دمشق[٢] .

وتلى ذلك ظهور الأسطول المصرى فى مياه الشام ، فهاجم عكا وهى قسطنطينية الفرنج ، وفيها المراكب والبضائع ، فجرى الاستيلاء على عدد من المراكب ، وتحطيمها ، وذلك فى أكتوبر ١١٧٩[٣] .

وما حدث من قيام المسلمين بشن الغارات على أرجاء ممتلكات اللاتين ، وإنزال الهزائم الساحقة بهم ، وتدمير حصن بيت يعقوب ، ومهاجمة الأسطول المصرى لميناء عكا ، وتفوق صلاح الدين على اللاتين فى الحرب ، كل ذلك دعا الملك بلدوين الرابع لأن يلتمس من صلاح الدين عقد هدنة ، فاستجاب لطلبه نظراً لما كانت تعانيه دمشق من الجفاف ، ولما تؤدى إليه الغارات من الجانبين من إتلاف المحصول ، ولحرص صلاح الدين على

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٨٢ – ٨٣ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٠١ – ٣٠٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١١ – ١٣ .
Runciman : op. cit II p. 421 Grousset : op. cit. II. pp. 678-686.
Gibb : The Rise of Saladin p. 575.

(٢) **Wiet : op. cit. p. 317-318.**

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٣ – ١٤ .
Runciman : op. cit. II. p. 421. Grousset : op. cit. II. pp. 680.

أن يمضى فى توحيد الجبهة الإسلامية ؛ بأن يستولى على حلب [١]. فتقرر عقد هدنة لمدة سنتين ، وتم توقيع المعاهدة فى مايو سنة ١١٨٠ ، ووفقا للقانون الإقطاعى ، لا تسرى المعاهدة إلا على مملكة بيت المقدس ، ويخضع لها الأجانب والمستوطنون سواء ، وتنطبق على البر والبحر [٢] .

ولم تدخل طرابلس فى عقد الهدنة ، فشن عليها صلاح الدين غارات من أجل النهب والغنيمة ، بينما تعرضت انطرطوس لهجوم من الأسطول المصرى ، ولم يلبث صلاح الدين أن قبل عقد هدنة مع ريموند كونت طرابلس [٣] .

وعلى الرغم من أن هذه الحروب لم تحدث تغييرا فى وضع الممتلكات ، فالواقع أن صلاح الدين فرض إرادته على الصليبيين ، فصار يجوس بلادهم كيفما شاء ، ويثير بها ما يريد من الخراب ، ويصيب منها الغنائم الوافرة [٤].

تغلب صلاح الدين على مشاكل الوحدة :

وفى كل هذه العمليات الحربية ، لم يظهر الزنكيون فى حلب والموصل من الاستعداد ، ما يدل على أنهم سوف يساعدون صلاح الدين فى استعادة فلسطين من أيدى الصليبيين . وما أحرزه صلاح الدين من انتصارات ، جعلته يدرك أن النضال ضد الصليبيين ، لن يصل إلى النتيجة المرغوبة بقوات دمشق وحدها ، وما يجرى الاستغناء عنه من القوات المصرية ، فالقوة التى يستطيع صلاح الدين حشدها فى وقت واحد ، ومقدارها ستة آلاف

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 421. Grousset : op. cit. II. p. 480.

(٢) William of Tyre : op. cit. II. p. 447.

(٣) William of Tyre : op. cit. II. pp. 448-449.
Runciman : op cit. II. p. 421.
Grousset : op. cit. II. pp. 480-482.

(٤) William of Tyre : op. cit. II. pp. 449.

جندى ، ليست كافية فى حرب حاسمة . وطالما بقى الأمراء النوريون فى حلب ، يخضعون لزعيم آخر ، فسوف يصيرون خطراً على جناحه . وإذا حدث أن انحازوا إليه ، فسوف يؤدى هذا إلى اشتداد كراهية الزنكيين فى الموصل له ، بعد أن ظلوا ملتزمين الحياد ، برغم ما توافر لهم من قوات ، تبلغ ستة آلاف جندى[1] . والنتيجة الحتمية لذلك ، أن صلاح الدين لن يستطيع حشد قوات سوريا ومصر معا لقتال الصليبيين ، طالما تعرض جناح جيشه ومؤخرته لهجمات الموصل ، ولا بد له إذن من أن يسيطر على قوات الموصل ، ويدمجها فى قواته الإقليمية ، لنصرة الجهاد . ومن الواضح أن هذا الغرض لا يتحقق إلا بنزاع مسلح . غير أن صلاح الدين أبى أن يرفع السلاح فى وجه أقوام ، سوف يتخذ منهم حلفاء ، وأدرك أن الإقناع والمهارة السياسية يحرز بهما من النتائج ، ما لا يحرزه بالالتجاء إلى القتال والنضال ؛ وأحس صلاح الدين بما يحوزه من ميزة بالغة القيمة ، إذ أن دعوته بأنه الوارث الروحى لنور الدين استقرت وأضحت راسخة عند المسلمين ، كما أن القوى الأدبية التى كانت جانب نور الدين انحازت إلى جانبه . وعلى الرغم من أن مصالح الزنكيين ، تجد لها تأييداً وتشجيعا بدافع الحماس المحلى والتقليد الحربى ، فإن صلاح الدين اكتسب تأييد الحزب القوى فى كل من حلب والموصل[2] .

وما وقع بين الزنكيين من منازعات ، وما حدث بينهم سرا وعلانية من اتصالات بالصليبيين ، قضى على آمالهم وأغراضهم ، بينما استطاع صلاح الدين بمهارته وكفايته أن يجعل الناس ينظرون إليه على أنه صاحب الحق الشرعى فى الحكم . وأفاد من سياسة نور الدين تجاه دمشق ، بمساندته الحزب الضعيف بها ، وبما تثيره انتصاراته من الحماس عند أهل المدينة ،

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٥٤ .

(٢) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٥٥ .

وبما اشتهر به من مراعاة ما فرضته المعاهدات من قيود والتزامات ، فضلا عن الاعتراف بما للخليفة العباسى من سيادة(١) .

والواقع أن تاريخ صلاح الدين فى الفترة الواقعة بين سنة ١١٧٩ ، وسنة ١١٨٥ ، ليس إلا سجلا لما أحرزه من تقدم مستمر لتحقيق هدفه الأساسى ، وهو اكتمال توحيد الجبهة الإسلامية . فما قام به من حملات ، وما أجراه من مفاوضات مع أمراء الجزيرة والزنكيين فى الموصل ، وما بعث به من الرسل إلى الخليفة ، كل ذلك لابد من تفصيله . وارتبط بهذا الاتجاه الأساسى فى سيرته ، حادثان آخران : الأول ، الحروب المستمرة ضد مملكة بيت المقدس ، والثانى ، مشاكل الإدارة الداخلية ، والعلاقات مع أقاربه وأمرائه(٢) . ولتوضيح ذلك ، يحسن معالجة كل أمر منها على حدة ؛

لما اطمأن قلج أرسلان (الثانى) سلطان السلاجقة فى آسيا الصغرى ، إلى أنه لم يعد ثمة خطر يهدد أملاكه من جهة الغرب ، بعد انتصاره على البيزنطيين ، أراد أن يمضى فيما جرى عليه من التوسع ، على أطراف الشام والفرات(٣) . فاغتنم فرصة اشتباك صلاح الدين سنة ١١٧٩ ، فى قتال اللاتين ، فأرسل إليه فى إعادة حصن رعبان إليه ، الذى كان أصلا من أملاك قلج أرسلان ، ثم استولى عليه نور الدين ، ولم يلبث صلاح الدين أن أخذه سنة ١١٧٦ من إسماعيل بن نور الدين(٤) . وأعقب

---

(١) Gibb : The Rise of Saladin p. 574.

(٢) Gibb : The Rise of Saladin p. 574.

(٣) Cahen : : op. cit. p. 420.

(٤) لما انتزع صلاح الدين بعلبك من يد ابن المقدم ، وجعلها لأخيه توران شاه سنة ١١٧٨ عوضه عنها بعرين وكفر طاب وقرى من بلد المعرة ، والراجح أنه أضاف إليه رعبان واستمر بيده إلى أن هاجمه قلج أرسلان سنة ١١٧٩ .

انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٧١ ، ٧٩ .

هذا الطلب بحملة أرسلها لمحاصرة هذا الحصن ، ولقى التأييد من إسماعيل صاحب حلب ، الذى انتهج سياسة التوفيق بين السلاجقة ، والتى تعلق بها أمراء حلب ، الذين تعرضوا للتهديد من جهة الجنوب[١] . غير أن تقى الدين عمر صاحب حماة استطاع أن يقهر الجيش السلجوقى ويرده خائبا[٢] .

وفى أوائل سنة ١١٨٠ ، نشب نزاع بين السلطان السلجوقى ، وبين نورالدين الأرتقى صاحب حصن كيفا ، حول مسألة داخلية[٣] . ومع أن نور الدين يدين بالولاء ، لأمير الموصل ، فإنه استنجد بصلاح الدين ليسانده ضد السلاجقة . ولعله توسل إلى ذلك بمعاهدة حلب المعقودة سنة ١١٧٦ ، التى سبق ذكرها[٤] . وهذه الفرصة ، كان يترقبها صلاح الدين ؛ إذ أن رغبته فى بسط سلطانه على الموصل ، تطلبت منه أولا أن ينزع من سيادة الموصل ، أمراء الجزيرة وديار بكر ، الذين يتألف من رجالهم ، أكثر من نصف جيش الموصل . وأقوى هؤلاء الأمراء ، أميرا حصن كيفا وماردين ، اللذان لم يقبلا مطلقا الخضوع لسيطرة الزنكيين ، وتقدما فعلا سنة ١١٧٨ ، إلى صلاح الدين يطلبان تأييده ومساعدته ضد تدابير السلطان السلجوقى العدائية[٥] . على أن صلاح الدين اغتنم الفرصة

---

(١) Cahen : op cit. p. 420.

(٢) Gibb : The Rise of Saladin p. 576.

Grousset : op. cit. II. p. 683.

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٧٩ .

(٣) هذه المسألة تتعلق بنزاع بين سلطان السلاجقة ، صهر نور الدين ، على ممتلكات تنازل عنها قلج أرسلان لنور الدين ، نتيجة المصاهرة . فلما أساء نور الدين إلى زوجته ، أراد قلج أرسلان أن ينتزع منه هذه البلاد — انظر

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٠٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٩٦ — ٩٧ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٤٤ — ٤٦ .

Gibb : The Rise of Saladin d. 570.

(٥) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٥٦ .

لتحقيق غرضه ، وليفرض سلطانه على ديار بكر . وبفضل الهدنة التى عقدها سنة ١١٨٠ ، مع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس ، تهيأت له الفرصة ، ليتوجه بجيشه إلى أطراف ممتلكات السلاجقة . والواقع ، أن صلاح الدين لم يقصد بتلك العمليات الحربية ، سوى إرغام قلج أرسلان على وقف استفزازاته وقبول وساطته . وأدت هذه الخطة إلى إحراز مكاسب لم يكن يتوقعها ، إذ تقابل صلاح الدين مع قلج أرسلان على نهر سنجه ، من فروع الفرات ، بالقرب من سموساط سنه ١١٨٠ ، وتم عقد تحالف بينهما كان له أهمية كبيرة لصلاح الدين فى السنوات التالية ، ودخل فى الصلح المواصلة وديار بكر ، وحلف الجميع على مراعاة السلام بينهم فى السنتين التاليتين[١] .

وأول ثمرة لهذا التحالف ، ما أحرزه صلاح الدين ، من الانتصارات على روبين الثالث ملك قليقية (أرمينيا) ، الذى حرص على توثيق التحالف بين الأرمن واللاتين ، وباستيلائه على مامسترا وأدنة من البيزنطيين ، زاد فى قوة دولة قليقية . وباعتبار صلاح الدين بطل الإسلام ، لم يسعه إغفال هذا الخصم الجديد ، ففى سنة ١١٨٠ ، اغتنم فرصة ما قام به روبين من إساءة معاملة القبائل التركمانية فى بلاده[٢] ، فهاجم الملك الأرمنى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .
العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٥٧ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٤٣ - ٤٤ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

Runciman : op. cit. II. p. 422.

Gibb : The Rise of Saladin p. 576.

Grousset : op. cit. II. pp. 683

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٠٨ . ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٤٣ .

Grousset : op. cit. II. p. 684 .

وشن الغارات على بلاده ، فلم يسع روبين إلا أن يلتمس الصلح من صلاح الدين بأن يبذل إطلاق من عنده من الأسرى ، وإعادة أموالهم ، فقبل صلاح الدين هذا العرض ، وعاد إلى دمشق بعد تنفيذ هذه الشروط[١] .

على أن اهتمام صلاح الدين تركز فى أمور الإمارتين الزنكيتين . فالمعروف أن أملاك الزنكيين ، اقتسمها الصالح إسماعيل (١١٧٤ – ١١٨١) ، بن نور الدين ، أتابك حلب ، وبين ابن عمه سيف الدين غازى ، أتابك الموصل (١١٧٠ – ١١٨٠) . ولما مات غازى فى يونيه سنة ١١٨٠ ، لم يقبل أمراء الموصل أن يتولى الحكم من بعده ، إلا أخوه عز الدين مسعود ، نظراً لحداثة ابنه سنجر شاه ، ولما اشتهر به مسعود « من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس » ، يضاف إلى ذلك ما يتهدد الموصل من ازدياد سلطان صلاح الدين « الذى تمكن بالشام وقوى أمره[٢] » .

طلب مسعود إلى صلاح الدين أن يبقى فى يده من الأملاك ما كان بيد غازى ، وهى سروج والرها والرقة وحران ونصيبين ، غير أن صلاح الدين لم يجبه إلى ذلك . لأن هذه الجهات داخلة فى حوزته بموافقة الخليفة ، وأنه لم يتنازل عنها لغازى إلا مقابل تعهده بمساعدة صلاح الدين بجيوشه ، يضاف إلى ذلك حاجة صلاح الدين إلى قوات هذه البلاد فى حملاته ضد الصليبيين[٣] ؛ وأشار صلاح الدين فى كتابه إلى الخليفة الناصر لدين الله ، إلى أن هذه البلاد لم تزل تتقوى بها ثغور الشام ، التى ظل العسكر المصرى يدافع عنها مدة خمس سنين ، متحملا فى ذلك المشاق ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٠٦ .

(٣) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٥٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٩٤ – ٩٥ .

وغلاء الأسعار ، فضلا عما تتعرض له مصر من خطر أنصار الفاطميين فى الداخل ، وتهديد الروم والإفرنج من البر والبحر[١] . فلم يسع الخليفة إلا أن يستجيب لطلب صلاح الدين ، ويجعل له هذه البلاد[٢] .

وفى سنة ١١٨١ ، وأثناء وجود صلاح الدين بمصر ، قام ريجنالد شاتيون صاحب الكرك ، وهو من أشد الصليبيين عداوة للمسلمين ، بحشد قواته ، وعزم على المسير إلى تيماء ، والتوجه منها إلى المدينة للاستيلاء عليها . ولما علم بذلك نائب صلاح الدين بالشام ، وهو ابن أخيه ، المعروف باسم فرخشاه ، سار بالعساكر الدمشقية إلى الكرك ، وأخذ ينهب ويخرب جهاته ، وظل مرابطاً تجاه القوات الصليبية . ولما أدرك ريجنالد إصرار المسلمين على البقاء حتى يتفرق جمعه ، رجع عن عزمه ، وصرف جنده ، فعاد فرخشاه إلى دمشق[٣] .

واكتملت القطيعة مع الموصل بوفاة الصالح إسماعيل فى حلب فى ديسمبر سنة ١١٨١ ، بعد أن عهد بالحكم من بعده ، إلى مسعود أتابك

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٧ .

Gibb : The Rise of Saladin p. 575

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٩٥ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ؛ ص ١٠٤ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣١٠ .

Gibb : The Rise of Saladin p. 576

المعروف أن الهدنة التى عقدها صلاح الدين مع بلدوين الرابع سنة ١١٨٠ والتى تسرى على بيت المقدس ، تجيز للتجار المسلمين والمسيحيين حرية الانتقال بين بلاد الجانبين ، غير أن ريجنالد الذى لا يقر من السياسة إلا ما يتفق مع رغباته ، ساءه أن يشهد القوافل الإسلامية ، التى تحمل المتاجر القيمة ، تمر بالقرب منه آمنة مطمئنة ، وبذا دفعه إلى مهاجمة القافلة التى ترتاد الطريق من دمشق إلى مكة ، كراهيته للمسلمين ، وحب المغامرة والميل لنهب ما تحمله القافلة من السلع .

انظر Runciman : op. cit. II. p. 431. Wiet : op. cit. p. 318-319

Grousset : op. cit. II. pp. 701-702

الموصل ، « لكثرة عساكره ، وبلاده ، وأمواله فيستطيع أن يحفظ حلب من صلاح الدين ، وأن يبقى على البيت الزنكى[١] » . فاستولى مسعود على حلب ، وما بها من الذخائر والخزائن ؛ ونزل بقلعتها ، غير أنه أدرك أنه لا يستطيع حفظ حلب مع الموصل ، من صلاح الدين ، لا سيما بعد أن ألح عليه أمراؤها فى طلب الزيادات فى الإقطاعات ، وفى طلب الأموال ، مكافأة لهم على اختيارهم إياه . فتنازل عن حلب لابن عمه ، عماد الدين زنكى ، مقابل حصوله على إمارة سنجار ، فقدم عماد الدين إلى حلب سنة ١١٨٢ واستقر بها[٢] .

ولما بلغ صلاح الدين وفاة الصالح إسماعيل بحلب ، عزم على التوجه إلى الشام ، فكتب إلى تقى الدين عمر ، صاحب حماه ، يأمره بالتأهب والاستعداد ، وكاتب سائر نوابه بالشام ، وأرسل إلى الخليفة كتاباً يشير فيه ، إلى ما قام به الصليبيون فى أنطاكية من مهاجمة حارم ، وإغارة عسكر حلب على أملاكه ، واستنجاد الحلبيين بالفرنج ، ومراسلتهم للحشيشية ، بينما انصرف ابن أخيه ، فرخشاه إلى رد ريجنالد عن مهاجمة المدينة . وصار يردد ما قام به من القضاء على الدولة الفاطمية ، وإعادة الشعار العباسى بمصر ، فضلا عن أن الخليفة جعل حلب من البلاد التى قلدها له ، وأنه لم يتركها للصالح إسماعيل إلا من أجل أبيه نور الدين ، « والآن فليرجع كل ذى حق إلى حقه ، ليقنع برزقه[٣] » . وألمع إلى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٠٧ – ١٠٨

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٠٩ – ١١٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣١٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢١ – ٢٢ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٨٩ – ٩٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١١٠ – ١١٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٢ – ٢٣ .
Gibb : The Rise of Saladin p, 576

حرصه على مجاهدة « العدو الكافر »[١] .

وارتحل صلاح الدين إلى الإسكندرية ، وتفقد الأسوار التى جددها ، وأمر بهاء الدين قراقوش ، بإتمام السور الداير على مصر والقاهرة ، واطمأن بعد انعقاد الصلح بينه وبين الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الثانى ، على أن البيزنطيين سوف لا يسهمون بأسطولهم فى مهاجمة مصر ، وسادت منذئذ العلاقات الودية بين مصر وبيزنطة[٢] . وبعد أن تم الاستعداد لمسير الحملة ، غادر القاهرة فى مايو سنة ١١٨٢ ، فاتخذ طريقه على أيلة . ولما سمع الصليبيون بمسير السلطان ، وأن معه جماعة كبيرة من التجار ، اجتمعوا بالكرك ، لقربها من طريقهم ، لعلهم ينتهزون فرصة من القافلة . على أن صلاح الدين أخذ يقاتلهم فى الشوبك ، وصار يشن الغارات على ممتلكاتهم[٣] . والواقع أن ذلك لم يكن شغله الشاغل وقتذاك ، إذ تركزت أنظاره على شمال الشام .

عزم صلاح الدين على المسير إلى البلاد الشرقية ، وإلى حلب ، فبلغه أن المواصلة كاتبوا الصليبيين ، وعرضوا عليهم دفع إتاوة سنوية قدرها عشرة آلاف دينار ، وإعادة بانياس وحبيس جلدك إليهم ، وإطلاق من كان بحوزة صلاح الدين من الأسرى ، إذا هاجموا دمشق ، ليتحول صلاح الدين عن مهاجمتهم[٤] . وفى أثناء طريقه إلى حلب جاءه كوكبورى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١١١ .

Stevenson op. cit. p. 229

(٢) Stevenson : op. cit. II. p. 224

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١١٤ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٨ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١١٥ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٣١ .

Runciman : op. cit. II. p. 434.

صاحب حران ، وأشار عليه بعبور الفرات ، فسوف يلقى الترحيب أينما سار ، فرفع الحصار الذى فرضه على حلب ، ومضى فى سيره ، فى سبتمبر سنة ١١٨٢ ، بعد انقضاء الهدنة المعقودة بين الأمراء المسلمين ، متجهاً نحو الفرات وظل طوال هـذه الفترة على اتصال بالخليفة وأمراء الجزيرة[١] . فأشار فى كتابه إلى الخليفة ، ما تم الاتفاق عليه بين المواصلة واللاتين ، من مهاجمة أملاك صلاح الدين بالشام من جهتين ، وإلى ما اتخذه من التدابير الحربية ، ما يكفل المحافظة على هذه الممتلكات بأن استعان بابن أخيه فرخشاه ، والعسكر الشامى ، واستنهض أخاه من مصر إلى ما يليه من بلاد الكفرة . يضاف إلى ذلك ما حدث من انحياز أمراء حران ، وسروج ، والبيرة إليه ، « وتوالى كتب الأمراء الذين يأخذون إقطاعاتهم خدماً ومصانعات ، ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جبايات ومقاطعات ومكوساً وعشوراً واحتكارات ، يرغبون فى قدوم صلاح الدين إليهم »[٢] . وأفاد صلاح الدين من المنازعات بين أمراء الجزيرة ، بسبب أطماعهم الإقليمية ، وموقفهم من أتابك الموصل[٣] . فلما اجتاز الفرات عند البيرة كاتب « الملوك أصحاب الأطراف ، ووعدهم ، بأن من جاء مستسلماً سلمت بلاده على أن يكون من أجناد السلطان ، وأتباعه ومساعديه على جهاد

---

(١) Stevenson : op. cit. II. p. 229

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٣١ — ٣٢ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٤٥ .

(٣) كان كوكبورى صاحب حران ، وشهاب الدين الأرتقى صاحب البيرة ينتميان إلى أتابك الموصل ، فساءهما موقف الزنكيين من حركة الجهاد الدينى ، واستنجادهم بالصليبيين والإيقاع بين الأمراء بالجزيرة ، فتعرض أمير البيرة لاعتداء أمير ماردين ، فلم يسع كوكبورى إلا أن يدعو صلاح الدين لعبور الفرات .

انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣١٣ ، ٣١٧ ، ٣١٨ .

الكفرة[1] » ، فجاء إلى خدمته صاحب ماردين ، ورسول من قبل صاحب حصن كيفا معلنين إذعانهما . ولم يلبث صلاح الدين أن استولى على الرها والرقة وسروج وحران ونصيبين[2] .

لم يبق أمام صلاح الدين إلا أن يزحف على الموصل ذاتها ويحاصرها ؛ وبرر هذا العمل برسالة طويلة بعث بها إلى الخليفة ببغداد ، اتهم فيها أمراء الموصل بأنهم يدفعون الصليبيين إلى قتاله ، وأنهم ينزلون الظلم برعاياهم ، ويستنجدون بعدو الخليفة الأتابك السلجوقى فى فارس . واستبد اليأس بمسعود صاحب الموصل ، فصار يلتمس الحلفاء من كل جانب ، وأرسل المؤرخ ابن شداد يسأل الخليفة المساعدة ضد صلاح الدين . فأرسل الخليفة من قبله مبعوثاً ، هو شيخ الشيوخ ، ليتوسط بين الفريقين[3] . وجوهر الموضوع فى هذه المفاوضات لم يكن بأى حال من الأحوال قائماً على دعوى صلاح الدين فى امتلاك إمارة الموصل ، إنما دارت المحادثات حول الشروط

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣١٨ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٣٢ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١١٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١١٥ — ١١٨
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣١٨
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٣٢
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٤٨ — ٤٩ .
Gibb : The Rise of Saladin p. 576, Wiet : oP. cit. p. 319

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٢٢ — ١٢٣.
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٤٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٣٣ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٢٠ — ٣٢١.
Gibb : The Rise of Saladin p. 577



سورية الشمالية


A S R

التى بمقتضاها ينحاز أمير الموصل إلى صلاح الدين ، ويرسل إليه جيوشه ، لتسهم فى الجهاد ضد الصليبيين . غير أن الأمير الزنكى حرص على التمّسك بسيادته على حلب ، وأعلن استعداده لمساعدة أميرها ، حين يتعرض لخطر من الأخطار[1] .

وعلى الرغم من توقف المفاوضات ، وقبول صلاح الدين رفع الحصار عن الموصل ، فإنه أصر على ألا يترك إقليم الجزيرة إلا بعد أن يتم فتحه ، وأخطر الخليفة بما استقر عليه رأيه[2] . فاستولى على سنجار ، ودارا ، ثم سار إلى حران ، وإنما قصد بذلك كله ، تضييق الخناق على مسعود ، صاحب الموصل ؛ ومن الدليل على ذلك ما وجهه صلاح الدين من الرسائل العديدة إلى وزير بغداد ، وإلحاحه فيها ، على الحصول على تقليد بإمارة الموصل . وعلى الرغم من أن طلبه لم يتحقق ، فإنه استطاع أن يحصل من الخليفة على تقليد بإمارة آمد (ديار بكر)[3] .

وبادر صلاح الدين ، سنة ١١٨٣ ، بمنازلة حصون آمد المنيعة ، وكان صاحبها وقتذاك محمود بن ايكلدى ، آلت إليه من جهة سلاطين السلاجقة . نصب عليها صلاح الدين المناجيق وضايقها ، ولما أحس الناس بشدة الحصار ، ولم يأنسوا فى أميرهم الحرص على الدفاع عنهم ، تهاونوا فى القتال ، وجنحوا إلى السلامة ، فتسلم السلطان البلد فى ابريل سنة ١١٨٣ ، بعد حصار استمر ثلاثة أسابيع[4] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٢١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٣٢ — ١٣٣ .
(٢) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٦٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٢١ — ٣٢٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ح ٢ ، ص ٣٨ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٣٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٤٠ — ٤١ .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٣٥ .

وما اشتهر به صلاح الدين من السخاء والكرم والمروءة فى معاملة أمير آمد ، بعد هزيمته ، ثم تسليمه قلعة آمد بما احتوت عليه من الأموال والذخائر إلى ابن قرا أرسلان أمير حصن كيفا ، بعد أن وعده بذلك[١] ، يهدم أساس اتهام صلاح الدين بالطمع والأنانية ، وأشار صلاح الدين إلى هذا المعنى فى رسائله إلى الخليفة بعد الاستيلاء على آمد[٢] ، « فغض الخادم (صلاح الدين) كل عين ، عن عينه وورقه ، وصانه فى مخيمه من الفقر صيانته فى ذات سوره وخندقه ؛ واستوفى شرط الوفاء بما أعطاه من موثقه » ، ثم ذكر تسليمها إلى ابن قره أرسلان[٣] .

والسؤال الذى له أهميته فى شأن توحيد القوى الإسلامية هو لماذا لم يعط الخليفة تقليدا لصلاح الدين بالموصل ؟ . الواقع أن هذا الأمر وحده يعتبر القضية الأساسية فى سبيل توحيد كلمة المسلمين ، واستعادة بيت المقدس ، ويشير صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة ما لتقليده الموصل من أهمية فى اكتمال وحدة المسلمين « ولولا تقليد أمير المؤمنين ، لما فتح له الباب الذى قرعه . ؛ ولانالت يدمدت من مصر فأخذت آمد، ولو قبلت مسألته فى تقليد الموصل ، لكان قد ولجها وأخذها » ، وهو يتوقع فى جواب هذا الفتح ، أن يقلده الخليفة الموصل حتى تندمج مع إقليم الجزيرة فى ممتلكاته، « لأن هذه الجزيرة الصغيرة ليست إلا المنفذ المؤدى إلى إثارة الجزيرة الكبيرة (الشرق العربى) » « وهى دار الفرقة ومدار الشقة » ، وهى حد التقسيم ومركز المقاومة ،

= ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٢٤ - ٣٢٦

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٤٧ .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٢٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٣٦ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ٤٠ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٤٠ .

« فلو انتظمت فى السلك ، (أى فى سلسلة المحالفات التى جرت) ، لا نتظم جميع عسكر الإسلام ، فى دارالشرك ، ولكان الكفر يلقى بيديه ، وينقلب على عقبيه ويغشاه الإسلام من خلفه ومن بين يديه ، ويُغْزَى من مصر براً وبحراً ، ومن الشام سراً وجهرا ، ومن الجزيرة مداً وجزرا »[١].

وترتب على سقوط آمد فى يد صلاح الدين أن جاءت رسل ملوك الأطراف ، كل منهم يطلب الأمان لسيده ، ويلتمس منه أن يتخذه من جملة أنصاره . ومن هؤلاء الملوك صاحب ماردين ، وصاحب ميافارقين ، فاستجاب صلاح الدين لطلبهم[٢] .

الاستيلاء على حلب (١١٨٣) :

التفت صلاح الدين ، بعد أن دانت له آمد ، وأذعن له أمراء الجزيرة ، إلى تسوية حسابه مع حلب وأعمالها ، فاستولى سنة ١١٨٣ ، أثناء عودته من آمد ، على تل خالد ، وعينتاب ، من معاقل حلب الأمامية[٣]. ثم حاصر صلاح الدين حلب ، وهرع إليه العساكر من أطراف دولته . وأحب أن ينال حلب من غير قتال ، فأنفذ رسله إلى أميرها عماد الدين زنكى (الثانى) ، وتحقق له ما أراد . إذ أن عماد الدين حين أدرك انصراف الحلبيين عنه ، لما اشتهر به من البخل وعدم البذل ،

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٤١، ٤٩ .

Gibb : The Rise of Saladin p. 579

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٣٦ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٢٦ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٤٢ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٣٩ .

مال إلى تسليم حلب إلى صلاح الدين ، مقابل الحصول على سنجار . فأجابه السلطان إلى ذلك ، بل إنه زاد على طلبه الخابور ، ونصيبين ، والرقة ، وسروج ، واشترط عليه إرسال العساكر فى خدمة الغزاة ، لأن صلاح الدين اعتبر النورية هم جند الجهاد ، الذين أدوا فيما مضى خدمات جليلة للإسلام ، واسترعى انتباهه فروسيتهم[١]. ولما تم الأمر سراً بين صلاح الدين وعماد الدين ، عرض زنكى الأمر على الأمراء ، فأحبوا أن يستوثقوا من نوايا صلاح الدين ، فأنفذوا إليه من الرسل ما استحلفوه للعسكر ولأهل البلد ، فحلف لهم ولعماد الدين فى يونيه ١١٨٣ . وخرجت العساكر لخدمة صلاح الدين ، وخلع على مقدميهم ، وطيب قلوبهم ، ولم يخرج عن إجماعهم إلا أمير حارم الذى اعتصم بقلعته ، وأرسل إلى الصليبيين بأنطاكية يطلب منهم المساعدة ، غير أن أجناده وثبوا عليه ، وألقوا به فى السجن ، وطلبوا من صلاح الدين الأمان ، فاستجاب لهم ، وبذلك استقر لصلاح الدين أمر حلب ، فى ٢٢ يونيه ١١٨٣ ، فعين عليها ابنه الظاهر غازى[٢] .

وتردد فى رسائل صلاح الدين الإشارات إلى أهمية استيلائه على حلب فى حركة الجهاد ضد الصليبيين وتوحيد القوى الإسلامية[٣] . ولما

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٤١ – ١٤٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٤٢ – ٤٦ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٢٧ – ٣٢٨ .
Grousset : op. cit. II. p. 720-721
Cahen : op. cit. p. 421

(٣) من هذه الإشارات « إن مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها ، ومناظرتها للعدو ولا نضرتها ، وأن يعظم فى العدو الكافر نكايتها ، لا أن تعذق بالولى المسلم ولايتها ... وشرطنا على عماد الدين النجدة فى أوقاتها ، والمظاهرة على العدالة عند ملاقاتها ... ومنها أن حلب هى مفتاح البلاد ... »
انظر أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٤٣ – ٤٥ .

صعد صلاح الدين إلى قلعة حلب ، أظهر من السعادة ما عبر عنه بقوله : « والله ما سررت بفتح مدينة ، كسروری بفتح هذه المدينة ، والآن قد تبينت أننى أملك البلاد ، وعلمت أن ملكى قد استقر وثبت[1] » . وفى رسالته إلى الخليفة ما يشير إلى عزمه وحرصه على اكتمال الوحدة الإسلامية ، فيذكر عند تسلمه حلب إنه « لا يؤثر إلا أن تكون كلمة الله هى العليا لا غير ، وثغور المسلمين لها الرعاية ولا ضير ، ولا نختار إلا أن تفد جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها ، لا متحاسدة بعتوها ، ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة ، لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين ، وإنما أمور الحرب لا تحتمل فى التدبير إلا الوحدة »[2]. ولما طلب إليه عماد الدين زنكى (الثانى) أن يصالح المواصلة ، اشترط « على المواصلة المعونة بعسكرهم فى غزواته ، والخروج من المظالم ، فالمقاصد الثلاثة ، الجهاد فى سبيل الله والكف عن مظالم عباد الله ، والطاعة لخليفة الله ، هى مراد الخادم (صلاح الدين) من البلاد إذا فتحها »[3].

وإذ قوى مركز صلاح الدين ، وازدادت الجبهة الإسلامية تماسكا ، اشتدت مخاوف الصليبيين ، لما يتوقعونه من حلول أشد الكوارث بهم . فالواضح عند الصليبيين ، أنه متى اندمجت حلب فى أملاك صلاح الدين ، حاط بلادهم من سلطانه وقوته ، ما يجعلهم محاصرين من كل جانب ، ولذا بذلوا كل جهد فى تدعيم وتعزيز استحكامات مدنهم وبلادهم ، لاسيما تلك المواضع القريبة من حدود أملاك صلاح الدين . وزادوا أيضا من الاهتمام بتدعيم استحكامات بيروت الدفاعية ، بعد أن لمسوا ما بها من ضعف ، وكان أمير أنطاكية أشد الأمراء جزعا وقلقا ، لمتاخمة بلاده

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٤٥ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٤٨ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٤٨ .

أراضى خصم عنيف[١]. ولما تبين لبوهمند الثالث أمير أنطاكية ، عجز ملك بيت المقدس عن مساندته ، وما تتعرض له إمارته من تهديد من قبل صلاح الدين ، اتخذ من الأساليب السياسية ، بأن أطلق سراح جماعة من أسرى المسلمين والتمس العفو من صلاح الدين ، يضاف إلى ذلك أن الأحوال فى فلسطين ، تطلبت من صلاح الدين القدوم لمعالجتها ، كل ذلك حمله على أن يعقد هدنة مع أمير أنطاكية[٢]. وبعد أن رتب صلاح الدين أمر حكومة حلب ، وأمر بإزالة المكوس المفروضة عليها[٣] ، وفرغ من تقرير قواعدها وأحوالها وديوانها ، وأقطع أعمالها ، وأرسل منها جمع العساكر من جميع بلاده[٤] ، خرج بهم قاصدا دمشق ، فبلغها فى ٢٤ أغسطس ١١٨٣[٥] .

أصبح صلاح الدين فى مركز يساعده على الانتقام من الصليبيين فى بيت المقدس لما قاموا به أثناء غيابه بالجزيرة من إغارات على أملاك المسلمين ، لا سيما ما قام به ريجنالد أمير الكرك من الإغارات فى بلاد العرب والبحر الأحمر ، وذلك بفضل ما جرى من ازدياد قواته ،

---

(١) William of Tyre : op. cit. II, p. 460

Grousset : op. cit. II. p. 721

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٤٧ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٢٨ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٤٧ .

Grousset : op. cit. II. p. 721-722

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٤٧ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٢٩ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٤٧ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٤٨ .

Stevenson : op. cit. p. 232.

بمن انضم إليهم من الحلبيين ، وجند الجزيرة ، وفرسان التركمان ، والمتطوعة والقوات الإضافية ، فضلا عن تأييد الخليفة له فيما عزم عليه من المضى لجهاد الصليبيين[١] ، فصار يتعقبهم أينما وجدهم ، ويحرضهم على الخروج لملاقاته ، بكثرة مهاجماته لبلادهم وتخريب ديارهم ، غير أنهم تجنبوا الدخول معه فى معركة حاسمة[٢] . ويشير القاضى الفاضل فى كتاب السلطان إلى الخليفة إلى انتصارات صلاح الدين وعساكره ، وما حل ببلاد اللاتين من الخراب ، « بأن كتبوا عليها الخراب ، وكأن السيف كان فيها قلما »[٣] .

على أن محاولة ريجنالد شاتيون مهاجمة المدن الإسلامية بحراً ، لفتت نظر صلاح الدين إلى الخطر الذى يهدد دولته بمصر والشام ، لمايقع بين الإقليمين من حصنين منيعين للفرنج ، وهما الكرك والشوبك ، فتوجه فى نوفمبر سنة ١١٨٣ لمنازلة الكرك[٤] ، وكتب إلى أخيه العادل نائبه بمصر

---

(١) وفى رسالة للسلطان ، إشارة إلى ما تجمع له من أسباب القوة « ولما لم يبق فى البلاد الإسلامية إلا ما هو فى يدنا ، أو يد مطيع لنا ، كان من شكر هذه النعمة أن تصرف القوة للفرنج الملاعين ، فننازلهم وننازعهم ، فنطهر الأرض المقدسة من رجسهم بدمائهم ، إلى أن ترق السيوف للصخرة الشريفة ، لما مر بها من قسوة كفرهم واعتدائهم، فنحن نرجو أن نكون عين الطائفة من الأمة ، التى أخبر نبينا ، صلوات الله عليه ، أنها لا تزال على الحق ظاهرة ، وبثواب الله وعدوه ظاهرة » .

انظر أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٤٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٤٧ – ١٥١ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٥٠ – ٥١ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥٠ – ٥١ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٣٠ .

Gibb : The Rise of Saladin p. 579

Stevenson : op cit. p. 233. Grousset : op. cit. II. pp. 722-729

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٥١ .

(٤) من الملحوظ أن هجوم صلاح الدين على الحصن أعقبما حدث من الاحتفال بزواج =

يطلب إليه القدوم بالعساكر لمساندته ، واشتدت مضايقة صلاح الدين للحصن ، فصارت المجانيق ترميه بالحجارة ليلا ونهاراً ، واستبد اليأس بالمحتشدين داخل الحصن ، وتوقعوا اقتحامه بين آونة وأخرى ، غير أن صلاح الدين لم يلبث أن انسحب راجعاً إلى دمشق ، بعد أن قدمت الأمداد للحصن بقيادة ريموند الثالث صاحب طرابلس فى ديسمبر سنة ١١٨٣[١] .

وفى تلك الأثناء سنة ١١٨٣ جرت محاولة جديدة لحل مشكلة الموصل بالمفاوضات ، وبدأت هذه المحاولة من جانب مسعود أمير الموصل ، بعد أن تبين له أن أمراء جزيرة ابن عمر ، وأربل وتكريت والحديثة ، الذين ينتمون إليه خرجوا على طاعته ، ولجأوا إلى صلاح الدين يطلبون منه حمايتهم ، فقبل مساعدتهم[٢] . فالتمس مسعود من الخليفة أن يتوسط ، للمرة الثانية ، فى تسوية النزاع بينه وبين صلاح الدين ، وأسفر فى ذلك أيضاً المؤرخ ابن شداد ، الذى اقترح أن يكون شيخ الشيوخ مبعوث الخليفة لدى صلاح الدين ، لما له من المكانة عندهما[٣] . غير أن المفاوضات لم تلبث أن فشلت ، بل ازداد الموقف سوءاً ، لأن مسعودا لم يرض

= همفرى ، ابن زوجة ريجنالد ، وصاحب تبنين ، من أخت الملك الصغيرة ، فاحتشد فى الحصن عدد كبير من الفرنج القادمين من سائر الجهات ، لحضور الاحتفال .

انظر : William of Tyre : op. II. p. 499

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٣٠ – ٣٣٢ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥١ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٥١ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٥٢ .

Grousset : op. cit. II. pp. 736-738

William of Tyre : op. cit. II. pp. 498-501,503-504

Stevenson : op. cit. pp. 233-234

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٥٤ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٣١ – ٣٣٢ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥١ .

بما اشترطه صلاح الدين ، من أن يكون لأميرى إربل والجزيرة ، حق الاختيار فى الانتماء إليه أو إلى صاحب الموصل ، فكان لزاماً على صلاح الدين أن يعود لمهاجمة الموصل[١] .

على أن صلاح الدين أصر على مهاجمة الكرك مرة أخرى ، لما ألحقه بالمسلمين من خطر وأذى ، « فإنه كان يمنع عن قصد مصر ، بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة ، فاهتم السلطان بأمره ، لتكون الطريق سابلة[٢] » . واجتمع إلى العساكر المصرية والشامية لمهاجمة الحصن ، عساكر الجزيرة مع قره أرسلان صاحب حصن كيفا وآمد . ودل اشتراك قرة أرسلان بجيوشه فى هذه الحملة ، على اعتراف أمراء الأطراف بالتبعية الكاملة لصلاح الدين[٣] . على أن قدوم ريموند الثالث ، كونت طرابلس بأمداد ضخمة حمل صلاح الدين على رفع الحصار ، والمسير إلى نابلس ، ونهب كل ما يقع على طريقه من بلاد ، فتعرضت نابلس وسبسطيه وجنين وغيرها ، للنهب والتخريب ، ثم عاد إلى دمشق فى سبتمبر سنة ١١٨٤ ، فلقى بها رسول الخليفة ، شيخ الشيوخ ، يحمل

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥٢ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٥٤ – ١٥٦ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٥٣ .

والملحوظ أن العلاقة توطدت بين صلاح الدين وابن شداد ، وحرص صلاح الدين على أن يعينه فى منصب بمصر . وعلى الرغم من أن ابن شداد اعتذر عن قبول هذا المنصب فإنه أدرك تقدير صلاح الدين له ، فيشير إلى أنه « ثبت فى نفسه الشريفة منى أمر ، لم أعرفه إلا بعد خدمتى له » .

انظر : ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥٢ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٥٥ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥٣ .

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 739

إليه التقليد بالأقاليم الجديدة(١) ، ويتوسط من جديد فى أمر الصلح مع أمير الموصل(٢) .

على أن مشكلة الموصل لا زالت تثير قلق صلاح الدين ، لا سيما بعد أن استنجد أمير الموصل ، بأتابك فارس ، وأتابك أذربيجان ، فجاءه مدد عدته ثلاثة آلاف فارس ، فاستعد بذلك لمهاجمة إربل ، التى انحاز أميرها إلى صلاح الدين فلم يسع صلاح الدين إلا المسير إلى الموصل ومنازلتها(٣) .

وما حـــدث من وفاة بلدوين الرابع فى مارس سنة ١١٨٥ ، وانتقال الملك إلى ابنه الطفل بلدوين الخامس بوصاية ريموند الثالث ، الذى حرص على أن يتجنب الدخول فى معركة فاصلة مع صلاح الدين ، واكتفى فى كل حملاته باتخاذ خطة الدفاع ، وسعى إلى عقد هدنة معه ، كيما يبقى على الإمارات اللاتينية . وعجل بذلك ما ساد من الجفاف بلاد الشام ، ما يؤذن بحدوث مجاعة ؛ فوافق صلاح الدين على عقد هدنة لمدة أربع سنوات ، ليكفل بذلك تأمين مؤخرة جيوشه(٤) ، وليفض ما حدث من نزاع بين أقاربه فى مصر ، وليلتفت إلى قمع خصمه ، مسعود أمير الموصل . وأفاد اللاتين من هذه الهدنة بما تجدد من استئناف العلاقات

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥٣ – ٥٤ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .
ابو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٥٤ – ٥٦ .
Gibb: The Rise of Saladin p. 579
Grousset : op.cit. II. pp. 739-740

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٣٠ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥٤ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٣٧ – ٣٣٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٦٠ .

(٤) Grousset : op. cit. II. p. 760 761

التجارية بينهم وبين جيرانهم المسلمين ، وبما حصلوا على حاجتهم من القمح منهم[١] .

على أن ما وقع فى الشرق من أحداث سنة ١١٨٥ ، ١١٨٦ حمل صلاح الدين على أن يوجه اهتمامه إلى البلاد المشرقية ، على الرغم من تهديد السلطان السلجوقى قلج أرسلان له ، إذا هاجم الموصل وماردين[٢] . فلم يلبث صلاح الدين أن حشد قواته فى حلب ، فى أبريل سنة ١١٨٥ ؛ ونحتم على الموصل وحدها أن تواجه ما ينتظرها من المصير . إذ أن صلاح الدين أرسل إلى الخليفة ، بما عزم عليه من منازلة الموصل ، وأشار إلى أن أهل الموصل يخطبون لطغرل السلجوقى ، سلطان العجم ، وينقشون السكة باسمه ، وأنهم يراسلون الصليبيين ويحرضونهم على مهاجمة بلاد المسلمين ، وأنه لم يأت إلى هذه الجهات ، رغبة فى ازدياد ملكه أو التخلص من البيت الزنكى ، إنما قصد أن يردهم إلى طاعة الخليفة ، ونصرة الإسلام ، ومنعهم من ارتكاب الظلم ، وانتهاك المحارم ، وقطعهم عن مواصلة السلاجقة بالعجم ، وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم[٣] .

---

(١) Runciman : op. cit. II. p. 445.

(٢) الواضح أنه حدث وقتذاك تقارب بين صلاح الدين وبيزنطة ، ودارت المفاوضات بين الجانبين على اقتسام غرب آسيا ، وتسوية الحدود إلى ما كانت عليه فى القرن الحادى عشر ، واستخدام رجال الدين اليونانيين فى البلاد المقدسة . انظر :

Cahen : op. cit. P. 424-425.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥٥ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٦٥ – ١٦٦ .
ابن واصل : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٦٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٦٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٣٨ – ٣٣٩ .

Wiet : op. cit p. 320. Gibb : The Rise of Saladin p. 580
Grousset : op. cit. II. p. 762
Runciman : op. cit. II. p. 445

وفى أثناء الحصار الذى فرضه صلاح الدين على الموصل ، لم يستمع لما عرضه مسعود ، من شروط الصلح وتعاهده بإنجاده بالعساكر[١] . غير أن صلاح الدين لم يلبث أن تحرك شمالا ، بعد أن علم بوفاة ابن قره أرسلان صاحب حصن كيفا وآمد ، وسقمان صاحب ماردين ، للمحافظة على أملاكهما ، وكتب إلى الخليفة يطلب منه تقليدا ببلاد الأرمن ودياربكر والموصل ، غير أنه لم يصله إلا تقليد بدياربكر بعد أن استولى على ميافارقين ؛ وتجدد الولاء له فى هذه الجهات[٢] .

الصلح بين صلاح الدين وأمير الموصل — اكتمال الوحدة الإسلامية :

وبعد أن فرغ صلاح الدين من تدبير أمور هذه الأطراف ، نزل على دجلة سنة ١١٨٥ ، حتى ينقضى الشتاء ، فدهمه المرض ، فمضى فى طريقه إلى حران ، واغتنم مسعود هذه الفرصة ، وأوفد إليه ابن شداد ، للتفاوض فى عقد الصلح بينهما ، بعد أن يئس مسعود من مساندة الخليفة وسلاجقة العجم[٣] . واستقر الصلح على قاعدة أن يتسلم صلاح الدين ، شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها ، والبوازيج والرستاق ، ومواضع أخرى ، مقابل إبقاء مسعود فى الموصل وتوابعها وما كان بين النهرين ، من أملاك سنجرشاه على أن « يكون (مسعود) بحكمنا ، وينفذ عسكره إلى خدمتنا ، وتكون الخطبة والسكة باسمنا ، وأن يطلق المظالم ، ولا يرتكب المآثم[٤] » . فحصل بذلك

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٦٣ — ٦٤ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٦٩ — ١٧٠ .
Runciman : op. cit. II. p. 445.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥٦ — ٥٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٦٤ — ٦٥ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٧١ — ١٧٢ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٦٤ .

لصلاح الدين ، من صاحب الموصل ، ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطاعة والسكة والخطبة « وعمت الهيبة والرهبة والعزائم إلى الجهاد فى سبيل الله ، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع[١] » . وتم الصلح فى مارس سنة ١١٨٦ وحلف كل من صلاح الدين وأخيه العادل على ما تقرر من قواعد الصلح[٢] . ولم يكف صلاح الدين أثناء مرضه بحران عن الإشارة إلى عزمه على فتح البيت المقدس ، وأنه سوف يمضى فى قتال أعداء الله ، والجهاد فى سبيله ، وإنجاد أهل الإسلام ، وعاد السلطان بعد شفائه إلى دمشق فى مايو سنة ١١٨٦[٣] .

والتزم كل من مسعود وصلاح الدين بقواعد الصلح ، وجرى تبادل الهدايا بينهما ، وتجهز المواصلة للجهاد ، وبذا تحقق لصلاح الدين أمله الكبير فى توحيد القوى الإسلامية تحت زعامته ، ولم يعد أمامه إلا أن يواصل القتال ضد الصليبيين ، والعمل على استئصال شأفتهم[٤] .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٦٤ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٤١ .
(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥٦ – ٥٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٦٥ .
(٣) أبو شامة كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٦٥
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢ ص ١٧٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٦٥ .

الفصل الثالث عشر

صلاح الدين والصليبيون

١١٧٤ – ١١٨٩

درسنا سياسة صلاح الدين منذ البداية على أنه وزير لآخر الخلفاء الفاطميين ، وجرى الوقوف على ما كان لوضعه فى مصر وعلاقته بنور الدين وقتذاك من أثر فيما اتخذه لنفسه من سياسة ترمى إلى إقامة دولة أيوبية ، مع المحافظة على ما يربطه بنور الدين من صلات . وفى المرحلة الثالثة التى تبدأ من وفاة نور الدين ، وبفضل ما تشبع به من فكرة الجهاد الدينى ، حرص على توحيد الإقليمين المصرى والشامى ، والإفادة من مواردهما المالية والبشرية فى تحقيق الهدف الكبير ، وهو مهاجمة الصليبيين وإزالة ملكهم . فما كاد صلاح الدين ينتهى من توحيد القوى الإسلامية تحت زعامته ، ويأمن عدم تعرض مؤخرة جيوشه لهجوم مفاجئ ، ويتم تطويق الإمارات الصليبية ، حتى تأهب لقتال الصليبيين .

والواقع أن صلاح الدين لم يغفل أمر قتال الصليبيين مطلقاً ، على الرغم من أنه لم يقم حتى ذلك الحين ، سنة ١١٨٥ ، بحرب حاسمة لفتح بلادهم ، بل اكتفى بأن يكيل لهم الضربات ، وأن يمنع العدو من الاعتداء . ويكاد يجمع المؤرخون على أهمية ما قام به صلاح الدين من جهود فى سبيل الوحدة الإسلامية ، ويرون ضرورتها لتأدية الجهاد ضد الصليبيين ، ولذا عرض المؤرخون لها حسب ترتيبها التاريخى . على أنه يصح معالجة حملات صلاح الدين وتطورها حسبما وقفنا عليه من الروايات التاريخية الموثوق بها ، وما ورد من أخبارها فى المؤلفات المعاصرة .

فالمعروف أن صلاح الدين قام مرتين بمهاجمة إمارة الشوبك الصليبية ،

منذ أن حل بمصر ، وذلك فى سبتمبر سنة ١١٧١ وفى مايو سنة ١١٧٣ :
وعلى الرغم من أن هاتين الغارتين لم تسفرا عن تغيير فى الأوضاع القائمة ، فإن ذلك لم يقلل من أهميتهما ، نظراً لما لحق البلاد الإسلامية ، بسبب قيام الإمارات الصليبية ، من خسائر ، وما تعرضت له التجارة بين القاهرة ودمشق من أخطار . فكل انتصار يحرزه صلاح الدين على خصومه ، يزيد فى اطمئنانه إلى قوته ، ويكشف له عن عيوب أعدائه وأخطائهم :
فالحروب الصليبية ، جعلت لعاصمة الشام ، دمشق ، من الوضع الخطير ، ما حمل نور الدين على زيادة الرسوم الجمركية على القوافل التجارية القادمة من الجزيرة ، وذلك عند دخول المدينة والخروج منها ، ويدل على ذلك المرسوم الذى لا زال منقوشاً على أحد أبواب دمشق(١) . فخضعت القوافل المتجهة إلى مصر ، لنظام شديد الصرامة ، إذ أن قوات من حامية دمشق تتولى حراستها فى شطر من الطريق ، ثم يحل مكانها قوات مصرية تعتمد فى إرسال أخبارها على البريد وحمام الزاجل ، ويشير المقريزى إلى هذا الوضع ، بما أورده من أن صلاح الدين خرج سنة ١١٧٣ « بعساكره يريد بلاد الكرك والشوبك ، فإنه كلما بلغه عن قافلة ، أنها خرجت من الشام ، تريد مصر ، خرج إليها ليحميها من الفرنج ، فأراد التوسيع فى الطريق وتسهيلها»(٢) . ولعل هذا الهجوم ، إنما الغرض منه ، فيما يبدو ، أن يكتشف صلاح الدين الأماكن التى سوف يهاجمها(٣) .

---

(١) Wiet : op. cit. p. 320—321

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٥٠ .

Wite : op. cit. p. 321.

(٣) Wiet : op. cit. p. 319, 320

مايرويه بعض المؤرخين المسلمين ، من أن صلاح الدين لم يشأ أن يستولى على الشوبك ، بعد أن كاد يسقط فى يده ، خوفا أن يأخذه نور الدين ، فلم يبق ما يعوقه عن قصد مصر فبلغ نور الدين ذلك فكتمه ، وتوحش باطنه لصلاح الدين .

انظر . أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٥٤ .

تداعى مملكة بيت المقدس :

على أن الحوادث لم تلبث أن اتخذت اتجاهاً جديداً ، بعد الوصول إلى الإقليم الذى يتولاه ريجنالد شاتيون (أرناط) ، الذى جلب للمملكة اللاتينية ما حل بها من الكوارث ، لما قام به من حملات طائشة ، وما أثاره من تهديدات جوفاء ، فى الوقت الذى أعدت فيه مصر جيشاً من الطراز الأول . على أن ريجنالد اشتهر بمغامراته الحربية ، ولم يكترث بما تلتزمه العهود من قواعد ، ولم يحفل إلا بتحقيق أغراضه[1] . فالمعروف أن ريجنالد تزوج حوالى سنة ١١٧٧ ، بعد إطلاق سراحه من الأسر ، الذى استمر ستة عشرة سنة فى حلب ، من وريثة إمارة شرق الأردن[2] ، (الكرك) ، وكان لذلك الحدث أهمية بالغة ، ولا سيما لما اشتهر به من روح المخاطرة ، ومعاناة الحروب ، على حين أن نظم الملكية وتقاليدها فى بيت المقدس أضعف شأنها عجز الملك بلدوين الرابع المجذوم ، وضعف شخصية همفرى وجوسلين الثالث كورتناى[3] .

الواقع أن البارونات أسهموا فى إدارة مملكة بيت المقدس منذ البداية . وكلما ضعف الملك ، زاد نفوذ البارونات ، والواضح أن ما اشتهر به أملريك

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٦٧ .

(٢) المعرف أن فيليب دى ميلز Philippe de Milly ، الذى ظل حتى سنة ١١٦١ سيداً لإقطاع نابلس ، تخلى للملك بلدوين الثالث فى يولية ١١٦١ ، عن نابلس مقابل الحصول على الشوبك والكرك (شرق الأردن) . ولما سلك حوالى سنة ١١٦٧ ، بعد وفاة زوجته ، سبيل الداوية ، انتقل حصنا الشوبك والكرك إلى ابنته إتيين ؛ ومن الطبيعى أن يتصرف فى أملاكها ، السادة الذين أقبلوا على الزواج منها ، وهم همفرى الثالث صاحب تبنين ، الذى خضع له الحصون من ١١٦٧ إلىحوالى سنة ١١٧٢ ؛ وميلو دى بلانسى ، من ١١٧٢ حتى ١١٧٤ ، ثم ريجنالد شاتيون من ١١٧٧ — ١١٨٧ .

انظر : Grousset : op. cit. II. p. 699-700. note 2.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 700



الشرق الأدنى في القرن الثاني عشر
قبل استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس


A S R

من حكومة قديرة ، بالغة الكفاية ، تلاه على العرش ملكان اضطرب عهدهما ، وهما بلدوين الرابع (١١٧٤ - ١١٨٥) وبلدوين الخامس (١١٨٥ - ١١٨٦) . ونظراً لعجزهما ، إما بسبب سوء الصحة ، أو حداثة السن ، عن اضطلاعهما بالمسئولية التامة ، فإن سلطان البارونات طغى على الســلطة الملكية . فما أصاب الإدارة الحكومية من خلل واضطراب ، يرجع سببه إلى اختفاء التوازن بين أداتى الحكم ، وهما سلطة الملك والمحكمة العليا(١) .

وعلى الرغم من مرض الجذام الذى استنفد قوة بلدوين الرابع وأنهك صحته ، وأدى آخر الأمر إلى وفاته ، فإن ما اشتهر به من الذكاء والكفاية ، وما تلقاه عن مؤدبه وليم الصورى ، من الخبرة والفطانة ، ما جعله يدرك تماماً حاجات مملكة بيت المقدس . على أن اعتلال صحته أرغمه عادة على أن يتخلى عن مسئوليات الحكم لأوصياء عديدين . وأدى اختيار الأوصياء ، سواء من جانب الملك ، أو من جانب البارونات ، إلى انقسام المملكة إلى حزبين . حرص كل من الحزبين على أن ينفرد بتوجيه سياسة المملكة ، وكل منهما على أن يرعى مصالح أنصاره . والواقع أن وجود هذين الحزبين يرجع إلى حد كبير ، إلى الاختلاف الشديد فى وجهة النظر ، بين « البارونات المحليين » الذين استقروا منذ زمن بعيد ، وبين القادمين حديثاً من الغرب . إذ أن البارونات المحليين ، الذين حازوا الإقطاعات ، حرصوا دائماً على التزام سياسة متزنة فى الدفاع الحربى ، وعلى مراعاة توازن القوى ، بين الإمارات الإسلامية والإمارات اللاتينية . أما البارونات القادمون حديثاً من الغرب ، فلم يكونوا إلا مهاجرين ، مغامرين ، يبتغون الشهرة والثروة ؛ ويميلون إلى القتال . وزاد من نزوعهم للاعتداء والقتال ، ارتباطهم بالداوية والاسبتارية .

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 591

ولا شك أن العلاقات الشخصية ، العدائية أو الودية ، كان لها أثر فى الانحياز إلى أى الفريقين . وكيفما كان الأمر ، فإن هذين الحزبين جلبا على الدولة من الكوارث ما عجل بسقوط مملكة بيت المقدس[١] :

لم يتعرض بلدوين الرابع فى السنوات الأولى من حكمه لأزمة من الأزمات ، غير أن لهذه السنوات أهمية مزدوجة : تتمثل فى المشاكل الإدارية التى نجمت عن تدهور صحة الملك ، ثم بداية محاولات صلاح الدين للسيطرة على الشام . والمعروف أن ريموند الثالث ، كونت طرابلس ظل وصياً على الملك منذ سنة ١١٧٤ حتى سنة ١١٧٧ ، ولقى العون والتأييد من البارونات المحليين ، إذ أنه لم يكن إلا واحداً منهم[٢] . على أنه نظراً لسوء صحة الملك ، توقف مصير الأسرة الحاكمة على سبيلا أخت الملك الكبرى ، فتقرر التماس زوج لها ، فتزوجها وليم مونتفرات ١١٧٦ ، غير أنه مات سنة ١١٧٧ ، فأنجبت له بلدوين (الخامس) . وكان لا بد للمملكة من وصى آخر ، فوقع الاختيـــار ، على ريجنالد شاتيون ، سنة ١١٧٧ ، وتعاهد روبرت فلاندر ببذل المساعدة له . على أن الملك أنس من نفسه القوة والنشاط ، فباشر أمور الدولة فى الفترة الواقعة بين سنتى ١١٧٧ ، ١١٨٣[٣] .

لم يتحقق للصليبيين الأمل فى المحافظة على التوازن بين القوى الإسلامية المختلفة ، بالإيقاع بينها ، فما حـــدث من وفاة نور الدين سنة ١١٧٤ ، واستيلاء صلاح الدين على دمشق ، كان المرحلة الأولى فى تطويق الإمارات الصليبية ، وبذلك حبطت سياسة اللاتين التقليدية ، التى ترمى إلى اتخاذ جانب دمشق ، ضد خصومها فى مصر وشمال الشام ، وزاد الأمر سوءاً فى

---

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 591-592

(٢) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 592-593

(٣) Ibid : op. cit. p. 594

نظرهم ، ما أقدم عليه صلاح الدين من الاستيلاء على شمال الشام ، واعتراف الخليفة بسلطنته على مصر والشام(١) .

وترتب على هزيمة الدولة البيزنطية فى وقعة ميريوكيفالون فى سبتمبر سنة ١١٧٦ ، أن تعرض ميزان القوى فى الشرق الأدنى لضربة خطيرة ، إذ أن الإمبراطور البيزنطى ، مانويل كومنين أراد أن يحطم السيطرة التركية فى آسيا الصغرى ؛ وكان لهذه الهزيمة أثر كبير فى الشرق اللاتينى ؛ إذ تحطمت القوة العسكرية لبيزنطة ، وزال نفوذ بيزنطة من آسيا الصغرى ، ولم تحاول أن تفرض سيادتها على أنطاكية ، وتداعى التحالف بين بيزنطة والإمارات اللاتينية . وترتب على ذلك التخلى عن مشروع توجيه حملة مشتركة لمهاجمة مصر(٢) . وبوفاة مانويل سنة ١١٨٠ ، والكسيوس الثانى سنة ١١٨٣ ، خضعت الإمبراطورية البيزنطية لحكم أندرونيكوس كومنين سنة (١١٨٣ — ١١٨٥) ، الذى انصرف عن تأييده الأسرات الحربية التى ارتكنت قوة الإمبراطورية عليها ، ولم يكن لديه من القوة ما يدرأ ما تعرضت له الإمبراطورية من هجمات من الخارج ، وثورات وفتن داخلية(٣) . واعتبر أندرونيكوس الإمبراطور فردريك الهوهنشتاوفنى ، وملك صقلية ، من ألد أعداء الإمبراطورية البيزنطية ، وتوقع الهجوم من قبل الصقليين . وأراد أن يطمئن على سلامة الحدود الشرقية ، فاتخذ سياسة مخالفة لسياسة مانويل ، بأن عقد معاهدة مع صلاح الدين ، بمقتضاها أطلق يد صلاح الدين فى علاقته مع الصليبيين ، وتحالف معه ضد السلاجقة فى آسيا الصغرى ، وتضمنت هذه المعاهدة ، فيما يبدو الاتفاق على اقتسام

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 694.

(٢) Ibid : op. cit. p. 695

(٣) Hussey : Byzantium and the Crusaders, in Setton's : History of the Crusades II. p. 145-146.

ما يجرى مستقبلا من الفتوح ، وتحديد مواطن النفوذ[١] .

وما أحرزه صلاح الدين من انتصار على اللاتين ، سنة ١١٧٩ ، فى بيت يعقوب ، وما حدث من استيلاء الأسطول المصرى على جزيرة أرواد تجاه أنطرطوس ، وما تلى ذلك من الهجوم على طبرية فى مستهل سنة ١١٨٠ ، كل ذلك جعل بلدوين الرابع يلتمس عقد هدنة مع صلاح الدين ، ودخل فى هذه الهدنة ريموند كونت طرابلس بعد أن تعرضت بلاده لغارات مخربة . ومن أهم الشروط التى تمسك بها صلاح الدين ، الشرط الذى يتعلق بحرية التجارة ، وذلك لأن الطريق بين مصر والشام ، تعرض باستمرار للأخطار الناجمة عن القتال بين المسلمين والصليبيين ، وتولى العساكر أثناء الحروب حراسة القوافل التجارية[٢] .

وفى تلك الأثناء حاول بلدوين الرابع إقامة جبهة مسيحية متحدة ضد المسلمين ، فلما انتهى المؤرخ وليم الصورى من زيارة روما سنة ١١٧٩ ، لحضور مجمع اللاتران ، توجه إلى القسطنطينية ، لتأكيد التحالف بين بيزنطة واللاتين . وحرص روبين الأرمنى على توطيد تحالفه مع اللاتين ، فتزوج سنة ١١٨١ ، من ابنة ستيفانى صاحبة شرق الأردن ، بل إن السوريين اليعاقبة أعلنوا ولاءهم للجبهة المسيحية المتحدة ، ودل على هذه الرغبة ، التقاء المؤرخ ميخائيل السريانى بالملك بلدوين الرابع ، غير أن هذه الجهود لم تؤد إلى نتيجة مثمرة[٣] .

---

(١) Runciman : op. cit II. p. 437.
Hussey : op. cit. p. 146.
Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 595
Grousset : op. cit. II. pp. 748-751

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 422.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 422.
Grousset : op. cit. II. pp. 632-633.

اشتد القلق فى داخل المحكمة العليا ، لما يؤدى إليه مرض الملك من عجزه عن مباشرة الحكم بنفسه ، أو الاضطرار إلى نقل مسئولية الحكم إلى شخص آخر . وازداد هذا القلق والاضطراب فى الفـترة بين ١١٨٠ — ١١٨٢ ، بعد أن ابتعد موقتاً ، بسبب الهدنة ، الخطر الأجنبى ؛ والواقع أن هذه السنوات شهدت أول انقسام صريح بين الحزبين المتنافسين من البارونات[١] .

وحدث أول انفجار فى ربيع سنة ١١٨٠ ، بزواج سبيلا من جاى لوزجنان وهو من نبلاء بواتو ، ولم يكن نابها ، غير أن سبيلا عزمت على الزواج منه ، لما رأته فيه من الوسامة والجمال ، ولوقوعها تحت تأثير أمها أجنس كورتناى التى وقعت فى غرام مع أخيه أملريك[٢] . وتحتم على الملك الموافقة على عقد الزواج فى إبريل ١١٨٠ ، بعد أن استشعر الخوف من ريموند الثالث كونت طرابلس ، وبوهمند الثالث أمير أنطاكية[٣] .

ومن الواضح أن هذا الزواج له أهميته ، بأن يجوز لجاى لوزجنان أن يتولى الوصاية ، وأن يلى الملك ، ورتب هذا الزواج بيت لوزجنان مع أجنس ، من أجل الوصول إلى السلطان ؛ والظفر بيد سبيلا[٤] . وكانت أجنس بالغة النفوذ ، شديد الميل إلى التآمر ، اغتنمت فرصة مرض ابنها بلدوين الرابع ، فساندت أقاربها وأصدقاءها ، وحرصت على تحقيق مصالحهم . فجعلت لأخيها جوزلين الثالث من بيت كورتناى ، إقطاعا فى

---

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 596

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 423.

(٣) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 597
William of Tyre : op. cit. II. p. 446

(٤) Grousset : op. cit. II pp. 688-690.
Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 597

عكا ، وحظى بعطفها أفراد بيت لوزجنان ، فتزوج جاى ابنتها سبيلا ، ورشحت هرقل ، رئيس أساقفة قيسارية ، ايكون بطريركا لبيت المقدس ١١٨٠ ، على الرغم من جهله . ولم يستطع الملك مقاومة نفوذ أمه ، فأضحت السلطة فى أيدى بيت كورتناى ، ولوزجنان ، وحلفائهما ، ريجنالد شاتيون ، والبطريرك . وزاد ذلك فى كراهية وليم الصورى لهذه « المرأة البغيضة المغلولة اليد » وسائر أنصارها[١] .

وظهر أيضا ، فى سنة ١١٨٢ ، ما لأجنس من تأثير مخرب مدمر . ففى تلك السنة ، توجه ريموند كونت طرابلس إلى بارونيته فى طبرية ، بعد أن غاب عنها نحو سنتين ، غير أن الملك منعه من اجتياز بلاده فى طريقه إلى إمارته ، وإلى هذا الحادث يشير وليم الصورى إلى أن جماعة من الناس أمثال أجنس وجوسلين ، من الحاقدين على الكونت ، استطاعوا أن يثيروا الملك على ريموند ، فاتهموه بأنه ينوى انتزاع العرش ؛ وبذلك توطدت سنة ١١٨٢ لهذه الفئة من الناس ما أقاموه لأنفسهم من سيطرة[٢] . على أن ما وضعوه من خطط ، لم يلبث أن أحبطها فئة من البارونات ، اشتهرت بخبرتها وتجربتها ، فحملوا الملك على أن يعيد النظر فى قراراته . ومن أشهر هؤلاء البارونات ، بلدوين صاحب الرملة ، وباليان صاحب يبنة ، وريجنالد صاحب صيدا وغيرهم ، وقبل الملك آخر الأمر أن يلتقى بريموند الذى أقنعه ببراءته[٣] .

---

(١) William of Tyre : op. cit. II. p. 460

المعروف أن همفرى الرابع صاحب تبنين ، تزوج أيضا من ايزابيلا ، أخت غير شقيقة للملك بلدوين الرابع . وكان همفرى ابن زوجة ريجنالد شاتيون ، ووريث إقطاع شرق الأردن . انظر :

Runciman : op. cit. II. p. 424.

(٢) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 598

(٣) Runciman : op. cit. II. pp. 425 426.

William of Tyre : op. cit II. p. 460

Grousset : op. cit. II. pp. 697-699.

والواضح أنه ظهر بمملكة بيت المقدس ، سنة ١١٨٢ ، حزبان متعاديان ، الأول وهو الذى يصح أن يعرف « بحزب البلاط » ، تألف من أقارب وأصدقاء أجنس واللوزجنان ، حاول فرض السيادة على الملك بلدوين الرابع . وتألف الجزء الآخر من البارونات المحليين الذين تطلعوا إلى ريموند الثالث ليكون زعيما لهم . وكل من الحزبين أراد تسيير سياسة الدولة ، إما عن طريق المحكمة العليا ، أو بالضغط على الملك والمبادرة إلى العمل . وما أصاب حزب البلاط من نجاح سنة ١١٨٠ ، لم يلبث أن أضاعه فى سنة ١١٨٢ بعد أن أعاد النبلاء المحليون تنظيم صفوفهم[١] .

وتعتبر سنة ١١٨٣ من السنوات الهامة فى تواريخ مملكة بيت المقدس ، وذلك لسببين : السبب الأول هو أن صلاح الدين باستيلائه على حلب سنة ١١٨٣ ، أتم تطويق الإمارات الصليبية على امتداد الساحل . أما السبب الثانى ما حدث من أزمة جديدة فى الأمور الداخلية فى بيت المقدس ، أضعف مقاومة المملكة[٢] . ذلك أن الهدنة المعقودة بين صلاح الدين وبلدوين الرابع سنة ١١٨٠ ، كفلت للتجار المسيحيين والمسلمين ، الحرية فى الانتقال إلى بلاد الفريقين ، وأدى ذلك إلى وفرة الأموال المستمدة من المكوس المقررة على المتاجر ، وأفاد منها كل من مملكة بيت المقدس والدولة الأيوبية . غير أن ريجنالد شاتيون ، الذى صارت له السيادة على الكرك ، فسيطر بذلك على طريق القوافل بين الشام ومصر ، وبين الشام وبلاد العرب ، ولم يحفل بالهدنة التى انعقدت سنة ١١٨٠ ، فانقض سنة ١١٨١ ، على قافلة ، بالقرب من واحة تيماء ، أثناء مسيرها إلى مكة ، فاستولى على ما تحمله من السلع . وأكثر من هذا حاول فعلا مهاجمة مكة والمدينة ، ولم يرجعه عن قصده ، إلا ما قام به فروخ شاه نائب صلاح الدين بدمشق من الإغارة على الكرك

---

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 598

(٢) Ibid : op. cit. p. 598

ونهب أراضيه(١) . واستولى أيضا على حصن حبيس جلدك ، الذى يطل على البلاد الإسلامية(٢) . وهنايصح أن نتساءل ما إذا كان صلاح الدين فكر وقتذاك فى القيام بهجوم شامل على الصليبيين ؟

الواقع أنه على الرغم من الحروب التى شنها صلاح الدين على الصليبيين سنة ١١٨٢ ، فى طبرية ونيسان ، والتفكير فى مهاجمة بيروت للاتصال بأسطوله الذى كان يقصدها ، فإنه ركز اهتمامه فى المضى إلى الشمال لاستكمال الوحدة الإسلامية . ولما علم بإغارات بلدوين الرابع على حوران وتخريبه بعض القرى ، وأشار عليه أصحابه بالعودة ، قال : « يخربون قرى ، ونملك عوضا عنها بلادا ، ثم نعود فنعمرها ونقوى على قصد بلادهم(٣) » .

أدرك اللاتين خطورة الموقف ، ومن الدليل على ذلك أنهم فرضوا على بيت المقدس ضريبة استثنائية للإنفاق منها على الدفاع ، وذلك فى فبراير سنة ١١٨٣(٤) . وفى تلك الأثناء احتشدت قوات صليبية ضخمة فى صفورية بالقرب من طبرية ، لصد ما تتوقعه من هجوم من قبل صلاح الدين . على

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٣
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٣ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣١٠ — ٣١١ .

Runciman : op. cit. II. p. 431.
Grousset : op. cit. II. pp. 701-702.
Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 599

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٤ — ١١٥
Wiet : op. cit. p. 323 Runciman : op. cit. II. p. 434

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٨

Gibb : The Rise of Saladin p. 581.
Baldwin : op. cit. p. 600. Wiet : op. cit. p. 323

(٤) أورد تفاصيل هذه الضريبة وليم الصورى .
William of Tyre : op. cit. II. pp. 486-489
Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 599

أنه حــدث وقتذاك أن اشتد المرض بالملك بلدوين ، فاستدعى إليه البارونات ، فأعلن ، بحضورهم ، ووجود أمه والبطريرك ، تعيين جاى لوزيجنان نائبا عنه ، مع احتفاظه باللقب الملكى ، وبمدينة بيت المقدس ، وبخراج سنوى قدره ألف قطعة ذهبية . ووعد جاى لوزيجنان ، بأنه لن يسعى ، طالما عاش الملك ، للحصول على التاج ، ولن ينتزع قلعة من قلاع الملك ، أو مدينة من الضياع العامة(١) . وعلى الرغم من أنه تحتم على البارونات أن يقسموا يمين التبعية لجاى لوزيجنان ، فإن كثيرا منهم لم يخفوا كراهيتهم وامتعاضهم ، فتجدد النزاع الداخلى فى وقت غير ملائم لكلا الحزبين(٢) .

وفى تلك الأثناء عاودت ريجنالد شاتيون فكرة مهاجمة مكة والمدينة ، فرأى أن يكون هجومه هذه المرة عن طريق البحر . ففى سنة ١١٨٢ جرت صناعة الأجزاء التى تتكون منها السفن ، وتم نقلها على الإبل إلى ساحل البحر الأحمر ، حيث فرغ من تركيبها وإنزالها فى أيله ، على رأس خليج العقبة ، وشحنها بالرجال وآلات الحرب . ولم تلبث أيله(٣) ، أن سقطت فى يده ، غير أن اللاتين لم يستطيعوا الاستيلاء على الحصن الواقع بجزيرة قريبة من أيله ، فأوقف ريجنالد سفينتين عندها لحصرها ، ومنع أهلها استقاء الماء ، بينما مضى البحارة ببقية الأسطول إلى عيذاب ، تجاه مكة ، فقطعوا طريق التجارة ، وأفسدوا فى السواحل ، ونهبوا البلاد الصغيرة الواقعة عليها ، واستولوا على ما صادفوه بعيذاب من السفن ومن بها من التجار ، القادمين بمتاجرهم من عدن والهند ، « وبغتوا الناس فى بلادهم على حين

---

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 599.
Runciman : op. cit. II p. 436.

(٢) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 599

(٣) المعروف أن صلاح الدين استولى على أيلة سنة ١١٧١ .
Runciman : op. cit. II. p. 436.

غفلة منهم ، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا ، لا تاجراً ولا محارباً »[١] .
وكان ريجنالد يقصد من وراء هذه الحملة ، « منع طريق الحاج عن حجه ، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن ، ويلم بسواحل الحجاز »[٢] . ونزل إلى البر فى عيذاب جماعة كبيرة من القرصان ، هاجموا قافلة ضخمة قادمة من وادى النيل إلى البحر الأحمر . واجتاز القرصان البحر الأحمر إلى ساحله الأسيوى ، فأشعلوا الحرائق فى السفن الراسية فى الحوراء ، وينبع ، من موانى المدينة ، ثم مضوا فى سيرهم إلى رابغ ، من موانى مكة ، فأغرقوا سفينة تقل حجاجا ، وتتجه إلى جده . وأخذوا مركبين مقبلين بتجار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة ، « وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها الإسلام ، ومن أعظمها أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وإخراجه من الضريح المقدس ، ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم »[٣] .

ولم يكد خبر هذه الحملة يصل إلى مصر ، حتى أمر العادل ، نائب السلطان ، بأن يعد الحاجب حسام الدين لؤلؤ ، قائد الأسطول ، السفن فى خليج السويس ويشحنها بالرجال . ثم سار إلى أيلة فظفر بالمركب الصليبى فأحرقه وأسر من فيه . ثم توجه إلى عيذاب ، فاكتشف أمر المراكب الصليبية ، فأخذ يطاردها ، حتى أوقع بهم وأطلق سراح المأسورين من التجار ، بساحل الحوراء . ولما أدركوا ما يتعرضون له من خطر المطاردة ، خرجوا إلى البر ، واعتصموا ببعض الشعاب ، فقاتلهم لؤلؤ أشد قتال ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٢٣ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٣٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ؛ ص ١٢٩- ١٣٠ .
(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٥٨ - ٦٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٣٠ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٢٣ .

فلقى أكثرهم مصرعهم ، ووقع الباقون أسرى ، فأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها عقوبة لما ارتكبوه من جناية وجرم ، بمحاولة انتهاك حرمة الأماكن الإسلامية المقدسة[١] .

وعلى الرغم من أن الحملات التى توجهت فى الشطر الأخير من سنة ١١٨٣ ، لقتال اللاتين ، لم تؤد إلى نتيجة حاسمة ، فإنها حملت الصليبيين على أن يتخذوا خطة الدفاع . وما حدث سنة ١١٨٤ من مهاجمة الكرك ، وما تلاها من الإغارة على فلسطين حقق غرضاً هاماً ، بأن اشترك فى القتال لأول مرة معظم جيوش صلاح الدين ، من مصر ، وحلب ، وحصن كيفا ودياربكر ، فتهيأت لها الفرصة للقيام بأعمال حربية مشتركة[٢] . وواصل الأسطول المصرى أيضاً نشاطه فى السنتين ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، إذ ظفر بسفينة صليبية فيها نحو ٣٠٠ من الفرنج بالسلاح التام ، ومعهم الأموال والسلاح إلى الصليبيين بالشرق[٣] . والتمس ريموند صاحب طرابلس والبارونات من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٢٣ – ٣٢٤ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٣٠ – ١٣٢
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٣٧
ووصف ابن جبير – وهو شاهد عيان– ما رآه بالإسكندرية فى أبريل سنة ١١٨٣ من اجتماع الناس لمعاينة الأسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم إلى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق .
انظر ابن جبير : الرحلة ص ٥٨ –٦٠

Runciman : op. cit. II. pp. 436-437
Grousset : op. cit. II. pp. 732-734
Wiet : op. cit. p. 323 Gibb : The Rise of Saladin p. 581
Stevenson : op. cit. p. 228-229

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٥٧ .
Gibb : The Rise of Saladin p. 582.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣١٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٤٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٣٩ – ١٤٠ .

صلاح الدين عقد هدنة بين الجانبين ، أفاد منها صلاح الدين ، فى توجيه حملته الأخيرة ، سنة ١١٨٥[١] .

ومع أن جيوش صلاح الدين التزمت بما انتهجته جيوش نور الدين من تنظيم ، فإنها اختلفت عنها فى ناحية هامة ، وهى أن العنصر الكردى غلب فى جيش صلاح الدين ، بينما تضاءلت أهمية العنصر التركى . وبفضل ما بذله العنصران من الولاء والتبعية له ، استطاع أن يحول دون وقوع التنافس والتخاصم بينهما ، وحرص صلاح الدين عند توزيع الإقطاعات ، أن يراعى التوازن بينهما . على أنه اختص أفراد أسرته بحكم الأقاليم ، وجعل لولاته ونوابه سلطة تكاد تكون مطلقة ، وكل ما طلبه منهم ، أن يلتزموا العدالة فى حكم الرعية ، وأن يسهموا فى نفقات الجهاد ، وأن يحرصوا على المضى فى إعداد جيوشهم وتوفير ما يلزمها من المؤن والذخائر ، حتى تبادر إلى تلبية الطلب عند الحاجة . وجعل كل ثقته فى هؤلاء الولاة والنواب ، ومن الطبيعى أن ينتظر منهم مقابل ذلك الولاء والإخلاص التام له[٢] .

والواضح أن الهدف الأساسى لصلاح الدين هو أن يوجه كل الجهود لحشد كل القوى لمهاجمة الصليبيين ، ولعل ما حدث سنة ١١٨٦ من إعادة توزيع حكومة الأقاليم بين أفراد أسرته ، وجعل مصر من نصيب ابنه العزيز عثمان ، بإشراف أخيه العادل ، وثيق الصلة بما أعده وقتذاك من الخطط ، ولاسيما أن تقى الدين عمر لم يكن فى كفاية العادل ، فتقرر استدعاؤه إلى دمشق[٣] .

---

(١) Gibb : The Rise of Saladin p. 582

(٢) Gibb : The Rise of Saladin p· 582

(٣) ابن الأثير : : الكامل ج ١١ ، ص ٣٤٤ – ٣٤٦ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٩١ – ٩٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٦٩ – ٧٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٧٨ – ١٨٤ .
Gibb : The Rise of Saladin p. 583.
Stevenson : op. cit. II. p. 239-240

لم يحفل المؤرخون حتى اليوم بما لجأ إليه صلاح الدين من استخدام طائفة أخرى من أنواع النشاط السياسى ، إلى جانب إعداد القوة المادية ، لتحقيق هذا الغرض ، فإلى أى حد استخدم صلاح الدين من أساليب الدبلوماسية ما يؤدى إلى عزل الفرنج فى الشام ، ويجعله فى وفاق أو صداقة مع كل خصم قوى للاتين ، وذلك قبل نشوب المعركة الحاسمة ، الواقع أن دبلوماسية صلاح الدين جرى توجيهها إلى جبهتين .

أدرك المسلمون فى مصر والشام ، ما للمصالح التجارية الإيطالية من أهمية فى بقاء الإمارات اللاتينية ، وما يحدث من تنافس بين المدن الإيطالية بيزا وجنوة والبندقية . ومنذ بداية حكم صلاح الدين ، بذل الجهود لجذب التجار الإيطاليين إلى مصر ، فحصل بذلك على فائدتين : الأولى ازدياد موارده ، والثانية إضعاف شأن تجارة الصليبيين ، ولا سيما إذا أدركنا أن صلاح الدين كان يسيطر على البحر الأحمر . وأدت هذه التجارة إلى الاهتمام بإعادة بناء الأسطول المصرى[١] . وفى الرسالة التى وجهها إلى الخليفة المستضئ سنة ١١٧٤ ، ما يشير إلى المعاهدات التجارية مع الإيطاليين ، من البنادقة والبيازنة والجنوية[٢] ، « فكل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة ، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده »[٣] .

---

(١) Gibb : The Rise of Saladin p, 584

(٢) وأقدم معاهدة انعقدت مع التجار الإيطاليين ، تلك التى عقدها صلاح الدين سنة ١١٧٣ مع البيازنة ، وظهرت أهميتها فى السنة التالية (١١٧٤) حين بذل البيازنة والتجار الأوربيون المساعدة للقوات المصرية فى قتال الصقليين الذين هاجموا الإسكندرية .

انظر : Gibb : The Rise of Saladin p. 584.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ، ص ٢٤٣ .

ومن أقوى العوامل التى خدمت غرض صلاح الدين ، ما دار من المفاوضات السياسية مع الإمبراطورية البيزنطية . فما بذله البيزنطيون من جهود لحمل اللاتين بالشام على التعاون معهم ، لمهاجمة مصر ، يؤلف خطراً مستمراً يهدد سلامة مصر ، وفى الوقت ذاته ، كان من العسير التفاهم معهم إلا بإثارة سلاجقة آسيا الصغرى ضدهم . وما أنزله قلج أرسلان سلطان السلاجقة ، بجيش مانويل ، الإمبراطور البيزنطى ، من هزيمة ساحقة سنة ١١٧٦ ، فى معركة مينوكيفالوم Mynocephalum ، أنهى مؤقتاً العداوة بين الفريقين[١] . ولما مات مانويل سنة ١١٨٠ ، شرع خلفاؤه فى إعادة العلاقات الودية مع صلاح الدين ، وتوطدت هذه العلاقة بالمعاهدة التى انعقدت سنة ١١٨١ . وكلما ساءت العلاقات بين اللاتين والبيزنطيين ، تحسنت العلاقات بين صلاح الدين والبيزنطيين . ولا شك أن علاقات الصداقة بين المسلمين والبيزنطيين كان لها ما يبررها . وأثبت البيزنطيون نيتهم الطيبة ، بأن أجازوا لصلاح الدين أن يقوم بعمارة المسجد بالقسطنطينية ، باسم الخليفة العباسى[٢] .

لم تنته سنة ١١٨٦ ، حتى أصبح صلاح الدين مستعداً لمهاجمة اللاتين ففى مارس سنة ١١٨٦ عقد معاهدة مع الموصل ، لتسوية ما بينهما من المنازعات ، ووجه أمير حلب لعقد هدنة مع أمير أنطاكية ، حتى يتيسر

---

(١) Gibb : The Rise of Saladin p. 584.
Runciman : op. cit. II. p. 412

(٢) Gibb : The Rise of Saladin p. 584

وتقرر فى هذه المعاهدة ، أن صار لصلاح الدين مطلق الحرية ، فى التصرف مع اللاتين ، مقابل تحالفه مع بيزنطة ، ضد السلاجقة بآسيا الصغرى ، وجرى أيضاً الاتفاق على تحديد مناطق النفوذ بين الجانبين فيما يحدث مستقبلا من الفتوح .

انظر : Runciman : op. cit. II. p. 429.
Grousset : op. cit. II. pp. 748-751

له القدوم بالعساكر ، للانحياز إلى صلاح الدين[1] . ولم يبق إلا أن تتهيأ الفرصة للقيام بهجوم شامل ، غير أنه لم يزل متقيداً بالمعاهدة التى عقدها سنة ١١٨٥ مع ريموند ، وكان لزاماً عليه أن ينتظر حتى يحين الوقت الذى تنقضى فيه المعاهدة . فالمعروف أن بلدوين الرابع ، عزل جاى لوزجنان من النيابة عنه وأنكر حقوقه فى ولاية العرش بعد زواجه من سيبل ، شقيقته ، وتوج بلدوين الخامس ، ابن سيبل من زوجها الأول ، فى مارس سنة ١١٨٥ ، بحضور رجال الدين والبارونات ، ولم يتجاوز بلدوين وقتذاك السادسة من عمره[2] . وعلى الرغم من أن البطريرك ومقدمى الداوية والاسبتارية ساندوا جاى لوزيجنان ، فإن الملك والبارونات أصروا على قرار عزله ، وتعيين ريموند الثالث وصياً على بلدوين (الخامس) ، كى يتوطد مركزه . وبذا استعاد ريموند ما كان له من مكانة ، وانتصر البارونات المحليون ، الذين يمثلهم ريموند ، واستردوا ما كان لهم من نفوذ . وزاد من مكانة ريموند أن تقرر أن تكون وصايته لمدة عشرة سنوات ، وأن يحصل على بيروت وخراجها ، فإذا مات الملك بلدوين (الخامس) قبل أن يبلغ العاشرة ، يظل ريموند فى منصبه حتى يتم اختيار ملك جديد ، بمساعى إمبراطور ألمانيا وملكى انجلترا وفرنسا[3] ، على أن هذه التسوية لم يرض عنها الحزبان المتنافسان[4] . اتحد البارونات المحليون لمقاومة جاى لوزيجنان

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ص ١٨٨ .

Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 608

(٢) Runciman : op. cit. II p. 439-443

Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 600

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 443.

Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 601

(٤) حدث التنازع بين هذين الحزبين عقب إنشائهما سنة ١١٨٠ ، فتنافسا على فرض السيطرة على مملكة بيت المقدس . وزاد فى الخصومة بينهما ما وقع من الأحداث سنتى ١١٨٣ ، ١١٨٤ وأصبحت زعامة البارونات المحليين لريموند كونت طرابلس ١١٨٣ ، لما اشتهر به من =

وأنصاره ، ودفعهم إلى ذلك أسباب شخصية ، وأمور تتعلق بالسياسة العامة . فباعتبارهم أرباب الإقطاعات التى استقروا بها منذ زمن طويل ، لم يكن جاى لوزيجنان فى نظرهم سوى مغامر ، حديث الجاه ومن الطبيعى أن يستشعروا الخوف على مصالحهم بارتقاء جاى العرش . يضاف إلى ذلك أن البارونات المحليين يؤثرون اتخاذ خطة الدفاع ، وينكرون ما اتصف به المغامرون القادمون حديثا ، من التهور والاندفاع وراء الكسب والغنيمة[1] .

ولقى جاى لوزيجنان التأييد من سيبل وأجنس وجوسلين كورتناى ، القيم على بلدوين الخامس ، وأملريك لوزيجنان والبطريرك ؛ ومقدمى الداوية والاسبتارية[2] . ولعل السر فى انحياز مقدمى الاسبتارية والداوية إلى جاى ، أنه بذل لهما وعوداً سخية ، وأنهما يعارضان ما اتخذه البارونات المحليون من السياسة الدفاعية . ومن أشد أعداء ريموند جيرار مقدم الداوية ، وريجنالد شاتيون[3] . وبزواج شاتيون من ستيفانى وريثة حصنى الكرك والشوبك ، صار له السيطرة على هذه الإمارة الهامة ، التى يجتاز أراضيها طريق القوافل بين مصر والشام ، وتعرضت القوافل لهجماته ، ولم يحفل بما انعقد بين اللاتين والمسلمين من هدنة ، بل إنه اجترأ سنة ١١٨٢ ، ١١٨٣ على أن يسير فى البحر الأحمر أسطولا لنهب المدن الساحلية . ومع أنه لا يعتبر من البارونات القادمين حديثا ، لأنه جاء إلى الشام منذ أكثر من ربع قرن

= الكفاية ، والقدرة على وضع الخطط الحربية ، ولما يلقاه من احترام اللاتين والمسلمين سواء .

انظر : Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 602

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 602.

(٢) عهد بلدوين الرابع إلى البطريرك ومقدمى الاسبتارية والداوية ، سنة ١١٨٤ ، بالطواف بأنحاء أوربا يلتمسون المساعدة ، غير أنهم فشلوا فى إقناع الإمبراطور الألمانى وملكى إنجلترا وفرنسا ، فى إرسال حملة صليبية ، وكل ما نجم عن السفارة أن قدم إلى الشرق عدد قليل من الفرسان .

أنظر : Runciman : op. cit. II. p. 442

(٣) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 603

وحاز إقطاعاً وفيراً ، فإنما اشتهر به من روح المغامرة والنشاط ، جعله أقرب إلى صحبة أمثال جاى وجيرار ، لا البارونات المحافظين[١] .

ليس من اليسير تقدير طباع جاى لوزجنان ، فإن مسئوليته عن سقوط مملكة بيت المقدس سنة ١١٨٧ ، جعلته هدفا للنقد الشديد فى التواريخ المعاصرة . على أنه من الواضح أن جاى لوزجنان لم يكن فى ١١٨٦ — ١١٨٧ ، قائداً ، بل كان سهل الانصياع والانقياد . فلم يتخذ سياسة ثابتة بل كان شخصاً التف حوله طائفة من الطامعين والحاقدين والساخطين . وما وقع من أحداث فى هاتين السنتين الفاصلتين ، تشير نتائجها إلى أن كل الرجال والنساء ، باستثناء سيبل ، الذين التفوا حول جاى ، لم يدفعهم إلى ذلك إلا الرغبة فى المصلحة الشخصية ، أو معارضة الحزب الآخر ، ولم يكن جاى نفسه موضع اهتمام خاص عندهم[٢] .

وما هو أهم من الأغراض والدوافع الشخصية ، ما حدث من الانقسام والشقاق إذ انقسمت مملكة بيت المقدس على نفسها ، وأضحت على حافة الحرب الأهلية ، فى أشد الأوقات حرجا . فالواضح أن التدابير التى اتخذها لإدارة المملكة ، ريموند كونت طرابلس ، وأن ما جرى إقراره من قواعد وشروط لمستقبل الأسرة الحاكمة ، كفل الهدوء فى الداخل فترة من الزمن . ولم يتغير الوضع الحربى كثيراً ، برغم ما وقع من اشتباكات تعتبر ضئيلة الأهمية . وعادت سفارة البطريرك وأصحابه من أوربا ، تحمل مبلغا من المال ، أسهم به ملك انجلترا ، وصار فى حوزة الفرسان الرهبان ؛ ولم يحصلوا على وعد بالمساعدة العسكرية . فأصبح الأمل الوحيد هو اتخاذ خطة الدفاع السلبية ، ولا سيما أن صلاح الدين لا زال يلقى المقاومة فى إقليم الجزيرة ؛ ولعل ما حدث من الجفاف الشديد ، وتجدد المشاكل بهذا

---

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 603

(٢) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 603

الإقليم ، هو الذى أدى إلى عقد الهدنة ١١٨٥ بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس لمدة أربع سنوات[١] .

، فى تلك الأثناء مضت سياسة ريموند وإدارته فى سهولة ويسر ، ولم تتأثر بوفاة بلدوين الرابع سنة ١١٨٥ ، غير أن وفاة بلدوين الخامس فى صيف سنة ١١٨٦ بعكا ، جعلها تتعرض لأزمة ومحنة شديدة ، وهيأت الفرصة التى ترقبها حزب البلاط . فعلى الرغم من أن أنصار جاى لوزيجنان أقسموا على احترام ما جرى اتخاذه ١١٨٣ – ١١٨٤ من إجراء ، فإنهم تآمروا على الإطاحة بوصاية ريموند ، واتخذوا لذلك الوسائل والطرق التى بلغت حد الثورة فى البلاط[٢] .

قام جوسلين بتنفيذ مؤامرته ، عقب وفاة بلدوين الخامس ، فحرص على ألا يتوجه ريموند والبارونات إلى بيت المقدس لتشييع جنازة الملك الطفل ، وعهد إلى الداوية بهذا الأمر . وبينما سار ريموند والبارونات إلى طبرية ، للمناقشة فى تنفيذ وصية بلدوين الرابع ، أرسل جوسلين العساكر ، فاستولت على صور وبيروت ، التى تعتبر من أملاك ريموند . ولما اطمأن جوسلين إلى نجاح هذه المرحلة من مؤامرته ، أرسل فى طلب سيبل وجاى فقدما من عسقلان ، إلى بيت المقدس ، ولحق بهما البطريرك ، ومقدما الاسبتارية والداوية ، ووليم مونتفرات جد الملك الراحل ، وريجنالد شاتيون[٣] .

---

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 604

Runciman : op. cit. II. p. 444-445

(٢) Ibid : op. cit. II. p. 446

Baldwin : op. cit p. 604

(٣) Baldwin : op. cit. p. 604

Runciman : op. cit. II. p. 447. Grousset : op. cit. II. pp. 766-767.

ولما اكتشف ريموند هذه الخديعة ، اجتمع بالبارونات المحليين فى نابلس ، بينما وطد حزب البلاط مركزه فى بيت المقدس . والواضح أن المتآمرين فى بيت المقدس ، قرروا التخلص من وصاية ريموند ، والمضى فى تتويج سيبل وجاى لوزيجنان ، قبل أن يبادر إلى الفصل فى مشكلة وراثة الحكم ، وفقا لوصية بلدوين الرابع ، البابا والإمبراطور وملكا انجلترا وفرنسا . وتم تتويج سيبل وجاى فى صيف ١١٨٦[١] ، وفشلت محاولة ريموند فى الاعتراف بهمفرى وزوجته إيزابيل ابنة أملريك ، ملكين ، إذ أنهما بادرا بالاعتراف بسيبل وجاى . ولم يلبث البارونات المنحازون إلى ريموند ، أن توجهوا إلى بيت المقدس وقبلوا الأمر الواقع ، فلم يبق على الخصومة إلا ريموند ، وبلدوين صاحب الرملة ؛ غير أن بلدوين غادر المملكة ، لأنه لا يقر جاى ملكا على بيت المقدس . ولم يسع ريموند إلا الانسحاب إلى أملاك زوجته بطبرية ، واعتبر نفسه أحق بولاية الحكم من جاى لوزجنان[٢] .

أعلن جاى لوزيجنان فى أول اجتماع عقده للبارونات فى عكا ، أنه تقرر نزع بيروت من ريموند ، التى حازها باعتباره وصيا ، وأرسل يطلب إليه تقديم الحساب عن الأموال التى أنفقها أثناء وصايته[٣] . وإذ صار جيرار مقدم الداوية مستشاراً للملك ، فإنه نصحه بأن يحشد قواته ، ويلزم ريموند بالإذعان والاعتراف به ملكا ، غير أنه لم يحفل بهذه التهديدات ، بل بادر إلى اتخاذ خطوة أدت إلى نتائج بالغة الأهمية[٤] . إذ أرسل إلى

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 604-605.
Runciman : op. cit. II. p. 447. Grousset : II. p. 767.

(٢) Runciman : op. cit. II. pp. 448-449.
Grousset : op. cit. II. pp. 772-773.

(٣) Runciman : op. cit. II. p. 449.

(٤) Baldwin : The Decline and Fall ef Jerusalem. p. 604

صلاح الدين يطلب منه المساعدة ضد جاى لوزجنان ، ومن الطبيعى أن يتخذ ريموند هذه الخطوة ، لما كان يربطه بصلاح الدين أثناء وصايته من علاقات ودية ، لحرصه على المحافظة على السلام فى المملكة ، نظرا لما كانت تجتازه من أزمة داخلية ، فلما جرى إقصاؤه عن الوصاية اشتدت حاجته إلى مساعدة صلاح الدين ، الذى وعده بأن يسانده فى تحقيق غرضه ، بأن يكون ملكا . وأفاد صلاح الدين من النزاع الداخلى والحروب الأهلية بين الصليبيين لمصلحته ، فوجه السرايا من ناحية طبرية ، فأخذت تشن الغارات على بلاد الفرنج دون أن تلقى مقاومة ، فزاد ذلك من جرأة المسلمين والطمع فى أملاكهم [1] .

ولا بد من تقدير بعض الأمور عند الحكم على تصرف ريموند ؛ إذ لم يقصد أن يتحالف مع صلاح الدين ، ضد الصليبيين ، فالمعروف أن الهدنة لا زالت قائمة بين الجانبين ، ولم يلجأ إلى صلاح الدين إلا من أجل الدفاع عن نفسه وممتلكاته ؛ بعد أن حشد جاى عساكره لغزو طرابلس ،

---

(١) يشير ابن الأثير إلى علاقة ريموند بصلاح الدين ، بأن ما حدث من تتويج الملكة سيبل وزوجها جاى (كى) ، وما حصلت عليه من اعتراف « البطرق والقسوس والرهبان والاسبتارية والداوية والبارونية ، ساء القمص (ريموند) ، فسقط فى يديه ، وطولب بحساب ماجبى من الأموال ، مدة ولاية الصبى ، فادعى أنه أنفقه عليه ، وزاده ذلك نفورا ، وجاهر بالمشاققة والمباينة. وراسل صلاح الدين ، وانتمى إليه ، واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج . ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ، ووعده النصرة ، والسعى له فى كل ما يريد . وضمن له أن يجعله ملكاً مستقبلا للفرنج قاطبة . . . وكان عنده جماعة من فرسان القمص ، فأطلقهم فحل ذلك عنده أعظم محل ، وأظهر طاعة صلاح الدين ، ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم ، وتفرق شملهم ، وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس» .

انظر . ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٤ — ٧٥ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٨٤ — ١٨٥ .

Runciman : op. cit. II. p. 451.

Grousset : op. cit. II. pp. 774-775.

ومهاجمة طبرية ، وبعد أن نزع منه بيروت . وهذا السلوك الذى اتبعه ريموند لم يكن شيئا جديدا عند فرسان الفرنج ، إذ سبق أن سلكه أفراد منهم فى أسبانيا وفى الشرق ، فالتماس المساعدة من صلاح الدين لم تعتبر خيانة ، ولم تكن أمرا غير مألوف[١] .

والواقع أن اتصال ريموند بصلاح الدين ، أدى إلى مايبتغيه من نتيجة . فبناء على نصيحة باليان صاحب يبنه وبعض البارونات ، وافق الملك على أن يسرح جنوده ، وأرسل سفارة إلى طبرية ، غير أن ريموند رفض الخضوع والإذعان إلا إذا عادت إليه بيروت . ولم يرض الملك بأن يتنازل عن شيء من الحقوق ، وبذلك فشلت السفارة ، وظلت الأحوال على هذا النحو إلىما بعد عيد القيامة سنة ١١٨٧[٢] .

وعلى الرغم من انقسام المملكة إلى حزبين متعادين ، فإن ما عقدته من هدنة مع المسلمين كان كافيا للإبقاء عليها وعلى وحدتها . وحرص الملك لوزيجنان على استمرار الهدنة ، غير أن ريجنالد شاتيون صاحب الكرك ، الذى اشتهر بالخيانة والغدر ، وكان قد هادن صلاح الدين وسالمه ، فأمنت الطريق ، وترددت القوافل من الشام إلى مصر ، ومن مصر إلى الشام ، لم يلبث أن ارتكب حماقة كبيرة ، أدت إلى نقض الهدنة[٣] .

---

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 606.
Grousset : op. cit. II. p. 775.

(٢) Baldwin : op. cit. p. 606. Grousset : II. p. 775
Runciman : op. cit. II. p. 451.
Lane-Poole : Saladin pp. 220-201

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٤٨ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٥ .
ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص ٦٣ .
Runciman : op. cit. II. p. 450. Grousset : II. p. 776.

ففى أوائل سنة ١١٨٧ ، لاحت له فرصة فى الغدر ، فتعرض لقافلة قادمة من مصر ، فى طريقها إلى دمشق ؛ أثناء اجتيازها الشوبك ، وكانت هذه القافلة غزيرة الأموال ، كثيرة الرجال ، يحرسها جماعة من الأجناد ، فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم ، وأخذهم عن آخرهم ، وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم ، وقتل العساكر ، وحمل إلى قلعته بالكرك كل التجار وأسراتهم . فأرسل إليه صـــلاح الدين يطلب إطلاق سراح الأسرى ، ورد ما استولى عليه من الغنائم . غير أن ريجنالد رفض استقبال رسل صلاح الدين . فتوجهوا إلى بيت المقدس وحاول جاى لوزيجنان أن يلزم أمير الكرك بأن يصلح ما أفسده ، فلم يستجب ريجنالد لطلبه ، على أساس أنه أمير مستقل فى أراضيه ، وليس بينه وبين صلاح الدين عقد أو هدنة ، وشجعه على ذلك أنه اعتبر جاى لوزيجنان مدينا له بالعرش الذى يتربع عليه[1] . ولما أصر ريجنالد على عصيانه ، نذر صلاح الدين دمه ، وأعطى الله عهدا إن ظفر به أن يستبيح دمه ، وبذلك انتقضت الهدنة القائمة بين مملكة بيت المقدس وصلاح الدين ، وكان ذلك أمرا بالغ الخطورة باعتراف أصدقاء ريجنالد ذاته[2] .

معركة حطين (٤ يولية ١١٧٨) :

هذه الصورة المشينة من نقض الهدنة ، جعلت إشعال الحرب أمرا لامفر منه ،وهى حرب لم تكن البلاد المنقسمة على نفسها مستعدة لمواجهتها . أعلن صلاح الدين الجهاد ، فكتب إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٥ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٥ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٤٨ .

Runciman : op. cit. II. p. 450 Grousset : op. cit. II. p. 777

(٢) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 606.

وأرسل إلى الموصل والجزيرة واربل ، وإلى مصر وسائر بلاد الشام ، يدعوهم إلى الجهاد ، ويحثهم عليه والتجهز له[1] :

خرج صلاح الدين من دمشق فى ١٤ مارس سنة ١١٨٧ (محرم ٥٨٣ هـ) فتوجه إلى بصرى ، وأقام بها مرتقبا قدوم الحجاج ، وكان فيهم أخت صلاح الدين ، وابنها وجماعة من الخواص ، خوفا عليهم من غدر أمير الكرك ، الذى يتحكم فى طريق العسكر المصرى والحاج الشامى ، وبعد أن وصلت القوات المصرية ، اشترك معهم بعساكره فى الإغارة على أراضى الكرك والشوبك ، وعادوا سويا إلى دمشق بعد شهرين[2] . وفى تلك الأثناء احتشد فى رأس الماء ، حيث أقام ابنه الأفضل ، عساكر دمشق ، وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ، فأنفذ منهم سرية أغارت على أعمال طبرية . وفى صفورية التقى بهم جماعة من الداوية والاسبتارية ، ولم يحفلوا بأمر ريموند ، فانتصرت القوات الإسلامية فى مايو سنة ١١٨٧ ، إذ لقى عدد كبير من الصليبين مصرعهم ، وهلك مقدم الاسبتارية ، ووقع فى الأسر جماعة من فرسانهم ، وأفلت مقدم الداوية ، وعاد المسلمون غانمين ، فكانت هذه الغارة مقدمة الفتوح[3] .

ولما علم صلاح الدين ، وهو بنواحى الكرك والشوبك ، بما أحرزه المسلمون من الانتصارات الباهرة ، سار إلى عشترا ، فى حوران ، حيث عسكر بها ، ولحق به سائر الأمراء والعساكر ، فكانوا اثنى عشر ألف فارس ، « ممن له الإقطاع والجامكية » ، فضلا عن عدد كبير من المتطوعة (القوات

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٤٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٤٩ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٨٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٠ .

الإضافية) ، فاكتمل له بذلك عشرون ألف جندى، منهم فريق من ذوى الأسلحة الخفيفة ، وفريق مزود بالأسلحة الثقيلة ، والمعروف أن الفرسان الرماه يؤلفون فئة فى الجيش الإسلامى . وعين مواقف الأمراء وشعارهم ، وطلب ألا يبرح كل جيش مكانه ، ولا يتزحزح جندى عن موضعه ، وقال « إذا دخلنا أرض العدو ، فهذا هو ترتيب جنودنا ، وهـذه هى مواضع قواتنا »[1] .

وفى يوم الجمعة ٢٦ يونية ١١٨٧ ، سار فى الأردن إلى الأقحوانة على الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية ، وأحاطت عساكره بطرف البحيرة ، ثم رحل إلى غربى طبرية ونزل على سفح الجبل لتعبئة الجيش ، وتوقع أن يهاجمه الصليبيون ، غير أنهم لم يتحركوا من موضعهم بصفورية ، فنزل صلاح الدين فى خواصه على مدينة طبرية ، بعد أن ترك جانباً من الجيش مقابل العدو . ولم يلبث صلاح الدين أن استولى على المدينة فى ٢ يوليه ١١٨٧ ، غير أن القلعة امتنعت عليـه ، وامتدت الأيدى إلى طبرية ، بالنهب والحريق[2] ؛ وتهيأت الفرصة ، بعد أن استنجدت صاحبة طبرية بجاى لوزيجنان ، لأن تلتحم قوات مملكة بيت المقدس فى القتال[3] .

---

(١) Gibb : "The Rise of Saladin" p. 585.

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٥٠ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٧٦ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٠ – ٦١ .

العماد الكاتب : الفتح القسى ص ١٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٥١ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٧٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٨٨ .

Gibb : "The Rise of Saladin" p. 585.

(٣) Gibb : The Rise of Saladin p. 585

أما موقف الصليبيين فيتمثل فى أن الحاجة أضحت ماسة لمصالحة ريموند بعد أن توقع الصليبيون نشوب الحرب مع صلاح الدين . يضاف إلى ذلك أن ريموند صار فى مركز حرج ، بعد نقض الهدنة ، ولم يكن فى وسع صلاح الدين أن يسانده فى مشاكله مع ملك بيت المقدس ، ومع ذلك رفض ريموند القدوم لمصالحة جاى ، بعد أن توسط بينهما باليان صاحب يبنه ، حتى يحصل على التعويض الذى يرضيه ، وتعود إليه بيروت ؛ ولم يقبل جاى أن يستجيب له[1] . على أن تجهز صلاح الدين واستعداده للقتال ، حمل باليان مرة أخرى على التحدث إلى ملك بيت المقدس لاسترضاء ريموند ، لما لمساعدته ونصيحته من أهمية فى تقرير مصير المملكة ، فلم يسع جاى إلا أن يرسله فى سفارة إلى طبرية مرة أخرى ، وصحبه رئيس أساقفة صور ، وصاحب صيدا ، ومقدما الداوية والاسبتارية ، والمعروف أن مقدم الداوية من ألد أعداء ريموند ، وتولى حراسة هذه السفارة عشرة من فرسان الاسبتارية ؛ وذلك فى أبريل سنة ١١٨٧[2] . وتوقف البارونات عند نابلس والفولة (من حصون الداوية) فى ٣٠ أبريل ١١٨٧ ، غير أنه قبل مغادرة الفولة ، وقع حادث خطير ، ذلك أن الأفضل بن صلاح الدين ، الذى أقام معسكره وقتذاك عند رأس الماء ، قرب مخاضة يعقوب ، تلقى أمراً من أبيه بالإغارة على أراضى الصليبين ، انتقاماً لاعتداء ريجنالد على القافلة التى اجتازت الشوبك والكرك[3] . ولما كان لزاماً عليه أن يجتاز طبرية التابعة لريموند ، فإنه استأذنه فى ذلك الشأن[4] . والواضح أن هذا

---

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 606.
Runciman : op. cit. II. p. 451. Grousset : op. cit. II. p. 782.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 451.
Grousset : op. cit. II. p. 782.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٥ .

(٤) أرسل صلاح الدين ، قبل الهجوم الكبير على الصليبيين فى حطين ، إلى ولده الأفضل =

الطلب أحرج ريموند ، الذى حرص على الإبقاء على صداقة صلاح الدين ، على أنه أجاب الطلب بشروط منها : أن القائد الإسلامى ، ينبغى ألا يدخل المملكة إلا بعد شروق الشمس ، وعليه أن يغادرها قبل الغروب . وفى هذه الأثناء أخطر الصليبيين بما حدث ، فأرسل بهذا الخبر إلى الناصرة والجهات المجاورة ، وإلى السفارة فى الفولة (أبريل ١١٨٧)[١] .

وفى أول مايو سنة ١١٨٧ ، حدثت الغارة ، وعزم الداوية ومن معهم بالفولة ، على المقاومة . والراجح أن هذا القرار جاء بناء على تحريض جيرار مقدم الداوية ، ومن المحقق أنه يخالف قصد ريموند ، وترتب على ذلك حدوث وقعة « عين كريسون »[٢] بالقرب من الناصرة ، فحلت بالقوات الصليبية هزيمة ساحقة ، فهلك مقدم الاسبتارية ، ولقى مصرعه نحو ٦٠ من

= يأمره أن يرسل قوة من الجيش ، إلى عكا لنهبها وتخريبها ، ولابد لهذه القوة من اجتياز طبرية ، ويشير ابن الأثير إلى ما أصابه المسلمون من انتصار ، وإلى ما حازوه من الأسرى والغنائم ، وإلى أن الكونت ريموند لم ينكر ذلك – انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٠ – انظر أيضاً ما سبق ص ٨٢٣ .

Grousset : op. cit. II. p. 782.

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 607

Grousset : op. cit. II. p. 782.

وما اتخذه ريموند من قرار ، على هذا النحو ، يرجع إلى محاولة التوفيق بين الإبقاء على صداقة صلاح الدين ، وتجنب غضب المسيحيين وسخطهم ، والقطع من الكنيسة .

Grousset : op. cit. II. p. 782.

Runciman : op. cit. II. p. 452.

(٢) وما ورد فى المصادر العربية عن هذه الوقعة ، لم يذكر هذا الاسم إنما جرت الإشارة إلى أن المعركة حدثت فى صفورية .

انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٠ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٥ .

Lane - Poole : Saladin, P. 202.

الداوية ، ووقع فى الأسر نحو ٦٠ من أهل الناصرة ، وأفلت جيرار ومعه فارس أو فارسان[١] .

لا شك أن المملكة أصابها ، بعد هذا الحادث ، التداعى فى قوتها المادية والمعنوية . واشتدت العداوة بين ريموند وجيرار ، وارتاع ريموند عند سماع أنباء الكارثة ، من باليان ورئيس أساقفة صور وصاحب صيدا ، الذين اعتبروه مسئولا عن هذه الفاجعة[٢] . فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين ، وتغاضيه عن مصرع الداوية والاسبتارية ، والسماح لقوات صـلاح الدين باجتياز أراضيه ، ووافقهم على ذلك عسكر طبرية وطرابلس ، المرابطين بطبرية ، وهدد البطرك بأنه يحرمه ، ويفسخ عقد زواجه[٣] . فلم يسع ريموند إلا الموافقة على مصالحة جاى لوزيجنان ، وإعلان استعداده لإنقاذ المملكة ، فنقض المعاهدة التى عقدها مع صلاح الدين ، ورد إليه القوات التى نهضت لمساندته ، حينما تعرضت بلاده لتهديد جاى ، وصحب السفراء إلى أحد معاقل الاسبتارية بالقرب من جنين ، حيث كان جاى فى انتظار قدومهم[٤] . ثم توجهوا جميعاً إلى بيت المقدس ، حيث

---

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 607.
Runciman : op. cit. II. pp. 453-454
Lane - Poole : Saladin pp. 202-203
Grousset : op. cit. II. pp. 783-784
ابن الأثير : الكامل ١١ ، ص ٣٥٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٥ — ٧٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٨٧ .

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 454. Grousset : op. cit. II. p. 786

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

(٤) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 608
Runciman : op. cit. cit. II. p. 454 .Grousset : II. p. 786.
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥١ .

أقسم ريموند يمين التبعية لكل من جاى وسيبل ، فتراءى للناس أن المملكة استردت وحدتها ، واجتمعت كلمة الصليبيين بعد فرقتهم[١] . فما زال جيرار وريجنالد يكنان الكراهية والحقد لريموند ، كونت طرابلس ، ولا زالا يساورهما الشــك فى خيانته ، وظلا يرفضان كل ما بذله من النصائح ، واشتدت سيطرتهما على الملك جاى[٢] .

لما وردت الأنباء بأن صلاح الدين اجتاز الأردن ، عقد الملك جاى مع البارونات مجلساً فى عكا ، وأصــدر الملك قراراً بالتعبئة العامة ، والمعروف أن هذه دعوة عاجلة لكل الرجال القادرين على حمل السلاح ، على الرغم من مخالفتها لـــا استقر عليه الجيش الإقطاعى النظامى . وتقرر أن تحتشد القوات أول الأمر فى عكا ، حتى إذا اجتمع شملهم ، توجهوا لملاقاة المسلمين . أسهم الداوية والاسبتارية بكل ما لديهم من الفرسان ، فلم يتركوا للدفاع عن قلاعهم إلا عددا ضئيلا منهم ، كما أن الداوية بذلوا نصيبهم من الأموال التى بعث بها هنرى الثانى ملك انجلترا إلى الداوية والاسبتارية ، للإنفاق منها على استئجار الفرسان والرجالة ؛ ولم يأت من طرابلس وأنطاكية إلا قوات قليلة العدد ، وذلك لحاجتهما إلى من يدافع عنهما من القوات ضد المسلمين ؛ وتقررت دعوة البطريرك هرقل للقدوم بالصليب المقدس ، غير أن المرض منعه من الحضور ، فاكتفى بإرسال الصليب إلى أسقف عكا[٣] .

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 786. Runciman : op. cit. II. p. 454

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٥١ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٧٦ .

(٢) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 608

(٣) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 609

Runciman : op. cit. II. p. 454-455.

Grousset : op. cit. II. p. 787 .

ليس من السهل تقدير عدد الجيش اللاتيني ، والواضح أنه بلغ عشرين ألف مقاتل ، أى أنه يضارع فى العدد الجيش الإسلامى ، منهم نحو ١٢٠٠ فارس مزودين بالأسلحة الثقيلة ، وبضعة ألوف من الرجال ، وعدد كبير من القوات الإضافية التركبولية ، من الفرسان الرماة[1] .

اجتمع هذا الجيش الصليبى الضخم فى صفورية ، وانتظر الحركة التالية التى يتخذها صلاح الدين . والواقع أن اكتمال وحدة العالم الإسلامى ، جعل انتصاره النهائى على الإمارات الصليبية أمراً محققا ، ودل على ذلك ما أحرزه من الانتصارات المتوالية فى مصر والشام . ومع ذلك فإن مركز صلاح الدين سنة ١١٨٧ ، لا يجعل انتصاره محتوما ، وهيأ للصليبيين سبيلين للعمل : الأول ، أن باستطاعتهم أن ينتظروا ويتمهلوا ، مثلما فعلوا سنة ١١٨٣ ، فيتجنبون الاشتباك فى معركة حاسمة ، على أمل أن صلاح الدين لن يستطيع الإبقاء على جيشه متماسكا زمنا طويلا ، كما أن حرارة الصيف اللافحة فى جبال طبرية لا بد أن تؤثر فى حركات الجيش المهاجم . على أن نجاح هذه السياسة يتوقف على صلاح الدين ، بأنه ما لم يحرز انتصارا حاسما ، فلن يخاطر بالاشتراك فى معركة فى أحوال غير مواتية ، وبما يتوقعه من تفكك الجيش ، وما يترتب على ذلك من تداعى نفوذه وسلطانه السياسى[2] .

أما الطريق الآخر ، وهو الذى وافق القادة الصليبيون على اتخاذه ، وهو يقضى بالاشتباك فى معركة حاسمة مع صلاح الدين . وكيفما كان الأمر

---

(١) Baldwin : loc. cit. Runciman : op. cit. II. p. 455
جعل ابن واصل وأبو شامة عدد القوات الصليبية يتراوح عددها بين ٥٠ ألف مقاتل ، ٦٣ ألف ، ٢٣ ألف .
انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٦ — ٨٢ .

(٢) Baldwin : op. cit. p. 609. Runciman : op. cit. II. p. 455
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٥١ .

فإن اللاتين جعلوا فى هذه الحملة كل ما عندهم ، وعبأوا كافة مواردهم . وإذا كان الجيشان متساويين فى العدد ، فإن النصر سوف يكون حليف الجيش الذى يستطيع أن يدفع الجيش الآخر ؛ إلى المبادرة بالقتال فى ظروف غير ملائمة . وإذ اختار الصليبيون لأنفسهم موضعا شديد الملاءمة ، وعزموا على اتخاذ خطة الدفاع ، فإنه صارلهم من الموضع الممتاز ، الذى اتخذوه ، ما يحفزهم على القيام بإثارة الجيش المواجه لهم ، ليبادر بالقتال . والواقع أنهم قرروا ذلك ، غير أن الخطة لم تتحقق بسبب ما وقع من الاضطراب فى صفوفهم[١] .

عسكر الجيش الصليبى ، فى موضع قريب من نبع صفورية ، الذى اشتهر بغزارة مياهه ، حتى فى زمن الصيف ، وتوافر بهذا الموضع من المراعى والمواد الغذائية ، ما يسد حاجة العساكر والدواب[٢] . وتقع صفورية على مسافة ١٥ ميلا من بحيرة طبرية ، واشتهرت الأراضى بهذه المنطقة ، التى تقع بينهما ، بالارتفاع ، فهى شبيهة بالهضبة ، تكثر بها الوهاد ، وتكاد تكون خالية من الماء زمن الصيف . هذه الرقعة الجدباء ؛ يحف بها من الشرق والشمال ، سلسلة من التلال ، تنحدر جوانبها الشمالية والشرقية انحدارا فجائيا يصل إلى شاطئ البحيرة ، ولا يخترق هذه التلال إلا دروب قليلة العدد . فعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب من طبرية يجرى فى الحافة الشمالية ، درب من هذه الدروب ، وبالقرب من النقطة التى نفذ منها هذا الدرب ، ارتفع تل له قمتان ، اشتهر بقرون حطين ، وهو الموضع الذى دارت فيه المعركة[٣] .

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 609

(٢) Lane - Poole : Saladin p. 205-206.

(٣) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 610.

أما صلاح الدين فإنه عبر نهر الأردن عند قرية الصبيرة ، جنوب بحيرة طبرية ، كما سبق أن أشرنا ، وأقام معسكره بالأقحوانة[1] ، حيث توافر ما يحتاج إليه من المؤن والماء . وإذ كان شديد الدراية بطبيعة الأرض ، شرقى صفورية ، حرص على الإفادة منها ، بأن يحمل الصليبيين على الخروج من موضعهم . ولما وجد أن الصليبيين لم يستجيبوا لهذه الحيلة ، أرسل بعض جنوده إلى كفر سبت على الحافة الجنوبية للهضبة ، فحاولوا إثارتهم للهجوم بأن شنوا غارات سريعة ، غير أن الصليبيين لم يتحركوا ، فعزم صلاح الدين على أن يقوم بهجوم مفاجئ على طبرية ذاتها ، ويعتبر ذلك الهجوم نقطة التحول فى المعركة[2] .

وفى يوم الخميس ٢ يوليه سنة ١١٨٧ (٢٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٣) ، تحرك صلاح الدين بالجانب الرئيسى من الجيش ، إلى الأرض المرتفعة الواقعة أسفل الحافة بقرب طبرية ، وفى هذه النقطة يستطيع أن يوصد الطريق المباشر إلى طبرية ، ويسيطر فى الوقت ذاته على الدروب التى تجتاز الحافة الشرقية إلى طبرية وتنتهى إلى ماء البحيرة[3] . ثم زحف بقوة صغيرة من الجيش ، ولم يلبث أن استولى على مدينة طبرية ، وشرع فى مهاجمة

---

(١) Lanc - Poole : Saladin. p. 204.

(٢) Lane - Pool : Saladin. p. 205

Baldwin : op. cit. p. 610

Runciman : op. cit. II. p. 455.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٣) تتصل صفورية بطبرية بطريقين ، خيرهما هو الطريق الذى يتجه من صفورية صوب الشمال الشرقى ، مجتازاً تلال الجليل ، ثم يهبط إلى البحيرة ، على مسافة ميل شمال المدينة (طبرية) ، وهو الطريق المباشر . أما الطريق الآخر فيتجه إلى الجسر المقام عند الصبيرة ، ومن هذا الموضع يسير طريق فرعى على امتداد شاطئ البحيرة ، صوب الشمال ، ويقع معسكر صلاح الدين عند كفر سبت ، على الجانب الآخر من طريق الصبيرة ؛ الذى اجتازه بعد عبور النهر .

انظر (Runciman : op. cit. II. p. 456).

القلعة ، التى لجأت إليها زوجة ريموند . والواقع أن صلاح الدين خاطر بكل شىء فى هذه المغامرة ، فإذا حلت الهزيمة به ، فسوف تؤدى إلى كارثة ، فمن المستحيل الارتداد بنظام فى دروب ضيقة ، أما مواصلة التقدم والزحف ، فيتطلب اجتياز الهضبة الجرداء ، كما يلتقى بالجيش الصليبى ، الذى اتخذ لنفسه قاعدة صالحة فى صفورية . على أن صلاح الدين قدّر أن أخبار الهجوم على طبرية ، وتعرض صاحبتها زوجة ريموند ، للخطر ، سوف يثير نخوة كونت طرابلس المشهور بالغيرة وشدة التحفظ ، ولذا كان صلاح الدين يأمل فى أن يجتـــاز الصليبيون الأرض الوعرة ، القاحلة ، التى تفصـــل بين الجيشين ، ويخوضون المعركة ، وفقا لما تقتضيه الأحوال[١] .

ولم تكد أخبار الهجوم عل طبرية تصل إلى الصليبيين ، حتى دعا الملك مجلس الحرب إلى الانعقاد ، ثم التفت إلى الكونت ريموند يسأله النصيحة ، وعلى الرغم من أن طبرية له ولزوجته ، وأن صلاح الدين فعل بالمدينة ما فعل ، وأحدق الخطر بزوجته فى القلعة ، فإنه نصح الملك[٢] بألا يخاطر بالخروج من موضعه ، بل طلب إليه الارتداد إلى المدن الساحلية الحصينة ، وأن يترك صلاح الدين يجتاز الهضبة[٣] .

---

(١) Bıdwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 611

(٢) يشير ابن الأثير إلى أن ريموند قال للملك « إن طبرية لى ولزوجتى ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل ، وبقى القلعة ، وفيها زوجتى ، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتى ، وما لنا بها . فإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها ، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها ، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها ، ونفتك من أسر منا » .

(انظر ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٥٢) .

(٣) Baldwin : loc. cit.

ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٥٢ .

وعلى الرغم من صواب هذا الرأى ووجاهته ، فإن ما ساور جيرار مقدم الداوية من الشكوك فى ريموند ، كان أقوى من التدبير والتفكير فى الخطط الحربية ، ففى مساء ذلك اليوم ، ٢ يوليه ، اجتمع جيرار بالملك على انفراد ، واستطاع بفضل سيطرته على الملك ، وضعف إرادة الملك ، أن يحمله على العدول عن قراره ، واتهم ريموند بالخيانة والتمرد على الملك . وبذلك صار مصير مملكة بيت المقدس متوقفاً على إرادة شخصين متآمرين : الأول لا يتصرف إلا بدافع الكراهية الشخصية أما الثانى ، وهو جاى لوزيجنان ، فكان ضحية طموحه وما أدى إليه من النتائج[١] .

استبدت الدهشة بالفرسان الصليبيين ، وازداد قلقهم واضطرابهم ، حين تلقوا فى الساعات المبكرة من الصباح ، أمر الملك جاى بالمسير ، فتوسلوا إليه أن يعيد النظر فى قراره ، غير أن الملك كان عنيدا ، ولم يشأ قبول تعديل لقراره ، فلم يسع الجند إلا إطاعة أمر قائدهم ، واستعدوا ، لمواجهة ما هو أسوأ من ذلك . وسار الجيش فى الصباح المبكر من يوم الجمعة ٣ يوليه سنة ١١٨٧ (٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣) ، فاتخذ طريقه على التلال الجرداء ، وتولى ريموندباعتباره سيد الإقطاع ، قيادة مقدمة الجيش ، واتخذ الملك جاى مكانه فى القلب ، بينما تألفت مؤخرة الجيش من ريجنالد شاتيون والداوية والاسبتارية ، وكان باليان أمير يبنة ، فى صحبةريموند . واشتدت الحرارة، وركدالهواء ، واستبد العطش بالرجال والدواب ،وتحتم على الصليبيين أن يبطئوا فى سيرهم ، فتعرضوا لمناوشات الرماة بمقدمة الجيش الإسلامى[٢] .

---

(١) Baldwin ; op. cit. p. 611

Runciman : op cit. II. p. 456.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٧ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٢ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٨٩ .

=

أما صلاح الدين فإنه لما علم بمسير الصليبيين ، غمرته السعادة ، وزاد فرحا وسرورا ، إذ أدرك أنه متى حلت الهزيمة بالصليبيين ، وقعت فى يده « طبرية وجميع الساحل »[1] . فلم يقصد بمحاصرة طبرية ، إلا أن يفارق الفرنج مكانهم ، ليتمكن من قتالهم . وإذ اطمأن لنجاح خطته انسحب من طبرية ولم يترك بها إلا قوة صغيرة ، بينما رتب جيشه الرئيسى على التـلال الواقعة غربى المدينة[2] . وجعل تقى الدين عمر فى الميمنة ، ومظفر الدين كوكبورى فى الميسرة ، وكان صلاح الدين فى القلب ، وجعل بقية العسكر فى الجناحين[3] . اتخذ صلاح الدين معسكره بموضع قريب من ماء بحيرة طبرية ، وكان اليوم شديد الحرارة ، وأنهك العطش الصليبيين ، ولم يكن بوسعهم بلوغ الماء ، لأن الجيش الإسلامى حال دون ذلك ، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين ، فبقوا على حالهم إلى الغد(السبت ٤ يوليه)[4] ، إذ بلغ الصليبيون الهضبة التى تعلو حطين مباشرة ، فصادفوا تلا صخريا ، يرتفع منه قمتان ، يبلغ ارتفاع الواحدة منهما ٣١٦ مترا ، وتنحدر الأرض رأسيا من خلف التل ، إلى المدينة

= ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٣٤ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٢ .

Lane - Poole : Saladin p. 205

Runciman : op. cit. II. p. 457. Baldwin : loc. cit.

Grousset : op. cit. II. p. 793-795.

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٢ .
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ؛ ص ٣٢ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٩ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٨١ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٢ .

(طبرية) ، والبحيرة ، وهذا الموضع هو المعروف بقرون حطّين ؛ فأمر الملك بإقامة خيمة فى Marescalcia ، بين اللوبيا وحطين ، وفى منتصف الطريق إلى طبرية[1] ، إذ أضحى التقدم شاقا وعسيرا ، ولا سيما أن الداوية والتركبوليه الذين اتخذوا مواقعهم فى المؤخرة ، اشتد قلقهم وضجرهم ، فلم يستطيعوا المحافظة على اتصالهم بقلب الجيش الذى يقوده الملك ، وأضحوا معرضين للانعزال عن بقية الجيش[2] . فلم يسع الملك إلا أن يأمر بالتوقف وإقامة المعسكر ، وليس من السهل معرفة المسئول عن اتخاذ هذا القرار ، وتحديد الوقت الذى صدر فيه . والراجح أن ريموند ، الذى يقود المقدمة ، أدرك أن الطريق المباشر إلى طبرية انسد أمامهم ، فنصح الملك بأن يتوجه صوب الشمال ، إلى قرون حطين ، والدرب الذى يجتاز الحافة الشمالية . ويجوز أن ريموند بلغ ذلك الموضع ، وأحس بأنه لابد أن يتخذ من التدابير ما يجنب الصليبيين الوضع الحرج على الهضبة . وسواء ألح الداوية على الملك نظرا لمركزهم الحرج فى المؤخرة ، أو أن المسلمين منعوا مقدمة الجيش ، التى يقودها ريموند ، من الوصول إلى الدرب الشمالى ، أو للسببين معا ، فإن الملك أمر بالتوقف[3] .

وأجمع المؤرخون على أن هذا القرار كان خطأ فاحشا ، وتعتبر ليلة ٣ يوليه اختباراً عنيفاً مريعاً ؛ لم يتيسر الماء للرجال والدواب ، وأخذ المسلمون يحكمون تطويق القوات الصليبية ، وارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين ، لأن النصر أضحى فى متناول أيديهم ، فباتوا يحرض بعضهم بعضا ؛ وكلما رأوا حال الفرنج « خلاف عادتهم ، مما ركبهم من الخذلان ، زاد طمعهم وجرأتهم ، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ، ورتب

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 794. Baldwin : op. cit. p. 611
ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(٢) Lane - Poole : Saladin p. 208-209

(٣) Baldwin : op. cit. p. 611.

السلطان تلك الليلة مقدمة الجيش (الجاليشية) وفرق فيهم النشاب »[١] . وأمضى الصليبيون ليلتهم فى حيرة واضطراب ، وتداعت روحهم المعنوية ، واشتد بهم العطش ، فانطلقت جماعة من العساكر تلتمس الماء ، فلقيت مصرعها ، بينما دأب العساكر الإسلامية طول الليل على التجهز للقتال « فهذا لسنانه شاحذ ، وهذا لعنانه آخذ ، وهذا سهم مفوق ، وهذا مكثر للتكبير ، ومنتظر للتبكير ، ومضى السلطان بنفسه على الصفوف ، ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف »[٢] .

وفى الصباح المبكر من يوم السبت ٤ يوليه ١١٨٧ (٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣) قاد ريموند أيضا المقدمة ، محاولا بلوغ الدرب الذى يجتاز الحافة الشمالية عند قرون حطين ، ولم يلبث الجيشان أن التحما فى معركة حامية بالسهل الواقع جنوب قرون حطين ، فحملت القوات الإسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فاستبد الرعب بالصليبيين[٣] . وطاف صلاح الدين على العسكر « يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم ، وينهاهم عما يضرهم ، والناس يأتمرون لقوله ، ويقفون عند نهيه »[٤] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٥٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٧٦ – ٧٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ١٨٩ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٢ .
Lane - Poole : Saladin p. 209.
Grousset : op. cit. II. p. 795 Runciman : op. cit. II. p. 458

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٧٧ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٢ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٤٣ .
Lane - Poole : Saladin. p. 210.

وإذ انتهج كل جيش الخطط التى دلت تجربته على نجاحها ، فإن المعركة تعتبر مثالا لما جرى عليه القتال فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى . إذ جعل الصليبيون من فرسانهم ورجالتهم كتلة متماسكة ، كيما يستطيع الفرسان بفضل قسيهم وحرابهم وزردياتهم ودروعهم ، حماية الخيل من السهام التى يقذفها المسلمون ، واعتبروها أيضا مركزاً لتجمع الفرسان ذوى الأسلحة الثقيلة ، الذين يقومون بهجمات متوالية . وتعلم الصليبيون من تجاربهم السابقة ، أنه إذا تعاون الفرسان مع الرجالة على هذا النحو ، استطاعوا أن يحرزوا الفوز . على أن المسلمين نجحوا فى عزل الفرسان عن الرجالة ، وحطموا قوة الفرسان الصليبيين بقتل خيولهم[١] . وظلت قوات صلاح الدين تعرقل طريق الصليبيين فى كل الجهات ؛ومنعوهم من الوصول إلى الماء ؛ واشتدوا فى رميهم بالسهام[٢] .

وما أصاب رجال الفرنج من التعب قبل بداية المعركة ترتب عليه أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بتشكيلهم بعد الالتحامات الأولى للفرسان ، فخرجوا من صفوفهم واندفعوا إلى أعلى التل ، وربما كان قصدهم الوصول إلى قرون حطين ، فتمزقوا شر ممزق ، بينما ارتد إلى الوراء فى اضطراب وفوضى بالغة : الفرسان المزودون بالأسلحة الثقيلة ؛ ثم احتشدوا قريبا من الملك والصليب المقدس . ويعتبر انهيار الرجالة نقطة التحول فى المعركة ، فما اشتهر به الفرسان الصليبيون من الشجاعة والإقدام ، لن يؤدى من غير مساعدة الرجالة ، إلا إلى تأجيل وقوع الكارثة لا منعها[٣] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٣ .

Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 612.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٢ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٧ .

(٣) Baldwin : op. cit. p. 612

= Lane - Poole : Saladin p. 210-211

وحاول ريموند ، بناء على طلب الملك أن يقتحم بفرسانه الحلقة المحكمة التى طوق بها المسلمون القوات الصليبية ، فحمل على جناح الجيش الذى يقوده تقى الدين عمر ، فأفسح له الصفوف ، فنفذ منها ، ولم يستطع العودة ، فاشتد به البؤس والشقاء ، بعد أن انسحب من المعركة وارتحل إلى طرابلس . ولم يلبث باليان صاحب يبنة ، وريناالد صاحب صيدا ، أن شقا لهما طريقا آخر ، فكانا آخر من هرب[1] . وأفاد الصليبيون فيما بعد من محاولة ريموند ، فبفضل من بقى معه من القوات ، جرت المحافظة على طرابلس وصور ، وتقرر الشروع فى استرداد ما استولى عليه صلاح الدين من البلاد[2] .

أما الذين واصلوا القتال ، فاشتد هلعهم وخوفهم ، إذ ضايقهم المسلمون ، فأشعلوا حولهم النيران ، فى حلفاء كانت هناك ، بجبل حطين ، وكانت الريح مواتية ، فارتفع لهيبها ، فاجتمع عليهم حر الهاجرة ، وحر النار ، وحر العطش ، وألم الجراح ، فاشتد الطعن والضرب ، ودارت عليهم الدائرة ، وكادوا يستسلمون . ثم رأوا أنهم « لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ، فحملوا على المسلمين حملات متتالية ، كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم ، فثبت الله أقدام المؤمنين ونصرهم ،

= Grousset : op cit. II. pp. 792-793.

Runciman : op. cit. II. p. 458.

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ،ص ١٨٩ — ١٩٠ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٢ .

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٧
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٩٠ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٣ .

(٢) Grousset : op. cit. II. p. 797.

إلا أن الفرنج لا يحملون حملة ، فيرجعون إلا وقد قتل منهم ، فوهنوا وهناً عظيما ، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها ، فارتفع من بقى من الفرنج إلى تل بناحية حطين ، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ، ويحموا أنفسهم به ، فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ، ومنعوهم عما أرادوا ، ولم يتمكنوا إلا من نصب خيمة ملكهم . فأخذ المسلمون صليبهم الأعظم ، الذى يسمونه صليب الصلبوت ، فكان أخذه عنهم من أعظم المصايب عليهم ، فأيقنوا بعده بالبوار ، واستمر القتل والأسر يعملان فى فرسانهم ورجالتهم ، فبقى الملك على التل ، فى مائة وخمسين من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين »[1] .

ثم حدث آخر الأمر أن قام المسلمون بهجوم شامل ، أنهوا به المعركة ، فألقوا خيمـــة الملك ، وأسروه مع سائر من بقى من اللاتين معه . وترجل السلطان وسجد شكرا لله تعالى ، وبكى من شدة فرحه[2] .

وقع فى الأسر كبار الزعماء المسئولين عن هذه الهزيمة الماحقة وهم جاى لوزيجنان ، وريجنالد شاتيون ، وجيرار مقدم الداوية ، ووقع أيضاً فى يدى صلاح الدين همفرى الرابع صاحب تبنين ، والماركيز وليم مونتفرات ، وأملريك لوزيجنان ، شقيق جاى ، وهيو صاحب جبيل[3] .

وما أصاب الفرنج من مصرع عدد كبير من عساكرهم وأسرهم ، يعتبر من أفدح الكوارث التى حلت بهم ، وما أورده المؤرخون من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٧ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٩٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٤ .

أرقام عن الضحايا ، يشوبها الخلط والاضطراب . ومع ذلك فالواضح أنه لم ينج إلا عدد قليل من المحاربين ، بالإضافة إلى من نجا من جند المؤخرة بقيادة باليان صاحب يبنة ورينالد صاحب صيدا ، أو جند المقدمة بقيادة ريموند صاحب طرابلس[١]. على أنه هلك معظم الجيش الرئيسى بقيادة الملك جاى ، فمن لم يلق من المحاربين مصرعه ، وقع فى الأسر ، وكان الفرسان أحسن حظا من المشاة فى تجنب الإصابة ، ويشير العماد إلى أن « من عجائب هذه الوقعة (حطين) أن فارسهم مادام فرسه سالما ، لم يذل للصرعة ، فإنه مِن لبسه الزردى من قرنه إلى قدمه ، كان كأنه قطعة حديد ، ودراك الضرب إليه غير مفيد ، لكن فرسه إذا هلك فُرس ومُلك ، فلم يغنم من خيلهم ودوابهم ، وكانت ألوفا ، ما هو سالم ، وما ترجل فارس إلا والطعن والرمى لمركوبه كالم »[٢] .

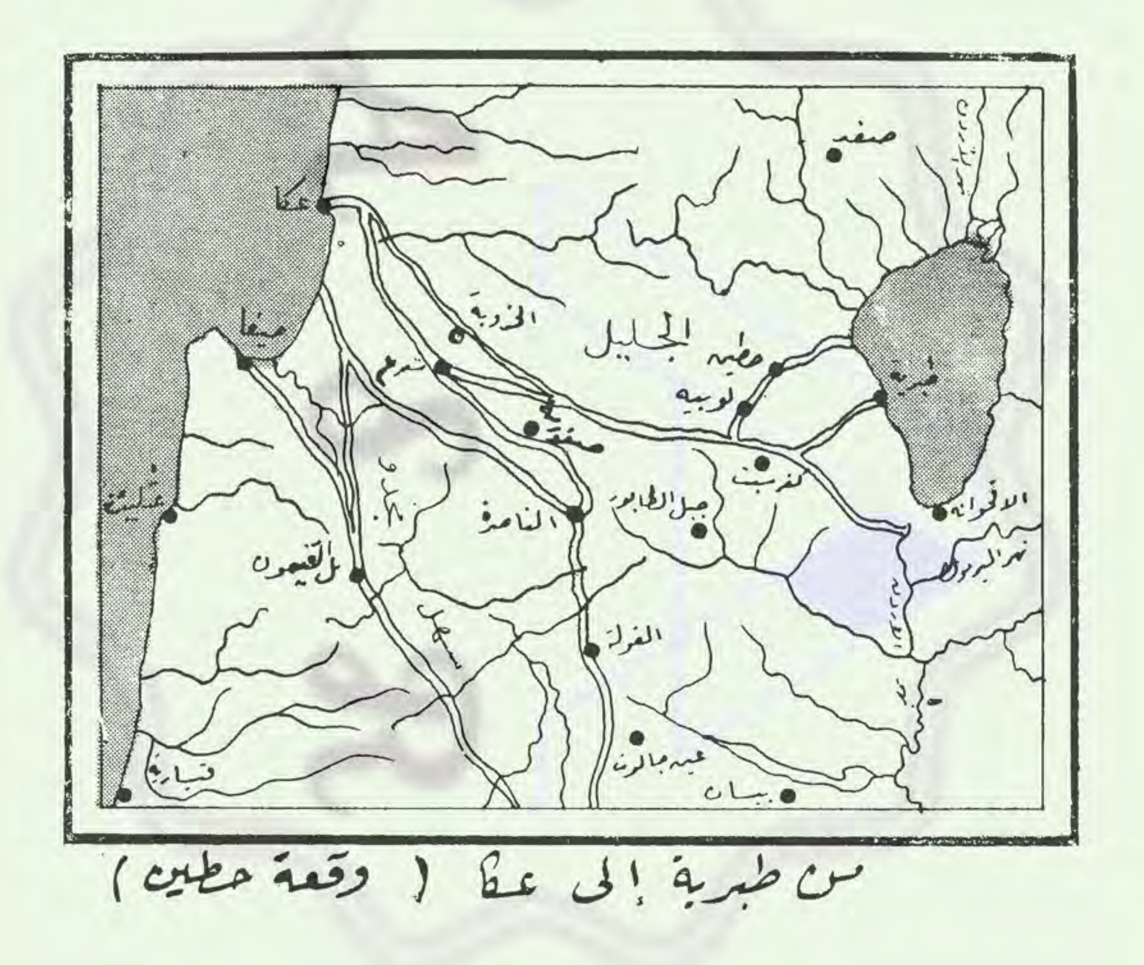
ومن وقع فى الأسر من الفرسان لقى معاملة طيبة ، فليس ثمة فى قوانين الفروسية أو الأصل فى الافتداء ، ما يفيد منه ذوو الأصل الوضيع . وأسر من نجا من القتل من الداوية ومقدمها ، ومن الاسبتارية معظمها ومن البارونات من أخطأه الهلاك . ثم أطلق صلاح الدين سراح عدد كبير من الأسرى الفرسان ، مقابل تسليمهم ما بأيديهم من القلاع والمدن ؛ أما الأسرى من الرجالة ، والأجناد الفرسان ، الذين نجوا من القتل ، فأخذهم آحاد الجند من المسلمين وباعوهم رقيقا . فمن المناظر المألوفة وقتذاك ، أن ارتبط فى حبل واحد ، ثلاثون أو أربعون أسيرا ، يسوقهم شخص واحد[٣] . وحفلت أسواق الرقيق فى سوريا بهؤلاء الأسرى ، فبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير . وأصاب عسكر الإسلام ثروة كبيرة ،

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 613.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٣ .



من طبرية إلى عكا (وقعة حطين)


A S R

من الأسرى والغنائم والأموال . ولم يزد ثمن أسرة مؤلفة من رجل وامرأة وثلاث بنين ، وبنتين على ثمانين دينارا ، بل إن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير ، وكان محتاجا إلى نعل ، فباعه به ، وهذا دليل واضح على كثرة عدد الأسرى[١] .

والواقع أن ما تعرض له الصليبيون من قبل من الهزائم العديدة ، لا يقاس بما حدث فى قرون حطين ، « فمنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ، ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل ، فالله عز وجل ، سلّط السلطان وأقدره على ما عجز عنه الملوك ، وهداه من التوفيق لامتثال أمره ، ومن إقامة فرضه للنهج المسلوك ، ونظم له فى حتوف أعدائه والفتوح لأوليائه السلوك . وخصه بهذا اليوم الأغر والنصر الأبر ، ولو لم يكن له إلا فضيلة هذا اليوم لكان متفردا على الملوك السالفة ، فكيف ملوك العصر ، فى السمو ، غير أن هذه النوبة المباركة ، كانت للفتح القدسى مقدمة ، ولمعاقد النصر وقواعده مبرمة محكمة»[٢] .

وأمر صلاح الدين فضرب له دهليز سرادقه ، فنزل فيه وصلى لله تعالى صلاة شكر على هذه النعمة ، التى تمناها من سبقه من الملوك ولم تتحقق لهم . ثم أحضر ملوك الصليبيين ومقدميهم ، فأجلس الملك جاى إلى جانبه وأجلس ريجنالد إلى جانب الملك ، وفى عزمه أن يفى بنذره ، فقتله جزاء له على غدره ومكره ، ثم جمع السلطان الأسرى المعروفين ، وأمر بنقلهم إلى قلعة دمشق حيث جرى الاحتياط عليهم[٣] .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٨٢ ، ٧٨ .

Runciman : op. cit. II. p. 460.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٧٨ .

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٩٤– ١٩٥ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٧٩ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٣ .

وبات الناس ليلة الأحد (٤ ـ ٥ يوليه سنة ١١٨٧)على أتم سرور ، ترتفع أصواتهم بالحمد لله ، والشكر له ، والتكبير والتهليل ، حتى طلع النهار ، فتوجه السلطان ونزل على طبرية ، وإذ أدركت صاحبتها اشيفا Eschiva ، زوجة ريموند ، حرج مركزها ، بعد أن تخلى عنها زوجها ، وتعذر قدوم نجدة لها ، لم يسعها إلا أن تطلب من صلاح الدين الأمن لها ولأولادها وأصحابها ، فأجابها إلى ذلك ، فلحقت بزوجها ، بعد أن سلمت الحصن بما فيه[1] . وأصدر صلاح الدين الأوامر بألا يلحق الأذى البارونات ، بل ينبغي أن يلقوا فى أسرهم الاحترام والرعاية ، غير أنه لم يشأ أن يبقى على أحد من الفرسان الرهبان ، سوى مقدم الداوية ، « فما جرت عادتهما (الداوية والاسبتارية) بالمفاداة ، ولا يقلعان عن المعاداة ، ولا يخدمان فى الأسر ، وهما أخبث أهل الكفر » فاقى مصرعه بحضوره نحو مائتين منهم ، وكتب إلى نائبه بدمشق ، أن يضرب عنق كل من يجد منهم ، فامتثل للأمر ، وأن ينزل بسجون دمشق الملك جاى ورفاقه المأسورين[2] .

وما حل بالصليبيين فى حطين من هزيمة ساحقة ، لم يكن إلا تمهيداً للانهيار التام لمملكة بيت المقدس ، إذا أصبح المركز الحربى الذى يواجه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٩ — ٨١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .
والمعروف أن طبرية فى زمن الفرنج ، كانت تحصل على نصف خراج البلاد من الصلت ، والبلقا ، وجبل عوف ، والجبانية ، والسواد ، وتناصف الجولان وما يقربها إلى بلد حوران ، فن الطبيعى أن يزول هذا الأمر .
انظر أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٩ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٩ — ٨٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٩٦ — ١٩٧ .
العماد الكاتب : الفتح القسى ص ٢٨ — ٢٩ .

بيت المقدس ، وإمارتى طرابلس وأنطاكية بالغ الخطورة ، فتجردت الإمارات الصليبية من القوات الحربية . لم يكن الاستعمار الفرنجى راسخاً ووطيداً ، فما وقع بالصليبيين بحطين من القتل والأسر ، قضى فى ضربة واحدة على كل الفئة المحاربة ؛ فلحشد جيش مؤلف من ١٢٠٠ فارس ونحو عشرين ألف من الرجالة والتركبولية ، للقتال فى حطين ، كان لا بد من جلب هذه القوات من القلاع والحصون ، فلم يبق بها من الحاميات ، ما يجعلها تقاوم صلاح الدين ، ولم يكن ثمة من الجيوش ما يمد إليها يد المساعدة أو ينقذها[1] . فلم تكن حطين مجرد معركة ، بل كانت خاتمة استعمار ، ويشير أبو شامة إلى أن « من شاهد القتلى ، قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل »[2] .

والواقع أن سقوط كل فلسطين ، باستثناء القلاع الواقعة على الأطراف فى أيدى صلاح الدين ، تم فى سرعة مذهلة . فلم تنته سنة ١١٨٧ ، حتى احتلت عساكر صلاح الدين كل المدن الهامة بمملكة بيت المقدس ، فيما عدا صور . فصار صلاح الدين ينتقل من انتصار إلى انتصار ، فى الفترة الواقعة بين شهرى يوليه واكتوبر . وأظهر من النشاط ، وحاز من الظفر والنصر ، ما لم يحدث من قبل . ولا شك أن لعبقرية صلاح الدين ، أثراً كبيراً فيما جرى من الأحداث فى هذه الشهور[3] . تهيأت له الفرصة ، فعرف كيف يفيد منها ، ودأب دون هوادة أو ملل على العمل والجهاد ، وما يحرزه كل زعيم أو قائد من مجد إنما يرجع لهذه الصفات . على حين أن الصليبيين أدركوا أن الله قد تخلى عنهم بسبب ما ارتكبوه من الذنوب ، فاستولى المسلمون على صليب الصلبوت ، الذى اعتقدوا « أنه إذا نصب وأقيم ورفع

---

(١) Baldwin : op. cit. p. 615
Grousset : op. cit. I. p. 799

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٩ .

(٣) Stevenson : op. cit. p. 248.

سجد له كل نصرانى ، وطلبوا به الفرج ، وأخذه عندهم أعظم من أسر الملك »[١] ؛ فأيقنوا بعده بالقتل والهلاك[٢] .

وإذ لقى صلاح الدين المساندة فى كل مكان ، ولم يصادف إلا مقاومة ضئيلة من حاميات بعض الحصون المبعثرة المتفرقة ؛ فلا عجب إذ كان مسير صلاح الدين ، اقترن بالنصر المستمر ، لم يفسح للصليبيين من الوقت ما يحشدون فيه قواتهم ، فبادر بوضع خططه . قرر صلاح الدين أنه لا بد أن يبدأ بمهاجمة المدن الساحلية ، لما لها من أهمية كبيرة ، ولم يضارعها فى المساحة من المدن الداخلية إلا بيت المقدس . يضاف إلى ذلك أن ما تبقى للصليبيين من الأمل فى المساعدة ، بعد أن قطع صلاح الدين عن القلاع والحصون ، المؤن والأمداد ، هو أن تقـــدم من الغرب فوراً أمداد حربيه ، ومن الواضح أن الموانى هى التى تستقبل هذه الأمداد ، وفى الوقت ذاته ، كانت لها أهمية كبيرة فى تأمين الطريق بين مصر والشام[٣] .

وجه صلاح الدين اهتمامه بعد وقعة حطين مباشرة إلى أن يستولى على أكبر عدد من المدن والحصون الهامة فى أقصر وقت ، فصوب ضرباته إلى الموانى الهامة ، ولم يتوقف إلا ريثما يستولى على القلاع والمدن الداخلية التى لم تبد إلا مقاومة ضئيلة[٤] . ولما كانت عكا أقرب الموانى إلى صلاح الدين ، فلا يفصلها عنه إلا السهل الساحلى ، فإنه بادر بالمسير إليها بعد أن فرغ من تسوية أمر طبرية ، فنزل عليها فى ٨ يوليه ، ونظراً لأن حاكم المدينة ، جوسلين كورتناى لم يحفل إلا بسلامته ، أنفذ رسوله بطرس برايس

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٨ – ٧٩ .

Stevenson : op. cit. p. 248.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٣ – ٣٥٤ .

(٣) Stevenson : op. cit. p. 249.

Baldwin : op. cit. p. 615.

(٤) Baldwin : loc. cit.

Peter Price ، يعرض على صلاح الدين ، تسليم المدينة إذا وعد بالإبقاء على حياة السكان وممتلكاتهم ، فمن شاء أن يرحل ، فلن يتعرض للأذى والضرر ، ومن أراد البقاء بالمدينة ، التزم بدفع الضريبه المقررة[1] . على أن كثيراً من السكان ، أظهروا أول الأمر الامتناع ، وأبدوا من المقاومة ما حمل صلاح الدين على أن يقرر الزحف على المدينة وقتالها ، غير أنهم لم يلبثوا أن ركنوا إلى الهدوء والتمسوا الأمان من صلاح الدين فاستجاب لهم فى ٩ يوليه ، ومن ارتحل منهم ، حملوا ما أمكنهم حمله من الأموال ، وتركوا الباقى على حاله . وغنم المسلمون ما بقى ، من الذهب ، والجوهر ، والثياب ، والسلاح والمؤن ، والدور ، والعقارات الثابتة ، والأمتعة ، والتحف ، والسكر ، لأن عكا « كانت مقصدا للتجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها ، وكان كثير منها ، قد خزنه التجار ، وسافروا عنه لكساده ، فلم يكن له من ينقله » ، فوزع صلاح الدين وابنه الأفضل كل ذلك على أصحابهما[2] . واستنقذ من كان بها من أسرى المسلمين ، البالغ عددهم أربعة آلاف نفس[3] .

أنفذ صلاح الدين ، من عكا التى اتخذها قاعدة للعمليات الحربية ، السرايا إلى سائر الجهات لإخضاعها ، وكتب إلى أخيه العادل بالقاهرة بالقدوم بالعساكر المصرية ؛ ليسهم فى استخلاص فلسطين . فاستولت العساكر على الناصرة وصفورية والفولة فى داخل البلاد ؛ بينما استولت

---

(١) Runciman : op. cit. II p. 461.

Stevenson : op. cit. p. 249.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٦ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٨٥ — ٨٧ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠١ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٤ .

جماعة أخرى من العساكر على حيفا وقيسارية وأرسوف على الساحل ، وأخضعت قوة أخرى سبيسطةونابلس[1] . ولما امتنعت تبنين على تقى الدين ، سار إليها صلاح الدين فاستولى عليها ؛ ولم تحدث إلا مقاومة ضئيلة فى غير هذه الجهات[2] . ثم توجه صلاح الدين إلى صيدا ، فاستسلمت فى ٢٩ يوليه ، وفر صاحبها رينالد إلى قلعته المنيعة شقيف أرنون بالداخل[3] . وقصد بعدئذ بيروت ، التى تعتبر من أمنع مدن الساحل وأطيبها ، فحاول أهلها المقاومة ، ارتكانا إلى متانة أسوار المدينة ؛ ولما لم يكن سكان المدينة إلا تجارا ، ليست لهم دراية وخبرة حربية ، أدركوا أنهم لن يستطيعوا الصمود طويلا ، فطلبوا الأمان من صلاح الدين ، وأذعنوا له فى ٦ اغسطس ١١٨٧[4] . ثم ارتحل صلاح الدين إلى جبيل ، وكان صاحبها أوك Hugues III من أسرة امبرياكو الجنـوية Embriaco ، ووقع فى أسر صلاح الدين فى حطين ، وجرى حبسه فى دمشق ، فطلب أن يتحدث إلى نائب صلاح الدين ، فى أمر تسليم حصنه ، مقابل إطلاق سراحه ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٦ .
كان أهل نابلس ، ومعظمهم مسلمون ، يؤدون كل سنة للصليبيين ، مقداراً معيناً من المال ، فلما استردها صلاح الدين ، استمال من سكانها من ضرب عليه الجزية ، وأجراهم على ما لهم من العمارة (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٨٨ . ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٧) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٨٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٧ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٤ — ٦٥ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٦ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٨ .
Grousset : op. cit. II. p. 806.

فرضى صلاح الدين بذلك ، فسلم حصنه وأطلق الأسرى المسلمين ، وأطلقه السلطان . وأنكر ابن الأثير إطلاق سراحه ، لمـــاله من مكانة عالية عند الصليبيين ولشدة عداوته للمسلمين ، التى حملته على أن يناوئهم فيما بعد على الساحل[١] . ولم ينته أغسطس سنة ١١٨٧ ، حتى لم يبق بيد الصليبيين جنوب طرابلس ذاتها ، سوى صور وعسقلان وغزه ، وقلاع وحصون متناثرة قليلة العدد ، ثم مدينة بيت المقدس[٢] .

ولما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما من المدن ، كان أمر عسقلان والقدس بالغ الأهمية عنده، لوقوع عسقلان على طريق مصر ، فإذا أخذت أمنت الطريق ، واتصلت القوافل ، وكان صلاح الدين حريصا على أن تتصل ولاياته، ليسهل خروج العسكر منها، ودخولهم إليها ، ولما فى فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم[٣] .وعلى الرغم من أنه لم يكن بعسقلان من الفرسان من يتولون الدفاع عنها ، فإنها اشتهرت بمناعتها ومتانة أسوارها ، وبها جماعة من الفرنج ، حرصت على الدفاع عنها[٤] .

واجتمع صلاح الدين بأخيه العادل وبالعساكر المصرية ، وتقرر منازلة عسقلان، وأحضر صلاح الدين الملك جاى لوزيجنان وجيرار مقدم الداوية ، من دمشق ، ووعدهما بإطلاق سراحهما إذا أرسلا إلى سكان عسقلان لتسليمها ، غير أنهم لم يستجيبوا لدعوة الملك ومقدم الداوية ، واستمروا على مقاومتهم ، حتى تضاءل عدد المدافعين عن المدينة بسبب ما لحقهم من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٧ .
Grousset : op. cit. II. p. 806-807.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 462.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٩ .
Grousset : op. cit. II. p. 807.

(٤) Grousset : op. cit. II. p. 807.

جماعة أخرى من العساكر على حيفا وقيسارية وأرسوف على الساحل ، وأخضعت قوة أخرى سبسطة ونابلس[١] . ولما امتنعت تبنين على تقى الدين ، سار إليها صلاح الدين فاستولى عليها ؛ ولم تحدث إلا مقاومة ضئيلة فى غير هذه الجهات[٢] . ثم توجه صلاح الدين إلى صيدا ، فاستسلمت فى ٢٩ يوليه ، وفر صاحبها رينالد إلى قلعته المنيعة شقيف أرنون بالداخل[٣] . وقصد بعدئذ بيروت ، التى تعتبر من أمنع مدن الساحل وأطيبها ، فحاول أهلها المقاومة ، ارتكانا إلى متانة أسوار المدينة ؛ ولما لم يكن سكان المدينة إلا تجارا ، ليست لهم دراية وخبرة حربية ، أدركوا أنهم لن يستطيعوا الصمود طويلا ، فطلبوا الأمان من صلاح الدين ، وأذعنوا له فى ٦ اغسطس ١١٨٧[٤] . ثم ارتحل صلاح الدين إلى جبيل ، وكان صاحبها أوك Hugues III من أسرة امبرياكو الجنـوية Embriaco ، ووقع فى أسر صلاح الدين فى حطين ، وجرى حبسه فى دمشق ، فطلب أن يتحدث إلى نائب صلاح الدين ، فى أمر تسليم حصنه ، مقابل إطلاق سراحه ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٦ .
كان أهل نابلس ، ومعظمهم مسلمون ، يؤدون كل سنة للصليبيين ، مقداراً معيناً من المال ، فلما استردها صلاح الدين ، استمال من سكانها من ضرب عليه الجزية ، وأجراهم على ما لهم من العمارة (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٨٨ . ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٧) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٨٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٧ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٤ — ٦٥ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٦ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٨ .
Grousset : op. cit. II. p. 806.

فرضى صلاح الدين بذلك ، فسلم حصنه وأطلق الأسرى المسلمين ، وأطلقه السلطان . وأنكر ابن الأثير إطلاق سراحه ، لمـــاله من مكانة عالية عند الصليبين ولشدة عداوته للمسلمين ، التى حملته على أن يناوئهم فيما بعد على الساحل[١] . ولم ينته أغسطس سنة ١١٨٧ ، حتى لم يبق بيد الصليبين جنوب طرابلس ذاتها ، سوى صور وعسقلان وغزه ، وقلاع وحصون متناثرة قليلة العدد ، ثم مدينة بيت المقدس[٢] .

ولما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما من المدن ، كان أمر عسقلان والقدس بالغ الأهمية عنده، لوقوع عسقلان على طريق مصر ، فإذا أخذت أمنت الطريق ، واتصلت القوافل ، وكان صلاح الدين حريصا على أن تتصل ولاياته، ليسهل خروج العسكر منها ، ودخولهم إليها ، ولما فى فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم[٣] . وعلى الرغم من أنه لم يكن بعسقلان من الفرسان من يتولون الدفاع عنها ، فإنها اشتهرت بمناعتها ومتانة أسوارها ، وبها جماعة من الفرنج ، حرصت على الدفاع عنها[٤] .

واجتمع صلاح الدين بأخيه العادل وبالعساكر المصرية ، وتقرر منازلة عسقلان، وأحضر صلاح الدين الملك جاى لوزيجنان وجيرار مقدم الداوية ، من دمشق ، ووعدهما بإطلاق سراحهما إذا أرسلا إلى سكان عسقلان لتسليمها ، غير أنهم لم يستجيبوا لدعوة الملك ومقدم الداوية ، واستمروا على مقاومتهم ، حتى تضاءل عدد المدافعين عن المدينة بسبب ما لحقهم من

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٥٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٠٧ .
Grousset : op. cit. II. p. 806-807.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 462.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٦٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٠٩ .
Grousset : op. cit. II. p. 807.

(٤) Grousset : op. cit. II. p. 807.

الخسائر ، فلم يسعهم إلا التسليم بشروط قبلها صلاح الدين فى ٥ سبتمبر سنة ١١٨٧ ، بأن يخرجوا آمنين على أنفسهم ونسائهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس[١] . وتسلم صلاح الدين حصون الداوية ، بعد أن اتصل بحامياتها جيرار مقدم الداوية يدعوها للتسليم ، فأذعنت غزه ، والبطرون ، وبيت جبريل ، والرملة ، والداروم ، وبيت لحم[٢] . واستسلم أيضاً كل المدن الواقعة جنوب بحيرة طبرية ، ما عدا الشوبك والكرك ، فضلا عن حصون كوكب وصفد وشقيف أرنون التى استمرت على المقاومة[٣] .

ولحرص صلاح الدين على أن يمضى فى فتوحه قدما ، درج على أن يجيز للحاميات التى تدافع عن المواقع الصليبية ، أن تخرج فى أمن وسلام ، إذا سلمت المدن التى تدافع عنها ، بل إنه لجأ أحيانا إلى إطلاق سراح ذوى المكانة من المأسورين ، مثال ذلك أنه أطلق سراح مقدم الداوية الذى بفضل وساطة جاى أبقى على حياته عقب حطين ، بعد أن طلب إلى حامية غزة الإذعان[٤] . وصار كل من استأمن من الصليبيين يمضى إلى صور ، وما سقط بلد بالأمان ، إلا سار أهله ، فى حفظ

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٥ .
Grousset : op. cit II. p. 808. Runciman : op. cit. II. p. 462.
المعروف أن الصليبيين استولوا على عسقلان من يد الفاطميين سنة ١١٥٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٠ — ٣٦١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ .
Grousset : op. cit. II. p. 809.

(٣) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 615

(٤) Baldwin : op. cit. p. 616

السلطان ، حتى يبلغوا صور[١] . فاجتمع بصور من الصليبيين خلق كثير ، بمن نزح إليها من اللاجئين من المدن التى وقعت فى يد صلاح الدين ، ومن بقى من سكانها بعد معركة حطين ، فضلا عن الذين هربوا من معركة حطين[٢] . ومن هؤلاء ريموند كونت طرابلس ، إذ قدم إليها ، وامتنع بها ، لحصانتها وقوة استحكاماتها . غير أنه لما تبين له أن صلاح الدين استولى على تبنين وصيدا وبيروت ، وتوقع مهاجمته صور ، وليس بها من يحميها ويدافع عنها ، سار إلى طرابلس ، فبقيت صور « شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين »[٣] . فعزم سكانها على مكاتبة صلاح الدين ، وطلب الأمان منه ، وتسليم البلد إليه ، فلم يكن لهم رأس يجمعهم ، ولا مقدم يقاتل بهم ، وليسوا أهل حرب[٤] . غير أن صلاح الدين لم يشأ حمل جيشه على معاناة حصار صور الذى لابد أن يطول ، لمناعتها ، وأراد أن يتفرغ لفتح ما يجاورها من البلاد ، فيتيسر له بذلك الاستيلاء عليها ، فكان ذلك من أسباب حفظها[٥] . وأورد

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩١ .

(٢) Baldwin : op. cit. p. 617

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٨ — ٣٥٩ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٩ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٥٩ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٩ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٢ .

لو أن صلاح الدين بدأ بمنازلة صور ، قبيل تبنين ، فإنه لن يلقى مقاومة من حاميتها . إذ أن رينالد صاحب صيدا وقائد الجيش ، حينما رأيا أنه ليس لديهما فرسان ، ولم يكن بالمدينة إلا عدد قليل من الرجال ، وتناقصت بها الأقوات ، أرسلا إلى صلاح الدين ، يعدانه بتسليم المدينة (صور) ، إذا رفع عنها الحصار ، وكانت الأحوال قد تطورت ، حتى أن صلاح الدين أعد علمين لرفعهما على القلعة فى اليوم التالى ، لولا أن وقع حادث ، غير مجرى الأمور على ساحل الشام .

انظر : Lane - Poole : Saladin p. 220.

ابن شداد سببا آخر ، للتخلى عن حصار صور ، « بأن العسكر قد تفرق في الساحل ، وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئاً من الغنيمة وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب »(١) .

وحدث فى ١٥ يوليه سنة ١١٨٧ ، أن قدم إلى صور الماركيز كونراد مونتفرات ومعه جماعة من الفرسان القادمين من أوربا ، فاستطاع أن يقوى نفوس أهل صور ويمنعهم من مراسلة صلاح الدين ، وضمن لهم حفظ البلد ، وشرط عليهم أن تكون له المدينة وأعمالها ، فأجابوه إلى ذلك ، وأخذ أيمانهم عليه(٢) . وعلى الرغم من أن صلاح الدين عرض إطلاق سراح وليم مونتفرات ، والدكنراد ، مقابل تسليم صور ، فإن هذا الاقتراح لم يلق قبولا . ولما لم يكن لدى صلاح الدين وقتذاك أسطول لمساندته فى استمرار الحصار ، لم يسعه إلا أن يرفع الحصار بعد أسبوع . فالتفت كنراد إلى تحصين المدينة وتجديد حفر الخنادق ، وعمارة الأسوار ، والاستعداد لاسترداد البلاد التى استولى عليها صلاح الدين . وما أحرزه صلاح الدين من الانتصار فى صيف سنة ١١٨٧ كان انتصارا باهرا ، غير أنه لم يكن كاملا ، فتعرض صلاح الدين للانتقاد ، لأنه أجاز للصليبيين أن يجتمعوا فى صور(٣) .

سقوط بيت المقدس :

ولما فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان وما حولها من البلاد ، ووصل الأسطول المصرى إلى المياه الشامية ، بعد أن قطع الطريق على

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٥ .

Runciman : op. cit. II. p. 471.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٨– ٢٠٩ .

(٣) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 616

Lane - Poole : Saladin p. 221 - 223.

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٩ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ، ص ٣٥٩ .

السفن الصليبية ، سار متوجها إلى بيت المقدس ، فاجتمعت إليه العساكر التى تفرقت فى الساحل للإغارة والنهب[١] ، وذلك بعد أن فشلت المفاوضات التى دارت فى عسقلان ، بين صلاح الدين ووفد من سكان بيت المقدس ، فى الشروط التى تستسلم بها المدينة المقدسة ، إذ اعتبروا أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ، وإن بذل النفس والمال والأولاد ، بعض ما يجب ، لحفظ البيت المقدس[٢] ، « إذ هو بيت معبودهم ، ومحل تجسد ناسوتهم بلاهوتهم فيما زعموا ، وفيه قمامة التى يدعونها القيامة ، وفيها زعموا أن المسيح دفن بعد الصلب ، وقام بعد ثلاث من القبر ، وصعد إلى السماء »[٣] .

وتولى تنظيم الدفاع عن المدينة البطريرك هرقل ، وباليان صاحب الرملة ، الذى كان بين اللاجئين إلى صور ، والذى سمح له صلاح الدين بدخول بيت المقدس ، حيث لجأت إليها زوجته وأولادها ، بعد مغادرة نابلس ، فأراد باليان أن يحملهم إلى صور . غير أنه لم يلبث أن أقام فى بيت المقدس ، وبذل كل جهد فى المحافظة على المدينة[٤] . وازداد عدد سكان المدينة بمن لجأ إليها من أهل البلاد المجاورة ، واحتشد بها

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢١١ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦١ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦١ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢١١ — ٢١٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٣ .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢١٢ .

Runciman : op. cit. II. p. 463.
Lane-Poole : Saladin. p. 225.
Grousset : op. cit II. p. 809.

من خلص من حطين من فرسان الداوية والاسبتارية والبارونات ، فضلا عن أهل عسقلان ونواحيها ، الذين نزحوا إليها[١] . على أنه لم يصلح منهم للقتال إلا عدد قليل ، ولذا أخذ باليان ينصب للفروسية كل صبى ناهز السادسة عشرة من عمره ، وانحدر من أسرة شريفة فضلا عن ثلاثين من أعيان المدينة وسراتها[٢] . وأرسل جماعات إلى الجهات المجاورة للحصول على حاجة السكان من المؤن ، وتسلم ما فى خزانة الملك جاى من أموال ، وما أرسله هنرى الثانى ملك إنجلترا من إعانة للاسبتارية ، ووزع الأسلحة على كل قادر على حمل السلاح[٣] .

وصل صلاح الدين فى سبتمبر ١١٨٧ إلى بيت المقدس ، التى حوت مقدسات المسلمين والمسيحيين سواء[٤] ؛ ولذا حرص صلاح الدين أن يجنب المدينة الحصار الطويل ، وأن يحافظ عليها ، لمكانتها المقدسة عند المسلمين والمسيحيين[٥] ، فكان يأمل فى إذعانها دون الالتجاء إلى القتال[٦] ، ولا سيما أنه لم يكن بالمدينة من العساكر ما يكفى للدفاع عنها ، ولمقاومة قوات صلاح الدين التى تفوقهم عددا وعدة[٧] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢١١
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٦١
ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٩٣ .
Runciman : op. cit. II. p. 463-464.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 464.

(٣) Runciman : op. cit. p. 464.

(٤) أورد أبو شامة تفاصيل قيمة عن هذه المقدسات الإسلامية والمسيحية – انظر أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٣ – ٩٤

(٥) Grousset : op. cit. II. p. 810.

(٦) Baldwin : op. cit. p. 616. Grousset : op. cit. II. p. 810

(٧) Baldwin : loc. cit.

ولما ابتدأ القتال فى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧ ، اشتدت مقاومة السكان لمدة ستة أيام ، « فصعدوا على سوره ، واجتمعوا على حفظه ، والذب عنه بجهدهم ، وأظهروا العزم على المناضلة دونه ، ونصبوا المنجنيقات ، ليمنعوا من يريد الدنو منه ، والنزول عليه »(١) . ولما رأى الصليبيون شدة قتال المسلمين ، وتحكم منجنيقاتهم فى السور ، وأنهم أشرفوا على الهلاك ، اجتمعوا يتشاورون فى الأمر ، فاستقر رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس ، فأرسلوا جماعة من كبرائهم ، يلتمسون الأمان ، فرفض صلاح الدين طلبهم أول الأمر ، وأشار إلى أنه لا يأخذ القدس إلا كما أخذه الفرنج من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة ، فإنهم استباحوا القتل ، وجزاء السيئة بمثلها(٢) . فتوجه باليان صاحب الرملة إلى صلاح الدين ، وألح فى طلب الأمان ، وأشار إلى أنهم« يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة ، فإذا رأينا الموت لابد منه ، فوالله لنقتلن أبناءنا ، ونحرق أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ، ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة ، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى ، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم كلنا ، وحينئذ لا يقتل الرجل ، حتى يقتل أمثاله »(٣) .

وإذ أدرك صلاح الدين أن سلطته أضحت وطيدة راسخة ، ولما اشتهر به من السخاء والعفو والرحمة ، لم يسعه ، بعد « مراودات ومفاوضات ، وضراعات من القوم » إلا أن يعتبرهم أسارى ، فيبيعهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦١
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٤
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٥
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٢ — ٣٦٣
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٥

نفوسهم ، بما يجرى الاتفاق عليه من الجزية[١] ، فإذا عجز أحدهم ، بعد أربعين يوما عما لزمه ، ضرب عليه الرق[٢] . وتقرر أن يؤدى عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسة ، وعن كل صغير ديناران ، الذكر والأنثى فيهما سواء ، وضمن الوفاء بذلك ، باليان والبطريرك ومقدمو الداوية والاسبتارية[٣] . فبذل باليان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار[٤] ، ومن قام بالأداء ، خرج عن بيته آمنا ، على أن يترك وراءه ما عنده من خيل وسلاح[٥] .

وفى يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ (٢ أكتوبر ١١٨٧) دخل صلاح الدين المدينة ، فارتفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار ، وجرى الاحتفال بافتتاح المساجد من جديد . ولما لم يتم دخول المسلمين إلى المدينة إلا فى المساء ، فإن الاحتفال الدينى تأجل إلى يوم الجمعة التالى (٩ أكتوبر ١١٨٧) ، فقامت الصلاة بالمسجد الأقصى ، وأدى صلاح الدين هذه الصلاة ، فى قبة الصخرة[٦] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٦٣
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٩٥
Lane - poole : Saladin p. 228 - 229

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٩٥

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٩٥ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٩٥ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٦٣ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢١٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٩٥ .

(٦) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ، ص ٣٦٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٩٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢١٨ — ٢٢٨ .
Runciman : op cit. II p. 465.
Grousset : op. cit. II. p. 812-813.

وما اشتهر به المسلمون الظافرون من التسامح والروح الإنسانية والاستقامة ، جعلهم يلتزمون بحسن معاملة الصليبيين ؛ فبينما خاض الفرنج بأقدامهم فى دماء المسلمين عند الاستيلاء على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ، لم تتعرض بعد أن استردها صلاح الدين سنة ١١٨٧ ، دار من دورها للنهب ، ولم يلحق أحد من سكانها أذى أو ضرر . فأخذت جماعات من العساكر تطوف ، بناء على أوامر صلاح الدين ، بالطرقات والأبواب ، لمنع كل اعتداء على المسيحيين ، وفى الوقت ذاته حرص كل صليبى على أن يدبر المـــال المقرر عليه[1] . إذ وُكّل بكل باب ، أمير ومقدم كبير ، للوقوف على عدد الخارجين من المدينة والداخلين إليها ، فمن أدى ما هو مقرر عليه من القطيعة خرج ، ومن لم يقم بما عليه ، بقى بالحبس[2] .

أخذ باليان ما فى الخزانة من الأموال ، ليؤدى ما وعد به من المال ، وقدره ٣٠ ألف دينار . لم يكن من اليسير حمل الاسبتارية والداوية على أن يسهموا فى ذلك ، ولم يحفل البطريرك وهيئة الكنيسة إلا بمصالحهم الخاصة ؛ ولم يشأ صلاح الدين أن يأخذ من البطريرك إلا عشرة دنانير ، وهى المبلغ المقرر عليه ، على الرغم من أنه حمل معه كل أموال الكنائس والبيع ، وتوجه بمن معه إلى صور[3] . وبفضل ما تبقى من إعانة هنرى الثانى ، تقرر إطلاق سراح سـبعة آلاف من الفقراء ، ولم تسهم الداوية والاسبتارية والكنيسة إلا بقسط ضئيل فى تأدية القطيعة المقررة على السكان ،

---

(١) Runciman : op. cit II. p. 466.
Lane - Poole : Saladin p. 230

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢١٥ .
العماد الكاتب : الفتح القسى ص ٥٥ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢١٧ .

ولذا بقى فى الأسر ألوف عديدة ؛ لعجـزها عن الوفاء بما التزمت به من المال[١] .

وما التزمه صلاح الدين فى الوفاء بعهوده ؛ من الإخلاص ، والعاطفة الإنسانية ، والمروءة والفروسية ، ما أدهش المؤرخين اللاتين ، فألزم العساكر المسلمين بألا يدخلوا المدينة إلا من باب الخليل ، وألا يفعلوا ذلك إلا من أجل الشراء من الفرنج[٢] . والتمس البطريرك من صلاح الدين أن يطلق سراح خمسمائة من فقراء المسيحيين ، فاستجاب لطلبه ، واستوهب العادل من أخيه جماعة من الفقراء المسيحيين ، فوهبه ألفا ، فأطلق سراحهم[٣] . وجعل صلاح الدين أخاه العادل متوليا أمر ما يؤديه الصليبيون من الفدية ، فسهل على السلطان « الاستخراج والإخراج »[٤] . ولما أشار العماد إلى ما حمله البطريرك من التحف والجواهر والحلى ومصوغات الذهب والفضة والبسط والستور الحريرية ، التى نزعها من كنيسة القيامة ، والتى لا ينطبق عليها الاتفاق ، أراد صـلاح الدين أن يلقن الصليبيين درسا فى السخاء والتسامح ، لم يسع صـلاح الدين إلا أن يتغاضى عن ذلك ، بأن قال « نحن نجريهم على ظاهر الأمان ، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان »[٥] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٣٦٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٩٥ .
Baldwin : op. cit. p. 617. Runciman : op. cit. II. p. 466.
Grousset : op. cit. II. p. 815.

(٢) Grousset : op. cit. II p. 815.

(٣) Grousset : op. cit. II. p. 815.
Runciman : op. cit. II. p. 466.

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٩٥ .
Grousset : op. cit. II. p. 815

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١١٥ .
Grousset : op cit. II. p. 815.
Runciman : op. cit. II. p. 466.

ووهب صلاح الدين ، باليان ، ٥٠٠ أسير ، وأعلن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وامرأة عجوز ، ولما أقبل نساء الفرنج على صلاح الدين يتضرعن له ، ويسألنه عن مصيرهن ، بعد أن لقى أزاوجهن أو آباؤهن مصرعهم ، أو وقعوا فى الأسر ، وعدهن بأنه سوف يطلق سراح الأسرى منهم ، أما الأرامل واليتامى فجعل لهم أموالا من خزانته ، كل بحسب حالته[1] .

ومن الدليل على مروءة صلاح الدين وفروسيته ، أنه أطلق سراح الملكة سيبل ، فلحقت بزوجها جاى لوزيجنان ، المعتقل فى قلعة نابلس ، وأجاز لباليان أن تنتقل زوجته ، الملكة السابقة ، ماريا كومنين إلى صور ، فخرجت بجميع « مالها ونسائها ورجالها ، وأسفاطها ، والصناديق بأقفالها ، وتبعها من لم يكن من أتباعها »[2] . وشفعت ستيفانى زوجة ريجنالد شاتيون ، فى ابنها المأسور همفرى ، فوعد صلاح الدين بإطلاق سراحه إذا استسلم له الكرك والشوبك ، ولما لم تقبل حامية هذين الحصنين الإذعان ، ردّ صلاح الدين همفرى إلى الحبس ، بينما ارتحلت ستيفانى إلى صور[3] .

وأطلق صلاح الدين وأمراؤه سراح ثلاثة أو أربعة آلاف من الأسرى الفقراء ؛ على أن عدداً كبيرا خرج من القدس بطرق غير مشروعة ،

---

(١) Lane - Poole : Saladin p. 232-233

Runciman : op. cit. II. p. 466. Grousset : op. cit. II pp. 817-818

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٥ — ٩٦ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢١٦.

Baldwin : op. cit. p. 617.

Grousset : op. cit. II. p. 817.

فمنهم من أدلى من السور بالحبال ، ومنهم من اختفى فى الأحمال ، ومنهم من تنكر فى ذى الأجناد المسلمين ، واستوهب جماعة من الأمراء عددا من الفرنج ، فوهبهم صلاح الدين لهم فأخذوا قطيعتهم ، وبالجملة لم يصل إلى خزائن صلاح الدين إلا القليل[1] ، وأفرج صلاح الدين عن زهاء ثلاثة آلاف أسير[2] .

وإذ تقرر إخراج اللاجئين إلى الساحل (صور ، طرابلس ، أنطاكية) الذى لا زال فى أيدى الصليبيين ، تولى حراستهم ثلاث هيئات ، الداوية والاسبتارية ثم باليان والبطريرك ، وكفل لهم صلاح الدين السلامة والمؤن أثناء اجتياز الأراضى الإسلامية . ولما ضاقت صور بمن لجأ إليها من جهات أخرى ، لم تقبل من القادمين سوى المحاربين ، ولما اجتازوا اقليم لبنان ، سلبهم أحد الأمراء المحليين ، ريموند نيفين أمتعتهم ، وأغلقت طرابلس أبوابها فى وجوههم ، وتعرض للنهب من كان لديه مال ، وأغنياء بيت المقدس ، والتمس البقية ملجأ فى أنطاكية وقليقية[3] . أما اللاجئون من عسقلان فكانوا أحسن حظا ، إذ توجهوا إلى مصر ، وأفادوا من حماية صلاح الدين لهم ، بما تلقوه من الضيافة طوال الشتاء فى الإسكندرية ، وبما بذله الموظفون لهم من مساعدة من حيث المؤن ، وتيسير سفرهم إلى الغرب . ولما رفض رؤساء السفن الإيطالية نقلهم إلى الموانى الغربية ، إلا إذا دفعوا أجورا مرتفعة ،

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٩٥ .

ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٤ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٧ .

(٣) **Baldwin : op. cit. p. 617.**

Runciman : op. cit. II. p. 467.

Grousset : op. cit. II. p. 818 - 819

رفضت الحكومة المصرية أن تسمح للسفن الإيطالية ، بمغادرة الميناء إلا إذا قبلتهم مجانا[١] .

وبقى بضعة ألوف منهم فى بيت المقدس وضواحيها ، إما لكى يدخلوا فى خدمة السلطان ، أو ليدفعوا الجزية المقررة عليهم كل سنة ، على أن معظمهم كانوا من المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة ، من اليونانيين والسوريين . وصرح صلاح الدين لعشرة من الاسبتارية بالبقاء سنة أخرى ، للعناية بالمرضى الذين لم يستطيعوا اللحاق بالذين جلوا عن المدينة ، وأجاز لأربعة من القسس السريان أن يبقوا بكنيسة القيامة[٢] . ولم يستمع صلاح الدين لمن أشاروا عليه بتدمير كنيسة القيامة ، فلم تغلق أبوابها إلا لمدة ثلاثة أيام ، ثم تقرر بعدها فرض رسم على من يدخلها من حجاج الفرنج[٣] .

وأخلى الصليبيون بيوتهم ، وباعوا بأرخص الأثمان ما ادخروه من الأثاث والأقوات[٤] ، ولم يغادروا المدينة إلا بعد أن تم انتزاع الصليب المقدس من أعلى قبة الصخرة ، وبعد إزالة كل آثار الداوية من المسجد

---

(١) Runciman : op. cit. p. 467.

Grousset : op. cit. II. p. 819-820

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١١٥ .

Baldwin : op. cit. p. 618

أرسل الإمبراطور البيزنطى إسحاق إنجيلوس ، سفارة إلى صلاح الدين يهنئه بفتح بيت المقدس ويطلب إليه إعادة الأماكن المقدسة المسيحية إلى الكنيسة الأرثوذكسية ، فاستجاب صلاح الدين إلى طلبه . انظر :

Runciman : op. cit. II. p. 468.

Grousset : op. cit. II. p. 821

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٣١ .
المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ، ص ٩٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١١٥ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١١٤ .

الأقصى الذى اتخذوه مقرا لهم ؛ وجرى غسل البناءين بماء الورد ، فعاد بذلك للمسلمين(١) .

وورد فى أول خطبة الجمعة التى قامت فى المسجد الأقصى ، شرح للجهود التى بذلها « لولا أنكم ممن اختار الله من عباده ، لما اصطفاكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار . . فماذا عليكم من النعمة ، بأن جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس فى آخر الزمان . . فاللهم أدم سلطاننا ، سيفك القاطع ، والمحامى عن دينك المدافع ، الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبا المظفر يوسف بن أيوب ، محيى دولة أمير المؤمنين » . ودعا إلى أن يتولى صلاح الدين وأسرته قتال الكفار ، وبسط سلطانه فى الشرق والغرب . وأشار القاضى الفاضل فى رسالته إلى الخليفة الناصر لدين الله إلى أن صلاح الدين لم يبذل هذه الجهود « إلا لتكون الكلمة مجموعة ، فتكون كلمة الله هى العليا . . ولأن القعود لا يقضى به فرض الجهاد ، ولا يؤدى به واجب التقليد الذى يطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وكانوا يعدلون »(٢) .

ولم يكد صلاح الدين يستولى على بيت المقدس ، حتى اندفع صوب الشمال إلى الساحل السورى ، فتقدم لمهاجمة الموانى الكبيرة ، ولم يتريث لاقتحام الحصون التى فى وسعها أن تصمد للحصار زمنا طويلا ؛ لاعتقاده أنه يجوز عزلها ، والاستيلاء عليها بعد فتح الساحل ، وأحرز صلاح الدين انتصارا باهرا فى كل المواضع ما عدا موضع أو اثنين(٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢١٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١١٤ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١١١ — ١١٢ .
ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ ، ص ٥٠١ — ٥٠٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢١٨ — ٢٢٨

(٣) Baldwin : op. cit. p. 618.

حصار صور :

سبق الإشارة إلى منازلة صلاح الدين ، صور ، بعد معركة حطين ، ثم انصرافه عنها ، للمضى فى الاستيلاء على بيت المقدس ، فلما تحقق غرضه ، بادر بفرض الحصار من جديد على صور فى نوفمبر ١١٨٧ . والواضح أن كنراد مونتفرات اغتنم فرصة انشغال صلاح الدين فى أمر بيت المقدس ،وبفضل ما اشتهر به من البسالة والنشاط والصرامة ، دأب على تقوية استحكاماتها ، فحفر خندقا يحيط بها من البحر إلى البحر ، وبنى السور ، واستظهر بالعدد والعدد ، ونظم اللاجئين فى قوة دفاعية تستطيع الصمود للحصار ، وصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها . يضاف إلى ذلك أنه تولى الدفاع عنها من جهة البحر مراكب وشوانى ، يقذف رماتها كل من دنا من جهة البحر[١] . وأدرك كنراد أن المدينة تستطيع أن تقاوم ، حتى تصل إليها المساعدة من الغرب ، فلا بد للغرب أن ينهض للمساعدة ، حينما يعلم بأنباء سقوط بيت المقدس[٢] .

والواقع أن السيطرة على البحر من أهم العوامل فى تقرير مصير العمليات الحربية ، إذ أتم صلاح الدين تطويق المدينة من جهة البر ، وعهد للأمراء الأيوبيين بالتضييق على الصليبيين ، وتولى الأسطول المصرى ، المؤلف من عشر سفن ، الذى استدعاه من عكا ، حصار المدينة من جهة البحر . على أن ما حدث من مباغتة الأسطول الصليبى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٤٣ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٣٦٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١١٩ .
Lane-Poole : Saladin p. 239. Runciman III. p. 18.

(٢) Runciman : op. cit. II. p. 472.

للسفن المصرية ، وظفر الصليبيين بخمسة منها ، ومقدمها أضعف القوة البحرية ، فلم يسع صلاح الدين ، إلا أن يأمر بتسيير المراكب الباقية إلى بيروت[١] .

ولما طال الحصار على صور ضجر كثير من المسلمين ، لأنهم رأوا ما لم يألفوه من تعسر الفتح عليهم ، فأشاروا على السلطان بالرحيل ، لئلا تفنى الرجال ، وكان الشتاء قد دخل . وكان رأى صلاح الدين وجماعة من أتقياء أمرائه الثبات إلى الفتح ، لئلا تضيع ثمرة ما تقدم من الأعمال ، وما أنفق من الأموال . غير أنهم لم يوافقوه ، فلم يسع السلطان إلا الرحيل ، وأمر بنقل الأثقال إلى صيدا وبيروت ، وأحرق الباقى ، حتى لا يقع فى أيدى العدو ، ثم رحل إلى عكا فى يناير سنة ١١٨٨[٢] . وأذن

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١١٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١١٩ — ١٢٠ .
Wiet : op. cit. p. 326. Gibb : The Rise of Saladin p. 586.
Baldwin : op. cit. p. 618

نعى ابن الأثير على صلاح الدين أمر الانسحاب ورفع الحصار عن صور فأشار إلى أن من عادة صلاح الدين أنه متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه . فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ، ملوها وطلبوا الانتقال عنها . ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين فإنه جهز إليها جنود الفرنج ، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك . وكان يعطيهم الأمان ، ويرسلهم إلى صور ، فصار فيها عدد كبير من فرسان الفرنج بالساحل والتجار بأموالهم وغيرهم ، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر ، يستمدونهم ، فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ، ووعدوهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور ، لتكون دار هجرتهم ، يحتمون بها ، ويلجأون إليها ، فزادهم ذلك حرصا على حفظهم والذب عنها . فلا ينبغى للملك أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار ، فلئن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطا للحزم ، وأعذر له عند الناس . ولما أراد الرحيل استشار امراءه فاختلفوا ، فقال الأغنياء منهم ، وكأنهم خافوا أن يقترض السلطان منهم ما ينفقه فى =

للعساكر بالعودة إلى أوطانهم ، فعادت عساكر الشرق والموصل ، وعساكر الشام وعساكر مصر ، وبقى فى حلقته الخاصة مقيما بعكا حيث نزل بقلعتها[١] .

وقدم الرسل من بيزنطة وخراسان والعراق لتهنئة السلطان بالانتصار والاستيلاء على بيت المقدس ، ومنهم أتابك العجم ، الذى اشتهر أخوه بعدائه لصلاح الدين ، ورسول من قبل سلطان السلاجقة بآسيا الصغرى ، ورسول صاحب آمد[٢] .

وأمضى صلاح الدين الشتاء فى عكا ، ثم غادرها إلى دمشق ، بعد أن ولى عمارتها وتدبير أمرها ، بهاء الدين قراقوش ، وهو الذى أدار السور على مصر والقاهرة ، فشرع فى تجديد سور عكا وتعلية برجها[٣] . وحرص صلاح الدين على إتمام فتح حصون طبرية ، وما يليها . ففى ديسمبر سنة ١١٨٧ ، أرسل من قبله من تسلم هونين ، بعد أن أذعنت

= العسكر ، «هذا الشتاء قد حضر ، فنريح ونستريح فى هذا البرد ، فإذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها » . أما الطائفة الأخرى ، فرأت أن تصابر البلد وتضايقه ، فهو الذى يعتمدون عليه من حصونهم « ومتى أخذناه منهم ، انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب ، وأخذنا باقى البلاد صفواً عفواً» . ولما رأى الفريق الأول أن صلاح الدين يميل إلى هذا الرأى ، وهنت عزيمتهم فى القتال ، واعتذروا بجراح رجالهم ، وأنهم قد أرسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابهم ، والأقوات لهم ، فصاروا مقيمين بغير قتال فاضطر إلى الرحيل .

انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٧ — ٣٦٩ .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٩ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٨ .

Runciman : op. cit. II. p. 472.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٢٠ — ١٢٤

Gibb : The Rise of Saladin p. 586.

Gibb : loc. cit.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٥٣

حاميتها ، لما عانته من طول حصار القوات الإسلامية ، ومنع المؤن من الدخول إليها ، وبذا اكتمل للمسلمين السيادة على إمارة تبنين[١] . ووجه صلاح الدين العساكر لحصر كل من قلعتى صفد ، بالشمال الغربى لبحيرة طبرية ، والتابعة للداوية ، وكوكب ، الواقعة بالجنوب الغربى للبحيرة ، والتابعة للاسبتارية ، فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شرورهم ، وأمنت الطرق[٢] . على أنه حدث فى مستهل سنة ١١٨٨ أن تعرضت القوة الإسلامية لهجوم مفاجئ ليــلا ، من قبل الاسبتارية ، فأخذوا أسلحتهم وزادهم[٣] . وتوقف صلاح الدين عند كوكب ، فى طريقه إلى دمشق ، ولما تبين له أنها تحتاج إلى حصار طويل ، وكل بكل من الحصنين صفد وكوكب أميراً لمواصلة الحصار ، واستأنف المسير إلى دمشق ، ووجه أيضا القوات لمنازلة الكرك والشوبك[٤] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٩ .

Grousset : op. cit II. p. 824

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ، ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٨ — ٦٩ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٢٤ .

Grousset : op. cit. II. p. 824

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٥٢ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٩ .

ومما هو جدير بالذكر أن المؤرخ ابن شداد ، التحق بخدمة صلاح الدين ، أثناء نزوله على كوكب ، فى يونيه سنة ١١٨٨ ، ومنذئذ لزم خدمته ، حتى وفاته ١١٩٣ . ويشير ابن شداد إلى أن جميع ما رواه قبل ١١٨٨ ، نقله عمن يثق به ، مما شاهده ومن هذا التاريخ « ما أسطر إلا ما شاهدته أو أخبر به من أثق به ، خبراً تقاربه العيان » وظل العماد الكاتب وابن شداد فى معسكر السلطان بقية الصيف .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٩ ، ٧١.

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .



طرابلس
البترون
جبيل
نهر الكلب
بيروت
بعلبك
الزبداني
صيدا
دمشق
داريا
صور
مرج الصفر
بانياس
تبنين
مخاضة يعقوب
صفد
عكا
حطين
رأس الماء
حيفا
طبرية
كفر سبت
اليرموك
الناصرة
كوكب
الفولة
عين جالوت
بيسان
قيسارية
جرش
نابلس
ارسوف
يافا
الغور
اللد
الرملة
بيت المقدس
بيت لحم
يبنا
بيت جبريل
حبرون
عسقلان
غزة
داروم
الكرك
العريش


A S R

ولم يكد صلاح الدين يستقر بدمشق ، بعد أن غاب عنها ١٦ شهراً ، حتى بلغه خبر تعرض جبلة لهجوم صليبي[١] ، فتوجه إلى الشمال فى حلقته الخاصة ، فى مايو سنة ١١٨٨ ، وقد كتب إلى عساكر الموصل والجزيرة باللحاق به لمنازلة حصن الأكراد ، بينما طلب إلى عساكر حلب وحماة ، أن تتخذ مواقعها فى تيزين قبالة أنطاكية ، لحفظ ذلك الجانب من بوهمند[٢] . واقتضت خطة صلاح الدين القيام بالهجوم المباشر على الموانى ، أما الحصون التى بوسعها الصمود للحصار مدة طويلة ، فتقرر عزلها ، ومن اليسير بعدئذ الاستيلاء عليها ، فلم يكن بأنطاكية وطرابلس من القوات ما يكفى لبذل المساعدة لها وإنقاذها . والراجح أن ريموند صاحب طرابلس مات وقتذاك ، وولى أمر طرابلس ، بوصية من ريموند ، بوهمند الرابع ابن أمير أنطاكية[٣] .

لم يستطع بوهمند الثالث أمير أنطاكية ، أن يقدم مساعدة مادية للحاميات المحصورة فى الأماكن التى هاجمها صلاح الدين . على أن بعض القلاع والحصون ، أظهر مقاومة شديدة ، ومنها حصن الأكراد ، فاكتفى صلاح الدين بشن الإغارة على نواحى الحصن ، واستخرج ما فيها من المخزون[٤] . ثم استولى على أنطرطوس ، وسار يريد جبلة ، وكان الطريق إليها على الساحل ، ضيقة المسلك ، يسيطر عليها حصن المرقب ، الذى كان فى حوزة الاسبتارية ، غير أن جبلة سقطت فى يد صلاح الدين ، بفضل جهود قاضيها ، الذى تولى أمرها من قبل أمير طرابلس ، نظرا

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧٠ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٢٤ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

Gibb : The Rise of Saladin. p. 586.

(٣) **Grousset : op. cit. II. p. 823.**

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٢٦ .

لأن معظم سكانها من المسلمين(١) . واستطاع أسطول صقلى بقيادة مرجريت (المرعريط) ، أن يحول دون حصر صلاح الدين لمدينة طرابلس ، غير أنه لم ينجح فى منع صلاح الدين من الوصول إلى جبلة والاستيلاء عليها فى ١٥ يوليه ١١٨٨ ، وتلا ذلك سقوط اللاذقية ، وحصن صهيون (من أملاك الاسبتارية) ، وأجاب صلاح الدين طلب الحامية للأمان ، على أنفسهم وأموالهم ، على أن يؤدوا ما أداه سكان بيت المقدس من الفدية(٢) . ولم يلبث حصن برزيه ، الذى يقابل حصن أفامية ، أن سقط عنوة فى يد صلاح الدين فى أغسطس ١١٨٨ ، وكان بحوزة أحد أصهار بوهمند الثالث فمنّ صلاح الدين عليه وعلى أصحابه ، وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية ، لما كان يربطه بزوجته سيبل من علاقة ودية ، أفاد منها فى الوقوف على أحوال الصليبيين(٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٥٦ ، ٢٥٨ - ٢٥٩ .

الراجح أن صلاح الدين أطلق سراح الملك جاى فى أوائل شهر يوليه ١١٨٨ ، بعد نقله من دمشق إلى أنطرطوس ، بعد أن اشترط عليه أن يغادر البلاد ، وألا يرفع السلاح فى وجهه . ووعد جاى بذلك ، غير أنه لم يف بوعده ، وكانت الملكة سيبل قد جاءت إلى طرابلس منذ زمن قصير ، فلحق بها زوجها ، ولم يقبل كنراد أن يسلم له صور ، واعتبر نفسه سيداً لها ، لأنه خلصها ولم يكن عند جاى من القوة ما يفرض بها دعوته ، فاستقر بطرابلس .

انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٨١ .

Stevenson : op. cit. p. 258.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤ - ٥ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧٤

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٩ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٥٧ .

العماد الكاتب : الفتح القسى ص ١٣٨ - ١٤٦

Lane Poole : Saladin p. 246 - 247

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٨ - ١٠ ، وتبين من رواية ابن الأثير أنه شهد هذه المعركة .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٦٥ - ٢٦٧

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٣٠ - ١٣٢ .

Grousset : op. cit. II. p. 829.

وإذ سقطت الحصون والبلاد الواقعة جنوب أنطاكية ، سار صلاح الدين لمنازلة الجهات الواقعة إلى شمالها ، فهاجم فى سبتمبر ١١٨٨ حصن دربساك التابع للداوية ، فلقى مقاومة شديدة ، فراسل رجال الحصن صاحب أنطاكية يستنجدونه ، فلم يستجب لهم ، فطلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين ، على شرط ألا يخرج أحد إلا بثيابه ، « وبغير مال ولا سلاح ، ولا أثاث بيت ولا دابة » ، ثم سيرهم إلى أنطاكية[1] .

وتوجه صلاح الدين لقتال بغراس ، من أشد حصون الداوية مناعة ، وتقع على الطريق المؤدى من أنطاكية إلى قليقية ، فاستسلمت الحامية ، وتسلم صلاح الدين القلعة بما فيها من الرجال والمال والسلاح فى سبتمبر ١١٨٨ ، وهذان الحصنان ، دربساك وبغراس ، كانا لأنطاكية جناحين ، ولم يبق أمام صلاح الدين إلا منازلة أنطاكية[2]

على أنه فى الوقت الذى عزم فيه صلاح الدين على استكمال فتوحه ، بمهاجمة أنطاكية ، حدث من الأمور ما منعه من المضى فى ذلك ؛ إذ أحس أن « همم الأجناد ، لا سيما الغرباء ، قد ضعفت ، ونياتهم فى الجهاد قد فترت ، وتشوقوا إلى بلادهم ، والراحة من جهادهم »[3] ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ١٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٣٢ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٦٧ – ٢٦٨ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧٦ .
Grousset : op. cit. II. p. 830.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٦٨ – ٢٦٩ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧٧
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٣٢ – ١٣٣ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ص ١١ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٣٣ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧٧
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٦٩ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ١١ .

فنزل صلاح الدين على رغبة العساكر ، وتوقف عن منازلة أنطاكية . وإذ أدرك بوهمند الثالث ما تتعرض له أنطاكية من خطر ، وعجزه عن مقاومة صلاح الدين ، وأنه قد أشرف على الهلاك ، أنفذ أخا زوجته رسولا إلى السلطان يطلب الهدنة على أن يطلق من عنده من أسارى المسلمين ، الذين يبلغون نحو ألف أسير ، فتقرر عقد الصلح مع أهل أنطاكية لا غير ، لمدة ثمانية أشهر ، ابتداء من أول تشرين الأول (اكتوبر) إلى آخر آيار (مايو) ١١٨٨ ، فيكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها ، فيستريح فيها الأجناد ، ويعودون بعدها إلى الجهاد . وتم الاتفاق على أنه إذا لم تصل فى خلال سبعة أشهر ، مساعدة من المسيحيين قام بوهمند بتسليم أنطاكية[1] . ومن المحقق أن بوهمند لن يستسلم من غير مقاومة ، ولا شك أنه أدرك أنه لابد من قدوم صليبيين من الغرب ، وهذا ما حدث فعلا[2] .

وإذ اقتصرت الهدنة على أنطاكية ، حرص صلاح الدين على أن يستولى على ما تبقى للصليبيين من مواضع منيعة فى فلسطين ، ولا سيما صفد وكوكب ، فلما أشار عليه بعض أصحابه ، عقب عودته من أنطاكية إلى دمشق ، بأن يريح عسكره ، لم يستجب لهذا الرأى « فإذا بقيت مع الكفر هــذه الحصون ، ولم نبادرها ، اختل أمرنا المصون ، لا سيما صفد وكوكب ، فإنهما للداوية والاسبتارية فى وسط البلاد ، والثغور الإسلامية بهما واهية السداد . . . . فما لبث السلطان ولا نكث ولا نقض

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٣٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص . ٢٧ .

Baldwin : op. cit. p. 619.

Gibb : The Rise of Saladin p. 587.

Grousset : op. cit. II. p. 531-532.

Stevenson : op. cit. p. 259.

(٢) Stevenson : op. cit. p. 259.

عهد عزمه على الغزاة ولا نكث وقال لا نبطل الغزوة ، ولا نعطل هذه الشتوة »[١] .

وفى هذه الأثناء ، اشتد حصار المسلمين للكرك والشوبك ، حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم ، وأكلوا دوابهم ، فلم يسعهم إلا التسليم فى نوفمبر ١١٨٨ فارتاح بال السلطان من هذه الناحية ، وأمن الناس من شر الفرنج فى الشوبك والكرك[٢] .

واستسلمت صفد فى ديسمبر ١١٨٨ ، بعد أن اشتد ضربها ، وأشرف أهلها على الهلاك لقلة المؤن ، وتوجه رجالها إلى صور ، وكانت صفد من حصون الداوية . ولم تلبث حامية كوكب (من حصون الاسبتارية) أن أذعنت فى يناير ١١٨٩ ، وانتقلت إلى صور أيضا . فاجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم ، كل صنديد ، فاشتدت شوكتهم ، وتابعوا الرسل إلى من بصقلية والأندلس ، يستغيثون ، ويستنجدون ، وأخذت الأمداد تتوالى عليهم ، وجرى اعتبار صلاح الدين مسئولا عن ذلك ، لإطلاق سراح كل من حصره[٣] . وبذا اجتمع للمسلمين بفتح صفد

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٣٤ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٧١ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٧١ – ٢٧٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٣٤ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ١٠ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧٨ .
Baldwin : op. cit. p. 619.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٣٥ – ١٣٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٧٤ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧٨ – ٧٩ .
ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ١١ .

وكوكب من حد أيلة إلى أقصى أعمال بيروت ، لا يفصل بينه غير مدينة صور[١] . ثم توجه صلاح الدين إلى عكا على طريق الساحل ، كان يمر على البلاد ، ويتفقد أحوالها ، ويودعها الرجال والعدد . وبعد أن اطمأن إلى ما قام به قراقوش من عمارة سور عكا ، وإلى كفاية من بها من العساكر ، عاد إلى دمشق[٢] .

يعتبر سقوط كوكب خاتمة انتصارات صلاح الدين التى استمرت سنتين ، فلم يبق من حصون المملكة اللاتينية ، من غير استسلام إلا صور وحصن شقيف أرنون ، وهو الحصن الذى اعتصم به رينالد صاحب صيدا ، وسيطر على الطريق بين صور ودمشق ، ويعتبر من أمنع حصون الفرنج . وصمدت طرابلس ، وبرج انطرطوس ، وحصنان آخران للداوية ، وحصن الأكراد للاسبتارية ، ولم يبق من إمارة أنطاكية ، إلا أنطاكية ذاتها وحصن المرقب[٣] .

وما أحرزه صلاح الدين من انتصارات باهرة ، فى فترة وجيزة ، أدت إلى الاستيلاء على كل أملاك الصليبيين ، فيما عدا صور وطرابلس وأنطاكية وعدد قليل من الحصون التابعة لها ، حمل المؤرخين المسلمين والغربيين على أنه قائد مظفر كبير ، وأن ما أحرزه من انتصارات ترجع إلى أن ما اتصف به من خلال عسكرية تضارع ما عند سائر القادة المظفرين من صفات . ومع أن صلاح الدين ادخر صفات عسكرية شخصية بالغة الأهمية والقيمة ، فإن انتصاراته ترجع إلى حد كبير إلى ما اشتهر به من صفات خلقية نادرة : إذ اتخذ لنفسه مثلا أعلا ومبدأ لا يحيد عنه ، وفى سبيل تحقيقه كان لزاما عليه أن يبذل جهودا

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ص ١١ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧٩ .

(٣) Baldwin : op. cit. p. 619.

حربية متصلة : إذ وجه جهوده حتى سنة ١١٨٦ إلى فرض إرادته على ما كان سائدا من نظام حربى إقطاعى ، واتخذ منه أداة لتحقيق غرضه ، على أن المظهر الحربى لما قام به من أعمال ، حتى هذا التاريخ ، إنما يلى فى الأهمية ، جمع القوى السياسية فى غرب آسيا على « غرض واحد » ، وتدعيمها بقدر من صلابة فكرته وأصالتها . فبفضل هذه الوسائل لا بالتفوق فى وضع الخطط العسكرية ، نجح صلاح الدين فى حشد الجيش الذى دمر به مملكة بيت المقـــدس[1] . فما أحرزه صلاح الدين من انتصارات فى حطين لم يرجع الفضل فيه إلى ما وضعه صـــلاح الدين من خطة حربية فحسب ، بل إلى أخطاء الصليبيين أيضا ، وما تلى هذه الانتصارات من انهيار الدفاع عن بيت المقدس وأنطاكية دل أيضا على الضعف الشديد الذى أصاب الإمارات الصليبية ، يضاف إلى ذلك أن هذه الانتصارات ترجع إلى حد كبير إلى أنه مارس من هذه الصفات ما لم يمارسه معاصروه من قادة الحروب . وأكثر ما تردد فى المصادر العربية ، ما كان يوجهه إليه قادته من نقد بسبب التزام مبادىء الشرف ، والإيمان السليم ، والاعتقاد الدينى الراسخ : ولما حان أجل المدن والقلاع المسيحية ، لم تبادر إلى التسليم إلا لذيوع صيته فى المحافظة على العهد ، وإلى سخائه الوافر[2] .

على أن الكتاب والمؤرخين الذين وجهوا النقد واللوم إلى صلاح الدين ، لأنه أجاز للفرسان والتجار بأن يلجأوا إلى صور ، فاتخذوا منها رأس جسر لمهاجمته ولمحاولة استرداد ما استولى عليه من البلاد ، لم يدركوا ماذا

---

(١) Gibb : The Rise of Saladin p. 587.

(٢) Gibb : The Rise of Saladin p. 588.

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

يكون موقف الحملة الصليبية الثالثة ، لو أنها صادفت عند قدومها اشتباك صلاح الدين فى قتال القلاع الداخلية لإخضاعها ، دون أن تتوافر له حرية الحركة ، وأن يطمئن إلى مؤخرة جيشه . والواقع أنه لم يمنعه من الاستيلاء على صور ، إلا ما حدث مصادفة من قدوم كنراد إليها ، وما جرى من قلق وتمرد الجيوش الشرقية (الجزيرة والموصل)[١] . والواضح أن هذا الاضطراب دل على العيوب الأساسية التى اتصفت بها الجيوش ، التى سوف يواجه بها الصليبيين . على أنه ينبغى ألا ننسى أن صلاح الدين ركز تفكيره منذ البداية على اتخاذ خطة الهجوم والدفاع فى حروبه ، ولهذا الغرض أنشأ جيوشه ، وبفضلها تحقق هذا الهدف إلى حد كبير . وعلى الرغم من أنه حزن لموقف أتباعه بجيوشهم أثناء حصار صور ، وموقفهم مرة أخرى سنة ١١٨٨ ، عند منازلة أنطاكية ، فإنه لم ير فى ذلك إلا معوقات طارئة ، وكان مطمئنا إلى إصلاح ذلك فى الحملات التالية[٢] .

وأول إشارة بلغت صلاح الدين عن الغزو المقبل (الحرب الصليبية الثالثة) جاءته من قبل مقدم أسطول صقلية ، الذى شهد سقوط اللاذقية فى خريف سنة ١١٨٨ واستسلامها لصلاح الدين ، إذ أنذره بأن يجئ « من البحر ما لا طاقة لك به ، فيعظم عليك الأمر ، ويشتد الحال »[٣] ؛ على أنه لم يحفل بذلك ، ومن الدليل على ذلك أنه لم يمنح أمير أنطاكية إلا هدنة قصيرة الأمد ، وأمضى الشتاء فى التجهز والاستعداد لمهاجمة أنطاكية وطرابلس[٤] .

---

(١) Gibb : The Rise of Saladin p. 588.

(٢) Gibb : The Rise of Saladin p. 588.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٢٨ – ١٢٩ .
Gibb : The Rise of Saladin p. 588.

(٤) Gibb : op. cit. p. 588.

واستقبل صلاح الدين ، بدمشق ، سنة ١١٨٨ ، رسول الخليفة الناصر لدين الله ، فسير معه رسوله ، الشهرزورى ، وأنفذ معه هدايا وتحفا ، وأسارى من الفرنج بعددهم وتاج ملكهم الأسير ، والصليب الذى كان فوق الصخرة ، وشيء كثير من الملبوس والطيب : وسار الرسولان إلى بغداد ، ودخلت الأسارى من الفرنج على هيئتها يوم قراعها ، راكبة حصنها ، فى طوارقها وأدراعها وبيارقها ، وقد نكست أعلامها وبنودها . فدفن الصليب تحت عتبة أحد أبواب بغداد ، وكان من نحاس مطلى بالذهب ، ولم يظهر منه إلا شيء قليل[1] .

وحدثت تغييرات هامة نتيجة فتوح صلاح الدين ، فمن الطبيعى أن يعود الإسلام إلى سابق عهده من المجد والسؤدد ، « فصارت البيع مساجد ، يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها ، وطالما ارتجت لموقف الكافر »[2] . وفقدت المسيحية اللاتينية ما كان لها من وضع يميزها على المسيحية الشرقية . ولم يتعرض المسيحيون اليونانيون لخطر من الأخطار ، فقاموا بدفع ما درجوا عليه من الجزية . وكان لاتجاه الأرثوذكسية اليونانية وسائر المذاهب المسيحية المحلية أهمية كبيرة ، إذ أنها رحبت بعودة الحكم الإسلامى ، لما هو معروف من تسامح المسلمين ، وللعداء التقليدى بين القسطنطينية وروما ، فضلا عن عداء الإمبراطورية البيزنطية للصليبيين لا سيما بعد وفاة مانويل كومنين سنة ١١٨٠ . ونزع أندرونيكوس كومنين إلى إقامة نوع من التحالف مع المسلمين. وأرسل إسحاق كومنين إلى صلاح الدين يهنئه بالاستيلاء على بيت المقدس ، وطلب تجديد التحالف ضد اللاتين ، على أن يعود القسس الأرثوذكس إلى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧٩ – ٢٨٠ .
ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٣٨ – ١٣٩ .
Wiet : op. cit. p. 327.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

بيت المقدس . وسادت هذه الأحوال فى سائر الجهات ، ففى نابلس[١] ، بقى المسيحيون من الروم والسريان فى مواطنهم ، وحدث هذا الأمر أيضا فى اللاذقية[٢] ، حيث آثر المسيحيون الوطنيون الإقامة بالمدينة ، وتعاهدوا بتأدية الجزية[٣] .

وما اشتهرت به سياسة صلاح الدين من الرحمة والمروءة كان له أكبر الأثر فى استمرار الحياة اليومية سائرة على ما كانت عليه . أما المسيحيون الغربيون فاعتبروا فتوح صلاح الدين كارثة خطيرة ، بما افتقده ألوف الفرنج العادين من الدورو الممتلكات ، وما تعرض له كثير منهم من الاسترقاق ؛ على حين أن الفئة الأرستقراطية ، تطلعت إلى استعادة ما ضاع من أراضيهم وقلاعهم . وشجعهم على ذلك ، أن بعض المعاقل والحصون لم تسقط بعد فى أيدى صلاح الدين ، وأن صور أضحت قاعدة لهم . وأكثر من ذلك أن أوربا أدركت آخر الأمر ما ينتظر اللاتين فى فلسطين من مستقبل عابس . ولم تلبث الأنباء أن وصلت إلى الأراضى المقدسة ، بأن حملة صليبية فى الطريق إليها بقيادة إمبراطور ألمانيا ، وملكى إنجلترا وفرنسا ، فانتعشت آمال اللاتين من جديد[٤] .

على أن صلاح الدين حرص على الاستيلاء على الحصن الباقى فى مملكة بيت المقدس ، وهو شقيف أرنون ، وكان صاحبه معروفا عند المسلمين بالمكر والدهاء ، وبأنه من أكبر الصليبيين مكانة وأكثرهم دراية باللغة العربية ، ومعرفة بالتواريخ والأحاديث . فصار يتردد إلى صلاح الدين

---

(١) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 620.
ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص ٢٠٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ، ص ١٢٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٣) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 620.

(٤) Baldwin : The Decline and Fall of Jerusalem p. 621.

ويظهر له الخضوع ، ويشير إلى أنه مملوكه وتحت طاعته ، وأنه سوف يسلم الحصن له ، دون قتال مقابل الحصول على دار وإقطاع فى دمشق ، لأنه يخشى الصليبيين . فظن السلطان صدقه ، وأعطاه ما طلب مقابل تسليم الحصن . ولم يدرك السلطان مكره الخبيث ، إلا بعد أن تحرج الموقف فى عكا ، بسبب مبادرة الصليبيين إلى منازلتها ؛ فرتب عدة من الأمراء ، ظلوا على محاصرة الحصن ، حتى تسلموه فى إبريل ١١٩٠ ، ولم يشأ صلاح الدين على عادته أن ينتقم من رينالد ، بل أطلق سراحه ، وعفا عنه ، فتوجه إلى صور[١] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٩٠ – ٣١٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٠ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧٩ – ٨٠ .
Grousset : op. cit. II. pp. 832-834.

الفصل الرابع عشر

العدوان الأوربى

الحملة الصليبية الثالثة

ما تعرض له الصليبيون من كارثة ماحقة ، لم يرجع فحسب إلى ما ارتكبه زعماؤهم من أخطاء سياسية ، بل ينبغى التماس أسبابها فيما أصاب العالم الإسلامى من نهوض سياسى واقتصادى ومعنوى ، يرجع الفضل فيه إلى زنكى ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين . على أن توحيد الجبهة الإسلامية وإثارة الحماس الدينى ومجاهدة الصليبيين ، لم يكن إلا عملية نمت وتطورت ثم اكتملت على يد صلاح الدين ، وترتب عليها سقوط مملكة بيت المقدس ، واستغرقت هذه العملية نحو قرن من الزمان .

فالمعروف أن الصليبيين أقاموا ملكهم فى الشرق الأدنى فى الفترة الواقعة بين ١٠٩٧ ، ١٠٩٩ ، ولم تمض إلا سنوات قليلة حتى صار فى أيديهم الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام . ولم يرجع نجاحهم فحسب إلى تفوق جيوشهم فى العدد ، بل إلى انعدام المقاومة الإسلامية المنظمة ، بسبب ما حدث من الحروب الداخلية بين الأمراء السلاجقة ، وما وقع بين أتباعهم من التنازع على امتلاك البيت السلجوقى ، ولم يكن بينهم من يستطيع أن يتولى قيادتهم ، ويوجههم لقتال الصليبيين . فإذا تعرض الصليبيون فى مستهل القرن الثانى عشر الميلادى ، للهجوم من قبل جناح الدولة أمير حمص ، أو رضوان أمير حلب ، فالراجح أن التنافس بين الأميرين ، تحكم فى تحديد علاقتهما بالصليبيين ، ومن الدليل على ذلك أن جناح الدولة هاجم حلب سنة ١١٠٠ ، ومنع رضوان من مهاجمة أملاك الصليبيين

فى أنطاكية ، ولقى مصرعه بتحريض أمير حلب سنة ١١٠٣ ، وبذا تداعت المقاومة فى وسط الشام[١] .

وعلى الرغم من جهود طغتكين أتابك دمشق فى إثارة الجهاد ضد الصليبيين ، ومحاولة توحيد القوى الإسلامية فى الشام لمواجهة الصليبيين ، فالواقع أنه حرص على أن يقيم لنفسه دولة على حساب الأمراء المجاورين فى حوض الأورنت الأوسط ، وحكام صور من قبل الفاطميين ، فأضاف إلى دمشق حمص وحماة ، ولم يلبث أن فرض حمايته على حلب بعد وفاة رضوان ، وأجلى المصريين عن صور[٢] . وإذا كانت أعمال طغتكين تتفق مع وجهة نظر الأمراء المسلمين فى زمنه ، فإن تحقيق أغراضه الشخصية لم تتعارض مع المصلحة العامة للمسلمين ، باعتبارها خطوة فى سبيل توحيد القوى الإسلامية . ولذا يعتبر الوحيد من الأمراء الترك الذى عقد تحالفا عسكريا مع الخلفاء الفاطميين فى مصر ، على الرغم من مخالفتهم فى المذهب لأمراء الترك السنيين . ونجح أيضاً ، سنة ١١٠٥ ، فى أن يشترك فى تحالف انعقد بين رضوان أمير حلب وسقمان صاحب ماردين ، حتى يفصل بذلك بين الإمارات الصليبية ، غير أن وفاة سقمان قضت على هذه البادرة التى تعتبر بداية الجهاد الدينى ، ومع ذلك واصل جهوده لمنع البروفنساليين من اتخاذ قاعدة لهم على شاطئ لبنان ، غير أنهم استطاعوا أن يقيموا سنة ١١٠٩ إمارة طرابلس . وما بذله المسلمون فى الشام من تأييد للقوات العسكرية التى أنفذها السلطان السلجوقى بقيادة أتابكة الموصل بين ١١١٠ ، ١١١٥ ، يعتبر من مظاهر الجهاد ضد الصليبيين ، ولذا لم يكن موقف رضوان مقبولا حينما أغلق أبواب حلب فى وجه القوات التى أنفذها سلطان السلاجقة بفارس

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. XVII

(٢) Grousset : op. cit. III. p. XVIII

سنة ١١١١ ، على حين أن طغتكين بذل سنة ١١١٣ المساعدة لمودود قائد القوات المجاهدة . على أن ما حدث من اغتيال مودود فى مسجد دمشق سنة ١١١٣ ، دلّ على تغلب النزوع الشخصى وإيثاره على المصلحة العامة ، ولم يتردد طغتكين سنة ١١١٥ فى الانحياز إلى قوات بلدوين الأول لاعتراض الطريق الذى تسلكه القوات المجاهدة القادمة من قبل السلطان السلجوقى فى فارس : وعلى الرغم من حرص طغتكين على استرضاء السلطان سنة ١١١٦ ، ومن المدائح التى أوردها ابن القلانسى ، فإن ذلك لم يمح أثر الجريمة التى أودت بحياة مودود[١] .

لم تكن دمشق مركز حركة الجهاد الدينى وأساس الوحدة الإسلامية ، إنما جاءت هذه الحركة من شمال الشام وتخوم ديار بكر والموصل . إذ أن أمراء هذه الجهات هم الذين أوقفوا التوسع الصليبى نحو الشرق والجنوب الشرقى ، إلى الموصل وبغداد ، من جانب أنطاكية والرها ، بما أنزلوه من هزيمة ساحقة بالصليبيين فى حران سنة ١١٠٤ ، فلم يقصد بوهمند وبلدوين دى بور بالاستيلاء على حران ، إلا أن يفصلوا بين حلب والموصل ، تمهيدا للاستيلاء على حلب ، فلم تتجاوز حدود الفرنج بعد معركة حران إقليم الرها[٢] .

وتعتبر سنة ١١١٠ من السنوات الحاسمة فى النزاع بين المسلمين والصليبيين ، لزيادة الإحساس بأهمية الجهاد الدينى ، بعد أن اتحدت المصالح الاقتصادية التى تعرضت للضرر ، بسبب احتلال الصليبيين مصب نهر الأورنت ، مع العاطفة الدينية ، ونجم عن ذلك مظاهرة العلماء والأتقياء فى بغداد الذين طلبوا إلى السلطان والخليفة الدعوة إلى الجهاد وطرد الصليبيين . ومنذئذ انتظم إنفاذ

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. XIX

(٢) Grousset : op. cit. III. p. XX

الحملات بقيادة أتابكة الموصل وهمدان . فما قام به مودود ، أتابك الموصل من قيادة الحملات العديدة[١] ، دل على إدراكه بأهمية حركة الجهاد الدينى . واختلف مودود عن سائر أمراء الشام ، بأنه لم يقصد توسيع رقعة أملاكه الشخصية ، بل أراد تخليص بيت المقدس ولذا يعتبر نموذجاً سار على نهجه نور الدين وصلاح الدين . غير أن ما حدث من اغتياله ١١١٣ عطل حركة الجهاد الدينى نحو نصف قرن[٢]

ولكى تثمر حركة الجهاد الدينى ، لا بد من توثيق العلاقات السياسية بين الأقاليم الداخلية التى ترد منها الجيوش ، وبين سوريا التى كانت أرض المعارك ، وهذه الخطوة جرت فيما يبدو بين ١١١٨ ، ١١٢٢ ، حينما أضاف إيلغازى الأرتقى حلب إلى ممتلكاته بديار بكر .

وكانت النتيجة المباشرة ، أن لقى روجر أمير أنطاكية مصرعه فى معركة ساحة الدم فى يونيه ١١١٩ . على أن الأراتقة لم يكونوا إلا أسرة إقطاعية ، لم تتوافر عندها الروح السياسية ، فلم تعرف كيف تفيد من انتصاراتها الحربية فى بناء دولة متماسكة . ولم يلبث الموقف أن تغير حينما أضاف زنكى إلى مملكة الموصل إمارة حلب سنة ١١٢٨[٣] .

ومنذئذ بدأت فعلا حركة استعادة الأملاك الإسلامية ، فسقطت الرها فى يد زنكى سنة ١١٤٤ ، وكفل هذا النصر حرية الاتصال بين حلب والموصل ، وهما شطرا مملكة زنكى[٤] .

---

(١) فى أبريل – يوليه ١١١٠ ، وفى مايو – سبتمبر ١١١١ ، وفى أبريل ١١١٢ ، وفى يونيه ١١١٣ . انظر : Grousset : op. cit. III. p. XX

(٢) Grousset : op. cit. III. p. XX

(٣) Grousset : op. cit. III. p. XXI

(٤) Grousset : op. cit. III p. XXI

لم يكن يواجه المملكة الصليبية التى أقامها بلدوين الأول وبلدوين الثانى على أساس متين ، سوى محالفات إسلامية طارئة ، أحبط جهودها ما ساد المجتمع العربى وقتذاك من الفوضى . ومنذ ظهور زنكى ، شهدت المملكة اللاتينية ، وجود دولة إسلامية بالغة القوة والصلابة ، تستند إلى فئة من رجال السياسة والحرب من الطراز الأول . فيعتبر زنكى مؤسس دولة إسلامية متحدة ، وحرص على أن يضيف إليها سائر الإمارات الإسلامية المتفرقة ، وشغف بالجهاد الدينى ، فأنفق حياته فى قتال الصليبيين ، وبفضل الجهاد ارتفع شأنه وحاز ما حازه من المجد ، واستطاع أن يهب سلطانه الصفة الشرعية ، إذ أن أباه أقسنقر تولى حلب من قبل ملك شاه ، فإذا أضاف حلب إلى أملاكه ، فلم يكن ذلك إلا إعادة ما أقامه أبوه من تقاليد ، بعد انقطاعها فى الفترة بين ١٠٩٤ ، ١١٢٨ ، ونظرا لأن هذه السلطة كانت مستمدة من سلطان سلجوقى ، يعتبر حكمه مشروعا . ولما اشتهر به من البسالة والإقدام والسخاء ، حمل عساكره على التعلق به والتفانى فى خدمته ، لارتباط مصيرهم بمصيره ، فكان يوزع عليهم الغنائم والإقطاعات . وجعل زنكى خطته تقوم على أساس توحيد الشام ، فتى تحقق ذلك صار للمسلمين السيادة والتفوق الحربى على القوى المسيحية[1]. أعاد زنكى الأمن إلى نصابه ، فاستقر بذلك حكمه وإدارته ، وأضحت حلب نواة توحيد سوريا ، ومنذ سنة ١١٤٦ حتى سنة ١١٧٣ واصل عمله ابنه نور الدين ، فلم يتخل عن تقاليد سلفه العسكرية ، وأنفق كل حياته فى جهاد الفرنج ، ومع ذلك لم يكن نصيبه من الجندية يضارع نصيب أبيه ، فما أحرزه من انتصارات ، يرجع الفضل فيها إلى قادته أمثال شيركوه وأيوب ؛ واختلف عن أبيه أيضا فى أن أكثر ما كان يرمى إليه هو طرد الفرنج أولا ، وما حدث من اتساع أملاكه إنما تلى ذلك فى الأهمية ،

---

(١) Grousset : op. cit III. p. XXI

فاستيلاؤه على دمشق سنة ١١٥٤ أدى إلى توحيد المملكية فى الشام[١] .

ويعتبر صلاح الدين الحلقة الأخيرة فى توحيد الجبهة الإسلامية ، فالمعروف أن حركة الاتحاد بدأت حول حلب ، ثم اتسعت حتى أصبحت تضم مصر والشام ، وترتب على جهود صلاح الدين فى استكمال الوحدة ، أن دمر القوات الصليبية فى حطين سنة ١١٨٧ ، و تلى ذلك الاستيلاء على كل مملكة بيت المقدس ما عدا صور . وعلى الرغم من اشتهار صلاح الدين بالتعلق بالجهاد الدينى ، وشدة العاطفة الإنسانية والفروسية ، والدماثة ، والحماس الدينى ، والتقوى الفائقة ، والمهارة السياسية والخبرة العسكرية ، والبراعة الإدارية ، والسخاء الذى لا حد له ، فلم يحفظ فى خزانته ما لم يوزعه على رفاقه ، فإنه افتقر ، كما يجنى ثمار انتصاراته ، إلى الحكومة الاتحادية والجيش الدائم . فما أقامه من دولة بالقتال والحرب ، لا زال يغلب عليها الصفة الإقطاعية ، وبقى جيشه إقطاعيا أيضا . فلم يكد الأمراء يمضون شهورا فى خدمته العسكرية ، حتى يشتد حنينهم إلى العودة إلى أوطانهم ، وهذا ما حدث سنة ١١٨٩ بعد انتزاع فلسطين من الصليبيين ، فبدلا من المضى إلى الاستيلاء على صور وطرابلس وأنطاكية ، استجاب لإلحاح الأمراء فى تسريح جانب من الجيش . ونجم عن سخائه الزائد أن سمح لعدد كبير من اللاتين بالالتجاء إلى صور وطرابلس ، فتألفت منهم النواة التى أفاد منها الصليبيون عند محاولتهم استعادة ما استولى عليه صلاح الدين من ممتلكات[٢] .

والواقع أن صلاح الدين اتخذ خطة الدفاع ، فى أثناء سنة ١١٨٩ ، إذ أمضى الشهور الأولى من هذه السنة ؛ فى تفقد أحوال المدن التى

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. XXIII

(٢) Grousset : op. cit. III. p. XXV-XXVI

استولى عليها سنة ١١٨٧ ، فطاف ببيت المقدس وعسقلان وعكا ، ورتب إدارتها ، وعمّر استحكاماتها ؛ فما لاح من نذر العاصفة ، تطلب التجهز والاستعداد[1] . فطلب إلى المظفر تقى الدين أن يسير فيمن معه من العساكر ، ومن يأتى من المشرق ، ويتخذ مواقعه تجاه أنطاكية ، لئلا يغير صاحبها على البلاد الإسلامية عند انقضاء أجل الهدنة ؛ ومع ذلك انزعج السلطان ، لمـــا بلغه من اجتماع اللاتين فى صور ، وتدفق الأمداد عليها من البحر[2] :

حدث طوال سنة ١١٨٨ ، أن توالى قدوم السفن الإيطالية من أوربا تحمل قوات صليبية ، وترددت الأنباء بأن أوربا تجهزت للمرة الثالثة لتوجيه حملة صليبية . فالمعروف أنه مهد الطريق إلى حملة صليبية شاملة ، ما حدث قبل معركة حطين من انفاذ السفارات من بيت المقدس إلى أوربا ، وتكرار نداء البابا ودعوته لمساندة الصليبيين فى الشرق . وكان سقوط بيت المقدس ، الشرارة التى أشعلت العالم المسيحى ، وأثارته لقتال المسلمين[3] .

بادر بالاستنجاد بأمراء غرب أوربا ، كنراد مونتفرات الذى قدم إلى صور ، عقب معركة حطين واتخذها قاعدة للصليبيين ، ومن لم يقع فى الأسر فى حطين من الداوية والاسبتارية وكبار رجال كنيسة بيت المقدس . ولاستثارة الحماس عند المسيحيين ، أرسلوا صورة للمسيح ، عليها دماء ، وادعوا أن المسلمين هم الذين قاموا بذلك ، ودنسوا قبر المسيح[4] . وفى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٣٨ — ١٣٩ .
Wiet : op. cit. p. 327

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٨٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٤٠ .

(٣) Stevenson : op. cit. p. 260.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٨٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٤١ .

خريف سنة ١١٨٧ ، أنفذ كنراد إلى الغرب جوسيوس Goscius رئيس أساقفة صور ، فهبط إلى صقلية ، فاستجاب للدعوة وليم الثانى ، ملك صقلية . وفى صيف سنة ١١٨٨ ، أرسل أسطولا مؤلفا من ٥٠ أو ٦٠ سفينة ، ويحمل مائتى فارس ، يقوده مقدم البحر ، مرجريط (المرعريط) فقدم إلى صور ، ونجح مرجريط فى إعادة تنظيم وتدعيم وسائل الدفاع عن طرابلس ، فلم تتعرض للحصار من قبل صلاح الدين ، غير أنه لم يستطع منع صلاح الدين من الاستيلاء على أنطرطوس ومرقية وجبلة . وعرف صلاح الدين من مرجريط خبر استعداد الغرب المسيحى لإرسال حملـة صليبية جديدة[١] . وعلى الرغم من الأمداد التى تلقاها فى السنة التالية ، ١١٨٩ لم يستطع مهاجمة المدن والقلاع التى خضعت لصلاح الدين بالساحل ، فلجأ إلى القرصنة تجاه الساحل الممتد بين أنطاكية وصور ، فصار يهاجم السفن الإسلامية ، ويحرس السفن الصليبية التى تحمل المؤن والأسلحة والمحاربين القادمين إلى الشرق ، على أن جهود مرجريط انتهت بوفاة وليم الثانى سنة ١١٨٩ ، وماحدث من الاضطرابات فى صقلية بين ١١٨٩ ، ١١٩٤ حال دون اشتراك صقلية فى الحملة الصليبية الثالثة[٢] .

وتلقت البابوية أنباء الكارثة من الجنويين ومن رئيس أساقفة صور ، فأرسل جريجورى الثامن كتابا إلى سائر المسيحيين فى الغرب ، يشرح فيه خطورة سقوط بيت المقدس ، ويدعو إلى اتخاذ الصليب ، ووعدهم بغفران الذنوب ، وحماية أملاكهم ، ودعا الأمراء المسيحيين إلى نبذ الحروب لمدة سبع سنوات ، وواصل جهوده البابا كلمنت الثالث . وإذ حرص

---

(١) Helene Wieruswoski : The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades. in Setton's : History of the Crusades II. p. 38

(٢) Helene Wieruswoski : The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades pp. 39 - 40

الإمبراطوار فردريك بربروسه على الاتصال بملكى إنجلترا وفرنسا ، كان إيمرى بطريرك أنطاكية قد بعث برسالة إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا ، قبل أن يقدم عليه جوسيوس ، فاتخذ الصليب ، رتشرد دوق بواتو[1] .
واجتمع الملكان فيليب أغسطس ، ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا فى يناير سنة ١١٨٨ فى جيزورس Gisors ، على حدود نورمنديا وشهد الاجتماع كثير من الأمراء والمقطعين ، وذلك لتسوية المنازعات بينهما[2] .
واستطاع جوسيوس أن يقنع الحاضرين بالاشتراك فى حرب صليبية ، وتقرر أن يسير الجيشان سويا ؛ وللاتفاق على الحملة فرض الملكان ضرائب خاصة . وفى يناير سنة ١١٨٩ انعقد مجلس الملك هنرى فى Le Mans ليقرر الضريبة المعروفة باسم عشور صلاح الدين ، وتقدر بالعشر من الخراج والأملاك ، ويقتضى جبايتها من العلمانيين فى إنجلترا وفرنسا[3] . وتقررت الخطط لإدارة البلاد أثناء تغيب هنرى وولى عهده فى الشرق . على أن

---

(١) Runciman : History of the Crusades III. p. 5.
Grousset : op. cit. III. p. 9.

(٢) لم يكن الأمل قوياً فى عقد اتفاق بين ملكى إنجلترا وفرنسا . فالمعروف أن فيليب أغسطس كان حريصاً على تدعيم السلطة الملكية ، التى يهددها ملك إنجلترا وايرلنده ، والذى حاز نورمنديا ، وماين ، وأنجو ، وتورين ، وأكيتانيا ، فصارت له السيطرة على المناطق البحرية الفرنسية الممتدة من بولونيا إلى جبال البرانس . وسار فيليب أغسطس على نهج أبيه لويس السابع ، فى قتال خصمه ملك انجلترا بالسلاح والخديعة . واغتنم فيليب فرصة وقوع الفتنة بين رتشرد وأبيه هنرى ، لما لمسه من إيثاره أخيه حنا ، وحرصه على أن يخصه بالنصيب الأكبر من الممتلكات ، ولأنه عطل زواجه ، فطلب إلى هنرى أن يحمل أتباعه على بذل يمين الولاء لريتشرد باعتباره وريثه على المملكة ، فلما رفض ، لم يسع ريتشرد إلا أن يعلن انتماءه للملك فيليب عن إقطاعاته بفرنسا . ولما مات هنرى ، وتوج ريتشارد ملكاً على انجلترا فى نوفمبر ١١٨٩ . واجتمع الملكان ريتشارد وفيليب فى ديسمبر ١١٨٩ ، فى Nonancourt لاكتمال التدابير للحملة الصليبية .

انظر : Painter : The Third Crsuade in Setton's History of the Crusades II. p. 48-49.

(٣) انظر تفاصيل هذه الضريبة فى :
Michaud : History of the Crusades, vol. I. pp. 384 - 387.

ما نشب من نزاع بين هنرى وفيليب عطل سير الحملة ، فلما مات هنرى ، تحسن الموقف ، لأنه فيما يبدو لم يكن حريصا على الاشتراك فى الحرب الصليبية ، على حين أن رتشرد توافر عنده من النية ما يدعو إلى الوفاء بوعده . ومع أنه ورث ما اشتهر به أبوه من النضال والخصام مع الملك فيليب ، فإنه كان مستعدا لتسوية النزاع معه ، حتى يصير حرا فى المسير إلى الشرق ؛ نظرا لما اشتهر به من الميل إلى القتال والمغامرة[١] .

تم تتويج رتشرد فى سبتمبر ١١٨٩ ، ودأب على تنظيم إدارة البلاد ، وجعل لأخيه الأصغر جون (حنا) ، إقطاعات شاسعة بجنوب غربى إنجلترا ، غير أنه أصدر أمرا بمنعه من الدخول إلى إنجلترا لمدة ثلاث سنوات ، وقرر بيع الضياع الملكية ، وبفضل هذه الإجراءات وعشور صلاح الدين ، وما حصل عليه من أتباعه من مساعدات ، توافرت له ثروة طائلة[٢] .

وتقرر أن يجتمع فيليب ورتشرد فى أبريل ١١٩٠ فى فيزلاى Vezelay للاتفاق على أمر الحملة ، ولا سيما بعد أن وقف ملك فرنسا على الأحداث الجارية بالشرق ، بما ترامى له من أمر النزاع بين صلاح الدين وحلفائه ، وعلاقة صلاح الدين بالدولة البيزنطية ، وجهود الأسطول الصقلى فى الشرق ، وسير فردريك بربروسه إلى الأراضى المقدسة[٣] . واجتمع الملكان أول الأمر فى نونانكورت Nonancourt فى ديسمبر ١١٨٩ ، وفى هذا الاجتماع أفصحا عن نياتهما فى المسير فى حملة صليبية ، ووعد فيليب بأن يعامل رتشرد على أنه صديق وتابع ، بينما تحتم على رتشرد أن ينظر إلى فيليب على أنه سيد وصديق . وتحتم أن يجتمع عساكر المملكتين ،

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 7.

Painter : op. cit. p. 49

(٢) Runciman : History of the Crusades III. p. 8

(٣) Runciman : op. cit. III p. 9.

ولابد من تأمين أملاك الصليبيين ، وتوطيد السلام بين المملكتين ، وأن يتبادل الحكام والولاة المساعدة والنصيحة . على أن الاجتماع فى فيزيلاى لم يتم إلا فى يوليه ١١٩٠[١] .

وبينما يجرى بين ملكى فرنسا وإنجلترا من القتال والمشاحنات ، والاجتماع لتسوية المنازعات والتجهز للحرب الصليبية ، وإرجاء المسير ، حدث فى ألمانيا من الجهود ما وهب الحملة الصليبية الثالثة قوة جديدة . ذلك أن الإمبراطور فردريك بربروسة ، الذى اشترك فى الحملة الصليبية الثانية ، حرص على النهوض للمسير إلى الشرق . وعلى الرغم من أنه لم يكن له اتصالات شخصية فى فلسطين ، ولم يكن للألمان بالشرق إلا جالية قليلة العدد ، ولم ترد له دعوة من حكومة مملكة بيت المقدس ، فإنه حظى بتأييد أسرة مونتفرات ، ولعل قدوم كنراد مونتفرات إلى صور ، وتزعمه بقايا الصليبيين أثاره واجتذبه للاشتراك فى قتال المسلمين . يضاف إلى ذلك ما حدث من توطيد مركزه فى ألمانيا وتسوية مشاكله ، فتوثقت علاقته بنرمان صقلية بعد زواج ابنه هنرى من أميرة صقلية ، كونستانس ابنة روجر الثانى وذلك سنة ١١٨٥[٢] . ولما مات البابا إربان الثالث سنة ١١٨٧ ، صار بوسعه أن يعقد صلحا مع البابوية . فحرص البابا جريجورى الثامن على أن يرحب بحليف له من المكانة وعلو الشأن ، ما يسانده فى الحركة الصليبية ، واستمرت العلاقة ودية زمن كلمنت الثالث[٣] .

---

(١) Painter : The Third Crusade p. 49.
Runciman : op. cit. III. p. 9.

(٢) Chalandon : The Norman Kingdom of Sicily in Cambridge Medieval History. I. p. 198.

(٣) Runciman : op. cit. III. p. 10.
Lane Poole, Austin : Frederick Barbarossa and Germany in Cambridge Medievel History I. p. 409.

اتخذ فردريك الصليب فى ما ينز فى ٢٧ مارس ١١٨٨ ، واحتذاه فى ذلك ابنه وكثير من الأمراء . ولما شهده فى الحملة الصليبية الثانية من المتاعب ، حرص على أن يتجنب ما وقع من الأخطاء ، وأن يتخذ الحيطة والحذر ، فلم يقبل فى جيشه إلا من كان فى استطاعته أن ينفق على نفسه أثناء حملة لمدة سنتين . وكتب إلى الأمراء الذين سوف يجتاز بلادهم ، أمثال ملك المجر ، والإمبراطور البزنطى ، وسلطان سلاجقة الروم ، يطلب إليهم تيسير مروره فى بلادهم ، بل إنه أرسل إلى صلاح الدين ، بأن يرد ما استولى عليه من الأراضى ، وأنذره بالحرب مالم يرد هذه الممتلكات[1] . وتلقى فردريك من السلطان السلجوقى وملك المجر ، الرد بالوعد بالمساعدة ، وتوجهت سنة١١٨٨ سفارة بيزنطية إلى نورمبرج لإعداد التدابير اللازمـــة لاجتياز الصليبيين أراضى الإمبراطور إسحاق الثانى أنجيلوس . أما صلاح الدين فإنه قبل تحدى الإمبراطور فردريك بربروسة ، ولم يعرض سوى إطلاق سراح الأسرى الصليبيين ، وإعادة الأديرة اللاتينية إلى أربابها[2] .

وغادر فردريك راتيسبون فى مايو ١١٨٩ ، جيش بالغ التنظيم والتدريب يبلغ عدده ، فى تقدير بعض المؤرخين ، نحو مائة ألف مقاتل . واجتاز المجر فى طريقه إلى القسطنطينية . على أن أسرة أنجيلوس ، التى خلفت منذ ١١٨٥ أسرة كومنين حكم بيزنطة ، لم يتوافر لها ما توافر لأسرة كومنين من الإدراك السياسى ، للإفادة من الصليبيين . إذ أن إسحاق الثانى أنجيلوس (١١٨٥ – ١١٩٥) ناصب الصليبيين العداء

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 11.
Lane Pool, Austin : Frederick Barbarossa and Germany. p. 420

(٢) Runciman : op. cit. III p. 11
Lane Poole, Austin : Frederick Barbarossa p. 410.

لمـــا كان بين بيزنطة والنرمان فى صقلية حلفاء فردريك من عداء ، بل لما وقع من أحداث فى آسيا الصغرى ، فما أصاب البيزنطيين من هزيمة فى وقعة ميريوكيفالون ، أدى إلى انحسار ملكهم بآسيا الصغرى وإلى وادى الماندر وصغارى ، فحرصوا على أن يلتمسوا محالفة صلاح الدين ضد السلاجقة ؛ ورحب صلاح الدين بهذه الفكرة ، لإدراكه ما لقلج أرسلان الثانى من قوة تهدد مركز صلاح الدين(١) . ولم تلبث المتاعب والعقبات أن اعترضت طريق فردريك ، فلم يكد الألمـــان يغادرون بلاد المجر ، حتى أحسوا بالعداء الشديد من قبل البلغار بتحريض الإمبراطور البيزنطى ، الذى ألقى فى السجن بالمبعوثين الذين أرسلهم فردريك إلى الإمبراطور للتدليل على النية السليمة . غير أن الخوف من الألمـــان كان أشد وأقوى من الكراهية ، فهرب أمامهم سكان مدن البلقان ، واشتد قلق إسحاق انجيلوس من أن يهاجموا القسطنطينية ، فلم يسعه إلا الإذعان ، ووافق على أن يمد الجيش الألمانى بالمؤن ، وأن يتولى نقله إلى آسيا الصغرى ، وأن يبذل للإمبراطور الألمانى من الرهائن ما يضمن حسن سلوكه . غير أن إسحاق لم يف بوعوده ، فأنكر الإمبراطور فردريك هذا الموقف ، وكتب إلى ابنه فى ألمانيا يطلب إليه حشد أسطول من موانى إيطاليا ، وأن يلتمس من البابا الموافقة على إثارة الحرب الصليبية ضد الإمبراطور البيزنطى . ولم ينقذ القسطنطينية من هجوم الألمان إلا خضوع الإمبراطور البيزنطى(٢) ، وتعاهده بإطلاق سراح رهائن فردريك ، وإمداده بالسفن اللازمة لاجتياز الدردنيل إلى آسيا الصغرى(٣) ؛ فانتقل فردريك بجيوشه إلى الشاطئ الأسيوى فى مارس سنة ١١٩٠(٤) .

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 10.

Runciman : op. cit. III. p. 12.

(٢) Lane Poole, Austin ; Frederick Barbarossa p. 411

(٣) Runciman : op. cit. III. p. 13-14

(٤) Grousset : op. cit. III. p. 12-13.

التزم فردريك الطريق البيزنطى الرئيسى ، الذى يحاذى الحدود الفاصلة بين سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، والأملاك البيزنطية ، واجتاز أرض معركة ميريوكيفالون التى دارت الدائرة فيها على البيزنطيين ، واكتفى إسحاق إنجيلوس بما بعث به من الرسائل إلى حليفه صلاح الدين ينذره بقدوم الصليبيين[١] . ويشير العماد الكاتب إلى « أن ملك الروم يكتب إلينا بأخبارهم (الألمان) ، ونبأ خروجهم من ديارهم ، وإلى أنه لن يمكنهم من العبور . فلما جاءوا ، لم يقدر على منعهم ، فصد عنهم الأزواد ، وحرمهم الاسعاد »[٢] ولما وصل فردريك إلى القسطنطينية ، أرسل إسحاق إلى صلاح الدين ، يؤكد له مودته ، وحرصه على إقامة الجمعة بجامع القسطنطينية والخطبة له[٣] ، ويعتـــذر عن عبور الإمبراطور فردريك[٤] . ومع ذلك فإن الإمبراطور البيزنطى أنذر باحتشاد القوات الصليبية ، على أن صلاح الدين وقف على أخبارهم من الإسكندرية ، والثغور المغربية ، والراجح أنه علم بذلك من التجار البنادقة النازلين بالإسكندرية وإلى ذلك يشير القاضى الفاضل فى رسالة بتاريخ ٥٨٤ (١١٨٩) إلى صاحب اليمن « كتب المستخدمون بالإسكندرية ، وصاحب القسطنطينية ، والثغور المغربية ، بأن العدو قد أجمع أمرا ، وحاول نكرا ، وغضبوا ، زادهم الله غضبا ، وأوقدوا نارا للحرب جعلهم الله عليهم حطبا »[٥] .

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 13.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٥١ .

(٣) يشير ابن شداد إلى أن صلاح الدين أنفذ إلى القسطنطينية الخطيب والمنبر وجمعاً من المؤذنين والقراء فقامت الدعوة الإسلامية العباسية .

(انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١١٥ — ١١٦) .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٥٩ .

ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ٣٠ — ٣١ .

Grousset : op. cit. III. p. 13.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٣٦ .

Grousset : op. cit. III. p. 13.

وعلى الرغم من الوعود التى بذلها قلج أرسلان لمساعدة الإمبراطور فردريك أثناء اجتياز بلاده ،فإنه لم يكن له من النفوذ والسلطان ، ما يكبح جماح القبائل التركمانية من اعتراض طريق الصليبيين ، وزاد الأمر سوءا ، عصيان ابنه قطب الدين ؛ ووعورة الطريق وتراكم الثلوج ، وافتقار الجيش إلى الزاد والمؤن ، فلجأ العساكر إلى أكل الدواب . غير أن ما التزموا به من النظام الصارم ، جعلهم يجتازون هذه المحنة بخسائر ضئيلة[1] .

وأظهر قلج أرسلان استعداده ، بعد أن نزل فردريك بجموعه الضخمة فى قونية فى مايو سنة ١١٩٠ ، لبذل المساعدة ، فأرسل إليه الهدايا ، وطلب الهدنة ، فأجابه إلى ذلك[2] . وانطوت المعاهدة التى انعقدت بين قلج أرسلان والإمبراطور فردريك على قيام التعاون بينهما ، واقتسام أملاك الأيوبيين والانحراف عن أملاك السلاجقة ، فأقاموا فترة وجيزة فى بلاده تقووا أثناءها بما أرادوا من العدة والزاد ؛ وبذل الأمير السلجوقى للإمبراطور رهائن من بين الأمراء ، ليرشدوه فى الطريق إلى قليقية (بلاد الأرمن)[3] . واتخذ الجيش الألمانى طريقه إلى الحدود التركية الأرمنية ، بعد اجتياز جبال طوروس ، حتى بلغ سلوقية . واستقبل

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٢٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٠ - ٣١ .
Grousset : op. cit. III. p. 14.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣١ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٠٦ - ١٠٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٤ .
Grousset : op. cit. III. p. 14.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣١٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣١ .
Grousset : op. cit. III. p. 14.

ليو الثانى الأرمنى (١١٨٥ – ١٢١٩) الصليبيين على أنهم أصدقاء له ، فأمدهم بالأقوات والعلوفات ، وحكمهم فى بلاده وأظهر الطاعة لهم[١] ، وذلك فى طرسوس[٢] .

ولما تحقق صلاح الدين من وصول الإمبراطور فردريك إلى بلاد الأرمن ، وأدركما تتعرض له البلاد من التهديد ، عزم على استنفار الناس للجهاد ؛ فأنذر أمراء الموصل وكردستان والجزيرة ، ومنذ علم بأنباء مسير فردريك ، أنفذ إلى بغداد فى أكتوبر ١١٨٩ ؛ المؤرخ ابن شداد لإخطار الخليفة الناصر لدين الله ، وإثارة همته لبذل المساعدة[٣] . والواقع أن قدوم بربروسه يعتبر أشد ما تعرضت له بلاد الشام من خطر قبل الغزو المغولى . ولما أخطر جاثليق الأرمن ، جريجورى ، صلاح الدين بما حدث[٤] ، وإذ شرع جاى لوزجنان منذ سنة فى منازلة عكا ، لم يكن بوسع صلاح الدين أن يتوجه بنفسه لملاقاته[٥] ، وتقرر بعد التشاور مع أصحابه أن ينهض لمنازلته أمراء شمال الشام بعساكرهم ، أمثال أمراء منبج ، وكفر طاب ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٢١ .
Grousset : op. cit. III. p. 15.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٦ .
Cahen : op. cit. p. 431

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٩٨ – ٩٩ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣١٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٠ – ١٥١ .
Grousset : op. cit. III. p. 15.

(٤) انظر نص كتابه إلى صلاح الدين فى :
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٠٧ – ١٠٩ .
ابن واصل : مفرج الكرب ج ٢ ، ص ٣٢٠ – ٣٢١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٥ – ١٥٦ .
Grousset op. cit. III. p. 16. Runciman : op. cit. III. p. 15

(٥) **Cahen : op. cit. p. 431**

وشيزر ، فضلا عن التركمان الياروقية من جملة عسكر حلب[١] : بينما تقدم السلطان بهدم أسوار ، طبرية ، ويافا ، وأرسوف وقيسارية ، وصيدا وجبيل ، حتى لا يحتلها الصليبيون ويستخدمونها مراكز للهجوم[٢] . وفي بعض الكتب السلطانية ، ترددت الدعوة إلى جهاد الألمان « قد عرفنا خبر العدو المشئوم ، الواصل من جانب الروم ، وهذا أوان تحرك ذوى الحمية ، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية . . . فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين ، وأين المهتدون فى نهج الرشاد المتبين ، وأين المسلمون وحاشى أن يكونوا للإسلام مسلمين »[٣] .

ولما هبط الجيش الألماني ، فى يونيه ١١٩٠ ، إلى سهل سلوقية ، واستعد لاجتياز نهر السالف ، سار الإمبراطور فى مقدمة الجيش ، فحاول أن يسبح فى النهر كيما ينعش جسده بالمياه الباردة ، فلم يستطع مقاومة التيار ، فغرق[٤] .

والواقع أن وفاة فردريك بربروسة تعتبر ضربة قاصمة ، لا لأتباعه فحسب ، بل لسائر الصليبيين . فلم تكد أنباء قدوم فردريك على رأس جيش ضخم ، تذيع وتنتشر ، حتى ارتفعت الروح المعنوية عند الفرسان

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٧ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٠٩ — ١١٠ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٢ .
Cahen : op. cit. p. 431. Grousset : op. cit. III. p. 16.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٧ .
Grousset : op. cit. III. p. 16.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٧ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٢١ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٠٨ .
Grousset : op. cit. III. p. 16.

المسيحيين الذين يقاتلون على الساحل السورى ، لما ساد من الاعتقاد أنه إذا اجتمعت الجيوش الألمـانية والفرنسية والإنجليزية ، يتيسر للصليبيين استرداد ما استولى عليه صلاح الدين من البلاد[١] . وارتاع المسلمون لما سمعوه ولمسوه من ضخامة الجيش الألمانى ، وصرامة نظامهم ، « وهم على قصد عظيم وجد وسياسة هائلة ، حتى أن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا القتل ، ولم يلتفت الملك إلى الشفاعة فى المذنب . وحرموا على أنفسهم الملاذ ؛ وصح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة ، ولم يلبسوا إلا الحديد ؛ وهم من الصبر والذل والشقاء والتعب فى حال عظيم ، وكل ذلك كان حزنا على بيت المقدس »[٢] . وأشار ابن الأثير إلى أنه لو لم يلق فردريك مصرعه قبيل وصوله إلى الشام ، لمـا كان للمسلمين به مقام ، ولا كان يقال إن الشام ومصر كانتا للمسلمين[٣] . ولذا أرسل صلاح الدين بعد وفاة فردريك ، فصائل من القوات التى حشدها لملاقاة الجيش الألمانى ، لتعزيز قواته على ساحل فلسطين[٤] .

والمعروف أن فردريك بربروسة يمثل ما اشتهر به الجيش الألمـانى من التماسك والصلابة ، فإذا اختفت هذه الشخصية ، تداعى هذا الجيش ، وانهارت روحه المعنوية ، واجتاحته الفوضى والاضطراب ، ولم يستطع فردريك أمير سوابيا ، ابن الإمبراطور الراحل ، أن يمنع هذا الانهيار المادى

(١) Runciman : op. cit. III. p. 15.

Edgar N. Johnson : The Crusades of Fredrick Barbarossa. and Henry VI in Setton's : History of the Crusades II. p. 114.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٢ ، ٢١ .

(٤) Runciman : op. cit. III. p. 16.

والمعنوى ، وبذا فقد الألمان ما كان لهم من نشاط ، وعم المرض أكثرهم ، وصار أكثرهم حملة عصى ، وركاب حمير[١]. وصار يقع فى قبضة المسلم ، من الأسرى ، الاثنان والثلاثة ، ولم ينهض أحد لخلاصهم ، « فهانت الألمانية بعد تلك المهابة فى الأنفس ، وجرى بيعهم فى الأسواق بأبخس الأثمان»[٢] . فعلى الرغم أنه هلك من هذا الجيش ، منذ خروجه من ألمانيا حتى انتصاره فى قونية نحو ٦٠ ألف مقاتل فلا زال الجيش ضخما ، غير أنه ما افتقر إليه فردريك السوابى من قوة الشخصية ، أسهم فى تداعى وحدة الجيش وروحه المعنوية . فقرر بعض الأمراء أن يعودوا بأتباعهم إلى أوربا ، من موانى قليقية ، بينما انقسمت بقية الجيش ثلاث فئات ، فئة توجهت بحرا من طرسوس إلى طرابلس ، وسارت جماعة بصحبة فردريك بحرا إلى أنطاكية ، واتخذت الفئة الثالثة الطريق البرى إلى أنطاكية . وصل فردريك إلى أنطاكية فى ٢١ يونيه ١١٩٠ ، ولحقت به القوات القادمة برا ، بعد أن فقدت عددا كبيرا من رجالها[٣] . وإذ التمست الراحة ، وأرادت أن تستعيد نشاطها بأنطاكية ، بعد أن عانت المشاق والمتاعب ، بسبب قلة الأقوات ، وإلحاح الجوع ، فإن الوباء لم يلبث أن تفشى فيهم ، فحصد أرواح عدد كبير من المحاربين ، من بينهم جماعة من الأساقفة والكوندات (الكنود) ، وحكام الأطراف والمدن[٤] ؛

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٢٢ .

Grousset : op. cit. III. p. 17

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٥٦ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٢٣ .

Grousset : op. cit. III. p. 17.

(٣) Edgar N. Johnson : op. cit. p. 115.

(٤) Ibid : loc. cit. Cahen : op. cit. p. 431.

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٥٦ .

ولعل بوهمند أمير أنطاكية كان يأمل فى أن يفيد من الألمان فى مهاجمة حلب ، لتحويل جهود المسلمين عن عكا ، وأنزل بهم الظاهر غازى أمير حلب هزيمة ساحقة(١) . ولم يسع فردريك إلا أن يواصل رحلته إلى عكا فبلغها فى أكتوبر ١١٩٠ ، بعد أن بذل له الولاء بوهمند ، وقدم للترحيب به فى أنطاكية صهره كنراد مونتفرات . غير أن ماكان لديه من الجيش لا زال قليل العدد ، ولم تلق حملته ما يليق بها من التقدير من قبل اللاتين الذين قدم لمساعدتهم ، وشاع بينهم أن صلاح الدين بذل لكنراد ستين ألف دينار ، حتى يقنع فردريك بمغادرة أنطاكية ، على الرغم من أهمية بقائه بها . ولذا بادر رتشرد وفيليب أغسطس بالإسراع إلى الشرق ليسهما فى النضال الدائر على الساحل شمال فلسطين(٢) .

مصار عكا (أغسطس ١١٨٩) :

وإذ تبددت الحملة الألمانية ، وتأخر قدوم القوات الفرنسية والإنجليزية ، لما حدث من تريث رتشرد وفيليب شهورا فى صقلية ، وقدم لمساندة اللاتين أول الأمر أمداد قليلة العدد ، ومع ذلك شرعوا فى استعادة المدن الساحلية(٣) .

على أن تنظيم اللاتين ولم شعثهم وجمع شتاتهم ، لم يلبث أن تعقد بعد إطلاق سراح جاى لوزجنان . والمعروف أن صلاح الدين وعد بإطلاق سراحه ، مقابل إذعان عسقلان ، فى سبتمبر ١١٨٧ ، غير أن انصراف صلاح الدين إلى الاستيلاء على مدن مملكة بيت المقدس ، أجل

---

(١) أبوشامة : كتاب الرضتين ج ٢ ، ص ١٥٦ .

(٢) Cahen : op. cit. p. 432.

(٣) Runciman : op. cit. III. p. 17.

Grousset : op. cit. III. p. 18.

Grousset : op. cit. III. p. 18.

الإفراج عن جاى حتى يوليه سنة ١١٨٨ ، بفضل توسل وتدخل الملكة سيبل التى لجأت إلى طرابلس ، فتوجه إلى طرابلس الملك جاى ، وعشرة من كبار أتباعه ، ومنهم شقيقه أملريك ، وتقرر أيضا إطلاق سراح الماركيز مونتفرات الكبير والدكنراد ، فلحق بابنه فى صور[١] .
واشترط الملك جاى على نفسه على « ألا يشهر فى وجه صلاح الدين سيفا أبدا ، وأن يكون غلامه ومملوكه وطليقه أبدا »[٢] ، وأنه سوف يغادر الشام نهائيا . ولما يدركه صلاح الدين من عجز جاى وتردده ، وضعفه ؛ لم يخش جانبه ، بل إنه أراد أن يفيد من إطلاق سراحه ، فى ازدياد الفرقة ، وإثارة الخصومة بين اللاتين[٣] ؛ إذ أن معركة حطين لم تنه المنازعات الحزبية ، وانتقلت إلى صور ، حيث اعترف باليان وأصدقاؤه الذين نجوا من الأسر ، بكنراد مونتفرات سيدا عليهم وقائدا لهم ، أما أنصار جاى فاعتبروه دخيلا ، ومنافسا خطيراً لملكهم ، فلما أطلق سراح جاى اشتدت الخصومة والمنازعات[٤] ؛

لحق جاى بالملكة سيبل فى طرابلس ، وتحلل من اليمين التى بذلها لصلاح الدين وشرع فى استرداد سلطانه على اللاتين ، وظل نحو سنة يجمع شتات أنصاره ، ومن قدم من الصليبيين من الغرب ، لا سيما الفرسان الصقليين . وحاول أن يستميل إلى جانبه بوهمند صاحب أنطاكية ، فلم يحصل منه إلا على وعود غامضة ، فتوجه فى صيف ١١٨٩ بأنصاره إلى صور ،

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 19.
Grousset : op. cit. III. p. 18

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٨٠ -٨١ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٣) Grousset : op. cit. III. p. 19.

(٤) Runciman : op. cit. III. p. 20. Grousset : III. p. 19

ليتولى حكومة ما تبقى من مملكته الغابرة[١] ، غير أن كنراد رفض أن يسمح له بالدخول ، إذ اعتبر أن جاى فقد مملكته فى معركة حطين ، وأن صور تعتبر ملكا له لأنه استنقذها[٢] ، وأنه يلى أمرها من قبل الملوك الغربيين ، فيليب أغسطس ورتشرد ، وفردريك بربروسة وأنهم لم يأذنوا له فى تسليمها إلى جاى[٣] . والواضح أن هذه الدعوى فى صالح كنراد ، نظرا لما يربطه بملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا من أواصر القرابة والصداقة ، بينما استند جاى إلى تأييد رتشرد ، باعتباره السيد الأعلى لبيت لوزجنان فى جنين ، فعاد جاى بأنصاره حزينا إلى طرابلس[٤] .

وكيفما كان الأمر ، استقرت القاعدة بين جاى، وكنراد على الاتفاق على المسلمين وصلاح الدين ؛ وفى تلك الأثناء جاء من الغرب أمداد ضخمة . إذ ترتب على انعقاد الصلح بين بيزا والبندقية بفضل تدخل البابا جريجورى الثامن ، أن وصل إلى صور فى أبريل ١١٨٩ أسطول للبيازنة مؤلف من ٥٢ سفينة ، غير أن ما حدث من الشجار بين قائد الأسطول وكنراد ، حمل البيازنة على الانحياز إلى جاى بعد قدومه إلى

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 20.
Painter : The Third Crusade p. 50-51.
Grousset : op. cit. III. p. 20.

(٢) Painter : op. cit. p. 15. Runciman : op. cit. III. p. 21.
Grousset : op. cii. III. p. 20.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٨٠ – ٨١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٧٤ .
Runciman : op, cit. III. p. 21.

(٤) Runciman : op. cit. III. p. 21.

صور ، وإقامة معسكره بخارجها ، واجتمع إليه أيضا فرسان من صقلية(١) .

وفى أواخر أغسطس سنة ١١٨٩ ، رفع جاى معسكره ، وشرع فى المسير بأتباعه صوب الجنوب ، إلى عكا ، والتزم طريق الساحل ، لايفارقه فى السهل والوعر ، بينما سارت المراكب مقابلهم فى البحر ، « فيها سلاحهم وذخايرهم ، ولتكون عدة لهم ، إذا تعرضوا لهجوم لا قبل لهم به »(٢) .

والواقع أن هذه الحركة نجمت عن حماقة رجل يائس برغم بسالته وشجاعته ، فحينما لم يتيسر له أن يحكم فى صور ، رأى أن يقصد بلدا إسلاميا على الساحل ويقيم عليه(٣) . وأصاب كنراد وقتذاك مرض خطير ، فتراءى لجاى أن الفرصة تهيأت له ، لإظهار كفايته ونشاطه ، غير أن المغامرة كانت جسيمة ، لأن حامية عكا تبلغ ضعف عدد جيش جاى لوزجنان ، كما أن قوات صلاح الدين ترابط بالقرب من عكا(٤) .

على أنه يصح أن نتساءل لماذا لم يبادر صلاح الدين إلى مهاجمتهم ومنعهم من المسير إلى عكا ؟ ؛ كان صلاح الدين وقتذاك يحاصر حصن شقيف أرنون ، الذى يعتبر من أمنع حصون الداوية وراء صور ، ويقع على نشز مرتفع بأعالى نهر الليتانى ؛ ولجأ إليه رينالد (ارناط) أمير صيدا ،

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 22.

Lane Poole : Saladin p. 254

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٢١ .

Grousset : op. cit. III. p. 20.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤١ .

Runciman : op. cit III. .p. 22.

(٤) Runciman : op. cit. III. p. 22.

واستطاع بفضل دهائه ومكره أن يحتفظ بها ، واتفق فى مايو على أن يسلم الحصن فى أغسطس سنة ١١٨٩ . والواقع أن رينالد أدى للاتين خدمة بالغة الأهمية ، بما اتخذه من أساليب المكر والدهاء والغش ، والتظاهر بالإسلام ، والإفادة من سخاء صلاح الدين وتسامحه ووفائه بالعهد ، فعطل حركات جيش صلاح الدين لمدة ثلاثة شهور . ولما أدرك صلاح الدين آخر الأمر خداعه ومكره أمر بحبسه ، وألزمه بتسليم الحصن ، ولما لم تستجب الحامية ، بإيعاز منه ، إلى طلبه ، سيره صلاح الدين إلى دمشق وأتى به فى الحبس ، وأبقى قوة من جيشه على حصار الشقيف ، ولمنع الذخيرة والرجال من الدخول إليه[١] .

ولما تحقق لصلاح الدين أن جاى يقصد الوصول إلى عكا ، عزم على مهاجمته أثناء المسير[٢] . وكتب إلى سائر أمراء الأطراف بالمسير إليه ، وسلك إلى عكا طريق طبرية ، الذى يصلح لمسير العسكر ، وسير جماعة على طريق تبنين ، ليواصلوه بأخبار العدو[٣] . واتخذ صلاح الدين هذه الخطة ، بناء على رأى أمرائه ، إذ كان صلاح الدين يرى المسير محاذاة الصليبيين ومقاتلتهم ، « لأن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض فلا يتهيأ

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ١٨ .

ومن أسباب استمرار صلاح الدين على مطاولة رينالد ، انتظاره لانسلاخ الهدنة وتسليم الحصن ، والخوف من وصول الأمداد له ، إذا فارقه ، وكان مشفقاً أيضاً من جانب أنطاكية لانتهاء أشهر هدنتها ، ولذا كتب إلى تقى الدين بالمقام فى تلك الخطة .

(انظر أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٤٠) .

(٢) حدثت اشتباكات مع قوات جاى ، خارج صور ، وقصد صلاح الدين فى يوليه ١١٨٩ عكا ، ورتب أحوالها ، وتفقد حاميتها ، ومدها بالميرة والأسلحة والرجال .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٤١ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٠١ .

Lane Poole : Saladin p. 257.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٤٢ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٢٩٠ .

لنا إزعاجهم ، ولا ينل الغرض منهم ، فلا بد من قتالهم قبل الوصول إلى عكا»[١]. غير أن الأمراء حملوه على أن يمضي على أسهل الطرق ، فسبقهم الصليبيون فى الوصول إلى عكا ، التي بلغها جاى لوزجنان فى ٢٨ أغسطس فأقام معسكره على تل المصلبين ، المعروف بتل الفخار ، على مسافة ميل إلى شرق المدينة ، على نهر بيلوس الذى يمد رجاله بالماء[٢] . ولما وصل صلاح الدين بعد يومين ، رأى الفرنج قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ، ولم يبق للمسلمين إليها طريق ، فاتخذ مقر قيادته على تل كيسان . وامتدت ميمنته إلى تل الغياضية ، وميسرته إلى النهر ، بينما نزلت الأمتعة والأدوات فى صفورية ؛ فأحاط العسكر الإسلامى بالصليبيين[٣] . ولما لم يتوافر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٢١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٩١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٩١ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٨٨ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٢٢ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٨٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٩١ .

Grousset : op. cit. III. p. 22-23.

تقع عكا فى شبه جزيرة صغيرة تمتد صوب الجنوب ، داخل خليج حيفا ، ويحميها من جهة الجنوب والغرب البحر ، وسور يرتفع على ساحل البحر ، ويمتد رصيف (حاجز الأمواج) من الجنوب صوب الشرق ، إلى صخرة يرتفع عليها حصن اسمه برج الذباب . ومن وراء الحاجز تقع الميناء ويحمى المدينة من جهة البر ، فى الشرق والشمال من المدينة ، أسوار منيعة وفى مدخل الميناء سلسلة وحصن الذباب . وتطل أسوار المدينة على سهل عكا الفسيح ، الذى تنساب فيه مياه نهر بيلوس بفروعه . وللمدينة باب يطل على الميناء ، وباب يطل على مرسى السفن . وكانت عكا أغنى مدن مملكة بيت المقدس ، واتخذها ملوكها مقراً لهم . فلما استولى عليها صلاح الدين ، أمر بعمارة ما تهدم من أسوارها ، ووفر بها من المؤن والذخائر ما يجعل حاميتها تصمد للحصار زمناً طويلا .

Runciman : op. cit. III. p. 24.
Lane Poole : Saladin p. 259-260

عند صلاح الدين من العساكر ما يكفى للقيام بهجوم شامل على الصليبيين ، فإنه أخذ ينتظر قدوم الأمداد من أتباعه فى الشرق . وفى تلك الأثناء بدأ فى الوصول إلى عكا ، أساطيل الصليبيين التى غادرت أوربا فى شهر مايو[1] . فتوافد على عكا جماعة من البارونات بعساكرهم وأتباعهم ، من الفلمنكيين والفرنسيين ؛ وقدم أسطول ضخم يحمل دانمرقيين وفريزيين وسكسون ، وأضحى لسفنهم أهمية كبيرة فى حصر المدينة من جهة البحر ، وتوالى مجىء الأمداد من البحر[2] . فاستطاعوا أن يحصروا عكا من جميع جهاتها ، وتعذر على المسلمين دخول المدينة والخروج منها ، فضاق السلطان بذلك ، وسمت همته إلى فتح الطريق إلى عكا ، لتستمر السابلة وترد إليها الميرة والنجدة . ونجح المسلمون فى أن يشقوا الطريق إلى عكا بعد قتال عنيف ، ودخل السلطان إلى عكا ، ورقى إلى السور وأشرف على عسكر الصليبيين ، وأدخل صلاح الدين إلى البلد من أراد من الرجال ، وما شاء من الذخائر والأموال والسلاح ؛ ولحقت بالصليبيين خسائر فادحة فى هذه الوقعة ، وذلك فى ١٥ — ١٦ سبتمبر ١١٨٩[3] . وعلى الرغم من أن صلاح الدين لم يواصل الهجوم على معسكر جاى لوزيجنان ، فالواقع أن مركز الصليبيين ازداد حرجا ، ورأى صلاح الدين توسيع الدائرة عليهم ، لعلهم يخرجون

---

(١) Painter : The Third Crusade p. 51.

(٢) قدر المؤرخون الغربيون قوات جاى بعد قدوم الدانمرقيين والفريزيين بنحو ٢٠ ألف ، وجعل ابن شداد عدد راكبهم ألفى فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين ألفا .

انظر : Lane Poole : Saladin. p. 254

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٨٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٢٢ .

ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٩٢— ٢٩٣ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤١.

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٨٩ — ٩٠ .

Lane Poole : Saladin. p. 260.

إلى القتال ، فنقل الأمتعة والعدة الحربية إلى تل الغياضـــية قبالة قيادة الملك جاى[١].

وفى أواخر سبتمبر ١١٨٩ قدم إلى عكا كنراد مونتفرات يصـــحبه البارونات الذين أقاموا معه فى صور ، فتشجع جاى على أن يهاجم القوات الإسلامية ، بعد أن عهد إلى أخيه جفرى ، بمراقبة عكا[٢] . على أن صلاح الدين استطاع أن ينزل بالصليبيين هزيمة ساحقة فى أكتوبر ١١٨٩ ، فلحق بالألمان والداوية خسائر فادحة ، فوقع جـــيرار مقدم الداوية فى الأسر ، ولم يلبث أن لقى مصرعه ، ولم يفلت كنراد من الأسر إلا بفضل جاى لوزيجنان ، غير أن الصليبيين لم يغادروا مواضعهم[٣] .

وعلى الرغم من انتصار صلاح الدين ، فإن إدراكه أن الانتصار لم يكن حاسما ، ووخامة المكان بسبب تعفن الجثث ونتن ريحها ، حمله على الانتقال إلى تل الخروبة تحت إلحاح أمرائه للاستجمام والراحة ، وانتظارا لقدوم العادل بالعساكر من مصر ، على حين أنه رأى ضرورة مواصلة القتال حتى يتم قلع العدو من هذه البلاد ، « فإن بقى وطال أمده ، إلى

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٣ .

Runciman : op. cit. II. p. 25.

Grousset : op. cit. II. p. 24-25

(٢) Painter : The Third Crusade p. 52.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٩٤ – ٣٠٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٤ – ١٤٦ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٩٢ – ٩٨ .

Painter : The Third Crusade p. 52.

Runciman : op. cit. III. p. 26.

Grousset : op. cit. III. p. 24-26.

أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأى كل الرأى عنـــدى ، مناجزته »[(١)] . فلم يسع صلاح الدين إلا النزول على رأى أصحابه ، فأمضى بالخروبة الشتاء وجانبا من الربيع ، بعد أن أمر أهل عكا بإغلاق أبوابها ، ولم تنقطع طلائعه عن الفرنج[(٢)] .

والواقع أن هذا القرار أفاد منه الفرنج ، بأن أمنوا وانبسطوا فى الأرض ، وأخذوا يحصرون عكا من جديد ، بعد أن انقطع الاتصال بين صلاح الدين وحاميتها لانتقاله إلى الخروبة ، فأحاطوا بها من البحر إلى البحر ، وحصرتها مراكبهم من جهة البحر : وشرعوا فى حفر الخندق ، وتشييد السور ، ليتحصنوا به من صلاح الدين ، إن عاد لقتالهم[(٣)] . فما حدث من الخطأ الفاحش عن منازلة صور ، تكرر أمام عكا ، إذ تهيأت الفرصة للصليبيين لأن يعتصموا بخندقهم ، ويصمدوا فى مواقعهم حتى تقدم الأمداد ، فلو أن المسلمين مضوا فى القتال ، لتعرض اللاتين لهزيمة تضارع ما حل بهم فى حطين[(٤)] . وأدى اهتمام الفرنج بتقوية استحكامات القطاع الشمالى الشرقى الممتد من معسكرهم إلى البحر ، إلى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٦ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٩٧ — ٩٨ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٢٥ — ٢٦ .
Lane Poole : Saladin pp. 265-266

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٢٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٠٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٢٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٧ .

(٤) Lane Poole : Saladin p. 267

إحكام حصار عكا ، وتولى حمايتـه المارکيز مونتفرات والاسبتارية ، فانقطعت طريق المسلمين إلى عكا[١] .

والمعروف أن الشتاء يزيد فى متاعب الصليبيين المرابطـين أمام عكا ، لأنه ليس فى وسعهم السيطرة فى ذلك الفصل على البحار ، ومن ثم اشتدت حاجتهم إلى المؤن والأمداد . والواضح أن مملكة بيت المقدس ارتكنت فى سد حاجتها من المؤن والأمداد ، إلى القوى البحرية الإيطالية ، وظل اللاتين على ساحل الشام وفلسطين يلتزمون هذه القاعدة . وأفادت طرابلس وأنطاكية وصور من الأسطول الصقلى سنة ١١٨٨ ، وساند الأسطول الجنوى جاى لوزيجنان فى سيره إلى عكا فى أغسطس ١١٨٩ : وفى أثناء الشتاء كان لابد للصليبيين من أن يرتكنوا إلى هذه السفن ، التى التزمت موانيها ، على حين أنه حدث فى أكتوبر سنة ١١٨٩ أن قدم أسطول ضخم من مصر ، مؤلف من خمسين سفينة ، فأمد عكا بجماعة من الأمراء بأجنادهم وعددهم وأزوادهم ، « واستظهر البلد برجال الأسطول ، وكانوا نحو عشرة آلاف »[٢] . وفى ديسمبر ١١٨٩ قدمت قافلة ضخمة من السفن من مصر ، استطاعت أن تعيد الاتصال بالمدينة[٣] ؛ بعد أن أغلقته السفن الجنوية ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٠٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٧ .
Grousset : op. cit. III. p. 27.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٠٥ .
أبو شامة : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٤٨ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٠١ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٢٦ .
Runciman : op. cit. III. p. 26.
Lane Poole : Saladin p. 267.

(٣) Runciman : op. cit. III. p. 26.
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٢ .



معركة عكا ٤ أكتوبر ١١٨٩

إحكام حصار عكا ، وتولى حمايتـه الماركيز مونتفرات والاسبتارية ، فانقطعت طريق المسلمين إلى عكا[١] .

والمعروف أن الشتاء يزيد فى متاعب الصليبيين المرابطـين أمام عكا ، لأنه ليس فى وسعهم السيطرة فى ذلك الفصل على البحار ، ومن ثم اشتدت حاجتهم إلى المؤن والأمداد . والواضح أن مملكة بيت المقدس ارتكنت فى سد حاجتها من المؤن والأمداد ، إلى القوى البحرية الإيطالية ، وظل اللاتين على ساحل الشام وفلسطين يلتزمون هذه القاعدة . وأفادت طرابلس وأنطاكية وصور من الأسطول الصقلى سنة ١١٨٨ ، وساند الأسطول الجنوى جاى لوزيجنان فى سيره إلى عكا فى أغسطس ١١٨٩ : وفى أثناء الشتاء كان لابد للصليبيين من أن يرتكنوا إلى هذه السفن ، التى التزمت موانيها ، على حين أنه حدث فى أكتوبر سنة ١١٨٩ أن قدم أسطول ضخم من مصر ، مؤلف من خمسين سفينة ، فأمد عكا بجماعة من الأمراء بأجنادهم وعددهم وأزوادهم ، « واستظهر البلد برجال الأسطول ، وكانوا نحو عشرة آلاف »[٢] . وفى ديسمبر ١١٨٩ قدمت قافلة ضخمة من السفن من مصر ، استطاعت أن تعيد الاتصال بالمدينة[٣] ، بعد أن أغلقته السفن الجنوية ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٠٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٧ .
Grousset : op. cit. III. p. 27.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٠٥ .
أبو شامة : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٤٨ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٠١ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٢٦ .
Runciman : op. cit. III. p. 26.
Lane Poole : Saladin p. 267.

(٣) Runciman : op. cit. III. p. 26.
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٢ .



معركة عكا ٤ أكتوبر ١١٨٩



ومنعت كل ما يقدمه الأسطول المصرى من مساعدات لأهل أنطاكية والعساكر بها[١] . وقدم إلى صلاح الدين من مصر أيضا ، سنة ١١٨٩ ، العساكر المصرية ومقدمها العادل أيوب ، فقويت نفوس الناس به وبمن معه ، وبما جلبه من آلات الحصار والأسلحة ، وانحاز إلى صلاح الدين عدد كبير من الرجاله من البلاد الشامية[٢] .

وأخذ صلاح الدين يرسل كتبه إلى جميع الأقطار يستدعى الناس إلى الجهاد ويحثهم عليه ، فأشار فى بعض الكتب إلى أنه « مادام البحر يمدهم والبر لا يصدهم ، فبلاء البلاد بهم دائم . فأين حمية المسلمين ونخوة أهل الدين ، وغيرة أهل اليقين . وما يقتضى عجبنا من تضافر المشركين وقعود المسلمين ، فانظروا إلى الفرنج أى مورد وردوا ، وأى حشد حشدوا وأى أموال غرموها وأنفقوها . ولم يبق ملك فى بلادهم وجزائرهم ، ولا عظيم ولا كبير إلا جارى جاره فى مضمار الإنجاد . وما فعلوا ما فعلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم ، والنخوة لمعتقدهم . وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل إذا ملك ، ورفع حجاب عزهم وهتك ، يخرج بلد عن يده وتمتد يد إلى بلده »[٣] .

وورد فى هذا الكتاب ما يصف المسلمين بالتقاعد والغفلة والكسل ، وانعدام الغيرة وأنذر بما يترتب على ذلك من نتائج وخيمة ، « فلو انثنى للإسلام عنان ، لما وجد فى شرق البلاد وغربها ، وبعد الآفاق وقربها ، من لدين الله يغار ، وهذا أوان رفض التوانى واستدناء أولى الحمية من الأقاصى والأدانى »[٤] .

---

(١) Wiet : op. cit. p. 327.

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ٣١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٤٨ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٤٨ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٤٨ .

وردد هذه المعانى فى كتابه إلى الخليفة ، فأشار إلى ما لحق اللاتين من خسائر فى المعارك التى دارت بين الفريقين منذ حصار عكا ، « فما أثر ذلك فى نقصهم ، فليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير ، ويأتى عليه التدمير ، وإنما هو كل من وراء البحر ، وجميع من فى ديار الكفر ، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة ، إلا جهزت مراكبها ، وأنهضت كتائبها ، وتحرك ساكنها ، وبرز كامنها ، وحملت ذخائرها ، وخرجت بصلبانها أساقفها وبطاركها . وتصلبت للصليب السليب ، وتعصبت للمصاب المصيب ، ونادوا فى نواديهم بأن البلاد بلادهم ، وإن إخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم ، وأنه من خرج من بيته مهاجرا لحرب الإسـلام وُهبت له ذنوبه ، وذهبت عنه عيوبه ، ومن عجز عن السفر ، سـفَّـر من يقاتل عوضه ، أو يعين بماله وعدته قدره ، فجاءوا لابسين الحديد ، بعد أن كانوا لابسين الحداد ، وتواصلت منهم الأمداد »[١] . فصارت الأمداد تتوالى دون انقطاع ، فجاء من جهـة البحر الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون فضلا عن جماعات من الفلاندر والمجر والدانمرقة[٢] .

ظلت الجيوش الإسلامية والصليبية تواجه بعضها بعضا طوال الشتاء ، وحالت الأوحال عن الركوب والنزول ، ومع ذلك وقعت بعض المناوشات ، ولم يلبث أن أنس البعض لطول المعاشرة ، فحدث أحيانا أن تترك الطائفتان القتال ، وتتحدثان وتسمران سويا ، ثم تعودان للقتال ؛ بل إن أطفال الجانبين كانوا يتصارعون ؛ فى حضور الطائفتين. واشتهر

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٠٦ – ٣٠٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٢) Runciman : op. cit. III. p.26.

صلاح الدين بما أظهره من الدماثةوالفروسية[١] ، وبما يوجهه من الرسائل والهدايا إلى الأمراء المسيحيين . ودهش جماعة من أتباعه المتشددين فى الدين لمـا طرأ على الجهاد الدينى الذى التمس من الخليفة الدعوة له ، كما أن الفرسان القادمين حديثاً من الغرب ، لم يكن من السهل عليهم أن يدركوا الموقف فى الشرق ، فالمرارة والعداوة الشديدة ، خفت حدتها ، ومع ذلك كان كل فريق حريصا على أن ينال النصر[٢] .

وعلى الرغم من العلاقات الطيبة التى انعقدت بين الفريقين ، فلا زالت حركة الجهاد تسيطر على تفكير السلطان صلاح الدين ، وتتحكم فى سياسته وحركاته، ولذا نعى على المسلمين التقاعد عن قتال الصليبيين ، « وألمع إلى إقبال الفرنج على القتال »[٣] .

على أن الحياة فى معسكر الصليبيين فى ذلك الشتاء كانت بالغة القسوة ، فأخذت المؤن فى النفاد ، وأضحت ماء الشرب من المشاكل التى واجهها الصليبيون وتفشت الأمراض بين العساكر ، ووقع الشجار بين عساكر كل من جاى لوزيجنان وكنراد مونتفرات ، فتم الاتفاق بين الفريقين ،

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٩٢ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٣ .

العماد الكاتب : الفتح القسى ص ١٩٦ .

(٢) Runciman : op. cit. p. III. 27.

Grousset : op. cit. III p. 28-29

Lane Poole : Saladin p. 260

(٣) أورد أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٨ ، ما يدل على هذا المعنى فى كتاب صلاح الدين إلى بعض الأطراف « أين حمية المسلمين ، ونخوة أهل الدين ، وغيرة أهل اليقين ، وما يقتضى عجبنا من تظافر المشركين وقعود المسلمين ، فلا ملبى منهم لمناد ، ولا مثقف لمنآد » .

Grousset : op. cit. III. p. 30-31. Stevenson : op. cit. p. 263.

على أن يكون لكنراد صور ، فضلا عن صيدا وبيروت بعد الاستيلاء عليهما ، وأن يعترف كنراد بجاى ملكا . وترتب على هذا الاتفاق أن جلب كنراد المؤن والأسلحة من صور فى مارس ١١٨٠ ، وبفضل المواد التى جلبها كنراد أقام الصليبيون أبراجا خشبية للحصار[١] . وأفاد كنراد من الأسطول فى دفع السفن الإسلامية إلى داخل الميناء ، ومنع تموين عكا ، وتشديد الحصار عليها من جهة البحر ؛ وقطع الاتصال بمصر[٢] .

أما صلاح الدين فإنه نقـــل معسكره إلى تل كيسان على مسافة ٩ كيلومترات إلى الجنوب الشرقى من عكا للتضييق على الفرنج ، بعد أن جاءته العساكر من البلاد القريبة منه ، دمشق وحمص وحماه[٣] .

على أن العمليات الحربية بين القوات الإسلاميه والصليبيين لم تبدأ إلا فى أواخر أبريل ١١٩٠ ، وبعد قدوم طلائع الأمداد من دمشق وحمص وحماة[٤] ؛ فما نصبه اللاتين من الأبراج لمهاجمة أسوار عكا من ثلاث جهات ، لم تلبث أن احترقت بفضل شاب من أهل دمشق استطاع أن يقف على سر النار الإغريقية ، واعتبر ما عمله لله ولا يريد عنه جزاء ، وذلك فى مايو سنة ١١٩٠[٥] ؛

---

(١) Runciman : op. cit III. p. 27-28.

Groasset : op. cit. III p. 32-33.

(٢) Grousset : op. cit. III. p. 33

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ٢٧ – ٢٨ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣١٢ .

(٤) Stevenson : op. cit. p. 263.

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ٢٨ – ٣٠ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ؛ ص ٣١٥ – ٣١٦ .

Lane Poole : Saladin p. 269،

Stevenson : op cit. p. 263. Grousset : op. cit. III. p. 33-34.

وفى تلك الأثناء توالى قدوم الأمداد من حلب ومن الجهات الشرقية ، فوصل الظاهر صاحب حلب ، وزنكى بن مودود صاحب سنجار ، وسنجر شاه صاحب الجزيرة ، وعلاء الدين ابن صاحب الموصل (عزالدين مسعود) ، ومحمود بن بهرام الأرتقى صاحب دارا ، ويوسف ابن كجك صاحب أربل ، فلقوا من صلاح الدين الاحترام والإكرام . وقدم أيضاً رسول الخليفة ، يعرض ما بذله الخليفة من مساعدة للجهاد ، وتتمثل فى حملين من النفط ، وتوقيع بعشرين ألف دينار تقرض من بعض التجار باسم الخليفة ، وخمسة من الزراقين المتقنين صناعة الإحراق والنار ، غير أن صلاح الدين رد التوقيع واعتد بما جاء من قبل الخليفة[1] . وأرسل صلاح الدين أيضاً سفارة إلى ملك المغرب أبى يوسف يعقوب تحمل رسالة تشرح جهود صلاح الدين فى حركة الجهاد ، وإلى سقوط بيت المقدس ، وإلى استنجاد اللاتين « بفرنج المغرب ، وخروج نجداتهم وكثرتها وقوتها ، وثروتها ، ومسارعتها ، وأنه لا يمضى يوم إلا عن قوة تتجدد وميرة تصل ، وأموال واسعة تخرج » . وأشار أيضاً إلى مصير فردريك بربروسة ، وإلى أن هذا العدو ، « لو أرسل الله عليــه أسطولا قويا ، يقطع بحره ، لأخذنا العدو إما بالجوع والحصر ، أو برز فأخذناه بيد الله تعالى التى بها النصر . فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربى ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال فى اللقاء فارهة ، وللمسير غير كارهة ، فالبدار البدار . فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر ، ولا يعين الاسلام الإسلام ، وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جاره ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار»[2] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣١٤ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٠٤ – ١٠٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ص ١٥٢ – ١٥٤ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٧٠ – ١٧١ .

وفى رسالة أخرى « لم يؤخر فتح البلاد إلا أن فرع الكفار بالشام ، استصرخ بأصل الكفار من الغرب ، فأجابوهم رجالا وفرسانا ، وشيبا وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا . وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ، بل خرج كل يلبى دعوة بطركه ، وخرجت لهم عدة ملوك ومنهم ملك الألمان . . . ومنهم من ركب البحر ، لينصر دينه . . . وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب . . ما بين أقوات وأطعمة ، وآلات وأسلحة . . إلى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة ، وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة . لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة ، تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ما أكل ، فهم كل يوم فى حصول زيادة وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر ما منعهم البر ، وكلما أفناهم القتل ، أخلفتهم النجدة . . . وكان المتوقع من تلك الدولة العالية والعزمة الفادية والهمة المهدية الهادية أن يمد غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين . . . والله تعالى يجعل هذه العزمة منا فى استنهاض العزمة منه ، بالغة مبلغا يسر أهل دينه »(١)

طال أمد الحصار على عكا ، واشتد التضييق عليها طوال الشهور الثلاثة التالية منذ مايو ١١٩٠ ، وعلى الرغم من محاولة الصليبيين حصر الميناء من جهة البحر ، فإن المدينة تلقت من حين إلى آخر الأمداد والمؤن من جهة البحر . ولما أخذ الصيف يقترب من النهاية ، كانت الحملة الألمانية فى طريقها إلى الشام ؛ غير أن الإمبراطور فردريك لقى مصرعه غرقا فى نهر السالف فى يونيه ١١٩٠(٢) . وتولى ابنه فردريك دوق سوابيا قيادة

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٧١ — ١٧٣ .
هذه الرسالة تلقاها ملك المغرب فى ١٨ يناير ١١٩١ .

(٢) Grousset : op. cit. III. p. 32
Stevenson : op. cit. p. 264

من تبقى من القوات الألمـــانية ، ولو علم صلاح الدين بما أصاب هذه البقية من الضعف الشديد ، لما أقدم على أن يقتطع من جيشة الضخم ، جانبا كبيرا ، لينفذه لمواجهة الألمـــان[1] . فالقوات الإسلامية التى قدمت بفضل جهود ابن شداد ، من حلب والموصل واربل وسنجار والجزيرة احتشدت فى معسكر صـــلاح الدين ؛ على حين أن القوات الشامية تقرر توجيهها لقتال الألمان[2] .

واغتنم الصـــليبيون المحاصرون لعكا ، ما حدث من تفرق العساكر الإسلامية فى أطراف البلاد ، وأن ميمنة العسكر قد خفت بسبب من سار منها لحماية البلاد من الخطر الألمانى ، وعزموا على مهاجمة جيش صلاح الدين

---

(١) الواقع أن صلاح الدين بالغ فى اهتمامه بأمر الحملة الألمانية ، على الرغم من وقوفه على أخبارها منذ خروجها ؛ فإلى جانب القوات الشامية التى أنفذها لمواجهة الألمان ، أمر بهدم أسوار أرسوف وقيسارية ويافا ، وصيدا وجبيل . ومن كتاب أرسله إلى بغداد ، يتبين قوة الصليبيين فى عكا « ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا ، يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، وقد تعاضد ملوك الكفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة طائفة ، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكة ، فإذا قتل المسلمون واحداً فى البر ، بعثوا ألفاً عوضه فى البحر ، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة فى استطاعتهم لا فى طاعتهم ، وفى أحوالهم لا فى شجاعتهم .

وقد حرم باباهم كل مباح ، واستخرج منهم كل مذخور وأغلق دونهم الكنائس وألبسهم الحداد ، وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة .

فيا عصبة محمد عليه السلام ، أخلفه فى أمته ، بما تطمئن به مضاجعه ، ووفه الحق فينا فإنا والمسلمون عند ودائعه . وما مثل الخادم نفسه فى هذا القول إلا بحالة عبد ، لو أمكنه لوقف بالعتبات ضارعا ، وقبل ترابها خاشعا . . رب إنى لا أملك إلا نفسى ، وها هى فى سبيلك مبذولة ، وأخى وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة » .

(أنظر أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٧) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٤ .

Lane Poole : Saladin p. 269

لم يصل إلى عكا فى أكتوبر ١١٩٠ إلا طائفة قليلة من الألمان بقيادة فردريك دوق سوابيا .

Stevenson : op. cit. p. 265

بغتة ، غير أن القوات المصرية التى تؤلف جانبا من ميمنة الجيش ، بقيادة العادل أيوب ، ردت هذا الهجوم العنيف ، وكبدت الصليبيين خسائر فادحة فى الأرواح ، ووقع فى أسر المسلمين عدد كبير ، وتشجع سكان عكا ، فهاجموا خيام العدو فاستباحوا ما بها من النساء والأقمشة ، وذلك فى يوليه ١١٩٠[١] .

غير أن هذه الخسائر عوضها ما جاء من أمداد من الغرب ، إذ وصل إلى عكا فى ٢٧ يوليه ١١٩٠ جماعة من النبلاء البرجنديين والفرنسيين ، ومن أشهرهم هنرى تروى كونت شامبانيا ، المعروف عند المؤرخين العرب باسم الكندهرى ، وهو ابن أخى ملك فرنسا من جهة أبيه ، وابن أخى ملك إنجلترا لأمه[٢] ، وصارت إليه قيادة هذه الأمداد التى بلغ عددها نحو ١٠ آلاف راجل فضلا عن الفرسان والنبلاء والمحاربين من رجال الكنيسة[٣] . وهو الذى جلب معه أدوات الحصار ، وصحبته حاشية الملك فيليب أغسطس ، وأنذر بقدوم الملكين[٤] ، وأخطر اللاتين على عكا أن الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضا ، فتماسكوا وحفظوا مكانهم ،

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٢ - ٣٣ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١١١ - ١١٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .
Lane Poole : Saladin, P. 269.
Runciman : op. cit. III. p. 28. Grousset : III. p. 34-36

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٣ .
المعروف أن أمه ، ابنة اليانور صاحبة اكيتانيا ، والتى تعتبر أختا غير شقيقة لملكى إنجلترا وفرنسا .
انظر : Runciman : op. cit. III. p. 28

(٣) Lane Poole : Saladin p. 269

(٤) Grousset : op. cit. III. p. 36.

وأضحوا كأن لم ينكبوا[1] . تولى هنرى قيادة عمليات الحصار ، واشتد نشاط الصليبيين ، منذ قدومه حتى مستهل الشتاء ، فى تضييق الخناق على عكا ، ولم يسع صلاح الدين إلا أن ينتقل من مكانه (تل كيسان) ، إلى الخروبة مرة أخرى ليتسع المجال ، وليوسع عليهم الدائرة ، نظرا لما ترتب على المعركة التى وقعت أوائل يوليه ١١٩٠ ، من تراكم الجثث على الأرض ، وما انبعث منها من الرائحة الكريهة ، وانتشار الأمراض والأوبئة ، واشتداد الحرارة ، وذلك فى أغسطس سنة ١١٩٠[2] .

على أن حامية عكا تعاهدت الدفاع فى نشاط وبراعـــة ، ولم ينقطع الاتصال بينها وبين صلاح الدين ، فكانت الكتب تصل إليه « على أجنحة الطيور وأيدى السباحين والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سرقة من العدو »[3] . ووقف صلاح الدين من خطاب الإمبراطور إسحاق انجيلوس ، على ما تعرض له الألمان من المتاعب ، وما خسروه من المال والدواب والرجال ، وما أصابهم من الضعف[4] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٣ . ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١١٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٩ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٢٨ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١١٥ .
Grousset : op. cit. III. p. 36-37. Stevenson p. 265

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١١٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٩ .
Lane Poole : Saladin : p. 270.f

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١١٦ — ١١٧
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٩
Lane Poole : Saladin p. 265
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٩ .

وعلى الرغم من أن الفرنسيين شددوا فى حصار المدينة ، فالواقع أن السفن الإسلامية استطاعت أن تشق طريقها إلى الميناء ، لإنفاذ المؤن إلى الحامية . ودخلت إلى الميناء سفينة قادمة من بيروت تحمل أربعمائة غرارة قمح فضلا عن الجبن والبصـل والغنم ، وتزيا رجالها بزى الفرنج ، وبرعوا فى إظهارها على أنها من سفن الصليبيين ، ولم يفطن لها بحارة سفينة صليبية ، اتفقت معها فى سيرها بالبحر ، وكانت تقصد العسكر الصليبى[١] . وحدث أيضا فى سبتمبر ١١٩٠ ، أن أرسل قراقوش والى عكا ، ولؤلؤ مقدم الأسطول ، إلى صلاح الدين ، يخطرانه بأنه لم يبق بالبلد من المؤن إلا ما يكفى أياما قليلة (منتصف سبتمبر)[٢] ، فكتب إلى مصر بتجهيز ثلاث سفن مشحونة بالأقوات والمؤن وأدوات الحصار ، تكفى أهل عكا طوال فصل الشتاء ، فطابت لها الريح ، حتى بلغت عكا ، فى الوقت المناسب ، إذ لم يكن بها ما يكفى لطعام الناس فى ذلك اليوم . فخرج عليها الأسطول الصليبى ، وشهد المسلمون الوقعة البحرية ، غير أن السفن الإسلامية استطاعت آخر الأمر أن تنفذ إلى الميناء سالمة آمنة[٣] .

وما تعرض له المحاصرون من الجوع ، ونفاد الأقوات ، وما حدث من وصول الأمداد الألمانية بقيادة فردريك دوق سوابيا ، حمل الصليبيين

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٣١ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١١٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٦٠ – ١٦١ .

(٢) Grousset : op. cit. III. p. 36.

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٦١ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٢٢ – ١٢٣
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٣١ – ٣٣٢
Grousset : op. cit. III. p. 38. Lane Poole : Saladin. p. 271

على أن يحاولوا من جديد مهاجمة عكا وقتال صلاح الدين . وما نصبه هنرى كونت شامبانيا من أدوات الحصار ، من المناجيق ، لم تلبث أن احترقت على أيدى حامية عكا[١] . وفشلت محاولة البيازنة ، فى سبتمبر ١١٩٠ فى الاستيلاء على برج الدبان (الذباب) ، الذى يقع فى وسط البحر ، على صخرة ، على باب ميناء عكا ، يحرس منه الميناء ، ومتى عبره المركب أمن غائلة العدو . والواضح أن الصليبيين أرادوا الاستيلاء على هذا البرج ، ليخضعوا الميناء لسيطرتهم ، ويمنعوا دخول المؤن إلى عكا[٢] . ولم يكن حظ ما ابتكروه من أدوات الحصار ، كالكبش والسفود بأحسن حالا من حظ الأدوات الأخرى ، إذ قذفها أهل عكا بالمجانيق والجروخ والسهام والنيران والنفط فاحترقت[٣] .

أما فردريك دوق سوابيا فإنه قدم فيمن تبقى من الألمـــان ، إلى عكا فى أكتوبر ١١٩٠ ، وهاجم تل العياضـــية الذى رابط به طلائع الجيش

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٣ – ٣٤
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١١٧ – ١١٨
Runciman : op. cit. III. p. 29.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٣٥ – ٣٣٦ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٢٣ – ١٢٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٦٢ – ١٦٣ .
Lane Poole : Saladin p. 271
Grousset : op. cit. III. p. 35 Stevenson : op. cit. p. 265-266

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٦٣ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٢٦ – ١٢٨ .
Stevenson : op. cit. p. 266.

الأيوبى ، فدارت معركة عنيفة ، ولم يسع فردريك وعساكره إلا الانسحاب إلى المعسكر الصليبى ؛ للاشتراك فى مهاجمة عكا[١] .

ترتب على خرب الخنادق ، وتداعى الروح المعنوية عند الصليبيين ، ونفاد الأقوات وشدة الغلاء ، وانتشار الأوبئة ، أن انهارت قوة الجيش الصليبى . فحرص البارونات على أن يشنوا هجوما على صلاح الدين ، وإخراجه من موقعه فى تل كيسان ، على مسافة خمسة أميال من عكا ، واتخاذ الطريق إلى حيفا حيث كانوا يأملون فى أن يصيبوا من الجيش الإسلامى ما يحتاجون إليه من المؤن . غير أن ما حدث فى نوفمبر ١١٩٠ من الاشتباكات ونصب الكمين للصليبيين ، ألحق بهم خسائر فادحة . وتجلت مروءة صلاح الدين وفروسيته فى معاملة من وقع فى الكمين من أعيان الفرسان الصليبيين ، إذ « أكرم المقدمين منهم ، وخلع عليهم وعلى مقدم العسكر الفرنسى ، وأمدهم من الفراء بما يحفظهم من البرد ، وأحضر لهم طعاما أكلوه ، وأمر لهم بخيمة تضرب قريبا من خيمته ، وكان يكارمهم فى كل وقت ، ويحضر المقـــدم على الخوان فى الأوقات ، وأذن لهم أن يراسلوا صاحبهم ، (هنرى شامبانيا) ، وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب ، ثم سيرهم إلى دمشق مكرمين »[٢] .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٢٧ .
المعروف أن فردريك هو الذى ابتكر الكبش والسفود .

Grousset : op. cit. III. p. 38-39

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٣٢ – ١٣٥ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٣٨ – ٣٤٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٦٤ – ١٦٥ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٤ – ٣٥ .

Runciman : op. cit. III, p. 29-40.

Grousset : op. cit. III. p. 39-40

Lane Poole : Saladin pp. 272-276.

على أن وطأة الجوع لم تخف حدتها عند الجانبين ، غير أنها كانت فى المعسكر الصليبى بالغة الشدة والعنف ، فارتفعت الأسعار حتى بلغت غرارة القمح أكثر من مائة دينار[١] ، وبيعت البيضة الواحدة بستة دنانير ، وحرص التجار الجشعون على أن تبقى الأسعار مرتفعة ، وهلك العسكر جوعا ، فأكلوا لحوم الخيل ، ولم يبقوا على أمعاء ما هلك من الدواب ، وأكلوا الحشائش ، ودارت المشاجرات عند أفران الخبازين[٢] . وهرب إلى المعسكر الإسلامى العصبة بعد العصبة ، فاستأمنوا إليهم لفرط جوعهم ؛ ولما شبعوا لم يرغبوا فى رجوعهم ، فمنهم من أسلم فحسن إسلامه ، ومنهم من خدم فوافق استخدامه ؛ ومنهم من رجع إلى أصحابه[٣] . هذه الحالة التعســة التى زادها شدة وسوءا ما نجم عن انهمار المطر من الأمراض والبرد ، استمرت حتى الصوم الكبير ابتداء من فبراير ١١٩١ ، حينما انفتح البحر ، وجاءت سفينة محملة بالقمح ، فأنقذت المعسكر من الهلاك جوعا[٤] .

ومن الضحايا الذين لقوا مصرعهم فى هذا الشتاء الملكة سيبل ، وسبقها إلى الموت ولداها ، اللذان أنجبتهما من جاى ، فأضحت وريثة عرش مملكة بيت المقدس ، إيزابيلا ، فتحرج مركز جاى ، إذ لم يتول الحكم إلا على أنه زوج الملكة . فنهضت المعارضة مرة أخرى بزعامة باليان صاحب يبنــه (الرملة) ، للتخلص من آثار هذا الحكم البغيض وتقرر

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٦٥ .

(٢) Lane poole : Saladin p. 276-277

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٦٥

Lane Poole : Saladin p. 277.

(٤) Lane Poole : Saladin p. 277

Runciman : op. cit. III p. 32.

ترشيح كنراد مونتفرات ليتزوج إيزابيلا ، بعد طلاقها من همفرى صاحب تبنين ، ولما تم ذلك انسحب كنراد إلى صور ليدبر أمر الملكية ، وترك الجيش الصليبي أمام عكا يلقى مصيره[1] . على أن كنراد لم يستطع أن يتخذ لقب الملك إلا بعد تتويجه مع زوجته ؛ ولما لم يتنازل جاى عن العرش ، ولم يتخل عن حقوقه ، فلن يعود كنراد من صور إلى عكا[2] ، وتلقى فى سبيل ذلك كثيرا من اللوم والتقريع . ومن أشهر السادة الذين هلكوا فى هذا الشتاء فردريك السوابى الذى لقى حتفه فى يناير سنة ١١٩١[3] .

والواضح أنه حينما دخل الشتاء ، وهدأ النشاط الحربى ، ونقل صلاح الدين مقر قيادته إلى الخروبة فى اكتوبر ١١٩٠ ، حرص على ألا تتفرق جيوشـــه ، لأنه أدرك أن الموقف بالغ الحرج والخطورة ، وأن كل ما يبذله من مساعدة ، يصح أن تكون عكا فى أشد الحاجة إليها فى أوائل الربيع ، غير أن ما حدث من دخول الشتاء ، وطول مدة الحرب ، ولّد الضجر والسآمة عند العساكر[4] ، فلم يسع صلاح الدين ، تحت الإلحاح إلا أن يسمح بأن يعود إلى بلادهم ، أمير سنجار ، وأمير الجزيرة ، وابن صاحب الموصل ، ثم المظفر تقى الدين صاحب ميافارقين

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 30-32.

Lane Poole : Saladin. p. 276.

Grousset : op. cit. III. p. 41-44

(٢) Runciman : op. cit. III. p. 32.

Runciman : op. cit III. p. 32.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٤٠ — ١٤١ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨١ .

Runciman : op. cit. III. p. 32. Stevenson : op. cit. p. 266

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٤٠ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٢٩ .

والظاهر غازى صاحب حلب ، ولم يبق عند السلطان إلا بعض الأمراء والحلقة الخاصة[١] .

ولما هجم الشتاء ، وعصفت الرياح ، خاف الصليبيون على مراكبهم فسيروها إلى صور والجزائر ، فخفت وطأة ما فرضوه من حصار بحرى على عكا ، فانفتح الطريق إليها ، وصار بوسع الأسطول المصرى الراسى فى حيفا أن ينفذ إلى ميناء عكا[٢] . فأرسل الأمراء بها يشكون إلى صلاح الدين من طول المقام ، ومعاناة التعب والسهر ، وملازمة القتال ليلا ونهارا[٣] . وكان بعكا نحو عشرين ألف رجل ، على حد قول العماد ، من أمير ومقدم وجندى ، وأسطولى وبحرى ، ومتعيش وتاجر وبطال وغلمان ونواب وعمال . وأشرف العادل بعد انتقاله بعسكره إلى حيفا ، للإشراف على نقل الحامية الجديدة إلى عكا بما يلزمها من المؤن لمدة سنة[٤] . فجمع المراكب والشوانى ، وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إلى عكا ، وأخرج عوضهم ، على أن الذين دخلوا من الأمراء كانوا أقل عددا من الذين خرجوا ، ولم يدخل إلى المدينة من الأجناد من يضارع الذين خرجوا منها ، وذلك لأن نواب صلاح الدين أهملوا تجنيد

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٣٧ — ١٣٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٤٠ — ٣٤٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٠ ، ١٦٤ — ١٦٥ .
Stevenson : op. cit. p. 266. Grousset : op. cit. III p. 40

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٥ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٣٨ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٠ — ١٨١ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٣٨ .
Stevenson : op cit. III. p. 266
Grousset : op. cit. III. p. 40-41

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨١ .

الرجال وإنفاذهم ، يضاف إلى ذلك ما بذله فئة من المسيحيين كانوا يتولون خزانة أموال صلاح الدين ، من جهد لحمل المجندين على التفرق ومنعهم من دخول عكا[١] . يضاف إلى ذلك أنه دخل إلى عكا « من لم يجرب حصارها ولم يخبر منافعها ومضارها ، فلم يستتم البلد ما كان يحتاج إليه من الرجال والأموال ، فإن كل من عين للدخول كرهه ، وصار يتوسل أن يعفى ويبذل فى نفسه الفداء ، ومن تعين له الدخول ، استمهل زمانا يتهيأ فيه للدخول »[٢] ، وتم هذا الإجراء فى فبراير ١١٩١[٣] ، واعتبر العماد ما حدث إيذاناً بسقوط عكا ، نظرا لأن من خرجوا تدربوا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه ، وكانوا فى ثروة وكرم ونخوة ، على حين أن الذين دخلوها ، عازتهم هذه الصفات ، وافتقروا إلى الخبرة والتجربة . وزاد الحال سوءا ما تعرضت له السفن المصرية التى حملت المؤن إلى عكا من العواصف الشديدة التى أدت إلى تحطيمها وهلاك من بها وضياع المؤن التى تكفى البلد لمدة سنة[٤] . وينكر ابن الأثير على صلاح الدين أنه لم يأخذ بنصيحة الفئة التى أشادت عليه بأن يكتفى بأن يرسل إلى من بعكا النفقات والذخائر والأقوات ، لما لهم من الخبرة والتجربة[٥] .

ومع ذلك لم تتم عملية البدل دون أن يتعرض المسلمون لهجمات من الصليبيين غير أن الحامية ردت هذه الهجمات ، واستطاع صلاح الدين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٦ .

Grousset : op. cit. III. p. 41.

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨١ .

(٣) Grousset : op. cit. III. p. 41

Lane Poole : Saladin p. 278

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨١ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٦ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٣٩ — ١٤٠ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٣٦ .

أن يستولى بمساعدة المستأمنين من الفرنج على بعض سفن التجار الذين قصدوا المعسكر الصليبي ، فأصاب كثيرا من الغنائم والأسرى(١) .

وحدث فى مارس ١١٩١ ، وبعد أن استبد اليأس بالصليبيين ، أن قدم تجاه الساحل سفينة تحمل قمحا ، واستطاعت أن تنزل حمولتها . ولما تحسن الجو ، توالى وصول السفن ، ولقيت ترحيبا كبيرا ، لأنها تحمل المؤن ، ولأنها أذاعت خبر دخول ملكى إنجلترا وفرنسا إلى المياه الشرقية(٢) .

ومضت أشهر الشتاء ، ودخل الربيع ولم يحدث تغيير فى وضع القوات المتنازعة ؛ فلا زال بعكا حامية قوية ، ومؤن وافرة . واتخذ صلاح الدين موقفه على التلال ، يترقب عودة جيوشه ، بينما أقام الصليبيون ، بين قوات صلاح الدين ، وبين حامية عكا ؛ وقد حل بهم الضعف ، وتداعت روحهم المعنوية ، وخارت قواهم ، واستبد بهم اليأس ، ومع ذلك حافظوا على معسكرهم الذى أقاموا حوله الخنادق ، على الرغم من الهجمات التى تعرضت لها من قبل حامية عكا ، ومواقع صلاح الدين(٣) .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٤٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨١ – ١٨٢ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٤٧ .
Lane Poole : Saladin p. 276

(٢) Runciman : op. cit. III. p. 32.

(٣) Lane Poole : Saladin p. 278.

وفى كتاب إلى بغداد يشرح فيه صلاح الدين للخليفة شدة بأس الفرنج « الذين فارقوا أوطانهم ، طاعة لقسيسهم ، وامتثالا لأمر مركيسهم ، وغيرة لمتعبدهم ، وحمية لمعتقدهم ، وتحرقاً على قمامتهم ، لا يطلبون مع شدة الإملاق مالا ، ولا يجدون مع كثرة المشاق ملالا ، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات ، وسرن إلى الشام فى البحر والبر متجهزات . . . وأن البابا الذى برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم ، وقال من لا يتوجه إلى القدس مستخلصا ، فهو عندى محرم ، لا منكح له ولا مطعم ، فلأجل هذا يتهافتون على الورود ، ويتهالكون على =

وبحلول الصيف حدث تغيير شامل فى تطور العلاقات بين القوتين المتحاربتين ، فتعرض المسلمون بعكا للحصار والهجوم ، ولقى الصليبيون المساعدة القيمة من رتشرد قلب الأسد وفيليب أغسطس(١) .

رتشرد وفيليب أغسطس :

هبط الملك فيليب أغسطس إلى المعسكر الصليبى أمام عكا فى ٢٠ أبريل سنة ١١٩١ ، أما رتشرد فإنه قدم بعد سبعة أسابيع (٧ يونيه) ، بعد أن مضى ما يقرب من أربع سنوات ، على معركة حطين ، والإلحاح فى الاستنجاد بالغرب . وبلغ سرور الصليبيين بالشام ، بقدوم الملكين أنهم نسوا هذا الإرجاء الذى طال أمده .

واجه رتشرد ، أثناء تجهزه للحرب الصليبية ، مشاكل مالية وسياسية إذ كان لزاما عليه أن يدبر من الأموال ما يكفى للإنفاق على الحملة ،

= يومهم الموعود ، وقال لهم إنى واصل فى الربيع ، جامع على الاستنفار شمل الجميع ، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد .

أما أهل الإسلام ، فإنهم يتضجرون ولا يصبرون ، بل يتقللون ولا يجتمعون ، ويتسللون ولا يرجعون ، وإنما يقيمون ببذل نفقة ، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة .

وليعلم أن الإسلام عند الله منصور ، وأن الكفر بإرادة الله محسور ومدحور »

انظر أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(١) Lane Poole : Saladin p. 278.

وأشار القاضى الفاضل فى كتاب له إلى « ما تجدد للعدو من الشروع فى آلات الحصار لعكا ، وما أرجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة ، وافتراق العساكر فى هذا الوقت للضرورة ، والتماس العسكر الشرقى الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الأنفاق إلى ما لا يسعه التدبير ، وانفراد المولى بالتعب ، واشتراك الناس فى الراحة ، ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى ، لما أهله لأن ينصر ملة ، لا يعرف المملوك غير الله ينصرها ، وغير مولانا يباشر النصرة ويحضرها » انظر : (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٦٦ - ١٦٧) .

وأن يكفل لمملكته الأمن والسلامة حتى يعود إليها . وما واجه رتشرد من مشاكل سياسية ، كانت بالغة الضخامة ، ولم تجد نفعاً ما بذله رتشرد من محاولات لحلها . فما حدث من تخوفه من أخيه جون (حنا) ، وإحساسه بأنه سوف يثب على العرش أثناء غيبته ، حمله على أن يبذل له الإقطاعات الوافرة فى إنجلترا ، وأن يجعل الحكومة فى أيدى جماعـــة من الأساقفة الذين يثق فيهم ، وأن يعتبر أرثر ، ابن أخته ، وريثا له نظرا لأنه لم يتزوج وقتذاك . وما اتخذه حنا من إجراءات لتوطيد مركزه ، كيما يصل إلى العرش ، عجلت بعودة رتشرد إلى الغرب ، وأدت إلى فشل الحملة الصليبية الثالثة(١) .

عند وفاة هنري الثانى ، عثر ابنه رتشرد فى خزانته على ١٠٠ ألف مارك ، ونظرا لأن ضريبة عشر صلاح الدين ، يدفعها العلمانيون ورجال الدين سواء ، فالراجح أنه تحصل منها مقادير وافرة ، يضاف إلى ذلك ما تقاضاه رتشرد من الضرائب الإقطاعية والغرامات ، وما بذله الأتباع من الأموال للإعراب عن نواياهم الطيبة(٢) . وإذ قدر المؤرخون عدد السفن التى اشتركت فى حملة رتشرد بنحو مائة سفينة ، كان رتشرد يحوز منها ٣٣ سفينة ، فالراجح أن أتباعه تولوا الانفاق على السفن الباقية(٣) .

كان رتشرد ضخم الجثة ، طويل القامة ، قوى البنيـــة ، أصهب الشعر ، جميل الخلقة ، اشتهر بالبسالة والشجاعة وحب المغامرة ، فتعلق به أتباعه وأصدقاؤه . غير أنه افتقر ما اشتهر به أبوه من الدهاء السياسى والكفاية الإدارية ، وافتقد ما عرفت به أمه من الحكم السديد . وما حدث

---

(١) Painter : The Third Crusade pp. 53-54

(٢) Painter : op. cit. p. 55

(٣) Painter : op. cit. p. 55

من التخاصم بين أمه وأبيه ، حمله على كراهية أبيه ، والتشكك فى نوايا إخوته ؛ ونزع إلى العنف والشدة والميل إلى الأبهة . وجعل كل اهتمامه فى فن الحرب ، فبرع فى وضع الخطط الحربية ، وتنظيم حركات الجيش ، وقيادة الجند . لم يتجاوز عند مسيره فى الحملة الثالثة ، الثالثة والثلاثين من عمره ، سبقته شهرته إلى الشرق(١) .

ومن المحقق أن أسطولا إنجليزيا أبحر فى أبريل ١١٩٠ ، وتوقف فى البرتغال لقتال المسلمين ، فنهب البحارة مدينة لشبونه ، ولم يغادروا البرتغال إلا فى يوليه ١١٩٠ . وفى تلك الأثناء طاف رتشرد بممتلكاته فى فرنسا وتلقى من يد رئيس الأساقفة بارثلميو متاع الحاج ، وهى عبارة عن العصا والكيس ، ثم وصل إلى ڤيزلاى فى ٢ يوليه ، وبعد أن صحب فيليب أغسطس حتى ليون ، افترق عنه ، وتوجه إلى مارسيليا التى بلغها فى ٣١ يوليه . وكان عدد الذين صحبوه من المحاربين نحو ٨٠٠ . ولما لم يصل أسطوله بعد إلى مرسيليا ، استأجر سفنا ، أقلع بها فى أغسطس إلى جنوه حيث لحق بفيليب أغسطس . وإذ مرض فيليب فى جنوة ، مضى رتشرد فى سيره على امتداد الساحل الإيطالى ، وتمهل فى المسير كيما يزور معالمها ويتحدث إلى من يشاء من الأطباء ورجال الدين ، حتى بلغ مسينى حيث لقى أسطوله الذى وصل إليها فى سبتمبر ١١٩٠(٢) .

أما الملك فيليب أغسطس فاختلف عن رتشرد فى نواحى عديدة ، كان يصغره بنحو ثمانى سنوات ، وله فى الحكم حتى وقتذاك ، ثمانى سنوات . وما عاناه من تجربة مريرة ، وهبته الحكمة والسداد ، لم يضارع رتشرد فى شجاعته ، واشتهر بالجلد والصبر ودقة الملاحظة والدهاء ، ولم يحفل

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 35

(٢) Painter : op. cit. pp. 54-58.
Runciman : op. cit. III. p. 34-35

بالإخلاص والتزام العهود ، غير أنه كان شديد الإدراك لواجباته ومسئولياته ، كان يسخو على الفقراء ويحميهم من الطغاة الظالمين . كانت له مكانة ممتازة عند الصليبيين فى الشرق ، باعتباره السيد الأعلى لمعظم الأسرات التى انحدر منها الفرنج فى الشرق ، كما أن الصليبيين الذين ترددوا على الشرق ، كانوا أتباعا له ، بطريق مباشر أو غير مباشر . غير أن تقديرهم لرتشارد كان بالغ الوضوح لما اشتهر به من الشجاعة والفروسية وحسن الطلعة[1] .

ومع أن معظم البارونات الذين يخشى فيليب بأسهم ، اشتركوا فى الحملة الثالثة ، ومنهم من سبق فيليب المسير إلى الشرق ، ولم يبق فى فرنسا منهم من يثير الاضطراب أثناء غيبته ، فإن الموقف السياسى بفرنسا هو الذى حمل فيليب على أن يعود إلى وطنه قبل إتمام الحملة[2] .

لم يرد فى المصادر كثير عن أحوال فيليب المالية ، ومن المحقق أنه أقل ثراء من رتشرد ، والراجح أن رتشرد أسهم بجانب من نفقات الحملة الفرنسية ، وأنه تقررت ضريبة أشبه بضريبة صلاح الدين ، للإنفاق منها على الجيش ، واستأجر سفنا من جنوة لنقل قواته ، التى جرى تقديرها بنحو ٦٥٠ فارس ، و ١٣٠٠ غلام[3] .

وإذ تلقى فيليب أغسطس شارات الحاج من عمه رئيس أساقفة ريمس فى ٢٤ يونيه ١١٩٠ ، وحاز لواء الأسرة الكابينية ، توجه إلى ڤيزلاى ، وارتحل مع رتشرد فى ٤ يوليه ، ولما افترق عنه رتشرد عند ليون ، مضى فيليب إلى جنوة ، فأبحر منها إلى مسينى التى بلغها فى ١٦ سبتمبر بعد يومين من وصول الأسطول الإنجليزى[4] .

---

(١) Runciman : op. cit. III. 36

(٢) Painter : op. cit. p. 54.

(٣) Painter : op. cit. p. 56-57

(٤) Painter : op. cit. p. 58

وما حدث فى صقلية من وقائع كان لها أهمية فى إثارة النزاع بين فيليب ورتشرد . فالمعروف أن وليم الثانى ملك صقلية ، وزوج جوانا أخت رتشرد ، اتفق مع هنرى الثانى ملك إنجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، على الاشتراك فى حملة صليبية ، وعلى أن تحشد الجيوش فى صقلية غير أنه مات سنة ١١٨٩[١] . ولما أحس بدنو أجله أوصى لصهره بمقادير كبيرة من الحبوب ، والنبيذ ، والأموال ، وبمائة سفينة بها من العدة والمؤن ما يكفى سنتين ، والواضح أن هذه الوصية قصد بها الوفاء بالنذر بعد وفاته[٢] . ونظرا لما يتهدد الملك الجديد ، تانكرد ، من خطر من قبل هنرى هوهنشتاوفن لما له من أطماع بسبب زواجه من كونستانس عمة وليم الثانى ، وباعتباره إمبراطورا ، ويسانده فيليب أغسطس ، فضلا عن وقوع ثورة إسلامية فى صقلية ، لم يسع تانكرد إلا أن ينزل آخر الأمر على إرادة رتشرد ، وتقرر عقد معاهدة بينهما ، التزم فيها تانكرد بأن يؤدى إلى رتشرد ٢٠ ألف أوقية من الذهب قيمة هبة وليم الثانى لأبيه هنرى الثانى ، وإلى جوانا مثل هذا المقدار تعويضاً عن بائنتها[٣] ، ووعد رتشرد بأن يساعد تانكرد فى رد كل عدو يهاجمه[٤] .

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 37.

(٢) Helene Wieruszowski : The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades p. 40-41

Runciman : op. cit. III p. 37.

(٣) Runciman : op. cit. III. p. 38-41

(٤) Painter : op. cit. p. 59

الواضح أن أحوال صقلية الداخلية منعت تانكرد من الاشتراك فى الحملة الثالثة ، ومنها نشوب ثورة إسلامية فى صقلية ، وإغارة الجرمان على أملاكه بإيطاليا ، وعصيان بعض أتباعه . انظر أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٧٧ .

Runciman : op cit. III p. 37

على أن العلاقات بين رتشرد وفيليب أغسطس ، أثناء مقامهما فى صقلية ، نحو ستة شهور ، بلغت من التحسن ما لم يكن منتظراً . فبعد أن انعقدت المعاهدة فى أكتوبر ، اجتمع رتشرد وفيليب لوضع القواعد التى يخضع لها الجيشان الصليبيان . فتحددت أسعار المؤن ، من الخبز والنبيذ ؛ وتقرر منع المضاربة فى الطعام ، وتحدد مقدار الربح فى السلعة التجارية بعشرة فى المائة ، وصار البنس الإنجليزى يصرف بأربعة بنسات أنجوية . وإذا مات رجل ، أثناء اشتراكه فى الحملة الصليبية ، فإن نصف متاعه وأمواله ينبغى أن يوصى بها ، ما لم يتركها لمندوبين عنه فى وطنه ، إلى رفاقه من الصليبيين أو إلى المؤسسات الدينية فى فلسطين ، أما النصف الآخر فيخضع للجنة من رجال الكنيسة والبارونات ، للإنفاق منه على الحملة الصليبية بأسرها . وتحدد ما يؤديه الغلمان من الخدمات لسادتهم ، ولا ينبغى لأحد من الصليبيين أن يلعب القمار ، سوى الفرسان ورجال الدين ، ولا ينبغى ألا تتجاوز الخسارة ٢٠ شلن فى ٢٤ ساعة . وللملكين مطلق الحرية فى أن يلعبا القمار كيفما شاءا ولخدامهم هذا الحق ، فى نطاق ٢٠ شلنا[١] . وينبغى الاعتراف بالديون التى انعقدت من أجل الحج[٢] . وتم الاتفاق على اقتسام الفتوح المقبلة ، وتنازل رتشرد عن ⅓ ما حصل عليه من تانكرد من أموال فضلا عن بعض السفن التى وصلت أخيراً ، وهذا هو السر فيما بذله فيليب لأتباعه من المنح والعطايا . وتقرر أن يمضى الملكان بأتباعهما فصل الشتاء فى صقلية ، ومارس رتشرد أثناء مقامه الاشتراك فى حفلات الفروسية ، ودارت مناقشات بينه وبين رجال الدين عن تفسير بعض آيات الإنجيل ، واستقبل أمه اليانور وخطيبته برنجاريا ،

---

(١) Painter : op. cit. II. p. 60

Runciman : op. cit. III. p. 40

(٢) Runciman : op. cit. III. p. 40.

وفيليب الألزاسى كونت فلاندر[١] . وبعد أن تمت تسوية المنازعات بين فيليب ورتشرد ، بسبب عدول رتشرد عن الزواج من أليس أخت فيليب ، ارتحل فيليب من مسينى فى ٣٠ مارس ١١٩١ ، قاصداً عكا[٢] . وما ورد من أنباء نشوب منازعات بين الهيئة الحاكمة فى إنجلترا ، حمل رتشرد على أن ينفذ إليها أمه ، اليانور ، مع رئيس أساقفة روان . وتقرر أن تصحب برنجاريا التى قام على تهذيبها وتثقيفها جوانا أخت رتشرد ، الحملة إلى فلسطين ، وفى أبريل ١١٩١ ، أقلع رتشرد من مسينى فى أسطول يتألف من ٢١٩ سفينة[٣] .

لم يجد الأسطول الفرنسى عقبات تعترض طريقه إلى صور ، حيث لقى فيليب استقبالا حافلا من ابن عمه كنراد مونتفرات ، الذى صحبه إلى عكا فى ٢٠ أبريل ١١٩١[٤] . ومن أشهر الأتباع الذين هبطوا معه إلى

---

(١) كان من المقرر أن يتزوج رتشرد من أليس أخت فيليب أغسطس بعد أن مكثت مدة طويلة فى البلاط الإنجليزى . غير أن اليانور والدة رتشرد حرصت على ألا يتم هذا الزواج لما تكنه من الكراهية لأسرتها . ولما رسخ فى قلبها من الميل إلى بيت جيبين ، فخطبت له برنجاريا ابنة سانكو السادس ملك ناڤار ، وصحبتها إلى إيطاليا . على أن فيليب الألزاسى كونت فلاندر استطاع أن يوفق بين الملكين ، وأجاز فيليب لرتشرد أن يتزوج من يشاء ، فبذل له رتشرد ١٠ آلاف مارك يؤديها له فى نرمنديا ، وتنازل له عن بعض الأملاك .

انظر : Painter : op. cit. p. 60-61.

Runciman : op. cit. III. p. 41-42.

(٢) Painter : op. cit. p. 61

(٣) Painter : op. cit. p. 61.

Chalandon : Domination Normande, II pp. 435-442

Runciman : op. cit. III. p. 42

(٤) Painter : op. cit. p. 66

الواقع أن فيليب بادر إلى الانحياز إلى الحزب الذى يساند كنراد ، نظراً لأن كنراد كان زوجاً لوارثة مملكة بيت المقدس ، ولما اشتهر به من النشاط الوافر ، والكفاية العسكرية =

عكا ، دوق برجنديا ، وكونت فلاندر ، وأثار وصوله إلى عكا نشاط الصليبيين بها ، فقويت به نفوسهم ، وألحوا فى قتال المسلمين بعكا[١] . ومن الواضح أن وصول فيليب وهب الجيش الصليبي قائدا عاماً ، فعلى الرغم من أنه لم يجلب جيشاً ضخما ، فإن قدومه أثار عند الصليبيين من الحماس والاتحاد ، ما جعلهم يواصلون ضغطهم على عكا[٢] ؛ ومن المحقق أن المسلمين كانوا يعلمون بأن حملة رتشرد وفيليب فى الطريق إلى عكا ، ولذا ألقى صلاح الدين جانبا من مسئولية ستموط عكا فى أيدى الصليبيين ، على تقى الدين الذى ارتحل منذ زمن قصير إلى ميافارقين ، وتطلع إلى فتح ما يجاورها من البلاد ، فتأخر قدوم عساكر البلاد الشرقية « لخوف مضرته وجور مجاورته »[٣] . فيشير ابن شداد إلى أن الصليبيين فى الشرق ، كانوا يتواعدون طلائع المسلمين وحرسهم ، بقدوم الملك افرنسيس فيليب ، « وكان عظيما عندهم ، مقدما محترما من كبار ملوكهم ، تنقاد إليه العساكر بأسرها ، بحيث إذا حضر حكم على الجميع . ولم يزالوا يتواعدون بقدومه ، حتى قدم فى ست بطس ، تحمله وميرته وما يحتاج إليه من الخيل وخواص أصحابه »[٤] . فلم يكن فى الكثرة التى ظنوها[٥] ، غير أن الأمداد يتوالى وصولها[٦] .

= والإدارية ، ولمساندة معظم بارونات المملكة له . غير أن ما اتخذه فيليب من قرارات حمل جاى على أن يتوجه إلى قبرص للقاء رتشرد ، وسوف يؤدى إلى أن يتخذ رتشرد جانب جاى .

انظر : Painter : op. cit. p. 66-67

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤١ .

(٢) Painter: op. cit. p. 67

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٤٣ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٣ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤١ .

(٦) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٣ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٤٩ .

Stevenson : op. cit. p. 267.

وشرع الصليبيون فى التضييق على عكا ، فنصبوا عليها سبعة مناجيق ، ظلت تقذف أسوارها ، بينما منع رماتهم رجال الحامية من أن يتخذوا أماكنهم على الأسوار . وشرع فريق من العسكر فى نقب الأسوار ، واصطنع اللاتين دبابة مؤلفة من أربع طبقات ، يركب فيها المقاتلة ، حتى إذا قربت من الأسوار ، هبطوا إليها وملكوها ، بعد أن ردموا الخندق الذى يحيط بالمدينة ، وأقاموا أبراجا ، تمطر الأسوار بقذائفها[١] . على أن حامية عكا استبسلت فى مقاومتها ، فأشعلت الحرائق فى الدبابة والأبراج ، بضربها بالنفط ليلا ونهارا ، والتمست حامية عكا من السلطان شغل العدو عنهم ، غير أن أحوالهم ازدادت شدة وحرجا[٢] . ولما اشتدت مضايقة البلد ، واستبعد صلاح الدين المنزلة التى أقام بها ، وهى شفرعم ، تحول إلى تل العياضية ، لمواجهة اللاتين[٣] .

والواضح أن صلاح الدين قام بمساعدة أخيه العادل ، فى يناير وفبراير ١١٩١ ، بإنفاذ المؤن والعساكر إلى عكا ، غير أن هذه العملية لم تكتمل بسبب وصول أسطول إيطالى ، فضلا عن أن العساكر الذين دخلوا إلى المدينة كانوا أقل عددا من الذين خرجوا منها ، ومع ذلك استمرت سفن البدل فى الوصول إلى عكا ، برغم تضييق الحصار عليها[٤] .

---

(١) Painter : op. cit. p. 67

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٠ – ٣٥١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٤ – ١٨٥ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٤٥ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٠ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٤٨ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٢ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٠ .

واستند صلاح الدين فى هجماته على اللاتين ، إلى حلقته الخاصة ، ومن قدم عليه من عساكر حلب وبعلبك ودمشق ومصر ، ودأبوا على مناوشة الصليبيين حتى يصرفوهم عن التضييق على عكا ؛ ولجأ أيضاً نائبه إلى اعتراض طريق السفن الصليبية ؛ وتولت فئة من المسلمين كانت تجهز السفن الداخلة إلى عكا ، قطع الطريق على الصليبيين[١] ؛ ومع ذلك اشتد ضرب المناجيق للأسوار بالحجارة ليلا ونهارا ، حتى أثرت فى الأسوار ، وكلما ازدادوا فى قتال البلد ، ازداد السلطان فى قتالهم وكبس خنادقهم والهجوم عليهم[٢] ، وتحمل سكان المدينة وطأة القتال ، الذى لم يكفوا عنه ليلا ونهارا ، واستبد بهم التعب[٣] . ووصف القاضى الفاضل ما شهده من القتال وقتذاك فى رسالة وجهها إلى الخليفة العباسى ، وجاء فيها « إن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوا حاصرا محصورا ، قد تحصن بخنادق يمنع الجائر من الجوار . . وقد أمدهم البحر بالنجاد ، واجتمع فى هذه الجموع من الجيوش الغريبة والألسنة الأعجمية من لا يحصر معـدوده[٤] . والأصحاب كلوا وملوا وصبروا إلى ان

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٤٩ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٤.

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٤٨ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٤) تألف الجيش الصليبى الذى حاصر عكا من عناصر مختلفة ، وأحاط بالمدينة من البحر إلى البحر ، ففى الطرف الشمالى على البحر المتوسط ، رابط الجنويون ، واتخذ البيازنة أماكنهم فى الطرف الجنوبى ، وعسكر إلى جانب الجنويين ، الاسبتارية ، ثم كنراد مونتفرات ، يليه جماعات من الفرنسيين ، تخضع كل جماعة لسيد من سادة الإقطاع ، ثم الانجليز بقيادة الأسقف هيوبرت سلسبرى ، والفلمنكيون بقيادة صنجيل الفلاندر ، ثم الملك جاى وأخواه إيمرى وجفرى ، وبارونات مملكة بيت المقدس الذين انضوا تحت لوائه . وإلى الجنوب من مواقع جاى ، عسكر الداوية ، وأتباع جيمس إفيزنس Avesnes . واتخذ مواقعهم بين هؤلاء الأتباع والبيازنة على الساحل الدانمركيون ، والفريزيون ، و الألمان بقيادة فردريك دوق =

ضجروا ، وتجلدوا إلى أن تبلدوا ، والعساكر التى تصل من المكان البعيد إلا وقد كلّ ظهرها ، وقل وفرها وضاق بالبيكار (الحرب) صدرها ، ولا تستفتح إلا بطلب الدستور . . وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب لا تؤثر فيها الحجارة الرامية »[١].

ولم يرتحل رتشرد من مسينى إلا فى أوائل أبريل ١١٩١ ، ووصل إلى صور فى ٧ يونيه ١١٩١ ، وفى الفترة الواقعة بين التاريخين استولى على جزيرة قبرص واجتاز أثناء الطريق جزيرة كريت ، وأقام بجزيرة رودس نحو عشرة أيام ، غير أن بعض سفن الأسطول قذفت بها العواصف إلى ساحل جزيرة قبرص ؛ فتحطمت سفينتان أو ثلاثة فى ميناء ليماسول ، وإحدى هذه السفن ، كانت تحمل أموال رتشرد وكنوزه ، أما السفينة التى حملت جوانا وبرنجاريا ، فإنها رست خارج الميناء ، ومن الطبيعى أن تتعرض هذه السفن والناجون من الغرق إلى مهاجمات القبارصة والنهب[٢].

استقل بجزيرة قبرص ، إسحاق كومنين ١١٨٤ ، وذلك بفضل صهره مرجريط ، مقدم الأسطول الصقلى ، ولم يعترف بسلطة إسحاق انجيلوس الذى ولى عرش بيزنطة سنة ١١٨٥ . وحافظ على استقلاله بما عقده

= سوابيا ، ثم لويس حاكم ثورنجيا ، وأوتو كونت جيلدرز . ولم يكن هذا الجيش إلا خليطا منالقوات المقاتلة وتولى رياسة هذه القوات ، قادة عديدون ، غير أنه لم يكن ثمة قائد عام لهذه القوات . انظر :

Painter : op. cit. p. 65.

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٥ – ١٨٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٢ – ٣٥٤ .

(٢) Painter : op. cit. p. 61-62.
Runciman : op. cit. III. p. 43-44.

سن ـات مع الصقليين والأرمن بقليقية ، وصلاح الدين[1] . على أنه لم ـ مقبولا من سكان الجزيرة لما فرضه عليهم من ضرائب باهظة . ولما رجال رتشرد إلى الجزيرة بعد تحطيم سفنهم ، أمر بإلقاء القـ عليهم ، وصادر ما تبقى من السلع . وحاول أن يحمل جوانا وـاريا على النزول إلى الجزيرة ، ولم ينقذهما منه إلا وصول رتشرد فى مايو ١١٩١[2] .

وهبط رتشرد إلى ليماسول ، ونشبت حروب مع إسحاق انهزم فيها ـحاق ، ووقع فى أيدى رتشرد غنائم وفيرة وعدد كبير من الخيول ـى أفاد منها فى حملته . وفى ١١ مايو رسا بميناء ليماسول ثلاث سفن ـمل جاى لوزيجنان ملك بيت المقدس ، وبصحبته كل الصليبيين لمعارضين لكنراد ، ومنهم جفرى لوزيجنان شقيقه ، ومن أشهر أتباع رتشرد فى فرنسا ، وهمفرى صاحب تبنين الزوج السابق لإيزابيلا ، وبوهمند الثالث أمير أنطاكية وابنه ريموند ، وليو الأرمنى صاحب قليقية ، وعدد كبير من أعيان الداوية . والواضح أن جاى وأنصاره أرادوا إحراز تأييده ومساندته لهم فى مسألة تاج بيت المقدس ، الذى تنازعه جاى وكنراد ، وعلم رتشرد أن فيليب اتخذ جانب كنراد[3] .

---

(١) يشير القاضى الفاضل فى كتاب أرسله إلى صلاح الدين ، إلى « وصول رسل الملك العتيق من قبرص إليه ، يخبره بعصيانه على ملك إنكلتيره ، ومكاشفته بالعداوة والحرب . وأنه قد كاتب السلطان ، يبذل له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك إنكلتيره . والأجناد متواترة بأن الملك العتيق أحرق موانىء قبرص ووعرها ، وقطع الميرة عن الساحل . . . فى تخاذلهم نصرة الإسلام ، وشغل بعضهم ببعض ، وافتراق كلمتهم المجتمعة ، وقطعا للميرة عن الشام ، وأمناً لجانب كبير من جوانب البحر » .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٧٨ .

(٢) **Painter : op. cit. p. 63**

Runciman : op. cit. cit. III. p. 43-44

(٣) **Painter : op. cit. p. 63**

ولا شك أن هؤلاء الوافدين أوقفوا رتشرد على ما لجزيرة قبرص من أهمية حربية ، فى الدفاع عن كل ساحل الشام ، وخطورة التحالف بين إسحاق كومنين وصلاح الدين ، فضلا عن أن الفرصة مواتية لغزو الجزيرة . واغتنم رتشرد فرصة عدول إسحاق كومنين عن اتفاقه مع رتشرد بالتعهد ببذل مقدار كبير من المال ، والاشتراك فى الحملة الصليبية ، والسماح للعساكر الإنجليز بشراء ما يلزمهم من المؤن ، وإعفائهم من المكوس[١] ، فقرر غزو الجزيرة ، وتولى جاى لوزجنان قيادة جيش استولى على حصون إسحاق ، فخضعت نيقوسيا ، وفاماجستا ، واستولت الأساطيل الإنجليزية على السواحل والموانى ، ولم يسع إسحاق إلا الإذعان والاستسلام ، فتقرر نقله مقيدا بأغلال من الفضة إلى طرابلس[٢] . ولم ينته شهر مايو سنة ١١٩١ حتى أضحت الجزيرة كلها فى قبضة رتشرد ، وترتب على الاستيلاء على قبرص نتائج هامة ، منها حصول رتشرد على الثروة الطائلة التى كدسها إسحاق كومنين ، فضلا عن المنح التى بذلها نبلاؤه لرتشرد ، وعن الضرائب التى فرضها رتشرد على اليونانيين ، وتقرر أن يحصل أيضاً على نصف الأموال المنقولة لسكان الجزيرة ، وما هو أهم من ذلك أن الجزيرة اشتهرت بخصوبة التربة ، وأنها لا تبعد كثيرا عن شاطئ فلسطين ، فصارت طوال الحروب الصليبية مصدراً هاما للمؤن والأمداد[٣] .

والواقع أن الاستيلاء على قبرص من أكثر أعمال الصليبيين دواما واستمراراً ، وإذ طال أمد أملاك الصليبيين فى الشام ، فما أقاموه

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 44
Painter: op. cit. p. 64

(٢) Runciman : op. cit. III. p. 46.
Painter : op. II. p. 64.

(٣) Painter : op. cit. p. 64

بها من منشآت استمرت مائتى سنة بعد زوال ملكهم بالشام ، غير أن استيلاءهم على إقليم يدين بالمذهب الأرثوذكسى كان نذير شر لليونانيين ، لما حدث فيما بعد من تطلع الصليبيين للاستيلاء على القسطنطينية[١] .

وبعد أن أقام رتشرد الحاميات اللاتينية فى قلاع الجزيرة ، وعين اثنين من كبار الإنجليز لإدارة الجزيرة ، وأجاز استخدام ما كان سائداً زمن الحكم البيزنطى من القوانين والنظم ، أبحر فى يونيه ١١٩١ من فاماجستا إلى ساحل الشام[٢] . وفى ٦ يونيه ١١٩١ هبط رتشرد فى صور ، وعسكر خارج أسوار المدينة ، لأن نائب كنراد منعه من دخولها . ولم يلبث رتشرد أن أبحر بأسطوله إلى عكا ، وتلاه بقية سفنه . وفى أثناء مسيره إلى عكا التقى بسفينة ضخمة قادمة من بيروت ، ومملوءة بالرجال والعدد والأقوات ، وفيها سبعمائة مقاتل[٣] ، ولما أدرك مقدم السفينة أنه ليس فى وسعه التغلب على السفن الإنجليزية العديدة ، لم يرض بالإذعان ، وقرر إغراق السفينة بمن فيها ، وبما فيها من الآلات والمؤن ، وذلك تجاه عكا[٤] .

وصل رتشرد إلى عكا فى ٨ يونيه ، وأدرك المؤرخون المسلمون ما لرتشرد من أهمية عند الصليبيين ، وفى تقرير مصير عكا ، لاسيما بعد

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 46.

(٢) Runciman : op. cit. III. p. 46.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٢ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٤٨ - ١٤٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٤ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٢ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥١ .
Runciman : op. cit. III. p. 47 Grousset : op. cit. III. p. 50.
Lane Poole : Saladin p. 283-286

استيلائه على قبرص التى « كانت زيادة فى ملكه ، وقوة للفرنج » ، واعتبروه « رجل زمانه شجاعة ومكرا ، وجلدا وصبراً ، وبلى المسلمون منه بالداهية التى لامثيل لها »[1] . وكان لقدومه روعة عظيمة ، إذ وصل فى ٢٥ سفينة كبيرة مملوءة بالرجال والسلاح والعدد ، فأظهر « الفرنج سروراً عظيما حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيرانا عظيمة فى خيامهم . « وكان ملوكهم يتواعدوننا به ، فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنه ، أنهم متوقفون فيما يريدون أن يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه ، فإنه ذو رأى فى الحرب مجرب ، وأثر قدومه فى قلوب المسلمين خشية ورهبة »[٢] .

غير أنه لم يكد رتشرد يهبط إلى الأرض ، حتى وقع فريسة حمى شديدة ، ومع ذلك ظل طوال مرضه يواصل نصب المجانيق والمقاليع ، وتشييد قلعة أمام باب المدينة ، ولم يكف فليب أغسطس عن هجماته حتى دهمه المرض أيضاً ، فركد نشاط الهجوم أسابيع[٣] .

ولم يلبث الشجار أن نشب بين رتشرد وفيلب أغسطس ، إذ أن فيليب طلب إلى رتشرد أن يجعل له نصف قبرص ، بناء على الاتفاق الذى يقضى باقتسامهما ما يفتحانه من البلاد أثناء هذه الحملة الصليبية ، فلم يسع رتشرد إلا أن طلب من فيليب أن يعطيه نصف الفلاندرز التى

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ص ٤٢ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٤٨ .

(٣) Lane Poole : Saladin p. 288

Stevenson : op. cit. p. 267 Grousset : op. cit. III p. 51-52

Runciman : op. cit. III. p. 48

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥١ – ١٥٢ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٥١ – ٣٥٢ .

أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٨٥ .

آلت إليه بوفاة فيليب كونت فلاندر فى يونيه ١١٩١ . وأظهر رتشرد من السخاء على هنرى دوق شامبانيا مالم يظهره فيليب على الرغم من أن قرابته للاثنين متساوية ؛ وزاد فى مهانة فيليب ، أن رتشرد رفع عطاء الفارس إلى أربعة دنانير كل شهر على حين أنه لم يحصل إلا على ثلاثة من فيليب . وأعلن رتشرد مساندته لقضية جاى لوزيجنان صراحة على حين أن فيليب أعلن تأييده ومساندته لكنراد ، وقبل رتشرد مساعدة البيازنة ، ورفض عرض الجنويين بسبب مساندتهم لكنراد . وفى منتصف يونيه حينما رفع جاى إلى الملكين الشكوى ضد كنراد مونتفرات ، اتهمه فيها بأنه تابع متمرد ، وتحداه للقتال جفرى لوزجنان ، ارتد كنراد إلى صور ، وقد اشتد به الحنق والغضب والواضح أن جاى اتخذ هـذه الخطوة بموافقة رتشرد[1] .

وفى أواخر يونيه ١١٩١ تلقى صلاح الدين أمدادا جديدة ، فقدم إليه جيش سنجار ، ثم وصلت جيوش مصر والموصل ، وفى أوائل يولية وصلت جيوش شيزر وحمص وتل باشر[2] . ومع ذلك لم يستطع طرد الصليبيين من مواضعهم[3] . وحاول رتشرد أن يتصل بصلاح الدين ، للوقوف على « قوة النفس وضعفها » ، غير أن صلاح الدين أصر على أن

---

(١) تشير المصادر العربية إلى أن المركيس (كنراد) هرب إلى صور خوفاً من الفرنج لأنه استشعر منهم أنهم يأخذون صور منه .

انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٢ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٥ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٧ .

Painter : op. cit. III. p. 68' Runciman : op. cit. III. p. 49

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٩ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٣ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٦ .

(٣) Runciman : op. cit. III. p. 48

يعرف طبيعة ما يعرضه رتشرد من مقترحات ، فتوقفت المحادثات[١] .

وإذ استعاد فيليب أغسطس صحته ، قبل رتشرد ، بادر فى أول يوليه ١١٩١ بشن الهجوم على المدينة ، بينما تصدى جفرى لوزجنان لمنع هجوم قوات صلاح الدين[٢] ، فهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل[٣] .

على أن أشد ما وجهه الصليبيون من هجوم على عكا ، ما نشب يومى ٢ ، ٣ يوليه ، فما زالوا يوالون الضرب بالمنجنيقات على الأسوار حتى تخلخلت ، وضعف بنيانها ، وأنهك التعب والسهر أهل البلد ، لقلة عددهم وكثرة الأعمال التى يؤدونها ، قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن[٤] . ولما أحس الصليبيون بذلك ، وظهر لهم ما حدث بالسور من الخلل وتداعى بنائه ، شرعوا فى الزحف من كل جانب ، وانقسموا أقساماً وتناوبوا فرقا ، كلما تعب قسم ، استراح ، وحل مكانه قسم آخر ، واشترك فى الهجوم الفرسان والرجالة ، ولم يغفلوا وقتذاك الاهتمام بعمارة أسوارهم الدائرة على خنادقهم وشحنها

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٣–١٥٤
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٦ .
Stevenson : op. cit. P. 268

(٢) Painter : op. cit. p. 68.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٥ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٥
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٨٦ .

بالرجالة والحاربين ليلا ونهارا[١] . ومع ذلك استطاع المدافعون أن يردوا هجمات الصليبين ، وبادر صلاح الدين بالهجوم بعساكره على خنادق الصليبيين ، وهو يحث الناس على الجهاد وينادى « يا للإسلام » وعيناه تذرفان الدموع ، واشترك العادل فى هذا الهجوم كيما يخفف الضغط عن عكا ، غير أنهم لم يلبثوا أن ارتدوا ، لما صادفوه من مقاومة عنيفة ، ولمناعة موقع الصليبيين[٢] . على أن اشتداد ضغط الصليبيين ، وضعف المقاومة فى داخل عكا ، حمل قراقوش والمشطوب المسئولين عن الدفاع عنها ، على أن يبعثا بمكاتبة إلى صلاح الدين ، يعلنان فيها العزم على طلب الأمان وتسليم عكا للصليبيين فى ٤ يوليه (٨ جمادى الآخرة)[٣] ، « إن لم تعملوا معنا شيئا »[٤] . وكان هذا أسوأ خبر ورد على المسلمين ، إذ أن عكا احتوت « على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر » ، فرأى صلاح الدين أن يشن هجوما خاطفا على الصليبيين ، فلم يساعده العسكر (الفرسان) ، فإن الرجالة من الصليبيين وقفوا كالسور

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٥ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٦ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٥ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٦ .
العماد الكاتب : الفتح القسى ص ٣٥٠ .

Painter : op. cit. . p. 68-69. Stevenson : op. cit. p. 268

Lane Poole : Saladin p. 292

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٦ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٦ .

المحكم البناء بالسلاح ، والنشاب ، من وراء أسوارهم [1] .

ولم تزل الحرب قائمة إلى الليل ، وضعفت نفوس أهل البلد ، وتمكن الصليبيون من الخنادق ، ونقبوا سور البلد ، فأحدثوا ثغرة كبيرة ، دخل منها الصليبيون فلقى مصرعه عدد غير قليل ، فتوقف الزحف ثلاثة أيام[2] . وفى أثناء ذلك ، (يوم الخميس ٤ يوليه ١١٩١) اقترح صلاح الدين على العساكر أن يشقوا طريقهم وسط المحاصرين من الصليبيين ، وأعد لذلك من المساحي والآلات ، ما يلزم لطم الخنادق ، وتطلعوا إلى مساعدة إخوانهم المقيمين بعكا ، بأن يهجموا على طرف من « الإفرنج ، فيكسروهم ويخرجوا ، يحمى بعضهم بعضا ، ويساندهم العسكر من هذا الجانب ، فيسلم من يسلم ، ويؤخذ من يؤخذ ، فلم يقدروا على الخروج ، وفى اليوم التالى علم الإفرنج بذلك فاحتاطوا بهم وحرسوا حراسة عظيمة »[3] .

سقوط عكا (يولية ١١٩١) :

ولما رفض فيليب أغسطس ما عرضه فى ٤ يوليه سيف الدين المشطوب من تسليم البلد ، مقابل بذل الأمان للسكان ، أغلظ له القول ، وأشار

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٥٦ .
العماد الكاتب : الفتح القسى ص ٣٥١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٧ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٧ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٨ — ١٥٩
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٨ .
العماد الكاتب : الفتح القسى ص ٣٥٥ — ٣٥٦ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٣ — ٤٤ .
Stevenson : op. cit. p. 268

إلى « إنا لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ، ولا يقتل منا واحد ، حتى يقتل خمسون نفسا من كبارکم »[١] ؛ فصبروا بعد ذلك ، وصابروا ، وبسطوا أيديهم فى القوم ، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من الثقوب[٢] ؛ ووصل إلى صلاح الدين فى ٧ يوليه أحد العوامين يحمل رسالة من أهل البلد يقولون فيها « إنا قد تبايعنا على الموت ، فإياكم أن تخضعوا للعدو ، وتذيبوا إليهم ، فإنا نحن قد فات أمرنا »[٣] . وما حدث من قتال فى ١١ يوليه ، يعتبر آخر مجهود حربى بذلته القوات الإسلامية المحاصرة فإنه حينما اشتد ضعف البلد وكثرت ثغور سوره ، جاهد المقيمون فيه « وبنوا عوض الثلم سورا من داخلها ، حتى إذا تم بناؤه اقتتلوا عليه »[٤] ، وإذ استبد اليأس بأهل المدينة ، أرسلوا إلى صلاح الدين فى ١٢ يوليه سنة ١١٩١ ، يعلنون « إن أهل البلد ضاق بهم الأمر ، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم ، وأنهم قد صالحوا الفرنج على أنهم يسلمون إليهم البلد ، بما فيه من الآلات والعدد والمراكب ، ومائتى ألف دينار ، وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم ، وصليب الصلبوت ، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين ،

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٨

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٧ .
العماد الكاتب : الفتح القسى ص ٣٥٣ – ٣٥٤ – ٣٥٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٩ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٩ – ١٦٠ .
Lane Poole : Saladin p. 297
Runciman : op. cit III. p. 50.

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٥٩ .
Runciman : op. cit. III. p. 51
Painter : op. cit p. 69.

وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم ، وضمنوا المركيس ، وكان قد استرضاه الفرنج ، وأوعدوه بعشرة آلاف دينار ، لأنه المتوسط بينهم وبين أهل البلد ، ولأصحابه أربعة آلاف دينار » [1] ؛ واستقرت القاعدة بين الفريقين على هذا النحو ، وكان لابد من موافقة صلاح الدين على هذه الشروط ، على أنه أنكر هذا الإجراء واجتمع بأمرائه وأصحاب مشورته لاتخاذ قرار ، فما أحسوا إلا « وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد فى يوم الجمعة ١٢ يوليه ١١٩١ [2] ، فاشتد الأسى والحزن بصلاح الدين وسائر المسلمين ، ومع ذلك بادر إلى أن يتخذ من الإجراءات ما يلزم لتأمين حياة أهل

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٠ - ١٦١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٨٨ .
الواقع أن رتشرد بادر منذ أن هبط إلى عكا بطلب الاجتماع بصلاح الدين ، فرفض صلاح الدين ، وأشار إلى « أن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، ولا يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة » . ثم قدمت الرسل من جانب رتشرد أثناء مرضه ، واجتمعوا بالملك العادل ، وأدرك العادل نوايا الصليبيين . ثم استقبل صلاح الدين فى أول يوليه الرسول ومعه مترجم مغربى ، وكان غرض رتشرد بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها . وفى ٤ يوليه جاء مقدم الإسبتار للتحدث فى معنى الصلح ، ثم قدم ثلاث رسل واجتمعوا بالملك العادل ، ولم ينتهوا إلى قرار . وفى ٦ يوليه جرت مناقشة حول الصلح ، واشتد الصليبيون فى طلباتهم ، وأصروا آخر الأمر على ألا يصالحوا وألا يعطوا أمانا ، حتى يطلق جميع الأسارى ، وتعاد البلاد الساحلية إليهم ، وتسلم إليهم البلد وما فيه . ورفضوا أيضاً قبول تسلم صليب الصلبوت ، واشتد عتوهم واستفحل أمرهم . ولم يلبث أن طلبت الحامية فى اليوم التالى التسليم بالشروط التى أوقفوا صلاح الدين عليها .
انظر : ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ .

Lane Poole : Saladin p. 300-302

(٢) نصب كنراد مونتفرات أربعة أعلام ، على المواقع الرئيسية بعكا ، القلعة ، الجامع ، برج الداوية ، برج القتال . (ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٦٠ .)

المدينة[1] ، وتنفيذ الشروط ، التى تم الاتفاق عليها . فعلى الرغم من اختلاف المؤرخين فى تفاصيل الشروط ، فإن النقط الأساسية التى اتفق فيها المؤرخون المعاصرون ، تتمثل فيما يأتى :

١ ـ الإبقاء على حياة رجال الحامية بعكا .

٢ ـ إعادة صليب الصلبوت إلى المسيحيين .

٣ ـ إطلاق سراح عدد كبير من الأسرى المسيحيين ، ولعل أدق رقم لعدد هؤلاء الأسرى ، ما أشار إليه رتشرد نفسه ، وهو ١٥٠٠ أسير .

٤ ـ يؤدى السلطان (صلاح الدين) فدية عن حامية عكا ، قدرها ٢٠٠ ألف دينار .

٥ ـ ينبغى الاحتفاظ برهائن ، حتى يتم تحقيق الاتفاق[2] . ومقابل ذلك ، يخرج أهل المدينة بأنفسهم سالمين ، ويصحبهم ذراريهم ونساؤهم ، ويحملون معهم أموالهم وأقمشتهم[3] .

ولما لم يكن ثمة ما يدعو للبقاء على منازلة المدينة ، أنفذ صلاح الدين جيشه إلى شفرعم ، بينما أقام مكانه ، لينظر ماذا يكون أمر العدو وحال أهل البلد ، وترددت الرسل بين الجانبين ، وتوجه مندوبو الصليبيين إلى دمشق يتفقدون الأسرى ، ووجه صلاح الدين إلى الصليبيين رسولا ، يسألهم كيف جرت الحال ، ويستعلم عن المدة التى يتحصل فيها ما استقر

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٨٨ .

(٢) **Stevenson : op. cit. p. 269-270**

Painter : op. cit. p. 69

Lane Poole : Saladin p. 302

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ١٦٠ – ١٦١ .

Lane Poole : Saladin p. 302

عليه الاتفاق[١] . واستغرق ذلك نحو شهر ، وفى أثناء ذلك وقعت مناوشات بين قوات صلاح الدين والقوات الصليبية تعرض فيها الصليبيون للهزيمة فارتدوا إلى خنادقهم[٢] .

ووافق الصليبيون على ما استقر عليه الأمر ، من حيث الأسارى والفدية ، وصليب الصلبوت ، فتقرر أن يدفع فى « تروم » ثلاثة ، أى نجوم أو أقساط ومدة الترم شهر[٣] . وينتهى أجل الترم الأول فى ١١ أغسطس ، أى بعد ثلاثين يوما مضت على سقوط عكا[٤] . وأعد صلاح الدين ما تقرر دفعه فى الترم الأول ، وهو الصليب ، ومائة ألف دينار ، وستمائة أسير ، وتحقق ممثلو الصليبيين من صحة عدد الأسرى ، باستثناء الأسارى المعينين من جانبهم ، فإنهم لم ينتهوا من تعيينهم ، حتى يكتمل بهم العدد ، ولا زالوا يطاولون حتى انتهى أجل الترم الأول ، فتوجهوا إلى صلاح الدين يطلبون المقرر دفعه . فأجابهم « إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتتسلموا الذى عين لكم فى هذا الترم ، ونعطيكم رهائن على الباقى ، يصل إليكم فى ترومكم الباقية ، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم ، حتى تخرجوا إلينا أصحابنا »[٥] ، وتضمن الداوية الرهن ، لأنهم أهل

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٢ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٢ — ١٦٣

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٩ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٣ .

(٤) Stevenson : op. cit. p. 270-271

لم يقف صلاح الدين على موافقة ملكى إنجلترا وفرنسا ، بتنظيم دفع الفدية إلا فى يوم ٢ أغسطس (٩ رجب ٥٨٧) . ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٣.

Lane Poole : Saladin p. 305

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٩ .

دين يرون الوفاء »[١] . فرفض الصليبيون الموافقة على ذلك ، وأصروا على أن يحصلوا على ما تقرر فى هذا اليوم ، على أن يطلقوا من يريدون ، ويتركوا من يشاءون ، حتى يجىء باقى المال . ولما لصلاح الدين من تجربة كبيرة عن وعود الصليبيين ، ولإدراكه لخياناتهم وغدرهم لم يستجب لطلبهم[٢] .

وتحقق لصلاح الدين ما بيته رتشرد من الغدر بالمسلمين فى عكا ، فالمعروف أنه صالحهم وتسلم البلد على أن يكونوا آمنين على أنفسهم ، فإذا دفع صلاح الدين إليه ما استقر ، أطلقهم بأموالهم ونسائهم ، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق ، وأخذهم أسرى[٣]. فنكث رتشرد بعهده ، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسرى ، إذ ركب فى جميع العسكر من الفرسان والرجالة والتركبولية فى ٢٠ أغسطس ، فأجروا مذبحة فى ٢٦٠٠ أسير ، ولم يبقوا إلا على الأمراء والمقدمين ومن كان له مال ، ومن كان قويا يفيدون منه فى العمل فى عمائرهم[٤] . ومن الأسباب التى جرى الاستناد إليها لتبرير هذه المذبحة ، أن رتشرد انتقم لمن قتل فى حطين من الاسبتارية والداوية ، فإذا كان هذا الباعث صحيحاً ، فالواقع أنه تجاوز الحد فى الانتقام ، ومنها أنه أراد أن يتخلص من هذا العدد قبل المضى فى السير إلى عسقلان ، حتى يطمئن إلى سلامة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٩ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ١٦٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٩ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٥ .

قاعدته[1] . على أن هذا الانتقام الشديد لم يؤد إلى الإمعان فى سفك الدماء ، فلم يبق صلاح الدين بعد هذا الحادث على كل من يقع أسيراً فى يده من الصليبيين[2] .

وليس من العسير الوقوف على أسباب إذعان عكا واستسلامها ، فمنها التفوق العددى للجيوش الصليبية ، فمهما « أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب » ، توالت عليهم الأمداد من البحر ، فأضحوا فى أعداد لا تحصى من أمم متباينة[3] . والواضح أن الحملة الصليبية الثالثة اشترك فيها معظم بلاد أوربا ، وتجهز لها الأمراء ، بما أعدوه من الأموال والأدوات ، وبما تكفلت به المدن الإيطالية من بذل المساعدة والاشتراك فى نقل العساكر والمعدات وفرض الحصار على المدن الساحلية . وكان لما استخدموه من أدوات الحصار أثر فى إنزال الخلل بأسوار المدينة ، ويشير القاضى الفاضل إلى أنهم « قاتلوا مرة بالأبرجة ، وأخرى بالمنجنيقات ، وتارة بالدبابات ، وتارة بالكباش ، وآونة باللوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلا بالسرايات ، وطورا بطم الخنادق ، وآنا بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف فى الليل والنهار ، وأحيانا فى البحر بالمراكب » ، وإقامة أسوار متحركة لمهاجمة عكا[4] . بينما كانت العساكر الإسلامية تستدعى من الأماكن البعيدة ، فلا تصل ، إلا بعد أن أنهكها التعب ، واستنفدت جانبا من الأقوات ، وضاقت ذرعا بالقتال ، فلم تلبث أن تطلب الإذن بالعودة ، ولا شك أن هذا الضجر أضر بسمعتها عند الصليبيين[5] . وعلى الرغم من أن بعض المغامرين المسلمين اقتحموا خيام الصليبيين ، ونهبوا ما وقع بأيديهم ، وأنزلوا الرعب

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٥ .

Stevenson : op. cit. p. 273 .

(٢) Stevenson : op. cit. p. 273

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٤) أبوشامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٥ .

فى نفوس العساكر ، فإنهم لم يستطيعوا أن يزيلوا المعسكر من موقعه[1]. ومن الطبيعى أن يكون بين المقاتلين من المسلمين ، جماعة من ضعاف النفوس ، أرادوا النجاة بأنفسهم ، ولم يسلموا هؤلاء من تقريع ولوم رفاقهم ، « إذ خانوا المسلمين فى ثغرهم ، وباءوا بوبال غدرهم ، وما قوى طمع العدو فى البلد إلا هربهم »[2] . ولما أراد صلاح الدين أن يقوم بهجوم شامل على الصليبيين فى ١١ يوليه ، لم يساعده العسكر وتخاذلوا ، وقالوا « نخاطر بالإسلام كله »[3] . بل إن المشطوب الموكل بأمر حامية عكا ، حينما رأى أن صلاح الدين ليس فى وسعه أن يخترق الحلقة القوية المحيطة بعكا ، وأنه توقع أن تحل بهم مذبحة مريعة ، لم يسعه إلا أن يعرض التسليم[4] .

ومهما يكن من هذه الأسباب ، فالواقع أن ما كان من تصرف أفراد من القوة الإسلامية ، وانسحابهم من عكا ، لم يحدث إلا بعد أن ساء الموقف فى عكا ، وأنكر صلاح الدين موقفهم ، ونزع إقطاعات بعضهم ، وألقى بالبعض الآخر فى السجن[5] . وفى رسالة القاضى الفاضل إلى مبعوث صلاح الدين إلى ملك المغرب ، بعد سقوط عكا ، شرح لأسباب إذعانها ، منها ضخامة حملة فيليب أغسطس ورتشرد وغيرهما من الأمراء ، وقدومها « فى مراكب بحرية وحمالة ، حملوا فيها الخيول والخيالة ، والمقاتلة والآلة ،

---

(١) Lane Poole : Saladin p. 296

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٨٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٥٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ٤٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٨٧ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٥٧ – ٣٥٨ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٨ .

ووصلت كل سفينة تحمل مدينة ، وأحدقت بالثغر ، ومنعت الناقل بالسلاح إليه ، والداخل بالميرة عليه »(١) . وأشار إلى ما تم الاتفاق عليه من شروط التسليم ، وإلى ارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين « فما وهنا لما أصابنا فى سبيل الله ، وما ضعفنا ولا رجعنا ورانا ، وأقمنا على طرقهم ، وأخذنا بأطراف خندقهم » . ولا زال يعلق أهمية كبيرة على ما يأتى من نجدة من المغرب « فأحوج ما كنا الآن ، إلى النجدة البحرية والأساطيل المغربية . . . فإن للإسلام نظرات إلى الأفق الغربى يقلبها ، وخطرات من اللطف الخفى يقربها »(٢) .

على أن سقوط عكا لم يعتبر كسبا كبيراً أصابه الصليبيون ، فما بذله الصليبيون من الغرب واللاتين فى الشام ، من جهود طوال سنتين ، لم يؤد إلا إلى الاستيلاء على هذه المدينة ، بينما لا زال يواجههم قوة لم تقهر تماما . وأشار العماد إلى ما جرى بعد سقوط عكا من اهتمام السلطان بالمستقبل ، وإلى ما شرحه لصلاح الدين من أن عكا ليست إلا بلدة « مما فتحه الله ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٦٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٦٢ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٩ .

أدرك صلاح الدين أهمية استخدام القوة البحرية فى إنقاذ عكا ، فحاول توطيد علاقته بدولة الموحدين بالمغرب ، فطلب سنة ١١٩٠ من ملكها يعقوب بن منصور ، مساندته بأسطوله الذى يبلغ ٤٠٠ سفينة ، غير أنه لم يتلق المساعدة . على أن استيلاء الصليبيين على قبرس ١١٩١ ، كفل لهم قاعدة بحرية ، أمدتهم بالمؤن والسفن ، التى ضيقت الحصار على عكا ، فلم يستطع صلاح الدين المحافظة على اتصاله بالحامية داخل عكا إلا باستخدام حمام الزاجل والعوامين ؛ ولم تستطع السفن المصرية الكبيرة اختراق الحصار المفروض على عكا ، فكان ذلك من أسباب سوء الأحوال فى داخل المدينة . انظر :

ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٢٢ ، ٤٢ .

Runciman. III. 49.

قد استعادها أعداؤه ، فإن ذهبت مدينة فما ذهب الدين ، ولا ضعف فى نصر الله اليقين »[١] . فلا زال فى الوقت متسع لأن يتخذ من القرارات ، ويدير من الأعمال والخطط ، ما يجعله يمضى فى مناوأة الصليبيين . والواقع أن صلاح الدين أقام فى مكانه ، راجيا أن يبادر الصليبيون بالخروج إليه والهجوم عليه ، فينال منهم غرضا ، وينتصر عليهم[٢] ، أو يقع بينهم من الاختلاف والتخاصم ، ما يبدد جهودهم ويضعفها . وإذ تألف الجيش الصليبى من أقوام مختلفة ، كان ذلك كفيلا لأن يحدث بين المحاربين الحقد والكراهية والتخاصم والشقاق ، ويزيد فى إثارة هذه الأحقاد ، وجود فيليب ورتشرد فى معسكر واحد ؛ بما نقلاه معهما من المشاجرات والمنازعات القديمة ، وما جلباه من المطامع الشخصية ؛ فحرص كل منهما على السيطرة والسيادة فلا بد أن يؤدى ذلك إلى الشقاق[٣] .

فوفقا لمـا تم الاتفاق بينهما على اقتسام ما يفتحانه من البلاد ، اقتسم عكا الملكان ، رتشرد وفيليب ، فأقام فيليب فى القلعة ، بينما نزل رتشرد فى مقر الداوية . واحتل دور المدينة نبلاء وفرسان الحملة ، فأدى ذلك إلى وقوع المشاكل[٤] . إذ أن سكان المدينة من المسيحيين ، الذين جلوا عنها بعد استيلاء صلاح الدين عليها ، أرادوا العودة إلى دورهم ، فتوجه التجار الايطاليون إلى فيليب أغسطس يلتمسون منه أن يعيد إليهم ممتلكاتهم ، وتم الاتفاق آخر الأمر ، على أن يعود السكان السابقون إلى دورهم ، بشرط أن

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٨ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٢ .

(٣) Stevenson : op. cit. p. 273.

(٤) Painter : op. cit. p. 69

يستضيفوا عندهم الصليبيين[١] . وتلى ذلك إعادة تدشين الكنائس بارشاد المندوب البابوى[٢] .

ولم تلبث مشكلة النزاع على عرش بيت المقدس ، بين جاى وكنراد ، أن ظهرت من جديد[٣] . إذ قدم إلى عكا كنراد مونتفرات الذى اتخذ لنفسه منذ مايو ١١٩١ ، لقب ملك بيت المقدس ، وذلك للدفاع عن حقه أمام الملكين فيليب ورتشرد والبارونات . وأقسم كل من جاى وكنراد اليمين بقبولها لقرارات المجلس الذى انعقد فى ٢٧ ، ٢٨ يوليه ١١٩١ . وتقرر فى هذا المجلس أن يبقى جاى ملكا طوال حياته ، ثم ينتقل الملك بعد وفاته إلى كنراد وايزابيل وسلالتهما ؛ وفى أثناء حكم جاى ، يصير كنراد سيدا على بيروت وصور وصيدا ، ويقتسم مع جاى موارد المملكة[٤]. وتقرر أيضا أن

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 56 - 57
Runciman : op. cit. III. p. 51.
Painter : op. cit. p. 69.

(٢) Painter : op. cit. p. 69. Runciman : op. cit. III. p. 51.

(٣) المعروف أن جاى كان ملكاً على بيت المقدس ، باعتباره زوج الملكة سيبل ، على أن سيبل ماتت دون أن تنجب أطفالا . أما كنراد فتزوج إيزابل أخت سيبل والوريثة الشرعية لعرش بيت المقدس سنة ١١٩٠ . إنما هل يترتب على هذا الزواج من الحقوق ما يضارع حقوق جاى الذى لا زال يتخذ لقب ملك . الواقع أن القوات الصليبية هى التى فصلت فى هذا الموضوع . المعروف أن جاى يستند إلى تأييد رتشرد والداوية وفرسان الغرب الذين يعلقون أهمية كبيرة على ما لملك بيت المقدس من مكانة ، بينما استند كنراد إلى البارونات القدامى فى الشام ، الذين يمثلهم أسرة أصحاب يبنه ، الذين رأوا أن الملك جاى فقد ملكه ، بسبب سقوط بيت المقدس ، وأنهم يؤثرون المركيس لما له من أهمية فى المحافظة على صور ، ولما يأملونه من إعادة فتح البلاد على يديه .

انظر : **Grousset : op. cit. III p. 57.**

(٤) **Runciman : op. cit III. p. 51.**
Painter : op. cit. p. 71.

يصير جفرى لوزجنان كونتا على يافا ، وأن تصير يافا وعسقلان إقطاعاً وراثياً له . وبذا احتفظ جاى باللقب الملكى ، على أنه لم يكن بيده ، بل بيد الصليبيين ، من المدن الهامة ، إلا عكا . غير أن امتلاكه لها أضعف قيمته ، ما حدث بعد أيام قليلة من تنازل فيليب لكنراد عن نصف المدينة ، وعن نصيبه من الرهائن[١] .

اشتدت رغبة فيليب أغسطس ، عقب سقوط عكا ، فى العودة إلى فرنسا ، والواقع أن فيليب لم يبرأ تماما من المرض الذى ألمّ به ، ونظرا لأنه أدى الواجب الدينى بما أسهم به فى استرداد عكا ، إذ قام بالنصيب الأكبر فى منازلة المدينة ، وسوف يترك خلفه الشطر الأكبر من الجيش الفرنسى تحت قيادة دوق برجنديا ، واطمأن إلى إخلاص كنراد مونتفرات ، يضاف إلى ذلك ما أحس به من المهانة من قبل رتشرد ، الذى كان أكثر منه مالا وأعز نفرا ، وطغت شهرته على شهرة سائر الأمراء والملوك ، ولن يأمل فيليب فى أن ينافس رتشرد فى مجد حربى عند مواصلة القتال بين عكا وبيت المقدس ؛ كما أن مصالحه بفرنسا اقتضت عودته ، ولا سيما ما ترتب على وفاة فيليب كونت فلاندر من نزاع ، إذ أراد أن يقتطع جانبا من الفلاندر لما يربطه من صلة القرابة بصاحبها الذى لم يترك عقبا . كل هذه الأسباب حملت فيليب على أن يرتحل فى ٣١ يوليه ١١٩١ إلى صور ، بصحبة كنراد ، ولم يلبث أن ارتحـل إلى برنديزى بعد ثلاثة أيام[٢] .

---

(١) Painter : op. cit. p. 71. Grousset : op. cit. III. pp. 58-59.
Stevenson : op. cit. p. 274.

(٢) Runciman : op. cit. III. p. 52.
Grousset : op. cit. III. p. 59-60.
Painter : op. cit. 70.

اعتبر الإنجليز إقدام فيليب على الرحيل خيانة ، ولاسيما بعد أن فشل رتشرد فى إقناع فيليب على الموافقة على إصــدار تصريح مشترك بأن يبقى الملكان فى الشرق ثلاث سنوات ، وكل ما استطاع فيليب أن يعد به ، هو أنه سوف لا يهاجم أملاك رتشرد فى فرنسا ، إلا بعد عودته ؛ وما حدث بعدئذ من تجهز فيليب لمهاجمة نورمنديا ، قبل عودة رتشرد من الحرب الصــليبية ، يدل على أنه لم يلتزم بوعده ، وأنه خضع لمقتضيات الأحوال(١) .

(١) Painter : op. cit. p. 70. Runciman : op. cit. III, p. 52.

الفصل الخامس عشر

صلاح الدين وريتشرد قلب الأسد

١١٩١ – ١١٩٢

لم يخف على دارس الحروب الصليبية ، ما يحتاجه الصليبيون ، بعد أن وقف على ما انصف به فيليب أغسطس من المهارة والاعتدال والتعقل والحكمة ، وبعد أن ظهر ريتشرد على حقيقته حينما صار القائد الأعلى للقوات الصليبية . فعلى الرغم مما اشتهر به ريتشرد من صفات حربية نادرة ، فإنه تجرد من كل روح سياسية ، وما أظهره نحو المسلمين من الهمجية والتجرد من الإنسانية ، والخيانة والغـدر ، ما يُضارع أفعال ريجنالد شاتيون[1] .

فما ارتكبه ريتشرد من اغتيال ثلاثة آلاف من الأسرى المسلمين ، لم يقعوا فى يديه نتيجة هجوم ، بل استسلموا وفقاً لمـا تم عليه الاتفاق ، كان له عند المسلمين أثر بالغ الخطورة . فعلى الرغم من الحروب التى لم تكد تنقطع بين المسلمين والصليبيين ، نشأت بين الفرنج والمسلمين ، علاقات قامت على الدماثة والفروسية والتقدير المتبادل بين الفريقين . وما أظهره صلاح الدين فى علاقاته مع الصليبيين من الروح الإنسانية والسخاء والمروءة والتسامح ، لطّف من وقع الهزيمة التى حلت بهم فى حطين ؛ ففى كل المدن التى استولى عليها ، أبقى على حياة المدافعين عنها ، وأجاز لهم الارتحال إلى البلاد المسيحية ، وترتب على هذا السخاء أن احتشدوا فى طرابلس وصور ، وتألف منهم النواة التى أخذت تعمل ، بمساعدة جيوش الحملة

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 60-61.

الصليبية الثالثة ، على استعادة البلاد التى سقطت فى يد صلاح الدين . بل نلمس أيضاً سخاءه ومروءته ، أثناء الحصار الذى فرضه الصليبيون على عكا ، وحينما حَلَّ المرض برتشرد ، بادر صلاح الدين بأن أرسل إليه فاكهة وثلجا من جبال لبنان(١) . وهذا الكرم والسخاء ، ردَّ عليه ملك انجلترا بما أجراه من مذبحة فى الأسرى المسلمين ، واعترف أسير من كبار الأسرى الذين وقعوا فيما بعد فى يد صلاح الدين ، حينما عاتبه على ما بدا من الصليبيين من الغدر ، وقتل الأسرى ، بأن هذا العمل قبيح ، وأنه لم يجر إلا برضى الملك رتشرد وحده(٢) . فما ارتكبه رتشرد وحده من حماقة لم تكن بأقل شأناً مما ارتكبه الصليبيون سنة ١٠٩٩ من مذابح عند الاستيلاء على بيت المقدس ، على أن صلاح الدين لم يرد على مذبحة رتشرد ، بقتل الأسرى الصليبيين ، البالغى الكثرة ، والذين لا زالوا فى حوزته . وما ارتكبه رتشرد من وحشية وهمجية ، أدرك أثرها فيما بعد ، فلم يبق بحوزته من الأسرى بعد مصرع حامية عكا ، من يستطيع أن يستبدل بهم الأسرى الصليبيين . أو يفيد منهم فى مساومة صلاح الدين . ومن الطبيعى أن تتوقف المفاوضات بين صلاح الدين والصليبيين ومن اجتمع من أسرى الفرنج لتسليمهم إلى رتشرد مقابل إطلاق سراح الأسرى المسلمين ، وتقرر إعادتهم إلى دمشق ، حيث فرض عليهم الرق من جديد . وأنفق صلاح الدين على الجيش ما جمعه من أموال لفداء الأسرى(٣) . وتقرر إعادة صليب الصلبوت إلى مكانه ، « فإنه لا مصاب عندهم أعظم من استيلاء المسلمين

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥٨ .

Grousset : op. cit. III. p. 61.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٩ .

(٣) **Grousset : op. cit. III. p. 62.**

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٩ .

عليه »[١] . على أن هذه المحنة التى تعرض لها المسلمون أثارت فيهم الحمية ، وأوجبت على كل مسلم « أن ينهض لنصرة الإسلام ، ويتدارك ما حدث من الكسر والوهن بالجبر والإحكام ، ويعيد ما وهى من عقد الفتوح إلى النظام . . وإنما أراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقدة وإثارة العزائم الراكدة »[٢] .

على أن مستقبل الحملة الصليبية الثالثة أصبح يتوقف إلى حد كبير على كفاية رتشرد ، وقدرته على أن يملأ مركزه . فعلى الرغم من أن وضع الحملة بعد رحيل فيليب ، أضحى بالغ الصعوبة والشدة ، فالواقع أن رتشرد لم يصلح لمعالجته[٣]. إذ خضع لقيادته نحو ٣٠٠ ألف رجل[٤]، ولم يخطر على باله أن واجبه الأول يحتم عليه ، أن يعمل على التوفيق بين العناصر والمصالح المتنافرة المتنازعة فى جيشه ، إذ لم يرغب أحد من العساكر الفرنسيين أن يغادر عكا ، حيث عاش الفرنسيون حتى الشهر الأخير ، فى دعة وراحة وطمأنينة ، بما توافر لهم من الخبز ، والشراب (النبيذ) ، والنساء ، على أن صرامة رتشرد قهرتهم ، فلم يسعهم ، إلا الطاعة[٥] .

ولا شك أن رتشرد أمعن النظر فى الموقف الحربى قبل مغادرة عكا ، ورأى أنه لو توافر لجيشه من المؤن والماء والقيادة السليمة ، فإن الهزيمة تلحق بكل جيش يدفعه صلاح الدين لقتاله . والواضح أن صلاح الدين حشد من العساكر والأجناد ، ما يرهق بهم الجيش الصليبى ، بما يشنونه عليه

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٣) Stevenson : op. cit. p. 274.

(٤) Lane Poole : Saladin p. 307.

(٥) Runciman : op. cit. III. p. 54.

Grousset : op. cit. III. p. 61.

باستمرار من الهجمات ، والاصرار على الدفاع عن الحصون . ولعل رتشرد اعتقد بأن من المستحيل على صلاح الدين ، الالتجاء إلى هذه السياسة ، فما من أحد يستطيع ، فى نظره ، أن يحرض الجيش الإسلامى على أن يبذل التضحية ، بما يقوم به من هجمات على الجيش الصليبى ، أملا فى أن يكون للأجيال التالية الفخر فى الحصول على هذا النصر(١) .

اتخذ صلاح الدين ، بعد سقوط عكا ، معسكره فى تلال شفرعم ، التى تسيطر على طريقين هامين ، الأول يتجه شرقاً إلى طبرية ودمشق ، بينما يسير الآخر جهة الجنوب الشرقى ، مجتازاً الناصرة ، إلى بيت المقدس . على أن رتشرد لم يشأ أن يشق له طريقاً فى وسط التلال التى يسيطر عليها المسلمون ، بل اختار طريقاً أطول من الطريقين السابق ذكرهما ، غير أنه أكثر أماناً ، ويحاذى الساحل . فإذا اتخذ المسلمون طريقهم عن يساره ، فإن البحر عن يمينه يكفل له الحماية ، ويضمن له مساعدة الأسطول . ووضع رتشرد خطته على أساس أن يهبط على الساحل حتى يافا وعسقلان ، وبعد أن يقيم له قاعدة حصينة ، يتوجه إلى بيت المقدس(٢) .

ووقع الاختيار على عسقلان ، فيما يبدو ، لتكون أول ما يهاجمه من البلاد ، بعد سقوط عكا ، نظراً لأهمية اتخاذها قاعدة ، لمهاجمة بيت المقدس(٣) . غير أن الجيش الصليبى تعرض أثناء الطريق لتجربة عنيفة ، فالمعروف أن يافا تبعد عن عكا بنحو ثمانين ميلا ، استغرق مسير الصليبيين إليها ، منذ أن غادروا عكا ، فى ٢٢ أغسطس ١١٩١ ، سبعة عشر يوما ، انقضى منها أيام فى انتظار السفن التى سوف تنقلهم إلى

---

(١) Painter : op. cit. p. 72.

(٢) Lane Poole : Saladin p. 308

(٣) Stevenson : op. cit. p. 275.

الساحل . غير أن ما حدث بعدئذ من اشتداد التعب بالعساكر دعاهم إلى التماس الراحة ، فالحرارة بالغة الشدة ، ولم تكن وسائل النقل كافية ، فلم يكن معهم من الدواب ما يكفى لحمل جميع ما عندهم ، ولم تكن السفن إلا وسيلة إضافية لمساعدتهم ، بل إن المؤن لم تكن متوافرة[1] .

ومهما اتصف به رتشرد من التهور والطيش ، فإنه التزم فى قيادته الحذر وتقدير الموقف ، فقد يجازف بحياته دون اكتراث ، لكنه لم يكن ليخاطر بأرواح عساكره إلا بما تقتضيه الضرورة القصوى. ولذا لم يكن سيره إزاء الشاطئ إلا بناء على خطة موضوعة ، فجعل الجيش أقساماً ، تألف كل منها من الرجالة والفرسان ، وسار الرجالة على الجانب الداخلى ، المواجه للقوات الإسلامية ، وقد ارتدوا « الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون ، وهم يرمون بالزنبورك ، فتجرح خيول المسلمين »[2] . وأحاط الرجالة بالفرسان كأنهم السور ، لا يخرجون عن الرجالة إلا فى وقت الحملة ، والتزم طريق الساحل رجالة يحملون أثقال الجيش والخيام ، ويشتركون فى القتال ، إذا حل التعب بالمقاتلة[3] ، وكانت منازل الجيش الصليبى متقاربة ، حتى لا يتطرق التعب للرجالة ، وعند كل منزلة يصح أن ترسو عندها السفن ، يركن رتشرد إلى الراحة ، وإلى إمداد الجيش بالمؤن[4] .

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 275.

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٦ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٠ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٤) Painter : op. cit. p. 72.

تولى رتشارد وجاى قيادة مقدمة الجيش ، بينما دافع عن وسط الجيش الفرسان النرمان ، أما الساقة فتولاها دوق برجنديا والفرنسيون بالمملكة اللاتينية .

انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٦٦ .

Grousset : op. cit. III p. 63.

كان صلاح الدين يأمل فى أن يسحق الجيش الصليبى ، بفضل ما ساد جيشه من روح عالية ، والرغبة فى الثأر لما حدث بعكا . وإذ احتشد كل الجيش على مسافة من الصليبيين ، صار يخرج من الجيش جماعات تناوش الصليبيين ، فيقتلون منهم ، ويأسرون ، ويجرحون ويسلبون ويسرقون[١] ، وكل أسير يقع فى أيدى المسلمين يقتلونه ، لأن صلاح الدين أقسم « أنه لا يظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا »[٢] .

على أن الجيش الصليبى وصل إلى حيفا ، بعد أن تعرض لمضايقة الجيش الإسلامى ، بينما اتخذ صلاح الدين مقره فى القيمون على سفح جبل الكرمل . ثم واصل رتشرد المسير إلى قيسارية ، وكان الداوية فى المقدمة ، بينما كان الاسبتارية فى ساقة الجيش ، وذلك فى ٢٧ أغسطس[٣] ، والمسلمون يسايرونهم ، ويتخطفون من قدروا عليه منهم فيقتلونه ، فلما قاربوا قيسارية (٣٠ أغسطس) ، لاصقهم المسلمون ، واشتدوا فى قتالهم ، وأنزلوا بهم خسائر كبيرة[٤] .

المعروف أن صلاح الدين سبق أن دمر استحكامات حيفا وقيسارية وأرسوف ويافا ، ليحرم اللاتين أثناء سيرهم إلى بيت المقدس ، من مستودعات المؤن وأماكن الراحة[٥] . ومع أن المسلمين كانوا ينقضون

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٠ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٥ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٨ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧١ .
Grousset : op. cit. III. p. 65.

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٥ .
Lane Poole : Saladin p. 310-312.

(٥) Stevenson : op. cit. p. 276.

على الصليبيين ، ويمطرونهم بالنشاب ، ثم يتراجعون فهلك بذلك كثير من خيول الفرنج . وكان صلاح الدين يأمل من وراء ذلك إثارة غضب رتشرد ، وحمله على أن ينفذ الخيالة لقتاله ، فيتفرقون ، وعندئذ يصبحون فريسة هينة لجيش صلاح الدين الرئيسى غير أن رتشرد أبقى على نظام الجيش ، ولم يسمح إلا لجماعات قليلة من الخيالة بالخروج لقتـــال المسلمين[١] . وتهيأت الفرصة لصلاح الدين فى أول سبتمبر ١١٩١ ، للاشتباك مع الصليبيين عند خروجهم من قيسارية ، فسار لملاقاتهم ، وهم « سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام ، وكلما ضعف قسم عاونه الذى يليه ، يحفظ بعضهم بعضا ، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب ، والقتال بينهم شديد »[٢] . ولجأ المسلمون إلى مضايقتهم ، فحاولوا أن يثيروا الاضطراب فى صفوف الجيش الصليبى ، بموالاة الرمى بالنشاب ، غير أن « القوم على أتم ثبات على ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون » ، وجرت حالات كثيرة ، أصابوا فيها المسلمين وخيولهم بجراح ، بما كانوا يرمونه من النشاب ، ولا زالت مراكبهم تسير فى مقابلتهم فى البحر[٣] . وتعرض رتشرد فى إحدى هذه الحالات إلى جراح ، أصابته فى جانبه الأيسر ، على يد أحد الفرسان المسلمين[٤] .

---

(١) Painter : op. cit. p. 73.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٠ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧١ .
أبو شامة : كتاب الروضيين ج ٢ ، ص ١٩٠ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٦٦ .
العماد الكاتب : الفتح القسى ص ٣٨٠ — ٣٨١ .
Grousset : op. cit. III. p. 66. Stevenson : op cit. p. 276.
Lane Poole : Saladin. p. 310-311.
Runciman : op. cit. III. p. 55.

(٤) Norgate : Richard the Lion Heart p. 183.

على أن الجيش الصليبي لم يلبث أن ابتعد قليلا عن الشاطئ ، لما اعترضهم من البطائح والخلجان والأقصاب والبوص ، واجتازوا التلال التى تحف بسهل شارون ، على أن اشتداد الحرارة ، وما يرزح العساكر تحته من الأسلحة الثقيلة ، أودى بحياة عدد كبير منهم . وكاد الجيش الفرنسى ، بقيادة دوق برجنديا أن يتعرض للإبادة بعد أن تأخر فى سيره عن سائر الجيش ، واغتنم جماعة من العسكر الإسلامى فرصة ما وقع من الاضطراب بين صفوف الجيش الصليبي ، نتيجة ضيق الطريق ، فانقضوا على الدواب التى تحمل الأثقال ، فنهبوا الأمتعة ، وقتلوا كثيراً من المحاربين ، وهلك عدد كبير من الخيول ، ومضوا فى مطاردتهم إلى حافة البحر ، يمعنون فيهم القتل(١) . وما عاناه الصليبيون من المحنة فى هذا اللقاء ، وما تعرضوا له من الحرارة الشديدة ، ومضايقة العساكر الإسلامية لهم ، كل ذلك حملهم على أن يجهروا بالدعاء حينما يتهيأوا للنوم ، يلتمسون النجدة ، من القبر المقدس(٢) .

وفى تلك الأثناء عزم صلاح الدين على أن تنشب معركة فاصلة بينه وبين الصليبيين : فرأى الرحيل والتقدم ، فسار مع جماعة من العساكر ، فدخلوا فى غابة أرسوف ، وأقام بها ، منتظراً قدوم العساكر ، وأخذ يرتاد موضعا يصلح للقتال ولقاء الصليبيين ، وذلك فى ٤ سبتمبر سنة ١١٩١(٣) . واختار صلاح الدين موضع المعركة ، شمال أرسوف ، حيث كان الموضع من الاتساع ما يكفى لركض الخيول ومسير الفرسان ،

(١) Norgate : Richard the Lion Heart p. 184

Lane Poole : op. cit. p. 310-311

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٢) Lane Poole : op. cit. 317.

Runciman : op. cit. III. p. 55.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٣ .

فضلا عن اختفائه وراء الغابات التى لا يفصلها عن البحر إلا مسافة ميلين[١] ، وعند هذا الموضع يصح أن يختل نظام الجيش الصليبى ، ويتوقف زحفه ، وشاعت الأنباء بأن الجيش الإسلامى ، الذى تغالوا فى تقدير عدده حتى بلغ ٣٠٠ ألف مقاتل ، ينتظر فى هذا المكان لخوض معركة حاسمة مع الصليبيين الذين لم يتجاوز عددهم ١٠٠ ألف[٢] .

على أن رتشرد أدرك أن اجتياز الطريق الواقع بين غابة أرسوف وبين البحر ، يعرض جيشه لهجوم القوات الإسلامية ، ولذا حرص عند اقترابه من الغابة ، على أن يهتم بتنظيم وترتيب جيشه . فجعل الداوية فى المقدمة ، ثم تلاهم عساكر رتشرد ، من البريتون ، والأنجويين والبواتيين ، والنرمان ، والإنجليز ؛ ومن الواضح أن الملك جاى تولى قيادة البواتيين والبارونات الذين ينتمون إليه . ثم جاء من بعدهم فى الترتيب القوات الفرنسية ، بينما اتخذ الاسبتارية مؤخرة الجيش ، والتزم هنرى كونت شامبانيا بملاحظة حافة الغابة ، وإخطار الجيش بحركة الجيش الإسلامى ، أما رتشرد وهيو دوق برجنديا فكان لهما القيادة العليا ، فصارا يطوفان بصفوف الجيش حتى يتأكدا من اتصال أقسامه معاً[٣] .

على أن ما حدث من مصرع كثير من الصليبيين ، ومن تبرم رتشرد من القتال المستمر ، حمله فى ٥ سبتمبر على أن يطلب التحدث إلى ممثل لصلاح الدين ، فأنفذ صلاح الدين أخاه العادل للالتقاء برتشرد ، وأوصاه

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٣ .

(٢) Lane Poole : Saladin p. 313.

Painter : op. cit. p. 74 Runciman : op. cit. III. p. 55.

Norgate : Richard the Lion Heart p. 184.

(٣) Painter : op. cit. p. 74.

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٥ .

بأن « يطاول الفرنج حتى يلحقنا المدد من التركمان ، الذين اقتربوا منا »[١] . وتولى الترجمة بين الجانبين همفرى صاحب تبنين ، وهو من كبار إفرنج الساحل (أى المحليين)[٢] . وطلب رتشرد فى هذا اللقاء « أن تعود البلاد كلها إلينا ، وأن تنصرفوا إلى بلادكم »[٣] ، فلم يسع العادل إلا أن يحسن له الجواب ، واشتدت المنافرة بينهما ، فأدى ذلك إلى انفصالهما وارتحالهما ، ولم يبق إلا أن يجرى القتال من جديد[٤] .

وقعة أرسوف (٧ سبتمبر ١١٩١) :

تعتبر معركة أرسوف أهم وقائع هذه الحملة الصليبية ، ففى ليلة ٥ سبتمبر عسكر رتشرد بين البحر ومستنقع يحميه من الاعتداء . وفى صبيحة يوم ٦ سبتمبر ، ارتحل الجيش قاصدا أرسوف ، ولما تبين لرتشرد أن صلاح الدين يصر على أن تنشب المعركة ، جعل الدواب التى تحمل أثقال الجيش وعتاده تسير على امتداد الساحل ، فى حراسة الرجالة بقيادة هنرى كونت شامبانيا ، واتخذ الرماة مواضعهم فى الصفوف الأمامية ،

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٣-١٧٤ .

Grousset : op. cit. III. p. 66

Norgate : Richard the Lion Heart p. 184 - 185.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٤ .

Grousset : op. cit. III. p. 66.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٤ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٤ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٦٧ .

Grousset : op. cit. III. p. 67 Runciman : op. cit. III. p. 55.

Lane Poole : Saladin p. 313.

وتلاهم الفرسان ، وكان الداوية فى الناحية اليمنى ، والاسبتارية فى أقصى اليسار[١] .

ولم تكد مقدمة الجيش الصليبى تقترب من بساتين أرسوف ، حتى اشتبك الجيش الأيوبى فى القتال ، فى ٧ سبتمبر ١١٩١ ، وطوق الفرسان المسلمون الجيش الصليبى ، فاشتدت مضايقتهم له ، وضاق به الخناق ، وهلك عدد كبير من خيوله ، وأرهقه الرماة بالنشاب ؛ وكادت الكارثة تحل بالصليبيين[٢] . تعرض الاسبتارية والفلمنكيون والبارونات المحليون ، لصدمة الهجوم الإسلامى ، وهلك عدد كبير من خيول الاسبتارية ؛ فالتمسوا من رتشرد أنه يأذن لهم فى مهاجمة الفرسان المسلمين ، غير أن رتشرد لم يقبل أن يشتبك الجيش فى هجوم شامل ، إلا بعد اكتمال استعداد جميع العساكر ، وإدراكه أن التعب حل بالمحاربين المسلمين ، وازدياد اقتراب الجيش الإسلامى[٣] . غير أن الاسبتارية لم ينتظروا أمر رتشرد ، فاخترقوا صفوف المشاة ، ورأوا أنهم لن ينجيهم إلا الهجوم[٤] ؛ فلم يسع رتشرد وهيو دوق برجنديا إلا إصدار الأمر بالهجوم الشامل . ووصف ابن شداد هذا الهجوم ، الذى شنه الصليبيون فى وقت واحد ، على الميمنة والميسرة والقلب ، فاندفع الناس بين أيديهم[٥] ؛ والتجأ المنهزمون إلى القلب ، وفيه صلاح الدين ، ولو علم الفرنج أنها هزيمة ، لتبعوهم ، فتعرض المسلمون لخسارة فادحة ، غير أنه كان بالقرب

---

(١) Runciman : op. cit. III. pp. 55-56

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٥ .

(٣) Runciman : op. cit. III. p. 56.

Painter : op. cit. p. 75.

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ١٧٥ .

Runciman : op. cit. III. p. 56

(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٥ .

من المسلمين ، موضع كثير الشجر ، فدخلوه ، فظن الفرنج أنها مكيدة ، فعادوا[١] . على أن صلاح الدين لم تصرفه الهزيمة عن المبادرة إلى التماس الفارين حتى أتت العسكر بأسرها ، فتراجع الصليبيون إلى مواضعهم[٢] . غير أن الفرصة لا زالت سانحة كيما يحرز صلاح الدين النصر على القوات الصليبية ، إذ كان يطمع فى أن يستدرج الصليبيين مرة أخرى للقتال ، غير أن رتشرد حرص على الاحتفاظ بالنظام الذى وضعه للجيش الصليبى ، فلما علم صلاح الدين بأن رتشرد رحل طالبا يافا ، حاول مناوشة الصليبيين ، « وتحريك عزائمهم على الحملة ، حتى إذا حملوا ألقى الناس عليهم وقصدوهم ، فلم يحملوا وحفظوا نفوسهم وساروا مصطفين على عادتهم »[٣] فلم يسع صلاح الدين إلا الرجوع إلى أرسوف ، وكتب إلى أمراء الأطراف يستمدهم العساكر[٤] .

ولوقعة أرسوف نتائج بالغة الأهمية ، فعلى الرغم من جهود صلاح الدين فى المحافظة على وحدة جيشه وقوته ، وحثه على مواصلة القتال ، فإنه كان « فى قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه إلا الله تعالى ، والناس بين جريح الجسد ، وجريح القلب »[٥] . على أنه لم يلق مصرعه من المسلمين إلا عدد

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ٤٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٩١ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ؛ ص ٣٦٨ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٦ .

Grousset : op. cit. III. p. 70.

Runciman : op. cit. III. p. 57.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٦ – ١٧٧ .

Painter : op. cit. p. 75.

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين صى ١٧٨ .

(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٧ .

ضئيل ، ولم يكن بين القتلى أحد من الفرسان المشهورين[١] . ومن أشهر الصليبيين الذين لقوا مصرعهم ، الفارس جيمس اڤيزنس Avesnes واكتشفوا جثته بين خمسة عشر قتيلا من المسلمين[٢] . وأكثر ما كان لهذه المعركة من أثر ، ارتفاع الروح المعنوية بين عساكر الصليبيين ، فباتوا يأملون فى استرداد بيت المقدس ؛ وبلغت شهرة رتشرد أوجها بفضل ما أظهره من المهارة فى قيادة الجيش ، وحرصه على المحافظة عليه[٣] . وتعتبر معركة أرسوف آخر محاولة لتدمير جيش رتشرد[٤] .

توجه صلاح الدين بجيشه إلى الرملة ، الواقعة على الطريق إلى بيت المقدس ، ومنها يستطيع أن يرقب حركات الصليبيين ، الذين لا بد أن يتخذوا طريقا من ثلاثة : منهما اثنان يؤديان إلى بيت المقدس ، بينما يتجه الثالث على امتداد الساحل إلى مصر[٥] . سار الصليبيون إلى يافا ، التى بلغوها فى ١٠ سبتمبر ، فعسكروا خارج أسوارها المخربة[٦] ، ولا زال الأسطول يمد رتشرد بما يحتاج إليه من المؤن . لم يكن رتشرد مستعدا لأن يمضى إلى داخل البلاد ، إلى بيت المقدس ، ما لم يكن لديه قاعدة قوية على الساحل ، يضاف إلى ذلك أن جيشه كان فى أشد الحاجة إلى الراحة ، بعد أن تعرض للإرهاق والتعب أثناء السير ، فإذا خاطر بالمسير إلى بيت المقدس ، كان بوسع صلاح الدين أن يقطع طريق الاتصال بين رتشرد

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 57.

(٢) Runciman : op. cit. III. p. 57. Painter : op. cit. p. 75.

(٣) Runciman : op. cit. III. p. 57.

(٤) Painter : op. cit. p. 75.

(٥) Norgate : Richard the Lion Heart p. 189.

(٦) المعروف أن يافا وأرسوف والمدن الساحلية بأقصى الشمال ، دمرت أسوارها ، وجلا السكان عنها ، منذ زمن سابق ، بأمر صلاح الدين .

Norgate : Richard the Lion Heart p. 189

وبين البحر ، فكان من الحكمة أن يوطد مكانه فى يافا قبل المضى فى مغامرته[١] .

والواقع أنه إذا واصل الفرنج سيرهم على امتداد الساحل ، فلن يحول دون حصارهم لعسقلان إلا نشوب معركة حاسمة[٢] .

تخريب عسقلان :

المعروف أن عسقلان تعتبر أهم المواقع على كل ساحل البحر المتوسط جنوب عكا ، وبها يستطيع الصليبيون أن « يأخذوا القدس الشريف ويقطعوا بها طريق مصر »[٣] ، فهى الميناء الهام الوحيد بين يافا والإسكندرية ، والمدينة الوحيدة المنيعة التحصين بعد تدمير قيسارية ، على امتداد الساحل من عكا إلى الحدود المصرية . واعتبر العرب عسقلان ، « عروس الشام » ، ولما اشتهرت به أسوارها من المناعة ، لم يكن بها من الحامية والعساكر ما يكفى للدفاع عنها وكل محاولة يبذلها لإمداد الحامية بالعساكر ، قد تثير القلق والاضطراب بين عساكره ، « لقرب عهدهم من عكا ، وما جرى على من كان مقيما بها »[٤] ، فضلا عن ادخار القوة « فى عسكر الإسلام لحفظ القدس المحروس »[٥] .

أدرك صلاح الدين أنه لن يمنع سقوط عسقلان فى أيدى الصليبيين ، وما يتبع ذلك من تهديد مصر وبيت المقدس ، إلا المبادرة إلى تخريبها .

---

(١) Runciman : op. cit III. p. 58.

(٢) Norgate : op. cit. p. 189-190.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح ص ١٧٨ – ١٧٩ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩١ – ١٩٢ .
Norgate : op. cit. p. 190.

(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٩ .

فتقرر أن يقيم العادل مع عشرة من الأمراء بقرب يافا ، ليقفوا على حركات الصليبيين[١] ، وخرج صلاح الدين بشطر من عساكره قاصدا عسقلان ، فبلغها فى ١١ سبتمبر . وفى اليوم التالى أمر بإجلاء السكان ، وشرع عساكر صلاح الدين ، ومن اجتمع إليهم من العمال ، فى تخريب أسوار المدينة ، بعد أن جرى توزيعها عليهم ، وأخذ صلاح الدين يحث الناس على الإسراع فى التخريب ، فظلوا مدة عشرة أيام متتالية ، يواصلون الحفر والنقب والحريق ، حتى أضحت عسقلان خرابا[٢] . ولا شك أن ما قام به من قبل من تحصين عكا ، وإنزال حامية بها ، وما تعرضت له من حصار طويل ، أضر بالمسلمين ، وما كان من تخوفه من مبادرة الصليبيين إلى الاستيلاء على عسقلان ، كل ذلك جعله يلح فى تدمير عسقلان ؛ حتى لا يبقى للصليبيين فى قصدها مطمع[٣] ، وتوجه فريق من سكانها إلى مصر ، وسار فريق آخر إلى الشام[٤] .

وفى أثناء المضى فى تدمير عسقلان ، نقل العادل مقر قيادته إلى يبنه على الطريق الساحلى ، على مسافة ثلاثة عشر ميلا إلى الجنوب من يافا ، وبها استقبل همفرى صاحب تبنين ، وتحدث معه فى أمر الصلح ، والراجح أن

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٨ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩١ – ١٩٢ .
Norgate : op. cit. p. 190.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧٩ – ١٨١ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٢ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٦ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨١ .
Runciman : op. cit. III. p. 58.

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٠ .
Grousset : op. cit. III. p. 72.

الصليبيين أرادوا بهذه المحاولة أن يقفوا على خطط الجيوش الإسلامية وتحركاتها ، كما أن العادل حرص على أن يطيل أمد المفاوضات حتى يصرفهم عن أمر عسقلان حتى يكتمل تخريبها[١] . والواقع أن الصليبيين لم يتعجلوا المسير من يافا ، لأنهم أخلدوا بها إلى الراحة والدعة ، لما توافر بها من الخيرات من الفاكهة والمؤن ، ولما انتقل إليها من أسباب اللهو والفجور ، وعاد كثير من العساكر إلى عكا ، وتحتم على رتشرد أن يتوجه إلى عكا لإعادتهم[٢] .

الواضح أن رتشرد عند خروجه من عكا صار يفكر فيما تلى من مراحل الحملة ، فعرض له احتمالات عديدة ، أظهرها وأبرزها هو المضى إلى بيت المقدس ، بعد إقامة قاعدة فى يافا . غير أن رتشرد أدرك سلامة الخطة التى اتبعها ، بالتزام الطريق الساحلى ، والاستيلاء على عسقلان . فعلى الرغم من أنه كان بوسعه أن يتوجه بجيشه إلى بيت المقدس ويحصرها ، فالراجح أنه لم يتوافر له من الرجال ما يكفى للمحافظة على سلامة خط التموين ، فإذا انقطعت طرق اتصاله ، تعذر عليه إنقاذ جيشه ، حتى لو تم له الاستيلاء على بيت المقدس[٣] . ومع ذلك فإن دوق برجنديا والجيش الفرنسى أصروا على أن أقصر طريق لبلوغ هدف الصليبيين هو الطريق الممتد من المنزلة التى يرابطون فيها ، وهى يافا ، ولذا ينبغى عمارة يافا واتخاذها قاعدة للزحف على بيت المقدس[٤] ، وتأمين الطريق الممتد بين يافا وبيت المقدس بشحن القلاع القائمة عليه بالعساكر ، فضلا عن إقامة

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٠ .

Norgate : op. cit. p. 191.

(٢) Runciman : op. cit. III. p. 58. Norgate : op. cit. p. 191

(٣) Painter : op. cit. p. 76.

(٤) Norgate : op. cit. p. 191.

حامية عسكرية فى بيت المقدس على أنه إذا بلغ الصليبيون بيت المقدس ، فالراجح أنهم سوف يبادرون إلى زيارة مشاهد بيت المقدس ، ويعودون إلى بلادهم ، على حين تتكفل قوات المملكة بالمحافظة على البلاد التى تفتحها الحملة ، غير أنه لم يكن فى الواقع بالمملكة من القوات ما يكفى لتحقيق هذا الغرض[١]، فإذا لم يدرك رتشرد هذه الحقيقة من تلقاء نفسه ، فمن المحقق أنه خضع لرأى القائلين بها ، حتى يتجنب وقوع الشقاق بين فئات الجيش[٢] .

على أن صلاح الدين لم يكد يفرغ من تخريب عسقلان ، حتى سار إلى يبنه ، مقر قيادة العادل ، ثم مضى إلى الرملة ، فأمر بخراب قلعتها ، وتدمير كنيسة اللد ، على الطريق الممتد إلى بيت المقدس ، وذلك فى أواخر سبتمبر ١١٩١[٣] . ثم توجه صلاح الدين ليتفقد أحوال القدس ، فى عمارته ومؤنه وحاميته ، واكتشف جماعة من المسيحيين السوريين ، يحملون كتبا بعث بها والى القدس إلى صلاح الدين يذكر فيها حاجة البلد إلى المؤن والمدد ، وقد انتزعوها من رجال والى القدس ، وأدرك أنهم سوف يطلعون رتشرد على هذه الكتب ، فيسهمون بذلك فى إعادة القدس إلى الصليبيين ، فأمر بقتلهم ، فى ٢٨ سبتمبر ١١٩١[٤]، ولا زال صلاح الدين يتفقد وسائل الدفاع عن بيت المقدس ويأمر بإصلاح ما خرب منها[٥] ،

---

(١) Painter : op. cit. p. 76

(٢) Norgate : op. cit. p. 191-192.

Painter : op. cit. p. 76.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٢ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٧٠ – ٣٧١ .

Grousset : op. cit. III. p. 72-73

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٢ .

Grousset : op. cit. III. p. 73.

(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٢ .

وعاد إلى المعسكر الإسلامى فى ٢ اكتوبر ١١٩١ ، ولم يجر بين المسلمين والصليبيين وقتذاك ، إلا مناوشات نشبت بين كشافة العادل وجماعات الصليبيين التى تخرج لجمع الحشائش[١] ؛ « فيسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم »[٢] ، وارتحل السلطان إلى النطرون ، فأمر بهدم ما تبقى من أسوار حصنه ، وكان من أملاك الداوية[٣] .

متاعب رتشرد :

غير أن ما حدث من تخلى رتشرد عن كل محاولة ترمى للمحافظة على البلاد ، وتوقف نشاط المسيحيين العسكرى ، أفصح عنه رتشرد فى كتابه إلى أسقف كليرفو Clairvaux ، إذ شرح فيه الأحوال السائدة فى البلاد ، وما يترتب عليها من النتائج . فما استولى عليه من أجزاء من البلاد وشدة الحرارة ، حمله على أن يعانى الإعياء والحرارة وينفق الأموال ، ويستنفد قوته وصحته ، فلم يعد بوسعه أن يبقى بالشام إلى ما بعد عيد القيامة . أما سائر القادة الغربيين فإنهم سوف يعودون إلى بلادهم ، ما لم يصلهم من الأمداد

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٣ .

تعرض رتشرد أثناء هذه المناوشات للاغتيال ، لولا أن حال بينه وبين الفارس المسلم ، فارس صليبى وهو وليم برو William de Preaux هتف باللغة العربية أنه الملك ، فأسره المسلمون .

انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٣ .

Lane Poole : op. cit. p. 325

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٣ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٧ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٣ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٧١ .

Stevenson : op. cit. p. 277.

والأموال والمؤن ما يشجعهم على البقاء ، فالتمس من رئيس الدير أن يستنهض همم الأمراء والناس[١] .

وزاد فى متاعب رتشرد ما لمسه من تداعى الروح المعنوية فى الجيش ، إذ أن السفن الصليبية ظلت أسابيع تتردد بين عكا ويافا ، تنقل من عكا أشخاصاً غير مرغوب فيهم ، وتعود بجماعات يسعون إلى التماس المتعة ، فتضاءل بذلك عدد الجيش الصليبى[٢] . وتقرر فى أواخر سبتمبر نقل المعسكر إلى جهة تبعد قليلا عن يافا[٣] .

وأثار قلق رتشرد أيضا ما كان يحدث من الأمور فى عكا والجهات التى تقع إلى الشمال منها ، فلا زال حزب كنراد شديد البأس ؛ وساد الاضطراب فى قبرس ، واندلعت بها الثورات ، فرأى رتشرد أن خير ما يزيل قلقه هو أن يبيع قبرس للداوية[٤] ، وخشى رتشرد أيضا ما سوف يفعله فيليب بعد عودته إلى فرنسا[٥] .

المفاوضات بين صلاح الدين والصليبيين :

أتم رتشرد تحصين يافا وبعض القلاع المجاورة لها ، ولم يستطع أن يحمل سائر العساكر على أن يساندوه ، حتى فى هذا العمل : والمعروف أنه ارتحل إلى عكا ليحث الصليبيين بها على أن يلحقوا به ، وارتحل من عكا إلى يافا ، برنجاريا وجوانا[٦] . على أن أكثر ما اهتم به رتشرد وقتذاك ، هو

---

(١) Norgate : op. cit. p. 194.

(٢) Norgate : op. cit. 194.

(٣) Norgate : op. cit. p. 194.

(٤) Runciman : op. cit. III. p. 58.

(٥) Runciman : op. cit. III. p. 58.

(٦) Painter : op. cit. p. 77.

إجراء المفاوضات مع المسلمين ، لما قد يترتب عليها من إضعاف النشاط الحربى عند الجانبين . وتولى العادل المفاوضة ، بالنيابة عن صلاح الدين ، وإذ سبق أن التقى بالملك الإنجليزى بناء على طلبه ، أثناء المسير من عكا إلى يافا ، وذلك فى ٥ سبتمبر ، ولما تقرر وقف الزحف اللاتينى عند يافا ، شرع رتشرد من جديد ، فى ١٢ سبتمبر ، فى المفاوضات مع صلاح الدين . ولاشك أنه أراد أن يغادر فلسطين فى الربيع التالى ، وتجدد الأمل عنده بقبول صلاح الدين الصلح معه ، دون الالتجاء إلى مواصلة الحرب . ومن الجلى أن ما سبق الإشارة إليه من الأسباب[١] ، فضلا عن التجارب التى تعرض لها أثناء السير صوب الجنوب ، وإدراكه أهمية ما أنفقه من زمن طويل فى حصار عكا ، والانقسام الذى أضعف من حيوية الجيش وقوته ، كل ذلك حمله على المبادرة إلى المفاوضة . على أن ما ارتضاه رتشرد من شروط لهذه المفاوضات ، شملت أول الأمر استعادة كل ما فتحه صلاح الدين من البلاد ، غير أن العادل حرص على أن تطول المفاوضات لكسب الوقت ، فالمفاوضات تعتبر عاملا من عوامل الدفاع عند المسلمين ، وبفضلها تأجل هجوم الصليبيين على بيت المقدس ، وزاد فى تهيئة الفرص للانقسام بين الصليبيين[٢] . وعلى الرغم من أن رتشرد لم يفهم أساليب الدبلوماسية فى الشرق ، فإنه أظهر شغفا زائداً بالعادل ، والتمس صداقته ، فظلت المقابلات والرسائل متبادلة بينهما حتى ٨ أكتوبر ، ولم تنقطع إلا حينما توجه رتشرد إلى عكا لإعادة الجند إلى يافا[٣] ؛ ومع أن صلاح الدين كان أول الأمر يميل إلى الاستجابة إلى طلب الصليبيين بالحصول على جميع البلاد الساحلية ،

---

(١) انظر ما سبق ص ٩٧٠ – ٩٧١ .

(٢) Stevenson : op cit. p. 277-278

(٣) Stevenson : op. cit. p. 278.

لما رأى » فى أنفس الناس من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة ، وكثرة ما علاهم من الديون «[١] ، فإن العادل الذى برع فى الدبلوماسية حرص على أن يطيل المفاوضات حتى يتم تدمير عسقلان[٢] .

وبينما تجرى الأمور على هذا النحو ، طرأ من العوامل ما عقّد المفاوضات وجعلها لصالح المسلمين ، ذلك أن كنراد منتفرات أنفذ فى ٣ أكتوبر رسالة إلى صلاح الدين ، يذكر فيها أنه يصالح المسلمين بشرط أن يعطى صيدا وبيروت ، على « أن يجاهر الفرنج بالعداوة ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم «[٣] ، واشترط أن يبذل للسلطان اليمين على ذلك . وكان صلاح الدين يميل إلى إجابة ملتمسه ، حتى يعزله عن الصليبيين ، لأنه كان على حد قول ابن شداد ، « خبيثا ملعونا » ، غير أنه اشترط عليه أن يبادر بمهاجمة عكا والاستيلاء عليها وإطلاق من بها وبصور من الأسرى ، قبل أن يتسلم الموضعين[٤] . وكان رسول كنراد إلى صلاح الدين ، رينالد صاحب صيدا الذى غفر له صلاح الدين ما أظهره من المكر والدهاء أثناء حصار حصن شقيف أرنون[٥] .

وإذ وقف رتشرد على ما حدث من محاولة كنراد عقد محالفة مع المسلمين ، بادر ، عقب عودته من عكا إلى يافا ، إلى تجديد الاتصال مع العادل ، بأن أرسل إليه هدية فى ١٧ أكتوبر ، ولم يلبث أن طلب

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٠ .

(٢) Lane Poole : Saladin p. 327

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٣ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٣ .

(٥) Norgate : op. cit. p. 194-195.
Runciman : op. cit. III. p. 59.
Stevenson : op. cit. p. 277-278.

رتشرد إلى العادل استئناف المفاوضات ، فدعا إلى إرسال مبعوث من قبله ، ليلتقى به فى يازور ، على مسافة أربعة أميال من يافا ، على الطريق إلى الرملة ، ليبذل له اقتراحات الصلح[1] . فأرسل شروط الصلح إلى العادل ، الذى بلغ من تقديره له ، أنه أشار له على أنه أخوه وصديقه ، وأنه لن يرجع عن الكلام الذى تحدث به إليه ، فأنفذ العادل نسخة من هذه المقترحات إلى صلاح الدين . وتضمنت هذه المقترحات الأسباب التى أدت إلى ضرورة عقد الصلح ، ومنها « أن المسلمين والإفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وخرجت الحرب من يد الفريقين وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب وحدود البلاد »[2] . فطلب إلى السلطان أن يرد إليه مملكة بيت المقدس ، بحدودها سنة ١١٨٥ ، أى عند وفاة بلدوين الرابع ، بأن يعود إليهم ما يمتد من الأردن حتى ساحل البحر المتوسط ، وأن يرجع إليهم صليب الصلبوت لما له من أهمية عظيمة عندهم ، فرفض السلطان الاستجابة إلى هذه الطلبات ، لأن البلاد كانت فى « الأصل لنا ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها ، لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الوقت ، أما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام »[3] .

على أن رتشرد تقدم فى ٢٠ أكتوبر ١١٩١ بحل آخر ، إذ أراد أن يتزوج العادل بجوانا ملكة صقلية وأخت رتشرد ، وأن يشتركا معا

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٧ .

Norgate : op. cit. p. 196.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٦ .

Norgate : op. cit. p. 197.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٧ .

Norgate : op. cit. p. 197. Grousset : op. cit. III. p. 83

فى حكم البلاد ، فيكون مستقر حكمها بالقدس ، ويعطيها أخوها بلاد الساحل ، من عكا إلى يافا وعسقلان (التى اعتبرها من فتوحه) ، وأن يصير العادل ملك الساحل ، بما حازه إقطاعا من صلاح الدين من البلاد ، والسهل الساحلى ، وأن يسلم إلى رتشرد صليب الصلبوت ؛ وتكون القرى للداوية والاسبتار ، والحصون لهما ، ويجرى إطلاق سراح الأسرى ، فإذا تم الصلح على هذه الصورة ، يرتحل رتشرد إلى بلاده[1] ؛ وقام المؤرخ ابن شداد بحمل هذه المقترحات إلى صلاح الدين بناء على طلب العادل ، وتولى شرحها للسلطان ، فبادر صلاح الدين إلى الرضا بهذه القاعدة ، « معتقدا أن الانكتار (رتشرد) لا يوافق على ذلك أصلا ، فإن هذه منه مكر وهزل »[2] . ولم تلبث الحقيقة أن انكشفت ، حينما رد رتشرد على رسول صلاح الدين والعادل ، بأن أخته جوانا رفضت هذا الإجراء ، مالم يعتنق العادل المسيحية[3] . وعلى الرغم من الألفة والمودة التى انعقدت بين العادل ورتشرد ، ومن تكرار اجتماعهما ، وشهود رتشرد لحفلة غنائية أقامها العادل ، فالواضح أن كل ذلك كان خديعة ومكراً[4] ، يقصد من ورائه أن يتهيأ له من الزمن ما يكفى لاستعداد جيشه للمضى فى الزحف ، ففى ٢٧ أكتوبر ، تلقى صلاح الدين من الأخبار ، ما يشير إلى عزم الصليبيين على الخروج من يافا ومهاجمة المعسكر الإسلامى[5] .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ١٨٧ – ١٨٨ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٨ – ١٨٩ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٩ .

Norgate : op. cit. p. 197

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٤٧ – ٤٨ .

(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٠ – ١٩١ .

Norgate : op. cit. p. 199

ولما اكتمل استعداد الجيش الصليبي وجاءته الأمداد من عكا ، خرج من يافا فى ٣١ أكتوبر ، قاصدا المنزلة الأولى ، على الطريق إلى بيت المقدس ، فتحرك إلى يازور على مسافة بضعة أميال ، إلى الجنوب الشرقى من يافا[1] ؛ وتقرر عمارة أسوار حصنين ، وهما قلعة بلانس (القلنسوة) Cactel des Plaines ، التى عهد بحراستها إلى الداوية ، وقلعة أخرى (Castellum Medianum) عند قرية بيت دجنة الحالية ، بين يازوروولد[2] . وظل الجيش الصليبي مرابطا بين الموضعين نحو أسبوعين ، جرى أثناءهما عمارة الحصنين ، ووقعت مناوشات بين الجانبين الإسلامى والصليبى ، اشترك فيها رتشرد والداوية وجماعة من أشهر فرسان الصليبيين ، غير أن هذه المناوشات لم تغير فى الأوضاع القائمة ، ولم تحل دون مضى الصليبيين فى سيرهم نحو بيت المقدس ، غير أنها زادت فى إقناع رتشرد بأن الجيش الإسلامى لازال سليما قويا ، وأن الإقدام على حصار بيت المقدس يعتبر مغامرة بالغة الخطورة[3] .

وسار رتشرد من يازور ، فبلغ الرملة ، ثم توجه إلى لد ، وهما من أهم المواضع على الطريق إلى بيت المقدس ، وأقام الصليبيون معسكرهم فى السهل الواقع بينهما ، ينتظرون وصول الأمداد والمؤن ، والمعروف أن صلاح الدين خرب الرملة ولد ، فتحتم على الصليبيين أن يبقوا فى

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩١ .

Grousset : op. cit. III. p. 76

(٢) Grousset : op. cit. III. p. 76.

Norgate : op. cit. p. 198. Painter : op. cit. p. 77.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٣ — ١٩٤ .

Painter ; op. cit. p. 78. Norgate : op. cit. p. 198-199

Grousset : op. cit. III. p. 76.

Conder : The Latin Kingdom of Jerusalem p. 280

مواضعهم في الفترة الواقعة بين ١٥ نوفمبر ، ٩ ديسمبر ١١٩١[١] . أما صلاح الدين فإنه توجه إلى النطرون ، في منتصف الطريق إلى بيت المقدس . ثم غادرها بعد تخريبها إلى بيت المقدس ، بعد أن رأى أن الشتاء قد هجم ، والأمطار متوالية متتابعة ، واشتد الضنك بالناس ، من شدة البرد ولبس السلاح والسهر الدائم ؛ وكان كثير من العساكر قد طال بقاؤهم في القتال ، فأذن لهم في العودة إلى بلادهم « للاستراحة والإراحة »[٢] . وتكفل بالدفاع رجال العصابات الذين رابطوا على التلال ، فضلا عن أهمية المناخ وتضاريس البلاد في عرقلة حركات الصليبيين[٣] . واقتفى رتشرد أثر الجيش الإسلامي ، فاحتل النطرون وبيت نوبة على مسافة ١١ ميل إلى الجنوب الشرقي من لد[٤] ، حيث أمضى عيد الميلاد ١١٩١ .

وفي أثناء مسير رتشرد إلى بيت المقدس ، تجددت المفاوضات بينه وبين صلاح الدين ، فيما يتعلق بزواج العادل من أخته جوانا ، إذ أن رتشرد طلب الاجتماع بالعادل ، في ٩ نوفمبر ١١٩١ ، فتوجه إلى مقر العادل ، مع طلائع الجيش (اليزك) ، حيث أمر العادل بإقامة خيمة كبيرة ، واحتفل به ، فدار بينهما الحديث معظم النهار ، وافترقا على « تواد ومحبة أكيدة »[٥] . وتكرر طلب رتشرد من العادل ، بأن يدبر

---

(١) Grousset : op. cit. II. p. 76.
Norgate : op. cit. p. 200

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٨ .

(٣) Norgate : op. cit. p. 201

(٤) Grousset : op. cit. III. p. 77.
Norgate : op. cit. p. 203-204.

(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٥ .
Grousset : op. cit. III. p. 85. Norgate : op. cit. 199

له أمر الاجتماع بصلاح الدين ، غير أنه رفض ، لأنه متى اجتمع الملوك لأمر من الأمور ، فينبغي ألا تجرى بعد اجتماعهم خصومة ، ولذا ينبغى تسوية كل المشاكل قبل الاجتماع ، وعند ذلك « يكون الاجتماع الذى يعقبه الوداد والمحبة »[1] .

والواضح أن رتشرد أراد أن يطيل أمد المفاوضات ، وحرص على ألا تنقطع ، وأن يحول دون قيام تحالف بين كنراد وصلاح الدين ، لما انطوى عليه فى نظره ، من خطورة على موقف الصليبيين ، ولذا صار يعدل فى مقترحاته ، ويقتصد فى طلباته ، فكان آخر الرسائل منه إلى صلاح الدين . تشير إلى أنه لا بد من موافقة البابا ، « وهو كبير دين النصرانية ومقدمه » ، وسوف يبعث إليه رسولا يعود فى ستة أشهر ، فإن أقر الزواج ، كان بها وإلا فإنه يزوجه من ابنة أخيه ، دون حاجة إلى إذن البابا ، نظرا لما جرى وقتذاك من ضرورة موافقة البابا على تزويج الثيب « من بنات الملوك ، أما الأبكار فيزوجها أهلها » . وتولى نقل هذه المقترحات إلى صلاح الدين ابن همفرى صاحب تبنين لدرايته باللغة العربية[2] .

والواقع أن صلاح الدين أراد أن يفيد من النزاع بين الزعماء الصليبيين لصالحه . فالمعروف أن كنراد مونتفرات أصر منذ أن تزوج من الملكة إيزابيل ، على أن يحظى بتاج بيت المقدس ، ولقى التأييد من بارونات المملكة الذين لم يغفروا لجاى لوزيجنان ، ما حل بهم من هزيمة ساحقة حطين ، وما تلاها من ضياع بيت المقدس . ومن أشهر أنصار كنراد ،

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٥ .

Norgate : op. cit. p. 199

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٧ - ١٩٨ .

Conder : op. cit. p. 281.

باليان الثانى صاحب يبنه ، الزوج الثانى لملكة بيت المقدس مارى كومنين ، وزعيم الأسرة المشهورة التى اتخذت يبنه إقطاعا لها ، ورينالد صاحب صيدا الذى بفضل درايته باللغة العربية وآدابها استطاع فى ١١٨٩ ، أن يماطل فى تسليم حصن شقيف أرنون ، ومع ذلك لا زال يرتبط بعلاقة ودية مع صلاح الدين ، لكثرة اتصاله بالوسط الإسلامى[١] .

على أن كنراد لم يحظ بصداقة رتشرد الذى توثقت علاقته بجاى لوزيجنان ، لاعتبارات سياسية تتعلق بأملاكه فى اكيتانيا . ولذا انسحب كنراد إلى صور حيث قطع صلته بالملك رتشرد ، وشجعه على ذلك ما لقيه من تأييد من الفرنسيين[٢] .

وبينما دارت المفاوضات بين رتشرد والعادل ، وقد تولى أمرها ، همفرى صاحب تبنين ، حرص كنراد على أن يجرى مفاوضات مع صلاح الدين كيما يجعل الصلح لمصلحته ، فاختار رينالد صاحب صيدا ليقوم بمفاوضة صلاح الدين ، ويشير ابن شداد إلى أنه وصل إلى معسكر السلطان فى مستهل نوفمبر ١١٩١ ، صاحب صيدا من قبل المركيس صاحب صور ، الذى انقطعت صلته بالإفرنج وكان فى ذلك مصلحة للمسلمين ، إذ كان أشدهم بأساً وأعظمهم للحرب مراساً ، وأثبتهم فى التدبير أساساً[٣] . وكان ابن شداد أول من استقبل رينالد صاحب صيدا ، ولما علم صلاح الدين بوصول هذا الرسول ، أمر بإجلاله واحترامه « فضربت له خيمة ، وضرب حولها شقة ، ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم »[٤] .

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 87

(٢) Grousset : op. cit. III. p. 87.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٣ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٣ .

Grousset : op. cit. III. p. 88

وفى ٩ نوفمبر ١١٩١ ، شهد ابن شداد اجتماع رينالد صاحب صيدا بصلاح الدين . فأكرم صلاح الدين وفادته هو ومن جاء معه ؛ وطلب كنراد مقابل صداقته لصلاح الدين ، وعداوته للصليبيين ، أن يرد له السلطان بيروت وصيدا وشطرا من مملكة بيت المقدس[1] .

وفى تلك الأثناء كان رتشرد يعرض الصلح على أساس قيام حكم ثنائى فى فلسطين ، من الأيوبيين والصليبيين ، بزواج أخته جوانا من العادل أخى صلاح الدين . وكان صلاح الدين يميل إلى اتخاذ جانب كنراد ، الذى قبل أن يعلن عداوته الصريحة لرتشرد ، غير أنه لم يلبث أن واصل المفاوضة مع ملك إنجلترا ، لأن « مصافاة الإفرنج بالشام غير مأمونة »[2] . وكلما شهد الصليبيون ، صاحب صيدا يركب مع العادل ، « تحركوا لطلب الصلح خوفا من أن ينضاف المركيس (كنراد) إلى المسلمين ، وعند ذلك تنكسر شوكتهم »[3] .

وشرع صلاح الدين فى تحصين بيت المقدس وعمارة أسوارها ، وحفر خنادقها ، وأرسل إلى البلاد فى جمع رجال يقومون بهذه الأعمال ، واشترك فيها صلاح الدين وأولاده وأجناده وأمراؤه ، فضلا عن العلماء والفقهاء

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 88.

وما عرضه كنراد أول الأمر حسبما ورد عند ابن شداد : أن يصالح الإسلام بشرط أن يعطى صيدا وبيروت ، على أن يجاهر الإفرنج بالعداوة ، وينتزع منهم عكا . ثم تقرر آخر الأمر فى ٩ نوفمبر أن تكون لصلاح الدين من القرى الساحلية مواضع معينة ، والجبليات بأسرها ، أو تكون القرى كلها مناصفة وعلى هذين القسمين ، ويكون لهم قسوس فى بيع القدس الشريف وكنائسه .

انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٣ ، ١٩٧ .

(٢) Grousset : op. cit. III. p. 88.

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٧ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٨ .

Lane Poole : Saladin. p. 331.

والقضاة[١] . فكان صلاح الدين يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه ، فيستن الأكابر والأمراء فى نقل الحجارة بنهجه[٢] .

رابط رتشرد فى بيت النوبة التى لا تبعد عن بيت المقدس سوى ١٢ ميل ، واشتد سرور الصليبين ، وزادت غبطتهم ، لما راودهم من الأمل فى بلوغ القبر المقدس[٣] . فهما يكن من متاعب المعسكر الذى قام على مرتفع ؛ تراكمت عليه الأوحال وهبت عليه ريح عاتية ، وبرغم ما أفسدته ودمرته الأمطار من مستودعات السميذ ولحم الخنزير ، غذاء الجيش الصليبى الأساسى ، وما هلك من الخيول ، وما عاناه الجند من الإرهاق والبرد ، كان كل ذلك مقبولا عندهم ، إذا تحقق هدفهم وبلغوا بيت المقدس . غير أن الفرسان الذين خبروا البلاد ، من الاسبتارية والداوية والبارونات المحليين ، اتخذوا قراراً بالغ الحكمة ، على الرغم من شدة وقعه على القوات الصليبية . إذ أنذروا رتشرد بما يتعرض له من خطر ، إذا مضى لمهاجمة بيت المقدس ، بأنه سوف يقع بين القوات الإسلامية فى داخل المدينة وخارجها . وأشاروا إلى أنه ليست القوات المسيحية المحلية من وفرة العدد ما يكفى للمحافظة على بيت المقدس ، إذا تم فتحها وعاد الصليبيون إلى بلادهم[٤] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٧٥ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٤ – ١٩٦ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٨ .

(٣) Lane Poole : op. cit. p. 332.
Norgate : op. cit. p. 205.

(٤) Runciman : op. cit. p. III. 61-62.
Norgate : op. cit. p. 205-206.
Lane poole : Saladin p. 332-334.
Grousset : op. cit. III. p. 77-79.

وهذا الوضع يشبه ما تعرض له الصليبيون من الأخطار أمام عكا ، غير أن ما يزيد فى خطورة وضعهم الحالى ، بعدهم عن البحر ، والافتقار إلى حماية الأساطيل الإيطالية ، وتعرض قوافلهم وأمدادهم لهجمات البدو ، يضاف إلى ذلك قدوم الأمداد من مصر ، حوالى ذلك الوقت ، ديسمبر سنة ١١٩١[١] .

ووقع الاختلاف بين الصليبيين وبين اللاتين المستوطنين ، أى بين الروح الصليبية التى يمثلها جيش رتشرد ، وبين روح الاستعمار والاستغلال التى تتمثل فى اللاتين ، والتى يتعذر تحقيقها ، بعد أن خرب صلاح الدين البلاد التى تقع فى طريقهم ، ولإعادة تعميرها لا بد من أن يحل جيش ضخم من الصـــليبيين وليس رتشرد مستعداً لذلك . والواقع أن مملكة بيت المقدس أضحت قاصرة على عكا والجهات الساحلية بسبب احتمائها بالأساطيل الإيطالية[٢] .

وهذه الروح الاستعمارية ، عبر عنها صلاح الدين بما أورده ابن شداد عن المفاوضات بين الجانبين الإسلامى والصليبى ، « من أن البلاد هى لنا فى الأصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها ، لضـــعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الوقت ، وما يقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً ، وما فى أيدينا منها نأكل بحمد الله مُغُله وننتفع به »[٣] . والواضح أن المقصود بهذه العبارة أن الصليبيين الأوائل لم ينجحوا فى أواخر القرن الحادى عشر إلا بسبب ما ساد العالم الإسلامى وقتذاك من فرقة دينية ، ومنازعات سياسية ، وفوضى إدارية . ولو أن الحملة الأولى تأخرت عن موعدها سنوات ، حين نهض الزنكيون ، لما حظيت هذه الحملة بما نالته

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 79.

(٢) Grousset : op. cit. III. p. 80.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٨٧ .

من نجاح . وأضحى مستحيلا على الصليبيين ، زمن صلاح الدين ، أن ينفذوا إلى الداخل ، ولن يتجاوزوا الساحل(١) .

انعقد فى النطرون مجلس الحرب فى يناير ١١٩٢ ، حضره القادة الغربيون ، وأخذوا يناقشون الموقف الحربى ، بعيداً عن الجيش المرابط فى بيت النوبة ، وطلبوا النصيحة من الفرنج الشاميين ، فبادر الداوية والاسبتارية ببذل النصيحة التى تقضى بالرجوع ، والتوجه إلى عسقلان وإعادة عمارتها ، حتى تصير للصليبيين السيطرة على ما يرد من المؤن من مصر إلى بيت المقدس ويتيسر لهم الاتصال بالأسطول(٢) . ولما وقف رتشرد على موقع بيت المقدس ومعالم ما يجاوره من الجهات ، أشار إلى أن « هذه مدينة لا يمكن حصرها طالما كان صلاح الدين حياً ، وكلمة المسلمين مجتمعة »(٣) .

ولم يسع رتشرد إلا أن يأمر الجيش قبل منتصف يناير ١١٩٢ بالارتداد إلى الرملة(٤) . فتراجع الصليبيون ، وقد اشتد بهم الأسى لأنهم لم يحققوا هدفهم ، فانسحب من صفوف الجيش كثير من الفرنسيين(٥) . ووقع الشقاق بين الفرنسيين ، فبينما توجه دوق برجنديا ومعظم أتباعه إلى يافا ، وعكا وصور ، سار هنرى كونت شامبانيا فى صحبة خاله رتشرد إلى عسقلان ، التى بلغها فى ٢٠ يناير ١١٩٢ . فالتمس الصليبيون فى خرائبها ملجأ لهم(٦) .

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 80.

(٢) Norgate : op. cit. p. 206. Painter : op. cit. p. 78.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٤٦ .

(٤) Norgate : op. cit. p. 206.
Grousset : op. cit. III. p. 80-81.

(٥) Norgate : op. cit. p. 207 Stevenson : op. cit. p. 280.
Runciman : op. cit III p. 61-62.
Grousset : op. cit. III. p. 82. Lane Poole : Saladin. p. 334.

(٦) Painter : op. cit. p. 78. Stevenson : op. cit. p. 281.
Runciman : op. cit. III. p. 62. Norgate : op. cit. p. 208.

وأدرك رتشرد ما لعسقلان من أهمية استراتيجية ، فشرع فى عمارة استحكاماتها ، وتحتم على الجيش الصليبى أن يبقى بها حتى يونيه ١١٩٢ . وقام بالجانب الأكبر من عمارتها قوات رتشرد وهنرى كونت شامبانيا ؛ فدأبت على العمل ، على الرغم من المتاعب التى صادفتها ، ومنها قسوة المناخ من حيث شدة البرودة والعواصف العنيفة ، ولم يكن لعسقلان مرفأ صالح لرسو السفن ، فلم يهبط إلى الأرض إلا قليل من المؤن(١) . وأرسل رتشرد فى فبراير ، إلى دوق برجنديا وأتباعه ، يطلب إليهم القدوم ليسهموا فى تحصين عسقلان ، فاستجابوا له بشرط أن يأذن لهم بالعودة عقب عيد القيامة (ابريل) وأن يكفل لهم الأمن حتى يبلغوا عكا أو صور(٢) .

ولم تكن عمارة عسقلان أمراً سهلا ، نظراً لما لحق بها من التخريب الشامل ، بتدمير أسوارها وأبراجها الضخمة التى لم تقل عن ٥٣ برجاً ، ولتضاؤل المال الذى يستأجرون به العمال ، تحتم على الفرسان والأجناد والغلمان وسائر رجال الحملة أن يشتركوا فى العمل تحت إشراف رتشرد ، بل إنه أسهم فى ذلك بنفسه(٣) .

على أن كنراد مونتفرات رفض ما وجهه إليه رتشرد من دعوة للقدوم بعساكره للاشتراك فى عمارة عسقلان ، مقابل ما يحوزته من إقطاعات من مملكة بيت المقدس(٤) .

---

(١) Norgate : op. cit. p. 208-209. Runciman : op. cit. III. p. 62.

(٢) لم يلبث دوق برجنديا أن تشاجر مع رتشرد ، لأنه لم يمده بالمال ، فعاد إلى عكا ، قبل آخر فبراير ، بينما بقى جماعة من البارونات الفرنسيين إلى عيد القيامة .

انظر Norgate : pp. cit. p. 209. Painter : op. cit. p. 79.

(٣) Norgate : op. cit. p. 209.

(٤) Painter : op. cit. p. 79. Norgate : op. cit. p. 210.

وفى أثناء مقام الجيش الصليبي بعسقلان ، اقتصر نشاط الصليبيين الحربى على مهاجمة خطوط مواصلات صلاح الدين إلى مصر ، إذ قاد رتشرد فى ربيع ١١٩٢ جماعة من العساكر إلى الدارون ، فالتقى بقافلة تضم عدداً كبيراً من الأسرى الصليبيين ، قاصدة مصر ، واستطاع أن يطلق سراحهم(١) .

على أن السر فى ركود الصليبيين فى الفترة الواقعة بين عمارة عسقلان والاستيلاء على الدارون ، يرجع إلى ما حدث من منازعات داخلية ، إذ تجدد النزاع على الحكم ، ونشب القتال فى عكا ، بين أنصار كل من جاى لوزيجنان وكنراد(٢) . فاشترك فى هذا النزاع البيازنة والجنويون ، إذ ساند البيازنة جاى لوزيجنان ، بينما اتخذ الجنويون جانب كنراد ، وكان لكلا الجانبين فى عكا كثير من السفن والرجال(٣). ففى فبراير ١١٩٢ حاول الجنويون فى عكا أن ينتزعوها ويسلموها لكنراد ، ونهض دوق برجنديا الذى قدم إلى عكا بعد شجاره مع رتشرد ، لمساندة الجنويين ، غير أن البيازنة أشهروا السلاح فى وجه دوق برجنديا ، وبادروا إلى إغلاق ميناء عكا ، وأجبروا الدوق على الانسحاب إلى صور ، فقدم كنراد لمساعدة الجنويين ، ونازل عكا ثلاثة أيام . غير أن البيازنة استنجدوا برتشرد ، فأسرع لنصرتهم ، فلم يسع كنراد إلا الانسحاب إلى صور فى ٢٠ فبراير ، ونجح ريتشرد فى التوفيق بين البيازنة والجنويين(٤) . على أن اجتماع ريتشرد

---

(١) Painter : op. cit. p. 79. Norgate : op. cit. p. 210.

وتعتبر الدارون أول منزلة بالشام يهبط إليها القوافل القادمة من مصر ، وهى المعروفة الآن باسم دير البلح .

Norgate : op. cit. p. 210.
Grousset : op. cit. III. p. 86.

(٢) Stevenson : op. cit. p. 281.

(٣) Runciman : op. cit. III. p. 63.

(٤) Grousset : op. cit. III. p. 89.
Runciman : op, cit. III. p. 63.
Norgate : op. cit. p. 211-212.

بكنراد ، عند الزيب ، جنوب رأس النافورة ، بين عكا وصور ، لحمله على الاشتراك فى الأعمال الحربية ، لم يؤد إلى شىء من النتائج ، بل إن دوق برجنديا حليف كنراد سحب عساكره التى ترابط مع قوات رتشرد فى عسقلان(١) ، ولما طلب إليه رتشرد أن يسدد له ما اقترضه من أموال ، بذل له أشهر من كان بيد كنراد من الأسرى المسلمين . وإذ ساءت الأمور إلى هذا الحد ، وأحس رتشرد بما يتهدد الحملة من الفشل ، قرر بعد تفكير عميق ومشاورة ذوى الرأى من الصليبيين المحليين ، بأن المركيس كنراد فقد ماله من حقوق بمقتضى تسوية يوليه ١١٩١ ، وتقرر حرمانه من كل ما يحصل عليه من موارد المملكة . وأقام رتشرد فى عكا حتى نهاية شهر مارس ١١٩٢ ، ليرقب حركات كنراد(٢) .

ازداد اقتناع رتشرد بضرورة الصلح مع صلاح الدين ، فشرع فى مفاوضته فى الفترة الأخيرة من مقامه بعكا . فتوجه إلى بيت المقدس رسول إنجليزى ، ستيفن تورنهام Stephen of Turnham ، يلتمس من السلطان ، أن يأذن له بالاجتماع بأخيه العادل ، الذى فوض إليه أمر الصلح(٣) . فطلب

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 89.

(٢) Norgate : op. cit. p. 212. Runciman : op. cit III. p. 63.

(٣) التقى رسول رتشرد ، عند قدومه إلى بيت المقدس ، بمندوبى كنراد ، رينالد صاحب صيدا وباليان أمير يبنه ، اللذين قدما لعقد معاهدة هجومية دفاعية ، والتى تمت فعلا فى أبريل ١١٩٢ ، وليس لشروطها أهمية ، نظراً لما حدث من اغتيال كنراد بعد أيام مضت على إبرامها . وأورد ابن شداد شروط الاتفاق ، ومنها أن يقاتل « المركيس جنسه ويباينهم ؛ ومنها أن ما يأخذه من البلاد الإفرنجية بعد الصلح بانفراده ، يكون له ، وما نأخذه نحن بانفراد يكون لنا . وما نتفق نحن وهو على أخذه ، يكون له نفس البلد ، ويكون لنا ما فيه من أسرى المسلمين ، وغير ذلك من الأموال . ومنها أن يطلق لنا كل أسير مسلم فى مملكته . ومنها إن فوض الانكتار إليه أمر البلاد ، لأمر يجرى بينهم ، كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الانكتار ، ما عدا عسقلان وما بعدها ، فلا يدخل فى الصلح . وتكون الساحليات له وما فى أيدينا لنا ، وما فى الوسط مناصفة » . والواضح أن فى هذه النصوص إشارة إلى ما قام وقتذاك من تفاهم =

صلاح الدين إلى العادل أن يمضى للالتقاء به ، وأن يجتمع أثناء سيره ، بالعساكر التى فى الغور وكوكب ، ويُعدها لاستئناف القتال إذا اقتضى الأمر ذلك ، ثم يستمع إلى ما يعرضه رتشرد من مقترحات ، فإذا لم تكن مقبولة ، لجأ إلى مطاولته ومماطلته ، ريثما تصل العساكر من الأطراف[1] . وحصل العادل من صلاح الدين على تذكرة بالموضوعات التى تتطلب المناقشة مع الجانب الصليبى :

١ ـ اقتسام الأراضى بين الجانبين (المناصفات) .

٢ ـ صليب الصلبوت ، وإعادته إلى الصليبيين .

٣ ـ إقامة قسس بكنيسة القيامة .

٤ ـ السماح للمسيحيين بزيارة كنيسة القيامة بشرط ألا يحملوا السلاح .

٥ ـ وضع بيروت ، إذ أصر رتشرد على طلبها ، بشرط أن يجرى تدميرها[2] .

وهذه الشروط هى أقصى ما فى وسع العادل أن يعرضها ، لتكون أساساً للمفاوضات والصلح ؛ ولم يحمل السلطان على ذلك إلا ما أحل بالناس من التعب والإرهاق بسبب « مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الأوطان ، فإن من الناس من لم يفارق السلطان ، ولم يحصل على دستور منه »[3] .

= بين صلاح الدين ورتشرد .

انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، ٢٠٢ .

Lane Poole : Saladin p. 336.337

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٩ .

Norgate : op. cit. p. 212.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٩ .

Norgate : op. cit. p. 212. Lane Poole : Saladin. p. 337.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٩ .

Norgate : op. cit. p. 213. Lane Poole : Saladin. p. 337.

Runciman : op. cit. III. p. 63.

وارتحل العادل من بيت المقدس في ٢٠ مارس ١١٩٢ للقاء رتشرد . غير أنه لم يكد يصل إلى سهل عكا ، كيسان ، حتى كان رتشرد على أهبة الرحيل إلى عسقلان ، فقام بمفاوضة رتشرد ، الحاجب أبو بكر من قبل العادل ، واختلف الجانبان على مصير بيت المقدس ، فأراد رتشرد أول الأمر أن يستحوذ على القدس ، وتكون قبة الصخرة للمسلمين ، ثم بعد مفاوضات كثيرة ، قبل رتشرد على أن تكون الصخرة والقلعة في أيدى المسلمين ، والباقى مناصفة ، وعاد العادل إلى بيت المقدس بعد أن نجح فى مهمته ، فى أول ابريل ١١٩٢[١] . وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقية لم يتم التصديق عليها وقتذاك ، فإن رتشرد شدّ حزام الفتوة (الفروسية) حول وسط ابن الملك العادل الذى قدم لهـذا الغرض وذلك فى ٢٩ مارس ١١٩٢ ، بعكا[٢] .

وعاد رتشرد إلى عسقلان فى ٣١ مارس وعكف على عمارة استحكاماتها غير أن أخباراً مزعجة عن الأحوال السيئة فى إنجلترا ، بلغته فى ١٥ أبريل ١١٩٢ ، عن طريق روبرت مقدم دير هيرفورد ، الذى حمل رسائل من ممثل رتشرد فى انجلترا وتضمنت ما حدث من التنازع بين رجال الحكومة على الوظائف ، وما جرى من اتصال بين فيليب أغسطس ملك فرنسا ، وجون شقيق رتشرد ، وتشجيعه على اغتصاب السلطة ، يضاف إلى ذلك محاولة فيليب انتزاع نورمنديا ، كل هذه العوامل حتمت على رتشرد ألا يتأخر فى العودة إلى إنجلترا[٣] .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

Norgate : op. cit. p. 213. Stevenson : op. cit. p. 281.
Lane Poole : Saladin : p. 337.

(٢) Norgate : op. cit. p. 213. Lane Poole : op. cit. p. 338.
Stevenson : op. cit. p. 281. Runciman : op. cit. III. p. 63.

(٣) Painter : op. cit. p. 79. Runciman : op. cit. III. p. 63-64.
Stevenson : op. cit. p. 281.

أدرك رتشرد أنه لا بد له من إقامة حكومة قوية فى مملكة بيت المقدس قبل رحيله . وما أجراه فى السنة السابقة ١١٩١ من وفاق بين كنراد وجاى لوزيجنان ، لم يؤد الغرض المنشود ، إذ انصرف كنراد عن تأييد الحملة الصليبية ، واستقر بصور ، وحاول أن يعقد اتفاقاً مع صلاح الدين ، وحظى بمساندة وتأييد كبار بارونات المملكة(١) .

وفى أبريل ١١٩٢ عقد مجلساً شهده البارونات والفرسان بفلسطين ، فأخطرهم بعزمه على العودة إلى بلاده ، وأنه سوف يترك وراءه من القوات ثلثمائة فارس وألفين من الرجالة ، ويتولى الإنفاق عليهم ، وجعل للبارونات الحرية فى أن يختاروا سيداً لهم ، فأخطروه أنه ما لم يعين رجلا مجرباً فى الحروب ، يجمع الجند على التعلق به ، فسوف يغادرون البلاد . فعرض عليهم أن يختاروا واحداً من اثنين ، كنراد أو جاى ، فتوسلوا إليه أن ينصب عليهم كنراد ، لأنه أصلح من يتولى حكم المملكة(٢) . ولم ينكر المؤرخون المسلمون ما اشتهر به كنراد من المكر والدهاء ، فاعتبره ابن الأثير « رجل الفرنج رأياً وشجاعة ، وكل هذه الحروب ، هو الذى أثارها»(٣). ولا شك أن كنراد كان أنشط الأمراء الصليبيين وأكثرهم كفاية ، وفى وسعه فى زعمهم أن يقيم الوحدة بين الفئات المختلفة ، وأن يمضى فى تحقيق أغراض الصليبيين(٤) .

قام هنرى كونت شامبانيا بإخطار كنراد بقرار مجلس البارونات ، فوصل إلى صور فى ٢٠ أبريل ، وتقرر أن يتم التتويج فى عكا فى خلال

---

(١) Painter : op. cit. p. 80. Stevenson : op. cit. p. 281.

(٢) Norgate : op. cit. p. 215. Runciman : op. cit. III. p. 61.
Grousset : op. cit. III. p. 90.

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ٤٦ .

(٤) Norgate : op. cit. p. 216.

أيام قليلة ، ثم يلحق كنراد بالجيش الصليبي فى عسقلان[١] . غير أنه لم تمض إلا أيام قليلة ، حتى لقى كنراد مصرعه فى ٢٨ أبريل ١١٩٢ ، على يد اثنين من الباطنية ، ولعل أكثر الروايات الواردة عن اغتياله ترجيحاً ، تلك التى رددها البارونات المحليون ، والتى تشير إلى أن كنراد استولى على سفينة للباطنية ، تحمل سلعاً قيمة ، ورفض أن يردها لهم ، فانتقموا منه[٢] . وأوصى كنراد قبيل وفاته ، زوجته إيزابيل بألا تسلم صور إلا إلى رتشرد ، أو إلى الشخص الذى يجرى اختياره ملكاً[٣] .

ولم يلبث أن تم اختيار هنرى كونت شامبانيا ملكاً على بيت المقدس ، وفى ٥ مايو ١١٩٢ ، تزوج من إيزابيل ، وأنفذ رسله إلى عكا ويافا لينوبوا عنه فى إدارتها والتصرف فيها ، ثم حشد رجاله للاشتراك مع رتشرد فى الاستيلاء على الدارون[٤] .

تخلى رتشرد عن جاى لوزيجنان بعد أن أدرك كراهية اللاتين بفلسطين له ، على أنه لم يلبث أن صار ملكاً على قبرص ، فى مايو سنة ١١٩٢ ، وذلك بعد أن أعلن الداوية الذين اشتروها من رتشرد ، عجزهم عن إدارتها ، وأظهروا الأسى والأسف لشرائها ، فأذن رتشرد لجاى بشرائها ؛ فوزع إقطاعات بها على السادة الذين فقدوا إقطاعاتهم فى فلسطين بسبب حروب صلاح الدين فأقام بذلك طبقة إقطاعية حاكمة بالجزيرة ؛ ولما مات جاى سنة ١١٩٤ ، خلفه على حكمه أخوه ايمرى ، الذى تلقى من الإمبراطور هنرى السادس لقب ملك قبرص ، وحينما توفى هنرى شامبانيا

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 64

(٢) Painter : op. cit. p. 80-81

Runciman : op. cit. III. p. 64-65 Grousset : op. cit. III. pp. 91-93

(٣) Painter : op. cit. p. 80

(٤) Norgate : op. cit. p. 220.

Runciman : op. cit. III p. 66.

سنة ١١٩٧ ، تزوج إيمرى من إيزابيل ، وبذلك اتخذ لقب ملك بيت المقدس وقبرص[١] .

وعلى الرغم من الرسائل والتقارير التى توالت على رتشرد عن أحوال إنجلترا ، والتى اختلفت فى محتوياتها ، فبعضها يحثه على العودة إلى البلاد ، وبعضها يشير إلى هدوء الأحوال واستقرارها ، وتدعوه إلى المضى فى القتال لاسترداد بيت المقدس ، جعل رتشرد نصب عينيه ضرورة الاستيلاء على الدارون ، التى صارت ، بعد عسقلان القاعدة التى احتشدت بها القوات المصرية والمؤن الواردة من مصر ، اللازمة لإمداد صلاح الدين وسائر الحاميات بالشام . فقرر رتشرد الاستيلاء عليها قبل أن يغادر فلسطين ، وقبل أن تحتشد قوات صلاح الدين[٢] .

لم يضع رتشرد الوقت سُدى ، إذ أن الصيف أوشك على الابتداء ، وانقطع سقوط الأمطار ، ولم تصل فى موعدها جيوش صلاح الدين ، بسبب ما وقع من اضطرابات فى الجهات الشمالية من ممتلكاته[٣] . وإذ علم رتشرد بكل ذلك ، لم ينتظر قدوم هنرى كونت شامبانيا ، فأرسل جماعة من النقابين بطريق البحر للشروع فى نقب الأسوار ، ثم توجه بعساكره من

---

(١) **Painter : op. cit. p. 81-82.**

Runciman : op. cit. III. p. 67.

(٢) **Norgate : op. cit. p. 222.**

(٣) هذه الاضطرابات مصدرها ما حدث عقب وفاة تقى الدين عمر فى أكتوبر ١١٩١ ، من تمرد ناصر الدين محمد بن تقى الدين على صلاح الدين ، واستيلائه على بلاد الجزيرة فضلا عن البلاد التى كانت لأبيه بالشام ، وذلك أثناء انصراف صلاح الدين لقتال الصليبيين ، وتوسط العادل فى تسوية النزاع ، نظراً لشدة الحاجة إلى جمع الشمل ، والمبادرة إلى جهاد الفرنج .

أنظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٥٤ .

ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٠٤ .

Norgate : op. cit p. 224.

Runciman : op. cit. III. p. 67.

الفرسان والمشاة إلى الداروں فى ١٧ مايو ١١٩٢ ، وبعد حصار استمر خمسة أيام ، اقتحم الصليبيون الحصن ، وأعطاه رتشرد إلى هنرى شامبانيا الذى قدم فى ٢٣ مايو ، وبصحبته دوق برجنديا ، وأخذ جيش رتشرد فى الأيام التالية يطوف بالجهات الواقعة خلف عسقلان[١] . على أن رتشرد لم يتعلم شيئاً من دماثة صلاح الدين وفروسيته ، إذ أن جماعة من رجال الحامية لقوا مصرعهم بحد السيف ، وعلّق جماعة أخرى بأسوار المدينة ، بينما أوثق أيدى فئة أخرى ، وكتب عليهم الأسر الدائم[٢] .

على أن رتشرد تلقى فى ٢٩ مايو رسالة من إنجلترا حملها مبعوث خاص ، وتضمنت أخباراً جديدة عن المفاوضات بين أخيه حنا والملك فيليب أغسطس ، وعن الأحـوال فى إنجلترا ونرمنديا . فعقد مجلساً ، شهده قادته ، غير أنه اكتشف رغبتهم الشديدة لمهاجمة بيت المقدس ، وعندئذ قرر البقاء فى فلسطين حتى عيد القيامة ١١٩٣ ، والمبادرة إلى مهاجمة بيت المقدس[٣] .

ارتحل رتشرد بقواته من عسقلان فى ٦ يونيه ، واتخذ الطريق الذى سبق أن سلكه إلى بيت النوبة ، فيكفل بذلك لمؤخرة جيشه الاتصال بقاعدته فى يافا ومنها إلى عكا . فاجتاز فى طريقه تل الصافية ، ثم النطرون التى عسكر بها فى ٩ يونيه ، وبلغ بيت النوبة فى ١١ يونيه[٤] . وأقام الجيش نحو شهر ، ينتظر قدوم هنرى شامبانيا ، الذى توجه إلى عكا ، يلتمس أمداداً جديدة ، ويجمع من تأخر من الجند عن اللحاق بالحملة ، ومن تسحب

(١) Painter : op. cit. p. 82. Norgate : op. cit. p. 224.

(٢) Runciman : op. cit. III. p. 67. Norgate : op. cit. p. 224.

(٣) Runciman : op. cit. III. p. 67. Norgate : op. cit. p. 224.

(٤) Grousset : op. cit. III. p. 99.
Norgate : op. cit. p. 232.

منها[1] ، ووقعت مناوشات وغارات لم تكن بالغة الأهمية . وحدث أن أمعن رتشرد فى مغامرة من مغامراته ، فرأى من فوق التلال التى كان يجوسها ، أسوار بيت المقدس وأبراجها ، فبادر إلى إخفاء وجهه بترسه ، وأخذ يبكى ويتضرع إلى الله ألا يجعله يرى المدينة المقدسة ما لم يستول عليها[2] .

على أن المسلمين ألهبوهم بالنهب والسلب ، وكمنوا لهم تحت كل مرتفع من الأرض ، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان فى بيت المقدس ، وأنزلوا بهم فى ١٢ يونية هزيمة ساحقة فى موضع لا يبعد كثيراً عن القدس[3] . وازداد نشاط المسلمين فى مهاجمة القوافل التى تنقل الميرة والمعدات من يافا إلى الصليبيين ، بعد أن أخذت العساكر الإسلامية تقدم إلى بيت المقدس ، فأنفذ بدر الدين دلدرم فى جماعة من التركمان ، فتعرضوا فى ١٧ يونية لقافلة تحمل المؤن من يافا ، وهاجموها بالقرب من الرملة ، فحلت بهم خسائر فادحة ، ووقع كثير من الأسرى فى أيدى المسلمين ، وكان لدخولهم القدس وقع عظيم ، وانبعثت همم المسلمين ، حتى حملوا على العسكر الصليبى[4] .

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 99.

(٢) Runciman : op. cit. III. p. 68

Lane Poole : Saladin p. 339

(٣) هذا الموضع معروف فى الكتب العربية باسم قلونية على مسافة فرسخين من القدس .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٩٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٨٣ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٠٨ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ١٩٧ .

Grousset : op. cit. III. p. 100-101

Norgate : op. cit. p. 233.

ومهما يكن من الحوافز أو البواعث ، فالواضح أنه رتشرد لم يكن حريصاً على أن ينازل بيت المقدس ويحصرها ، على الرغم مما يترتب على ذلك من فشل الحملة ، ولعل إدراكه لصعوبة هذه المغامرة ، كان بالغ التأثير فى موقفه منها[١] . ومن الدليل على ذلك أنه حينما ازداد قلق العساكر ، فى انتظار قدوم هنرى ، أخذوا يتساءلون ما إذا كانوا حقاً سائرين إلى بيت المقدس . وألح جماعة من النبلاء الفرنسيين على رتشرد بأن يقود الجيش إلى بيت المقدس ويبادر إلى حصرها[٢] ، غير أنه رفض ، وأشار إلى ما تنطوى عليه هذه الخطوة من أخطار ، فمن اليسير على صلاح الدين الذى يقف باستمرار على حركات الصليبيين ، أن يحمل بجيشه فى السهل الواقع خلف مؤخرتهم ، ويقطع عنهم المؤن ، ويعترض طريقهم إلى البحر . يضاف إلى ذلك أن محيط أسوار بيت المقدس يبلغ من الاتساع ، ما يجعل من العسير على القوات الصليبية أن تنقسم إلى قسمين ، أحدهما يتولى حصار المدينة ، بينما يتولى القسم الآخر حماية المحاصرين ، وتأمين الطريق لقدوم القوافل والأمداد . وليس فى وسعه أن يتولى قيادة حملة من هذا القبيل ، لأنه لا يقبل ما يوجه إليه من لوم عن كارثة لابد أن تحل بالجيش الصليبي . وأشار إلى أن فى الأراضى المقدسة وفى فرنسا ، أناسا يحرصون على أن تنهار شهرته بهذه الوسيلة ، غير أنه لن يحقق رغبتهم . يضاف إلى ذلك أن قواته والقوات الفرنسية تعتبر غريبة على هذه البلاد ، فلا ينبغى أن تتحمل المسئولية ، بل يتحملها طوائف الفرسان الرهبان وبارونات المملكة « فليقرروا ما إذا كان ينبغى علينا أن نحاصر بيت

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 282

(٢) Norgate : op. cit. p. 234.

المقدس ، أو نتوجه للاستيلاء على مصر ، أو بيروت أو دمشق ، وبذلك لا يقع الخلاف بيننا »(١) .

على أن دوق برجنديا وأتباعه الفرنسيين آظهروا امتعاضهم ، وأنكروا على رتشرد شدة حرصه ، وأعلنوا أنهم وطدوا العزم على المضى إلى بيت المقدس ، ولن يتوجهوا إلى مكان آخر . ولما لم يستمع الفرنسيون لما بذله من العروض ، بأن يتكفل بنفقات الحملة ونقلها بعتادها على سفنه ، ومدها بالمؤن والذخائر ، أعرب عن استعداده للمسير إلى بيت المقدس والاشتراك فى حصرها ، لا على أنه قائد لجموع الصليبيين ، بل قائد لرجاله وأتباعه . وعندئذ أمر رجاله بأن يحتشدوا فى مواطن الاسبتارية ، وأن يعدوا ما يلزم للحصار ، إذا قدموا إلى بيت المقدس(٢) .

غير أن حادثاً لم يكن متوقعا ، لم يلبث أن غير الموقف ؛ ذلك أن رتشرد اغتنم فرصة مقامه فى عسقلان والدارون ، ووثق علاقته بالبدو فى صحراء سيناء ، وأجزل إليهم العطاء ، فصاروا يطالعونه بتحركات الجيوش الأيوبية ، عند خروجها من مصر أو عودتها ، ويوقفونه سلفاً

---

(١) Norgate : op. cit. p. 234.
Stevenson : op. cit. p. 232. Painter : op. cit. p. 83.
Grousset : op. cit. III p. 101-102

سبق الإشارة إلى ما جرى من التفكير فى حصار بيت المقدس ، وإلى أن رتشرد سأل من معه من « الفرنج الشاميين » أن يصوروا له مدينة القدس ، فلما وصفوها له قال « هذه مدينة لا يمكن حصرها طالما كان صلاح الدين حيا ، وكلمة المسلمين مجتمعة » ؛ فإذا نزل الفرنج فى الجانب الذى يلى المدينة ، بقيت سائر الجوانب غير محصورة ، فيدخل إليهم منها الرجال والذخائر وما يحتاجون إليه . وإذا انقسم الجيش قسمين ، انفرد صلاح الدين بمهاجمة طائفة ، وتعرضت الطائفة الأخرى للهجوم من قبل الحامية بالقدس . يضاف إلى ذلك ما يتعذر من وصول العلوفات والأقوات .

انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ٤٦ .

(٢) Norgate : op. cit. p. 234-235.

على الطرق التى تسلكها القوافل الإسلامية[١] ؛ على أن صلاح الدين لم تخف عليه هذه الناحية ، وأفاد من البدو بفلسطين للتعرف إلى حركات الصليبيين[٢] .

وإذ ترقب صلاح الدين قدوم الأمداد التى سبق أن طلبها من مصر ، وتوقع ما سوف يتعرضون له من مهاجمة الصليبيين ، فأرسل إليهم يوصيهم بالاحتراز والاحتياط ، عند الاقتراب من الصليبيين ، فأقاموا ببلبيس أياما ، حتى اجتمعت القوافل إليهم ، ثم ساروا طالبين بلاد الشام ، فاتصل خبرهم بالصليبيين[٣] عن طريق العرب ، والسوريين المسيحيين ، الذين بلغ من اتقانهم اللغة العربية ، وشدة تنكرهم ، أنهم لايفترقون ولا يختلفون عن المسلمين[٤] .

وفى تلك الأثناء ، تحول رتشرد بجيشه من بيت النوبة ، بعد أن رفض منازلة بيت المقدس ، واتخذ طريقه إلى الرملة ، فلما بلغ النطرون ، فى٢١ يونيه ١١٩٢ ، قدم إلى معسكره ثلاثة جواسيس ، أحدهم مسيحى سورى ، برنارد ، والآخران من البدو ، فأخطروه باقتراب قدوم قافلة ضخمة ، تزيد على أربعة آلاف جمل ، جاءت من مصر قاصدة فلسطين ، ويقودها فلك الدين أخو العادل لأمه ، وإذ اطمأنوا إلى الهدوء الظاهرى على الحدود الفلسطينية ، اخذوا يجتازون صحراء الجفار إلى العريش ،

---

(١) Norgate : op. cit. p. 235.

Grousset : op. cit. III. p. 102-103.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٠٨ .

Norgate : op. cit. p. 234.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٠٩ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٨٣ .

ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٥٣ .

(٤) Norgate : op. cit. p. 235.

وتأهبوا لاختراق وادى الحسى على الحافة الجنوبية لهضبة يهودا[١] . ولما تحقق الصليبيون خبر القوافل ، طلب رتشرد إلى دوق برجنديا وسائر الفرنسيين أن يشتركوا معه فى مهاجمة القافلة ، فاستجابوا له ، بشرط أن يحصلوا على ثلث الغنيمة[٢] . فخرج فى خمسمائة من الفرسان ونحو ألف من الأجناد ، وسار حتى بلغ تل الصافية ، ثم نزل بالقراطية (جليدية) فأضحى على اتصال بالطريق الساحلى ، والطريق الداخلى ، وفى استطاعته أن يحصل من عسقلان على ما يحتاج إليه من المؤن والخيول[٣] .

ولما علم صلاح الدين بنهوض رتشرد والصليبيين لمهاجمة القافلة ، أنفذ غلامه أسلم ، ومملوكه الطنبغا ، فى خمسمائة فارس ، وأمرهم بأن يبعدوا بالقافلة فى البرية حتى يتجنبوا لقاء الصليبيين[٤] . وإذا اتفق أن العسكر وصل الحسى قبل وصول العدو إليه ، قرروا ألا يغيروا طريقهم ، بل مضوا إلى ماء يقال له الخويلفة (بير سبع) بالنقب ، على مسافة ٢٥ كيلو متر إلى الجنوب الشرقى من تل الحسى ، وثلاثين كيلو متر إلى الجنوب الغربى من حبرون[٥] . ولم تلبث أخبار القافلة المصرية والجيش المرافق لها ، أن بلغت رتشرد فأمر رتشرد العساكر بالركوب ، وأخذ عليهم العهود بأن يوجهوا كل الاهتمام إلى منازلة المسلمين لا الغنيمة ، وسار رتشرد المقدمة ، بينما كان الفرنسيون فى المؤخرة[٦] . وشنوا هجوما مفاجئا فى الصباح المبكر ، ٢٣ يونيه ١١٩٢ ، فبغتوا الناس ، فانهزم الجند ،

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 103. Norgate : op. cit. p. 236.

(٢) Norgate : op. cit. p. 235.

(٣) Norgate : op. cit. p. 235. Grousset : op. cit. III. p. 104.

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٠٨ .

Grousset : op. cit. III p. 103-104.

(٥) Grousset : op. cit. III. p. 104. Conder : op. cit. p. 286

(٦) Norgate : op. cit. p. 237.

وانقسموا ثلاثة أقسام ، قسم قصد الكرك ، وقسم أوغل فى البرية ، وقسم استولى عليهم الصليبيون فساقوه بجماله وأحماله وجميع ما كان معه[١] . وأصاب الصليبيون غنائم وفيرة ، إذ وقع فى أيديهم زهاء ثلاثة آلاف جمل تحمل مقادير وفيرة من الأقمشة ، والأموال ، والحبوب والدقيق ، والسكر ، والتوابل ، والخيام ، والجلود ، والأسلحة بجميع أنواعها ، أما الخيول والبغال فلا حصر لها[٢] ، وبفضل مساعدة الأتباع استطاع ريتشرد أن يجمع هذه الدواب ويرتحل بها[٣] .

والواقع أن هذه الهزيمة كانت شديدة الوقع عند صلاح الدين ، فما مر بالسلطان على حد قول ابن شداد « خبر أنكى من هذا اليوم ، فى قلبه ولا أكثر تشويشا لباطنه » ، وحاول ابن شداد أن يخفف وطأة هذه الوقعة ، وهو (السلطان) لا يكاد يقبل التسلية[٤] .

وبعد أن حصل ريتشرد على هذه الغنيمة ، ارتحل إلى الرملة فى ٢٦ يونيه ، حيث لحق به هنرى كونت شامبانيا ؛ الذى قدم بأمداد من عكا[٥]. وأدرك صلاح الدين أن ما توافر لدى الصليبيين من الغنيمة من

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٠٩ . كان عدد الجند الذين صحبوا الحملة يبلغ ألفين ، وبلغ عدد الأسرى منهم خمسمائة ، بالإضافة إلى من تفرق منهم فى الجهات المختلفة. انظر : Grousset : op. cit. III. p. 105.

(٢) Norgate : op. cit. p. 237-238.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٠ . وفى هذه الوقعة فقد الرحالة على الهروى كتبه . انظر :

Extraits des voyages d'Aly el Herewy. Archives de l'Orient Latin I, p. 606.

Grousset : op.cit. III. p. 106 note 1.

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٠ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٨ .

(٥) Grousset : op. cit. III: p. 106.

الدواب والمؤن ، سوف يحملهم على أن يقصدوا بيت المقدس ، فبادر بتقسيم أسوار القدس على الأمراء ، وطلب إليهم أن ينشطوا فى الاستعداد لما تتعرض له من الحصار ، وأخذ فى إفساد المياه خارج القدس ، فخرب الصهاريج ، وطمر الآبار ، حتى لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا ، وبذا صار مستحيلا على الصليبيين أن يحفروا أبارا جديدة فى الأرض الصخرية ، وأرسل إلى العساكر يطلبها من سائر الجهات[1] . وهذه الإجراءات التى اتخذها صلاح الدين ، تدل على أنه أراد أن ينتظر الهجوم من قبل رتشرد ؛ على أن إدراكه لما بين القادة من اختلاف حول تسيير دفة القتال ، ولما بين العناصر التى يتألف منها الجيش ، ولاسيما الأكراد والترك ، من الحقد والكراهية ، كل ذلك حمله على أن يعقد مجلسا ليلة أول يوليه ١١٩٢ ، شهده الأمراء وافتتحه ابن شداد المؤرخ بالحث على الجهاد ، والاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، واعتبرهم صلاح الدين « جند الإسلام ومنعته ، وأن دماء المسلمين وأموالهم معلقة بذممكم ، والمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم »[2] فاستجاب له جميع الحاضرين ، وأعلنوا أنه لا يرجع أحد منهم عن نصرته إلى أن يموت[3] .

غير أن اطمئنان صلاح الدين لم يستمر طويلا ، فلم يلبث الأمراء أن أنكروا خطة صلاح الدين ، ورفضوا أن يرابطوا فى داخل المدينة ، حتى لا يجرى عليهم ما جرى على أهل عكا ، وعرضوا على أن تدور بينهم وبين

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ٢١١ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٨٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٨ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٢ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٢
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٨٦ .
ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٨ .

الصليبيين معركة فاصلة ، فإذا أحرزوا النصر ، تحطمت قوة الصليبيين ، واسترد المسلمون بقية بلادهم وإذا تعرضوا للهزيمة ، سلم العسكر ، وضاعت القدس ، ويصح أن يستردوها فيما بعد[١] . وأشاروا إلى أنه إذا أصر السلطان على اتخاذ خطة الدفاع ، فلا بد أن يقيم فى البلد ، أو يعهد إلى أحد أفراد أسرته بالقيادة بها ، نظرا « لأن الأكراد لا يدينون للأتراك ، ولا الأتراك يدينون للأكراد[٢] » . وأحب صلاح الدين أن يقيم بالمدينة ، غير أن أصحابه منعوه من ذلك ، لما يتعرض له الإسلام من خطر ، بضياع المدينة ومصرع السلطان ذاته[٣] .

وإذ اشتد الضيق بصلاح الدين ، أخذ يقلب موقف رجاله مع ابن شداد ، ولما كان حسن العقيدة ، صادق الإيمان ، أخذ يناجى ربه ، ويفوض أموره إليه ، ولم تلبث الأنباء أن جاءته فى ٣ يوليه ١١٩٢ ، بأن العساكر رجعت إلى المعسكر ، ثم تقرر الارتداد ، بعد مناقشات حادة دارت فى المعسكر الصليبى[٤] . إذ ألح الفرنسيون فى أن يبادروا بالهجوم نظرا لتوافر المؤن ودواب النقل ، بينما أشار رتشرد إلى قلة الماء ، وضآلة عدد الجيش ، بعد عودة الصليبيين الغربيين إلى أوطانهم ؛ يضاف إلى ذلك تجدد المنازعات الداخلية ، بين الفرنسيين والانجليز ، ووقف صلاح الدين على أخبار هذه المنازعات ، التى نقلها له أحد كشافته[٥] . وفى ٤ يوليه

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٣

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٨٧ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٣ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٨٩ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٣ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٤ .

(٥) أورد ابن شداد تفاصيل ما نقله جرديك إلى صلاح الدين عن المناقشات التى دارت بين الصليبيين ، والتجائهم إلى التحكيم ، ووصف طريقة التحكيم ، واحترام قرار الحكام . =

أزال الصليبيون معسكرهم ، وأخذوا يتوجهون نحو الساحل ، عن طريق الرملة ، فاعتلى صلاح الدين تلا مجاورا ، شهد منه مسير الصليبيين[١] .

ومن الملحوظ أن كلا من صلاح الدين ورتشرد لم يدرك تماما ما وقع فى مقر قيادة كل منهما . فالراجح أن الصليبيين بالغوا فى تقدير ما يتعرضون له من مقاومة من قبل المسلمين ، وما استبد بصلاح الدين من قلق شديد ، لا شك فى أن حدته كانت تتضاءل لو أنه أدرك تماما ما تعرضت له وحدة الجيش الصليبي من انقسام[٢] .

على أن المفاوضـات لم تلبث أن بدأت مرة أخرى بين رتشرد وصلاح الدين[٣] ، بعد أن هلك الجيشان ، ولقى كل منهما من أتباعه وقادته وأمرائه شيئاً من العناد وعدم الانصياع . وحمل الحاجب يوسف ، وهو من الأتقياء الذين يقدرهم صلاح الدين ، مقترحات رتشرد ، التى اتخذت صفة جديدة لم تكن معروفة من قبل ، إذ أنه حدث لأول مرة أن يعتبر

= انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٤ .

Norgate : op. cit. p: 241. Grsusset : op. cit. III: p. 108.

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٤ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٩٠ .

Grousset : op. cit. III. p. 109. Runciman : op. cit III. p. 69.

Norgate : op. cit. p. 244

(٢) Grousset : op. cit. III. p. 109

(٣) الواقع أنه حدث غداة انسحاب الجيش الصليبى من بيت النوبة أن نشطت العلاقات الدبلوماسية من جديد ، وكان البادئ بها هنرى كونت شامبانيا ، إذ أنفذ رسولا إلى صلاح الدين ، يطلب منه مقابل الصلح ، أن يرد له مملكة بيت المقدس ، غير أن الرسول كاد يلقى مصرعه ، بسبب غضب السلطان ، حينما سمع هذا العرض ، فلم يسع الرسول إلا أن يعدل عن هذا الطلب . ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٥ .

Grousset : op. cit. III. p. 119

Stevenson : op. cit. p. 283

ما حدث من قتال بين المسلمين والصليبيين ، ليس إلا نضالا بين إخوة سوف يودى بالجانبين . إذ يشير إلى أنه « راغب فى مودتك وصداقتك ، ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لى أن أهلك الفرنج كلهم »[١] . فظهرت بذلك عاطفة المصلحة العامة ، والتعايش بين المسلمين والصليبيين فى الشام . فعرض الحاجب يوسف ، ما اقترحه رتشرد على صلاح الدين ، بأنه إذا أقر استرداد الصليبيين لمملكة بيت المقدس ، فإنه يضع هذه المملكة تحت سيادة السلطان[٢] ، ولم يسع صلاح الدين إلا أن يرد رداً حسنا ، وأشار إلى أن « ابن أختك يكون عندى كبعض أولادى وسوف ترى ما أفعل معه »[٣]

وترددت الرسائل بين الجانبين حتى ٢٠ يوليه ١١٩٢ ، وفى أثناء هذه الفترة تخلى رتشرد عن المطالبة بملكية بيت المقدس ، والتمس أن تكون له حماية الأماكن المقدسة وأن يكون للمسيحيين حق الحج ، وحرية العبادة .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٦ .

Grousset : op. cit. III. p. 110

(٢) وفى نص ابن شداد « وهذا ابن أختى الكند هرى (هنرى كونت شامبانيا) قد ملكته هذه الديار ، وسلمته إليك ، ليكون هو وعسكره تحت حكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا » – انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٦ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٦ .

وما حدث بعدئذ ، عقب معركة يافا ، أن ردد رتشرد فكرة جعل المملكة اللاتينية من توابع الدولة الأيوبية ، فطلب من السلطان أن يبذل بعض البلاد ، إذ أشار رتشرد إلى « أن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلدا ، صار تبعه وغلامه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين : يافا وعسقلان ، وتكون عساكرهما فى خدمتك دائما ، وإذا احتجت إلىّ ، وصلت إليك فى أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم خدمتى» .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ؛ ص ٣٩٩ .

Grousset : op. cit. III. p. 111.

وأشاد رتشرد بسخاء صلاح الدين ، وأنه يطمع فى أن يستجيب لطلبه بأن يجعل له كنيسة القيامة[١] .

وإذ أحس صلاح الدين بما حل بالمسلمين من الضجر والتعب ؛ وعلاهم من الديون ، وبعد أن استشار أمراءه ، نزع إلى المصالحة ، وتقرر أن يجرى الصلح على أساس الأمر الواقع ؛ فيكون للصليبيين الجهات الساحلية الممتدة من صور إلى يافا ، بشرط أن يكون ما وراء يافا خرابا ، والمقصود بذلك عسقلان وغزة والدارون ، نظرا لأنها تهدد المواصلات بين مصر والشام . وما يتبع هذه المواقع الثلاثة من القرى ، يصح أن تكون بيد الصليبيين . ويكون بيد المسلمين داخل فلسطين الذى تقع به القلاع الجبلية . أما المنطقة المتوسطة وما بها من القرى ، فتكون مناصفة بين المسلمين والصليبيين ووافق صلاح الدين على أن يعطيهم كنيسة القيامة[٢] . وعرض رتشرد مقترحات عديدة ، لم يقصد من ورائها إلا أن تتهيأ الفرصة له للقيام بنشاط جديد ، ولم يكن صلاح الدين بأقل رغبة منه فى اغتنام الفرصة ، لاستدعاء العساكر من الجهات المختلفة[٣] . وانقطعت المفاوضات

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ٢١٦ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٩١ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٦ - ٢١٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٣٩١ .

(٣) تنازل رتشرد عن أمر القدس ، فيما عدا الزيارة ، وأن يكون بقلعة القدس عشرون رجلا ، وأن من سكن من النصارى والإفرنج لا يتعرض إليهم أحد . أما عسقلان وما وراءها فأصر صلاح الدين على خرابها ، على أن تجعل مزارع عسقلان وقراها للافرنج ، ويجرى تقسيم بلاد الدارون مناصفة . غير أن رتشرد حرص على أن تترك هذه الأماكن (عسقلان ويافا والدارون) عامرة ، وأعلن أنه تخلى عن القدس نهائياً ، لا يكون فيه رهبان ولاقسوس إلا فى كنيسة القيامة . ويكون للصليبيين بمقتضى الصلح من الدارون إلى أنطاكية ، وللمسلمين ما بأيديهم . وأشار إلى أن الصليبيين لن يمكنوه من العودة إلى بلاده ما لم تتقرر هذه =

فى ١٩ يوليه ١١٩٢ ، بسبب الاختلاف بين الجانبين على وضع عسقلان ، إذ أصر رتشرد على ألا تتعرض عسقلان للتخريب[١] ، لما خسره على سورها من أموال جزيلة ، يضاف إلى ذلك أن الإيطاليين واللاتين بالشام ، أظهروا معارضة شديدة لهذا الاقتراح[٢] .

ولم تكد تفشل المفاوضات حتى تجهز للقتال كل من صلاح الدين ورتشرد ، فأنفذ إلى الدارون ثلثمائة فارس من الداوية والاسبتارية لتدمير أسوار الحصن ، ونقل حاميته إلى عسقلان لتعزيز القوة الصليبية بها ؛ ثم اجتمعت القوات الصليبية فى يافا ، فأبقى منها ما يكفى لحمايتها ، وتوجه بمن تبقى منها إلى عكا ، التى بلغها فى ٢٦ يوليه ١١٩٢ ، وطلب رتشرد إلى الأسطول أن يصحب الجيش فى رحلته ، فشاع الخبر بأن رتشرد عزم على الرحيل إلى أوربا . على أنه كان يقصد غرضاً آخر ، وهو انتزاع بيروت من يد المسلمين ، لما لها من ميناء كبير ، ولأن فى الاستيلاء عليها حرمان المسلمين من المنفذ الوحيد الباقى لهم على الساحل بين اللاذقية ومصب النيل[٣]. غير أن صلاح الدين وقف عن طريق جواسيسه على خطة رتشرد ، فأفسدها . وإذ قدمت العساكر الشرقية وعساكر الجهات الأخرى ، أضحى صلاح الدين فى وضع يتيح له المبادرة إلى مهاجمة الصليبيين ، فسار بقواته إلى يافا ، وبعد قتال عنيف استمر نحو أربعة أيام ، وكادت المدينة تستسلم ، لولا أن هبط إلى الشاطئ فى أول أغسطس ١١٩٢ رتشرد بعساكره

= القواعد . ورد صلاح الدين بأن هذا الصلح لا تدخل فيه أنطاكية ولا يوافق المسلمون على التنازل عن البلاد التى أشار إليها ، وأصر على خراب سور عسقلان .

انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٧ — ٢١٩ .

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٩ .

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٩٣ .

(٢) Stevenson : op. cit. p. 284

(٣) Norgate : op. cit. p. 246.

وجماعة من الجنوية والبيازنة ، فأخرجوا المسلمين من المدينة[١] ؛ ودارت معركة عنيفة خارج يافا فى ٥ أغسطس ١١٩٢ ، ولم تستطع القـــوات الإسلامية ، أن تزحزح الصليبيين عن مواقعهم ، على الرغم من قلة عدد فرسانهم ، يساندهم عدد غير قليل من الرجالة والبحارة الإيطاليين ، وبلغ الصليبيون من البسالة والإقدام ما حمل ابن شداد على الإشارة إلى أن المسلمين "وجموا من ثباتهم" ، واكتفوا بأن دار العسكر حلقة واحدة على مسافة منهم[٢] . ولم تكن بسالة رتشرد وإقدامه وشجاعته ، هى وحدها التى حاز بها النجاح ، بل إنه أفاد أيضاً من سخط العساكر الإسلامية ، لأنها لم تحرز انتصارا ، ولم تحصل على ما تشتهيه من الغنيمة ؛ فضلا عن النزاع بين الأكراد والترك[٣] .

ولم يلبث رتشرد أن وقع مريضا بعد استرداد يافا ، وأرسل إليه صلاح الدين ما كان يشتهيه من الخوخ والكمثرى والثلج ، وكشف أخباره ، بتواتر الرسل بين الجانبين[٤] .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٢٢ — ٢٢٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٩٦ — ٣٩٨ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

Runciman : op. cit. III. p. 70-71

Grousset : op. cit. III p. 113-114

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٢٩ .

Grousset : op. cit. III. p. 115

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

Grousset : op. cit. III. p. 115

Norgate : op. cit. p. 255

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٤٠٢ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

صلح الرملة (سبتمبر ١١٩٢) :

ما كان من مظاهر المروءة والفروسية ، برغم الحرب الناشبة ، دلت على استمرار العلاقات ، وروابط المودة ، بين صلاح الدين وأخيه العادل من جهة ، وبين رتشرد قلب الأسد من جهة أخرى . فحرص على أن يفيد من هذه العواطف المتبادلة فى تصفية الحرب الصليبية ، والرجوع إلى بلاده ، ولا سيما بعد أن جاءته الأنباء بسوء الأحوال بانجلترا ، وتخلى عنه الفرنسيون وحل به المرض ، وأخذ صلاح الدين يستعد لمهاجمة يافا مرة أخرى(١) .

كان صلاح الدين وقتذاك بالرملة ، بينما لزم أخوه العادل فراش المرض فى موقع قرب بيت المقدس ، بينما اشتدت العلة برتشرد فى يافا ، فالتمس الحاجب أبا بكر العادلى ، الذى تردد فى السفارة بين الجانب الإسلامى والجانب الصليبى ، من أجل الصلح ، ومن جملة ما قاله « هذا السلطان عظيم ، وما فى هذه الأرض للإسلام أكبر ولا أعظم منه ، كيف رحل عن المكان بمجرد وصولى ، والله ما لبست لأمة حرب ، ولا تأهبت لأمر ، وليس فى رجلى إلا برذول البحر»(٢)، ويقصد بذلك أنه أراد أن يلتقى بالسلطان للتحدث إليه فى أمر الصلح(٣). وأنهى إلى رسول صلاح الدين بحرصه على طلب الصلح « وقد هلكت بلادى وراء البحر ، وما دوام هذا المصلحة للجانبين(٤) » .

---

(١) Stevenson : op. cit. p. 286.

Grousset : op. cit. III. p. 117

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٢٧ .

(٣) Norgate : op. cit. p. 256.

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٢٧ .

لم يرفض صلاح الدين المفاوضة ، غير أنه قصرها على أن يجعل للمسيحيين الشاطئ من صور إلى قيسارية ، بعد أن تخربت يافا ، فاقترح رتشرد على أن يقطعه السلطان يافا وعسقلان فيصير بذلك من أتباعه على القاعدة المعروفة في الغرب ، وبذا ينهض بعساكره لمساندة السلطان[1] .
غير أن محاولات ريتشرد لحمل صلاح الدين على الاستجابة لطلبه ، باءت بالفشل ؛ ولم تلبث الأمداد أن قدمت إلى صلاح الدين[2] ، فأرسل إلى رتشرد « كرهت لذات الدنيا ، وشبعت منها ، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء ، غير العسكر الذي يكون في الصيف ، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء[3] » . وأرسل رتشرد إلى العادل ليتوسط عند السلطان في الصلح ، ويستوهب منه عسقلان ، للمحافظة على مكانته بين الفرنج ، فإن رفض السلطان ، فإنه يقبل منه تعويضاً عن النفقات التي بذلها في عمارة سورها ، وعندئذ لم يجد السلطان ما يمنع للمضي في المفاوضات ، « لأن العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار (الحرب) ، والنفقات قد نفدت[4] » . غير أن رتشرد لم يلبث أن أعلن تنازله عن عسقلان ، وعن طلب العوض عنها ، وصح مقصوده في الصلح ، وذلك في ٢٨ أغسطس سنة ١١٩٢ . وإذ اطمأن صلاح الدين

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٢٨ .

Lane Poole : Saladin p. 350

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٢٨ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٢٨ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٣ .

Stevenson : op. cit. p. 286.

إلى صدق نية رتشرد ، عقد المجلس ، فأقر تفاصيل تقسيم البلاد على النحو الآتى :

١ – يحصل رتشرد على يافا وأعمالها (فيما عدا الرملة ويبنه ومجدل يابا) ، وقيسارية وأعمالها ، وأرسوف وأعمالها ، وحيفا وأعمالها ، وعكا وأعمالها (باستثناء الناصرة وصفورية) .

٢ – أقر رتشرد هذه المقترحات ، غير أنه طمع فى عطف صلاح الدين ، بأن يضيف الرملة إلى هذه الجهات .

وفى ٣١ أغسطس ١١٩٢ (٢٠ شعبان ٥٨٨) ، جرى وضع الصيغة النهائية لشروط الصلح – ، لما أصاب الناس من الضعف ، وقلة النفقات ، والشوق إلى الأوطان ، ولما شاهده من تقاعدهم عن يافا ، يوم أمرهم بالحملة ، فلم يحملوا ، فخاف أن يحتاج إليهم فلم يجدهم ، فضلا عن مخافاته لما يحدث بعد وفاته من الشقاق بين أفراد أسرته ، فيغتنم الصليبيون الفرصة ، ويستردون ما استولى عليه من البلاد ، فتضمنت ما يأتى[1] :

١ – ينعقد الصلح لمدة ثلاث سنوات وثلاثة شهور ، إبتداء من يوم الأربعاء (٢ سبتمبر) .

٢ – يحصل الملك رتشرد على لد أو الرملة ، أو كليهما ، أو على نصف كل منهما .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٥ – ٢٣٧ .

Norgate : op. cit. p. 256

وأشار ابن شداد الذى اشترك فى مفاوضات الصلح إلى ذلك ، بأن السلطان قال له أثناء تلك المفاوضات « أخاف أن أصالح ، وما أدرى أى شىء يكون منى ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة ، يعنى أخاه وأولاده وأولاد أخيه ، قد قعد فى رأس قلعته أى حصنه ، وقال لا أنزل ، فهلك المسلمون » فما كان الصلح إلا توفيقاً ومصلحة .

انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٧ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٤٠٥ .

٣ ــ كان من القاعدة أن عسقلان تكون خراباً .

٤ ــ اشترط صلاح الدين دخول بلاد الإسماعيلية فى الصلح .

٥ ــ اشترط الصليبيون دخول صاحب أنطاكية وطرابلس فى الصلح .

وحلف على هذه الوثيقة من جانب رتشرد ، هنرى كونت شامبانيا ، وابن همفرى صاحب تبنين ، وباليان صاحب طبرية ، ومن جانب صلاح الدين ، أخوه العادل ، ثم الأفضل والظاهر ولداه ، وذلك فى يومى ٢ ، ٣ سبتمبر ١١٩٢ ، وشهد على الوثيقة جماعة عن كل من الجانبين[١] .

وبمقتضى المعاهدة صار للصليبيين المدن الساحلية من صور إلى يافا جنوبا ، ولا يجوز لكل من الجانبين المتعاقدين أن يفرض مكوسا على المتاجر التى تجتاز بلادهما ، وللمسلمين والمسيحيين الحرية فى الانتقال بين بلادهم . وأضحى للمسيحيين الحرية فى زيارة الأماكن المقدسة ، دون أن يؤدوا رسوما ، وأعلن صلاح الدين أن طريق الحج إلى مكة قد فتح من الشام[٢] .

ومن شروط الصلح تدمير أسوار عسقلان ، وألا يحتلها أحد من الجانبين إلا بعد انتهاء أجل الهدنة[٣] . والمعروف أن تخريب عسقلان ،

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٢٠٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٤٠٣ .

Grousset : op. cit. III. p. 117

Norgate : op. cit, p. 259.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٧ .

Grousset : op. cit. III. p. 117.

Stevenson : op. cit. p. 286. (٣)

ورد فى بعض المراجع ما يشير إلى أن المعاهدة لم تشترط إطلاق سراح الأسرى ، وإلى =

كان إجراء أصر رتشرد على تنفيذه ، بعد إرغامه على التخلى عنها ، فلن يفيد منها المسلمون إلا بعد أن ينفقوا أموالا طائلة فى عمارة أسوارها . وأشرف على تدمير المدينة ممثلون عن الجانبين الإسلامى والصليبى ، فتوجهوا إلى عسقلان فى ٥ سبتمبر ، وأجلوا الحامية الصليبية بها[١] .

نتائج الصلح :

لقى عقد الصلح الترحيب من الجانبين الإسلامى والصليبى ، إذ غشى الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله ، على حد قول ابن شداد[٢] . وبادر الناس من الجانبين إلى الإفادة من استقرار الأمور ، وحرية الانتقال والعبور من جهة إلى أخرى . فمن ناحية الحج أشار صلاح الدين إلى أنه عزم على الحج بعد أن فتح طريق الحج من الشام[٣] . وقدم إلى القدس عدد كبير من الصليبيين للحج ، بعد أن نزعوا سلاحهم ، وحصلوا على إذن من الملك رتشرد[٤] ، وأنفذ معهم صلاح الدين الخفراء يحفظونهم فى أثناء المسير إلى القدس ، والعودة إلى يافا ، حتى يأمن المسلمون شرهم[٥] .

= التزام اللاتين بالشام بحمل السلاح لقتال الصليبيين القادمين من الغرب ، والذين يشهرون السلاح فى وجه المسلمين أثناء الهدنة ، يضاف إلى ذلك اقتسام خراج بيروت وصيدا وجبيل ، وجبلة ، بين الجانبين المتعاقدين .

(١) Stevenson : op. cit. p. 286
Norgate : op. cit. p. 290.

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٧ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٤٠٦ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٤ .
Grousset : op. cit. III. p. 118 Norgate : op. cit p. 260

(٤) Runciman : op. cit. III. p. 73.

(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٨ .

ولما علم رتشرد كثرة الصليبيين الذين هرعوا إلى القدس ، طلب إلى صلاح الدين ألا يأذن لهم بذلك ما لم يحصلوا على تصريح منه ، وقصد بهذا الإجراء منع الفرنسيين من الحج ، فلم يحفل بطلبه ، وأحسن استقبال الجموع الكثيرة من الحجاج ، يتقدمهم مقدمون وأمراء وأساقفة ، فأكرم وفادتهم ، ومد الطعام لهم ، وأخذ فى مباسطتهم ، وعرفهم أنه لم يلتفت إلى طلب رتشرد[١] . ومن بين كبار الحجاج المسيحيين هيوبرت والتر أسقف سالسبورى ، الذى رحب به صلاح الدين وأخذ يباسطه فى الحديث فى موضوعات كثيرة[٢] ، ولا سيما عن أخلاق رتشرد وطباعه ، واستجاب صلاح الدين له حينما طلب أن يسمح لاثنين من القسس ، واثنين من الشمامسة اللاتين ، بالبقاء فى كنيسة القيامة وفى بيت لحم والناصرة ، فلما قدموا بعد شهور لم يتعرضوا للأذى والضرر[٣] .

وبلغ الإمبراطور البيزنطى إسحاق إنجيلوس ما كان من محاولة رتشرد صبغ الأماكن المقدسة بالصبغة اللاتينية ، فأنفذ إلى صلاح الدين سفارة تطلب إليه أن يرد للبيزنطيين ما كان لهم زمن الفاطميين من السلطة المطلقة والإشراف الكامل على الكنيسة الأرثوذكسية ، غير أن صلاح الدين لم يستجب لهم ، ورفض أيضاً طلب ملكة الكرج ، برد ما كان لهم من ديارات فى القدس أخذت من أيديهم ، ولم يقبل أن يبيعها الصليب المقدس مقابل مائتى ألف دينار[٤] .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٨ .

Painter : op. cit. p. 85.

(٢) كان صلاح الدين وقتذاك قد انتقل إلى بيت المقدس – انظر ما يلى .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٨ .

Lane Poole : op. cit p. 362-363

Runciman : op. cit III. p. 73

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٥ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

Runciman : op. cit. III. p. 74. Grousset : op. cit. p. III. 118

وترتب أيضاً على عقد الصلح ، أن أمنت الطرق التجارية ، فسلكها التجار من الجانبين ، فارتحل السلطان صلاح الدين إلى بيت المقدس فى سبتمبر ١١٩٢ ، واختلط العسكران الإسلامى والصليبى ، ووصل جماعة من المسلمين إلى يافا فى طلب التجارة ، بينما قدم خلق عظيم من الفرنج إلى بيت المقدس(١) .

ولما تم إبرام المعاهدة ، ارتحل رتشرد إلى عكا ، فرتب بها أموره ، فسدد ما عليه من ديون ، وحاول أن يسترد ما أقرضه من أموال . وفى ٢٩ سبتمبر ١١٩٢ أبحر من عكا الملكة برنجاريا والملكة جوانا ، فبلغتا فرنسا قبل هبوب العواصف الشتوية العنيفة . وفى ٩ أكتوبر ١١٩٢ ، غادر رتشرد البلاد التى ظل يقاتل فيها نحو ستة عشر شهرا ، وبذلك انتهت الحملة الصليبية الثالثة(٢) .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٨ .

Grousset : op. cit. III. p. 118

(٢) على أن الأحوال المناخية السيئة ألزمته ، بأن يهبط فى كورفو ، من أملاك الامبراطور البيزنطى . وإذ خاف أن يقع فى أسر أعدائه تنكر فى هيئة أحد فرسان الداوية ، واستقل سفينة للقرصان كانت متجهة إلى رأس بحر الأدرياتيك ، غير أنها تحطمت قرب اكويليا ، فمضى رتشرد ورفاقه فى السير برا ، وكان يأمل فى أن يبلغ بلاد صهره ، هنرى ملك سكسونيا ، غير أنه وقع فى يد ليوبولد دوق النمسا ، فسلمه إلى هنرى السادس إمبراطور ألمانيا . وما كان لريتشارد من صداقة أكيدة مع هنرى الأسد ، وتانكرد ملك صقلية ، من خصوم الإمبراطور كان كافيا لأن يبقى فى أسر الإمبراطور سنة ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع فدية كبيرة ، وأقسم على التبعية له . وفى أثناء أسره ، تعرضت أملاكه فى إنجلترا وفرنسا لمؤامرات أخيه حنا والملك فيليب أغسطس . فلما عاد كان لديه من المشاغل ما صرفه عن التفكير فى القيام بحملة جديدة إلى الشرق ، إذ ظل سنوات يحارب فى فرنسا للمحافظة على أملاكه حتى لقى مصرعه فى مارس ١١٩٩ ، بعد أن أصابه سهم طائش انطلق من قلعة أعلنت التمرد والعصيان عليه . انظر : Runciman : op. cit. III. p. 175

Norgate : op. cit. pp. 264-276

وعند تقدير أعمال الحملة الصليبية الثالثة ، لابد من التمييز بين الحملة بأسرها ، وبين الحملة التى قادها رتشرد وفيليب أغسطس . فالواقع أنه لم يقدم إلى الشرق والأماكن المقدسة بعد هذه الحملة ، ما يضارع هذا العدد الكبير من الأمراء . وعلى الرغم من أن أوربا الغربية اتحدت وأسهمت فى ذلك المجهود الكبير ، فإن ما حصلت عليه من النتائج كان ضئيلا . إذ أن صور استردها كنراد مونتفرات قبل قدوم الصليبيين ، كما أن طرابلس ارتكنت فى مصيرها على الأسطول الصقلى[١] . ولولا مساعدة الصليبيين الذين وصلوا فى خريف سنة ١١٨٩ ، لـمّا كان لهجوم جاى لوزيجنان على عكا تأثير كبير ، والراجح أن قدوم هنرى كونت شامبانيا بعساكره ، هو الذى كفل للصليبيين الاستيلاء على المدينة . والواضح أن المدينة ربماسقطت ، دون مساعدة ملكى إنجلترا وفرنسا . ومع ذلك فالواقع أن الاستيلاء على الإقليم الساحلى الممتد من عكا إلى يافا ، ما كان ليتم لولا مساعدة عساكر رتشرد ودوق برجنديا[٢] . فأعادت الحملة الصليبية الثالثة كيان مملكة بيت المقدس من الناحيتين العسكرية والسياسية ، وأضحت من الرسوخ والثبات ، ما جعلها تبقى مائة سنة أخرى ، ولا شك أن بقاء رتشرد وجيوشه فى الشرق ، سنتى ١١٩١ ، ١١٩٢ ، منع صلاح الدين من أن يجنى على أكمل وجه ثمار انتصاراته فى حطين[٣] .

أضحت مملكة بيت المقدس عبارة عن شريط صغير ، يمتد على الشاطئ من يافا إلى صور ، أى نحو تسعين ميلا ، ولم يتجاوز عرضه عشرة أميال ، وخرجت بيت المقدس ذاتها من حوزة ملوكها . وإلى أقصى الشمال ، استطاع بوهمند بفضل ما انتهجه من سياسة الحياد ، أن يحتفظ

---

(١) Runciman : op. cit. III. p. 76

(٢) Painter : op. cit. p. 85

(٣) Painter : op. cit. p. 85.

لنفسه بالعاصمة ، أنطاكية ، وما حولها من الأراضى حتى ميناء سان سيمون[١] .

فالمعروف أن الصلح الذى انعقد بين صلاح الدين والصليبيين بعكا لم يلبث أن أقره الفرنج بأنطاكية . وفى ٣٠ أكتوبر ١١٩٢ ، استقبل صلاح الدين فى بيروت ، بوهمند الثالث أمير أنطاكية ، وقد طمع فى كرم السلطان وسخائه[٢] . فبالغ فى احترامه وإكرامه ومباسطته ، وأنعم عليه بالعمق ، ومزارع تغل خمسة عشر ألف دينار[٣] . أما طرابلس فإنها بقيت فى يد بوهمند الرابع ابن أمير أنطاكية . والواضح أن وقوع اللاذقية وبيروت فى أيدى الأيوبيين ، فصل بين طرابلس وأنطاكية من جهة وبين سائر أملاك الصليبيين من جهة أخرى ، فالتمس الأميران رضى وعطف السلطان الأيوبى[٤] .

ولم تكن نتائج الحرب الصليبية الثالثة الإقليمية بأقل أهمية ، فعلى الرغم من أن هذه الحملة لم تسترد بيت المقدس ، أو أى موضع بإقليم

---

(١) Runciman : op. cit. III• p. 76

(٢) حاول بوهمند فى السنة السابقة ، مستنداً إلى حملة رتشرد ، أن يسترد اللاذقية وجبلة ، غير أن العساكر الأيوبية أنزلت به هزيمة ساحقة ، فلم يقدم مرة أخرى على استردادها ، واكتفى بالإمارة الصغيرة التى كان يأمل فى أن يبقيها له صلاح الدين .

(Grousset : op. cit, III p, 119)

(٣) سهل خصيب يمتد بين بحيرة أنطاكية وحارم .

Grousset : op. cit. III. p. 119

Dussaud : Topographie historique p 158

(٤) Grousset : op. cit. III. p. 120

احتفظ الاسبتارية بحصن الأكراد ، وبقى الداوية فى حصن أنطرطوس ؛ واعترفوا بالتبعية لكونت طرابلس .

Runciman : op. cit. III. p. 76

طبرية وفلسطين فإنها أعادت للصليبيين معظم الساحل الذى كان من أملاك مملكة بيت المقدس ، فصار بأيديهم صور ، وعكا (الحاضرة الجديدة لمملكة بيت المقدس) ، وحيفا وقيسارية وأرسوف ، ويافا ، فضلا عن نصف لد والرملة على الطريق إلى بيت المقدس(١) . يضاف إلى ذلك أن صلاح الدين أنعم على باليان صاحب طبرية ، بعد عقد الصلح ، بإقطاع تل القيمون ؛ بجنوب شرقى حيفا ، وأعاد إلى رينالد صاحب صيدا شطرا من أرض صيدا ، بين صور وصيدا(٢) ؛ ومع أن صلاح الدين حرص على المحافظة على بيروت ، غير أن الصليبيين استولوا عليها فيما بعد ، ١١٩٧ ، فاستقرت بها من جديد أسرة السادة الأبلين Ibelins ، الذين ملكوا من قبل بينه(٣) .

وعلى الرغم من ألقاب الملك التى اتخذها أمراء مملكة بيت المقدس ، والآمال التى تعلقوا بها ، فالواقع أن هذه المملكة لم تكن سوى مملكة عكا ، على أن هذه المملكة التى اقتصرت على الموانى الشامية ، لم يعوزها إلا التماسك ، إذ حرصت على أن تفيد من مساحتها الصغيرة ، بعد أن صارت قاصرة على المراكز البحرية ، وصارت بمأمن من الغارات المفاجئة من الداخل . فبالتزامها الساحل أفادت من حماية القوى البحرية الغربية التى سيطرت على البحر المتوسط ؛ فإذا أحست بخطر من الأخطار ، تسابق لمساعدتها أساطيل البندقية وجنوة وبيزا ، أملا فى أن تكون المدن الصليبية الساحلية تصير للجمهوريات الإيطالية محطات ومستعمرات تجارية ، حيث تطغى المصلحة الاقتصادية على المصالح السياسية والدينية(٤) .

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 122

(٢) Grousset : op. cit' III. p. 122

(٣) Grousset : op. cit. III. p. 122

(٤) Grousset : op. cit. III. p. 124

على أن هذه المزايا لم تخل من عيوب ، فالمستعمرات الصليبية لم تعد سوى مستعمرات أو محلات تجارية ، أو محطات يهبط إليها الحجاج والتجار. ولما لم يكن لمملكة عكا أساس إقليمى ، فلا يصح اعتبارها مملكة ، فليس فى وسعها أن تعتمد على نفسها فى حياتها ومؤونتها ، وبذلك فقدت استقلالها ، وأضحت تعتمد فى حمايتها على الدول الغربية ، التى أدى تدخلها إلى بعثها من جديد . واستندت أيضاً إلى الجمهوريات الإيطالية البحرية ، وإلى أساطيلها وعلاقاتها التجارية ، وأضحت مساعدتها لهذه المملكة من الأهمية ما حمل هذه الجمهوريات على ألا تبخل بها(١) .

على أن عوامل الضعف لم تظهر مباشرة ، فالواقع أن مملكة بيت المقدس حين انبعثت من جديد ، كانت تأمل فى أن ترث المملكة الأولى فى أقاليمها وسلوكها على أن كنراد مونتفرات الذى علق عليه البارونات أملهم لم يلبث أن مات ، غير أن الملك الذى خلفه على العرش ، هنرى شامبانيا ، سار على المبادئ التى وضعها بيت بلدوين وفولك وأملريك(٢) .

---

(١) Grousset : op. cit. III. p. 124

(٢) Grousset : op. cit. III. p. 125

الفصل السادس عشر

أواخر أيام صلاح الدين

توقفت أعمال صلاح الدين الحربية ، بانعقاد الصلح سنة ١١٩٢ ، بعد حرب متصلة استمرت نحو خمس سنوات . فلم يكن للمسلمين قبل معركة حطين فى يوليه ١١٨٧ ، ممتلكات بفلسطين غربى نهر الأردن ، ولما انعقد الصلح فى سبتمبر ١١٩٢ ، صارت كل الأراضى بأيديهم فيما عدا شريط على الساحل يمتد من صور إلى يافا ؛ وما حصل عليه الصليبيون من أملاك يعتبر ضئيل الأهمية بالقياس إلى ما دفعوه من ثمن باهظ ، إذ أن العالم المسيحى نهض للقتال ملبيا دعوة البابا . فالإمبراطور الألمانى ، وملوك إنجلترا وفرنسا وصقلية ، وليوبولد دوق اوستريا (النمسا) ، ودوق برجنديا ، وكونت فلاندر ، ومئات من كبار البارونات والفرسان المشهورين من جميع الأقوام ، انحازوا إلى ملك بيت المقدس والأمراء الصليبيين بفلسطين ، والفرسان الرهبان من الاسبتارية والداوية ، وحاولوا استرجاع بيت المقدس ، وإعادة المملكة اللاتينية بها . مات الإمبراطور الألمانى غرقا بآسيا الصغرى وعاد ملكا إنجلترا وفرنسا إلى بلادهما ، وتوارت أجساد عدد كبير من أتباعهما فى تراب الأرض المقدسة ، غير أن بيت المقدس لا زالت فى حوزة صلاح الدين ، على حين أن ملكها الصليبى اقتصر حكمه على مملكة عكا الهزيلة[1] .

ولم يزعزع قوة صلاح الدين ، ما احتشد فى الحملة الصليبية الثالثة من قوى العالم المسيحى ، وما أظهره عساكر صلاح الدين من القلق والتبرم لبقائهم شهورا عديدة ، يعانون متاعب القتال سنة بعد سنة ، لم يمنعهم من

---

(١) Lane Poole : Saladin p. 358-359

أن يلبوا طلبه عند استدعائهم ، وأن يبذلوا أرواحهم فى سبيل الله ؛ وقد يتذمر أمراؤه وأتباعه بوديان دجلة النائية ، لإلحاحه فى الطلب منهم ، غير أنهم لم يلبثوا أن يهرعوا ، فى إخلاص ، بعساكرهم إلى مساندته ، بل إن عسكر الموصل هو الذى صمد لقتال الفرنج فى وقعة أرسوف[١] . وفى كل حملات صلاح الدين المضنية ، ارتكن أساساً إلى مساعدة العساكر القادمين من مصر والجزيرة ، ومن شمال الشام ووسطه ، فاستجاب لدعوته الأكراد والتركمان والعرب والمصريون . وعلى الرغم من اختلاف عناصرهم ، وما بينهم من أحقاد قومية وعصبية قبلية ، فإن صلاح الدين استطاع أن يجعل منهم جيشاً متحداً ، ومن الطبيعى أن يصادف ، فى بعض الأحوال ، مقاومة من هذه العناصر[٢] .

وعلى الرغم مما حدث فى يافا من اختلاف بين العساكر وفتورهم سنة ١١٩٢ ، مما أدى إلى استرداد رتشرد لها[٣] ؛ فلا زالوا على طاعتهم له مثلما كانوا سنة ١١٨٧ ، فلم يخرج عن ولائه إقليم من الأقاليم ، ولم يشق عصا الطاعة أمير من الأمراء ، على الرغم من أن إلحاحه فى طلب ولائهم ، والبذل فى القتال ، كان كفيلا بأن يزعزع أشد الناس إيمانا ، ويهز أكثرهم قوة واحتمالا . ومن الدليل على قوة سلطان صلاح الدين على رعاياه ، موقفه من المنصور محمد بن تقى الدين ، الذى راسل صلاح الدين يخبره بأنه حل مكان أبيه فيما كان له من البلاد ، وطلب منه شروطاً تتعلق بما يحوزه من البلاد ، فاعتبر صلاح الدين هذا التصرف عصياناً ، وكاد أمر المنصور يضطرب ، فالتمس وساطة عمه العادل عند السلطان فعفا عنه[٤] .

---

(١) Lane Poole : Saladin p. 359

(٢) Lane Poole : op. cit. p. 359

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٠٣ .

ولما انتهت الحرب التى استمرت خمس سنوات ، واقترنت بالمتاعب والتضحيات الجسيمة ، لا زال صلاح الدين يحكم البلاد الممتدة من جبال كردستان إلى صحراء ليبيا ، بل إن الملوك والأمراء المجاورين ، أمثال ملك الكرج ، وجاثليق أرمينيا ، وسلطان قونية ، والإمبراطور البيزنطى حرصوا على التماس صداقته ومحالفته[١] .

وما تردد فى المفاوضات بين صلاح الدين ورتشرد سنة ١١٩٢ ، من أجل الصلح ، والتماسه موافقة صلاح الدين على تنصيب ملك للاتين فى عكا ، مقابل استعداد هذه الملك اللاتينى هنرى شمبانيا لمساندة صلاح الدين ضد سائر الأمراء المسلمين ، والمسير بجنوده وعساكره تحت لوائه ، إلى بلاد الروم ، أو كردستان أو العراق[٢] ، ودلّ هذا العرض من قبل الصليبيين على معرفتهم بأحوال العالم الإسلامى[٣] ، والواقع أن الشرق الإسلامى ، باستثناء أملاك الأيوبيين ، أصابه سنة ١١٩٢ الضعف والتداعى[٤] .

= أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٩٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٣٧٧ – ٣٧٩ .

(١) Lane Poole : Saladin p. 360

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢١٦ .

(٣) Grousset : op. cit. III, p. 111

(٤) ففى أعالى الجزيرة ، فى شمال ماردين ، فقد الأراتقة المتأخرون كل ما كان لهم من سلطان ؛ وكذلك كان شأن الزنكيين فى الموصل . ونشبت الحروب بين شاه أرمن صاحب خلاط والكرج ، ولم يتجاوز سلطان الخلفاء العباسيين العراق العربى وخوزستان . ووقع آخر السلاطين السلاجقة ، طغرل الثانى (١١٧٥ – ١١٩٤) الذى يحكم بالعراق العجمى أسيراً فى يد كزل أرسلان أتابك أذربيجان . ولما أفلت طغرل من قبضة أتابكة أذربيجان ، لم يلبث أن واجه عدوا أشد مراساً : تكش ، شاه خوارزم الذى غزا سنة ١١٩٤ العراق العجمى ، وأنزل الهزيمة بطغرل قرب الرى ، فلقى طغرل مصرعه ، فتحطمت بذلك الإمبراطورية السلجوقية ، وسيطر على أملاكها خوارزم شاه ، وإذ توقع صلاح الدين إحلال خوارزم شاه مكان السلاجقة ، أقام خطته على أن تنضم إلى دولته ما كان بيد السلاجقة من أملاك .
Grousset : op. cit. III, p. 111

وحرص صـلاح الدين على أن يسيطر على البلاد التى كانت بأيدى السلاجقة[١] ، ويشير ابن الأثير إلى أن صلاح الدين اقترح بعد أن عقد الصلح مع الصليبيين أن يمضى فى فتوحه ، فأظهر الاستعداد لأن يمضى لقتال سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، لما اشتهرت بلادهم « بأنها أكثر بلاداً وعسكرا ومالا وأسرع مأخذا ، وهى أيضاً طريق الفرنج إذا خرجوا على البر ، فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيها »[٢] ؛ وفى تلك الأثناء يتوجه ابنه الأفضل وأخوه العادل ، لقتال خلاط (كردستان) ، حتى إذا فرغ صلاح الدين من بلد الروم ، لحق بهما ، فأخضعوا شاه أرمن صاحب خلاط ، وهاجموا أتابكة أذربيجان ، ثم يجرى الاتصال بالإمبراطورية الإيرانية (بلاد العجم) ، فما فيها من يمنع عنها[٣] .

على أن الرسل الذين قدموا من سائر الجهات إلى صلاح الدين لم تنهض لبذل المساعدة بل لتهنئة صلاح الدين . وقام صلاح الدين وحده بأعباء القتال ، ولم يظهر العادل إلا قبيل نهاية القتال ؛ على أن قراراته الحربية لم تصدر إلا بعد استشارة مجلس الحرب ، بل إن هذا المجلس فى بعض الأحوال استطاع أن يفرض قراره على صلاح الدين ، على الرغم من أن خطته كانت الأسلم والأجدر بالإتباع ، مثلما حدث أمام صور ، وعكا . ومع ذلك لم يكن بين أعضاء المجلس من يستطيع أن يفوق غيره فى التأثير على صلاح الدين ، فيشترك فى إصدار القرار ، أخوه وأبناؤه وأبناء أخيه ، ورفاقه القدامى ، وأتباعه الجدد ، والقاضى الفاضل المشهور بالحذق والذكاء ، وكاتبه الحذر ، فضلا عن الفقهاء والعلماء ، وكل هؤلاء

---

(١) انظر الحاشية السابقة .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ٦٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ، ص ٦٢ .

Grousset : op. cit. III, p. 111-112

أخلصوا وتفانوا فى خدمة السلطان ، كل بحسب قدرته وكفايته ، ويذكر كل دائماً منهم أبداً السلطان . والواقع أن العقل المهيمن والمسيطر فى تلك الأوقات الحرجة ، التى اشتد بها العناء والجهد ؛ كان تفكير وإرادة صلاح الدين(١) .

ولما انتهى النضال ، وجرى طرد الصليبيين إلى شاطئ البحر ، وأضحى فى قبضة يد صلاح الدين المواضع المقدسة عند المسلمين والمسيحيين سواء ، يصح أن يراود صلاح الدين الأمل فى اتساع إمبراطوريته وفى مشروعات كبرى ، فما حققه المسلمون الأوائل من انتصارات ، وما قاموا به من مد سلطانهم ، وما حازه السلاجقة أيضاً من أملاك ، كل ذلك يصح أن يثير تفكيره لفتح بلاد جديدة(٢) . غير أن هذا التفكير لم يخرج إلى حيز العمل ، فلم يشأ أن يضطرب ما انقعد من الهدنة ؛ فأول ما وجه إليه صلاح الدين اهتمامه هو أن يهيئ الراحة لعساكره ، فلم تكد معاهدة الصلح تنعقد ، حتى أعطى السلطان الناس إذنا بالعودة إلى بلادهم ، ففى ١٠ ، ١١ سبتمبر شرعت عساكر إربل والموصل وسنجار وحصن كيفا فى المسير ، إلى بلادهم بالجزيرة والهضاب(٣) .

ولم يلبث صلاح الدين أن أعلن عن عزمه على أن يؤدى فريضة الحج ، وطلب إلى العساكر الذين يرغبون فى الحج أن يثبتوا أسماءهم ، حتى يحصر عدة من يصحبه منهم إلى مكة ، وأمر بكتابة قوائم أو جرائد بما يحتاج إليه فى الطريق من الخلع والأزواد ، وسيرها إلى البلاد حتى يتم إعدادها(٤) .

---

(١) Lane Poole : op. cit p. 360

(٢) انظر ما سبق ص ١٠٢٠ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٩ .

وأرسل إلى مصر وإلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن بما عزم عليه[١].

ولما اطمأن صلاح الدين إلى رحيل رتشرد إلى عكا ، توجه إلى القدس فى ١٤ سبتمبر ١١٩٢ ، وأقام به حتى علم بإبحار رتشرد من عكا فى أكتوبر ١١٩٢ وانصرف أثناء هذه الفترة إلى عمارة القدس الشريف ، فاشتغل بتشييد أسواره وتحصينها وتعمير خنادقه[٢] . وأخذ يبذل الإقطاعات ، ويأذن للعساكر بالعودة إلى بلادهم ، ويودع الأمراء والقادة عند رحيلهم إلى أقاليمهم[٣] . وعزم صلاح الدين ، بعد أن يتفقد أملاكه بالشام ، على أن يسير إلى مصر ، للنظر فى أحوالها ومصالحها وتقرير قواعدها[٤] . وما كان من الميل الشديد عند صلاح الدين لتأدية الحج ؛ لم يلبث أن تبدد ، بعد أن نصحه أصحابه والقاضى الفاضل ، بالعدول عن ذلك « لأن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولا سلوا عن القدس ، ولا وثق بعهدهم فى الصلح » ، فيصح أن يغتنموا فرصة مسير السلطان إلى الحجاز ، وعودة العساكر الإسلامية الى مواطنها ، فيفاجئوا القدس بهجوم ، فيدخلوا إليه . يضاف إلى ذلك ما قد يقع بين عسكر صلاح الدين الذى يصحبه فى الحج ، وبين حجاج العراق من قتال ، فيجرى تأويل ذلك بأن السلطان سار لسفك الدم ، وإفساد موسم الحج[٥] . ثم أشار القاضى الفاضل إلى المشاكل الداخلية التى ينبغى علي صلاح الدين أن يسويها ، ومنها سوء معاملة المقطعين بدمشق للفلاحين الذين يعملون بأراضيهم ، والحاجة إلى تحصين الثغور وما يتطلب ذلك من تدبير الأموال اللازمة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٤٠٨ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٣٩ .

ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٤٠٧ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٠ – ٢٤١ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٢ .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٢٠٥ .

للانفاق على عمارتها وتحصينها ، فضلا عن سوء الأحوال المالية[1] . وعندئذ انقطع شوقه عن الحج وكان من أكبر المصالح التى فاتته[2] .

على أنه عزم ، قبل المسير إلى مصر ، على أن يتوجه إلى دمشق ، التى غاب عنها نحو أربع سنوات ، فارتحل من بيت المقدس فى ١٥ أكتوبر ١١٩٢ بعد أن أطمأن إلى أن رتشرد غادر عكا راجعا إلى بلاده ، وقام بالطواف ، لمدة ثلاثة أسابيع (١٥ أكتوبر — ٤ نوفمبر ١١٩٢) بالبلاد التى استولى عليها ، فنزل بنابلس وبيسان ، وسبسطية ، وكوكب ، وطبرية ، وصفد ، وتبنين . وفى كل هذه الجهات أخذ يتفقد الأحوال ، ويستمع إلى شكاوى السكان ، ويأمر بعمارة أسوار القلاع وإصلاح ما بها من خلل[3] .

واستقبل صلاح الدين فى بيروت فى أول نوفمبر بوهمند الثالث أمير أنطاكية ، وبصحبته أربعة عشر بارونا ، فأجزل لهم العطاء ، وأظهر الاهتمام بهم ؛ وخص بوهمند من مناصفات أنطاكية ما مبلغه عشرون ألف دينار ، وجعل لأصحابه الهدايا والمنح ، وأعجبه أنه قدم إليه مباشرة ، دون وساطة هنرى كونت شامبانيا[4] ، فعقد معه الصلح الذى سبق الاتفاق عليه[5] .

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٥ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٢ .

Stevenson : op. cit. p. 287

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٢ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٧ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٩ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٢ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٤٠٩ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

(٥) Grousset : op. cit. III, p. 119-120
Stevenson : op. cit. p. 287

ثم تفقد أحوال القلاع الساحلية بأسرها ، وتقدم بسد خللها ، وإصلاح أمور أجنادها ، وأمر بشحنها بالأجناد والرجال ، وتوجه بعدئذ إلى دمشق فبلغها فى ٤ نوفمبر ١١٩٢ ، وكان دخوله إليها يوماً مشهوداً ، وفرح الناس به فرحاً عظيما ، لطول غيبته ، وذهاب العدو عن بلاد الإسلام[١] . ولا شك أن أموراً كثيرة بدمشق كان لابد للسلطان أن يقوم بها ، فواظب الجلوس فى دار العدل فى الأوقات التى تحدد الجلوس فيها ، وأذن للعساكر فى التفرق إلى بلادهم[٢] ، واستقبل السفراء الذين قدموا من الممالك الشرقية والغربية يخطبون وده ، ويطلبونه ، وينتظرون عزمه ويرقبونه ، وهو يعدهم بانحسار الشتاء[٣] ، وقرب العلماء ، وأكرم الفضلاء ، واحترم المشايخ ، فأقر ما يعتبره حقا وصدقا ، وألغى كل باطل[٤] .

وكان صلاح الدين يحب دمشق ، ويؤثر الإقامة فيها على سائر البلاد[٥] ، فأقام بقلعتها مع أولاده الصغار ، وصار يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون فى أرض دمشق ومواطن الظباء ، وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب ، وسهر الليل ، ونصب النهار ، ونسى عزمه

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٣ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٤٠٩ .
ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ، ص ٥٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٤٠٩ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٧ .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٨ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٣ — ٢٤٥ .

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

على المسير إلى مصر[1] . وتلقى ابن شداد بالقدس ، كتاب فى ٢٩ يناير سنة ١١٩٣ ، يستدعيه فيه للخدمة بدمشق[2] ، التى بلغها فى ١٨ فبراير سنة ١١٩٣ ، وكان الشتاء شديدا ، وتراكمت الأوحال بالطرقات ، وأخذت طلائع الحاج تسلك الطريق إلى دمشق . وشهد ابن شداد اجتماعاته منذ قدومه إلى دمشق ، فحضر اجتماعه برسل الفرنج فى ١٩ فبراير[3] ، وكان آخر ما قام به من الأعمال العامة ، ما حدث من تلقيه الحاج فى ٢٠ فبراير ١١٩٣ (١٥ صفر ٥٨٩) ، فاستعبرت عيناه كيف فاته من الحج ما تمناه ، ففى مساء ذلك اليوم أحسّ بالمرض ، ودهمته الحمى الصفراء ليلا[4] .

وفاة صلاح الدين :

وعلى الرغم من أن صلاح الدين لم يمرض سوى ١٢ يوماً قبل وفاته ، فالواقع أن كل من شاهد صلاح الدين ، ممن يعرفه ، فى أواخر الشتاء أدرك ما أصاب صحته من التداعى والانهيار ، فصار يشكو من التعب والنسيان ، وأخذ المرض يشتد ويتزايد منذ اليوم السادس ، ثم تغيب

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٤ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٨ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٤١٣ – ٤١٤ .

(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٨ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٤ .

(٣) استقبل صلاح الدين رسل الفرنج فى البستان ، وكان وقتذاك يداعب ابنه الصغير أبا بكر ، الذى انزعج لمنظرهم الذى لم يكن مألوفاً له ، لما اشتهروا به من حلق اللحية وقص الشعر وارتداء ثياب غير مألوفة ، فاعتذر صلاح الدين إليهم ، وصرفهم ، ولم يسمع كلامهم . (ابن شداد سيرة صلاح الدين ص ٢٤٥) .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٥ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢١١ – ٢١٢ .

ذهنه ، وحدثت به رعشة ، وامتنع عن تناول المشروب ، واشتد الجزع في دمشق ، وخاف الناس على متاجرهم ، فنقلوا الأقمشة من الأسواق ، وازدادت كآبة الناس وحزنهم[١] .

ودأب ابن شداد والقاضي الفاضل على أن يتوجها كل ليلة لزيارة صلاح الدين ورؤيته ، فإذا لم يستطيعا إلى ذلك سبيلا ، استمعا إلى تقرير الطبيب عن أحواله ؛ فإذا انصرفا ، وجدا الناس يترقبون خروجهما إلى أن يلاقوهما حتى يتعرفوا أحواله من صفحات وجوههما[٢] .

ولما رأى الأفضل ما انتهت إليه حالة والده من السوء ، وتحقق اليأس من شفائه ، وغاب ذهنه ، شرع في تحليف الناس ، واستدعى القضاة في ٢ مارس ١١٩٣ فعملوا له نسخة يمين مختصرة ، تتضمن الحلف للسلطان أثناء حياته ، وللأفضل من بعد وفاته ، واعتذر بأن المرض اشتد بوالده ، وما فعل هذا إلا احتياطا[٣] . وحلف أمراء الشام ومنهم من اشترط أمورا ، كأن يبقى في يده الحصن الذي تولاه ، أو البلد الذي يحكمه ، أو ينال إقطاعا ، أو يسترضيه الأفضل بطريقة من الطرق ، ومنهم من اشترط ألا يشهر الأفضل السلاح في وجه إخوته ،

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢١٢ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٧ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢١٣ .

« ونسخة اليمين المحلوف بها ، مضمونها : إني من وقتي هذا ، صفيت نيتي ، وأخلصت طويتي للملك الناصر مدة حياته ، وإني لا أزال باذلا جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي ، وسيفي ورجالي ، ممتثلا أمره ، واقفاً عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الأفضل علي وورثته . ووالله إنني في طاعته وأذب عن دولته وبلاده ، بنفسي ومالي ورجالي ، وأمتثل أمره ونهيه ، وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ما أقول وكيل » .

انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٩ .

ومنهم من حلف دون قيد أو شرط ، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ولم يتعرض لهم ، وإنما حلف أمراء الشام لإقرار الواقع[١] .

وفى ليلة الأربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩ (٤ مارس ١١٩٣) ، اشتد مرض صلاح الدين وضعفت قوته ، واستدعى الأفضل ، القاض الفاضل ، وابن شداد ، وابن الزكى قاضى دمشق[٢] ، وطلب إليهم أن يبيتوا عنده ، غير أن الخوف من وقوع اضطرابات فى المدينة ، حملهم على أن ينزلوا إلى دورهم على ما ألفوا أن يفعلوه كل يوم . فبات بالقلعة ليلة وفاة صلاح الدين الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسة ، كيما يحضر وفاته ويذكره بالشهادة وذكر الله . فصار يتلو القرآن ، فلما انتهى إلى قوله تعالى « هو الله الذى لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة » ، سمعه وهو يقول « صحيح » ، ولما بلغ قوله تعالى « لا إله إلا هو عليه توكلت » ، تبسم صلاح الدين وتهلل وجهه ، وأسلم روحه إلى ربه ، بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء ، ٢٧ صفر ٥٨٩ (٤ مارس ١١٩٣) ، وكان فى الرابعة والخمسين من عمره[٣] .

ويذكر ابن شداد « كان يوما لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله ، منذ فقدوا الخلفاء الراشدين . وغشى القلعة والبلد والدنيا ، من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى . وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٩ .

(٢) وهو الذى ألقى أول خطبة للجمعة بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس .
انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤٩ .

Stevenson : p, 288

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٥٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٢١٣ .
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ، ص ٤٢٠ .

Lane Poole : Saladin. p. 366. Stevenson : op cit. p. 288.

يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص إلا ذلك اليوم ، فإنى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس . . . كان يوماً عظيما قد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف ، والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره »[1].

وجرى دفن صلاح الدين يوم وفاته قبيل صلاة العصر ، فى الدار التى بالبستان بقلعة دمشق ، والتى كان مريضاً بها ، ودفن معه سيفه الذى لزمه فى الجهاد ، وكان ذلك برأى القاضى الفاضل ، كيما يتوكأ عليه إلى الجنة[2] .

خرج صلاح الدين عن كل ما لديه من المال ، وكل ما أنفق على تجهيزه من المال جرى اقتراضه ، حتى ثمن التبن الذى يلت به الطين اللازم لقبره ، ولم تختلف جنازته عن جنازة سائر الناس ؛ وغطى نعش صلاح الدين ثوب مخطط ، ولم يسمح لأحد من الشعراء أن ينشد فى رثاء صلاح الدين ، بل اقتصر على قراءة القرآن وحديث الفقهاء والعلماء[3] .

على أنه لما حان دفن صلاح الدين ارتفعت الأصوات عند مشاهدة نعشه ، وعظم الضجيج حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتا واحدا . وغشى الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة[4] . وكان الناس شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد ، فما يوجد قلب إلا حزيناً ، ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله[5] . ثم رجع الناس

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٥٠ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢١٣ .
(٢) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢١٥ .
(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٥١ .
(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٥١ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢١٣ .
(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٥١ .

إلى بيوتهم أقبح رجوع . ولزم الناس دورهم ، وما خيم على الشوارع من السكون دلّ على الحزن والأسى الشديد ، فلم يخرج إلا ابن شداد وأهل داره ، فأخذوا يتلون القرآن على قبره ، وأظهروا ما انتابهم من الحزن الشديد[١] . وفى اليوم التالى استمر الحال فى حضور الناس بكرة وعشية ، وقراءة القرآن والدعاء له[٢] . وشاعت الأخبار ببغداد ، بوفاة صلاح الدين[٣] .

وفى الرسالة التى وجهها القاضى الفاضل إلى الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، يعزيه فى والده ، ما يدل على إدراكه لخطورة موقف المسلمين بعد وفاة صلاح الدين ، « فقد زازل المسلمون زلزالا شديدا .. وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة ضعيف القوة ... وبالباب من الجنود المجندة والأسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء ، ولا ملك يرد القضاء ... »[٤] . ومن كلام غيره فى وفاة صلاح الدين « أغمد سيف الله الذى كان على أعدائه دائم التجريد ، وأصبح الإسلام وقد فقد ناصره ثاكلا لوحيد ، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد »[٥] .

ووصف عبد اللطيف البغدادى ، أثناء زيارة بيت المقدس ١١٩٢ ، قبل شهور من وفاة صلاح الدين « رأيت ملكاً عظيما ، يملأ العين روعة ، والقلوب محبة سهلا مجيبا ، وأصحابه يتشبهون به ، يتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى : (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) ، وأول ليلة حضرته ، وجدت مجلساً حفلا بأهل العلم يتذاكرون فى أصناف العلوم ، وهو يحسن

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٥١
(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٥١
(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٢١٤ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٥١٩ - ٥٢٠ .
(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٢١٥ .

الاجتماع والمشاركة . وكان وقتذاك مهتما فى بناء سور القدس ، وحفر خندقه ، يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الأحجار على عاتقه ، ويتأسى به جميع الناس ، الفقهاء والأغنياء والأقوياء والضعفاء »[١] . ولما مات صلاح الدين « وجد الناس عليه ، شبيها بما يجدونه على الأنبياء ، وما رأيت ملكا حزن الناس بموته سواه ، لأنه كان محبوبا ، يحبه البر والفاجر »[٢] . والواقع أن السر فى قوة صلاح الدين نلمسه أساساً فى محبة الناس له ، فما سعى غيره من الناس للحصول عليه ، بما سلكوه من أساليب التخويف ، والقسوة والتعالى ، أحرزه صلاح الدين بالمحبة والتعاطف . وكشف عن مصدر قوته فى حديثه إلى الظاهر ، أعز أولاده إليه ، حينما أذن له ، قبل وفاته ، بالرحيل إلى مقر حكمه بحلب ثم قال له ، فى حضور ابن شداد « أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به ، فإنه سبب نجاتك . وأحذرك من الدماء والدخول فيها ، والتقلد بها ، فإن الدم لا ينام . وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس . ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد . واحذر ما بينك وبين الناس ، فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله ، يغفره الله ، بتوبتك إليه فإنه كريم »[٣] .

اشتهر صلاح الدين بالتقوى والورع ، يؤدى الصلاة فى أوقاتها ، ويواظب على الصوم ، شديد الرغبة فى سماع الحديث ، ويشاركه فى ذلك أولاده ومماليكه ، يعتمد على الله فى تصرفاته وأعماله ، فحين نزل

---

(١) البغدادى : كتاب الإفادة والاعتبار ص ١٠ .

(٢) البغدادى : كتاب الإفادة والاعتبار ص ١١

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤١

الصليبيون فى بيت نوبة قاصدين الصعود إلى القدس ، واشتد خوف المسلمين ، وأدرك صلاح الدين تردد الأمراء ، وضعف عزيمتهم ، صلى بالمسجد الأقصى ، وصار يدعو الله فى سجوده « إلهى قد انقطعت أسبابى الأرضية فى نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك ، والاعتصام بحبلك ، والاعتماد على فضلك ، أنت حسبى ونعم الوكيل »[١] .

ومن صفات صلاح الدين ، شدة البأس وقوة المراس ، لم يكترث بقوة العدو وعدته . وإذا اشتد القتال أخذ يطوف بين الصفوف ، ولم يزل مصابرا للعدو ، وهم فى العدة الوافرة ، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالحهم[٢] .

وبلغ من حبه للجهاد ، أنه لم يكن له حديث إلا فيه ، ولا اهتمام إلا برجاله ؛ وفى سبيل الله هجر صلاح الدين أهله ووطنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة ، وكل من أراد أن يتقرب إليه ، يحثه على الجهاد . وجمع له ابن شداد كتابا ضمنه آداب الجهاد ، ورد فيه الكثير من الآيات والأحاديث . ومن أكبر أمنيات صلاح الدين التى صرح بها إلى ابن شداد سنة ١١٨٨ ، بعد سقوط بيت المقدس « أنه متى ما يسر الله تعالى فتح الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت ،وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائره ، واتبعتهم (الفرنج) فيه حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت »[٣] .

كان صلاح الدين كثير المروءة ، عظيم السخاء ، مبسوط الوجه ، لمن يقصده من الضيوف ، لايرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ،

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧ — ١٠ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٥ — ١٦ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٧ .

ويكرم الوافد عليه وإن كان كافراً . ولما كان ببيروت بعد إبرام الصلح سنة ١١٩٣ ، وصل إلى خدمته بوهمند صاحب أنطاكية ، فأكرمه وأجزل له ولمن معه من البارونات العطاء . وعلى الرغم من العداء بين الصليبيين والمسلمين ، لم يتردد صلاح الدين فى أن يمد رتشرد فى أثناء مرضه بما احتاج إليه من الفاكهة والعلاج[1] .

وما أحرزه صلاح الدين من نجاح ملموس ، لا يرجع فحسب إلى ما امتاز به من صفات عسكرية عالية ، بل يرجع أيضاً إلى ما اشتهر به من صفات خلقية عظيمة . إذ جعل نصب عينيه مبدأ لا يحيد عنه ، وقد التزم به ، وفى سبيله خاض معارك حربية عديدة . فكانت أعماله الحربية حتى سنة ١١٨٦ ، موجهة إلى أن يخضع لإرادته نظام الإقطاع الحربى السائد وقتذاك ، ويحوله إلى أداة طيعة لتحقيق أغراضه التى تتمثل فى توحيد القوى الإسلامية وجمعها على غرض واحد ، بعد أن يهبها قدرا من صلابته وبصيرته ، وهو القضاء على قوة الصليبيين ، واستخلاص البلاد من أيديهم . وما اشتهر به من الكياسة والقدرة على الوفاق والوئام ، أفاده فى استمالة الأمراء والقادة إلى جانبه . على أنه متى صادف من الأمراء من العناد والمقاومة لخططه ومشروعاته ، لم يتردد فى أن يبذل من التضحيات ، ما يؤدى إلى تسوية سليمة[2] .

والتزم فى حياته البساطة والجد والاجتهاد والتقشف والزهد ، فحينما أقاموا له بدمشق دارا جميلة ، لم يجذب ذلك انتباهه ، وأشار إلى أننا لسنا مخلدين فى هذه الحياة ، وليست هذه الدار تليق برجل يتطلع دائماً

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين جـ ٢ ، ص ٢٠٧ .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٤
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) Stevenson : op. cit. p. 207.

إلى الموت ، وليس له من رغبة إلا الجهاد فى سبيل الله ، فأنكر كل ما يتعلق بالترف واللهو[١] .

وتجاوز صلاح الدين الحدود فى السخاء والكرم ، ولما مات لم يوجد فى خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية ، ومن الذهب إلا جرم واحد صورى لم يعرف وزنه . وكان يهب الأقاليم ، فلما فتح آمد وطلبها منه ابن قره أرسلان أعطاه إياها . وكان يعطى الكثير ، ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً ، بل كان يعطى ويكرم أكثر مما يعطى ، وعرف الناس فيه هذه الصفة فكانوا يستزيدونه فى كل وقت ، وبلغ عدد ما وهبه من الخيل بمرج عكا عشرة آلاف فرس[٢] .

كان طاهر المجلس واللسان ، لا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير ، وكان حسن العهد والوفاء ، فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفيه وجبر قلبه وأعطاه ، واختار له من بين أهله من يثق فى أمانته فسلمه له ، ليعتنى بتربيته وكفلها[٣] . وشغف بأولاده الصغار ، وصحبوه فى المعارك ، وحرص على ألا يجعلهم يشهدون سفك الدماء ، « حتى لا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ، ويهون عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر »[٤] .

وجمع له الشيخ قطب الدين النيسابورى موجزاً ينطوى على كل ما يحتاج إليه فى الفقه ، وكان من شدة حرصه عليه ، يعلمه الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم فى الصغر ، ودأب على أن يستمع إليهم وهم يلقونها

---

(١) Lane Poole : Saladin p. 369-370

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٣ – ١٤

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٨

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٤٢

من حفظهم بين يديه[١] . وحرص أيضاً على سماع الحديث ، على ذوى الشهرة والمكانة العلمية ، وكان يشاركه فى السماع أولاده ومماليكه المختصون به[٢] .

وأكثر من كل ذلك ، ما اشتهر به صلاح الدين من الإيمان وحسن العقيدة ، كما كان شديد التمسك بالمذهب السنى ، يكره الفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة ، وأمر بقتل الفيلسوف السهروردى ، باعتباره معانداً للشرائع متهرطقا[٣] . فالإسلام عنده ، وفى جوهره ، يدعو إلى السماحة والبساطة والتضحية . وعلى الرغم من أن الصوم لا يوافق مزاجه ، بإشارة الطبيب ، فإن صلاح الدين واظب على الصوم ، واستطاع أن يقضى فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن صومهما . ولم يمنعه المرض عن أداء الصلاة جماعة ، ولم يترك الصلاة إلا فى الأيام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه فى مرضه الذى مات فيه[٤] .

وكان صلاح الدين يحب سماع القرآن الكريم ، ويستجيد إمامه ، ويشترط فيه أن يكون عالما بعلم القرآن ، متقنا لحفظه . وإذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عيناه فى معظم أوقاته[٥] .

واشتد تأثر صلاح الدين لامرأة من الفرنج ، افتقدت ابنتها فدمعت عيناه وحركته مروءته ، واستطاع أن يردها إليها بعد أن اشتراها من آسرها[٦] .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٥ — ٦ .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧ .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٨ .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦ .

(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ٧ .

(٦) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٦ .

ولم يزل صلاح الدين عازما على الحج وناويا له ، لا سيما فى العام الذى توفى فيه فأمر بالتأهب والتجهز للمسير إلى الحجاز ، غير أنه حدث من الأحوال ما جعله يرجئ ذلك إلى العام التالى ، فقضى الله ما قضى ، ولم تتحقق رغبته . ومع ذلك كان آخر عمل قام به ، أنه استقبل الحاج عند القدوم من مكة ، ومن مآثره على الحجاج أنه ألغى ماكان يجبى عليهم من المكوس(١) .

وأفاد الصليبيون مما اشتهر به صلاح الدين من مبادئ الشرف والمروءة والسخاء والبذل والوفاء بالوعد والتقوى ، بأن خرجوا من البلاد والحصون التى أذعنت لصلاح الدين ، ولجأوا آمنين إلى صور ، وتعرض صلاح الدين بذلك للوم(٢) .

والواقع أن الذين وجهوا له اللوم ، لم يجعلوا فى تقديرهم ما يحدث عند قدوم الحملة الصليبية الثالثة ، فوجد الصليبيون أن صلاح الدين لا زال مشتبكا فى القتال للاستيلاء على الحصون والمواقع الداخلية ، دون أن يتوافر له من الحرية ما يطلق حركاته ، ودون أن يكون ثمة ما يؤمن به مؤخرة جيشه . على أن السبب فى عدم استيلاء صلاح الدين على صور يرجع أولا إلى مصادفة قدوم كنراد مونتفرات إليها ، ويرجع ثانيا إلى قلق الجند المشارقة وتمردهم . وهذا السبب يظهر فى وضوح العيوب التى اتصفت بها العساكر التى واجه بها صلاح الدين الصليبيين القادمين من الغرب . والمعروف أن صلاح الدين ركز خطته منذ البداية على الحرب الهجومية ، ولتحقيق هذه الخطة أعد الجيوش ، وتحققت هذه الخطة إلى حد كبير . وعلى الرغم من أن أمراءه وعساكره ، لم يستمروا فى قتال

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٧ .

Lane Poole : Saladin p. 373

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٣٥ - ١٣٦

الصليبين فى صور وأنطاكيه ١١٨٨ ، فإنه كان يرجو أن يصلح ما ظهر من هذه العيوب فى حملاته التالية[١] .

غير أن المفاجأة لم تلبث أن حدثت بوصول طلائع الحملة الصليبية الثالثة ، إلى عكا فى أغسطس سنة ١١٨٩ ، فمنذ هذه اللحظة تغيرت خطة صلاح الدين ، وواجهته تجربة بالغة العنف ، لم يتعرض لها قائد إسلامى منذ قرون عديدة ، ذلك أنه تحتم عليه أن يبقى مع عساكره فى عمليات حربية مستمرة ثلاث سنوات ، وفى أحوال غير ملائمة . ولو أن صلاح الدين كان من القادة العاديين لما قام بهذا العمل ؛ إذ التزم بأن يحارب فى جبهتين ضد الصليبيين ، وضد الجيوش الإقطاعية التى اشتهرت بالقلق والاضطراب فأرغموه على رفع الحصار عن صور بعد أن كادت تستسلم وتعللوا « بكثرة الجراح وقلة العلوفات »[٢] . ولما اشتد القتال على عكا ، تركز هجوم الصليبيين على الديار بكرية ، وكانت بهم غرة عن الحرب فانهزموا[٣] .

وسبقت الإشارة إلى ما كان من اختلاف قادة صلاح الدين بالقدس ، والنزاع بين الأكراد والترك . وأشار صلاح الدين إلى الأسباب التى دعته إلى قبول الصلح ، فمنها ازدياد قوة العدو ، وتوقعه حدوث الخلاف بعد وفاته بين أهل بيته ، وانصرافهم عن الاهتمام بالمصلحة العامة للمسلمين ، على أنه بفضل قوة شخصيته ، والحماس الدينى المتأجج فى صدره ، وما اشتهر به من المثابرة والصبر أثار المقاومة العنيفة التى أرهقت الأعداء ، وبددت جهودهم ، وجعلتهم ينزلون على ما فرضه من شروط الصلح .

---

(١) Gibb : The Rise of Saladin. p. 588

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢٥٧ .
أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٤٤ — ١٤٥

اشتهر صلاح الدين بالإدراك السليم والحكم السديد ، والقدرة على اختيار مستشاريه ، والاستماع إليهم والأخذ بآرائهم ، لا يقدم على عمل إلا بعد تفكير وتدبير ، فإذا قام به ، ظهر أثر مواهبه وقدرته . فلم يعلن سقوط الدولة الفاطمية ، إلا بعد أن مهد لذلك بما قام به من أعمال ، ولم ينشب القتال ضد بيت المقدس إلا بعد أن أعد لذلك عدته ، فتغلب على المشكلات التى واجهته فى مصر والشام ، ووحد القوى الإسلامية[1] .

ويشير المؤرخون إلى أن عهد صلاح الدين لم يكن إلا امتداد لما كان معروفا قبله من التقاليد ، ومحاكاة لما استقر من النظم فى جهات أخرى إذ أن صلاح الدين أدخل بمصر من طرق الحكم ما تلقاه بالموصل ودمشق . والمعروف أن أباه أيوبا شغل بعض الوظائف السلجوقية قبل أن ينتقل إلى خدمة الزنكيين ، كما أن الشرق الأوسط تأثر إلى حد كبير أو صغير فى هذه المرحلة من التاريخ بهذه الأسرة السلجوقية ، التى اشتهرت بدفاعها عن المذهب السنى ، بما شنته من الحروب ، وبما أنشأته من نظم حربية واقتصادية ، وما لجأت إليه من إنشاء المدارس . والراجح أن صلاح الدين درس فى شبابه وانتهج ما جاء فى كتاب جرى تأليفه بناء على رغبته ، واشتمل « على طريق من الحكمة ، وأصول من السياسة ، وتدبير الرعية ، ومعرفة المملكة ، وما يلزم الجيش من حقوق الجهاد »[2] . ونبه صاحب الكتاب على الصفات الكريمة التى يشتهر بها الأمير ، وأشار فيه إلى فضل المشورة ، وأهمية مصابرة الأعداء وسياسة الجيش . وهذا الكتاب هو المعروف بالمنهج المسلوك فى سياسة الملوك الذى ألفه عبد الرحمن ابن عبد الله الشيزرى . على أن صلاح الدين لم يكن ، فيما يبدو ، يجهل

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٠٣ .

(٢) الشيزرى : المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ص ٣ - ٤

فى صباه أمر الوصية السياسية التى وضعها الوزير السلجوقى نظام الملك ، وهى المعروفة باسم سياستنامه[١] .

وعهد صلاح الدين يمتاز بالفطانة وحسن التدبير ويدل صراحة على الحافز النبيل الذى ساير أعماله طوال حياته . أما القول بأن صلاح الدين دفعه طموحه الشخصى إلى توسيع ممتلكاته على حساب إخوانه فى الدين ، فينقضه ما قام به من أعمال ؛ وما تعرض له من سوء تصرف بعض الأمراء المسلمين ، مما يقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق غرضه الأصلى ، وهو توحيد القيادة ثم مهاجمة الصليبيين . فأعداء صلاح الدين من المسلمين هم الذين استنجدوا بأمير الموصل والإسماعيلية وكونت طرابلس . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الزنكيين هم الذين هادنوا العدو ، وأنهم أطلقوا مقابل فدية كبيرة سنة ١١٧٦ ، سراح كونت طرابلس ، وكذلك جوسلين صاحب الرها ، وريجنالد شاتيون الذى كان عدوا لدوداً لصلاح الدين[٢] .

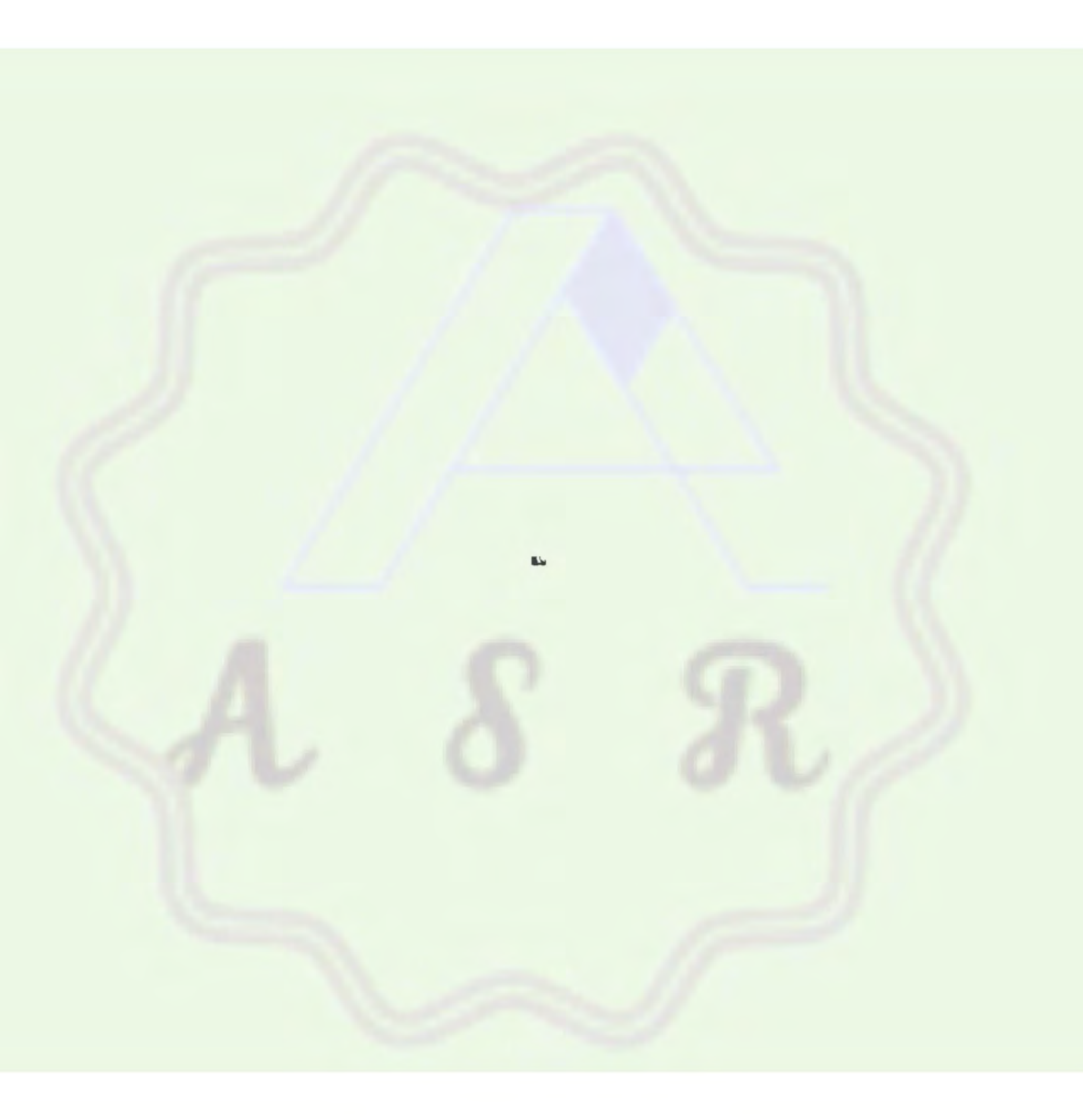
وترجمة حياة صلاح الدين دونها اثنان من معاصريه ، يعتبران بسبب اتصالهما بخدمته ، مؤرخين خاصين به ، فأحدهما ، وهو العماد الأصفهانى ، كتب فى لغة أدبية تاريخ فتح الشام وفلسطين ، وهو الكتاب المعروف بالفتح القسى فى الفتح القدسى ، وسجل فيه أعمال صلاح الدين وحروبه منذ الاستيلاء على بيت المقدس سنة ١١٨٧ حتى وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣ ، والتزم العماد فى كتابته ، السجع والتزويق فغلبت الصورة الأدبية على كتابته ، أما كتابه البرق الشامى ، فلم يعرف منه إلا جزءان فى مكتبة البودليان بأكسفورد ، لم يجر حتى الآن نشرها ، فضلا عن

---

(١) Wiet : L'Egypte Arabe p. 330

(٢) Wiet : op cit p. 331


A S R




A S R

